الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

المجلد الثالث

ثلاثة أجزاء

(من سورة مريم إلى سورة فاطر)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2024

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء السابع

(مريم – طه – الأنبياء – الحجّ – المؤمنون)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2024

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنّة: سورة مريم. ورويت هذه التسمية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الطبراني والديلمي، وابن منده، وأبو نعيم، وأبو أحمد الحاكم: عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جدّه أبي مريم قال :" أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إنّه ولدت لي الليلة جارية، فقال: والليلة أنزلت عليّ سورة مريم فسمِّها مريم " . فكان يكنّى أبا مريم، واشتهر بكنيته. واسمه نذير، ويظهر أنّه أنصاري. وليس أبو مريم هذا معدودا في المسلمين الأوّلين فلا أحسب الحديث المروي عنه مقبولا.

وابن عباس سمّاها سورة (كهيعص) ، وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحّها. ولم يعدّها جلال الدين في الإتقان في عداد السور المسمّاة باسمين ولعلّه لم ير الثاني اسما.

وهي مكّيّة عند الجمهور. وعن مقاتل: أنّ آية السجدة مدنية. ولا يستقيم هذا القول لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلّا أن تكون ألحقت بها في النزول، وهو بعيد.

وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه. وكان نزول سورة طه قبل إسلام عمر بن الخطاب كما يُؤخذ من قصّة إسلامه، فيكون نزول هذه السورة أثناء سنة أربع من البعثة مع أنّ السورة مكّيّة.

ووجه التسمية أنّها بسطت فيها قصّة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصّل في غيرها.

ولا يشبهها في ذلك إلّا سورة آل عمران التي نزلت في المدينة.

وعُدّت آياتها في عدد أهل المدينة ومكّة تسعا وتسعين. وفي عدد أهل الشام والكوفة ثمانا وتسعين.

أغراض السورة

ويظهر أنّ هذه السورة نزلت للردّ على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقداستهم في الخير.

ثمّ التنويه بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم.

والإنحاء على بعض خلفهم من ذرّيّاتهم الذين لم يكونوا على سننهم في الخير، من أهل الكتاب والمشركين وأتوا بفاحش من القول إذ نسبوا لله ولدا، وأنكر المشركون منهم البعث وأثبت النصارى ولدا لله تعالى.

والتنويه بشأن القرآن في تبشيره ونذارته. وأنّ الله يسّره بكونه عربيا ليسر تلك اللغة.

والإنذار ممّا حلّ بالمكذّبين من الأمم من الاستئصال.

واشتملت على كرامة زكرياء إذ أجاب الله دعاءه فرزقه ولدا على الكبر وعقر امرأته.

وكرامة مريم بخارق العادة في حملها وقداسة ولدها، وهو إرهاص لنبوءة عيسى عليه السلام، ومثله كلامه في المهد.

والتنويه بإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وإسماعيل، وإدريس عليهم السلام.

ووصف الجنّة وأهلها.

وحكاية إنكار المشركين البعث بمقالة أُبيّ بن خلف والعاصي ابن وائل وتبجّحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم.

وإنذار المشركين أنّ أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتّخاذها.

ووعد الرسول النصر على أعدائه.

وذكر ضرب من كفرهم بنسبة الولد لله تعالى.

والتنويه بالقرآن، وأنّه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم.

وقد تكرّر في هذه السورة صفة الرحمان ست عشرة مرّة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأنّ من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمان. والردّ على المشركين الذين تقعّروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

ووقع في هذه السورة استطراد بآية { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ ربّك } [64].

{ **كهيعص** } [1].

حروف هجاء مرسومة بمسمّياتها ومقروءة بأسمائها فكأنّها كتبت لمن يتهجّاها. وقد تقدّم القول في مجموع نظائرها. وفي المختار من الأقوال منها في سورة البقرة، وكذلك موقعها من الكلام.

والأصل في النطق بهذه الحروف أن يكون كلّ حرف منها موقوفا عليه، لأنّ الأصل فيها أنّها تعداد حروف مستقلة أو مختزلة من كلمات. وقرأ الجمهور جميع أسماء هذه الحروف الخمسة بإخلاص الحركات والسكون بإسكان أواخر أسمائها.

{ **ذِكْرُ رَحْمَتِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** [2] **إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً** [3] }.

افتتاح كلام، فيتعيّن أنّ { ذِكْرُ } خبر مبتدأ محذوف. والتقدير: هذا ذكر رحمة ربّك عبده. وهو بمعنى: اذكر.

وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، وأصل الكلام: ذكر عبدنا زكرياء إذ نادى ربّه.

{ **رَحْمَتِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** } في تقديم الخبر اهتمام بهذه المنقبة له، والإنباء بأنّ الله يرحم من التجأ إليه، مع ما في إضافة { رَبِّ } إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم وإلى ضمير زكرياء من التنويه بهما.

وافتتحت قصّة مريم وعيسى بما يتّصل بها من شؤون آل بيت مريم وكافلها لأنّ في تلك الأحوال كلّها تذكيرا برحمة الله تعالى وكرامته لأوليائه.

والمراد بالرحمة: استجابة دعائه، كما سيصرّح به بقوله { يَا زكرياء إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى }، وإنّما حكي في الآية وصف دعاء زكرياء كما وقع.

{ **زَكَرِيَّا** } وزكرياء نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو زكرياء الثاني زوجُ خالة مريم، وليس له كتاب في أسفار التوراة، وأمّا الذي له كتاب فهو (زكرياء ابن برخيا) الذي كان موجودا في القرن السادس قبل المسيح.

وقد مضت ترجمة زكرياء الثاني في سورة آل عمران ومضت قصّة دعائه هنالك.

{ **إِذْ نَادَى رَبَّهُ** } ظرف لـ { رَحْمَتِ } أي رحمة الله إيّاه في ذلك الوقت، أو بدل من {ذِكْرُ}.

النداء: أصله رفع الصوت بطلب الإقبال. وتقدّم عند قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } [آل عمران:193] وقوله { وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أورثتموها } [الأعراف:43]. ويطلق النداء كثيرا على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلام، فلذلك سمّيت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال حروف النداء. ويطلق على الدعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء، لأنّ شأن الدعاء في المتعارف أن يكون جهرا، أي تضرّعا، لأنّه أوقع في نفس المدعو.

{ **نِدَاءً خَفِيّاً** } أي بصوت خفيّ. وإنّما كان خفيّا لأنّ زكرياء رأى أنّه أَدْخل في الإخلاص، مع رجائه أنّ الله يجيب دعوته، لئلّا تكون استجابته ممّا يتحدّث به الناس. فلذلك لم يدعه تضرّعا، وإن كان التضرّع أعون على صدق التوجه غالبا. فلعلّ يقين زكرياء كاف في تقوية التوجّه.

ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفيّا، لأنّه نداء من يسمع الخفاء.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً [4] وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً [5] يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً [6]** }.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** } مبيّنة لجملة { نَادَى رَبَّهُ } وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء، وهو قوله { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً } وإنّما كان ذلك تمهيدا لما يتضمّنه من اضطراره لسؤال الولد. والله يجيب المضطرّ إذا دعاه. فليس سؤاله الولد سؤال توسعة لمجرّد تمتّع أو فخر.

الوهن: الضعف. وإسناده إلى العظم دون غيره ممّا شمله الوهن في جسده لأنّه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه، لأنّ العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلّا وقد بلغ ما فوقه.

{ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** } وشبّه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم، تشبيها مركّبا تمثيليا قابلا لاعتبار التفريق في التشبيه. وهو أبدع أنواع المركّب. فشبّه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار، على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل {اشْتَعَل }.

وعموم الشيب في الرأس أمارة التوغّل في كبر السنّ. وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي.

وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس.

الشيب: بياض الشعر. ويعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السن غالبا، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يَبْيَض الشعر من مرض.

{ **وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً** } معترضة بين الجمل التمهيدية. والباء للمصاحبة.

الشقيّ: الذي أصابته الشقوة، وهي ضدّ السعادة، أي هي الحرمان من المأمول وضلال السعي. وأطلق نفي الشقاوة والمراد حصول ضدّها وهو السعادة على طريق الكناية، إذ لا واسطة بينهما عرفا.

ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجري المثل في حصول السعادة من شيء. ونظيره قوله تعالى في هذه السورة في قصّة إبراهيم { عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً } [48]. وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه في شأن الذين يذكون الله ومن جالسهم:"هم الجلساء لا يشقي بهم جليسهم".

والمعنى: لم أكن فيما دعوتك من قبل مردود الدعوة منك، أي أنّه قد عهد من الله الاستجابة كلّما دعاه.
وهذا تمهيد للإجابة من طريق غير طريق التمهيد الذي في الجمل المصاحبة له، بل طريق الحثّ على استمرار جميل صنع الله معه، وتوسّلٌ إليه بما سلف له معه من الاستجابة.
روي أنّ محتاجا سأل حاتمًا الطائي أو معنَ بن زائدة قائلا: أنا الذي أحسنت إلي يوم كذا فقال: مرحبا بمن توسّل بنا إلينا.
{ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي** }، أي قاربت الوفاة وخفت الموالي من بعدي.
الموالي: العصبة وأقرب القرابة، جمع مولى بمعنى الولي.
{ **مِنْ وَرَائِي** } من بعدي، فإن الوراء يطلق ويراد به ما بعد الشيء. أي من بعد حياتي.
{ **امْرَأَتِي** } وامرأة زكرياء اسمها (**إليصابات**) من نسل هارون أخي موسى فهي من سبط لاوي.
العاقر: الأنثى التي لا تلد، فهو وصف خاص بالمرأة، ولذلك جرّد من علامة التأنيث إذ لا لبس. ومصدره العَقر (بفتح العين وضمها مع سكون القاف).
{ **مِنْ لَدُنْكَ** } لأنّ المتكلّم يعلم أنّ كل شيء من عند الله، بتقديره وخلقه الأسباب ومسبباتها تبعا لخلقها، فلمّا قال { مِنْ لَدُنْكَ } دلّ على أنّه سأل كرامة، لانعدام الأسباب المعتادة.
{ **يَرِثُنِي** } يعني به وراثة ماله. ويؤيده ما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبي صالح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرسلا أنّه قال: " يرحم الله زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله".
أو لعلّه خشي سوء معرفتهم بما يخلّفه من الآثار الدينية والعلمية، فإنّ نفوس الأنبياء لا تطمح إلّا لمعالي الأمور ومصالح الدين، وما سوى ذلك فهو تبع.
والظواهر تؤذن بأنّ الأنبياء كانوا يورِّثون، قال تعالى { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ}. وأمّا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " نحن معشر الأنبياء لا نورِّث ما تركنا صدقة "، فإنّما يريد به رسول الله نفسه، كما حمله عليه عمر في حديثه مع العباس وعليّ في صحيح البخاري، إذ قال عمر: يريد رسول الله بذلك نفسه. فيكون ذلك من خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم. فإن كان ذلك حكما سابقا كان مراد زكرياء إرث آثار النبوّة خاصة، من الكتب المقدّسة وتقاييده عليها.
{ **وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** } يجوز أن يراد بهم خاصة بني إسرائيل كما يقتضيه لفظ { آلِ } المشعر بالفضيلة والشرف، فيكون يعقوب هو إسرائيل، كأنّه قال: ويرث من آل إسرائيل، أي حملة الشريعة وأحبار اليهوديّة كقوله تعالى { فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } [النساء: 54]، وإنّما يذكر آل الرجل في مثل هذا السياق إذا كانوا على سنّته.

ويجوز أن يراد يعقوب آخر غير إسرائيل. وهو (يعقوب بن ماثان)، قاله: معقل والكلبي. وهو عم مريم أخو عمران أبيها. وقيل: هو أخو زكريا، أي ليس له أولاد، فيكون ابن زكرياء وارثا ليعقوب لأنّه ابن أخيه.

{ يَا زكرياء إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً [7] قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً [8] }.

مقول قول محذوف دلّ عليه السياق عقب الدعاء إيجازا....

التبشير: الوعد بالعطاء. وفي الحديث أنه قال للأنصار: " فأبشروا وأمّلوا". وفي حديث وفد بني تميم:" اقبلوا البشرى" ، فقالوا بشرّتنا فأعطيتنا.

{ **اسْمُهُ يَحْيَى** } سميه يحيى، خبر مستعمل في الأمر.

{ **سَمِيّاً** } السَّمِيُّ فسّروه بالموافق في الاسم، أي لم نجعل له من يوافقه في هذا الاسم من قبل وجوده.

وهذه منّة من الله وإكرام لزكريا إذا جعل اسم ابنه مبتكرا. وللأسماء المبتكرة مزيّة قوّة تعريف المسمَّى لقلّة الاشتراك. وله مزيّة اقتداء النّاس به من بعد حين يسمّون أبناءهم ذلك الاسم، تيمّنا واستجادة.

وعندي: أن السميّ هنا هو الموافق في الاسم الوصفي بإطلاق الاسم على الوصف، كما في قوله { لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى } [النجم: 27]، أي يصفونهم أنهم إناث. والمعنى: أنهّ لم يجيء قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى، فإنّه أعطي النبوءة وهو صبي، قال تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } [12].

وجُعل حصورا ليكون غير مشقوق عليه في عصمته عن الحرام، وولد لأبيه بعد الشيخوخة ولأمه بعد العقر. وبعث مبشرا برسالة عيسى عليه السلام، ولم يكن هو رسولا، وجعل اسمه العلم مبتكرا غير سابق من قلبه. وهذه مزايا وفضائل وهبت له ولأبيه، وهي لا تقتضي أنه أفضل الأنبياء لأن الأفضلية تكون بمجموع فضائل لا ببعضها وإن جلَّت، ولذلك قيل المزيّة لا تقتضي الأفضلية، وهي كلمة صدق.

{ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ** } جواب للبشارة. و{ أَنَّى } استفهام مستعمل في التعجّب. والتعجّب مكنّى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنّها عطية عزيزة غير مألوفة، لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولدا ثمّ يتعجب من استجابة الله له. ويجوز أن يكون قد ظنّ الله يهب له ولدا من امرأة أخرى بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر، وتقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران.

{ **وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً** } وهو يقتضي أنّ زكرياء كان يظنّ أنّ عدم الولادة بسبب عقر امرأته، وكان النّاس يحسبون ذلك إذا لم يكن بالرجل عنة ولا خصاء ولا اعتراض، لأنهم يحسبون الإنعاض والإنزال هما سبب الحمل إن لم تكن بالمرأة عاهة العقر.

{ **وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً** } مجاز في معنى التعليل.

الكبر: كثرة سني العمر. لأنّه يقارنه ظهور قلة النشاط واختلال نظام الجسم.
البلوغ: مجاز في حلول الإبّان. وجعل نفسه هنا بالغا الكبر، وفي آية آل عمران قال {وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ}[40]
{ **عِتِيّاً** } والعُتيّ (بضم العين) في قراءة الجمهور: مصدر (عَتَا) العود إذا يبس.
شبّه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة السكنية، وإثبات وصف العتي لها استعارة تخييلية.

{ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [9]

جواب عن تعجّبه. والمقصود منه إبطال التعجّب. وضمير{ قال} عائد إلى الربّ.
{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى قول زكرياء { وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً }، أي كذلك الحال من كبرك وعقر امرأتك قدّر ربّك، ففعل { **قَالَ رَبُّكَ** } مراد به القول التكويني، أي التقديري، أي تعلّق الإرادة والقدرة. والمقصود من تقديره التمهيد لإبطال التعجّب.
ويجوز أن يكون المشار إليه بقول { كَذَلِكَ } هو القول المأخوذ من { قَالَ رَبُّكَ } ، أي أنّ قول ربك { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } بلغ غاية الوضوح في بابه بحيث لا يبين بأكثر ممّا علمت، فيكون جاريا على طريقة التشبيه كقوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة:143].
{ **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** } استئناف بياني جوابا لسؤال ناشئ عن قوله { كَذَلِكَ }. وعلى الاحتمال الثاني، جملة { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } تعليل لإبطال التعجّب إبطالا مستفادا من قوله { كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ }.
الهيّن (بتشديد الياء): السهل حصوله.
{ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ** } على الاحتمالين هي في موضع الحال. أي إيجاد الغلام لك هيّن عليّ في حال كوني قد خلقتك ولم تكن موجودا، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة، كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة، إذ هما إيجاد بعد عدم.
{ **وَلَمْ تَكُ شَيْئاً** } لم تكن موجودا.
وقرأ الجمهور{ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ } بتاء المتكلم. وقرأه حمزة والكسائي وخلف { وقد خلقناك} بنون العظمة.

{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً [10] }.

أراد نصب علامة على وقوع الحمل بالغلام، لأنّ البشارة لم تعيّن زمنا، وقد يتأخر الموعود به لحكمة، فأراد زكرياء أن يعلم وقت الموعود به. وفي هذا الاستعجال تعريض بطلب المبادرة به.

{ **آيَتُكَ** } أي آية لك، أي جعلنا علامة لك.

{ **أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ** } أن لا تقدر على الكلام، لأنّ ذلك هو المناسب لكونه آية من قبل الله تعالى. وليس المراد نهيه عن كلام النّاس، وقد قدّمنا تحقيق ذلك في سورة آل عمران.

{ **ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً** } جُعلت مدّة انتفاء تكليمه النّاس هنا ثلاث ليال، وجُعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام فعلم أنّ المراد هنا ليال بأيامها، وأنّ المراد في آل عمران أيام بلياليها.

{ **سَوِيّاً** } أكّد ذلك بوصفها، أي ثلاث ليال كاملة، أي بأيامها.

سويّ: فعيل بمعنى مفعول، يستوي الوصف به الواحد والواحدة والمتعدد منهما.

وفسّر أيضا { سَوِيّاً } بأنّه حال من ضمير المخاطب، أي حال كونك سويّا، أي بدون عاهة الخرس والبكم.

وعلى هذا فذكر الوصف لمجرّد تأكيد الطمأنينة الحاصلة بالتقييد بثلاث ليال.

{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً [11] }.

الظاهر أنّ المعنى أنّه خرج لصلاة الجماعة، إذ هو الحبر الأعظم لهم.

وضُمّن { خَرَجَ } معنى (طلع) فعدّي بـ { عَلَى } كقوله تعالى { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ } [القصص:79].

المحراب: بيت أو مُحْتَجَر يُخصَّص للعبادة الخاصة.

الوحي: الإشارة بالعين أو بغيرها، والإيماء لإفادة معنى شأنه أن يفاد بالكلام.

{ **أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً** } تفسير لـ { أَوْحَى }. وإنّما أمرهم بالتسبيح لئلّا يحسبوا أنّ زكرياء لمّا لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة. كما سيأتي في قوله تعالى { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً } [26]. فأومأ إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوه من التسبيح. أو أراد أن يسبحوا الله تسبيح شكر على أن وهب نبيهم ابنا يرث علمه. ولعلّهم كانوا علموا ترقّبه استجابة دعوته.

{ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً [12] وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً [13] وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً [14] }.

مقول قول محذوف، بقرينة أنّ هذا الكلام خطاب ليحيى، فلا محالة أنّه صادر من قائل، ولا يناسب إلّا أن يكون قولا من الله تعالى، وهو انتقال من البشارة به إلى نبوءته.

والأظهر أنّ هذا من إخبار القرآن للأمّة لا من حكاية ما قيل لزكرياء. فهذا ابتداء ذكر فضائل يحيى.
وطوي ما بين ذلك لعدم تعلّق الغرض به، والسياق يدلّ عليه. والتقدير: قلنا يا يحيى خذ الكتاب.
الكتاب: التوراة لا محالة، إذ لم يكن ليحيى كتاب منزّل عليه.
الأخذ: مستعار للتفهّم والتدبّر، كما يقال: أخذت العلم عن فلان، لأنّ المعتني بالشيء يشبه الآخذ.
القوّة: المراد بها قوّة معنوية، وهي العزيمة والثبات. والباء للملابسة، أي على العمل به وحمل الأمّة على اتّباعه، فقد أخذ الوهن يتطرّق إلى الأمة اليهوديّة في العمل بدينها.
{ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً** } عطف على جملة القول المحذوفة، أي قلنا: يا يحيى خذ الكتاب وآتيناه الحكم.
الحكم: اسم للحكمة. وقد تقدّم معناها في قوله { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً } [البقرة:269]. قيل: هو الحكمة والفهم، وهو الراجح.
{ **صَبِيًّا** } حال من الضمير المنصوب في { آتيناه }. وهذا يقتضي أنّ الله أعطاه استقامة الفكر وإدراك الحقائق في حال الصبا على غير المعتاد، كما أعطى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم الاستقامة وإصابة الرأي في صباه. ويبعد أن يكون يحيى أعطيّ النبوة وهو صبي، لأنّ النبوّة رتبة عظيمة فإنّما تعطى عند بلوغ الأشدّ. واتفق العلماء على أن يحيى أعطي النبوءة قبل بلوغ الأربعين سنة بكثير. ولعلّ الله لمّا أراد أن يكون شهيدا في مقتبل عمرة باكره بالنبوّة.
الحنان: الشفقة. ومن صفات الله تعالى الحنّان. ومن كلام العرب: حنانيك، أي حنانا منك بعد حنان. وجعل حنان يحيى من لدن الله إشارة إلى أنّه متجاوز المعتاد بين النّاس.
الزكاة: زكاة النفس ونقاؤها من الخبائث، كما في قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}.
تقيّ: فعيل بمعنى مفعل، من اتّقى إذا اتّصف بالتقوى، وهي تجنّب ما يخالف الدين. وجيء في وصفه بالتقوى بفعل { كَانَ } للدلالة على تمكّنه من الوصف.
{ **وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ** } وكذلك عطف بروره بوالديه على كونه تقيّا، للدلالة على تمكّنه من هذا الوصف.
البرور: الإكرام والسعي في الطاعة. والبَرّ (بفتح الباء) وصف على وزن المصدر، فالوصف به مبالغة. وأمّا البِرّ (بكسر الباء) فهو اسم مصدر لعدم جريه على القياس.
الجبّار: المستخفّ بحقوق النّاس، كأنّه مشتقّ من الجبر، وهو القسر والغصب، لأنّه يغصب حقوق النّاس.
العصيّ: فعيل من أمثلة المبالغة، أي شديد العصيان. والمبالغة منصرفة إلى النفي لا إلى المنفي، أي لم يكن عاصيا بالمرّة.

{ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً [15] }.

الأظهر أنّه عطف على { وآتيناه الحكم صبيا } مخاطبا به المسلمين ليعلموا كرامة يحيى عند الله.

السلام: اسم الكلام الذي يُفاتح به الزائر والراحل، فيه ثناء أو دعاء. وسمّي ذلك سلاما لأنّه يشتمل على الدعاء بالسلامة، ولأنّه يُؤذن بأنّ الذي أقدم هو عليه مسالم له لا يخشى منه بأسا. فالمراد هنا سلام من الله عليه، وهو ثناء الله عليه، كقوله { سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } [يس:58].

فالمعنى: أنّ إكرام الله متمكّن من أحواله الثلاثة المذكورة: طور الورود على الدنيا، وطور الارتحال عنها، وطور الورود على الآخرة. وهذا كناية على أنّه بمحل العناية الإلهية في هذه الأحوال.

ولم تذكر قصّة قتله في القرآن إلّا إجمالا.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً [16] فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً [17] قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً [18] قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّك لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً [19] قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً [20] قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً [21] }.

عطف القصّة على القصّة فلا يراعى حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية.

{ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ** } التلاوة، أي اتل خبر مريم الذي نقصّه عليك. وفي افتتاح القصّة بهذا زيادة اهتمام بها وتشويق للسامع أن يتعرّفها ويتدبّرها.

الكتاب: القرآن، لأنّ هذه القصّة من جملة القرآن. وقد اختصت هذه السورة بزيادة كلمة { فِي الْكِتَابِ }.

وفائدة ذلك التنبيه إلى أنّ ذكْر من أُمر بذكرهم كائن بآيات القرآن. ولم يأت مثل هذه الجملة في سورة أخرى لأنّه قد حصل علم المراد في هذه السورة فعلم أنّه المراد في بقية الآيات التي جاء فيها لفظ (اذكر) . ولعلّ سورة مريم هي أوّل سورة أتى فيها لفظ (اذكر) في قصص الأنبياء، فإنّها السورة الرابعة والأربعون في عدد نزول السور.

الانتباذ: الانفراد والاعتزال، لأنّ النبْذ: الإبعاد والطرح، فالانتباذ في الأصل افتعال مطاوع نبذه، تم أطلق على الفعل الحاصل بدون سبق فاعل له.

{ **مَكَاناً** } مفعول { انْتَبَذَتْ } لتضمّنه معنى حلّت. ويجوز نصبه على الظرفيّة لما فيه من الإبهام.

والمعنى: ابتعدت عن أهلها في مكان شرقي.

ونكّر المكان إبهاما له لعدم تعلّق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيد كمالا في المقصود من القصّة. وأمّا التصدي لوصفه بأنّه شرقي فللتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم، إذ كان حمل مريم بعيسى في مكان من جهة مشرق الشمس. كما قال ابن عباس: إنّي لأعلم خلق الله لأيّ شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة، لقوله تعالى { مَكَاناً شَرْقِيّاً }. أي أنّ ذلك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى. فذكر كون المكان شرقيا نكتة بديعة من تاريخ الشرائع مع ما فيه من مؤاخاة الفواصل.

{ **فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً** } جعل شيء يحجب عن النّاس.

الروح: الملك، لأنّ تعليق الإرسال به وإضافته إلى ضمير الجلالة دلا على أنّه من الملائكة وقد تمثّل لها بشرا.

التمثّل: تكلّف المماثلة، أي أنّ ذلك الشكل ليس شكل الملك بالأصالة.

{ **بَشَراً سَوِيّاً** } والبشر: الإنسان. قال تعالى { إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ } [صّ:71].

السويّ: المُسَوَّى، أي التام الخلق. وإنّما تمثّل لها كذلك للتناسب بين كمال الحقيقة وكمال الصورة.

{ **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً** } للإشارة إلى كمال عصمتها، لأنّها حسبت أنّه بشر اختبأ لها ليراودها عن نفسها، فبادرته بالتعوذ منه قبل أن يكلّمها، مبادرة بالإنكار على ما توهمته من قصده الذي هو المتبادر من أمثاله في مثل تلك الحالة.

والمعنى: أنّها أخبرته بأنّها جعلت الله معاذا لها منه. وذكرها صفة الرحمان، طلبا للرحمة.

{ **إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً** } وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحثّ على العمل بتقواه.

{ **قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً** } قصر إضافي، أي لست بشرا.

{ **لِأَهَبَ** } قرأ الجمهور بهمزة المتكلّم بعد لام العلة. ومعنى إسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي لأنّه سبب هذه الهبة. وقرأه أبو عمرو، وورش عن نافع (ليهب) بياء الغائب، أي ليهب ربّك لك، مع أنّها مكتوبة في المصحف بألف. وعندي أنّ قراءة هؤلاء بالياء بعد اللام إنّما هي للتخفيف.

{ **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ** } محاورتها الملك محاولة قصدت بها صرفه عمّا جاء لأجله، لأنّها علمت أنّه مرسل من الله فأرادت مراجعة ربها في أمر لم تطقه. ومعنى المحاورة أنّ ذلك يجرّ لها ضرّا عظيما.

{ **وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** } أي لم يبن بي زوج، لأنّها كانت مخطوبة و مراكنة ليوسف النجّار ولكنه لم يبن بها فإذا حملت بولد اتهمها خطيبها وأهلها بالزنى.

{ **وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً** } الكلام كناية عن التنزّه عن الوصم بالبغاء.

وللمفسّرين في هذا المقام حيرة ذكرها الفخر والطيبي، وفيما ذكرنا مخرج من مأزقها. وليس كلام مريم

مسوقا مساق الاستبعاد مثل قول زكريا { أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً } [8] لاختلاف الحالين لأنّ حال زكرياء حال راغب في حصول الولد، وحال مريم حال متشائم منه متبرئ من حصوله.

البغيّ: اسم للمرأة الزانية، ولذلك لم تتصل به هاء التأنيث.

{ **قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّك** } جواب الملك معناه: أنّ الأمر كما قلت، نظير قوله في قصّة زكرياء { كَذَلِكَ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } ، وهو عدول عن إبطال مرادها من المراجعة، لا بيان هون هذا الخلق في جانب القدرة، على طريقة الأسلوب الحكيم.

{ **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** } توجيه بأنّ ما اشتكته من توقّع ضدّ قومها وطعنهم في عرضها ليس بأمر عظيم في جانب ما أراد الله من هدى النّاس لرسالة عيسى عليه السلام، فالله تعالى لا يصرفه عن إنفاذ مراده ما عسى أن يعرض من ضرّ في ذلك لبعض عبيده، لأنّ مراعاة المصالح العامّة متقدّم على مراعاة المصالح الخاصة. فبين جواب الملك إيّاها وبين جواب الله زكرياء اختلاف في المعنى. والكلام في الموضوعين على لسان الملك من عند الله، ولكنّه أسند في قصّة زكرياء إلى الله لأنّ كلام الملك كان تبليغ وحي عن الله جوابا من الله عن مناجاة زكرياء، وأسند في هذه القصّة إلى الملك لأنّه جواب عن خطابها إيّاه.

{ **وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا** } عطف على { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا }، أي لأنّ هبة الغلام الزكيّ كرامة من الله لها، وجعله آية للنّاس ورحمة كرامة للغلام، فوقع التفات من طريقة الغيبة إلى طريقة التكلّم.

{ **وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً** } يجوز أن تكون في قول المَلَك، ويجوز أن تكون مستأنفه. وضمير (كان) عائد إلى الوهب. وهذا قطع للمراجعة وإنباء بأن التخليق قد حصل في رحمها.

{ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً [22] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً [23] }.

{ **فَحَمَلَتْهُ** } الفاء للتفريع والتعقيب، أي فحملت بالغلام في فور تلك المراجعة.

الحمل: العلوق، يقال: حملت المرأة ولدا، وهو الأصل، قال تعالى { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً }. ويقال: حملت به.

الانتباذ: تقدّم قريبا.

{ **قصيّا** } بعيدا، أي بعيدا عن مكان أهلها. قيل: خرجت إلى البلاد المصريّة، ولا يصح. وفي إنجيل لوقا: أنّها ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهوديّة حين صعدت إليها مع خطيبها يوسف النجار، إذ كان مطلوبا للحضور بقرية أهله لأنّ ملك البلاد يجري إحصاء سكان البلاد، وهو ظاهر قوله { فَأَتَتْ بِهِ قَومَهَا تَحْمِلُهُ }.

{ **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ** } الفاء للتعقيب العرفي، و{ **أَجَاءَهَا** } معناه ألجأها، وأصله جاء، عدّي بالهمزة فقيل:

أجاءه، أي جعله جائيا. ثمّ أطلق مجازا على إلجاء شيء شيئا إلى شيء، كأنّه يجئ به إلى ذلك الشيء، ويضطرّه إلى المجيء إليه.

المخاض (بفتح الميم): طلق الحامل، وهو تحرّك الجنين للخروج.

الجِذع (بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة): العود الأصلي للنخلة الذي يتفرّع منه الجريد. وهو ما بين العروق والأغصان، أي إلى أصل نخلة استندت إليه.

{ **قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً** } استئناف بياني. تمنّت الموت قبل ذلك، فهي في حالة من الحزن ترى أنّ الموت أهون عليها من الوقوع فيها. أرادت أن لا يتطرّق عرضها بطعن ولا تجرّ على أهلها معرّة. وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقّي البلوى التي ابتلاها الله تعالى. فلذلك كانت في مقام الصديقيّة.

{ **مِتُّ** } قرأ الجمهور بكسر الميم للوجه الذي تقدّم في قوله تعالى { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ } في سورة آل عمران. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر بضم الميم على الأصل. وهما لغتان في فعل { مات } إذا اتصل به ضمير رفع متصل.

{ **نَسْياً** } النِسْي (بكسر النون وسكون السين) في قراءة الجمهور: الشيء الحقير الذي شأنه أن يُنْسى. والعرب تسمّي الأشياء التي يغلب إهمالها أنساء، ويقولون عند الارتحال: أنظروا أنساءكم، أي الأشياء التي شأنكم أن تنسوها.

أي ليتني كنت شيئا غير متذكّر وقد نسيه أهله وتركوه فلا يلتفتون إلى ما يحلّ به، فهي تمنت الموت وانقطاع ذكرها بين أهلها من قبل ذلك.

وقرأه حمزة، وحفص، وخلف { نَسْياً } بفتح النون، وهو لغة في النسي، كالوتر والوتر، والجسر والجسر.

{ **فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّك تَحْتَكِ سَرِيّاً** [24] }.

{ **نَادَاهَا** } ضمير الرفع المستتر عائد إلى ما عاد عليه الضمير الغائب في { فَحَمَلَتْه } ، أي ناداها المولود. وهذا إرهاص لعيسى وكرامة لأمّه عليهما السلام.

{ **مِنْ تَحْتِهَا** } القيد لتحقيق ذلك، ولإفادة أنّه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه، مبادرة للتسلية والبشارة وتصويرا لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتصال الصبي بأمّه.

{ **قَدْ جَعَلَ ربّك تَحْتَكِ سَرِيّاً** } تعليل لجملة { أَلَّا تَحْزَنِي } ، أي أنّ حالتك حالة جديرة بالمسرّة دون الحزن لما فيها من الكرامة الإلهيّة.

السريّ: الجدول من الماء كالساقية، كثير الماء الجاري.

وهبها الله طعاما طيّبا وشرابا طيّبا كرامة لها يشهدها كلّ من يراها، وكان معها خطيبها يوسف النجار، ومن عسى أن يشهدها فيكون شاهدا بعصمتها وبراءتها ممّا يُظنّ بها. فأمّا الماء فلأنّه لم يكن الشأن أن تأوي إلى مجرى ماء لتضع عنده. وأما الرطب فقيل كان الوقت شتاء ولم يكن إبان رطب وكان جذع النخلة جذع نخلة ميتة فسقوط الرطب منها خارق للعادة. وإنما أعطيت رطبا دون التمر لأن الرطب أشهى للنفس إذ هو كالفاكهة وأما التمر فغذاء.

{ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً [25] فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً [26] }.

{ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً [25] فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً }

{ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } أن يكون إثمار الجذع اليابس رطبا ببركة تحريكها إيّاه كرامة أخرى لها.

{ وهُزِّي } معنى قرّبي أو أدني، فعدّي بـ (إلى)، أي حّركي جذع النخلة وقرّبيه يدن إليك ويلن بعد اليبس ويسقط عليك رطبا.

الرطب: تمر لم يتم جفافه.

الجَنيّ: فعيل بمعنى مفعول، أي مجتنى، وهو كناية عن طراوته.

{ تُسَاقِطْ } قرأه الجمهور بفتح التاء وتشديد السين أصله تتساقط بتاءين أدغمت التاء الثانية في السين ليتأتى التخفيف بالإدغام. وقرأه حفص بضم التاء وتخفيف السين على أنّه مضارع ساقَطَت النخلة تمرها، مبالغة في أسقطت، و{ رُطَباً } مفعول به.

{ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً } فذلكة للجمل التي قبلها، أي فأنت في بحبوحة عيش.

قرّة العين: كناية عن السرور بطريق المضادة، لقولهم: سخنت عينه إذا كثر بكاؤه. وقرّة العين تشمل هناء العيش وتشمل الأنس بالطفل المولود. وفي كونه قرّة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه.

{ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً }.

هذا من بقيّة ما زادها به عيسى، وهو وحي من الله إلى مريم أجراه على لسان الطفل، تلقينا من الله لمريم وإرشادا لقطع المراجعة مع من يريد مجادلتها. فعلّمها أن تنذر صوما يقارنه انقطاع عن الكلام، فتكون في عبادة وتستريح من سؤال السائلين ومجادلة الجهلة.

وكان الانقطاع عن الكلام من ضروب العبادة في بعض الشرائع السالفة، وقد اقتبسه العرب في الجاهلية كما دلّ عليه حديث المرأة من أحمس التي حجت مُصمّتة. ونسخ في شريعة الإسلام بالسنّة، ففي الموطأ " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائما في الشمس فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: نذر أن لا يتكلّم ولا

يستظلّ من الشمس ولا يجلس ويصوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليتم صيامه ". وكان هذا الرجل يدعى أبا إسرائيل.

وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّه دخل على امرأة قد نذرت أن لا تتكلّم. فقال لها: " إنّ الإسلام قد هدم هذا فتكلمي".

وقد دلت الآثار الواردة في هذه على أشياء:

الأول: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يوجب الوفاء بالنذر في مثل هذا، فدلّ على أنّه غير قربة.

الثاني: أنّه لم يأمر فيه بكفّارة شأن النذر الذي يتعذّر الوفاء به أو الذي لم يسم له عمل معين كقوله: علي نذر، وفي الموطأ، عقب ذكر الحديث المذكور، قال مالك: " ولم يأمره بكفّارة ولو كانت فيه كفّارة لأمره بها، فدلّ ذلك على أنّه عمل لا اعتداد به بوجه ".

الثالث: أنّه أومأ إلى علّة عدم انعقاد النذر به بقوله: " إنّ الله عن تعذيب هذا نفسه لغنيّ ".

فعلمنا من ذلك أنّ معنى العبادة أن تكون قولا أو فعلا يشتمل على معنى يكسب النفس تزكية ويبلغ بها إلى غاية محمودة مثل الصوم والحجّ، فيحتمل ما فيها من المشقة لأجل الغاية السامية، وليست العبادة بانتقام من الله لعبده ولا تعذيب له، كما كان أهل الضلال يتقرّبون بتعذيب نفوسهم، وكما شرع في بعض الأديان التعذيب القليل لخضد جلافتهم.

وفي البخاري : " عن أنس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى شيخا يهادى بين ابنيه فقال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي. قال: إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني". وأمره أن يركب، فلم ير له في المشي في الطواف قربة.

وفيه عن ابن عباس: " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مر وهو يطوف بالكعبة بإنسان ربط يده إلى إنسان بسير أو بخيط أو بشيء غير ذلك، فقطعه النبيّ بيده ثمّ قال: قده بيده ".

الرابع: أنّ الراوي لبعض هذه الآثار رواها بلفظ :" نهى رسول الله عن ذلك". ولذلك قال مالك في الموطأ عقب حديث الرجل الذي نذر أن لا يستظل ولا يتكلم ولا يجلس: " قد أمره رسول الله أن يتمّ ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية ".

ووجه كونه معصية أنّه جراءة على الله بأن يعبده بما لم يشرّع له ولو لم يكن فيه حرج على النفس، كنذر صمت ساعة، وأنّه تعذيب للنفس التي كرّمها الله تعالى من التعذيب.

ولذلك قال الشيخ أبو محمد في الرسالة :" ومن نذر معصية من قتل نفس أو شرب خمر أو نحوه أو ما ليس بطاعة ولا معصية فلا شيء عليه. وليستغفر الله ".

وقد بقي عند النصارى اعتبار الصمت عبادة وهم يجعلونه ترحّما على الميّت أن يقفوا صامتين هنيهة.

{ **فقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً** } أطلق القول على ما يدلّ على ما في النفس، وهو الإيماء إلى أنّها نذرت صوما مجازا بقرينة قوله { فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً } فالمراد أن تؤدّي ذلك بإشارة إلى أنّها نذرت صوما بأن تشير إشارة تدلّ على الانقطاع عن الأكل، وإشارة تدل على أنّها لا تتكلم لأجل ذلك، فإن كان الصوم في شرعهم مشروطا بترك الكلام كما قيل، فالإشارة الواحدة كافية. وإن كان الصوم عبادة مستقلة قد يأتي بها الصائم مع ترك الكلام تشير إشارتين للدلالة على أنّها نذرت الأمرين، وقد علمت مريم أنّ الطفل الذي كلّمها هو الذي يتولّى الجواب عنها حين تسأل بقرينة قوله تعالى { فأَشَارَتْ إِلَيْهِ } [29].

{ **تَرَيِنَّ** } نون التوكيد الشديدة اتصلت بالفعل الذي صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع لأجل حرف الشرط فحركت الياء بحركة مجانسة لها كما هو الشأن مع نون التوكيد الشديدة.

الإنسيّ: الإنسان، والياء فيه للنسب إلى الإنس، وهو اسم جمع إنسان، فياء النسب لإفادة فرد من الجنس.

وهذا نكره في سياق النفي يفيد العموم، أي لن أكلم أحدا.

وعدل عن (أحد) إلى { إِنْسِيّاً } للرعي على فاصلة الياء، وليس ذلك احترازا عن تكليمها الملائكة إذ لا يخطر ذلك بالبال، فالحمل عليه سماجة.

{ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً [27] يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً [28] }.

دلّت الفاء على أنّ مريم جاءت أهلها عقب انتهاء الكلام الذي كلّمها ابنها. وفي إنجيل لوقا: أنّها بقيت في بيت لحم إلى انتهاء واحد وأربعين يوما، وهي أيام التطهير من دم النفاس، فعلى هذا يكون التعقيب المستفاد من الفاء تعقيبا عرفيّا مثل: تزوج فولد له.

{ **قومها** } أهل محلّتها.

{ **تَحْمِلُهُ** } حال من تاء { أَتَتْ } للدلالة على أنّها أتت معلنة به غير ساترة، لأنّها قد علمت أن الله سيبرّئها.

{ **قَالُوا يَا مَرْيَمُ** } مستأنفة استئنافا بيانيا. وقال قومها هذه المقالة توبيخا لها.

{ **شَيْئاً فَرِيّاً** } وفَرِيّ فعيل من فرى من ذوات الياء. ولهذا اللفظ عدة إطلاقات، وأظهر محامله هنا أنّه الشنيع في السوء، قاله مجاهد والسدي، وهو جاء من مادة افترى إذا كذب، ومنه قوله تعالى { لا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ } [الممتحنة:12].

ومن أهل اللغة من قال: إنّ الفريّ والفريّة مشتقّان من الإفراء بالهمز. وهو قطع الجلد لإفساده أو لتحريقه، تفرقة بين أفرى وفرى، وأنّ فرى المجرّد للاصلاح.

الأخت: مؤنث الأخ، اسم يضاف إلى اسم آخر، فيطلق حقيقة على ابنة أبوي ما أضيفت إلى اسمه أو ابنة أحد أبويه. ويطلق على من تكون من أبناء صاحب الاسم الذي تضاف إليه إذا كان اسم قبيلة كقولهم: يا أخا العرب. كما في حديث ضيف أبي بكر الصديق قوله لزوجه " يا أخت بني فراس ما هذا" .

{ **يَا أُخْتَ هَارُونَ** } يحتمل أن يكون على حقيقته. فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحا في قومه، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ، أي ما كان لأخت مثله أن تفعل فعلتك، وهذا أظهر الوجهين.

ففي صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: " بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرءون { يَا أُخْتَ هَارُونَ } وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال المغيرة: فلم أدر ما أقول. فلمّا قدمت على رسول الله ذكرت ذلك له. فقال: ألم يعلموا أنّهم كانوا يسمّون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم ".

ففي هذا تجهيل لأهل نجران أن طعنوا في القرآن على توهّم أن ليس في القوم من اسمه هارون إلّا هارون الرسول أخا موسى.

ويحتمل أن المعنى أنّها إحدى النساء من ذرية هارون أخي موسى. وقد كانت مريم من ذرية هارون أخي موسى من سبط لاوي. ففي إنجيل لوقا كان كاهن اسمه زكرياء من فرقة أبيا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات، واليصابات زوجة زكرياء نسيبة مريم، أي ابنة عمها.

وما وقع للمفسّرين في نسب مريم أنّها من نسل سليمان بن داود خطأ.

السَوْء (بفتح السين وسكون الواو): مصدر ساءه، إذا أضرّ به وأفسد بعض حاله، فإضافة اسم إليه تفيد أنّه من شؤونه وأفعاله وأنه هو مصدر له.

البغيّ: تقدّم قريبا.

عنوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بأمر ليس من شأن أهلها، وخالفت سيرة أبويها.

{ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً [29] }.

أي أشارت إليه إشارة دلّت على أنّها تحيلهم عليه ليسألوه عن قصّته، أو أشارت إلى أن يسمعوا منه الجواب عن توبيخهم إيّاها، وقد فهموا ذلك من إشارتها.

والاستفهام إنكار، أنكروا أن يكلّموا من ليس من شأنه أن يتكلّم، وأنكروا أن تحيلهم على مكالمته.

{ **مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً** } وزيادة فعل الكون للدلالة على تمكّن المظروفية (في المهد) من هذا الذي أحيلوا على مكالمته، وذلك مبالغة منهم في الإنكار، وتعجّب من استخفافها بهم.

المهد: فراش الصبي وما يمهّد لوضعه.

{ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً [30] وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً [31] وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً [32] وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً [33] }.

كلام عيسى هذا ممّا أهملته أناجيل النصارى لأنّهم طووا خبر وصولها إلى أهلها بعد وضعها، وهو طيّ يُتعجّب منه. ويدلّ على أنّها كتبت في أحوال غير مضبوطة، فأطلع الله تعالى عليه نبيّه صلى الله عليه وسلم.

{ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ** } الابتداء بوصف العبوديّة لله ألقاه الله على لسان عيسى لأنّ الله علم بأنّ قوما سيقولون: إنّه ابن الله.

{ **آتَانِيَ الْكِتَابَ** } الفعل الماضي مراد به أنّ الله قدّر إيتاءه إيّاه، أي قدّر أن يؤتيني الكتاب.

الكتاب: الشريعة التي من شأنها أن تكتب لئلّا يقع فيها تغيير. فإطلاق الكتاب على شريعة عيسى كإطلاق الكتاب على القرآن. والمراد بالكتاب الإنجيل وهو ما كتب من الوحي الذي خاطب الله به عيسى.

ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة، فيكون الإيتاء إيتاء علم ما في التوراة كقوله تعالى { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } [12].

{ **وَجَعَلَنِي نَبِيّاً** } ارتقاء في المراتب التي آتاه الله إيّاها. والقول في التعبير عنه بالماضي كالقول في {آتَانِيَ}.

المبارك: الذي تقارن البركة أحواله في أعماله ومحاورته ونحو ذلك، لأنّ المبارك اسم مفعول من باركه، إذا جعله ذا بركة. أو من بارك فيه، إذا جعل البركة معه. و**البركة**: الخير واليمن.

ذلك أنّ الله أرسله برحمة لبني إسرائيل ليُحلّ لهم بعض الذي حُرّم عليهم وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيّروا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه. ومن بركته أن جعل الله حلوله في المكان سببا لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير. ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون انقلبوا صالحين وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة. ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأمّيّين من صيادين وعشّارين فصاروا دعاة هدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة.

وبهذا يظهر أنّ كونه مباركا أعم ّمن كونه نبيّا.

{ **أَيْنَ مَا كُنْتُ** } تعميم للأمكنة، أي حيثما حلّ تحلّ معه البركة.

الوصاية: الأمر المؤكّد بعمل مستقبل، أي قدّر وصيّتي بالصلاة والزكاة، أي أن يأمرني بهما أمرا مؤكّدا مستمرّا، فاستعمال صيغة الماضي في { وَأَوْصَانِي } مثل استعمالها في قوله { آتَانِيَ الْكِتَابَ }.

الزكاة: الصدقة. والمراد: أن يصلّي ويزكّي. وهذا أمر خاص به، كما أمر نبيّنا صلى الله عليه وسلم بقيام الليل، وقرينة الخصوص قوله { مَا دُمْتُ حَيّاً }.

{ **مَا دُمْتُ حَيّاً** } استغراق عرفي مراد به الكثرة، وليس المراد الصلاة والصدقة المفروضتين على أمته، لأن سياق الكلام في أوصاف تميّز بها عيسى عليه السلام، ولأنّه لم يأت بشرع صلاة زائدة على ما شرع في التوراة.

{ **وَبَرّاً بِوَالِدَتِي** } البَرُّ (بفتح الباء): اسم بمعنى البار. وتقدّم آنفا. وقد خصَّه الله تعالى بذلك بين قومه، لأنّ برّ الوالدين كان ضعيفا في بني إسرائيل يومئذ، وبخاصة الوالدة لأنّها تُستضعف.

الجبّار: المتكبّر الغليظ على النّاس في معاملتهم. وقد تقدّم في قوله { وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود:59].

الشقي: الخاسر والذي تكون أحواله كدرة له ومؤلمة، وهو ضد السعيد. وتقدّم عند قوله تعالى { فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } [هود:105].

ووصف الجبّار بالشقي باعتبار مآله في الآخرة وربّما في الدنيا.

{ **وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً** } تنويه بكرامته عند الله، أجراه على لسانه ليعلموا أنّه بمحلّ العناية من ربّه، والقول فيه تقدّم في آية ذكر يحيى.

{ **السَّلامُ** } التعريف للمبالغة في تعلّق السلام به حتّى كان جنس السلام بأجمعه عليه. وهذا مؤذن بتفضيله على يحيى إذ قيل في شأنه {وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ} ، وذلك هو الفرق بين المعرف بلام الجنس وبين النكرة.

ومن هذا القبيل السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [الأحزاب:56]، وما أمرنا به في التشهد في الصلاة من قول المتشهّد " السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته".

ومؤذن أيضا بتمهيد التعريض باليهود إذ طعنوا فيه وشتموه في الأحوال الثلاثة، فقالوا: ولد من زنى، وقالوا: مات مصلوبا، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة، لأنّهم يزعمون أنّه كفر بأحكام من التوراة.

{ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ [34] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [35] }.

اعتراض بين الجمل المقولة في قوله { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ } مع قوله { وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ }، أي ذلك المذكور هو عيسى ابن مريم لا كما تزعم النصارى واليهود.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة لتمييز المذكور أكمل تمييز، تعريضا بالرد على اليهود والنصارى جميعا، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة، ورفعه النصارى إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ مبطل، أي ذلك هو عيسى بالحقّ. والمقصود بالتمييز تمييز صفاته الحقيقية عن الصفات الباطلة التي ألصقوها به لا تمييز ذاته عن الذوات إذ

ليست ذاته بحاضرة وقت نزول الآية، أي تلك حقيقة عيسى عليه السلام وصفته.
{ قَوْلَ الْحَقِّ } قرأه الجمهور بالرفع. وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب بالنصب، فأمّا الرفع فهو خبر ثان عن اسم الإشارة أو وصف لعيسى أو بدل منه، وأمّا النصب فهو حال من اسم الإشارة أو من عيسى.
والمعنى أنّ تلك الصفات التي سمعتم هي قول الحق وما خالفها باطل، أو أنّ عيسى عليه السلام هو قول الحق، أي مقول الحقّ، أي المكوَّن من قول { كُنْ }، فيكون مصدرا بمعنى اسم المفعول كالخلق في قوله تعالى { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ } [لقمان:11]. وعلى هذين الوجهين يكون اعتراضا.
ويجوز أن يكون { قَوْلَ } مصدرا بمعنى الفاعل صفة لـ {عِيسَى} أو حالا منه، أي قائل الحق إذ قال { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ - إلى قوله - وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً } [30 – 33].
{ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } صفة ثانية أو حال ثانية أو خبر ثان عن { عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ } على ما يناسب الوجوه المتقدّمة.
الامتراء: الشكّ، أي الذي فيه يشكّون، أي يعتقدون اعتقادا مبناه الشكّ والخطأ.
فإنّ عاد الموصول إلى (القول) فالامتراء فيه هو الامتراء في صدقة، وإن عاد إلى (عيسى) فالامتراء فيه هو الامتراء في صفاته بين رافع وخافض.
{ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } تقرير لمعنى العبوديّة، أو تفصيل لمضمون جملة { الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } فتكون بمنزلة بدل البعض أو الاشتمال منها، اكتفاء بإبطال قول النصارى بأنّ عيسى ابن الله، لأنّه أهمّ بالإبطال، إذ هو تقرير لعبوديّة عيسى، وتنزيه لله تعالى عمّا لا يليق بجلال الألوهية من اتخاذ الولد ومن شائبة الشرك، ولأنّه القول الناشئ عن الغلو في التقديس، بخلاف قول اليهود فقد ظهر بطلانه بما عدّد لعيسى من صفات الخير.
والصيغة تفيد انتفاء الولد عنه تعالى بأبلغ وجه، لأنّ لام الجحود تفيد مبالغة النفي، وأنّه مما لا يلاقي وجود المنفي عنه، ولأنّ في قوله { أن يتخذ } إشارة إلى أنّه لو كان له ولد لكان هو خلقه، فإثبات البنوّة له خلف من القول.
{ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } بيان لجملة { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } ، لإبطال شبهة النصارى إذ جعلوا تكوين إنسان بأمر التكوين عن غير سبب معتاد دليلا على أنّ المكوَّن ابن لله تعالى، فأشارت الآية إلى أنّ هذا يقتضي أن تكون أصول الموجودات أبناء لله.

{ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [36].

يجوز أن يكون هذا بقية لكلام جرى على لسان عيسى تأييدا لبراءة أمّه، وما بينهما اعتراض كما تقدّم آنفا.

والمعنى: تعميم ربوبيّة الله تعالى لكلّ الخلق.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب همزة { **وَأَنَّ** } مفتوحة، فخرّجه الزمخشري أنّه على تقدير لام التعليل، فإن كان من كلام عيسى فهو تعليل لقوله {فاعبدوه}.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله { بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ }، أي وأوصاني بأنّ الله ربّي وربّكم، فيكون بحذف حرف الجر وهو مطرد مع {أَنَّ}. ويجوز أن يكون معطوفا على {الْحَقِّ} من قوله {قَوْلَ الْحَقِّ} على وجه جعل { قَوْلَ } بمعنى قائل.

وإن كان ممّا خوطب النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله كان بتقدير قول محذوف، أو عطفا على { مريم } من قوله تعالى {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ } أي: اذكر يا محمد أنّ الله ربّي كذلك.

وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وروح عن يعقوب بكسر همزة { **إِنَّ** } ووجهها ظاهر على كلا الاحتمالين.

{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } تذييل وفذلكة لما سبقه على اختلاف الوجوه. والإشارة إلى مضمون ما تقدّم على اختلاف الوجوه. والمراد بالصراط المستقيم اعتقاد الحقّ، شُبّه الاعتقاد الحقّ في كونه موصولا إلى الهدى بالصراط المستقيم في إيصاله إلى المكان المقصود باطمئنان بال، كقوله { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ }.

{ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[37]

الفاء لتفريغ الإخبار بحصول الاختلاف على الإخبار بأنّ هذا صراط مستقيم، أي حاد عن الصراط المستقيم الأحزابُ فاختلفوا بينهم في الطرائق التي سلوكها، أي هذا صراط مستقيم لا يختلف سالكوه اختلافا أصليا.

{ **مِنْ بَيْنِهِمْ** } متعلق بـ { فَاخْتَلَفَ }، أي اختلفوا بينهم.

والمراد بالأحزاب أحزاب النصارى، لأنّ الاختلاف مؤذن بأنّهم كانوا متّفقين، ولم يكن اليهود موافقين النصارى في شيء من الدين. وقد كان النصارى على قول واحد على التوحيد في حياة الحواريين ثمّ حدث الاختلاف في تلاميذهم. وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ } في سورة النساء أنّ الاختلاف انحلّ إلى ثلاثة مذاهب: **الملكانية** (وتسمّى الجاثُليقية)، و**اليعقوبية**، و**النسطورية**.

وانشعبت من هذه الفرق عدّة فرق ذكرها الشهرستاني، ومنها الأليانة، والبليارسية، والمقدانوسية، والسبالية،

والبوطينوسية، والبولية، إلى فرق أخرى. منها فرقة كانت في العرب تسمَّى الركوسية ورد ذكرها في الحديث: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن حاتم: " **إنّك ركوسي**" . قال أهل اللغة هي نصرانية مشوبة بعقائد الصابئه.

وحدثت بعد ذلك فرقة الاعتراضية (البُروتستان) أتباع لوثير. وأشهر الفرق اليوم هي الملكانية (**كاثوليك**)، واليعقوبية (**أرثودوكس**)، والاعتراضية (**البروتستان**).

{ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } لمّا كان اختلافهم قد انحصر في مرجع واحد يرجع إلى إلهية عيسى اغترارا وسوء فهم في معنى لفظ (ابن) الذي ورد صفة للمسيح في الأناجيل، مع أنّه قد وصف بذلك فيها أيضا أصحابه. وقد جاء في التوراة أيضا أنتم أبناء الله. وفي إنجيل متى الحواري وإنجيل يوحنا الحواري كلمات صريحة في أنّ المسيح ابن إنسان وأن الله إلهه وربّه، فقد انحصرت مذاهبهم في الكفر بالله. فشمل قوله { الذين كفروا } هؤلاء المخبر عنهم من النصارى وشمل المشركين غيرهم.

{ **مَشْهَدِ** } صالح لمعان، وهو أن يكون مشتقّا من المشاهدة أو من الشهود، ثمّ إمّا أن يكون مصدرا ميميا في المعنيين أو اسم مكان لهما أو اسم زمان لهما، أي: يوم فيه ذلك وغيره.

والويل حاصل لهم في الاحتمالات كلّها وقد دخلوا في عموم الذين كفروا بالله، أي نفوا وحدانيّته، فدخلوا في زمرة المشركين لا محالة، ولكنّهم أهل كتاب دون المشركين.

{ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [38].

{ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ** } صيغتا تعجّب، وهو تعجّب على لسان الرسول والمؤمنين، أو هو مستعمل في التعجيب، والمعنيان متقاربان، وهو كناية أيضا عن تهديدهم. والمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، أي ما أقدرهم على السمع والبصر بما يكرهونه. ومثله قوله { فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } [البقرة:175]. وجوّز أن يكون غير مستعمل في التعجّب بل صادف أن جاء على صورة فعل التعجّب، وإنّما هو على أصل وضعه أمْرٌ للمخاطب غير المعيَّن بأن يسمع ويبصر بسببهم، ومعمول السمع والبصر محذوف لقصد التعميم ليشمل كل ما يصح أن يسمع وأن يبصر. وهذا كناية عن التهديد.

{ **لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } الاستدراك راجع إلى ما يفيده التقييد بالظرف في قوله { يوْمَ يَأْتُونَنَا} من ترقّب سوء حالهم يوم القيامة، الذي يقتضي الظنّ بأنّهم الآن في سعة من الحال. فأفيد أنّهم متلبّسون بالضلال المبين.

{ **الظَّالِمُونَ** } إظهار في مقام الإضمار. نكتته التخلّص إلى خصوص المشركين، لأنّ اصطلاح القرآن

إطلاق الظالمين على عبدة الأصنام، وإطلاق الظلم على عبادة الأصنام، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13].

{ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [39]

عقَّب تحذيرهم من عذاب الآخرة والنداء على سوء ضلالهم في الدنيا بالأمر بإنذارهم، استقصاء في الإعذار لهم. والضمير عائد إلى الظالمين، وهم المشركون من أهل مكّة وغيرهم من عبدة الأصنام.

{ يَوْمَ الْحَسْرَةِ } انتصب على أنّه مفعول خلف عن المفعول الثاني لـ { وَأَنْذِرْهُمْ } لأنّه بمعنى أنذرهم عذاب يوم الحسرة.

الحسرة: الندامة الشديدة الداعية إلى التلهّف. والمراد بيوم الحسرة يوم الحساب، أضيف اليوم إلى الحسرة لكثرة ما يحدث فيه من تحسّر المجرمين على ما فرّطوا فيه من أسباب النجاة، وإن كان يوم فرح بالنسبة إلى الصالحين.

{ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ } تُمِّم أمر الله بزجِّهم في العذاب فلا معقّب له. ويجوز أن يكون المراد أمر الله بمجيء يوم القيامة، أي إذا حشروا. و { إِذْ } اسم زمان، بدل من { يَوْمَ الْحَسْرَةِ }.

{ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ } حال من { الْأَمْرُ } وهي حال سببية، إذ التقدير: إذ قضي أمرهم.

الغفلة: الذهول عن شيء شأنه أن يُعلم.

ومعنى جملة الحال على الاحتمال الأوّل في معنى الأمر، الكناية عن سرعة صدور الأمر بتعذيبهم، أي قضي أمرهم على حين أنّهم في غفلة، أي بهت.

وعلى الاحتمال الثاني تحذير من حلول يوم القيامة بهم قبل أن يؤمنوا كقوله { لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } [لأعراف: 187]، وهذا أليق بقوله { وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ }.

{ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } استمرار عدم إيمانهم إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة. فاختيار صيغة المضارع فيه دون صيغة اسم الفاعل لما يدلّ عليه المضارع من استمرار الفعل وقتًا فوقتًا، استحضارا لذلك الاستمرار العجيب في طوله وتمكّنه.

{ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [40]

تذييل لختم القصّة على عادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها. والكلام موجّه إلى المشركين لإبلاغه إليهم.

{ **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ** } حقيقة الإرث: مصير مال الميت إلى من يبقى بعده. وهو هنا مجاز في تمحّض التصرّف في الشيء دون مشارك، فإنّ الأرض كانت في تصرّف سكّانها من الإنسان والحيوان، كلّ بما يناسبه. فإذا هلك النّاس والحيوان لم يبق تصرف فيها إلّا لخالقها، ومن جملة ذلك تصرّفه بالجزاء.

وتأكيد الجملة بحرف التوكيد لدفع الشكّ، لأنّ المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أنّ الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى. وأمّا ضمير الفصل { نَحْنُ } فهو لمجرّد التأكيد ولا يفيد تخصيصا، إذ لا يفيد ردّ اعتقاد مخالف لذلك.

وظهر لي: أنّ مجيء ضمير الفصل لمجرّد التأكيد كثير إذا وقع ضمير الفصل بعد ضمير آخر نحو قوله {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ } [طه:14]، وقوله { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [يوسف:37].

وأفاد هذا التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنّهم لا مفرّ لهم من قبضة الربّ الواحد الذي أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض، وأنّ آلهتهم ليست بمرجوّة لنفعهم، إذ ما هي إلّا مما يرثه الله.

{ **وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** } موقعها بيّن، فالتقديم مفيد القصر، أي لا يرجعون إلى غيرنا. ومحمّل هذا التقديم بالنسبة إلى المسلمين الاهتمام، ومحمله بالنسبة إلى المشركين القصر كما تقدّم في قوله { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ }.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً [41] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً [42] }.

قد تقدّم أنّ من أهمّ ما اشتملت عليه هذه السورة التنويه بالأنبياء والرّسل السالفين. وإذ كان إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء وأوّل من أعلن التوحيد إعلانا باقيا، لبنائه هيكل التوحيد، وهو الكعبة، كان ذكر إبراهيم من أغراض السورة. وذُكر عقب قصّة عيسى لمناسبة وقوع الردّ على المشركين في آخر القصّة، ابتداء من قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ - إلى قوله - إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا } .

ولمّا كان إبراهيم قد جاء بالحنيفيّة وخالفها العرب بالإشراك، وهم ورثة إبراهيم، كان لتقديم ذكره على البقية الموقع الجليل من البلاغة.

وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما لقي من مشركي قومه، لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم.

وقد جرى سرد خبر إبراهيم عليه السلام على أسلوب سرد قصّة مريم عليها السلام.

{ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ** } تقدّم تفسيرها في أوّل قصّة مريم.

{ **صِدِّيقاً** } (بتشديد الدال) صيغة مبالغة في الاتصاف، وتقدّم في قوله تعالى { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ } .

وُصِف إبراهيم بالصدّيق لفرط صدقه في امتثال ما يكلّفه الله تعالى، لا يصدّه عن ذلك ما قد يكون عذرا للمكلّف، مثل مبادرته إلى محاولة ذبح ولده حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا.

وتأكيد هذا الخبر بحرف التوكيد وبإقحام فعل الكون للاهتمام بتحقيقه زيادة في الثناء عليه.

{ **إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً** } واقعة موقع التعليل للاهتمام بذكره في التلاوة، وهذه الجملة معترضة بين المبدل منه والبدل فإن (إذا) اسم زمان وقع بدلا من إبراهيم، أي: اذكر ذلك خصوصا من أحوال إبراهيم، فإنّه أهمّ ما يذكر فيه، لأنّه مظهر صديقيته إذ خاطب أباه بذلك الإنكار.

النبيّ: فعيل بمعنى مفعول، من أنبأه بالخبر. والمراد هنا أنّه منبّأ من جانب الله تعالى بالوحي. والأكثر أن يكون النبيّ مرسلا للتبليغ، وهو معنى شرعي، فالنبيّ فيه حقيقة عرفية. فدلّ ذلك على أنّ قوله لأبيه { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ } إنّما كان عن وحي من الله ليبلّغ قومه إبطال عبادة الأصنام.

{ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ** } بدل اشتمال من إبراهيم. و (إذ) اسم زمان مجرّد عن الظرفية، لأنّه ظرف متصرّف على التحقيق. والمعنى: اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه، فإنّ ذلك الوقت أجدر أوقات إبراهيم بأن يذكر.

{ **لِأَبِيهِ** } هو (آزار)، وتقدّم ذكره في سورة الأنعام.

وافتتح إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أنّ الحضرة مغنية عن النداء قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه.

قال الجدّ الوزير رحمة الله فيما أملاه علي ذات ليلة من عام (1318هـ) فقال: " علم إبراهيم أنّ في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق، وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجّه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة إيماء إلى أنّه مخلص له النصيحة، وألقى إليه حجّة فساد عبادته في صوره الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطىء، منبّها على خطئه عندما يتأمل في عمله، فإنّه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالا ففطن بخطل رأيه وسفاهة حلمه، فإنّه لو عبد حيّا مميّزا لكانت له شبهة ما. وابتدأ بالحجّة الراجعة إلى الحسّ إذ قال له { لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ } فذلك حجّة محسوسة، ثمّ أتبعها بقوله { وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً }، ثمّ انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد من ابنه بقوله { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً }، فلما قضى حقّ ذلك انتقل إلى تنبيهه على أنّ ما هو فيه أثر من وساوس الشيطان، ثمّ ألقى إليه حجّة لائقة بالمتصلّبين في الضلال بقوله { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } ، أي أنّ الله أبلغ إليك الوعيد على لساني، فإن كنت لا تجزم بذلك فافرض وقوعه فإنّ أصنامك لم تتوعدك على أن تفارق عبادتها.

وفي النداء بقوله { يَا أَبَتِ } أربع مرّات، تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة، لأنّها مقام إطناب. ونظّر ذلك بتكرير لقمان قوله { يَا بُنَيَّ } [لقمان:13] ثلاث مرات، بخلاف قول نوح لابنه { يَا بُنَيَّ ارْكَبْ }

[هود:42] مرة واحدة دون تكرير، لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز". انتهى كلامه بما يقارب لفظه.

أقول: الوجه ما بني عليه من أنّ الاستفهام مستعمل في حقيقته، كما أشار إليه صاحب الكشّاف، ومكنّى به عن نفي العلّة المسؤول عنها بقوله { لِمَ تَعْبُدُ } فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه، فهو من التورية في معنيين يحتملهما الاستفهام.

{ **أَبَتِ** } أصله أبي، حذفوا ياء المتكلّم وعوّضوا عنها (تاء) تعويضا على غير قياس، وهو خاص بلفظ الأب والأم في النداء خاصة، ولعلّه صيغة باقية من العربية القديمة. ورأى سيبويه أنّ التاء تصير في الوقف هاء، وخالفه الفراء فقال: ببقائها في الوقف. والتاء مكسورة في الغالب لأنّها عوض عن الياء والياء بنت الكسرة.

{ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً } [43]

{ **يَا أَبَتِ** } تقدّم الكلام على نظيره قريبا. وإعادة ندائه بوصف الأبوّة تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة المستفاد من النداء الأوّل. قال في الكشاف : " ثمّ ثُنّي بدعوته إلى الحقّ مترفّقا به مُتلطّفا، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنّه قال: إنّ معي طائفة من العلم ليست معك، فلا تستنكف".

{ **قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ** } أراد إبراهيم علم الوحي والنبوءة، ذلك أنّ أباه كان يرى نفسه على علم عظيم لأنّه كان كبير ديانة قومه.

{ **أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً** } استعارة مكنية، شُبّه إبراهيم بهادي الطريق البصير بالثنايا، وإثبات الصراط السوي قرينة التشبيه.

{ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً }[44]

إعادة النداء لزيادة تأكيد ما أفاده النداء الأوّل والثاني.

{ **لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ** } المراد عبادة الأصنام، عبّر عنها بعبادة الشيطان إفصاحا عن فسادها وضلالها، فإنّ نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقرّرة في نفوس البشر، ولكن الذين يتّبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتّبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [الزخرف:23]، ففي الكلام إيجاز، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان، وكفى بذلك ضلالا معلوما. وهذا كقوله تعالى { وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً } [النساء:117]. وفيه تبغيض لعبادة الأصنام.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً** } تعليل للنهي عن عبادته وعبادة آثار وسوسته بأنّه شديد العصيان للربّ

الواسع الرحمة. وإظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار، إذ لم يقل: إنّه كان للرحمن عصيا، لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير من الشيطان، لأنّ في ذكر صريح اسمه تنبيها إلى النفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها.

{ **عَصِيًّا** } من صيغ المبالغة في العصيان مع زيادة فعل { كان } للدلالة على أنّه لا يفارق عصيان ربّه، وأنّه متمكّن منه، فلا جرم أنه لا يأمر إلّا بما ينافي الرحمة، أي بما يفضي إلى النقمة، ولذلك اختير وصف الرحمان من بين صفات الله تعالى تنبيها على أنّ عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتّبع.

{ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } [45]

لا جرم أنّه لما قرّر أن عبادته الأصنام اتباع لأمر الشيطان ومعصية للرحمان انتقل إلى توقّع حرمانه من رحمة الله بأن يحلّ به عذاب من الله، فحذّره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمّتهم وسوء عاقبتهم.

{ **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ** } التعبير بالخوف الدال على الظنّ دون القطع تأدّب مع الله تعالى بأن لا يُثبت أمرا فيما هو من تصرّف الله، وإبقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلّص من ذلك العذاب، بالإقلاع عن عبادة الأوثان.

{ **الرَّحْمَنِ** } عبّر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أنّ حلول العذاب ممّن شأنه أن يرحم إنّما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته.

الوليّ: الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحد وأمرهما جميع، فكُنِّي بالولاية عن المقارنة في المصير.

{ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً } [46]

فصلت الجملة لوقوعها في المحاورة. والاستفهام للإنكار، إنكارا لتجافي إبراهيم عن عبادة أصنامهم.

وقد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعنجهيّة بعكس ما في كلام إبراهيم من اللين والرقّة، فدلّ ذلك على أنّه كان قاسي القلب بعيد الفهم، شديد التصلّب في الكفر.

{ **أَرَاغِبٌ أَنْتَ** } جملة اسمية مركبة من مبتدأ وفاعل سدّ مسد الخبر. والتحقيق أنه في قوة خبر مقدّم ومبتدأ مؤخر. قال في الكشّاف : " قدّم الخبر على المبتدأ لأنّه كان أهم عنده وهو به أعنى ".

فدل النظم في هذه الآية على أنّ أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكّن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنّها موضع عجب.

{ **يَا إِبْرَاهِيمُ** } تكملة لجملة الإنكار والتعجّب، لأنّ المتعجّب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله، فالمتكلّم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه، فينبغي الوقف على قوله { يَا إِبْرَاهِيمُ } وجملة { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ } مستأنفة.

{ **لَأَرْجُمَنَّكَ** } اللام موطّئة للقسم تأكيدا لكونه راجمهُ إن لم ينته عن كفره بآلهتهم.

الرجم: الرمي بالحجارة، وهو كناية مشهورة في معنى القتل بذلك الرمي. وإسناد أبي إبراهيم ذلك إلى نفسه يحتمل الحقيقة، إمّا لأنّه كان من عادتهم أنّ الوالد يتحكّم في عقوبة ابنه، وإمّا لأنّه كان حاكما في قومه.
ويحتمل المجاز العقلي، إذ لعله كان كبيرا في دينهم فيرجم قومُه إبراهيم استناد لحكمه بمروقه عن دينهم.

{ **وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً** } عطف على { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ }، وذلك أنّه هدّده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته.

الهجر: قطع المكالمة وقطع المعاشرة، وإنّما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنّه هو يهجره ليدلّ على أنّ هذا الهجران في معنى الطرد والخلع، إشعارا بتحقيره.

{ **مَلِيّاً** } طويلا، وهو فعيل، ولا يعرف له فعل مجرّد ولا مصدر. وهو فعيل بمعنى فاعل لأنّه يقال: أملى له، إذا أطال له المدّة، فيأتون بهمزة التعدية. فـ { مَلِيّاً } صفة لمصدر محذوف منصوب على المفعولية المطلقة، أي هجرا مليّا. ويجوز أن ينتصب على الصفة لظرف محذوف، أي زمانا طويلا.

{ **قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً** [47] **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً** [48] }.

{ **قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ** } سلام توديع ومتاركة. وبادره به قبل الكلام الذي أعقبه به إشارة إلى أنّه لا يسوءه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومرضاته. ومن حلم إبراهيم أن كانت مشاركته أباه مشوبة بالإحسان في معاملته.

السلام: السلامة، كلمة تحيّة وإكرام، وتقدّمت آنفا عند قوله تعالى { وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ } [15].

{ **سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي** } أظهر حرصه على هداه، أي أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، إذا لم يكن إبراهيم تلقى نهيا من الله عن الاستغفار للمشرك. وهذا ظاهر ما في قوله تعالى { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ } . واستغفاره له هو المحكي في قوله تعالى { وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } [الشعراء:86].

{ **إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً** } تعليل لما يتضمّنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة استجابة لدعوة إبراهيم بأن يوفّق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذ الإشراك.

الحفيّ: شديد البرّ والإلطاف. وتقدّم عند قوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ } [الأعراف:187].

{ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي** } عطف على { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } ، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إيّاكم الآن، لأنّ المضارع غالب في الحال. أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وأنّه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى، وهو المحكي بقوله تعالى { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]، وقد خرج من بلد الكلدان عازما على الالتحاق بالشام حسب أمر الله تعالى. رأى إبراهيم أن هجرانه أباه غير مغن، لأنّ بقية القوم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعا.

{ **وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } وعطف على ضمير القوم أصنامهم للإشارة إلى عداوته لتلك الأصنام إعلانا بتغيير المنكر. وعبّر عن الأصنام بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّة اعتزاله إيّاهم وأصنامهم، بأنّ تلك الأصنام تُعبد من دون الله.

الدعاء: العبادة، لأنّها تستلزم دعاء المعبود.

{ **وَأَدْعُو رَبِّي** } وزاد الإعلان بأنّه يدعوا الله، احتراسا من أن يحسبوا أنّه نوى مجرّد اعتزال عبادة أصنامهم فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بيّن لهم أنّه بعكس ذلك يدعوا الله الذي لا يعبدونه.

وعبر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربّه وحده من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمّنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إيّاه والتشريف لنفسه بذلك.

{ **عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً** } في موضع الحال من ضمير { وادعوا } ، أي راجيا أن لا أكون بدعاء ربي شقيا. وتقدّم معناه عند قوله تعالى { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً } [4]. وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهرانيهم، تعريض بأنّهم أشقياء بدعاء آلهتهم.

{ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً [49] **وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً** [50]}.

طوي ذكر اعتزاله إيّاهم بعد أن ذكر عزمه عليه إيجازا في الكلام للعلم بأنّ مثله لا يعزم أمرا إلّا نفّذه.

{ **وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** } لمّا اعتزل أباه وقومه واستوحش بذلك الفراق وهبه الله ذرّيّة يأنس لهم، إذ وهبه إسحاق ابنه، ويعقوب ابن ابنه، وجعلهما نبيين. وحسبك بهذا مكرمة له عند ربّه.

وليس مجازاة الله إبراهيم مقصورة على أن وهبه إسحاق ويعقوب، إذ ليس في الكلام ما يقتضي الانحصار، فإنّه قد وهبه إسماعيل أيضا، وظهرت موهبته إيّاه قبل ظهور موهبة إسحاق، وكل ذلك بعد أن اعتزل قومه.

وإنّما اقتصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل فلم يقل: وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأنّ إبراهيم لمّا اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قريبته، فهي قد اعتزلت قومها أيضا إرضاء لربّها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه، وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب، ولأنّ هذه الموهبة لمّا كانت كفاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب.

أمّا إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيدا عن إبراهيم في مكّة ليكون جار بيت الله. وإنّه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما.

وقد خُصّ إسماعيل بالذكر استقلالا عقب ذلك، ومثله قوله تعالى { وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [صّ:45] ثمّ قال { وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ } [صّ:48]، وقد قال في آية الصافات { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ} [99-101] إلى أن قال { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات:112] فذكر هنالك إسماعيل عقب قوله {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [99] إذ هو المراد بالغلام الحليم.

الهبة هنا: تقدير ما في الأزل عند الله لأنّ ازدياد إسحاق ويعقوب كان بعد خروج إبراهيم بمدّة بعد أن سكن أرض كنعان وبعد أن اجتاز بمصر ورجع منها. وكذلك ازدياد إسماعيل كان بعد خروجه بمدّة وبعد أن اجتاز بمصر كما وردفي الحديث وفي التوراة.

{ **وَيَعْقُوبَ** } النكتة في ذكر يعقوب أنّ إبراهيم رآه حفيدا وسرّ به، فقد ولد يعقوب قبل موت إبراهيم بخمس عشر سنة، وأنّ من يعقوب نشأت أمة عظيمة.

{ **وَوَهَبْنَا لَهُمْ** } ضمير { لَهُمْ } عائد إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

اللسان: هنا مجاز في الذكر والثناء.

الصدق: بلوغ كمال نوعه، كما تقدّم آنفا، فلسان الصدق ثناء الخير والتبجيل.

{ **عَلِيّاً** }: مجاز لشرف ذلك الثناء.
وقد رُتّب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيبا بديعا إذ جوزي بنعمة الدنيا وهي العقب الشريف، ونعمة الآخرة وهي الرحمة، وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق، إذ لا يذكر به إلّا من حصّل النعمتين.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً [51] وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً [52] وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً [53]}.
أفضت مناسبة ذكر إبراهيم ويعقوب إلى أن يذكر موسى في هذا الموضع لأنّه أشرف نبيّ من ذرية إسحاق ويعقوب.
{ **مُخْلَصاً** } قرأ الجمهور { مُخْلِصاً } (بكسر اللام) من أخلص القاصر إذا كان الإخلاص صفته. والإخلاص في أمر ما: الإتيان به غير مشوب بتقصير ولا تفريط، مشتقّ من الخلوص، وهو التمحّض وعدم الخلط.
والمراد هنا: الإخلاص فيما هو شأنه، وهو الرسالة بقرينة المقام.
وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف { مُخْلَصاً } (بفتح اللام) من أخلصه، إذا اصطفاه.
وخُصَّ موسى بعنوان (المخلص)، على الوجهين، لأنّ ذلك مزيّته، فإنّه أخلص في الدعوة إلى الله فاستخفّ بأعظم جبّار وهو فرعون، وجادله مجادلة الأكْفاء، كما حكى الله عنه في قوله تعالى { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ - إلى قوله - قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ } [الشعراء:18- 30]. وكذلك ما حكاه الله عنه بقوله { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ } [القصص:17].
فكان الإخلاص في أداء أمانة الله تعالى ميزته. ولأنّ الله اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، فكان مخلَصا بذلك، أي مصطفى، لأنّ ذلك مزيّته قال تعالى { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي } [طه:41].
{ **وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً** } الرسول هو المرسل بوحي من الله ليبلّغ إلى النّاس فلا يكون الرسول إلّا نبيئا، وأمّا النبيّ فهو المنبأ بوحي من الله وإن لم يؤمر بتبليغه، فإذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي وليس رسولا، فالجمع بينهما هنا لتأكيد الوصف، إشارة إلى أنّ رسالته بلغت مبلغا قويّا.
{ **وَنَادَيْنَاهُ** } النداء: الكلام الدال على طلب الإقبال، وأصله جهر الصوت لإسماع البعيد، فأطلق على طلب إقبال أحد مجازا مرسلا، ومنه { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ } [الجمعة:9]، وهو مشتقّ من النَدى (بفتح النون وبالقصر) وهو بعد الصوت. ولم يسمع فعله إلّا بصيغة المفاعلة، وهي للمبالغة.

وهذا النداء هو الكلام الموجّه إليه من جانب الله تعالى، قال تعالى { إني اصطفيتك على النّاس برسالتي وبكلامي } [الأعراف:144].

وتقدّم تحقيق صفة (**الكلام**) هناك وعند قوله { حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ }[براءة:4].

الطور: الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر، ويقال: له طور سيناء.

جانبه: ناحيته السفلى.

{ **الأيمن** } لأنّه الذي على يمين مستقبل مشرق الشمس، لأنّ جهة الشمس هي الجهة التي يضبط بها البشر النواحي.

{ **وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً** } التقريب أصله الجعل بمكان القرب، وهو الدنو وهو ضدّ البعد. وأريد هنا القرب المجازي وهو الوحي. فقوله { نَجِيّاً } حال من ضمير { مُوسَى } ، وهي حال مؤكّدة لمعنى التقريب.

نَجِيّ: فعيل بمعنى مفعول من المناجاة. وهي المحادثة السريّة. شُبّه الكلام الذي لم يكلِّم بمثله أحدًا ولا أطلع عليه أحدًا، بالمناجاة.

{ **وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً** } المعنى أنّ الله عزّزه به وأعانه به، إذ جعله نبيّا وأمره أن يرافقه في الدعوة، لأنّ في لسان موسى حبسة، وكان هارون فصيح اللسان. فكان يتكلّم عن موسى بما يريد إبلاغه، وكان يستخلفه في مهمّات الأمّة. وإنّما جعلت تلك الهبة من رحمة الله لأنّ الله رحم موسى إذ يسّر له أخا فصيح اللسان، وأكرمه بالإنباء حتّى يعلم مراد موسى مما يبلّغه عن الله تعالى. ولم يوصف هارون بأنّه رسول، إذ لم يرسله الله تعالى وإنّما جعله مبلّغا عن موسى. وأمّا قوله { فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ } [طه:47] فهو من التغليب.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً [54] وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً [55] }.

خُصَّ إسماعيل بالذكر هنا تنبيها على جدارته بالاستقلال بالذكر عقب ذكر إبراهيم وابنه اسحاق، لأنّ إسماعيل صار جدّ أمّة مستقلّة قبل أن يصير يعقوب جدّ أمّة، و لأنّ إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم وشريكه في بناء الكعبة.

وتقدم ذكر إسماعيل عند قوله تعالى { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ } [البقرة:127].

{ **إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ** } خصّه بوصف صدق الوعد لأنّه اشتهر به وتركه خُلقا في ذرّيّته. وأعظم وعدٍ صدَّقه وعدُه أباه إبراهيم بأن يجده صابرا على الذبح {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: 102].

{ **وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً** } وجعله الله نبيا ورسولا إلى قومه. وهم يومئذ لا يَعْدُون أهلَه؛ أمّه وبنيه وأصهاره من جرهم. فلذلك قال الله تعالى { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ }، ثمّ إنّ أمّة العرب نشأت من ذرّيّته فهم أهله أيضا، وقد كان من شريعته الصلاة والزكاة وشؤون ملّة أبيه إبراهيم.

وتقدّم توجيه الجمع بين وصف رسول ونبيّ عند ذكر موسى عليه السلام آنفا.

{ **وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً** } إنعامه عليه نعما كثيرة، إذ باركه وأنْمى نسله وجعل أشرف الأنبياء من ذرّيّته، وجعل الشريعة العظمى على لسان رسول من ذرّيّته.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً [56] وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً [57] } .

إدريس: اسم جعل علما على جدّ أبي نوح، وهو المسمّى في التوراة (**أخنوخ**). فنوح هو ابن لامك بن متوشالح بن أخنوخ، فلعلّ اسمه عند نسّابي العرب إدريس، أو أنّ القرآن سمّاه بذلك اسما مشتقا من الدرس لما سيأتي قريبا. واسمه (**هرمس**) عند اليونان, ويزعم أنّه كذلك يسمّى عند المصرين القدماء، والصحيح أنّ اسمه عند المصريين (**توت**) أو تحوتي أو تهوتي لهجات في النطق باسمه.

وذكر ابن العِبْري في تاريخه: " أنّ إدريس كان يلقّب عند قدماء اليونان (**طريسمجيسطيس**)، ومعناه بلسانهم ثلاثي التعليم، لأنّه كان يصف الله بثلاث صفات ذاتية وهي الوجود والحكمة والحياة ".

ولا يخفى قرب الحروف الأولى في هذا الاسم من حروف إدريس, فلعلّ العرب اختصروا الاسم لطوله فاقتصروا على أوّله مع تغيير.

وكان إدريس نبيّا، ففي الإصحاح الخامس من سفر التكوين : " وسار أخنوخ مع الله ".

قيل: هو أوّل من وضع للبشر عمارة المدن، وقواعد العلم، وقواعد التربية، وأوّل من وضع الخط، وعلم الحساب بالنجوم وقواعد سير الكواكب، وتركيب البسائط بالنار، فلذلك كان علم الكيمياء ينسب إليه، وأوّل من علّم النّاس الخياطة. فكان هو مبدأ من وضع العلوم، والحضارة، والنظم العقلية.

فوجه تسميّته في القرآن بإدريس أنّه اشتُق له اسم من (**الدرس**) على وزن مناسب للأعلام العجميّة، فلذلك مُنع من الصرف مع كون حروفه من مادة عربية، كما مُنع إبليس وطالوت من الصرف.

{ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً** } قال جماعة من المفسّرين هو رفع مجازي. والمراد: رفع المنزلة، لما أوتيه من العلم الذي فاق به على من سلفه. ونقل هذا عن الحسن، وقال به أبو مسلم الأصفهاني.

وقال جماعة: هو رفع حقيقي إلى السماء. وفي سفر التكوين [الإصحاح:5]: " وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد، لأنّ الله أخذه ". وعلى هذا فرفعه مثل رفع عيسى عليه السلام.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً }[58].

الجملة استئناف ابتدائي، واسم الإشارة عائد إلى المذكورين من قوله { ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } [2].
والإتيان به دون الضمير للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر من الأوصاف، أي كانوا أحرياء بنعمة الله عليهم وكونهم في عداد المهديين المجتبين.

{ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ } مستأنفة دالة على شكرهم نعم الله عليهم وتقريبه إيّاهم بالخضوع له بالسجود عند تلاوة آياته، وبالبكاء الناشئ عن انفعال النفس انفعالا مختلطا من التعظيم والخوف.

{ سُجَّداً } جمع ساجد، **{ وَبُكِيّاً }** جمع باك. والأول بوزن فُعَّل مثل عُذَّل، والثاني وزنه فُعول جمع فاعل مثل قوم قُعود.

وقد سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم عند هذه الآية وسن ذلك لأمته، اقتداء بأولئك الأنبياء، فهم سجدوا كثيرا عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم، ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا.

{ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً [59] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً [60] جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً [61] لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً [62] تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً [63] }.

فُرِّع على الثناء عليهم اعتبار وتنديد بطائفة من ذرّيّاتهم لم يقتدوا بصالح أسلافهم وهم المعني بالخَلْف.
الخَلْف (بسكون اللام) عقِب السوء، و**الخَلَف** (بفتح اللام) عقب الخير. وتقدّم عند قوله تعالى { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ } [الأعراف:169].

وهو هنا يشمل جميع الأمم التي ضلّت، لأنّها راجعة في النسب إلى إدريس جدّ نوح، إذ هم من ذرّيّة نوح، ومن يرجع أيضا إلى إبراهيم، فمنهم من يدلي إليه من نسل إسماعيل وهم العرب، ومنهم من يدلي إليه من نسل يعقوب وهم بنو إسرائيل.

{ مِنْ بَعْدِهِمْ } يشمل طبقات وقرونا كثيرة، وليس قيدا، لأنّ الخلف لا يكون إلّا من بعد أصله، وإنّما ذكر لاستحضار ذهاب الصالحين.

{ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ } هذان وصفان جامعان لأصناف الكفر والفسوق، فالشرك إضاعة للصلاة لأنّه انصراف عن الخضوع لله تعالى، فالمشركون أضاعوا الصلاة تماما، واتبعوا عبادة الأصنام

لمجرّد الشهوة من غير دليل، وهؤلاء هم المقصود هنا، وغير المشركين كاليهود والنصارى فرّطوا في صلوات واتّبعوا شهوات ابتدعوها، ويشمل ذلك كلّه اسم الغيّ.

الإضاعة: مجاز في التفريط بتشبيهه بإهمال العرض النفيس، فرّطوا في عبادة الله واتّبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه أنفسهم ممّا هو فساد.

الصلاة: عبادة الله وحده.

الغيّ: الضلال، ويطلق على الشرّ، كما أطلق ضدّه وهو الرشد على الخير في قوله تعالى { أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً } [الجن: 10]، فيجوز أن يكون المعنى فسوف يلقون جزاء غيّهم، كقوله تعالى { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً } [الفرقان:68] أي جزاء الآثام. وقرينة ذلك مقابلته في ضدّهم بقوله تعالى { فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ }.

{ **فَسَوْفَ** } دال على أنّ لقاءهم الغي متكرّر في أزمنة المستقبل، مبالغة في وعيدهم، وتحذيرا لهم من الإصرار على ذلك.

{ **فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ** } جيء في جانبهم باسم الإشارة إشادة بهم وتنبيها لهم للترغيب في توبتهم من الكفر. وجيء بالمضارع الدال على الحال للإشارة إلى أنّهم لا يُمْطَلون في الجزاء.

الجنة: علمٌ لدار الثواب والنعيم. وفيها جنات كثيرة كما ورد في الحديث: " **أَوَ جنّة واحدة هي، إنّها لجنان كثيرة** ".

الظلم: هنا بمعنى النقص والإجحاف والمطل، كقوله تعالى { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا } [الكهف:33].

{ **شيئا** } سياق النفي يفيد نفي كلّ فرد من أفراد النقص والإجحاف والإبطاء.

{ **جَنَّاتِ** } بدل من { الجنة } . جيء بصيغة الجمع مع أنّ المبدل منه مفرد لأنّه يشتمل على جنات كثيرة كما علمت، وهو بدل مطابق وليس بدل اشتمال.

{ **عَدْنٍ** } الخلد والإقامة، أي جنات خلد.

{ **الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ** } لزيادة تشريفها وتحسينها، وفي ذلك إدماج لتبشير المؤمنين السابقين في أثناء وعد المدعوين إلى الإيمان.

الغيب: مصدرغاب، فكلّ ما غاب عن المشاهدة فهو غيب. تقدم في قوله { الذين يؤمنون بالغيب }[البقرة:3].

{ **بِالْغَيْبِ** } الباء للظرفية، أي في الأزل إذ خلقها لهم، قال تعالى { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين } . وفيه تنبيه على أنّها وإن كانت محجوبة عنهم في الدنيا فإنّها مهيّئة لهم.

{ **إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً** } تعليل، أي يدخلون الجنّة وعدا من الله واقعا. وهذا تحقيق للبشارة.

الوعد: هنا مصدر مستعمل في معنى المفعول. فالله وعد المؤمنين الصالحين جنّات عدن، فالجنّات لهم موعودة من ربّهم.
المأتيّ: الذي يأتيه غيره، وقد استعير الإتيان لحصول المطلوب المترقّب، تشبيها لمن يحصّل الشيء بعد أن سعى لتحصيله بمن مشى إلى مكان حتى أتاه، وتشبيها للشيء المحصّل بالمكان المقصود.
{ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً** } حال من { عِبَادَهُ }
اللغو: فضول الكلام وما لا طائل تحته. وإنفاؤه كناية عن انتفاء أقلّ المكدّرات في الجنّة، كما قال تعالى { لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً } [الغاشية:11]، وكناية عن جعل مجازاة المؤمنين في الجنّة بضدّ ما كانوا يلاقونه في الدنيا من أذى المشركين ولغوهم.
{ **إِلَّا سَلاَماً** } استثناء منقطع وهو مجاز من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.
أي لكن تسمعون سلاما، قال تعالى { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [يونس:10] وقال أيضا { لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً } [الواقعة:25،26].
الرزق: الطعام.
وجيء بالجملة الاسميّة للدلالة على ثبات ذلك ودوامه، فيفيد التكرّر المستمر وهو أخصّ من التكرّر المفاد بالفعل المضارع وأكثر. وتقديم الظرف للاهتمام بشأنهم، وإضافة رزق إلى ضميرهم لزيادة الاختصاص.
البكرة: النصف الأول من النار، و**العشي**: النصف الأخير، والجمع بينهما كناية عن استغراق الزمن، أي لهم رزقهم غير محصور ولا مقدّر بل كلّما شاءوا، فلذلك لم يذكر الليل.
{ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً** } مستأنفة ابتدائية، واسم الإشارة لزيادة التمييز تنويها بشأنها وأجريت عليها الصفة بالموصول وصلته تنويها بالمتّقين وأنّهم أهل الجنّة كما قال تعالى { أُعْدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ }.
{ **نُورِثُ** } نجعل وارثا، أي نعطي الإرث. وحقيقة الإرث: انتقال مال القريب إلى قريبه بعد موته لأنّه أولى النّاس بماله، فهو انتقال مقيّد بحالة. واستعير هنا للعطيّة المدّخرة لمعطاها، تشبيها بمال لموروث الذي يصير إلى وارثه آخر الأمر.

{ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ ربّك لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ ربّك نَسِيّاً }[64].
موقع هذه الآية هنا غريب. فقال جمهور المفسّرين: إنّ سبب نزولها أنّ جبريل عليه السلام أبطأ أياما عن النزول إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّ النبيّ ودّ أن تكون زيارة جبريل له أكثر مما هو يزوره فقال لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } إلى آخر الآية، أي إلى قوله {نَسِيّاً}، رواه البخاري والترمذي عن ابن عباس. وظاهره أنّه رواية، وهو أصحّ ما روي في سبب نزولها

وأْلَيَقه بموقعها هنا.

والمعنى: أنّ الله أمر جبريل عليه السلام أن يقول هذا الكلام جوابا عنه، فالنظم نظم القرآن بتقدير: وقل ما نتنزّل إلّا بأمر ربّك، فكان هذا خطابا لجبريل ليبلّغه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قرآنا. فالواو عاطفة فعل القول المحذوف على الكلام الذي قبله عطف قصّة على قصّة مع اختلاف المخاطب، وأمر الله رسوله أن يقرأها هنا، ولأنّها نزلت لتكون من القرآن.

ولا شك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ذلك لجبريل عليه السلام عند انتهاء قصص الأنبياء في هذه السورة فأثبتت الآية في الموضع الذي بلغ إليه نزول القرآن.

والضمير لجبريل والملائكة، أعلم الله نبيّه على لسان جبريل أنّ نزول الملائكة لا يقع إلّا عن أمر الله تعالى وليس لهم اختيار في النزول ولقاء الرسل، قال تعالى { لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الانبياء:27].

{ **نَتَنَزَّلُ** } مرادف ننزل، وأصل التنزّل: تكلّف النزول. فأطلق ذلك على نزول الملائكة إلى الأرض، لأنّه نزول نادر وخروج عن عالمهم فكأنّه متكلّف، قال تعالى { تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها } [القدر:4].

{ **لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ** } اللام للملك، وهو ملك التصرف. ما هو أمامنا، وما هو وراءنا، وما كان عن أيمانهم وعن شمائلهم، لأنّ ما كان عن اليمين وعن الشمال هو بين الأمام والخلف. والمقصود استيعاب الجهات.

{ **وَمَا كَانَ ربّك نَسِيّاً** } على هذا الوجه من الكلام الملقن به جبريل جوابا للنبي صلى الله عليه وسلم.

{ **نَسِيّاً** } صيغة مبالغة من نسي، أي كثير النسيان أو شديده. فيتعيّن صرف المبالغة إلى جانب نسبة نفي النسيان عند الله، أي تحقيق نفي النسيان مثل المبالغة في قوله { وما ربّك بظلام للعبيد }. فهو هنا كناية عن إحاطة علم الله، أي أنّ تنزّلنا بأمر الله لما هو على وفق علمه وحكمته في ذلك.

النسيان: الغفلة عن توقيت الأشياء بأوقاتها. وقد فسروا هنا بتارك، أي ما كان ربّك تاركك. وعليه فالمبالغة منصرفة إلى طول مدّة النسيان.

وجوّز أبو مسلم وصاحب الكشّاف : أنّ هذه الآية من تمام حكاية كلام أهل الجنّة بتقدير فعل يقولون حالا من قوله { مَنْ كَانَ تَقِيًّا } ، أي وما نتنزل في هذه الجنّة إلّا بأمر ربّك. **وهو تأويل حسن.**

وعليه فكاف الخطاب في قوله { بِأَمْرِ رَبِّكَ } خطاب كل قائل لمخاطبه.

وهذا التجويز بناء على أن ما روى عن ابن عباس رأي له في تفسير الآية لا تتعيّن متابعته.

وعليه فجملة { وَمَا كَانَ ربّك نَسِيّاً } من قول الله تعالى لرسوله تذييلا لما قبله، أو هي من كلام أهل الجنة، أي وما كان ربنا غافلا عن إعطاء ما وعدنا به.

{ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [65].

جملة مستأنفة من كلام الله تعالى كما يقتضيه قوله { فَاعْبُدْهُ } إلى آخره، ذيّل به الكلام الذي لقّنه جبريل المتضمّن: أن الملائكة لا يتصرّفون إلّا عن إذن ربّهم، وأنّ أحوالهم كلّها في قبضته، بما يفيد عموم تصرّفه تعالى في سائر الكائنات، ثمّ فرّع عليه أمر الرسول عليه السلام بعبادته، فقد انتقل الخطاب إليه.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ** } ارتفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ملتزم الحذف في المقام الذي يذكر فيه أحد بأخبار وأوصاف ثمّ يراد تخصيصه بخبر آخر.

السماوات: العوالم العلوية. و**الأرض**: العالم السفلي، و**ما بينهما**: الأجواء والآفاق. وتلك الثلاثة تعمّ سائر الكائنات.

{ **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وتفريع الأمر بعبادته على ذلك ظاهر المناسبة، ويحصل منه التخلّص إلى التنويه بالتوحيد وتفظيع الإشراك.

الاصطبار: شدّة الصبر على الأمر الشاق، لأنّ صيغة الافتعال ترد لإفادة قوّة الفعل. وكان الشأن أن يعدّى الاصطبار بحرف (على) كما قال تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } [طه:132] ولكنّه عدّي هنا باللام لتضمينه معنى الثبات، أي اثبت للعبادة، لأنّ العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس. وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء: **" هي**

أثقل صلاة على المنافقين ". فلذلك لمّا أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلّها، وفيها أصناف جمّة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه، فعدي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعداتك.

{ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً** } واقعة موقع التعليل للأمر بعبادته والاصطبار عليها.

السميّ: هنا الأحسن أن يكون بمعنى المسامي، أي المماثل في شؤونه كلّها. فعن ابن عباس أنّه فسّره بالنظير، فالسميّ هنا بمعنى **المماثل في الصفات**، بحيث تكون المماثلة في الصفات كالمساماة.

والاستفهام إنكاري، أي لا مسامي لله تعالى، أي ليس من يساميه، أي يضاهيه.

وقيل السميّ: **المماثل في الاسم**، كقوله في ذكر يحيى { لم نجعل له من قبل سميّا } . والمعنى: لا تعلم له مماثلا في اسمه (الله)، فإنّ المشركين لم يسمّوا شيئا من أصنامهم (الله) باللام وإنّما يقولون للواحد منها إله، فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمّة باسمه كناية عن إعتراف النّاس بأنّ لا مماثل له في صفة الخالقية، لأنّ المشركين لم يجترئوا على أن يدّعوا لآلهتهم الخالقيّة، قال تعالى { ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله } . وبذلك يتمّ كون الجملة تعليلا للأمر بإفراده بالعبادة على هذا الوجه أيضا. وكنِّي بانتفاء العلم بسميه عن انتفاء وجود سميّ له، لأن العلم يستلزم وجود المعلوم، وإذا انتفى مماثله انتفى

من يستحق العبادة غيره.

{ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً [66] أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً [67]}.

لمّا تضمّن قوله { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } إبطال عقيدة الإشراك به ناسب الانتقال إلى إبطال أثر من آثار الشرك، وهو نفي المشركين وقوع البعث بعد الموت، حتى يتمّ انتقاض أصلي الكفر.

{ **وَيَقُولُ** } الواو عاطفة قصّة على قصة. والإتيان بالمضارع لاستحضار حالة هذا القول للتعجيب والإنكار.

{ **الْإِنْسَانُ** } المراد جمع من النّاس، بقرينة قوله بعده { فَوربِّكَ لَنَحْشرنّهم } ، فيراد من كانت هاته مقالته، وهم معظم المخاطبين بالقرآن في أوّل نزوله. ويجوز أن يكون وصفٌ حُذف، أي الإنسان الكافر، كما حذف الوصف في قوله تعالى { يَأخذُ كُلَّ سَفِينةٍ غَصْباً }، أي كلّ سفينة صالحة.

وكذلك إطلاق النّاس على خصوص المشركين منهم ورد في آيات كثيرة كقوله تعالى { يَاأَيُّهَا النّاس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم - إلى قوله - فأتوا بسورة من مثله } فإن ذلك خطاب للمشركين.

وقيل التعريف للعهد، لإنسان معيّن. فقيل، قائل هذا أبَي بن خلف، وقيل: الوليد بن المغيرة.

{ **أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً** } الاستفهام إنكاري لتحقيق وقوع البعث، فلذلك أُتي بالجملة المسلّط عليها الإنكار مقترنة بـ (لام) الابتداء الدالة على توكيد الجملة الواقعة هي فيها.

{ **أُخْرَجُ** } المتعلّق محذوف، أي أخرج من القبر.

{ **أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ** } معطوفة على { يَقُولُ الْإِنْسَانُ } ، أي يقول ذلك ومن النكير عليه أنّه لا يتذكر أنّا خلقناه من قبل. والاستفهام إنكار وتعجيب من ذهول الإنسان، المنكر البعث، عن خلقه الأوّل.

{ **وَلَمْ يَكُ شَيْئاً** } الشيء: هو الموجود، أي أنّا خلقناه ولم يك موجودا.

والمعنى: الإنكار على الكافرين أن يقولوا ذلك ولا يتذكّروا حال النشأة الأولى، فإنّها أعجب عند الذين يجرون في مداركهم على أحكام العادة، فإنّ الإيجاد عن عدم من غير سبق مثال أعجب وأدعى إلى الاستبعاد من إعادة موجودات كانت لها أمثلة، ولكنّها فسدت هياكلها وتغيّرت تراكيبها. وهذا قياس على الشاهد، وإن كان القادر سواء عليه الأمران.

{ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً [68] ثُمّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً [69] ثُمّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً [70] } .

{ **فَوَرَبِّكَ** } الفاء تفريع على جملة { أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ }، باعتبار ما تضمّنته من التهديد. و(واو) القسم

لتحقيق الوعيد. والقسم بالربّ مضافا إلى ضمير المخاطب وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم إدماج لتشريف قدره.

{ **لَنَحْشُرَنَّهُمْ** } الضمير عائد إلى { الْإِنْسَانُ } المراد به الجنس المفيد للاستغراق العرفي كما تقدّم، أي لنحشرنّ المشركين.

{ **وَالشَّيَاطِينَ** } عطف على ضمير المشركين لقصد تحقيرهم بأنّهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده، وللإشارة إلى أنّ الشياطين هم سبب ظلالهم الموجب لهم هذه الحالة، فحشرهم مع الشياطين إنذار لهم بأنّ مصيرهم هو مصير الشياطين.

{ **ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً** } الضمير للجميع. وهذا إعداد آخر للتقريب من العذاب، فهو إنذار على إنذار وتدرّج في إلقاء الرعب في قلوبهم.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي لا للمهلة إذ ليست المهلة مقصودة وإنّما المقصود أنّهم ينقلون من حالة عذاب إلى أشدّ.

{ **جِثِيّاً** } حال من ضمير { لَنُحْضِرَنَّهُمْ }. و**الجثيّ**: جمع جاث. ووزنه فُعول مثل قُعود وجُلوس، وهو وزن سماعي في جمع فاعل. يقال: جثا يجثو إذا برك على ركبته وهي **هيئة الخاضع الذليل**.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { جِثِيّاً } (بكسر الجيم) وهو كسر إتباع لحركة الثاء.

وهذا الجثو هو غير جثو النّاس في الحشر المحكي بقوله تعالى { وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا } [الجاثية:28] فإن ذلك جثو خضوع لله، وهذا جثو مذلّة.

{ **ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ** } هذه حالة أخرى من الرعب أشدّ من اللتين قبلها، وهي حالة تميّزهم للإلقاء في دركات الجحيم، على حسب مراتب غلوّهم في الكفر.

النزع: إخراج شيء من غيره، ومنه نزع الماء من البئر.

الشيعة: الطائفة التي شايعت أحدا، أي اتّبعته، فهي على رأي واحد. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ } [الحجر:10]. والمراد هنا شيع أهل الكفر، أي ممّن أحضرناهم حول جهنّم.

العُتيّ: العصيان والتجبّر، فهو مصدر بوزن فُعول مثل: خُروج وجلوس، فقلبت الواو ياء. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { عِتِيّاً } (بكسر العين) إتباعا لحركة التاء كما تقدّم في { جِثِيّاً }.

والمعنى: لنميّزنّ من كل فرقة تجمعها محلّة خاصة من دين الضلال من هو من تلك الشيعة أشدّ عصيانا لله وتجبّرا عليه، وهذا تهديد لعظماء المشركين مثل أبي جهل وأميّة بن خلف ونظرائهم.

{ **أَيُّهُمْ** } و(أيّ) اسم موصول بمعنى (ما) و(من). والغالب أن يحذف صدر صلتها فتبنى على الضمّ. وأصل التركيب: أيّهم هو أشدّ عتيّا على الرحمان. وذكر صفة الرحمان هنا لتفظيع عتوّهم، لأنّ شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان.

الصُّلْيُ: مصدر صَلِيَ النار كرضي، وهو مصدر سماعي بوزن فعول. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { **صِلِيّاً** } (بكسر الصاد) إتّباعا لحركة اللام، كما تقدّم في {جِثِيّاً }.

{ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبّك حَتْماً مَقْضِيّاً [71] ثمّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [72] }.

معترضة بين { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ } وجملة { وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين كفروا }. لمّا ذكر انتزاع الذين هم أولى بالنّار من بقية طوائف الكفر عطف عليه أنّ جميع طوائف الشرك يدخلون النّار، دفعا لتوهّم أنّ انتزاع من هو أشدّ على الرحمان عتيّا هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب، بأن يحسبوا أنّ كبراءهم يكونون فداء لهم من النّار أو نحو ذلك.

{ **وَإِنْ مِنْكُمْ** } الخطاب التفات عن الغيبة في قوله { لنحشرنّهم } و { لنحضرنّهم }، عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد، فإنّ ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة. وعن ابن عباس أنّه كان يقرأ (وإن منهم) ، وكذلك قرأ عكرمة وجماعة.

فالمعنى: وما منكم أحد ممّن نُزع من كل شيعة وغيره إلّا وارد جهنّم حتما، قضاه الله فلا مبدّل لكلماته.

الورود: حقيقته الوصول إلى الماء للاستقاء. ويطلق على الوصول مطلقا مجازا شائعا، وأمّا إطلاق الورود على الدخول فلا يعرف إلّا أن يكون مجازا غير مشهور، فلا بدّ له من قرينة.

{ **كَانَ عَلَى رَبّك حَتْماً مَقْضِيّاً** } زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنّهم خالدون في العذاب، فليس ورودهم النّار بمؤقّت بأجل.

الحتم: اصله مصدر حتمه إذ جعله لازما، وهو هنا بمعنى المفعول، أي محتوما على الكافرين.

{ **ثمّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** } (ثُمَّ) للترتيب الرتبي، تنويها بإنجاء الذين اتقوا، وليس المعنى: ثمّ ينجي المتقين من بينهم، بل المعنى أنّهم نجوا من الورود إلى النّار. وذكر إنجاء المتقين، أي المؤمنين، إدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين.

{ **وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً** } عطف على { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا }. والظالمون: المشركون.

والتعبير بالذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار. والأصل: ونذركم أيها الظالمون.

نذر: نترك، وهو مضارع ليس له ماض من لفظه، أمات العرب ماضي (نذر) استغناء عنه بماضي (ترك)، كما تقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام:91]. وفيه إشعار بالتحقير، أي نتركهم في النّار لا نعبأ بهم، لأنّ في فعل الترك معنى الإهمال.

وهذه الآية مثار إشكال ومحطّ قيل وقال، واتفق جميع المفسّرين على أنّ المتّقين لا تنالهم نار جهنّم.

واختلفوا في محل الآية فمنهم من جعل ضمير (منكم) لجميع المخاطبين بالقرآن، ورووه عن بعض السلف فصدمهم فساد المعنى ومنافاة حكمة الله والأدلة الدالة على سلامة المؤمنين يومئذ من لقاء أدنى عذاب، فسلكوا مسالك من التأويل، فمنهم من تأوّل الورود بالمرور المجرّد دون أن يمسّ المؤمنين أذى، وهذا بُعد عن الاستعمال. وفي آي القرآن ما جاء (الورود) إلّا لمعنى المصير إلى النّار كقوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } [الانبياء:98]، وقوله { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } [هود:98]، وقوله { وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً } [86]. على أنّ إيراد المؤمنين إلى النّار لا جدوى له فيكون عبثا، ولا اعتداد بما ذكره له الفخر مما سمّاه فوائد.

ومنهم من تأوّل ورود جهنّم بمرور الصراط، وهو جسر على جهنّم، فساقوا الأخبار المروية في مرور النّاس على الصراط متفاوتين في سرعة الاجتياز. وهذا أقلّ بعدا من الذي قبله.

وروى الطبري وابن كثير في هذين المحملين أحاديث لا تخرج عن مرتبة الضعف مما رواه أحمد في مسنده والحكيم الترمذي في (نوادر الأصول)، وأصحّ ما في الباب ما رواه أبو عيسى الترمذي قال: " يرد النّاس النار ثمّ يصدرون عنها بأعمالهم ". الحديث في مرور الصراط.

ومن النّاس من لفّق تعضيدا لذلك بالحديث الصحيح: **" أنّه لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النّار إلّا تحلّة القسم "**. فتأوّل تحلّة القسم بأنّها ما في هذه الآية من قوله تعالى { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } **وهذا محمل باطل،** إذ ليس في هذه الآية قسم يتحلّل، وإنّما معنى الحديث: أنّ من استحق عذابا من المؤمنين لأجل معاص فإذا كان قد مات له ثلاثة من الولد كانوا كفّارة له فلا يلج النّار إلّا ولوجا قليلا يشبه ما يفعل لأجل تحلّة القسم، أي التحلّل منه. وذلك أن المقسم على شيء إذا صعب عليه برّ قسمه اخذ بأقلّ ما يتحقّق فيه ما حلف عليه، فقوله تحلّة القسم تمثيل.

ويروي عن بعض السلف روايات أنّهم تخوّفوا من ظاهر هذه الآية. من ذلك ما نقل عن عبد الله بن رواحة، وعن الحسن البصري، وهو من الوقوف في موقف الخوف من شيء محتمل.

والقول عندي أنّ الخطاب في قوله { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } ليس لجميع النّاس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام، بحيث يقتضي أنّ المؤمنين يردون النّار مع الكافرين ثمّ ينجون من عذابها، لأنّ هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة. ولأن فضل الله على المؤمنين بالجنّة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقا واحدا، كيف وقد صدر الكلام بقوله تعالى { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ } وقاله { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا }[85،86] ، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين.

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر:43] عقب قوله { إِنَّ عِبَادِي

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42].

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً [73] وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً [74] }.

عطف على قوله { ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا }. وهذا صنف آخر من غرور المشركين بالدنيا وإناطتهم دلالة على السعادة بأحوال طيب العيش في الدنيا، فكان المشركون يتشفّون على المؤمنين ويرون أنفسهم أسعد منهم.

التلاوة: القراءة. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المشركين القرآن فيسمعون آيات النعي عليهم وإنذارهم بسوء المصير، وآيات البشارة للمؤمنين بحسن العاقبة، فكان المشركون يكذّبون بذلك ويقولون: لو كان للمؤمنين خير لعُجّل لهم، فنحن في نعمة وأهل سيادة. فلأجل كون المشركين كانوا يقيسون هذا القياس الفاسد ويغالطون به جعل قولهم به معلّقا بزمان تلاوة آيات القرآن عليهم.

{ **آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } آيات القرآن، ومعنى كونها **بيّنات**: أنّها واضحات الحجّة عليهم، ومفعمة بالأدلة المقنعة.

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } اللام يجوز كونها للتعليل، أي قالوا لأجل الذين آمنوا، أي من أجل شأنهم، فيكون هذا القول المشركين فيما بينهم. ويجوز كونها متعلّقة بفعل { قَالَ } لتعديته إلى متعلّقه، فيكون قولهم خطابا منهم للمؤمنين.

{ **أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ** } الاستفهام تقريري.

{ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ** } خطاب من الله لرسوله. وقد أهلك الله أهل قرون كثيرة كانوا أرفه من مشركي العرب متاعا وأجمل منهم منظرا. فهذه الجملة معترضة بين حكاية قولهم وبين تلقين النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يجيبهم به عن قولهم. وموقعها التهديد وما بعدها هو الجواب.

الأثاث: متاع البيوت الذي يُتزيّن به.

{ **وَرِئْياً** } قرأه الجمهور بهمزة بعد الراء وبعد الهمزة ياء على وزن (فِعل) بمعنى مفعول، **من الرؤية**، أي أحسن مرئيّا، أي منظرا وهيئة.

وقرأه قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر { ريّا } بتشديد الياء بلا همز إمّا على أنّه من قلب الهمزة ياء وإدغامها في الياء الأخرى، وإمّا على أنّه من (**الريّ**) الذي هو النعمة والترفّه، من قولهم: ريّان من النعيم، وأصله من الريّ ضد العطش، لأنّ الريّ يستعار للتنعم كما يستعار التلهّف للتألم.

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً [75] وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً [76] }.

هذا جواب قولهم { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } . لقّن الله رسوله صلى الله عليه وسلم كشف مغالطتهم أو شبهتهم، فأعلمهم بأنّ ما هم فيه من نهمة الدنيا إنّما هو إمهال من الله إيّاهم، لأنّ ملاذ الكافر استدراج.

فمعيار التفرقة بين النعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده وبين النعمة التي هي استدراج لمن كفر به هو النظر إلى حال من هو في نعمة بين حال هدى وحال ضلال، قال تعالى في شأن الأوّلين { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97]. وقال في شأن الآخرين { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ } [المؤمنون:55-56].

{ **فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً** } اللام لام الأمر أو الدعاء، استعملت مجازا في لازم معنى الأمر، أي التحقيق، أي فسيمدّ له الرحمان مدا، أي أن ذلك واقع لا محالة على سنّة الله في إمهال الضُلّال، إعذارا لهم، كما قال تعالى { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ } [فاطر:37] وتنبيها للمسلمين أن لا يغتروا بإنعام الله على الضُلّال.

المَدُّ: حقيقته إرخاء الحبل وإطالته، ويستعمل مجازا في الإمهال كما هنا، وفي الإطالة كما في قولهم: مدّ الله في عمرك. و{ **مَدّاً** } مفعول مطلق مؤكّد لعامله، أي فليمدد له المد الشديد، فسينتهي ذلك.

{ **حَتَّى** } لغاية المدّ، وهي ابتدائية، أي يمدّ لهم الرحمان إلى أن يروا ما يوعدون.

{ **إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ** } تفصيل لـ { مَا يُوعَدُونَ }، أي إمّا عذاب الدنيا وإمّا عذاب الآخرة، فإنّ كلّ واحد منهم لا يعدو أن يرى أحد العذابين أو كليهما.

{ **فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً** } مقابل قولهم { خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } فالمكان يرادف المقام، والجند الأعوان، لأنّ (النديّ) أريد به أهله كما تقدّم.

{ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً** } معطوفة على جملة { مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً } لما تضمّنه ذلك من الإمهال المفضي إلى الاستمرار في الضلال، والاستمرار زيادة. فالمعنى على الاحتباك، أي فليمدد له الرحمان مدا فيزدد ضلالا، ويمدّ للذين اهتدوا فيزدادوا هدى.

{ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً** } عطف على جملة { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً }.

وهو ارتقاء من بشارتهم بالنجاة إلى بشارتهم برفع الدرجات، أي الباقيات الصالحات خير من السلامة من العذاب، أي فسيظهر أن ما كان فيه الكفرة من النعمة والعزّة هو أقل مما كان عليه المسلمون من الشظف والضعف باعتبار المآلين. إذ كان مآل الكفرة العذاب ومآل المؤمنين السلامة من العذاب والفوز بالنعيم.

الباقيات الصالحات: صفتان لمحذوف معلوم من المقام. أي الأعمال الباقي نعيمها وخيرها، والصالحات لأصحابها، هي خير عند الله من نعمة النجاة من العذاب. وقد تقدّم وجه تقديم الباقيات على الصالحات عند الكلام على نظيره في أثناء سورة الكهف.

{ **مَرَدّاً** } المردّ: المرجع. والمراد به عاقبة الأمر.

{ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً** [77] **أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً** [78] **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً** [79] **وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً** [80] }.

تفريع على قوله { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [66] وما اتصل به من الاعتراض والتفريعات. والمناسبة، أنّ قائل هذا الكلام كان في غرور مثل الغرور الذي كان فيه أصحابه. وهو غرور إحالة البعث.

والآية تشير إلى قصّة خباب بن الأرت مع العاصي بن وائل السهمي. ففي الصحيح : أنّ خبابا كان يصنع السيوف في مكّة. فعمل للعاصي ابن وائل سيفا وكان ثمنه دينا على العاصي، وكان خباب قد أسلم، فجاء خباب يتقاضى دينه من العاصي فقال له العاصي بن وائل: لا أقضيكه حتّى تكفر بمحمد، فقال خباب وقد غضب: لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله تم يبعثك. قال العاصي: أو مبعوث أنا بعد الموت؟ قال: نعم. قال العاصي متهكّما: إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دينك، فنزلت هذه الآية في ذلك.

{ **أَفَرَأَيْتَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب من كفر هذا الكافر. والرؤية مستعارة للعلم بقصّته العجيبة. نزلت القصّة منزلة الشيء المشاهد بالبصر، لأنّه من أقوى طرق العلم. والمقصود من الاستفهام لفت الذهن إلى معرفة هذه القصّة، أو إلى تذكّرها إن كان عالما بها.

والخطاب لكلّ من يصلح للخطاب فلم يرد به معيّن. ويجوز أن يكون خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

الآيات: القرآن، أي كفر بما أنزل من الآيات وكذّب بها. ومن جملتها آيات البعث.

الولد: اسم جمع لولد المفرد، وكذلك قرأه الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي في هذه السورة في الألفاظ الأربعة { وُلْدا } (بضم الواو وسكون اللام) فهو جمع ولد، كأسد وأُسد.

{ **أَطَّلَعَ الْغَيْبَ** } جواب لكلامه على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامه على ظاهر عبارته من الوعد بقضاء

الدين من المال الذي سيجده حين يبعث، فالاستفهام إنكاري وتعجيبي.
{ **أَطَّلَعَ** } افتعل من طلع للمبالغة في حصول فعل الطلوع وهو الارتقاء، ولذلك يقال لمكان الطلوع (مَطْلَع) بالتخفيف و(مُطَّلَعٌ) بالتشديد. ومن أجل هذا أطلق الاطلاع على الإشراف على الشيء. فالأصل أن فعل (اطلع) قاصر غير محتاج إلى التعدية، { قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ [54] فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ [55] }، فإذا ضُمّن معنى (أشرف) عدّي بحرف الاستعلاء كقوله {لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا} [الكهف:18].
والمعنى: أأشرف على عالم الغيب فرأى مالا وولدا معدّين له حين يأتي يوم القيامة أو فرأى ماله وولده صائرين معه في الآخرة.
{ **أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً** } متعلّق العهد محذوف يدل عليه السياق. تقديره: بأن يعطيه مالا وولدا.
{ **عِنْدَ** } ظرف مكان، وهو استعارة بالكناية بتشبيه الوعد بصحيفة مكتوب بها تعاهد وتعاقد بينه وبين الله موضوعة عند الله، لأنّ النّاس كانوا إذا أرادوا توثيق ما يتعاهدون عليه كتبوه في صحيفة ووضعوها في مكان حصين مشهور.
{ **الرَّحْمَنِ** } استحضار مدلوله أجدر في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر، ولأنّ في ذكر هذا الاسم تورّكا على المشركين الذين قالوا { وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].
{ **كَلَّا** } حرف ردع وزجر عن مضمون كلام سابق من متكلّم واحد، أو من كلام يحكى عن متكلّم آخر أو مسموع منه كقوله { قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [61] قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء:62] والأكثر أن تكون عقب آخر الكلام المبطَل بها، وقد تُقدَّم على الكلام المبطَل للاهتمام بالإبطال وتعجيله والتشويق إلى سماع الكلام الذي سيرد بعدها، كما في قوله تعالى { كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ } [المدثر: 32- 35] على أحد تأويلين.
ولما فيها من معنى الإبطال كانت في معنى النفي، فهي نقيض (إي) و (أجل) ونحوهما من أحرف الجواب بتقدير الكلام السابق. والغالب أن تكون متبعة بكلام بعدها، فلا يعهد في كلام العرب أن يقول قائل في رد كلام: كلا، ويسكت.
ولكونها حرف ردع أفادت معنى تاما يحسن السكوت عليه. فلذلك جاز الوقف عليها عند الجمهور. ومنع المبرّد الوقف عليها بناء على أنّها لابد أن تتبع بكلام، وقال الفرّاء: مواقعها أربعة:
1/ موقع يحسن الوقف عليها والابتداء بها كما في هذه الآية.
2/ موقع يحسن الوقف عليها ولا يحسن الابتداء بها كقوله {فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا} [الشعراء:15].
3/ موقع يحسن فيه الابتداء بها ولا يحسن الوقف عليها كقوله تعالى { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ } [المدثر:54].
4/ موقع لا يحسن فيه شيء من الأمرين كقوله تعالى { ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } [التكاثر:4].

وكلام الفراء يبيّن أن الخلاف بين الجمهور وبين المبرد لفضي لأنّ الوقف أعمّ من السكوت التام.

{ **سَنَكْتُبُ** } حرف التنفيس لتحقيق أنّ ذلك واقع لا محالة كقوله { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف:98].

المدّ في العذاب: الزيادة منه، كقوله { فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً }

{ **وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً** } الإرث: مستعمل مجازا في السلب والأخذ، أو كناية عن لازمه وهو الهلاك. والمقصود: تذكيره بالموت، أو تهديده بقرب هلاكه.

ومعنى إرث أولاده أنّهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله، فإنّ العاصي ولد عَمرا الصحابي الجليل وهشامًا الصحابي الشهيد يوم أجنادين، فهنا بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونكاية وكمد للعاصي بن وائل.

{ **مَا يَقُولُ** } في الموضعين إيجاز، لأنّه لو حكي كلامه لطال. أي ما قاله من الإلحاد والتهكّم بالإسلام. وما قاله من المال والولد، أي سنكتب جزاءه ونهلكه فنرثه ما سمَّاه، من المال والولد.

الفرد: الذي ليس معه ما يصير به عددا، إشارة إلى أنّه يحشر كافرا وحده دون ولده، ولا مال له.

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً [81] كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً [82] }.

عطف على جملة { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ } فضمير { اتَّخَذُوا } عائد إلى الذين أشركوا.

الاتخاذ: جعل الشخص الشيء لنفسه، وهنا الاعتقاد والعبادة. وفي فعل الاتخاذ إيماء إلى أنّ عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر الله به، كقول إبراهيم { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات: 95].

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } إيماء إلى أنّ الحقّ يقتضي أن يتّخذوا الله إلها، إذ بذلك تقرر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليقة، وعليه دلّت العقول الراجحة.

{ **لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً** } ليكونوا معزّين لهم، أي ناصرين، فأخبر عن الآلهة بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنّهم نفس العزّ، أي أنّ مجرّد الانتماء لها يكسبهم عزّا. وأجرى على الآلهة ضمير العاقل لأنّ المشركين الذين اتخذوهم توهموهم عقلاء مدبّرين.

{ **سَيَكْفُرُونَ** } الأظهر أنّ الضمير عائد إلى المشركين، أي سيكفر المشركون بعبادة الآلهة فيكون مقابل قوله { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً }. وفيه تمام المقابلة، أي بعد أن تكلّفوا جعلهم آلهة لهم سيكفرون بعبادتهم.

{ **وَيَكُونُونَ** } الضمير للآلهة، وفيه تشتيت الضمائر. ولا ضير في ذلك إذ كان السياق يرجع كلًّا إلى ما يناسبه.

ويجوز أن يكون ضميرا { سَيَكْفُرُونَ - يَكُونُونَ } راجعين إلى المشركين، وأنّ حرف الاستقبال للحصول

قريبا، أي سيكفر المشركون بعبادة الأصنام ويدخلون في الإسلام ويكونون ضدًّا على الأصنام يهدمون هياكلها ويلعنونها، فهو بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ دينه سيظهر على دين الكفر. وفي هذه المقابلة طباق مرّتين.

الضدّ: اسم مصدر، وهو خلاف الشيء في الماهية أو المعاملة. ومن الكنائي تسمية العدو ضدّا.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً [83] فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً[84] }.

استئناف بياني لجواب سؤال يجيش في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من إيغال الكافرين في الضلال، جماعتهم وآحادهم، وما جرّه إليهم من سوء المصير، ابتداء من قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً }، وما تخلّل ذلك من ذكر إمهال الله إيّاهم في الدنيا، وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة. وهي معترضة بين { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } و { يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين }. وأيضا هي كالتذييل لتلك الآيات والتقرير لمضمونها لأنّها تستخلص أحوالهم، وتتضمّن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إمهالهم وعدم تعجيل عقابهم.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تعجيبي. ومثله شائع في كلام العرب، يجعلون الاستفهام على نفي فعل. والمراد حصول ضدّه، بحثّ المخاطب على الاهتمام بتحصيله، أي: كيف لم تر ذلك؟

{ **أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً** } نزل إرسال الشياطين على الكافرين، لاتضاح آثاره، منزلة الشيء المرئي المشاهد، فوقع التعجيب من مرآه بالاستفهام.

وإرسال الشياطين عليهم تسخيرهم لها وعدم انتفاعهم بالإرشاد النبويّ المنقذ من حبائلها، وذلك لكفرهم وإعراضهم عن استماع مواعظ الوحي. وللإشارة إلى هذا المعنى عدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله {عَلَى الْكَافِرِينَ } وجعل { تَؤُزُّهُمْ } حالا مقيّدا للإرسال، لأنّ الشياطين مرسلة على جميع النّاس ولكن الله يحفظ المؤمنين من كيد الشياطين على حسب قوّة الإيمان وصلاح العمل، قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42].

الأزّ: الهزّ والاستفزاز الباطني، مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتدّ غليانها. شُبِّه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم واختلاق أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعة وسكون، فهو استعارة فتأكيده بالمصدر ترشيح.

{ **فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ** } أي فلا تستعجل العذاب لهم إنّما نعدّ لهم عدّا.

وعدّي الفعل بحرف الاستعلاء إكراما للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن نزل منزلة الذي هلاكهم بيده. فنُهي عن تعجيله بهلاكهم. وذلك إشارة إلى قبول دعائه عند ربّه، فلو دعا عليهم بالهلاك لأهلكهم الله، كيلا يرد دعوة نبيّه صلى الله عليه وسلم.

يقال: عجل على فلان بكذا، أي أسرع بتسليطه عليه، كما يقال: عجل إليه إذا أسرع بالذهاب إليه كقوله {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } [طه: 84]، فاختلاف حروف تعدية فعل (عجل) ينبئ عن اختلاف المعنى.

ولعلّ سبب الاختلاف بين هذه الآية وبين قوله تعالى { وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ } [الاحقاف:35] أنّ المراد هنا استعجال الاستئصال والإهلاك وهو مقدّر كونه على يد النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلذلك قيل هنا { فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ }، أي انتظر يومهم الموعود، وهو يوم بدر، وأنّ العذاب المقصود في سورة الأحقاف هو عذاب الآخرة لوقوعه في خلال الوعيد لهم بعذاب النّار لقوله هنالك { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ } [الأحقاف: 34 – 35].

{ **إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً** } للقصر، أي ما نحن إلّا نعدّ لهم، وهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا، أي نعدّ لهم ولسنا بناسين لهم كما يظنّون، بل نؤخّرهم إلى يوم موعود. وأفادت الجملة تعليل النهي عن التعجيل.

العد: الحساب. وقد استعمل العد مجازا في قِصر المدّة، لأنّ الشيء القليل يعدّ ويحسب. وفي هذا إنذار باقتراب استئصالهم.

{ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً [85] وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً [86] لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً [87] }.

إتمام لإثبات قلّة غناء آلهتهم عنهم تبعا لقوله { وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً } [82]. فجملة { لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ } هو مبدأ الكلام، وهو بيان لجملة { وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً }، والظرف وما أضيف الظرف إليه إدماج بُيّنت به كرامة المؤمنين وإهانة الكافرين.

الحشر: الجمع مطلقا، يكون في الخير، كما هنا، وفي الشرّ كقوله { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصافات: 22 - 23]، ولذلك أتبع الفعل بقيد { وَفْداً }، أي حشر الوفود إلى الملوك، فإنّ الوفود يكونون مكرَّمين.

وكانت لملوك العرب وكرمائهم وفود في أوقات، ولأعيان العرب وفادات سنويه على ملوكهم وسادتهم. ولكلّ قبيلة وفادة، وفي المثل: إنّ الشقي وافد البراجم. وقد اتبع العرب هذه السنة فوفدوا على النبيّ صلى الله عليه

وسلم لأنّه أشرف السادة. وسنة الوفود هي سنة تسع من الهجرة تلت فتح مكّة بعموم الإسلام بلاد العرب.

{ **الرحمان** } وذكر هذه صفة هنا واضحة المناسبة للوفد.

{ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ** } السوق: تسيير الأنعام قُدّام رعاتها، يجعلونها أمامهم لترهَب زجرهم وسياطهم، فلا تتفلّت عليهم، فالسوق: **سير خوف وحذر**.

{ **وِرْداً** } حال قصد منها التشبيه، فلذلك جاءت جامدة لأنّ معنى التشبيه يجعلها كالمشتق.

الوِرد (بكسر الواو): أصله السير إلى الماء، وتسمّى الأنعام الواردة (وِرْدا)، تسمية على حذف المضاف، أي ذات ورد، كما يسمّى الماء الذي يرده القوم وردا. قال تعالى { وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } [هود:98].

{ **لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ** } لا يستطيعون، فإنّ الملك يطلق على المقدرة والاستطاعة. وقد تقدّم عند قوله تعالى {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً } [المائدة:76].

{ **إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً** } استثناء منقطع، أي لكن يملك الشفاعة يومئذ من اتخذ عند الرحمان عهدا، أي من وعده الله بأن يشفّع، وهم الأنبياء والملائكة.

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً [88] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً [89] تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً [90] أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً [91] وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً [92] إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً [93] لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً [94] وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً [95] }.

عطف على جملة { وَيَقُولُ الْأِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ } [66] أوعلى جملة { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } [81] إتماما لحكاية أقوالهم، وهو القول بأنّ لله ولدا، وهو قول المشركين: الملائكة بنات الله. وقد تقدّم في سورة النحل وغيرها. فصريح الكلام ردّ على المشركين، وكنايته تعريض بالنصارى الذين شابهوا المشركين في نسبة الولد إلى الله، فهو تكملة للإبطال الذي في قوله تعالى آنفا { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ } [35].

{ **وَقَالُوا** } الضمير عائد إلى المشركين، فيُفْهم منه أنّ المقصود من حكاية قولهم ليس مجرد الإخبار عنهم، أو تعليم دينهم ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه.

وإنّما قالوا ذلك تأييدا لعبادتهم الملائكة والجن، واعتقادهم شفعاء لهم.

{ **الرحمان** } هنا حكاية لقولهم بالمعنى، فهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يقرّون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]. فهم إنّما يقولون { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } كما حكي عنهم في آيات كثيرة، منها آية سورة الكهف. فذكر { الرَّحْمَنُ } لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه.

{ **لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً** } الخطاب للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد. والجملة مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً } من التشنيع والتفظيع.

{ **تَكَادُ** } وقرأ نافع، والكسائي { يَكَادُ } بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث. وذلك جائز في الاستعمال إذا لم يكن الفعل رافعا لضمير مؤنث متصل، وقرأ البقية { تَكَاد } بالتاء المثناة الفوقية، وهو الوجه الآخر.

التفطّر: الانشقاق، والجمع بينه وبين { وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ } تفنّن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ.

الخرور: السقوط.

والكلام جار على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنّه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيغيّر كيانها.

الهدّ: هدم البناء. وانتصب على المفعولية المطلقة لبيان نوع الخرور. أي سقوط الهدم، وهو أن يتساقط شظايا وقطعا.

{ **أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً** } متعلّق بكل من (يتفطرن – وتنشق – وتخر) ، وهو على حذف (لام الجر) قبل (أن) المصدرية وهو حذف مطّرد. والمقصود منه تأكيد ما أفيد من قوله {منه} .

{ **دَعَوْا** } نسبوا، كقوله تعالى { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } [الأحزاب:5].

{ **وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً** } أي ما يتأتّى، أو ما يجوز. وأصل **الانبغاء**: أنّه مطاوع فعل (بغى) الذي بمعنى طلب.

والمعنى في هذه الآية: وما يجوز أن يتخذ الرحمان ولدا. بناء على أن المستحيل لو طلب حصوله لما تأتى لأنّه مستحيل لا تتعلق به القدرة، لا لأنّ الله عاجز عنه.

نحو قوله { قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ } [الفرقان: 18] يفيد معنى: لا يستقيم لنا، أو لا يخوّل لنا أن نتخذ أولياء غيرك.

ونحو قوله { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ } [يّس:40] يفيد معنى لا تستطيع.

ونحو { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ } [يّس:69] يفيد معنى: أنّه لا يليق به.

ونحو { وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } يفيد معنى: لا يستجاب طلبه لطالبه إن طلبه.

{ **آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً** }، الإتيان المجازي، وهو الإقرار والاعتراف.

{ **عَبْدا** } حال، أي معترف لله بالإلهيّة غير مستقل عنه في شيء في حال كونه عبدا.

ويجوز جعل { آتِي الرَّحْمَنِ } بمعنى صائر إليه بعد الموت، ويكون المعنى أنّه يحيا عبدا ويحشر عبدا بحيث لا تشوبه نسبة البنوّة في الدنيا ولا في الآخرة.

{ **الرَّحْمَنِ** } تكرّر الاسم في هذه الآية أربع مرات إيماء إلى أن وصف الرحمان ثابت لله.
فذكر هذا الوصف عند قوله { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً } وقوله { أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً } تسجيل لغباوتهم.
وذكره عند قوله { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } إيماء إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله.
وذكره عند قوله { إلاّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه وإقرارها له بملكه إياها.
{ **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً** }، مستأنفة ابتدائية لتهديد القائلين هذه المقالة. فضمائر الجمع عائدة إلى ما عاد إليه ضمير { وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً } وما بعده. أي لقد علم الله كلّ من قال ذلك، وعدّهم فلا ينفلت أحد منهم من عقابه.
{ **وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً** } إبطال ما لأجله قالوا اتخذ الله ولدا، لأنّهم زعموا ذلك موجب عبادتهم الملائكة والجنّ ليكونوا شفعاءهم عند الله، فأيأسهم الله من ذلك بأنّ كلّ واحد يأتي يوم القيامة مفردا لا نصير له، كما في قوله { ويَأْتِينَا فَرْداً }.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً } [96]

يقتضي اتصال الآيات بعضها ببعض في المعاني أنّ هذه الآية وصف لحال المؤمنين يوم القيامة بضدّ حال المشركين، فيكون حال إتيانهم غير حال انفراد، بل حال تأنّس بعضهم ببعض.
ولمّا ختمت الآية قبلها بأنّ المشركين آتون يوم القيامة مفردين. وكان ذلك مشعرا بأنّهم آتون إلى ما من شأنه أن يتمنّى المورّط فيه من يدفع عنه وينصره، وإشعار ذلك بأنّهم مغضوب عليهم، أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين، وأنّهم على العكس من حال المشركين، وأنّهم يكونون يومئذ بمقام المودّة والتبجيل.
فالمعنى: سيجعل لهم الرحمان أوُدَّاء من الملائكة، كما قال تعالى {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [فصلت: 31]، ويجعل بين أنفسهم مودّة كما قال تعالى { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } [الحجر:47].
وفُسّر أيضا جعْل الود بأن الله يجعل لهم محبّة في قلوب أهل الخير. رواه الترمذي عن قتيبة بن سعيد عن الدراوردي.
وأظهر الوجوه في تفسير الود أنّ الله سيجعل لهم محبّة منه تعالى. فالجعل هنا كالإلقاء في قوله { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي } [طه:39] .

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً } [97]

إيذان بانتهاء السورة، فإنّ شأن الإتيان بكلام جامع بعد أفنان الحديث أن يؤذن بأنّ المتكلّم سيطوي بساطه. وذلك شأن التذييلات والخواتم. فلمّا احتوت السورة على عبر وقصص وبشارات ونذر جاء هنا بالتنويه بالقرآن وبيان بعض ما في تنزيله من الحكم.

{ **فَإِنَّمَا** } يجوز جعل الفاء فصيحة مؤذنة بكلام مقدّر يدل عليه المذكور، كأنّه قيل: بلّغ ما أنزلنا إليك ولو كره المشركون ما فيه من إبطال دينهم وإنذارهم بسوء العاقبة، فما أنزلناه إليك إلّا للبشارة والنذارة، ولا تعبأ بما حصل مع ذلك من الغيظ أو الحقد. وذلك أنّ المشركين كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " لو كففت عن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أرائنا لاتّبعناك ".

ويجوز أن تكون الفاء للتفريع على وعيد الكافرين ووعد المؤمنين، أي ذلك أثر الإعراض عمّا جئت به من النذارة، وأثر الإقبال على ما جئت به من البشارة، مما يسّرناه بلسانك فإنّا ما أنزلناه عليك إلّا لذلك.

{ **يَسَّرْنَاهُ** } ضمير الغائب عائد إلى القرآن بدلالة السياق، وبذلك علم أن التيسير تسهيل قراءة القرآن. وهذا إدماج للثناء على القرآن بأنّه ميسّر للقراءة، كقوله تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر:17].

اللسان: اللغة، أي بلغتك، وهي العربية، كقوله { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء: 192- 195] فإنّ نزول القرآن بأفضل اللغات وأفصحها هو من أسباب فضله على غيره من الكتب، وتسهيل حفظه ما لم يسهّل مثله لغيره من الكتب.

{ **قَوْماً لُدّاً** } أهل إيغال في المِراء والمكابرة، أي أهل تصميم على باطلهم، **فاللدّ**: جمع ألدّ، وهو الأقوى في اللَّدد، وهو الإباية من الاعتراف بالحق. وفي الحديث الصحيح: " **أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخَصِم** " .

وممّا جرَّه الإشراك إلى العرب من مذام الأخلاق التي خلطوا بها محاسن أخلاقهم أنّهم ربما تمدّحوا باللّدد، قال بعضهم في رثاء البعض:

إن تحت الأحجار حزْما وعزْما ... وخصيما ألدّ ذا مِغلاق

وقد حسن مقابلة المتّقين بقوم لدّ، لأنّ التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولَدَد.

وفيه تعريض بأنّ كفرهم عن عناد، وهم يعلمون أنّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحقّ، كما قال تعالى { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً } [98].

لمّا ذُكِروا بالعناد والمكابرة أتبع بالتعريض بتهديدهم على ذلك بتذكيرهم بالأمم التي استأصلها الله لجبروتها وتعنّتها، لتكون لهم قياسا ومثلا. فالجملة معطوفة على جملة { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } باعتبار ما تضمّنته من بشارة المؤمنين ونذارة المعاندين، لأنّ في التعريض بالوعيد لهم نذارة لهم وبشارة للمؤمنين باقتراب إراحتهم من ضرّهم.

القرن: الأمّة والجيل. ويطلق على الزمان الذي تعيش فيه الأمّة. وشاع تقديره بمائة سنة.

{ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ } الاستفهام إنكاري. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تبعا لقوله { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ }، أي ما تحس، أي ما تشعر بأحد منهم.

الإحساس: الإدراك بالحسّ، أي لا ترى منهم أحدا.

الركز: الصوت الخفيّ، ويقال: الرزّ. وهو كناية عن اضمحلالهم، كنّي باضمحلال لوازم الوجود عن اضمحلال وجودهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه

سُمِّيت سورة (طاها) باسم الحرفين المنطوق بهما في أوّلها. ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من اسميهما تبعا لرسم المصحف، كما تقدّم في سورة الأعراف. وكذلك وردت تسميتها في كتب السنّة في حديث إسلام عمر بن الخطاب كما سيأتي قريبا.

وذكر في الإتقان عن السخاوي أنّها تسمّى أيضا (سورة الكليم)، وفيه عن الهذلي في كامله أنّها تسمّى (سورة موسى).

وهي مكّيّة كلّها على قول الجمهور. واقتصر عليه ابن عطية وكثير من المفسرين. وفي الإتقان أنّه استثني منها آية { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } [130] واستظهر في الإتقان أن يُستثنى منها قوله { وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [131].

لما أخرج أبو يعلى والبزار عن أبي رافع قال: " أضاف النبيّ صلى الله عليه وسلم ضيفا فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقا إلى هلال رجب فقال: لا، إلا برَهْن، فأتيت النبيّ فأخبرته فقال: " أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض "، فلم أخرج من عنده حتّى نزلت { وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [131] " أهـ.

وعندي أنّه إن صحّ حديث أبي رافع فهو من اشتباه التلاوة بالنزول. فلعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأها متذكّرا فظنّها أبو رافع نازلة ساعتئذ ولم يكن سمعها قبل، أو أطلق النزول على التلاوة. ولهذا نظائر كثيرة في المرويات في أسباب النزول كما علمته غير مرة.

وهذه السورة هي الخامسة والأربعون في ترتيب النزول نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة. ونزلت قبل إسلام عمر بن الخطاب لما روى الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته عنه قال: " خرج عمر متقلّدا بسيف. فقيل له: إن ختنك وأختك قد صبوا، فأتاهما عمر وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة (طاها)، فقال: " أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه؟ فقالت له أخته: إنّك رجس، ولا يمسّه إلّا المطهّرون فقم فاغتسل أو توضأ. فقام عمر وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ طه. فلمّا قرأ صدرا منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه "، إلى آخر القصة. وكان إسلام عمر في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشة، فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة.

وعُدَّت آيها في عدد أهل المدينة ومكّة مائة وأربعا وثلاثين وفي عدد أهل الشام مائة وأربعين، وفي عدد أهل البصرة مائة واثنتين وثلاثين. وفي عدد أهل الكوفة مائة وخمسا وثلاثين.

أغراضها

احتوت من الأغراض على:

- التحدّي بالقرآن بذكر الحروف المقطّعة في مفتتحها

- التنويه بأنّه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية، فأكثرها في هذا الشأن.

- التنويه بعظمة الله تعالى. وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنّها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في النّاس. فضرب المثل لنزول القران على محمد صلى الله عليه وسلم بكلام الله موسى عليه السلام.

- بسط نشأة موسى وتأييد الله إيّاه ونصره على فرعون بالحجّة والمعجزات، وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه.

- إنجاء الله موسى وقومه، وغرق فرعون، وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط.

وقصّة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى عليه السلام. وكل ذلك تعريض بأنّ مآل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه. فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد من أعرضوا عن القرآن ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه.

- تذكير النّاس بعداوة الشيطان الإنسان بما تضمَّنته قصّة خلق آدم.

- ورتّب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان، وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا.

- تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يقولونه وتثبيته على الدين.

وتخلل ذلك إثبات البعث. وتهويل يوم القيامة وما يتقدّمه من الحوادث والأهوال.

{ **طه** } [1].

هذان الحرفان من حروف فواتح بعض السور مثل (الم ، يس). ورُسِما في خط المصحف بصورة حروف التهجّي التي هي مسمّى (طا) و(ها) كما رُسم جميع الفواتح التي بالحروف المقطّعة. وقُرئا لجميع القراء كما قُرأت بقيّة فواتح السور. فالقول فيهما كالقول المختار في فواتح تلك السور، وقد تقدّم في أوّل سورة البقرة.

وقيل هما حرفان مقتضبان من كلمتي (طاهر) و(هاد)، وأنّهما على معنى النداء بحذف حرف النداء.

وقيل مقتضبان من فعل (طأ) أمرا من الوطء، ومن (ها) ضمير المؤنثة الغائبة عائد إلى رجل واحدة فأمره الله بهذه الآية أن يطأ الأرض برجله الأخرى. **ولم يصح.**

وقيل (طاها) كلمة واحدة، وأنّ أصلها من الحبشيّة، ومعناها إنسان، أو يا إنسان، وتكلمت بها قبيلة (عك) أو (عُكل) وأنشدوا ليزيد بن مهلهل:

إنّ السفاهة طاها من شمائلكم ... لا بارك الله في القوم الملاعين

وقيل: هي اسم سمّى الله به نبيّه صلى الله عليه وسلم وأنّه على معنى النداء. أو هو قسم به.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى على معنى القسم. ورويت في ذلك آثار وأخبار ذكر بعضها عياض.

ويجري فيها قول من جعل جميع هذه الحروف متّحدة في المقصود منها. كقول من قال: هي أسماء للسور الواقعة فيها، ونحو ذلك مما تقدّم في سورة البقرة. وإنّما غرّهم بذلك تشابه في النطق فلا نطيل بردّها. وكذلك لا التفات إلى قول من زعموا أنّه من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى [2] إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى [3] تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى [4] الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [5] لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى [6]** }.

افتتحت السورة بملاطفة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك ، ولكن أراد أن يذكّر بالقرآن من يخاف وعيده. وفي هذا تنويهٌ أيضا بشأن المؤمنين الذين آمنوا، بأنّهم كانوا من أهل الخشية، ولولا ذلك لما ادَّكروا بالقرآن.

وفي هذه الفاتحة تمهيد لما يرد من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاضطلاع بأمر التبليغ. وبكونه من أولي العزم مثل موسى عليه السلام، وأن لا يكون مفرّطا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض. وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن لأنّ في ضمن ذلك تنويها بمن أنزل عليه وجاء به.

{ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } وقوع الفعل في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله، أي جميع أنواع الشقاء فلا يكون إنزال القرآن سببا في شيء من الشقاء للرسول صلى الله عليه وسلم.

الشقاء: فرط التعب بعمل أو غم في النفس. وأول ما يراد منه هنا أسف النبيّ صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن الإيمان بالقرآن. قال تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6].

ويجوز أن يكون المراد: ما أرسلناك لتخيب بل لنؤيّدك وتكون لك العاقبة.

{ إِلَّا تَذْكِرَةً } استثناء مفرَّغ من أحوال للقرآن محذوفة، أي ما أنزلناه عليك القرآن في حال من أحوال إلا حال تذكرة فصار المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى وما أنزلناه في حال من الأحوال إلّا تذكرة.

قال الواحدي في (أسباب النزول) : " قال مقاتل: قال أبو جهل والنضر بن الحارث (وزاد غير الواحدي: الوليد بن المغيرة، والمطعم ابن عدي) للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إنّك لشقي بترك ديننا، لما رأوا من طول عبادته واجتهاده، فأنزل الله تعالى {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} الآية ". **وليس فيه سند.**

التذكرة: خطور المنسيّ بالذهن، فإنّ التوحيد مستقرّ في الفطرة والإشراك مناف لها، فالدعوة إلى الإسلام تذكير لما في الفطرة، أو تذكير لملّة إبراهيم عليه السلام.

{ مَنْ يَخْشَى } هو المستعدّ للتأمل والنظر في صحة الدين، وهو كلّ من يفكر للنجاة في العاقبة. فالخشية هنا مستعملة في المعنى العربي الأصلي. ويجوز أن يراد بها المعنى الإسلامي، وهو خوف الله، فيكون المراد من الفعل المآل، أي من يؤول أمره إلى الخشية بتيسير الله تعالى له التقوى، كقوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2] أي الصائرين إلى التقوى.

{ تَنْزِيلاً } حال ثانية من { الْقُرْآنَ }. والمقصود منها التنويه بالقرآن والعناية به لينتقل من ذلك إلى الكناية بأنّ الذي أنزله عليك بهذه المثابة لا يترك نصرك وتأييدك.

{ مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى } العدول عن اسم الجلالة أو عن ضميره إلى الموصوليّة لما تؤذن به الصلة من تحتّم إفراده بالعبادة، لأنّه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم مما هو أعظم منهم خلقا.

{ الْعُلَى } صفة كاشفة زيادة في تقرير معنى عظمة خالقها. وأيضا لمّا كان ذلك شأن منزل القرآن لا جرم كان القرآن شيئا عظيما، كقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

{ الرَّحْمَنُ } يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف لازم الحذف، ويجوز أن يكون مبتدأ. واختر هذا وصف لتعليم النّاس به، لأن المشركين أنكروا تسميته تعالى الرحمان { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]. وفي ذكره هنا وكثرة التذكير به في القرآن بعث على إفراده بالعبادة شكرا على

إحسانه بالرحمة البالغة.

{ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } حال من {الرَّحْمَنُ} أو خبر ثان عن المبتدأ المحذوف.

العرش: عالم عظيم من العوالم العليا، فقيل هو أعلى سماء من السماوات وأعظمها. وقيل غير ذلك.

ويسمّى الكرسي أيضا على الصحيح. وقيل: الكرسي غير العرش.

وأياما كان فذكر الاستواء عليه زيادة في تصوير عظمة الله تعالى وسعة سلطانه.

الاستواء: الاستقرار. قال تعالى { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون:28] وقال { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } [هود:44]. فتأويله أنّه تمثيل لشأن عظمة الله بعظمة أعظم الملوك الذين يجلسون على العروش وقد عرف العرب من أولئك ملوك الفرس وملوك الروم وكان هؤلاء مضرب الأمثال عندهم في العظمة.

وحسن التعبير بالاستواء مقارنته بالعرش الذي هو مما يستوي عليه في المتعارف. فكان ذكر الاستواء كالترشيح لإطلاق العرش على السماء العظمى، فالآية من المتشابه البيّن تأويله باستعمال العرب وبما تقرر في العقيدة: أن ليس كمثله شيء.

وقيل: الاستواء يستعمل بمعنى **الاستيلاء**. وأنشدوا قول الأخطل:

قد استوى بشر على العراق ... بغير سيف ودم مهراق

وتقدّم القول في هذا عند قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [لأعراف:54].

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } بيان لجملة { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }، والجملتان تدلّان على عظيم قدرته، لأنّ ذلك هو المقصود من سعة السلطان.

وتقديم المجرور في قوله { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ } للقصر، ردا على زعم المشركين أنّ لآلهتهم تصرّفات في الأرض، وأنّ للجنّ اطّلاعا على الغيب.

الثرى: التراب. و**ما تحته**: هو باطن الأرض كله.

{ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } [7].

عطف على جملة { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } لدلالة هذه الجملة على سعة علمه تعالى كما دلّت الجملة المعطوف عليها على عظيم سلطانه وقدرته. وأصل النظم: ويعلم السر وأخفى إن تجهر بالقول، فموقع { وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ } موقع الاعتراض بين جملة { يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } وجملة { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }. فصيغ النظم في قالب الشرط والجزاء زيادة في تحقيق حصوله على طريقة ما يسمى بالمذهب الكلامي، وهو سوق الخبر في صيغة الدليل على وقوعه تحقيقا له.

والمعنى: أي فهو لا يحتاج إلى الجهر لأنّه يعلم السر وأخفى.

فالخطاب يجوز أن يكون خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يعمّ غيره. ويجوز أن يكون لغير معين ليعمّ كل مخاطب.

واختير في إثبات سعة علم الله تعالى خصوص علمه بالمسموعات لأن السر أخفى الأشياء عن علم النّاس في العادة. ولما جاء القرآن مذكّرا بعلم الله تعالى توجّهت أنظار المشركين إلى معرفة مدى علم الله تعالى وتجادلوا في ذلك في مجامعهم.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا؟ وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا (أي وهو بعيد عنا) فإنّه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله تعالى { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ } [فصلت:22].

وقد كثر في القرآن أنّ الله يعلم ما يسر النّاس وما يعلنون ولا أحسب هذه الآية إلّا ناظرة إلى مثل ما نظرت الآية الآنفة الذكر. يبقى النظر في توجيه الإتيان بهذا الشرط بطريقة الاعتراض، وتوجيه اختيار فرض الشرط بحالة الجهر دون حالة السرّ، مع أن الذي يتراءى للناظر أنّ حالة السرّ أجدر بالذكر في مقام الإعلام بإحاطة علم الله تعالى بما لا يحيط به علم الناس.

وأحسب لفرض الشرط بحالة الجهر بالقول خصوصية بهذا السياق اقتضاها اجتهاد النبيّ صلى الله عليه وسلم في الجهر بالقرآن في الصلاة أو غيرها، فيكون مورد هذه الآية كمورد قوله تعالى { وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } [لأعراف:205] فيكون هذا مما نسخه قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } [الحجر:94]، وإبطال لتوهّم المشركين أنّ الجهر أقرب إلى علم الله من السرّ، كما دل عليه الخبر المروي عن أبي مسعود المذكور آنفا.

القول: مصدر، وهو تلفّظ الإنسان بالكلام، فيشمل القراءة والدعاء والمحاورة.

وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه قوله { فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } والتقدير: فلا تشق على نفسك فإنّ الله يعلم السرّ وأخفى. أي فلا مزيّة للجهر به.

وبهذا تعلم أنّ ليس مساق الآية لتعليم النّاس كيفية الدعاء، فقد ثبت في السنة الجهر بالدعاء والذكر، فليس من الصواب فرض تلك المسألة هنا إلّا على معنى الإشارة.

{ **أخفى** } اسم تفضيل، وحذف المفضّل عليه لدلالة المقام عليه، أي وأخفى من السرّ. والمراد بأخفى منه: ما يتكلّم اللسان من حديث النفس ونحوه من الأصوات التي هي أخفى من كلام السرّ.

{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [8]

تذييل لما قبله، لأنّ ما قبله تضمّن صفات من فعل الله تعالى ومن خلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته.

{ اللَّهُ } خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو الله. وبقية الجملة حال من اسم الجلالة

الأسماء: الكلمات الدالة على الاتصاف بحقائق. وهي بالنسبة إلى الله، إمّا علم، وهو اسم الجلالة خاصة، وإمّا وصف مثل الرحمان والجبّار وبقية الأسماء الحسنى.

{ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } تقديم المجرور للاختصاص. أي لا لغيره، لأنّ غيره إمّا أن يكون اسمه مجرّدا من المعاني المدلولة للأسماء مثل الأصنام، وإمّا أن تكون حقائقها فيه غير بالغة منتهى كمال حقيقتها كاتصاف البشر بالرحمة والملك، وإمّا أن يكون الاتصاف بها كذبا لا حقيقة، كاتصاف البشر بالكبر، إذ ليس أهلا للكبر والجبروت والعزّة.

{ الْحُسْنَى } لأنّها دالة على حقائق كاملة بالنسبة إلى المسمّى بها تعالى وتقدس. وذلك ظاهر في غير اسم الجلالة، وأمّا في اسم الجلالة الذي هو الاسم العلم فلأنّه مخالف للأعلام من حيث إنّه في الأصل وصف دال على الانفراد بالإلهية لأنّه دال على الإله، وعُرّف باللام الدالة على انحصار الحقيقة عنده. فكان جامعا لمعنى وجوب الوجود، واستحق العبادة لوجود أسباب استحقاقها عنده.

وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف:180].

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [9] إِذْ رَأى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً [10] }.

أعقب تثبيت الرسول على التبليغ والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أُنزل عليه بذكر قصّة موسى عليه السلام ليتأسّى به في الصبر على تحمّل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب، وتسلية له بأنّ الذين كذّبوه سيكون جزاؤهم جزاء من سلفهم من المكذّبين، ولذلك جاء في عقب قصّة موسى قوله تعالى { وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً } [99]. وجاء بعد ذكر قصّة آدم { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [130].

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } وهذه القصّة تقدّم بعضها في سورة الأعراف وسورة يونس.

والاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازا وليس مستعملا في حقيقته سواء كانت هذه القصّة قد قصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أم كان هذا أوّل قصصها عليه.

{ **هَلْ** } أوثر في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق لأنّ (هَلْ) في الاستفهام مثل (قد) في الإخبار.

الحديث: الخبر. وهو اسم للكلام الذي يُحكى به أمر حدث، ويجمع على أحاديث على غير قياس.

{ **إِذْ رَأَى نَاراً** } زيادة في التشويق كما يأتي قريبا. و(إذ) ظرف الحديث، وقد تقدّم نظائره. وخُصّ هذا الظرف بالذكر لأنّه يزيد تشويقا إلى استعلام كنه الخبر، لأنّ رؤية النار تحتمل أحوالا كثيرة، وهي تدلّ على أنّ ذلك كان بليل، وأنه كان بحاجة إلى النّار.

الأهل: الزوج والأولاد. وكانوا معه بقرينة الجمع في قوله { امْكُثُوا } . وفي سفر الخروج من التوراة: " فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر".

الإيناس: الإبصار البيّن الذي لا شبهة فيه.

وتأكيد الخبر بـ (إن) لقصد الاهتمام به بشارة لأهله إذ كانوا في الظلمة.

القبس: ما يؤخذ اشتعاله من اشتعال شيء ويقبس، كالجمرة من مجموع الجمر والفتيلة ونحو ذلك.

{ **أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً** } أي: أو ألقى عارفا بالطريق فيهديني إلى السبيل. قيل: كان موسى قد خفي عليه الطريق من شدّة الظلمة.

{ **أَوْ** } هنا للتخيير، لأنّ إتيانه بقبس أمر محقّق، فهو إمّا أن يأخذ القبس لا غير. وإمّا أن يزيد فيجد صاحب النار قاصدا الطريق مثله فيصحبه.

{ **عَلَى** } مستعمل في الاستعلاء المجازي، أي شددة القرب من النّار قربا أشبه الاستعلاء، وذلك أنّ مشعل النار يستدني منها للاستنارة بضوئها أو للاصطلاء بها.

{ **هُدىً** } وقد أجرى الله على لسان موسى معنى هذه الكلمة إلهاما إيّاه أنّه سيجد عند تلك النار هُدى عظيما، ويُبلغ قومه منه ما فيه نفعهم.

وإظهار النار لموسى رمز ربّاني لطيف، إذ جعل اجتلابه لتلقي الوحي باستدعاء بنور في ظلمة، رمزا على أنّه سيتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد.

{ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى [11] إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً [12] وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى [13]** }.

{ **نُودِيَ** } بني فعل النداء للمجهول زيادة في التشويق إلى استطلاع القصّة، فإذا فاجأه { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } علم أنّ المنادي هو الله تعالى فتمكّن في النفس كمال التمكّن. ولأنّه أدخل في تصوير تلك الحالة بأنّ موسى ناداه مناد غير معلوم له.

{ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ** } بيان لجملة { نُودِيَ } وبهذا النداء علم موسى أنّ الكلام موجّه إليه من قبل الله تعالى لأنّه كلام غير معتاد، والله تعالى لا يغير العوائد التي قرّرها في الأكوان إلّا لإرادة الإعلام بأنّ له عناية خاصة بالمغيَّر. فالله تعالى خلق أصواتا خلقا غير معتاد غير صادرة عن شخص مشاهد، ولا موجّهة له بواسطة ملك يتولى هو تبليغ الكلام، لأنّ قوله { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } ظاهر في أنّه لم يبلّغ إليه ذلك بواسطة الملائكة، فلذلك قال الله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً } [النساء:164]، إذ علم موسى أنّ تلك الأصوات دالة على مراد الله تعالى. والمراد التي تدل عليه تلك الأصوات الخارقة للعادة هو ما نسمِّيه بالكلام النفسي. وليس الكلام النفسيّ هو الذي سمعه موسى لأنّ الكلام النفسي صفة قائمة بذات الله تعالى منزّه عن الحروف والأصوات والتعلّق بالأسماع.

والإخبار عن ضمير المتكلم بأنّه ربّ المخاطب لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطبه، فإنّ شأن الربّ الرفق بالمربوب. وتأكيد الخبر بحرف (إن) لتحقيقه لأجل غرابته، دفعا لتطرّق الشكّ عن موسى في مصدر هذا الكلام.

{ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** } إشارة إلى أنّ ذلك المكان قد حلّه التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيه.

الخلع: فصل شيء عن شيء كان متّصلا به.

النعلان: جلدان غليظان يجعلان تحت الرجل ويشدّان برباط من جلد لوقاية الرجل ألَمَ المشي على التراب والحصى، وكانت النعل تجعل على مثال الرِّجل.

وإنّما أمره الله بخلع نعليه تعظيما منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي. وفيه أيضا زيادة خشوع.

{ **إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً** } حرف التوكيد مفيد هنا التعليل، كما هو شأنه في كلّ مقام لا يقتضي التأكيد. وهذه خصوصيّة من جهات فلا يؤخذ منها حكم يقتضي نزع النعل عند الصلاة.

الواد: المَفْرَج بين الجبال والتلال. وأصله بياء في آخره. وكثر تخفيفه بحذف الياء كما في هذه الآية، فإذا ثني لزمته الياء يقال: واديان ولا يقال وادان، وكذلك إذا أضيف يقال: بواديك ولا يقال بوادك.

المقدّس: المطهّر المنزّه. وتقدّم في قوله تعالى { وَنُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة:30]. وتقديس الأمكنة يكون بما يحلّ فيها من الأمور المعظّمة، وهو هنا حلول الكلام الموجّه من قبل الله تعالى.

{ **طُوىً** } (بضم الطاء وبكسرها)، ولم يقرأ في المشهور إلّا بضم الطاء. اختلف المفسّرون في معناها، فقيل: اسم لذلك المكان، وقيل: هو اسم مصدر بمعنى اسم المفعول، أي طواه موسى بالسير في تلك الليلة، كأنّه قيل له: إنّك بالواد المقدّس الذي طويته سيرا. وأحسن منه على هذا الوجه أن يقال هو أمر لموسى بأن يطوي الوادي ويصعد إلى أعلاه لتلقي الوحي. وقد قيل: إنّ موسى صعد أعلى الوادي.

وقيل: هو بمعنى المقدّس تقديسين، لأنّ (الطيّ) هو جعل الثوب على شقين. فالمعنى: المقدّس تقديسا شديدا.

والظاهر عندي، أنّ {طُوىً} اسم لصنف من الأودية يكون ضيّقا بمنزلة الثوب المطوي، أو غائرا كالبئر المطويّة، والبئر تسمّى طَوِيًّا. وسُمِّي واد بظاهر مكّة (ذا طوى) بتثليث الطاء، وهو مكان يسنّ للحاج أو المعتمر القادم إلى مكّة أن يغتسل عنده.

{ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ** } أخبر عن اختيار الله تعالى موسى بطريق المسند الفعلي المفيد تقوية الحكم.

الاختيار: تكلّف طلب ما هو خير. واستعملت صيغة التكلّف في معنى إجادة طلب الخير.

{ **فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى** } فرّع على الإخبار باختياره أن أمر بالاستماع للوحي لأنّه أثر الاختيار، إذ لا معنى للاختيار إلّا اختياره لتلقي ما سيوحي الله. والمراد: ما يوحي إليه حينئذ من الكلام، أو ما يوحي إليه في مستقبل الأيام.

{ **لِمَا يُوحَى** } اللام للتقوية في تعدية فعل { اسْتَمِعْ } إلى مفعوله.

{ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي [14] إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى [15] فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى [16] }.

بدل من { ما يُوحَى } بدلا مطابقا. وهو المأمور باستماعه

ووقع الإخبار عن ضمير المتكلّم باسمه العلم الدال على الذات الواجب الوجود المستحقّ لجميع المحامد.

وفي هذا إشارة إلى أنّ أوّل ما يتعارف به المتلاقون أن يعرّفوا أسماءهم. فأشار الله إلى أنّه عالم باسم كليمه وعلّم كليمه اسمه، وهو الله.

وهذا الاسم هو علم الربّ في اللغة العربية. واسمه تعالى في اللغة العبرانيه (يَهْوَهْ) أو (أَهْيَهْ) المذكور في الإصحاح الثالث من سفر الخروج في التوراة، وفي الإصحاح السادس. وقد ذكر اسم { الله } في مواضع من التوراة مثل الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر الخروج في الفقرة السادسة عشرة، ولعلّه من تعبير المترجمين، وأكثر تعبير التوراة إنّما هو (الربّ) أو (الإله).

ولفظ (أَهْيَهْ) أو (يهوه) قريب الحروف من كلمة إله في العربية.

ويقال: إن اسم الجلالة في العبرانية (**لاَهُمْ**). ولعل الميم في آخره هي أصل التنوين في إله.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا** } خبر ثان عن اسم (إن). والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى.

{ **فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** } ثم فرّع الأمر بعبادته. والعبادة تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من

قول وفعل وإخلاص بالقلب. ووجه التفريع أنّ انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يُعبد.

وخصّ من العبادات بالذكر إقامة الصلاة لأنّها تجمع أحوال العبادة.

إقامة الصلاة: إدامتها، أي عدم الغفلة عنها.

{ **لِذِكْرِي** } يجوز أن يكون التذكّر بالعقل، ويجوز أن يكون الذكر باللسان. واللام للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل أن تذكرني، لأنّ الصلاة تذكّر العبد بخالقه. إذ يستشعر أنّه واقف بين يدي الله لمناجاته.

ففي هذا الكلام إيماء إلى حكمة مشروعية الصلاة وبضميمته إلى قوله تعالى { إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت:45] يظهر أن التقوى من حكمة مشروعية الصلاة، لأنّ المكلّف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه.

{ **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ** } مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء.

الساعة: علم بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب.

{ **أَكَادُ أُخْفِيهَا** } في موضع الحال من { السَّاعَةَ } أو معترضة بين جملة وعلّتها.

الإخفاء: الستر وعدم الإظهار، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام.

ولمّا كانت الساعة مخفيّة الوقوع، أي مخفية الوقت، كان قوله { أَكَادُ أُخْفِيهَا } غير واضح المقصود، فاختلفوا في تفسيره على وجوه كثيرة أمثلها ثلاثة:

فقيل: المراد إخفاء الحديث عنها، أي من شدّة إرادة إخفاء وقتها، أي يراد ترك ذكرها، ولعلّ توجيه ذلك أنّ المكذّبين بالساعة لم يزدهم تكرّر ذكرها في القرآن إلّا عنادا على إنكارها.

وقيل: وقعت { أَكَادُ } زائدة هنا بمنزلة زيادة (كان) في بعض المواضع، تأكيدا للإخفاء.

وتأوّل أبو علي الفارسي معنى { أُخْفِيهَا } بمعنى أظهرها، فالمعنى: أكاد أظهرها، أي أظهر وقوعها، أي وقوعها قريب.

{ **لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** } تعليم بحكمة جعل يوم للجزاء.

{ **بِمَا تَسْعَى** } بما تعمل، فإطلاق السعي على العمل مجاز مرسل، كما تقدّم في قوله { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الاسراء:19].

{ **فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** } التحذير من أن يصدّه عن الإيمان بها قوم لا يؤمنون بوقوعها اغترارا بتأخّر ظهورها، فالتفريع على قوله { أَكَادُ أُخْفِيهَا } أوقع، لأنّ ذلك الإخفاء هو الذي يشبّه به الذين أنكروا البعث على النّاس، قال تعالى { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً } [الاسراء:51] وقال { وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية:32].

إي لا تكن ليّن الشكيمة لمن يصدّك ولا تصغ إليه فيكون لينك له مجرئا إيّاه على أن يصدّك، فوقع النهي عن المسبّب، والمراد النهي عن السبب. وهذا الأسلوب من قبيل قولهم: لا أعرفنَّك تفعل كذا، ولا أرينَّك هاهنا.

{ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } للإيماء بالصلة إلى تعليل الصدّ، أي لا داعي لهم للصدّ عن الإيمان بالساعة إلّا اتباع الهوى.

{ **فَتَرْدَى** } وفرّع على النهي أنّه إن صدّ عن الإيمان بالساعة رَدِيَ، أي هلك. والهلاك مستعارا لأسوأ الحال.

{ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى [17] قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى [18] قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى [19] فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى [20] قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى [21] }.

بقيّة ما نودي به موسى. والجملة معطوفة على الجمل قبلها انتقالا إلى محاورة أراد الله منها أن يُري موسى كيفيّة الاستدلال على المرسَل إليهم بالمعجزة العظيمة، وهي انقلاب العصا حيّة تأكل الحيّات التي يُظهرونها. وإبراز انقلاب العصا حيّة في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى، ودفع الشك عن أن يتطرّقه لو أمره بذلك دون تجربة. فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنّه ممسك بعصاه، حتّى إذا انقلبت حيّة لم يشك في أنّ تلك الحيّة هي التي كانت عصاه. فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه.

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنّه في مقام الاصطفاء، وأنّ الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله.

{ **هِيَ عَصَايَ** } كلام من يتعجّب من الاحتياج إلى الإخبار، ولذلك عقّب موسى جوابه ببيان الغرض من اتخاذها لعلّه أن يكون هو قصد السائل.

{ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى }.

التوكؤ: الاعتماد على شيء من المتاع، والاتكاء كذلك، فلا يقال: توكأ على الحائط ولكن يقال: توكأ على وسادة، وتوكأ على عصا.

الهشّ: الخبط، وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها، وعدِّي إلى ما لأجله يوقع الهش بـ (على) لتضمين (أهش) معنى أُسقط على غنمي الورق فتأكله.

مآرب: جمع مأربة، (مثلث الراء): الحاجة، أي أمور احتاج إليها.

{ **قَالَ أَلْقِهَا** }الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات. يتضح أن السؤال كان ذريعة إلى غرض سيأتي، وهو القرينة على أن الاستفهام في قوله { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ } مستعمل في التنبيه إلى أهميّة المسؤول عنه كالذي يجيء في قوله { وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى } [83].

الحيّة: اسم لصنف من الحنش مسموم، ويطلق على الذكر.

{ **تَسْعَى** } لإظهار أنّ الحياة فيها كانت كاملة. و**السعي**: المشي الذي فيه شدّة، ولذلك خص غالبا بمشي الرجل دون المرأة.
{ **سِيرَتَهَا الْأُولَى** } السيرة في الأصل: هيئة السير، وأطلقت على العادة والطبيعة، أي سنعيدها عصا كما كانت أول مرة.

{ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى [22] لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى [23] }.
هذه معجزة أخرى علّمه الله إيّاها، حتّى إذا تحدّى فرعون وقومه عمل مثل ذلك أمام السحرة. فهذا تمرين على معجزة ثانية متّحد الغرض مع إلقاء العصا.
الجناح: العضد وما تحته إلى الإبط، أطلق عليه ذلك تشبيها بجناح الطائر.
الضمّ: الإلصاق، أي ألصق يدك اليمنى التي كنت ممسكا بها العصا. وكيفية إلصاقها بجناحه أن تباشر جلد جناحه، بأن يدخلها في جيب قميصه حتّى تماس بشرة جنبه، كما في قوله { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } [النمل:12].
{ **بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** } من غير مرض، مثل البرص والبَهق، بأن تصير بيضاء ثم تعود إلى لونها.
{ **لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى** } وهذا التعليل راجع إلى تكرير الآية، أي كرّرنا الآيات لنريك بعض آياتنا فتعلم قدرتنا على غيرها.
{ **الْكُبْرَى** } صفة لـ { آيَاتِنَا } والكبر: مستعار لقوّة الماهية. أي آياتنا قويّة الدلالة على قدرتنا أو على أنّا أرسلناك.

{ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [24] قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي [25] وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي [26] وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي [27] يَفْقَهُوا قَوْلِي [28] وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي [29] هَارُونَ أَخِي [30] اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي [31] وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي [32] كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً [33] وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً [34] إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً [35] قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى[36] }.
لما أظهر الله له الآيتين، فعلم بذلك أنّه مؤيّد من الله تعالى، أمره الله بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يدخل الروع في نفس المأمور به، وهو مواجهة أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة ومكاشفته بفساد حاله.

{ **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ** } والذهاب المأمور به ذهاب خاص، قد فهمه موسى من مقدّمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرّح له به وطوى ذكره هنا على طريقة الإيجاز.

{ **إِنَّهُ طَغَى** } تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنّما صلحت للتعليل لأنّ المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عمّا هو عليه من عبادة غير الله. ولمّا علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطاءه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجّة.

{ **اشْرَحْ لِي صَدْرِي** } الشرح حقيقته: تقطيع ظاهر شيء ليّن. واستعير هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدّره أو توجب تردّده في الإقدام على عمل ما، تشبيها بتشريح اللحم.

الصدر: إشارة إلى القلب، ويراد به في كلامهم العقل. فالمعنى: أزل عن فكري الخوف ونحوه، ممّا يعترض الإنسان من عقبات تحول بينه وبين الانتفاع بإقدامه وعزامته، وذلك من العسر.

{ **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** } سأل تيسير أمره، أي إزالة الموانع الحافة بما كُلِّف به. و**الأمر** هنا: الشأن.

التيسير: جعل الشيء يسيرا، أي ذا يسر. وقد تقدّم عند قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ } [البقرة:185].

{ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي** } ثم سأل سلامة آلة التبليغ وهو اللسان، بأن يرزقه فصاحة التعبير والمقدرة على أداء مراده بأوضح عبارة، فشبّه حبسه السان بالعقدة في الحبل أو الخيط.

العقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه، أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة لعدم تصرّف اللسان عند النطق بالكلمة، وهي استعارة مصرحة، ويقال لها حبسة.

الوزير: فعيل بمعنى فاعل، من (وازر) على غير قياس، مثل حكيم من أحكم، وهو مشتق من **الأزر**، وهو المعونة، والمؤازرة كذلك، والكلّ مشتق من الأزر: أي الظهر، كما سيأتي قريبا، فحقه أن يكون أزيرا بالهمزة إلّا أنهم قلبوا همزته واو حملا على موازر الذي هو بمعناه.

{ **هَارُونَ أَخِي** } خصّ هارون لفرط ثقته به، ولأنّه كان فصيح اللسان مقوالا، فكونه من أهله مظنّة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، ولأنّه معلوم عنده بأصالة الرأي.

{ **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** } على قراءة الجمهور بصيغة الأمر في فعلي { اشْدُدْ – أَشْرِكْ } بيان لجملة { وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً} . سأل الله أن يجعله معينا له في أعماله، وسأله أن يأذن له بأن يكون شريكا لموسى في أمره، أي أمر رسالته. و**الشدّ**: الإمساك بقوة.

الأزر: أصله الظهر. ولما كان الظهر مجمع حركة الجسم وقوام استقامته أطلق اسمه على القوّة، إطلاقا شائعا يساوي الحقيقة، فقيل الأزر للقوّة. وقيل: آزره إذا أعانه وقوّاه. وسمّي الإزار إزارا لأنّه يُشدّ به الظهر.

{ **كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً** } علّل موسى عليه السلام سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه، بأن يسبحا الله كثيرا ويذكرا الله كثيرا. ووجه ذلك أنّ فيما سأله لنفسه تسهيلا لأداء الدعوة بتوفّر آلاتها ووجود العون عليها، وذلك مظنّة تكثيرها. وأيضا فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة، وذلك يبعث أخاه أيضا على الدعوة. ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة على التسبيح، وفي الدعوة حثّ على العمل بوصايا الله تعالى عباده، وإدخال الأمّة في حضرة الإيمان والتقوى. وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه. ألا ترى إلى قوله تعالى { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي } [42].

{ **إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً** } تعليل لسؤاله شرح صدره وما بعده، أي لأنّك تعلم حالي وحال أخي، وأنّي ما دعوتك بما دعوت إلّا لأنّنا محتاجان لذلك، وفيه تفويض إلى الله تعالى بأنّه أعلم بما فيه صلاحهم، وأنّه ما سأل سؤاله إلّا بحسب ما بلغ إليه علمه.

{ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** } وعد له بالإجابة، وتصديق له فيما توسّمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه.

{ **سُؤْلَكَ** } بمعنى المسؤول. وهو وزن (فُعْل) بمعنى مفعول كالخُبز بمعنى المخبوز، والأُكل بمعنى المأكول. وهذا يدل على أنّ العقدة زالت عن لسانه، ولذلك لم يحك فيما بعد أنّه أقام هارون بمجادلة فرعون. ووقع في التوراة في الإصحاح السابع من سفر الخروج: " فقال الرب لموسى أنت تتكلم بكل ما أمرك به وهارون أخوك يكلّم فرعون ".

{ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى [37] إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى [38] أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي [39] إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى [40] وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [41] }.

{ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى [37] إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى [38] أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ }

{ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ** } معطوفة على { قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ }، تذكير بمنّة عليه أخرى في وقت ازدياده ليعلم أنّه لمّا كان بمحل العناية من ربّه من أوّل أوقات وجوده، فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأنّ تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة.

فالكرم يقتضي أنّ الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه. فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنّه سيكون مؤيّدا في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ووجدك عائلا فأغنى } [الضحى:5-8].

وتأكيد الخبر بـ (لام القسم) و(قد) لتحقيق الخبر، زيادة في تطمين خاطره بعد قوله {قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ} [36].

المرّة: فعلة من المرور، غلبت على معنى الفعلة الواحدة من عمل معيّن يعرف بإضافة أو بدلالة المقام. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة:13].

{ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ** } الوحي هنا، وحي الإلهام الصادق. وهو إيقاع معنى في النفس ينثلج له نفس الملقى إليه بحيث يجزم بنجاحه فيه، وذلك من توفيق الله تعالى. وقد يكون بطريق الرؤيا الصالحة التي يُقذف في نفس الرائي أنّها صدق.

{ **مَا يُوحَى** } موصول مفيد أهمية ما أوحي إليها. ومفيد تأكيد كونه إلهاما من قبل الحقّ.

القذف: أصله الرمي، وأطلق هنا على الوضع في التابوت. تمثيلا لهيئة المُخفي عمله. فهو يسرع وضعه من يده كهيئة من يقذف حجرا ونحوه.

التابوت: الصندوق. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ } [البقرة:248].

اليمّ: البحر، والمراد به نهر النيل.

الساحل: الشاطئ، وهو الذي يقصده آل فرعون للسباحة.

{ **عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ** } فرعون، فهو عدو الله لأنّه انتحل لنفسه الإلهية، وعدو موسى تقديرا في المستقبل، وهو عدّوه لو علم أنّه من غلمان إسرائيل لأنّه اعتزم على قتل أبنائهم.

{ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي** } عطف على جملة { أَوْحَيْنَا }، أي خلق المحبّة في قلب المُحبّ بدون سبب عادي حتّى كأنّه وضع باليد.

ووصف المحبّة بأنّها من الله للدلالة على أنّها محبّة خارقة للعادة لعدم ابتداء أسباب المحبة العرفية من الإلف والانتفاع، ألا ترى قول امرأة فرعون { عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [القصص:9] مع قولها { قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ } [القصص:9]. فكان قرّة عين لها قبل أن ينفعها وقبل اتخاذه ولدا.

{ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي [39] إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ }

عطف على جملة { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ }. جعل الأمران إتماما لمنّة واحدة لأنّ إنجاءه من القتل لا يظهر أثره إلّا إذا أنجاه من الموت بالذبول لترك الرضاعة، ومن الإهمال المفضي إلى الهلاك أو الوهن إذا ولي تربيته من لا يشفق عليه الشفقة الجبليّة.

والتقدير: وإذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله، لأجل أن تصنع على عيني.

الصنع: مستعار للتربية والتنمية، تشبيها لذلك بصنع شيء مصنوع، ومنه يقال لمن أنعم عليه أحد نعمة عظيمة: هو صنيعة فلان.

{ **عَلَى عَيْنِي** } (على) للاستيلاء المجازي، أي المصاحبة المتمكّنة، بمعنى باء المصاحبة كقوله تعالى { فإنك بأعيننا } [الطور:48].

العين: مجاز في المراعاة والمراقبة كقوله تعالى { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } ، وقول النابغة:

عـهدتـك تـرعـانـي بـعـين بـصـيـرة ... وتـبـعـث حـراسـا عـلـي ونـاظـرا

أخت موسى: مريم ابنة عمران. وفي التوراة: أنّها كانت نبيّة [سفر الخروج، الإصحاح:15]. وتوفّيت سنة (ثلاث) من خروج بني إسرائيل من مصر [سفر العدد، الإصحاح:19]. سنة (1417 ق م).

ووقع اختصار في حكاية قصّة مشي أخته، وفصّلت في سورة القصص.

{ **هَلْ أَدُلُّكُمْ** } الاستفهام للعرض.

{ **مَنْ يَكْفُلُهُ** } أرادت أمّه. فلذلك قال { فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ}. وهذه منّة عليه لإكمال نمائه، وعلى أمّه بنجاته فلم تفارق ابنها إلّا ساعات قلائل، أكرمها الله بسبب ابنها.

{ **كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ** } عطف نفي الحزن على قرّة العين لتوزيع المنّة، لأنّ قرة عينها برجوعه إليها، وانتفاء حزنها بتحقيق سلامته من الهلاك ومن الغرق وبوصوله إلى أحسن مأوى.

{ **وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى [40] وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [41]** }.

قّدم ذكر قتله النفس على ذكر الإنجاء من الغم لتعظيم المنّة، حيث افتتحت القصّة بذكر جناية عظيمة التبعة، إذ أنجاه من عقوبة لا ينجو من مثلها مثله.

وهذه النفس هي نفس القبطي من قوم فرعون الذي اختصم مع رجل من بني إسرائيل في المدينة فاستغاث الإسرائيلي بموسى لينصره فوكز موسى القبطي فقضى عليه، كما قصّ ذلك في سورة القصص.

الغم: الحزن. ما خامر موسى من خوف الاقتصاص منه، لأنّ فرعون لمّا بلغه الخبر أضمر الاقتصاص من موسى للقبطي، إذ كان القبط سادة الإسرائيليين، فليس اعتداء إسرائيلي على قبطي بهيّن بينهم. ويظهر أنّ فرعون الذي تبنّى موسى كان قد هلك قبل ذلك.

{ **فُتُوناً** }، والفُتون مصدر فتن، كالخُروج، وهو مفعول مطلق لتأكيد عامله وهو { فَتَنَّاكَ } وتنكيره للتعظيم.

الفتون: كالفتنة هو اضطراب حال المرء في مدّة من حياته. وتقدم عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ }

[البقرة:191]. ويظهرأنّ أصل مصدر فتن بمعنى اختبر، فيكون في الشرّ وفي الخير. وأمّا الفتنة فلعلها خاصة باختبار المضر.

والمراد بهذا الفتون خوف موسى من عقاب فرعون وخروجه من البلد المذكور في قوله تعالى { فأصبح في المدينة خائفا يترقب - إلى قوله - قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [القصص:18-21]

فحين أنجى الله موسى من المؤاخذة بدمه في شرع فرعون ابتلى موسى بالخوف والغربة عتابا له على إقدامه على قتل النفس. وعباد الله الذين أراد بهم خيرا ورعاهم بعنايته يجعل لهم من كل حالة كمالا يكسبونه، ويسمّى مثل ذلك بالابتلاء، فكان من فتون موسى بقضية القبطي أن قدّر له الخروج إلى أرض مدين ليكتسب رياضة نفس وتهيئة ضمير لتحمّل المصاعب، ويتلقى التهذيب من صهره الرسول، شعيب عليه السلام.

{ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى }

أهل مدين: قوم شعيب، و**مدين**: اسم أحد أبناء إبراهيم عليه السلام سكنت ذرّيّته في موطن تسمّى الأيكة على شاطئ البحر الأحمر جنوب عقبة أيلة، وغلب اسم القبيلة على الأرض وصار علما للمكان فمن ثمّ أضيف إليه أهل. وقد تقدّم في سورة الأعراف.

{ **جِئْتَ** } حضرت لدينا. وهو حضوره بالواد المقدّس لتلقي الوحي. و(على) للاستعلاء المجازي بمعنى التمكّن.

القدر: تقدير الشيء على مقدار مناسب لما يريد المقدِّر بحيث لم يكن على سبيل المصادفة.

فقوله { ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى } يفيد أنّ ما حصل لموسى من الأحوال كان مقدّرا من الله تقديرا مناسبا متدرّجا، بحيث تكون أعماله وأحواله قد قدّرها الله وحدّدها تحيدا منظّما لأجل اصطفائه وما أراد الله من إرساله، فالقدر هنا كناية عن العناية بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير.

{ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** } ختم الامتنان بما هو الفذلكة، الذي هو بمنزلة ردّ العجز على الصدر، وهو تخلّص بديع إلى الغرض المقصود وهو الخطاب بأعمال الرسالة المبتدأ من قوله { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } ومن قوله { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه: 24].

الاصطناع: صنع الشيء باعتناء: واللام للأجل، أي لأجل نفسي. والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه.

{ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي } [42].

بيان لجملة { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى }، أو هي استئناف بياني، لأنّ قوله { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي } [41] يؤذن بأنّه اختاره وأعدّه لأمر عظيم، لأنّ الحكيم لا يتّخذ شيئا لنفسه إلّا مريدا جعله مظهرا لحكمته.

أمره هنا بالذهاب إلى فرعون وأن يذهب أخوه معه. ومعنى ذلك أن يبلّغ أخاه أنّ الله أمره بمرافقته، فتعيّن أن الأمر لطلب حصول الذهاب المستقبل عند الوصول إلى مصر بلد فرعون وعند لقائه أخاه هارون وإبلاغه أمر الله إيّاه، فقرينة عدم إرادة الفور هنا قائمة.

{ وَلا تَنِيَا } لا تضعفا. يقال: ونى يني وَنًى، أي ضعف في العمل، أي لا تن أنت وأبلغ هارون أن لا يني، فصيغة النهي مستعملة في حقيقتها ومجازها.

{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [43] فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى [44] }.

يجوز أن يكون انتقال إلى خطاب موسى وهارون. فيقتضي أن هارون كان حاضرا لهذا الخطاب. وهو ظاهر قوله بعده { قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ} . وكان حضور هارون عند موسى بوحي من الله أوحاه إلى هارون في أرض (جاسان) حيث منازل بني إسرائيل من أرض قرب طيبة. قال في التوراة [سفر الخروج ،الإصحاح:4]: " وقال [أي الله] هاهو هارون خارجا لاستقبالك فتكلّمه أيضا". وفيه أيضا " وقال الربّ لهارون اذهب إلى البريّة لاستقبال موسى فذهب والتقيا في جبل الله ". (أي جبل حوريب).

فيكون قد طوي ما حدث بين تكليم الله تعالى موسى في الوادي عند النّار وما بين وصول موسى مع أهله إلى جبل حوريب في طريقه إلى أرض مصر.

ويجوز أن تكون جملة { اذْهَبا إِلَى فِرْعَوْنَ } بدلا من جملة { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ } فيكون قوله { اذهبا } أمرا لموسى بأن يذهب وأن يأمر أخاه بالذهاب معه وهارون غائب. **وهذا أنسب لسياق الجمل**. وتكون جملة {قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ } مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وقد طوى ما بين خطاب الله موسى وما بين حكاية { قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ}. والتقدير: فذهب موسى ولقي أخاه هارون، وأبلغه أمر الله له بما أمره، فقالا ربّنا إنّنا نخاف.

{ إِنَّهُ طَغَى } تعليل للأمر بأن يذهبان إليه. فعلم أنّه لقصد كفّه عن طغيانه. وفعل (طغى) رسم في المصحف آخره ألفا ممالة، للإشارة إلى أنّه من طَغِيَ مثل رضي. ويجوز فيه الواو فيقال: يطغو مثل يدعو.

القول الليّن: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال. فشبّه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشيء اللين. واللين، حقيقة من صفات الأجسام، ويستعار اللين لسهولة المعاملة والصفح.

واللين من شعار الدعوة إلى الحقّ، قال تعالى { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125] وقال { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ } [آل عمران:159].

ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى { فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى } [النازعات:18- 19] وقوله { وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى } [طه:47]، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى. فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } [العنكبوت: 46]، وقال عن موسى { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [48].

{ **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** } الترجي المستفاد من (لعلّ)، إمّا تمثيل لشأن الله في دعوة فرعون بشأن الراجي، وإمّا أن يكون إعلاما لموسى وهارون بأن يرجوا ذلك، فكان النطق بحرف الترجي على لسانهما، كما تقول للشخص إذا أشرت عليه بشيء: فلعلّه يصادفك تيسير، وأنت لا تريد أنك ترجو ذلك ولكن بطلب رجاء من المخاطب. وقد تقدمت نظائره في القرآن غير مرة.

التذكّر: من الذُّكر (بضم الذال) أي النظر، أي لعلّه ينظر نظر المتبصّر فيعرف الحقّ أو يخشى حلول العقاب به فيطيع عن خشية. وكان فرعون من أهل الطغيان واعتقاد أنّه على الحق. فالتذكّر: أن يعرف أنّه على الباطل، والخشية: أن يتردّد في ذلك فيخشى أن يكون على الباطل فيحتاط لنفسه بالأخذ بما دعاه إليه موسى.

وهنا انتهى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام.

{ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى [45] قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [46] فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى [47] إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [48] }.

فصلت الجملتان لوقوعهما موقع المحاورة بين موسى مع أخيه وبين الله تعالى على كلا الوجهين اللذين ذكرناهما آنفا، أي جمعا أمرهما وعزما على الذهاب إلى فرعون فناجيا ربهما { قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى }، لأنّ غالب التفكير في العواقب والموانع يكون عند العزم على الفعل والآخذ في التهيؤ له، ولذلك أعيد أمرهما بقوله تعالى { فَأْتِيَاهُ }.

{ **يَفْرُطَ** } معناه يعجل ويسبق، ويقال: فرط يفرط من باب نصر. و**الفارط**: الذي يسبق الواردة إلى الحوض للشرب. والمعنى: نخاف أن يعجل بعقابنا بالقتل أو غيره من العقوبات قبل أن نبلّغه ونحجّه.

الطغيان: التظاهر بالتكبّر. وتقدّم آنفا عند قوله { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } ، أي يصدر منه ما هو أثر

الكبر من التحقير والإهانة. فذكر الطغيان بعد الفرط إشارة إلى أنّهما لا يطيقان ذلك، فهو انتقال من الأشدّ إلى الأضعف لأن { نَخَافُ } يؤول إلى معنى النفي. وفي النفي يذكر الأضعف بعد الأقوى بعكس الإثبات ما لم يوجد ما يقتضي عكس ذلك.

وحذف متعلّق { يَطْغَى } لدلالة نظيره عليه، وأوثر بالحذف لرعاية الفواصل. والتقدير: أو أن يطغي علينا. **ويحتمل** أن متعلّقه ليس نظير المذكور قبله بل هو متعلّق آخر، لكون التقسيم التقديري دليلا عليه، لأنّهما لمّا ذكرا متعلّق { يَفْرُطَ عَلَينَا } وكان الفرط شاملا لأنواع العقوبات حتّى الإهانة بالشتم لزم أن يكون التقسيم بـ (أو) منظورا فيه إلى حالة أخرى وهي طغيانه على من لا يناله عقابه، أي **أن يطغي على الله بالتنقيص** كقوله { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص:38] وقوله { لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى } [القصص:38]، فحذف المتعلّق حينئذ لتنزيهه، والتقدير: أو أن يطغي عليك فيتصلّب في كفره ويعسر صرفه عنه.

{ **قَالَ لا تَخَافَا** } أي لا تخافا حصول شيء من الأمرين.

{ **إِنَّنِي مَعَكُمَا** } تعليل للنهي عن الخوف الذي هو في معنى النفي، والمعيّة معيّة حفظ.

{ **أَسْمَعُ وَأَرَى** } حالان من ضمير المتكلّم، أي أنا حافظكما من كل ما تخافانه، وأنا أعلم الأقوال والأعمال فلا أَدَعُ عملا أو قولا تخافانه.

{ **فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ** } إعادة الأمر بالذهاب إلى فرعون.

الإتيان: الوصول والحلول، لأنّ الإتيان اثر الذهاب المأمور به في الخطاب السابق، وكانا قد اقتربا من مكان فرعون، لأنّهما في مدينته.

{ **إِنَّا رَسُولا** } وجاءت تثنية رسول على الأصل في مطابقة الوصف الذي يجرى عليه في الإفراد وغيره. وفعول الذي بمعنى مفعول تجوز فيه المطابقة وعدم المطابقة. وهما وجهان مستويان. ومن مجيئه غير مطابق قوله { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء:16] وسيجيء تحقيق ذلك إن شاء الله.

{ **رَبِّكَ** } وخصّا الرب بالإضافة إلى ضمير فرعون قصدا لأجل الدعوة، لأنّ فرعون يدّعي أنّه هو الربّ.

{ **وَلا تُعَذِّبْهُمْ** } هو ما كان فرعون يسخّر له بني إسرائيل من الأعمال الشاقة في الخدمة، لأنه كان يعُدّ بني إسرائيل كالعبيد والخول، جزاء إحلالهم بأرضه.

{ **قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ** } فيها بيان لجملة { إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ } فكانت الأولى إجمالا والثانية بيانا. وفيها معنى التعليل لتحقيق كونهما مرسلين من الله بما يظهره الله على يد أحدهما من دلائل الصدق.

وهذه الآية هي انقلاب العصا حيّة، وقد تبعها آيات أخرى.

والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدلّ على أنّ موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمّة مستقلّة، بأن يبثّ فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة، ومع

ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد، لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين ظهرانيه. وهذا يؤخذ ممّا في هذه الآية وما في آية سورة الإسراء وما في آية سورة النازعات والآيات الأخرى.

{ **وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى** } السلامة والإكرام. وليس المراد به هنا التحية، وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في كتابه إلى هرقل وغيره: " **أسلم تَسلم** ".

و(على) للتمكن، أي سلامة من اتبع الهدى ثابتة لهم دون ريب. وهذا احتراس ومقدمة للإنذار، وفيه تعريض بأن يطلب فرعون الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام.

{ **إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** } تعريض لإنذاره على التكذيب قبل حصوله منه ليبلّغا الرسالة على أتمّ وجه قبل ظهور رأي فرعون في ذلك، حتّى لا يجابهاه بعد ظهور رأيه بتصريح توجيه الإنذار إليه. وهذا أسلوب القول الليّن الذي أمرهما الله به.

وإطلاق (السلام والعذاب) دون تقيّد بالدنيا أو الآخرة تعميم للبشرة والنذارة، قال تعالى { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [النازعات:25- 26].

وهذا كلّه كلام الله الذي أمرهما بتبليغه إلى فرعون.

{ **قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى [49] قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [50]** }.

هذا حكاية جواب فرعون عن الكلام الذي أمر الله موسى وهارون بإبلاغه فرعون، ففي الآية حذف جمل دلّ عليها السياق قصدا للإيجاز. والتقدير: فأتياه فقالا له ما أُمرا به، فقال: فمن ربكما؟

ووجّه فرعون الخطاب إليهما بالضمير المشترك، ثم خَصّ موسى بالإقبال عليه بالنداء، لعلمه بأنّ موسى هو الأصل بالرسالة وأنّ هارون تابع له، ولعلّ موسى هو الذي تولى الكلام وهارون يصدّقه بالقول أو بالإشارة.

{ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** } وأجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جريا على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس، فإن فرعون من جملة الأشياء.

الخلق: مصدر بمعنى الإيجاد، وجيء بفعل (الإعطاء) للتنبيه على أنّ الخلق والتكوين نعمة، فهو استدلال على الربوبيّة وتذكير بالنعمة معا.

ويجوز أن يكون الخلق بالمعنى الأخصّ، وهو الخلق على شكل مخصوص، فهو بمعنى الجعل، أي الذي أعطى كل شيء من الموجودات شكله المختصّ به، فكُوّنت بذلك الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص من آثار ذلك الخلق.

ويجوز أن يكون { كُلَّ شَيْءٍ } مفعولا ثانيا ل {أَعْطَى} ومفعوله الأوّل {خَلْقَهُ} ، أي أعطى خلقه ما يحتاجونه، كقوله { فأخرجنا به نبات كل شيء }. فتركيب الجملة صالح للمعنيين.

{ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى [51] قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى [52]}.

البال: كلمة دقيقة المعنى، تطلق على **الحال المهمّ**، ومصدره (البالَة) بتخفيف اللام، قال تعالى { كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } [محمد:2]، أي حالهم. وفي الحديث " **كلّ أمر ذي بال..**"، وتطلق على الرأي يقال: خطر كذا ببالي. ويقولون: ما ألقى له بالا، وإيثار هذه الكلمة هنا من دقيق الخصائص البلاغية.

أراد فرعون أن يحاج موسى بما حصل للقرون الماضية الذين كانوا على ملّة فرعون، أي قرون أهل مصر، أفتزعم أنهم اتفقوا على ضلالة. وهذه شنشنة من لا يجد حجّة، وهو في معنى قول فرعون وملئه { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [يونس:78].

ويجوز أن يكون المعنى أنّ فرعون أراد التشغيب على موسى حين نهضت حجّته بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى: هل هم في عذاب بمناسبة قول موسى { أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } [48]، فإذا قال: إنّهم في عذاب، ثارت ثائرة أبنائهم فصاروا أعداء لموسى، وإذا قال: هم في سلام، نهضت حجّة فرعون لأنّه متابع لدينهم.

{ **قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ** } صالح للاحتمالين، فعلى الاحتمال الأوّل يكون موسى صرفه عن الخوض فيما لا يجدي في مقامه ذلك، الذي هو المتمحّض لدعوة الأحياء لا البحث عن الأموات الذين أفضوا إلى عالم الجزاء. وهذا نظير قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ذراري المشركين فقال: " **الله أعلم بما كانوا عاملين** ".

وعلى الاحتمال الثاني يكون موسى قد عدل عن ذكر حالهم خيبة لمراد فرعون وعدولا عن الاشتغال بغير الغرض الذي جاء لأجله.

{ **فِي كِتَابٍ** } كناية عن تحقيق العلم، لأنّ الأشياء المكتوبة تكون محقّقة.

{ **لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى** } تأكيد. و**الضلال**: الخطأ في العلم، و**النسيان**: عدم تذكر الأمر المعلوم.

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى [53] كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى [54] }.

هذه جمل ثلاث، معترضة في أثناء قصّة موسى.

{ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ** - إلى قوله - **مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى** } الجملة الأولى، مستأنفة ابتدائية على عادة القرآن من تفنّن الأغراض لتجديد نشاط الأذهان. ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله

{فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً }. أي الجاعل الأرض مهادا فكيف تعبدون غيره. وهذا قصر حقيقي غير مقصود به الرد على المشركين ولكنّه تذكير بالنعمة وتعريض بأنّ غيره ليس حقيقا بالإلهيّة.

{ **مَهْداً** } وقرأ الجمهور { مِهادا } (بكسر الميم) وهو اسم بمعنى الممهود مثل الفراش واللباس. ويجوز أن يكون جمع مهد، وهو اسم لما يمهّد للصبي. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { مَهْداً } بفتح الميم وسكون الهاء، أي كالمهد الذي يمهّد للصبي. ومعنى القراءتين واحد، أي جعل الأرض مسهّلة، كقوله { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً } [نوح:19- 20].

{ **وسَلَكَ** } فعل مشتق من السلوك والسلك الذي هو الدخول مجتازا في الطريق، تشبيها للسائر بالشيء الداخل في شيء آخر. يقال: سلك طريقا. فحقّ هذا الفعل أن يتعدّى إلى مفعول واحد وهو المدخول فيه، ويستعمل متعديا بمعنى أسلك. فيقال: أسلك المسمار في اللوح، أي جعله سالكا إيّاه.

{ **وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** }، أي أسلك فيها سبلا، أي جعل سبلا سالكة في الأرض، أي متخلّلة. وذلك كناية عن كثرتها في جهات الأرض.

{ **سُبُلاً** } كل سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال، أو كان من أثر فعل النّاس، مثل الثنايا التي تكرّر السير فيها فتعبّدت وصارت طرقا يتابع النّاس السير فيها.

{ **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى** } لمّا ذكر منّة خلق الأرض شفعها بمنّة إخراج النبات منها بما ينزل عليها من السماء من ماء. وتلك منّة تنبئ عن خلق السماوات.

{ **فَأَخْرَجْنَا** } التفات. وحسّنه هنا أنّه بعد أن حجّ المشركين بحجّة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء ممّا لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى **صيغة المتكلّم المطاع**، فإن الذي خلق الأرض وسخّر السماء حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر، فهو يخرج النبات من الأرض بسبب ماء السماء، فكان تسخير النبات أثرا لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض.

ولملاحظة هذه النكتة تكرّر في القرآن مثل هذا الالتفات عند ذكر الإنبات كما في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام:99]، وقوله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا } [فاطر:27]، وقوله { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ } ، ومنها قوله { وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً } [الزخرف:11] وقد نبّه إلى ذلك في الكشّاف، ولله درّه. ونظائره كثيرة في القرآن.

الأزواج: جمع زوج. وحقيقة الزوج أنّه اسم لكلّ فرد من اثنين من صنف واحد. فكل أحد منهما هو زوج باعتبار الآخر، لأنّه يصير بسبق الفرد الأوّل إيّاه زوجا. ثم غلب على الذكر والأنثى المقترنين من نوع الإنسان أو من الحيوان، قال تعالى { فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [المؤمنون:27].

ولمّا شاعت فيه ملاحظة معنى اتحاد النوع تطرّقوا من ذلك إلى استعمال لفظ الزوج في معنى النوع بغير قيد كونه ثانيا لآخر، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ } [يّس:36]، ومنه قوله { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } [لقمان:10]. وفي الحديث: **" من أنفق زوجين في سبيل الله ابتدرته حَجَبة الجنّة..."** ، أي من أنفق **نوعين** مثل الطعام والكسوة، ومثل الخيل والرواحل. وهذا الإطلاق هو المراد هنا. أي فأنبتنا به أنواعا من نبات.

النبات: مصدر سمّي به النابت، فلكونه مصدرا في الأصل استوى فيه الواحد والجمع.

شتّى: جمع شتيت بوزن فَعلى، مثل: مريض ومرضى. والشتيت: المشتّت، أي المبعد. وأريد به هنا التباعد في الصفات من الشكل واللون والطعم، وبعضها صالح للإنسان وبعضها للحيوان.

{ **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ** } الجملة الثانية مقول قول محذوف هو حال من ضمير { فَأَخْرَجْنَا }، والتقدير: قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم. والأمر للإباحة مراد به المنّة.

وفعل (رعى) يستعمل قاصرا ومتعدّيا. يقال: رعت الدابة ورعاها صاحبها. وفرّق بينهما في المصدر فمصدر القاصر: الرعي، ومصدر المتعدي: الرعاية.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى** } الجملة الثالثة، معترضة مؤكّدة للاستدلال، فبعد أن أشير إلى ما في المخلوقات المذكورة آنفا من الدلالة على وجود الصانع ووحدانيّته، والمنّة بها على الإنسان لمن تأمّل، جمعت في هذه الجملة وصرّح بما في جميعها من الآيات الكثيرة.

{ **إِنَّ** } التأكيد لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين، لأنّهم لم ينظروا في دلالة تلك المخلوقات على وحدانيّة الله، وهم يحسبون أنفسهم من أولي النهى، فما كان عدم اهتدائهم بتلك الآيات إلّا لأنهم لم يعدّوها آيات.

النُّهى: اسم جمع نُهْية (بضم النون وسكون الهاء)، أي العقل، سمي نُهية لأنّه سبب انتهاء المتحلي به عن كثير من الأعمال المفسدة والمهلكة، ولذلك أيضا سمّي بالعقل وسمّي بالحجر.

{ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } [55]

مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وهذا إدماج للتذكير بالخلق الأوّل ليكون دليلا على إمكان الخلق الثاني بعد الموت. والمناسبة متمكّنة، فإنّ ذكر خلق الأرض ومنافعها يستدعي إكمال ذكر المهمّ للنّاس من أحوالها، فكان خلق أصل الإنسان من الأرض شبيها بخروج النبات منها. وإخراج النّاس إلى الحشر شبيه بإخراج النبات من الأرض. قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح:17- 18].

{ **مِنْهَا - وَفِيهَا - وَمِنْهَا** }، تقديم المجرور الأوّل والمجرور الثالث للاهتمام بكون الأرض مبدأ الخلق الأوّل والخلق الثاني. وأمّا تقديم الثاني فللمزاوجة مع نظيريه.

{ **وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ** } دلّ على أنّ دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعيّة لمواراة الموتى سواء كان شقّا في الأرض أو لحدا، لأنّ كليهما إعادة في الأرض. فما يأتيه بعض الأمم غير المتديّنة من إحراق الموتى بالنّار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته، لأنّ الفطرة اقتضت أنّ الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أوّل مواراة في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي } [المائدة:31] فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض.

الإخراج: هو إخراجها إلى الحشر بعد إعادة هياكل الأجسام في داخل الأرض. وفيه إيماء إلى أنّ إخراج الأجساد من الأرض بإعادة خلقها كما خلقت في المرّة الأولى، قال تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الانبياء:104].

التارة: المرّة، وجمعها تارات. ويظهر أنّها اسم جامد ليس له أصل مشتقّ منه.

{ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى } [56]

رجوع إلى قصص موسى عليه السلام مع فرعون. وهذه الجملة بين الجمل التي حكت محاورة موسى وفرعون، وقعت هذه كالمقدمة لإعادة سوق ما جرى بين موسى وفرعون من المحاورة.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الكلام بـ (لام القسم) و (قد) مستعمل في التعجيب من تصلّب فرعون في عناده، وقُصد منها بيان شدّته في كفره، وبيان أنّ لموسى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون.

وأُجْملت وعُمّمت فلم تفصَّل، لأنّ المقصود هنا بيان شدة تصلبه في كفره بخلاف آية سورة الأعراف التي قصد منها بيان تعاقب الآيات ونصرتها.

{ **أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا** } إظهارها له بحيث شاهدها. أي أرينا فرعون آياتنا التي جرت على يد موسى، وهي المذكورة في قوله تعالى { فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ } [النمل:12] وهي: (انقلاب العصا حيّة، وتبدّل لون اليد بيضاء، وسِنُو القحط، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، وانفلاق البحر). وقد استمر تكذيبه بعد جميعها حتّى لمّا رأى انفلاق البحر اقتحمه طمعا للظفر ببني إسرائيل.

{ **كُلَّهَا** } أداة التوكيد لزيادة التعجيب من عناده.

{ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى [57] فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى [58] قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً [59] }.

متّصلة بجملة { قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } وجواب موسى عنها. وافتتاحها بفعل (قال) وعدم عطفه لا يترك شكا في أنّ هذا من تمام المحاورة.

{ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ } يقتضي أنّه أراه آية انقلاب العصا حيّة، وانقلاب يده بيضاء. وذلك ما سمّاه فرعون سحرا. وقد صرح بهذا المقتضى في سورة الشعراء [29- 35]. وقد استغنى عن ذكره هنا بما في جملة { وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا } من العموم الشامل لآية انقلاب العصا حيّة.

وإنّما جعل فرعون العلّة في مجيء موسى إليه أن يخرجهم من أرضهم قياسا منه على الذين يقومون بدعوة ضدّ الملوك، أنّهم إنّما يبغون بذلك إزالتهم عن الملك وحلولهم محلّهم.

ويجوز أن يكون ضمير المتكلّم المشارك مستعملا في الجماعة تغليبا، ونزل فرعون نفسه واحدا منها. وأراد بالجماعة جماعة بني إسرائيل حيث قال له موسى { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ } [47]، أي جئت لتخرج بعض الأمّة من أرضنا وتطمع أن يتبعك جميع الأمّة بما تظهر لهم من سحرك.

{ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ } إحضار السحرة بين يديه، أي فلنأتينك بسحرة.

وقصد فرعون من مقابلة عمل موسى بمثله أن يزيل ما يخالج نفوس النّاس من تصديق موسى.

{ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى } وفرّع على ذلك طلب تعيين موعد بينه وبين موسى ليحضر له فيه السحرة.

الموعد: هنا يجوز أن يراد به المصدر الميمي، أي الوعد وأن يراد به مكان الوعد، وهذا إيجاز في الكلام.

{ مَكَاناً } بدل اشتمال من { مَوْعِداً } بأحد معنييه، لأن الفعل يقتضي مكانا وزمانا فأبدل منه مكانه.

{ سُوًى } قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي { سِوًى } بكسر السين. وقرأه عاصم، وحمزة، وابن عامر، ويعقوب، وخلف بضم السين وهما لغتان.

والمعنى: قال مجاهد: إنّه مكان نِصف، وكأنّ المراد أنّه نصف من المدينة لئلّا يشقّ الحضور فيه على أهل أطراف المدينة. وعن ابن زيد: المعنى مكانا مستويا، أي ليس فيه مرتفعات تحجب العين، أراد مكانا منكشفا للناظرين ليشهدوا أعمال موسى وأعمال السحرة.

{ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً } جواب موسى. فيقتضي أنّ محشر النّاس في يوم الزينة كان مكانا معروفا. ولعلّه كان بساحة قصر فرعون، لأنّهم يجتمعون بزينتهم ولهوهم بمرأى منه ومن أهله

على عادة الملوك في المواسم.

{ **يَوْمُ الزِّينَةِ** } كان يوم عيد عظيم عند القبط، وهو يوم كسر الخليج أو الخلجان، وهي المنافذ والترع المجعولة على النيل لإرسال الزائد من مياهه إلى الأرضين البعيدة عن مجراه للسقي، فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولها إليها ويزرعون عليها.

وزيادة المياه في النيل هو توقيت السنة القبطية، وذلك هو أوّل يوم من شهر (توت) القبطي. وهو (أيلول) بحسب التاريخ الاسكندري، وذلك قبل حلول الشمس في برج الميزان بثمانية عشر يوما، أي قبل فصل الخريف بثمانية عشر يوما، فهو يوافق اليوم الخامس عشر من شهر تشرين (سبتمبر).

وأوّل أيّام شهر (توت) هو يوم النيروز عند الفرس، وذلك مبني على حساب انتهاء زيادة النيل لا على حساب بروج الشمس.

واختار موسى هذا الوقت وهذا المكان لأنّه يعلم أن سيكون الفوز له، فأحبّ أن يكون ذلك في وقت أكثرَ مشاهِدا وأوضح رؤية.

{ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى [60] قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى [61] }.

إشارة إلى أن فرعون بادر بالاستعداد لهذا الموعد.

التولّي: الانصراف، وهو هنا مستعمل في حقيقته، وهذا كقوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى } [النازعات:22 – 23].

{ **فَجَمَعَ كَيْدَهُ** } تدبير أسلوب مناظرة موسى، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأنّ موسى ليس على شيء. فالجمع هنا مستعمل في معنى إعداد الرأي، واستقصاء ترتيب الأمر، كقوله {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ } [يونس:71].

الكيد: إخفاء ما به الضرّ إلى وقت فعله. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:183].

{ **ثُمَّ أَتَى** } ثم حضر الموعد، و(ثمّ) للمهلة الحقيقية والرتبية معا، لأنّ حضوره للموعد كان بعد مضيّ مهلة الاستعداد، ولأنّ ذلك الحضور أهم من جمع الكيد، لأنّ فيه ظهور أثر ما أعدّه.

{ **قَالَ لَهُمْ مُوسَى** } مستأنفة استئنافا بيانيا. أراد موسى مفاتحة السحرة بالموعظة.

{ **لَهُمْ** } الضميرعائد إلى معلوم من قوله { فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ } أي بأهل سحر، أو يكون الخطاب للجميع، لأنّ ذلك المحضر كان بمرأى ومسمع من فرعون وحاشيته.

{ **وَيْلَكُمْ** } يجوز أن يكون أراد به حقيقة الدعاء. ويجوز أن تكون الكلمة مستعملة في التعجّب من حال غريبة، أي أعجب منكم وأحذّركم، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي بصير: **" ويل أمّه، مُسْعِرُ حرب "**. فحكي تعجّب موسى باللفظ العربي الدال على العجب الشديد.

الويل: اسم للعذاب والشرّ، وليس له فعل.

الافتراء: اختلاق الكذب. والجمع بينه وبين { كَذِباً } للتأكيد، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

والافتراء الذي عناه موسى هو ما يخيّلونه للناس من الشعوذة، أو قولهم: ما نفعله تأييد من الله لنا، أو قولهم: إنّ موسى كاذب وساحر، أو قولهم: إن فرعون إلههم، أو آلهة فرعون آلهة. وقد كانت مقالات كفرهم أشتاتا.

{ **فَيُسْحِتَكُمْ** } مضارع سحته: إذا استأصله.

{ **وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى** } في موضع الحال من ضمير { لا تَفْتَرُوا } وهي مسوقة مساق التعليل للنهي، أي اجتنبوا الكذب على الله فقد خاب من افترى عليه من قبل. بعد أن وعظهم فنهاهم عن الكذب على الله وأنذرهم عذابه ضرب لهم مثلا بالأمم البائدة الذين افتروا الكذب على الله فلم ينجحوا فيما افتروا لأجله.

{ **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى [62] قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى [63] فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى [64]** }.

تفرّع على موعظة موسى تنازعهم الأمر بينهم، وهذا يؤذن بأنّ منهم من تركت فيه الموعظة بعض الأثر، ومنهم من خشي الانخذال، فلذلك دعا بعضهم بعضا للتشاور.

التنازع: تفاعل من النزع، وهو الجذب من البئر، وجذب الثوب من الجسد، وهو مستعمل تمثيلا في اختلاف الرأي ومحاولة كلّ صاحب رأي أن يقنع المخالف له بأن رأيه هو الصواب. فالتنازع: **التخالف**.

النجوى: الحديث السرّي، أي اختلَوا وتحادثوا سرّا ليصدروا عن رأي لا يطّلع عليه غيرهم.

{ **بينهم** } زيادة في مبالغة المقتضي أن النجوى بين طائفة خاصة لا يشترك معهم فيها غيرهم.

{ **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ** } بدل اشتمال من جملة { وَأَسَرُّوا النَّجْوَى } لأنّ إسرار النجوى يشتمل على أقوال كثيرة ذكر منها هذا القول، لأنّه القول الفصل بينهم والرأي الذي أرسوا عليه. وهو تحققهم أنّ موسى وأخاه ساحران.

واعلم أنّ جميع القرّاء المعتبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة (هاذان) ما عدا أبا عمرو من العشرة وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر. وذلك يوجب اليقين بأنّ إثبات الألف في لفظ (هذان) أكثر تواترا بقطع النظر عن كيفية النطق بكلمة (إن) مشدّدة أو مخففة، وأنّ أكثر مشهور القراءات المتواترة قرأوا بتشديد نون (إنّ) ما عدا ابن كثير وحفصا عن عاصم فهما قرءا (إنْ) بسكون النون على أنّها مخففة من الثقيلة.

وأنّ المصحف الإمام ما رسموه إلّا اتباعا لأشهر القراءات المسموعة المروية من زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقرّاء أصحابه، فإنّ حفظ القرآن في صدور القرّاء أقدم من كتابته في المصاحف، وما كتب في أصول المصاحف إلّا من حفظ الكاتبين، ومن مجموع محفوظ الحفاظ، وما كتبه كتّاب الوحي في مدّة نزول الوحي.

فأمّا قراءة الجمهور { إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } بتشديد نون (إنَّ) وبالألف في { هَذَانِ } وكذلك في { لَسَاحِرَانِ } فللمفسرين في توجيهها آراء بلغت الستة. وأظهرها أن تكون (إنّ) **حرف جواب مثل**: **نعم وأجل**، وهو استعمال من استعمالات (إن) أي اتّبعوا لما استقر عليه أمرهم بعد النجوى كقول عبد الله بن قيس الرقيَّات:

ويقلن شَيْبٌ قد علا ... كَ وقد كبِرْتَ فقلت إنّه

أي أجل أو نعم، والهاء في البيت هاء السكت.

وقول عبد الله بن الزبير لأعرابي استجداه فلم يعطه، فقال الأعرابي: لعن الله ناقة حملتني إليك. قال ابن الزبير: إنّ وراكبيها.

وهذا التوجيه من مبتكرات أبي إسحاق الزجاج ذكره في تفسيره . وقال: عرضته على عالمينا وشيخينا وأستاذينا محمد بن يزيد يعني المبرد، وإسماعيل بن إسحاق بن حماد (يعني القاضي الشهير) فقبلاه وذكرا أنّه أجود ما سمعاه في هذا. **قلت**: لقد صدقا وحقّقا. وما أورده ابن جنّي عليه من الرد فيه نظر.

وقرأ حفص بكسر الهمزة وتخفيف نون (إنْ) مسكنة على أنّها مخففة (إنّ) المشددة. ووجه ذلك أن يكون اسم (إنْ) المخففة ضمير شأن محذوفا على المشهور. وتكون اللام في { لَسَاحِرَانِ } اللام الفارقة بين (إن) المخففة وبين (إن) النافية.

وأمّا قراءة أبي عمرو وحده { إنّ هذين } بتشديد نون وبإلياء بعد ذال (هذين). فقال القرطبي: هي مخالفة للمصحف. و**أقول**: ذلك لا يطعن فيها، لأنّها رواية صحيحة ووافقت وجها مقبولا في العربية.

ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متّحدة المقصود.

فلا التفات إلى ما روي من ادعاء أن كتابة (إن هاذان) خطأ من كاتب المصحف، وروايتهم ذلك عن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه، وعن عروة بن الزبير عن عائشة، وليس في ذلك سند صحيح. حسبوا أنّ المسلمين أخذوا قراءة القرآن من المصاحف وهذا تغفُّل، فإنّ المصحف ما كتب إلّا بعد أن قرأ المسلمون القرآن نيفا

وعشرين سنة في أقطار الإسلام، وما كتبت المصاحف إلّا من حفظ الحفّاظ، وما أخذ المسلمون القرآن إلّا من أفواه حفّاظه قبل أن تكتب المصاحف، وبعد ذلك إلى اليوم فلو كان في بعضها خطأ في الخط لما تبعه القرّاء، ولكان بمنزلة ما ترك من الألفات في كلمات كثيرة وبمنزلة كتابة ألف الصلاة، والزكاة، والحياة، والربا بالواو في موضع الألف وما قرأوها إلّا بألفاتها.

{ **قَالُوا** } قد يكون بعضهم ممّن شاهد ما أتى به موسى في مجلس فرعون، أو ممّن بلغهم ذلك بالتسامع والاستفاضة.

{ **لَسَاحِرَانِ** } وجعل ما أظهره موسى من المعجزة بين يدي فرعون سحرا لأنّهم يطلقون السحر عندهم على خوارق العادات، كما قالت المرأة التي شاهدت نبع الماء من بين أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم لقومها: جئتكم من عند أسحر النّاس، وهو في كتاب المغازي من صحيح البخاري.

{ **أَنْ يُخْرِجَاكُمْ** } الخطاب لملئهم. ووجه اتهامه بذلك هو ما تقدّم عند قوله تعالى { أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى} [57]. ويجوز أن يكون هذا من النجوى بين السحرة، أي يريدان الاستئثار بصناعة السحر في أرضكم فتخرجوا من الأرض بإهمال النّاس لكم وإقبالهم على سحر موسى وهارون.

{ **بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى** } الطريقة: السنّة والعادة، شُبّهت بالطريق الذي يسير فيه السائر، لجامع الملازمة.

والباء لتعدية فعل { يذهبا }. والمعنى: يُذهبانها، وهو أبلغ في تعلّق الفعل بالمفعول من نصب المفعول. وتقدّم عند قوله تعالى { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة:17].

المثلى: مؤنث الأمثل. وهو اسم تفضيل مشتقّ من المثالة، وهي حسن الحالة يقال: فلان أمثل قومه، أي أقربهم إلى الخير وأحسنهم حالا.

أرادوا من هذا إثارة حميّة بعضهم غيرة على عوائدهم، فإنّ لكلّ أمة غيرة على عوائدها وشرائعها وأخلاقها.

{ **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً** } فرّعوا على ذلك أمرهم بأن يجمعوا حيلهم وكلّ ما في وسعهم أن يغلبوا به موسى. وسمّوا عملهم كيدا لأنّهم تواطؤوا على أن يُظهروا للعامة أنّ ما جاء به موسى ليس بعجيب، فهم يأتون بمثله أو أشدّ منه، ليصرفوا النّاس عن سماع دعوته.

{ **ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً** } الصفّ: مصدر معنى الفاعل أو المفعول، أي صافّين أو مصفوفين، إذا ترتّبوا واحدا حذو الآخر بانتظام بحيث لا يكونون مختلطين، لأنّهم إذا كانوا كذلك وكان الصف منهم تلو الآخر كانوا أبهر منظرا، قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [الصف:4]. وكان جميع سحرة البلاد المصرية قد أُحضروا بأمر فرعون، فكانوا عددا كثيرا.

{ **وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى** } تذييل للكلام يجمع ما قصدوه من تآمرهم بأنّ الفلاح يكون لمن غلب وظهر في ذلك الجمع.
{ **اسْتَعْلَى** } مبالغة في علا، أي علا صاحبه وقهره. فالسين والتاء للتأكيد. وأرادوا الفلاح في الدنيا.

{ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى [65] قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى [66] }.

تقدّمت هذه القصة ومعانيها في سورة الأعراف سوى أنّ الأوّليّة هنا مصرّح بها في أحد الشقّين. فكانت صريحة في أنّ التخيير يتسلّط على الأوّليّة في الإلقاء، وسوى أنّه صرّح هنا بأنّ السحر الذي ألقوه كان بتخييل أنّ حبالهم وعصيهم ثعابين تسعىّ، لأنّها لا يشبهها في شكلها من أنواع الحيوان سوى الحيّات والثعابين.
وهذا التخييل الذي وجده موسى من سحر السحرة هو أثر عقاقير يشربونها تلك الحبال والعصي، وتكون الحبال من صنف خاص، والعصي من أعواد خاصة فيها فاعلية لتلك العقاقير، فإذا لاقت شعاع الشمس اضطربت تلك العقاقير فتحرّكت الحبال والعصي. قيل: وضعوا فيها طلاء الزئبق.
وليس التخييل لموسى من تأثير السحر في نفسه لأنّ نفس الرسول لا تتأثر بالأوهام، ويجوز أن تتأثر بالمؤثّرات التي يتأثر منها الجسد كالمرض.

{ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى [67] قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى [68] وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [69] }.

أوجس: أضمر واستشعر. أي وجد في نفسه. وتقدّم عند قوله { نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود:70].
{ **خِيفَةً** } اسم هيئة من الخوف، أريد به مطلق المصدر. وأصله خوفة، فقلبت الواو ياء لوقوعها أثر كسرة.
{ **فِي نَفْسِهِ** } للإشارة إلى أنّها خيفة تفكّر، لم يظهر أثرها على ملامحه. وهذا مقام الخوف، وهو مقام جليل مثله مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر إذ قال: " اللهم إني أسألك نصرك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد في الأرض ".
{ **قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى** } تأكيد الجملة بحرف التأكيد وتقوية تأكيدها بضمير الفصل وبالتعريف في {الأعلى } دليل على أنّ ما خامره من الخوف إنّما هو خوف ظهور السحرة عند العامة ولو في وقت ما.
وهو وإن كان موقنا بأنّ الله ينجز له ما أرسله لأجله لكنّه لا مانع من أن يستدرج الله الكفرة مدة لإظهار ثبات

إيمان المؤمنين، كما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196]

{ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ** } عبّر عن العصا بـ (ما) الموصولة تذكيرا له بيوم التكليم إذ قال له { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى } [17] ليحصل له الاطمئنان بأنّها صائرة إلى الحالة التي صارت إليها يومئذ.

التلقّف: الابتلاع. وقرأه الجمهور بجزم {تلقف} في جواب قوله { وألق }. وقرأه ابن ذكوان برفع {تلقف} على الاستئناف. وقرأ الجمهور { تلَقّف } بفتح اللام وتشديد القاف. وقرأه حفص بسكون اللام وفتح القاف.

{ **إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ** } مستأنفة ابتدائية. والكلام إخبار بسيط لا قصر فيه.

{ **وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** } من تمام الجملة التي قبلها، أي لا ينجح الساحر حيث كان، لأنّ صنعته تنكشف بالتأمل وثبات النفس في عدم التأثّر بها.

{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى [70] قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى [71] }.

الإلقاء: الطرح على الأرض. وأسند الفعل إلى المجهول لأنّهم لا ملقي لهم إلّا أنفسهم، فكأنّه قيل: فألقوا أنفسهم سجّدا، فإن سجودهم كان إعلانا باعترافهم أنّ موسى مرسل من الله. ويجوز أن يكون سجودهم تعظيما لله تعالى. ويجوز أن يكون دلالة على تغلّب موسى عليهم فسجدوا تعظيما له.

ويجوز أن يريدوا به تعظيم فرعون، جعلوه مقدمة لقولهم { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } حذرا من بطشه.

سجّد: جمع ساجد.

وإنّما آمنوا بالله حينئذ لأنّهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى ليس من جنس السحر لأنّهم أئمة السحر فعلموا أنّه آية من عند الله.

{ **بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** } وتعبيرهم عن الربّ بطريق الإضافة إلى هارون وموسى لأنّ الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلّا بهذه النسبة، لأنّ لهم أربابا يعبدونها ويعبدها فرعون.

وتقديم هارون على موسى هنا وتقديم موسى على هارون في قوله تعالى { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } [الأعراف [121، 122] لا دلالة فيه على تفضيل ولا غيره، لأنّ الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مطلق الجمع في الحكم المعطوف فيه، فهم عرّفوا الله بأنّه رب هذين الرجلين؛ فحكي كلامهم بما يدلّ على ذلك، ألا ترى أنّه حكي هناك قول السحرة { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ، ولم يحك ذلك هنا، لأنّ

حكاية الأخبار لا تقتضي الإحاطة بجميع المحكي وإنّما المقصود موضع العبرة في ذلك المقام بحسب الحاجة. ووجه تقديم هارون هنا الرعاية على الفاصلة، فالتقديم وقع في الحكاية لا في المحكي.

ويجوز أن يكون تقديم هارون في هذه الآية من حكاية قول السحرة، فيكون صدر منهم قولان، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتبارا بكبر سنّه، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتبارا بفضله على هارون بالرسالة وكلام الله تعالى، فاختلاف العبارتين باختلاف الاعتبارين.

{ **قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ** } يقال: آمن له، أي حصل عنده الإيمان لأجله. كمه يقال: آمن به، أي حصل الإيمان عنده بسببه، وأصل الفعل أن يتعدّى بنفسه لأنّ آمنه بمعنى صدّقه. ولكنه كاد أن لا يستعمل في معنى التصديق إلّا بأحد هذين الحرفين.

لمّا رأى فرعون إيمان السحرة تغيّظ ورام عقابهم ولكنّه علم أنّ العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكث لأصول المناظرة فاختلق للتشفي من الذين آمنوا علّة إعلانهم الإيمان قبل استئذان فرعون، فعدّ ذلك جرأة عليه، وأوهم أنّهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنّهم تواطؤا مع موسى من قبل فأظهروا العجز عند مناظرته. ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأنّ موسى لم يأت بما يعجز السحرة، إدخالا للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات.

التقطيع: شدّة القطع. ومرجع المبالغة إلى الكيفية، وهي ما وصفه بقوله { مِنْ خِلَافٍ } أي مختلفة، بأن لا تقطع على جانب واحد بل من جانبين مختلفين، أي تقطع اليد ثم الرجل من الجهة المخالفة لجهة اليد المقطوعة ثم اليد الأخرى ثم الرجل الأخرى. والظاهر: أن القطع على هذه الكيفية كان شعارا لقطع المجرمين.

وأمّا ما جاء في الإسلام في عقوبة المحارب فإنّما هو قطع عضو واحد عند كل حرابة، فهو من الرحمة في العقوبة لئلّا يتعطّل انتفاع المقطوع بباقي أعضائه من جراء قطع يد ثم رجل من جهة واحدة، أو قطع يد بعد يد وبقاء الرجلين.

التصليب: مبالغة في الصلب. والصلب: ربط الجسم على عود منتصب أو دقّه عليه بمسامير، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ } [النساء:157]. والمبالغة راجعة إلى الكيفيّة أيضا، بشدّة الدقّ على الأعواد. ولذلك عدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظرفية (في) تشبيها لشدّة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكن الشيء الواقع في وعائه.

الجذوع: جمع جذع بكسر (الجيم وسكون الذال) وهو عود النخلة.

{ **أَيُّنَا** } استفهام عن مشتركين في شدّة التعذيب. أراد نفسه وربّ موسى سبحانه، لأنّه علم من قولهم { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } أنّ الذي حملهم على الإيمان به ما قدّم لهم موسى من الموعظة حين قال لهم بمسمع

من فرعون { وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ } [61]، أي وستجدون عذابي أشد من العذاب الذي حذرتموه.

{ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [72] إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [73] }.

أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم مَثَلٌ صدق.

الإيثار: التفضيل. وتقدّم في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا } [يوسف:91]. والتفضيل بين فرعون وما جاءهم من البيّنات مقتض حذف مضاف يناسب المقابلة بالبيّنات، أي لن نؤثر طاعتك أو دينك على ما جاءنا من البيّنات الدالة على وجوب طاعة الله تعالى، وبذلك يلتئم عطف { وَالَّذِي فَطَرَنَا } ، أي لا نؤثرك في الربوبية على الذي فطرنا. وجيء بالموصول للإيماء إلى التعليل، لأنّ الفاطر هو المستحق بالإيثار.

{ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ** } صيغة الأمر مستعملة في التسوية، لأنّ { ما أنت قاض } ما صدقه ما توعّدهم به من تقطيع الأيدي والأرجل والصلب، أي سواء علينا ذلك بعضه أو كلّه أو عدم وقوعه.

{ **إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** } فإن عذابك لا يتجاوز هذه الحياة ونحن نرجو من ربّنا الجزاء الخالد. والقصر المستفاد من { إنّما } قصر موصوف على صفة، أي أنّك مقصور على القضاء في هذه الحياة الدنيا لا يتجاوزه إلى القضاء في الآخرة، فهو قصر حقيقي.

{ **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا** } في محل العلّة لما تضمنه كلامهم.

{ **وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ** } المعنى أنّه اكرههم على تحدّيهم موسى بسحرهم، فعلموا أنّ فعلهم باطل وخطيئة لأنّه استعمل لإبطال إلهية الله، فبذلك كان مستوجبا طلب المغفرة.

{ **وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } في موضع الحال، أو معترضة في آخر الكلام للتذييل. والمعنى: أن الله خير لنا بأن نؤثره منك. والمراد: رضى الله، وهو أبقى منك، أي جزاؤه في الخير والشر أبقى من جزائك، فذلك مقابلة لوعيده مقابلة تامة.

{ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى [74] وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى [75] جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى [76] }.

هذه الجمل معترضة بين حكاية قصّة السحرة وبين ذكر قصّة خروج بني إسرائيل، ساقها الله موعظة وتأييدا لمقالة المؤمنين من قوم فرعون. وقيل: هي من كلام أولئك المؤمنين. ويبعده أنّه لم يحك نظيره عنهم في نظائر هذه القصّة.

المجرم: فاعل الجريمة، وهي المعصية والفعل الخبيث. **والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر**، كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ } [المطفّفين:29].

{ **لَهُ جَهَنَّمَ** } لام الاستحقاق، أي هو صائر إليها لا محالة.

{ **لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى** } يكون عذابه متجدّدا فيها، فلا هو ميّت، لأنّه يحسّ بالعذاب، ولا هو حيّ لأنّه في حالة الموت أهون منها، فالحياة المنفية حياة خاصة وهي الحياة الخالصة من العذاب والآلام. وبذلك لم يتناقض نفيها مع نفي الموت.

{ **فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى** } الإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما سبق اسم الإشارة.

{ **جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى** } تقدم نظيرها في قوله { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ }[التوبة: 72]

التزكّي: التطهر من المعاصي.

{ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى } [77]

{ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى** } ابتدائية، والواو عاطفة قصّة على قصّة وليست عاطفة بعض أجزاء قصّة على بعض آخر. وافتتاح الجملة بحرف التحقيق (لقد) للاهتمام بالقصّة ليلقي السامعون إليها أذهانهم. وتغيير الأسلوب في ابتداء هذه الجملة مؤذن بأنّ قصصا طويت بين ذكر القصتين، فلو اقتصر على حرف العطف لتوهّم أنّ حكاية القصّة الأولى لم تزل متّصلة، فتوهّم أنّ الأمر بالخروج وقع مواليا لانتهاء محضر السحرة، مع أنّ بين ذلك قصصا كثيرة ذكرت في سورة الأعراف وغيرها، فإنّ الخروج وقع بعد ظهور آيات كثيرة

لإرهاب فرعون، إلى أن أذن لهم بآخرة فخرجوا ثم ندم على ذلك فأتبعهم.

{ **أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي** } أمر من السُرَى (بضم السين وفتح الراء) وتقدّم في سورة الإسراء أنّه يقال: سرى وأسرى. وإنّما أمره الله بذلك تجنّبا لنكول فرعون عليهم.

{ **بِعِبَادِي** } لتشريفهم وتقريبهم والإيماء إلى تخليصهم من استعباد القبط، وأنّهم ليسوا عبيدا لفرعون.

الضرب: هنا بمعنى الجعل كقولهم: ضرب الذهب دنانير. وفي الحديث: **" واضربوا إلي معكم بسهم"**.

اليَبَس: (بفتح المثناة والموحدة). ويقال: بسكون الموحدة: وصف بمعنى اليابس. وصف به للمبالغة ولذلك لا يؤنّث فقالوا: ناقة يَبَس إذا جفّ لبنها.

{ **لا تَخَافُ دَرَكاً** } مرفوع في قراءة الجمهور، وعد لموسى، اقتصر على وعده دون بقيّة قومه لأنّه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشرى. والجملة في موضع الحال.

الدَرَك: (بفتحتين) اسم مصدر الإدراك، أي لا تخاف أن يدركك فرعون.

{ **وَلا تَخْشَى** } الإجماع على قراءته بألف في آخره. فتكون الألف للإطلاق لأجل الفواصل مثل ألف {فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا } [الأحزاب:67] وألف { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [الأحزاب:10].

أو أن تكون الواو في قوله { وَلا تَخْشَى } للاستئناف لا للعطف.

الخشية: شدة الخوف. وحذف مفعوله لإفادة العموم، أي لا تخشى شيئا، وهو عام مراد به الخصوص، أي لا تخشى شيئا مما يُخشى من العدو ولا من الغرق.

{ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ** [78] **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى** [79] }.

الفاء فصيحة عاطفة على مقدّر يدلّ عليه الكلام السابق، أي: فسرى بهم فأتبعهم فرعون. فإنّ فرعون بعد أن رأى آيات غضب الله عليه وعلى قومه وأيقن أنّ ذلك كلّه تأييد لموسى أذن لموسى وهارون أن يخرجا بني إسرائيل، وكان إذن فرعون قد حصل ليلا لحدوث موتان عظيم في القبط في ليلة الشهر السابع من أشهر القبط وهو شهر (برمهات) وهو الذي اتخذه اليهود رأس سنتهم بإذن من الله وسمّوه (**تِسَّرِي**) فخرجوا من مدينة (رعمسيس) قاصدين شاطئ البحر الأحمر. وندم فرعون على إطلاقهم فأراد أن يلحقهم.

أتبع: مرادف تبع. و{ **بجنوده** } الباء للمصاحبة.

اليمّ: البحر. وغشيانه إيّاهم: تغطيته جثثهم، أي فغرقوا.

{ **مَا غَشِيَهُمْ** } المقصود منه التهويل، أي بلغ من هول ذلك الغرق أنه لا يُستطاع وصفه.

وهذا الجزء من القصة تقدّم في سورة يونس.

{ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ } في موضع الحال من الضمير في { غشيهم }.

الإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصل. ويستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعمل ما فيه ضرّ وهو المراد هنا. والمعنى: أنّ فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بثّ فيهم من قلب الحقائق والجهل المركّب، حتّى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر، بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام.

{ وَمَا هَدَى } عطف على { أضلّ }، إمّا من عطف الأعمّ على الأخصّ، لأنّ عدم الهدى يصدق بترك الإرشاد من دون إضلال، وإمّا أن يكون تأكيدا لفظيا بالمرادف مؤكّدا لنفي الهدى عن فرعون لقومه.

وفي الكشاف: إنّ نكتة ذكر { وَمَا هَدَى } التهكّم بفرعون في قوله {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:29].

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى [80] كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى [81] وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى [82] }.

هذه الجمل معترضة في أثناء القصّة مثل ما تقدّم آنفا في قوله تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً}. وهذا خطاب لليهود الذين في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم تذكيرا لهم بنعم أخرى. وقدّمت عليها النعمة العظيمة، وهي خلاصهم من استعباد الكفرة.

{ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } ذكّرهم بنعمة نزول الشريعة.

المواعدة: اتّعاد من جانبين، أي أمرنا موسى بالحضور للمناجاة فذلك وعد من جانب الله بالمناجاة، وامتثال موسى لذلك وعد من جانبه، فتمّ معنى المواعدة، كما قال { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } [البقرة: 51].

ويظهر أنّ الآية تشير إلى ما جاء في التوراة: " في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر جاءوا إلى برية سيناء هنالك نزل إسرائيل مقابل الجبل. وأمّا موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلا: هكذا نقول لبيت يعقوب أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين وأنا حملتكم على أجنحة النسور، إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة ". [سفر الخروج، الإصحاح: 19].

الطور: تقدّم في سورة البقرة.

جانب الطور: سفحه. ووصفه بالأيمن باعتبار جهة الشخص المستقبل مشرق الشمس، وإلّا فليس للجبل يمين وشمال معينان، وإنّما تعرف بمعرفة أصل الجهات وهو مطلع الشمس، فهو الجانب القبلي باصطلاحنا.

وجعل محل المواعدة الجانب القبلي وليس هو من الجانب الغربي الذي في سورة القصص { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ } [القصص:44]، أي من جهة مغرب الشمس من الجبل، وهو الذي آنس موسى منه نارا.

وانتصب { جَانِبَ الطُّورِ } على الظرفيّة المكانية لأنّه لاتساعه بمنزلة المكان المبهم.

{ **وَوَاعَدْنَاكُمْ** } التعدية إلى ضمير جماعة بني إسرائيل وإن كانت مواعدة لموسى ومن معه الذين اختارهم من قومه باعتبار أن المقصد من المواعدة وحي أصول الشريعة التي تصير صلاحا للأمّة، فكانت المواعدة مع أولئك كالموعدة مع جميع الأمّة.

السلوى: تقدّم في سورة البقرة.

وكان ذلك في نصف الشهر الثاني من خروجهم من مصر كما في [سفر الخروج، الإصحاح: 16].

الطغيان: أشدّ الكبر.

{ **وَلا تَطْغَوْا فِيهِ** } ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق: النهي عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم.

{ **فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي** }.

الحلول: النزول والإقامة بالمكان، شبّهت إصابة آثار الغضب إيّاهم بحلول الجيش ونحوه بديار قوم.

{ **فَقَدْ هَوَى** } سقط من علو، وقد استعير هنا للهلاك الذي لا نهوض بعده، كما قالوا: هوت أمه، دعاء عليه، ومنه { فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ [القارعة:9].

{ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } استطراد بعد التحذير من الطغيان في النعمة بالإرشاد إلى ما يتدارك به الطغيان إن وقع، بالتوبة والعمل الصالح.

{ **ثم اهتدى** } للتراخي في الرتبة، استعيرت (ثمّ) للدلالة على التباين بين الشيئين في المنزلة، كما كانت للتباين بين الوقتين في الحدوث. ومعنى {اهتدى}: استمر على الهدى وثبت عليه.

والآيات تشير إلى ما جاء في سفر الخروج: " الرب إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان غافر الإثم والخطيئة ولكنّه لن يبرئ إبراء".

{ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى [83] قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى [84] قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ [85] }.

{ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ** } هو ممّا أوحى الله به إلى موسى. وهو إشارة إلى ما وقع لهم أيّام مناجاة موسى في الطور في الشهر الثالث لخروجهم من مصر. وهذا الجزء من القصة لم يذكر في سورة الأعراف.

الإعجال: جعل الشيء عاجلا.
والاستفهام مستعمل في اللوم. والذي يؤخذ من كلام المفسرين وتشير إليه الآية: أنّ موسى تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبّان الذي عيّنه الله له، اجتهادا منه ورغبة في تلقّي الشريعة حسبما وعده الله، قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلّا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، وكان ذلك سبب افتتان قومه بصنع صنم يعبدونه.
وليس في كتاب التوراة ما يشير إلى أكثر من صنع بني إسرائيل العجل من ذهب اتخذوه إلها في مدة مغيب موسى، وأن سبب ذلك استبطاؤهم رجوع موسى {قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} [91] { **قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** } يدلّ على أنّهم كانوا سائرين خلفه وأنّه سبقهم إلى المناجاة. واعتذر عن تعجّله بأنّه عجل إلى استجابة أمر الله مبالغة في إرضائه.
الأَثَر (بفتحتين): ما يتركه الماشي على الأرض من علامات قدم أو حافر أو خف. ويقال: إِثْر (بكسر الهمزة وسكون الثاء) وهما لغتان فصيحتان كما ذكر ثعلب.
{ **هم أولاء** } استعمل التركيب مجرّدا عن حرف التنبيه في أوّل اسم الإشارة خلافا لقوله { هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ } [النساء: 109]، وتجريد اسم الإشارة من هاء التنبيه استعمال جائز، وأقلّ منه استعماله بحرف التنبيه مع الضمير دون اسم الإشارة، نحو قول عبد بني الحسحاس:
ها أنا دون الحبيب يا وجع
{ **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ** } إسناد الفتن إلى الله باعتبار أنّه مقدّره وخالق أسبابه البعيدة.
{ **وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** } إسناده الحقيقي، لأنّه السبب المباشر لضلالهم، المسبّب لفتنتهم.
{ **السَّامِرِيُّ** } يظهر أنّ ياءه ياء نسبة، وأن تعريفه باللام للعهد. فالسامري نسب إلى اسم أبي قبيلة من بني إسرائيل أو غيرهم يقارب اسمه لفظ سامر، وقد كان من الأسماء القديمة (شومر) و (شامر) وهما يقاربان اسم سامر لا سيما مع التعريب.
وفي (أنوار التنزيل) للبيضاوي: " السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها: السامرة ". وأمّا قوله "من بني إسرائيل" فليس بصحيح. لأنّ السامرة أمّة من سكان فلسطين في جهة نابلس في عهد الدولة الرومية البيزنطية وكانوا في فلسطين قبل مصير فلسطين بيد بني إسرائيل، ثم امتزجوا بالإسرائيليين واتّبعوا شريعة موسى عليه السلام مع تخالف في طريقتهم عن طريقة اليهود. فليس هو منسوبا إلى مدينة السامرة القريبة من نابلس، لأنّ مدينة السامرة بناها الملك (عَمْري) ملك مملكة إسرائيل سنة (925 ق م)، وجعلها قصبة مملكته، وسماها (شوميرون) لأنّه بناها على جبل اشتراه من رجل اسمه (شامر) بوزنتين من الفضة، فعرّبت في العربية إلى سامرة، وكان اليهود يعدّونها مدينة كفر وجور، لأنّ (عَمْري) بانيها وابنه (آخاب) قد أفسدوا

ديانة التوراة وعبدا الأصنام الكنعانية. وأمر الله النبيّ إلياس بتوبيخهما والتثوير عليهما، فلا جرم لم تكن موجودة زمن موسى، ولا كانت ناحيتها من أرض بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام.

ويحتمل أن يكون السامري نسبًا إلى قرية اسمها السامرة من قرى مصر، كما قال بعض أهل التفسير، فيكون فتًى قبطيا اندس في بني إسرائيل لتعلّقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها لهم.

وعن سعيد بن جبير: كان السامري من أهل كرمان، وهذا يقرب أن يكون السامري تعريب كرماني بتبديل بعض الحروف وذلك كثير في التعريب.

ويجوز أن تكون الياء من السامري غير ياء نسب بل حرفا من اسم مثل: ياء علي وكرسي، فيكون اسما أصليا أو منقولا في العبرانية، وتكون اللام في أوله زائدة.

واعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود يقال لهم أيضا (السامرة)، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية في أصول الدين، فهم لا يعظّمون بيت المقدس وينكرون نبوءة أنبياء بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع، وما كانت هذه الشذوذات فيهم إلّا من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقّونها في مدينة السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين والترخّص في تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصهار ملوكهم، ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام. ففي إنجيل متى [إصحاح: 10] وفي إنجيل لوقا [إصحاح: 9] ما يقتضي أنّ بلدة السامريين كانت منحرفة على اتباع المسيح، وأنّه نهى الحواريين عن الدخول إلى مدينتهم.

ووقعت في كتاب الخروج من التوراة في [الإصحاح:32] زلة كبرى، إذ زعموا أنّ هارون صنع العجل لهم لمّا قالوا له: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأنّا لا نعلم ماذا أصاب موسى في الجبل فصنع لهم عجلا من ذهب.

وأحسب أن هذا من آثار تلاشي التوراة الأصلية بعد الأسر البابلي، وأنّ الذي أعاد كتبها لم يحسن تحرير هذه القصة. وممّا نقطع به أن هارون معصوم من ذلك لأنّه نبيّ.

{ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } [86]

الغضب: انفعال للنفس وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسوءها ويسخطها دون خوف، والوصف منه غضبان.

الأسف: انفعال للنفس ينشأ من إدراك ما يحزنها وما تكرهه مع انكسار الخاطر. والوصف منه أسِف.

وقد اجتمع الانفعالان في نفس موسى لأنّه يسوءه وقوع ذلك في أمّته، فانفعاله المتعلّق بحالهم غضب، وهو أيضا يحزنه وقوع ذلك وهو في مناجاة الله تعالى التي كان يأمل أن تكون سبب رضى الله عن قومه، فإذا بهم

أتوا بما لا يرضي الله، فقد انكسر خاطره بين يديّ ربه.

وهذا ابتداء وصف قيام موسى في جماعة قومه وفيهم هارون وفيهم السامري، وهو يقرع أسماعهم بزواجر وعظه، فابتدأ بخطاب قومه كلّهم، وقد علم أن هارون لا يكون مشايعا لهم.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ** } مستأنفة بيانيّة. وافتتاح الخطاب بـ { يَا قَوْمِ } تمهيد للوم، لأنّ انجرار الأذى للرجل من قومه أحقّ في توجيه الملام عليهم.

{ **أَلَمْ يَعِدْكُمْ ربكم** } استفهام انكاري، نزلوا منزلة من زعم أنّ الله لم يعدهم وعدا حسنا. ويجوز أن يكون تقريريا، وشأنه أن يكون على فرض النفي كما تقدّم غير مرة.

{ **وَعْداً حَسَناً** } وعده موسى بإنزال التوراة، ومواعدته ثلاثين ليلة للمناجاة، وقد أعلمهم بذلك، فهو وعد لقومه، لأنّ ذلك لصلاحهم، ولأنّ الله وعدهم بأن يكون ناصرا لهم على عدوّهم وهاديا لهم في طريقهم، وهو المحكي في قوله { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } [80].

{ **أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ** } الاستفهام مفرَّع على قوله { أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ }، وهو استفهام إنكاري، أي ليس العهد بوعد الله إيّاكم بعيدا. والمراد طول المدّة، أي لم يبعد زمن وعد ربّكم إيّاكم حتّى يكون لكم يأس من الوفاء فتكفروا وتكذّبوا من بلّغكم الوعد وتعبدوا ربّا غير الذي دعاكم إليه من بلّغكم الوعد.

العهد: معرفة الشيء وتذكّره، وهو مصدر. يجوز أن يكون أطلق على المفعول كإطلاق الخلق على المخلوق، أي طال المعهود لكم وبعد زمنه حتّى نسيتموه وعملتم بخلافه. ويجوز أن يبقى على أصل المصدر وهو عهدهم الله على الامتثال والعمل بالشريعة. وتقدم في قوله تعالى { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [البقرة:27] وقوله { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي } [البقرة:40]

{ **أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ** }، (أم) إضراب إبطالي، والاستفهام المقدّر بعدها إنكاري أيضا، إذ التقدير: بل أردتم أن يحلّ عليكم غضب، فلا يكون كفركم إذن إلّا إلقاء بأنفسكم في غضب الله كحال من يحب أن يحلّ عليه غضب من الله. والكلام استعارة تمثيلية.

{ **فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي** } تفريع على الاستفهام الإنكاري الثاني. ومعنى {موعدي} هو وعد الله على لسانه، فإضافته إلى ضميره لأنّه الواسطة فيه.

{ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [87] فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ [88] }.

{ **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا** }

وقعت الجملة غير معطوفة لأنّها جرت في المحاورة جوابا عن كلام موسى عليه السلام. وضمير { قالوا } عائد إلى القوم وإنّما القائل بعضهم، وهم كبراء القوم وأهل الصلاح منهم.

{ **بِمَلْكِنَا** } قرأه نافع، وعاصم، وأبو جعفر بفتح الميم. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بكسر الميم. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف بضم الميم. وهي وجوه ثلاثة في هذه الكلمة، ومعناها: **بإرادتنا** واختيارنا، أي ما تجرّأنا ولكن غرّهم السامري وغلبهم دهماء القوم.

والاستدراك راجع إلى ما أفاده نفي أن يكون إخلافهم العهد عن قصد للضلال. ومحل الاستدراك هو قوله {فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى } وما قبله تمهيد له، فعطفت الجمل قبله بحرف الفاء، واعتذروا بأنهم غلبوا على رأيهم بتضليل السامري.

فأدمجت في هذا الاعتذار الإشارة إلى قضية صوغ العجل الذي عبدوه واغترّوا بما موّه لهم من أنّه إلههم المنشود، من كثرة ما سمعوا من رسولهم أنّ الله معهم أو أمامهم، وممّا جاش في خواطرهم من الطمع في رؤيته تعالى.

{ **أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ** }، **الأوزار**: الأثقال. و**الزينة**: الحليّ والمصوغ. وقد كان بنو إسرائيل حين أزمعوا الخروج قد احتالوا على القبط فاستعار كل واحد من جاره القبطي حليا فضة وذهبا وأثاثا، كما في [سفر الخروج، الإصحاح 12]. والمعنى: أنّهم خشوا تلاشي تلك الزينة فارتأوا أن يصوغوها قطعة واحدة أو قطعتين ليتأتى لهم حفظها في موضع مأمون.

القذف: الإلقاء. وأريد به هنا الإلقاء في نار السامري، كما يومئ إليه [سفر الخروج، الإصحاح: 32].

{ **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ** }.

ظاهر حال الفاء التفريعيّة أن يكون ما بعدها صادرا من قائل الكلام المفرّع عليه. والمعنى: فمثل قذفنا زينة القوم، أي في النار، ألقى السامري شيئا من زينة القوم فأخرج لهم عجلا.

{ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ - فقالوا** } ضميرا الغيبة عائدان إلى غير المتكلّمين. علّق المتكلّمون الإخراج والقول بالغائبين للدلالة على أنّ المتكلّمين مع موسى لم يكونوا ممّن اعتقد إلهية العجل ولكنّهم صانعوا دهماء القوم. وعلى هذا درج جمهور المفسرين، فيكون من تمام المعذرة التي اعتذر بها المجيبون لموسى.

وجعل بعض المفسرين هذا الكلام كلّه من جانب الله، وهو اختيار أبي مسلم، فيكون اعتراضا وإخبارا للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمّة. وموقع الفاء يناكد هذا لأنّ الفاء لا ترد للاستئناف على التحقيق.

{ **عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ** }، الجسد: الجسم ذو الأعضاء سواء كان حيّا أم لا، لقوله تعالى { وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً } [صّ:34]. قيل: هو شق طفل ولدته إحدى نسائه كما ورد في الحديث.

قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنّما هو الجثة، أي أخرج لهم صورة عجل مجسّدة بشكله وقوائمه وجوانبه، وليس مجرد صورة منقوشة على طبق من فضة أو ذهب.

الإخراج: إظهار ما كان محجوبا. والتعبير بالإخراج إشارة إلى أنّه صنعه بحيلة مستورة عنهم حتّى أتمّه.

الخوار: صوت البقر. وكان الذي صنع لهم العجل عارفا بصناعة الحيل التي كانوا يصنعون بها الأصنام ويجعلون في أجوافها وأعناقها منافذ كالزمارات تخرج منها أصوات.

وصنع لهم السامري صنما على صورة عجل لأنّهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل (ابيبيس)، فلمّا رأوا ما صاغه السامريّ في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأنّ له خوارا، رسخ في أوهامهم الآفنة أنّ ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبّروا عنه بقولهم { هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى } ، لأنّهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهّموا أنّه أفضل من العجل (إيبيس). وقصة اتخاذهم العجل في كتاب التوراة غير ملائمة للنظر السليم.

{ **فَنَسِيَ** } يحتمل أن يكون تفريعا على { فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ } تفريع علّة على معلول، فالضمير عائد إلى السامري، أي قال السامريّ ذلك لأنّه نسي ما كان تلقاه من هدي، أو تفريع معلول على علّة، أي قال ذلك، فكان قوله سببا في نسيانه ما كان عليه من هدي، إذ طبع الله على قلبه بقوله ذلك فحرمه التوفيق من بعد.

النسيان: مستعمل في الإضاعة، كقوله تعالى { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا } [126] وقوله { الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون:5]. ويكون مستعملا مجازا في الغفلة.

وجعله جمع من المفسرين عائدا إلى موسى، أي فنسي موسى إلهكم وإلهه، أي غفل عنه، وذهب إلى الطور يفتش عليه وهو بين أيديكم، وموقع فاء التفريع يبعد هذا التفسير.

{ أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً }[89]

يجوز أن يكون اعتراضا وليس من حكاية كلام القوم، فهو معترض بين جملة { فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} [87] وجملة { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ... } [92-93]، فتكون الفاء لتفريع كلام متكلم على كلام غيره، ويجوز أن يكون من حكاية كلام الذين تصدّوا لخطاب موسى عليه السلام من بين قومه، وهم كبراؤهم وصلحاؤهم ليعلم أنّهم على بصيرة من التوحيد.

{ **أَفَلا يَرَوْنَ** } الاستفهام إنكاري، نُزّلوا منزلة من لا يرى العجل، فأنكر عليهم عدم رؤيتهم ذلك مع ظهوره، أي كيف يدعون الإلهية للعجل وهم يرون أنّه لا يتكلم ولا يستطيع نفعا ولا ضرّا.

والرؤية هنا بصريّة مكنّى بها أو مستعملة في مطلق الإدراك، فآلت إلى معنى الاعتقاد والعلم، ولا سيما بالنسبة لجملة { وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً }.

{ **أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً** } لا يجيب القول، لأنّ ذلك محلّ العبرة من فقدانه صفات العاقل، لأنّهم يدعونه ويثنون عليه ويمجّدونه وهو ساكت لا يشكر لهم ولا يعدهم باستجابة، ولأنّ شواهد حاله من عدم التحرّك شاهدة بأنّه عاجز عن أن ينفع أو يضرّ، فلذلك سلّط الإنكار على عدم الرؤية لأنّ حاله مما يرى.

{ **وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } قدّم الضرّ على النفع قطعا لعذرهم في اعتقاد إلهيّته، لأنّ عذر الخائف من الضرّ أقوى من عذر الراغب في النفع.

{ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي [90] قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى [91] }.

الجملة في موضع الحال من ضمير { أَفَلا يَرَوْنَ } [89] على كلا الاحتماليين، أي كيف لا يستدلّون على عدم استحقاق العجل الإلهية، بأنّه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا، وتلك دلالة عقلية، في حال أنّ هارون قد وعظهم ونبّههم إلى أنّه فتنة فتنهم بها السامري، وأمرهم بأن يتّبعوا أمره، وتلك دلالة سمعية.

{ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ** } وتأكيد الخبر بحرف التحقيق ولام القسم لتحقيق إبطال ما في كتاب اليهود من أنّ هارون هو الذي صنع لهم العجل، وأنّه لم ينكر عليهم عبادته، وغاية الأمر أنّه كان يستهزئ بهم في نفسه، وذلك إفك عظيم في كتابهم.

{ **يَا قَوْمِ** } تمهيد لمقام النصيحة.

{ **إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ** } ما هو إلّا فتنة لكم، وليس ربّا، وإنّ ربكم الرحمان الذي يرحمكم في سائر الأحوال، فأجابوه بأنّهم لا يزالون عاكفين على عبادته حتّى يرجع موسى فيصرّح لهم بأنّ ذلك العجل ليس هو ربّهم.

ورتّب هارون خطابه على حسب الترتيب الطبيعي لأنّه ابتدأه بزجرهم عن الباطل وعن عبادة ما ليس برب، ثم دعاهم إلى معرفة الربّ الحقّ، ثم دعاهم إلى اتّباع الرسول، إذ كان رسولا بينهم، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع، فما كان منهم إلّا التصميم على استمرار عبادتهم العجل فأجابوا هارون جوابا جازما.

{ **قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى** } و(عليه) متعلق بـ { عاكفين } قدّم على متعلّقة لتقوية الحكم، أو أرادوا: لن نبرح نخصّه بالعكوف لا نعكف على غيره.

العكوف: الملازمة بقصد القربة والتعبّد، وكان عبدة الأصنام يلزمونها ويطوفون بها.

{ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا [92] أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي [93] قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي [94] }.

انتقل موسى من محاورة قومه إلى محاورة أخيه، وقد وجدت مناسبة لحكاية خطابه هارون بعد أن وقع الفصل بين أجزاء الحكاية بالجمل المعترضة التي منها جملة { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ من قبل }، فهو استطراد في خلال الحكاية للإشعار بعذر هارون كما تقدّم.

علم موسى أنّ هارون مخصوص من قومه بأنّه لم يعبد العجل، إذ لا يجوز عليه ذلك لأنّ الرسالة تقتضي العصمة، فلذلك خصّه بخطاب يناسب حاله. وهو خطاب توبيخ وتهديد على بقائه بين عبدة الصنم.

{ **مَا مَنَعَكَ** } الاستفهام إنكاري، أي لا مانع لك من اللحاق بي لمّا لم يمتثلوا أمرك. والمقصود تأكيد وتشديد التوبيخ. ونظيره قوله تعالى { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } [لأعراف:12].

{ **أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** } الاستفهام مفرّع على الإنكار. فهو إنكار ثان على مخالفة أمره، مشوب بتقرير للتهديد.

{ **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي** } نداء لقصد الترقيق والاستشفاع. وهو مؤذن بأنّ موسى حين وبّخه أخذ بشعر لحية هارون. وقد صرح به في الأعراف بقوله { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } [150]

وقرأ الجمهور { يَا ابْنَ أُمَّ } بفتح الميم. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بكسر الميم وأصله: يا ابن أمي، فحذفت ياء المتكلم تخفيفا، وهو حذف مخصوص بالنداء. والقراءتان وجهان في حذف ياء المتكلم المضاف إليها لفظ (أمّ) ولفظ (عمّ) في النداء.

وعدل عن (يا أخي) إلى (ابن أمّ) لأنّ ذكر الأمّ تذكير بأقوى أواصر الأخوّة، وهي آصرة الولادة من بطن واحد والرضاع من لبان واحد.

{ **إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** } وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمّة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج. وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والجماعة، فرجّح الثانية. وإنّما رجحها لأنّه رآها أدوم فإنّ مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى. بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها.

وكان اجتهاده ذلك مرجوحا لأنّ حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهمّ من حفظ الأصول المتفرّعة عليه. لأنّ مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع. كما بيّنّاه في كتاب **أصول نظام الاجتماع الإسلامي** . ولذلك لم يكن موسى خافيا عليه أنّ هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمّة والعمل بها، كما بيّنته في كتاب **مقاصد الشريعة**.

وهذا بعض ما اعتذر به هارون، وحكي عنه في سورة الأعراف أنّه اعتذر بقوله { إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي } [الأعراف:150].

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ [95] قال بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي [96] }.

التفت موسى بتوجيه الخطاب إلى السامري الذي كان سببا في إضلال القوم.

ولعلّ موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون لأنّه كان جاهلا بالدين فلم يكن في ضلاله عجب. ولعلّ هذا يؤيّد ما قيل: إنّ السامري لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان من القبط أو من كرمان.

ولمّا كان موسى مبعوثا لبني إسرائيل خاصة، ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بني إسرائيل، كان اتّباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمرا غير واجب ولكنّه مرغب فيه لما فيه من الاهتداء، فلذلك لم يعنفه موسى لأنّ الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة.

{ **مَا خَطْبُكَ** } ما طلبك. قال ابن عطية: وهي كلمة أكثر ما تستعمل في المكاره، لأنّ الخطب هو الشأن المكروه، كقوله تعالى { فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المُرْسَلُونَ } [الذاريات:31]، فالمعنى: ما هي مصيبتك التي أصبت بها القوم، وما غرضك مما فعلت.

{ **قال بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا** } إن حملت كلمات (بصرت بما لم يبصروا به - قبضت قبضة – وأثر – ونبذتها) على حقائق مدلولاتها كما ذهب إليه جمهور المفسّرين كان المعنى أبصرت ما لم يبصروه، أي نظرت ما لم ينظروه، بناء على أن بصرت، وأبصرت كلاهما من أفعال النظر بالعين.

إلّا أن **بصُر** بالشيء حقيقته صار بصيرا به أو بصيرا بسببه، أي شديد الإبصار، فهو **أقوى من أبصرت**، لأنّه صيغ من فعُل (بضم العين) الذي تشتق منه الصفات المشبّهة الدالة على كون الوصف شجيّة.

ولمّا كان المعنى هنا جليا عن أمر مرئي **تعيّن حمل اللفظ على المجاز** باستعارة بصر الدال على قوة الإبصار إلى معنى **العلم القويّ** بعلاقة الإطلاق عن التقييد، كما في قوله { فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [قّ:22] وكما سمّيت المعرفة الراسخة بصيرة في قوله { أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } [يوسف: 108].

وحكى في لسان العرب عن اللحياني: إنّه لبصير بالأشياء، أي عالم بها، وبصرت بالشيء: علمته.

فالمعنى: علمت ما لم يعلموه وفطنت لما لم يفطنوا له.

القَبضة: (بفتح القاف): من القَبض، وهو غلق الراحة على شيء، فالقبضة مصدر بمعنى المفعول. وضد القبض: البسط.

النبذ: إلقاء ما في اليد.

الأثر: حقيقته ما يتركه الماشي من صورة قدمه في الرمل او التراب.

وعى حمل الكلمات على حقائقها يتعيّن صرف الرسول على جبريل فإنّه رسول من الله إلى الأنبياء. فقال جمهور المفسّرين: المراد بالرسول جبريل. وروَوا قصّة قالوا: إنّ السامري فتنه الله. فأراه الله جبريل راكبا فرسا فوطئ حافر الفرس مكانا فإذا هو مخضرّ بالنبات، فعلم السامري أن أثر جبريل إذا القي في جماد صار حيّا، فأخذ قبضة من ذلك التراب وصنع عجلا وألقى بقبضة عليه فصار جسدا، أي حيّا له خوار كخوار العجل. فعبر عن ذلك الإلقاء بالنبذ.

وهذا الذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر من السنّة وإنّما هي أقوال لبعض السلف، ولعلّها تسربت للنّاس من روايات القصّاصين.

فإذا صرفت هذه الكلمات الست إلى معان مجازية كان بصرت بمعنى علمت واهتديت، أي اهتديت إلى علم ما لم يعلموه، وهو علم صناعة التماثيل والصور الذي به صنع العجل، وعلم الحيل الذي أوجد به خوار العجل. وكانت القبضة بمعنى النصيب القليل، وكان الأثر بمعنى التعليم، أي الشريعة، وكان { نبذت} بمعنى أهملت ونقضت، أي كنت ذا معرفة إجمالية من هدي الشريعة فانخلعت عنها الكفر. وبذلك يصحّ أن يحمل لفظ الرسول على المعنى الشائع المتعارف وهو من أوحي إليه بشرع من الله وأمر بتبليغه.

والمعنى: أنّه اعترف أمام موسى بصنعه العجل واعترف بأنه جَهِلَ فَضَلَّ، واعتذر بأنّ ذلك سوّلته له نفسه. وعلى هذا المعنى فسر أبو مسلم الأصفهاني ورجّحه الزمخشري بتقديمه في الذكر على تفسير الجمهور واختاره الفخر.

{ **وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي** } والتسويل: تزين ما ليس بزين . أي كذلك التسويل سولت لي نفسي، أي تسويلا لا يقبل التعريف بأكثر من ذلك.

{ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفا }[97]

لم يزد موسى في عقاب السامري على أن خلعه من الأمّة، إمّا لأنّه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة، وإمّا لأنّ موسى أُعلم بأنّ السامري لا يرجى صلاحه بوحي أو إلهام.

{ **فَاذْهَبْ** } الأظهر أنّه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمّة، ويجوز أن يكون كلمة زجر، كقوله {قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ } [الاسراء: 63]. ويجوز أن يكون مرادا به عدم الاكتراث به.

{ **فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ** } إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حظّه في حياته أن يقول (لا مساس)، أي سلبه الله الأنس الذي في طبع الإنسان فعوّضه به هوسا

ووسواسا وتوحّشا، فأصبح متباعدا عن مخالطة الناس، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسّه، أي لا تمسّني ولا أمسّك، أو أراد لا تقتراب مني، فإنّ المسّ يطلق على الاقتراب كقوله { وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } [لأعراف:73] وهذا أنسب بصيغة المفاعلة.

مِساس: (بكسر الميم) في قراءة جميع القراء وهو مصدر ماسه بمعنى مسّه.

{ **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً** } استعارة تهكّميّة، كقوله تعالى { وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } [الاسراء: 7] أي فعليها. توعّده بعذاب الآخرة فجعله موعدا له، أي موعد الحشر والعذاب.

{ **لَنْ تُخْلَفَهُ** } (بفتح اللام) مبنيا للمجهول للعلم بفاعله، وهو الله تعالى، أي لا يؤخّره الله عنك، فاستعير الإخلاف للتأخير لمناسبة الموعد.

{ **وَانْظُرْ إِلَى إِلَـهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً** } بعد أن أوعد موسى السامري بيّن له وللذين اتّبعوه ضلالهم بعبادتهم العجل بأنّه لا يستحق الإلهية لأنّه للامتهان والعجز.

وأضاف الإله إلى ضمير السامري تهكّما بالسامري وتحقيرا له، ووصف ذلك الإله المزعوم بطريق الموصولية لما تدل عليه الصلة من التنبيه على الضلال والخطأ، أي الذي لا يستحق أن يعكف عليه.

{ **ظلت** } (بفتح الظاء) في القراءات المشهورة، وأصله: ظللت، حذفت من اللام الأولى تخفيفا من توالي اللامين وهو حذف نادر عند سيبويه وعند غيره هو قياس.

العكوف: ملازمة العبادة وتقدّم آنفا. وتقديم المجرور للتخصيص، أي الذي اخترته للعبادة دون الله تعالى.

{ لَنُحَرِّقَنَّهُ } قرأ الجمهور بضم النون الأولى وفتح الحاء وكسر الراء مشدّدة. والتحريق: الإحراق الشديد، أراد به أن يذيبه بالنار حتّى يفسد شكله ويصير قطعا.

النسف: تفريق وإذراء لأجزاء شيء صلب كالبناء والتراب.

{ **فِي الْيَمِّ** } البحر الأحمر المسمّى بحر القلزم، والمسمّى في التوراة: بحر سُوف، وكانوا نازلين حينئذ على ساحله في سفح الطور.

{ **نَسْفاً** } المفعول المطلق إشارة إلى أنّه لا يتردد في ذلك.

{ إِنَّمَا إِلَـهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً }[98]

من حكاية كلام موسى عليه السلام فموقعها موقع التذييل لوعظه. وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمّة، إعراضا عن خطابه تحقيرا له، وقصدا لتنبيههم على خطئهم، وتعليمهم صفات الإله الحقّ، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم، لأنّ الوحدانيّة تجمع جميع الصفات. وأمّا عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم.

{ وَسِعَ } استعير لمعنى الإحاطة التامة.

{ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً [99] مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً [100] خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً [101] }.

جملة مستأنفة تذييليّة أفادت التنويه بقصّة رسالة موسى وما عقبها من الأعمال التي مع بني إسرائيل.

{ **نَقُصُّ** } قصصنا، وإنّما صيغ المضارع لاستحضار الحالة الحسنة في ذلك القصص.

{ **مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ** } تبعيضية. والأنباء: الأخبار. ومعلوم أن المقصود ما فيها من أحوال الأمم.

{ **وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً** } إيماء إلى أنّ ما يُقصّ من أخبار الأمم المقصود منه العبرة والتذكرة، وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصّة، وهو إعراض الأمّة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضلّلين من بينها.

{ **من لَدُنَّا** } توكيد لمعنى { آتيناك } وتنويه بشأن القرآن.

{ **ذِكْرًا** } التنكير للتعظيم، أي آتيناك كتابا عظيما.

الوزر: الإثم. وجُعل محمولًا تمثيل لملاقاة المشقّة من جراء الإثم، أي من العقاب عنه.

{ **وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً** } حال ثانية. و { **سَاءَ** } هنا هو أحد أفعال الذمّ مثل (بئس). وفاعله ضمير مستتر مبهم يفسره التمييز الذي بعده وهو {حملا}.

الحِمل: (بكسر الحاء) اسم بمعنى المحمول كالذبح بمعنى المذبوح. والمخصوص بالذم محذوف لدلالة لفظ {وزرا } عليه. والتقدير: وساء لهم حملا وزرهم.

{ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً [102] يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً [103] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً [104] }.

{ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** } بدل من يوم القيامة في قوله { وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً }. تخلّص لذكر البعث والتذكير به والنذارة بما يحصل للمجرمين يومئذ.

الصور: قرن عظيم يُجعل في داخله سداد لبعض فضائه فإذا نفخ فيه النافخ بقوة خرج منه صوت قوي، وقد اتخذ للإعلام بالاجتماع للحرب، وتقدّم عند قوله { قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [الأنعام:73].

المجرمون: المشركون والكفرة.

{ **زُرْقاً** } جمع أزرق، وهو الذي لونه الزرقة. والزُّرقة: لون كلون السماء إثر الغروب، وهو في جلد الإنسان

قبيح المنظر لأنّه يشبه لون ما أصابه حرق نار. وظاهر الكلام أن الزُّرقة لون أجسادهم، وقيل: المراد لون عيونهم، فقيل: لأن زرقة العين مكروهة عند العرب. وقيل: المراد بالزرق العُمي.

التخافت: الكلام الخفي من خوف ونحوه. وتخافتهم لأجل ما يملأ صدورهم من هول ذلك اليوم كقوله تعالى {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً } [108].

{ **إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً** } مبيّنة لجملة { يتخافتون }، المراد باللبث: المكث في القبور، كقوله تعالى { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } [المؤمنين:112، 113]، وقوله { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } [الروم:55].

وهم قد علموا أنّهم كانوا أمواتا ورفاتا فأحياهم الله فاستيقنوا ضلالهم إذ كانوا ينكرون الحشر. فزعموا أنّهم ما لبثوا في القبور إلّا عشر ليال فلم يصيروا رفاتا، وذلك لما بقي في نفوسهم من استحالة الإحياء بعد تفرّق الأوصال، فزعموا أنّ إحياءهم ما كان إلّا برد الأرواح إلى الأجساد.

{ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ** } معترضة بين فعل { يتخافتون } وظرفية { إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ } ، أي أنهم يقولون ذلك سرًّا ونحن أعلم به وأنّنا نخبر عن قولهم يومئذ خبر العليم الصادق

الأمثل: الأرجح الأفضل. والمَثالة: الفضل، أي صاحب الطريقة المثلى لأنّ النسبة في الحقيقة للتمييز.

الطريقة: الحالة والسنّة والرأي. والمراد هنا الرأي، وتقدّم في قوله { وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى } [63].

{ **إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً** } لم يأت المفسّرون في معناها بوجه تطمئن له النفس.

والذي أراه: أنّه يحتمل الحقيقة والمجاز؛ فإن سلكنا به **مسلك الحقيقة** كان المعنى أنّه أقربهم إلى اختلاق الاعتذار عن خطئهم في إنكارهم البعث. أي أنّه الأمثل من بينهم في المعاذير، وليس المراد أنّه مصيب.

وإن سلكنا به **مسلك المجاز** فهو تهكّم بالقائل في سوء تقديره من لبثهم في القبور. فكان الذي قدّر زمن المكث في القبور بأقل قدر أوغل في الغلط، فعبّر عنه بـ { أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً } تهكّما به وبهم معا.

{ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً [105] فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً [106] لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً [107] }.

لمّا جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبهتهم بتعذّر إعادة الأجسام بعد تفرّق أجزائها، ذُكرت أيضا شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون عنها النبيّ صلى الله عليه وسلم سؤال تعنّت لا سؤال استهداء، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون: فأين تكون هذه الجبال التي نراها؟ وروي أنّ

رجلا من ثقيف سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وهم أهل جبال، لأنّ موطنهم الطائف وفيه جبل (كَرَى).

وسواء كان سؤالهم استهزاءً أم استرشادًا. فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعلّما للمؤمنين.

{ **يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً** } تأكيد، لإثبات أنّه حقيقة لا استعارة. و**النسف**: تفريق وإذراء، وتقدّم آنفا.

{ **فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً** } **القاع**: الأرض السهلة. و**الصفصف**: الأرض المستوية التي لا نتوء فيها.

والمعنى: أنّها تندك في مواضعها وتسوّى مع الأرض، وذلك يحصل بزلزال أو نحوه، قال تعالى { إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً } [الواقعة:4-6].

{ **لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً** } حال مؤكّدة لمعنى { قَاعاً صَفْصَفاً } لزيادة تصوير حالة فيزيد تهويلها.

والخطاب لغير معيّن يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم سائليه.

العِوَج (بكسر العين وفتح الواو): ضدّ الاستقامة، ويقال **عَوَج** (بفتح العين والواو)، فهما مترادفان على الصحيح من أقوال أئمة اللغة. وتقدّم هذا اللفظ في أوّل سورة الكهف فانظره.

الأمت: النتوء اليسير، أي لا ترى فيها وهدة ولا نتوءا ما.

{ **يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً** [108] **يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** [109] **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْما** [110] **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً** [111] **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً** [112] }.

{ **يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ** } في معنى المفرّعة على جملة { يَنْسِفُهَا } [105]، أي إذا نسفت الجبال نودوا للحشر فحضروا يتبعون الداعي لذلك.

الداعي: قيل هو الملك إسرافيل عليه السلام يدعو بنداء التسخير والتكوين، فتعود الأجساد والأرواح فيها وتهطع إلى المكان المدعو إليه. وقيل: الداعي الرّسول، أي يتبع كل قوم رسولهم.

{ **لا عِوَجَ لَهُ** } حال من { الداعي } . واللام على كلا القولين في المراد من الداعي للأجل، أي لا عوج لأجل الداعي، أي لا يروغ المدعوون في سيرهم لأجل الداعي بل يقصدون متّجهين إلى صوبه. بحيث لا يسلكون غير الطريق القويم، أو لا يسلك بهم غير الطريق القويم، أو بحيث يعلمون براءة رسولهم من العوج.

{ **وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً** } في موضع الحال من ضمير { يتبعون } وإسناد الخشوع إلى الأصوات مجاز عقلي، فإنّ الخشوع لأصحاب الأصوات، أو استعير الخشوع لانخفاض الصوت

وإسراره، وهذا الخشوع من هول المقام.

الخشوع: الخضوع، وفي كل شيء من الإنسان مظهر من الخشوع، فمظهر الخشوع في الصوت: الإسرار.

{ **يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ** } المقصود من هذا أنّ جلال الله والخشية منه يصدّان عن التوسّط عنده لنفع أحد إلّا بإذنه. وفيه تأييس للمشركين من أن يجدوا شفعاء لهم عند الله.

{ **إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** } استثناء من عموم الشفاعة، أي إلّا أن يشفع من أذن له الرحمان، فهو استثناء.

وتفسير هذا ما ورد في حديث الشفاعة من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **فيقال لي: سل تعطه واشفع تشفّع** ".

{ **وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** } عائد إلى { مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ } وهو الشافع. واللام الداخلة على ذلك الضمير لام التعليل، أي رضي الرحمان قول الشافع لأجل الشافع، أي إكراما له. فإنّ الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلّا وقد أراد قبول شفاعته، فصار الإذن بالشفاعة وقبولها عنوانا على كرامة الشافع عند الله تعالى.

{ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** } وكلّ ذلك يجري على ما يقتضيه علم الله بسائر العبيد وبأعمالهم الظاهرة، فعبر عن الأعمال الظاهرة بما بين أيديهم، لأنّ شأن ما بين الأيدي أن يكون واضحا، وعبّر عن السرائر بما خلفهم، لأنّ شأن ما يجعل خلف المرء أن يكون محجوبا. وقد تقدّم ذلك في آية الكرسي.

{ **وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً** } تذييل للتعليم بعظمة علم الله تعالى وضآلة علم البشر، نظير ما في آية الكرسي.

{ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ** } معطوفة على جملة { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ }، أي ظهر الخضوع في الأصوات والعناء في الوجوه.

العناء: الذلّة، وأصله الأسر، والعاني: الأسير. ولمّا كان الأسير ترهقه ذلّة في وجهه أسند العناء إلى الوجوه على سبيل المجاز العقلي، والجملة كلّها تمثيل لحال المجرمين الذين الكلام عليهم.

ويجوز أن يجعل التعريف في { الْوُجُوهُ } على العموم. ويراد بـ {عَنَتِ} خضعت، أي خضع جميع النّاس إجلالا لله تعالى.

الحيّ: الذي ثبت له وصف الحياة، وهي كيفية حاصلة لأرقى الموجودات، وهي قوّة للموجود بها بقاء ذاته وحصول إدراكه أبدا أو إلى أمد ما. والحياة الحقيقيّة هي حياة الله تعالى لأنّها ذاتية غير مسبوقة بضدّها ولا منتهية.

القيّوم: القائم بتدبير النّاس، مبالغة في القيّم. أي الذي لا يفوته تدبير شيء من الأمور.

{ **وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً** } إمّا معترضة في آخر الكلام تفيد التعليل. والمعنى: قد خاب كلّ من حمل ظلما. وإمّا احتراس لبيان اختلاف عاقبة عناء الوجوه، فمن حمل ظلما فقد خاب يومئذ واستمر عناؤه. ومن عمل صالحا عاد عليه ذلك الخوف بالأمن والفرح. و**الظلم** هنا: ظلم النفس.

{ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً** } شرطيّة مفيدة قسيم مضمون جملة { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً }، أي لا يخاف جزاء الظالمين، لأنّه آمِنٌ منه بإيمانه وعمله الصالحات.

الهضم: النقص، أي لا ينقصون من جزائهم الذي وعدوا به شيئا.

ويجوز أن يكون الظلم بمعنى النقص الشديد كما في قوله { وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً } [الكهف:33]، أي لا يخاف إحباط عمله، وعليه يكون الهضم بمعنى النقص الخفيف، وعطفه على الظلم على هذا التفسير احتراس.

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً [113] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [114] }.

عطف على جملة { كَذَلِكَ نَقُص عَلَيكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ } [99]، والغرض واحد، وهو التنويه بالقرآن. فابتدئ بالتنويه به جزئيا، بالتنويه بقصصه، ثم عطف عليه التنويه به كلّيًّا.

{ **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً** } والإشارة نحو الإشارة في قوله { كَذَلِكَ نَقُص عَلَيكَ } ، أي كما سمعته لا يبين بأوضح من ذلك.

{ **قرآنا** } تسمية بالمصدر. والمراد المقروء، أي المتلو، وصار القرآن علما بالغلبة على الوحي المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم. وسمّي قرآنا لأنّه نظم على أسلوب تسهل تلاوته. ولوحظ هنا المعنى الاشتقاقي قبل الغلبة، وهو ما تفيده مادة قرأ من يسر تلاوته، وما ذلك إلّا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه. والتنكير يفيد الكمال.

{ **عَرَبِيّاً** } صفة. وهذا وصف يفيد المدح، لأنّ اللغة العربية أبلغ اللغات وأحسنها فصاحة وانسجاما. وفيه تعريض بالامتنان على العرب، وتحميق للمشركين منهم، حيث أعرضوا عنه وكذّبوا به.

{ **وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** }

التصريف: التنويع والتفنين. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا } [الإسراء:41].

{ **مِنَ الْوَعِيدِ** } للتهديد، ولمناسبة قوله قبله { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً }.

{ **لَعَلَّهُمْ** } للرجاء، أي أن حال القرآن أن يقرّب الناس من التقوى والتذكّر.

التقوى: الخوف. وهي تستعمل كناية عن الطاعة لله، أي فعلنا ذلك رجاء أن يؤمنوا ويطيعوا.

{ **يُحْدِثُ** } إيماء إلى أنّ الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكرا لم يكن من قبل.

الذكر: هنا بمعنى التذكّر، أي يحدث لهم القرآن تذكّرا ونظرا فيما يحقّ عليهم أن يختاروه لأنفسهم.

{ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** } معترضة بين جملة { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ } وبين جملة { وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ } .
وهذا إنشاء ثناء على الله مُنْزِل القرآن، وعلى منّة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بيّن لعباده من وسائل الإصلاح.
والتفريع مؤذن بأنّ ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح، كلّ ذلك ناشئ عن جميل آثار يُشعر جميعها بعلوّه وعظمته وأنّه الملك الحقّ المدبّر لأمور مملوكاته على أتمّ وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة.
الحقّ: الذي ليس في ملكه شائبة عجز ولا خضوع لغيره. وفيه تعريض بأن ملك غيره زائف.
وفي تفريع ذلك على إنزال القرآن إشارة أيضا إلى أنّ القرآن قانون ذلك الملك، وأّن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متّبعيه في الدنيا والآخرة.
{ **وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ** } ناشئة على ما تقدّم من التنويه بالقرآن وما اشتمل عليه من تصاريف إصلاح الناس. فلمّا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم حريصا على صلاح الأمّة شديد الاهتمام بنجاتهم لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبة أو طلبة في الإكثار من نزول القرآن وفي التعجيل به إسراعا بعظة الناس وصلاحهم، فعلّمه الله أن يكِل الأمر إليه، فإنّه أعلم، بحيث يناسب حال الأمّة العام.
فالمنهي عنه هو سؤال التعجيل أو الرغبة الشديدة في النفس التي تشبه الاستبطاء لا مطلق مودة الازدياد، فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن قصّة موسى مع الخضر عليه السلام " **وددنا أنّ موسى صبر حتّى يقص الله علينا من أمرهما أو من خبرهما** ".
ويجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل آياته. فعن ابن عباس: كان النبيّ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل حرصا على الحفظ وخشية من النسيان فأنزل الله {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ} وهذا كما قال ابن عباس في قوله تعالى { لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ } [القيامة:16] صحيح البخاري .
وعلى هذين التأويلين يكون المراد بقضاء وحيه إتمامه وانتهاؤه، أي انتهاء المقدار الذي هو بصدد النزول.
وعن مجاهد وقتادة أنّ معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تُمْلِه عليهم حتّى تتبين لك معانيه.
وعلى هذا التأويل يكون قضاء الوحي تمام معانيه.
{ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** } يشير إلى أن المنهي عنه استعجال مخصوص وأنّ الباعث على الاستعجال محمود.
وفيه تلطّف مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، إيماء إلى أن رغبته في التعجّل رغبة صالحة.

{ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** } [115]

لمّا كانت قصّة موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذّبين والمعاندين الذين كذّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وعاندو. فكأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استحبّ الزيادة من هذه القصص ذات العبرة رجاء أنّ قومه يفيقون من ضلالتهم، كما أشرنا إليه قريبا عند قوله { وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، أعقبت تلك القصّة بقصة آدم عليه السلام وما عرض له به الشيطان، تحقيقا لفائدة قوله { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً }.

{ **وَلَقَدْ** } افتتاح الجملة بحرف التحقيق ولام القسم لمجرّد الاهتمام بالقصّة تنبيها على قصد التنظير بين القصّتين في التفريط في العهد، لأنّ في القصّة الأولى تفريط بني إسرائيل في عهد الله، كما قال فيها { أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } [96]، وفي قصّة آدم تفريطا في العهد أيضا. وفي كون ذلك من عمل الشيطان، كما قال في القصّة الأولى { وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي } [96] وقال في هذه { فَوَسْوَسَ إِلَيهِ الشَّيْطَانُ } [120]. وفي أنّ في القصّتين نسيانا لما يجب الحفاظ عليه وتذكّره، فقال في القصّة الأولى {فنسي} [16] وقال في هذه القصة { فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً }.

{ **مِنْ قَبْلُ** } حُذف ما أضيف إليه { قبل }. وتقديره: من قبل إرسال موسى أو من قبل ما ذكر، فإنّ بناء {قبلُ} على الضم علامة حذف المضاف إليه ونيّة معناه. والذي ذكر: إمّا عهد موسى { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } [13] وقوله { فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى } [16]، وإمّا عهد الله لبني إسرائيل الذي ذكّرهم به موسى عليه السلام لمّا رجع إليهم غضبان أسفا { أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } [86].

{ **عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ** } وهو المبيّن في قوله { فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ } [117].

النسيان: أطلق هنا على إهمال العمل بالعهد عمدا، كقوله في قصّة السامري { فنسي } ، فيكون عصيانا. وهو الذي يقتضيه قوله تعالى { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [20] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } [لأعراف:21].

العزم: الجزم بالفعل وعدم التردّد فيه، وهو مغالبة ما يدعو إليه الخاطر من الانكفاف عنه لعسر عمله أو إيثار ضدّه عليه. وتقدّم قوله تعالى { وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ } [البقرة:227]. والمراد هنا: العزم على امتثال الأمر وإلغاء ما يحسن إليه عدم الامتثال، قال تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى }[116]

هذا بيان لجملة { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ }، فكان مقتضى الظاهر أن لا يكون معطوفا بالواو بل أن يكون مفصولا، فوقوع هذه الجملة معطوفة اهتمام بها لتكون قصّة مستقلة فتلفت إليها أذهان السامعين. ويكون التقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم.

{ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى [117] إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى [118] وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى [119] }.

قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإباء الشيطان من السجود تقدّمت في سورة البقرة وسورة الأعراف، فلنقتصر على بيان ما اختصّت به هاته السورة من الأفانين والتراكيب.

{ **إِنَّ هَذَا** } إشارة إلى الشيطان إشارة مرادا منها التحقير، وفي سورة الأعراف { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُما عَدُوٌّ }.

{ **عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ** } هو كقوله في الأعراف { لكما عَدُوٌّ مُبينٌ } [22]، فذكرت عداوته لهما جملة هنالك وذكرت تفصيلا هنا، فابتدئ في ذكر متعلّق عداوته بآدم لأنّ آدم هو منشأ عداوة الشيطان لحسده، ثم أتبع بذكر زوجه، لأنّ عداوته إيّاها تبع لعداوته آدم زوجها، وكانت عداوته متعلّقة بكليهما لاتحاد علة العداوة، وهي حسده إيّاهما على ما وهبهما الله من علم الأسماء الذي هو عنوان الفكر الموصل إلى الهدى وعنوان التعبير عن الضمير الموصل للإرشاد، وكلّ ذلك مما يبطل عمل الشيطان ويشقّ عليه في استهوائهما واستهواء ذرّيّتهما، ولأن الشيطان رأى نفسه أجدر بالتفضيل على آدم، فحنق لمّا أمر بالسجود لآدم.

{ **فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى** } تفريع على الإخبار بعداوة إبليس له ولزوجه، بأن نُهيا نهي تحذير عن أن يتسبّب إبليس في خروجهما من الجنة، لأنّ العدو لا يروقه صلاح حال عدوّه.

وأسند ترتّب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازا، لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما، مع الإيماء إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

{ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى** } تعليل للشقاء المترتّب على الخروج من الجنة المنهي عنه، لأنّه لما كان ممتَّعا في الجنة برفاهية العيش من مأكل وملبس ومشرب واعتدال جو مناسب للمزاج كان الخروج منها مقتضيا فقدان ذلك.

{ **وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى** }

{ **تضحى** } مضارع ضَحِيَ، كرضي، إذا أصابه حرّ الشمس في وقت الضحى. ومصدره الضحو، وحر الشمس في ذلك الوقت هو مبدأ شدته. والمعنى: لا يصيبك ما ينافر مزاجك.

وجمع له في هذا الخبر أصول كفاف الإنسان في معيشته إيماء إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلية.

وقد قرن بين انتفاء الجوع واللباس في قوله { أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى }، وقرن بين انتفاء الظمأ وألم الجسم في قوله { لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى } لمناسبة بين الجوع والعرى، في أنّ الجوع خلو باطن الجسم عما يقيه تألّمه وهو لفح الحر وقرص البر، ولمناسبة بين الظمأ وبين حرارة الشمس في أنّ الأوّل ألم حرارة الباطن

والثاني ألم حرارة الظاهر، فهذا اقتضى عدم اقتران ذكر الظمأ والجوع، وعدم اقتران ذكر العري بألم الحر وإن كان مقتضى الظاهر جمع النظيرين في كليهما، إذ جمع النظائر من أساليب البديع في نظم الكلام بحسب الظاهر لولا أن عرض هنا ما أوجب تفريق النظائر.

{ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى }[120]

{ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ } تقدّم مثله في الأعراف. والفاء لتعقيب مضمون جملتها على مضمون التي قبلها. وهو تعقيب نسبي بما يناسب مدّة تقلّب في خلالها بخيرات الجنّة حتّى اشتد حسد الشيطان.

{ قَالَ يَا آدَمُ } بيان لجملة { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ }. وهذه الآية مثال للجملة المبيّنة لغيرها في علم المعاني. وهذا القول خاطر ألقاه الشيطان في نفس آدم بطريق الوسوسة، وهي الكلام الخفي، إمّا بألفاظ نطق بها الشيطان سرا لآدم لئلا يطّلع عليه الملائكة فيحذّروا آدم من كيد الشيطان. فيكون إطلاق القول عليه حقيقة، وإمّا كما يوسوس للنّاس في الدنيا، فيكون إطلاق القول عليه مجازا باعتبار المشابهة.

{ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى } استفهام مستعمل في العرض، وهو أنسب المعاني المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته.

{ أَدُلُّكَ } الدلالة: الإرشاد إلى شيء مطلوب غير ظاهر لطالبه، والدلالة على الشجرة لقصد الأكل من ثمرتها. والشجرة هي التي نهاه الله عن الأكل منها دون جميع شجر الجنة، ولم يذكر النهي عنها هنا وذكر في قصّة سورة البقرة. وهذا العرض متقدّم على الإغراء بالأكل منها المحكي في قوله تعالى في سورة الأعراف { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ }[20].

{ شَجَرَةَ الْخُلْدِ } سماها هنا بالإجمال للتشويق إلى تعيينها حتّى يقبل عليها، ثم عيّنها له عقب ذلك بما أنبا به قوله تعالى { فَأَكَلا مِنْهَا }. وقد أفصح هذا عن استقرار محبّة الحياة في جبلّة البشر.

الملك: التحرّر من حكم الغير، وهو يوهم آدم أنّه يصير هو المالك للجنّة المتصرّف فيها غير مأمور لآمر.

{ لا يَبْلَى } استعمل البلى مجازا في الانتهاء، لأنّ الثوب إذا بلي فقد انتهى لبسه.

{ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى [121] ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [122] }.

تفريع على ما قبله وثَمَّ جملة محذوفة دلّ عليها العرض، أي فعمل آدم بوسوسة الشيطان فأكل من الشجرة وأكلت حواء معه.

{ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ** } عطف على { فَأَكَلا مِنْهَا }، أي أكلا معا، وتعمّد آدم مخالفة نهي الله تعالى إياه عن الأكل من تلك الشجرة، وإثبات العصيان لآدم دون زوجه يدلّ على أنّ آدم كان قدوة لزوجه، فلمّا أكل من الشجرة تبعته زوجه. وفي هذا المعنى قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً} [التحريم:6].

الغوايه: ضدّ الرشد، فهي عمل فاسد أو اعتقاد باطل.

وليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها، لأنّ ذلك العالم لم يكن عالم تكليف.

{ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** } معترضة بين جملة { وَعَصَى آدَمُ } وجملة { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً }، لأنّ الاجتباء والتوبة عليه كانا بعد أن عُوقب آدم وزوجه بالخروج من الجنّة كما في سورة البقرة، وهو المناسب لترتّب الإخراج من الجنّة على المعصية دون أن يترتّب على التوبة.

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل ببيان مآل آدم إلى صلاح.

الاجتباء: الاصطفاء. وتقدم عند قوله تعالى { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الأنعام: 87]، وقوله { اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [النحل:121].

الهداية: الإرشاد إلى النفع. والمراد بها إذا ذكرت مع الاجتباء في القرآن النبوءة كما في هذه الآيات الثلاث.

{ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى [123] وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [124] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً [125] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى [126] وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [127]** }.

{ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** }

استئناف بياني. والخطاب لآدم وإبليس. والأمر في { اهبطا } أمر تكوين، لأنّهما عاجزان عن الهبوط إلى الأرض إلّا بتكوين من الله.

{ **جميعا** } اسم لمعنى كل أفراد ما يوصف. ونصبه على الحال. وهو هنا حال من ضمير { اهبطا }.

{ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } حال ثانية. فالمأمور بالهبوط من الجنة آدم وإبليس وأمّا حواء فتبع لزوجها.

وخوطبا بضمير الجمع لأنّه أريد عداوة نسليهما، فإنّهما أصلان لنوعين؛ نوع الإنسان ونوع الشيطان.

{ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً** } تفريع على الأمر بالهبوط من الجنّة إلى الدنيا، إنباء بأنّهم يستقبلون في هذه الدنيا سيرة غير التي كانوا عليها في الجنّة، لأنّهم أودعوا في عالم خليط خيره بشرّه، وحقائقه بأوهامه، بعد أن

كانوا في عالم الحقائق المحضة والخير الخالص. وفي هذا إنباء بطور طرأ على أصل الإنسان في جبلّته كان معدّا له من أصل تركيبه.

{ **يأتينكم** } الخطاب لآدم باعتبار أنّه أصل لنوع الإنسان، إشعارا له بأنّه سيكون منه جماعة، ولا يشمل هذا الخطاب إبليس لأنّه مفطور على الشر والضلال، إذ قد أنباه الله بذلك عند إبايته السجود لآدم.

وأمّا الحديث الذي رواه الدارقطني: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن "**، قالوا: وإيّاك يا رسول الله؟ قال: **" وإيّاي ولكن الله أعانني** [عليه] **فأسلم "**. فلا يقتضي أنّه دعاه للإسلام ولكن الله ألهم قرينه إلى أن يأمره بالخير.

الهدى: الإرشاد إلى الخير.

وفي هذه الآية وصاية الله آدم وذرّيّته باتباع رسل الله والوحي الإلهي. وبذلك يعلم أن طلب الهدى مركوز في الجبلّة البشريّة حتّى قال كثير من علماء الإسلام: إنّ معرفة الإله الواحد كائنة في العقول أو شائعة في الأجيال والعصور. وإنه لذلك لم يعذر أهل الشرك في مدد الفتر التي لم تجئ فيها رسل للأمم. وهذه مسألة عظيمة وقد استوعبها علماء الكلام، وحررناها في رسالة (النسب النبوي).

وقد تقدّم تفسير نظير الجملتين الأولين في سورة البقرة.

{ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى** } من اتبع الهدى الوارد من الله على لسان رسله سلم من أن يعتريه شيء من ضلال، أي فلا يعتريه ضلال في الدنيا، بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله، فإنّه وإن استفاد هدى في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى. وهذا حال متّبعي الشرائع الوضعية، فإن واضعيها وإن أفرغوا جهودهم في تطلّب الحقّ لا يسلمون من الوقوع في ضلالات بسبب غفلات، أو تعارض أدلة، أو انفعال بعادات مستقرة، أو مصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أنّ من المصلحة طلب مرضاتهم. وحالهم بخلاف حال الرسل الذين يتلقّون الوحي من علّام الغيوب الذي لا يضل ولا ينسى، وأيّدهم الله، وعصمهم من مصانعة أهل الأهواء، وكوّنهم تكوينا خاصا مناسبا لما سبق في علمه من مراده منهم، وثبّت قلوبهم على تحمّل الأهواء، ولا يخافون في الله لومة لائم.

{ **وَلا يَشْقَى** } هو شقاء الآخرة، لأنّه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة.

{ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً**} المعيشة مراد بها مدّة الحياة.

الضنك: مصدر ضَنُك، من باب كرم. والضنك: الضيق، يقال: مكان ضنك، أي ضيق. ويستعمل مجازا في عسر الأمور في الحياة.

{ **وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** } جعل الله عقابه يوم الحشر أن يكون أعمى، تمثيلا لحالته الحسّيّة يومئذ بحالته المعنويّة في الدنيا، وهي حالة عدم النظر في وسائل الهدى والنجاة. وذلك المعنى عنوان على غضب الله

عليه وإقصائه عن رحمته.

{ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } الإشارة راجعة إلى العمى المضمّن في قوله { لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى }، أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها كنت نسيت آياتنا حين أتتك، وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تدعى إليه، فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاء وفاقا.

{ فَنَسِيتَهَا - تُنْسَى } النسيان في الموضعين مستعمل كناية أو استعارة في الحرمان من حظوظ الرحمة.

{ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ } تذييل، يجوز أن تكون من حكاية ما يخاطب الله به من يحشر يوم القيامة أعمى قصد منها التوبيخ له والتنكيل، فالواو عاطفة الجملة على التي قبلها.

ويجوز أن تكون تذييلا للقصّة وليست من الخطاب المخاطب به من يحشر يوم القيامة أعمى، قصد منها موعظة السامعين ليحذروا من أن يصيروا إلى مثل ذلك المصير، فالواو اعتراضية.

الإسراف هنا: الاعتقاد الضال وعدم الإيمان بالآيات ومكابرتها وتكذيبها.

والمعنى: ومثل ذلك الجزاء نجزي من أسرف، أي كفر ولم يؤمن بآيات ربه.

{ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } يجوز أن يكون تذييلا للقصّة وليس من حكاية خطاب الله للذي حشره يوم القيامة أعمى. فالمراد بعذاب الآخرة مقابل عذاب الدنيا المفاد من قوله { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً }.

ويجوز أن تكون الجملة من حكاية خطاب الله للذي يحشره أعمى، فالمراد بعذاب الآخرة العذاب الذي وقع فيه المخاطب، أي أشد من عذاب الدنيا وأبقى منه لأنّه أطول مدّة.

{ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[128]

استفهام إنكاري تعجيبي من حال غفلة المخاطبين المشركين عمّا حل بالأمم المماثلة لهم في الإشراك، والإعراض عن كتب الله وآيات الرُّسل.

والهداية هنا مستعارة للإرشاد إلى الأمور العقليّة، بتنزيل العقلي منزلة الحسّي، فيؤول معناها إلى معنى التبيين، ولذلك عدّي فعلها باللام.

{ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ } معلقة فعل { يَهْدِ } عن العمل في المفعول لوجود اسم الاستفهام بعدها. والمعنى: أفلم يهد الله لهم جواب { كَمْ أَهْلَكْنَا }، أي كثرة إهلاكنا القرون.

{ الْقُرُونِ } عاد وثمود. فقد كان العرب يمرّون بمساكن عاد في رحلاتهم إلى اليمن ونجران وما جاورها، وبمساكن ثمود في رحلاتهم إلى الشام. وقد مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون بديار ثمود في مسيرهم

إلى تبوك.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى** } في موضع التعليل للإنكار والتعجيب من حال غفلتهم عن هلاك تلك القرون. فحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وللإيذان بالتعليل.

النُّهى: (بضم النون والقصر) جمع نُهْيَة (بضم النون وسكون الهاء): اسم العقل. وقد يستعمل النُّهى مفردا بمعنى العقل. وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنّهم عديمو العقول.

{ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمّىً النهار [129] فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى [130] }.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ** } عطف على جملة { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ } باعتبار ما فيها من التحذير والتهديد والعبرة بالقرون الماضية، بأنّهم جديرون بأن يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك. فلمّا كانوا قد غرّتهم أنفسهم بتكذيب الوعيد لما رأوا من تأخّر نزول العذاب بهم، عقّب وعيدهم بالتنبيه على ما يزيل غرورهم إنّ سبب التأخير كلمة سبقت من الله بذلك، لحِكم يعلمها. وهذا في معنى قوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} [سبأ:29- 30].

الكلمة: ما علمه الله من تأجيل حلول العذاب بهم، فالله تعالى بحكمته أنظر قريشا فلم يعجّل لهم العذاب لأنّه أراد أن ينشر الإسلام بمن يؤمن منهم وبذرّيّاتهم. وفي ذلك كرامة للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم بتيسير أسباب بقاء شرعه وانتشاره، لأنّه الشريعة الخاتمة. وخصّ الله منهم بعذاب السيف والأسر من كانوا أشدّاء في التكذيب والإعراض حكمة منه تعالى، كما قال { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الأنفال:33 - 34].

{ **لَكَانَ لِزَاماً** } واللِّزام (بكسر اللام) مصدر لازم، كالخصام، استعمل مصدرًا لفعل لَزِمَ الثاني لقصد المبالغة في قوّة المعنى كأنّه حاصل من عدّة ناس. ويجوز أن يكون وزن فِعال بمعنى فاعل.

فانتصب { لزاما } على أنّه خبر (كان)، واسمها ضمير راجع إلى الإهلاك، أي لكان الإهلاك الذي أهلك مثله من قبلهم من القرون، وهو الاستئصال، لازما لهم.

{ **وَأَجَلٌ مُسَمّىً** } عطف على {كلمة}. والتقدير: لولا كلمة وأجل مسمّى يقع عنده الهلاك لكان إهلاكهم لزاما. ويظهر أنّه شاع في عصر الصحابة تأويل اسم اللزام أنّه عذاب توعد الله به مشركي قريش. وقيل: هو عذاب يوم بدر. ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود قال خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة،

والزام {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً} . يريد بذلك إبطال أن يكون اللزام مترقبا في آخر الدنيا. **وليس في القرآن ما يحوج إلى تأويل اللزام بهذا** كما علمت.

{ **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ** } أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقولون من التكذيب وبالوعيد لتأخير نزوله بهم. والمعنى: فلا تستعجل لهم العذاب واصبر على تكذيبهم ونحوه. وأمره بأن يُقبل على مزاولة تزكية نفسه وتزكية أهله بالصلاة، والإعراض عمّا متَّع الله الكفار برفاهية العيش، ووعده بأنّ العاقبة للمتقين.

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** } التسبيح هنا مستعمل في الصلاة لاشتمالها على تسبيح الله وتنزيهه. والباء للملابسة، وهي ملابسة الفاعل لفعله، أي سبّح حامدا ربك، فموقع المجرور موقع الحال.

{ **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ** } هي أوقات الصلاة؛

قبل طلوع الشمس: وقت الصبح

قبل غروبها: وقتان وهما الظهر والعصر، وقيل المراد صلاة العصر.

{ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ }: وذلك وقتا المغرب والعشاء.

{ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ }: وقت الظهر، كما سيأتي.

وهذا كلّه من المجمل الذي بّينته السنة المتواترة.

آناء الليل: ساعاته، وهو جمع **إنْي** (بكسر الهمزة وسكون النون وياء في آخره). ويقال: إنو بواو في آخره. ويقال: إنى بألف في آخره مقصورا. ويقال: أناء بفتح الهمزة في أوّله وبمد في آخره. وجمع ذلك على آناء.

{ **وَأَطْرَافَ النَّهَارِ** }، طرف الشيء منتهاه. قيل: المراد أوّل النهار وآخره، وهما وقتا الصبح والمغرب، فيكون من عطف البعض على الكل للاهتمام بالبعض، كقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى } [البقرة: 238]. وقيل: المراد طرف سير الشمس في قوس الأفق، وهو بلوغ سيرها وسط الأفق المعبّر عنه بالزوال، وهما طرفان طرف النهاية وطرف الزوال، وهو انتهاء النصف الأول وابتداء النصف الثاني من القوس، كما قال تعالى { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } [هود: من الآية114]. وعلى هذا التفسير يتجه أن يكون ذكر الطرفين معا لوقت صلاة واحدة أن وقتها ما بين الخروج من أحد الطرفين والدخول في الطرف الآخر وتلك حصة دقيقة (أي وقت صلاة الظهر).

وعلى التفسيرين فللنّهار طرفان لا أطراف، كما قال تعالى { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } فالجمع في قوله {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ} من إطلاق اسم الجمع على المثنى، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس، كقوله تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4]. والذي حسّنه هنا مشاكلة الجمع للجمع في قوله { وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ }.

{ **لَعَلَّكَ تَرْضَى** } أي رجاء لك أن تنال من الثواب عند الله ما ترضى به نفسك.
ويجوز أن يكون المعنى: لعلّ في ذلك المقدار الواجب من الصلوات ما ترضى به نفسك دون زيادة في الواجب رفقا بك وبأمتك. ويبيّنه قوله صلى الله عليه وسلم: " **وجعلت قرة عيني في الصلاة** ".

{ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } [131]

أعقب أمره بالصبر على ما يقولونه بنهيه عن الإعجاب بما يَنعم به من تنعَّم من المشركين، بأموال وبنين في حين كفرهم بالله، بأنّ ذلك لحِكم يعلمها الله تعالى، منها إقامة الحجّة عليهم، كما قال تعالى { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ } [المؤمنون:55 - 56].

مدّ العينين: مستعمل في إطالة النظر للتعجيب لا للإعجاب، شبّه ذلك بمدّ اليد. وتقدّم نظيره [الحجر:88].

{ **أَزْوَاجاً مِنْهُمْ** } ذكر الأزواج هنا لدلالته على العائلات والبيوت، أي إلى ما متعناهم وأزواجهم به من المتع؛ كالبنين والرياش والمنازل والخدم.

{ **زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } والزَهْرة (بفتح الزاي وسكون الهاء): واحدة الزهر، وهو نَوْر الشجر والنبات. وتستعار للزينة المعجِبة المبهِتة، لأنّ منظر الزهرة يزين النبات ويُعجب الناظر، فزهرة الحياة: زينة الحياة، من اللباس والأنعام والجنان والنساء والبنين، كقوله تعالى { فَمَتَاع الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا } [القصص: 60].

{ **لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** } (في) للظرفية المجازية، أي ليحصل فتنتهم في خلاله، ففي كل صنف من ذلك المتاع فتنة مناسبة له. واللام للعلّة المجازية التي هي عاقبة الشيء. وإنّما متّعهم الله بزهرة الدنيا لأسباب كثيرة متسلسلة عن نظم الاجتماع، فكانت لهم فتنة في دينهم، **فجعل الحاصل بمنزلة الباعث**.

الفتنة: اضطراب النفس وتبلبل البال من خوف أو توقّع أو التواء الأمور، وكانوا لا يخلون من ذلك، فلشركهم يقذف الله في قلوبهم الغمّ والتوقّع، وفتنتهم في الآخرة ظاهرة.

{ **وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } تذييل، لأن قوله { وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } إلى آخره، يفيد أن ما يبدو للناظر من حسن شارتهم مشوب ومبطّن بفتنة في النفس وشقاء في العيش وعقاب عليه في الآخرة، فذيّل بأن الرزق الميسر من الله للمؤمنين خير من ذلك وأبقى في الدنيا، ومنفعته باقية في الآخرة لما يقارنه في الدنيا من الشكر.

{ **وَرِزْقُ رَبِّكَ** } إضافة تشريف، وإلّا فإنّ الرزق كلّه من الله، ولكن رزق الكافرين لما خالطه وحفّ به حال أصحابه من غضب الله عليهم، ولما فيه من التبعة على أصحابه في الدنيا والآخرة لكفرانهم النعمة، جُعل كالمنكور انتسابه إلى الله، وجعل رزق الله هو السالم من ملابسة الكفران ومن تبعات ذلك.

{ **خير** } تفضيل، والخيرية حقيقة اعتبارية تختلف باختلاف نواحيها. فمنها: خير لصاحبه في العاجل شرّ

عليه في الآجل، ومنها خير مشوب بشرور وفتن، وخير صاف من ذلك، فالتفضيل باعتبار توفر السلامة من العواقب السيئة والفتن كالمقرون بالقناعة، فتفضيل الخيرية جاء مجملا يظهر بالتدبر.
{ **وأبقى** } تفضيل على ما مُتِّع به الكافرون، لأنّ في رزق الكافرين بقاء، وهو أيضا يظهر بقاؤه بالتدبّر فيما يحف به وعواقبه.

{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [132]

أي متّعتك ومتعة أهلك الصلاة فلا تلفتوا إلى زخارف الدنيا. وأهل الرجل يكونون أمثل من ينتمون إليه.
ومن آثار العمل بهذه الآية في السنة ما في صحيح البخاري : أنّ فاطمة رضي الله عنها بلغها أنّ سبيا جيء به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأتت تشتكي إليه ما تلقى من الرحى، تسأله خادما من السبي فلم تجده. فأخبرت عائشة بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءها النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد أخذت وعلي مضجعهما فجلس في جانب الفراش وقال لها ولعلي: **" ألا أخبركما بخير لكما مما سألتما، تسبحان وتحمدان وتكبّران دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، فذلك خير لكما من خادم ".**
وأمر اللهُ رسولَهُ بما هو أعظم مما يأمر به أهله وهو أن يصطبر على الصلاة.
الاصطبار: الانحباس، مطاوع صبره، إذا حبسه، وهو مستعمل مجازا في إكثاره من الصلاة في النوافل.
قال تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً } [المزمل:1-2]، وقال { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ } [الاسراء: 79].
{ **لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً** } أي ما كلّفناك إلّا بالعبادة، لأنّ العبادة شكر الله على ما تفضّل به على الخلق ولا يطلب الله منهم جزاء آخر. وفي هذا المعنى قوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات: 56 - 58].
والمقصود من هذا الخطاب ابتداء هو النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويشمل أهله والمؤمنين.
{ **وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى** } عطف على جملة { لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً } المعلّل بها أمره بالاصطبار للصلاة،
العاقبة: حقيقتها أنّها كلّ ما يعقب أمرا ويقع في آخره من خير وشرّ، إلّا أنّها غلب استعمالها في أمور الخير.
فالمعنى: أن التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير.
وهذه الجملة تذييل لما فيها من معنى العموم. أي لا تكون العاقبة إلّا للتقوى. فقد أرسلت مجرى المثل.

{ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى }[133]

رجوع إلى التنويه بشأن القرآن، وبأنّه أعظم المعجزات. والمناسبة في الانتقال هو ما تضمّنه قوله { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [130] فجيء هنا بشِنَعٍ من أقوالهم التي أمر الله رسوله بأن يصبر عليها في قوله { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ }، من مثل قولهم { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } [الانبياء: 5].

{ **لَوْلا** } حرف تحضيض.

{ **أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ** } الاستفهام إنكاري، أنكر به نفي إتيان آية لهم الذي اقتضاه تحضيضهم على الإتيان بآية.

البيّنة: الحجّة.

{ **الصُّحُفِ الْأُولَى** } كتب الأنبياء السابقين. كقوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:18-19].

الصحف: جمع صحيفة. وهي قطعة من ورق أو كاغد أو خرقة يكتب فيها. ولمّا كان الكتاب مجموع صحف أطلق الصحف على الكتب.

ووجه اختيار { الصُّحُفِ } هنا على الكتب أنّ في كل صحيفة من الكتب علما، وأنّ جميعه حواه القرآن، فكان كل جزء من القرآن آية ودليلا.

{ **بَيِّنَةُ** } وهذه البينة هي محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه القرآن، لأنّ الرسول موعود به في الكتب السالفة، ولأنّ في القرآن تصديقا لما في تلك الكتب من أخبار الأنبياء ومن المواعظ وأصول التشريع. وكانوا لا يحقّقون كثيرا منها بما طرأ عليهم من التفرّق وتلاشي أصول كتبهم وإعادة كتابة كثير منها بالمعنى على حسب تأويلات سقيمة.

وأمّا القرآن فما حواه من دلائل الصدق والرشاد، وما امتاز به عن سائر الكتب من البلاغة والفصاحة البالغتين حدّ الإعجاز، وهو ما قامت به الحجّة على العرب مباشرة وعلى غيرهم استدلالا. وهذا مثل قوله تعالى: { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً } [البينة:1-2].

{ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى } [134]

الارتقاء في الاستدلال عليهم بأنّهم ضالون حين أخّروا الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وجعلوه متوقّفا على أن يأتيهم بآية من ربّه، لأنّ ما هم متلبّسون به من الإشراك بالله ضلال بيّن، قد حجبت عن إدراك فساده العاداتُ واشتغالُ البال بشؤون دين الشرك. فالإشراك وحده كاف في استحقاقهم العذاب، ولكنّ

الله رحمهم فلم يؤاخذهم به إلّا بعد أن أرسل إليهم رسولا يوقظ عقولهم. فمجيء الرسول بذلك كاف في استدلال العقول على فساد ما هم فيه، فكيف يسألون بعد ذلك إتيان الرسول لهم بآية على صدقه فيما دعاهم إليه من نبذ الشرك.

{ **مِنْ قَبْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن الذي الكلام عليه، أو على الرسول باعتبار وصفه بأنّه بيّنة، أو على إتيان البينة المأخوذ من { أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } [133].

وفي هذه الآية دليل على أنّ الإيمان بوحدانية خالق الخلق يقتضيه العقل لولا حجب الضلالات والهوى، وأنّ مجيء الرسل لإيقاظ العقول والفطر، وأنّ الله لا يؤاخذ أهل الفترة على الإشراك حتّى يبعث إليهم رسولا، وأنّ قريشا كانوا أهل فترة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً** } أنّهم يقولون ذلك يوم الحساب بعد أن أهلكهم الله الإهلاك المفروض، لأنّ الإهلاك بعذاب الدنيا يقتضي أنّهم معذبون في الآخرة.

و(لولا) حرف تحضيض، مستعمل هنا في اللوم أو الاحتجاج، لأنّه قد فات وقت الإرسال.

{ **نَذِلَّ وَنَخْزَى** } الذل: الهوان. والخزي: الافتضاح، أي الذلّ بالعذاب. والخزي في حشرهم مع الجناة كما قال إبراهيم عليه السلام { وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء: 87].

{ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى } [135]

جواب عن قولهم { لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ } وما بينهما اعتراض. والمعنى: كلّ فريق متربص، فأنتم تتربّصون بالإيمان، أي تؤخّرون الإيمان إلى أن تأتيكم آية من ربي، ونحن نتربّص أن يأتيكم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة.

{ **فَتَرَبَّصُوا** } مادة الفعل المأمور به مستعملة في الدوام ،أي فدوموا على تربّصكم، وفيه معنى الإنذار.

ويسمّى المتاركة، أي نتركّكم وتربصكم لأنّا مؤمنون بسوء مصيركم. وفي معناه قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ } [السجدة: 30] وفي ما يقرب من هذا جاء قوله { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [التوبة:52].

التربّص: الانتظار. تفعُّل من الربص، وهو انتظار حصول حدث من خير أو شرّ، وقد تقدّم في سورة براء.

{ **فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى** } فرّع على المتاركة إعلامهم بأنّهم يعلمون في المستقبل من من الفريقين أصحاب الصراط المستقيم ومن هم المهتدون. وهذا تعريض بأنّ المؤمنين هم أصحاب الصراط المستقيم المهتدون.

الصراط: الطريق. وهو مستعار هنا للدين والاعتقاد، كقوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة:6].
السويّ: فعيل بمعنى مفعول. وهو مشتقّ من التسوية.
يحتمل أنّهم يعلمون ذلك في الدنيا عند انتشار الإسلام وانتصار المسلمين، فيكون الذين يعلمون ذلك من يبقى من الكفار المخاطبين حين نزول الآية سواء ممن لم يسلموا مثل أبي جهل، وصناديد المشركين اللذين شاهدوا نصر الدين يوم بدر، أو من أسلموا مثل أبي سفيان، وخالد بن الوليد، ومن شاهدوا عزّة الإسلام.
ويحتمل أنّهم يعلمون ذلك في الآخرة علم اليقين.
وقد جاءت خاتمة هذه السورة كأبلغ خواتم الكلام لإيذانها بانتهاء المحاجّة وانطواء بساط المقارعة.
ومن محاسنها: أن فيها شبيه ردّ العجز على الصدر لأنّها تنظر إلى فاتحة السورة. وهي قوله {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [2]، لأنّ الخاتمة تدلّ على أنّه قد بلّغ كلّ ما بُعث به من الإرشاد والاستدلال، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنّه أدى الرسالة والتذكرة، فلم يكونوا من أهل الخشية فتركهم وضلالهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء

سمّاها السلف (سورة الأنبياء). ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: " بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، طه، والأنبياء، هن من العتاق الأوَل وهن من تلادي ". ولا يعرف لها اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورة الأنبياء أنّها ذكر فيها أسماء **ستة عشر نبيا ومريم**، ولم يأت في سورة القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام، فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيّا في قوله تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ - إلى قوله - وَيُونُسَ وَلُوطاً } فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء، وإلّا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم، فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية.

وهي مكية بالاتفاق. وحكى ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك ونقل السيوطي في الإتقان استثناء قوله تعالى { أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ }، ولم يعزه إلى قائل.

وهي السورة **الحادية والسبعون في ترتيب النزول**، نزلت بعد حم السجدة وقبل سورة النحل، فتكون من أواخر السور النازلة قبل الهجرة. ولعلّها نزلت بعد إسلام من أسلم من أهل المدينة كما يقتضيه قوله تعالى {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ }، كما سيأتي بيانه، غير أن ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس أن قوله تعالى في سورة الزخرف { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ }، أنّ المراد بضرب المثل هو المثل الذي ضربه ابن الزِّبَعْرَى لمّا نزل قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } كما يأتي، يقتضي أنّ سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف. وقد عدت الزخرف ثانية وستين في النزول.

وعدد آيها في عدّ أهل المدينة ومكّة والشام والبصرة **مائة وإحدى عشرة** وفي عد أهل الكوفة مائة واثنتا عشرة.

أغراض السورة

*/ الإنذار بالبعث، وتحقيق وقوعه وإنّه لتحقّق وقوعه كان قريبا. وإقامة الحجّة عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم وخلق الموجودات من السماء.

*/ التحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله. والتذكير بأنّ هذا الرّسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلّا كأمثاله من الرّسل وما جاء إلّا بمثل ما جاء به الرّسل من قبله. وذكر كثير من أخبار الرّسل عليهم السلام.

*/ التنويه بشأن القرآن وأنّه نعمة من الله على المخاطبين، وشأن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وأنّه رحمة للعالمين.

*/ التذكير بما أصاب الأمم السالفة من جرّاء تكذيبهم رسلهم، وأنّ وعد الله للذين كذّبوا واقع ولا يغرّهم تأخيره فهو جاء لا محالة. وحذّرهم من أن يغترّوا بتأخيره كما اغترّ الذين من قبلهم حتّى أصابهم بغتة.

*/ ذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج.

*/ ذكّرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق. والإيماء إلى أنّ وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزى كلّ نفس بما كسبت، وينتصر الحقّ على الباطل.

*/ ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق، إذا لا يستقيم هذا النظام بتعدّد الآلهة. وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانيّة الله تعالى. وما يكرهه على فعل ما لا يريد.

*/ أنّ جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء. وأعقب ذلك تذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ.

*/ عطف الكلام إلى ذكر الرّسل والأنبياء. وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم وأحوال قومه.

*/ كيف نصر الله الرّسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم. وأنّ الرسل كلّهم جاءوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطّعه الضالون قطعا. وأثنى على الرّسل وعلى من آمنوا بهم.

*/ أنّ العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة، وأنّ الله سيحكم بين الفريقين بالحقّ ويعين رسله على تبليغ شرعه.

{ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ } [1]

افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب وإدخال الروع على المنذرين.

{ **اقْتَرَبَ** } مبالغة في القرب، أي اشتدّ قرب وقوعه بهم. وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيليّة شبّه حال إظلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس، ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة.

{ **لِلنَّاسِ** } تقديم الجار والمجرور للاهتمام، ليعلم السامع أنّ المراد تهديد المشركين، لأنّهم الذين يكنّى عنهم بالنّاس كثيرا في القرآن.

{ **حِسَابُهُمْ** } المراد إمّا يوم الحساب، ومعنى اقترابه أنّه قريب عند الله لأنّه محقّق الوقوع. أو قريب بالنسبة إلى ما مضى من مدة بقاء الدنيا كقول النبي صلى الله عليه وسلم: **" بعثت أنا والساعة كهاتين "**.

أو كناية عن اقتراب موتهم لأنّهم إذا ماتوا رأوا جزاء أعمالهم، وذلك من الحساب. وفي هذا تعريض بالتهديد لقرب هلاكهم وذلك بفنائهم يوم بدر.

أو المراد بالحساب المؤاخذة بالذنب كما في قوله تعالى { إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي } وعليه فالاقتراب مستعمل في حقيقته أيضا فهو من استعمال اللفظ في حقيته ومجازه.

{ **وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ** } حال من { النّاس } ، أي اقترب منهم الحساب في حال غفلتهم وإعراضهم.

{ **فِي** } دلّت على الظرفيّة المجازيّة التي هي شدّة تمكّن الوصف منهم، أي وهم غافلون أشدّ الغفلة حتّى كأنّهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها، ذلك أنّ غفلتهم عن يوم الحساب متأصّلة فيهم بسبب سابق كفرهم.

الغفلة: الذهول عن الشيء وعن طرق علمه، وقد تقدّمت عند قوله تعالى { وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [الأنعام:156] وقوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } [الأعراف:136].

الإعراض: صرف العقل عن الاشتغال بالشيء. وتقدّم في قوله {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ} [النساء:63]، وقوله { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [الأنعام:68].

وإعراضهم هو إبايتهم التأمّل في آيات القرآن التي تذكّرهم بالبعث وتستدلّ لهم عليه، فمتعلّق الإعراض غير متعلّق الغفلة، لأنّ المعرض عن الشيء لا يعد غافلا عنه، أي أنّهم لما جاءتهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان وإنذارهم بيوم القيامة استمروا على غفلتهم عن الحساب بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به. فكانت الغفلة عن الحساب منهم غير مقلوعة من نفوسهم بسبب تعطيلهم ما شأنه أن يقلع الغفلة عنهم بإعراضهم عن الدلائل المثبتة للبعث.

{ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ [2] لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [3] }.

{ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ }

مبيّنة لجملة { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ }. لبيان تمكّن الغفلة منهم وإعراضهم، بأنّهم إذا سمعوا في القرآن تذكيرا لهم بالنظر والاستدلال اشتغلوا عنه باللعب واللهو، فلم يفقهوا معانيه، وكان حظّهم منه سماع ألفاظه كقوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [البقرة:171].

الذكر: القرآن، أطلق عليه اسم الذكر الذي هو مصدر لإفادة قوّة وصفه بالتذكير.

المُحدث: الجديد، أي الجديد نزوله متكرّرا، وهو كناية عن عدم انتفاعهم بالذكر كلّما جاءهم بحيث لا يزالون بحاجة إلى إعادة التذكير وإحداثه مع قطع معذرتهم، لأنّه لو كانوا سمعوا ذكرا واحدا فلم يعبأوا به لانتحلوا لأنفسهم عذرا أنّهم كانوا ساعتئذ في غفلة. فلمّا تكرّر حدثان إتيانه تبيّن لكلّ منصف أنّهم معرضون عنه صدًّا. ونظير هذا قوله { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } [الشعراء:5]. وليس المراد بمحدث ما قابل القديم في اصطلاح علم الكلام، لعدم مناسبته لسياق النظم.

{ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } أي استماعا لا وعي معه. وفائدة هذا الترتيب بين الجملتين الحاليتين الزيادة لقطع معذرتهم المستفاد من قوله { مُحْدَثٍ } كما علمت.

{ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ }.

جملة مستأنفة يجوز أن تكون عطفا على جملة { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } إلى آخرها لأنّ كلتا الجملتين مسوقة لذكر أحوال تلقّي المشركين لدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والبهتان والتآمر على رفضها. فالذين ظلموا هم المراد بالناس كما تقدّم. وليست عطفا على جملة { اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ }، لأنّ مضمونها ليس في معنى التقييد لما يأتيهم من ذكر.

{ الَّذِينَ ظَلَمُوا } بدل من واو الجماعة لزيادة التقرير. ولما في الموصول من الإيماء إلى سبب تناجيهم بما ذكر، وأنّ سبب ذلك كفرهم وظلمهم أنفسهم، وللنداء على قبح ما هم متّصفون به.

{ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } بدل من { النَّجْوَى } لأنّ ذلك هو ما تناجوا به. فهو بدل مطابق. وليست هي كجملة { قالوا إنّ هذان لساحران } من جملة { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى } [طه:62]، فإنّ تلك بدل بعض من كلّ، لأنّ ذلك القول هو آخر ما أسفرت عليه النجوى.

ووجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطّلع المسلمون على ما تآمروا به، لئلّا يتصدّى الرسول صلى الله عليه وسلم للردّ عليهم، لأنّهم علموا أنّ حجّتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضلّلوا الدهماء.
أو أنّهم أسرّوا بذلك لفريق رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتتابع دخول النّاس في الإسلام فاختلوا بقوم ما زالوا على الشرك وناجوهم بذلك ليدخلوا الشكّ في قلوبهم.
النجوى: المحادثة الخفية. و**الإسرار**: هو الكتمان والكلام الخفيّ جدّا. وقد تقدم الجمع بينهما في قوله تعالى {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ } [براءة:78]. أي جعلوا نجواهم مقصودة بالكتمان وبالغوا في إخفائها، لأنّ شأن التشاور في المهمّ كتمانه، كيلا يطّلع عليه المخالف فيفسده.
{ **هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } الاستفهام إنكاري يقتضي أنّهم خاطبوا من قارب أن يصدّق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، أي فكيف تؤمنون بنبوءته وهو أحد منكم.
{ **أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ** } الاستفهام إنكاري كذلك، وأرادوا بالسحر القرآن. وأطلق الإتيان على القبول والمتابعة على طريق المجاز أو الاستعارة، لأنّ الإتيان لشيء يقتضي الرغبة فيه.
ويجوز أن يراد بالإتيان هنا حضور النبيّ صلى الله عليه وسلم لسماع دعوته، فجعلوه إتيانا، لأنّ غالب حضور المجالس أن يكون بإتيان إليها، وجعلوا كلامه سحرا فنهوا من ناجوهم عن الاستماع إليه. وهذا كقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].
{ **وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** } في موضع الحال، أي تأتون السحر وبصركم سليم، وأرادوا به العلم البديهي، فعبّروا عنه بالبصر لأنّ المبصرات لا يحتاج إدراكها إلى تفكير.

{ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [4] .

أطلع الله رسوله على نجواهم فلم يتم لهم ما أرادوا من الإسرار بها، فبعد أن حكى ما تناجوا به أمره أن يخبرهم بأنّ الله الذي علم نجواهم يعلم كلّ قول في السماء والأرض من جهر أو سر.
{ **قَالَ** } وقرأ الجمهور { قُلْ } بصيغة الأمر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف { قَالَ } بصيغة الماضي، وكذلك هي مرسومة في المصحف الكوفي، قاله أبو شامة، أي قال الرسول لهم، حكى الله ما قاله الرسول لهم، وإنما قاله عن وحي فكان في معنى قراءة الجمهور { قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ }.
{ **الْقَوْلَ** } التعريف للاستغراق، وبذلك كان هذا تذييلا.
{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } أعلمهم بأنّه المتّصف بتمام العلم للمسموعات وغيرها.

{ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ }[5]

{ **بَلْ** } الأولى من كلام الله تعالى إضراب انتقال من حكاية قول فريق منهم { أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} إلى حكاية قول آخر من أقوال المشركين، وهو زعمهم أنّ ما يخبر عنه ويحكيه هو أحلام يراها فيحكيها، فضمير { قَالُوا } لجماعة المشركين لا لخصوص القائلين الأوّلين.

{ **بَلْ** } الثانية يجوز أن تكون من الكلام المحكي عنهم وهي إضراب انتقال فيما يصفون به القرآن.

والمعنى: بل افتراه واختلقه من أحلام، أي هو كلام مكذوب.

{ **بَلْ** } الثالثة إضراب منهم عن كلامهم، انتقلوا فقالوا { هُوَ شَاعِرٌ } أي كلامه شعر.

وذلك مؤذن باضطرابهم، وهذا الاضطراب ناشئ عن تردّدهم ممّا ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن. وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردّد في حجّته كما قيل: الباطل لَجْلَج، أي ملتبس متردّد فيه.

ويجوز أن تكون (بل) الثانية والثالثة مثل (بل) الأولى للانتقال في حكاية أقوالهم. والتقدير: بل قالوا افتراه، بل قالوا هو شاعر، وحذف فعل القول لدلالة القول الأوّل عليهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المحكي كلام جماعات من المشركين انتحلت كلّ جماعة اعتلالا.

الأضغاث: جمع ضِغث (بكسر الضاد)، وهو الحزمة من أعواد أو عشب أو حشيش مختلط، ثم أطلق على الأخلاط مطلقا كما في قوله { قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ }[يوسف:44]. أرادوا أن ما يخبركم به من أنّه أوحي إليه ومن أخبار البعث والحساب ويوم القيامة هو أحلام يراها.

{ **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ** } فرّعوا على تردّدهم أو فرّع كلّ فريق على مقالته نتيجة واحدة وهي المطالبة أن يأتيهم بمعجزة تدلّ على صدقة غير هذا القرآن، من نوع ما يحكى عن الرسل السابقين.

ومن البهتان أن يسألوا الإتيان بآية يكون الادعاء بأنّها سحر أروج في مثلها.

{ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ }[6].

استئناف ابتدائي جوابا على قولهم { كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ }، والمعنى: أنّ الأمم التي أرسل إليها الأوّلون ما أغنت فيهم الآيات التي جاءتهم، كما وددتم أن تكون لكم مثلها فما آمنوا، ولذلك حقّ عليهم الإهلاك، فشأنكم أيّها المشركون كشأنهم. كقوله { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ }[الإسراء:59].

وإنّما أمسك الله الآيات الخوارق عن مشركي مكّة لأنّه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرّيّاتهم حملة هذا الدين في العالم، ولو أرسلت عليهم الآيات البيّنة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها.

{ **أَهْلَكْنَاهَا** } صفة لـ { قَرْيةٍ } وردت مستطردة للتعريض بالوعيد بأنّ المشركين أيضا يترقّبون الإهلاك.
وذكرت القرية هنا مرادا بها أهلها ليبنى عليها الوصف بإهلاكها، لأنّ الإهلاك أصاب أهل القرى وقراهم، فلذلك قيل { أَهْلَكْنَاهَا } دون { أَهْلَكْنَاهُمْ } كما في قوله { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ } [الكهف:59].
{ **أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** } فُرّعت على جملة { مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ } مقترنة باستفهام الإنكار، أي فهم لا يؤمنون لو أتيناهم بآية كما اقترحوا، كما لم يؤمن الذين من قبلهم الذين جعلوهم مثالا في قولهم { كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ}.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ }[7]

عطف جواب على جواب. والمقصود من هذا إبطال مقصودهم من قوله { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } إذ أرادوا أنّه ليس بأهل للامتياز عنهم بالرسالة عن الله تعالى، فبيّن خطأهم في استدلالهم بأنّ الرّسل الأوّلين الذين اعترفوا برسالتهم ما كانوا إلّا بشرا، وأنّ الرسالة ليست إلّا وحيا من الله لمن اختاره من البشر.
{ **إِلَّا رِجَالاً** } يقتضي أن ليس في النساء رسلا وهذا مجمع عليه. وإنّما الخلاف في نبوءة النساء، مثل مريم أخت موسى ومريم أم عيسى. ثم عرّض بجهلهم وفضح خطأهم فأمرهم أن يسألوا أهل الذكر، أي: العلم بالكتب والشرائع السالفة من الأحبار والرهبان.
وتوجيه الخطاب لهم بعد كون الكلام جرى على أسلوب الغيبة التفات، ونكتته أنّ الكلام لمّا كان في بيان الحقائق الواقعة أعرض عنهم في تقريره وجعل الكلام موجّه إلى كل سامع، وجُعلوا فيه مُعبّرا عنهم بضمائر الغيبة، ولمّا أريد تجهيلهم وإلجاؤهم إلى الحجّة عليهم غيّر الكلام إلى الخطاب، تسجيلا عليهم وتقريعا لهم بتجهيلهم.

{ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ } [8]

الجسد: الجسم الذي لا حياة فيه، وهو يرادف الجثّة. هذا قول المحقّقين من أئمة اللغة مثل أبي إسحاق الزجاج في تفسير قوله تعالى { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً }. وقد تقدم هناك. أي ما جعلناهم أجراما غير منبثّة فيها الأرواح بحيث تنتفي عنهم صفات البشر التي خاصتها أكل الطعام، وهذا رد لما يقولونه { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } مع قولهم هنا { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ }.
وذكر الجسد يفيد التهكّم بالمشركين لأنّ مقتضى أقوالهم أنّ الرسل الأوّلين كانوا في صور الآدميين لكنّهم لا يأكلون الطعام، وأكل الطعام من لوازم الحياة، فلزمهم أن يكونوا أجسادا بلا أرواح، وهذا من السخافة بمكانة.

{ **وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** } زيادة استدلال لتحقيق بشريّتهم. وأُتي في نفي الخلود عنهم بصيغة { مَا كَانُوا } تحقيقا لتمكّن عدم الخلود منهم.

{ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ }[9]

{ **ثُمَّ** } عاطفة للجمل فهي للترتيب الرتبي. والمعنى: وأهمّ مما ذكر أنّا صدقناهم الوعد فأنجيناهم وأهلكنا الذين كذّبوهم. ومضمون هذا أهمّ في الغرضين التبشير والإنذار. فالتبشير للرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنّ الله صادقه وعده من النصر، والإنذار لمن ماثل أقوام الرّسل الأوّلين.

{ **الْوَعْدَ** } وعدهم النصر على المكذّبين بقرينة قوله { فَأَنْجَيْنَاهُمْ } المؤذن بأنّه وعد عذاب لأقوامهم، فالكلام مسوق مساق التنويه بالرّسل الأوّلين، وهو تعريض بوعيد الذين قالوا { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ }.

وفي هذا تقريع للمشركين، وهو كقوله تعالى { قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } [يونس:102].

{ **وَمَنْ نَشَاءُ** } صيغة المستقبل احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا، لأنّ من المكذّبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكّة.

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان، ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة الماضي الذي هو حكاية لما حلّ بالأمم السالفة، وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، مع عدم التصريح بالوعيد.

المسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتّى حلّ بهم العذاب.

{ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [10]

استئناف جواب عن قولهم { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } بإيقاظهم إلى أنّ الآية التي جاءتهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأوّلون، وتجهيلا لألبابهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءتهم.

وفيها تحقيق لكون القرآن حقا، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عموا عنها.

{ **لَقَدْ** } ولقصد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق.

{ **أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ** } جعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه، نظرا إلى أنّ الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم. وذلك أبلغ من أن يقال: أنزلنا لكم.

{ **كِتَاباً** } التنكير للتعظيم، إيماء إلى أنّه جمع خصلتين عظيمتين: كونه كتاب هدى، وكونه آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مدانيه.

{ **فِيهِ ذِكْرُكُمْ** } يطلق الذكر على التذكير بما فيه الصلاح، **ويطلق على السمعة والصيت** كقوله { ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } [مريم:2]. وقد أوثر هذا المصدر هنا وجعل معرّفا بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاما موجّها فيصحّ قصد المعنيين معا من كلمة (الذكر)، بأنّ مجيء القرآن مشتملًا على أعظم الهدى، هو تذكيرٌ لهم بما به نهاية إصلاحهم، ومجيئه بلغتهم وفي قومهم وبواسطة واحد منهم، سمعةٌ عظيمة لهم كما قال { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195] وقال { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ } [البقرة:151].
وقد فسر السلف هذه الآية بالمعنيين. وفي تفسير الطبري هنا قال جماعة: أي فيه شرفكم.
{ **أَفَلا تَعْقِلُونْ** } الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم، وهو متّجه على كلا المعنيين، فإنّ من جاءه ما به هديه فلم يهتد يُنكر عليه سوء عقله، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به يُنكر عليه سوء قدره للأمور حق قدرها.

{ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ [11] فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ [12] لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ [13] قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [14].

تعريض بالتهديد. ومناسبة موقعها أنّه بعد أن أخبر أنّه صَدَق رَسُله وعده، وهو خبر يفيد ابتداء التنويه بشأن الرّسل ونصرهم، وبشأن الذين آمنوا بهم. وفيه تعريض بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وذكر إهلاك المكذّبين له تبعا لذلك، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين ووصف ما حلّ بهم، ليكون ذلك مقصودا بذاته ابتداء، اهتماما به ليقرع أسماعهم، فهو تعريض بإنذار المشركين بالانقراض بقاعدة قياس المساواة، وأنّ الله ينشئ بعدهم أمّة مؤمنة كقوله تعالى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [إبراهيم:19].
{ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً** }، { **كَمْ** } اسم له حقّ صدر الكلام لأنّ أصله اسم استفهام عن العدد، وشاع استعماله للإخبار عن كثرة الشيء على وجه المجاز، لأنّ الشيء الكثير من شأنه أن يستفهم عنه.
القصم: الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع. واستعير للاستئصال والإهلاك القويّ. إيماء إلى أن هذه الكثرة تستلزم عدم تخلّف إهلاك هذه القرى، وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم (الشرك) إيماء إلى سبب الإهلاك، فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم، فيعلم المشركون بأن ذلك حال بهم لا محالة.
فما روي عن ابن عباس: أنّ المراد بالقرية حَضوراء (بفتح الحاء) مدينة باليمن قتلوا نبيّا اسمه (شعيب بن ذي مهدم) في زمن أرمياء نبي بني إسرائيل فسلط الله عليهم بختنصر فأفناهم. فإنّما أراد أنّ هذه القرية ممن شملتهم هذه الآية.

{ **قَرْيةٍ** } المراد أهلها، كما يدل عليه قوله تعالى { وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ }

{ **وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ** } معترضة بين { وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ } وجملة { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا }، التي هي تفريع على جملة { وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ }.

{ **فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا** }

الإحساس: الإدراك بالحسّ، فيكون برؤية ما يزعجهم أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح.

البأس: شدّة الألم والعذاب.

{ **إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ** } أي خارجين منها، ويجوز أن يكون (من) للتعليل بتأويل { يَرْكُضُونَ } معنى (يهربون)، أي من بأسنا الذي أحسّوه في القرية.

{ **إِذَا** } للدلالة على أنّهم ابتدروا الهروب من شدّة الإحساس بالبأس، تصويرا لشدة الفزع.

الركض: سرعة سير الفرس، وأصله الضرب بالرجل فيسمّى به العدو، لأن العدو يقتضي قوة الضرب بالرجل، وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير النّاس على وجه الاستعارة.

{ **لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ** } معترضة وهي خطاب للراكضين بتخيّل كونهم كالحاضرين المشاهَدين في وقت حكاية قصتهم، ترشيحا لما اقتضى اجتلاب حرف المفاجأة. وهي معترضة بين جملة { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا }، وبين جملة { قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ }.

ويجوز جعل الجملة مقول قول محذوف خوطبوا به حينئذ. وهذا ما فسّر به المفسّرون، ويبعده استبعاد أن يكون ذلك واقعا عند كلّ عذاب أصيبت به كل قرية. وأيّا ما كان فالكلام تهكّم بهم.

الإتراف: إعطاء الترف، وهو النعيم ورفه العيش، أي ارجعوا إلى ما أُعطيتم من الرفاهية وإلى مساكنكم.

{ **لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ** } من جملة التهكّم. وذكر المفسّرون في معناها احتمالات ستة. أظهرها: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم لتروا ما آل إليه فلعلّكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم فتعلموا كيف تجيبون، تكملة للتهكّم.

{ **قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** }

إن جعلتَ جملة { لا تَرْكُضُوا } معترضة على ما قررته آنفا تكون هذه مستأنفة استئنافا بيانيا، يقرّون بظلمهم وينشئون التلهّف والتندّم بقولهم.

وإن جعلتَ جملة { لَا تَرْكُضُوا } مقول قول محذوف على ما ذهب إليه المفسرون كانت الجملة جوابا، أي قالوا: قد عرفنا ذنبنا وحقّ التهكم بنا.

{ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حتّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ } [15]

{ تِلْكَ } إشارة إلى القول المستفاد من قوله تعالى{ قَالُوا يَا وَيْلَنَا } ، وتأنيثه من الإخبار عنه بدعواهم، أي ما زالوا يكرّرون تلك الكلمة يدعون بها على أنفسهم.

وهذا الوجّه يرجح التفسير الأوّل لمعنى قوله تعالى { لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } لأن شأن الأقوال التي يقولها الخائف أن يكرّرها.

والمعنى: فما زالوا يكررون مقالتهم تلك حتّى هلكوا عن آخرهم.

الحصيد: فعيل بمعنى مفعول، أي المحصود. والحصد: جزّ الزرع والنبات بالمنجل لا باليد. وقد شاع إطلاق الحصيد على الزرع المحصود بمنزلة الاسم الجامد.

الخامد: اسم فاعل من خمدت النار تخمُد (بضم الميم) إذا زال لهيبها.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ [16] لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ [17] } .

كثر في القرآن الاستدلال بإتقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أنّ لله حكمة في خلق المخلوقات وخلق نظمها وسننها وفطرها، بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقة بعضها ببعض متناسبة مجارية لما تقتضيه الحكمة، ولذلك قال { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الحجر:85]. وقد بيّنا هنالك كيفيّة ملابسة الحقّ لكلّ أصناف المخلوقات وأنواعها بما يغني عن إعادته هنا.

وكُثر أن ينبّه القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المنسبة بين خلق ما في السماوات والأرض ملتبسا بالحقّ، وبين جزاء المكلّفين على أعمالهم، على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم، إلى أن عمّتهم الشريعة العامة الخاتمة، شريعة الإسلام، والى الحكمة التي اقتضت تكوين حياة أبدية تلقى فيها النفوس جزاء ما قدّمته في هذه الحياة الزائلة، جزاء وفاقا.

فلذلك كثر أن تُعقّب الآيات المبيّنة لما في الخلق من الحقّ بالآيات التي تذكر الجزاء والحساب، والعكس، كقوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنين:115]، وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [الحجر:85]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص:26-28]، وقوله تعالى { أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} [الدخان:37-40]، وقوله تعالى { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } [الأحقاف:3].

فكذلك هذه الآية عقّب بها ذكر القوم المهلَكين، والمقصود من ذلك إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات، وإعطاء كلّ مخلوق ما به قوامه، فإذا كانت تلك سنّة الله في خلق العوالم ظرفها ومظروفها، استدل بذلك على أن تلك السنّة لا تختلف في رتب المسبّبات على أسبابها فيما يأتيه جنس المكلفين من الأعمال، فإذا ما لاح لهم تخلّف سبب عن سببه أيقنوا أنّه تخلّف مؤقّت فإذا علّمهم الله على لسان شرائعه بأنّه ادّخر الجزاء الكامل على الأعمال إلى يوم آخر آمنوا به، وإذا علّمهم أنّهم لا يفوتون ذلك بالموت، بل إنّ لهم حياة آخرة، وأنّ الله باعثهم بعد الموت، أيقنوا بها، وإذا علّمهم أنّه ربّما عجّل لهم بعض الجزاء في الحياة الدنيا أيقنوا به.

ولأجل هذا اطّرد أو كاد أن يطّرد ذكر لفظ { **وَمَا بَيْنَهُمَا** } بعد ذكر خلق السماوات والأرض في مثل هذا المقام، لأنّ تخصيص (ما بينهما) بالذكر يدلّ على الاهتمام به، لأنّ أشرفه نوع الإنسان المقصود بالعبرة والاستدلال، وهو مناط التكليف.

{ **لاعِبِينَ** }، اللعب: العمل أو القول الذي لا يقصد به تحصيل فائدة من مصلحة أو دفع مفسدة، وإنّما يقصد به إرضاء النفس حين تميل إلى العبث كما قيل: لابد للعاقل من حمقة يعيش بها. ويرادفه العبث واللهو، وضدّه الجدّ. واللعب من الباطل إذ ليس في عمله حكمة، فضدّه الحقّ أيضا.

{ **لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا** } مقررة لمعنى جملة { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ } ، تقريرا بالاستدلال على مضمون الجملة، وتعليلا لنفي أن يكون خلق السماوات والأرض لعبا.

بأنّ اللعب ليس من شأننا، أو على الفرض والتنازل لو أردنا اللهو لكان ما يلهو به حاصلا في أشرف الأماكن من السماوات، فإنّها أشدّ اختصاصا بالله تعالى، إذ جعل سكّانها عبادا له مخلصين.

{ **إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ** } إن جعلت (إن) شرطية فارتباطها بالتي قبلها ارتباط الشرط بجزائه، فيكون تكريرا للتلازم. وإن جعلت (إن) حرف نفي كانت الجملة مستأنفة لتقرير الامتناع ، أي ما كنا فاعلين لهوا.

{ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } [18].

{ **بَلْ** } للإضراب عن اتخاذ اللهو وعن أن يكون الخلق لعبا، إضراب إبطال وارتقاء، أي بل نحن نعمد إلى باطلكم فنقذف بالحقّ عليه.

القذف: حقيقته رمي جسم على جسم. واستعير هنا لإيراد ما يزيل ويبطل الشيء من دليل أو زجر أو إعدام،

أو تكوين ما يغلب، لأنّ ذلك مثل رمي الجسم المبطَل بشيء يأتي عليه ليتلفه أو يشتّته. فالله يبطل الباطل بالحق بأن يبيّن للنّاس بطلان الباطل على لسان رسله، وبأن أوجد في عقولهم إدراكا للتمييز بين الصلاح والفساد، وبأن يسلّط بعض عباده على المبطلين لاستئصالهم، وبأن يخلق مخلوقات يسخّرها لإبطال الباطل، قال تعالى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } [الأنفال:12].

الدمغ: كسر الجسم الصُّلب الأجوف، وهو هنا ترشيح لاستعارة القذف لإيراد ما يبطل، وهو استعارة أيضا حيث استعير الدمغ لمحق الباطل وإزالته، فالاستعارتان من استعارة المحسوسين للمعقولين.

{ **فَإِذَا** } دل حرف المفاجأة على سرعة محق الحق الباطلَ عند وروده.

الزاهق: المنفلت من موضعه والهالك، وفعله كسمع وضرب، والمصدر الزهوق. وتقدّم في قوله تعالى {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [براءة:55 و 85] وقوله تعالى { إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } [الإسراء:81].

{ **وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** } وعندما انتهت مقارعتهم بالحجج الساطعة لإبطال قولهم في الرسول وفي القرآن ختم الكلام بشتمهم وتهديدهم.

الويل: كلمة دعاء بسوء. وفيها في القران توجيه لأنّ الويل اسم للعذاب.

{ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ [19] يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ [20] }.

عطف على جملة { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا } مبيّنة أنّ كلّ من في السماوات والأرض عباد الله تعالى مخلوقون لقبول تكليفه والقيام بما خلقوا لأجله، وهو تخلّص إلى إبطال الشرك بالحجّة الدامغة بعد الإضافة في إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجيّة القران.

{ **وَلَهُ** } اللام للملك، والمجرور باللام خبر مقدم، و{ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ } مبتدأ، والتقديم للاختصاص، أي له من في السماوات والأرض لا لغيره، وهو قصر إفراد ردّا على المشركين الذين جعلوا لله شركاء في الإلهية.

{ **مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } يعمّ العقلاء وغيرهم، وغُلّب العقلاء لأنّهم المقصود الأوّل.

{ **وَمَنْ عِنْدَهُ** } هم المقرّبون في العوالم المفضّلة وهم الملائكة. يجوز أن يكون معطوفا على { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فيكون من عطف الخاص على العام للاهتمام به. ويجوز أن يكون مبتدأ وجملة { لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } خبرا.

{ **لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** } وعلى كلا الوجهين يكون المقصود منها التعريض بالذين يستكبرون عن عبادة

الله ويعبدون الأصنام، وهم المشركين.

الاستحسار: مصدر كالحُسور وهو التعب، فـ (السين والتاء) فيه للمبالغة في الوصف كالاستكبار، أي لا يصدر منهم التعب الشديد الذي يقتضيه عملهم العظيم. ونفيه من قبيل نفي المقيّد بقيد خرج مخرج الغالب في أمثاله. فلا يفهم من نفي الحسور القوي أنّهم قد يحسرون حسورا ضعيفا. وهذا المعنى قد يعبّر عنه أهل المعاني بأنّ المبالغة في النفي لا في المنفي.

{ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** } بيان، لأنّ من لا يتعب من عمل لا يتركه فهو يواظب عليه.

الليل والنهار: ظرفان. والأصل في الظرف أن يستوعبه الواقع فيه، أي يسبحون في جميع الأوقات.

الفتور: الانقطاع عن الفعل.

{ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ }[21]

{ أَمِ } هذه منقطعة عاطفة الجملة على الجملة عطف إضراب انتقالي، هو انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجّيّة دلالة القرآن إلى إبطال الإشراك. وهذا الانتقال وقع اعتراضا بين جملة { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ } وجملة: {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ}.

وهي تؤذن بأنّ الكلام بعدها مسوق للاستفهام وهو استفهام إنكاري، أنكر عليهم اتخاذهم آلهة.

{ **اتَّخَذُوا** } الضمير عائد إلى المشركين المتبادرين من المقام في مثل هذه الضمائر. وله نظائر كثيرة في القرآن. ويجوز جعله التفاتا عن ضمير { وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }.

{ **آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ** } وصف الآلهة بأنّها من الأرض تهكّم بالمشركين، وإظهار لأفن رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض أو مأخوذة من أجزاء الأرض؛ من حجارة أو خشب، تعريضا بأنّ ما كان مثل ذلك لا يستحقّ أن يكون معبودا، كما قال إبراهيم عليه السلام { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95].

{ **هُمْ يَنْشُرُونْ** } صفة ثانية لـ { آلِهَةً } واقترانها بضمير الفصل يفيد التخصيص أن لا ينشر غير تلك الآلهة. والمراد: إنشار الأموات، أي بعثهم. وهذا مسوق للتهكّم وإدماج، لإثبات البعث بطريقة سوقَ غيره المسمَّى بتجاهل المعارف، إذ أبرز تكذيبهم بالبعث الذي أخبرهم الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم في صورة تكذيبهم استطاعة الله ذلك وعجزه عنه، أي أنّ الأولى بالقدرة على البعث شركاؤهم، فكأنّ وقوع البعث أمر لا ينبغي النزاع فيه فإن نازع فيه المنازعون فإنّما ينازعون في نسبته إلى الله، ويرومون بذلك نسبته إلى شركائهم فأنكرت عليهم هذه النسبة على هذه الطريقة المفعمة بالنكت، والمشركون لم يدَّعوا لآلهتهم أنّها تبعث الموتى ولا هم معترفون بوقوع البعث ولكن نزلوا منزلة من يزعم ذلك إبداعا في الإلزام. ونظيره قوله تعالى في ذكر الآلهة { أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [النحل:21].

{ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [22]

جملة مبيّنة للإنكار الذي في قوله تعالى { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً } ولذلك فصلت ولم تعطف.

وضمير المثنّى عائد إلى { السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، أي لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرى ولم يكن جميع من فيها ملكا لله وعبادا له لفسدت السماوات والأرض واختل نظامها الذي خلقتا به.

وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا أنّ الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي أنّه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له، ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحجّ (لبيك لا شريك لك إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك) وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء.

وبذلك يتبيّن أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض، لأنّ المشركين لم يكونوا ينكرون أنّ الله خالق السماوات والأرض، قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [الزمر:38]، وقال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [الزخرف:9]. فهي **مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع** إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنّها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم.

الفساد: هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيها. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح.

ووجه انتظام هذا الاستدلال أنّه لو تعدّدت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفا بصفات الإلهية المعروفة آثارها، وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرّف، ثم إنّ التعدّد يقتضي اختلاف متعلّقات الإرادات والقدر، لأنّ الآلهة لو استوت في تعلُّقات إرادتها ذلك لكان تعدّد الآلهة عبثا للاستغناء بواحد منهم، ولأنّه إذا حصل كائن فإنّ كان حدوثه بإرادة متعدّدين لزم اجتماع مؤثرين على مؤثر واحد، وهو محال لاستحالة اجتماع علتين تامتين على معلول واحد، فلا جرم أنّ تعدد الآلهة يستلزم اختلاف متعلّقات تصرّفاتها اختلافا بالأنواع، أو بالأحوال، أو بالبقاع، فالإله الذي لا تَنْفُذ إرادته في بعض الموجودات ليس بإله بالنسبة إلى تلك الموجودات التي أوجدها غيره.

فثبت أن التعدّد يستلزم اختلاف الإرادات وحدوث الخلاف. فلا جرم دلّت مشاهدة دوام السماوات والأرض على انتظامها في متعدّد العصور والأحوال على أنّ إلهها واحد غير متعدد.

{ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** } فرّع على هذا الاستدلال إنشاء تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل، أي عمّا يصفونه به من وجود الشريك.

وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة. ووصفه هنا (برب العرش) للتذكير بأنّه انفرد بخلق السماوات وهو شيء لا ينازعون فيه، بل هو خالق أعظم السماوات وحاويها وهو العرش تعريضا بهم، بإلزامهم لازم قولهم بانفراده بالخلق، أن يلزم انتفاء الشركاء له فيما دون ذلك.

{ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** } [23]

الأظهر أن هذه الجملة حال مكمّلة لمدلول قوله تعالى { لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ } كما تقدّم عند قوله تعالى { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ }. فالمعنى أنّ من عنده، وهم المقرّبون من المخلوقات، هم مع قربهم يُسألون عمّا يفعلون ولا يسألونه عمّا يفعل، أي لم يبلغ بهم قربهم إلى حدّ الإدلال عليه وانتصابهم لتعقّب أفعاله.

فلمّا كان الضمير المرفوع بالنيابة عن الفاعل مشعرا بفاعل حذف لقصد التعميم، أي لا يسأل سائل الله تعالى عما يفعل. وكان ممن يشملهم الفاعل المحذوف هم من عنده من المقربين، صحّ كون هذه الجملة حالا من {**وَمَنْ عِنْدَهُ** } [19]، على أنّ جملة { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } تمهيد لجملة { وَهُمْ يُسْأَلُونَ }.

وبهذا تعلم أن ليس ضمير { وَهُمْ يُسْأَلُونَ } براجع إلى ما رجع إليه ضمير { يَصِفُونْ } لأنّ أولئك لا جدوى للإخبار بأنّهم يسألون إذ لا يتردّد في العلم بذلك أحد، ولا براجع إلى { آلِهَة مِنَ الأَرْضِ } لعدم صحّة سؤالهم، وذلك هو ما دعانا إلى اعتبار جملة { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } حالا من { مِنْ عِنْدِهِ }.

السؤال هنا، بمعنى المحاسبة، وطلب بيان سبب الفعل، وإبداء المعذرة عن فعل بعض ما يفعل، وتخلّص من ملام أو عتاب على ما يفعل.

فكونهم يسألون كناية عن العبودية، لأنّ العبد بمظنة المؤاخذة على ما يفعل وما لا يفعل وبمظنة للخطأ في بعض ما يفعل. وفي هذا إبطال لإلهيّة المقربين التي زعمها المشركون الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله تعالى، بطريقة انتفاء خاصية الإله الحقّ عنهم إذ هم يسألون عما يفعلون وشأن الإله أن لا يسأل.

وفي جملة { لا يسأل عما يفعل } كناية عن جريان أفعال الله تعالى على مقتضى الحكمة بحيث إنّها لا مجال فيها لانتقاد منتقد، إذا أتقن الناظر التدبّر فيها أو كُشف له عمّا خفي منها.

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ } [24]

تأكيد لجملة { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ }. أكّد ذلك الإضراب الانتقالي بمثله استعظاما لفظاعته وليُبنى عليه استدلالٌ آخر كما بُني على نظيره السابق، فإنّ الأوّل بُني عليه دليل استحالة من طريق العقل، وهذا بُني عليه دليل بطلان بشهادة الشرائع؛ سابقها ولاحقها.

{ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } لقّن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك، أي هاتوا دليلا على أنّ لله شركاء من شواهد الشرائع والرُّسل.

البرهان: الحجّة الواضحة. وتقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ } [النساء:174].

{ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي } الإشارة إلى مقدّر في الذهن يفسّره الخبر. والمقصود من الإشارة تمييزه وإعلانه بحيث لا يستطيع المخاطب المغالطة فيه ولا في مضمونه، أي أنّ كتب الذكر، أي الكتب الدينية في متناول النّاس فانظروا هل تجدون في أحد منها أنّ لله شركاء، وأنّ الله أذن باتخاذهم آلهة.

{ مَن مَعِي } معيّة المتابعة، أي من معي من المسلمين، أي الذكر المنزّل لأجلكم. أي القرآن.

{ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي } ذكر الأمم الذين هم قبلي، يشمل جميع الكتب السالفة المعروفة: التوراة والزبور والإنجيل وكتاب لقمان.

{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ }، وأضرب عن الاستدلال بأنّه استدلال مضيّع فيهم، أي لا ترجُ منهم اعترافا ببطلان شركهم من دليل العقل المتقدّم، ولا من دليل شهادة الشرائع المذكور ثانيا، فإنّ أكثرهم لا يعلمون الحقّ ولا يكتسبون علمه. أي أنّهم لا يتطلبون علمه كما دلت عليه قرينة التفريع {فَهُمْ مُعْرِضُونَ}، أي معرضون عن النظر في الأدلة التي تدعوهم أنت إلى معرفتها والنظر فيها.

{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ } أسند هذا الحكم إلى أكثرهم لا لجميعهم تسجيلا عليهم بأنّ قليلا منهم يعلمون الحقّ ويجحدونه، أو إيماء إلى أنّ قليلا منهم تهيأت نفوسهم لقبول الحقّ. وتلك هي الحالة التي تعرض للنفس عند هبوب نسمات التوفيق عليها، مثل ما عرض لعمر بن الخطاب حين وجد اللوح عند أخته مكتوبا فيه سورة طه فأقبل على قراءاته بشراشره فما أتمهما حتّى عزم على الإسلام.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }[25]

لمّا أظهر لرسوله أنّ المعاندين لا يعلمون الحقّ لإعراضهم عن تلقّيه أقبل على رسوله صلى الله عليه وسلم بتأييد مقاله الذي لقّنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي } ،

فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرُّسل سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم.

وفيها إظهار لعناية الله تعالى بإزالة الشرك من نفوس البشر وقطع دابره إصلاحا لعقولهم بأن يزال منها أفظع خطل وأسخف رأي.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** } فرّع فيما أوحي إليهم أمره إيّاهم بعبادته على الإعلان بأنّه لا إله غيره.

قرأ الجمهور { إلّا يوحى إليه } بمثناة تحتية مبنيا للنائب، وقرأه حفص وحمزة والكسائي بالنون مبنيا للفاعل.

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ [26] لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [27] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [28] وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [29]}

لمّا فرغ من بيان باطلهم فيما اتخذوا من دون الله آلهة انتقل إلى بيان باطل آخر وهو اعتقادهم أنّ الله اتخذ ولدا. وقد كانت خزاعة من سكّان ضواحي مكّة يزعمون أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ، وشاركهم في هذا الزعم بعض من قريش وغيرهم من العرب. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ } [النحل:57].

الولد: اسم جمع، مفرده مثله، أي اتخذ أولادا، والولد يشمل الذكر والأنثى، والذين قالوا اتخذ الله ولدا أرادوا أنّه اتخذ بنات، كما تقدّم [النحل:57].

{ **سُبْحَانَهُ** } لمّا كان اتخاذ الولد نقصا في جانب واجب الوجود أعقب مقالتهم بكلمة التنزيه، فإنّ اتخاذ الولد إنّما ينشأ عن الافتقار كما قال تعالى { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ }[يونس:68].

{ **بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** } ولمّا كان المراد من قولهم أنّهم زعموا الملائكة بنات الله تعالى أعقب حرف الإضراب عن قولهم بالإخبار بأنّهم عباد دون ذكر المبتدأ للعلم به. والتقدير: بل الملائكة عباد مكرمون، أي أكرمهم الله برضاه عنهم وجعلهم من عباده المقرّبين وفضّلهم على كثير من خلقه الصالحين.

{ **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** }

السبق، حقيقته التقدّم في السير على سائر آخر. وقد شاع إطلاقه مجازا على التقدّم في كل عمل. ومنه السبق في القول، أي التكلّم قبل الغير كما في هذه الآية. ونفيه هنا كناية عن عدم المساواة، أي كناية عن التعظيم والتوقير. ونظيره في ذلك النهي عن التقدّم في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [الحجرات:1]، فإنّ التقدّم في معنى السبق.

وهذا عام يدخل فيه الردّ على زعم المشركين أنّ معبوداتهم تشفع لهم عند الله.

{ **بِأَمْرِهِ** } تقديمه لإفادة القصر، أي لا يعملون عملا إلّا عن أمر الله تعالى، فكما أنّهم لا يقولون قولا لم يأذن فيه، كذلك لا يعملون عملا إلّا بأمره.

{ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** } تقدم نظيره في [البقرة:255].

{ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** } تخصيص بالذكر ليعمّ ما شمله قوله تعالى { لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ } اهتماما بشأنه، لأنّه ممّا كفروا بسببه، إذ جعلوا الآلهة شفعاء لهم عند الله. أي ارتضى الشفاعة له بأن يأذن للملائكة أن يشفعوا له، إظهارا لكرامتهم عند الله، أو استجابة لاستغفارهم لمن في الأرض، كما قال تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } [الشورى:5].

{ **وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** } ثمّ زاد تعظيمهم ربَّهم تقريرا ، أي هم يعظّمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره. و(مِن) للتعليل، أي وهم لأجل خشيته.

الإشفاق: توقّع المكروه والحذر منه.

{ **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } الشرط على سبيل الفرض، أي لو قاله واحد منهم، مع العلم بأنّهم لا يقولونه لأجل ما تقرّر من شدة خشيتهم. فالمقصود من هذا الشرط التعريض بالذين ادّعوا لهم الإلهية، بأنّهم ادعوا لهم ما لا يرضونه ولا يقولونه، وأنّهم ادعوا ما يوجب لقائله نار جهنّم.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } صرّح بما اقتضاه التعريض، أي مثل ذلك الجزاء، وهو جهنم، يجزي المثبتين لله شريكا.

الظلم: الشرك.

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ }[30] .

{ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** }

قرأ الجمهور { أولم } بواو بعد الهمزة وهي واو العطف، فالجملة معطوفة عطف الاستدلال على الخلق الثاني بالخلق الأوّل وما فيه من العجائب. وقرأ ابن كثير { ألم ير } بدون واو عطف. والاستفهام على كلتا القراءتين إنكاري، توجّه الإنكار على إهمالهم للنظر.

الرؤية: تحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية. والاستفهام صالح لأن يتوجّه إلى كلتيهما.

الرتق: الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء.
الفتق: ضدّه، وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء.
{ **كَانَتَا** } يحتمل أن تكونا معا رتقا واحدا بأن تكون السماوات والأرض جسما ملتئما متصلا. ويحتمل أن تكون كل سماء رتقا على حدتها، والأرض رتقا على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى { فَفَتَقْنَاهُمَا }.
فإن اعتبرنا الرؤية بصرية فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض، والفتق هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلا من السماء، وحين يرى انشقاق الأرض بماء المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفافها، وكل ذلك مشاهد مرئي دال على تصرّف الخالق، وفي هذا المعنى جمع بين العبرة والمنّة.
وإن اعتبرنا الرؤية علمية احتمل أن يراد بالرتق مثل ما أريد به على اعتبار كون الرؤية بصرية، وكان الاستفهام أيضا إنكاريا متوجّها إلى إهمالهم التدبّر في المشاهدات. واحتمل أن يراد بالرتق معان غير مشاهدة ولكنّها مما ينبغي طلب العلم به، لما فيه من الدلائل على عظم القدرة وعلى الوحدانية، فيحتمل أن يراد بالرتق والفتق حقيقتاهما، أي الاتصال والانفصال.
ويجوز أن يكون على معنى الجملة، أي كانت السماوات والأرض رتقا واحدا، أي كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت السماوات عن الأرض كما أشار إليه قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } [هود:7].
ويجوز على هذا الاحتمال أن يكون الرتق والفتق على التوزيع، أي كانت السماوات رتقا في حدّ ذاتها وكانت الأرض رتقا في حدّ ذاتها ثم فتق الله السماوات وفتق الأرض، وهذا كقوله تعالى { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [فصلت:9 – 12].
وعلى هذين الاحتمالين يكون الاستفهام تقريريا عن إعراضهم عن استماع الآيات التي وصفت بدء الخلق ومشوبا بالإنكار على ذلك.
ويحتمل أن يراد بالرتق العدم وبالفتق الإيجاد.
والظاهر أنّ الآية تشمل جميع ما يتحقّق فيه معاني الرتق والفتق، إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعا، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعمّ كلّ النّاس، وعلى عبرة خاصة بأهل النظر والعلم، فتكون من معجزات القرآن العلمية التي أشرنا إليها في مقدمات هذا التفسير.

{ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ }

زيادة استدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار وفيه عبرة للنّاس في أكثر أحواله. وهو عبرة للمتأمّلين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات. وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان، فإنّه لا يتكوّن إلّا من الرطوبة ولا يعيش إلّا ملابسا لها، فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة، ولذلك كان استمرار الحمّى مفضيا إلى الهزال ثم إلى الموت.

{ **وَجَعَلْنَا** } هنا بمعنى خلقنا، متعدّية إلى مفعول واحد لأنّها غير مراد منها التحوّل من حال إلى حال.

{ **أَفَلَا يُؤْمِنُونْ** } أنكر عليهم عدم إيمانهم الإيمان الذي دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإيمان بوحدانية الله.

{ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [31]

هذا من آثار فتق الأرض في حدّ ذاتها إذ أخرج الله منها الجبال وذلك فتق تكوين، وجعل فيها الطرق، أي الأرضين السهلة التي يتمكّن الإنسان من المشي فيها عكس الجبال.

الرواسي: الجبال، لأنّها رست في الأرض، أي رسخت فيها.

المَيْد: الاضطراب. وتقدم في [النحل:15]. وفيها أن معنى { أَنْ تَمِيدَ } أن لا تميد، أو لكراهة أن تميد.

ولمّا كان { **فِجَاجاً** } معناه واسعة كان في المعنى وصفا للسبيل، فلمّا قُدّم على موصوفه انتصب على الحال. والمقصود إتمام المنّة بتسخير سطح الأرض ليسلكوا منها طرقا واسعة ولو شار لجعل مسالك ضيقة بين الجبال كأنّها الأدوية.

الفجاج: جمع فجّ، وهو الطريق الواسع.

السبل: جمع سبيل، وهو الطريق مطلقا.

{ **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله فإنّ هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة. ويجوز أن يراد بالاهتداء في السير، أي جعلنا سبلا واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم، فتكون هذه منّة أخرى وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان ويصلح أحواله.

{ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ }[32]

لمّا ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه، إلّا أنّ حالة خلق الأرض فيها منافع للنّاس بيّنة، فعقّب ذكرها بالامتنان بقوله { أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } وبقوله { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }.

وأمّا حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان، ولكنّه ذكر إعراضهم عن التدبّر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعقّب بقوله تعالى { وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ }، والمنّة مدمجة، وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتُهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطّل منافعها.

السقف: حقيقته غطاء فضاء البيت الموضوع على جدرانه، ولا يقال على غطاء الخباء والخيمة، وأطلق السقف على السماء على طريقة التشبيه البليغ، أي جعلناها كالسقف، لأنّ السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض، قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [الرعد:2].

{ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ } في موضع الحال. وآيات السماء ما تشتمل عليه السماء من الشمس والقمر والكواكب والشهب وسيرها وشروقها وغروبها وظهورها وغيبتها، وابتناء ذلك على حساب قويم وترتيب عجيب، وكلّها دلائل على الحكمة البالغة فلذلك سماها آيات.

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }[33]

ولكون المنّة والعبرة في أيجاد نفس الليل والنهار، ونفس الشمس والقمر، لا في إيجادها على حالة خاصة، جيء هنا بفعل الخلق لا بفعل الجعل.

والليل ظلمة ترجع لجرم الأرض عند انصراف الأشعة عن الأرض. وأمّا خلق النهار فهو بخلق الشمس ومن توجه أشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة الأرضية، ولذلك كان لذكر خلق الشمس عقب ذكر خلق النهار مناسبة قويّة، للتنبيه على منشأ خلق النهار. وأمّا ذكر خلق القمر فلمناسبة خلق الشمس، وللتذكير بمنّة إيجاد ما ينير على النّاس بعض النور في بعض أوقات الظلمة. وكّل ذلك من المنن.

{ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّه لمّا ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكرا مجملا في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصّلا في بعض آخر وهو الشمس والقمر، كان المقام مثيرا في نفوس السامعين سؤالا عن كيفية سيرها وكيف لا يقع لها اصطدام أو يقع منها تخلّف عن الظهور في وقته المعلوم، فأجيب بأنّ كلّ المذكورات له فضاء يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره.

الفلك: فسّره أهل اللغة بأنّه مدار النجوم، وكذلك فسّره المفسّرون لهذه الآية ولم يذكوا أنّه مستعمل في هذا المعنى في كلام العرب. ويغلب على ظني أنه **من مصطلحات القرآن** ومنه أخذه علماء الإسلام للتعبير عن الدوائر المفترَضة التي يُضبط بها سير كوكب من الكواكب وخاصة سير الشمس وسير القمر. **والأظهر أن القرآن نقله من فلك البحر** وهو الموج المستدير بتنزيل اسم الجمع منزلة المفرد.

والأصل الأصيل في ذلك كله **فَلْكَة المَغْزِل** (بفتح الفاء وسكون اللام) وهي خشبة مستديرة في أعلاها مسمار مثني يدخل فيه الغزل ويدار لينفتل الغزل.

{ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ** } ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية أنّ فيه مُحَسِّن بديعي فإنّ حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها مع خفة التركيب ووفرة الفائدة وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة، ومثله قوله تعالى { وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ } بطرح واو العطف، وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف، وهذا النوع سماه السكاكي (المقلوب المستوي) وجعله من أصناف نوع سماه القلب.

{ **يَسْبَحُونَ** } الضمير عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر. وأجري عليها ضمير جماعة الذكور باعتبار تذكير أسماء بعضها مثل القمر والكوكب. والجملة في موضع الحال.

السبح: مستعار للسير في متسع لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض، وهو تقريب لسير الكواكب في الفضاء العظيم.

{ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ } [34]

عُنيت الآيات من أوّل السورة باستقصاء مطاعن المشركين في القرآن ومن جاء به بقولهم { أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } وقولهم { أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } وكان من جملة أمانيهم لمّا أعياهم اختلاق المطاعن أن كانوا يتمنّون موت محمد صلى الله عليه وسلم أو يرجونه أو يدبّرونه، قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30] وقال تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ } [الأنفال:30].

وقد دلّ على أنّ هؤلاء هم المقصود من الآية.

{ **فَهُمُ الْخَالِدُونَ** } وجّه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنّهم خالدون.

وفي الآية إيماء إلى أن الذين لم يقدّر الله لهم الإسلام ممّن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يشمتون به، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت حتّى أهلك الله رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيّتهم إلى الإسلام.

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }[35]

الجملة السابقة { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ } للرد على المشركين وهذه لتعليم المؤمنين.

{ **نَفْسٍ** } النفوس الحالة في الأجساد كالإنسان والحيوان. ولا يدخل فيه الملائكة، لأنّ إطلاق النفوس عليهم غير متعارف في العربية بل هو اصطلاح الحكماء، وهو لا يطلق عندهم إلّا مقيّدا بوصف المجردات.

وأمّا إطلاق النفس على الله تعالى فمشاكلة، إمّا لفظية كما في قوله تعالى { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } [المائدة:116]، وإمّا تقديرية كما في قوله تعالى { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } [آل عمران:30].

{ **ذَائِقَةُ** } استعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأنّ الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى الباطن. وذوق الموت ذوق آلام مقدّماته وأمّا بعد حصوله فلا إحساس للجسد.

{ **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** } عطف على الجملة المعترضة بمناسبة أنّ ذوق الموت يقتضي سبق الحياة، والحياة مدة يعتري فيها الخير والشر جميع الأحياء، فعلَّم الله تعالى المسلمين أنّ الموت مكتوب على كل نفس حتّى لا يحسبوا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مخلد. وقد عرض لبعض المسلمين عارض من ذلك، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال يوم انتقال النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى: " ليرجعن رسول الله فيقطع أيدي قوم وأرجلهم " حتّى حضر أبو بكر رضي الله عنه وثبّته الله في ذلك الهول، فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقبّله وقال: طبت حيا وميتا والله لا يجمع الله عليك موتتين.

وأعقب الله ذلك بتعليمهم أنّ الحياة مشتملة على خير وشر وأن الدنيا دار ابتلاء.

البلوى: الاختبار. وتقدّم غير مرة. وإطلاق البلوى على ما يصدر من النّاس من تجلّد ووهن وشكر وكفر، على ما ينالهم من اللذّات والآلام ممّا بنى الله تعالى عليه نظام الحياة، إطلاق مجازي، لأنّ ابتناء النظام عليه دلّ على اختلاف أحوال النّاس في تصرّفهم فيه وتلقيهم إيّاه. أشبه اختبار المختبر ليعلم أحوال من يختبرهم.

{ **فِتْنَةً** } منصوب على المفعولية المطلقة توكيدا لفعل { نَبْلُوكُم } لأنّ الفتنة ترادف البلوى.

{ **وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** } إثبات للبعث، فجمعت الآية الموت والحياة والنشر.

وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وإفادة تقوّي الخبر. وأمّا احتمال القصر فلا يقوم هنا، إذ ليس ضدّ ذلك باعتقاد للمخاطبين كيفما افترضتهم.

{ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ } [36]

هذا وصف آخر لما يؤذي به المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه، فهو أخصّ من أذاهم إيّاه في مغيبه، فإذا رأوه يقول بعضهم لبعض { أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ }.

الهُزُؤ: (بضم الهاء وضم الزاي) مصدر هزأ به، إذا جعله للعبث والتفكّه. ومعنى اتّخاذه هزوا أنّهم يجعلونه

مستهزأ به، فهذا من الإخبار بالمصدر للمبالغة، أو هو مصدر بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق.

{ **أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ** } مبيّنة لجملة { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً } فهي في معنى قول محذوف دلّ عليه { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً } لأنّ الاستهزاء يكون بالكلام.

والاستفهام مستعمل في التعجيب، واسم الإشارة مستعمل في التحقير، بقرينة الاستهزاء.

{ **يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ** } يذكرهم بسوء، بقرينة المقام، لأنّهم يعلمون ما يذكر به آلهتهم ممّا يسوءهم. وكلامهم مسوق مساق الغيظ والغضب، ولذلك أعقبه الله بجملة الحال:

{ **وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ** }، أي: يغضبون من أن تذكر آلهتهم بما هو كشف لكنهها المطابق للواقع في حال غفلتهم عن ذكر الرحمان الذي هو الحقيق بأن يذكروه. فالذكر الثاني مستعمل في الذكر بالثناء والتمجيد بقرينة المقام. والأظهر أنّ المراد بذكر الرحمان هنا القرآن، أي: **الذكر الوارد من الرحمان**.

ومعنى كفرهم بذكر الرحمان إنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأيضا كفرهم بما جاء به القرآن من إثبات البعث.

{ **الرَّحمَن** } وعبّر عن الله تعالى بهذا الاسم تورُّكًا عليهم إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمان اسما لله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً } [الفرقان:60].

{ **هُمْ كَافِرُونْ** } ضمير الفصل يجوز أن يفيد الحصر، أي: هم كافرون بالقرآن دون غيرهم ممّن أسلم من أهل مكّة وغيرهم من العرب، لإفادة أنّ هؤلاء باقون على كفرهم مع توفّر الآيات والنذر.

ويجوز أن يكون الفصل لمجرّد التأكيد تحقيقا لدوام كفرهم مع ظهور ما شأنه أن يقلعهم عن الكفر.

{ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ }[37]

{ **خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ** } معترضة بين جملة { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } وبين جملة { سَأُرِيكُمْ آيَاتِي } ، جعلت مقدّمة لجملة { سَأُرِيكُمْ آيَاتِي }.

{ **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي** } استئناف بياني، جاء معترضا بين الجمل التي تحكي أقوال المشركين وما تفرّع عليها. فالخطاب إلى المسلمين الذين كانوا يستبطئون حلول الوعيد الذي توعّد الله تعالى به المكذّبين.

ومناسبة موقع الجملتين أنّ ذكر استهزاء المشركين بالنبيّ عليه الصلاة والسلام يُهيج حنق المسلمين عليهم فيودّوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلا فخوطبوا بالتريث وأن لا يستعجلوا ربّهم لأنّه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد. وأهمها مصلحة إمهال القوم حتّى يدخل منهم كثير في الإسلام.

العَجَل: السرعة. و**خلق الإنسان منه** استعارة لتمكّن هذا الوصف من جبلّة الإنسانية. لأنّ ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبّة والكراهية. فإذا فكر العقل في شيء محبوب استعجل حصوله

بداعي المحبّة، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهيّة، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين، فلا جرم كان الإنسان عجولا بالطبع. ونحوه قوله تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً } [الإسراء:11] وقوله تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } [المعارج:19].

وأمّا من فسّر العجل بالطين وزعم أنّها كلمة حميرية فقد أبعد وما أسعد.

فالآية وعد بأنّهم سيرون آيات الله في نصر الدين، وذلك بما حصل يوم بدر من النصر وهلك أئمة الشرك وما حصل بعده من أيام الإسلام التي كان النصر فيها عاقبة المسلمين.

وتفرّع على هذا الوعد نهي عن طلب التعجيل، أي: عليكم أن تكلوا ذلك إلى ما يؤقّته الله ويؤجله، ولكلّ أجل كتاب. فهو نهي عن التوغل في هذه الصفة وعن لوازم ذلك التي تفضي إلى الشك في الوعيد.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [38] لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ [39] بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ [40] }

نشأ عن ذكر استبطاء المسلمين وعد الله بنصرهم على الكافرين ذكر نظيره في جانب المشركين أنّهم تساءلوا عن وقت هذا الوعد تهكّما. وهذا معبّر عن مقالة أخرى من مقالاتهم التي يتلقّون بها دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم استهزاء وعنادا. وبهذا الاعتبار تكون متّصلة بجملة { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً }.

وخاطبوا بضمير الجماعة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ولأجل هذه المقالة كان المسلمون يستعجلون وعيد المشركين.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } استفهامهم استعملوه في التهكّم مجازا مرسلا بقرينة إن كنتم صادقين لأنّ المشركين موقنين بعدم حصول الوعد.

الوعد: ما توعّدهم به القرآن من نصر رسوله واستئصال معانديه. وإلى هذه الآية ونظيرها يُنظر قول النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين وقف القليب الذي دفنت فيه جثث المشركين وناداهم بأسمائهم { قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً }، أي: ما وعدنا ربّنا، وما وعدكم من الهلاك وعذاب النار.

{ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا } مستأنفة للبيان، لأنّ المسلمين يترقّبون ماذا يكون جوابهم عن تهكّمهم. وحاصل الجواب أنّه واقع لا محالة ولا سبيل إلى إنكاره.

{ **حِينَ** } اسم منصوب على المفعولية لا على الظرفية، فهو من أسماء الزمان المتصرّفة، أي لو علموا وقته وأيقنوا بحصوله لما كذّبوا به وبمن أنذرهم به ولما عدّوا تأخيره دليلا على تكذيبه.

{ **لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ** } ضمير { يَكُفُّونَ } فيه وجهان:

<u>الوجه الأوّل</u>: بدا لي أن يكون الضمير عائدا إلى ملائكة العذاب فمعاد الضمير معلوم من المقام، ونظائر هذا المعاد كثيرة في القرآن وكلام العرب. ومعنى الكف على هذا الوجه: الإمساك وهو حقيقته، أي: حين لا يمسك الملائكة اللفح بالنار عن وجود المشركين. وتكون هذه الآية في معنى قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الأنفال:50]، فإنّ ذلك ضرب بسياط من نار.

{ **وُجُوهِهِمُ / ظُهُورِهِمْ** } وذكرها للتنكيل بهم وتخويفهم، لأنّ الوجوه أعزّ الأعضاء على الناس. ولأنّ الأدبار يأنف الناس من ضربها لأنّ ضربها إهانة وخزي، ويسمّى الكسع.

<u>الوجه الثاني</u>: أن يكون ضمير { يَكُفُّونَ } عائدا إلى الذين كفروا، والكفّ بمعنى الدرء والستر مجازا بعلاقة اللزوم، أي: حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم. أي حين تحيط بهم النار مواجَهة ومدَابرة. وذكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهّم أنّهم قد يكفونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم.

وهذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميع من لدينا كتبهم من المفسّرين. **والوجه الأوّل أرجح معنى**، لأنّه المناسب مناسبة تامة للكافرين الحاضرين المقرَّعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك.

{ **وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** } عطف على { لا يَكُفُّونَ }، أي: لا يُكفّ عنهم نفح النّار، أو لا يدفعون عن أنفسهم نفح النار، ولا يجدون لهم ناصرا ينصرهم.

{ **بَلْ** } للإضراب الانتقالي من تهويل ما أُعدّ لهم، إلى التهديد بأنّ ذلك يحلّ بهم بغتة وفجأة، وهو أشدّ على النفوس لعدم التهيّؤ له والتوطن عليه. وإن كان المراد عذاب الآخرة فنفي الناصر تكذيب لهم في قولهم {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }.

{ **تَأْتِيهِمْ** } الفاعل ضمير عائد إلى الوعد. وإنما قرن الفعل بعلامة المؤنث على الوجه الأوّل المتقدّم في قوله تعالى { حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ} باعتبار الوقعة أو نحو ذلك، وهو إيماء إلى أنّ ذلك سيكون فيما اسمه لفظ مؤنث مثل الوقعة والغزوة. وأمّا على الوجه الثاني المتقدّم فلتأويل الوعد بالساعة أو القيامة أو الحين في معنى الساعة.

البغتة: المفاجأة، وهي حدوث شيء غير مترقّب.

البهت: الغلب المفاجئ المعجز عن المدافعة، يقال: بهته فبهت. قال تعالى {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} [البقرة:258].

{ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ** } تفريع، أي: لا تؤخّر عنهم. وفيه تنبيه لهم إلى أُنّهم أنظروا زمنا طويلا لعلّهم يقلعون عن ضلالهم.

وما أشدّ انطباق هذه الهيئة على ما حصل لهم يوم بدر قال تعالى { وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } [الأنفال:42]. ولا شك في أن المستهزئين مثل أبي جهل وشيبة ابني ربيعة وعتبة ابن ربيعة وأمية بن خلف، كانوا ممّن بغتهم عذاب السيف وكان أنصارهم من قريش ممّن بهتهم ذلك.

وأماّ إذا أريد بضمير { تَأْتِيهِمْ } الساعة والقيامة فهي تأتي بغتة لمن هم من جنس المشركين أو تأتيهم النفخة والنشرة.

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [41]

تطمين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتسلية له. ومناسبة عطفها على جملة { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ }إلى آخرها ظاهرة. وقد تقدّم نظير هذه الآية في أوائل سورة الأنعام.

{ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ [42] أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ [43] بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حتّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ[44] }.

بعد أن سُلِّيَ الرسول صلى الله عليه وسلم على استهزائهم بالوعيد أُمر أن يذكّرهم بأنّ غرورهم بالإمهال من قبل الله رحمة منه بهم كشأنه في الرحمة بمخلوقاته، وبأنّهم إذا نزل بهم عذابه لا يجدون حافظا.

والاستفهام إنكار وتقريع، أي: لا يكلؤكم منه أحد، فكيف تجهلون ذلك؟ تنبيها لهم إذ نسوا نعمه.

{ **بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } لاستيعاب الأزمنة كأنّه قيل: من يكلؤكم في جميع الأوقات. وقدّم الليل لأنّه زمن المخاوف.

{ **مِنَ الرَّحمَن** } من بأسه وعذابه.

وجيء بعد هذا التفريع بإضرابات ثلاثة انتقالية على سبيل التدريج الذي هو شأن الإضراب:

{ **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ** } الإضراب الأوّل، وهو ارتقاء من التقريع المجعول للإصلاح إلى التأييس من صلاحهم بأنّهم عن ذكر ربهم معرضون فلا يُرجى منهم الانتفاع بالقوارع.

{ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا** } ثم أضرب إضرابا ثانيا بـ (أم) المنقطعة التي هي أخت (بل) مع دلالتها على الاستفهام لقصد التقريع، أي: ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا. وهذا إبطال لمعتقدهم شفاعة الأصنام.

{ **لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ** } مستأنفة معترضة. والضمير عائد إلى آلهة، أجري عليهم ضمير العقلاء مجاراة لكلامهم. والمعنى: كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

{ **يُصْحَبُونَ** } إمّا مضارع صحبه إذا خالطه ولازمه، والصحبة تقتضي النصر والتأييد، فيجوز أن يكون الفاعل مرادا به الله تعالى، أي: لا يصحبهم الله، أي: لا يؤيدهم. وهذا نفي لما اعتقده المشركون بقولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }.

ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف محذوفا لقصد العموم، أي لا يصحبهم صاحب، أي: لا يجيرهم جار.

وإمّا مضارع أصحبه المهموز بمعنى حفظه ومنعه، أي: من السوء.

{ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حتّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** } ثم أضرب إضرابا ثالثا انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إيّاهم بالعذاب فجرّأهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد، أي: فما هم مستمرون فيه من النعمة إنّما هو تمتيع وإمهال كما متّعنا آباءهم من قبل.

وقد وجّه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى { قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ }، ثم أعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأنّ ما وجّه إليهم من إنكار أن يكلأهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرياء بالإعراض عنهم كما في قوله { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حتّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا } [يونس:22].

{ **هؤلاء** } الإشارة لحاضرين في الأذهان وهم كفّار قريش. وقد استقريت أنّ القرآن إذا ذُكرت فيه هذه الإشارة دون وجود مشار إليه في الكلام فهو يعني بها كفار قريش.

{ **أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** } تفريع على إحالتهم نصر المسلمين وعدّهم تأخير الوعد به دليلا على تكذيب وقوعه حتّى قالوا { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } تهكّما وتكذيبا. فلمّا أنذرهم بما سيحلّ بهم في قوله تعالى { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ - إلى قوله تعالى - مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } فرّع على ذلك كلّه استفهاما تعجيبيّا من عدم اهتدائهم إلى أمارات اقتران الوعد بالموعود استدلالا على قربه بحصول أماراته.

الرؤية: علمية، وسدّت الجملة مسدّ المفعولين لأنّها في تأويل مصدر.

الإتيان: تمثيل بحال الغازي الذي يسعى إلى أرض قوم فيقتل ويأسر كما تقدم في قوله تعالى { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ }.

{ **الْأَرْضَ** } تعريف العهد، أي: أرض العرب، كما في قوله تعالى { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ } [يوسف:80]، أي: أرض مصر.

النقصان: تقليل كمية شيء.

الأطراف: جمع طرف بفتح الطاء والراء. وهو ما ينتهي به الجسم من جهة من جهاته. وضدّه الوسط.

والمراد: نقصان عدد المشركين بدخول كثير منهم في الإسلام ممّن أسلم من أهل مكة، ومن هاجر منهم إلى الحبشة. ومن أسلم من أهل المدينة إن كانت الآية نزلت بعد إسلام أهل العقبة الأولى أو الثانية، فكان عدد المسلمين يومئذ يتجاوز المائتين. وتقدّم نظير هذه الجملة في ختام سورة الرعد.

{ **أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** } مفرَّعة على جملة التعجيب من عدم اهتدائهم إلى هذه الحالة. والاستفهام إنكاري، أي: فكيف يحسبون أنّهم غلبوا المسلمين وتمكنوا من الحجّة عليهم.

واختيار الجملة الاسمية دون الفعلية لدلالتها بتعريف جزأيها على القصر، أيّ ما هم الغالبون بل المسلمون.

{ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ } [45]

استئناف ابتدائي مقصود منه الإتيان على جميع ما تقدّم من استعجابهم بالوعد تهكّما { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ }، ومن التهديد الذي وُجِّه إليهم بقوله تعالى { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا }، ومن تذكيرهم بالخالق وتنبيههم إلى بطلان آلهتهم بقوله تعالى { قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - إلى قوله تعالى - حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ}، ومن الاحتجاج عليهم بظهور بوارق نصر المسلمين، واقتراب الوعد بقوله تعالى { أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا }، عُقِّب به أمر الله رسوله أن يخاطبهم بتعريف كنه دعوته، وهي قصره على الإنذار بما سيحلّ بهم في الدنيا والآخرة إنذارا من طريق الوحي المنزّل عليه من الله تعالى وهو القرآن.

وهذا الكلام يستلزم متاركة لهم بعد الإبلاغ في إقامة الحجّة عليهم.

{ **وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ** } عطف استئناف على استئناف، لأنّ التذييل من قبيل الاستئناف.

والأظهر أن الكلام مخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم وليس من جملة المأمور بأن يقوله لهم.

{ **الصُّمَّ** } التعريف للاستغراق، مستعار لعدم الانتفاع بالكلام المفيد. وتقدّم في قوله تعالى { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ } [البقرة:18].

ودخل في عمومه المشركون المعرضون عن القرآن وهم المقصود من سوق التذييل ليكون دخولهم في الحكم بطريقة الاستدلال بالعموم على الخصوص.

وتقييد عدم السماع بوقت الإعراض عند سماع الإنذار لتفظيع إعراضهم عن الإنذار لأنّه إعراض يفضي بهم إلى الهلاك فهو أفظع من عدم سماع البشارة أو التحديث، ولأن التذييل مسوق عقب إنذارات كثيرة.

{ **الدُّعَاءَ** } واختير لفظ الدعاء لأنّه المطابق للغرض إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم داعيا.

{ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [46]

عطف على الآية السابقة والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: أنذرهم بأنّهم سيندمون عندما ينالهم أوّل العذاب في الآخرة. وهذا انتقال من إنذارهم بعذاب الدنيا إلى إنذارهم بعذاب الآخرة.

وأكد الشرط بلام القسم لتحقيق وقوع الجزاء.

المسّ: اتصال بظاهر الجسم.

النفحة: العطيّة، يقال نفحه بشيء إذا أعطاه. وفي مادة النفح أنّه عطاء قليل، وبضميمة بناء المرّة فيها، والتنكير، وإسناد المسّ إليها دون فعل آخر أربع مبالغات في التقليل.

الويل: تقدّم عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة79] وعند قوله تعالى { وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [إبراهيم:2].

{ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } إنّا كنّا معتدين على أنفسنا إذ أعرضنا عن التأمّل في صدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. فالظلم في هذه الآية مراد به الإشراك.

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [47]

يجوز أن تكون عطف على { وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ } لمناسبة قولهم { إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } ، ولبيان أنّهم مجازون على جميع ما أسلفوه من الكفر وتكذيب الرسول، بيانا بطريق ذكر العموم بعد الخصوص في المجازين، فشابه التذييل من أجل عموم قوله تعالى { فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً }.

ويجوز أن تكون حال، وتكون نون المتكلّم المعظم التفاتا لمناسبة الجزاء للأعمال.

ويجوز أن تكون الجملة معترضة وتكون الواو اعتراضية.

الوضع: حقيقته حطّ الشيء ونصبه في مكان، وهو ضدّ الرفع. ويطلق على صنع الشيء وتعيينه للعمل به وهو في ذلك مجاز.

الميزان: اسم آلة الوزن. وله كيفيات كثيرة تختلف باختلاف العوائد.

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ } وقد اختلف علماء السلف في المراد من الموازين هنا: أهو الحقيقة أم المجاز:

فذهب الجمهور إلى أنّه حقيقة وأنّ الله يجعل في يوم الحشر موازين لوزن أعمال العباد تشبه الميزان المتعارف. فمنهم من ذهب إلى أنّ لكل أحد من العباد ميزانا خاصا به توزن به أعماله، وهو ظاهر صيغة الجمع في هذه الآية وفي قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ } [القارعة:7/6].

ومنهم من ذهب إلى أنه ميزان واحد توزن فيه أعمال العباد واحدا فواحدا.
وعلى هذا التفسير يكون { **نَضَعُ** } مستعملا في معناه الحقيقي وهو النصب والإرصاد.
وذهب مجاهد وقتادة والضحاك وروي عن ابن عباس أيضا أنّ الميزان الواقع في القرآن مثلٌ للعدل في الجزاء كقوله { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ } [الأعراف:8]، ومال إليه الطبري. قال في الكشاف: " الموازين الحساب السويّ والجزاء على الأعمال بالنصفة من غير أن يظلم أحد ".
فهو مستعار للعدل في الجزاء لمشابهته للميزان في ضبط العدل في المعاملة كقوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ } [الحديد:25]. و يكون { **نَضَعُ** } ترشيح ومستعار للظهور.
وذهب الأشاعرة إلى أخذ الميزان على ظاهره. وللمعتزلة في ذلك قولان: حقيقة و مجاز.
ويظهر لي أنّ التزام صيغة جمع الموازين في الآيات الثلاث التي ذكر فيها الميزان يرجّح أنّ المراد بالوزن فيها **معناه المجازي** وأنّ بيانه بقوله { القسط } في هذه الآية يزيد ذلك ترجيحا.
وتقدم ذكر الوزن في قوله تعالى { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ } [الأعراف:8].
القِسْط: (بكسر القاف وسكون السين) العدل، مصدر أقسط، ويقال: القسطاس، وهو كلمة معرّبة من اللغة اللاتينية. وقد نقل البخاري ذلك عن مجاهد. وتقدّم في قوله { قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران:18].
{ **لِيُومِ القِيَامَةِ** } اللام تحتمل أن تكون للعلّة مع تقدير مضاف، أي: لأجل يوم القيامة، أي: الجزاء في يوم القيامة، وتحتمل أن تكون للتوقيت بمعنى (عند) التي هي للظرفية الملاصقة، أي: نضع الموازين عند يوم القيامة .كما يقال: كتب لثلاث خلون من شهر كذا، وكقوله تعالى { فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ }.
{ **فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً** } تفريع على وضع الموازين، تفريع العلّة على المعلول أو المعلول على العلّة.
الظلم: ضدّ العدل، ولذلك فرّع نفيه على إثبات وضع العدل.
شيئا: منصوب على المفعولية المطلقة، أي شيئا من الظلم. ووقوعه في سياق النفي دلّ على تأكيد العموم، أي: شيئا من الظلم. ووقوعه في سياق النفي دلّ على تأكيد العموم من فعل { تُظْلَمُ } الواقع أيضا في سياق النفي، أي: لا تظلم بنقص من خير استحقّته ولا بزيادة شيء لم تستحقّه، فالظلم صادق بالحالين والشيء كذلك.
{ **وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ** } في موضع الحال. و(إنْ) وصلية دالة على أنّ مضمون ما بعدها من شأنه أن يُتوهم تخلّف الحكم عنه فإذا نصّ على شمول الحكم إيّاه علم أنّ شموله لما عداه بطريق الأولى.
وقرأ الجمهور { مِثْقَالَ } بالنصب على أنّه خبر (كان) وأنّ اسمها ضمير عائد إلى { شَيْئًا }. وقرأ نافع وأبو جعفر { مِثْقَالُ } مرفوعا على أنّه فاعل.
ومعنى القراءتين متحد المآل، وهو: أنّه إن كان لنفس مثقال حبّة من خردل من خير أو من شر يؤت بها في

ميزان أعمالها ويجاز عليها.
المثقال: ما يماثل شيئا في الثقل، أي الوزن، فمثقال الحبة: مقدارها.
الحبة: الواحدة من ثمر النبات الذي يخرج من السنبل أو في المزادات التي كالقرون أو العبابيد كالقطاني.
الخردل: حبوب دقيقة كحب السمسم هي بزور شجر يسمّى عند العرب الخردل. واسمه في علم النبات (سينابيس). وهو صنفان بري وبستاني، وينبت في الهند ومصر وأوروبا.
{ **أَتَيْنَا بِهَا** } على القراءة الأولى مستأنفة، وعلى القراءة الثانية إمّا جواب للشرط أو مستأنفة وجواب الشرط محذوف. وضمير { بها } عائد إلى { مِثْقَالَ حَبَّةٍ } .
{ **وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** } أي: كفى الناس أنّنا نحن الحاسبين، فهم لا يتطلّعون إلى حاسب آخر يعدل مثلنا. وهذا تأمين للنّاس، وفيه تحذير من العذاب وترغيب في الثواب.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ [48] الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ [49] وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [50] }.
عطف على { بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ - إلى قوله تعالى - فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } لإقامة الحجّة على المشركين بالدلائل العقلية والإقناعية والزجرية، ثمّ بدلائل شواهد التاريخ وأحوال الأمم السابقة الشاهدة بتنظير ما أوتيه النبيّ صلى الله عليه وسلم بما أوتيه سلفه من الرسل والأنبياء، وأنّه ما كان بدعا من الرّسل في دعوته إلى التوحيد، تلك الدعوة التي كذّبه المشركون لأجلها، مع ما تخلّل ذلك من ذكر عناد الأقوام، وثبات الأقدام، والتأييد من الملك العلاّم، وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه بأنّ تلك سنّة الرّسل السابقين كما قال تعالى { سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا } [الإسراء:77].
{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ** } وابتدئ بذكر موسى وأخيه مع قومهما لأنّ أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفهم العرب، ولأنّ أثر إتيان موسى عليه السلام بالشريعة هو أوسع أثر لإقامة نظام أمّة يلي عظمة شريعة الإسلام.
وافتتاح القصة بلام القسم المفيدة للتأكيد لتنزيل المشركين في جهل بعضهم بذلك وذهول بعضهم عنه وتناسي بعضهم إيّاه منزلة من ينكر تلك القصّة.
ومحلّ التنظير في هذه القصّة هو تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم بكتاب مبين وتلقّي القوم ذلك الكتاب بالإعراض والتكذيب.

الفرقان: ما يفرّق به بين الحقّ والباطل من كلام أو فعل. وقد سمَّى الله تعالى يوم بدر يوم الفرقان لأنّ فيه كان مبدأ ظهور قوّة المسلمين ونصرهم.

فيجوز أن يراد بالفرقان **التوراة**، كقوله تعالى { وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ } [الصافات:117].

ويجوز أن يراد بالفرقان **المعجزات** الفارقة بين المعجزة والسحر كقوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [غافر:23].

ويجوز أن يراد به **الشريعة** الفارقة بين العدل والجور كقوله تعالى { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [البقرة:53].

الضياء: النور. يستعمل مجازا في الهدى والعلم، وهو استعمال كثير، وهو المراد هنا، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44].

الذكر: أصله خطور شيء بالبال بعد غفلة عنه. ويطلق على الكتاب الذي فيه ذكر الله.

{ **لِلْمُتَّقِينْ** } يجوز أن يكون الكلام فيه للتقوية فيكون المجرور باللام في معنى المفعول، أي: الذين اتّصفوا بتقوى الله، أي: امتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه، لأنّه يذكّرهم بما يجهلون وبما يذهلون عنه ممّا علموه ويجدّد في نفوسهم مراقبة ربّهم. ويجوز أن يكون (اللام) للعلّة، أي: ذكر لأجل المتقين، أي: كتاب ينتفع بما فيه المتقون دون غيرهم من الضالين.

{ **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ** } وصفهم بما يزيد معنى المتّقين بيانا وهو على نحو قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3/2].

الْغَيْب: ما غاب عن عيون الناس، أي، يخشون ربّهم في خاصتهم لا يريدون بذلك رياء ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية والمذمّة من الناس.

الإشفاق: رجاء حادث مخوف. ومعنى <u>الإشفاق من الساعة</u>: الإشفاق من أهوالها، فهم يعدّون لها عدّتها بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وفيه تعريض بالذين لم يهتدوا بكتاب الله تعالى بدلالة مفهوم المخالفة لقوله تعالى { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ }. فمن لم يهتد بكتاب الله فليس هو من الذين يخشون ربّهم بالغيب، وهؤلاء هم فرعون وقومه.

{ **وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ** } أعقب التعريض بذكر المقصود من سوق الكلام الناشئ هو عنه، وهو المقابلة.

{ **وَهَذَا** } الإشارة إلى القرآن لأنّ حضوره في الأذهان وفي التلاوة بمنزلة حضور ذاته. ووصفه القرآن بأنّه ذكر لأنّ لفظ الذكر جامع لجميع الأوصاف المتقدّمة كما تقدّم عند قوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44].

{ **مُبَارَكٌ** } وصف القرآن بالمبارك يعمّ نواحي الخير كلّها لأنّ البركة زيادة الخير، فالقرآن كلّه خير من جهة

بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته، وهو أيضا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة واللطائف البلاغية، وهو في ذلك كلّه آية على صدق الذي جاء به، لأنّ البشر عجزوا عن الإتيان بمثله وتحدّاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فما استطاعوا.

{ **أَنْزَلْنَاهُ** } وزاده تشريفا بإسناد إنزاله إلى ضمير الجلالة. وجعْل الوحي إلى الرسول إنزالا لما يقتضيه الإنزال من رفعة القدر، إذ اعتبر مستقرا في العالم العلوي حتّى أنزل إلى هذا العالم.

{ **أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** } فرّع على هذه الأوصاف العظيمة استفهام توبيخي تعجيبي من إنكارهم صدق هذا الكتاب ومن استمرارهم على ذلك الإنكار. ولكون إنكارهم صِدْقَه حاصلًا منهم في حال الخطاب جيء بالجملة الاسمية ليتأتى جعل المسند اسما دالا على الاتصاف في زمن الحال وجعل الجملة دالة على الثبات في الوصف وفاء بحق بلاغة النظم.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [51] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ [52] قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ [53] قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [54] قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ [55] قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [56] وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ [57] }.

أعقبت قصّة موسى وهارون بقصّة إبراهيم فيما أوحي إليه من مقاومة الشرك ووضوح الحجّة على بطلانه، لأنّ إبراهيم كان هو المثل الأوّل، قبل مجيء الإسلام، في مقاومة الشرك، إذ قاومه بالحجّة وبالقوة وبإعلان التوحيد إذ أقام للتوحيد هيكلا بمكّة هو الكعبة، وبجبل (نابو) من بلاد الكنعانيين حيث كانت مدينة تسمّى يومئذ (لوزا)، ثم بنى بيت (أيل) بالقرب من موضع مدينة أورشليم في المكان الذي أقيم به هيكل سليمان من بعد، فكانت قصّة إبراهيم مع قومه شاهدا على بطلان الشرك الذي كان مماثلا لحال المشركين بمكّة الذين جاء محمد صلى الله عليه وسلم لقطع دابره. وفي ذكر قصة إبراهيم تورّك على المشركين من أهل مكّة إذ كانوا على الحالة التي نعاها جدّهم إبراهيم على قومه، وكفى بذلك حجّة عليهم. وأيضا فإنّ شريعة إبراهيم أشهر شريعة بعد شريعة موسى.

{ **وَلَقَدْ** } وتأكيد الخبر عنه بلام القسم للوجه الذي بيّنّاه آنفا في تأكيد الخبر عن موسى وهارون، وهو تنزيل العرب في مخالفتهم لشريعة أبيهم إبراهيم منزلة المنكر لكون إبراهيم أوتي رشدا وهديا.

{ **آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ** } إسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة لمثل ما قُرّر في قصة موسى وهارون للتنبيه على

تفخيم ذلك الرشد الذي أوتيه.

الرشد: الهدى والرأي الحق، وضدّه الغي. وتقدم في قوله تعالى { قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة:256]. وإضافة الرشد إلى ضمير إبراهيم للتنبيه على عظم شأن هذا الرشد، أي رشدا يليق به، ولأنّ رشد إبراهيم قد كان مضرب الأمثال بين العرب وغيرهم. فإنّ الإضافة لمّا كانت على معنى (اللام) كانت مفيدة للاختصاص فكأنّه انفرد به.

{ وَكُنَّا بِهِ عَالمِينَ } اعتراض للتذييل تنويها وتفخيما، أي: آتيناه رشدا عظيما على علم منّا بإبراهيم، أي بكونه أهلا لذلك الرشد. وهذا كقوله تعالى { وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [الدخان:32] وقوله تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124].

{ مِنْ قَبْلُ } أي قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا. ووجه ذكر هذه القبليّة التنبيه على أنّ ما وقع إيتاء الذكر موسى وهارون إلّا لأنّ شريعتهما لم تزل معروفة مدروسة.

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ } ظرف لفعل { آتَينَا }، أي: كان إيتاؤه الرشد حين قال لأبيه وقومه { ما هذه التماثيل } فذلك هو الرشد الذي أوتيه، أي: حين نزل الوحي إليه بالدعوة إلى توحيد الله تعالى.

قوم إبراهيم: كانوا من (الكَلدان) وكان يسكن بلدا يقال له (كوثا) - بمثلثة في آخره بعدها ألف - وهي المسمَّاة في التوراة (أور الكلدان)، ويقال: أيضا إنها (أورفة) في (الرها)، ثم سكن هو وأبوه وأهله (حاران) وحاران هي (حرَّان)، وكانت من بلاد الكلدان كما جاء في التوراة: " اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك". [سفر التكوين، الإصحاح:12]

ومات أبوه في (حاران) [سفر التكوين، الإصحاح:11]، فيتعيّن أن دعوة إبراهيم كانت من (حاران) لأنّه منها خرج إلى أرض كنعان. وقد اشتهر حرَّان بأنه بلد الصابئة وفيه هيكل عظيم للصابئة، وكان قوم إبراهيم صابئة يعبدون الكواكب ويجعلون لها صورا مجسّمة.

{ مَا هَذِهِ التَمَاثِيلُ } الاستفهام يتسلّط على الوصف في قوله تعالى { الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } فكأنّه قال: ما عبادتكم هذه التماثيل؟ وهذا من تجاهل العارف، استعمله تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم، فهم يظنّونه سائلا مستعلما ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم { وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ }.

والأصنام التي كان يعبدها الكلدان هي (بَعْل) وهو أعظمها، وكان مصوغا من ذهب، وهو رمز الشمس في عهد (سميرميس)، وعبدوا رموزا للكواكب، ولا شك أنّهم كانوا يعبدون أصنام قوم نوح: (ودًّا، وسُواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا)، إمّا بتلك الأسماء وإمّا بأسماء أخرى. وقد دلّت الآثار على أنّ من أصنام أشور، إخوان الكلدان، صنما اسمه (نسروخ)، وهو نسر لا محالة.

{ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } وجعْل العكوف مسندا إلى ضميرهم مؤذن بأنّ إبراهيم لم يكن من قبل مشاركا لهم

في ذلك، فيُعلم منه أنّه في مقام الردّ عليهم. وضُمّن معنى العبادة، فلذلك عدي باللام لإفادة ملازمة عبادتها.

{ **قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** } وجاءوا في جوابه بما توهَّموا إقناعه به وهو أنّ عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم.

{ **لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } فلما ذكروا له آباءهم شرَّكهم في التخطئة بدون هوادة بعطف الآباء عليهم في ذلك ليعلموا أنّهم لا عذر لهم في اتّباع آبائهم ولا عذر لآبائهم في سنّ ذلك لهم لمنافاة حقيقة تلك الأصنام لحقيقة الألوهية واستحقاق العبادة.

{ **قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ** } ولإنكارهم أن يكون ما عليه آباؤهم ضلالا، وإيقانهم أنّ آباءهم على الحق، شكُّوا في حال إبراهيم أَنَطق عن جدّ منه أم أراد به المزح.

والمراد باللعب هنا لعب القول وهو المسمَّى مزحا، وأرادوا بتأويل كلامه بالمزح التلطّف معه وتجنّب نسبته إلى الباطل استجلابا لخاطره لما رأوا من قوّة حجّته.

{ **قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ** } وجاء هو في جوابهم بالإضراب عن قولهم { أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ } لإبطال أن يكون من اللاعبين، وإثبات أنّ ربّهم هو الربّ الذي خلق السماوات.

{ **وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** } إعلام لهم بأنّه مرسل من الله لإقامة دين التوحيد، لأنّ رسول كلّ أمة شهيد عليها كما قال تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

ولم يكن يومئذ في قومه من يشهد ببطلان إلهيّة أصنامهم، فتعيّن أنّ المقصود من { الشَّاهِدِينَ } أنّه بعض الذين شهدوا بتوحيد الله بالإلهية في مختلف الأزمان أو الأقطار.

{ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ** } ثم انتقل إبراهيم عليه السلام من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد معلنا عزمه على ذلك، مؤكّدا عزمه بالقسم.

{ **وَتَاللَّهِ** } والتاء تختصّ بقسم على أمر متعجّب منه وتختصّ باسم الجلالة وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ } [يوسف:85].

الكيد: التحيّل على إلحاق الضرّ في صورة غير مكروهة عند المتضرر. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف:28].

{ **مُدْبِرِينَ** } حال مؤكّدة لعاملها. وقد تقدّم نظيره غير مرة منها عند قوله { ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } [براءة:25].

{ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ [58] قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ [59] قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ [60] قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ [61] }.

الجُذاذ: (بضم الجيم) في قراءة الجمهور: اسم جمع جذاذة، وهي فُعالة من الجذّ، وهو القطع مثل قُلامة وكُناسة، أي كسرهم وجعلهم قطعا. وقرأ الكسائي { جِذاذا } بكسر الجيم على أنّه مصدر، فهو من الإخبار بالمصدر للمبالغة.

قيل: كانت الأصنام سبعين صنما مصطفّة ومعها صنم عظيم وكان هو مقابل باب بيت الأصنام، وبعد أن كسرها جعل الفأس في رقبة الصنم الأكبر استهزاء بهم.

{ **لَعَلَّهُمْ إِلِيهِ يَرْجِعُونَ** } رجاء أن يرجع الأقوام إلى استشارة الصنم الأكبر ليخبرهم بمن كسر بقية الأصنام لأنّه يعلم أنّ جهلهم يُطمعهم في استشارة الصنم الكبير.

وهذا العمل الذي عمله إبراهيم عمله بعد أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام والكواكب ورأى جماحهم عن الحجّة الواضحة كما ذُكر في سورة الأنعام.

{ **قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ** } يدلّ على أنّهم لم يخطر ببالهم أن يكون كبير الآلهة فعل ذلك، وهؤلاء القوم هم فريق لم يسمع توعّد إبراهيم إيّاهم بأن يكيد أصنامهم.

{ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم** } هم الذين توعّد إبراهيم الأصنام بمسمع منهم.

الفتى: الذَّكَر الذي قوي شبابه. ويكون من الناس ومن الإبل. والأنثى: فتاة. وقد يطلقونه صفة مدح دالة على استكمال خصال الرجل المحمودة.

الذكر: التحدث بالكلام. وحُذف المتعلق لدلالة القرينة عليه، أي يذكرهم بتوعّد.

{ **يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ** } دلالة على أنّ المنتصبين للبحث في القضية لم يكونوا يعرفون إبراهيم، أو أن الشهداء أرادوا تحقيره بأنّه مجهولا لا يُعرف وإنّما يُدعى أو يُسمّى إبراهيم، أي ليس هو من الناس المعروفين.

{ **قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ** } على مشاهدة الناس. لعلّهم يشهدون عليه بأنّه الذي توعّد الأصنام بالكيد.

{ **قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ [62] قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ [63] فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ [64] ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ [65] قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ [66] أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [67]** }.

وقع هنا حذف جملة تقتضيها دلالة الاقتضاء. والتقدير: فأتوا به فقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا؟

{ **قَالَ بَلْ** } إبطال لأن يكون هو الفاعل لذلك، لأنّ (بل) تقتضي نفي ما دلّ على كلامهم من استفهامه.

{ **فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** } الخبر مستعمل في معنى التشكيك. جاء بكلام يفيد ظنّه بذلك، حيث لم يبق صحيحا من الأصنام إلّا الكبير.

فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجّة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطّمة بطريق الأولى على نيّة أن يكرَّ على ذلك كلّه بالإبطال ويوقنهم بأنّه الذي حطم الأصنام وأنّها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته.

{ **فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ** } تهكّم بهم وتعريض بأنّ ما لا ينطق ولا يُعْرِب عن نفسه غير أهل للإلهية.

{ **فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** } يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم إلى بعض، أي أقبل بعضهم على خطاب بعض على نحو قوله تعالى { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } وقوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ }، أي: فقال بعضهم لبعض ذلك.

{ **نُكِسُوا** } مبني للمجهول، أي نَكَسهم ناكس. ولمّا لم يكن لذلك النكس فاعل إلّا أنفسهم بني الفعل للمجهول فصار بمعنى: انتكسوا على رؤوسهم، وهذا تمثيل لتغيّر رأيهم عن الصواب. فهو من تمثيل المعقول بالمحسوس والمقصود به التشنيع.

النكس: قلب أعلى الشيء أسفله وأسفله أعلاه، يقال: صُلب اللص منكوسا، أي مجعولا رأسه مباشرا للأرض، وهو أقبح هيئات المصلوب. ولمّا كان شأن انتصاب جسم الإنسان أن يكون منتصبا على قدميه فإذا نكس صار انتصابه كأنه على رأسه. والمعنى: ثم تغيّرت آراؤهم بعد أن كادوا يعترفون بحجّة إبراهيم فرجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام.

{ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ** } ، أي: أنت تعلم أنّ هؤلاء الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك { فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ } إلّا التنصلّ من جريمتك.

{ **قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ** } فلما اعترفوا بأنّ الأصنام لا تستطيع النطق انتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم مفرّعا على اعترافهم بأنّها لا تنطق استفهاما إنكاريا على عبادتهم إيّاها

وزائدا بأنّ تلك الأصنام لا تنفع ولا تضرّ.
{ **أُفٍّ** } اسم فعل دال على الضجر، وهو منقول من صورة تنفس المتضجِّر لضيق نفسه من الغضب.
والتنوين يسمَّى تنوين التنكير والمراد به التعظيم، أي ضجرا قويّا لكم. وتقدّم في قوله تعالى { فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ } [الإسراء:23].
{ **أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } أي: أفٍّ لأجلكم وللأصنام التي تعبدونها من دون الله. وإظهار اسم الجلالة لزيادة البيان وتشنيع عبادة غيره.
{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } فرّع على الإنكار والتضجّر استفهاما إنكاريا عن عدم تدبرهم في الأدلة الواضحة من العقل والحس.

{ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [68] قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ [69] }.

لما غلبهم بالحجّة القاهرة لم يجدوا مَخْلَصًا إلّا بإهلاكه. وكذلك المُبطِل إذا قرعت باطله حجّة فسادِه غضِب على المحقّ، ولم يبق له مفزع إلّا مناصبته والتشفي منه، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة. واختار قوم إبراهيم أن يكون إهلاكه بالإحراق.
التحريق: مبالغة في الحرق، أي حرقا متلفا.
وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم لأنّهم قبلوا هذا القول وسألوا ملكهم – النمرود - إحراق إبراهيم فأمر بإحراقه. قيل الذي أشار بالرأي بإحراق إبراهيم رجل من القوم كردي اسمه هينون، واستحسن القوم ذلك.
نمروذ: يقولون: إنّه ابن كوش بن حام بن نوح. ولا يصح ذلك لبعد ما بين زمن إبراهيم وزمن كوش.
فالصواب أن نمروذ من نسل كوش. ويحتمل أن تكون كلمة نمروذ لقبا لملك الكلدان وليست علما.
والمقدّر في التاريخ أنّ ملك مدينة أور في زمن إبراهيم هو (ألغى بن أورخ) وهو الذي تقدّم ذكره عند قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } [البقرة:258].
{ **إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** } تحريض وتلهيب لحميّتهم.
{ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ** } مفصولة عن التي قبلها، إمّا لأنّها وقعت كالجواب عن قولهم { حَرِّقُوهُ } فأشبهت جمل المحاورة، وإمّا لأنّها استئناف عن سؤال ينشأ عن قصة التآمر على الإحراق.
{ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي** } تعلق الإرادة بسلب قوة الإحراق من النار، وأن تكون بردا وسلاما إن كان الكلام على الحقيقة، أو أزال عن الطبيعة البشريّة لإبراهيم التأثّر بحرارة النار، إن كان الكلام على التشبيه البليغ، أي:

كوني كبرد في عدم تحريق الملقى فيك.

{ بَرْداً وَسَلاماً } وأمّا كونها سلاما فهو حقيقة لا محالة، وذكر بعد ذكر البرد كالاحتراس لأنّ البرد مؤذ بدوامه ربما إذا اشتد، فعقّب ذكره بذكر السلام لذلك. وعن ابن عباس: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

{ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ }[70]

تسمية عزمهم على إحراقه كيدا يقتضي أنّهم دبّروا ذلك خفية منه. ولعلّ قصدهم من ذلك أن لا يفر من البلد فلا يتمّ الانتصار لآلهتهم.

الأخسر: مبالغة في الخاسر، فهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة.

وتعريف جزأي الجملة يفيد القصر، وهو قصر للمبالغة وكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم. والمراد بالخسارة الخيبة. وذلك أن خيبتهم جُمع لهم بها سلامة إبراهيم من أثر عقابهم وأن صار ما أعدّوه للعقاب معجزة وتأييدا لإبراهيم عليه السلام.

وأمّا شدة الخسارة التي اقتضاها اسم التفضيل فهي بما لحقهم عقب ذلك من العذاب إذ سلّط الله عليهم عذابا كما دلّ عليه قوله { فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج:44]، وقد عُدّ فيهم قوم إبراهيم، والظاهر أنّ الله سلط عليهم الآشوريين فأخذوا بلادهم، وانقرض ملكهم وخلفهم الأشوريون، وقد أثبت التاريخ أن العيلاميين من أهل السوس تسلّطوا على بلاد الكلدان في حياة إبراهيم في حدود سنة (2286 ق م).

{ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ [71] وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ [72] وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ [73] }.

هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضرّ النار، هي نجاته من الحلول بين قوم عدوّ له كافرين بربّه وربّهم، وهي نجاة من دار الشرك وفساد الاعتقاد. وتلك بأن سهّل الله له المهاجرة من بلاد (الكَلدان) إلى أرض (فلسطين) وهي بلاد (كنعان).

وهجرة إبراهيم هي أوّل هجرة في الأرض لأجل الدِّين. واستصحب إبراهيم معه لوطا ابن أخيه (هاران) لأنّه آمن بما جاء به إبراهيم. وكانت سارة امرأة إبراهيم معهما، وقد فُهمت معيَّتها من أنّ المرء لا يهاجر إلّا ومعه امرأته.

{ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } هي أرض فلسطين. أي: باركها للناس، يعني الساكنين بها، لأنّ الله

خلقها أرض خصب ورخاء عيش. وورد في التوراة أنّ الله قال لإبراهيم: إنّها تفيض لبنا وعسلا.

البركة: وفرة الخير والنفع. وتقدّم في قوله { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران:96].

هبة إسحاق له ازدياده له على الكبر وبعد أن يئست زوجه سارة من الولادة.

وهبة يعقوب ازدياده لإسحاق بن إبراهيم في حياة إبراهيم ورؤيته إيّاه كهلا صالحا.

النافلة: الزيادة غير الموعودة، فإنّ إبراهيم سأل ربه فقال { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات:100]، أراد الولد فوُلد له إسماعيل، كما في سورة الصافات، ثم وُلد له إسحاق عن غير مسألة كما في سورة هود فكان نافلة، وولد لإسحاق يعقوب فكان أيضا نافلة.

{ **وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ** } المعنى: وكلّهم جعلنا صالحين. والمراد إبراهيم وإسحاق ويعقوب، لأنّهم الذين كان الحديث الأخير عنهم. وأمّا لوط فإنّما ذكر على طريق المعيّة وسيخص بالذكر بعد هذه الآية.

{ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** } وإعادة فعل (جعل) دون أن يقال: وأئمة يهدون، اهتماما بهذا الجعل الشريف، وهو جعلهم هادين للنّاس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم، فأعيد الفعل ليكون له مزيد استقرار.

الأئمة: جمع إمام وهو القدوة والذي يعمل كعمله. وأصل الإمام المثال الذي يصنع الشيء على صورته في الخير أو في الشرّ.

{ **يَهْدُونَ** } الجملة في موضع الحال مقيّدة لمعنى الإمامة، أي: أنّهم أئمة هدى وإرشاد.

{ **لِأَمْرِنَا** } أي: كانوا هادين بأمر الله، وهو الوحي زيادة على الجعل.

وهذا الهدي هو تزكية نفوس الناس وإصلاحها وبث الإيمان. ويشمل هذا شؤون الإيمان وشعبه وآدابه.

{ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ** } إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات.

{ **وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ** } تخصيصهما بالذكر بعد شمول الخيرات إيّاهما تنويه بشأنهما لأنّ بالصلاة صلاح النفس، إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين.

وهذا إشارة إلى أصل الحنيفيّة التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام.

{ **وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** } ثم خصّهم بذكر ما كانوا متميّزين به على بقيّة النّاس من ملازمة العبادة، كما دلّ عليه فعل الكون المفيد تمكّن الوصف. ودلّت الإشارة بتقديم المجرور إلى أنّهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قطّ كما تقتضيه رتبة النبوّة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف كما قال يوسف { مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:38] .

{ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ [74] وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [75] }.

{ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ } قدّم المفعول اهتماما به لينبّه على أنّه محل العناية إذ كان قد تأخّر ذكر قصّته بعد أن جرى ذكره تبعا لذكر إبراهيم، تنبيها على أنّه بُعث بشريعة خاصة، وإلى قوم غير القوم الذين بُعث إليهم إبراهيم، وإلى أنه كان في مواطن غير المواطن التي حلّ فيها إبراهيم، بخلاف إسحاق ويعقوب في ذلك كله.

وخُصّ لوط بالذكر من بين الرّسل لأنّ أحواله تابعة لأحوال إبراهيم في مقاومة أهل الشرك والفساد.

وإنّما لم يذكر ما عليه قوم لوط من الشرك استغناء بذكر الفواحش الفظيعة التي كانت لهم سنّة، فإنها أثر من الشرك.

الحكم: الحكمة، وهو النبوّة، قال تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً }.

العلم: علم الشريعة، والتنوين فيهما للتعظيم.

القرية: سدوم. وقد تقدّم ذكر ذلك في سورة هود. والمراد من القرية أهلها.

الخبائث: جمع خبيثة بتأويل الفعلة، أي الشنيعة. .

السَوْء: (بفتح السين وسكون الواو) مصدر، أي القبيح المكروه. وأمّا السُوء (بضم السين) فهو اسم مصدر، وهو أعمّ لأنّ الوصف بالاسم أضعف من الوصف بالمصدر.

{ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [76] وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [77] }.

عطف على { وَلُوطاً } أي: وآتينا نوحا حكما وعلما. لمّا ذكر أشهر الرسل بمناسبات أعقب بذكر أوّل الرسل.

{ وَنُوحًا إِذْ نَادَى } أي: دعا ربّه أن ينصره على المكذّبين من قومه بدليل قوله { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ }.

{ مِنْ قَبْلُ } البناء على الضمّ يدلّ على مضاف إليه مقدّر، أي: من قبل هؤلاء، أي: قبل الأنبياء المذكورين.

وفائدة ذكر هذه القبليّة التنبيه على أنّ نصر الله أولياءه سنّته المرادة له، تعريضا بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكّروا أنّه لم تشذ عن نصر الله رسله شاذة ولا فاذة.

أهل نوح: أهل بيته عدا أحد بنيه الذي كفر به.

الكرب العظيم: هو الطوفان. والكرب: شدّة حزن النفس بسبب خوف أو حزن.

{ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } عُدّي { نَصَرْنَاهُ } بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية،

وهو أبلغ من تعديته بـ (عَلَى) لأنّه يدلّ على نصر قويّ تحصل به المنعة والحماية فلا يناله العدوّ بشيء. وأمّا نصره عليه فلا يدلّ إلّا على المدافعة والمعونة.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ** } علّة لنصر نوح، لأنّ نصره يتضمّن إضرار القوم المنصور عليهم.

وإضافة قوم إلى السوء إشارة إلى أنّهم عرفوا به. والمراد به الكفر والتكبّر والعناد والاستسخار برسولهم.

{ **فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** } الحال لإفادة أنّه لم ينج من الغرق أحد من القوم ولو كان قريبا من نوح كابنه.

وهذا تهديد لقريش لئلّا يتّكلوا على قرابتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كما روي: أنّه لما قرأ صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة سورة فصلت حتّى بلغ { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ } فزع عتبة وقال له: ناشدتُك الرحم.

{ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** [78] **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**[79] }.

شروع في عداد جمع من الأنبياء الذين لم يكونوا رسلا. وقد روعي في تخصيصهم بالذكر ما اشتهر به كلّ فرد منهم من المزيّة التي أنعم الله بها عليه، بمناسبة ذكر ما فضّل الله به موسى وهارون من إيتاء الكتاب.

ولم يكن بعد موسى في بني إسرائيل عصر له ميزة خاصة مثل عصر داود وسليمان إذ تطور أمر جامعة بني إسرائيل من كونها مسوسة بالأنبياء من عهد يوشع بن نون. ثم بما طرأ عليها من الفوضى من بعد موت شمشون إلى قيام شاول حَمِيّ داود، إلّا أنّه كان ملكا قاصرا على قيادة الجند ولم يكن نبيّا، وأمّا تدبير الأمور فكان للأنبياء والقضاة مثل صمويل.

فهذه القضية التي تضمّنتها الآية مظهر من مظاهر العدل ومبالغ تدقيق فقه القضاء، والجمع بين المصالح والتفاصيل بين مراتب الاجتهاد، واختلاف طرق القضاء بالحق، فلذلك خُصّ داود وسليمان بشيء من تفصيل أخبارهما.

{ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ** } عطف على { وَنُوحًا } ، أي وآتينا داود وسليمان حكما وعلما إذ يحكمان.

داود: أوّل من جُمعت له النبوّة والملك في أنبياء بني إسرائيل. وبلغ ملك إسرائيل في مدّة داود حدّا عظيما من البأس والقوّة وإخضاع الأعداء. وأوتي داود الزبور فيه حكمة وعظة فكان تكملة للتوراة التي كانت تعليم شريعة، فاستكمل زمن داود الحكمة ورقائق الكلام.

سليمان: أوتي الحكمة وسُخِّر له أهل الصنائع والإبداع فاستكملت دولة إسرائيل في زمانه عظمة النظام والثروة والحكمة والتجارة، فكان في قصّتهما مثل.

{ **إِذْ يَحْكُمَانِ** } متعلق بـ { آتَيْنَا } المحذوف، أي: كان وقت حكمهما في قضية الحرث مظهرا من مظاهر حكمهما وعلمهما.

وخلاصة القصّة: أنّ داود جلس للقضاء بين النّاس، وكان ابنه سليمان حينئذ يافعا فكان يجلس خارج باب بيت القضاء. فاختصم إلى داود رجلان أحدهما عامل في حرث لجماعة في زرع أو كرم، والآخر راعي غنم لجماعة، فدخلت الغنم الحرث ليلا فأفسدت ما فيه فقضى داود أن تُعطى الغنم لأصحاب الحرث إذ كان ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما تلف من ذلك الحرث، فلمّا حكم بذلك وخرج الخصمان فقُصَّ أمرهما على سليمان، فقال: لو كنت أنا قاضيا لحكمت بغير هذا. فبلغ ذلك داود فأحضره وقال له: بماذا كنت تقضي؟ قال: إني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: أن يأخذ أصحاب الغنم الحرث يقوم عليه عاملهم ويصلحه عاما كاملا حتّى يعود كما كان ويردّه إلى أصحابه، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تسلّم لراعيهم فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدّة، فإذا كمل الحرث وعاد إلى حاله الأوّل صُرف إلى كل فريق ما كان له. فقال داود: وفِّقت يا بنيّ. وقضى بينهما بذلك.

{ **نَفَشَتْ فِيهِ** } دخلته ليلا، قالوا: والنفش الانفلات للرعي ليلا.

{ **غَنَمُ الْقَوْمِ** } أضيف الغنم إلى القوم لأنّها كانت لجماعة من الناس. وكذلك كان الحرث شركة بين أناس.

وأمّا ما ورد في الروايات الأخرى من ذكر رجلين فإنّما يُحمل على أنّ اللذين حضرا للخصومة هما راعي الغنم وعامل الحرث.

وقد كان قضاء داود حقا لأنه مستند إلى غرم الأضرار على المتسببين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضا ناجزا فكان ذلك القضاء حقا. وحسبك أنّه موافق لما جاءت به السنّة في إفساد المواشي.

وكان **حكم سليمان** حقا لأنّه مستند إلى إعطاء الحق لذويه مع إرفاق المحقوقين باستيفاء مالهم إلى حين، فهو **يشبه الصلح**. ولعل أصحاب الغنم لم يكن لهم سواها كما هو الغالب، وقد رضي الخصمان بحكم سليمان لأنّ الخصمين كانا من أهل الإنصاف لا من أهل الاعتساف، ولو لم يرضيا لكان المصير إلى حكم داود إذ ليس الإرفاق بواجب.

وتشبه هذه القضية قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الزبير والأنصاري في السقي من ماء شراج الحرة إذ قضى أوّل مرة بأن يُمسك الزبير الماء حتّى يبلغ الكعبين ثم يرسل الماء إلى جاره، فلمّا لم يرض الأنصاري قضى رسول الله بأن يمسك الزبير الماء حتّى يبلغ الجدْر ثم يرسل، فاستوفى للزبير حقّه. وإنّما ابتدأ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأرفق ثم لمّا لم يرض أحد الخصمين قضى بينهما بالفصل، فكان قضاء

النبي مبتدأ بأفضل الوجهين على نحو قضاء سليمان.
{ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } أنّه ألهمه وجها آخر في القضاء أرجح، لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدّة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدلّ على أنّ فهم سليمان في القضية كان أعمق. وذلك أنّه أرفق بهما.
والله تعالى أراد أن يُظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به، وليتعزّى على من فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان.
قال ابن عطية وابن العربي: وفي بقية القصّة ما يصلح لأن يكون أصلا في رجوع الحاكم عن حكمه، وذلك غفلة منهما، لأنّ ذلك لم تتضمّنه الآية ولا جاءت به السنة الصحيحة، فلا ينبغي أن يكون تأصيلا.
{ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً } تذييل للاحتراس لدفع توهّم أنّ حكم داود كان خطأ أو جورا وإنّما كان حكم سليمان أصوب. وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد أو لم يهتد إلى المعارض.
<u>ترجمة داود عليه السلام</u> تقدّمت عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163]، وقوله تعالى { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ } [الأنعام:84].
<u>ترجمة سليمان عليه السلام</u> تقدّمت عند قوله { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

{ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ }
هذه مزية اختص بها داود هي تسخير الجبال والطير يسبّحن معه. فيكون المعنى: أنّ داود كان إذا سبّح بين الجبال سمع الجبال تسبح مثل تسبيحه. وهذا معنى التأويب في قوله تعالى { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ } [سبأ:10]، إذ التأويب الترجيع، مشتقّ من الأوب وهو الرجوع. وكذلك الطير، وتلك كلّها معجزة له.
ويتعيّن أن يكون هذا التسخير حاصلا له بعد أن أوتي النبوّة كما يقتضيه سياق تعداده في عداد ما أوتيه الأنبياء من دلائل الكرامة على الله، ولا يعرف لداود بعد أن أوتي النبوة مزاولة صعود الجبال ولا الرعي فيها وقد كان قبل النبوة راعيا. فلعلّ هذا التسخير كان أيام سياحته في جبل برية (زيف) الذي به كهف كان يأوي إليه داود مع أصحابه الملتفين حوله في تلك السياحة أيام خروجه فارا من الملك شاول (طالوت) حين تنكّر له شاول بوشاية بعض حسّاد داود، كما حُكي في الإصحاحين 23-24 من سفر صمويل الأول.
وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة له كرامة وعناية من الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده.
{ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } معترضة بين الإخبار عما أوتيه داود. وفاعل هنا بمعنى قادر، لإزالة استبعاد تسبيح الجبال والطير معه. وفي اجتلاب فعل الكون إشارة إلى أن ذلك شأن ثابت لله من قبل، أي: وكنا قادرين على ذلك.

{ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } [80].

وامتن الله بصنعة علّمها داود فانتفع بها الناس وهي صنعة الدروع، أي دروع السرد. قيل كانت الدروع من قبل داود ذات حراشف من الحديد، فكانت تثقل على الكُماة إذا لبسوها فألهم الله داود صنع دروع الحلق الدقيقة فهي أخف محملا وأحسن وقاية.

اللَبوس (بفتح اللام) أصله اسم لكلّ ما يلبس فهو فعول بمعنى مفعول مثل رسول. وغلب إطلاقه على ما يلبس من لامة الحرب من الحديد، وهو الدرع فلا يطلق على الدرع لباس ويطلق عليها لبوس.

{ لِتُحْصِنَكُمْ } قرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر بالمثناة الفوقية على تأويل معنى (لبوس) بالدرع، وهي مؤنّثة. وقرأ الجمهور { لِيُحْصِنَكُمْ } بالمثناة التحتية على ظاهر إضمار لفظ { لَبُوسٍ } . وإسناد الإحصان إلى اللبوس إسناد مجازي. وقرأ أبو بكر عن عاصم، ورويس عن يعقوب { لِنُحْصِنَكُمْ } بالنون.

وضمائر الخطاب موجّهة إلى المشركين لأنّهم أهملوا شكر نعم الله تعالى التي منها هذه النعمة.

الإحصان: الوقاية والحماية.

البأس: الحرب.

{ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } الاستفهام مستعمل في استبطاء عدم الشكر ومكنّى به عن الأمر بالشكر.

والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية على ما تقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار.

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}[81]

عطف على { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ } بمناسبة تسخير خارق للعادة في كلتا القصّتين معجزة للنبيين عليهما السلام والأرض التي بارك الله فيها هي أرض الشام. وتسخير الريح: تسخيرها لما تصلح له. وهو سير المراكب في البحر.

{ عَاصِفَةً } بمعنى قوية. ووصفها في سورة ص بأنها { رُخَاءً } في قوله تعالى { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص:36]. والرخاء: اللينة المناسبة لسير الفلك.

وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة وإذا أراد اللين سارت رخاء، والمقام قرينة على أنّ المراد المواتاة لإرادة سليمان كما دلّ عليه قوله تعالى{ تَجْرِي بِأَمْرِهِ }.

{ بِأَمْرِهِ } عن رغبته وما يلائم أسفار سفائنه، وهي رياح موسميّة منتظمة سخرها الله له.

وأمر سليمان: دعاؤه الله أن يجري الريح كما يريد ويرغب.

{ **وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ** } معترضة بين الجمل المسوقة لذكر عناية الله بسليمان. والمناسبة أنّ تسخير الريح لمصالح سليمان أثر من آثار علم الله بمختلف أحوال الأمم والأقاليم وما هو منها لائق بمصلحة سليمان فيجري الأمور على ما تقتضيه الحكمة التي أرادها سبحانه إذ قال { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ }.

{ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } [82]

هذا ذكر معجزة وكرامة لسليمان. وهي أن سخّر إليه من القوى المجرّدة من طوائف الجن والشياطين التي تتأتى لها معرفة الأعمال العظيمة من غوص البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ومن أعمال أخرى أجملت في قوله تعالى { وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ }. وفصّل بعضها في آيات أخرى كقوله تعالى { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ }.

{ **وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** } أي: جعلهم منقادين له وقائمين بخدمته دون عناء له، وحال دونهم ودون الناس لئلا يؤذوهم.

ولمّا توفّي سليمان لم يسخر الله الجنّ لغيره استجابة لدعوته إذ قال { وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } ولما مكّن الله النبيّ محمدا صلى الله عليه وسلم من الجنّي الذي كاد أن يفسد عليه صلاته وهم بأن يربطه، ذكر دعوة سليمان فأطلقه فجمع الله له بين التمكين من الجنّ وبين تحقيق رغبة سليمان.

{ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [83] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ [84] }.

عطف على { دَاودَ وَسُلَيمَانَ } أي: وآتينا أيوب حكما وعلما إذ نادى ربّه. وتخصيصه بالذكر مع من ذكر من الأنبياء لما اختصّ به من الصبر حتّى كان مثلا فيه.

{ **أَيُّوبَ** } تقدّمت ترجمته في سورة الأنعام.

وأمّا القصة التي أشارت إليها هذه الآية فهي المفصّلة في السفر الخاص بأيوب من أسفار النبيين الإسرائيلية. وحاصلها أنّه كان نبيّا وذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاث في يوم واحد، فتلقّى ذلك بالصبر والتسليم. ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقّى ذلك كلّه بصبر وحكمة وهو يبتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضرّ. وتلقّى رثاء أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بالله، وأوحى الله إليه بمواعظ. ثمّ أعاد عليه صحته وأخلفه مالا

أكثر من ماله وولدت له زوجه أولادا وبنات بعدد من هلكوا له من قبل.
وقد ذُكرت قصّته بأبسط من هنا في صورة ص. ولأهل القصص فيها مبالغات لا تليق بمقام النبوّة.
{ **أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ** } بفتح الهمزة على تقدير باء الجر، أي: نادى ربه بأنّي مسّني الضرّ.
المسّ: الإصابة الخفيفة. والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله إذ جعل ما حلّ به من الضرّ كالمسّ الخفيف.
الضُرّ: (بضم الضاد) ما يتضرّر به المرء في جسده من مرض أو هزل، أو في ماله من نقص ونحوه.
{ **وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } التعريض بطلب كشف الضرّ عنه بدون سؤال فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربّه بالأرحمية تعريضا بسؤاله، كما قال أميّة بن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه عن تعرُّضه الثناءُ.

وكون الله تعالى أرحم الراحمين لأنّ رحمته أكمل الرحمات لأنّ كلّ من رحم غيره فإمّا أن يرحمه طلبا للثناء في الدنيا أو للثواب في الآخرة أو دفعا للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحقّ الرحمة له فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأمّا رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية.
{ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ** } السين والتاء للمبالغة في الإجابة، أي استجبنا دعوته العرضيّة بإثر كلامه وكشفنا ما به من ضرّ، إشارة إلى سرعة كشف الضرّ عنه، والتعقيب في كل شيء بحسبه. وهو ما تقتضيه العادة في البرء وحصول الرزق وولادة الأولاد.
الكشف: مستعمل في الإزالة السريعة. شبهت إزالة الأمراض والأضرار المتمكّنة التي يعتاد أنّها لا تزول إلّا بطول بإزالة الغطاء عن الشيء في السرعة.
{ **مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ** } الموصول مقصود منه الإبهام. ثم تفسيره بـ { مِنْ } البيانية لقصد تهويل ذلك الضرّ لكثرة أنواعه بحيث يطول عدّها. ومثله قوله تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } إشارة إلى تكثيرها.
أي: كشفنا ما حل به من ضرّ في جسده وماله، فأعيدت صحته وثروته.
الإيتاء: عطاء، أي: أعطيناه أهله، وأهل الرجل أهل بيته وقرابته. وفهم من تعريف الأهل بالإضافة أنّ الإيتاء إرجاع ما سلب منه من أهل، يعني بموت أولاده وبناته، أي: مثل أهله، بأن رزق أولاده بعدد ما فقد.
{ **وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ** } وزاده مثلهم فيكون قد رزق أربعة عشر ابنا وست بنات من زوجه.
{ **رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ** } انتصب { رَحْمَةٍ } على المفعول لأجله. ووصفت الرحمة بأنّها من عند الله تنويها بشأنها.
الذكرى: التذكير بما هو مظنّة أن يُنسى أو يُغفل عنه. وهو معطوف على رحمة فهو مفعول لأجله، أي: وتنبيها للعابدين بأن الله لا يترك عنايته بهم. وبما في { العَابِدِينَ } من العموم صارت الجملة تذييلا.

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ [85] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [86] }.

عطف على { وَأَيُّوبَ } أي وآتينا إسماعيل وإدريس وذا الكفل حكما وعلما.

وجمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لإشراكهم في خصيصية الصبر كما أشار إليه قوله تعالى { كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ } . جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب.

فأمّا صبر إسماعيل عليه السلام فقد تقرّر بصبره على الرضى بالذبح حين قال له إبراهيم { إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } فقال { سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات:102]، وتقرّر بسكناه بواد غير ذي زرع امتثالا لأمر أبيه المتلقى من الله تعالى. وتقدّمت ترجمة إسماعيل في سورة البقرة.

وأمّا إدريس فهو اسم (أخنوخ) على إرجح الأقوال. وقد ذُكر أخنوخ في التوراة في سفر التكوين جَدًّا لنوح. وتقدّمت ترجمته في سورة مريم ووصف هنالك بأنّه صدِّيق نبيّ. والظاهر أنّ صبره كان على تتبّع الحكمة والعلوم وما لقي في رحلاته من المتاعب. وقد عُدّت من صبره قصص، منها أنّه كان يترك الطعام والنوم مدّة طويلة لتصفو نفسه للاهتداء إلى الحكمة والعلم.

وأمّا ذو الكفل فهو نبيّ أُختلف في تعيينه، فقيل هو إلياس المسمّى في كتب اليهود إيليا.

وقيل: هو خليفة اليسع في نبوّة بني إسرائيل. والظاهر أنّه (عُوبديا) الذي له كتاب من كتب أنبياء اليهود وهو الكتاب الرابع من الكتب الاثنى عشر وتعرف بكتب الأنبياء الصغار.

الكِفْل: (بكسر الكاف وسكون الفاء) أصله النصيب من شيء، مشتقّ من كَفَلَ إذ تعهَّد، لُقِّب بهذا لأنّه تعهَّد بأمر بني إسرائيل لليسع. وذلك أنّ (اليسع) لمّا كبر أراد أن يستخلف خليفة على بني إسرائيل فقال: من يتكفّل لي بثلاث أستخلفه: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. فلم يتكفّل له بذلك إلّا شاب اسمه (عُوبديا)، وأنّه ثبت على ما تكفّل به فكان لذلك من أفضل الصابرين. وقد عُدَّ (عُوبديا) من أنبياء بني إسرائيل على إجمال في خبره [انظر: سفر الملوك الأول الإصحاح: 18. ورؤيا عوبديا صفحة 891 من الكتاب المقدس].

وروى العبدري عن أبي موسى الأشعري ومجاهد أنّ ذا الكفل لم يكن نبيّا.

وتقدّمت ترجمة إلياس واليسع في سورة الأنعام.

{ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ } تعليل لإدخالهم في الرحمة، وتذييل للكلام يفيد أن تلك سنة الله مع جميع الصالحين.

{ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [87] **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**[88]}.

عطف على { وَذَا الْكِفْلِ }. وذكر ذي النون في جملة من خُصُّوا بالذكر من الأنبياء لأجل ما قَصَّته من الآيات في الالتجاء إلى الله والندم على ما صدر منه من الجزع، واستجابة الله تعالى له.

{ **ذَا النُّونِ** } وصف، أي: صاحب الحوت. لقِّب به يونس بن متّى عليه السلام، وتقدّمت ترجمته في سورة الأنعام، وتقدّمت قصّته مع قومه في سورة يونس.

{ **إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً** } قيل خروجه غضبان من قومه أهل (نينوى) إذ أبوا أن يؤمنوا بما أرسل إليهم به وهم غاضبون من دعوته، فالمغاضبة مفاعلة. وهذا مقتضى المروي عن ابن عباس.

وقيل: إنّه أوحي إليه أنّ العذاب نازل بهم بعد مدّة فلمّا أشرفت المدّة على الانقضاء آمنوا فخرج غضبان من عدم تحقّق ما أنذرهم به، فالمغاضبة حينئذ للمبالغة في الغضب لأنّه غضب غريب. وهذا مقتضى المروي عن ابن مسعود والحسن والشعبي وسعيد بن جبير، وروي عن ابن عباس أيضا واختاره ابن جرير.

{ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** } يقتضي أنّه خرج خروجا غير مأذون له فيه من الله. ظن أنّه إذا ابتعد عن المدينة المرسل إليها يرسل الله غيره إليهم. أي: <u>ظن أن لن نؤاخذه</u> بخروجه من بين قومه دون إذن. ونُقل هذا عن مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي وهو رواية عن ابن عباس واختاره الفراء والزجاج. وعلى هذا يكون يونس اجتهد وأخطأ، فالتفريع تفريع خطور هذا الظن في نفسه بعد أن كان الخروج منه بادرة بدافع الغضب من غير تأمّل في لوازمه وعواقبه. قالوا: وكان في طبعه ضيق الصدر.

وقيل: نقدر مضارع قَدَرَ عليه أمرا بمعنى ضيَّق كقوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } وقوله تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ }. أي: <u>ظنّ أن لن نضيّق عليه</u> تحتيم الإقامة مع القوم الذين أرسل إليهم أو تحتيم قيامه بتبليغ الرسالة، وأنّه إذا خرج من ذلك المكان سقط تعلّق تكليف التبليغ عنه اجتهادا منه، فعوتب بما حلّ به، إذ كان عليه أن يستعلم ربّه عما يريد فعله.

وقيل: معنى الكلام على الاستفهام حذفت همزته. والتقدير: <u>أفظن أن لن نقدر عليه؟</u> ونسب إلى سليمان بن المعتمر أو أبي المعتمر. قال منذر بن سعيد في تفسيره : وقد قرئ به.

وعندي فيه تأويل آخر: أنّه ظن وهو في جوف الحوت أنّ الله غير مخلّصه في بطن الحوت لأنّه رأى ذلك مستحيلا عادة، وعلى هذا يكون التعقيب بحسب الواقعة، أي: ظنّ بعد أن ابتلعه الحوت.

وأمّا نداؤه ربه فذلك توبة صدرت منه عن تقصيره، ولذلك قال { إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }.

{ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } وتقديمه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح كنًّى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير وقدرته على كلّ شيء.

الظلمات: جمع ظلمة. والمراد ظلمة الليل، وظلمة قعر البحر، وظلمة بطن الحوت. وقيل: الظلمات مبالغة في شدّة الظلمة كقوله { يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } وقد تقدّم أنّ الظلمة لم ترد مفردة في القرآن.

الاستجابة: مبالغة في الإجابة، وهي إجابة توبته ممّا فرط منه. و**الإنجاء** وقع حين الاستجابة إذ الصحيح أنّه ما بقي في بطن الحوت إلّا ساعة قليلة. وإنجاؤه هو بتقدير وتكوين في مزاج الحوت حتّى خرج الحوت إلى قرب الشاطئ فتقيأه فخرج يسبح إلى الشاطئ.

وهذا الحوت هو من صنف الحوت العظيم الذي يبتلع الأشياء الضخمة ولا يقضمها بأسنانه.

{ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } تذييل. والإشارة بـ { كَذَلِكَ } إلى الإنجاء الذي أُنجِي به يونس، أي مثل ذلك الإنجاء ننجّي المؤمنين من غموم يحسب من يقع فيها أنّ نجاته عسيرة. وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأنّ الله منجي المؤمنين من الغم والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إيّاهم في بلادهم.

{ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ [89] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ [90] }.

{ وَزَكَرِيَّا } القول في عطفها كالقول في نظائره السابقة. وقصّة زكريّا آية من آيات الله في عنايته بأوليائه المنقطعين لعبادته فخُصَّ بالذكر لذلك.

{ لا تَذَرْنِي فَرْداً } مبيّنة لجملة { نَادَى رَبَّهُ }. وأطلق الفرد على من لا ولد له تشبيها له بالمنفرد الذي لا قرين له، قال تعالى { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً } [مريم:95]، ويقال مثله (الواحد) للذي لا رفيق له.

{ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ } ثناء لتمهيد الإجابة، أي: أنت الوارث الحقّ فاقض علي من صفتك العليّة شيئا.

وقد شاع في الكتاب والسنّة ذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها.

ودلّ ذكر ذلك على أنّه سأل الولد لأجل أن يرثه كما في قوله { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } [مريم:6]. حذفت هاته الجملة لدلالة المحكي هنا عليها. والتقدير: يرثني مالي وعلمي وأنت ترث نفسي كلّها بالمصير إليك مصيرا أبديا، فأرثك خير إرث لأنّه أشمل وأبقى، وأنت خير الوارثين في تحقّق هذا الوصف.

{ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } جعلها صالحة للحمل بعد أن كانت عاقرا. وتقدّم ذكر زكريا في سورة آل عمران وذكر زوجه في سورة مريم.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً** } جملة واقعة موقع التعليل للجمل المتقدّمة في الثناء على الأنبياء المذكورين، وما أوتوه من النصر، واستجابة الدعوات، والإنجاء من كيد الأعداء، وما تبع ذلك، ابتداء من قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً }.

{ **إِنَّهُمْ** } حرف التأكيد مفيد معنى التعليل والتسبّب، أي: ما استحقّوا ما أوتوه إلّا لمبادرتهم إلى مسالك الخير وجِدّهم في تحصيلها.

{ **كَانُوا** } وأفاد فعل الكون أنّ ذلك كان دأبهم.

المسارعة: مستعارة للحرص وصرف الهمّة والجِدِّ للخيرات، أي: لفعلها.

الخيرات: جمع خير (بفتح الخاء وسكون الياء) وهو جمع بالألف والتاء على خلاف القياس. والخير ضدّ الشر، فهو ما فيه نفع. وقد تقدّم الكلام فيها في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ } [براءة:88].

{ **وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً** } أي: أنّهم يدعون الله رغبة في ثوابه ورهبة من غضبه، كقوله تعالى { يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ }.

الرغَب والرهَب: (بفتح ثانيهما) مصدران من رغب ورهب. وهما وصف لـ { يَدْعُونَنَا } لبيان نوع الدعاء بما هو أعم في جنسه، أو يقدّر مضاف، أي: ذوي رغب ورهب.

{ **وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** } وذكر فعل الكون هنا مثل ذكره في قوله تعالى { كَانُوا يُسَارِعُونَ }

الخشوع: خوف القلب بالتفكّر دون اضطراب الأعضاء الظاهرة.

{ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } [91]

لمّا انتهى التنويه بفضل رجال من الأنبياء أعقب بالثناء على امرأة نبيّة إشارة إلى أنّ أسباب الفضل غير محجورة، كما قال الله تعالى { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ }. هذه هي مريم ابنة عمران.

{ **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا** } عبّر عنها بالموصول دلالة على أنّها قد اشتهرت بمضمون الصلة كما هو شأن طريق الموصوليّة غالبا، وأيضا لما في الصلة من معنى تسفيه اليهود الذين تقوّلوا عنها إفكا وزورا.

{ **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا** } في حكم الصلة أيضا، فكأنه قيل: والتي نفخنا فيها من روحنا، لأنّ كلا الأمرين موجب ثناء. وقد أراد الله إكرامها بأن تكون مظهر عظيم قدرته في مخالفة السنّة البشريّة لحصول حمل أنثى دون قربان ذكر، ليرى النّاس مثالا من التكوين الأوّل، كما أشار إليه قوله تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } .

النفخ: حقيقته إخراج هواء الفم بتضييق الشفتين. وأطلق هنا تمثيلا لإلقاء روح التكوين للنسل في رحم المرأة دفعة واحدة بدون الوسائل المعتادة تشبيها لهيئة التكوين السريع بهيئة النفخ.

{ **فِيهَا** } والظرفية المفادة بـ (فِي) كون مريم ظرفا لحلول الروح المنفوخ فيها إذ كانت وعاءه. ولم قيل (فِيهِ) للإشارة إلى أنّ الحمل الذي كُوِّن في رحمها حمل من غير الطريق المعتاد.

{ **مِنْ** } تبعيضي، والمنفوخ روح لأنّه جُعل بعض روح الله، أي: بعض جنس الروح الذي به يجعل الله الأجسام ذات حياة.

الروح: هو القوة التي بها الحياة، قال تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي }.

وإضافة الروح إلى الله إضافة تشريف لأنّه روح مبعوث من لدن الله تعالى.

{ **وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** } وجعلها وابنها آية هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما إذ جعلهما الله وسيلة لليقين بقدرته ومعجزات أنبيائه كما في قوله تعالى { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً } [المؤمنون:50] .

وبهذا الاعتبار حصل تشريف بعض المخلوقات فأقسم الله بها نحو { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى } [الليل:1].

{ **آيَةً** } وإفراد الآية لأنّه أريد بها الجنس. وحيث كان المذكور ذاتين فأخبر عنهما بأنّهما آية عُلم أنّ كلّ واحد آية خاصة.

{ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } [92].

الخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة. والوجه حينئذ أن يكون القول المحذوف مصوغا في صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. والتقدير: قائلين لهم: إنّ هذه أمتكم، إلى آخره.

فصيغة الجمع مراد بها التوزيع، والتأكيد لمجرّد الاهتمام بالخبر ليتلقّاه الأنبياء بقوّة عزم. وهو وإن كان خطابا للرّسل فإنّ ممّا يُقصد منه تبليغ ذلك لأتباعهم ليعلموا أنّ دين الله واحد.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافا والخطاب لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم، أي: أنّ هذه الملة، وهي الإسلام، هي ملّة واحدة لسائر الرسل. أي: أصولها واحدة كقوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً }.

والتأكيد على هذا لردّ إنكار من ينكر ذلك مثل المشركين.

الأمّة: هنا بمعنى الملّة كقوله تعالى { قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ }. وأصلها الجماعة التي حالها واحد.

{ **أُمَّةً وَاحِدَةً** } حال من { أُمَّتُكُمْ } مؤكّدة لما أفادته الإشارة التي هي العامل في صاحب الحال. وأفادت التمييز والتشخيص لحال الشرائع التي عليها الرسل أو التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى كونها واحدة أنّها توحّد الله تعالى فليس دونه إله. وهذا حال شرائع التوحيد وبخلافها أديان الشرك فإنّها لتعدّد آلهتها تتشعب إلى عدّة أديان.

{ **وَأَنَا رَبُّكُمْ** } أفاد الحصر، أي: أنا لا غيري، بقرينة السياق والعطف على { أُمَّةً وَاحِدَةً }.

{ **فَاعْبُدُونِ** } تفريع، أي: فاعبدون دون غيري. وهذا الأمر مراعى فيه ابتداء حال السامعين من أمم الرسل، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها.

{ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } [93]

عطف على الآية السابقة. وضمائر الغيبة عائدة إلى مفهوم من المقام وهم الذين من الشأن التحدّث عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذام، وهم المشركون. ومثل هذه الضمائر المراد منها المشركون كثير في القرآن. ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل.

فعلى الوجه الأول الذي قدّمناه في ضمائر الخطاب في قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } يكون الكلام انتقالا من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاءوا بعدهم مثل اليهود والنصارى، إذ نقضوا وصايا أنبيائهم. وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة التفاتا.

التقطّع: مطاوع قطع، أي: تفرّقوا. وأسند التقطّع إليهم لأنّهم جعلوا أنفسهم فرقا فعبدوا آلهة متعدّدة واتخذت كل قبيلة لنفسها إلها من الأصنام مع الله، فشُبّه فعلهم ذلك بالتقطّع.

الأمر: الحال. والمراد به الدين كما دلّ عليه قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ } [الأنعام:159].

{ **بَيْنَهُمْ** } زيادة لإفادة أنّهم تعاونوا وتظاهروا على تقطّع أمرهم. فرُبَّ قبيلة اتخذت صنما لم تكن تعبده قبيلة أخرى ثم سوّلوا لجيرتهم وأحلافهم أن يعبدوه فألحقوه بآلهتهم. وهكذا حتّى كان في الكعبة عدة أصنام وتماثيل لأنّ الكعبة مقصودة لجميع قبائل العرب. وقد روي أنّ عمرو بن لُحي الملقب بخزاعة هو الذي نقل الأصنام إلى العرب.

{ **كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ** } استئناف بيانيّ لجواب سؤال يجيش في نفس سامع حول معرفة عاقبة هذا التقطّع. والكلام يفيد تعريضا بالتهديد.

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } [94]

فُرّع على الوعيد المُعَرَّض به في قوله تعالى { كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } تفريع بديع من بيان صفة ما تُوعِّدوا به، وذلك من قوله تعالى { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا }.

وقدّم وعد المؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحة اهتماما به، ولوقوعه عقب الوعيد تعجيلا لمسرّة المؤمنين قبل أن يسمعوا قوارع تفصيل الوعيد، فليس هو مقصودا من التفريع، ولكنّه يشبه الاستطراد تنويها بالمؤمنين كما سيُعتنى بهم عقب تفصيل وعيد الكافرين بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى } إلى آخر السورة.

الكفران: مصدر أصله عدم الاعتراف بالإحسان، ضدّ الشكران، واستعمل هنا في حرمان الجزاء على العمل الصالح على طريقة المجاز، لأنّ الاعتراف بالخير يستلزم الجزاء عليه عرفا كقوله تعالى { وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ } . فالمعنى: أنّهم يعطون جزاء أعمالهم الصالحة.

{ **وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ** } تأكيد للاهتمام به. و**الكتابة** كناية عن تحقّقه وعدم إضاعته، لأنّ الاعتناء بإيقاع الشيء يستلزم الحفظ عن إهماله وعن إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابته ليذكر ولو طالت المدة.

والكتابة مستعملة في معناها الأصلي كما جاءت بذلك الظواهر من الكتاب والسنّة.

{ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ }[95]

جملة معترضة، والمراد بالقرية أهلها. وهذا يعمّ كلّ قرية من قرى الكفر، كما قال تعالى { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا }.

الحرام: الشيء الممنوع.

{ **وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ** } أي: ممنوع على قرية قدّرنا إهلاكها أن لا يرجعوا، فـ { حَرَامٌ } خبر مقدّم و { أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ } في قوة مصدر مبتدأ.

وقيل: { حَرَامٌ } اسم مشترك بين الممنوع والواجب.

وقيل: (حرام الله) يمين على لغة العُقيليين، أي: ويمين منّا على قرية، فحرف (على) داخل على المسلّطة عليه اليمين، كما تقول: عزمت عليك، وكما يقال: حلفت على فلان أن لا ينطق. وقوله { لا يَرْجِعُونَ } على هذا الوجه معناه: لا يرجعون إلى الإيمان، لأنّ الله علم ذلك منهم فقدر إهلاكهم.

{ **أَهْلَكْنَاهَا** } مستعمل في إرادة وقوع الفعل، أي: أردنا إهلاكها.

الرجوع: في الحقيقة العود إلى ما كان فيه المرء.

يحتمل أنّ المراد رجوعهم عن الكفر فيتعيّن أن تكون (لا) في قوله تعالى { لا يَرْجِعُونَ } زائدة للتوكيد، لأنّ { حَرَامٌ } في معنى النفي و(لا) نافية ونفي النفي إثبات، فيصير المعنى منع عدم رجوعهم إلى الإيمان، فيؤول إلى أنّهم راجعون إلى الإيمان، وليس هذا بمراد. فتعين أن المعنى: مُنع على قرية قدرنا هلاكها أن يرجعوا عن ضلالهم لأنّه قد سبق تقدير هلاكها.

وهذا إعلام بسنة الله تعالى في تصرّفه في الأمم الخالية مقصود منه التعريض بتأييس فريق من المشركين من المصير إلى الإيمان وتهديدهم بالهلاك. وهؤلاء هم الذين قدّر الله هلاكهم يوم بدر بسيوف المؤمنين.

ويجوز أن يراد رجوعهم إلى الآخرة بالبعث، وهو المناسب لتفريعه على قوله تعالى { كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } فتكون (لا) نافية. والمعنى: ممنوع عدم رجوعهم إلى الآخرة الذي يزعمونه، أي: فهم راجعون إلينا

فمجازون على كفرهم، فيكون إثباتا للبعث بنفي ضدّه، وهو أبلغ من صريح الإثبات لأنّه إثبات بطريق الملازمة، فكأنّه إثبات الشيء بحجّة.
وفعل { أَهْلَكْنَاهَا }، على هذا الوجه، مستعمل في أصل معناه، أي وقع إهلاكنا إيّاها. والمعنى: ما من قرية أهلكناها فانقرضت من الدنيا إلّا وهم راجعون إلينا بالبعث.

{ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ [96] وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ [97] }.
{ **حَتَّى** } ابتدائية. والجملة بعدها كلام مستأنف لا محل له من الإعراب ولكن (حتّى) تكسبه ارتباطا بالكلام الذي قبله. وظاهر كلام الزمخشري: أنّ معنى الغاية لا يفارق (حتّى) حين تكون للابتداء، ولذلك عني هو ومن تبعه من المفسّرين بتطلب المغيَّا بها هاهنا فجعلها في الكشاف غاية لقوله { وَحَرَامٌ }، لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتّى تقوم القيامة.
فأما دلالة "حتّى" الابتدائية على معنى الغاية، أي كون ما بعدها غاية لمضمون ما قبلها، فلا أراه لازما. ولأمر ما فرّق العرب بين استعمالها جارة وعاطفة وبين استعمالها ابتدائية. فإن معنى الغاية في (حتّى) الجارة وهي الأصل في استعمال هذا الحرف ظاهر لأنّها بمعنى (إلى)، وفي (حتّى) العاطفة لأنّها تفيد التشريك في الحكم فتعيّن أن يكون المعطوف بها نهاية للمعطوف عليه في المعنى المراد.
فأما (حتّى) الابتدائية فإن وجود معنى الغاية معها في مواقعها غير منضبط ولا مطّرد، ولمّا كان ما بعدها كلاما مستقلًّا تعيّن أن يكون وجودها بين الكلامين لمجرد الربط بين الكلامين. من ذلك قوله تعالى { وَزُلْزِلُوا حتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } فإنّ قول الرسول ليس غاية للزلزلة ولكنه ناشئ عنها.
{ **إِذَا فُتِحَتْ** } إسناد فعل إلى { يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ } بتقدير مضاف، أي فتح ردمهما أو سدّهما.
يأجوج ومأجوج: هم قبيلتان من أمّة واحدة مثل طسم وجديس. وتقدّم الكلام حولهما في سورة الكهف.
الحدب: النشز من الأرض، وهو ما ارتفع منها.
{ **يَنْسِلُونَ** } يمشون النَّسَلان بفتحتين، وأصله: مشي الذئب. والمراد: المشي السريع.
وقد مُثلت حالة الكافرين في ذلك الحين بأبلغ تمثيل وأشدّه وقعا في نفس السامع، إذ جعلت مفرّعة على فتح يأجوج ومأجوج
وعلى هذا التفسير ففتح يأجوج ومأجوج هو فتح السدّ الذي هو حائل بينهم وبين الانتشار في أنحاء الأرض بالفساد، وهو المذكور في قصة ذي القرنين في سورة الكهف.

ويجوز أن يكون المراد بفتح يأجوج ومأجوج تمثيل إخراج الأموات إلى الحشر، ويكون اسم يأجوج ومأجوج تشبيها بليغا. وتخصيصهما بالذكر لشهرة كثرة عددهما عند العرب من خبر ذي القرنين.

أو يكون اسم يأجوج ومأجوج استعمل مثلا للكثرة، وتؤيّده قراءة ابن عباس وابن مسعود ومجاهد، (جدث) بجيم ومثلثة، أي من كل قبر، في معنى قوله تعالى { وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ } فيكون ضميرا { وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ } عائدين إلى مفهوم من المقام دلت عليه قرينة الرجوع من قوله تعالى { لَا يَرْجِعُونَ } أي: أهل كل قرية أهلكناها.

{ **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ** } القرب الشديد وهو المشارفة، أي اقترب الوعد الذي وُعِده المشركون، وهو العذاب بأن رأوا النار والحساب. وفيه إشارة إلى سرعة حصول تلك الحالة لهم.

{ **فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } تصدير الجملة بحرف المفاجأة والمجازاة يفيد الحصول دفعة بلا تدرّج ولا مهلة، ثم بالإتيان بضمير القصة ليحصل للسامع علم مجمل يفصّله ما يفسّر ضمير القصة.

الشخوص: إحداد البصر دون تحرّك كما يقع للمبهوت.

{ **يَا وَيْلَنَا** } مقول قول محذوف كما هو ظاهر، أي: يقولون حينئذ: يا ويلنا. دعاء على أنفسهم من شدة لحقهم.

{ **فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا** } دلت (في) على تمكّن الغفلة منهم حتّى كأنّها محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف، أي: كانت لنا غفلة عظيمة، وهي غفلة الإعراض عن أدلة الجزاء والبعث.

{ **مِنْ هَذَا** } المشار إليه هو مجموع تلك الأحوال؛ من الحشر والحساب والجزاء.

{ **بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ** } للإضراب الإبطالي، أي: ما كنّا في غفلة لأنّنا قد دُعينا وأُنذرنا وإنّما كنّا ظالمين أنفسنا بمكابرتنا وإعراضنا.

{ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [98] لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ [99] لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ [100] }.

مقول قول محذوف على طريقة المحاورات، فالتقدير: يقال لهم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم. وهو ارتقاء في ثبورهم، فهم قالوا { يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } فأُخبروا بأنّ آلهتهم، وهم أعزّ عليهم من أنفسهم وأبعد في أنظارهم عن أن يلحقهم سوء، صائرون إلى مصيرهم من الخزي والهوان، ولذلك أكّد الخبر بحرف التأكيد لأنّهم كانوا بحيث ينكرون ذلك.

{ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } و(ما) موصولة وأكثر استعمالها فيما يكون فيه صاحب الصلة غير عاقل. وأطلقت هنا على معبوداتهم من الأصنام والجن والشياطين تغليبا. وكانت أصنامهم ومعبوداتهم حاضرة في ذلك المشهد كما دلت عليه الإشارة { لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا }.

الحصب: اسم بمعنى المحصوب به. أي المَرمي به. ومنه سمِّيت الحصباء لأنّها حجارة يُرمى بها، أي: يُرمَوْن في جهنم، كما قال تعالى { وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }. أي: الكفار وأصنامهم.

{ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } بيان للجملة السابقة. والمقصود: الاتصاف بورود النار في الحال، كما هو شأن الخبر باسم الفاعل فإنّه حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال.

{ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا } وقد زيد في نكايتهم بإظهار خطئهم في عبادتهم تلك الأصنام بأن أُشهدوا إيرادها النار.

{ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ } تذييل، أي: هم وأصنامهم.

الزفير: النفس يخرج من أقصى الرئتين لضغط الهواء من التأثّر بالغمّ. وهو هنا من أحوال المشركين.

{ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ } اقتضاه قوله { لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ } لأنّ شأن الزفير أن يُسمع فأخبر الله بأنّهم من شدّة العذاب يفقدون السمع.

وقد روى ابن إسحاق في سيرته أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد الحرام فجاء النضر بن الحارث فجلس معهم في مجلس من رجال قريش، فتلا رسول الله عليهم قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} ثم قام رسول الله، وأقبل عبد الله بن الزِبَعْرَى السهمي، قبل أن يسلم، فحدّثه الوليد بن المغيرة بما جرى في ذلك المجلس فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فاسألوا محمدًا أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبدوهم؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم. فحُكي ذلك لرسول الله، فقال رسول الله: **إنّ كلّ من أحبّ أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنّهم إنّما يعبدون الشيطان الذي أمرهم بعبادتهم**، فأنزل الله { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} ".

{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ [101] لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ [102] لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [103] }.

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعا إليه مقابلة حكاية حال الكافرين وما يقال لهم يوم القيامة بحكاية ما يلقاه الذين آمنوا يوم القيامة وما يقال لهم. فالذين سبقت لهم الحسنى هم الفريق المقابل لفريق القرية التي سبق في علم الله إهلاكها، ولمّا كان فريق القرية هم المشركين فالفريق المقابل له هم المؤمنون.

السبق: حقيقته تجاوز الغير في السير إلى مكان معيّن. ومنه سباق الخيل. واستعمل هنا مجازا في ثبوت الأمن في الماضي، يقال: كان هذا في العصور السابقة. أي: الذين حصلت لهم الحسنى في الدنيا، أي: حصل لهم الإيمان والعمل الصالح بتوفيق من الله وتقديره.

الحُسنى: الحالة الحسنة في الدين، قال تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس:26] .أو الموعدة الحسنى، أي: تقرّر وعد الله إيّاهم بالمعاملة الحسنى.

{ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } ذكر اسم الإشارة بعد ذلك لتمييزهم بتلك الحالة الحسنة، وللتنبيه على أنّهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما تقدّم على اسم الإشارة من الأوصاف، وهو سبق الحسنى من الله.

واختير اسم إشارة البعيد للإيماء إلى رفعة منزلتهم، والرفعة تُشبّه بالبعد.

{ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا } بيان، أي: مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرّها ولا يروّعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد ما يبلغ منه المرئي.

الحسيس: الصوت الذي يبلغ الحسّ، أي الصوت الذي يُسمع من بعيد، أي لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها.

{ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ } عقّب بما هو أخصّ من السلامة وهو النعيم الملائم. وجيء فيه بما يدلّ على العموم وهو { فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ } وما يدلّ على الدوام وهو { خَالِدُونَ }.

الشهوة: تشوّق النفس إلى ما يلذّ لها.

{ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ } خبر ثان عن الموصول.

الفزع: نفرة النفس وانقباضها ممّا تتوقّع أن يحصل لها من الألم، وهو قريب من الجزع، والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إيّاهم.

{ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } مقول لقول محذوف، أي يقولون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون، تذكيرا لهم بما وُعدوا في الدنيا من الثواب.

التلقّي: التعرّض للشيء عند حلوله تعرّض كرامة. والصيغة تشعر بتكلّف لقائه وهو تكلّف تهيؤ واستعداد.

{ **هَذَا يَوْمُكُمُ** } إشارة للقريب لتعيين اليوم وتمييزه بأنّه اليوم الحاضر. وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه.

{ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[104]

جملة مستأنفة قُصد منها إعادة ذكر البعث والاستدلال على وقوعه وإمكانه إبطالا لإحالة المشركين وقوعه بعلّة أنّ الأجساد التي يُدّعى بعثها قد انتابها الفناء العظيم { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة:10]. والمناسبة في هذا الانتقال هو ما جرى من ذكر الحشر والعقاب والثواب.

وقد رتِّب نظم الجملة على التقديم والتأخير لأغراض بليغة.

{ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ** } تغيير أجرامها من موقع إلى موقع، أو اقتراب بعضها من بعض كما تتغيّر أطراف الورقة المنشورة حين تطوى ليكتب الكاتب في إحدى صفحتيها. وهذا مظهر من مظاهر انقراض النظام الحالي، وهو انقراض له أحوال كثيرة وصف بعضها في سور من القرآن.

وليس في الآية دليل على اضمحلال السماوات بل على اختلال نظامها، وفي سورة الزمر { وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } [الزمر:67] .

{ **كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ** } قرأه حفص وحمزة والكسائي وخلف {للكُتُب} (بضم الكاف وضم التاء) بصيغة الجمع. وقرأ الجمهور { للكتاب } بصيغة الإفراد. فأمّا قراءتها بصيغة الإفراد ففيها محسِّن مراعاة النظير في الصيغة، وأمّا قراءة الكتب بصيغة الجمع مع كون السجل مفردا ففيها حسن التفنّن بالتضاد.

الطيّ: رد بعض أجزاء الجسم الليّن المطلوق على بعضه الآخر، وضدّه النشر.

السِجِلّ: (بكسر السين وكسر الجيم)، وفيه لغات. يطلق على الورقة التي يكتب فيها، ويطلق على كاتب الصحيفة، ولعلّه تسمية على تقدير مضاف محذوف، أي صاحب السجلّ.

وقيل سجلّ: اسم ملك في السماء تُرفع إليه صحائف أعمال العباد فيحفظها.

ولا يحسن حمله على معنى الصحيفة لأنّه لا يلائم إضافة الطيّ إليه ولا إرادفه لقوله { للكتاب / للكتب }، ولا حمله على معنى الملك الموكل بصحائف الأعمال لأنّه لم يكن مشهورا فكيف يشبّه بفعله. فالوجه: أن يراد بالسجلّ الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها، وذلك عمل معروف. فالتشبيه بعمله رشيق.

{ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** } حال مقدّم من الضمير المنصوب في { نُعِيدُهُ } للتعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكّن في النفس أفضل تمكّن. وكل ذلك وجوه للاهتمام بتحقيق وقوع البعث.

وظاهر ما أفاده (الكاف) من التشبيه أنّ إعادة خلق الأجسام شُبِّهت بابتداء خلقها. ووجه الشبه هو إمكان كليهما والقدرة عليهما وهو الذي سيق له الكلام.

البدء: الفعل الذي لم يسبق مماثله بالنسبة إلى فاعل أو إلى زمان أو نحو ذلك. وبدء الخلق كونه لم يكن قبل، أي: كما جعلنا خلقا مبدوءا غير مسبوق في نوعه.

خلق: مصدر بمعنى المفعول.

نُعِيدُهُ: ومعنى إعادة الخلق إعادة مماثلة في صورته فإنّ الخلق - أي: المخلوق - باعتبار أنّه فرد من جنس إذا اضمحل فقيل: أُعيد، فإنما يعاد مثله. كما قال تعالى { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } أي: مثل سيرتها في جنسها، أي: في أنّها عصا من العصي.

{ **وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** } عقّب ذلك بما يفيد تحقيق حصول البعث من كونه وعدا على الله، بتضمين الوعد معنى الإيجاب، فعدّي بحرف (على)، أي: حقا واجبا.

{ **إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** } مؤكَّدة بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر قدرة الله، لأنّهم لمّا نفوا البعث بعلّة تعذر إعادة الأجسام بعد فنائها فقد لزمهم إحالتهم ذلك في جانب قدرة الله.

{ **فَاعِلِينَ** } أنّه الفاعل لما وعد به، أي: القادر.

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ [105] إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ [106] }.

{ **أَنَّ الْأَرْضَ** } المُراد الراجح أرضا من الدنيا، أي مصيرها بيد عباد الله الصالحين، فالآية مسوقة لوعد المؤمنين بميراث الأرض التي لقوا فيها الأذى، وهي أرض مكّة وما حولها، فتكون بشارة بصلاح حالهم في الدنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة على حد قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

أي: أنّ سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح. وقد صدق الله وعده في الحالين وعلى الاحتمالين [أرض الدنيا وأرض الآخرة]. وفي حديث أبي داود والترمذي عن ثوبان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إنّ الله زوّى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِّيَ لي منها "**.

{ **فِي الزَّبُورِ** } وقرأ الجمهور {فِي الزَّبُورِ} بصيغة الإفراد وهو اسم المزبور، أي المكتوب. وقرأ حمزة بصيغة الجمع زُبور جمع زِبْر، أي: في الكتب.

فعلى قراءة الجمهور، يكون تخصيص هذا الوعد بكتاب داود، لأنّه لم يُذكر وعد عام للصالحين بهذا الإرث في الكتب السماوية قبله. وما ورد في التوراة فيما حكاه القرآن من قول موسى عليه السلام { إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } فذلك خاص بأرض المقدس وببني إسرائيل.

الزّبور: كتاب داود وهو مبثوث في الكتاب المسمّى بالمزامير من كتب اليهود. ولم أعثر على الجملة التي تضمّنت هذا الوعد في المزامير. ووجدت في محاضرة للإيطالي المستعرب (فويدو) أنّ نصّ هذا الوعد من الزبور باللغة العبرية هكذا: " صديقين يرشون أرص " (بشين معجمة، وبصاد مهملة)، أي: الصدِّيقون يرثون الأرض.

والمقصود: الشهادة على هذا الوعد من الكتب السالفة وذلك قبل أن يجيء مثل هذا الوعد في القرآن في قوله تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [النور:55].

وعلى قراءة حمزة أن هذا الوعد تكرر لفرق من العباد الصالحين.

{ **مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ** } أنّ ذلك الوعد ورد في الزبور عقب تذكير ووعظ للأمّة. فبعد أن ألقيت إليهم الأوامر وُعِدوا بميراث الأرض. وقيل المراد بـ { الذِّكْرِ } كتاب الشريعة، وهو التوراة. قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ} [الانبياء:48]. فيكون الظرف في قوله تعالى { مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ } مستقرا في موضع الحال من الزبور.

والمقصود من هذه الحال الإيماء إلى أنّ الوعد المتحدّث عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى من إعطائهم الأرض المقدسة { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } [المائدة:21]، وأنّه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من الملك والسلطان، لأنّ ذلك وعد كان قبل داود. بل المراد الإيماء إلى أنّه وعد وعده الله قوما صالحين بعد بني إسرائيل، وليسوا إلّا المسلمين الذين صدقهم الله وعده فملكوا الأرض ببركة رسولهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واتسع ملكهم وعظم سلطانهم حسب ما أنبأ به نبيّهم عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم آنفا، " **إنّ الله زوّى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها...** ".

{ **إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ** } تذييل للوعد وإعلان بأنّ قد آن أوانه وجاء إبّانه. فإنّه لم يأت بعد داود قوم مؤمنون ورثوا الأرض، فلمّا جاء الإسلام وآمن الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد بلغ البلاغ إليهم.

{ **إِنَّ فِي هَذَا** } إشارة إلى الوعد الموعود في الزبور والمبلّغ في القرآن.

{ **لِقَوْمٍ عَابِدِينَ** } الذين من شأنهم العبادة لا ينحرفون عنها قيد أنملة، كما أشعر بذلك جريان وصف العابدين

على لفظ (قوم). والقوم العابدون هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، والموجودون يومئذ والذين جاءوا من بعدهم.

العبادة: الوقوف عند حدود الشريعة.

وما أشبه هذا الوعد المذكور هنا ونوطه بالعبادة بالوعد الذي وعدته هذه الأمّة في القرآن { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }.

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [107]

أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم، وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنّه لم يكن بدعا من الرسل، وذُكّروا إجمالا، ثم ذكّرت طائفة منهم على التفصيل. وتخلّل ذلك بمواعظ ودلائل.

فهذه الجملة عطفت على جميع ما تقدّم من ذكْر الأنبياء الذين أوتوا حكما وعلما وذكْر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم. ومزيّتها على سائر الشرائع، مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين.

وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى بخلقه.

{ **رَحْمَةً** } التنكير للتعظيم، إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم. ووقوع الوصف مصدرا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكّنة من إرساله.

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين:

<u>المظهر الأوّل: تخلُّق نفسه الزكية بخلق الرحمة.</u>

يعني أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم فُطر على خُلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمّة لتتكوّن مناسبة بين روحه الزكيّة وبين ما يُلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة. قالت عائشة: " كان خلقه القرآن ".

ولهذا خصَّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كلّه، قال تعالى { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة:128] وقال تعالى { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ } [آل عمران:159]، أي: برحمةٍ جَبَلَكَ عليها وفطرك بها فكنت لهم ليّنا.

وفي حديث مسلم: " أنّ رسول الله لما شُجَّ وجهه يوم أحُد شقّ ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال: **إنّي لم أبعث لعَّانا وإنّما بعثت رحمة** ".

المظهر الثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

أي ما فيها من مقوّمات الرحمة العامة للخلق كلّهم لأنّ قوله تعالى { للعالمين } متعلق بقوله { رَحْمَةً }.

{ **العَالَمِينَ** } التعريف لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم.

فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنّها أوسع الشرائع رحمة بالنّاس وبكافة المخلوقات، فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلّا أنّ الرحمة فيها غير عامة؛

إمّا لأنّها لا تتعلّق بجميع أحوال المكلّفين، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام. وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك.

وإمّا لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدّة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة هي لها، مثل شريعة التوراة، فإنّها أوسع الشرائع السالفة لتعلّقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:154]، فإن كثيرا من عقوبات أمّتها جعلت في فرض أعمال شاقة قال تعالى { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } [النساء:160] وقال { فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } [البقرة:54] إلى آيات كثيرة.

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيّأت بتطوراتها لأن تُساس بالرحمة وأن تُدفع عنها المشقة إلّا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدّة وما في شريعة الإسلام من تمحّض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة.

وما يُتخيّل من شدّة في نحو القصاص والحدود فإنّما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ } . فالقصاص والحدود شدّة على الجناة ورحمة ببقيّة النّاس.

وأمّا رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنّما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمّة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم. وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

كما رغّبت الشريعة في رحمة الحيوان، ففي حديث الموطأ عن أبي هريرة مرفوعا:" **أنّ الله غفر لرجل وجد كلبا يلهث من العطش، فنزل في بئر فملأ خفّه ماء وأمسكه بفمه حتّى رقي فسقى الكلب، فغفر الله له** ".

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للنّاس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو وحرّم تعذيب الحيوان لغير أكله. أمّا المؤذي والمضرّ من الحيوان فقد أُذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم. وفي تفاصيل الأحكام من هذا القبيل كثرة لا يعوز الفقيه تتبّعها.

{ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [108]

عُقِّب الوصف الجامع لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث ما لها من الأثر في أحوال البشر بوصف جامع لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كل متّبع لها وهو الإيمان بوحدانية الله تعالى وإبطال إلهية ما سواه، لنبذ الشرك المبثوث بين الأمم يومئذ.

{ **قُلْ** } للاهتمام بذلك صدرت جملته بالأمر لاستصغاء أسماعهم.

{ **إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ** } قصر الوحي إلى الرسول على مضمون جملة { أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } هو قصر إضافي.

{ **أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } صيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها لأنّ مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرّع عليه، فالدعوة إليه هي مَقادة الاجتلاب إلى الشريعة كلّها، إذ كان أصل الخلاف يومئذ بين الرسول ومعانديه هو قضية الوحدانية ولذلك قالوا { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص:5/4].

وما كان إنكارهم البعث إلّا لأنّهم لم يجدوه في دين شركهم، إذ كان الذين وضعوا لهم الشرك لا يحدّثونهم إلّا عن حالهم في الدنيا. فلا جرم كان الاهتمام بتقرير الوحدانية تضييقا لشقّة الخلاف بين النبيّ وبين المشركين.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** } الاستفهام حقيقي، أي فهل تسلمون بعد هذا البيان. وهو مستعمل أيضا في معنى كنائي وهو التحريض على نبذ الإشراك وعلى الدخول في دعوة الإسلام. وصيغ ذلك في الجملة الاسمية الدالة على الثبات، لإفادة أن المطلوب منهم إسلام ثابت.

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ } [109]

فإن أعرضوا بعد هذا التبيين المفصّل والجامع فأبلغهم الإنذار بحلول ما توعّدهم الله به.

الإيذان: الإعلام، من أذن لكذا بمعنى سمع. واشتقاقه من اسم الأذن، وهي جارحة السمع، ثم استعمل بمعنى العلم بالسمع ثم شاع استعماله في العلم مطلقا. وأمّا (آذن) فهو فعل متعدّ بالهمزة، وكثر استعمال الصيغتين في معنى الإنذار وهو الإعلام المشوب بتحذير. فمن استعمال أذن قوله { فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ }.

{ **آذَنْتُكُمْ** } حذف المفعول الثاني لدلالة قوله تعالى { مَا تُوعَدُونَ } عليه، أو يقدّر: آذنتكم ما يوحى إليّ.

{ **عَلَى سَوَاءٍ** } (على) فيه للاستعلاء المجازي، وهو قوّة الملابسة وتمكّن الوصف من موصوفه.

سواء: اسم معناه مستو. و**الاستواء:** المماثلة في شيء ويُجمع على أسواء.

فيجوز أن يكون { عَلَى سَوَاءٍ } ظرفا مستقرا هو حال من ضمير الخطاب في قوله تعالى { آذَنْتُكُمْ }، أي: أنذرتكم مستوين في إعلامكم به لا يدّعي أحد منكم أنّه لم يبلغه الإنذار. وهذا إعذار لهم وتسجيل عليهم كقوله في خطبته: " **ألا هل بلغت** ".

ويجوز أن يتعلّق المجرور بفعل { آذَنْتُكُمْ } قال أبو مسلم: " الإيذان على السواء: الدعاء إلى الحرب مجاهرة، لقوله تعالى { فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ } ". يريد أنّ هذا مُثّل بحال النذير بالحرب، إذ لم يكن في القرآن النازل بمكة دعاء إلى حرب حقيقية.

{ **وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ** } يشمل كل ما يوعدونه من عقاب في الدنيا والآخرة.

{ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } [110]

جملة معترضة بين الجمل المتعاطفة. وضمير الغائب عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام. والمقصود من الجملة تعليل الإنذار بتحقيق حلول الوعيد بهم، وتعليل عدم العلم بقربه أو بعده، علّل ذلك بأنّ الله تعالى يعلم جهرهم وسرّهم وهو الذي يؤاخذهم عليه وهو الذي يعلم متى يحلّ بهم عذابه.

{ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [111]

عطف على جملة { وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ } والضمير الذي هو اسم (لعلّ) عائد إلى ما يدلّ عليه قوله تعالى { أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ } من أنّه أمر منتظر الوقوع وأنه تأخّر عن وجود موجبه.

والتقدير: لعلّ تأخير ما توعدون فتنة لكم أرادها الله ليملي لكم، إذ بتأخير الوعد يزدادون في التكذيب والتولّي وذلك فتنة.

الفتنة: اختلال الأحوال المفضي إلى ما فيه مضرّة.

المتاع: ما ينتفع به مدّة قليلة. كما تقدّم في قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } . [آل عمران:197/196].

الحين: الزمان.

{ **قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** } [112]

استئناف ابتدائي بعدما مضى من وصف رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ. قُصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوّة المستقبلة لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين.

وفي أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالالتجاء إليه والاستعانة به بعد ما قال له { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ } رمز إلى أنّهم متولون لا محالة وأن الله سيحكم فيهم بجزاء جرمهم.

{ بِالحَقِّ } الباء للملابسة. وحذف المتعلق الثاني لفعل { احْكُمْ } لتنبيههم إلى أنّ النبي على الحقّ، فإنّه ما سأل الحكم بالحقّ إلّا لأنّه يريده، أي: احكم لنا أو فيهم أو بيننا.

{ **رَبِّ** } منادى مضاف حذفت منه ياء المتكلّم المضاف هو إليها وبقيت الكسرة دليلا على الياء.

{ **وَرَبُّنَا** } تعريف المسند إليه بالإضافة لتضمّنها تعظيما لشأن المسلمين بالاعتزاز بأنّ الله ربّهم.

وضمير المتكلم المشارك للنبيّ ومن معه من المسلمين. وفيه تعريض بالمشركين بأنّهم ليسوا من مربوبية الله في شيء حسب إعراضهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام.

{ **الرَّحْمَنُ** } عطف بيان من { رَبُّنَا } لأن المراد به هنا الاسم لا الوصف تورّكا على المشركين، لأنّهم أنكروا اسم الرحمان { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

{ **المُسْتَعَانُ** } التعريف لإفادة القصر، أي: لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربّنا، وهو ناظر إلى قوله تعالى { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }.

{ **عَلَى مَا تَصِفُونَ** } هناك مضاف محذوف هو مجرور { عَلَى } ، أي: على إبطال ما تصفون.

{ **مَا تَصِفُونَ** } ما تصدر به أقوالكم من الأذى لنا. فالوصف هنا هو الأقوال الدالة عن الأوصاف. وهم وصفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بصفات ذم كقولهم: مجنون وساحر، ووصفوا القرآن بأنّه شعر وأساطير الأولين، وشهّروا ذلك في دهمائهم لتأليب الناس عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجّ

سمِّيت هذه السورة سورة الحجّ في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم. أخرج أبو داود، والترمذي عن عقبة بن عامر قال: " قلت: يا رسول الله، أفضِّلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: **نعم** ".

وأخرج أبو داود، وابن ماجه عن عمرو بن العاص أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصّل، وفي سورة الحجّ سجدتان. وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورة الحجّ أنّ الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حجّ البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحجّ وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعا للذين يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام، وإن كان نزولها قبل أن يُفرض الحجّ على المسلمين بالاتفاق، وإنّما فُرض الحجّ بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران.

واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية أو كثير منها مكي وكثير منها مدني؟

قال الجمهور هذه السورة **بعضها مكّي وبعضها مدني** وهي مختلطة، أي لا يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه. قال ابن عطية: **وهو الأصح**.

ويشبه أن يكون أوّلها نزل بمكة فإنّ افتتاحها بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } جار على سنن فواتح السور المكّية. وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكّة. ومع هذا فليس الافتتاح بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } بمعين أن تكون مكّية. قال ابن عباس: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } يراد به المشركون.

ولعل ترتيبها كان بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومثل ذلك كثير.

وقد عدّت السورة الخامسة والمائة في عداد نزول سورة القرآن في رواية جابر بن زيد عن ابن عباس.

وعدّت آياتها عند أهل المدينة ومكّة: سبعا وسبعين. وعدّها أهل الشام: أربعا وسبعين. وعدّها أهل البصرة: خمسا وسبعين: وعدّها أهل الكوفة: ثمانا وسبعين.

أغراض السورة

*/ خطاب النّاس بأمرهم أن يتّقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهواله.

*/ الاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالإلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعا لوساوس الشياطين، وأنّ الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي والآخرة.

*/ تفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنّهم لا يستندون إلى علم وأنّهم يعرضون عن الحجّة ليضلّوا الناس.

*/ أنّهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه، وكيف يرتابون فيه بعلّة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أنّ الله أوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوَّره أطورا.

*/ أنّ الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتُخرج من أصناف النبات، فالله هو القادر على كل ذلك، فهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

*/ أنّ مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبّر عن الامتثال لقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

*/ وصف المشركين بأنّهم في تردّد من أمرهم في اتباع دين الإسلام.

*/ التعريض بالمشركين بتكبّرهم عن سنّة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنّهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين.

*/ تذكير لهم بما منّ الله عليهم في مشروعية الحجّ من المنافع.

*/ تنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحلّ بهم العذاب.

*/ أنّه يوشك أن يحلّ بهؤلاء مثله، وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا.

*/ أن اختلاف الأمم بين أهل هدى وأهل ضلال أمر به افترق النّاس إلى ملل كثيرة.

*/ التنويه بالقرآن والمتلقّين له، والثناء عليهم، وأنّ الله يسّر لهم أتّباع الحنيفيّة وسمّاهم المسلمين.

*/ الإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض.

*/ ختمت السورة بتذكير النّاس بنعم الله عليهم وأنّ الله اصطفى خلقا من الملائكة ومن النّاس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقرّبهم إلى الله زلفى، وأنّ الله هو مولاهم وناصرهم.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } [1]

نداء للنّاس كلّهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يوم نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة، ليتلقّوا الأمر بتقوى الله وخشيته، أي: خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله.

وأوّل فريق هم المشركون من أهل مكّة، حتّى قيل: إنّ الخطاب بذلك خاص بهم. وهذا يشمل مشركي أهل المدينة قبل صفائها منهم.

{ رَبَّكُمْ } التعبير عن الذات العليّة بصفة (الربّ) مضافا إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى استحقاقه أن يُتَّقى لعظمته بالخالقيّة، وإلى جدارة النّاس بأن يتّقوه، لأنّه لا يأمر ولا ينهى إلّا لرعي المصالح ودرء المفاسد.

وأوّل تقواه هو تنزيهه عن النقائص، وفي مقدّمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيّته في الإلهية.

{ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } في موضع العلّة للأمر بالتقوى كما يفيد حرف التوكيد الواقع في مقام خطاب لا تردّد للسامع فيه.

الزلزلة: حقيقتها تحرّك عنيف في جهة من سطح الأرض، وهي من الظواهر الأرضية المرعبة ينشأ عنها تساقط البناء وقد ينشأ عنها خسف الأشياء في باطن الأرض.

الساعة: عَلَم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخروي، قال تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا - إلى قوله - يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُم } [الزلزلة:1-6].

وإضافة { زلزلة } إلى { السَّاعَةِ } على معنى **(في)**، أي: الزلزلة التي تحدث وقت حلول الساعة. والظاهر حمل الزلزلة على الحقيقة، وهي حاصلة عند إشراف العالم الدنيوي على الفناء وفساد نظامه.

ويجوز أن تكون الزلزلة مجازا عن الأهوال والمُفزعات التي تحصل يوم القيامة، فإنّ ذلك تُستعار له الزلزلة قال تعالى { وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } أي: أصيبوا بالكوارث والأضرار لقوله قبله { مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاء } . وفي دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم على الأحزاب: **" اللّهم اهزمهم وزلزلهم "**.

{ شَيْءٌ } للتهويل بتوغله في التنكير.

العظيم: الضخم، وهو هنا استعارة للقوي الشديد. والمقام يفيد أنّه شديد الشرّ.

{ **يَوْمَ تَرَوْنَـهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** } [2]

بيان للجملة السابقة، لأنّ ما ذكر في هذه الجملة يبيّن معنى كونها شيئا عظيما.

{ **يَوْمَ تَرَوْنَـهَا** } يتعلّق بفعل { تَذْهَلُ }، وتقديمه على عامله للاهتمام بالتوقيت بذلك اليوم وتوقّع رؤيته لكلّ مخاطب من النّاس. وأصل نظم الجملة: تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت يوم ترون زلزلة الساعة.

رؤيتها: رؤية ما يحدث فيها من المرئيّات من حضور النّاس للحشر وما يتبعه، ومشاهدة أهوال العذاب.

{ **تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ** }

الذهول: نسيان ما من شأنه أن لا ينسى لوجود مقتضى تذكّره، وإنّما ينسى لشاغل عظيم عنه. فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنّه أدل على شدّة التشاغل. وقد حصل من هذه الكناية دلالة على جميع لوازم شدّة الهول، وليس يلزم في الكناية أن يصرّح بجميع اللوازم لأنّ دلالة الكناية عقلية وليست لفظية.

{ **مُرْضِعَةٍ** } التحقت هاء التأنيث للدلالة على تقريب الوصف من معنى الفعل، أي: أنّها في حالة التلبس بالإرضاع، كما يقال: هي ترضع. ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يقال: كلّ مرضع، لأنّ هذا الوصف من خصائص الأنثى فلا يحتاج معه إلى الهاء.

وهذا من بديع الكناية عن شدّة ذلك الهول لأنّ استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدّة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية. وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء.

{ **وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا** } هو كناية أيضا. ووضع الحمل لا يكون إلّا لشدّة اضطراب نفس الحامل من فرط الفزع والخوف، لأنّ الحمل في قرار مكين.

الحمل: مصدر بمعنى المفعول، بقرينة تعلّقه بفعل { تضع }، أي: تضع جنينها.

{ **ذَاتِ حَمْلٍ** } دون التعبير: بحامل، لأنّه الجاري في الاستعمال في الأكثر. فلا يقال: امرأة حامل، بل يقال: ذات حمل قال تعالى { وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } ، مع ما في هذه الإضافة من التنبيه على شدّة اتصال الحمل بالحامل، فيدلّ على أنّ وضعها إيّاه لسبب مفظع.

{ **وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى** } الخطاب لغير معيّن. وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع لاستحضار الحالة والتعجيب منها.

سُكارى: وسَكرى جمع سكران. وهو الذي اختلّ شعور عقله من أثر شرب الخمر.

{ **وَمَا هُمْ بِسُكَارَى** } في موضع الحال من النّاس.

{ **وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** } هو عذاب الفزع والوجع، وعذاب الرعب في الآخرة بالإحساس بلفح النار.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } [3]

عطف على { يَا أَيُّهَا النَّاسُ }، أي: الناس فريقان: فريق يمتثل الأمر فيتّقي الله ويخشى عذابه، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيّته وصفاته ورسالته. وهذا الفريق هم أئمة الشرك وزعماء الكفر لأنّهم الذين يتصدّون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لهم من فصاحة.

والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى أنّهم لولا تضليلهم قومهم وصدّهم إيّاهم عن متابعة الدِّين لاتبع عامة المشركين الإسلام، لظهور حجّته.

وقيل: أريد بـ { مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ } النضر بن الحارث أو غيره كما سيأتي.

المجادلة: المخاصمة والمحاجّة. والظرفية مجازية، أي: يجادل جدلا واقعا في شأن الله.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** }، أي: جدلا ناشئا عن سوء نظر وسوء تفكير.

اتباع الشيطان: الانقياد إلى وسوسته التي يجدها في نفسه والتي تلقاها بمعتاده، والعمل بذلك دون تردّد ولا عرض على نظر واستدلال.

مَرِيدٍ: صفة مشبّهة من مرُد (بضم الراء) على عمل. إذا عتا فيه وبلغ الغاية. أي: العاتي في الشيطنة.

{ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } [4]

صفة ثانية لـ { شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } فالضمير المجرور عائد إلى { شَيْطَانٍ }، وأمّا الضميران البارزان في قوله { يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } فعائدان إلى (من) الموصوله. أي: يضلُّ الشيطان متولّيه عن الحقِّ ويهديه إلى عذاب السعير.

الكتابة: مستعارة للثبوت واللزوم، أي: وجب عليه، فالعقد إذا أريد تحقيق العمل به كتب في صحيفة.

التولّي: اتخاذ وليّ، أي نصير، أي: من استنتصر به.

{ **يُضِلُّهُ** } لمّا كان الضلال مشتهرا في معنى البعد عن الخير والصلاح لم يحتج في هذه الآية إلى ذكر متعلّق { **وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** } وذُكر متعلّق فعل { يَهْدِيَهُ } لأنّ تعلُّقه به غريب إذ الشأن أن يكون الهدي إلى ما ينفع لا إلى ما يضرّ ويعذب.

وفي الجمع بين {يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ} محسّن الطباق بالمضادة.

وقد عُدّ من هذا الفريق الشامل له قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } النضر بن الحارث. وقيل: نزلت فيه. كان كثير الجدل يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء أجساد بليت وصارت ترابا. وعُدّ منهم أيضا أبو جهل، وأبي بن خلف.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [5]

أعاد خطاب النّاس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة، وذكر أنّ منهم من يجادل في الله بغير علم، فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه، وهو الخلق الأوّل. قال تعالى { فَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15]. فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كوّنه من ماء، ثم خلقه أطوارا عجيبة، إلى أن يتوفّاه في أحوال جسمه وإدراكه، قادر على إعادة خلقه بعد فنائه.

ودخول المشركين بادئ ذي بدء في هذا الخطاب أظهر من دخولهم في الخطاب السابق لأنّهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم، ولذلك قيل: إن الخطاب هنا خاص بهم.

{ **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** } واقعة موقع جواب الشرط ولكنّها لا يصلح لفظها لأن يكون جوابا لهذا الشرط بل هي دليل الجواب. والتقدير: فانظروا في بدء خلقكم فإنّا خلقناكم من تراب.

{ **مِنْ تُرَابٍ** } والذي خُلق من تراب هو أصل النوع، وهو آدم عليه السلام وحواء، ثم كوّنت فيهما قوّة التناسل. فصار الخلق من النطفة، فلذلك عطفت وما بعدها بـ (ثمّ) للتراخي الحقيقي.

النطفة: اسم لمنيّ الرجل، وهو بوزن فُعلة بمعنى مفعول، أي منطوف. والنَّطف: القطر والصبّ.

العلقة: القطعة من الدم الجامد الليّن.

المضغة: القطعة من اللحم بقدر ما يُمضغ مثله. وهي فُعلة بمعنى مفعولة بتأويل: مقدار ممضوغة.

{ **مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** } صفة { مُضْغَةٍ }. وذلك تطوّر من تطوّرات المضغة. إشارة إلى أطوار تشكّل تلك المضغة، فإنّها في أوّل أمرها تكون غير مخلّقة، أي: غير ظاهر فيها شكل الخلقة. ثم تكون مخلّقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف.

التخلّق: صيغة تدلّ على تكرير الفعل، أي: خلقا بعد خلق.

وقُدّم ذكر المخلّقة على ذكر غير المخلّقة خلاف الترتيب في الوجود، لأنّ المخلّقة أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلّقة لأنّه إكمال للدليل وتنبيه على أنّ تخليقها نشأ عن عدم.

{ **لِنُبَيِّنَ لَكُمْ** } أي: لنظهر لكم إذا تأملتم دليلا واضحا على إمكان الإحياء بعد الموت.

وحذف مفعول { لِنُبَيِّنَ } لتذهب النفس في تقديره كلّ مذهب ممّا يرجع إلى بيان ما في هذه التصرّفات من

القدرة والحكمة، أي: لنبيّن لكم قدرتنا وحكمتنا.

{ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } عطف على السابق، وعدل عن فعل الماضي إلى المضارع للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من مشابهة استقرار الأجساد في الأجداث ثم إخراجها منها بالبعث كما يخرج الطفل من قرارة الرحم، مع تفاوت القرار. والاستدلال في هذا كلّه بأنّه إيجاد بعد العدم وإعدام بعد الوجود، لتبيين إمكان البعث بالنظير وبالضدّ.

الأجل: الأمد المجعول لإتمام عمل ما، والمراد هنا مدّة الحمل.

المسمّى: اسم مفعول سمَّاه إذا جعل له اسما، ويستعار المسمَّى للمعيَّن المضبوط. ومنه قول الفقهاء: المهر المسمّى، أي: المعيّن من نقد معدود أو عرض موصوف، وقول الموثّقين: وسُمِّي لها من الصداق كذا وكذا. ولكلّ مولود مدّة معيّنة عند الله لبقائه في رحم أمّه قبل وضعه. والأكثر استكمال تسعة أشهر وتسعة أيام، وقد يكون الوضع أسرع من تلك المدّة لعارض، وكلّ معيّن في علم الله تعالى.

{ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً } (ثمّ) هنا للدلالة على التراخي الرتبي فإنّ إخراج الجنين هو المقصود.

وأفرد { طِفْلاً } لأنّ المقصود به الجنس، فهو بمنزلة الجمع.

{ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ } مرتبطة بجملة { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً } ارتباط العلة بالمعلول.

وإنّما جُعل بلوغ الأشُد علّة لأنّه أقوى أطوار الإنسان وأجلى مظاهر مواهبه في الجسم والعقل وهو الجانب الأهم كما أومأ إلي ذلك قوله بعد هذا { لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً } فجعل (الأشّد) كأنّه الغاية المقصودة من تطويره.

الأشُد: سن الفتوّة واستجماع القوى. وقد تقدم في قوله { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً } [يوسف:22] ووقع في قوله تعالى { ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً } [غافر:67]، فعطف طور الشيخوخة على طور الأشُد باعتبار أنّ الشيخوخة مقصد للأحياء لحبّهم التعمير. وتلك الآية وردت مورد الامتنان فذكر فيها الطور الذي يتملّى المرء فيه بالحياة. ولم يذكر ذلك الطور(الشيخوخة) في آية سورة الحجّ لأنها وردت مورد الاستدلال على الإحياء بعد العدم.

{ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى } على وجه الاعتراض، استقراء لأحوال الأطوار الدالة على عظيم القدرة والحكمة الإلهية مع التنبيه على تخلل الوجود والعدم أطوار الإنسان بدءا ونهاية، كما يقتضيه مقام الاستدلال على البعث. والمعنى: ومنكم من يتوفّى قبل بلوغ بعض الأطوار. وأمّا أصل الوفاة فهي لاحقة لكلّ إنسان.

{ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } عديل قوله تعالى { وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى }. وسكت عن ذكر الموت بعد أرذل العمر لأنّه معلوم بطريقة لحن الخطاب.

{ **لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً** } وجعل انتفاء علم الإنسان عند أرذل العمر علّة إلى أرذل العمر باعتبار أنّه علة غائية لذلك. فإنّ ضعف القوى الجسيمة يستتبع ضعف القوى العقلية، قال تعالى { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ } [يس:68]. فالخلق يشمل كل ما هو من الخلقة ولا يختصّ بالجسم.

{ **شَيْئاً** } واقع في سياق النفي يعمّ كل معلوم، أي: لا يستفيد معلوما جديدا. ولذلك مراتب في ضعف العقل بحسب توغّله في أرذل العمر تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لعلم جديد، وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة كمرتبة نسيان الأشياء ومرتبة الاختلاط بين المعلومات وغير ذلك.

{ **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** }

عطف على جملة { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ }، والخطاب لغير معيّن فيعمّ كل من يسمع هذا الكلام.

ارتقاء في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنّه استدلال بحالة مشاهدة فلذلك افتتح بفعل { وَتَرَى }، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإنّ مبدأه غير مشاهد فقيل في شأنه { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ }.

{ **فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ** } ومحلّ الاستدلال أنّ همود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت.

الهمود: قريب من الخمود. فهمود الأرض جفافها وزوال نباتها، وهمود النار خمودها.

الاهتزاز: التحرّك إلى أعلى، فاهتزاز الأرض تمثيل لحال ارتفاع ترابها بالماء وحال ارتفاع وجهها بما عليه من العشب بحال الذي يهتز ويتحرك إلى أعلى.

ربت: حصل لها رُبُوٌّ (بضم الراء وضم الموحدة) وهو ازدياد الشيء، يقال: ربا يربو رُبُوًّا، وفسّر هنا بانتفاخ الأرض من تفتّق النبت والشجر. وقرأ أبو جعفر { وربأت } بهمزة مفتوحة بعد الموحّدة، أي ارتفعت.

الزوج: الصنف من الأشياء. أطلق عليه اسم الزوج تشبيها له بالزوج من الحيوان وهو صنف الذكر وصنف الأنثى. أطلق هنا على أنواع النبات.

البهيج: حسن المنظر السّارّ للناظر. وقد سيق هذا الوصف إدماجا للامتنان في أثناء الاستدلال امتنانا بجمال صورة الأرض المنبتة، لأنّ كونه بهيجا لا دخل له في الاستدلال، كقوله تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:6] وقوله { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ } [الملك:5].

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [6] وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ [7] }.

فذلكة لما تقدّم، فالجملة تذييل.

{ ذَلِكَ } الإشارة إلى ما تقدّم من أطوار خلق الإنسان وفنائه، ومن إحياء الأرض بعد موتها وانبثاق النبت منها. وإفراد حرف الخطاب المقترن باسم الإشارة لإرادة مخاطب غير معيّن.

{ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } خبر عن اسم الإشارة، أي: ذلك حصل بسبب أنّ الله هو الحقّ.

والراجح أن تكون الباء للملابسة، أي: كان ذلك الخلق وذلك الإنبات البهيج ملابسا لحقيّة إلهية الله، وهذه الملابسة ملابسة الدليل لمدلوله. وهذا ارشق من حمل الباء على معنى السببية وهو أجمع لوجود الاستدلال.

الحقّ: الثابت الذي لا مراء فيه، أي هو الموجود. والقصر إضافي، أي: دون غيره من معبوداتكم.

وهذا الاستدلال هو أصل بقيّة الأدلة، لأنّه نقض للشرك الذي هو الأصل لجميع ضلالات أهله.

{ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ }
لبيان إمكان البعث. ووجه كون هذه الأمور الخمسة المعدودة في هذه الآية ملابسة لأحوال خلق الإنسان وأحوال إحياء الأرض أنّ تلك الأحوال دالة على هذه الأمور الخمسة؛ إمّا بدلالة المسبِّب بالنسبة إلى وجود الله وإلى ثبوت قدرته على كل شيء، وإمّا بدلالة التمثيل على الممثّل والواقع على إمكان نظيره الذي لم يقع بالنسبة إلى إحياء الله الموتى، ومجيء الساعة، والبعث، وإذا تبين إمكان ذلك حق التصديق بوقوعه، لأنّهم لم يكن بينهم وبين التصديق به حائل إلّا ظنهم استحالته، فالذي قدر على خلق الإنسان عن عدم سابق قادر على إعادته بعد اضمحلاله الطارئ على وجوده.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ [8] ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ [9] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [10] }.

عطف على جملة { يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ }، والمعنى: إن كنتم في ريب من وقوع البعث فإنّا نزيل ريبكم بهذه الأدلة الساطعة، فالنّاس بعد ذلك فريقان: فريق يوقن بهذه الدلالة فلا يبقى في ريب، وفريق من الناس يجادل في الله بغير علم، وهؤلاء هم أئمة الشرك وزعماء الباطل.

والمعنيُّ بهذه الآية هو المعنيُّ بقوله فيما مضى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } فيكون المراد فريق المعاندين المكابرين الذين يجادلون في الله بغير علم بعد أن بلغهم الإنذار من

زلزلة الساعة. فهم كذلك يجادلون في الله بغير علم بعد أن وضحت لهم الأدلة على وقوع البعث.
ودافعهم إلى الجدال في الله عند وضوح الأدلة على البعث عدم علمهم ما يجادلون فيه، وانتفاء الهدى، وانتفاء تلقّي شريعته من قبل، والتكبّر عن الاعتراف بالحجّة، ومحبّة إضلال الناس عن سبيل الله. فيؤول إلى معنى أنّ أحوال هؤلاء مختلفة وأصحابها فريق واحد، هو فريق أهل الشرك والضلالة.

ومن أساطين هذا الفريق: النضر بن حارث. وأبي جهل، وأُبي بن خلف. وقيل: المراد في هذه الآية بمن يجادل في الله: النضر بن الحارث، وروي ذلك عن أبن عباس، وقيل: هو الأخنس بن شريق.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } تقدّم معناه في نظير هذه الآية.

الهدى: مصدر في معنى المضاف إلى مفعوله، أي: ولا هدى هو مهديّ به.

الكتاب المنير: كتب الشرائع مثل: التوراة والإنجيل. و**المنير**: المبيّن للحقّ، شُبّه بالمصباح المضيء.

وفيه تعريض بالنضر ابن الحارث إذ كان يجادل في شأن الإسلام بالموازنة بين كتاب الله المنير وكتاب أخبار رستم، وكتاب أخبار أسفنديار المظلمة الباطلة.

الثَّنْي: ليُّ الشيء، يقال: ثنى عنان فرسه، إذا لواه ليدير رأس فرسه إلى الجهة التي يريد أن يوجّهه إليها.

العِطف: المنكب والجانب، و{ ثَانِيَ عِطْفِهِ } تمثيل للتكبّر والخيلاء. ويقال: لوى جيده، إذا أعرض تكبّرا.
وهذه الصفة تنطبق على حال أبي جهل فلذلك قيل إنّه المراد هنا.

{ **لِيُضِلَّ** } اللام لتعليل المجادلة، فهو متعلّق بـ { يُجَادِلُ }، أي: غرضه من المجادلة الإضلال.

سبيل الله: الدين الحق.

خزي الدنيا: الإهانة، وهو ما أصابهم من القتل يوم بدر ومن القتل والأسر بعد ذلك. وهؤلاء هم اللذين لم يسلموا بعد. وينطبق الخزي على ما حصل لأبي جهل يوم بدر من قتله بيد غلامين من شباب الأنصار وهما أبناء عفراء. وينطبق أيضا على ما حلّ بالنضر بن الحارث من الأسر يوم بدر وقتله.

{ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ** } مقول قول محذوف تدلّ عليه صيغة الكلام، وهي جملة مستأنفة، أو في موضع الحال من ضمير النصب في قوله تعالى { وَنُذِيقُهُ }. والإشارة إلى العذاب، والباء سببيّة، و(ما) موصولة.

{ **قَدَّمَتْ** } بمعنى: أسلفت.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } صيغة المبالغة تقتضي بظاهرها نفي الظلم الشديد. والمقصود أنّ الظلم من حيث هو ظلم أمر شديد فصيغت له زنة المبالغة، وكذلك التزمت في ذكره حيثما وقع في القرآن. وقد اعتاد جمع من المتأخرين أن يجعلوا المبالغة راجعة للنفي لا للمنفي وهو بعيد.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [11]

هذا وصف فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوى والإنذار بالساعة مقابلة غير المطمئنّ بصدق دعوة الإسلام ولا المعرض عنها إعراضا تاما ولكنهم يضعون أنفسهم في معرض الموازنة بين دينهم القديم ودين الإسلام.

والظاهر أنّ الآية نزلت بالمدينة، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس في قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

وفي حديث الموطأ: " أنّ أعرابيا أسلم وبايع النبيّ صلى الله عليه وسلم فأصابه وعك بالمدينة، فجاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستقيله بيعته فأبى أن يقيله، فخرج من المدينة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها "**، فجعله خبثا لأنّه لم يكن مؤمنا ثابتا.

وهذا كلّه ناشئ عن الجهل وتخليط الأسباب الدنيوية بالأسباب الأخروية، وجعل المقارنات الاتفاقية كالمعلومات اللزوميّة. وهذا أصل كبير من أصول الضلالة في أمور الدين وأمور الدنيا. ولنِعْم المعبِّر عن ذلك قوله تعالى { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ }، إذ لا يهتدي إلى تطلّب المسبّبات من أسبابها.

{ عَلَى حَرْفٍ } حرف الشيء طرفه وجانبه سواء كان مرتفعا كحرف الجبل والوادي، أم كان مستويا كحرف الطريق. ويطلق الحرف على طرف الجيش. ويجمع على طِرَف بوزن عِنب.

{ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } تمثيل لحال المتردّد في عمله، يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف واد فهو متهيّئ لأن يزلّ عنه إلى أسفله فينقلب، أي: ينكبّ.

اطمأنّ: استقر وسكن في مكانه. ومصدره الاطمئنان واسم المصدر الطمأنينة. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260].

والمعنى: استمر على التوحيد فرحا بالخير الذي أصابه. واستقرار مثل هذا على الإيمان يصيره مؤمنا إذا زال عنه التردّد، وحال هؤلاء قريب من حال المؤلّفة قلوبهم.

الانقلاب: مطاوع قلبه إذا كبّه، أي: ألقاه على عكس ما كان عليه. فالانقلاب مستعمل في حقيقته، والكلام تمثيل. وتفسيرنا الانقلاب هنا بهذا المعنى هو المناسب لقوله: {عَلَى وَجْهِهِ} أي سقط وانكبّ عليه، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: **" إنّ هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلّا كبَّه الله على وجهه "**.

ويطلق الانقلاب كثيرا على الانصراف من الجهة التي أتاها إلى الجهة التي جاء منها، وهو مجاز شائع وبه

فسّر المفسّرون. ولا يناسب اعتباره هنا لأنّ مثله يقال فيه: انقلب على عقبيه لا على وجهه، كما قال تعالى { إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ } إذ الرجوع إنما يكون إلى جهة غير جهة الوجه.

الفتنة: اضطراب الحال وقلق البال من حدوث شرّ لا مدفع له. وهي مقابل الخير.

{ **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ** } بدل اشتمال من جملة { انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ }.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** } معترضة بين جملة { انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِه } وجملة { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ }، أي: أُسقط في الشرك.

الخسران: تلف جزء من أصل مال التجارة، فشُبِّه نفع الدنيا ونفع الآخرة بمال التاجر الساعي في توفيره. وتعلّق الخسران بالدنيا والآخرة على حذف مضاف. والتقدير: خسر خير الدنيا وخير الآخرة؛ فخسارة الدنيا بسبب ما أصابه فيها من الفتنة، وخسارة الآخرة بسبب عدم الانتفاع بثوابها المرجوّ له.

المبين: الذي فيه ما يبين للنّاس أنّه خسران بأدنى تأمّل. والمراد: أنّه خسران شديد لا يخفى.

والقصر المستفاد من تعريف المسند قصر ادعائي. والمقصود من القصر الادعائي تحقيق الخبر ونفي الشك في وقوعه. وضمير الفصل { هُوَ } أكّد معنى القصر فأفاد تقوية الخبر المقصور.

{ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ } [12]

الجملة حال من ضمير { انْقَلَبَ }.

{ **مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ** } قدّم الضرّ على النفع إيماء إلى أنّه تملّص من الإسلام تجنّبا للضرّ لتوهّمه أن ما لحقه من الضرّ بسبب الإسلام وبسبب غضب الأصنام عليه. وفي هذا الإيماء تهكم به.

والمعنى: أنّها لا تفعل ما يجلب ضرّا ولا ما يجلب نفعا.

{ **ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ** } الإشارة إلى الدعاء المستفاد من { يَدْعُو }. والقول في اسم الإشارة وضمير الفصل والقصر مثل ما تقدم في قوله تعالى { ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }.

البعيد: المتجاوز الحدّ المعروف في مدى الضلال، أي: هو الضلال الذي لا يماثله ضلال.

{ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } [13]

جملة في موضع حال ثانية. ومضمونها ارتقاء في تضليل عابدي الأصنام. فبعد أن بيّن لهم أنّهم يعبدون ما لا غناء لهم فيه زاد فبيّن أنّهم يعبدون ما فيه ضرّ. وذلك أن عبادة الأصنام تضرّه في الدنيا بالتوجّه عند الاضطرار إليها فيضيع زمنه في تطلّب ما لا يحصل، وتضرّه في الآخرة بالإلقاء في النار.

ولمّا كان الضرّ الحاصل من الأصنام ليس ضرّا ناشئا عن فعلها بل هو ضرّ ملابس لها أثبت الضرّ بطريق الإضافة دون طريق الإسناد فلم يقل: لمن يضرّ ولا ينفع، لأنّ الإضافة أوسع من الإسناد فلم يحصل تناف بين قوله { مَا لا يَضُرُّهُ } وقوله { لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ }.

{ **لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ** } إنشاء ذمّ للأصنام التي يدعونها بأنّها شرّ الموالي وشرّ العشراء، لأنّ شأن المولى جلب النفع لمولاه، وشأن العشير جلب الخير لعشيره.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } [14]

هذا مقابل قوله { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } وقوله { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ }، فالجملة معترضة.

وقد اقتصر على ذكر ما للمؤمنين من ثواب الآخرة.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** } تذييل للكلام المتقدّم من قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } إلى هنا، وهو اعتراض بين الجمل الملتئم منها الغرض. وفيها معنى التعليل الإجمالي لاختلاف أحوال النّاس في الدنيا والآخرة.

وفعل الله ما يريد هو إيجاد أسباب أفعال العباد في سنّة نظام هذا العالم، وتبيينة الخير والشرّ، وترتيبه الثواب والعقاب، وذلك لا يحيط بتفاصيله إلّا الله تعالى.

{ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ } [15]

موقع هذه الآية غامض، ومُفادها كذلك.

الاحتمال الأوّل: أن يكون موقعها استئنافا ابتدائيا أريد به ذكر فريق ثالث غير الفريقين المتقدّمين في قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } وقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ }. وهذا الفريق الثالث جماعة أسلموا واستبطأوا نصر المسلمين فأيسوا منه وغاظهم تعجّلهم للدخول في الإسلام، وهؤلاء هم المنافقون.

الاحتمال الثاني: أن يكون موقعها تذييلا لقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ }، بعد أن اعترض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى، فيكون المراد: أنّ الفريق الذين يعبدون الله على حرف والمخبر عنهم بقوله { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ } هم قوم يظنّون أنّ الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على

الإسلام. فأمّا ظنّهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنّهم قد أيسوا من النصر استبطاءً. وأمّا في الآخرة فلأنّهم لا يؤمنون بالبعث ، وهؤلاء مشركون متردّدون.

وعلى كلا الاحتمالين:

{ **يَنْصُرَهُ** } ضمير النصب عائد إلى { مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ }.

{ **السَّمَاءِ** } مراد به المعنى المشهور، أخذا بما رواه القرطبي عن ابن زيد (عبد الرحمان بن زيد ابن أسلم).

{ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ** } الأمر للتعجيز. فيُعلم أن تعليق الجواب على حصول شرط لا يقع، كقوله تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا } [الرحمان:33].

السبب: الحبل. وتقدّم في قوله { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:166].

{ **ثُمَّ لْيَقْطَعْ** } المفعول محذوف لدلالة المقام عليه. والتقدير: ثم ليقطعه، أي ليقطع السبب.

فالمعنى: فلينط حبلا بالسماء مربوطا به ثم يقطعه فيسقط من السماء فيتمزّق كلّ ممزّق فلا يغني عنه فعله شيئا من إزالة غيظه.

الاحتمال الثالث: أن تكون الآية مشيرة إلى فريق آخر أسلموا في مدّة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر فزجرهم الله وهدّدهم بأنّهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومرتابين في نيل ثواب الآخرة فإنّ ارتدادهم عن الإسلام لا يضرّ الله ولا رسوله ولا يكيد الدين، وإن شاءوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم. ولعلّ هؤلاء من المنافقين.

القطع: على هذا الوجه يراد به الاختناق. قيل: لأنه يقطع الأنفاس.

فموقع الآية على هذا الوجه موقع الاستئناف الابتدائي لذكر فريق آخر يشبه من يعبد الله على حرف.

والمناسبة ظاهرة.

{ **يَنْصُرَهُ اللَّهُ** } ويجيء على هذا الوجه أن يكون الضمير عائدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا مروي عن ابن عباس واختاره الفراء والزجاج.

وعلى كلّ الوجوه فالأية تعريض بالتنبيه لخلّص المؤمنين أن لا ييأسوا من نصر الله في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط. قال تعالى { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ } [الأحزاب:24/23].

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ } [16]

لمّا تضمّنت الآيات السابقة تبيين أحوال الناس تجاه دعوة الإسلام بما لا يبقى بعده التباس عُقِّبت بالتنويه بتبيينها، بأن شُبِّه ذلك التبيينُ بنفسه كناية عن بلوغه الغاية في جنسه بحيث لا يلحق بأوضح منه، أي: مثل هذا الإنزال أنزلنا القرآن آيات بينات.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [17]

فذلكة لما تقدّم. لأنّه لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المتردّدين في قبول الإسلام كان ذلك مثارًا لأن يُتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان. وأن يُسأل عن الدين الحقّ، لأنّ كلّ أمّة تدّعى أنّها على الحقّ وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك.

فبيّنت هذه الآية أنّ الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة، إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا.

وهذا الكلام بما فيه من إجمال هو جار مجرى التفويض. لأنّ مثل ذلك التفويض لله لا يكون إلّا من الواثق بأنّه على الحقّ وهو كقوله تعالى { لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} وذلك من قبيل الكناية التعريضية.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى } تقدّم ذكرهم في [البقرة:62] و[المائدة:69].

وزاد في هذه الآية ذكر المجوس والمشركين، لأنّ الآيتين المتقدّمتين كانتا في مساق بيان فضل التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر في كل زمان وفي كل أمّة. وزيد في هذه السورة ذكر المجوس والمشركين لأنّ هذه الآية مسوقة لبيان التفويض إلى الله في الحكم بين أهل الملل، فالمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر.

المجوس: هم أهل دين يُثبت إلهين: إلها للخير، وإلها للشرّ، وهم أهل فارس. ثم هي تتشعّب شعبا تأوي إلى هذين الأصلين. وأقدم النحل المجوسية أسسها **(كيومرث)** الذي هو أوّل ملك بفارس في أزمنة قديمة يُظنّ أنّها قبل زمن إبراهيم عليه السلام، ولذلك يلقّب أيضا بلقب (جل شاه أو جهان شاه) تفسيره: ملك الأرض. غير أن ذلك ليس مضبوطا بوجه علمي. وهي تثبت إلهين هما **(يَزدان)** و **(أهرُمُن)**. قالوا: كان يزدان منفردا بالوجود الأزلي، وأنّه كان نورانيا، وأنّه بقي كذلك تسعة آلف وتسعين سنة ثم حدث له خاطر في نفسه: أنّه لو حدث له منازع كيف يكون الأمر فنشأ من هذا الخاطر موجود جديد ظلماني سُمِّي (أهرُمُن) وهو إله الظلمة مطبوعا على الشرّ والضرّ. فحدث بين الاثنين خلاف ومحاربة إلى الأبد.

ثم نشأت على هذا الدين نحل خُصّت بألقاب وهي متقاربة التعاليم أشهرها نحلة **(زرادشت)** الذي ظهر في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، وبه اشتهرت المجوسية. وجعل إله الخير نورا، وإله الشرّ ظلمة. ثم دعا الناس إلى عبادة النار على أنّها مظهر إله الخير وهو النور. ووسّع شريعة المجوسية، ووضع لها كتابا سماه **(زندافستا)**. ومن أصول شريعته تجنّب عبادة التماثيل.

ثم ظهرت في المجوس نحلة المانوية. وهي المنسوبة إلى **(ماني)** الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ملك الفرس بين سنة (238م - 271م).

وظهرت في المجوس نحلة المزدكية، وهي منسوبة إلى **(مزدك)** الذي ظهر في زمن قباذ بين سنة (487 م - 523م)، وهي نحلة قريبة من (المانوية)، وهي آخر نحلة ظهرت في تطور المجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

وللمجوسية شبه في الأصل بالإشراك إلّا أنّها تخالفه بمنع عبادة الأحجار، وبأنّ لها كتابا، فأشبهوا بذلك أهل الكتاب. ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم: **" سُنُّوا بهم سنّة أهل الكتاب "**، أي: في الاكتفاء بأخذ الجزية منهم دون الإكراه على الإسلام. وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ } [النحل:51].

الفصل: الحكم، أي: يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من تصحيح الديانة.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا للإعلام بإحاطة علم الله بأحوالهم واختلافهم والصحيح من أقوالهم.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } [18]

جملة مستأنفة لابتداء استدلال على انفراد الله تعالى بالإلهية. وهي مرتبطة بمعنى قوله { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ - إلى قوله - لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } [13/12] ارتباط الدليل بالمطلوب، فإنّ دلائل أحوال المخلوقات كلّها - عاقلها وجمادها - شاهدة بتفرّد الله بالإلهية. وفي تلك الدلالة شهادة على بطلان دعوة من يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه. وما وقع بين الجملتين استطراد واعتراض.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الروية علميّة. والخطاب لغير معيّن. والاستفهام إنكاري، أنكر على المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على تفرد الله بالإلهية.

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والاستفهام تقريريا، لأنّ حصول علم النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك متقرّر.

{ **أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ** ... } وقد تقدم الكلام على معنى هذا السجود في سورة [الرعد:15] وسورة [النحل:50].
وقد استعمل السجود في حقيقته ومجازه، وهو حسن وإن أباه الزمخشري، وقد حققناه في المقدمة التاسعة، لأنّ السجود المثبت لكثير من النّاس هو السجود الحقيقي، ولولا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس لا لجميعهم.

ووجه هذا التفكيك (حقيقي ومجازي) أنّ سجود الموجودات غير الإنسانية ليس إلّا دلالة تلك الموجودات على أنّها مسخرة بخلق الله، فاستعير السجود لحالة التسخير والانطباع. وأمّا دلالة حال الإنسان على عبوديّته لله تعالى فلمّا خالطها إعراض كثير من الناس عن السجود لله تعالى، وتلبّسهم بالسجود للأصنام كما هو حال المشركين غطّى سجودهم الحقيقي على السجود المجازي الدال على عبوديتهم لله، لأنّ المشاهدة أقوى من دلالة الحال، فلم يثبت لهم السجود الذي أثبت لبقية الموجودات وإن كان حاصلا في حالهم كحال المخلوقات.

{ **وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** } معترضة بالواو. مكنّى بها عن ترك السجود لله، أي: حقّ عليهم العذاب لأنّهم لم يسجدوا لله، وقد قضى الله في حكمه استحقاق المشرك لعذاب النار. فالذين أشركوا بالله وأعرضوا عن إفراده بالعبادة قد حقّ عليهم العذاب بما قضى الله به وأنذرهم به.

{ **وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ** } اعتراض ثان بالواو. والمعنى: أنّ الله أهانهم باستحقاق العذاب فلا يجدون من يكرمهم بالنصر أو بالشفاعة.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** } في محلّ العلة للجملتين المعترضتين، لأنّ وجود حرف التوكيد في أوّل الجملة مع عدم المنكر يمحّض حرف التوكيد إلى إفادة الاهتمام، فنشأ من ذلك معنى السببية والتعليل.

وهذا موضع سجود من سجود القرآن باتفاق الفقهاء.

{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ [19] يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ [20] وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ [21] كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [22] }.

استئناف بياني، لأنّ قوله { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب الذي حقّ على كثير من الناس الذين لم يسجدوا لله تعالى، فجاءت الآيات لتفصيل ذلك.

{ **هَذَانِ** } اسم الإشارة مشير إلى ما يفيده قوله تعالى { وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } من انقسام المذكورين إلى فريقين؛ أهل توحيد وأهل شرك.

الاختصام: افتعال من الخصومة. وهي الجدل والاختلاف بالقول، يقال: خاصمه واختصما، وهو من الأفعال المقتضية جانبين فلذلك لم يسمع منه فعل مجرد إلّا إذا أريد منه معنى الغلب في الخصومة لأنّه بذلك يصير فاعله واحدا. وتقدم قوله تعالى { وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً } [النساء:105].

واختصام فريقي المؤمنين وغيرهم معلوم عند السامعين قد ملأ الفضاء جلبته، فالإخبار عن الفريقين بأنّهما خصمان مسوق لغير إفادة الخبر بل تمهيدا للتفصيل في قوله { فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ }.

فالمراد من هذه الآية ما يعم جميع المؤمنين وجميع مخالفيهم في الدين.

ووقع في الصحيحين عن أبي ذر: أنّه كان يقسم أنّ هذه الآية { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } نزلت في حمزة وصاحبيه، علي ابن أبي طالب وعتبة بن الحارث، الذين بارزوا يوم بدر شيبة ابن ربيعة. وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

وعليه فهذه الآية مدنيّة فتكون { هذان } إشارة إلى فريقين حاضرين في أذهان المخاطبين فنزل حضور قصّتهما العجيبة في الأذهان منزلة المشاهدة حتّى أعيد عليها اسم الإشارة الموضوع للمشاهد، وهو استعمال في كلام البلغاء.

والأظهر أنّ أبا ذر عنى بنزول الآية في هؤلاء أنّ أولئك النفر الستة هم أبرز مثال وأشهر فرد في هذا العموم. فعبّر بالنزول وهو يريد أنّهم ممّن يقصد من معنى الآية. ومثل هذا كثير في كلام المتقدّمين.

والاختصام على الوجه الأوّل حقيقي وعلى الوجه الثاني أطلق الاختصام على المبارزة مجازا مرسلا لأنّ الاختصام في الدين هو سبب تلك المبارزة.

{ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا** } واسم الخصم يطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا أتّحدت خصومتهم كما في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ } فلمراعاة تثنية اللفظ أتي باسم الإشارة الموضوع للمثنّى ولمراعاة العدد أتي بضمير الجماعة في قوله تعالى { اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ }.

{ **فِي رَبِّهِمْ** } في شأنه وصفاته، فالكلام على حذف مضاف ظاهر.

التقطيع: مبالغة القطع، وهو فصل بعض أجزاء شيء عن بقيته. والمراد: قطع شقة الثوب. وصيغت صيغة الشدّة في القطع للإشارة إلى السرعة في إعداد ذلك لهم فيجعل لهم ثياب من نار.

{ **ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ** } ثياب محرقة للجلود، وذلك من شؤون الآخرة.

الحميم: الماء الشديد الحرارة.

الإصهار: الإذابة بالنّار أو بحرارة الشمس، يقال: أصهره وصهره.

ما في بطونهم: أمعاؤهم، أي هو شديد في النفاذ إلى باطنهم.

المقامع: جمع مقمعة بكسر الميم بصيغة اسم آله القمع. و**القمع**: الكف عن شيء بعنف. والمقمعة: **السوط**، أي: يضربون بسياط من حديد.

{ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا** } أنّهم لشدّة ما يغمّهم، أي: يمنعهم من التنفس، يحاولون الخروج فيعادون فيها فيحصل لهم ألم الخيبة، ويقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

الحريق: النّار الضخمة المنتشرة. وهذا القول إهانة لهم فإنّهم قد علموا أنّهم يذوقونه.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [23] وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ [24] }.

الكلام قسيم للذي قبله في تفصيل إجمال { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } لوصف حال المؤمنين المقابل لحال الذين كفروا في المكان واللباس وخطاب الكرامة.

{ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا } مقابل قوله { كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا }.

{ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } يقابل قوله { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ }.

{ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } مقابل قوله { قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ }.

{ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ } مقابل قوله { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } فإنّه من القول النكد.

التحلية: وضع الحَلْي على أعضاء الجسم. حلاه: ألبسه الحَلي مثل جلبب.

الأساور: جمع أسورة الذي هو جمع سوار. أشير بجمع الجمع إلى التكثير كما في قوله { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً} [الكهف:31].

{ **ولؤلؤا** } واللؤلؤ الدرّ. ويقال له الجُمان والجوهر. وهو حبوب بيضاء وصفراء ذات بريق رقراق تستخرج من أجواف حيوان مائي حلزوني. وقد أشارت إليه آية { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } [النحل:14].

الحرير: يطلق على ما نسج من خيوط الحرير كما هنا. وأصل اسم الحرير اسم الخيوط التي تفرزها من لعابها دودة مخصوصة تلفّها لفا بعضها إلى بعض مثل كبة تلتئم مشدودة كصورة الفول السوداني تحيط بالدودة كمثل الجوزة وتمكث فيه مدة إلى أن تتحوّل إلى فراشة. وإنّما تحصل الخيوط من ذلك البيت بوضعها

في ماء حار في درجة الغليان حتّى يزول تماسكها بسبب انحلال المادة الصمغية اللعابية التي تشدّها فيطلقونها خيطا واحدا طويلا. ومن أصناف ثياب الحرير السندس والإستبرق، وتقدّما في [الكهف:31].

{ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ** } أي: يلهمهم أقوالا حسنة يقولونها بينهم. وقد ذُكر بعضها في قوله { دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس:10] وقوله { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [الزمر:74].

ويجوز أن يكون المعنى: أنّهم يُرشدون إلى أماكن يسمعون فيها أقوالا طيّبة، وهو معنى قوله { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:24/23]. وهذا أشدّ مناسبة بمقابلة ما يسمعه أهل النار في قوله { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ }.

{ **وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ** } معترضة في آخر الكلام، هي كالتكملة لوصف حسن حالهم لمناسبة ذكر الهداية في قوله { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ }. والمعنى: وقد هدوا إلى صراط الحميد في الدنيا، وهو دين الإسلام، شُبِّه بالصراط لأنّه موصل إلى رضى الله.

الحميد: من أسماء الله تعالى، أي: المحمود كثيرا فهو فعيل بمعنى مفعول، فالإضافة إلى اسم من أسماء الله لتعريف أي صراط هو.

ويجوز أن يكون { الْحَمِيدِ } صفة لـ { صِرَاطِ }، أي المحمود لسالكه. فإضافة صراط إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة. والصراط المحمود هو صراط دين الله.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [25]

استئناف بياني وهو مقابل قوله { وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } بالنسبة إلى أحوال المشركين.

والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتّباعهم صراط الله كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله.

وفيه مع هذه المناسبة لما قبله تخلّص بديع إلى ما بعده من بيان حقّ المسلمين في المسجد الحرام، وتهويل أمر الإلحاد فيه، والتنويه به وتنزيهه عن أن يكون مأوى للشرك ورجس الظلم والعدوان.

{ **يَصُدُّونَ** } صيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم وأنّه دأبهم سواء فيه أهل مكّة وغيرهم، لأنّ البقية ظاهروهم على ذلك الصد ووافقوهم.

سبيل الله: الإسلام، فصدّهم عنه هو الذي حقّق لهم عذاب النار، كما حقّق اهتداء المؤمنين إليه لهم نعيم الجنّة

الصدّ عن المسجد الحرام: ممّا شمله الصدّ عن سبيل الله فخُصّ بالذكر للاهتمام به، ولينتقل منه إلى التنويه بالمسجد الحرام، وذكر بنائه، وشرع الحجّ له من عهد إبراهيم. والمراد: صدٌّ عَرَفه المسلمون يومئذ.

والمعروف من ذلك أنّهم منعوا المسلمين بعد الهجرة من زيارة البيت، فقد قال أبو جهل لسعد بن معاذ لما جاء إلى مكّة معتمرا وقال لصاحبه أمية بن خلف: انتظر لي ساعة من النهار لعلّي أطوف بالبيت، فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل وعرفه. فقال له أبو جهل: أتطوف بالكعبة آمنا وقد أوتيتم الصُباة (يعني المسلمين).

ومن ذلك ما صنعوه يوم الحديبية. وأحسب أنّ الآية نزلت قبل ذلك سواء نزلت بمكّة أم بالمدينة.

{ **الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ** } للإيماء إلى علّة مؤاخذة المشركين بصدّهم عنه، لأجل أنّهم خالفوا ما أراد الله منه، فإنّه جعله للنّاس كلّهم يستوي في أحقّية التعبّد به العاكف فيه، أي: المستقر في المسجد، والبادي، أي: البعيد عنه إذا دخله.

أطلق العكوف في المسجد على سكنى مكة مجازا بعلاقة اللزوم العرفي. وفي ذكر العكوف تعريض بأنّهم لا يستحقّون بسكنى مكة مزيّة على غيرهم، وبأنّهم حين يمنعون الخارجين عن مكة من الدخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكة.

العكوف: الملازمة. و**البادي**: ساكن البادية.

{ **وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } تذييل للجملة السابقة لما في (من) الشرطية من العموم.

الإلحاد: الانحراف عن الاستقامة وسواء الأمور.

الظلم: يطلق على الإشراك وعلى المعاصي، لأنّها ظلم النفس.

{ **بِإِلْحَادٍ** } الباء زائدة للتوكيد مثلها في { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **بِظُلْمٍ** } الباء للملابسة. فالظلم: الإشراك، لأن المقصود تهديد المشركين الذين حملهم الإشراك على مناواة المسلمين ومنعهم من زيارة المسجد الحرام.

{ **مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } (من) للتوكيد ولك أن تجعلها للتبعيض، أي: نذقه عذابا من عذاب أليم.

{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }[26]

عطف على جملة { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ }، عطف قصّة على قصّة. ويعلم منها تعليل الجملة المعطوفة عليها بأنّ الملحد في المسجد الحرام قد خالف بإلحاده فيه ما أراده الله من تطهيره حين أمر ببنائه.

والتخلّص من ذلك إلى إثبات ظلم المشركين وكفرانهم نعمة الله في إقامة المسجد الحرام وتشريع الحجّ.

{ **وَإِذْ بَوَّأْنَا** } التقدير: واذكر إذ بوأنا، أي: اذكر ذلك الوقت العظيم. وعُرف معنى تعظيمه من إضافة اسم الزمان إلى الجملة الفعلية دون المصدر فصار بما يدلّ عليه الفعل من التجدّد كأنه زمن حاضر.

التبوئة: الإسكان. وتقدّم في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا } [يوسف:56].

المكان: الساحة من الأرض وموضع للكون فيه، فهو فعل مشتقّ من الكون، فتبوئته المكان: إذنه بأن يتّخذه مَباءة، أي: مقرا يبني فيه بيتا.

{ **الْبَيْتِ** } معروف معهود عند نزول القرآن فلذلك عرّف بلام العهد ولولا هذه النكتة لكان ذكر { مَكَانَ } حشوا. والمقصود أن يكون مأوى للدين.

{ **أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً** } وكان أصل الدين هو نفي الإشراك بالله فعُلم أنّ البيت جُعل معلما للتوحيد بحيث يشترط على الداخل إليه أن لا يكون مشركا، فكانت الكعبة لذلك أوّل بيت وضع للناس لإعلان التوحيد، كما بيّنّاه عند قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96].

{ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } إضافة البيت إلى ضمير الجلالة تشريف للبيت.

التطهير: تنزيهه عن كل خبيث؛ معنًى كالشرك والفواحش وظلم الناس وبثّ الخصال الذميمة، وحسًّا من الأقذار ونحوها، أي: أعدده طاهرا للطائفين والقائمين فيه.

الطواف: المشي حول الكعبة، وهو عبادة قديمة من زمن إبراهيم قرّرها الإسلام وقد كان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة.

القائمين: الداعون تجاه الكعبة، ومنه سمّي مقام إبراهيم، وهو مكان قيامه للدعاء فكان الملتزم موضعا للدعاء.

الرُّكَّع: جمع راكع.

السُّجُود: جمع ساجد.

{ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ [27] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ [28] }.

عطف على { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ }. وفيه إشارة إلى أنّ من إكرام الزائر تنظيف المنزل وأنّ ذلك يكون قبل الدعوة.

التأذين: رفع الصوت بالإعلام بشيء. وأصله مضاعف أَذِنَ إذا سمع ثم صار بمعنى بلغه الخبر فجاء منه آذن بمعنى أخبر. وأذَّن بما فيه من مضاعفة الحروف مشعر بتكرير الفعل، أي أكثر الإخبار بالشيء.

{ **فِي النَّاسِ** } يعمّ كل البشر.

{ **بِالْحَجِّ** } القصد إلى بيت الله. وصار لفظ الحجّ علما بالغلبة على الحضور بالمسجد الحرام لأداء المناسك. ومن حكمة مشروعيّته تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكل الذي أُقيم لذلك حتّى يرسخ معنى التوحيد في النفوس لأن للنفوس ميلا إلى المحسوسات، ليتقوّى الإدراك العقلي بمشاهدة المحسوس.

{ **يَأْتُوكَ** } تعليق الفعل بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنّه كان يحضر موسم الحجّ كلّ عام يبلّغ للنّاس التوحيد وقواعد الحنيفية. وقد كان إبراهيم رحّالة فلعلّه كان ينادي في النّاس في كلّ مكان يحلّ فيه.

{ **يَأتُوكَ** } جواب للأمر، جعل التأذين سببا للإتيان تحقيقا لتيسير الحجّ على النّاس. فدلّ الجواب على أنّ الله ضمن له استجابة ندائه.

{ **رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ** } حال من ضمير الجمع في قوله { يَأتُوكَ } والمقصود منه استيعاب أحوال الآتين. أي: يأتيك من لهم رواحل ومن يمشون على أرجلهم.

{ **رِجَالاً** } : جمع راجل وهو ضد الراكب.

الضامر: قليل لحم البطن. والضمور من محاسن الرواحل والخيل لأنّه يعينها على السير والحركة. فالضامر هنا بمنزلة الاسم كأنّه قال: وعلى كل راحلة.

{ **كُلِّ** } مستعملة في الكثرة، أي: وعلى رواحل كثيرة. وأصلها الدلالة على استغراق جنس ما تضاف إليه.

{ **يَأْتِينَ** } إسناد الإتيان إلى الرواحل تشريف لها بأن جعلها مشاركة للحجيج في الإتيان إلى البيت.

الفجّ: الشقّ بين جبلين تسير فيه الرِكاب، فغلب الفج على الطريق، لأنّ أكثر الطرق المؤدية إلى مكّة تسلك بين الجبال.

العميق: البعيد إلى أسفل، لأنّ العمق البعد في القعر، فأطلق على البعيد مطلقا بطريقة المجاز المرسل، أو هو استعارة بتشبيه مكة بمكان مرتفع والناس مصعدون إليه.

{ **لِيَشْهَدُوا** } يتعلق بقوله { يَأتُوكَ } فهو علّة لإتيانهم. والمعنى: ليحضروا منافع لهم. وأهمّ المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب. فكنّى بشهود المنافع عن نيلها. وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقّى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه.

{ **مَنَافِعَ** } التنكير للتعظيم المراد منه الكثرة، وهي المصالح الدينية والدنيوية، لأنّ في مجمع الحجّ فوائد جمّة للنّاس؛ لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج، ولمجتمعهم بالتعارف والتعامل.

{ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** } وذلك هو النحر والذبح للهدايا الواجبة والمتطوّع بها. وقد بيّنته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا. وبيّنه الإسلام بما فيه شفاء. وأدمج في هذا الحكم الامتنان بأنّ الله رزقهم تلك الأنعام. وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق

بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها. وفي ذلك سدّ لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم. ولذلك فرّع عليه قوله:

{ **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** } الأمر بالأكل منها يحتمل أن يكون أمر وجوب في شريعة إبراهيم. عدل عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات أو على تقدير قول محذوف مأمور به إبراهيم عليه السلام. وفي حكاية هذا تعريض بالردّ على أهل الجاهلية إذ كانوا يمنعون الأكل من الهدايا.

الأيام المعلومات: أجملت هنا لعدم تعلّق الغرض ببيانها إذ غرض الكلام ذكر حج البيت وقد بُيّنت عند التعرض لأعمال الحجّ عند قوله تعالى { وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ }.

البائس: الذي أصابه البؤس، وهو ضيق المال، وهو الفقير. هذا قول جمع من المفسّرين. وفي الموطأ : في باب ما يكره من أكل الدواب، قال مالك: " سمعت أنّ البائس هو الفقير ".

قلتُ: من أجل ذلك لم يعطف أحد الوصفين على الآخر لأنّه كالبيان له، وإنّما ذكر البائس مع أن الفقير مغن عنه لترقيق أفئدة الناس على الفقير بتذكيرهم أنّه في بؤس، لأنّ وصف (فقير) لشيوع تداوله على الألسن صار كاللقب غير مشعر بمعنى الحاجة، وقد حصل من ذكر الوصفين التأكيد.

وعن ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي تكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني. فعلى هذا التفسير يكون البائس هو المسكين ويكون ذكر الوصفين لقصد استيعاب أحوال المحتاجين.

{ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } [29]

هذا من جملة ما خاطب الله به إبراهيم عليه السلام.

{ **ثمّ** } للتراخي الرتبي لا الزمني فتفيد أنّ المعطوف بها أهم في الغرض المسوق إليه الكلام من المعطوف عليه. وذلك في الوفاء بالنذر والطواف بالبيت العتيق ظاهر إذ هما نسكان أهمّ من نحر الهدايا، وقضاء التفث محمول على أمر مهم كما سنبيّنه.

{ **لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ** } قرأ ورش عن نافع، وقنبل عن ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بكسر لام { لِيَقْضُوا } . وقرأه الباقون بسكون اللام. وهما لغتان في لام الأمر إذا وقعت بعد (ثمّ)، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { ثُمَّ لْيَقْطَعْ }.

التفث: كلمة وقعت في القرآن وتردّد المفسرون في المراد منها. واضطرب علماء اللغة في معناها، لعلّهم لم يعثروا عليها في كلام العرب المحتجّ به. قال الزجاج: إنّ أهل اللغة لا يعلمون التفث إلّا من أقوال المفسّرين. فعن ابن عمر وابن عباس: التفث: <u>مناسك الحج وأفعاله كلّها</u>. **قلت**: رواه الطبري عنهما بأسانيد مقبولة.

وقال نفطويه وقطرب: التفث: هو الوسخ والدرن. ورواه ابن وهب عن مالك بن أنس. واختاره أبو بكر ابن العربي. قال نفطويه: سألت أعرابيا: ما معنى قوله { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } ، فقال: ما أفسر القرآن ولكن نقول للرجل ما أتفثك، أي: ما أدرنك.

وعندي: أنّ فعل { لْيَقْضُوا} ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسخا ولا ظفرا ولا شعرا. ويؤيّده ما روي عن ابن عمر وابن عباس آنفا، وأنّ موقع (ثمّ) في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرتبي فيقتضي أن المعطوف أهمّ، فإنّ أعمال الحجّ هي المهم في الإتيان إلى مكة، فلا جرم أنّ **التفث هو مناسك الحج** وهذا الذي درج عليه الحريري في قوله في المقامة المكّية: **"** فلمّا قضيت بعون الله التفث، واستبحت الطيب والرفث، صادف موسم الخيف معمعان الصيف **"**.

{ **وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** } أي: إن كانوا نذروا أعمالا زائدة على ما تقتضيه فريضة الحجّ، مثل نذر طواف زائد أو اعتكاف في المسجد الحرام أو نسكا أو إطعام فقير أو نحو ذلك.

النذر: التزام قربة الله تعالى لم تكن واجبة على ملتزمها بتعليق على حصول مرغوب أو بدون تعليق، وبالنذر تصير القربة الملتزَمة واجبة على الناذر. وأشهر صيغة: " لله عليّ... ".

وفي هذه الآية دليل على أنّ النذر كان مشروعا في شريعة إبراهيم. وقد نذر عمر في الجاهلية اعتكاف ليلة بالمسجد الحرام ووفّى به بعد إسلامه كما في الحديث.

{ **وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } وختم خطاب إبراهيم بالأمر بالطواف بالبيت إيذانا بأنّهم كانوا يجعلون آخر أعمال الحجّ الطواف بالبيت، وهو المسمّى في الإسلام طواف الإفاضة.

العتيق: المحرّر غير المملوك للناس. شُبِّه بالعبد العتيق في أنّه لا ملك لأحد عليه. وفيه تعريض بالمشركين إذ كانوا يمنعون منه من يشاءون حتّى جعلوا بابه مرتفعا بدون درج لئلا يدخله إلّا من شاءوا كما جاء في حديث عائشة أيام الفتح. وأخرج الترمذي بسند حسن أن رسول الله قال: **" إنّما سمَّى الله البيت العتيق لأنّه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبّار قط "**.

واعلم أن هذه الآيات حكاية عمّا كان في عهد إبراهيم عليه السلام فلا تؤخذ منها أحكام الحجّ والهدايا في الإسلام.

{ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** [30] **حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** [31] }.

{ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ** }

اسم الإشارة مستعمل هنا للفصل بين كلامين أو بين وجهين من كلام واحد، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده. في معنى: ذلك بيان أو ذكر. وأوثر اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المنزلة، كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

{ **وَمَنْ يُعَظِّمْ** } معترضة عطفا على جملة { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } عطف الغرض على الغرض.

وهو انتقال إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه من الحنيفيّة، والتنبيه إلى أنّ الإسلام بني على أساسها.

والكلام موجّه إلى المسلمين تنبيها لهم على أنّ تلك الحرمات لم يعطّل الإسلام حرمتها، فيكون الانتقال من غرض إلى غرض ومن مخاطب إلى مخاطب آخر. فإنّ المسلمين كانوا يعتمرون ويحجّون قبل إيجاب الحجّ.

الحرمات: جمع حُرُمة (بضمتين): وهي ما يجب احترامه.

الاحترام: اعتبار الشيء ذا حَرَم، كناية عن عدم الدخول فيه، أي: عدم انتهاكه بمخالفة أمر الله في شأنه.

والحرمات يشمل كلّ ما أوصى الله بتعظيم أمره فتشمل مناسك الحجّ كلّها.

وعن زيد بن أسلم: الحرمات خمس: المسجد الحرام، والبيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمُحْرم ما دام مُحْرما. فقصره على الذوات دون الأعمال.

{ **وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** }

لما ذكر آنفا بهيمة الأنعام وتعظيم حرمات الله أعقب ذلك بإبطال ما حرّمه المشركون على أنفسهم من الأنعام مثل: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وبعض ما في بطونها. وقد ذُكر في سورة الأنعام.

واستثني منه ما يتلى تحريمه في القرآن وهو ما جاء في قوله تعالى { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً } [الأنعام:145]، وما ذكر في سورة النحل وكلتاهما مكّيتان سابقتان.

{ **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** } جيء بالمضارع ليشمل ما نزل من القرآن في ذلك ممّا سبق نزول سورة الحجّ، ويشمل ما عسى أن ينزل من بعد مثل قوله { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ } [المائدة:103].

{ **فَاجْتَنِبُوا** } الأمر مستعمل في طلب الدوام.

{ **قَوْلَ الزُّورِ** } الكذب على الله بقولهم لبعض المحرّمات { هَذَا حَلَالٌ } مثل الدم وما أهلّ لغير الله به، وقولهم

لبعض { هَذَا حَرَامٌ } مثل: البحيرة، والسائبة، قال تعالى { وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [النحل:116].

الرجس: حقيقته الخبث والقذارة. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِنَّهُ رِجْسٌ } [الأنعام:145]. ورجس الأوثان رجس معنوي لكون اعتقاد إلهيتها في النفوس بمنزلة تعلّق الخبث بالأجساد، فإطلاق الرجس عليها تشبيه بليغ.

{ **حُنَفَاءَ لِلَّهِ** } حال من ضمير { اجْتَنِبُوا }، أي: تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله. جمع حنيف وهو المخلص لله في العبادة، أي: تكونوا على ملّة إبراهيم حقًّا.

{ **غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** } زاد معنى { حُنَفَاءَ } بيانا. وهذا كقوله { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل:120]. والباء للمصاحبة والمعيّة، أي: غير مشركين معه غيره.

{ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }

أعقب نهيهم عن الأوثان بتمثيل فظاعة حال من يشرك بالله في مصيره. يعني أنّ المشرك لمّا عدل عن الإيمان الفطري وكان في مكنته فكأنّه كان في السماء فسقط منها، فتوزّعته أنواع المهالك.

الخرور: السقوط وتقدّم في قوله { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26].

{ **فَتَخْطَفُهُ** } الخطف: أخذ شيء بسرعة سواء كان في الأرض أم كان في الجو، ومنه تخطف الكرة. والمضاعف { فَتَخَطَّفُهُ } للمبالغة، قراءة نافع وأبو جعفر.

الهُوِيّ: نزول شيء من علو إلى الأرض.

{ **أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ** } تخيير في نتيجة التشبيه. أشارت الآية إلى أنّ الكافرين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مُشبّه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلّا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتّبعه وترك ما كان عليه. وقسم مصمّم على الكفر مستقرّ فيه، فهو مُشبّه بمن ألقته الريح في واد سحيق.

السحيق: البعيد فلا نجاة لمن حلّ فيه.

{ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } [32]

الشعائر: جمع شعيرة، المعلم الواضح، مشتقّة من الشعور. و**شعائر الله**: لقب لمناسك الحج.

ومضمون الجملة أخصّ من مضمون جملة { وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ } وذكر الأخص بعد الأعم للاهتمام. وتقدّم ذكرها في قوله تعالى { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } [البقرة:158].

فكل ما أمر الله به بزيارته أو بفعل يوقَع فيه فهو من شعائر الله، أي مما اشعر الله للناس وقرّره وشهّره. وهي معالم الحج: الكعبة. والصفا والمروة. وعرفة، والمشعر الحرام. ونحوها من معالم الحج.

وتطلق الشعيرة أيضا على بدنة الهدي قال تعالى { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } لأنّهم يجعلون فيها شعارا، والشعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعنا حتّى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنّها نذرت للهدي.

{ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } جواب الشرط والرابط بين الشرط وجوابه هو العموم في قوله { الْقُلُوبِ }، فإنّ من جملة القلوب قلوب الذين يعظّمون شعائر الله. فالتقدير: فقد حلّت التقوى قلبه بتعظيم الشعائر لأنّها من تقوى القلوب. أي: لأنّ تعظيمها من تقوى القلوب.

{ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } [33]

حال من الأنعام في قوله { وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ } وما بينهما اعتراضات. والمقصود بالخبر هنا: هو صنف من الأنعام، وهو صنف الهدايا بقرينة قوله { ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ }. والخطاب موجّه للمؤمنين.

المنافع: جمع منفعة، وهي اسم النفع، وهو حصول ما يلائم. وجعْل المنافع فيها يقتضي أنّها انتفاع بخصائصها ممّا يراد من نوعها قبل أن تكون هديا.

وهو ردّ على المشركين إذ قلّدوا الهديَ وأشعروه حظروا الانتفاع به: من ركوبه وحمل عليه وشرب لبنه.

وفي الموطأ عن أبي هريرة: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: **اركبها**، فقال: إنّها بدنة، فقال: **اركبها**، فقال: إنّها بدنة، فقال: **اركبها ويلك**، في الثانية أو الثالثة ".

الأجل المسمَّى: هو وقت نحرها، وهو يوم من أيام منى. وهي الأيام المعدودات.

المَحِل: (بفتح الميم وكسر الحاء) مصدر ميمي من حلَّ يحلّ، إذا بلغ المكان واستقرّ فيه. وهو كناية عن نهاية أمرها، كما يقال: بلغ الغاية. ونهاية أمرها النحر أو الذبح.

{ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } انتهاء مجازي لأنّها لا تنحر في الكعبة، لأنّ الهدايا إنّما شرعت تكملة لشرع الحجّ، والحجّ قصد البيت، فالهدايا تابعة للكعبة، قال تعالى { هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ }.

وإنّما المناحر: منى، والمروة، وفجاج مكّة، أي: طرقها بحسب أنواع الهدايا. وتبيينه في السنّة.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ [34] الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [35] }.

الأمّة: أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه. والمراد: أنّ المسلمين لهم منسك واحد وهو البيت العتيق كما تقدّم. والمقصود من هذا الردّ على المشركين إذ جعلوا لأصنامهم مناسك تشابه مناسك الحجّ، وجعلوا لها مواقيت ومذابح، مثل الغَبْغَب منحر العزى. فذكّرهم الله تعالى بأنّه ما جعل لكلّ أمّة إلّا منسكا واحدا للقربان إلى الله تعالى الذي رزق النّاس الأنعام التي يتقرّبون إليه منها.

{ **مَنْسَكًا** } التنكير للإفراد، أي: واحدا لامتعدّدا، ومحلّ الفائده هو إسناد الجعل إلى ضمير الجلالة.

{ **عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** } يجوز أن تكون (عَلَى) للاستعلاء المجازي متعلّقة بـ { لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ} مع تقدير مضاف بعد (على) تقديره: إهداء ما رزقهم. أي عند إهداء ما رزقهم.

ويجوز أن تكون (عَلَى) بمعنى: لام التعليل. والمعنى: ليذكروا اسم الله لأجل ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

{ **فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } فرّع على هذا الانفراد بالإلهية، أي: إذ كان قد جعل لكم منسكا واحدا فقد نبّهكم بذلك أنّه إله واحد، ولو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة.

{ **فَلَهُ أَسْلِمُوا** } تفريع ثان، وهو المقصود، فوقع في النظم تغيير بتقديم وتأخير. وأصل النظم: فلله أسلموا، لأنّ إلهكم إله واحد. وتقديم المجرور للحصر، أي: أسلموا له لا لغيره.

{ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }.

اعتراض بين سَوق المِنن. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وأصحاب هذه الصفات هم المسلمون.

المُخبت: المتواضع الذي لا تكبّر عنده. وأصل المُخبت من سلك الخَبْت. وهو المكان المتخفض ضدّ المُصعد. ثم استعير للمتواضع، والمراد بهم هنا المؤمنون، لأن التواضع من شيمهم كما كان التكبّر من سمات المشركين قال تعالى { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } [غافر:35].

الوجل: الخوف الشديد. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } [الحجر:52].

وقد أتبع صفة { المُخْبِتِينْ } بأربع صفات وهي: **وجل القلوب** عند ذكر الله، **والصبر على الأذى** في سبيله، **وإقامة الصلاة**، و**الإنفاق**. وكلّ هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع.

{ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[36]

عطف على جملة { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً }، أي: جعلنا منسكا للقربان والهدايا، وجعلنا البدن التي تُهدى ويُتقرّب بها شعائر من شعائر الله.

والمعنى: أن الله أمر بقربان البُدْن في الحجّ من عهد إبراهيم عليه السلام وجعلها جزاء عمّا يترخّص فيه من أعمال الحجّ. وأمر بالتطوّع بها فوعد عليها بالثواب الجزيل، فنالت بذلك الجعْل الإلهي يُمْنا وبركة وحرمة ألحقتها بشعائر الله، وامتنّ بذلك على النّاس بما اقتضته كلمة { لكم }.

البُدْن: جمع بَدَنَة بالتحريك، وهي البعير العظيم البدن. وهو اسم مأخوذ من البدانة. وهي عظم الجثة والسمن. وغلب اسم البدنة على البعير المعيّن للهدي.

وتقديم { البدن } على عامله للاهتمام بها تنويها بشأنها. والاقتصار على البدن الخاص بالإبل لأنها أفضل في الهدي لكثرة لحمها. وقد ألحقت بها البقر والغنم بدليل السنّة. واسم ذلك **هدي**.

{ **مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ** } أي: أنّ الله جعلها معالم تؤذن بالحجّ وجعل لها حرمة. وهذا وجه تسميتهم وضع العلامة التي يعلّم بها بعير الهدي في جلده إشعارا.

قال مالك في الموطأ : كان عبد الله بن عمر إذا أهدى هديا من المدينة قلّده وأشعره بذي الحليفة، يقلّده قبل أن يشعره... يقلّده بنعلين ويشعره من الشق الأيسر... "، بطعن في سنامه، فالإشعار إعداد للنحر.

وقد عُدّت في جملة الحرمات في قوله { لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ } [المائدة:2].

الخير: النفع. وهو ما يحصل للنّاس من النفع في الدنيا من انتفاع الفقراء بلحومها وجلودها وجلالها ونعالها وقلائدها. وما يحصل للمُهدين وأهلهم من الشبع من لحمها يوم النحر، وخير الآخرة من الثواب.

{ **فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ** } أمر النّاس بأن يذكروا اسم الله عليها حين نحرها.

صوافّ: جمع صافّة. يقال: صف إذا كان مع غيره صفا بأن اتصل به. ولعلّهم كانوا يصفّونها في المنحر يوم النحر بمنى، لأنّه كان بمنى موضع أعدّ للنحر، وهو المنحر.

وقد ورد في حديث مسلم عن جابر بن عبد الله في حجة الوداع قال فيه: " ثم انصرف رسول الله إلى المنحر فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين بدنة جعل يطعنها بحربة في يده ثم أعطى الحربة عليّا فنحر ما غبر(أي: ما بقي) وكانت مائة بدنة ". وهذا يقتضي أنّها كانت مجتمعة متقاربة.

وفائدة هذه الحال ذكر محاسن من مشاهد البدن، فإنّ إيقاف النّاس بدنهم للنحر مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة ممّا يزيد هيئتها جلالا. وقريب منه قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ

مَرْصُوصٌ } [الصف:4].

{ **فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا** } سقطت إلى الأرض، وهو كناية عن زوال الروح التي بها الاستقلال. والقصد من هذا التوقيت المبادرة بالانتفاع بها إسراعا إلى الخير الحاصل من ذلك في الدنيا بإطعام الفقراء وأكل أصحابها منها فإنّه يستحبّ أن يكون فطور الحاجّ يوم النحر من هديه، وكذلك الخير الحاصل من ثواب الآخرة.

{ **فَكُلُوا مِنْهَا** } الأمر مجمل، يحتمل الوجوب ويحتمل الإباحة ويحتمل الندب. وقرينة عدم الوجوب ظاهرة لأنّ المكلف لا يفرض عليه ما الداعي إلى فعله من طبعه. وإنّما أراد الله إبطال ما كان عند أهل الجاهلية من تحريم أكل المهدي من لحوم هديه، فبقي النظر في أنّه مباح بحت أو هو مندوب.

واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة.

فقال مالك: يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة. وهو عنده مستحب ولا يؤكل من فدية الأذى وجزاء الصيد ونذر المساكين. والحجّة لمالك صريح الآية.

وقال أبو حنيفة: يأكل من هدي التمتع والقران. ولا يأكل من الواجب الذي عيّنه الحاج عند إحرامه.

وقال الشافعي: لا يأكل من لحوم الهدايا بحال مستندا إلى القياس. وهو أن المهدي أوجب إخراج الهدي من ماله فكيف يأكل منه. كذا قال ابن العربي. وإذا كان هذا قصارى كلام الشافعي فهو استدلال غير وجيه ولفظ القرآن ينافيه لا سيما وقد ثبت أكل النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من لحوم الهدايا بأحاديث صحيحة.

وقال أحمد: يؤكل من الهدايا الواجبة إلّا جزاء الصيد والنذر.

{ **وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ** } قال الشافعي: الأمر للوجوب. وهو الأصح. قال ابن العربي: وهو صريح قول مالك.

القانع: المتّصف بالقُنُوع. وهو التذلّل. يقال: قنُع قُنُوعا (بضم القاف) إذا سأل بتذلّل.

وأمّا القناعة ففعلها من باب تعب ويستوي الفعل المضارع مع اختلاف الموجب. ومن أحسن ما جُمع من النظائر ما أنشده الخفاجي:

العبد حرٌّ إن قنع ... والحر عبد إن قنُع

فاقنع ولا تقنع فما ... شيء يشين سوى الطمع

وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: والقانع هو الفقير .

المعترّ: اسم فاعل من اعترّ، إذا تعرض للعطاء، أي دون سؤال بل بالتعريض وهو أن يحضر موضع العطاء، يقال: اعترّ، إذا تعرّض.

وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: وسمعت أنّ المعترّ هو الزائر، أي فتكون من عرّ إذا زار. والمراد زيارة التعرّض للعطاء. وهذا التفسير أحسن. ويرجّحه أنّه عطف { المعترّ } على { القَانِعَ }، فدلّ العطف

على المغايرة، ولو كانا في معنى واحد لما عطف عليه كما لم يعطف في قوله { وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ }.
{ **كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ** } استئناف للامتنان بما خلق من المخلوقات لنفع الناس. والأمارة الدالة على إرادته ذلك أنّه سخّرها للناس مع ضعف الإنسان وقوة تلك الأنعام فيأخذ الرجل الواحد العدد منها ويسوقها منقادة، ويؤلمونها بالإشعار. ولولا أن الله أودع في طباعها هذا الانقياد لما كانت أعجز من بعض الوحوش التي هي أضعف منها فتنفر من الإنسان ولا تسخَّر له.
{ **كَذَلِكَ** } هو مثل نظائره، أي مثل ذلك التسخير العجيب الذي ترونه كان تسخيرها لكم.
{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } خلقناها مسخَّرة لكم استجلابا لأن تشكروا الله بإفراده بالعبادة. وهذا تعريض بالمشركين إذ وضعوا الشرك موضع الشكر.

{ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } [37]

{ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ }
جملة في موضع التعليل لجملة { كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }. أي: أنّه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها، فلا يريد الله منكم على ذلك إلّا أن تتقوه.
النيل: الإصابة. يقال: ناله، أي: أصابه ووصل إليه. ويقال أيضا بمعنى أحرز، فإنّ فيه معنى الإصابة كقوله تعالى { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } [آل عمران:92] وقوله { وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا } [التوبة:74].
والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما يفعله المشركون من نضح الدماء في المذابح وحول الكعبة وكانوا يذبحون بالمروة. قال الحسن: كانوا يلطّخون بدماء القرابين وكانوا يشرّحون لحوم الهدايا وينصبونها حول الكعبة قربانا لله تعالى. يعني زيادة على ما يعطونه للمحاويج.
وفي الآية إيماء إلى أنّ إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبّد ولكنّهما وسيلة لنفع النّاس.
فأمّا المُهدون فانتفاعهم بالأكل منها في يوم عيدهم كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في تحريم صيام يوم النحر:" **يوم تأكلون فيه من نسككم** " فذلك نفع لأنفسهم ولأهاليهم ولو بالادخار منه إلى رجوعهم إلى آفاقهم.
وأمّا غيرهم، فانتفاع من ليس له هدي من الحجيج بالأكل ممّا يهديه إليهم أقاربهم وأصحابهم، وانتفاع المحاويج من أهل الحرم بالشبع والتزود منها والانتفاع بجلودها وجلالها وقلائدها.
وقد عُرضت جملة من الأسئلة هنا:
إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم، فهل يجوز بيعها؟

واللحم الذي يفضل هل يجوز تصبيره؟

وهل الأجدى نحر كلّ الهدايا يوم النحر أم يجوز توزيعها على أيام التشريق؟

وقد تردّدت في الجواب عن ذلك أنظار المتصدّين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتفق كلمات من صدرت منهم فتاوى على أنّ تصبيرها مناف للتعبّد بهديها.

أمّا أنا فالذي أراه أنّ المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة النّاس في أيّام الحجّ، لينتفع بها المحتاجون في عامهم، رعيا لمقصد الشريعة من نفع المحتاج وحفظ الأموال، مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها، جمعا بين المقاصد الشرعية.

كذلك الرأي عندي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يُتعجّل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأوّل طلبا لفضيلة المبادرة. فإنّ التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي الانتفاع بها. وهذا قياس على أصل حفظ الأموال. وحكم الهدايا مركّب من تعبد وتعليل. ومعنى التعليل فيه أقوى. وعلّته انتفاع المسلمين، ومسلك العلة الإيماء الذي في قوله تعالى { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ }.

واعلم أنّ توهّم التقرّب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرّب إليه بتلك الدماء عقيدة وثنية قديمة، فربّما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام فلا يدعون أحدا يأكله. وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رمادا ويتوهّمون أنّ رائحة الشواء تسرّ الآلهة المتقرّب إليها بالقرابين. وكان المصريّون يلقون الطعام للتماسيح التي في النيل لأنّها مقدّسة.

{ **وَلَكِنْ يَنَالُهُ** } مشاكله لـ { يَنَالَ } الأول، استعير النيل لتعلّق العلم. شبه علم الله تقواهم بوصول الشيء المبعوث إلى الله تشبيها وجهه الحصول في كلٍّ وحسَّنته المشاكلة.

{ **التَّقْوَى مِنْكُمْ** } ويشمل التقوى ذكر اسم الله عليها والتصدّق ببعضها على المحتاجين.

{ **كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** }

تكرير لجملة { كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ } ليبنى عليه التنبيه إلى أنّ الثناء على الله، مُسخِّرها، هو رأس الشكر المنبّه عليه في الآية السابقة، فصار مدلول الجملتين مترادفا، فوقع التأكيد.

{ **عَلَى مَا هَدَاكُمْ** } للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكّن. أي: لتكبّروا الله عند تمكّنكم من نحرها.

الهداية إليها: هي تشريع الهدايا في تلك المواقيت لينتفع بها الناس ويرتزق سكان الحرم الذين اصطفاهم الله ليكونوا دعاة التوحيد، لا يفارقون ذلك المكان. والخطاب للمسلمين.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } [38]

استئناف بياني جوابا لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }، فإنّه توعّد المشركين على صدّهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم. وبشّر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضدّ وعيد المشركين وذلك ثواب الآخرة. فهل ينتصر لهم من أعدائهم أو يدّخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة ؟

فكان المقام خليقا بأن يطمئن الله نفوسهم بأنّه كما أعدّ لهم نعيم الآخرة هو أيضا مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم. فالكلام موجه إلى المؤمنين. ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إمّا لمجرد تحقيق الخبر، وإمّا لتنزيلهم منزلة المتردّدين لشدّة انتظارهم النصر واستبطائهم إيّاه.

{ الَّذِينَ آمَنُوا } التعبير بالموصول لما فيه من الإيماء أنّ دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } تعليل، فلذلك يدفع عن المؤمنين لرد أذى الكافرين.

الخوّان: شديد الخون. والخون كالخيانة: الغدر بالأمانة. والمراد بالخوان: الكافر، لأنّ الكفر خيانة لعهد الله الذي أخذه على المخلوقات بأن يوحّدوه فجعله في الفطرة وأبلغه الناس على ألسنة الرسل.

الكفور: شديد الكفر.

{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [39]

بدل اشتمال من جملة { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ }، لأنّ دفاع الله عن الناس يكون تارة بالإذن لهم بمقاتلة من أراد الله مدافعتهم عنهم، فإنّه إذا أذن لهم بمقاتلتهم كان متكفّلا لهم بالنصر.

{ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ } مراد بهم المؤمنون على كلتا القراءتين لأنّهم إذا قوتلوا فقد قاتلوا. فعلى قراءة فتح التاء فالمراد بالقتال فيه القتل المجازي، وهو الأذى. وأمّا على قراءة { يُقَاتِلونَ } (بكسر التاء) فصيغة الماضي مستعملة مجازا في التهيؤ والاستعداد. أي: أذن للذين تهيّئوا للقتال وانتظروا إذن الله.

وذلك أنّ المشركين كانوا يؤذون المؤمنين بمكة أذى شديد فكان المسلمون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلّمون إليه. فيقول لهم: **اصبروا فإنّي لم أؤمر بالقتال.** فلمّا هاجر نزلت هذه الآية بعد بيعة العقبة إذنا لهم بالتهيّؤ للدفاع عن أنفسهم، ولم يكن قتال قبل ذلك كما يؤذن به قوله تعالى عقب هذا { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ }.

{ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا } الباء أراها متعلّقة بـ { أُذِنَ } لتضمينه معنى الإخبار. أيّ: أخبرناهم بأنّهم مظلومون.

وهذا الإخبار كناية عن الإذن للدفاع لأنّك إذا قلت لأحد: إنّك مظلوم، فكأنّك استعديته على ظالمه وذكّرته بوجوب الدفاع، وقرينة ذلك تعقيبه بقوله { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }.

وذهب المفسّرون إلى أنّ الباء سببية، والتفسير الذي رأيته أنسب وأرشق.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** }، أي: أذن لهم بذلك وذُكّروا بقدرة الله على أن ينصرهم. وهذا وعد من الله بالنصر وارد على سُنن كلام العظيم المقتدر بإيراد الوعد في صورة الإخبار بأنّ ذلك بمحلّ العلم منه ونحوه، كقولهم: عسى أن يكون كذا، أو أنّ عندنا خيرا، أو نحو ذلك، بحيث لا يبقى للمترقّب شك في الفوز بمطلوبه. وتوكيد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيقه أو تعريض بتنزيلهم منزلة المتردّد في ذلك لأنّهم استبطأوا النصر.

{ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [40]

{ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** } بدل من { لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ }. وفي إجراء هذه الصلة عليهم إيماء إلى أنّ المراد بالمقاتلة الأذى، وأعظمه إخراجهم من ديارهم كما قال تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ }.

{ **بِغَيْرِ حَقٍّ** } حال من ضمير {أُخْرِجُوا} ، أي أخرجوا متلبسين بعدم الحقّ عليهم الموجب إخراجهم.

فإنّ للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحقّ ثابت بالفطرة لأنّ من الفطرة أنّ الناشئ في أرض والمتولّد بين قوم هو مساو لجميع أهل ذلك الموطن في حقّ القرار في وطنهم وبين قومهم. كما قال عمر بن الخطاب: " إنّها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام ".

ولا يزول ذلك الحقّ إلّا بموجب قرّره الشرع أو العوائد قبل الشرع. فمن ذلك في الشرائع التغريب والنفي، وفي قوانين أهل الجاهلية الجلاء والخلع. وإنّما يكون ذلك لاعتداء يعتديه المرء على قومه لا يجدون له مسلكا من الردع غير ذلك.

{ **إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** } استثناء من عموم الحقّ. ولمّا كان المقصود من الحقّ حقّا يوجب الإخراج، كان هذا الاستثناء مستعملا على طريقة الاستعارة التهكّميّة. أي: إن كان عليهم حقّ فهو أن يقولوا ربنا الله، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحقّ عليهم بسبب استقراء ما قد يتخيل أنّه حق عليهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم نقضه. ويسمّى عند أهل البديع تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، وشاهده قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائب

وهذه الآية لا محالة نزلت بالمدينة.

{ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً }

اعتراض بين جملة { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ } وبين قوله { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ }. فلما تضمّنت الجملة الأولى الإذن للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أتبع ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذن بالدفاع، مع التنويه بهذا الدفاع، والمتولّين له، بأنّه دفاع عن الحقّ والدين، ينتفع به جميع أهل أديان التوحيد، وليس هو دفاعا لنفع المسلمين خاصة.

{ وَلَوْلا } حرف امتناع لوجود، أي: حرف يدلّ على امتناع جوابه لأجل وجود شرطه. والمعنى: لولا دفاع الناس عن مواضع عبادة المسلمين لتمادى المشركون ولتجاوزوا فيه المسلمين إلى الاعتداء على ما يجاور بلادهم من أهل الملل الأخرى المناوئة لملّة الشرك ولهدموا معابدهم من صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد. فذكر الصوامع، والبِيَع، والصلوات، إدماج لينتبهوا إلى تأييد المسلمين.

{ دَفْعُ اللَّهِ } إضافة الدفاع إلى الله إسناد مجازي عقلي، لأنّه إذن للنّاس أن يدفعوا عن معابدهم فكان إذن الله سبب الدفع. وهذا يهيب بأهل الأديان إلى التألّب على مقاومة أهل الشرك.

{ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } فالتعريف تعريف العهد، أي: النّاس الذين يتقاتلون، وهم المسلمون ومشركو مكّة. ويجوز أن يكون المراد: لولا ما سبق قبل الإسلام من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك كما قاتل داودد جالوت، وكما تغلّب سليمان على ملكة سبا. لمحق المشركون معالم التوحيد، كما محق بختنصر هيكل سليمان فتكون هذه الجملة تذييلا لجملة { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا }، أي: أذن للمسلمين بالقتال كما أذن لأمم قبلهم، لكيلا يطغى عليهم المشركون كما طغوا على من قبلهم، فالتعريف في { النَّاسَ } تعريف الجنس.

الهدم: تقويض البناء وتسقيطه. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر { لهُدِمت } - بتخفيف الدال - وقرأه الباقون - بتشديد الدال - للمبالغة في الهدم، أي لهدّمت هدما ناشئا عن غيظ بحيث لا يبقون لها أثرا.

الصوامع: جمع صومعة بوزن فوعلة، وهي بناء مستطيل مرتفع يصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت، كان الرهبان يتخذونه للعبادة ليكونوا بعداء عن مشاغلة النّاس إيّاهم، وكانوا يوقدون به مصابيح للإعانة على السهر للعبادة ولإضاءة الطريق للمارين. من أجل ذلك سُمّيت الصومعة المنارة. قال امرؤ القيس:

تضيء الظلام بالعشي كأنها ... منارة مُمسَى راهب مُتبتّل

البِيَعَ: جمع بِيعة (بكسر الباء وسكون التحتية) مكان عبادة النصارى ولا يعرف أصل اشتقاقها. ولعلها معرّبة عن لغة أخرى.

الصلوات: جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود معرّبة عن كلمة (صلوثا) - بالمثلثة في آخره بعدها ألف -. فلما عُرّبت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك.

المساجد: اسم لمحلّ السجود من كل موضع عبادة، ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية، فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنوا مسجد قباء ومسجد المدينة.

{ **يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً** } صفة والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إلى ما في تلك الجمل. فلذلك قيل برجوعها إلى (صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد). وفائدة هذا الوصف الإيماء إلى أنّ سبب هدمها أنّها يذكر فيها اسم الله كثيرا ولا تذكر أسماء أصنام أهل الشرك.

وقيل الصفة راجعة إلى مساجد خاصة.

{ **كَثِيراً** } الكثرة مستعملة في الدوام لاستغراق الأزمنة، وفي هذا إيماء إلى أنّ في هذه المواضع فائدة دينية وهي ذكر اسم الله.

وتقديم الصوامع في الذكر على ما بعده لأنّ صومع الرهبان كانت أكثر في بلاد العرب من غيرها، وكانت أشهر عندهم، لأنّهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم ويأوون إليها. وتعقيبها بذكر البيع للمناسبة إذ هي معابد النصارى مثل الصوامع. وأمّا ذكر الصلوات بعدهما فلأنّه قد تهيّأ المقام لذكرها، وتأخير المساجد لأنّها أعمّ.

{ **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** } تذييل لما فيها من العموم الشامل للمسلمين الذين أخرجهم المشركون. أي: أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم. وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع، لأنّهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنّهم نصروا الله. ولذلك أكد الجملة بلام القسم ونون التوكيد.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } تعليل لجملة { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ }، أي: كان نصرهم مضمونا، لأنّ ناصرهم قدير على ذلك بالقوة والعزّة. والقوة مستعملة في القدرة. والعزة هنا حقيقة، لأنّ العزة هي المنعة.

{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [41]

بدل من { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } وما بينهما اعتراض. فالمراد بهم المهاجرون، فهو ثناء عليهم وشهادة لهم بكمال دينهم. وعن عثمان: هذا والله ثناء قبل بلاء. أي: قبل اختبار.

ويجوز أن يكون بدلا من { مَنْ يَنْصُرُه } فيكون المراد: كلّ من نصر الدين من أجيال المسلمين.

وعلى الاحتمالين فالكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام، فإنّ بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرّطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله.

{ **إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ** } أي: بالنصر الذي وعدوا في قوله { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }.
التمكين: التوثيق. وأصله إقرار الشيء في مكان وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك، والأرض للجنس، أي: تسليطهم على شيء من الأرض. وقد تقدّم قوله تعالى { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الأعراف:10]، وقوله { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } [يوسف:21].
{ **أَقَامُوا الصَّلاةَ** } لدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس.
{ **وَآتَوُا الزَّكَاةَ** } ليكون أفراد الأمّة متقاربين في نظام معاشهم.
{ **وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ** } لتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمّة من تلقاء أنفسهم.
المعروف: ما هو مقرّر من شؤون الدين. إمّا بكونه معروفا للأمّة كلها، وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائر الأمّة. وإمّا بكونه معروفا لطائفة منهم، وهو دقائق الأحكام، فيأمر به الذين من شأنهم أن يعلموه وهم العلماء.
المنكر: ما شأنه أن يُنكَر في الدين، أي أن لا يُرضى بأنّه من الدين. وذلك كلّ عمل يُدخل في أمور الأمّة والشريعة وهو مخالف لها. ولا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم ممّا هو في منطقة المباح. والنهي عن المنكر آيل إلى الأمر بالمعروف وكذلك الأمر بالمعروف آيل إلى النهي عن المنكر.
{ **وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** } عطف على جملة { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } ، أوعلى جملة { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }، والمآل واحد، وهو تحقيق وقوع النصر، لأنّ الذي وعد به لا يمنعه من تحقيق وعده مانع، وفيه تأنيس للمهاجرين لئلّا يستبطئوا النصر.
العاقبة: آخر الشيء وما يعقب الحاضر. وتأنيثها لملاحظة معنى الحالة، وصارت بكثرة الاستعمال اسما. وتقديم المجرور هنا للاهتمام والتنبيه على أنّ ما هو لله فهو يصرفه كيف يشاء.

{ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ [42] وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ [43] وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [44] }.

لمّا نعى على المشركين مساويهم في شؤون الدين بإشراكهم وإنكارهم البعث وصدّهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام بإخراج أهله منه، عطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقصد من ذلك تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، وتمثيلهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله، وتهديدهم بالمصير إلى مصيرهم. ونظير هذه الآية إجمالا وتفصيلا تقدّم غير مرّة في [آل عمران:184] وغيرها.
قوم إبراهيم: هم الكَلدان.

أصحاب مدين: هم قوم شعيب. وإنّما لم يعبّر عنهم بقوم شعيب لئلّا يتكرّر لفظ قوم أكثر من ثلاث مرات.
{ **وَكُذِّبَ مُوسَى** } لأنّ مكذّبيه هم القبط قوم فرعون، ولم يكذّبه قومه، بنو إسرائيل.
{ **فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ** } معناه: فأمليت لهم، فوضع الظاهر موضع الضمير للإيماء إلى أنّ علّة الإملاء لهم ثمّ أخذهم هو الكفر بالرسل، تعريضا بالنذارة لمشركي قريش.
الأخذ: حقيقته التناول لما لم يكن في اليد، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم.
وهذا الأخذ معلوم في آيات أخرى عدا أنّ قوم إبراهيم لم يتقدّم في القرآن ذكر لعذابهم أو أخذهم سوى أنّ قوله تعالى { وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء:70] مشير إلى سوء عاقبتهم ممّا أرادوا به من الكيد. وهذه الآية صريحة في ذلك كما أشرنا هنالك.
ومناسبة عدّ قوم إبراهيم هنا في عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التي ذكر فيها من أخذوا من الأقوام، أنّ قوم إبراهيم أتمّ شبها بمشركي قريش في أنهم كذّبوا رسولهم وآذوه، وألجأوه إلى الخروج من موطنه { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]، فكان ذكر إلجاء قريش المؤمنين إلى الخروج من موطنهم في قوله { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } مناسبة لذكر قوم إبراهيم.
الإملاء: ترك المتلبّس بالعصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخّر حتّى يحسب أنّه قد نجا.
{ **فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ** } الفاء للتعقيب، دلالة على أنّ تقدير هلاكهم حاصل في وقت تكذيبهم وإنّما أخِّر لهم، وهو تعقيب موزّع، فلكلّ قوم من هؤلاء تعقيب إملائه.
{ **ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ** } والأخذ حاصل بعد الإملاء بمهلة، فلذلك عطف فعله بحرف المهلة.
{ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** }عطفت بالفاء لأنّ حق ذلك الاستفهام أن يحصل عند ذكر ذلك الأخذ، وهو استفهام تعجيبي. ووجه التعجيب منه أنّهم أُبدلوا بالنعمة مِحنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابا، فهو عبرة لغيرهم.
النكير: الإنكار الزجري لتغيير الحالة التي عليها الذي يُنْكَر عليه.
وكأنّ مناسبة اختيار النكير في هذه الآية دون العذاب ونحوه أنّه وقع بعد التنويه بالنهي عن المنكر لينبّه المسلمين على أن يبذلوا في تغيير المنكر منتهى استطاعتهم، فإن الله عاقب على المنكر بأشد العقاب، فعلى المؤمنين الائتساء بصنع الله، وقد قال الحكماء: إن الحكمة هي التشبه بالخالق بقدر ما تبلغه القوة الإنسانية، وفي هذا المجال تتسابق جياد الهمم.

{ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [45]

تفّرع ذكر جملة { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ } على جملة { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } فعطفت عليها بفاء التفريع، والتعقيب في الذكر لا في الوجود، لأن الإملاء لكثير من القرى ثم أخذها بعد الإملاء لها يبيّن كيفيّة نكير الله وغضبه على القرى الظالمة ويفسّره، فناسب أن يذكر التفسير عقب المفسّر بحرف التفريع.

{ **فَكَأَيِّنْ** } اسم دال على الإخبار عن عدد كثير، وموضعها من الجملة محلّ رفع بالابتداء، وجملة { أَهْلَكْنَاهَا} الخبر. والتقدير: كثير من القرى أهلكناها. ويجوز أن تكون جملة { أَهْلَكْنَاهَا } في محل جر صفة { قَرْيَةٍ }. وقد تقدم نظيره في قوله { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ } [آل عمران:146].

{ **وَهِيَ ظَالِمَةٌ** } وأهل المدن الذين أهلكهم الله لظلمهم كثيرون، منهم من ذكر في القرآن مثل عاد وثمود، ومنهم من لم يذكر مثل طسم وجديس وآثارهم باقية في اليمامة.

{ **فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** } أنّها لم يبق فيها سقف ولا جدار.

العروش: جمع عرش، وهو السقف. وتقدّم تفسير نظيرها عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [البقرة:259].

المعطّلة: التي عُطّل الانتفاع بها مع صلاحها للانتفاع، أي: هي نابعة بالماء وحولها وسائل السقي ولكنّها لا يُستقى منها لأنّ أهلها هلكوا. وقد وجد المسلمون في مسيرهم إلى تبوك بِئارًا في ديار ثمود ونهاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الشرب منها إلّا بئرا واحدة التي شربت منها ناقة صالح عليه السلام.

القصر: المسكن المبني بالحجارة المجعول طباقا.

المَشيد: المبني بالشِّيد (بكسر الشين وسكون الياء) وهو الجص، وإنّما يبنى به البناء من الحجر.

القصور المُشَيَّدة، وهي المخلّفة عن القرى التي أهلكها الله، كثيرة مثل: قصر غُمدان في اليمن، وقصور ثمود في الحِجر، وقصور الفراعنة في صعيد مصر.

وفي تفسير القرطبي يقال: إنّ هذه البئر وهذا القصر بحضرموت معروفان.

ويقال: إنّها بئر الرسّ وكانت في عدن وتسمّى حَضور (بفتح الحاء) وكان أهلها بقيّة من المؤمنين بصالح الرسول عليه السلام، وكان صالح معهم، وأنّهم آل أمرهم إلى عبادة صنم وأنّ الله بعث إليهم حنظلة بن صفوان رسولا فنهاهم عن عبادة الصنم فقتلوه فغارت البئر وهلكوا عطشا.

غير أنّ كلمة (كأين) تنافي إرادة قرية معينة.

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }[46]

تفريع على جملة { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } وما بعدها.

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } الاستفهام تعجيبي من حالهم في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذِّبة لأنبيائها. والتعجيب متعلّق بمن سافروا منهم ورأوا شيئا من تلك القرى المهلَكة، وبمن لم يسافروا، فإنّ شأن المسافرين أن يخبروا القاعدين بعجائب ما شاهدوه في أسفارهم كما يشير إليه قوله تعالى { أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا }.

{ فَتَكُونَ } الفاء سببية جوابية مسبَّب ما بعدها على السير، أي: لم يسيروا سيرا تكون لهم به قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها.

وهذا شأن الأسفار أن تفيد المسافر ما لا تفيده الإقامة في الأوطان من اطلاع على أحوال الأقوام وخصائص البلدان واختلاف العادات، فهي تفيد كل ذي همّة. وأعظم ذلك فوائد العبرة بأسباب النجاح والخسارة.

{ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } أطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل لأنّ القلب هو مُفيض الدم وهو مادة الحياة على الأعضاء الرئيسة وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال { يَعْقِلُونَ بِهَا } وإنّما آلة العقل هي الدماغ ولكنّ الكلام جرى أوّله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية ونزلت عقولهم منزلة المعدوم كما نزل سيرهم في الأرض منزلة المعدوم.

{ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } لأن الأذان آلة السمع، والسائر في الأرض ينظر آثار الأمم ويسمع أخبار فنائهم فيستدل من ذلك على ترتّب المسبَّبات على أسبابها، على أنّ حظ الذين لم يسافروا أن يتلقّوا الأخبار من المسافرين فيعلموا ما علمه المسافرون علما سبيله سماع الأخبار.

وفي ذكر الآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار إذ يُعلم أنّ القلوب التي تعقل إنّما طريق علمها مشاهدة آثار العذاب. فحصل من مجموع نظم الآية أنّهم بمنزلة الأنعام لهم آلات الاستدلال وقد انعدمت منهم آثارها. كقوله { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [البقرة:171].

{ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } تفريع على جواب النفي في قوله { فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}، وفذلكة للكلام السابق، وتذييل له بما في هذه الجملة من العموم.

أي: لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب. واستعير العمى الثاني لانتفاء إدراك المبصرات بالعقل مع سلامة حاسة البصر لشبهه به في الحالة الحاصلة لصاحبه.

{ فَإِنَّهَا } حرف التوكيد لغرابة الحكم لا لأنّه ممّا يُشك فيه. وغالب الجمل المفتتحة بضمير الشأن اقترانها بحرف التوكيد.

والقصر المستفاد من النفي وحرف الاستدراك قصر ادعائي للمبالغة بجعل فقد حاسة البصر المسمَّى بالعمى كأنه غير عمى، وجعل عدم الاهتداء إلى دلالة المبصرات مع سلامة حاسة البصر هو العمى مبالغة في استحقاقه لهذا الاسم الذي استعير إليه، فالقصر ترشيح للاستعارة.

ففي هذه الآية أفانين من البلاغة والبيان وبداعة النظم.

{ **الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } صفة لـ { القلوب } تفيد التأكيد. ويفيد هذا الوصف وراء التوكيد تعريضا بالقوم المتحدَّث عنهم بأنّهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدّة اتصالها بهم إذ هي قارة في صدورهم، على نحو قول عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " فالآن أنت أحبّ إليّ من نفسي التي بين جنبي"، فإنّ كونها بين جنبيه يقتضي أن تكون أحبّ الأشياء إليه.

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [47]

عطف على جملة { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ } عطف القصّة على القصّة، فإنّ من تكذيبهم أنّهم كذّبوا بالوعيد وقالوا: لو كان محمد صادقا في وعيده لعجّل لنا وعيده، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء، كما حكى الله عنهم في قوله { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32]، وقال { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [السجدة:28].

{ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ** } المضارع للإشارة إلى تكريرهم ذلك تجديدا منهم للاستهزاء وتورّكا على المسلمين.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود إبلاغه إيّاهم.

{ **بِالعَذَابِ** } الباء زائدة لتأكيد معنى الاستعجال، كأنّه قيل: يحرصون على تعجيله. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } [الرعد:6].

{ **وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ** } لمّا كان استعجالهم إيّاه تعريضا منهم بأنّهم موقنون بأنّه غير واقع جاء هذا التعقيب، أي: فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة، لأنّه وعد من الله، والله لا يخلف وعده. وفي القول تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلّا يستبطئونه.

{ **وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** } عطف على جملة { وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } فإنّ الله توعّدهم بالعذاب، وهو صادق على عذاب الدنيا والآخرة. ثم أعقبه بإنذارهم بأنّ عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضا وهو أشدّ العذاب. فالقول خبر مستعمل في التعريض بالوعيد. وهذا اليوم هو يوم القيامة.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } [العنكبوت:54/53].

{ **مِمَّا تَعُدُّونَ** }الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وقرأ الجمهور { تَعُدُّونَ } بالفوقية. وقرأه ابن كثير، وحمزة، والكسائي { مِمَّا يَعُدُّونَ } بياء الغائبين، أي: ممّا يعدّه المشركون المستعجلون بالعذاب.

{ وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } [48]

عطف على جملة { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } أو على جملة { وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } باعتبار ما تضمّنه استعجالهم بالعذاب من التعريض بأنّهم آيسون منه لتأخّره، فذُكِّروا بأنّ أمما كثيرة أُمهِلت ثمّ حلّ بها العذاب.

فوزان هذه الآية وزان قوله آنفا { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ }، إلّا أنّ الأولى قُصد منها كثرة الأمم التي أُهلكت لئلّا يُتوهم من ذكر قوم نوح ومن عطف عليهم أنّ الهلاك لم يتجاوزهم، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإهلاك دون الإمهال. وهذه الآية القصد منها التذكير بأنّ تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإمهال ثم الأخذ بعده المناسب للإملاء من حيث إنّه دخول في القبضة بعد بُعْده عنها.

{ **وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** } تذييل، أي: مصير النّاس كلّهم إليّ.

المصير: مصدر ميمي لـ (صار) بمعنى: رجع، وهو رجوع مجازي بمعنى الحصول في المُكنة.

وتقديم المجرور للحصر الحقيقي، أي: لا يصير الناس إلّا إلى الله، وهو يقتضي أنّ المصير إليه لا محالة.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [49] فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [50] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [51] }.

استئناف بعد المواعظ السالفة والإنذارات.

{ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } افتتاحه بـ (قل) للاهتمام به، وافتتاح المقول بنداء الناس للفت ألبابهم إلى الكلام.

والمخاطبون هم المشركون. والغرض من خطابهم إعلامهم بأنّ تكذيبهم واستهزاءهم لا يغيظ النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يصدّه عن إداء رسالته. ففي ذلك قمع لهم، وتثبيت للنبيّ وتسلية فيما يلقاه منهم.

{ **إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ** } قصر إضافي، أي: لست طالبا نكايتكم ولا تزلّفا فمن آمن فلنفسه ومن عمي فعليها.

النذير: المحذّر من شر يُتوقّع.

المبين: المُفصح الموضّح، أي مُبيّن للإنذار بما لا إيهام فيه ولا مصانعة.

وفي تقديم المجرور المؤذن بالاهتمام بنذارتهم إيماء إلى أنّهم مشرفون على شرّ عظيم فهم أحرياء بالنذارة.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } فرّع على الأمر بالقول تقسيم للناس في تلقّي هذا الإنذار المأمور الرسول بتبليغه إلى مصدِّق ومكذِّب، لبيان حال كلا الفريقين في الدنيا والآخرة ترغيبا وترهيبا.

المغفرة: غفران ما قدّموه من الشرك وما يتبعه من شرائع الشرك وضلالاته ومفاسده. وهذه المغفرة تفضي إلى نعيم الآخرة، فالمعنى: أنهم فازوا في الدار الآخرة.

الرزق: العطاء. ووصفه بـ { كَرِيمٌ } يجمع وفرته وصفائه من المكدّرات، كقوله { لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }.

والرزق منه ما هو حاصل لهم في الدنيا، وأعظمه ما يحصل لهم في الآخرة.

{ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ } هم الفريق المقابل، فمعناه: والذين استمروا على الكفر، فعبّر عن الاستمرار بالسعي في الآيات، لأنّه أخصّ من الكفر، وذلك حال المشركين المتحدّث عنهم.

السعي: المشي الشديد، ويطلق على شدّة الحرص.

المعاجز: المسابق الطالب عجز مسايره عن الوصول إلى غايته وعن اللحاق به، فصيغ له المفاعلة لأنّ كلّ واحد يطلب عجز الآخر عن لحاقه. والمعنى: أنّهم بعملهم يغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم لا يشعرون أنّهم يحاولون أن يغلبوا الله وقد ظنوا أنهم نالوا مرادهم في الدنيا ولم يعلموا ما لهم من سوء العاقبة.

وقرأ الجمهور { مُعَاجِزِينَ } - بألف بعد العين - وقرأه ابن كثير، وأبوا عمرو { مُعَجّزين } - بفتح العين وتضعيف الجيم – أي: محاولين إعجاز الله تعالى وهم لا يعلمون.

{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } التصدير باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المخبَر عنهم جديرون بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما ذكر قبله من الأوصاف، أي: هم أصحاب الجحيم لأنّهم سعوا في آياتنا معاجزين.

ومن أحسن ما يفسّر هذه الآية ما جاء في الحديث الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" إن مَثَلي ومَثَل ما بعثني الله به كمثَل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إنّي رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العُريان** [المجرد من الثياب - والنذير العريان مَثَلٌ أصله: أن أحد القوم إذا رأى عدوا يريد غرة قومه ولم يجد شيئا يشير به نزع ثوبه فألوى به أي لوّح] **فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا** [أدلجوا بهمزة قطع مفتوحة وبسكون الدال أي: ساروا في دلجة الليل، أي: ظلامه.] **وانطلقوا على مَهَلهم** [المهل - بفتحتين - عدم العجلة، أي: انطلقوا غير فزعين]. **وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مَثَلي ومثَل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثَل من عصاني وكذّب ما جئت به من الحقّ ".**

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [52] لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [53] وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [54] }.

عطف على { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ }، لأنّه لمّا أفضى الكلام السابق إلى تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وتأنيس نفسه فيما يلقاه من قومه من التكذيب، بأنّ تلك شنشنة الأمم الظالمة من قبلهم، وأنّه مقصور على النذارة، فمن آمن فقد نجا ومن كفر فقد هلك، أريد الانتقال من ذلك إلى تفصيل تسليته وتثبيته بأنّه لقي ما لقيه سلفه من الرسل والأنبياء عليهم السلام وأنّه لم يسلم أحد منهم من محاولة الشيطان أن يفسد بعض ما يحاولونه من هدي الأمم، وأنّهم لقوا من أقوامهم مكذِّبين ومصدِّقين سنة الله في رسله عليهم السلام.

{ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ } نصّ في العموم. والعطف دال على المغايرة.

الرسول: هو الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة.

النبيّ: من أوحى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقة أو بإرشادهم إلى ما هو مستقرّ في الشرائع كلّها.

التمنّي: كلمة مشهورة وحقيقتها طلب الشيء العسير حصوله. و**الأمنيّة**: الشيء المتمنّى.

وإنّما يتمنّى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلّهم صالحين مهتدين.

{ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى } الاستثناء من عموم أحوال { مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ }، أي: في حال حصول الإلقاء عند حصول التمني، لأنّ أماني الأنبياء خير محض والشيطان دأبه الإفساد وتعطيل الخير.

الإلقاء: حقيقته رمي الشيء من اليد. واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد، تشبيها للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس. ومنه قوله تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ }.

ومفعول { أَلْقَى } محذوف دلّ عليه المقام لأنّ الشيطان إنّما يلقي الشرّ والفساد.

فالتقدير: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد.

{ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } ألقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السمَّ في الدسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثّونها في قومهم. ويروّج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكّر البرهان.

{ **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** } فالله تعالى يعيد الإرشاد ويكّرر الهدي على لسان النبيّ. ويفضح وساوس الشيطان وسوء فعله بالبيان الواضح كقوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ } [الأعراف:27] وقوله { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } [فاطر:6].

فالله بهديه وبيانه ينسخ ما يلقي الشيطان، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان، ويزيد آيات دعوة رسله بيانا، وذلك هو إحكام آياته، أي تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلّا لمن رِين على قلبه. وقد تقدّم معنى الآيات المحكمات في [آل عمران:7].

وقد فسّر كثير من المفسرين { تَمَنَّى } بمعنى **قرأ**. وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتا نسبوه إلى حسان بن ثابت وذكروا قصة (قصّة الغرانيق) بروايات ضعيفة سنذكرها. وأيّا ما كان فالقول فيه هو والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواء، أي: إذا قرأ على النّاس ما أنزل إليه ليهتدوا به ألقى الشيطان في أمنيته، أي: في قراءته، أي: وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه، بوسوسته للنّاس التكذيب والإعراض عن التدبر.

وعندي في صحة إطلاق لفظ الأمنية على القراءة **شك عظيم**، فإنّه وإن كان قد ورد تمنّى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسان بن ثابت إن صحت رواية البيت، فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.

تمنى كتاب الله أولَ ليله ... تَمَنِيَ داود الزبور على مَهل

ويجوز أن يكون المعنى أنّ النبيّ إذا تمنّى هدي قومه أو حرص على ذلك فلقي العناد، وتمنى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبيّ خاطر اليأس من هداهم عسى أن يُقْصِر النبيّ من حرصه أو أن يضجره، وهي خواطر تلوح في النفس ولكن العصمة تعترضها فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كلِّف به من الدأب على الدعوة والحرص على الرشد. فيكون معنى الآية على هذا الوجه مُلَوِّحًا إلى قوله تعالى { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [الأنعام:35].

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } معترضة.

<u>ومعنى هذه الآية</u>: أنّ الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلّغونهم ما ينزل إليهم من الله ويعظونهم ويدعونهم بالحجّة والمجادلة الحسنة حتّى يظنّوا أن أمنيّتهم قد نجحت ويقترب القوم من الإيمان، فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفّار فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتّى من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسّك أهل الضلالة بدينهم ويصدّون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله { وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ } [ص:6].

وكلّما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رسله فعاودوا الإرشاد وكرّروه وهو سبب تكرّر مواعظ متماثلة في القرآن. فبتلك المعاودة ينسخ ما ألقاه الشيطان وتثبت الآيات السالفة. **فالنسخ**: الإزالة، و**الإحكام**: التثبيت. وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي: ينسخ آثار ما يلقي الشيطان، ويحكم آثار آياته.

الجعل: هنا جعل نظام ترتّب المسبَّبات على أسبابها، وتكوين تفاوت المدارك ومراتب درجاتها.

فالمعنى: أنّ الله مكّن الشيطان من ذلك الفعل بأصل فطرته من يوم خلق فيه داعية الإضلال. فهذا كقوله تعالى { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:39-42].

{ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً** } الـ (لام) مستعارة لمعنى التعقيب، أي: تحصل عقب النسخ الذي فعله الله فتنة من أفتُتِن من المشركين بانصرافهم عن التأمّل في أدلة نسخ ما يلقيه الشيطان، وعن استماع ما أحكم الله به آياته، فيستمر كفرهم ويقوى.

{ **لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } هم المتردّدون في قبول الإيمان.

{ **وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** } هم الكافرون المصمّمون على الكفر.

{ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** } الفريقان هم المراد بـ { الظَّالِمِينَ }. إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أنّ علة كونهم في شقاق بعيد هي ظلمهم. أيّ كفرهم. والجملة معترضة بين المتعاطفات.

الشقاق: الخلاف والعداوة.

البعيد: هنا مستعمل في معنى: البالغ حدًّا قويّا في حقيقته. تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد كما في قوله تعالى { فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51]، أي: دعاء كثير ملحّ.

{ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } (لام) التعليل، أي: ينسخ ما يلقي الشيطان لإرادة أن يعلم المؤمنون انّه الحقّ برسوخ ما تمنّاه الرسول والأنبياء لهم من الهدي، كما يحصل لهم، بما يُحكم الله من آياته، ازدياد الهدى في قلوبهم.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } هم المؤمنون بقرينة مقابلته بـ { الذين في قلوبهم مرض} وبقوله { وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }. فالمراد بالعلم الوحي والكتب التي أوتيها أصحاب الرسل السابقين.

وإطلاق {الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} على المؤمنين تكرّر في القرآن، وهو ثناء على أصحاب الرسل.

{ **أَنَّهُ الْحَقُّ** } الضميرعائد إلى العلم الذي أوتوه، أي ليزدادوا يقينا بأنّ الوحي الذي أوتوه هو الحق لا غيره.

{ **فَيُؤْمِنُوا بِهِ** } معناه: فيزدادوا إيمانا أو فيؤمنوا بالناسخ والمحكم كما آمنوا بالأصل.

الإخبات: الاطمئنان والخشوع. وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ }.

القول الفصل في قصّة الغرانيق:

وبما تلقيتَ في تفسير هذه الآية من الانتظام البيّن الواضح المستقلّ بدلالته والمستغني بنهله عن علالته، والسالم من التكلّفات والاحتياج إلى ضميمة القصص، ترى أنّ الآية بمعزل عمّا ألصقه بها الملصقون والضعفاء في علوم السنّة، وتلقاه منهم فريق من المفسّرين حبّا في غرائب النوادر دون تأمّل ولا تمحيص، من أنّ الآية نزلت في قصة تتعلّق سورة النجم فلم يكتفوا بما أفسدوا من معنى هذه الآية حتّى تجاوزوا بهذا الإلصاق إلى إفساد معاني سورة النجم، فذكروا في ذلك روايات عن سعيد بن جبير، وابن شهاب، ومحمد بن كعب القرطبي، وأبي العالية، والضحاك وأقربها رواية عن ابن شهاب وابن جبير والضحاك قالوا: " إنّ النبي صلى الله عليه وسلم جلس في ناد من أندية قريش كثير أهله من مسلمين وكافرين، فقرأ عليهم سورة النجم فلما بلغ قوله { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } [النجم:20/19] القى الشيطان بين السامعين عقب ذلك قوله (تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهن لترتجى) ففرح المشركون بأن ذكر آلهتهم بخير. وكان في آخر تلك السورة سجدة من سجود التلاوة. فلمّا سجد في آخر السورة سجد كلّ من حضر من المسلمين والمشركين. وتسامع النّاس بأنّ قريشا أسلموا حتّى شاع ذلك ببلاد الحبشة. فرجع من مهاجرة الحبشة نفر منهم عثمان بن عفان إلى المدينة. وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يشعر بأنّ الشيطان ألقى. فأعلمه جبريل عليه السلام فاغتمّ لذلك فنزل قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ } الآية تسلية له.

وهي قصة يجدها السامع ضغثا على إبالة، ولا يلقي إليها النحرير باله. وما رُويت إلّا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم وسندها إلى ابن عباس سند مطعون. على أنّ ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين لأنّها تخالف أصل عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا التباس عليه في تلقي الوحي وفي معرفة الملك. ويكفي تكذيبا لها قوله تعالى { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم:3]. فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى - إلى قوله - مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [النجم:19-23]، فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهم لترتجى. وهل هذا إلّا كلام يلعن بعضه بعضا.

وقد اتفق الحاكون أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم كلّها حتى خاتمتها { فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا } لأنّهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون، فدلّ على أنّهم سمعوا السورة كلّها وما بين آية { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى } وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين، وتزييف لعقائد المشركين، فكيف يصحّ أنّ المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم.

فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإنّ تأويلها: أنّ بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة للدَّخَل لاختلاق كلمات في مدحهن، وهي هذه الكلمات، وروّجوها بين الناس تأنيسا لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيماء. وفي شرح الطيبي على الكشاف نقلا عن بعض المؤرخين: أنّ هذه الجمل من مفتريات ابن الزِّبعْرى.

وأمّا تركيب تلك القصّة على الخبر الذي ثبت فيه أنّ المشركين سجدوا في آخر سورة النجم لمّا سجد المسلمون، وذلك مروي في الصحيح، فذلك من تخليط المؤلفين.

وكذلك تركيب تلك القصة على آية سورة الحج. وكم بين نزول سورة النجم التي هي من أوائل السور النازلة بمكة وبين نزول سورة الحج التي بعضها من أول ما نزل بالمدينة وبعضها من آخر ما نزل بمكة.

وكذلك ربط تلك القصّة بقصّة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة. وكم بين مدّة نزول سورة النجم وبين سنة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة.

فالوجه عندي: أنّ هذه الشائعة التي أشيعت بين المشركين في أوّل الإسلام، إنّما هي من اختلاقات المستهزئين من سفهاء الأحلام بمكّة مثل ابن الزّبعِرى، وأنّهم عمدوا إلى آية ذكرت فيها اللات والعزى ومناة فركّبوا عليها كلمات أخرى لإلقاء الفتنة في الناس وإنّما خصّوا سورة النجم بهذه المرجَفة لأنّهم حضروا قراءتها في المسجد الحرام وتعلّقت بأذهانهم، وتطلّبا لإيجاد المعذرة لهم بين قومهم على سجودهم فيها الذي جعله الله معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } معترضة. والمؤمنون هم الذين أوتوا العلم. وقد جمع لهم الوصفان كما في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ } [الروم:56]، وكما في قوله { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ } [سبأ:6]. فإظهار لفظ { الَّذِينَ آمَنُوا } لقصد مدحهم بوصف الإيمان، والإيماء إلى أنّ إيمانهم هو سبب هديهم.

{ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}[55]

لمّا حكى عن الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أنّ ما يلقيه لهم الشيطان من إبطال ما جاءت به الرسل يكون عليهم فتنة، خصّ في هذه الآية الكافرين بالقرآن بعد أن عمّهم مع جملة الكافرين بالرسل، فخصَّهم بأنّهم يستمر شكُّهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويتردَّدون في الإقدام على الإسلام إلى أن يُحال بينهم وبينه بحلول الساعة بغتة أو بحلول عذاب بهم قبل الساعة.

{ **وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } هم مشركو العرب بقرينة المضارع في فعل { لا يزال } وفعل { حَتَّى تَأْتِيَهُمْ } الدالين على استمرار ذلك في المستقبل.

{ **فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ** } قال جمع من المفسرين: إنّ الضمير عائد إلى القرآن المفهوم من المقام. والأظهر أنّه عائد إلى ما عاد عليه ضمير { أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ }.

{ **السَّاعَةُ** } علم بالغلبة على يوم القيامة في اصطلاح القرآن.

{ **يَوْمٍ عَقِيمٍ** } يوم الحرب. وقد شاع إطلاق اسم اليوم على وقت الحرب. ومنه دعيت حروب العرب المشهورة (أيّام العرب).

العقيم: المرأة التي لا تلد، استعير العقيم للمشؤوم، لأنّهم يعدّون المرأة التي لا تلد مشؤومة.

فالمعنى: يأتيهم يوم يُستأصلون فيه قتلا. وهذا إنذار بيوم بدر.

{ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [56] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [57] وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ [58] لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ [59] }.

{ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** } جواب عن سؤال حول اليوم الذي يزول فيه شك الذين كفروا، وعن ماذا يلقونه عند زواله. فالجملة استئناف بياني والتعريف في { الْمُلْكُ } للجنس.

يومئذ: تقدير مضافة الذي عُوّض عنه التنوين، والتقدير: يوم إذ تزول مريتهم بحلول الساعة وظهور أنّ ما وعدهم الله هو الحق، أو يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة.

وقد دلت الجملة على أنّ ماهية الملك مقصورة يومئذ لله، أي: لا ملك لغيره يومئذ. كما في قوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ }.

{ **يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** } الحكم فيما اختلفوا فيه من أدعاء كل فريق أنّه على الحقّ وأنّ ضدّه على الباطل.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } أريد به العموم، وخُصّ بالذكر منهم الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا، تنويها بشأن الهجرة، ولأجلها استوى أصحابها في درجات الآخرة سواء منهم من قُتل في سبيل الله أو مات في غير قتال بعد أن هاجر من دار الكفر.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } افتتح الخبر عن الذين كفروا باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا العذاب المهين لأجل ما تقدّم من صفتهم بالكفر والتكذيب بالآيات.

المهين: المذلّ، أي لهم عذاب مشتمل على ما فيه مذلّتهم كالضرب بالمقامع ونحوه.

{ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً** } خُصّ بالذكر منهم الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا تنويها بشأن الهجرة.

الرزق: العطاء، وهو كلّ ما يُتفضّل به من أعيان ومنافع. ووصفه بالحسن لإفادة أنّه يرضيهم بحيث لا يتطلّبون غيره، لأنّه لا أحسن منه.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** } معترضة بين البدل والمبدل منه. وصريحها الثناء على الله، وكنايتها التعريض بأنّ الرزق الذي يرزقهم الله هو خير الأرزاق لصدوره من خير الرازقين. وأكّدت الجملة بحرف التوكيد ولامه وضمير الفصل تصويرا لعظمة رزق الله تعالى.

{ **لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ** } بدل اشتمال من جملة { لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً }، لأنّ كرامة المنزل من جملة الإحسان في العطاء بل هي أبهج لدى أهل الهمم، ولذلك وصف المدخل بـ { يَرْضَوْنَهُ }.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ** } تذييل، أي عليم بما تجشّموه من المشاق في شان هجرتهم من ديارهم وأهلهم وأموالهم، وهو حليم بهم فيما لاقوه، فهو يجازيهم بما لقوه من أجله.

وهذه الآية تبيّن مزيّة المهاجرين في الإسلام.

{ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } [60]

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة للفصل بين الكلامين لفتًا لأذهان السامعين إلى ما سيجيء من الكلام، لأنّ ما بعده غير صالح لأن يكون خبرا عن اسم الإشارة. وقد تقدّم نظيره عند قوله { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ }.

والآية معطوفة على جملة { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ }، والغرض منها التهيئة للجهاد والوعد بالنصر الذي أشير إليه سابقا بقوله { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }.

{ **وَمَنْ عَاقَبَ** } للإشارة إلى إرادة العموم، ليكون الكلام بمنزلة القاعدة الكلّيّة لسنّة من سنن الله تعالى في الأمم. ففي الكلام تنبيه على أنّ القتال المأذون فيه هو قتال جزاء على اعتداء سابق كما دلّ عليه أيضا قوله تعالى { بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا }. وفيه أيضا تحديد لقانون العقاب، أن يكون مماثلا للعدوان المُجزى عليه، اي: أنّ لا يكون أشدّ منه.

{ **بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ** } سُمّي اعتداء المشركين على المؤمنين عقابا لأنّ الذي دفع المعتدين إلى الاعتداء قصد العقاب على خروجهم عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم.

والمراد المماثلة في الجنس، فإنّ المشركين آذوا المسلمين وأرغموهم على مغادرة موطنهم فيكون عقابهم على ذلك بإخراج من يمكنهم أن يخرجوه من ذلك الوطن، ولا يستطيعون ذلك إلّا بالجهاد.

{ **ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ** } للتراخي الرتبي، فإنّ البغي عليه أهمّ من كونه عاقب بمثل ما عُوقب به، إذ كان مبدوءا بالظلم. فكان المشركون محقوقين بأن يعاقبوا، لأنّهم بغوا على المسلمين. ومعنى الآية في معنى قوله { ألا

تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة:13].
وكان هذا شرعا لأصول الدفاع عن البيضة، وأمّا آيات الترغيب في العفو فليس هذا مقام تنزيلها وإنّما هي في شرع معاملات الأمّة بعضها مع بعض. وقد أكّد لهم الله نصره إن هم امتثلوا لما أُذنوا به وعاقبوا بمثل ما عوقبوا به.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** } تعليل للاقتصار على الإذن في العقاب بالمماثلة دون الزيادة في الانتقام مع أن البادئ أظلم، بأنّ عفو الله ومغفرته لخلقه قضيا بحكمته أن لا يأذن إلّا بمماثلة العقاب للذنب، لأنّ ذلك هو أوفق بالحقّ. وليس ذكر وصفي { عَفُوٌّ غَفُورٌ} إيماء إلى الترغيب في العفو عن المشركين، فالسياق لا يقتضيه.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [61]

يجوز أن تكون الإشارة هنا إلى الكلام السابق الدال على تكفّل النصر، فإنّ النصر يقتضي تغليب أحد الضدّين على ضدّه وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلا بتغليب مدّة النهار على مدّة الليل في بعض السنة، وتغليب مدّة الليل على مدّة النهار في بعضها، لما تقرر من اشتهار التضاد بين الليل والنهار، أي الظلمة والنور. فخبر اسم الإشارة هنا هو قوله { بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ }.
ويجوز أن يكون اسم الإشارة تكريرا لشبيهه السابق لقصر توكيده.

{ **بِأَنَّ اللَّهَ** } الباء للسببية، أي: لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإنّ القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم.

الإيلاج: الإدخال. مُثِّل به اختفاء ظلام الليل عند ظهور نور النهار وعكسه، تشبيها لذلك التصيير بإدخال جسم في جسم آخر. واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة، لأنّ كلّ ذلك يحصل تدريجا.

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلّب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا ويصير ذلك الغالب مغلوبا. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلّق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة كقدرة الصُنَّاع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأنّ العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله، وما الأجل إلّا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل.

وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأنّ الكفر ضلالة اعتقاد.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } إشارة إلى علم الله بالأحوال كلّها، فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته ويعد بالنصر من علم أنّه ناصره لا محالة، فلا يصدر منه شيء إلّا عن حكمة.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** } [62]

اسم الإشارة هنا تكرير لاسم الإشارة الذي سبقه ولذلك لم يعطف.

سبب آخر لنصر المؤمنين على المشركين بأنّ الله هو الربّ الحقّ الذي إذا أراد فَعَلَ وقدر، فهو ينصر أولياءه، وأنّ ما يدعوه المشركون من دون الله هو الباطل فلا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون.

{ **بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ** } حمل المفسّرون الباء على معنى السببية، والأظهر حمل الباء على الملابسة ليلتئم عطف { وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ }.

الحقّ: المطابق للواقع، أيّ الصدق، مأخوذ من حقَّ الشيء إذا ثبت. والمعنى: أنّه الحق في الإلهية. فالقصر في هذه الجملة المستفاد من ضمير الفصل قصر حقيقي.

{ **وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ** } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر ادعائي لعدم الاعتداد بباطل غيرها حتّى كأنّه ليس من الباطل. وهذا مبالغة في تحقير أصنامهم لأنّ المقام مقام مناضلة وتوعّد، وإلّا فكثير من أصنام وأوثان غير العرب باطل أيضا.

علو الله: مستعار للجلال والكمال التام.

الكبر: مستعار لتمام القدرة، أي هو العلي الكبير دون الأصنام التي تعبدونها إذ ليس لها كمال ولا قدرة ببرهان المشاهدة.

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** } [63]

انتقال إلى التذكير بنعم الله تعالى على الناس بمناسبة ما جرى من قوله { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ }. والمقصود: التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره، كما دلّ عليه التذييل عقب تعداد هذه النعم بقوله { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ }، أي: المشرك. وفي ذلك كلّه إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير، فهو الربّ الحقّ المستحقّ للعبادة. والمناسبة هي ما جرى من أنّ الله هو الحقّ وأنّ ما يدعونه الباطل، فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الخطاب لكلّ من تصلح منه الرؤية لأنّ المرئي مشهور. والاستفهام إنكاري، نُزِّلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة والاعتداد بها منزلة عدم العلم بها.

{ **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } جاء الإنزال بصيغة الماضي ولم يراع فيه معنى التجدّد لأنّ موقع إنكار عدم العلم بذلك هو كونه أمرا متقرّرا ماضيا لا يُدَّعى جهله.

{ **فَتُصْبِحُ** } بمعنى تصير فإن خمسا من أخوات (كان) تستعمل بمعنى: صار. وعبّر عن مصير الأرض

خضراء بصيغة المضارع مع أنّ ذلك مفرّع على فعل { أَنْزَلَ } الذي هو بصيغة الماضي لأنّه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة، ولإفادة بقاء أثر إنزال المطر زمانا بعد زمان كما تقول: أنعم فلان عليّ فأروح وأغدو شاكرا له.

والفعل مفرَّع على فعل { أنزل } فهو مثبَت في المعنى. وليس مفرَّعا على النفي ولا على الإستفهام.

قال في الكشاف: " لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأنّ معنى الكلام إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار. مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر ".

{ **الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً** } اختير في التعبير عن النبات، الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إقامة أقوات الناس والبهائم، بذكر لونه الأخضر لأنّ ذلك اللون ممتع للأبصار فهو أيضا موجب شكر على ما خلق الله من جمال المصنوعات في المرأى كما قال تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:6].

المخضرّة: التي صار لونها الخضرة. يقال: اخضرّ الشيء، كما يقال: اصفرّ الثمر واحمرّ، واسودّ الأفق.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** } في موقع التعليل للإنزال، أي أنزل الماء المتفرع عليه الاخضرار لأنه لطيف، أي: رفيق بمخلوقاته، ولأنّه عليم بترتيب المسبَّبات على أسبابها.

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [64]

الجملة خبر ثان عن اسم الجلالة في قوله { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } للتنبيه على اختصاصه بالخالقية والملك الحقّ، ليُعلم من ذلك أنّه المختصّ بالمعبودية فيردّ زعم المشركين أنّ الأصنام له شركاء في الإلهيّة.

والمناسبة هي ذكر إنزال المطر وإنبات العشب فما ذلك إلّا بعض ما في السماوات وما في الأرض.

وإنّما لم تعطف الجملة على التي قبلها مع اتحادهما في الغرض لأنّ هذه تتنزل من الأولى منزلة التذييل بالعموم الشامل لما تضمّنته الجملة التي قبلها، ولأنّ هذه لا تتضمّن تذكيرا بنعمة.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } تقديم المجرور للدلالة على القصر. أي: له ذلك لا لغيره من أصنامكم، إن جعلت القصر إضافيا، أو لعدم الاعتداد بغنى غيره ومحموديّته إن جعلت القصر ادعائيا.

{ **الْغَنِيُّ** } نبّه بوصف الغنى على أنّه غير مفتقر إلى غيره، وهو معنى الغنى في صفاته تعالى: أنّه عدم الافتقار بذاته وصفاته لا إلى محل ولا إلى مخصِّص بالوجود دون العدم، وفيه إشارة إلى أنّ افتقار الأصنام إلى من يصنعها ومن ينقلها من مكان إلى آخر ومن ينفض عنها القتام والقذر دليل على انتفاء الإلهيّة عنها.

{ **الْحَمِيدُ** } بمعنى المحمود كثيرا، فذكره لمزاوجة وصف الغنى، لأنّ الغني مفيض على النّاس فهم يحمدونه.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [65]

هذا من نسق التذكير بنعم الله، فهو من عداد الامتنان والاستدلال، فكان كالتكرير لغرض، ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف. وهذا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره. وفيه إدماج الاستدلال على انفراده بالتسخير.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم } مستأنفة كجملة { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ }، الخطاب والاستفهام كما في الآية السابقة.

التسخير: تسهيل الانتفاع بدون مانع، وهو يؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير. وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمنّع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الداجن من الخيل، والإبل، والبقر، والغنم ونحوها، بأن جعل الله فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان. ثم أطلق على تسهيل الانتفاع بما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التغلّب عليها بتعرّف نواميسه وأحواله، وبالاحتيال على تملّكه مثل صيد الوحش ومغاصات اللؤلؤ والمرجان، ومثل آلات الحفر والنقر للمعادن، ومثل التشكيل في صنع الفلك والعَجَل. ومثل التركيب والتصهير في صنع البواخر والمزجيّات والصياغة. ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشمس والقمر والكواكب والأنهار والأودية والأنواء والليل والنهار، باعتبار كون تلك الأحوال تظهر على وجه الأرض، وما لا يحصى مما ينتفع به الإنسان مما على الأرض فكلّ ذلك داخل في معنى التسخير.

{ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } في موضع الحال من { الْفُلْكِ }. وإنّما خصَّ هذا بالذكر لأنّ ذلك الجري في البحر هو مظهر التسخير، إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغرق.

{ بِأَمْرِهِ } أمر التكوين إذ جعل البحر صالحا لحملها.

{ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ }

الإمساك: السدّ، هو ضد الإلقاء. وقد ضُمِّن معنى المنع هنا فيقدّر حرف جر لتعدية فعل الإمساك بعد هذا التضمين فيقدّر (عن) أو(من). ومناسبة عطف إمساك السماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك أنّ إمساك السماء عن أن تقع على الأرض ضرب من التسخير لما في عظمة المخلوقات السماوية من مقتضيات تغلّبها على المخلوقات الأرضية لولا ما قدّر الله تعالى لكل نوع منها من سنن ونظم تمنع من تسلّط بعضها على بعض، كما أشار إليه قوله تعالى { لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس:40] .

والذي ظهر لي في معنى الآية: أن يكون لفظ السماء قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ { السَّمَاءَ } الذي هو ما علا الأرض فأطلق على ما يحويه، كما أطلق لفظ الأرض على سكّانها في قوله

تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [الرعد:41]. فالله يمسك ما في السماوات من الشهب ومن كريات الأثير والزمهرير عن اختراق كرة الهواء. ويمسك ما فيها من القوى كالمطر والبرد والثلج والصواعق من الوقوع على الأرض والتحكك بها إلّا بإذن الله فيما اعتاد الناس إذنه به من وقوع المطر والثلج والصواعق والشهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب.

فيكون موقع { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ } بعد قوله تعالى { وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } كموقع قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ } [الجاثية:13/12].

ويكون في قوله { **إِلَّا بِإِذْنِهِ** } إدماجا بين الامتنان والتخويف: فإنّ من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للناس، ومنه ما هو مكروه. وهذا المحمل أجمع وأنسب بالإعجاز.

الإذن: حقيقته قول يطلب به فعل شيء. واستعير هنا للمشيئة والتكوين، وهما متعلّق الإرادة والقدرة.

وقد استوعبت الآية العوالم الثلاثة: البر، والبحر، والجو.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } موقع التعليل للتسخير والإمساك باعتبار الاستثناء، لأنّ في جميع ذلك رأفة بالناس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضرّ عنهم.

الرؤوف: صيغة مبالغة من الرأفة أو صفة مشبّهة. وهي صفة تقتضي صرف الضرّ.

الرحيم: وصف من الرحمة. وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه.

وقد تتعاقب الصفتان، والجمع بينهما يفيد ما تختصّ به كل صفة منهما ويؤكّد ما تجتمعان عليه.

{ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } [66]

بعد أنّ أدمج الاستدلال على البعث بالمواعظ والمنن والتذكير بالنعم أعيد الكلام على البعث هنا بمنزلة نتيجة القياس، فذُكِّر الملحدون بالحياة الأولى التي لا ريب فيها، وبالإماتة التي لا يرتابون فيها، وبأنّ بعد الإماتة إحياء آخر كما أُخذ من الدلائل السابقة.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ** } تذييل يجمع المقصد من تعداد نعم المنعم بجلائل النعم المقتضية انفراده باستحقاق الشكر واعتراف الخلق له بوحدانية الربوبية.

{ **الإنسان** } تعريف الاستغراق العرفي المؤذن بأكثر أفراد الجنس من باب قوله تعالى { فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } [الشعراء:38]. وقد كان أكثر العرب يومئذ منكرين للبعث.

أو أريد بالإنسان خصوص المشرك كقوله { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [مريم:66].

الكفور: مبالغة في الكافر، لأنّ كفرهم كان عن تعنّت ومكابرة.

ويجوز كون الكفور مأخوذا من كفر النعمة وتكون المبالغة باعتبار آثار الغفلة عن الشكر، وحينئذ يكون الاستغراق حقيقيا.

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ } [67]

هذا متّصل في المعنى بقوله { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ } [34]. وقد فصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده من قوله { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا } [38] إلى هنا.

فهذا استدلال على توحيد الله تعالى بما سبق من الشرائع لقصد إبطال تعدّد الآلهة، بأنّ الله ما جعل لأهل كلّ ملّة سبقت إلّا منسكا واحدا يتقرّبون فيه إلى الله، لأنّ المتقرَّب إليه واحد. وقد جعل المشركون مناسك كثيرة فلكلّ صنم بيت يذبح فيه.

فالجملة استئناف. والمناسبة ظاهرة ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف كما عطفت نظيرتها المتقدّمة.

المَنْسَك: (بفتح الميم وفتح السين) اسم مكان النُّسُك. وأصل النُّسُك العبادة ويطلق على القربان.

فالمراد بالمنسك هنا مواضع الحجّ، بخلاف المراد به في الآية السابقة فهو موضع القربان.

{ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ } وفُرّع على هذا الاستدلال أنّهم لم تبق لهم حجّة ينازعون بها النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن التوحيد بعد شهادة الملل السابقة كلّها، فالنهي ظاهره موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ ما أعطيه من الحجج كاف في قطع منازعة معارضيه، فالمعارضون هم المقصود بالنهي، ولكن لمّا كان سبب نهيهم هو ما عند الرسول صلى الله عليه وسلم من الحجج وجّه إليه النهي عن منازعتهم إيّاه، كأنه قيل: فلا تترك لهم ما ينازعونك به، وهو من قول العرب: لا أعرفنك تفعل كذا، وهو نهي للغير بطريق الكناية.

وقال الزجاج: هو نهي للرسول عن منازعتهم لأنّ صيغة المفاعلة تقتضي حصول الفعل من جانبي فاعله ومفعوله، أي: أنّه أمر للرسول بالإعراض عن مجادلتهم بعد ما سيق لهم من الحجج.

{ الأمر } مجمل مراد به التوحيد بالقرينة، ويحتمل أنّ المشركين كانوا ينازعون في كونهم على ضلال بأنّهم على ملّة إبراهيم، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرّر الحجّ الذي هو من مناسكهم، فجعلوا ذلك ذريعة إلى ادّعاء أنّهم على الحقّ وعلى ملة إبراهيم. فكانت الآية كشفا لشبهتهم بأنّ الحجّ منسك حقٍ، وهو رمز التوحيد، وأنّ ما عداه باطل طارئ عليه، فلا ينازعنّ في أمر الحج بعد هذا. وهذا المحمل هو المناسب لتناسق الضمائر العائدة على المشركين، ولأنّ هذه السورة نزل بعضها بمكة في آخر مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بها وبالمدينة في أول مقامه بها فلا منازعة بين النبيّ وبين أهل الكتاب يومئذ.

{ **وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ** } عُطف على انتهاء المنازعة في الدين أمرٌ بالدوام على الدعوة وعدم الاكتفاء بظهور الحجّة لأنّ المكابرة تجافي الاقتناع، ولأنّ في الدوام على الدعوة فوائد للنّاس أجمعين.

{ **إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ** } تعليل للدوام على الدعوة وأنّها قائمة مقام (فاء) التعليل لا لردّ الشك.

{ **مُسْتَقِيمٍ** } ووصف الهدى بالمستقيم استعارة مكنية، شُبِّه الهدى بالطريق الموصل إلى المطلوب ورمز إليه بالمستقيم، لأنّ المستقيم أسرع إيصالا، فدين الإسلام أيسر الشرائع في الإيصال إلى الكمال النفساني الذي هو غاية الأديان. وفي هذا الخبر تثبيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتجديد لنشاطه في الاضطلاع بأعباء الدعوة.

{ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ [68] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [69] }.

عطف على جملة السابقة. والمعنى: إن تبيّن عدم اقتناعهم بالأدلة التي تقطع المنازعة وأبوا إلّا دوام المجادلة تشغيبا واستهزاء فقل: الله أعلم بما تعملون.

{ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** } تفويض أمرهم إلى الله تعالى، وهو كناية عن قطع المجادلة معهم، وإدماج بتعريض بالوعيد والإنذار بكلام موجّه صالح لما يتظاهرون به من تطلّب الحجّة. كقوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ } [السجدة:30].

{ **مَا تَعْمَلُونَ** } ما يعملونه من أنواع المعارضة والمجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق وغير ذلك.

{ **اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وليس للمشركين بقرينة قوله { بَيْنَكُمْ }. والمقصود تأييد الرسول والمؤمنين.

ما كانوا فيه يختلفون: هو ما عبّر عنه بـ { الأمر } في قوله { فلا ينازعنك في الأمر }.

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [70]

استئناف لزيادة تحقيق التأييد الذي تضمّنه قوله { اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }. أي: فهو لا يفوته شيء من أعمالكم فيجازي كلًّا على حساب عمله. فالكلام كناية عن جزاء كلّ بما يليق به.

{ **أَلَمْ تَعْلَمْ** } الاستفهام إنكاري أو تقريري، أي: أنّك تعلم ذلك. وهذا الكلام كناية عن التسلية.

{ **إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ** } بيان للجملة قبلها. أي: يعلم ما في السماء والأرض علما مفصّلا لا يختلف، لأنّ شأن الكتاب أن لا تتطرّق إليه الزيادة والنقصان.

واسم الإشارة إلى العمل في قوله { اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } أو إلى (ما) في قوله { مَاكُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }.

الكتاب: هو ما به حفظ جميع الأعمال: إمّا على تشبيه تمام الحفظ بالكتابة، وإمّا على الحقيقة، وهو جائز.
{ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } بيان لمضمون الاستفهام من الكناية عن الجزاء.
ولك أن تجعلها بيانا لجملة { يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } واسم الإشارة عائد إلى العلم المأخوذ من فعل {يَعْلَمُ}، أي: أنّ علم الله بما في السماء والأرض حاصل دون اكتساب، لأنّ علمه ذاتي.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[71]

يجوز أن تكون الجملة معطوفة على الجملة السابقة بما تفرّع عليها، عطف غرض على غرض.
ويجوز أن تكون حالا من الضمير المرفوع في قوله { جَادَلُوكَ }. والمعنى: جادلوك في الدين مستمرّين على عبادة ما لا يستحقّ العبادة بعد ما رأوا من الدلائل. تعجيبا من شأنهم في مكابرتهم وإصرارهم.
{ **وَيَعْبُدُونَ** } والإتيان بالفعل المضارع المفيد للتجدّد على الوجهين لأنّ في الدلائل التي تحفّ بهم والتي ذُكِّروا ببعضها في الآيات الماضية ما هو كاف لإقلاعهم عن عبادة الأصنام لو كانوا يريدون الحقّ.
{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } يفيد أنهم يعرضون عن عبادة الله، لأنّ كلمة { دُونِ } وإنّ كانت اسما للمباعدة قد يصدق للمشاركة بين ما تضاف إليه وبين غيره. فوجه ذلك أنّهم لمّا أشربت قلوبهم الإقبال على عبادة الأصنام وإدخالها في شؤون قرباتهم حتّى الحجّ، إذ قد وضعوا في شعائره أصناما بعضها وضعوها في الكعبة وبعضها فوق الصفا والمروة، جُعلوا كالمعطّلين لعبادة الله أصلا.
{ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً** } الأمر الإلهي الوارد على ألسنة رسله وفي شرائعه، أي: يعبدون ما لا يجدون عذرا لعبادته من الشرائع السالفة. وقصارى أمرهم أنّهم اعتذروا بتقدّم آبائهم بعبادة أصنامهم.
{ **وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** } ، أي: ليس لهم به اعتقاد جازم، لأنّ الاعتقاد الجازم لا يكون إلّا عن دليل، والباطل لا يمكن حصول دليل عليه. وتقديم انتفاء الدليل الشرعي على انتفاء الدليل العقلي لأنّ الدليل الشرعي أهم.
{ **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** } (مَا) النافية. أي: يعبدون ما ذكر وما لهم نصير، فلا تنفعهم عبادة الأصنام.
فالمراد بالظالمين المشركون المتحدّث عنهم، فهو من الإظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أنّ سبب انتفاء النصير لهم هو ظلمهم، أي: كفرهم.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[72]

عطف على جملة { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } لبيان جرم آخر مع جرم عبادة الأصنام. وهو جرم تكذيب الرسول والتكذيب بالقرآن.

{ **آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } هي القرآن لا غيره من المعجزات لقوله { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ }. وتقييد الآيات بوصف البينات لتفظيع إنكارهم إيّاها. إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها.

{ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ** } الخطاب لكلّ من يصلح للخطاب. و{ الَّذِينَ كَفَرُوا } إظهار في مقام الإضمار، أي: وجوه الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزّل به سلطانا. فخولف مقتضى الظاهر للتسجيل عليهم بالإيماء إلى أنّ علّة ذلك هو ما يبطنونه من الكفر.

المنكر: إمّا الشيء الذي تنكره الأنظار والنفوس فيكون هنا اسما، أي: دلائل كراهيّتهم وغضبهم وعزمهم على السوء، وإمّا مصدر ميمي بمعنى الإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام.

والمحملان آيلان إلى معنى: أنّهم يلوح على وجوههم الغيظ والغضب عندما يتلى عليهم القرآن ويدعون إلى الإيمان. وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتّى تجاوز أثره بواطنهم على وجوههم.

{ **يَكَادُونَ يَسْطُونَ** } بدل اشتمال لجملة { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ } لأنّ الهمَّ بالسطو ممّا يشتمل عليه المنكر.

السطو: البطش، أي: يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدّة الغضب والغيظ.

{ **بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** } يجوز أن يكون مرادا به النبيّ صلى الله عليه وسلم من إطلاق اسم الجمع على الواحد. ويجوز أن يراد به من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول.

{ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

استئناف ابتدائي يفيد زيادة إغاظتهم بأنْ أمر الله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم ما يفيد أنّهم صائرون إلى النار.

{ **أَفَأُنَبِّئُكُمْ** } الاستفهام مستعمل في الاستئذان، وهو استئذان تهكّمي لأنّه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم. والتفريع بالفاء على التلاوة المأخوذة من قوله { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا }، أي: اتل عليهم الآيات المنذرة والمبيّنة لكفرهم، وفرّع عليها وعيدهم بالنار.

شرّ: اسم تفضيل، أصله أشرّ. كثر حذف الهمزة تخفيفا، كما حذفت في خير بمعنى أخير.

{ **ذَلِكُمُ** } الإشارة إلى ما أثار منكرهم وحفيظتهم، أي: فإن كنتم غاضبين لما تلي عليكم من الآيات فازدادوا غضبا بهذا الذي أنبئكم به. والجملة استئناف بياني، أي: إن سألتم عن الذي هو أشد شرا فاعلموا أنّه النار.

{ **وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار في مقام الإضمار، أي: وعدها الله إيّاكم لكفركم.
{ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تذييل، لما فيها من عموم الحكم للمخاطبين وغيرهم وتكون الواو اعتراضية تذييلية.
أي: بئس المصير هي لمن صار إليها.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } [73]

أُعقبت تضاعيف الحجج والمواعظ والإنذارات التي اشتملت عليها السورة بمثل جامع لوصف حال تلك المعبودات وعابديها.
{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } الخطاب للمشركين لأنّهم المقصود بالرد والزجر وبقرينة قوله { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ }.
ويجوز أن يكون المراد بـ { النَّاسِ } جميع النّاس، من مسلمين ومشركين.
ضرب المثل: ذكره وبيانه، استعير الضرب للقول والذكر تشبيها بوضع الشيء بشدّة، أي: ألقي إليكم مثل.
{ **ضُرِبَ** } وبني الفعل بصيغة النائب فلم يذكر له فاعل بعكس ما في المواضع الأخرى التي صرّح فيها بفاعل ضرب المثل نحو قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26] و{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً } [النحل:75] و{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً } [الزمر:29] إذ أسند في تلك المواضع وغيرها ضرب المثل إلى الله، لأن المقصود هنا نسج التركيب على إيجاز صالح لإفادة احتمالين:
أحدهما: أنّ يقدّر الفاعل الله تعالى وأن يكون المثل تشبيها تمثيليا، أيّ أوضح الله تمثيلا يوضّح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكلّ أحد.
الثاني: أن يقدّر الفاعل المشركين ويكون المثل بمعنى المماثل، أي: جعلوا أصنامهم مماثلة لله تعالى في الإلهية.
{ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } إلى آخرها، يجوز أن تكون بيانا لفعل ضرب على الاحتمال الأول. ويجوز أن تكون بيانا للفظ { مثل } على الاحتمال الثاني.
{ **فَاسْتَمِعُوا لَهُ** } تفريع لاسترعاء الأسماع إلى مفاد هذا المثل ممّا يبطل دعوى الشركة لله في الإلهية. أي: استمعوا استماع تدبّر. وصيغة الأمر مستعملة في التحريض على الاحتمال الأول، وفي التعجيب على الاحتمال الثاني.
المثل: شاع في تشبيه حالة بحالة، كما تقدم في قوله { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].
فالتشبيه في هذه الآية ضمني خفي ينبئ عنه قوله { وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ } وقوله { لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ } .

فشُبِّهت الأصنام المتعدّدة في العجز بهيئة ناس تعذّر عليهم خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب. ولو فرض أنّ الذباب سلبهم شيئا لم يستطيعوا أخذه منه.

الذباب: اسم جمع ذبابة، وهي حشرة طائرة معروفة، وتجمع على ذِبَّان (بكسر الذال) ولا يقال في العربية للواحدة ذِبَّابة.

{ **وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** } موقع الحال، و(لو) فيه وصلية. أي: لن يستطيعوا ذلك الخلق وهم مفترقون، بل ولو اجتمعوا وتعاونوا على خلق الذباب، لن يخلقوه.

الاستنقاذ: مبالغة في الإنقاذ، مثل الاستحياء والاستجابة.

{ **ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** } تذييل وفذلكة للغرض من التمثيل، أي: ضعف الداعي والمدعو. أي ضعفتم أنتم في دعوتهم آلهة وضعفت الأصنام عن صفات الإله. وهذه الجملة كلام أرسل مثلا.

{ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }[74]

تذييل للمثل بأنّ عبادتهم الأصنام مع الله استخفاف بحقّ إلهيّته تعالى، إذ أشركوا معه في أعظم الأوصاف أحقر الموصوفين، وإذ استكبروا عند تلاوة آياته تعالى عليهم، وإذ همّوا بالبطش برسوله.

القدر: العظمة. وفعل قدر يفيد أنّه عامل بقدره. فالمعنى: ما عظّموه حقّ تعظيمه إذ أشركوا معه الضعفاء العُجَّز وهو الغالب القويّ. وأسلوب الغيبة التفات، تعريضا بهم بأنّهم ليسوا أهلا للمخاطبة توبيخا لهم.

وقد تقدم تفسيره في قوله { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91].

{ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } تعليل لمضمون الجملة قبلها. وفيه تهديد لهم بأنّه ينتقم منهم على وقاحتهم.

وتوكيد الجملة بحرف التوكيد ولام الابتداء مع أن مضمونها مما لا يختلف فيه لتنزيلهم منزلة المنكرين.

القويّ: من أسمائه تعالى، وهو مستعمل في القدرة على كل مراد له.

العزيز: من أسمائه، وهو بمعنى: الغالب لكلّ معاند.

{ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }[75]

لما نفت الآيات السابقة أن يكون للأصنام التي يعبدها المشركون مزية في نصرهم بقوله { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ }، وقوله { ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ }، ونعى على المشركين تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله { يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا }، وقد كان من دواعي التكذيب أنّهم أحالوا أن يأتيهم رسول من البشر { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [الأنعام:8]، أي: يصاحبه، { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ

عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا } [الفرقان:21]، أعقب إبطال أقوالهم بأنّ الله يصطفي من شاء اصطفاه من الملائكة ومن الناس، وأنّه يصطفيهم ليرسلهم إلى النّاس، أي: لا ليكونوا شركاء. فلا جرم أبطل الآية جميع مزاعمهم في أصنامهم. فالجملة استئناف ابتدائي. والمناسبة ما علمت.

{ **اللَّهُ يَصْطَفِي** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص، أي: الله وحده هو الذي يصطفي.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } تعليل، لأنّ المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختصّ بالاصطفاء، كناية عن عموم العلم

{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [76]

مقرّرة لمضمون جملة { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }، وفيها تعريض بوجوب مراقبتهم ربّهم في السر والعلانية.

{ **مَا بَينَ أَيْدِيهِمْ** } مستعار لما يظهرونه. ويجوز أن يكون مستعارا لما سيكون من أحوالهم.

{ **وَمَا خَلْفَهُمْ** } ما يخفونه، لأنّ الشيء الذي يخفيه صاحبه يجعله وراءه. ويجوز أن يكون مستعارا لما مضى

{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } إرجاع القضاء في جزائها من ثواب وعقاب إليه يوم القيامة. وبني الفعل إلى النائب لظهور من هو فاعل الإرجاع، فإنّه لا يليق إلّا بالله تعالى.

وتقديم المجرور لإفادة الحصر الحقيقي، أي: إلى الله لا إلى غيره يرجع الجزاء، لأنّه ملك يوم الدين.

{ **الْأُمُورُ** } التعريف للاستغراق، أي: كلّ أمر. وذلك جمع بين البشارة والنذارة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [77]

بعد استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوي أعمالهم، خُتمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يُصلح أعمالهم ويُنوّه بشأنهم.

وفي هذا الترتيب إيماء إلى أنّ الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدّم على الاشتغال بإصلاح الأعمال.

{ **ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا** } المراد الصلوات، وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنّهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية. وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة بقوله { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ } تنبيه على أنّ الصلاة عماد الدين.

{ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ** } أمر بإسداء الخير إلى الناس، وهذا مجمل بيّنته وبيّنت مراتبه أدلة أخرى.

{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } رجاء مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحدّ الموجب للفلاح فيما حدّد الله تعالى. فهذه حقيقة الرجاء. وأمّا ما يستلزمه الرجاء من تردّد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التي تحيل الشك على الله تعالى.

اختلف الأئمة في كون الآية موضع سجدة من سجود القرآن:
رأي الجمهور أن ليس ذلك موضع سجدة وهو قول مالك في الموطأ و المدونة ، وأبي حنيفة، والثوري.
وذهب جمع غفير إلى أنّ ذلك موضع سجدة، وروى الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وفقهاء المدينة، ونسبه ابن العربي إلى مالك في رواية المدنيين من أصحابه عنه. وقال ابن عبد البر في الكافي : " ومن أهل المدينة قديما وحديثا من يرى السجود في الثانية من الحجّ ".

{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [78]

الجهاد: بصيغة المفاعلة حقيقة عرفيّة في قتال أعداء المسلمين في الدين لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدفع عنه، كما فسّره النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "**.
{ **فِي** } للتعليل، أي: لأجل الله، أي: لأجل نصر دينه، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" دخلت امرأة النار في هرة "**، أي: لأجل هرة، كما بيّنه بقوله: **" حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها ترمم من خشاش الأرض حتّى ماتت هزلا "**.
{ **حَقَّ جِهَادِهِ** } انتصب على المفعول المطلق المبيّن للنوع، وأضيفت الصفة إلى الموصوف، وأصله: جهاده الحقّ. و**الحق** بمعنى: الخالص، أي: الجهاد الذي لا يشوبه تقصير.
والآية أمر بالجهاد. ولعلّها أوّل آية جاءت في الأمر بالجهاد لأنّ السورة بعضها مكّي وبعضها مدني ولأنّه تقدم آنفا قوله { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ }. فهذا الآن أمر بالأخذ في وسائل النصر، فالآية نزلت قبل وقعة بدر لا محالة.
{ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ** } أي: هو اختاركم لتلقّي دينه ونشره ونصره على معانديه. فيظهر أنّ هذا موجّه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصالة ويشركهم فيه كلّ من جاء بعدهم بحكم اتّحاد الوصف في الأجيال، كما هو الشان في مخاطبات التشريع.
إن حُملت الجملة على أنّها واقعة موقع العلّة لما أمروا به من العبادة، أي: لأنّه لمّا اجتباكم كان حقيقا بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها.

وإن حُملت على معنى التفضيل على الأمم كان ملحوظا فيه تفضيل مجموع الأمّة على مجموع الأمم السابقة. وقد تقدّم مثل هذين المحملين في قوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران:110].

{ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } أعقب ذلك بتفضيل هذا الدين، المستتبع تفضيل أهله، بأن جعله دينا لا حرج فيه، لأنّ ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **بُعثت بالحنيفيّة السمحة** ".

الحرج: الضيق، أطلق على عسر الأفعال تشبيها للمعقول بالمحسوس ثم شاع ذلك حتى صار حقيقة عرفية.

{ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } زيادة في التنويه بهذا الدين وتحضيض على الأخذ به بأنّه اختص بأنه دين جاء به رسولان إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا لم يستتب لدين آخر، وهو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أنا دعوة أبي إبراهيم** " [رواه أبو داود الطيالسي عن عبادة بن الصامت]، أي: بقوله { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ } [البقرة:129]. أي: أنّ الإسلام احتوى على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ومعلوم أن للإسلام أحكاما كثيرة ولكنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشرائع الأخرى من دين إبراهيم.

ثم إن كان الخطاب موجها إلى الذين صحبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فإضافة أبوّة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمّة، لأنّ غالب الأمّة يومئذ من العرب المضرية وأمّا الأنصار فإنّ نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنّهم من العرب القحطانيين، على أنّ أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قبل الأمهات.

وإن كان الخطاب لعموم المسلمين كانت إضافة أبوة إبراهيم لهم على معنى التشبيه في الحرمة واستحقاق التعظيم كقوله تعالى { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ }، ولأنّه أبو النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ومحمد له مقام الأبوة للمسلمين.

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم على طريقة التعظيم كأنّه قال: ملة أبيك إبراهيم.

{ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ } الضمير عائد إلى الجلالة كضمير { هُوَ اجْتَبَاكُم } فتكون الجملة استئنافا ثانيا، أي: هو اجتباكم وخصّكم بهذا الاسم الجليل فلم يعطه غيركم.

{ مِنْ قَبْلُ } بُني على الضم إشعارا بالمضاف إليه. والتقدير: من قبل القرآن. والقرينة قوله { وَفِي هَذَا }.

{ وَفِي هَذَا } الإشارة إلى القرآن كما في قوله تعالى { ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الأحقاف:4]، أي: وسماكم المسلمين في القرآن.

{ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } اللام يتعلّق بقوله { ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } أو بقوله { اجْتَبَاكُمْ }، أي: ليكون الرسول صلى الله عليه وسلم، شهيدا على الأمة الإسلامية بأنّها آمنت به، وتكون الأمّة الإسلامية شاهدة على الناس، أي: على الأمم بأنّ رسلهم بلّغوهم الدعوة فكفر بهم الكافرون. ومن جملة الناس القوم الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقُدّمت شهادة الرسول للأمّة هنا، وقدّمت شهادة الأمة في قوله { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } [البقرة:143]، لأنّ آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول. فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمّة فكان ذكر شهادة الأمة أهم.

{ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } تفريع على قوله { هُوَ اجْتَبَاكُمْ } وما بعدها، أي فاشكروا الله بالدوام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله.

الاعتصام: افتعال من العَصْم. وهو المنع من الضرّ والنجاة، قال تعالى { قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [هود:43]. والمعنى: اجعلوا الله ملجأكم ومنجاكم.

{ **هُوَ مَوْلاكُمْ** } مستأنفة معلّلة للأمر بالاعتصام بالله، لأنّ المولى يُعتصم به ويُرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته.

المولى: السيد الذي يراعي صلاح عبده.

{ **فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } فرّع عليه إنشاء الثناء على الله بأنّه أحسن مولى وأحسن نصير. أي: نعم المدبّر لشؤونكم، ونعم الناصر لكم.

نصير: صيغة مبالغة في النصر.

وهذا الإنشاء يتضمّن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره. وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به، وهذا من براعة الختام. كما هو بين لذوي الأفهام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون

يقال (**سورة المؤمنون**). فالأوّل على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنّهم أفلحوا. والثاني على حكاية لفظ { الْمُؤْمِنُونَ } الواقع أوّلها، فجعل ذلك اللفظ تعريفا للسورة.

وقد وردت تسمية هذه السورة (**سورة المؤمنين**) في السنّة. روى أبو داود: عن عبد الله بن السائب قال: "صلى بنا رسول الله الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبي سعلة فحذف فركع ".

وممّا جرى على الألسنة أن يسمّوها (**سورة قد أفلح**). ووقع ذلك في كتاب الجامع من العتبية في سماع ابن القاسم. قال ابن القاسم: " أخرج لنا مالك مصحفا لجدّه فتحدثنا أنّه كتبه على عهد عثمان بن عفان وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا... [إلى أن قال] ... وفي قد أفلح ".

ويسمّونها أيضا (**سورة الفلاح**).

وهي **مكّية بالاتفاق**. ولا اعتداد بتوقّف من توقّف في ذلك بأنّ الآية التي ذكرت فيها الزكاة وهي قوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } تعيّن أنّها مدنية، لأنّ الزكاة فرضت في المدينة. فالزكاة المذكورة فيها هي الصدقة لا زكاة النصب المعيّنة في الأموال. وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن، قال { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [فصلت:7/6] وهي من سورة مكية بالاتفاق، وقال تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ } [مريم:55/54] ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل.

وهي السورة **السادسة والسبعون في عداد** نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة { الطور } وقبل سورة { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ }.

وآياتها مائة وسبع عشرة في عدّ الجمهور. وعدّها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة، فالجمهور عدوا { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } آية، وأهل الكوفة عدوا { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ } آية وما بعدها آية أخرى.

أغراض السورة

*/ هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه.

*/ افتتحت بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلّوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك.

*/ أعقب ذلك بوصف خلق الإنسان، أصله ونسله، الدال على تفرّد الله تعالى بالإلهية لتفرّده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة.

*/ دلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأنّ الله لم يخلق الخلق سدى ولعبا.

*/ الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى.

*/ الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع، وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل.

*/ تسخير المنافع للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر.

*/ ذكر الحمل على الفلك، فكان منه تخلص إلى بعثة نوح وحدث الطوفان.

*/ التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح، وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرق، وما كان من عقاب المكذبين، وتلك أمثال لموعظة المعرضين عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فأعقب ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا.

*/ تنبيه المشركين على أنّ حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة فهم عرضة لأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم الماضية المكذبة. وقد أراهم الله مخائل العذاب لعلّهم يقلعون عن العناد فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم.

*/ ذُكّروا بأنّهم يُقرّون إذا سئلوا بأنّ الله مُفْرَد بالربوبية ولا يجرون على مقتضى إقرارهم، وأنّهم سيندمون على الكفر عندما يحضرهم الموت وفي يوم القيامة.

*/ وبأنهم عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته ونصحه المجرّد عن طلب المنفعة لنفسه إلّا ثواب الله، فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة، ولكنّهم متّبعون أهواءهم معرضون عن الحقّ.

*/ وما تخلل ذلك من جوامع الكلم.

*/ ختمت بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يغضّ عن سوء معاملتهم ويدفعها بالتي هي أحسن، ويسأل المغفرة للمؤمنين، وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة.

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ }[1]

افتتاح بديع لأنّه من جوامع الكلم، فإنّ الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلّق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي التعميم، فكأنّه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه.

ولمّا كانت همّة المؤمنين منصرفة إلى تمكّن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم كان ذلك إعلاما بأنّهم نجحوا فيما تعلّقت به هممهم من خير الآخرة وللحقّ من خير الدنيا، ويتضمّن بشارة برضى الله عنهم ووعدا بأنّ الله مكمل لهم مايتطلّبونه من خير.

وأكّد هذا الخبر بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق. فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إن واللام) في الجملة الاسمية.

الفلاح: الظفر بالمطلوب من عمل العامل. وقد تقدّم في أوّل البقرة. ونيط الفلاح بوصف الإيمان للإشارة إلى أنّه السبب الأعظم في الفلاح، فإنّ الإيمان وصف جامع للكمال لتفرّع جميع الكمالات عليه.

{ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [2]

إجراء الصفات على { الْمُؤْمِنُونَ } بالتعريف بطريق الموصول وبتكريره للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلّته، أي: أنّ كلّ خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم. لأنّه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا، فإنّ الفلاح لا يتمّ إلّا بخصال أخرى ممّا هو مرجع التقوى، ولكن لمّا كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبئ عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتبرت لذلك سببا للفلاح، كما كانت أضدادها كذلك في قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ } [المدثر:46-42] على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها.

الخشوع: تقدّم في قوله { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } [البقرة:45] وفي قوله { وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء:90]. وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولاشك أنّ الخشوع، يقتضي التقوى، فهو سبب فلاح.

{ **فِي صَلاتِهِمْ** } تقييده لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع، لأنّ الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها. والخشوع محلّه القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنّه يتلبّس به المصلي في حالة صلاته.

وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له. ولهذا الاعتبار قدم هذا الوصف وجعل مواليا للإيمان.

وتقديم {فِي صَلاتِهِمْ} على {خَاشِعُونَ} للاهتمام بالصلاة للإيذان بأنّ لهم تعلقا شديدا بالصلاة.

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ } [3]

القول في تركيب هذه جملة كالقول في سابقتها، وكذلك تقديم {عَنِ اللَّغْوِ} على متعلّقه.

وإعادة اسم الموصول دون اكتفاء بعطف صلة على صلة للإشارة إلى أنّ كلّ صفة من الصفات موجبة للفلاح، ولما في الإظهار في مقام الإضمار من زيادة تقرير للخبر في ذهن السامع.

اللغو: الكلام الباطل. وتقدّم في قوله تعالى { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ } [البقرة:225].

الإعراض: الصدّ، أي: عدم الإقبال على الشيء، من العُرض (بضم العين) وهو الجانب، لأنّ من يترك الشيء يوليه جانبه ولا يقبل عليه، فيشمل الإعراضُ إعراضَ السمع عن اللغو. وتقدّم عند قوله { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63]. ويشمل الاعراضَ عن اللغو بالألسنة، أي: أن يلغو في كلامهم.

وعقّب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو لأنّ الصلاة في الأصل الدعاء، وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو ممّا يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدّية، فكان الإعراض عن اللغو بمعنَيي الإعراض مما تقتضيه الصلاة والخشوع، لأنّ من اعتاد القول الصالح تجنّب القول الباطل ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور. وفي الحديث: " **إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم** ".

والإعراض عن اللغو من خُلُق الجِد، ومن تخلق بالجد في شؤونه كملت نفسه ولم يصدر منه إلّا الأعمال النافعة، فالجِد في الأمور من خلق الإسلام.

{ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [4]

أصل الزكاة أنها اسم مصدر زكّى المشدّد، إذا طهّر النفس من المذمّات. ثم أطلقت على إنفاق المال لوجه الله مجازا، لأنّ القصد من ذلك المال تزكية النفس أو لأنّ ذلك يزيد في مال المعطي. فأطلق اسم المسبَّب على السبب. وأصله قوله تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة:103].

{ **فَاعِلُونَ** } المراد هنا الفعل المناسب لهذا المفعول وهو **الإيتاء**، فهو كقوله{ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [المائدة:] فلا حاجة إلى تقدير أداء الزكاة. وإنما أوثر هنا الاسم الأعم لأن مادة (ف.ع.ل) مشتهرة في إسداء المعروف.

وعُقّب ذكر الصلاة بذكر الزكاة لكثرة التآخي بينهما في آيات القرآن، وإنما فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو للمناسبة التي ذُكرت.

{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ [5] إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ [6] فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [7] }.

الحفظ: الصيانة والإمساك. وحفظ الفرج معلوم، أي: عن الوطء.

{ **إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ** } استثناء من عموم متعلّقات الحفظ، فضُمّن حافظون معنى عدم البذل، يقال: احفظ علي عنان فرسي، كما يقال: أمسك عليّ، كما في قوله { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } [الأحزاب:37].

والمراد حِلُّ الصنفين من بين بقية أصناف النساء. وهذا مجمل تبيّنه تفاصيل الأحكام.

{ **فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** } تصريح بزائد على حكم مفهوم الاستثناء، لأنّ الاستثناء لم يدل على أكثر من كون عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات لا يمنع الفلاح فأريد زيادة بيان أنّه أيضا لا يوجب اللوم الشرعي، فيدلّ هذا بالمفهوم على أنّ عدم الحفظ على من سواهن يوجب اللوم الشرعي، ليحذره المؤمنون.

{ **فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** } وزيد ذلك التحذير تقريرا، لأنّ داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إيّاه غريزة طبيعية يخشى أن تتغلب على حافظها.

وذكر حفظ الفرج هنا عطفا على الإعراض عن اللغو لأنّ حفظ الفرج من الإعراض عن اللغو. وفي الحديث **" من يضمن لي ما بين لَحْيَيه وما بين رجليه أضمن له الجنّة ".**

اللوم: الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق عند الملائم، وهو مرادف العذل وأضعف من التعنيف.

{ **وَرَاءَ ذَلِكَ** } منصوب على المفعول به. وأصل الوراء اسم المكان الذي في جهة الظهر، ويطلق على الشيء الخارج عن الحدّ المحدود، تشبيها للمتجاوز الشيء بشيء موضوع خلف ظهر ذلك الشيء، وهذا التخيّل شاع عنه هذا الإطلاق بحيث يقال: هو وراء الحدّ، ولو كان مستقبله. ثم تُوسّع فيه فصار بمعنى: **غير** أو **ما عدا** كما هنا، أي: فمن ابتغوا بفروجهم شيئا غير الأزواج وما ملكت أيمانهم.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة ليكون وصفهم بالعدوان مشهورا مقرّرا كقوله تعالى { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة:177].

العادي: هو المعتدي، أي: الظالم، لأنّه عدا على الأمر.

{ **هُمُ** } توسيط ضمير الفصل لتقوية الحكم، أيّ هم البالغون غاية العدوان على الحدود الشرعية.

{ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } [8]

هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين تنحلُّ إلى فضيلتين: هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها وفضيلة الوفاء بالعهد.

الأمانة: تكون غالبا من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف فيجعلها عند من يظنّ فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردّها وبأن يجحدها ربّها، ولكون دفعها في الغالب عَرْيا عن الإشهاد تبعث محبّتها الأمين على التمسّك بها وعدم ردّها، فلذلك جعل الله ردّها من شعب الإيمان.

وفي الحديث عن حذيفة بن اليمان قال: " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة** "، وحدثنا عن رفعها قال: " **ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل، كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إنّ في بني فلان رجلا أمينا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان** ".

الوكت: سواد يكون في قشر التمر.

المَجْل: انتفاخ في الجلد الرقيق يكون شبه قشر العنبة ينشأ من مسّ النار الجلد ومن كثرة العمل باليد.

مثقال حبة من خردل من إيمان: هو مصدر آمنه، أي: وما في قرارة نفسه من إيمان الناس إيّاه، فلا يأتمنه إلا مغرور.

وقد تقدم الكلام على الأمانة في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } [النساء:58].

{ **لِأَمَانَاتِهِمْ** } جمع باعتبار تعدّد أنواعها وتعدّد القائمين بالحفظ، تنصيصا على العموم.

العهد: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به. وسُمِّي عهدا لأنّهم يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبا عليهما في ذلك. وتقدّم عند قوله تعالى { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } [البقرة:27].

والوفاء بالعهد من أعظم خلق الكريم لدلالته على شرف النفس وقوّة العزيمة، فإنّ المَرْأَين قد يلتزم كلّ منهما للآخر عملا عظيما فيصادف أن يتوجّه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما فيصعب عليه أن يتجشّم عملا لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو فتسوّل له نفسه الخَتْر بالعهد شحّا أو خورا في العزيمة، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس قال تعالى { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } [الإسراء:34].

الرعي: مراقبة شيء بحفظه من التلاشي وبإصلاح ما يفسد منه، فمنه رعي الماشية، ومنه رعي الناس،

ومنه أطلقت المراعاة على ما يستحقّه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة. والقائم بالرعي: راع.

رَعْيُ الأمانة: حفظها. ولمّا كان الحفظ مقصودا لأجل صاحبها كان ردّها إليه أولى من حفظها.

رَعْيُ العهد: مجاز، أي: ملاحظته عند كلّ مناسبة.

والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد لأنّ العهد كالأمانة لأنّ الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد.

وذكرهما عقب أداء الزكاة لأنّ الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال، ولذلك سُمِّيت: حقّ الله، وحقّ المال، وحقّ المسكين.

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [9]

ثناء على المؤمنين بالمحافظة على الصلوات، أي: بعدم إضاعتها أو إضاعة بعضها.

المحافظة: مستعملة في المبالغة في الحفظ، إذ ليست المفاعلة هنا حقيقية، وتقدّم معنى الحفظ قريبا.

{ صَلَوَاتِهِمْ } وجيء بصيغة الجمع تنصيصا على العموم. وإنّما ذُكر هذا مع ما تقدّم من قوله { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ }، لأنّ ذكر الصلاة هنالك جاء تبعا للخشوع، فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن لأنّها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات.

وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويها بها، وردا للعجز على الصدر، تحسينا للكلام الذي ذكرت فيه تلك الصفات لتزداد النفس قبولا لسماعها ووعيها فتتأسّى بها.

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [1-9]، وقد جمعت هذه الآيات أصول التقوى الشرعية، لأنّها أتت على أعسر ما تُراض له النفس **من أعمال القلب والجوارح**:

<u>فجاءت بوصف الإيمان</u>، وهو أساس التقوى، <u>ثم ذكرت الصلاة</u>، وهي عماد التقوى والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، لما فيها من تكرّر استحضار الوقوف بين يدي الله ومناجاته.

<u>وذكرت الخشوع</u>، وهو تمام الطاعة، لأنّ المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عُهدة التكليف غير مستحضر خشوعا لربّه الذي كلّفه بالأعمال الصالحة، فإذا تخلّق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبته ربّه فامتثل واجتنب. فهذان **من أعمال القلب**.

<u>وذكرت الإعراض عن اللغو</u>، واللغو من سوء الخُلُق المتعلّق باللسان الذي يعسر إمساكه، فإذا تخلّق المؤمن بالإعراض عن اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك. وفي الإعراض عن اللغو خُلُق للسمع أيضا كما علمت.

<u>وذكرت إعطاء الصدقات</u> وفي ذلك مقاومة داء الشحّ { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر:9]

وذكرت حفظ الفرج، وفي ذلك خُلق مقاومة اطّراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها والترفّع بها عن حضيض مشابهة البهائم، فمن تخلّق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخُلقا.

وذكرت أداء الأمانة، وهو مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحقّ حقّه ومغالبة شهوة النفس لأمتعة الدنيا.

وذكرت الوفاء بالعهد، وهو مظهر لخُلُق العدل في المعاملة والإنصاف من النفس بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء.

وذكرت المحافظة على الصلوات وهو التخلّق بالعناية والوقوف عند الحدود والمواقيت وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقا راسخا.

وأنت إذا تأمّلت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله؛ مثل الصلاة والخشوع وترك اللغو وحفظ الفرج وحفظ العهد، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه؛ مثل الصدقة وأداء الأمانة. فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي الفعل والترك في المهمّات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبّعها.

روى النسائي: أنّ عائشة قيل لها: كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت: كان خُلُقه القرآن، وقرأت { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } حتى انتهت إلى قوله { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }.

وقد كان خُلُق أهل الجاهلية على العكس من هذا، فيما عدا حفظ العهد غالبا، قال تعالى { وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً } [الأنفال:35]، وقال في شأن المؤمنين مع الكافرين { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [القصص:55]، وقال { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [فصلت:7/6]. وقد كان البغاء والزنى فاشيين في الجاهلية.

{ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ [10] الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [11] }.

{ **أُولَئِكَ** } جيء لهم باسم الإشارة بعد أن أُجريت عليهم الصفات المتقدّمة ليفيد أنّ جدارتهم بما سيُذكر بعده حصلت من اتصافهم بتلك الصفات. والمعنى: أولئك هم الأحقّاء بأن يكونوا الوارثين بذلك.

{ **هُمُ** } توسيط ضمير الفصل لتقوية الخبر عنهم بذلك.

{ **الْوَارِثُونَ** } حذف المعمول ليحصل إبهام وإجمال فيترقّب السامع بيانه قصدا، لتفخيم هذه الوراثة.

{ **الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ** } الإتيان في البيان باسم الموصول الذي شأنه أن يكون معلوما للسامع بمضمون صلته إشارة إلى أنّ تعريف { الْوَارِثُونَ } تعريف العهد، كأنّه قيل: هم أصحاب هذا الوصف المعروفون به. واستعيرت الوراثة للاستحقاق الثابت، لأنّ الإرث أقوى الأسباب لاستحقاق المال.

الفردوس: اسم من أسماء الجنّة في مصطلح القرآن، أو من أسماء أشرف جهات الجنّات. وأصل الفردوس: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر. وفي الحديث: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأمّ حارثة بن سراقة

لما أصابه سهم غرب يوم بدر فقتله وقالت أمّه: إنّ كان في الجنّة أصبر وأحتسب، فقال لها: " **ويحك أهَبِلْتِ أَوَ جنّة واحدة هي، إنّها لجِنان كثيرة وإنّه لفي الفردوس** ".

وقد ورد في فضل هذه الآيات عن عمر بن الخطاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **أُنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة** " ثم قرأ { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } حتّى ختم عشر آيات.

قال ابن العربي في العارضة: قوله { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ } هي العاشرة. رواه الترمذي وصحّحه.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ [12] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [13] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [14] }.

الجملة مستأنفة، وهي عطف قصّة على القصّة، للشروع في الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره، وعلى أنّ الإنسان مربوب لله تعالى وحده، وللاعتبار بما في خلق الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم النعمة. فالمقصود إبطال الشرك، لأنّ ذلك الأصل الأصيل في ضلال المعرضين عن الدعوة المحمّدية. ويتضمّن ذلك امتنانا على النّاس بأنّه أخرجهم من مهانة العدم.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق مراعى فيه التعريض بالمشركين المنزَّلين منزلة من ينكر هذا الخبر، لعدم جريهم على موجب العلم.

الخلق: الإنشاء والصنع، تقدّم في قوله { قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } [عمران:47].

{ **الْإِنْسَانَ** } يجوز أن يكون النوع الإنساني. وفسّر به ابن عباس ومجاهد، فالتعريف للجنس.

السلالة: الشيء المسلول، أي المنتزع من شيء آخر، يقال: سللت السيف،إذا أخرجته من غمده. فالسلالة خلاصة من شيء، ووزن فُعالة يؤذن بالقلة مثل القُلامة والصُّبابة.

أي: خلقناه منفصلا وآتيا من سلالة، فتكون السلالة على هذا: مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما.

{ **مِنْ طِينٍ** } وهذه السلالة هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دما، فدم الذكر حين يمرّ على غدّتي التناسل (الأنثيين) تفرز منه الأنثيان مادة دهنية شحمية تحتفظ بها وهي التي تتحول إلى منيّ حين حركة الجماع، فتلك السلالة مُخْرَجة من الطين لأنّها من الأغذية التي أصلها من الأرض. ودم المرأة إذا مرّ على قناة الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بذر الأجنة. ومن اجتماع تلك المادة الدهنيّة التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكوّن الجنين، فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين.

{ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ } طور آخر للخلق وهو طور اختلاط السلالتين في الرحم. سُمِّيت سلالة الذكر نطفة لأنّها تنطُف، أي: تقطر في الرحم في قناة معروفة، وهو القرار المكين.

{ جَعَلْنَاهُ } عائد إلى الإنسان باعتبار أنّه من السلالة، فالمعنى: جعلنا السلالة في قرار مكين، أي: وضعناها فيه حفظا لها، ولذلك غيّر في الآية التعبير عن فعل الخلق إلى فعل الجعل المتعدّي بـ (في) بمعنى الوضع.

القرار: في الأصل: مصدر (قرّ) إذا ثبت في مكانه. وقد سُمّي به هنا المكان نفسه.

المكين: الثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيء الحال في المكان الثابت فيه. وقد وقع هنا وصفا لنفس المكان الذي استقرّت فيه النطفة، على طريقة المجاز العقلي للمبالغة، وحقيقته: مكين حاله. وقد تقدّم قوله { أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } [الكهف:37] وقوله { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } [الحجّ:5].

ويجوز أن يراد بالإنسان في قوله { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ } **آدم**. وقال بذلك قتادة، فتكون السلالة الطينة الخاصة التي كوّن الله منها آدم، وهي الصلصال الذي ميّزه من الطين في مبدإ الخليقة، فتلك الطينة مسلولة سلّا خاصا من الطين ليتكوّن منها حيٌّ، وعليه فضمير { جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً } على هذا الوجه، عائد إلى الإنسان باعتبار كونه نسلا لآدم، ويكون معنى هذه الآية كمعنى قوله تعالى { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } [السجدة:8/7].

{ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً } حرف (ثمّ) للترتيب الرتبي، إذ كان خلق النطفة علقة أعجب من خلق النطفة إذ صُيِّر الماء السائل دما جامدا فتغيّر بالكثافة وتبدّل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم.

العلقة: قطعة من دم عاقد.

المضغة: القطعة الصغيرة من اللحم مقدار اللقمة التي تمضغ.

وقد تقدّم في أوّل سورة الحجّ كيفية تخلّق الجنين.

{ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً } عُطفت بالفاء لأنّ الانتقال من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء، إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطوّرهما قريب، وإن كان مكث كل طور مدّة طويلة.

{ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً } هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة، وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني.

{ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً } لا يقتضي ذلك أنّ العظام بقيت حينا غير مكسوّة، وفي الحديث الصحيح: **" إنّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ... ".**

{ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ } نفخ الروح، لأنّ الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خلق الحياة وهي حالة أخرى طرأت عليه عبّر عنها بالإنشاء.

{ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** } فُرِّع على حكاية هذا الخلق العجيب إنشاء الثناء على الله تعالى بأنّه أحسن الخالقين، لأنّه أنشأ ما لا يستطيع غيره إنشاءه.

ولمّا كانت دلالة خلق الإنسان على عظم القدرة أسبق إلى اعتبار المعتبر كان الثناء المعقَّب به ثناء على بديع قدرة الخالق مشتقًّا من البركة، وهي الزيادة.

فمعنى تبارك الله أنّه موصوف بالعظمة في الخير، أي: عظمة ما يقدّره من خير للناس وصلاح لهم.

وبهذا الاعتبار تكون الجملة تذييلا، لأنّ تبارك لمّا حذف متعلقه كان عاما فيشمل عظمة الخير في الخلق وفي غيره. وكذلك حذف متعلّق الخالقين، يعمّ خلق الإنسان وخلق غيره كالجبال والسماوات.

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ [15] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ [16] }.

إدماج في أثناء تعداد الدلائل على تفرّد الله بالخلق على اختلاف أصناف المخلوقات لقصد إبطال الشرك.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، لأنّ أهميّة التذكير بالموت في هذا المقام أقوى من أهميّة ذكر الخلق، لأنّ الإخبار عن موتهم توطئة لما بعده وهي قوله { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } وهو المقصود. فهو كقوله { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك:2].

{ **بَعْدَ ذَلِكَ** } إشارة إلى الخلق المبيّن آنفا، أي: بعد ذلك التكوين العجيب والنماء المحكم أنتم صائرون إلى الموت. وأكد هذا الخبر بـ (إن واللام) مع كونهم لا يرتابون فيه لأنّهم لمّا أعرضوا عن التدبّر فيما بعد هذه الحياة كانوا بمنزلة من ينكرون أنّهم يموتون.

{ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** } توكيد الخبر لأنّهم ينكرون البعث. ويكون ما ذكر قبله من الخلق الأوّل دليلا على إمكان الخلق الثاني كما قال تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15].

ونقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، ونكتته هنا أنّ المقصود التذكير بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف، وإنّما يناسبه الخطاب.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ }[17]

عطف على جملة { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ }، انتقال من الاستدلال بخلق الإنسان إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية لأنّ أمرها أعجب، وإن كان الإنسان إلى نظيره أقرب.

وإنّما ذكر هذا عقب قوله { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } للتنبيه على أنّ الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلّا لحكمة، وأنّ الحكيم لايهمل ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء المسيئين على سيّئاتهم.

{ **فَوْقَكُمْ** } للتنبيه على وجوب النظر في أحوالها للاستدلال بها على قدرة الخالق، فإنها بحالة إمكان النظر إليها والتأمّل فيها.

الطرائق: جمع طريقة وهي اسم للطريق تذكّر وتؤنّث. والمراد بها هنا طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها، أي: الخطوط الفرضية التي ضبط الناس بها سُموت سير الكواكب. وقد أطلق على الكواكب اسم الطارق في قوله تعالى { وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ } [الطارق:1] من أجل أنّه ينتقل في سَمْت يُسمَّى (**طريقة**)، فإنّ الساير في طريق يقال له: طارق، ولا شك أنّ الطرائق تستلزم سائرات فيها، فكان المعنى: خلقنا سيّارات وطرائقها.

{ **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** } جملة في موضع الحال تعقيب مشعر بأنّ في ذلك لطفا بالخلق وتيسيرا عليهم في شؤون حياتهم، وهذا امتنان. وفيه تنبيه للنظر في أنّ عالم الجزاء كائن بتلك العوالم قال تعالى { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ } [الذاريات:22].

الخلق: مفعول سمِّي بالمصدر، أي ما كنا غافلين عن حاجة مخلوقاتنا، يعني: البشر. والعدل عن الإضمار إلى الإظهار، دون أن يقال: وما كنا عنكم غافلين، لما يفيده المشتقّ من معنى التعليل، أي: ما كنا عنكم غافلين لأنّكم مخلوقاتنا فنحن نعاملكم بوصف الربوبية، وفي ذلك تنبيه على وجوب الشكر.

نفي الغفلة: كناية عن العناية والملاحظة، فأفاد ذلك أن في خلق الطرائق السماوية، لطفا بالناس أيضا إذ كان نظام خلقها صالحا لانتفاع الناس به في مواقيتهم وأسفارهم في البر والبحر كما قال { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:97]. وأعظم تلك الطرائق طريقة الشمس.

{ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ [18] فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [19] وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ [20] }.

والمناسبة أنّ ماء المطر ينزل من صوب السماء، أي: من جهة السماء. وفي إنزال ماء المطر دلالة على سعة العلم ودقيق القدرة، وفي ذلك أيضا منّة على الخلق، فالكلام اعتبار وامتنان.

ومعنى هذه الآية تقدّم في [الأنعام:99]، و[الرعد:17]، و[النحل:65].

وإنزال الماء هو إسقاطه من السحب ماء وثلجا وبردا على السهول والجبال.

القدر: هنا التقدير والتعيين للمقدار في الكم وفي النوبة، فيصحّ أن يُحمل على صريحه، أي: بمقدار معيّن مناسب للإنعام به، لأنّه إذا أُنزل كذلك حصل به الري والتعاقب، وكذلك ذوبان الثلوج النازلة. ويصحّ أن

يُقصد مع ذلك الكناية عن الضبط والإتقان. وليس المراد بالقدر هنا المعنى الذي في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" وتؤمن بالقدر خيره وشره ".**

الإسكان: جعل الشيء في مسكن، والمسكن: محلّ القرار، وهو مَفْعل، اسم مكان مشتقّ من السكون.

وأطلق الإسكان على الإقرار في الأرض على طريق الاستعارة. وهذا الإقرار على نوعين:

إقرار قصير: مثل إقرار ماء المطر في القشرة الظاهرة من الأرض عقب نزول الأمطار على حسب ما تقتضيه غزارة المطر ورخاوة الأرض وشدّة الحرارة أو شدّة البرد. وهو ما ينبت به النبات وتمتصّ منه الأشجار بعروقها فتثمر إثمارها، وتخرج به عروق الأشجار وأصولها من البزور التي في الأرض.

إقرار طويل: وهو إقرار المياه التي تنزل من المطر وعن ذوب الثلوج النازلة فتتسرّب إلى دواخل الأرض فتنشأ منها العيون التي تنبع بنفسها أو تُفجّر بالحفر آبارا.

{ **وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** } معترضة بين الجملة وما تفرع عليها، وفي هذا تذكير بأنّ قدرة الله تعالى صالحة للإيجاد والإعدام.

ذَهَابٍ: التنكير للتفخيم والتعظيم، ومعنى التعظيم هنا تعدّد أحوال الذهاب به من تغويره إلى أعماق الأرض بانشقاق الأرض بزلزال ونحوه، ومن تجفيفه بشدّة الحرارة، ومن إمساك إنزاله زمنا طويلا. وفي معناه قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } [الملك:30].

{ **فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ** } إنشاء الجنات من صنع الله تعالى، ومن بعد ذلك أنبتت الجنّات بغرس البشر، وذلك أيضا من صنع الله بما أودع في العقول من معرفة الغرس والزرع والسقي وتفجير المياه واجتلابها.

الجنّة: المكان ذو الشجر. وأكثر إطلاقه على ما كان فيه نخل وكرم.

وتقدّم الكلام على النخيل والأعناب والزيتون في [النحل:11]

الفواكه: جمع فاكهة، وهي الطعام الذي يُتفكّه بأكله، أي يُتلذّذ بطعمه من غير قصد القوت، فإن قُصد به القوت قيل له طعام. فمن الأطعمة ما هو فاكهة وطعام كالتمر والعنب لأنّه يؤكل رطبا ويابسا، ومنها ما هو فاكهة وليس بطعام كاللوز والكمثرى، ومنها ما هو طعام غير فاكهة كالزيتون، ولذلك أخّر ذكر شجرة الزيتون، لأنّه أريد الامتنان بما في ثمرتهما من التفكّه والقوت فتكون منّة بالحاجي والتحسيني.

{ **كَثِيرَةٌ** } باعتبار اختلاف الأصناف، وأيضا باعتبار كثرة إثمارها.

{ **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ** } عطف على { جَنَّاتٍ }، أي: وأخرجنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء، وهي شجرة الزيتون، وجملة { تَخْرُجُ } صفة { لشَجَرَةً }. وتخصيصها بالذكر تنويه بشأنها، وإيماء إلى كثرة منافعها، لأنّ من ثمرتها طعاما وإصلاحا ومداواة، ومن أعوادها وقود وغيره. وفي الحديث: **" كلوا الزيت وادَّهِنوا به فإنّه من شجرة مباركة ".**

طور سيناء: جبل في صحراء سيناء الواقعة بين عقبة أيلة وبين مصر، وهي من بلاد فلسطين في القديم وفيه ناجى موسى ربّه تعالى، وتقدّم الكلام عليه عند قوله { وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ } [الأعراف:143] . يقال: الطور بدون إضافة، وطور سيناء أو طور سينين. ومعنى الطور: **الجبل**.

سيناء: قيل: اسم شجر يكثر هنالك، وقيل اسم حجارة. وقيل: هو اسم لذلك المكان. قيل: هو اسم نبطي.

{ **تَخْرُجُ** } يقتضي أنّ لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذاك. والذي أراه أن الخروج مستعمل في معنى النشأة والتخلّق. فيظهر أنّ المعنى: أن الله خلق أوّل شجر الزيتون في طور سيناء، وذلك أن الأجناس والأنواع الموجودة على الكرة الأرضية لابد لها من مواطن كان فيها ابتداء وجودها قبل وجودها في غيرها، لأنّ بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الموجودات من بعض آخر لمناسبة بين طبيعة المكان وطبيعة الشيء الموجود فيه، من حرارة أو برودة أو اعتدال. وكذلك فصول السنة كالربيع لبعض الحيوان والشتاء لبعض آخر والصيف لبعض غيرها، فالله تعالى يوجد الموجودات في الأحوال المناسبة لها.

ولم يرد ذكر استعمال زيت الزيتون في طعام في التاريخ القديم إلّا في عهد موسى عليه السلام أيّام كان بنو إسرائيل حول طور سيناء، فقد استعمل الزيت لإنارة خيمة الاجتماع [الإصحاح:25، من سفر الخروج]، وسكب موسى دهن المسحة على رأس هارون أخيه حين أقامه كاهنا لبني إسرائيل [الإصحاح:9، من سفر الخروج].

ويجوز أن يكون معنى { تَخْرُجُ } <u>تظهر وتعرف</u>، فيكون أوّل اهتداء النّاس إلى منافع هذه الشجرة كان من الزيتون الذي بطور سيناء. وهذا كما تسمَّى بعض السيوف في بلاد العرب بالمشرفيّة لأنّها عرفت من مشارف الشام، وبعض الرماح الخطّية لأنها ترد إلى بلاد العرب من مرفأ يقال له: الخط، وبعض السيوف بالمهنّد لأنه يجلب من الهند.

وأيّا ما كان فليس القصد من ذكر أنّها تخرج من طور سيناء إلّا التنبيه على أنّه منبتها الأصلي وإلّا فإن الامتنان بها لم يكن موجّها يومئذ لسكان طور سيناء. وما كان هذا التنبيه إلّا للتنويه بشرف منبتها وكرم الموطن الذي ظهرت فيه. ولم تزل شجرة الزيتون مشهورة بالبركة بين الناس.

وكان الزيت نادرا في معظم بلاد العرب إذ كان يجلب إلى بلاد العرب من الشام.

وقد ضرب الله بزيت الزيتونة مثلا لنوره في قوله { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ } [النور:35].

{ **تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ** } أي: أنّ ثمرتها تشتمل على الزيت وهو يكون دهنا وصبغا للآكلين. فأمّا كونه دهنا فهو أنّه يدهن به النّاس أجسادهم ويرجّلون به شعورهم ويجعلون فيه عطورا فيرجّلون به الشعور، وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدهن بالزيت في رأسه.

الدُّهن: (بضم الدال) اسم لما يُدهن به، أي يطلى به شيء.

الصِبغ: (بكسر الصاد) ما يُصبغ به، أي: يُغيّر به اللون. ثمّ تُوسّع في إطلاقه على كل مائع يطلى به ظاهر جسم ما، ومنه قوله تعالى { صِبْغَةَ اللَّهِ } [البقرة:138]، وسُمِّي الزيت صبغا لأنّه **يُصبغ به الخبز**. وكانوا يأدمون به الطعام وذلك صبغ للطعام. أخرج الترمذي في سننه عن عمر بن الخطاب وعن أبي أسيد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" كلوا الزيت وادَّهنوا به فإنّه من شجرة مباركة "**.

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [21] وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [22] }.

استدلال ومِنّة.

العِبرة: الدليل، لأنّه يُعبر من معرفته إلى معرفة أخرى. والمعنى: إنّ في الأنعام دليلا على انفراد الله تعالى بالخلق وتمام القدرة وسعة العلم.

الأنعام: تقدّم أنّها الإبل في غالب عرف العرب.

{ **نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا** } بيان لما قبلها، فلذلك لم تعطف. والعبرة حاصلة من تكوين ما في بطونها. والمنّة واضحة في { نُسْقِيكُمْ }. وقد تقدّم نظير هذه الآية مفصّلا في [النحل:66].

{ **وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** } بقية بيان العبرة. وهذه المنافع هي الأصواف والأوبار والأشعار والنتاج. وفي الأكل منّة عظيمة ظاهرة.

{ **وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ** } فإن في ذلك عبرة بإعداد الله تعالى إيّاها لذلك، وفي ذلك منّة ظاهرة.

{ **وَعَلَى الْفُلْكِ** } إدماج وتهيئة للتخلّص إلى قصة نوح.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ [23] فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [24] إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ [25] }.

لمّا كان الاستدلال والامتنان اللذان تقدّما موجّهين إلى المشركين الذين كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم واعتلُّوا لذلك بأنّهم لا يؤمنون برسالة بشر مثلهم وسألوا إنزال ملائكة ووسَمُوا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون، فلمّا شابهوا بذلك قوم نوح ومن جاء بعدهم ناسب أن يُضرب لهم بقوم نوح مثلٌ تحذيرا اهم.

{ **وَلَقَدْ** } تصدير الجملة بلام القسم تأكيد للمضمون التهديدي من القصة، وتأكيد الإرسال أيضا.

{ **فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** } عطف مقالة نوح على جملة إرساله بـ (فاء) التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربّه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال. وأمره قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنّهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم (ودّ – سواع – يغوث – يعوق - نسر) حتّى أهملوا عبادة الله ونسوها.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } في موقع التعليل للأمر بعبادته، وهو تعليل أخصّ من المعلّل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره.

{ **أَفَلا تَتَّقُونَ** } فُرّع على الأمر بإفراده بالعبادة استفهام إنكار على عدم اتّقائهم عذاب الله تعالى.

{ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } وقد خولفت في حكاية جواب الملإ من قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف. فعطف هنا جواب الملإ من قومه بـ (الفاء) لوجهين:

أحدهما: أنّهم لم يوجّهوا الكلام إليه بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفنّدون لهم ما دعاهم إليه نوح.

الثاني: ليفاد أنّهم أسرعوا لتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } للإيماء إلى أنّ كفرهم هو الذي أنطقهم بهذا الردّ على نوح، وهو تعريض بأنّ مثل ذلك الردّ لا نهوض له ولكنهم روّجوا به كفرهم خشية على زوال سيادتهم.

{ **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } خاطب به بعضهم بعضا، إذ الملأ هم القوم ذوو السيادة والشارة، أي: فقال عظماء القوم لعامتهم. وإخبارهم بأنّه بشر مثلهم مستعمل كناية عن تكذيبه، أوهموهم أنّ المساواة في البشرية مانعة من الوساطة بين الله وبين خلقه، وهذا من الأوهام التي أضلت أمما كثيرة. وقد تقدّم في [هود:27].

{ **يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** } زيادة عمّا في هود، فإنّ سادة القوم ظنّوا أنّه ما جاء بتلك الدعوة إلّا حبًّا في أن يسود على قومهم، فخشوا أن تزول سيادتهم.

التفضّل: تكلّف الفضل وطلبه، والفضل أصله الزيادة ثم شاع في زيادة الشرف والرفعة، أي: أن يكون أفضل الناس، لأنّه نسبهم كلّهم إلى الضلال.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً** } عطف على ما سبق، بعد أن مهّدوا له بأنّ البشريّة مانعة من أن يكون صاحبها رسولا لله.

{ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ** } مستأنفة، قصدوا بها تكذيب الدعوة بعد تكذيب الداعي، فلذلك جيء بها مستأنفة غير معطوفة تنبيها على أنّها مقصودة بذاتها وليست تكملة لما قبلها.

{ **بِهَذَا** } إشارة إلى الكلام الذي قاله نوح، إي: ما سمعنا بأنّ ليس لنا إله غير الله في مدّة أجدادنا.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ** } استئناف بياني، لأنّه بزعمهم طمع فيما لا يطمع عاقل في مثله. أي: هو متلبّس بشيء من الجنون. وقصروه على صفة المجنون، وهو قصر إضافي، أي: ليس برسول من الله.

{ **فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ** } فرَّعوا على ذلك الحكم أمرا لقومهم بانتظار ما ينكشف عنه أمره بعد زمان: إمّا شفاء من الجِنّة فيرجع إلى الرشد، أو ازدياد الجنون به فيتّضح أمره، فتعلموا أن لا اعتداد بكلامه.
الحين: اسم للزمان غير المحدود.
التربّص: التوقّف عن عمل يراد عمله والتريّث فيه انتظارا لما قد يغني عن العمل أو انتظارا لفرصة تمكّن من إيقاعه على أتقن كيفية لنجاحه. وقد تقدم عند قوله تعالى { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ } [براءة:98].

{ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ [26] فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [27] }.
استئناف بياني، ودعاؤه بطلب النصر لتكذيبهم ولما لقّوه من البهتان في نسبته إلى الجنون.
النصر: تغليب المعتدَى عليه على المعتدِي. سأل نوح نصرا مجملا كما حكي هنا، وأعلمه الله أنّه لا رجاء في إيمان قومه إلّا من آمن منهم، كما جاء في سورة هود.
{ **بِمَا كَذَّبُونِ** } الباء سببية في موضع الحال من النصر المأخوذ من فعل الدعاء، أي: نصرا كائنا بسبب تكذيبهم، فجعل حظ نفسه فيما اعتدوا عليه مُلغًى واهتم بحظ الرسالة عن الله.
{ **فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ** } تعقيب بتقدير جمل محذوفة، وهو إيجاز في حكاية القصّة.
{ **أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** } جملة مفسرة لجملة { أَوْحَيْنَا }، وتقدّم نظيرها عند قوله { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [هود:37].
{ **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ** } وفرّع على الأمر بصنع الفلك تفصيل ما يفعله عند الحاجة إلى استعمال الفلك، فوُقّت له استعماله بوقت الاضطرار إلى إنجاء المؤمنين والحيوان. وتقدم الكلام حولها في سورة هود.
{ **فَاسْلُكْ فِيهَا** } وإنّما عبر هنالك بقوله { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا }، لأنّ آية سورة هود حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان وذلك وقت ضيق، فأمر أن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم، فأسند الحمل إلى نوح تمثيلا للإسراع بإركاب ما عيُن له في السفينة، حتّى كأنّ حاله في إدخاله إيّاهم حال من يحمل شيئا ليضعه في موضع، وآية هذه السورة حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباء بما يفعله عند حدوث الطوفان، فأمره بأنّه حينئذ يدخل في السفينة من عين الله إدخالهم، مع ما في ذلك من التفنّن في حكاية القصة.

{ **اسْلُكْ** } أدخل، وفعل سلك يكون قاصرا بمعنى دخل ومتعدّيا بمعنى أدخل، ومنه قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ } [المدثر:41].

{ **وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** } تقدّم الكلام على مثله في سورة هود.

{ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [28] وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [29] }.

الاستواء: الاعتلاء. وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف:54].

وإطلاق الاستواء على الاستقرار في داخل السفينة مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق وإلّا فحقيقة الاستقرار في الفلك أنّه دخول. وأُتي بحرف الاستعلاء دون حرف الظرفية لأنّه الذي يتعدّى به معنى الاعتلاء إيذانا بالتمكّن من الفلك، فهو ترشيح للمجاز.

التنجية من القوم الظالمين: الإنجاء من أذاهم والكون فيهم، لأنّ في الكون بينهم مشاهدة كفرهم ومناكرهم وذلك مما يؤذي المؤمن.

الظلم: يجوز أن يراد به الشرك، كما قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، ويجاوز أن يراد به الاعتداء على الحقّ، لأنّ الكافرين كانوا يؤذون نوحا والمؤمنين بشتى الأذى باطلا وعدوانا.

وقد ألهمه الله بالوحي أن يحمد ربه على ما سهّل له من سبيل النجاة وأن يسأله نزولا في منزل مبارك عقب ذلك الترحّل، والدعاء لذلك يتضمن سؤال سلامة من غرق السفينة.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** } في موضع الحال. وفيها معنى تعليل سؤاله ذلك.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيات وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } [30]

لمّا ذكر هذه القصّة العظيمة أعقبها بالتنبيه إلى موضع العبرة منها للمسلمين فأتى بهذا الاستئناف.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى ما ذكر من قصة نوح مع قومه وما فيها.

الآيات: الدلالات، أي: لآيات كثيرة، منها ما هي دلائل على صدق رسالة نوح، وهي إجابة دعوته وتصديق رسالته وإهلاك مكذّبيه، ومنها آيات لأمثال قوم نوح من الأمم المكذّبين لرسلهم، ومنها آيات على عظيم قدرة الله تعالى في إحداث الطوفان وإنزال من في السفينة منزلا مباركا، ومنها آيات على علم الله تعالى وحكمته إذ قدّر لتطهير الأرض من الشرك مثل هذا الاستيصال العام لأهله.

{ **وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ** } عطف على الجملة السابقة، أي: إنّ في ذلك لبلوى، أي: وشأننا ابتلاء أوليائنا.

فإن الابتلاء من آثار الحكمة الإلهية لترتاض به نفوس أوليائه وتظهر مغالبتها للدواعي الشيطانية فتحمل عواقب البلوى، ولتتخبّط نفوس المعاندين وينزوي بعض شرّها زمانا.

والمعنى: أنّ ماتقدّم قبل الطوفان من بعد بعثة نوح من تكذيب قومه وآذاهم إيّاه والمؤمنين معه إنّما كان ابتلاء من الله لحكمته تعالى ليميز الله للنّاس الخبيث من الطيب، ولو شاء الله لآمن بنوح قومه.

الابتلاء: تقدّم في قوله { وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [البقرة:49] وقوله { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ } [البقرة:124].

وفيه تسلية للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من المشركين، وتعريض بتهديد المشركين بأنّ ما يواجهون به الرسول صلى الله عليه وسلم لا بقاء له وإنّما هو بلوى تزول عنه وتحل بهم.

{ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ [31] **فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ** [32] **}.**

ما يأتي من القصص يراد منه أنّ ما أصاب قوم نوح على تكذيبهم له لم يكن صدفة ولكنّه سنّة الله في المكذّبين لرسله، ولذلك لم يعيّن القرن ولا القرون بأسمائهم.

القرن: الأمّة. والأظهر أنّ المراد به هنا **ثمود** لأنّه الذي يناسبه قوله في آخر القصّة { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ }، لأنّ ثمود أُهلكوا بالصاعقة، ولقوله بعد { قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ }، مع قوله في سورة الحجر { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ } [الحجر:83] فكان هلاكهم في الصباح.

ولعلّ تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافا لما تكرّر في غير هذه الآية لأنّ العبرة بحالهم أظهر، لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137/138].

{ **فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً** } أي: جُعل الرسول منهم، أي من قبيلتهم. وعدي فعل أرسلنا بـ (في) دون (إلى) لإفادة ذلك.

{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ [33] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ [34] أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ [35] هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ [36] إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [37] إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ [38] }.

لم يعطف قول الملأ بـ (فاء) التعقيب، كما ورد في قصة نوح آنفا، لأنّ قولهم هذا كان متأخّرا عن وقت مقالة رسولهم التي هي فاتحة دعوته، بأن يكونوا أجابوا كلامه بالردّ والزجر فلمّا استمر على دعوتهم وكرّرها فيهم وجّهوا مقالتهم المحكيّة هنا إلى قومهم، ومن أجل هذا عُطفت جملة جوابهم ولم تأت على أسلوب الاستعمال في حكاية أقوال المحاورات.

وأيضا لأنّ كلام رسولهم لم يحك بصيغة قول بل حكي بـ (أن) التفسيرية لما تضمّنه معنى الإرسال في قوله { فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ }.

وقد حكى الله في آيات أخرى عن قوم هود وعن قوم صالح أنّهم أجابوا دعوة رسولهم بالردّ والزجر، كقول قوم هود { قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود:54/53] ، وقول قوم صالح { قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [هود:62].

{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } {الَّذِينَ كَفَرُوا} نعت ثان لـ { الْمَلَأُ } فيكون على وزان قوله في قصة نوح { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ }. وإنّما أخر النعت هنا ليتّصل به الصفتان المعطوفتان { وَكَذَّبُوا / وَأَتْرَفْنَاهُمْ }.

اللقاء: حضور أحد عند آخر. والمراد لقاء الله تعالى للحساب كقوله { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223] وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا } [الأنفال:45].

وإضافة لقاء إلى الآخرة على معنى (في)، أي: اللقاء في الآخرة.

الإتراف: جعلهم أصحاب ترف. والترف: النعمة الواسعة، قوله { وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } [الأنبياء:13].

وفي هذين الوصفين إيماء إلى أنّهما الباعث على تكذيبهم رسولَهم، لأنّ تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقّع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف، إذ ألفوا أن يكونوا سادة لا تبعا، قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11]، ولذلك لم يتقبّلوا ما دعاهم إليه رسولهم.

{ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } كناية عن تكذيبهم لتوهّمهم أنّ البشريّة تنافي أن يكون صاحبها رسولا من الله.

{ **يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ** } في موقع التعليل والدليل للبشرية، لأنّه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم ولا يمتاز فيما يأكله وما يشربه.

{ **وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ** } اللام موطّئة للقسم، فجملة { إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ} جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم. وأقحم حرف الجزاء في جواب القسم لما في جواب القسم من مشابهة الجزاء لاسيما متى اقترن القسم بحرف شرط.

{ **أَيَعِدُكُمْ** } الاستفهام للتعجّب، وهو انتقال من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في المرسَل به.

{ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً** } مفعول { يَعِدُكُمُ }. أي: يعدكم إخراجكم من القبور بعد موتكم.

{ **أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ** } يجوز أن يكون إعادة لكلمة { أَنَّكُمْ } الأولى اقتضى إعادتها بُعد ما بينها وبين خبرها. وتفيد إعادتها تأكيدا لاستبعاد المستفهَم عنه. وهذا تأويل الجَرمي والمبرّد.

وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنّهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابا وعظاما المنافي لإقامة الهيكل الإنساني بعد ذلك.

{ **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** } بيان لجملة { أَيَعِدُكُمُ } فلذلك فصلت ولم تعطف.

{ **هَيْهَاتَ** } كلمة مبنيّة على فتح الآخر وعلى كسره أيضا. وقرأها الجمهور بالفتح، وقرأها أبو جعفر بالكسر. وتدلّ على البعد. وأكثر ما تستعمل مكرّرة مرتين كما في هذه الآية أو ثلاثا.

{ **تُوعَدُونَ** } من **أوعد** وجاء قبله فعل { أَيَعِدُكُمْ } وهو من **وعد** مع أنّ الموعود به شيء واحد، لأنّه عبّر مرّة بالوعد ومرّة بالوعيد على وجه الاحتباك، فإنّ إعلامهم بالبعث مشتمل على وعد بالخير إن صدّقوا، وعلى وعيد إن كذّبوا، فذكر الفعلان على التوزيع إيجازا.

{ **إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا** } يجوز أن يكون بيانا للاستبعاد الذي في قوله { هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ } واستدلالا وتعليلا له، ولكلا الوجهين كانت الجملة مفصولة عن التي قبلها.

{ **هِيَ** } عائد على مذكور بعده قصدا للإبهام ثم التفصيل ليتمكّن المعنى في ذهن السامع. وهذا من مواضع عود الضمير على ما بعده إذا كان ما بعده بيانا له، ولذلك يجعل الاسم الذي بعد الضمير عطف بيان.

{ **إِلَّا حَيَاتُنَا** } مبيّن الضمير فيكون الاسم الذي بعد (إلّا) عطف بيان من الضمير. والتقدير: إن حياتنا إلّا حياتنا الدنيا. وليس هذا الضمير ضمير القصة والشأن لعدم صلاحية المقام له.

الدنيا: مؤنث الأدنى، أي: القريبة، بمعنى الحاضرة.

{ **نَمُوتُ وَنَحْيَا** } معناه: يموت هؤلاء القوم ويحيا قوم بعدهم. أي: يموت من يموت ويولد من يولد، أو المراد: يموت من يموت فلا يرجع ويحيا من لم يمت إلى أن يموت.

{ **وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** } انكار صريح للبعث.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** } نتيجة عقب الاستدلال، فجاءت مستأنفة لأنّها مستقلة على ما تقدّمها فهي تصريح بما كُنّي عنه آنفا في قوله { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } وما بعده من تكذيب دعوته.

الافتراء: الاختلاق. وهو الكذب الذي لا شبهة فيه للمخبر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ** } وإنّما صرحوا بأنهم لا يؤمنون به، مع دلالة نسبته إلى الكذب على أنّهم لا يؤمنون به، إعلانا بالتبرّي من أن ينخدعوا لما دعاهم إليه، وهو مقتضى حال خطاب العامة.

{ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ [39] قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ [40] }.

استئناف بياني لشأن الرسول حيال صدّهم وتكذيبهم. فقد توجّه إلى الله الذي أرسله بالدعاء بأن ينصره عليهم. وتقدّم القول في نظيره آنفا في قصّة نوح.

وجاء جواب دعاء هذا الرسول غير معطوف لأنّه جرى على أسلوب حكاية المحاورات الذي بيّنّاه في مواضع منها قوله { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } [البقرة:30].

{ **عَمَّا قَلِيلٍ** } أفاد عن المجاوزة، أي: بعد نحو قليل.

الإصباح: هنا مراد به زمن الصباح لا معنى الصيرورة بدليل قوله في سورة الحجر { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ } [الحجر:83].

{ **نَادِمِينَ** } وندمهم يكون عند رؤية مبدأ الاستئصال ولا ينفعهم ندمهم بعد حلول العذاب.

{ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [41]

تقتضي الفاء تعجيل إجابة دعوة رسولهم. والأخذ مستعار للإهلاك.

الصيحة: صوت الصاعقة، وهذا يُرجّح أو يُعيّن أن يكون هؤلاء القرن هم ثمود قال تعالى { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ } [الحاقة:5] وقال في شأنهم في سورة الحجر { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ } [الحجر:83].

وإسناد الأخذ إلى الصيحة مجاز عقلي لأنّ الصيحة سبب الأخذ أو مقارنة سببه، فإنّها تحصل من تمزق كرة الهواء عند نزول الصاعقة.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: أخذتهم أخذا ملابسا للحقّ، أي: لا اعتداء فيه عليهم لأنّهم استحقّوه بظلمهم.

الغثاء: ما يحمله السيل من الأعواد اليابسة والورق. والكلام على التشبيه البليغ للهيئة، فهو تشبيه حالة بحالة،

أي: جعلناهم كالغثاء في البلى والتكدّس في موضع واحد، فهلكوا هلكة واحدة.
{ فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } فُرِّع على حكاية تكذيبهم دعاء عليهم وعلى أمثالهم دعاء شتم وتحقير بأن يَبْعَدوا تحقيرا لهم وكراهية، وليس مستعملا في حقيقة الدعاء، لأنّ هؤلاء بعدوا بالهلاك.
الظالمين: الكافرون. والتعريف للاستغراق فشملهم، ولذلك تكون الجملة بمنزلة التذييل.

{ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِين [42] مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ [43] }.

القرون: الأمم، وهذا كقوله تعالى { وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً } [الفرقان:38].
وهي الأمم الذين لم ترسل إليهم رسل وبقوا على إتباع شريعة نوح أو شريعة هود أو شريعة صالح، أو لم يؤمروا بشرع، لأنّ الاقتصار على ذكر الأمم هنا دون ذكر الرسل ثمّ ذكر الرسل عقب هذا يومئ إلى أنّ هذه إمّا أمّم لم تأتهم رسل لحكمة اقتضت تركهم على ذلك لأنّهم لم يتأهّلوا لقبول شرائع، أو لأنّهم كانوا على شرائع سابقة.
{ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } جواب بالإجمال عن سؤال حول مدّة تعمير تلك الأمم ووقت انقراضهم، لأنّ لكلّ قرن منهم أجلا عيّنه الله يبقى إلى مثله ثم ينقرض ويخلفه قرن آخر يأتي بعده، أو يعمر بعده قرن كان معاصرا له، وأنّ ما عُيّن لكلّ قرن لا يتقدّمه ولا يتأخر عنه كقوله تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].
السبق: تجاوز السائر وتركه مُسائرَه خلفه، وعكسه التأخّر. والمعنى واضح. والسين والتاء للتأكيد.

{ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ }[44]

الرسل الذين جاءوا من بعد، أي: من بعد هذه القرون منهم: إبراهيم ولوط ويوسف وشعيب، ومن أرسل قبل موسى، ورسل لم يقصصهم الله على رسوله. والمقصود بيان اطّراد سنّة الله تعالى في استئصال المكذّبين رسله المعاندين في آياته، كما دل عليه قوله { فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً }.
{ تَتْرَا } قرأه الجمهور بألف في آخره دون تنوين فهو مصدر على وزن فَعْلى مثل دعوى وسلوى. وأصله **وترى** (بواو في أوّله) مشتقّا من الوتر وهو الفرد. أي: فردا فردا، أي فردا بعد فرد فهو نظير مَثنى. ولا يقال تترى إلّا إذا كان بين الأشياء تعاقب مع فترات وتقطّع. ومنه التواتر وهو تتابع الأشياء وبينها فجوات.

وأمّا التعاقب بدون فترة فهو التدارك. يقال: جاءوا متداركين، أي متتابعين.
وفي حديث ابن عباس عند مسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"عُرضت عليّ الأمم فرأيت النبيّ ومعه الرهط والنبيّ ومعه الرجل والرجلان والنبيّ وليس معه أحد..."**.
{ **فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً** } إلحاقهم بهم في الهلاك بقرينة المقام وبقرينة قوله اللاحق.
{ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** }، أي: صيّرناهم أحدوثات يتحدّث الناس بما أصابهم. وإنّما يتحدّث الناس بالشيء الغريب النادر مثله. والأحاديث هنا جمع أحدوثة. وهو كناية عن إبادتهم.
{ **فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ** } مثل الكلام على { فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }، إلّا أنّ الدعاء نيط هنا بوصف أنّهم لا يؤمنون ليحصل من مجموع الدعوتين التنبيه على مذمّة الكفر وعلى مذمّة عدم الإيمان بالرسل تعريضا بمشركي قريش، على أنّه يشمل كلّ قوم لا يؤمنون برسل الله، لأنّ النكرة في سياق الدعاء تعمّ.

{ **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ** [45] **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ** [46] **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** [47] **فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ** [48] }.

الآيات: المعجزات، وإضافتها إلى ضمير الجلالة للتنويه بها وتعظيمها.
السلطان المبين: الحجّة الواضحة التي لقّنها الله موسى فانتهضت على فرعون وملئه. والباء للملابسة.
ملأ فرعون: أهل مجلسه وعلماء دينه وهم السحرة. وإنّما جعل الإرسال إليهم دون بقية أمّة القبط لأنّ دعوة موسى وأخيه إنّما كانت خطابا لفرعون وأهل دولته الذين بيدهم تصريف أمور الأمة لتحرير بني إسرائيل من استعبادهم، قال تعالى { فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ } [طه:47]. ولم يرسلا بشريعة إلى القبط. وأمّا الدعوة إلى التوحيد فمقدّمة لإثبات الرسالة لهم.
{ **فَاسْتَكْبَرُوا** } العطف بفاء التعقيب يفيد أنّهم لم يتأمّلوا الدعوة والآيات والحجّة ولكنّهم أفرطوا في الكبرياء. والسين والتاء للتوكيد، أي تكبّروا كبرياء شديدة بحيث لم يعيروا آيات موسى وحجّته أذنا صاغية.
{ **وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ** } معترضة بين فعل (استكبروا) وما تفرّع عليه من قوله { فَقَالُوا } في موضع الحال من فرعون وملئه، أي: فاستكبروا بأن أعرضوا عن استجابة دعوة موسى وهارون وشأنهم الكبرياء والعلو، أي: كان الكبر خلقهم وسجيتهم. لأنّ إجراء وصف على لفظ (قوم) أو الإخبار بلفظ (قوم) متبوع باسم فاعل إنّما يقصد منه تمكّن ذلك الوصف من الموصوف بلفظ قوم أو تمكّنه من أولئك القوم. فالمعنى هنا: أنّ استكبارهم على تلقي دعوة موسى وآياته وحجّته إنّما نشأ عن سجيّتهم من الكبر وتطبّعهم.

{ **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** } متفرّع على قوله { فَاسْتَكْبَرُوا } ، أي: استكبر فرعون وملؤه عن اتباع موسى وهارون، فأفصحوا عن سبب استكبارهم عن ذلك { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ }.

وهذا ليس من قول فرعون ولكنّه قول بعض الملإ لبعض، ولمّا كانوا قد تراضوا عليه نُسب إليهم جميعا.

وأمّا فرعون فكان مصغيا لرأيهم ومشورتهم وكان له قول آخر حكي في قوله تعالى { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص:38].

{ **أَنُؤْمِنُ** } استفهام إنكاري، أي: ما كان لنا أن نؤمن بهما وهما مثلنا في البشرية. وهذه الشبهة هي سبب ضلالة أكثر الأمم الذين أنكروا رسلهم.

{ **لِبَشَرَيْنِ** } اللام لتعدية فعل { نُؤْمِنُ } . يقال للذي يصدّق المخبر فيما أخبر به: آمن له. وأصل هذه اللام لام العلة والأجل. ومنه قوله تعالى { فآمن له لوط } [العنكبوت:26].

وأمّا تعدية فعل الإيمان بالباء فإنّها إذا علق به ما يدل على الخبر تقول: آمنت بأن الله واحد. وبهذا ظهر الفرق بين قولك: آمنت بمحمد، وقولك: آمنت لمحمد. فمعنى الأول: أنك صدقت شيئا، والمعنى الثاني يتعلق بذاته. ولذلك لا يقال: آمنت لله وإنما يقال: آمن بالله.

{ **وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** }، أي: وهم من قوم هم عباد لنا، وأحطّ منّا.

{ **عَابِدُونَ** } جمع عابد، أي مطيع خاضع. وقد كانت بنو إسرائيل خَوَلًا للقبط وخدما لهم، قال تعالى { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ } [الشعراء:22].

{ **فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ** } أي: أرسي أمرهم على أن كذّبوهما، ثم فُرّع على تكذيبهم أن كانوا من المهلكين، إذ أهلكهم الله بالغرق، أي فانتظموا في سلك الأقوام الذين أهلكوا. وهذا أبلغ من أن يقال: فأُهلكوا. وفي هذا تعريض بتهديد قريش على تكذيبهم رسولهم صلى الله عليه وسلم لأنّ في قوله { مِنَ الْمُهْلَكِينَ } إيماء إلى أنّ الإهلاك سنة الله في الذين يكذّبون رسله.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }[49]

وقع الإعراض عن هارون لأنّ رسالته قد انتهت لاقتصاره على تبليغ الدعوة لفرعون وملئه إذ كانت مقام محاجّة واستدلال فسأل موسى ربّه إشراك أخيه هارون في تبليغها لأنّه أفصح منه لسانا في بيان الحجّة.

{ **الْكِتَابَ** } التعريف للعهد. وهو التوراة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } الضمير ظاهر العود إلى غير مذكور في الكلام بل إلى معلوم من المقام وهم القوم المخاطبون بالتوراة، وهم بنو إسرائيل، فانتساق الضمائر ظاهر في المقام دون حاجة إلى تأويل.

لعلّهم: للرجاء، لأنّ ذلك الكتاب من شأنه أن يُترقب من إيتائه اهتداء الناس به.

{ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } [50]

لما كانت آية عيسى العظمى في كيفية تكوينه كان الاهتمام بذكرها هنا، ولم تذكر رسالته، لأنّ معجزة تخليقه دالة على صدق رسالته.

{ **وَأُمَّهُ** } إدماج لتسفيه اليهود فيما رموا به مريم عليها السلام، فإنّ ما جعله الله آية لها ولابنها جعلوه مطعنا ومغمزا فيهما.

{ **آيَةً** } التنكير للتعظيم، لأنّها آية تحتوي على آيات.

{ **وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** } تنويه بهما إذ جعلهما الله محلّ عنايته ومظهر قدرته ولطفه.

الإيواء: جعل الغير آويا، أي ساكنا. وتقدّم عند قوله { أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [هود:80].

الرُبوة: المرتفع من الأرض. ويجوز الحركات الثلاث. وتقدّم في قوله { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ } [البقرة:265].

والمراد بهذا الإيواء وحي الله لمريم أن تنفرد بربوة حين اقترب مخاضها لتلد عيسى في منعزل من الناس حفظا لعيسى من أذاهم.

القرار: المكث في المكان، أي: هي صالحة لأن تكون قرارا، فأضيفت الربوة إلى المعنى الحاصل فيها لأدنى ملابسة، وذلك بما اشتملت عليه من النخيل المثمر، فتكون في ظلّه ولا تحتاج إلى طلب قوتها.

المعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وهو وصف جرى على موصوف محذوف، أي: ماء معين. وهذا في معنى قوله { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً } [مريم:24-26].

{ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }[51]

استئناف ابتدائي، أي: قلنا: يا أيها الرسل كلوا. والمحكي هنا حكي بالمعنى لأنّ الخطاب المذكور هنا لم يكن موجها للرسل في وقت واحد. وذلك على طريقة التوزيع لمدلول الكلام وهي شائعة في خطاب الجماعات.

والغرض من هذا بيان كرامة الرّسل عند الله ونزاهتهم في أمورهم الجسمانية والروحانية، فالأكل من الطيبات نزاهة جسمية والعمل الصالح نزاهة نفسانية.

والمناسبة لهذا الاستئناف هي قوله { وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } وليحصل من ذلك الردّ على اعتقاد الأقوام المعلّلين تكذيبهم رسلهم بعلّة أنّهم يأكلون الطعام، كما حكى سبحانه عنهم { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ } [الفرقان:7]، وليبطل بذلك ما ابتدعه النصارى من الرهبانية.

{ **كُلُوا** } الأمر للإباحة، وإن كان الأكل أمرا جبلِّيًّا للبشر إلّا أنّ المراد به هنا لازمه وهو إعلام المكذّبين بأنّ

الأكل لا ينافي الرسالة، وأنّ الذي أرسل الرّسل أباح لهم الأكل.

{ **مِنَ الطيِّبَاتِ** } زيادة في الردّ على المكذّبين بأنّ الرسل إنما يجتنبون الخبائث ولا يجتنبون ما أحل الله لهم من الطيبات. والطيبات: ما ليس بحرام ولا مكروه.

{ **وَاعْمَلُوا صَالِحاً** } إيماء إلى أنّ همّة الرّسل إنّما تنصرف إلى الأعمال الصالحة.

{ **إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** } تحريض على الاستزادة من الأعمال الصالحة، لأنّ القول يتضمّن الوعد بالجزاء عنها وأنّه لا يضيع منه شيء.

{ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } [52]

يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ }، فيكون هذا مما قيل للرسل.

ويجوز أن تكون عطفا على قصص الإرسال المبدوءة من قوله { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } لأنّ تلك القصص إنّما قُصّت عليهم ليهتدوا بها إلى أنّ شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو الدعوة إلى توحيد الله بالإلهية. وعلى هذا الوجه يكون سياقها كسياق آية سورة الأنبياء { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [الأنبياء:92].

وتأكيد الكلام بحرف إن على القراءات كلّها للرد على المشركين من أمم الرسل أو المشركين المخاطبين بالقرآن.

{ هَذِهِ } اسم الإشارة مراد به شريعة كل من الأنبياء أو شريعة الإسلام على الوجهين في المخاطب.

وتقدّم تفسير نظيرها في سورة الأنبياء، إلّا أنّ الواقع هنا { فَاتَّقُونِ } وهناك { فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء:25] فيجوز أن الله أمرهم بالعبادة وبالتقوى ولكن حكى في كلّ سورة أمرا من الأمرين، ويجوز أن يكون الأمران وقعا في خطاب واحد، فاقتصر على بعضه في سورة الأنبياء وذكر معظمه في سورة المؤمنين بحسب ما اقتضاه مقام الحكاية في كلتا السورتين.

وأيّا ما كان من الاحتمالين فوجه ذلك أنّ آية سورة الأنبياء لم تذكر فيها رسالات الرسل إلى أقوامهم بالتوحيد عدا رسالة إبراهيم في قوله { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ } [الأنبياء:51] ثم جاء ذكر غيره من الرسل والأنبياء مع الثناء عليهم وطال البُعد بين ذلك وبين قصة إبراهيم فكان الأمر بعبادة الله تعالى أولى هنالك، لأنّ المقصود من ذلك الأمر أن يبلغ إلى أقوامهم، فكان ذكر الأمر بالعبادة أولى بالمقام في تلك السورة لأنّه الذي حظ الأمم منه أكثر.

وأمّا آية هذه السورة فقد جاءت بعد ذكر ما أرسل به الرسل إلى أقوامهم من التوحيد وإبطال الشرك فكان حظ الرسل من ذلك أكثر كما يقتضيه افتتاح الخطاب بـ { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ } فكان ذكر الأمر بالتقوى هنا أنسب بالمقام، لأنّ التقوى لا حدّ لها، فالرسل مأمورون بها وبالازدياد منها كما قال تعالى في حقّ نبيّه { يَا أَيُّهَا

الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } [المزمل:1-4]، ثم قال في حقّ الأمّة { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } [المزمل:20].

فالإشارة بقوله { هَذِهِ } إلى أمر مستحضر في الذهن بيّنه الخبر والحال، ولذلك أنّث اسم الإشارة، أي هذه الشريعة التي أوحينا إليك هي شريعتك. ومعنى هذه الإخبار أنك تلتزمها ولا تنقص منها ولا تغيّر منها شيئا، ولأجل هذا المراد جعل الخبر ما حقّه أن يكون بيانا لاسم الإشارة لأنّه لم يقصد به بيان اسم الإشارة بل قصد به الإخبار عن اسم الإشارة لإفادة الاتحاد بين مدلولي اسم الإشارة وخبره فيفيد أنّه هو هو لا يغيّر عن حاله.

وبهذا يعلم بأنّه ليس المقصود من الإخبار عن اسم الإشارة حقيقته بل الخبر مستعمل مجازا في معنى التحريض والملازمة، وهو يشبه لازم الفائدة.

{ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [53]

جيء بفاء التعقيب لإفادة أنّ الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم أن تقطّعوا أمرهم بينهم فاتخذوا آلهة كثيرة فصار لكلّ فريق صنم وعبادة خاصة به.

فالكلام مسوق مساق الذم. ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي فتفرّع على ما أمرناهم به من التوحيد أنّهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذمّ تعجيبا من حالهم. وممّا يزيد معنى الذم تذييله بقوله { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }، أي: وهم ليسوا بحال من يفرح.

التقطّع: أصله مطاوع قطع. واستعمل فعلا متعديا بمعنى قطع بقصد إفادة الشدّة في حصول الفعل. فالمعنى: تفرّقوا على نحل كثيرة، فجعل كل فريق منهم لنفسه دينا. وضمير الجمع عائد إلى أمم الرسل.

{ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ } وقد بسطنا القول في معناها في [الأنبياء:93].

الأمر: هنا بمعنى الشأن والحال، وما صدقه أمور دينهم.

الزُبُر: (بضم الزاي وضم الموحدة) كما قرأ به الجمهور، جمع **زبور** وهو الكتاب. استعير اسم الكتاب للدين لأنّ شأن الدين أن يكون لأهله كتاب، فيظهر أنّها استعارة تهكمية إذ لم يكن لكلّ فريق كتاب ولكنّهم اتخذوا لأنفسهم أديانا وعقائد لو سجلت لكانت زبرا.

وقرأه أبو عمرو بخلاف عنه { زُبَرا } (بضم الزاء وفتح الموحدة) وهو جمع زُبرة بمعنى قطعة.

{ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } تذييل لما قبله، لأنّ التقطّع يقتضي التحزّب فذيّل بأنّ كل فريق منهم فرح بدينه.

الفرح: شدّة المسرّة، أي: راضون جذلون بأنّهم اتخذوا طريقتهم في الدين. والمعنى: أنهم فرحون بدينهم عن

غير دليل ولا تبصر بل لمجرد العكوف على المعتاد.
الحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه.

{ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } [54]

انتقال بالكلام إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم. وضمير الجمع عائد إلى معروف من السياق وهم مشركو قريش، فإنّهم من جملة الأحزاب الذين تقطّعوا أمرهم بينهم زبرا، أو هم عينهم، فمنهم من اتخذ إلهه العزى، ومنهم من اتخذ مناة، ومنهم من اتخذ ذا الخَلَصة إلى غير ذلك.
والكلام ظاهره المتاركة، والمقصود منه الإملاء لهم وإنذارهم بما يستقبلهم من سوء العاقبة في وقت ما.
ولذلك نُكِّر لفظ { حِينٍ } المجعول غاية لاستدراجهم، أي: زمن مبهم، كقوله تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } [الأعراف:187]
الغمرة: حقيقتها الماء الذي يغمر قامة الإنسان بحيث يغرقه. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ} [الأنعام:92].
وإضافتها إلى ضميرهم باعتبار ملازمتها إياهم حتى قد عرفت بهم، وذلك تمثيل لحال اشتغالهم بما هم فيه من الازدهار وترف العيش عن التدبر فيما يدعوهم إليه الرسول لينجيهم من العقاب بحال قوم غمرهم الماء فأوشكوا على الغرق وهم يحسبون أنهم يسبحون.

{ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ [55] نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ [56] }.

الأشبه أن تكون بدل اشتمال من جملة { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } باعتبار أنّ جملة { فَذَرْهُمْ } تشتمل على معنى عدم الاكتراث بما هم فيه من الأحوال التي ألهتهم عن النظر في دعوة الإسلام، وغرّتهم بأنّهم بمحل الكرامة على الله بما خولهم من العزّة والترف، وما تشتمل عليه من التوعّد بأنّ ذلك له نهاية ينتهون إليها، وأنّ الله أعطاهم ما هم فيه زمن النعمة استدراجا لهم. وهذا كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].
{ **أَيَحْسَبُونَ** } استفهام إنكاري وتوبيخي على هذا الحسبان، سواء كان هذا الحسبان حاصلا لجميع المشركين أم لبعضهم، لأنّ حالهم حال من هو مظنّة هذا الحسبان فينكر عليه لإزالته من نفسه أو لدفع حصوله فيها.
{ **أنَّمَا** } هنا كلمتان (أن) المؤكدة و(ما) الموصوله وكتبتا في المصحف متّصلتين كما تكتب (إنّما) المكسورة

التي هي أداة حصر، لأنّ الرسم القديم لم يكن منضبطا كلّ الضبط وحقّها أن تكتب مفصولة.
الإمداد: إعطاه المدد، وهو العطاء.
{ **مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ** } بيان لـ (ما) الموصولة.
المسارعة: التعجيل، وهي هنا مستعارة لتوخّي المرغوب والحرص على تحصيله. ومتعلَّقه محذوف تقديره: نسارع لهم به، أي: بما نمدّهم به من مال وبنين.
{ **فِي الْخَيْرَاتِ** } ظرفية مجازية. جُعلت { الخَيْرَاتِ } بمنزلة الطريق يقع فيه المسارعة بالمشي فتكون (في) قرينة مكنية. وقد تقدّم ذلك عند قوله { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } [الأنبياء:90]. وقوله { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ } [المائدة:52].
الخيرات: جمع خير بالألف والتاء، وهو من الجموع النادرة. وقد تقدّم عند قوله { وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ } [براءة:88].
{ **بَلْ لا يَشْعُرُونَ** } إضراب عن المظنون لا على الظنّ كما هو ظاهر بالقرينة، أي: لسنا نسارع لهم بالخيرات كما ظنّوا، بل لا يشعرون بحكمة ذلك الإمداد، وأنّها لاستدراجهم وفضحهم بإقامة الحجّة عليهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ [57] وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ [58] وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ [59] وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ [60] أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ [61] }.

هذا الكلام مقابل ما تضمّنته (الغمرة) من قوله { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } من الإعراض عن عبادة الله وعن التصديق بآياته، ومن إشراكهم آلهة مع الله، ومن شحّهم عن الضعفاء وإنفاق مالهم في اللذات، ومن تكذيبهم بالبعث. كلّ ذلك مما شملته الغمرة فجيء في مقابلها بذكر أحوال المؤمنين ثناء عليهم.
واختير أن يكون التفصيل بذكر المقابل لحسن تلك الصفات وقبح أضدادها، فحصل بهذا إيجاز بديع، وطباق من ألطف البديع، وصون للفصاحة من كراهة الوصف الشنيع.
{ **إِنَّ الَّذِينَ ... وَالَّذِينَ ... وَالَّذِينَ ... وَالَّذِينَ** } افتتاح الجملة بـ (إنّ) للاهتمام بالخبر، والإتيان بالموصولات للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنّهم يسارعون في الخيرات ويسابقون إليها، وتكرير أسماء الموصولات للاهتمام بكلّ صلة من صلاتها، فلا تذكر تبعا بالعطف.
الإشفاق: توقّع المكروه، وتقدم عند قوله تعالى { وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء:28]. وقد حذف المتوقّع

منه لظهور أنّه هو الذي كان الإشفاق بسبب خشيته، أي: أنّهم لخشية ربّهم يخافون عقابه.
{ **بِآياتِ رَبِّهِمْ** } الدلائل التي تضمّنها القرآن، ومنها إعجاز القرآن.
وتقديم المجرورات الثلاثة على عواملها للرعاية على الفواصل مع الاهتمام بمضمونها.
{ **يُؤْتُونَ مَا آتَوْا** } يعطون الأموال صدقات وصلات ونفقات في سبيل الله. قال تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى } [البقرة:177]. واستعمل الإيتاء في إعطاء المال شائع في القرآن، متعيّن أنّه المراد هنا. وإنما عبّر بـ { مَا آتَوْا } ليعمّ كلّ أصناف العطاء المطلوب شرعا، وليعمّ القليل والكثير.
{ **وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** } في موضع الحال، وحق الحال إذا جاءت بعد جمل متعاطفة أن تعود إلى جميع الجمل التي قبلها، أي: يفعلون ما ذُكر من الأعمال الصالحة بقلوبهم وجوارحهم وهم مضمرون وجلا وخوفا من ربّهم أن يرجعوا إليه فلا يجدونه راضيا عنهم، فهم لذلك يسارعون في الخيرات ويكثرون منها ما استطاعوا، وكذلك كان شأن المسلمين الأولين. وفي الحديث أنّ أهل الصفَّة قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلّون كما نصلّي ويصومون كما نصوم ويتصدّقون بفضول أموالهم. قال: " **أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به، إن لكلم بكلّ تسبيحة صدقة وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة** ".
وقال أبو مسعود الأنصاري: " لما أُمرنا بالصدقة كنّا نحامل فيصيب أحدنا المُدّ فيتصدَّق به ".
{ **أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** } الجملة خبر { إِنَّ }، وافتتحها باسم الإشارة لزيادة تمييزهم للسامعين، لأنّ مثلهم أحرياء بأن يُعرفوا.
{ **يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** } تقدّم الكلام على معناها آنفا.
{ **وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** } أنّهم يتنافسون في الإكثار من أعمال الخير، فالسبق تمثيل للتنافس والتفاوت في الإكثار من الخيرات بحال السابق إلى الغاية. أو المعنى: وهم محرزون لما حرصوا عليهم، فالسبق مجاز لإحراز المطلوب، لأنّ الإحراز من لوازم السبق.

{ **وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } [62]

تذييل لما تقدّم من أحوال الذين من خشية ربهم مشفقون، لأنّه لمّا ذكر ما اقتضى مخالفة المشركين لما أمروا به من توحيد الدين، وذكر بعده ما دلّ على تقوى المؤمنين بالخشية وصحّة الإيمان والبذل ومسارعتهم في الخيرات، ذيّل ذلك بأنّ الله ما طلب من الذين تقطّعوا أمرهم إلّا تكليفا لا يشقّ عليهم، وبأنّ الله عذر من المؤمنين من لم يبلغوا مبلغ من يفوتهم في الأعمال عذرا يقتضي اعتبار أجرهم على ما فاتهم إذ بذلوا غاية

وسعهم. قال تعالى { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } [التوبة:91].

{ وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } خبر مراد منه لازمه وهو تسجيل التقصير على الذين تقطّعوا أمرهم بينهم. وقطع معذرتهم، وتيسير الاعتذار على الذين هم من خشية ربهم مشفقون كقوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ }، مع ما في ذلك من جبر الخواطر المنكسرة من أهل الإيمان الذين لم يلحقوا غيرهم لعجز أو خصاصة.

{ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ } لمراعاة المعنى السابق، والمراد الإحاطة بأحوالهم ونواياهم.

{ لَدَيْنَا } دلالة على أنّ ذلك محفوظ لا يستطيع أحد تغييره بزيادة ولا نقصان.

الكتاب: هنا هو الأمر الذي فيه تسجيل الأعمال من حسنات وسيئات، وإطلاق الكتاب عليه لإحاطته.

النطق: مستعار للدلالة، ويجوز أن يكون نطق الكتاب حقيقة بأن تكون الحروف المكتوبة فيه ذات أصوات.

{ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } فالمناسب أن يكون مسوقا لمؤاخذة المفرّطين والمعرضين، فيكون الضمير عائدا إلى ما عاد إليه ضمير { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ } وأشباهه من الضمائر، والاعتماد على قرينة السياق، وقوله { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا} وما بعده من الضمائر. والظلم على هذا الوجه محمول على ظاهره.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى عموم الأنفس في قوله { وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } فيكون قوله { وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } من بقية التذييل، والظلم على هذا الوجه مستعمل في النقص من الحقّ، كقوله تعالى { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً } [الكهف:33]، فيكون وعيدا لفريق ووعدا لفريق. وهذا أليق الوجهين بالإعجاز.

{ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ }[63]

إضراب انتقال إلى ما هو أغرب ممّا سبق وهو وصف غمرة أخرى انغمس فيها المشركون فهم في غمرة غمرت قلوبهم وأبعدتها عن أن تتخلّق بخلق الذين هم من خشية ربهم مشفقون، كيف وأعمالهم إلى الضدّ من أعمال المؤمنين، تناسب كفرهم، فكلٌّ يعمل على شاكلته.

{ مِنْ هَذَا } حرف (من) يوهم البدلية، أي: في غمرة تباعدهم عن هذا. والإشارة بـ { هَذَا } إلى ما ذكر آنفا من صفات المؤمنين في قوله { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ - إلى قوله - وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }.

{ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ } يبين هذا، أي وأعمالهم التي يعملونها غير ذلك. والـ (لام) للاختصاص. أي: لهم أعمال لا يعملون غيرها من أعمال الإيمان والخيرات.

{ دُونِ } تدل على المخالفة لأحوال المؤمنين، أي ليسوا أهلا للتحلّي بمثل تلك المكارم.

{ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } للدلالة على أنّهم مستمرّون عليها لا يقلعون عنها. وجيء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام.

{ **حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ [64] لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ [65] قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ [66] مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ [67]** }.

{ **حَتَّى** } ابتدائية، يكون ما بعدها ابتداء كلام، فليس الدال على الغاية لفظا مفردا كما هو الشأن مع (حتّى) الجارة و(حتّى) العاطفة، بل هي غاية يدلّ عليها المقام، والأكثر أن تكون في معنى التفريع.

وبهذه الغاية صار الكلام تهديدا لهم بعذاب سيحلّ بهم يجأرون منه ولا ملجأ لهم منه. والظاهر أنّه عذاب في الدنيا بقرينة قوله { وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [75].

{ **حَتَّى إِذَا ... إِذَا هُمْ** } الأولى ظرفية فيها معنى الشرط، فلذلك كان الأصل والغالب فيها أن تدلّ على ظرف مستقبل. والثانية فجائية داخلة على جواب شرط (إذا).

المترفون: المنعَّمون، كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11]. فالمترفون منهم هم سادتهم وأكابرهم. والضمير المضاف إليه عائد إلى جميع المشركين أصحاب الغمرة.

وإنّما جعل الأخذ واقعا على المترفين منهم لأنّهم الذين أضلّوا عامة قومهم ولولا نفوذ كلمتهم على قومهم لاتبعت الدهماء الحقّ، لأنّ العامة أقرب إلى الإنصاف إذا فهموا الحقّ.

وتخصيص المترفين بالتعذيب مع أنّ شأن العذاب الإلهي إن كان دنيويا أن يعمّ الناس كلّهم إيماء إلى أنّ المترفين هم سبب نزول العذاب بالعامة، ولأنّ المترفين هم أشدّ إحساسا بالعذاب لأنّهم لم يعتادوا مسّ الضرّاء والآلام.

ويجوز أن يكون المراد بالمترفين جميع المشركين فتكون الإضافة بيانية ويكون ذكر المترفين تهويلا في التهديد تذكيرا لهم بأنّ العذاب يزيل عنهم ترفهم، فقد كان أهل مكّة في ترف ودعة إذ كانوا سالمين من غارات الأقوام لأنّهم أهل الحرم الآمن وكانوا تجبى إليهم ثمرات كلّ شيء وكانوا مكرَّمين لدى جميع القبائل. وكانت أرزاقهم تأتيهم من كل مكان، قال تعالى { الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش:4].

فيكون المعنى: حتّى إذا أخذناهم وهم في ترفهم.

{ **يَجْأَرُونَ** } يصرخون، ومصدره الجأر. والاسم الجُؤار (بضم الجيم) وهو كناية عن شدّة ألم العذاب، بحيث لا يستطيعون صبرا عليه فيصدر منهم صراخ التأوّه والويل والثبور.

{ **لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ** } مقول قول محذوف، أي: يقال لهم: لا تجأروا اليوم. وهذا تأييس لهم من النجاة من العذاب الذي هُدّدوا به. وإذا كان العذاب الآخرة فالقول لفظي والمقصود منه قطع طماعيّتهم في النجاة.

والنهي عن الجؤار مستعمل في معنى التسوية.

{ **إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ** } تعليل للنهي المستعمل في التسوية، أي: لا تجأروا إذ لا جدوى لجؤاركم إذ لا يقدر مجير أن يجيركم من عذابنا، فموقع (إن) إفادة التعليل لأنّها تغني غناء (فاء) التفريع.

وضُمِّن { تُنْصَرُونَ } معنى النجاة فعدّي الفعل بـ (من)، أي: لا تنجون من عذابنا.

{ **قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ** } استئناف. والخبر مستعمل في التنديم والتلهيف.

{ **آيَاتِي** } هي آيات القرآن بقرينة تتلى، إذ التلاوة القراءة.

{ **فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ** } وذكر فعل { كُنْتُمْ } للدلالة على أنّ ذلك شأنهم. وذكر المضارع للدلالة على التكرّر فذلك خلق منهم معاد مكرور.

النكوص: الرجوع من حيث أتى، وهو الفرار.

الأعقاب: مؤخّر الأرجل.

والنكوص هنا تمثيل للإعراض وذكر الأعقاب ترشيح للتمثيل. وقد تقدّم في قوله تعالى { فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ } [الأنفال:48].

{ **مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ** }

{ **بِهِ** } <u>يجوز</u> أن يكون عائدا على الآيات لأنّها في تأويل القرآن، فيكون { مُسْتَكْبِرِينَ } بمعنى معرضين استكبارا ويكون الباء بمعنى (عن)، أو ضمِّن {مُسْتَكْبِرِينَ} معنى ساخرين فعدّي بالباء للإشارة إلى تضمينه.

<u>ويجوز</u> أيضا أن يكون الضمير للبيت أو المسجد الحرام وإن لم يتقدم له ذكر لأنّه حاضر في الأذهان. وإنّما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا عليهم آيات القرآن في المسجد الحرام إذ هو مجتمعهم. فتكون الباء للظرفيّة. وفيه إنحاء عليهم في استكبارهم، وفي كون استكبارهم في ذلك الموضع الذي أمر الله أن يكون مظهرا للتواضع ومكارم الأخلاق، فالاستكبار في الموضع الذي شأن القائم فيه أن يكون قانتا لله حنيفا أشنع.

السامر: اسم لجمع السامرين، أي المتحدِّثين في ظلمة الليل. وأطلق السمر على الكلام في الليل.

<u>وعندي</u> أنّه يجوز أن يكون { سَامِرَاً } مرادا منه مجلس السمر حيث يجتمعون للحديث ليلا ويكون نصبه على نزع الخافض، أي: في سامركم، كما قال تعالى { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ } [العنكبوت:29].

{ **تَهْجُرُونَ** } بضم التاء وسكون الهاء وكسر الجيم في قراءة نافع مضارع أهجر: إذ قال الهُجْر (بضم الهاء وسكون الجيم) وهو اللغو والسب والكلام السيء. وقرأ بقية العشرة بفتح التاء من هجر إذا لغا.

والجملة في موضع الصفة لـ { سَامِرَاً }، أي: في حال كونكم متحدثين هجرا. وكان كبراء قريش يسمرون حول الكعبة يتحدّثون بالطعن في الدين وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ** [68] **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** [69] **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** [70] }.

استفهامات عن سبب إعراضهم واستمرار قلوبهم في غمرة إلى أن يحلّ بهم العذاب الموعودونه.

وهذه الاستفهامات مستعملة في التخطئة على طريق المجاز المرسل، لأنّ اتضاح الخطأ يستلزم الشك في صدوره عن العقلاء فيقتضي ذلك الشكّ السؤال عن وقوعه من العقلاء.

والاستفهامات إحصاء لمثار ضلالهم وخطئهم، لذلك خُصَّت بذكر أمور من هذا القبيل. وكذلك احتجاج عليهم وقطع لمعذرتهم وإيقاظ لهم بأنّ صفات الرسول كلّها دالة على صدقه.

{ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** } استفهام أوّل عن عدم تدبّرهم فيما يتلى عليهم من القرآن، وهو المقصود بـ { **الْقَوْلَ** }، قال تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } [النساء:82].

التدبّر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصّت له. وأصله أنّه من النظر في دبر الأمر، أي: فيما منه للمتأمل بادئ ذي بدء. وقد تقدم في [النساء:82].

والمعنى: أنّهم لو تدبروا قول القرآن لعلموا أنّه الحقّ بدلالة إعجازه وبصحة أغراضه. وهذا أحد العلل التي غمرت بهم في الكفر.

{ **أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ** } الاستفهام الثاني وهو المقدّر بعد (أم)، التي هي حرف إضراب انتقالي من استفهام إلى غيره، وهي (أم) المنقطعة بمعنى (بل) ويلزمها تقدير استفهام بعدها لا محالة.

المجيء: مجاز في الإخبار والتبليغ، وكذلك **الإتيان**.

و(**ما**) الموصولة صادقة على دين. والمعنى: أجاءهم دين لم يأت آباءهم الأوّلين، وهو الدين الداعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث، ولذلك كانوا يقولون { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف:22].

إن كان المراد ظاهر معنى الصلة، من أنّ الدين الذي جاءهم لا عهد لهم به، تعين أن يكون في الكلام تهكّم بهم إذ قد أنكروا دينا جاءهم ولم يسبق مجيئه لآباءهم. ووجه التهكّم أنّ شأن كلّ رسول جاء بدين أن يكون دينه أُنُفًا، ولو كان للقوم مثله لكان مجيئه تحصيل حاصل.

وإن كان المراد من الصلة أنّه مخالف لما كان عليه آباؤهم، لأنّ ذلك من معنى { لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ }، كان الكلام مجرد تغليط، أي: لا اتجاه لكفرهم به لأنّه مخالف لما كان عليه آباؤهم إذ لا يكون الدين إلّا مخالفا للضلالة ويكون في معنى قوله تعالى { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ

وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف:22/21].
{ **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ** } الاستفهام الثالث المقدّر بعد (أم) الثانية، فهو استفهام عن عدم معرفتهم الرسول. فإنّ رميهم الرسول بالكذب وبالسحر والشعر يناسب أن لا يكونوا يعرفونه من قبل، إذ العارف بالمرء لا يصفه بما هو منه بريء، ولذلك تفرّع على عدم معرفتهم إنكارهم إيّاه، أي إنكارهم صفاته الكاملة.
{ **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ** } الاستفهام الرابع، أي: ألعلهم ادعوا أنّ رسولهم الذي يعرفونه قد أصيب بجنون فانقلب صدقه كذبا.
الجِنّة: الجنون، وهو الخلل العقلي الذي يصيب الإنسان. إذ كانوا يعتقدون أنّه من مس الجنّ.
والجنّة يطلق على الجنّ وهو المخلوقات المستترة عن أبصارنا كما في قوله { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } [الناس:6]. وتقدّم عند قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } [الأعراف:184]. وهم لم يظنوا به الجنون ولكنّهم كانوا يقولونه بألسنتهم بهتانا.
الحقّ: الثابت في الواقع ونفس الأمر، يكون في الذوات وأوصافها، وفي الأجناس، وفي المعاني، وفي الأخبار. فهو ضدّ الكذب وضدّ السحر وضدّ الشعر.
فالحق الذي جاءهم به النبيّ أوله إثبات الوحدانية لله تعالى وإثبات البعث وما يتبع ذلك من الشرائع النازلة بمكّة كالأمر بالصلاة والزكاة وصلة الرحم، والاعتراف للفاضل بفضله، وزجر الخبيث عن خبثه، وأخوة المسلمين بعضهم لبعض، والمساواة بينهم في الحقّ، ومنع الفواحش من الزنى وقتل الأنفس ووأد البنات والاعتداء وأكل الأموال بالباطل وإهانة اليتيم والمسكين. ونحو ذلك من إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من العدوان والخلافة التي نشأوا عليها من عهد قديم. فكلّ ما جاء به الرسول يومئذ هو الموافق لمقتضى نظام العمران الذي خلق الله عليه العالم، فهو الحقّ.
{ **وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } ظاهر تناسق الضمائر يقتضي أنّ الضمير يعود إلى القوم المتحدَّث عنهم في قوله { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ }، فيكون المعنى: أكثر المشركين من قريش كارهون للحقّ. وهذا تسجيل عليهم بأنّ طباعهم تأنف الحقّ الذي يخالف هواهم لما تخلُّقوا به من الشرك وإتيان الفواحش والظلم والكبر والغصب وأفانين الفساد، فلا جرم كانوا بذلك يكرهون الحقّ لأنّ جنس الحقّ يجافي هذه الطباع.
وإنّما أسندت كراهية الحقّ إلى أكثرهم دون جميعهم إنصافا لمن كان منهم من أهل الأحلام الراجحة الذين علموا بطلان الشرك وكانوا يجنحون إلى الحقّ ولكنّهم يشايعون طغاة قومهم مصانعة لهم واستبقاء على حرمة أنفسهم بعلمهم أنّهم إن صدعوا بالحقّ لقوا من طغاتهم الأذى والانتقاص، وكان من هؤلاء أبو طالب والعباس والوليد بن المغيرة.

{ **لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } تقديم المعمول اهتمام بذكر الحقّ حتّى يستوعب السامع ما بعده فيقع من نفسه حين سماعه موقع العجب من كارهيه، ولمّا ضعف العامل فيه بالتأخير قرن المعمول بـ (لام) التقوية.

{ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } [71]

عطف هذا الشرط الامتناعي على جملة { وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } زيادة في التشنيع على أهوائهم فإنّها مفضية إلى فساد العالم ومن فيه، وكفى بذلك فظاعة وشناعة.

الحقّ: هنا هو الحقّ المتقدّم في قوله { بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } وهو الشيء الموافق للوجود الواقعي ولحقائق الأشياء.

{ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ** } أنّ كراهة أكثرهم للحقّ ناشئة عن كون الحقّ مخالفا أهواءهم فسجّل عليهم أنّهم أهل هوى.

الهوى: شهوة ومحبّة لما يلائم غرض صاحبه. وإنّما يجري الهوى على شهوة دواعي النفوس أعني شهوات الأفعال غير التي تقتضيها الجبلّة، فشهوة الطعام والشراب ونحوهما ممّا تدعو إليه الجبلة ليست من الهوى إلّا أن تكون على كيفيّة وحالة لا تقتضيها الجبلّة، لما يترتّب على تلك الحالة من فساد وضرّ مثل شهوة الطعام المغصوب وشهوة الزنا، فمرجع معنى الهوى إلى المشتهى الذي لا تقتضيه الجبلّة.

الاتباع: مجاز شائع في الموافقة، أي: لو وافق الحقّ ما يشتهونه. ومعنى موافقة الحقّ الأهواء أن تكون ماهية الحق موافقة لأهواء النفوس. فإنّ حقائق الأشياء لها تقرّر في الخارج سواء كانت موافقة لما يشتهيه الناس أم لم تكن موافقة له:

فمنها الحقائق الوجودية وهي الأصل، فهي متقرّرة في نفس الأمر مثل كون الإله واحدا، وكونه لا يلد، وكون البعث واقعا للجزاء، فكونها حقّا هو عين تقرّرها في الخارج.

ومنها الحقائق المعنوية الموجودة في الاعتبار فهي متقررة في الاعتبارات. وكونها حقًّا هو كونها جارية على ما يقتضيه نظام العالم مثل كون الوأد ظلما، وكون القتل عدوانا، وكون القمار أخذ مال بلا حقّ.

{ **لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ** } ووجه الملازمة بين فساد السماوات والأرض وفساد الناس وبين كون الحقّ جاريا على أهواء المشركين في الحقائق هو أنّ أهواءهم شتى، فمنها المتفق، وأكثرهم مختلف، وأكثر اتفاق أهوائهم حاصل بالشرك، فلو كان الحق الثابت في الواقع موافقا لمزاعمهم لاختلت أصول انتظام العوالم. فإن مبدأ الحقائق هو حقيقة الخالق تعالى، فلو كانت الحقيقة هي تعدّد الآلهة لفسدت العوالم بحكم قوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء:22].

وكذا لو كان الحقّ حسن الاعتداء والباطل قبح العدل لارتمى الناس بعضهم على بعض بالإهلاك جهد المستطاع، فهلك الضرع والزرع قال تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:205]، وهكذا الحال في أهوائهم المختلفة.

{ **وَمَنْ فِيهِنَّ** } يجوز أن يكون (من) صادقا على المخلوقات كلّها على وجه التغليب في استعمال (مَن).

ووجه الملازمة ينتظم بالأصالة مع وجه الملازمة بين تعدّد الآلهة وبين فساد السماوات والأرض ثم يسري إلى اختلاف مواهي الموجودات فتصبح غير صالحة لما خلقت عليه، فيفسد العالم.

{ **بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** } إبطال لما اقتضاه الفرض في قوله { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ } أي: بل لم يتبع الحقّ أهواءهم فأبلغنا إليهم الحقّ على وجهه بالقرآن، الذي هو ذكر لهم يوقظ عقولهم من سباتها.

الذكر: يجوز أن يكون مصدرا بمعنى التذكير. ويجوز أن يكون اسما للكلام الذي يذكِّر سامعيه بما غفلوا عنه وهو شأن الكتب الربّانية. والمعنى: أرسلنا إليهم القرآن ليذكّرهم.

وقيل: إضافة الذكر إلى ضميرهم معنوية، أي: الذكر الذي سألوه حين كانوا يقولون { لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات:169/168]، فيكون الذكر على هذا مصدرا بمعنى الفاعل، أي: ما يتذكّرون به. والفاء على هذا الوجه فاء فصيحة، أي: فها قد أعطيناهم كتابا فأعرضوا عن الذي سألوه.

والتعبير عن إعراضهم بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات إعراضهم وتمكّنه منهم. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بذكرهم ليكون إعراضهم عنه محلّ عجب.

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [72]

{ **أَمْ** } عاطفة على { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ } وهي للانتقال إلى استفهام آخر عن دواعي إعراضهم عن الرسول واستمرار قلوبهم في غمرة.

والاستفهام، المقدر هنا على سبيل الفرض، إنكاري، أي: ما تسألهم خرجا فيعتذروا بالإعراض عنك لأجله، شحا بأموالهم. وهذا في معنى قوله تعالى { قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ } [سبأ:47] والتقدير: إن كنت سألتكم أجرا فقد رددته عليكم فماذا يمنعكم من اتباعي؟

الخرج: العطاء المعيّن على الذوات أو على الأرضين كالإتاوة. وعن ابن الأعرجي: الخرج بالإتاوة على الذوات والخراج الإتاوة على الأرضين. وقيل: الخراج مرادف الخرج وهو ظاهر كلام جمهور اللغويين.

وقيل الخرج: ما تبرّع به المعطي والخراج: ما لزمه أوداؤه. وهذا الذي ينبغي التعويل عليه لأنّ الأصل في اللغة عدم الترادف.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** } معترضة تكميلا للغرض بالثناء على الله والتعريف بسعة فضله. ويفيد التأكيد.

{ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [73] وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُون [74] }.

أعقب تنزيه الرسول عمّا افتروه عليه بتنزيه الإسلام عمّا وَسَموه به من الأباطيل، بإثبات ضدّ ذلك، وهو أنّه **صراط مستقيم**، أي: طريق لا التواء فيه ولا عقبات.

فالكلام تعريض بالذين اعتقدوا خلاف ذلك. وإطلاق الصراط المستقيم عليه من حيث إنّه موصل إلى ما يتطلّبه كلّ عاقل من النجاة وحصول الخير، فالنبي صلى الله عليه وسلم لمّا دعاهم إلى الإسلام دعاهم إلى السير في طريق موصل بلا عناء.

{ **وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ** } التأكيد بـ (إن) والـ (لام) باعتبار أنّه مسوق للتعريض بالمنكرين.

{ **وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ** } وكذلك التوكيد هنا جار على نفس التركيب.

{ **الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** } إظهار في مقام الإضمار حيث عدل عن أن يقول: وإنّهم عن الصراط لناكبون.

والغرض منه ما تنبئ به الصلة من سبب تنكّبهم عن الصراط المستقيم، أنّ سببه عدم إيمانهم بالآخرة.

{ **الصِّرَاطِ** } التعريف للجنس، أي: هم ناكبون عن الصراط من حيث هو، حيث لم يتطلّبوا طريق نجاة.

فتعريف الجنس أتمّ في نسبتهم إلى الضلال بقرينة أنّهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي غاية العامل من عمله فهم إذن ناكبون عن كل صراط موصل، إذ لا همّة لهم في الوصول.

الناكب: العادل عن شيء، المعرض عنه. وكأنّه مشتقّ من المنكب وهو جانب الكتف، لأنّ العادل عن شيء يولي وجهه عنه بجانبه.

{ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [75]

عطف على جملة { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } وما بينهما اعتراضات باستدلال عليهم وتنديم وقطع لمعاذيرهم، أي: لو استجاب الله جؤارهم عند نزول العذاب بهم وكشف عنهم العذاب لعادوا إلى ما كانوا فيه من الغمرة لأنّها صارت سجيّة لهم. كقوله { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } [الدخان:15].

{ **وَلَوْ** } هنا داخلة على الفعل الماضي **{** رَحِمْنَاهُمْ } المراد منه الاستقبال بقرينة المقام، إذ المقام للإنذار والتأييس من الإغاثة عند نزول العذاب الموعود به، وليس مقام اعتذار من الله عن عدم استجابته.

اللَّجاج: (بفتح اللام) الاستمرار على الخصام وعدم الإقلاع عن ذلك، يقال: لَجَّ يَلَجُّ ويَلِجُّ (بكسر اللام وفتحها)
الطغيان: أشدّ الكبر.
العَمَه: التردُّد في الضلالة.
وتقدّم المعنى عند قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ [76] حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [77] }.

استدلال على مضمون الآية السابقة، بسابق إصرارهم على الشرك والإعراض عن الالتجاء إلى الله وعدم الاتّعاظ بأنّ ما حلّ بهم من العذاب هو جزاء شركهم.
{ **بِالْعَذَابِ** } التعريف للعهد، أي: بالعذاب المذكور آنفا في قوله { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ }[64].
والمعنى: فلم يكن حظّهم حين أخذناهم بالعذاب إلّا العويل والجؤار دون التوبة والاستغفار.
الاستكانة: مصدر بمعنى الخضوع، مشتقّة من السكون، لأنّ الذي يخضع يقطع الحركة أمام من خضع له، فهو افتعال من السكون للدلالة على تمكّن السكون وقوّته.
التضرّع: الدعاء بتذلّل، والتعبير بالمضارع لدلالته على تجدّد انتفاء تضرّعهم. وتقدّم في قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } [الأنعام:42].
{ **حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً** } كالقول في { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ }. وفتح الباب تمثيل لمفاجأتهم بالعذاب بعد أن كان محجوزا عنه حسب قوله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال:33].
وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا } [الأحزاب:14]. شُبِّهت هيئة إصابتهم بالعذاب بعد أن كانوا في سلامة بهيئة ناس في بيت مغلق عليهم ففُتح عليهم باب البيت من عدو مكروه.
{ **ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ** } دون أن يضاف باب إلى عذاب فيقال: باب عذاب، لأنّ هذا التركيب يفيد من شدّة انتساب العذاب إلى الباب ما لا تفيده إضافة باب إلى عذاب.
والمراد عذاب مستقبل. والأرجح: أنّ المراد به عذاب السيف يوم بدر. وعن مجاهد: أنّه عذاب الجوع.
وقيل: عذاب الآخرة. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الباب حقيقة وهو باب من أبواب جهنم كقوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [الزمر:71].
الإبلاس: شدّة اليأس من النجاة. قال: أبلس، إذا ذلّ ويئس من التخلّص. فالظاهر أنّه مشتقّ من البَلاس وهو المسح، وأنّ أصل أبلس صار ذا بلاس. وكان شعار من زهدوا في النعيم. يقال: لبس المسوح، إذا ترهب.

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ } [78]

هذا رجوع إلى غرض الاستدلال على انفراد الله تعالى بصفات الإلهية، والامتنان بما منح الناس من نعمة لعلّهم يشكرون بتخصيصه بالعبادة.

فالجملة إمّا معطوفة على جملة { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } [21] والغرض واحد وما بينهما انتقالات.

وإمّا مستأنفة رجوعا إلى غرض الاستدلال والامتنان وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } [25].

وفي هذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ثم الرجوع إلى الغرض تجديد لنشاط الذهن وتحريك للإصغاء إلى الكلام وهو من أساليب كلام العرب في خطبهم وطِوالهم.

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ } تذكير بواحدانية الله تعالى. فهم لمّا عبدوا غيره نزلوا منزلة من جهل أنّه الذي أنشأ لهم السمع، فأتى لهم بكلام مفيد لقصر القلب أو الإفراد، أي: الله الذي أنشأ ذلك دون أصنامكم.

والخطاب للمشركين على طريقة الالتفات، أو لجميع الناس، والمقصود منه التعريض بالمشركين.

الإنشاء: الإحداث، أي: الإيجاد.

{ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ } الجمع باعتبار تعدّد أصحابها. وأمّا إفراد السمع فجرى على الأصل في إفراد المصدر لأنّ أصل السمع أنّه مصدر. وقيل: الجمع باعتبار المتعلّقات، فلما كان البصر يتعلّق بأنواع كثيرة من الموجودات وكانت العقول تدرك أجناسا وأنواعا جمعا بهذا الاعتبار. وأفراد السمع لأنّه لا يتعلّق إلّا بنوع واحد وهو الأصوات.

{ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ } إن كان الخطاب للمشركين فالشكر مراد به التوحيد، أي: فالشكر الصادر منكم قليل بالنسبة إلى تشريككم غيره معه في العبادة، وإن كان الخطاب لجميع الناس فالشكر عام في كلّ شكر نعمة، وهو قليل بالنسبة لقلّة عدد الشاكرين، وإن كان الخطاب للمسلمين، والمقصود التعريض بالمشركين، فالشكر عام وتقليله تحريض على الاستزادة منه ونبذ الشرك.

{ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [79]

الذرء: البثّ. وتقدّم في [الأنعام:136]. وهذا امتنان بنعمة الإيجاد والحياة وتيسير التمكّن من الأرض وإكثار النوع، لأنّ الذرء يستلزم ذلك كلّه.

وهذا استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالإلهية إذ قد علموا أنّه لا شريك له في الخلق فكيف يشركون معه في الإلهية أصنافا هم يعلمون أنّها لا تخلق شيئا.

وهو أيضا استدلال على البعث لأنّ الذي أحيا الناس عن عدم قادر على إعادة إحيائهم بعد تقطّع أوصالهم.
{ **وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } وقوبل الذرء بضدّه وهو الحشر والجمع، فإنّ الحشر يجمع كلّ من كان على الأرض من البشر، وفيه محسن الطباق. والمقصود من هذه المقابلة الرد على منكري البعث، وفيه تهديد.

{ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [80]

هو من أسلوب { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ }. وأعقب ذكر الحشر بذكر الإحياء لأنّ البعث إحياء.
وأمّا ذكر الإماتة فلمناسبة التّضاد، ولأنّ فيها دلالة على عظيم القدرة والقهر. ولمّا كان من الإحياء خلق الإيقاض، ومن الإماتة خلق النوم عطف على ذلك أنّ بقدرته اختلاف الليل والنهار لتلك المناسبة، ولأنّ في تصريف الليل والنهار دلالة على عظيم القدرة.
{ **لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } اللام للملك، أي: بقدرته تصريف الليل والنهار، فالنهار يناسب الحياة ولذلك يسمَّى الهبوب في النهار بعثا، والليل يناسب الموت ولذلك سمَّى الله النوم وفاة في قوله { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } [الأنعام:60].
وتقديم المجرور للقصر، أي: له اختلاف الليل والنهار لا لغيره.
{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } لمّا كانت هذه الأدلّة تفيد من نظر فيها علما بأنّ الإله واحد وأنّ البعث واقع، وكان المقصودون بالخطاب قد أشركوا به ولم يهتدوا بهذه الأدلة جُعلوا بمنزلة غير العقلاء فأنكر عليهم عدم العقل بالاستفهام الإنكاري المفرّع على الأدلة الأربعة بالفاء.

{ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ [81] قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ [82] لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [83] }.

هذا إدماج لذكر أصل آخر من أصول الشرك وهو إحالة البعث بعد الموت.
{ **بَلْ** } للإضراب الإبطالي، أبطلت كونهم يعقلون، وأثبتت إنكارهم البعث، مع بيان ما بعثهم على إنكاره وهو تقليد الأباء. والمعنى: أنّهم لا يعقلون الأدلة لكونهم يتّبعون أقوال آبائهم.
والكلام جرى على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لأنّ الكلام انتقل من التقريع والتهديد إلى حكاية ضلالهم فناسب هذا الانتقال مقام الغيبة لما في الغيبة من الإبعاد، فالضمير عائد إلى المخاطبين.
{ **قَالُوا** } القول هنا مراد به ما طابق الاعتقاد، لأنّ الأصل في الكلام مطابقة اعتقاد قائله.
الأوّلون: أسلافهم في النسب أو أسلافهم في الدين من الأمم المشركين.

{ **قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** } بدل مطابق من جملة { قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ } تفصيل لإجمال المماثلة، فالضمير الذي مع { قَالُوا } الثاني عائد إلى ما عاد إليه ضمير { قَالُوا } الأوّل وليس عائدا على { الْأَوَّلُونَ }.

ويجوز جعل قالوا الثاني استئنافا بيانيّا لبيان { مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ } ويكون الضمير عائدا إلى { الْأَوَّلُونَ }.

والمعنى واحد على التقديرين. ونكتته هنا التعجيب من هذا القول.

والاستفهام إنكاري، و(إذا) ظرف لقوله { لَمَبْعُوثُونَ }.

والجمع بين ذكر الموت والكون ترابا وعظاما لقصد تقوية الإنكار بتفظيع إخبار القرآن بوقوع البعث، أي: الإحياء بعد ذلك التلاشي القويّ.

{ **لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ** } تعليل للإنكار وتقوية له. وقد جعلوا مستند تكذيبهم بالبعث أنّه تكرّر الوعد به في أزمان متعدّدة فلم يقع ولم يُبعث واحد من آبائهم.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } من القول الأول، وصيغة القصر بمعنى: هذا منحصر في كونه من حكايات الأوّلين. وهو قصر إضافي لا يعدو كونه من الأساطير إلى كونه واقعا كما زعم المدَّعون.

الأساطير: جمع أسطورة وهي الخبر الكاذب الذي يُكسى صفة الواقع مثل الخرافات والروايات الوهمية لقصد التلهّي بها.

{ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [84] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [85] }.

استئناف استدلال عليهم في إثبات الوحدانية لله تعالى عاد به الكلام متّصلا بقوله { وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [80].

والاستفهام تقريري، أي: أجيبوا عن هذا، ولا يسعهم إلّا الجواب بأنّها لله. والمقصود: إثبات لازم جوابهم وهو انفراده تعالى بالوحدانية.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } شرط حذف جوابه لدلالة الاستفهام عليه، تقديره: فأجيبوني عن السؤال. وفي هذا الشرط توجيه لعقولهم أن يتأمّلوا فيظهر لهم أنّ الأرض لله وأنّ من فيها لله، فإنّ كون جميع ذلك لله قد يخفى لأنّ الناس اعتادوا نسبة المسببات إلى أسبابها المقارنة والتصرّفات إلى مباشريها فنُبّهوا إلى التأمّل.

{ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** }، أي: يجيبون عقب التأمل جوابا غير بطيء. وانظر ما تقدّم في تفسير قوله تعالى { قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ } [الأنعام:12].

{ **قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } وقعت جوابا لإقرارهم واعترافهم بأنّها لله. والاستفهام إنكاري إنكار لعدم تذكيرهم بذلك

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [86] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ [87] }.
تكرير الأمر بالقول وإن كان المقول مختلفا دون أن تعطف الجملة لأنّها وقعت في سياق التعداد فناسب أن يعاد الأمر بالقول دون الاستغناء بحرف العطف. والمقصود وقوع هذه الأسئلة متتابعة دفعا لهم بالحجّة، ولذلك لم تعد في السؤالين الثاني والثالث جملة { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } اكتفاء بالافتتاح بها.
{ **قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** } ولم يؤت مع هذا الاستفهام بشرط { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ونحوه كما جاء في سابقه لأنّ انفراد الله تعالى بالربوبية في السماوات والعرش لا يشكّ فيه المشركون.
وخصّ وعظهم عقب جوابهم بالحثّ على تقوى الله لأنّه لمّا تبيّن من الآية التي قبلها أنّهم لا يسعهم إلّا الاعتراف بأنّ الله مالك الأرض ومن فيها وعُقّبت تلك الآية بحظّهم على التذكير ليظهر لهم أنّهم عباد الله لا عباد الأصنام. وتبيّن من هذه الآية أنّه ربّ السماوات وهي أعظم من الأرض وأنّهم لا يسعهم إلّا الاعتراف بذلك ناسب حثّهم على تقواه لأنّه يستحقّ الطاعة له وحده وأن يطيعوا رسوله فإنّ التقوى تتضمّن طاعة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [88] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ [89] }.
الملكوت: مبالغة في المُلك بضم الميم. فالمَلكوت: الملك المقترن بالتصرّف في مختلف الأنواع والعوالم لذلك جاء بعده { كُلِّ شَيْءٍ }.
اليد: القدرة.
{ **يُجِيرُ** } يغيث ويمنع من يشاء من الأذى. ومصدره الإجارة فيفيد معنى الغلبة.
{ **لَا يُجَارُ عَلِيهِ** } لا يستطيع أحد أن يمنع أحدا من عقابه، فيفيد معنى العزّة التامة. وبني الفعل للمجهول لقصد انتفاء الفعل عن كل فاعل، فيفيد العموم مع الاختصار.
{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } تعقيب للاستفهام، لأنّ هذا التصرّف من الله خفيّ يحتاج إلى تدبّر العقل لإدراكه، كما عُقّب الاستفهام الأوّل بمثله حثًّا لهم على علمه والاهتداء إليه.
{ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** } يدلّ على أنّهم إذا تدبّروا علموا.
{ **فَأَنَّى** } يجوز أن تكون بمعنى (من أين) كما تقدّم في قوله { قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا } [آل عمران:37]. والاستفهام تعجيبي.
السحر : مستعار لترويج الباطل. والمعنى: فمن أين اختلّ شعوركم فراج عليكم الباطل.

{ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [90]

إضراب لإبطال أن يكونوا مسحورين، أي: بل ليس الأمر كما خيّل إليهم، فالذي أتيناهم به الحق يعني القرآن. والباء للتعدية كما يقال: ذهب به. وهذا كقوله آنفا { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ }.

والعدول عن الخطاب من قوله { فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } إلى الغيبة التفات لأنّهم الموجه إليهم الكلام في هذه الجملة.

الحقّ: هنا الصدق فلذلك قوبل بنسبتهم إلى الكذب فيما رموا به القرءان من قولهم { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }. وفي مقابلة الحق بكاذبون محسن الطباق. وتأكيد نسبتهم إلى الكذب بإن واللام لتحقيق الخبر.

وقد سُلكت في ترتيب هذه الأدلة طريقة الترقّي، فابتدئ بالسؤال عن مالك الأرض ومن فيها لأنّها أقرب العوالم لإدراك المخاطبين، ثمّ ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السماوات والعرش، ثمّ ارتقي إلى ما هو أعمّ وأشمل وهو تصرّفه المطلق في الأشياء كلّها، ولذلك اجتُلبت فيه أداة العموم وهي (كلّ).

{ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [91] عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [92] }.

أتبع الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى بالاستدلال على انتفاء الشركاء له في الإلهيّة. وقُدِّمت النتيجة على القياس لأنّها المطلوب هنا، فإنّ النتيجة والمطلوب متّحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصولها عقب القياس تسمَّى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل، وهو المقياس، تسمَّى مطلوبا كما في علم المنطق.

وذكر نفي الولد استقصاء للردّ على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإنّ منهم من توهّم أنّه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا: هم بنات الله.

وإنّما قدّم نفي الولد على نفي الشريك مع أنّ أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظرا إلى أنّ شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام، لأنّ الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأنّ الذي زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله.

{ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ } استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة. وإنّما لم يستدلّ على امتناع أن يتخذ الله ولدا لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص.

{ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ } الذهاب هنا مستعار للاستقلال بالمذهوب به وعدم مشاركة غيره له فيه. وبيان انتظام هذا الاستدلال أنّه لو كان مع الله آلهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات تامة فكان كل إله خالقا لمخلوقات. وهذا يستلزم لازمين باطلين:

أوّل اللازمين أن يكون كلّ إله مختصا بمخلوقاته فلا يتصرّف فيها غيره من الآلهة ولا يتصرّف هو في مخلوقات غيره، فيقتضي ذلك أنّ كل إله من الآلهة عاجز عن التصرّف في مخلوقات غيره. وهذا يستلزم المحال، لأنّ العجز نقص والنقص ينافي حقيقية الإلهيّة. وهذا دليل برهاني على الوحدانية.

{ **وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** } ثاني اللازمين أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث، كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أنّ ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته، وهذا يقتضي أن يصير بعض تلك الإلهة أقوى من بعض، وهو مناف للمساواة في الإلهية.

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** } تنزيه الله تعالى عن أقوال المشركين، وهو بمنزلة نتيجة الدليل.

{ **عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } عموم العلم وإحاطته بكلّ شيء كما أفادته لام التعريف في { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } من الاستغراق الحقيقي، أي: عالم كل مغيب وكل ظاهر.

{ **فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } أي: هو منزه من أن يكون موصوفا بكونه مشارَكا في وصفه العظيم، أي هو منزه عن ذلك.

{ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ [93] رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [94] وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ [95] }.

آذنت الآيات السابقة بأقصى ضلال المشركين وانتفاء عذرهم فيما دانوا به الله وبغضب الله عليهم لذلك، وأنّهم سواء في ذلك مع الأمم التي عجّل الله لها العذاب في الدنيا وادّخر لها عذابا آخر في الآخرة، فكان ذلك نذارة لهم بمثله وتهديدا بما سيلاقونه، وكان مثارا لخشية النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يحلّ العذاب بقومه في حياته والخوف من هوله، فلقّن الله نبيّه أن يسأل النجاة من ذلك العذاب.

فهذه الجملة استئناف بياني جوابا عما يختلج في نفس رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقد تحقّق ذلك فيما حلّ بالمشركين يوم بدر ويوم حنين، فالوعيد المذكور هنا وعيد بعقاب في الدنيا.

{ **قُلْ رَبِّ ... رَبِّ فَلا** } التكرار إشارة وتمهيد للإجابة، لأنّ وصف الربوبية يقتضي الرأفة بالمربوب.

{ **إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ** } وأدخل بعد حرف الشرط (ما) الزائدة للتوكيد، فاقترن فعل الشرط بنون التوكيد لزيادة تحقيق ربط الجزاء بالشرط. وقد تقدّم في قوله { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } [الأعراف:200].

{ **فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } والمعنى: إذا كان ما يوعدون حاصلا في حياتي فأنا أدعوكم أن لا تجعلوني فيهم حينئذ. وقد تحقق ذلك بالهجرة إلى المدينة، فالظرفية هنا حقيقية، أي: بينهم.

{ **وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ** } خبر مستعمل في إيجاد الرجاء بحصول وعيد المكذبين في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلّا فلا حاجة إلى إعلام الرسول بقدرة الله على ذلك.
{ **أَنْ نُرِيَكَ** } إيماء إلى أنّه في منجاة من أن يلحقه ما يوعدون به وأنّه سيراه. وقد يبدو أن هذا وعد غريب لأنّ المتعارف أن يكون العذاب سماويا فإذا نجى الله منه بعض رسله، مثل لوط، فإنّه يبعده عن موضع العذاب، ولكن كان عذاب هؤلاء غير سماوي فتحقّق في مصرع صناديدهم يوم بدر بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف رسول الله على القليب (قليب بدر) وناداهم بأسمائهم واحدا واحدا وقال لهم: **" لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّا "**.

{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } [96]

لمّا أنبأ الله رسوله عليه الصلاة والسلام بما يلمّح له بأنّه منجز وعيده من الذين كذّبوه، فعلم الرسول والمسلمون أنّ الله ضمن لهم النصر، أعقب ذلك بأن أمره بأن يدفع مكذّبيه بالتي هي أحسن، وأن لا يضيق بتكذيبهم صدره. وسيأتي بيانه في سورة فصّلت عند قوله { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }.
{ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ** } خبر مستعمل كناية عن كون الله يعامل أصحاب الإساءة لرسوله بما هم أحقّاء به من العقاب، لأنّ الذي هو أعلم بالأحوال يجري عمله على مناسب تلك الأحوال بالعدل وفي هذا تطمين لنفس الرسول صلى الله عليه وسلم.
{ **الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } مراد بها الحسنة الكاملة، فاسم التفضيل للمبالغة.
والتخلّق بهذه الآية هو أن المؤمن الكامل ينبغي له أن يفوّض أمر المعتدين عليه إلى الله فهو يتولّى الانتصار لمن توكّل عليه، وأنّه إن قابل السيئة بالحسنة كان انتصار الله أشفى لصدره وأرسخ في نصره، وماذا تبلغ قدرة المخلوق تجاه قدرة الخالق. وهكذا كان خلق النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد كان لا ينتقم لنفسه.

{ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ [97] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [98] }.

لمّا أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يفوّض جزاءهم إلى ربّه أمره بالتعوّذ من حيلولة الشياطين دون الدفع بالتي هي أحسن، أي: التعوّذ من تحريك الشيطان داعية الغضب والانتقام في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون { الشَّيَاطِينِ } مستعملا في حقيقته.
همزات الشياطين: تصرفاتهم بتحريك القوى التي في نفسه، أي: في غير أمور التبليغ مثل تحريك القوة الغضبية، كما تأوّل الغزالي في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث: **" ولكن الله أعانني عليه فأسلم "**

ويكون أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالتعوّذ من همزات الشياطين مقتضيا تكفّل الله تعالى بالاستجابة، أو أن يكون أمره بالتعوّذ من همزات الشياطين مرادا به الاستمرار على السلامة منهم.

قال في الشفاء: الأمّة مجتمعة (أي مُجْمِعة) على عصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم من الشيطان لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس.

ويجوز أن تكون الجملة عطفا على جملة { قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ } بأن أمره الله بأن يلجأ إليه بطلب الوقاية من المشركين وأذاهم، فيكون المراد من الشياطين المشركين فإنّهم شياطين الإنس كما قال { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ } [الأنعام:112]، ويكون هذا في معنى قوله { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ - إلى قوله - الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [الناس]. فيكون المراد: أعوذ بك من همزات القوم الظالمين، أو من همزات الشياطين منهم.

الهمز: حقيقته الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل مجازا بمعنى الأذى بالقول أو بالإشارة، ومنه قوله تعالى { هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ } [القلم:11]، وقوله { وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ } [الهمزة:1]. ومحمله هنا عندي على المعنى المجازي على كلا الوجهين في المراد من الشياطين. وهمز شياطين الجنّ ظاهر، وأمّا همز شياطين الإنس فقد كان من أذى المشركين النبي صلى الله عليه وسلم لمزه والتغامز عليه والكيد له.

{ **وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ** } تعوّذ من قربهم، لأنّهم إذا اقتربوا منه لحقه أذاهم.

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ [99] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [100] }.

{ **حَتَّى** } ابتدائية، ولا تفيد أنّ مضمون ما قبلها مغيًّا بها. فهذا انتقال إلى وصف ما يلقون من العذاب في الآخرة، بعد أن ذُكر عذابهم في الدنيا، فيكون الكلام وصفًا أُنُفًا لعذابهم في الآخرة.

وضمائر الغيبة عائدة إلى ما عادت عليه الضمائر السابقة من قوله { قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [82] إلى ما هنا، وليست عائدة إلى الشياطين.

ولقصد إدماج التهديد بما سيشاهدون من عذاب أعدّ لهم فيندمون على تفريطهم في مدّة حياتهم.

{ **ارْجِعُونِ** } ضمير الجمع تعظيم للمخاطب. والخطاب بصيغة الجمع لقصد التعظيم طريقة عربية، وهو يلزم صيغة التذكير فيقال في خطاب المرأة إذا قصد تعظيمها: أنتم. ولا يقال: أنتن.

{ **لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ** } وجملة الترجّي في موضع العلّة لمضمون { ارْجِعُونِ }.

الترك: هنا مستعمل في حقيقته وهو معنى التخلية والمفارقة. وما صدق ماتركت: عالم الدنيا. ويجوز أن يراد

بالترك معناه المجازي وهو الإعراض والرفض، على أن يكون ما صدق الموصول: الإيمان بالله وتصديق رسوله، فالمعنى: لعلّي أُسلم وأعمل صالحا، فاشتمل هذا المعنى على وعد بالامتثال واعتراف بالخطأ فيما سلف. وركِّب بهذا النظم الموجز قضاء لحق البلاغة.

{ **كَلَّا** } ردع للسامع ليعلم إبطال طلبة الكافر.

{ **إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا** } تركيب يجري مجرى المثل وهو من مبتكرات القرآن. وحاصل معناه: أنّ قول المشرك { رَبِّ ارْجِعُونِ } لا يتجاوز أن يكون كلاما صدر من لسانه لا جدوى له فيه، فلا يستجاب طلبه به.

{ **وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** }

الوراء: هنا مستعار للشيء الذي يصيب المرء لا محالة ويناله، وهو لا يظنه يصيبه. وهذا كقوله { وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ } [البروج:20].

البرزخ: الحاجز بين مكانين. قيل: المراد به في هذه الآية القبر، وقيل: هو بقاء مدّة الدنيا. وقيل: هو عالم بين الدنيا والآخرة تستقر فيه الأرواح فتكاشف على مقرها المستقبل. وإلى هذا مال الصوفية. وقال السيد في التعريفات: البرزخ العالم المشهود بين عالم المعاني المجرّدة وعالم الأجسام المادية، أعني الدنيا والآخرة.

{ **إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** } أنّهم غير راجعين إلى الحياة إلى يوم البعث. فهي إقناط لهم.

{ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ [101] فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [102] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [103] تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [104] }.

تفريع على قوله { إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }، فإن زمن النفخ في الصور هو يوم البعث. فالتقدير: فإذا جاء يوم يبعثون { نُفِخَ فِي الصُّورِ }.

الصور: البوق الذي ينفخ فيه النافخ للتجمّع والنفير، وهو مما يُنادى به للحرب ويُنادى به للصلاة عند إليهود كما جاء في حديث بدء الأذان في البخاري. وتقدّم عند قوله { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [الأنعام:73]. وأسند الفعل إلى المجهول لأنّ المعتنى به هو حدوث النفخ لا تعيين النافخ. وإنّما يُنفخ فيه بأمر تكوين من الله تعالى، أو يَنفخ فيه أحد الملائكة، وقد ورد أنّه الملك إسرافيل.

{ **فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ** } كالتمهيد، مبادرة بتأييسهم من أن تنفعهم أنسابهم أو استنجادهم.

وضمير (بينهم) عائد إلى ما عادت عليه ضمائر جمع الغائبين قبله وهي عائدة إلى المشركين.

ومعنى نفي الأنساب نفي آثارها من النجدة والنصر والشفاعة، لأن، تلك في عرفهم من لوازم القرابة.

فالقول كناية عن عدم النصير.

التساؤل: سؤال بعضهم بعضا. والمعنيُّ به التساؤل المناسب لحلول يوم الهول، وهو أن يسأل بعضهم المعونة والنجدة، كقوله تعالى { وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً } [المعارج:10].

وأمّا إثبات التساؤل يومئذ في قوله تعالى { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [الصافات:27-33]، فذلك بعد يأسهم من وجود نصير أو شفيع.

{ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** } ذكْرهم في هذه الآية إدماج، للتنويه بالمؤمنين وتهديد المشركين، لأنّ المشركين لا يجدون في موازين الأعمال الصالحة شيئا، قال تعالى { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [الفرقان:23]. وتقدّم الكلام على نظيره في [الأعراف:8].

الخسارة: نقصان مال التجارة، وتقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } [الأنعام:12]، وقوله { فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } [الأعراف:9]. وهي هنا تمثيل لحال خيبتهم فيما كانوا يأملونه من شفاعة أصنامهم وأنّ لهم النجاة في الآخرة.

{ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ** } في موضع الحال من { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ }.و**اللفح**: شدّة إصابة النّار.

الكالح: الذي به الكلوح وهو تقلّص الشفتين وظهور الأسنان من أثر تقطّب أعصاب الوجه عند شدّة الألم.

{ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [105] قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ [106] رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [107] }.

{ **أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ** } مقول قول محذوف، أي: يقال لهم يومئذ. وهذا تعرّض لبعض ما يجري يومئذ.

الآيات: آيات القرآن بقرينة قوله { تُتْلَى عَلَيْكُمْ } وقوله { فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ }، حملا على ظاهر اللفظ.

التلاوة: القراءة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102]. والاستفهام إنكار.

{ **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا** } مُثِّلت حالة اختيارهم لأسباب الشقوة بدل أسباب السعادة بحالة غائرة بين السعادة والشقاوة على نفوسهم.

الغلب: حقيقته: الاستيلاء والقهر.
الشِقْوَة: (بكسر الشين وسكون القاف) في قراءة الجمهور. من الشقاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف {شَقَاوتنا} (بفتح الشين وبألف بعد القاف) وهو مصدر على صيغة الفعالة مثل الجزالة والسذاجة.
{ **وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ** } زيادة { قَومَاً } ليدلّ على أنّ الضلالة من شيمتهم وبها قوام قوميّتهم.
{ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ** } حذف متعلّق { عُدْنَا } لظهوره من المقام، إذ كان إلقاؤهم في النار لأجل الإشراك والتكذيب، كما دلّ عليه قولهم { وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ }.
والظلم هنا تجاوز العدل، والمراد ظلم آخر بعد ظلمهم الأول وهو الذي ينقطع عنده سؤال العفو.

{ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ [108] إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ [109] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ [110] إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ [111] }.

{ **اخْسَأُوا** } زجر وشتم بأنّهم خاسئون، ومعناه عدم استجابة طلبهم. وفعل خسأ من باب منع ومعناه ذلّ.
{ **وَلا تُكَلِّمُونِ** } نهوا عن خطاب الله، والمقصود تأييسهم من النجاة ممّا هم فيه.
{ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي** } إلى آخرها، استئناف قصد منه إغاظتهم بمقابلة حالهم يوم العذاب بحال الذين أنعم الله عليهم، وتحسيرهم على ما كانوا يعاملون به المسلمين.
{ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي** - إلى قوله - **سِخْرِيّاً** } الإخبار مستعمل في كون المتكلّم عالما بمضمون الخبر وضمير الشأن للتعجيل بإرهابهم.
السُخري: من السُخرة (بضم السين) وهي الاستخدام بلا أجر.
{ **حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ** } و{ حَتَّى } ابتدائية، ومعناها معنى فاء السببيّة، فهي استعارة تبعية. شُبّه التسبّب القوي بالغاية فاستعملت فيه {حَتَّى} . والمعنى: أنّكم لهوتم عن التأمل فيما جاء به القرآن.
وتقدّم الكلام على فعل سخر عند قوله { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام:10]، وقوله { يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ } [براءة:79].
{ **أَنْسَوْكُمْ** } إسناد الإنساء إلى الفريق مجاز عقلي لأنّهم سببه، أو هو مجاز بالحذف بتقدير: حتّى أنساكم السخريّ بهم ذكري، والقرينة على الأول معنوية وعلى الثاني لفظية.
{ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** } ضمير الفصل للاختصاص، أي: هم الفائزون لا أنتم.

{ **بِمَا صَبَرُوا** } إدماج للتنويه بالصبر، والتنبيه على أنّ سخريّتهم بهم كانت سببا في صبرهم الذي أكسبهم الجزاء. وفي ذلك زيادة تلهيف للمخاطبين بأن كانوا هم السبب في ضرّ أنفسهم ونفع من كانوا يعدّونهم أعداءهم.

{ **قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ** [112] **قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ** [113] **قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** [114] }.

هذا القول يقع عند النفخ في الصور وحياة الأموات من الأرض، فالأظهر أن يكون هو جواب { إِذَا } في قوله فيما سبق { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ } [101] . والتقدير: قال الله لهم إذا نفخ في الصور: كم لبثتم في الأرض عدد سنين، وما بينهما اعتراضات نشأت بالتفريع والعطف والحال والمقاولات العارضة في خلال ذلك، كما علمته ممّا تقدّم في تفسير تلك الآي. وليس من المناسب أن يكون هذا القول حاصلا بعد دخول الكافرين النّار، والمفسّرون الذين حملوه على ذلك تكلّفوا ما لا يناسب انتظام المعاني.

وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي { قل } بصيغة الأمر. والخطاب للملك الموكل بإحياء الأموات.

{ **قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ** } الاستفهام عن عدد سنوات المكث في الأرض مستعمل في التنبيه ليظهر لهم خطؤهم إذ كانوا يزعمون أنّهم إذا دفنوا في الأرض لا يخرجون منها.

{ **فاسْأَلِ الْعَادِّينَ** } تفريع على جملة { **لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** } لما تضمّنته من تردّدهم في تقدير مدّة لبثهم في الأرض. والمفسرون جعلوا المراد من العادّين الملائكة أو النّاس الذين يتذكرون حساب مدّة المكث.

والظاهر أن المراد بقولهم { يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } أنهم قدّروا مدّة مكثهم في باطن الأرض بنحو يوم من الأيام المعهودة لديهم في الدنيا كما دلّ عليه قوله { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ } [الروم:55].

ولم يعرّج المفسرون على تبيين المقصد من سؤالهم وإجابتهم عنه وتعقيبه بما يقرره في الظاهر. والذي لاح لي في ذلك أنّ إيقافهم على ضلال اعتقادهم الماضي جيء به في قالب السؤال عن مدة مكثهم في الأرض كناية عن ثبوت خروجهم من الأرض أحياء وهو ما كانوا ينكرونه، وكناية عن خطأ استدلالهم على إبطال البعث باستحالة رجوع الحياة إلى عظام ورفات. فذلك أدلّ وأظهر في سعة القدرة الإلهية وأدخل في إبطال شبهتهم. وقد دلّ على هذا قوله في آخر الآية { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ }.

وقد ألجأهم الله إلى إظهار اعتقادهم قصر المدة التي بقوها زيادة في تشويه خطأهم فإنّهم لمّا أحسوا أنفسهم أنهم صاروا أحياء كحياتهم الأولى وعاد لهم تفكيرهم القديم الذي ماتوا عليه، وكانوا يتوهّمون أنّهم إذا فنيت

أجسادهم لا تعود إليهم الحياة أوهمهم كمال أجسادهم أنّهم ما مكثوا في الأرض إلّا زمنا يسيرا لا يتغيّر في مثله الهيكل الجثماني، فبنوا على أصل شبهتهم الخاطئة خطأ آخر.

{ **قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً** } فهو يؤذن بكلام محذوف على طريقة دلالة الاقتضاء، لأنّهم قد لبثوا أكثر من يوم أو بعض يوم بكثير فكيف يُجعل قليلا؟ ولذلك تعين أن يكون التقدير: قال بل لبثتم قرونا، وإن لبثتم إلّا قليلا فيما عند الله { وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [الحجّ:47].

{ **لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } أي: لو كنتم تعلمون ما يترّقبكم من مدة العذاب، كانت مدة قليلة، وهذا إرهاب لهم.

{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ }[115]

هذا من تمام القول المحكي فيه { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ } مفرَّع على ما قبله. فرّع الاستفهام عن حسبانهم أنّ الخلق لأجل العبث على إظهار بطلان ما زعموه من إنكار البعث. والاستفهام تقرير وتوبيخ لأنّ لازم إنكارهم البعث أن يكون خلق الناس مشتملا على عبث، فنزلوا منزلة من حسب ذلك فقُرِّروا ووُبِّخوا أخذا لهم بلازم اعتقادهم.

العبث: العمل الذي لا فائدة فيه. وكلمّا تضاءلت الفائدة كان لها حكم العدم فلو لم يكن خلق البشر في هذه الحياة مرتبا عليه مجازاة الفاعلين على أفعالهم لكان خالقه قد أتى في فعله بشيء عديم الفائدة فكان فيه حظ من العبث.

{ **وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** } فهم قد حسبوا ذلك حقيقة بلا تنزيل، وهذا من تمام الإنكار.

{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } [116]

تفرَّع على ما تقدّم بيانه من دلائل الوحدانيّة والقدرة والحكمة ظهور أنّ الله هو الملك الذي ليس في اتصافه بالملك شائبة من معنى الملك، فملكه الملك الكامل في حقيقته، الشامل في نفاذه.

التعالي: مبالغة في العلو. وأُتبع ذلك بما هو دليل عليه وهو انفراده بالإلهية وذلك وصف ذاتي، وبأنّه مالك أعظم المخلوقات أعني العرش وذلك دليل عظمة القدرة.

{ **المَلِكُ** } التعريف للجنس.

الحقّ: ما قابل الباطل، ومفهوم الصفة يقتضي أنّ ملك غيره باطل، أي: فيه شائبة الباطل لا من وجهة الجور والظلم، لأنه قد يوجد ملك لا جور فيه ولا ظلم كملك الأنبياء، بل من جهة أنّه غير مستكمل حقيقة المالكية.

{ **الكَرِيمِ** } بالجر صفة العرش. وكرم الجنس أن يكون مستوفيا فضائل جنسه كما في قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[117]

لمّا كان أعظم ما دعا الله إليه توحيده، وكان أصل ضلالة المشركين إشراكهم، أعقب وصف الله بالعلو العظيم والقدرة الواسعة ببيان أنّ الحساب الواقع بعد البعث ينال الذين دعوا مع الله آلهة، دعوى لا عذر لهم فيها لأنها عريَّة عن البرهان، لأنّهم لم يثبتوا لله الملك الكامل إذ أشركوا معه آلهة، ولم يثبتوا ما يقتضي له عظيم التصرّف، إذ أشركوا معه تصرّف آلهة.

{ **فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ** } قصر حقيقي. وفيه إثبات الحساب وأنّه لله وحده، وفيه تخطئتهم وتهديدهم.

ويجوز أن يكون القصر إضافيا، تطمينا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله لا يؤاخذه باستمرارهم على الكفر كقوله { إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ } [الشورى:48] وقوله { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3].

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** } تذييل، وفيه ضرب من ردّ العجز على الصدر، إذ افتتحت السورة بـ { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } وختمت بـ { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }، وهو نفي الفلاح عن الكافرين ضدّ المؤمنين.

{ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ }[118]

عطف على جملة { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } باعتبار قوله { فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ }. فإنّ المقصود من الجملة خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يدعو ربه بالمغفرة والرحمة.

{ **اغْفِرْ وَارْحَمْ** } وفي حذف المتعلّق تفويض الأمر إلى الله في تعيين المغفور لهم والمرحومين، والمراد من كانوا من المؤمنين. ويجوز أن يكون المعنى اغفر لي وارحمني، بقرينة المقام.

وأمره بأن يدعو بذلك يتضمّن وعدا بالإجابة.

وهذا الكلام مؤذن بانتهاء السورة فهو من براعة المقطع.

الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء الثامن

(النور - الفرقان – الشعراء – النمل – القصص)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2024

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

سمّيت هذه السورة سورة النور من عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم. وعن حارثة بن مضر: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلّموا سورة النساء والأحزاب والنور. وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنّة، ولا يعرف لها اسم آخر. ووجه التسمية أنّ فيها آية { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

وهي مدنيّة باتفاق أهل العلم ولا يعرف مخالف في ذلك.

وسيأتي أنّ سبب نزول قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } قضية مرثد ابن أبي مرثد مع عَناق. ومرثد بن أبي مرثد استشهد في صفر سنة ثلاث للهجرة في غزوة الرجيع، فيكون أوائل هذه السورة نزل قبل سنة ثلاث، والأقرب، أن يكون في أواخر السنة الأولى أو أوائل السنة الثانية أيام كان المسلمون يتلاحقون للهجرة وكان المشركون جعلوهم كالأسرى.

ومن آياتها آيات قصة الإفك وهي نازلة عقب غزوة بني المصطلق من خزاعة. والأصح أنّ غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع فإنّها قبل غزوة الخندق.

ومن آياتها { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ } نزلت في شعبان سنة تسع بعد غزوة تبوك فتكون تلك الآيات ممّا نزل بعد نزول أوائل هذه السورة وهذا يقتضي أنّ هذه السورة نزلت منجّمة متفرقة في مدة طويلة وألحق بعض آياتها ببعض.

وقد عُدَّت هذه السورة المائة في ترتيب نزول سور القرآن عند جابر ابن زيد عن ابن عباس. قال: نزلت بعد سورة { إذا جاء نصر الله } وقبل سورة الحج، أي: عند القائلين بأنّ سورة الحج مدنية.

وآيها اثنتان وستون في عدّ المدينة ومكة، وأربع وستون في عد البقية.

أغراض السورة

*/ أحكام معاشرة الرجال للنساء.

*/ من آداب الخلطة والزيارة.

*/ أوّل ما نزلت بسببه قضية التزوّج بامرأة اشتهرت بالزنى وصُدِّر ذلك ببيان حدّ الزنى.

*/ عقاب الذين يقذفون المحصنات.

*/ حكم اللعان.

*/ التعرّض إلى براءة عائشة رضي الله عنها ممّا أرجفه عليها أهل النفاق، وعقابهم، والذين شاركوهم.

*/ الزجر عن حبّ إشاعة الفواحش بين المؤمنين والمؤمنات.

*/ الأمر بالصفح عن الأذى مع الإشارة إلى قضية مسطح بن أثاثة.

*/ أحكام الاستئذان في الدخول إلى بيوت الناس المسكونة، ودخول البيوت غير المسكونة.

*/ آداب المسلمين والمسلمات في المخالطة وإفشاء السلام.

*/ التحريض على تزويج العبيد والإماء.

*/ التحريض على مكاتبتهم، أي: إعتاقهم على عوض يدفعونه لمالكيهم.

*/ تحريم البغاء الذي كان شائعا في الجاهلية، والأمر بالعفاف.

*/ ذمّ أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويّتهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم.

*/ التحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.

*/ ضرب المثل لهدي الإيمان وضلال الكفر.

*/ التنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها.

*/ تخلّل ذلك وصف عظمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته وما فيها من منن على الناس.

*/ أردف ذلك بوصف ما أعدّه الله للمؤمنين، وأنّ الله علم بما يضمره كل أحد وأن المرجع إليه والجزاء بيده.

{ **سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } [1]

اسم الإشارة المقدّر يشير إلى حاضر في السمع وهو الكلام المتتالي، فكلّ ما ينزل من هذه السورة وألحق بها من الآيات فهو من المشار إليه باسم الإشارة المقدّر (هذه).

سورة: جزء من القرآن معيّن بمبدأ ونهاية وعدد آيات. وتقدّم بيانه في المقدّمة الثامنة.

{ **أَنْزَلْنَاهَا** } وما عطف عليها في موضع الصفة لسورة. والمقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السورة ليقبل المسلمون بشراشرهم على تلقّي ما فيها. وفي ذلك امتنان على الأمّة لتحديد أحكام سيرتها في أحوالها. وعبّر عن إنزالها بصيغة الماضي، وإنّما هو واقع في الحال، باعتبار إرادة إنزالها، فكأنّه قيل: أردنا إنزالها وإبلاغها، فجعل ذلك الاعتناء كالماضي حرصا عليه.

{ **وَفَرَضْنَاهَا** } المعنى عند المفسرين: أوجبنا العمل بما فيها. وإنّما يليق هذا التفسير بالنظر إلى معظم هذه السورة لا إلى جميعها. فالذي أختاره أن يكون الفرض هنا بمعنى التعيين والتقدير، كقوله تعالى { نَصِيباً مَفْرُوضاً } [النساء:7]، وقوله { مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ } [الأحزاب:38] .

وتعدية فعل فرضنا إلى ضمير السورة من قبيل ما يعبّر عنه في مسائل أصول الفقه من إضافة الأحكام إلى الأعيان بإرادة أحوالها، مثل { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3]، أي أكلها. فالمعنى: وفرضنا آياتها.

{ **وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** } تنويه آخر بهذه السورة، تنويه بكلّ آية اشتملت عليها السورة؛ من الهدي إلى التوحيد، وحقّيّة الإسلام، ومن حجج وتمثيل، وما في دلائل صنع الله على سعة قدرته وعلمه وحكمته، وهي ما أشار إليه قوله { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [34]. ومن الآيات البيّنات التي أنزلت فيها اطلاع الله رسوله على دخائل المنافقين ممّا كتموه في نفوسهم من قوله { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ - إلى قوله - إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [48-53]، فحصل التنويه بمجموع السورة ابتداء والتنويه بكلّ جزء منها ثانيا.

الآيات: جمع آية وهي قطعة من الكلام القرآني دالة على معنى مستقلّ. وتقدّم بيانها في المقدمة الثامنة.

بيّنات: واضحات، مجاز عقلي لأنّ البيّن هو معانيها.

وأعيد فعل الإنزال، مع إغناء حرف العطف عنه، لإظهار مزيد العناية بها.

{ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } مرتبطة بجملة { أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } لأن الآيات بهذا المعنى مظنّة التذكّر. فحصل بهذا الرجاء وصف آخر للسورة هو أنّها مبعث تذكّر وعظة.

التذكر: خُطُور ما كان منسيًّا في الذهن، وهو هنا مستعار لاكتساب العلم من أدلّته اليقينية بجعله كالعلم الحاصل من قبل فنسيه الذهن، أي: العلم الذي شأنه أن يكون معلوما، فشبه جهله بالنسيان.

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [2]

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } كالعنوان والترجمة في التبويب فلذلك أتي بعده بالفاء المؤذنة بأنّ ما بعدها في قوّة الجواب، وأنّ ما قبلها في قوّة الشرط. فالتقدير: إن أردتم حكمهما فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة. ومن صرفوا ذهنهم عن هذه الدقائق في الاستعمال قالوا: الفاء زائدة في الخبر.

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي } صيغة اسم الفاعل بمنزلة الفعل المضارع في الدلالة على الاتصاف بالحدث في زمن الحال، فكأنّه قيل: التي تزني والذي يزني فاجلدوا كلّ واحد منهما.

ثم يجوز أن تكون قصّة مرثد بن أبي مرثد النازل فيها قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } هي سبب نزول أوّل هذه السورة، فتكون آية { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } هي المقصد الأوّل من هذه السورة ويكون قوله { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } تمهيدا ومقدّمة، فإنّ تشنيع حال البغايا جدير بأن يقدّم.

وتقديم المرأة في الذكر لأنّه أشدّ في تحذيرها.

الزنى: اسم مصدر زنى، وهو الجماع بين الرجل والمرأة اللذين لا يحلّ أحدهما للآخر، يقال: زنى الرجل وزنت المرأة، ويقال: زانى بصيغة المفاعلة لأنّ الفعل حاصل من فاعلين ولذلك جاء مصدره الزناء بالمد أيضا بوزن الفعال ويخفّف همزه فيصير اسما مقصورا.

وأكثر ما كان في الجاهلية أن يكون بداعي المحبّة والموافقة بين الرجل والمرأة دون عوض، فإن كان بعوض فهو البغاء. يكون في الحرائر ويغلب في الإماء وكانوا يجهرون به فكانت البغايا يجعلن رايات على بيوتهن. وكل ذلك يشمله اسم الزنى في اصطلاح القرآن وفي الحكم الشرعي.

وتقدم ذكر الزنى في قوله تعالى { وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى } [الإسراء:32].

الجلد: الضرب بسير من جلد. مشتقّ من الجِلد (بكسر الجيم) لأنّه ضرب الجلد. أي: البشرة، كما يقال: جَبَهَه إذا ضرب جبهته، وبَطَنَه إذا ضرب بطنه، ورَأَسَه إذا ضرب رأسه.

قال في الكشّاف: " وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم ". أي: لا يكون الضرب يطير الجلد حتى يظهر اللحم، فاختيار هذا اللفظ دون الضرب مقصود به الإشارة إلى هذا المعنى.

واتفق فقهاء الأمصار على: أن ضرب الجلد بالسَّوط. والسوط: هو ما يضرب به الراكب الفرس، وهو جلد مضفور، وأن يكون السوط متوسّط اللين، وأن يكون رفع يد الضارب متوسّطا. ومحل الجلد هو الظهر عند مالك، وقال الشافعي: تضرب سائر الأعضاء ما عدا الوجه والفرج. وأجمعوا على ترك الضرب على المقاتل

{ **كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا** } تأكيد للعموم المستفاد من التعريف.

{ **فَاجْلِدُوا** } الخطاب موجّه إلى المسلمين فيقوم به من يتولى أمور المسلمين من الأمراء والقضاة ولا يتولاه الأولياء. قال أبو حنيفة: لا يقيمه إلّا الإمام.

وكان أهل الجاهلية لا يعاقبون على الزنى لأنّه بالتراضي بين الرجل والمرأة إلّا إذا كان للمرأة زوج أو ولي يذبّ عن عرضه بنفسه.

{ **مِائَةَ جَلْدَةٍ** } فرض حدّ الزنى بهذه الآية جلد مائة، فعمّ المحصن وغيره، وخصّصته السنّة بغير المحصن من الرجال والنساء. فأمّا من أحصن منهما، أي تزوّج بعقد صحيح ووقع الدخول فإنّ الزاني المحصن حدّه الرجم بالحجارة حتّى يموت. وكان ذلك سنة متواترة في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ورجم ماعز ابن مالك. وأجمع على ذلك العلماء وكان ذلك الإجماع أثرا من آثار تواترها.

والخوارج بأجمعهم يرون هذه الآية على عمومها في المحصن وغيره ولا يرون الرجم ويقولون: ليس في كتاب الله الرجم فلا رجم.

وقد ثبت بالسنة أيضا تغريب الزاني بعد جلده تغريب سنة كاملة، ولا تغريب على المرأة. وليس التغريب عند أبي حنيفة بمتعيّن، ولكنّه لاجتهاد الإمام إن رأى تغريبه لدعارته.

{ **وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } فلمّا كان الجلد موجعا وكان المباشر له قد يرقّ على المجلود من وجعه نهي المسلمون أن تأخذهم رأفة فيتركوا الحدّ أو ينقصوه.

الأخذ: حقيقته الاستيلاء. وهو هنا مستعار لشدّة تأثير الرأفة على المخاطبين وامتلاكها إرادتهم بحيث يضعفون عن إقامة الحدّ فيكون كقوله { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206]، فهو مستعمل في قوة ملابسة الوصف للموصوف.

الرأفة: رحمة خاصة تنشأ عند مشاهدة ضرّ بالمرؤوف. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [البقرة:143].

{ **فِي دِينِ اللَّهِ** } لإفادة أنّها رأفة غير محمودة لأنّها تعطّل دين الله، أي: أحكامه، وإنّما شرع الله الحدّ استصلاحا، فكانت الرأفة في إقامته فسادا. وفيه تعريض بأنّ الله الذي شرع الحدّ هو أرأف بعباده.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } شرط محذوف الجواب لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تأخذكم بهما رأفة. وهذا صادر مصدر التلهيب والتهييج حتّى يقول السامع: كيف لا أومن بالله واليوم الآخر.

{ **وَالْيَوْمِ الآخِرِ** } للتذكير بأنّ الرأفة بهما في تعطيل الحد أو نقصه نسيان لليوم الآخر، فإنّ تلك الرأفة تفضي بهما إلى أن يؤخذ منهما العقاب يوم القيامة، فهي رأفة ضارة كرأفة ترك الدواء للمريض، فإنّ الحدود جوابر على ما تؤذن به أدلّة الشريعة.

{ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } أمر أن تحضر جماعة من المسلمين إقامة حدّ الزنا تحقيقا لإقامة الحدّ وحذرا من التساهل فيه فإنّ الإخفاء ذريعة للإنساء. وفيه فائدة أخرى وهي أنّ من مقاصد الحدود مع عقوبة الجاني أن يرتدع غيره.

الطائفة: الجماعة من الناس. وقد تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102].

وقد اختلف في ضبط عددها هنا. والظاهر أنّه عدد تحصل بخبره الاستفاضة وهو يختلف باختلاف الأمكنة. والمشهور عن مالك الاثنان فصاعدا، وقال ابن أبي زيد: أربعة، اعتبارا بشهادة الزنا. وقيل عشرة.

وظاهر الأمر **يقتضي وجوب** حضور طائفة للحد. وحمله الحنفية على **الندب** وكذلك الشافعية، ولم أقف على تصريح بحكمه في المذهب المالكي. ويظهر من إطلاق المفسّرين وأصحاب الأحكام من المالكية ومن اختلافهم في أقل ما يجزئ من عدد الطائفة أنّه يحمل على الوجوب، إذ هو محمل الأمر عند مالك. وأيّا ما كان حكمه فهو في الكفاية ولا يطالب به من له بالمحدود مزيد صلة يحزنه أن يشاهد إقامة الحدّ عليه.

{ الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [3]

هذه الآية نزلت مستقلّة بأوّلها ونهايتها كما يأتي قريبا في ذكر سبب نزولها، سواء كان نزولها قبل الآيات التي افتتحت بها السورة أم كان نزولها بعد تلك الآيات. فهذه الجملة ابتدائية، ومناسبة موقعها بعد الجملة التي قبلها واضحة.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه أبو داود وما رواه الترمذي وصححه وحسنه: " أنّه كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي من المسلمين كان يخرج من المدينة إلى مكّة يحمل الأسرى [أي: الذين أوثقهم المشركون بمكة لأجل إيمانهم ولم يتركوهم يهاجرون إلى المدينة، فكان مرثد يحملهم إلى المدينة سرا] فيأتي بهم إلى المدينة. وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق، وكانت خليلة له، وأنّه كان وعد رجلا من أسارى مكّة ليحمله. قال: فجئت حتى انتهيت إلى حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة. فقال: فجاءت عناق فقالت: مرثد؟ قلت: مرثد. قالت: مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة. قال فقلت: حرّم الله الزنى. فقالت عناق: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، فتبعني ثمانية من المشركين (...) قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته ففككت عنه كبله حتّى قدمت المدينة فأتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله أنكح عناق ؟ فأمسك رسول الله فلم يرد عليّ شيئا حتّى نزلت { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } قال رسول الله: **" يا مرثد لا تنكحها "**.

فتبيّن أنّ هذه الآية نزلت جوابا عن سؤال مرثد بن أبي مرثد هل يتزوّج عناق. ومثار ما يشكل ويعضل من معناها: أنّ النكاح هنا عقد التزوّج كما جزم به المحقّقون من المفسّرين مثل الزجاج والزمخشري وغيرهما. وأنّه لا تردّد في أنّ هذه الآية نزلت بعد تحريم الزنى إذ كان تحريم الزنى من أوّل ما شرع من الأحكام في الإسلام كما في الآيات الكثيرة النازلة بمكّة.

وأنّه يلوح في بادئ النظر من ظاهر الآية أن صدرها إلى قوله { أَوْ مُشْرِكٌ } إخبار عن حال تزوّج امرأة زانية وأنّه ليس لتشريع حكم النكاح بين الزناة المسلمين، ولا نكاح بين المشركين. فإذا كان إخبارا لم يستقم معنى الآية إذ الزاني قد ينكح الحصينة والمشرك قد ينكح الحصينة وهو الأكثر فلا يستقيم لقوله { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} معنًى، وأيضا الزانية قد ينكحها المسلم العفيف لرغبة في جمالها أو لينقذها من عهر الزنى وما هو بزان ولا مشرك فلا يستقيم معنى لقوله { وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ }.

وإنّنا لو تنازلنا وقبلنا أن تكون لتشريع حكم فالإشكال أقوى إذ لا معنى لتشريع حكم نكاح الزاني والزانية والمشرك والمشركة فتعين تأويل الآية بما يفيد معنًى معتبرا.

والوجه في تأويلها: أن مجموع الآية مقصود منه التشريع دون الإخبار لأنّ الله قال في آخرها { وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }. ولأنّها نزلت جوابا عن سؤال مرثد تزويجه عناق وهي زانية ومشركة ومرثد مسلم تقي. غير أن صدر الآية ليس هو المقصود بالتشريع، بل هو تمهيد لآخرها مشير إلى تعليل ما شُرع في آخرها، وفيه ما يفسّر مرجع اسم لإشارة الواقع في قوله { وَحُرَّمَ ذَلِكَ }، وأنّ حكمها عام لمرثد وغيره من المسلمين بحق عموم لفظ { الْمُؤْمِنِينَ }.

وينبني على هذا التأصيل أن قوله { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } تمهيد للحكم المقصود الذي في قوله { وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } وأنّه مسوق مساق الإخبار دون التشريع فيتعيّن أن المراد من لفظ { الزَّانِي } المعنى الاسمي لاسم الفاعل، وهو معنى التلبّس بمصدره دون معنى الحدوث. إذ يجب أن لا يُغفل عن كون اسم الفاعل له شائبتان: شائبة كونه مشتقا من المصدر فهو بذلك بمنزلة الفعل المضارع، فضارب يشبه يضرب في إفادة حصول الحدث من فاعل، وشائبة دلالته على ذات متلبّسة بحدث فهو بتلك الشائبة يقوى فيه جانب الأسماء الدالة على الذوات. وحمله في هذه الآية على المعنى الاسمي تقتضيه قرينة السياق إذ لا يفهم أن يكون المعنى أن الذي يُحدث الزنى لا يتزوج إلّا زانية لانتفاء جدوى تشريع منع حالة من حالات النكاح عن الذي أتى الزنى. وهذا على عكس محمل قوله { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } فإنّه بالمعنى الوصفي، أي: التلبّس بإحداث الزنى حسبما حملناه على ذلك آنفا بقرينة سياق ترتّب الجلد على الوصف، إذ الجلد عقوبة إنّما تترتّب على إحداث جريمة توجبها.

فتمخض أن يكون المراد من قوله { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ...}. من كان الزنى دأبا له قبل الإسلام وتخلّق

به ثم أسلم وأراد تزوّج امرأة ملازمة للزنى مثل البغايا ومتّخذات الأخدان (ولا يكنّ إلّا غير مسلمات لا محالة) فنهى الله المسلمين عن تزوّج مثلها بقوله { وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }. وقدّم له ما يفيد تشويهه بأنّه لا يلائم حال المسلم وإنّما هو شأن أهل الزنى، أي: غير المؤمنين، لأنّ المؤمن لا يكون الزنى له دأبا، ولو صدر منه لكان على سبيل الفلتة كما وقع لماعز بن مالك.

فالكلام تمهيد وليس بتشريع، لأنّ الزاني، بمعنى من الزنى له عادة، لا يكون مؤمنا فلا تشرّع له أحكام الإسلام. وهذا من قبيل قوله تعالى { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ } [26]، وهذا يتضمّن أنّ المسلم إذا تزوج زانية فقد وضع نفسه في صف الزناة، أي: المشركين.

وعطف { أَوْ مُشْرِكَةً } على { زَانِيَةً } لزيادة التفظيع، فإنّ الزانية غير المسلمة قد تكون غير مشركة مثل زواني اليهود والنصارى وبغاياهما. وكذلك عطف { أَو مُشْرِك } على { إِلَّا زَانٍ} لظهور أنّ المقام ليس بصدد التشريع للمشركات والمشركين أحكام التزوج بينهم إذ ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة.

فتمحّض من هذا أنّ المؤمن الصالح لا يتزوّج الزانية. ذلك لأنّ الدربة على الزنى يتكوّن بها خلق يناسب أحوال الزناة من الرجال والنساء فلا يرغب في معاشرة الزانية إلّا من تروق له أخلاق أمثالها، وقد كان المسلمون أيّامئذ قريبي عهد بشرك وجاهلية فكان من مهم سياسة الشريعة للمسلمين التباعد بهم عن كل ما يُستروَح منه أن يذكّرهم بما كانوا يألفونه، قصد أن تصير أخلاق الإسلام ملكات فيهم فأراد الله أن يبعدهم عمّا قد يُجدّد فيهم أخلاقا أوشكوا أن ينسوها.

فموقع هذه الآية موقع المقصود من الكلام بعد المقدّمة ولذلك جاءت مستأنفة كما تقع النتائج بعد أدلّتها، وقدّم قبلها حكم عقوبة الزنى لإفادة حكمه وما يقتضيه ذلك من تشنيع فعله. فلذلك فالمراد بالزاني: من وصف الزنى عادته.

وابتدئ في هذه الآية بذكر الزاني قبل ذكر الزانية على عكس ما تقدّم في قوله { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } فإنّ وجه تقديم الزانية في الآية السابقة هو ما عرفته، فأمّا هنا فإنّ سبب نزول هذه الآية كان رغبة رجل في تزوّج امرأة تعوّدت الزنى فكان المقام مقتضيا الاهتمام بما يترتّب على هذا السؤال من مذمّة الرجل الذي يتزوّج مثل تلك المرأة.

{ **وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** } ميل للمقصود من الجملتين قبلها، وهو تصريح بما أريد من تفظيع نكاح الزانية وببيان الحكم الشرعي في القضية.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى المعنى الذي تضمّنته الجملتان من قبل وهو نكاح الزانية.

ومن العلماء من حمل الآية على ظاهرها من التحريم وقالوا: هذا حكم منسوخ نسختها الآية بعدها { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ } دخلت الزانية في الأيامي، أي: بعد أنّ استقر الإسلام وذهب الخوف على المسلمين من أن

تعاودهم أخلاق أهل الجاهلية. وروي هذا عن سعيد بن المسيب وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عمر، وبه أخذ مالك وأبو حنيفة والشافعي.
وقال الخطابي: هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة فأمّا الزانية المسلمة فإنّ العقد عليها لا يفسخ.

{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [4] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5] }.
كان فاشيا في الجاهلية رمي بعضهم بعضا بالزنى إذا رأوا بين النساء والرجال تعارفا أو محادثة. وكان فاشيا فيهم الطعن في الأنساب بهتانا إذا رأوا قلّة شبه بين الأب والابن، فكان ممّا يقترن بحكم حدّ الزنى أن يذيّل بحكم الذين يرمون المحصنات بالزنا إذا كانوا غير أزواجهنّ وهو **حدّ القذف**.
الرمي: حقيقته قذف شيء من اليد. وشاع استعماله في نسبة فعل أو وصف إلى شخص. وتقدّم في قوله تعالى { ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً } [النساء:112].
المحصنات: هنّ المتزوّجات. والإحصان: الدخول بزوج بعقد النكاح. والمحصَن: اسم مفعول من أحصن الشيء إذا منعه من الإضاعة واستيلاء الغير عليه، فالزوج يُحصن امرأته، أي: يمنعها من الإهمال واعتداء الرجال. وهذا كتسمية الأبكار ومخدَّرات ومقصورات، وتقدّم في سورة النساء.
{ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ** } أسند الفعل إلى اسم الموصول المذكّر وضمائر { تَابُوا – وَأَصْلَحُوا } وكذلك وصف { الفَاسِقُونَ } بصيغ التذكير. وعدّي فعل الرمي إلى مفعول { الْمُحْصَنَاتِ } بصيغة الإناث كلّ ذلك بناء على الغالب أو على مراعاة قصّة كانت سبب نزول الآية. إذ قد سوّى الإسلام التحريم والحدّ والعقاب الآجل والذمّ العاجل بين المرأة والرجل.
{ **بِأَرْبَعَةِ** } من البيّن أنّهم غير القاذف، لأنّ معنى { يَأْتُوا } لا يتحقّق فيما إذا كان القاذف من جملة الشهداء.
{ **شُهَدَاءَ** } حذف المتعلّق لظهور أنّهم شهداء على إثبات ما رمى به القاذف، أي: إثبات وقوع الزنى.
الجلد: تقدّم آنفا. وشرع هذا الجلد عقابا للرامي بالكذب أو بدون تثبّت، ولسد ذريعة ذلك.
{ **وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً** } لأنّه لمّا قذف بدون إثبات قد دلّ على تساهله في الشهادة فكان حقيقا بأن لا يؤخذ بشهادته.
الأبد: الزمن المستقبل كله.
{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } الحصر للمبالغة في شناعة فسقهم حتّى كأنّ ما عداه من الفسوق لا يعدّ فسقا.

{ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا** } الاستثناء حقّه أن يعود إلى جميع ما تقدّم قبله كما هو شأن الاستثناء عند الجمهور إلّا أنّه هنا راجع إلى خصوص عدم قبول شهادتهم وإثبات فسقهم وغير راجع إلى إقامة الحد، بقرينة **{مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}** أي: بعد أن تحقّقت الأحكام الثلاثة، فالحدّ قد فات. على أنّه قد علم من استقراء الشريعة أنّ الحدود الشرعية لا تسقطها توبة مقترف موجبها.

التوبة: الإقلاع والندم وظهور عزمه على ألّا يعود لمثل ذلك.

وعند الجمهور، ليس من شرط التوبة هنا أن يُكذّب نفسه فيما قذف به، وهو قول مالك، لأنّه قد يكون صادقا، ولكنّه عجز عن إثبات ذلك بأربعة شهداء على الصفة المعلومة، فتوبته أن يُصلح ويحسن حاله.

وقال قوم: لا تعتبر توبته حتى يكذّب نفسه. وهذا قول عمر بن الخطاب والشعبي.

{ **أَصْلَحُوا** } فعلوا الصلاح، أي: صاروا صالحين. فمفعول الفعل محذوف دلّ عليه السياق، أي: اصلحوا أنفسهم باجتناب ما نهوا عنه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا } [البقرة:160].

{ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي: فإنّ الله أمر بالمغفرة لهم لأنّه غفور رحيم، كما في قوله { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة:160].

وإنّما صرّح في آية البقرة بما قُدّر نظيره هنا لأنّ المقام هنالك مقام إطناب لشدّة الاهتمام بأمرهم إذ ثابوا إلى الإيمان والإصلاح وبيان ما أنزل إليهم من الهدى بعد ما كتموه وكتمه سلفهم.

وظاهر الآية يقتضي أنّ حدّ القذف حقّ لله تعالى، وهو قول أبي حنيفة. وقال **مالك والشافعي**: **حقّ المقذوف**. وترتّب على الخلاف سقوطه بالعفو من المقذوف.

وهذه الآية أصل في حد الفرية والقذف الذي كان أوّل ظهوره في رمي المحصنات بالزنى. فكلّ رمي بما فيه معرّة موجب للحدّ بالإجماع المستند للقياس.

{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ [6] وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [7] وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ [8] وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ [9] }.

هذا تخصيص للعمومَين اللذَين في قوله { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } فإنّ من المحصنات من هنّ أزواج لمن يرميهنّ، فخُصَّ هؤلاء الذين يرمون أزواجهم. إذ عُذر الأزواج خاصة في إقدامهم على القول في أزواجهم بالزنى إذا لم يستطيعوا إثباته بأربعة شهداء.

ووجه عذرهم في ذلك ما في نفوس النّاس من سجيّة الغيرة على أزواجهم وعدم احتمال رؤية الزنى بهنّ فدفع عنهم حدّ القذف بما شرع لهم من الملاعنة.

وفي هذا الحكم قبول لقول الزوج في امرأته في الجملة إذا كان متثبّتا، حتّى أنّ المرأة بعد أيمان زوجها تُكلّف بدفع ذلك بأيمانها وإلّا قُبِلَ قوله فيها مع أيمانه فكان بمنزلة شهادة أربعة فكان موجبا حدّها إذا لم تدفع ذلك بأيمانها.

وعلّة ذلك هو أن في نفوس الأزواج وازعا يزعهم عن أن يرموا نساءهم بالفاحشة كذبا، وهو وازع التعيُّر من ذلك، ووازع المحبّة في الأزواج غالبا، ولذلك سمَّى الله ادّعاء الزوج عليها باسم الشهادة بظاهر الاستثناء في قوله { وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ } .

وكانوا في الجاهلية يقتلون على ذلك وكان الرجل مصدَّقًا فيما يدّعيه على امرأته. فمنع الإسلام من ذلك إذ ليس من حقّ أحد إتلاف نفس إلّا الحاكم. ولم يقرّر جعل أرواح الزوجات تحت تصرّف نفسيّات أزواجهنّ.

روى مالك في الموطأ عن سهل بن سعد أنّ عويمرا العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ سل لي يا عاصم رسول الله عن ذلك. فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله المسائل وعابها حتّى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله. فلمّا رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله؟ فقال عاصم لعويمر: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله المسألة التي سألته عنها. فقال عويمر: والله لا أنتهي حتّى أسأله عنها. فقام عويمر حتّى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال: يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" قد أُنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأت بها ".**

قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد علم من أحاديث سبب نزول الآية، ومن علّة تخصيص الأزواج في حكم القذف بحكم خاص، ومن لفظ { يَرْمُونَ }، ومن ذكر الشهداء، أنّ اللعان رخصة منّ الله بها على الأزواج في أحوال الضرورة فلا تتعداها.

قال مالك في المشهور عنه وآخر قوليه، وجماعة: لا يلاعن بين الزوجين إلى إذا ادعى الزوج رؤية امرأته تزني أو نفى حملها نفيا مستندا إلى حدوث الحمل بعد تحقّق براءة رحم زوجه وعدم قربانه إيّاها، فإن لم يكن كذلك ورماها بالزنى، أي: بمجرّد السماع أو برؤية رجل في البيت في غير حال الزنى، أو بقوله لها: يا زانية، أو نحو ذلك مما يجري مجرى السب والشتم فلا يشرع اللعان، ويحدّ الزوج في هذه الأحوال حدّ القذف لأنّه افتراء لا بيّنة عليه ولا عذر يقتضي تخصيصه، إذ العذر هو عدم تحمّل رؤية امرأته تزني وعدم تحمل رؤية حمل يتحقق أنّه ليس منه.

وقال أبو حنيفة والشافعي والجمهور: إذا قال تحمُّلًا لها: يا زانية، وجب اللعان، ذهابا منهم إلى أنّ اللعان بين الزوجين يجري في مجرّد القذف أيضا، تمسكا بمطلق لفظ { يُرْمُونَ }.

ويقدح في قياسهم أنّ بين دعوى الزنى على المرأة وبين السب بألفاظ فيها نسبة إلى الزنا فرقا بيّنا عند الفقيه. وتسمية القرآن أيمان اللعان شهادة يومئ إلى أنّها لردّ دعوى، وشرط ترتب الآثار على الدعوى أن تكون محققة، فقول مالك أرجح من قول الجمهور لأنه أغوص على الحقيقة الشرعية.

{ **فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** } لمّا تعذّر على الأزواج إلفاء الشهادة في مثل هذا الحال وعذرهم الله في الادعاء بذلك ولم يترك الأمر سبهللًا ولا ترك النساء مضغة في أفواه من يريدون التشهير بهنّ من أزواجهن لشقاق أو غيظ مفرط أو حماقة كلّف الأزواج شهادة لا تعسر عليهم إن كانوا صادقين فيما يدّعون، فأوجب عليهم الحلف بالله أربع مرات لتقوم الأيمان مقام الشهود الأربعة المفروضين.

وسُمِّي اليمين شهادة لأنّه بدل منها فهو مجاز بعلاقة الحلول الاعتباري.

ولأجل المحافظة على هذه البدلية اشترط أن تكون أيمان اللعان بصيغة: (**أشهد بالله**)عند الأئمة الأربعة. وأمّا ما بعد صيغة أشهد فيكون كاليمين على حسب الدعوى التي حلف عليها بلفظ لا احتمال فيه.

وقرأ الجمهور بنصب { أَرْبَعَ } على أنه مفعول مطلق لشهادة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالرفع على أنّه خبر المبتدأ وجملة { إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } إلى آخرها بدل.

ولا خلاف بين القراء في نصب { أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ }.

{ **إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** } حكاية للفظ اليمين مع كون الضمير مراعى فيه سياق الغيبة، أي: يقول: أنّي لمن الصادقين فيما ادعيت عليها.

{ **وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** } التقدير: والشهادة الخامسة. وليس لها مقابل في عدد شهود الزنى. فلعلّ حكمة زيادة هذه اليمين مع الأيمان الأربع القائمة مقام الشهود الأربعة أنّها لتقوية الأيمان الأربع باستذكار ما يترتب على أيمانه، أن كانت غموسا، من الحرمان من رحمة الله تعالى. وهذا هو وجه كونها مخالفة في صيغتها لصيغ الشهادات الأربع التي تقدّمتها.

{ **أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ** } لأنّه، إن كان كاذبا، فقد عرّض بامرأته للعنة الناس ونبذ الأزواج إيّاها فناسب أن يكون جزاؤه اللعنة.

اللعنة واللعن: الإبعاد بتحقير. وقد تقدّم في قوله { وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [الحجر:35].

واعلم أنّ الزوج إن سمّى رجلا معيّنا زنى بامرأته صار قاذفا له، زيادة على قذفه المرأة، وأنّه إذا لاعن وأتم اللعان سقط عنه حدّ القذف للمرأة، وهو ظاهر، ويبقى النظر في قذفه ذلك الرجل الذي نسب إليه الزنى. وقد اختلف الأئمة في سقوط حدّ القذف للرجل:

قال الشافعي: يسقط عنه حدّ القذف للرجل لأنّ الله تعالى لم يذكر إلّا حدًّا واحدا، ولأنّه لم يثبت بالسنّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام حدّ الفرية على عويمر العجلاني ولا على هلال أبن أميّة بعد اللعان.

قال مالك و أبو حنيفة: يسقط اللعان حدّ الملاعن لقذف امرأته ولا يسقط حدّ القذف لرجل سمّاه، والحجّة لهما بأنّ الله شرع حدّ القذف.

{ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } ولمّا كانت هذه الأيمان مقتضية صدق دعوى الزوج على المرأة كان من أثر ذلك أن تعتبر المرأة زانية أو أن يكون حملها ليس منه فهو من زنى لأنّها في عصمة فكان ذلك مقتضيا أن يقام عليها حدّ الزنى، فلم تهمل الشريعة حقّ المرأة ولم تجعلها مأخوذة بأيمان قد يكون حالفها كاذبا فيها، فجعل للزوجة معارضة أيمان زوجها، كما جعل للمشهود عليه الطعن في الشهادة بالتجريح أو المعارضة.

الدرء: الدفع بقوّة، واستعير هنا للإبطال. وتقدّم عند قوله تعالى { وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } [الرعد:22].

{ الْعَذَابَ } التعريف للعهد لتقدّم ذكر العذاب في قوله { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .

يؤخذ من الآية أنّ المرأة إذا لم تحلف أيمان اللعان أقيم عليها الحدّ. وهذا هو الذي تشهد به روايات حديث اللعان في السنّة. وقال أبو حنيفة: اللعان لم تحد لأن الحد عنده لا يكون إلا بشهادة شهود أو إقرار.

{ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } عُيّن لها في الخامسة الدعاء بغضب الله عليها إن صدق زوجها لأنّها أغضبت زوجها بفعلها فناسب أن يكون جزاؤها على ذلك غضب ربّها عليها كما أغضبت بعلها.

وتتفرع من أحكام اللعان فروع كثيرة هي من موضوع كتب الفروع.

{ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ } [10]

تذييل لما مرّ من الأحكام العظيمة المشتملة على التفضّل من الله والرحمة منه، والمؤذنه بأنّه توّاب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته تعالى إذ وضع الشدّة موضعها والرفق موضعه، وكفّ بعض الناس عن بعض، فلمّا دخلت تلك الأحكام تحت كلّي هذه الصفات كان ذكر الصفات تذييلا.

{ وَلَوْلا } الجواب محذوف لقصد تهويل مضمونه. والتقدير: لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالب بعضكم على بعض، ولولا رحمة الله بكم فقدّر لكم تخفيضا ممّا شرع

من الزواجر في حالة الاضطرار والعذر لما استطاع أحد أن يسكت على ما يرى من مثار الغيرة، ولولا أنّ الله توّاب حكيم لما ردّ على من تاب فأصلح ما سلبه منه من العدالة وقبول الشهادة.
{ **تَوَّابٌ حَكِيمٌ** } إشارة إلى أنّ في هذه التوبة حكمة وهي استصلاح الناس.

{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [11]

استئناف ابتدائي فإنّ هذه الآيات العشر من قوله { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا - إلى قوله - وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [11-21] نزلت في زمن بعيد عن زمن نزول الآيات السابقة.
الإفك: اسم يدلّ على كذب لا شبهة فيه، فهو بهتان يفجأ الناس. وهو مشتق من **الأفك** (بفتح الهمزة) وهو قلب الشيء، ومنه سُمِّي أهل سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم، قرى قوم لوط أصحاب المؤتفكة لأنّ قراهم ائتفكت، أي قُلبت وخُسف بها فصار أعلاها أسفلها. وتقدّم عند قوله { فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } [الأعراف:117].
{ **جَاءُوا بِالْأِفْكِ** } معناه: قصدوا واهتمّوا. وأصله: أنّ الذي يخبر بخبر غريب يقال له: جاء بخبر كذا، ولأنّ شأن الأخبار الغريبة أن تكون مع الوافدين من أسفار أو المبتعدين عن الحي، فشبّه الخبر بقدوم المسافر أو الوافد على وجه المكنية وجعل المجيء ترشيحا وعُدِّي بباء المصاحبة تكميلا للترشح.
حادثة الإفك: حديث اختلقه المنافقون وراج عند المنافقين ونفر من سذّج المسلمين، إمّا لمجرّد اتباع النعيق وإمّا لإحداث الفتنة بين المسلمين. وحاصل هذا الخبر: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا قفل من غزوة بني المصطلق من خزاعة، (وتسمّى غزوة المريسيع) ولم تبق بينه وبين المدينة إلّا مرحلة، آذن بالرحيل آخر الليل. فلمّا علمت عائشة بذلك خرجت من هودجها وابتعدت عن الجيش لقضاء شأنها كما هو شأن النساء قبل الترحّل فلمّا فرغت أقبلت إلى رحلها فافتقدت عقدا من جزع ظَفار كان في صدرها فرجعت على طريقها تلتمسه فحبسها طلبه وكان ليل. فلمّا وجدته رجعت إلى حيث وُضع رحلها فلم تجد الجيش ولا رحلها، وذلك أنّ الرجال الموكّلين بالترحّل قصدوا الهودج فاحتملوه وهم يحسبون أنّ عائشة فيه، وكانت خفيفة قليلة اللحم، فرفعوا الهودج وساروا، فلمّا لم تجد أحدا اضطجعت في مكانها رجاء أن يفتقدوها فيرجعوا إليها فنامت وكان صفوان بن المعطِل (بكسر الطاء) السُّلَمي (بضم السين وفتح اللام نسبة إلى بني سُليم) وكان مستوطنا المدينة من مهاجرة العرب قد أوكل إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم حراسة ساقة الجيش، فلمّا علم بابتعاد الجيش وأمن عليه من غدر العدو ركب راحلته ليلتحق بالجيش فلمّا بلغ الموضع الذي كان به الجيش بصر بسواد إنسان فإذا هي عائشة وكان قد رآها قبل الحجاب فاسترجع، واستيقظت عائشة بصوت استرجاعه ونزل عن

ناقته وأدناها منها وأناخها فركبتها عائشة وأخذ يقودها حتّى لحق بالجيش في نحر الظهيرة، وكان عبد الله ابن أُبَي بن سلول رأس المنافقين في الجيش فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، فراج قوله على حسان بن ثابت ومِسطَح بن أُثاثة (بكسر ميم مسطح وفتح طائه وضم همزة أثاثة) وحَمنة بنت جحش، أخت زينب أم المؤمنين، حملتها الغيرة لأختها ضرّة عائشة وساعدهم في حديثهم طائفة من المنافقين أصحاب بن سلول.

العصبة: الجماعة من عشرة إلى أربعين، كذا قال جمهور أهل اللغة. وقيل: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة وروي عن ابن عباس. ويقال: عصابة. وقد تقدّم في [يوسف:8].

وذكر عصبة تحقير لهم ولقولهم، أي: لا يُعبأ بقولهم في جانب تزكية جميع الأمّة لمن رموهما بالإفك.

{ **عُصْبَةٌ مِنْكُمْ** } ووصف العصبة بكونهم منكم يدلّ على أنّهم من المسلمين، وفي ذلك تعريض بهم بأنّهم حادوا عن خلق الإسلام حيث تصدّوا لأذى المسلمين.

{ **لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } لإزالة ما حصل في نفوس المؤمنين من الأسف من اجتراء عصبة على هذا البهتان الذي اشتملت عليه القصّة، فضمير تحسبوه عائد إلى الإفك.

والشرّ المحسوب: أنّه أحدث في نفر معصية الكذب والقذف، والمؤمنون يودّون أن تكون جماعتهم خالصة من النقائص. فلما حدث فيهم الاضطراب حسبوه شرا نزل بهم.

ومعنى نفي أن يكون ذلك شرا لهم لأنّه يضيرهم بأكثر من ذلك الأسف الزائل، وهو دون الشرّ، لأنّه آيل إلى توبة المؤمنين منهم، فيتمخّض إثمه للمنافقين، وهم جماعة أخرى لا يضرّ ضلالهم المسلمين.

وقال أبو بكر ابن العربي: حقيقة الخير ما زاد نفعه على ضرّه، وحقيقة الشرّ ما زاد ضرّه على نفعه، وأنّ خيرا لا شرّ فيه هو الجنّة وشرًّا لا خير فيه هو جهنم.

الخير: وتقدم عند قوله تعالى { أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ } [النحل:76].

الإثم: الذنب، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ } [البقرة:219].

{ **وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } تولّي الأمر مباشرة عمله والتهمّم به.

الكِبر: بكسر الكاف في قراءة الجمهور، ويجوز ضم الكاف، وقرأ به يعقوب وحده، ومعناه: أشدّ الشيء ومعظمه، فهما لغتان عند جمهور أئمة اللغة. وقال ابن جنّي والزجّاج: المكسور بمعنى الإثم، والمضموم: معظم الشيء.

<u>والذي تولّى كبره هو عبد الله بن أُبَي بن سلول</u> وهو منافق وليس من المسلمين. وقيل: الذي تولى كبره حسان بن ثابت، والوعيد بأنّ له عذابا عظيما يقتضي أنّه عبد الله بن أُبي بن سلول. وفيه إنباء بأنّه يموت على الكفر فيعذّب العذاب العظيم في الآخرة وهو عذاب الدرك الأسفل من النار، وأمّا بقية العصبة فلهم من الإثم بمقدار ذنبهم. وفيه إيماء بأنّ الله يتوب عليهم إن تابوا، كما هو الشأن في هذا الدين.

{ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** } [12]

استئناف لتوبيخ عصبة الإفك من المؤمنين وتعنيفهم بعد أن سمَّاه إفكا.

{ **لَوْلَا** } هنا حرف بمعنى (هلَّا) للتوبيخ كما هو شأنها إذا وليها الفعل الماضي، وهو هنا { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ }.

{ **إِذْ سَمِعْتُمُوهُ** } ظرف متعلّق بفعل الظنّ فقدّم عليه للاهتمام بمدلول ذلك الظرف تنبيها على أنّهم كان من واجبهم أن يطرق ظنّ الخير قلوبهم بمجرد سماع الخبر وأن يتبرّؤوا من الخوض فيه.

{ **ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ** } محلّ التوبيخ، فأسند السماع إلى جميع المخاطبين وخصّ بالتوبيخ من سمعوا ولم يكذّبوا الخبر. وجرى الكلام على الإبهام في التوبيخ بطريقة التعبير بصيغة الجمع وإن كان المقصود دون عدد الجمع، فإنّ من لم يظنّ خيرا رجلان (**حسان بن ثابت** و **مِسطَح بن أُثاثة**)، فعبّر عنهما بالمؤمنين، وامرأة (**حَمنة بنت جحش**) فعبّر عنها بالمؤمنات.

والعدول عن ضمير الخطاب في إسناد فعل الظنّ إلى المؤمنين التفات، للاهتمام بالتوبيخ، فإنّ الالتفات ضرب من الاهتمام بالخبر، وليصرّح بلفظ الإيمان، دلالة على أنّ الاشتراك في الإيمان يقتضي أن لا يصدّق مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنة على أخيها وأختها في الدين قول عائب ولا طاعن.

وفيه تنبيه على أنّ حقّ المؤمن إذا سمع قَالَةً في مؤمن أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحيّة المقام.

وفيه تعريض بأنّ ظنّ السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلّة بصارة فكفى بذلك تشنيعا له.

{ **بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً** } يقتضي التوزيع، أي: ظنّ كلّ واحد منهم بالآخرين ممّن رُموا بالإفك خيرا. وهذا كقوله تعالى { وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ } [الحجرات:11] أي: يلمز بعضكم بعضا.

روي أنّ أبا أيوب الأنصاري لمّا بلغه خبر الإفك قال لزوجه: ألا ترين ما يقال؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظنّ بحرمة رسول الله سوءا ؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله، فعائشة خير منّي وصفوان خير منك. قال: نعم.

{ **وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** } تشريع لوجوب المبادرة بإنكار ما يسمعه المسلم من الطعن في المسلم بالقول كما ينكره بالظنّ، وكذلك تغيير المنكر بالقلب واللسان.

المبين: البالغ الغاية في البيان، أي: الوضوح، كأنّه لقوّة بيانه قد صار يُبيِّن غيره.

{ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [13]

استئناف ثان لتوبيخ العصبة الذين جاءوا بالإفك وذمٌّ لهم. و{ **لَوْلَا** } هذه مثل (لولا) السابقة بمعنى هلَّا.

والمعنى: أنّ الذي يخبر خبرا عن غير مشاهدة يجب أن يستند في خبره إلى إخبار مشاهد، ويجب كون المشاهدين المخبرين عددا يفيد خبرهم الصدق. وهذا مستند إلى الحكم المتقرّر من قبل في أوّل السورة بقوله تعالى { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } [4]، فقد علمت أنّ أوّل السورة نزل أواخر سنة اثنتين أو أوائل سنة ثلاث قبل استشهاد مرثد بن أبي مرثد.

{ **فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ** } صيغة الحصر للمبالغة، كأنّ كذبهم لقوّته وشناعته لا يعدّ غيرهم من الكاذبين كاذبا، فكأنّهم انحصرت فيهم ماهية الموصوفين بالكذب.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة لزيادة تمييزهم بهذه الصفة ليحذر الناس أمثالهم.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } التقييد لزيادة تحقيق كذبهم، أي: هو كذب في علم الله. وليس المراد ما ذكره كثير من المفسّرين أن المعنى: في شرعه، لأنّ ذلك يصيره قيدا للاحتراز، فيصير المعنى: هم الكاذبون في إجراء أحكام الشريعة. وهذا ينافي غرض الكلام ويجافي ما اقترن به من تأكيد وصفهم بالكذب.

{ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [14]

{ **وَلَوْلا** } هذه حرف امتناع لوجود. والفضل في الدنيا يتعيّن أنّه إسقاط عقوبة الحدّ عنهم بعفو عائشة وصفوان عنهم، وفي الآخرة إسقاط العقاب عنهم بالتوبة. والخطاب للمؤمنين دون رأس المنافقين.

وهذه الآية تؤيّد ما عليه الأكثر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يحدَّ القذف أحدا من العصبة الذين تكلّموا في الإفك. وهو الأصح من الروايات: إمّا لعفو عائشة وصفوان، وإمّا لأن كلامهم في الإفك كان تخافتا وسرارا ولم يجهروا به ولكنهم أشاعوه في أوساطهم ومجالسهم.

وقيل: حدَّ حسان ومسطحا وحَمنة، قاله ابن إسحاق وجماعة، وأمّا عبد الله بن أبي فقال فريق: إنّه لم يحدّ حدّ القذف تأليفا لقلبه للإيمان. وعن ابن عباس أن أُبَيًّا جلد حد القذف أيضا.

الإفاضة: مستعار من إفاضة الماء في الإناء، أي: كثرته فيه. فالمعنى: ما أكثرتم القول فيه والتحدّث به بينكم.

{ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ** } [15]

{ **إِذْ** } ظرف متعلّق بـ { **أَفَضْتُمْ** } والمقصود منه ومن الجملة المضاف هو إليها استحضار صورة حديثهم في الإفك وبتفظيعها.

{ **تَلَقَّوْنَهُ** } أصلها (تتلقّونه) بتاءين حذفت إحداهما. وأصل التلقّي أنه التكلّف للقاء الغير، وتقدّم في قوله تعالى { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ } [البقرة:37]، أي: عُلِّمها ولُقِّنها. ثم يطلق التلقي على أخذ شيء باليد من يد الغير. وفي الحديث: **" من تصدّق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبا، تلقّاها الرحمان بيمينه "**.

{ **بِأَلْسِنَتِكُمْ** } تشبيه الخبر بشخص وتشبيه الراوي للخبر بمن يتهيّأ ويستعدّ للقائه، استعارة مكنية. وفيه تعريض بحرصهم على تلقّي هذا الخبر بلا تروٍ ولا تريُّثٍ. وفيه توبيخ أيضا .

{ **وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ** }، أي: هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنّه عن مجرّد تصوّر. وفي هذا من الأدب الأخلاقي أنّ المرء لا يقول بلسانه إلّا ما يعلمه ويتحقّقه، وإلّا فهو أحد رجلين:

أفن الرأي يقول الشيء قبل أن يتبيّن له الأمر فيوشك أن يقول الكذب فيحسبه الناس كذّابا. كما في الحديث :

" بحسب المرء من الكذب أن يحدِّث بكل ما سمع ".

أو رجل مُمَوّه مُراء يقول ما يعتقد خلافه، قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ } [البقرة:204]، وقوله تعالى { كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ } [الصف:3]. هذا في الخبر، وكذلك الشأن في الوعد، فلا يعد إلّا بما يعلم أنّه يستطيع الوفاء به. وفي الحديث:

" آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان ".

{ **وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ** } زيادة في توبيخهم، أي: تحسبون الحديث بالقذف أمرا هيِّنا.

الهيّن: مشتق من الهوان، وهوانُ الشيء عدم توقيره والمبالاة بشأنه.

وإنّما حسبوه هيّنا مع أنّ الحدّ ثابت قبل نزول الآية بحسب ظاهر ترتيب الآية في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ } [4] لجواز أنّه لم تحدث قضية قذف فيما بين نزول تلك الآية ونزول هذه الآية، أو حدثت قضيّة عويمر العجلاني ولم يعلم بها أصحاب الإفك، أو حسبوه هيّنا لغفلتهم عمّا تقدم من حكم الحدّ، إذ كان العهد به حديثا.

{ **عِنْدِ اللَّهِ** } في علم الله ممّا شرعه لكم من الحكم، كما تقدّم آنفا في قوله { فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ }.

{ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [16]

عطف على جملة { لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ }. وأُعيدت (لولا) وشرطها وجوابها لزيادة الاهتمام بالجملة فلذلك لم يعطف { قُلْتُمْ } الذي في هذه الجملة على { قُلْتُمْ } الذي في الجملة قبلها لقصد أن يكون صريحا في عطف الجمل.

{ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ } تقديم الظرف على عامله وهو { قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا } كتقديم نظيره { لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ } وهو للاهتمام بمدلول الظرف.

{ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا } أي: أن يقولوا للذين أخبروهم بهذا الخبر الإفك، زجرا وموعظة.

{ لَنَا } مراد به القائلون والمخاطبون. فأمّا المخاطبون فلأنّهم تكلّموا به حين حدَّثوهم بالخبر. والمعنى: ما يكون لكم أن تتكلموا بهذا. وأمّا المتكلّمون فلتنزههم أن يجري ذلك البهتان على ألسنتهم.

{ مَا يَكُونُ لَنَا } أشدّ في نفي الفعل من قولك: ليس لي أن أفعل. ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } [المائدة:116].

وهذا مسوق للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب وكان الشأن أن يقول القائل في نفسه: ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا، ويقول ذلك لمن يجالسه ويسمعه منه.

{ سُبْحَانَكَ } جملة إنشاء وقعت معترضة. لإعلان المتكلّم البراءة من شيء بتمثيل حال نفسه بحال من يُشهد الله على ما يقول فيبتدئ بخطاب الله بتعظيمه ثم يقول { هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } تبرُّؤًا من لازم ذلك، وهو مبالغة في إنكار الشيء والتعجّب من وقوعه.

{ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } تعليل لجملة { مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا } فهي داخلة في توبيخ المقول لهم.

البهتان: مصدر، وهو الخبر الكذب الذي يُبهت السامع لأنّه لا شبهة فيه. وقد مضى عند قوله { وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً } [النساء:156].

وإنّما كان عظيما لأنّه مشتمل على منكرات كثيرة وهي: الكذب، وكون الكذب بطعن في سلامة العرض، وكونه يسبّب إحَنًا عظيمة بين المفترين والمفترى عليهم بدون عذر، وكون المفترى عليهم من خيرة الناس وانتمائهم إلى أخير الناس من أزواج وآباء وقرابات، وأعظم من ذلك أنّه اجتراء على مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم ومقام أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

{ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [17] وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[18] }.

بعد أن بيّن الله تعالى ما في خبر الإفك من تبعات لحق بسببها للذين جاؤوا به والذين تقبّلوه عديدُ التوبيخ والتهديد، وافتضاحٌ للذين روّجوه، وخيبةٌ مختلقة بنقيض قصدهم، وانتفاع للمؤمنين بذلك، ونعى على المؤمنين تهاونهم وغفلتهم عن سوء نيّة مختلقيه، وكيف ذهلوا عن ظنّ الخير بمن لا يعلمون منهما إلّا خيرا، فلم يفنّدوا الخبر، وأنّهم اقتحموا بذلك ما يكون سببا للحاق العذاب بهم في الدنيا والآخرة، وكيف حسبوه أمرا هيّنا وهو عند الله عظيم، ولو تأمّلوا لعلموا عظمه عند الله، وسكوتهم عن تغيير هذا، بعد أن بيّن كلّ ذلك أعقبه بتحذير المؤمنين من العود إلى مثله.

الوعظ: الكلام الذي يطلب به تجنّب المخاطَب به أمرا قبيحا. وتقدّم في [النحل:90]. وضمّن فعل **{ يَعِظُكُمُ }** معنى التحذير. فالتقدير: يحذركم من العود لمثله. وفي الكلام إيجاز.

الأبد: الزمان المستقبل كلّه، والغالب أن يكون ظرفا للنفي.

{ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } تهييج وإلهاب لم يبعث حرصهم على ألّا يعودوا لمثله، لأنّهم حريصون على إيمانهم.

{ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ } أي: يجعلها لكم واضحة الدلالة على المقصود.

الآيات: آيات القرآن النازلة في عقوبة القذف، وموعظة الغافلين عن المحرّمات.

{ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } مناسبة التذكير بصفتي العلم والحكمة ظاهرة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [19]

وعيد على محبّة شيوع الفاحشة في المؤمنين، فالجملة استئناف ابتدائي، واسم الموصول يعمّ كلّ من يتّصف بمضمون الصلة، فهو تحذير للمؤمنين، وإخبار عن المنافقين والمشركين.

وجعل الوعيد على مطلق المحبّة، لأنّها دالة على خبث النيّة نحو المؤمنين. ومن شأن تلك الطويّة ألّا يلبث صاحبها إلّا يسيرا حتّى يصدر عنه ما هو محبٌّ له، أو يُسرُّ بصدور ذلك من غيره.

فالمحبّة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يحبّ وقوعه. وجيء بصيغة الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار. وتلك المحبّة شيء غير الهمّ بالسيئة وغير حديث النفس لأنهّما خاطران يمكن أن ينكفّ عنهما صاحبهما، وأمّا المحبّة المستمرّة فهي رغبة في حصول المحبوب.

{ **أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا** } أن يشيع خبرها، لأنّ الشيوع من صفات الأخبار والأحاديث، كالفشو وهو: اشتهار التحدّث بها. فتعيّن تقدير مضاف، أي: أن يشيع خبرها.

{ **الْفَاحِشَةُ** } الفعلة البالغة حدًا عظيما في الشناعة. وشاع إطلاق الفاحشة على الزنى ونحوه وتقدّم في قوله تعالى { وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ } [النساء:15]. وتقدّم ذكر الفاحشة بمعنى الأمر المنكر في قوله تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } [الأعراف:28. وتقدّم لفظ الفحشاء في قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169].

ومن أدب هذه الآية أنّ شأن المؤمن ألّا يحبّ لإخوانه المؤمنين إلّا ما يحبّ لنفسه، فكما أنّه لا يحبّ أن يشيع عن نفسه خبر سوء كذلك عليه ألّا يحبّ إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين. ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو الكذب مفسدة أخلاقية، فإنّ مما يزع الناس عن المفاسد تهيُّبهم وقوعها وتجهّمهم وكراهتهم سوء سمعتها.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } أي: يعلم ما في ذلك من المفاسد فيعظكم لتجتنبوا، وأنتم لا تعلمون فتحسبون التحدث بذلك لا يترتّب عليه ضرّ، وهذا كقوله { وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } [15].

{ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [20]

هذه ثالث مرّة كرّر فيها { وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } [20/14/10]. وحُذف في الأوّل والثالث جواب (لولا) لتذهب النفس كلّ مذهب ممكن في تقديره بحسب المقام.

وقد ذكر في المرّة الأولى وصف الله بأنّه { تَوَّابٌ حَكِيمٌ } للمناسبة المتقدّمة، وذكر هنا بأنّه { رَؤُوفٌ رَحِيمٌ }، لأنّ هذا التنبيه الذي تضمّنه التذييل فيه انتشال للأمّة من اضطراب عظيم في أخلاقها وآدابها وانفصام عرى وحدتها فأنقذها من ذلك رأفة ورحمة لآحادها وجماعتها وحفظا لأواصرها.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } ذكر وصف الرأفة والرحمة هنا لأنّه قد تقدّمه إنقاذه إيّاهم من سوء محبّة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، تلك المحبة التي انطوت عليها ضمائر المنافقين، كان إنقاذ المؤمنين من التخلّق بها رأفة بهم من العذاب ورحمة لهم بثواب المتاب.

وهذه الآية هي منتهى الآيات العشر التي نزلت في أصحاب الإفك على عائشة رضي الله عنها، نزلت متتابعة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلاها حين نزولها وهو في بيته.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [21]

هذه الآية نزلت بعد العشر الآيات المتقدّمة، فالجملة استئناف ابتدائي، ووقوعه عقب الآيات العشر التي في قضية الإفك مشير إلى أنّ ما تضمّنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبّة شيوع الفاحشة كلّه من وساوس الشيطان. وفيه تشبيه وسوسة الشيطان في نفوس الذين جاءوا بالإفك بالمشي.

{ **خُطُوَاتِ** } جمع خُطوة (بضم الخاء). والخُطوة اسم لنقل الماشي إحدى قدميه. وتقدّم عند قوله { وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } [البقرة:168].

{ **فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** } الضميران عائدان إلى الشيطان. والمعنى: ومن يتّبع خطوات الشيطان يفعل الفحشاء والمنكر لأنّ الشيطان يأمر الناس بالفحشاء والمنكر.

الفحشاء: كل فعل أو قول قبيح. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169].

المنكر: ما تنكره الشريعة وينكره أهل الخير. وتقدّم عند قوله { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران:104].

{ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ** }، أي: لولا فضله بأن هداكم إلى الخير، ورحمته بالمغفرة عند التوبة ما كان أحد من الناس زاكيا، لأنّ فتنة الشيطان عظيمة لا يكاد يسلم منها النّاس لولا إرشاد الدين.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل بين الوعد والوعيد، أي: سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبّة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك فيجازي كلًّا على عمله.

{ **وَاللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة فيه ليكون التذييل مستقلًّا بنفسه لأنّه ممّا يجري مجرى المثل.

{ وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [22]

من ذيول قصّة الإفك أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان ينفق على مِسطَح بن أُثاثة المطلبي إذ كان ابن خالة أبي بكر الصديق وكان من فقراء المهاجرين فلمّا علم بخوضه في قضية الإفك أقسم ألّا ينفق عليه. ولمّا تاب مسطح وتاب الله عليه لم يزل أبو بكر واجدا في نفسه على مِسطَح فنزلت هذه الآية. فالمراد من أولي الفضل ابتداء أبو بكر، والمراد من أولي القربى ابتداء مِسطَح بن أُثاثة، وتعمّ الآية غيرهما ممّن شاركوا في قضية الإفك وغيرهم ممّن يشمله عموم لفظها، فقد كان لمسطح عائلة تنالهم نفقة أبي بكر.

قال ابن عباس: إنّ جماعة المؤمنين قطعوا منافعهم عن كلّ من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلّم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم.

ولما قرأ رسول الله على الله عليه وسلم الآية إلى قوله { أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ } قال أبو بكر: بلى أحبّ أن يغفر الله لي. ورجّع إلى مِسطَح وأهله ما كان ينفق عليهم. وكفّر عن يمينه.

{ **وَلا يَأْتَلِ** } الايتِلاء افتعال من الإلية وهي **الحلف**، وأكثر استعمالها في الحلف على امتناع، يقال: آلى وائتلى وقد تقدّم عند قوله تعالى { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ } [البقرة:226].

الفضل: أصله الزيادة فهو ضدّ النقص، وشاع إطلاقه على الزيادة في الخير والكمال الديني وهو المراد هنا. ويطلق على زيادة المال فوق حاجة صاحبه، وليس مرادا هنا لأنّ عطف { وَالسَعَةِ } عليه يبعد ذلك.

السعة: الغنى.

{ **أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } هذه الأوصاف مقتضية المواساة بانفرادها، فالحلف على ترك مواساة واحد منهم سدّ لباب عظيم من المعروف وناهيك بمن جمع الأوصاف كلّها مثل مِسطَح الذي نزلت الآية بسببه.

{ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا** } فيه إشعار بأنّه قد تعارض عند أبي بكر سبب المعروف وسبب البَرّ في اليمين وتجهّم الحنث، وأنّه أخذ بجانب البَرّ في يمينه وترك جانب ما يفوته من ثواب الإنفاق ومواساة القرابة وصلة الرحم، وكأنّه قدّم جانب التأثّم على جانب طلب الثواب، فنبّهه الله على أنّه يأخذ بترجيح جانب المعروف لأنّ لليمين مخرجا وهو الكفارة.

وهذا يؤذن بأنّ كفارة اليمين كانت مشروعة من قبل هذه القصّة ولكنّهم كانوا يهابون الإقدام على الحنث.

{ **أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** } الاستفهام إنكاري مستعمل في التحضيض على السعي فيما به المغفرة.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } زيادة في الترغيب في العفو والصفح وتطمينا لنفس أبي بكر في حنثه وتنبيها على الأمر بالتخلّق بصفات الله تعالى.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [23] يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [24] يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ [25] }.

استئناف بعد استئناف قوله { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ } والكلّ تفصيل للموعظة التي في قوله تعالى { يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً } فابتدئ بوعيد العود إلى محبّته ذلك وثُنِّي بوعيد العودة إلى إشاعة القالة.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ** } اسم الموصول ظاهر في إرادة جماعة وهم عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه.
{ **الْغَافِلَاتِ** } هنّ اللاتي لا علم لهنّ بما رُمين به. وهذا كناية عن عدم وقوعهنّ فيما رُمين به، لأنّ الذي يفعل الشيء لا يكون غافلا عنه. فالمعنى: إنّ الذين يرمون المحصنات كذبا عليهنّ.
{ **الْمُؤْمِنَاتِ** } للتشنيع، لأنّ وصف الإيمان وازع لهنّ عن الخنى.
{ **لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } إخبار عن لعن الله إيّاهم بما قدّر لهم من الإثم وما شرع لهم من الحدّ.
اللعن: في الدنيا التفسيق، وسلب أهلية الشهادة، وحدّ القذف، وفي الآخرة: الإبعاد من رحمة الله.
{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } عذاب جهنم. والمقصود هنا من كان من الكفرة.
{ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ** } الظرف متعلّق بما تعلّق به الظرف في قوله { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }، أي: يوم القيامة.
{ **أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم للتهويل عليهم لعلهم يتّقون ذلك الموقف فيتوبون. وشهادة الأعضاء على صاحبها من أحوال حساب الكفّار.
وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أنّ الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى { وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا } [فصلت:21]، لأنّ لهذه الأعضاء عملا في رمي المحصنات، فهم ينطقون بالقذف ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات ويسعون بأرجلهم إلى مجالس النّاس لإبلاغ القذف.
{ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ** } استئناف بياني، لأنّ ذكر شهادة الأعضاء يثير سؤالا عن آثار تلك الشهادة فيجاب بأنّ أثرها أن يجازيهم الله على ما شهدت به أعضاؤهم عليهم. فدينهم: جزاؤهم. { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }.
{ **الْحَقَّ** } نعت للدين، أي: الجزاء العادل الذي لا ظلم فيه، فالوصف بالمصدر للمبالغة.
{ **وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** } أي: ينكشف للنّاس أنّ الله الحقّ.
وصفة الله بأنّه { الْحَقَّ } بمعنيين:
أولهما: بمعنى الثابت الحاقّ، وذلك لأنّ **وجوده واجب**، فذاته حقّ متحقّقة لم يسبق عليها عدم ولا انتفاء فلا يقبل إمكان العدم. وعلى هذا المعنى في اسمه تعالى الحقّ اقتصر الغزالي في شرح الأسماء الحسنى.
ثانيهما: معنى أنّه ذو الحقّ، أي: **العدل**، وهو الذي يناسب وقوع الوصف بعد قوله { دِينَهُمُ الْحَقَّ }.
المبين: اسم فاعل من (أبان) الذي يُستعمل متعدّيا بمعنى (أظهر) على أصل معنى إفادة الهمزة التعدية، ويستعمل بمعنى (بان)، أي: (ظهر) على اعتبار الهمزة زائدة.
والمعنى: أنّهم يتحقّقون ذلك يومئذ بعلم قطعي لا يقبل الخفاء ولا التردّد، وإن كانوا عالمين ذلك من قبل.

{ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [26]

بعد أن برّأ الله عائشة رضي الله عنها ممّا قال عصبة الإفك ففضحهم بأنّهم ما جاؤوا إلّا بسيّء الظنّ واختلاق القذف، وتوعّدهم وهدّدهم ثم تاب على الذين تابوا، أنحى عليهم ثانية ببراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن تكون له أزواج خبيثات، لأنّ عصمته وكرامته على الله يأبى الله معها أن تكون أزواجه غير طيّبات.
فمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم كافية في الدلالة على براءة زوجه وطهارة أزواجه كلّهن.
وهذا من الاستدلال على حال الشيء بحال مقارنه ومماثله، وفي هذا تعريض بالذين اختلقوا الإفك بأنّ ما أفكوه لا يليق مثله إلّا بأزواجهم، فقوله { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ } تعريض بالمنافقين المختلقين الإفك.
{ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ } الابتداء بذكر { الْخَبِيثَاتُ } لأنّ غرض الكلام الاستدلال على براءة عائشة وبقية أمّهات المؤمنين.
{ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ } إطناب لمزيد العناية بتقرير هذا الحكم ولتكون الجملة بمنزلة المثل مستقلّة بدلالتها على الحكم وليكون الاستدلال على حال القرين بحال مقارنه حاصلا من أي جانب ابتدأه السامع.
{ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ } إطناب أيضا للدلالة على أنّ المقارنة دليل على حال القرينين في الخير أيضا.
وتقدّم الكلام على الخبيث والطيّب عند قوله { قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } [آل عمران:38]، وقوله { وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } [الأعراف:157]، وقوله { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } [الأنفال:37].
{ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ } العدول عن التعبير عن الإفك باسمه إلى { مَا يَقُولُونَ } إشارة إلى أنّه لا يعدو كونه قولا، أي: أنّه غير مطابق للواقع.
الرزق الكريم: نعيم الجنّة. وتقدّم أنّ الكريم هو النفيس في جنسه عند قوله تعالى { دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال:4].
وبهذه الآيات انتهت زواجر الإفك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون [27] فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [28] }.

ذكرنا أنّ من أكبر الأغراض في هذه السورة تشريع نظام المعاشرة والمخالطة العائليّة. فهذه الآيات استئناف لبيان أحكام التزاور، وتعليم آداب الاستئذان.

وقد كان الاستئذان معروفا في الجاهلية وصدر الإسلام وكان يختلف شكله باختلاف حال المستأذن عليه من ملوك وسوقة فكان غير متماثل. وقد يتركه أو يقصّر فيه من لا يهمّه إلّا قضاء وطره وتعجيل حاجته، ولا يبعد بأن يكون ولوجه محرجا للمزور أو مثقلا عليه فجاءت هذه الآيات لتحديد كيفيّته وإدخاله في آداب الدين حتّى لا يفرّط الناس فيه أو في بعضه.

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدا في بيته لأنّ الناس اتخذوا البيوت للاستتار ممّا يؤذي الأبدان من حرّ وقرّ ومطر وقتام، وممّا يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطّلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتّى يُصلح ما في بيته ويستر ما يجبّ أن يستره ثم يأذن له أو يخرج له فيكلّمه من خارج الباب.

{ تَسْتَأْنِسُوا } تطلبوا الأنس بكم، أي: تطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت. وهذا كناية لطيفة عن الاستئذان.

قال ابن وهب قال مالك: <u>الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان</u>. وهذا الذي قاله مالك هو القول الفصل.

وفي ذلك من الآداب أنّ المرء لا ينبغي أن يكون كَلًّا على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنّه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على توفّر الأخوة الإسلامية.

{ وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا } وعطف الأمر بالسلام على الاستئناس وجعل كلاهما غاية للنهي عن دخول البيوت تنبيها على وجوب الإتيان بهما، لأنّ النهي لا يرتفع إلّا عند حصولهما.

وعن ابن سيرين: أن رجلا استأذن على النبيّ فقال: أأدخل؟ فأمر النبيّ رجلا عنده أو أمة اسمها روضة فقال: **" إنّه لا يحسُن أن يستأذن، فليقل: السلام عليكم أأدخل "**. فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال: **" ادخل "**.

وروى مطرف عن مالك عن زيد بن أسلم: أنّه استأذن على عبد الله بن عمر فقال: أألج؟ فأذن له ابن عمر، فلما دخل قال له ابن عمر: ما لك واستئذان العرب؟ (يريد أهل الجاهلية) إذا استأذنت فقل: السلام عليكم. فإذا ردّ عليك السلام فقل: أأدخل، فإن أذن لك فادخل.

وظاهر الآية أنّ الاستئذان واجب وأنّ السلام واجب غير أنّ سياق الآية لتشريع الاستئذان. وأمّا السلام

فتقرّرت مشروعيّته من قبل في أوّل الإسلام ولم يكن خاصا بحالة دخول البيوت فلم يكن للسلام اختصاص هنا وإنّما ذكر مع الاستئذان للمحافظة عليه مع الاستئذان لئلّا يلهي الاستئذان الطارق فينسى السلام أو يحسب الاستئذان كافيا عن السلام.

قال ابن العربي في أحكام القرآن. قال جماعة: الاستئذان فرض والسلام مستحب. وروي عن عطاء: الاستئذان واجب على كل محتلم. ولم يفصح عن حكم الاستئذان سوى فقهاء المالكية. قال الشيخ أبو محمد في الرسالة: الاستئذان واجب فلا تدخل بيتا فيه أحد حتّى تستأذن ثلاثا فإن أذن لك وإلّا رجعت. وحكى أبو الحسن المالكي في شرح الرسالة الإجماع على وجوب الاستئذان.

أقول: ليس قرن الاستئذان بالسلام في الآية بمقتضٍ مساواتهما في الحكم إذ كانت هنالك أدلّة أخرى تفرّق بين حكميهما، وتلك أدلة من السنّة.

وأمّا فائدة السلام مع الاستئذان فهي تقوية الألفة المتقرّرة، فلا تقتضي أكثر من تأكّد الاستحباب. فالقرآن أمر بالحالة الكاملة وأحال تفصيل أجزائها على تبيين السنة كما قال { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44].

{ **وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا** } معناه تقولوا: السلام عليكم، فهو من الأفعال المشتقة من حكاية الأقوال الواقعة في الجمل مثل: رحَّب وأهَّل، إذا قال: مرحبا أهلًا. وفي الحديث " **تسبّحون وتحمدون وتكبّرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين** ". وهي قريبة من النحت مثل: بسمل، إذا قال: بسم الله، وحَسْبَلَ، إذا قال: حسبنا الله.

وصيغة التسليم هي: السلام عليكم. وقد علّمها النبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه.

وتقدّم السلام في قوله تعالى{ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } [الأنعام:54].

وقد جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف المفيد التشريك فقط فدلّت على أنّه إن قدّم الاستئذان على السلام أو قدّم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه، وورد في أحاديث كثيرة الأمر بتقديم السلام على الاستئذان فيكون ذلك أولى ولا يعارض الآية.

وليس للاستئذان صيغة معينة. وما ورد في بعض الآثار فإنّما محمله على أنّه المتعارف بينهم أو على أنّه كلام أجمع من غيره في المراد. وقد بيّنت السنة أن المستأذن إن لم يؤذن له بالدخول يكرره ثلاث مرات فإذا لم يؤذن له انصرف.

وورد في هذا حديث أبي موسى الأشعري مع عمر بن الخطاب في صحيح البخاري وهو ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى الأشعري كأنّه مذعور قال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يأذن لي فرجعت. (وفسروه في رواية أخرى: بأنّ عمر كان مشتغلا ببعض أمره ثم تذكر فقال: ألم أسمع صوت عبد الله ابن قيس؟ قالوا: استأذن ثلاثا ثم رجع)، فأرسل وراءه فجاء أبو موسى فقال عمر: ما منعك؟ قال: قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت. وقال رسول الله: " **إذا استأذن**

أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ". فقال عمر: والله لتقيمنّ عليه بيّنة. قال أبو موسى: أمنكم أحد سمعه من النبي؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلّا أصغرنا فكنت أصغرهم فقمت معه فأخبرت عمر أنّ النبيّ قال ذلك. فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ألهاني الصفق بالأسواق.

{ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } حكمة الاستئذان، أي: ذلكم الاستئذان خير لكم.

{ **فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ** } للاحتراس من أن يظنّ ظان أنّ المنازل غير المسكونة يدخلها الناس في غيبة أصحابها بدون إذن منهم، توهّما بأن علّة شرع الاستئذان ما يكره أهل المنازل من رؤيتهم على غير تأهّب، بل العلّة هي كراهتهم رؤية ما يحبّون ستره من شؤونهم.

{ **حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ** } الغاية لتأكيد النهي. أي: حتّى يأتي أهلها فيأذنوا لكم.

{ **وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ** } وقد عُلم أن الاستئذان يقتضي إذنا ومنعا وسكوتا، وهذا صريح المنع. وأمّا السكون فهو ما بيّن حكمه حديث أبي موسى.

{ **أَزْكَى لَكُمْ** } أنه أفضل وخير لكم من أن يأذنوا على كراهية.

وفي هذا أدب عظيم وهو تعليم الصراحة بالحقّ دون المواربة ما لم يكن فيه أذى. وتعليم قبول الحقّ لأنّه أطمن لنفس قابله من تلقّي ما لا يدرى أهو حقّ أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصارح بالحقّ بينهم لزالت عنهم ظنون السوء بأنفسهم.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** } تذييل لهذه الوصايا بتذكيرهم بأنّ الله عليم بأعمالهم ليزدجر أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالتثقيل، وليزدجر أهل الحيل أو التطلع من الشقوق ونحوها. وهذا تعريض بالوعيد لأنّ في ذلك عصيانا لما أمر الله به. فعلمه به كناية عن مجازاته فاعليه بما يستحقون.

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } [29]

هذا تخصيص لعموم قوله { بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ } بالبيوت المعدّة للسكنى، فأمّا البيوت التي ليست معدودة للسكنى فهي تجعل القاطن بها غير محترز من دخول الغير إليها بل هو على استعداد لمن يغشاه، فهي لا تخلو من أن تكون خاوية من الساكن مثل البيوت المقامة على طرق المسافرين لنزولهم، كما كانت بيوت على الطريق بين الحجاز والشام في طريق التجار كانوا يأوون إليها ويحطّون فيها متعاهم للاستراحة.

وأمّا أن تكون تلك البيوت مأهولة بأناس يقطنونها يأوون المسافرين ورحالهم ورواحلهم ويحفظون أمتعتهم ويبيتونهم حتّى يستأنفوا المرحلة، مثل الخانات المأهولة والفنادق. وكذلك البيوت المعدودة لبيع السلع،

والحمّامات، وحوانيت التجار، وكذلك المكتبات وبيوت المطالعة، فهذه مأهولة ولا تسمَّى مسكونة، لأنّ السكنى هي الإقامة التي يسكن بها المرء ويستقر فيها ويقيم فيها شؤونه.

{ **فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ** } صفة ثانية ل { بُيُوتاً }، الظاهر أنّ المتاع موضوع هناك قبل دخول الداخل، فلا مفهوم لهذه الصفة لأنّها خرجت مخرج التنبيه على العذر في الدخول. ويشمل ذلك أن يدخلها لوضع متاعه لدلالة لحن الخطاب، وكذلك يشمل دخول المسافر وإن كان لا متاع له لقصد التظلل أو المبيت، بدلالة لحن الخطاب أو القياس.

وقد فسِّر المتاع بالمصدر، أي التمتّع والانتفاع. فيكون إيماء إلى أنّ من لا منفعة له في دخولها لا يؤذن له في دخولها لأنّه يضيّق على أصحاب الاحتياج إلى بقاعها.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** } مستعملة في التحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود وهي كون البيوت غير مسكونة وكون الداخل محتاج إلى دخولها.

{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [30]

أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول وهو ألّا يكون الداخل إلى البيت محدّقا بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته المرأة غضّ بصره واقتصر على الكلام ولا ينظر إليها إلّا النظر الذي يعسر صرفه.

الغضّ: صرف المرء بصره عن التحديق وتثبيت النظر. ويكون من الحياء. ومادة الغض تفيد معنى الخفض والنقص.

{ **مِنْ أَبْصَارِهِمْ** } لمّا كان الغضّ التام لا يمكن جيء في الآية بحرف (من) الذي هو للتبعيض إيماء إلى ذلك، إذ من المفهوم أنّ المأمور بالغضّ فيه هو مالا يليق تحديق النظر إليه، فيشمل غضّ البصر عمّا اعتاد الناس كراهية التحقّق فيه كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك. فقد جاء في حديث عمر بن الخطاب حين دخل مشربة النبيّ صلى الله عليه وسلم: فرفعت بصري إلى السقف فرأيت أَهَبَة معلّقة.

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ: **" لا تتبع النظرة النظرة فإنّما لك الأولى وليست لك الثانية "**.

وفي هذا الأمر بالغضّ أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن التطلّع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام.

{ **وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** } والأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار لأنّ النظر رائد الزنى، وتنبيها على المبالغة في غضّ الأبصار في محاسن النساء.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى المذكور، أي: ذلك المذكور من غضّ الأبصار وحفظ الفروج.
{ **أَزْكَى لَهُمْ** } اسم التفضيل مسلوب المفاضلة. والمراد تقوية تلك التزكية، لأنّ ذلك جُنَّة من ارتكاب الذنوب.
{ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** } تذييل، لأنّه كناية عن جزاء ما يتضمّنه الأمر من الغضّ والحفظ، لأنّ المقصد من الأمر الامتثال.

{ **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } [31]
لمّا كان هذا الأمر قد يُظنّ أنّه خاص بالرجال لأنّهم أكثر ارتكابا لضدّه وقع النصُّ على هذا الشمول بأمر النساء بذلك أيضا.
وانتقل من ذلك إلى نهي النساء عن أشياء عُرف منهنّ التساهل فيها، ونهيهنّ عن إظهار أشياء تعوَّدن أن يُحببن ظهورها، وجمعها القرآن في اللفظ { زِينَتَهُنَّ }.
الزينة: ما يحصل به الزين. والزين: الحُسن، مصدر زانه. وتقدّم الكلام عن معناها عند قوله تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ } [آل عمران:14]، وقوله { وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ } [الحجر:16].
والزينة قسمان خِلْقية ومكتسبة:
الخِلقية: الوجه والكفان أو نصف الذراعين.
المكتسبة: سبب التزيّن من اللباس الفاخر والحليّ والكحل والخِضاب بالحناء.
وقد أطلق اسم الزينة على اللباس في قوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } [الأعراف:31] وقوله { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ } [الأعراف:32].
والتزيّن يزيد المرأة حسنا ويلفت إليها الأنظار، فلذلك نُهي النساء عن إظهار زينتهن إلّا للرجال الذين ليس من شأنهم أن تتحرّك منهم شهوة نحوها لحرمة قرابة أو صهر.
{ **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** } وهو ما في ستره مشقّة على المرأة أو في تركه حرج على النساء، مثل الكحل والخضاب والخواتيم .روى أبن القاسم عن مالك: ليس الخضاب من الزينة.

فالزينة الظاهرة هي التي جعلها الله بحكم الفطرة بادية، ويكون سترها معطّلا الانتفاع بها أو مدخلا حرجا على صاحبتها وذلك الوجه والكفان، وأمّا القدمان فحالهما في الستر لا يعطل الانتفاع ولكنّه يعسره، لأنّ الحفاء غالب حال نساء البادية، فمن أجل ذلك اختلف في سترهما الفقهاء، ففي مذهب مالك قولان: أشهرهما أنّها يجب ستر قدميها، وقيل: لا يجب، وقال أبو حنيفة: لا يجب ستر قدميها.

وجمهور الأئمة على أن استثناء إبداء الوجه والكفين من عموم منع إبداء زينتهن يقتضي إباحة إبداء الوجه والكفين في جميع الأحوال لأنّ الشأن أن يكون للمستثنى جميع أحوال المستثنى منه. وتأوّله الشافعي بأنّه استثناء في حالة الصلاة خاصة دون غيرها وهو تخصيص لا دليل عليه.

{ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ** } ونُهينَ عن التساهل في الخِمرة. و**الخِمار**: ثوب تضعه المرأة على رأسها لستر شعرها وجيدها وأذنيها. وكان النساء ربّما يسدلن الخمار إلى ظهورهنّ كما تفعل نساء الأنباط فيبقى العنق والنحر والأذنان غير مستورة فلذلك أمرن بذلك.

الضرب: تمكين الوضع.

والمعنى: ليشددن وضع الخمر على الجيوب، أي: بحيث لا يظهر شيء من بشرة الجِيد.

{ **بِخُمُرِهِنَّ** } الباء لتأكيد اللصوق، مبالغة في إحكام وضع الخمار على الجيب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل (يضربن).

الجيوب: جمع جيب بفتح الجيم وهو طوق القميص مما يلي الرقبة. والمعنى: وليضعن خمرهن على جيوب الأقمصة بحيث لا يبقى بين منتهى الخمار ومبدأ الجيب ما يظهر منه الجيد.

{ **وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ** } أعيد لفظ { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } للتأكيد، وليبني عليه الاستثناء. أي: لا يبدين زينتهن غير الظاهرة إلّا لمن ذكروا بعد حرف الاستثناء لشدّة الحرج في إخفاء الزينة غير الظاهرة في أوقات كثيرة، فإنّ الملابسة بين المرأة وبين أقربائها وأصهارها المستثنين ملابسة متكرّرة فلو وجب عليها ستر زينتها في أوقاتها كان ذلك حرجا عليها.

<u>وذكرت الآية **اثنى عشر مستثنى**</u> كلّهم ممن يكثر دخولهم. وسكتت الآية عن غيرهم ممّن هو في حكمهم بحسب المعنى. وسنذكر ذلك عند الفراغ من ذكر المصرّح بهم في الآية.

البعولة: جمع بعل، وهو الزوج. وأصل البعل الربّ والمالك.

وكلّ من عُدَّ من الرجال الذين استثنوا من النهي هم من الذين لهم بالمرأة صلة شديدة هي وازع من أن يهمّوا بها. وفي سماع ابن القاسم من كتاب الجامع من العتبية: سئل مالك عن الرجل تضع أم امرأته عنده جلبابها قال: لا بأس بذلك.

{ **أَوْ نِسَائِهِنَّ** } أي: المؤمنات، مثل الإضافة في قوله { وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ } [البقرة:282]، أي

من رجال دينكم.

واختلف الفقهاء في جواز نظر النساء المشركات والكتابيّات إلى ما لا يجوز للمرأة المسلمة إظهاره للأجنبي من جسدها. وكلام المفسّرين من المالكية وكلام فقهائهم في هذا غير مضبوط.

وفي مذهب الشافعي قولان:

القول الأوّل: أنّ غير المسلمة لا ترى من المرأة المسلمة إلّا الوجه والكفّين، ورجّحه البغوي وصاحب المنهاج البيضاوي، واختاره الفخر في التفسير. ونقل مثل هذا عن عمر بن الخطاب وابن عباس، وعلّله ابن عباس بأنّ غير المسلمة لا تتورّع عن أن تصف لزوجها المسلمة. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجرّاح: أنّه بلغني أنّ نساء أهل الذمّة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين فامنع من ذلك وحل دونه، فإنّه لا يجوز أن ترى الذمّيّة عِرْية المسلمة.

القول الثاني: أنّ المرأة غير المسلمة كالمسلمة ورجّحه الغزالي.

ومذهب أبي حنيفة كذلك فيه قولان: أصحّهما أنّ المرأة غير المسلمة كالرجل الأجنبي فلا ترى من المرأة المسلمة إلّا الوجه والكفين والقدمين، وقيل هي كالمرأة المسلمة.

{ **أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ** } هم صنف من الرجال الأحرار تشترك أفراده في الوصفين وهما التبعيّة وعدم الإربة.

التبعية: فهي كونهم من أتباع بيت المرأة وليسوا ملك يمينها ويتردَّدون على بيتها لأخذ الصدقة أو للخدمة.

الإربة: الحاجة. والمراد بها الحاجة إلى قربان النساء. وانتفاء هذه الحاجة تظهر في المجبوب والعنّين والشيخ الهرم، فرخّص الله في إبداء الزينة لنظر هؤلاء لرفع المشقّة عن النساء مع السلامة الغالبة من تطرّق الشهوة وآثارها من الجانبين.

{ **أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** } كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء وذلك ما قبل سن المراهقة.

والظاهر أنّ سكوت الآية عن العمّ والخال ليس لمخالفة حكمهما حكم بقية المحارم ولكنّه اقتصار على الذين تكثر مزاولتهم بيت المرأة، فالتعداد جرى على الغالب.

ويلحق بهؤلاء القرابة من كان في مراتبهم **من الرضاعة** لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب** " . وجزم بذلك الحسن، ولم أر فيه قولا للمالكية. وظاهر الحديث أنّ فيهم من الرخصة ما في محارم النسب والصهر.

{ **وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ** } الضرب بالأرجل إيقاع المشي بشدّة كقوله: يضرب في الأرض. ذلك أنّ من النساء من كنّ إذا لبسن الخلخال ضربن بأرجلهنّ في المشي بشدّة لتسمع قعقعة الخلاخل

غنجا وتباهيا بالحسن، فنهين عن ذلك مع النهي عن إبداء الزينة.
وفي أحاديث أبن وهب من جامع العتبية: سئل مالك عن الذي يكون في أرجل النساء من الخلاخل قال: ما هذا الذي جاء فيه الحديث وترْكه أحب إليّ من غير تحريم. قال ابن رشد في شرحه: أراد أن الذي يحرم إنما هو أن يقصدن في مشيهن إلى إسماع قعقعة الخلاخل، إظهارا بهن من زينتهن.
وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شأنه أن يذكّر الرجل بلهو النساء، من زينة أو حركة كالتثنّي والغناء وكلم الغَزَل.
{ **لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ** } علّة النهي عن الضرب بالأرجل.
ولعن النبيّ صلى الله عليه وسلم المستوشمات والمتفلّجات للحسن.
{ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } أُعقبت الأوامر والنواهي الموجّهة إلى المؤمنين بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله إيماء إلى أنّ فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعا لداع تدعو إليه الجبلّة البشرية من الاستحسان والشهوة، فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثمّ يتغلغل هو فيه، فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدّي إلى ما هو أعظم.
والجملة معطوفة على جملة { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ }، ووقع التفات من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمّة، لأنّ هذا تذكير بواجب التوبة المقرّرة من قبل وليس استئناف تشريع.
{ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ** } تقدم الكلام على التوبة عند قوله تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ } [التوبة:17].
{ **جَمِيعَاً** } تنبيه على أنّ المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات، والتذكير على التغليب.
{ **أَيُّهَ** } كتب في المصحف بهاء في آخره اعتبارا بسقوط الألف في حال الوصل مع كلمة { الْمُؤْمِنُونَ }. فقرأها الجمهور بفتح الهاء بدون ألف في الوصل. وقرأها أبو عامر بضم الهاء إتباعا لحركة (أي). ووقف عليها أبو عمرو والكسائي بألف في آخرها. ووقف الباقون عليها بسكون الهاء على اعتبار ما رسمت به.

قال مكي بن أبي طالب ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع وسماها أبو بكر ابن العربي: **آية الضمائر**.

{ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [32]

أُردفت أوامرُ العفاف بالإرشاد إلى ما يُعين عليه، ويُعفّ نفوس المؤمنين والمؤمنات، ويغضّ من أبصارهم، فأمر الأولياء بأن يزوِّجوا أياماهم ولا يتركوهنّ متأيّمات لأنّ ذلك أعفّ لهنّ وللرجال الذين يتزوّجونهنّ. وأمر السادة بتزويج عبيدهم وإمائهم. وهذا وسيلة لإبطال البغاء كما سيُتبع به في آخر الآية.

الآيامى: جمع أيّم (بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة) بوزن فَيْعِلْ، وهي **المرأة التي لا زوج لها** كانت ثيّبًا أم بكرًا. والشائع إطلاق الأيّم على التي كانت ذات زوج ثم خلت عنه بفراق أو موته. وأمّا إطلاقه على البكر التي لا زوج لها فغير شائع فيحمل على أنّه مجاز كثر استعماله.

والأيّم في الأصل من أوصاف النساء، ولذلك لم تقترن به هاء التأنيث فلا يقال: امرأة أيّمة. وإطلاق الأيّم على الرجل الخليّ عن امرأة إمّا لمشاكلة أو تشبيه، وبعض أئمة اللغة يجعل الأيّم مشتركا للمرأة والرجل.

{ الْأَيَامَى } صيغة عموم لأنّه جمع معرف باللام فتشمل البغايا. أمر أولياؤهن بتزويجهنّ فكان هذا العموم ناسخا لقوله تعالى { وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ } فقد قال جمهور الفقهاء: إنّ هذه ناسخة للآية التي تقدّمت، وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد.

{ مِنْكُمْ } أنّهنّ من المسلمات. والمقصود: الأيامى الحرائر، خصّصه قوله بعده:

{ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ } المراد اتّصافهم بالصلاح الديني، أي: الأتقياء. فيفيد أنّهم إن لم يكونوا صالحين كان تزويجهم آكد أمرا. وهذا من دلالة الفحوى فيشمل غيرُ الصالحين غيرَ الأعفّاء والعفائف من المماليك المسلمين، ويشمل المماليك غير المسلمين. وبهذا التفسير تنقشع الحيرة التي عرضت للمفسّرين في التقييد بهذا الوصف. وقيل أريد بالصالحين: الصلاح للتزوّج، بمعنى اللياقة لشؤون الزوج.

وصيغة الأمر في قوله تعالى { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ } إلى آخره مجملة تحتمل الوجوب والندب بحسب ما يعرض من حال المأمور بإنكاحهم: فإن كانوا مظنّة الوقوع في مضار في الدين أو الدنيا كان إنكاحهم واجبا، وإن لم يكونوا كذلك فعند مالك وأبي حنيفة إنكاحهم مستحبّ. وقال الشافعي: لا يندب، وحمل الأمر على الإباحة، وهو محمل ضعيف في مثل هذا المقام، إذ ليس المقام مظنّة تردّد في إباحة تزويجهم.

{ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } استئناف بياني، لأنّ عموم الأيامى والعبيد والإماء في صيغة الأمر يثير سؤال الأولياء والموالي أن يكون الراغب في تزوّج المرأة الأيّم فقيرا فهل يردّه الوليّ؟ أو أن يكون سيّد العبيد فقيرا لا يجد ما ينفقه على زوجه، وكذلك سيّد الأمة يخطبها رجل فقير حرّ أو عبد؟

فجاء هذا لبيان إرادة العموم في الأحوال. ووعد الله المتزوّج من هؤلاء إن كان فقيرا أن يغنيه الله.

وإغناء الله إيّاهم توفيق ما يتعاطونه من أسباب الرزق التي اعتادوها.

{ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } وصفة الله (الواسع) مشتقّة من فعل (وسِع) باعتبار أنّه مجازي، لأنّ الموصوف بالسعة هو إحسانه. قال حجّة الإسلام: " والسعة تضاف مرّة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف مرّة إلى الإحسان وبذل النعم، وكيفما قدّر وعلى أي شيء نزل، فالواسع المطلق هو الله تعالى لأنّه إن نُظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته وإن نُظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته ".

والذي يؤخذ من استقراء القرآن أن وصف الواسع المطلق إنّما يراد به سعة الفضل والنعمة، ولذلك يقرن بوصف العلم ونحوه، قال تعالى { وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً } [النساء:130].

أمّا إذا ذُكرت السعة بصيغة الفعل فيراد بها الإحاطة فيما تميّز به كقوله تعالى { وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } [الأعراف:89].

{ **عَلِيمٌ** } إشارة إلى أنّه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من الحكمة في مقدار الإعطاء.

{ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [33]

{ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** } أُمِر كلُّ من تعلّق به الأمر بالإنكاح بأن يلازموا العفاف في مدّة انتظارهم تيسير النكاح لهم بأنفسهم أو بأذن أوليائهم ومواليهم.

والسين والتاء للمبالغة في الفعل، أي: وليعفَّ الذين لا يجدون نكاحا. ووجه دلالته على المبالغة أنّه في الأصل استعارة. وجعل طلب الفعل بمنزلة طلب السعي فيه ليدلّ على بذل الوسع.

{ **لا يَجِدُونَ نِكَاحاً** } لا يجدون قدرة على النكاح ففيه حذف مضاف. وقيل النكاح هنا اسم ما هو سبب تحصيل النكاح كاللباس واللحاف. فالمراد المهر الذي يبذل للمرأة.

الإغناء: هنا هو إغناؤهم بالزواج.

الفضل: زيادة العطاء.

{ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** }

لمّا ذُكر وعد الله من يزوّج من العبيد الفقراء بالغنى وكان من وسائل غناه أن يذهب يكتسب بعمله وكان ذلك

لا يستقلّ به العبد، لأنّه في خدمة سيّده، جعل الله للعبيد حقًّا في الاكتساب لتحرير أنفسهم من الرقِّ، ويكون في ذلك غنًى للعبد، إن كان من ذوي الأزواج.

{ **فَكَاتِبُوهُمْ** } أمر الله السادة بإجابة من يبتغي الكتابة من عبيدهم تحقيقا لمقصد الشريعة من بثّ الحرية في الأمّة، ومن إكثار النسل، ومن تزكية الأمّة واستقامة دينها.

ودخول الفاء على الفعل لتضمين الموصول معنى الشرطية، كأنّه قيل: إن ابتغى الكتاب ما ملكت أيمانكم فكاتبوهم، تأكيدا لترتّب الخبر على تحقّق مضمون صلة الموصول بأن يكون كترتّب الشروط على الشرط.

الكتاب: مصدر كاتب إذا عاقد على تحصيل الحرية من الرقِّ على قدر معيّن من المال يدفع لسيد العبد منجَّما، أي: موزعا على مواقيت معينة. كانوا في الغالب يوقّتونها بمطالع نجوم المنازل مثل الثريا، فلذلك سمُّوا توقيت دفعها نجما وسموا توزيعها تنجيما.

وسمُّوا ذلك كتابة لأنّ السيد وعبده كانا يسجّلان عقد تنجيم عوض الحرّيّة بصكٍّ يكتبه كاتب بينهما، فلمّا كان في الكتب حفظ لحقّ كليهما أطلق على ذلك التسجيل كتابة، لأنّ ما يتضمّنه هو عقد من جانبين، وإن كان الكاتب واحدا والكَتْب واحدا.

{ **إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً** } إن ظننتم أنّهم لا يبتغون بذلك إلّا تحرير أنفسهم.

<u>وكانت الكتابة معروفة من عهد الجاهلية ولكنّها كانت على خيار السيّد فجاءت هذه الآية تأمر السادة بذلك</u> إن رغبه العبد، أو لحثّه على ذلك، على اختلاف بين الأئمة في محمل الأمر.

فعن عمر بن الخطاب ومسروق وعمرو بن دينار وابن عباس والضحاك وعطاء وعكرمة والظاهرية أنّ الكتابة **واجبة** على السيد إذا علم خيرا في عبده، واختاره الطبري **وهو الراجح**.

وقد ورد في السنة حديث كتابة بريرة مع سادتها وكيف أدّت عنها عائشة أم المؤمنين مال الكتابة كلّه.

وذكر ابن عطيّة أن سبب نزول هذه الآية: أنّ غلاما لحويطب بن عبد العزّى أو لحاطب بن أبي بلتعة اسمه صبيح القبطي (أو صُبح) سأل مولاه الكتابة فأبى عليه فأنزل الله هذه الآية فكاتبه مولاه.

{ **وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** } الظاهر أنّ الخطاب موجّه إلى سادة العبيد ليتناسق الخطابان، وهو أمر للسادة بإعانة مكاتبيهم بالمال الذي أنعم الله به عليهم فيكون ذلك بالتخفيف عنهم من مقدار المال الذي وقع التكاتب عليه. وهذا التخفيف أطلق عليه لفظ (الإيتاء) وليس ثمّة إيتاء ولكنّه لمّا كان إسقاطا لما وجب على المكاتب كان ذلك بمنزلة الإعطاء.

وقال بعض المفسّرين: الخطاب للمسلمين، أمرهم الله بإعانة المكاتبين.

والأمر محمول على الندب عند أكثر العلماء وحمله الشافعي على الوجوب.

{ **مِنْ مَالِ اللَّهِ** } إضافة المال إلى الله لأنّه ميسّر أسباب تحصيله. وفيه إيماء إلى أنّ الإعطاء من ذلك المال شكر والإمساك جحد للنعمة قد يتعرض به المُمسك لتسلب النعمة عنه.

{ **الَّذِي آتَاكُمْ** } يجوز أن يكون وصفا لـ { مَالِ اللَّهِ } ويكون العائد محذوفا تقديره: آتاكموه. ويجوز أن يكون وصفا لاسم الجلالة فيكون امتنانا وحثًّا على الامتثال بتذكير أنّه ولي النعمة ويكون مفعول { آتَاكُمْ } محذوفا للعموم، أي: آتاكم على الامتثال.

{ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } انتقال إلى تشريع من شؤون المعاملات بين الرجال والنساء التي لها أثر في الأنساب ومن شؤون حقوق الموالي والعبيد، وهذا الانتقال لمناسبة ما سبق من حكم المكاتبة، فانتقل إلى حكم البغاء.

البغاء: مصدر بَاغَت الجارية. إذا تعاطت الزنى بالأجر حرفة لها. واشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة والتكرير ولذلك لا يقال إلّا: باغت الأمة. ولا يقال: بَغَتْ. وهو مشتقّ من (البغي) بمعنى الطلب. وتسمَّى المرأة المحترفة له بغيًّا.

وقد كانت في المدينة إماء بغايا منهن ست إماء لعبد الله بن أبي بن سلول وهن: مُعاذة ومُسيكة وأُميمة وعَمرة وأروى وقتيلة، وكان يكرههنّ على البغاء بعد الإسلام. قال ابن العربي: روى مالك عن الزهري: أنّ رجلا من أسرى قريش في يوم بدر قد جُعل عند عبد الله بن أُبَي وكان هذا الأسير يريد معاذة على نفسها وكانت تمتنع منه لأنّها أسلمت، وكان عبد الله ابن أبي يضربها على امتناعها منه رجاء أن تحمل منه، (أي: من الأسير القرشي) فيطلب فداء ولده، أي: فداء رقّه من ابن أُبَي. وكان الزاني بالأمة يفتدي ولده بمائة من الإبل يدفعها لسيّد الأمة، وأنّها شكته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية.

وقالوا: إن عبد الله بن أبي كان قد أعد معاذة لإكرام ضيوفه فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الكرامة له. فأقبلت معاذة إلى أبي بكر فشكت ذلك إليه فذكر أبو بكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأمر النبيّ أبا بكر بقبضها فصاح عبد الله بن أبي: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا. فأنزل الله هذه الآية، وذلك قبل أن يتظاهر عبد الله بن أبي بالإسلام. وجميع هذه الآثار متظافرة على أنّ هذه الآية كان بها تحريم البغاء على المسلمين والمسلمات المالكات أمر أنفسهن.

والبغاء في الجاهلية كان معدودا من أصناف النكاح. ففي الصحيح من حديث عائشة أنّ النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: ... ونكاح رابع يجتمع الناس فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممّن جاءها، وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهنّ فإذا حملت إحداهن ووضعت جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه، فلما بعث محمد بالحق هدم نكاح الجاهلية كلّه إلّا نكاح الناس اليوم " .

فكان البغاء في الحرائر باختيارهنّ إيّاه للارتزاق، وكانت عناق صاحبة مرثد بن أبي مرثد التي تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } [3]. وكان في الإماء من يُلزمهنّ سادتهنّ عليه لاكتساب أجور بغائهن. فكما كانوا يتّخذون الإماء للخدمة وللتسرّي كانوا يتّخذون بعضهن للاكتساب وكانوا يسمّون أجرهنّ مهرا، كما جاء في حديث أبن مسعود أنّ رسول الله نهى عن مهر البغيّ، ولأجل هذا اقتصرت الآية على ذكر الفتيات، جمع فتاة بمعنى الأمة، كما قالوا للعبد: غلام.

ولا ريب أنّ الخطاب بقوله تعالى { وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ } موجّه إلى المسلمين، فإذا كانت قصة أمة ابن سلول حدثت بعد أن أظهر سيّدها الإسلام كان هو سبب النزول فشمله العموم لا محالة، وإن كانت حدثت قبل أن يظهر الإسلام فهو سبب ولا يشمله الحكم.

وقد كان إظهار عبد الله بن أُبَي بن سلول الإسلام في أثناء السنة الثانية من الهجرة فإنّه تردّد زمنا في الإسلام ولمّا رأى قومه دخلوا في الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق. ويظهر أنّ قصة أمته حدثت في مدّة صراحة كفره لمَا علمتَ ممّا روي عن الزهري من قول ابن سلول حين نزلت: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا، ونزول سورة النور كان في حدود السنة الثانية كما علمت في أول الكلام عليها، فلا شك أنّ البغاء الذي هو من عمل الجاهلية استمر زمنا بعد الهجرة بنحو سنة.

ولا شك أن البغاء يمتُّ إلى الزنى بشبه لما فيه من تعريض الأنساب للاختلاط وإن كان لا يبلغ مبلغ الزنى في خرم كلّيّة حفظ النسب من حيث كان الزنى سرًّا لا يطّلع عليه إلّا من اقترفه وكان البغاء علنا، وكانوا يرجعون في إلحاق الأبناء الذي تلدهم البغايا بآبائهم إلى إقرار البغي بأنّ الحمل ممّن تعيّنه. واصطلحوا على الأخذ بذلك في النسب فكان شبيها بالاستلحاق، على أنّه قد يكون من البغايا من لا ضبط لها في هذا الشأن فيفضي الأمر إلى عدم التحاق الولد بأحد.

ولا شكّ في أن الزنى كان محرّما تحريما شديدا على المسلم من مبدأ ظهور الإسلام. وكانت عقوبته فرضت في حدود السنة الأولى بعد الهجرة بنزول سورة النور كما تقدّم في أوّلها. وقد أثبتت عائشة أنّ الإسلام هدم أنكحة الجاهلية الثلاثة وأبقى النكاح المعروف ولكنها لم تعيّن ضبط زمان ذلك الهدم.

ولا يعقل أن يكون البغاء محرّما قبل نزول هذه الآية إذ لم يعرف قبلها شيء في الكتاب والسنة يدلّ على تحريم البغاء، ولأنّه لو كان كذلك لم يتصوّر حدوث تلك الحوادث التي كانت سبب نزول الآية إذ لا سبيل للإقدام على محرم بين المسلمين أمثالهم.

ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما نزل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } [النساء:43] توطئة لتحريم الخمر البتّة. وهو الذي جرى عليه المفسّرون مثل الزمخشري والفخر بظاهر عباراتهم دون صراحة.

{ **لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } متعلّق بـ { تُكْرِهُوا }، لزيادة التبشيع. وهو الأجر الذي يكتسبه الموالي من إمائهم، وهو ما يسمَّى بالمهر أيضا.

{ **وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } فهو صريح في أنّه حكم متعلّق بالمستقبل، لأنّه مضارع في حيّز الشرط، وهو صريح في أنّه عفو عن إكراه.

والذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان: جانب المكرِهين وجانب المكرَهات (بفتح الراء)؛ فأمّا جانب المكرِهين فلا يخطر بالبال أنّ الله غفور رحيم لهم بعد أن نهاهم عن الإكراه إذ ليس لمثل هذا التبشير نظير في القرآن.

وأمّا الإماء المكرَهات فإنّ الله غفور رحيم لهنّ. وقد قرأ بهذا المقدّر عبد الله بن مسعود وابن عباس فيما يروى عنهما، وعن الحسن أنّه كان يقول: غفور رحيم لهن والله .

وجعلوا فائدة هذا الخبر أن الله عذر المكرَهات لأجل الإكراه، وأنّه من قبيل قوله { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة:173].

{ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [34]

ذيّلت الأحكام والمواعظ التي سبقت بإثبات نفعها وجدواها لما اشتملت عليه ممّا ينفع الناس ويقيم عمود جماعتهم، ويميّز الحقّ من الباطل، ويزيل من الأذهان اشتباه الصواب بالخطأ، فيعلم الناس طرق النظر الصائب، وذلك تنبيه لما تستحقّه من التدبّر فيها، ولنعمة الله على الأمّة بإنزالها ليشكروا الله حق شكره.

ووصف هذه الآيات المنزّلة بثلاث صفات كما وصف السورة في طالعتها بثلاث صفات. والمقصد من الأوصاف في الموضعين هو الامتنان، فكان هذا يشبه ردّ العجز على الصدر.

فالآية مستأنفة استئناف التذييل وكان مقتضى الظاهر ألّا تعطف لأنّ شأن التذييل والاستئناف الفصل كما فصلت أختها الآتية قريبا { لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } [46]. وإنّما عدل عن الفصل إلى العطف لأنّ هذا ختام التشريعات والأحكام التي نزلت السورة لأسبابها.

وقد خُلِّلت بمثل هذا التذييل مرّتين قبل هذا بقوله تعالى في ابتداء السورة { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } [1]، ثمّ قوله { وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [18]، ثم قوله هنا { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } فكان كلّ واحد من هذه التذييلات زائدا على الذي قبله؛

<u>الأول زائد بقوله</u> { وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ } لأنّه أفاد أنّ بيان الآيات لفائدة الأمّة.

<u>وما هنا زاد بقوله</u> { وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ }.

فكانت كل زيادة من هاتين مقتضية العطف لما حصل من المغايرة بينها وبين أختها، وتعتبر كل واحدة عطفا على نظيرتها، فوصفت السورة كلّها بثلاث صفات، ووصف ما كان من هذه السورة مشتملا على أحكام القذف والحدود وما يفضي إليها أو إلى مقاربها من أحوال المعاشرة بين الرجال والنساء بثلاث صفات:

فقوله هنا { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } يطابق قوله في أوّل السورة { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ }.

وقوله { وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ } يقابل قوله في أوّل السورة { وَفَرَضْنَاهَا } على ما اخترناه في تفسير ذلك بأنّ معناه التعيين والتقدير، لأنّ في التمثيل تقديرا وتصويرا للمعاني بنظائرها.

وقوله { وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } يقابل قوله في أوّلها { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }.

{ **وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ** } ابتدئ الكلام بلام القسم وحرف التحقيق للاهتمام به.

الآيات: جمل القرآن لأنّها لكمال بلاغتها وإعجازها المعاندين عن أن يأتوا بمثلها كانت دلائل على أنّه كلام منزّل من عند الله.

{ **مُبَيِّنَاتٍ** } قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب { مُبَيَّنَاتٍ } بفتح التحتية على صيغة المفعول. فالمعنى: أنّ الله بيّنها ووضّحها. وقرأ الباقون بكسر التحتية { مُبَيِّنَاتٍ } على معنى أنّها أبانت المقاصد التي أنزلت لأجلها. ومعنيا القراءتين متلازمان فبذلك لم يكن تفاوت بين مفاد هذه الآية ومفاد قوله في نظيرتها { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } في أوّل السورة، لأنّ البيّنات هي الواضحة، أي: واضحة الدلالة والإفادة.

المثل: النظير والمشابه. ويجوز أن يراد به الحال العجيبة.

{ **مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ** } (مِن) ابتدائية، أي: مثلا ينشأ ويتقوّم من الذين خلوا. والمراد: نشأة المشابهة. وفي الكلام حذف مضاف يدلّ عليه السياق، تقديره: من أمثال الذين خلوا من قبلكم. وهم الأمم الذين سبقوا المسلمين، وأراد: من أمثال صالحي الذي خلوا من قبلكم.

وهذا المثل هو قصّة الإفك النظيرة لقصّة يوسف وقصّة مريم، في تقوّل البهتان على الصالحين البُرآء.

الموعظة: كلام أو حالة يعرف منها المرء مواقع الزلل فينتهي عن اقتراف أمثالها. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63] وقوله { مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ } [الأعراف:145].

المتّقون: الذين يتّقون، أي: يتجنبون ما نُهوا عنه.

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [35]

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أتبع منّة الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } بالامتنان بأنّ الله هو مكوِّن أصول الهداية العامة والمعارف الحقّ للنّاس كلّهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحقّ، مع ما في هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته.

والذي يظهر لي أنّ الجملة معترضة بين الجملة التي قبلها وبين جملة { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ }، وأنّ جملة {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ } بيان لجملة { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } كما سيأتي في تفسيرها. ومناسبة ذلك البيان أنّ آيات القرآن نور، قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً } [النساء:174]، وقال { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ } [المائدة:10].

وموقع الجملة عجيب من عدّة جهات، وانتقال من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد وأفانين من الموعظة والبرهان.

النور: حقيقته الإشراق والضياء. وهو اسم جامد لمعنى، فهو كالمصدر.

فالإخبار عن الله تعالى بأنّه نور إخبار بمعنى مجازي للنور لا محالة بقرينة أصل عقيدة الإسلام أنّ الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا يتردّد في ذلك أحد من أصحاب اللسان العربي.

ولا تخلو حقيقة معنى النور عن كونه جوهرا أو عرضا. وأسعد إطلاقات النور في اللغة بهذا المقام أن يراد به جلاء الأمور التي شأنها أن تخفى عن مدارك الناس وتلتبس فيقلّ الاهتداء إليها، فإطلاقه على ذلك مجاز بعلامة التسبّب في الحسّ والعقل.

قال الغزالي في رسالته المعروفة بمشكاة الأنوار[التي جعلها فيما يُستخلص من آية { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }]:

" النور هو الظاهر الذي به كل ظهور، أي: الذي تنكشف به الأشياء وتنكشف له وتنكشف منه، وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور. وجعل اسمه تعالى النور دالا على التنزّه عن العدم، وعلى إخراج الأشياء كلّها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود، فآل إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار والتبيين في الخلق والإرشاد والتشريع " .

وقد أشرنا آنفا إلى أنّ للنور إطلاقات كثيرة وإضافات أخرى صالحة لأن تكون مرادا من وصفه تعالى

بالنور، وقد ورد في مواضع من القرآن والحديث فيحمل الإطلاق في كلّ مقام على ما يليق بسياق الكلام، ولا يطّرد ذلك على منوال واحد حيثما وقع، كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ "** . فإنّ عطف (ومن فيهن) يؤذن بأنّ المراد بـ {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ذاتهما لا الموجودات التي فيهما، فيتعيّن أن يراد بالنور هنالك إفاضة الوجود المعبّر عنه بالفتق في قوله { كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا } [الأنبياء:30] . والمعنى: أنّه بقدرته تعالى استقامت أمورهما.

ولحكماء الإشراق من المسلمين وصوفية الحكماء معاني من إطلاقات النور. وأشهرها ثلاث: البرهان العلمي، والكمال النفساني، وما به مشاهدة النورانيّات من العوالم.

ونلحق بهذه المعاني إطلاق النور على الإرشاد إلى الأعمال الصالحة وهو **الهدي**.

فلفظ (نور) في قوله { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ } غير المراد بلفظ (نور) في قوله { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فالنور لفظ مشترك استعمل في معنى وتارة أخرى في معنى آخر.

فأحسن ما يُفسر به قوله تعالى { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أنّ الله مُوجد كلّ ما يعبَّر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة الحقّ والحجّة القائمة، والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي والسفلي، وهو من استعمال المشترك في معانيه.

{ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } يجوز أن يراد من فيهما من باب { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف:82]، وذلك أبلغ في الدلالة على الإحاطة بالمقصود وألطف دلالة. فيشمل تلقين العقيدة الحقّ والهداية إلى الصلاح.

{ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ }.

يظهر أنّ هذه الجملة بيان لجملة { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ }، فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا.

وجرى كلام كثير من المفسّرين على ما يقتضي أنّها بيان لجملة الله نور السماوات والأرض، فيكون موقعها موقع عطف البيان، فلذلك فصلت فلم تعطف.

{ **نُورِهِ** } الضمير عائد إلى اسم الجلالة، أي: مثل نور الله. والمراد: كتابه أو الدين الذي أختاره، أي: مثله في إنارة عقول المهتدين. فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفّت به وسائل قوّة الإشراق، فهو نور الله لا محالة.

وإنّما أوثر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبّه نوره بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبّه بها بأنّها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة فتنقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها.

ودون أن يشبّه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق لقصد إكمال المشابهة لأنّ القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف. وبعد هذا فلأن المقصود ذكر ما حفّ بالمصباح من الأدوات ليتسنى كمال التمثيل بقبوله تفريق التشبيهات كما سيأتي، وذلك لا يتأتّى في القمر.

المثل: تشبيه حال بحال، وقد تقدّم في أوائل سورة البقرة.

{ **كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** } المقصود كمصباح في مشكاة. وإنّما قدّم المشكاة في الذكر لأنّ المشبّه به هو مجموع الهيئة.

المشكاة : المعروف من كلام أهل اللغة أنّها فرجة في الجدار مثل الكوّة لكنّها غير نافذة، فإن كانت نافذة فهي الكوّة. ولا يوجد في كلام الموثوق عنهم من أهل العربية غير هذا المعنى، واقتصر عليه الراغب وصاحب القاموس والكشاف واتفقوا: على أنّها كلمة حبشيّة أدخلها العرب في كلامهم فعدّت في الألفاظ الواقعة في القرآن بغير لغة العرب. ووقع ذلك في صحيح البخاري فيما فسّره من مفردات سورة النور.

ووقع في تفسير الطبري وابن عطية عن مجاهد: أنّ المشكاة العمود الذي فيه القنديل يكون على رأسه.

وفي الطبري عن مجاهد أيضا: المشكاة الصُّفر (أي: النحاس، أي قطعة منه شبيه القُصيبة) الذي في جوف القنديل. وفي معناه ما رواه هو عن ابن عباس: المشكاة موقع الفتيلة.

المصباح: اسم للإناء الذي يوقد فيه بالزيت للإنارة، وهي من صيغ أسماء الآلات مثل المفتاح، وهو مشتقّ من اسم الصبح، أي: ابتداء ضوء النهار، فالمصباح آلة الإصباح، أي: الإضاءة.

وإذا كان المشكاة اسما للقُصيبة التي توضع في جوف القنديل كان المصباح مرادا به الفتيلة التي توضع في تلك القُصيبة.

{ **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** } وإعادة لفظ { الْمِصْبَاحُ } دون أن يقال: فيها مصباح في زجاجة، إظهار في مقام الإضمار للتنويه بذكر المصباح لأنّه أعظم أركان هذا التمثيل. وكذلك إعادة لفظ { الزُّجَاجَةُ } في قوله تعالى: { **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** } كذلك إظهار في مقام الإضمار للتنويه، لأنّه من أعظم أركان التمثيل. ويسمَّى مثل هذه الإعادة تشابه الأطراف في فن البديع.

الزجاجة: اسم إناء يصنع من الزجاج، سمِّيت زجاجة لأنّها قطعة مصنوعة من الزُجاج. كانوا يتّخذون من الزجاج آنية للخمر وقناديل للإسراج بمصابيح الزيت، لأن الزجاج شفاف لا يحجب نور السراج.

الزجاج: صنف من الطين المطيّن من عجين رمل مخصوص يوجد في طبقة الأرض وليس هو رمل الشطوط. وقد كان الزجاج معروفا عند القدماء الفينيقيين وعند القبط من نحو القرن الثلاثين قبل المسيح ثمّ عرفه العرب وهم يسمونه الزجاج والقوارير. قال بشّار:

أرفق بعمرو إذا حركت نسبته ... فإنه عربي من قوارير

وقد عرفه العبرانيّون في عهد سليمان واتّخذ منه سليمان بلاطا في ساحة صرحه كما ورد في قوله { قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ } [النمل:44].

{ **كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** } النجم الساطع. واحد الدراري، وهي الكواكب ساطعة النور، مثل الزهرة والمشتري. منسوبة إلى الدر في صفاء اللون وبياضه. والدرُّ يضرب مثلا للإشراق والصفاء.

{ **يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** } في موضع الصفة لمصباح. أي: تنير. وإسناد التوقد إليها مجاز عقلي.

الإيقاد: وضع الوقود وهو ما يزاد في النار المشتعلة ليقوى لهبها، وأريد به هنا ما يُمَدُّ به المصباح من الزيت، وفي صيغة المضارع على قراءة الأكثرين إفادة تجدّد إيقاده، أيّ لا يذوى ولا يطفأ. وعلى قراءة ابن كثير ومن معه بصيغة الماضي إفادة أنّ وقوده ثبت وتحقق.

{ **شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ** } ذكر الجنس ثم أبدل منه اسم نوعها للإبهام الذي يعقبه التفصيل اهتماما بتقرّر ذلك في الذهن.

{ **مُبَارَكَةٍ** } لما فيها من كثرة النفع، فإنّها يُنتفع بحبّها أكلا وبزيتها كذلك، ويُستنار بزيتها ويُدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة، ويُنتفع بحطبها وهو أحسن حطب، لأن فيه المادة الدهنية، قال تعالى { تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ } [المؤمنون:20]، ويُنتفع بجودة هواء غاباتها.

وقد قيل إن بركتها لأنّها من شجر بلاد الشام والشام بلد مبارك من عهد إبراهيم عليه السلام قال { وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:71].

{ **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** } وصف لـ {زَيْتُونَةٍ} . دخل حرف (لا) النافية في كلا الوصفين فصار بمنزلة حرف هجاء من الكلمة بعده، ولذلك لم يكن في موضع إعراب، نظير (ال) المعرفة التي ألغز فيها الدماميني بقوله:

حاجيتكم لتخبروا ما اسمان ... وأوّل إعرابه في الثاني

وهو مبني بكل حال ... ها هو للناظر كالعيان

لإفادة الاتصاف بنفي كل وصف، وعطف على كلّ وصف ضدّه لإرادة الاتصاف بوصف وسط بين الوصفين المنفيين، لأنّ الوصفين ضدان. والعطف هنا من عطف الصفات كقوله تعالى { لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ } [النساء:143].

والمعنى: أنّها زيتونة جهتها بين جهة الشرق وجهة الغرب، فنُفي عنها أن تكون شرقية وأن تكون غربية.

وهذا الاستعمال من قبيل الكناية لأنّ المقصود لازم المعنى لا صريحه.

واعلم أنّ هذا الاستعمال إنّما يكون في عطف نفي الأسماء وأمّا عطف الأفعال المنفيّة فهو من عطف الجمل

نحو { فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى } [القيامة:31]، وقوله صلى الله عليه وسلم: **" لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض ".**

ثم يحتمل أن يكون المعنى أنّها نابتة في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها وذلك هو البلاد الشامية، وقد قيل: إنّ أصل منبت شجرة الزيتون بلاد الشام.

{ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ } أي: يكاد زيتها يضيء في كلّ حال حتّى في حالة لم تمسسه فيها نار. وهذا تشبيه بالغ كمال الإفصاح بحيث هو مع أنّه تشبيه هيئة بهيئة هو أيضا مفرَّق التشبيهات لأجزاء المركَّب المشبّه مع أجزاء المركَّب المشبّه به، وذلك أقصى كمال التشبيه التمثيلي في صناعة البلاغة.

{ نُورٌ عَلَى نُورٍ } مستأنفة إشارة إلى أنّ المقصود من مجموع أجزاء المركّب التمثيلي هنا هو البلوغ إلى إيضاح أنّ الهيئة المشبّه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة والمصباح والزجاج الخالص والزيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة كان شعاعه منحصرا فيها غير منتشر فكان أشد إضاءة لها ممّا لو كان في بيت، وإذا كان موضوعا في زجاجة صافية تضاعف نوره، وإذا كان زيته نقيا صافيا كان أشدّ إسراجا، فحصل تمثيل حال الدين أو الكتاب المنزّل من الله في بيانه وسرعة فشوِّه في الناس بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حفّ به من أسباب قوّة شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به.

{ عَلَى نُورٍ } للاستعلاء المجازي، وهو التظاهر والتعاون. والمعنى: أنّه نور مكرر مضاعف.

وقد أشرت آنفا إلى أنّ هذا التمثيل قابل لتفريق التشبيه في جميع أجزاء ركني التمثيل بأن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة مشابها لجزء من الهيئة المشبه بها وذلك أعلى التمثيل:

*/ <u>النور هو معرفة الحقّ على ما هو عليه،</u> المكتسبة من وحي الله وهو القرآن. **شبّه** <u>بالمصباح المحفوف بكل ما يزيد نوره انتشارا وإشراقا.</u>

*/ <u>المشكاة</u> **يشبهها** ما في الإرشاد الإلهي من <u>انضباط اليقين وإحاطة الدلالة بالمدلولات</u> دون تردّد ولا انثلام، <u>وحفظ المصباح من الانطفاء</u> مع <u>ما يحيط بالقرآن من حفظه من الله</u> بقوله { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9]

*/ معاني <u>هداية إرشاد الإسلام</u> **تشبه** المصباح في <u>التبصير والإيضاح</u>، وتبيين الحقائق من ذلك الإرشاد.

*/ <u>سلامته من أن يطرقه الشك</u> واللبس **يشبه** <u>الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه</u> كما قال { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } [النور:34].

*/ <u>الوحي الذي أبلغ الله به حقائق</u> الديانة من القرآن والسنة **يشبه** <u>الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة</u> يستخرج منها دلائل الإرشاد.

*/ <u>سماحة الإسلام وانتفاء الحرج</u> عنه **يشبه** <u>توسّط الشجرة بين طرفي الأفق</u>، فهو وسط بين الشدّة المحرجة

وبين اللين المفرط.

*/ دوام ذلك الإرشاد وتجدده **يشبه** الإيقاد.

*/ تعليم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّته ببيان القرآن وتشريع الأحكام **يشبه** الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة وهو مع ذلك بين قريب التناول يكاد لا يحتاج إلى إلحاح المعلّم.

*/ انتصاب النبيّ عليه الصلاة والسلام للتعليم **يشبه** مس النار للسراج وهذا يومئ إلى استمرار هذا الإرشاد.

*/ { مِنْ شَجَرَةٍ } يومئ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة، لأنّ استخراج الزيت من ثمر الشجرة يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط.

{ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } هذه الجمل الثلاث معترضة أو تذييل للتمثيل. والمعنى: دفع التعجّب من عدم اهتداء كثير من الناس بالنور الذي أنزله الله، وهو القرآن والإسلام.

وأنّ الله يضرب الأمثال للناس مرجوا منهم التذكّر بها: فمنهم من يعتبر بها فيهتدي، ومنهم من يُعرض فيستمرّ على ضلاله، ولكن شأن تلك الأمثال أن يهتدي بها غير من طبع على قلبه.

{ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل لمضمون الجملتين قبلها، أي: لا يعزب عن علمه شيء. ومن ذلك علم من هو قابل للهدى ومن هو مصرّ على غيّه. وهذا تعريض بالوعد للأوّلين والوعيد للآخرين.

{ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ** [36] **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** [37] **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** [38] }.

{ **فِي بُيُوتٍ** } تردّد المفسّرون في تعلق الجار والمجرور. فقيل: من تمام التمثيل، أي: يوقد المصباح في بيوت. وقيل هو صفة لمشكاة، أي: مشكاة في بيوت، وما بينهما اعتراض.

وقيل: أريد بالبيوت المساجد. ولا يستقيم إلّا تنويها، كما سنبيّنه.

وقيل: البيوت مساجد بيت المقدس وكانت يومئذ بيعا للنصارى. ويجوز، على هذا الوجه، أن يكون المراد بالبيوت صوامع الرهبان وأديرتهم، وكانت معروفة في بلاد العرب في طريق الشام يمرّون عليها وينزلون عندها في ضيافة رهبانها.

ويجوز أن يكون { فِي بُيُوتٍ } غير مرتبط بما قبله وأنّه مبدأ استئناف ابتدائي وأنّ المجرور متعلّق بقوله تعالى { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا }. وتقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت وللتشويق إلى متعلّق المجرور، وهو التسبيح وأصحابه. والتقدير: يسبح لله رجال في بيوت، ويكون قوله { فِيهَا } تأكيدا، لزيادة الاهتمام بها. وفي ذلك تنويه بالمساجد وإيقاع الصلاة والذكر فيها، كما في الحديث: **صلاة أحدكم في المسجد** (أي: الجماعة) **تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة ".**

والأظهر عندي: أنّ قوله { فِي بِيُوتٍ } ظرف مستقرّ، هو حال من { نُورِهِ } في قوله { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ }، فيكون هذا الحال تجريدا للاستعارة التمثيلية بذكر ما يناسب الهيئة المشبّهة، أعني هيئة تلقي القرآن وقراءته وتدبّره، ممّا أشار إليه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده "** [مسلم]

{ **أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ** } أي: ألهم متّخذيها أن يجعلوها عالية، وكانوا صالحين يقرأون الإنجيل، فهو كقوله تعالى { لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ - إلى قوله - يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً } [الحج:40].

وعبّر بـ { أَذِنَ } دون الأمر لأنّ الله لم يأمرهم باتخاذ الأديرة في أصل النصرانية ولكنّهم أحدثوها للعون على الانقطاع للعبادة باجتهاد منهم، فلم ينههم الله عن ذلك، إذ لا يوجد في أصل الدين ما يقتضي النهي عنها، فكانت في قسم المباح.

وقيل: أريد بالرفع، الرفع المعنوي وهو التعظيم والتنزيه عن النقائض، فالإذن حينئذ بمعنى الأمر. وهذا بعيد عن أغراض القرآن، وخاصة المدني منه، لأنّ الثناء على هؤلاء الرجال ثناء جمّ ومعقّب بقوله { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا }.

الغدو: الصباح، لأنّه وقت خروج الناس في قضاء شؤونهم.

الآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار، وتقدم في [الأعراف:205].

{ **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** } قيل: الرهبان الذين انقطعوا للعبادة وتركوا الشغل بأمور الدنيا، فيكون المعنى: أنّهم لا تجارة لهم ولا بيع من شأنهما أن يلهياهم عن ذكر الله.

والثناء عليهم يومئذ لأنّهم كانوا على إيمان صحيح إذ لم تبلغهم يومئذ دعوى الإسلام ولم تبلغهم إلّا بفتوح مشارف الشام بعد غزوة تبوك، وأمّا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فإنّه لم يذع في العامة.

وقيل: المراد بالرجال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان مثلهم في التعلّق بالمساجد. فهم لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن الصلوات وأوقاتها في المساجد. وهذا تعريض بالمنافقين.

التجارة: جلب السلع للربح في بيعها. و**البيع** أعم، وهو أن يبيع أحد ما يحتاج إلى ثمنه.

{ **وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** } تقدّم المعنى في [البقرة:43].

{ **يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** } انتصب { يَوْماً } على المفعول به لا على الظرف بتقدير مضاف، أي: يخافون أهواله.

تقلّب القلوب والأبصار: اضطرابها عن مواضعها من الخوف والوجل، كما يتقلّب المرء في مكانه. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ } [الأنعام:110]. والمقصود العمل لما فيه الفلاح والنجاة يومئذ.

{ **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** } متعلّق بـ { يَخَافُونَ }، أي: كان خوفهم سببا للجزاء على أعمالهم الناشئة عن ذلك الخوف.

الزيادة من فضله: هي زيادة أجر الرهبان إن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم حينما تبلغهم دعوته، لما في الحديث الصحيح: " **أنّ لهم أجرين** ".

أو هي زيادة فضل الصلاة في المساجد إن كان المراد بالبيوت مساجد الإسلام.

{ **وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } تذييل لجملة { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ }. أي: وهم ممّن يشاء الله لهم الزيادة.

الحساب: هنا بمعنى التحديد كما في قوله { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران:37]. وأمّا قوله { جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً } [النبأ:36]، فهو بمعنى التعيين والإعداد، للاهتمام بهم.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [39]

لمّا جرى ذكر أعمال المتّقين من المؤمنين وجزائهم عليها أعقب ذلك بضدّه من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا، على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة، وعكس ذلك.

ولعلّ المشركين كانوا إذا سمعوا ما وعد الله به المؤمنين من الجزاء على الأعمال الصالحة يقولون: ونحن نعمر المسجد الحرام ونطوف ونطعم المسكين ونسقي الحاج ونقري الضيف، كما أشار إليه قوله { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [التوبة:19]، يعدّون أعمالا من أفعال الخيرات، فكانت هذه الآيات إبطالا لحسابهم، كقوله تعالى { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [الفرقان:23].

وقد أعلمناك أن هذه السورة نزل أكثرها عقب الهجرة وذلك حين كان المشركون يتعقّبون أخبار المسلمين في مهاجرهم ويتحسّسون ما نزل من القرآن.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ** } جعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بُني عليه مسند إليه آخر وهو { أَعْمَالُهُمْ }، ولم يجعل المسند إليه (أعمال الذين كفروا) من أوّل وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم، ليتقرّر في النفس كمال التقرّر، وليظهر أنّ للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه (أعمالهم) فقط.

على أنه قد يكون عنوان (الذين كفروا) قد غلب على المشركين من أهل مكّة فيكون افتتاح الكلام بهذا الوصف إشارة إلى أنّه إبطال لشيء اعتقده الذين كفروا.

السراب: رطوبة كثيفة تصعد على الأرض ولا تعلو في الجو تنشأ من بين رطوبة الأرض وحرارة الجو في المناطق الحارة الرملية فيلوح من بعيد كأنّه ماء.

{ **بِقِيعَةٍ** } الباء بمعنى (في) و (قيعة) أرض، والجار والمجرور وصف لسراب. و**القيعة:** الأرض المنبسطة ليس فيها ربى ويرادفها القاعة.

{ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً** } يفيد وجه الشبه ويتضمّن أحد أركان التمثيل: الرجل العطشان، وهو مشابه الكافر.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءَهُ** } (حتّى) ابتدائية فهي بمعنى (فاء) التفريع. أي: فلما بلغ إلى حيث توهّم وجود الماء لم يجد الماء فتحقّق أن ما لاح له سراب. فضرب ذلك مثلا لقرب زمن إفضاء الكافر إلى عمله وقت موته حين يرى مقعده، أو في وقت الحشر.

{ **لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً** } أي: لم يجد ما كان يخيّل إلى عينه أنّه ماء. وهذا التمثيل كقوله تعالى { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [الفرقان:23].

{ **وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ** } هو من تمام التمثيل، أي: أعطاه جزاء كفره وافيا، لا تخفيف فيه.

{ **وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } تذييل. والمعنى: أنّه لا يماطل الحساب ولا يؤخّره عند حلول مقتضيه، فهو عام في حساب الخير والشر ولذلك كان تذييلا.

واعلم أنّ هذا التمثيل العجيب صالح لتفريق أجزائه في التشبيه بأن ينحلّ إلى تشبيهات واستعارات:

*/ فأعمال الكافرين شبيهة بالسراب في أنّ لها صورة الماء وليست بماء.

*/ والكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله، ففي قوله { يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ } استعارة مصرّحة.

*/ وخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه السراب، ففيه استعارة مصرّحة.

*/ ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتْل من جند الله أو بتكوين الله، تشبه مفاجأة من حسب أنّه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقّق أنّه لا ماء، فوجد عند الموضع الذي بلغه من يترصّد له لأخذه أو أسره. فهنا استعارة مكنيّة إذ شُبّه أمر الله أو ملائكته بالعدو، ورمز إلى العدو بقوله { فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ }.

{ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } [40]

{ **أَوْ** } شأن (أو) إذا جاءت في عطف التشبيهات أن تدلّ على تخيير السامع أن يشبّه بما قبلها أو بما بعدها. وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ } [البقرة:19].

فإذا كان الكلام هنا جاريا على ذلك الشأن، مع اتّحاد وجه الشبه، كان المعنى تمثيل الذين كفروا في أعمالهم التي يظنّون أنّهم يتقرّبون بها إلى الله بحال ظلمات ليل غشيت مَاخِرًا في بحر شديد الموج قد اقتحمه ليصل إلى غاية مطلوبة، وإنّما يكون ذلك عند اشتداد الرياح حتّى لا يكاد يرى يده التي هي أقرب شيء إليه وأوضحه في رؤيته، فكيف يرجو النجاة.

وإن كان الكلام جاريا على التخيير في التشبيه، مع اختلاف وجه الشبه، كان المعنى تمثيل حال الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها، وهم غير مؤمنين، بحال من ركب البحر يرجو بلوغ غاية فإذا هو في ظلمات لا يهتدي معها طريقا، فوجه الشبه هو ما حفّ بأعمالهم من ضلال الكفر الحائل دون حصول مبتغاهم.

ويرجّح هذا الوجه تذييل التمثيل بقوله { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ }.

{ **كَظُلُمَاتٍ** } على الوجهين، عطف على { كَسَرَابٍ } والتقدير: والذين كفروا أعمالهم كظلمات. وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة.

الظلمات: الظلمة الشديدة. والجمع مستعمل في لازم الكثرة وهو الشدّة، فالجمع كناية، لأنّ شدّة الظلمة يحصل من تظاهر عدّة ظلمات.

وقد ذكرنا فيما مضى أنّ لفظ (ظلمة) بالإفراد لم يرد في القرآن. انظر قوله تعالى { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام:1].

{ **فِي بَحْرٍ** } أنّ الظلمات انطبع سوادها على ماء البحر فصارت كأنها في البحر.

{ **لُجِّيٍّ** } منسوب إلى اللُّجَّة، واللجّ: هو معظم البحر، أي: في بحر عميق، فالنسب مستعمل في التمكُّن من الوصف.

الموج: اسم جمع موجة: مقدار يتصاعد من ماء البحر أو النهر عن سطح مائه بسبب اضطراب في سطحه بهبوب ريح يدفعه إلى الشاطئ. وأصله مصدر: ماج البحر، أي: اضطرب، وسمِّي به ما ينشأ عنه.

{ **مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ** } أي: أنّ الموج لا يتكسَّر حتّى يلحقه موج آخر من فوقه، وذلك أبقى لظلمته.

السحاب: تقدم في [الرعد:12]. والسحاب يزيد الظلمة إظْلَامًا، لأنّه يحجب ضوء النجم والهلال.

{ **ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** } استئناف. والتقدير: هي ظلمات. والمراد بالظلمات هنا غير { أَوْ كَظُلُمَاتٍ }

لأنّ الجمع هنا جمع أنواع وهنالك جمع أفراد من نوع واحد.
{ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا } لا يكاد يرى يده التي هي أقرب شيء إليه وأوضحه في رؤيته.
{ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } تذييل للتمثيل، أي: هم باؤوا بالخيبة فيما ابتغوا ممّا عملوا وقد حقّهم الضلال الشديد فيما عملوا حتّى عدموا فائدته. وفيه تنبيه على أنّ الله تعالى متصرّف بالإعطاء والمنع على حسب إرادته وحكمته وما سبق من نظام تدبيره.
وهذا التمثيل صالح لاعتبار التفريق في تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها:
*/ فالضلالات تشبه الظلمات.
*/ والأعمال التي اقتحمها الكافر لقصد التقرّب بها تشبه البحر.
*/ وما يخالط أعماله الحسنة من الأعمال الباطلة كالبحيرة.
*/ والسائبة يشبه الموج في تخليطه العمل الحسن وتخلله فيه وهو الموج الأوّل.
*/ وما يرد على ذلك من أعمال الكفر كالذبح للأصنام يشبه الموج الغامر الآتي على جميع ذلك بالتخلُّل والإفساد وهو الموج الثاني.
*/ وما يحفّ اعتقاده من الحيرة في تمييز الحسن من العبث ومن القبيح يشبه السحاب الذي يغشى ما بقي في السماء من بصيص أنوار النجوم.
*/ وتطلّبه الانتفاع من عمله يشبه إخراج الماخِر يده لتناول ما يحتاجه فلا يرى يده بله الشيء الذي يريده.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [41]

الجملة استئناف ابتدائي، أعقب تمثيل ضلال أهل الضلالة وكيف حرمهم الله الهدى بطلب النظر والاعتبار كيف هدى الله تعالى كثيرا من أهل السماوات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده، وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئين عن إمداد الله إيّاها بهما، فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك، فأصواتها تسبيح بلسان الحال.
{ أَلَمْ تَرَ } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمراد من يبلغ إليه، أو الخطاب لغير معيّن فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله.

والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ومع ذلك قد حُرموا الهدى لمّا لم يجعله الله فيهم. وقد جعل الهدى في العجماوات إذ جبلها على إدراك أثر نعمة الوجود والرزق. وهذا في معنى قوله تعالى { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [الفرقان:44].
والجملة جارية مجرى الأمثال في كلام البلغاء فلا التفات فيها إلى معنى الرؤية.
{ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فتسبيح العقلاء حقيقة. وتسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه. وفيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته ومجازه، ولذلك خولف بينهما في الجملة الثانية فعبّر بالصلاة والتسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين: فريق العقلاء، وفريق الطير وإن جمعتهما كلمة { كُلٌّ }.
{ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ } يراد به صفّهنّ أجنحتهنّ في الهواء حين الطيران.
{ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } أطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي. فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء، وليس في أحوال الطير ما يستقيم إطلاق الدعاء عليه على وجه المجاز وأبقي لدلالة أصوات الطير اسم التسبيح لأنّه يطلق مجازا على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق وذلك على التوزيع، ولولا إرادة ذلك لقيل: كلّ قد علم تسبيحه، أو كلّ قد علم صلاته.
{ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } تذييل، وهو إعلام بسعة علم الله تعالى الشامل للتسبيح وغيره من الأحوال.

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [42]
تحقيق لما دلّ عليه الكلام السابق من إعطائه الهدى للعجماوات في شؤونه وحرمانه إيّاه فريقا من العقلاء، فلو كان ذلك جاريا على حسب الاستحقاق لكان هؤلاء أهدى من الطير في شأنهم.
وتقديم المعمولين للاختصاص، أي: أنّ التصرّف في العوالم لله لا لغيره.
وفي هذا انتقال إلى دلالة أحوال الموجودات على تفرّد الله تعالى بالخلق، ولذلك أعقب بقوله:

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } [43]
أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجماوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد بحيث تسير على السير الذي قدّره الله لها سيرا لا يتغيّر، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول

وحواس لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى والنظر في أدلّتها، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرّف.

وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو حتّى آل إلى قوله { فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ }.

{ **يُزْجِي** } يسوق. يقال: أزجى الإبل إزجاء. وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتّى يصير سحابا كثيفا.

{ **ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ** } انضمام بعض السحاب إلى بعض. وتقدّم الكلام على السحاب في قوله تعالى { وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ } [البقرة:164].

الركام: مشتق من الرَكْم. والركم: الجمع والضم. فالركام بمعنى المركوم، كما جاء في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ } [الطور:44].

{ **فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** } فإذا تراكم السحاب بعضه على بعض حدث فيه ما يُسمَّى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي وهو **البرق**. فقال بعض المفسرين: هو الودق. وأكثر المفسّرين على أنّ الودق هو المطر، وهو الذي اقتصرت عليه دواوين اللغة، والمطر يخرج من خلال السحاب.

الخِلال: الفتوق، جمع خَلَل كجَبَل وجِبال. وتقدّم قوله { خِلالَ الدِّيَارِ } [الإسراء:5].

{ **يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ** } يسقط من علو إلى سفل، أي ينزل من جو السماء إلى الأرض. و**السماء**: الجوّ الذي فوق جهة الأرض.

{ **مِنْ جِبَالٍ** } بدل من {السَّمَاءِ} بإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه وهو بدل بعض، لأنّ المراد بالجبال سحاب أمثال الجبال. وإطلاق الجبال في تشبيه الكثرة معروف، يقال: فلان جبل علم، وطود علم.

{ **مِنْ بَرَدٍ** } (من) هذه مزيدة في الإثبات على رأي الذين جوزوا ذلك. أو تكون اسما بمعنى بعض.

{ **فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ** } جعل نزول البرد إصابة، لأنّ الإصابة إذا أطلقت في كلامهم دلّت على أنّها حلول مكروه. ومن ذلك سمِّيت المصيبة الحادثة المكروهة. فإنّ (أصاب) مشتقّ من الصوب وهو النزول، ومنه صوب المطر، فجعل نزول البرد إصابة لأنّه يفسد الزرع والثمرة.

وأمّا قوله تعالى { إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ } [التوبة:50] فلأن قوله { حَسَنَةٌ } قرينة على إطلاق الإصابة على مطلق الحدوث، إمّا مجازا مرسلا وإمّا مشتركا لفظيا أو مشتركا معنويا.

{ **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ** } وصف لـ { سَحَاباً }. وفائدة هذه الصفة تنبيه العقول إلى التدبّر في هذه التغيرات، إذ كان شعور النّاس بحدوث البرق أوضح وأكثر من شعورهم بتكوّن السحاب وتراكمه ونزول المطر والبرد، إذ قد يغفل النّاس عن ذلك لكثرة حدوثه وتعوّدهم به، بخلاف اشتداد البرق. ولهذه النكتة خصصت هذه الحالة من أحوال البرق بالذكر.

السَنَا: ضوء البرق وضوء النّار. وأمّا السناء الممدود فهو الرِفعة.
{ **يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ** } هو كقوله في سورة البقرة { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } [البقرة:20]، سوى أنّ هذه الآية زيد فيها لفظ { سَنَا }، لأنّها واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال الغيث فكان المقام مقتضيا للتنويه بهذا البرق وشدّة ضيائه حتّى يكون الاعتبار بأمرين: بتكوين البرق في السحاب، وبقوّة ضيائه، حتّى يكاد يذهب بالأبصار. وآية البقرة واردة في مقام التهديد والتشويه لحالهم حين كانوا مظهرين الإسلام ومنطوين على الكفر والجحود، فكانت حالهم كحالة الغيث المشتمل على صواعق ورعد وبرق فظاهره منفعة وفي باطنه قوارع ومصائب.
ومن أجل اختلاف المقامين وقع التعبير هنا بـ { يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } وهنالك بقوله { يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ }، لأنّ في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلّط عليهم ما ليس في { يَذْهَبُ }، إذ هو مجرّد الاستلاب.
وأمّا التعبير هنا { بِالْأَبْصَارِ } معرّفا باللام فلأنّ المقصود أنّ البرق مقارب أن يزيل طائفة من جنس الأبصار، إذ اللام هنا لام الحقيقة. بخلاف آية البقرة فإنّها في مقام التوبيخ لهم بأنّ ما شأنه أن ينتفع النّاس به قد أشرف على الضرّ بهم فلذلك ذكر لفظ {َبْصَارَهُمْ } مضافا إلى ضميرهم.
مع ما في هذا التخالف من تفنين الكلام الواحد على أفانين مختلفة حتّى لا يكون الكلام معادا، وإن كان المعنى متّحدا، ولا تجد حقّ الإيجاز فائتا، فإنّ هذين الكلامين في حد التساوي في الحرف والنطق. وهكذا نرى بلاغة القرآن وإعجازه وحلاوة نظمه.

{ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } [44]

الكلام استئناف. وجيء به مستأنفا غير معطوف على آيات الاعتبار المذكور قبله لأنّه أريد الانتقال من الاستدلال بما قد يخفى على بعض الأبصار إلى الاستدلال بما يشاهده كلّ ذي بصر كلّ يوم وكلّ شهر فهو لا يكاد يخفى على ذي بصر. وهذا تدرّج في موقع هذه الجملة عقب جملة { يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } كما أشرنا إليه آنفا. ولذلك فالمقصود من الكلام هو جملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ }، ولكن بُني نظم الكلام على تقديم الجملة الفعلية لما تقتضيه من إفادة التجدّد.
التقليب: تغيير هيئة إلى ضدّها. ومنه { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا } [الكهف:42]، أي: يدير كفّيه من ظاهر إلى باطن، فتقليب الليل والنهار تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء، ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلَّب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض، ولكن لمّا كانت حالة ظلمة الجوّ تُسمَّى ليلا وحالة نوره تُسمَّى نهارا عبّر عن الجوِ في حالتيه بهما، وعُدِّي التقليب إليهما بهذا الاعتبار.
وممّا يدخل في معنى التقليب تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر.

ولرعي تكرّر التقلّب بمعنييه عبّر بالمضارع المقتضي للتكرّر والتجدّد.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** } إشارة إلى ما تضمّنه فعل { يُقَلِّبُ } من المصدر. أي: إنّ في التقليب.

والتأكيد بـ { إنَّ } إمّا لمجرّد الاهتمام بالخبر، وإمّا لتنزيل المشركين، في تركهم الاعتبار بذلك، منزلة من ينكر أنّ في ذلك عبرة.

وقيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر آنفا ابتداء من قوله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً } [43]، فيكون الإفراد في قوله { **لَعِبْرَةً** } ناظرا إلى أنّ مجموع ذلك يفيد جنس العبرة الجامعة لليقين بأنّ الله هو المتصرّف في الكون.

<u>ولم ترد العبرة في القرآن معرَّفة بلام الجنس ولا مذكورة بلفظ الجمع.</u>

{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [45]

{ **وَاللَّهُ خَلَقَ** } لمّا كان الاعتبار بتساوي أجناس الحيوان في أصل التكوين من ماء التناسل مع الاختلاف في أوّل أحوال تلك الأجناس في آثار الخلقة، وهو حال المشي، إنّما هو باستمرار ذلك النظام بدون تخلّف، وكان ذلك محقَّقًا، كان إفراغ هذا المعنى بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مفيدا لأمرين: التحقّق بالتقديم على الخبر الفعلي، والتجدّد بكون الخبر فعليًّا.

وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار للتنويه بهذا الخلق العجيب.

{ **خَلَقَ** } صيغة الماضي للدلالة على تقرير التقوّي بأنّ هذا شأن متقرّر منذ القدم، مع عدم فوات الدلالة على التكرير، حيث عُقّب الكلام بقوله { يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ }.

الدابة: ما دبّ على وجه الأرض، أي: مشى. وغُلِّب هنا الإنسان فأتى بضمير العقلاء.

{ **مِنْ مَاءٍ** } وتنكير ماء لإرادة النوعية، تنبيها على اختلاف صفات الماء لكلّ نوع من الدواب، إذ المقصود تنبيه النّاس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار.

وهذا بخلاف قوله { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } [الأنبياء:30]، إذ قُصد ثمّة إلى أنّ أجناس الحيوان كلّها مخلوقة من جنس الماء، وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه النّاس إجمالا ويعهدونه من أنّ الحيوان كلّه مخلوق من نُطَف أصوله.

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ** } رتّب ذكر الأجناس في حال المشي على ترتيب قوّة دلالتها على عظم القدرة.

{ **مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ** } الزحف، ذُكر الأوّل، لأنّ الماشي بلا آلة مشي متمكّنة، أعجب من الماشي على رجلين. وأطلق المشي على الزحف بالبطن للمشاكلة مع بقية الأنواع.

وليس في الآية ما يقتضي حصر المشي في هذه الأحوال الثلاثة لأنّ المقصود الاعتبار بالغالب المشاهد.

{ **يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** } جملة مستأنفة. زيادة في العبرة، أي: يتجدّد خلق الله ما يشاء أن يخلقه ممّا علمتم وما لم تعلموا.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تعليل وتذييل. ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كاملا مستقلا بذاته، لأنّ شأن التذييل أن يكون كالمثل.

{ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [46]

تذييل للدلائل والعبر السالفة، وهو نتيجة الاستدلال. أي: إن لم يهتد بتلك الآيات أهل الضلالة فذلك لأنّ الله لم يهدهم، لأنّه يهدي من يشاء.

{ **آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ** } المراد هنا: آيات القرآن كما يقتضيه فعل { أَنْزَلْنَا }، ولذلك لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها بعكس قوله السابق { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } [34].

ولمّا كان المقصود من هذا إقامة الحجّة دون الامتنان لم يقيّد إنزال الآيات بأنّه إلى المسلمين كما قُيّد في قوله تعالى قبله { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا **إِلَيْكُمْ** آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ }.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب { مُبَيَّنَاتٍ } - بفتح الياء - على صيغة اسم المفعول، أي: بيّنها الله ووضّحها ببلاغتها وقوّة حجّتها. وقرأ الباقون { مُبَيِّنَاتٍ } - بكسر الياء - على صيغة اسم الفاعل، فإسناد التبيين إلى الآيات على هذه القراءة مجاز عقلي، لأنّها سبب البيان.

والمعنى: أنّ دلائل الحقّ ظاهرة ولكنّ الله يقدّر الهداية إلى الحقّ لمن يشاء هدايته.

{ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ [47] وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ [48] وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ [49] أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [50] }.

عطف على جملة { وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } لما تتضمّنه جملة { يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } من هداية بعض الناس وحرمان بعضهم، كما هو مقتضى { مَنْ يَشَاءُ }. وهذا تخلّص إلى ذكر بعض ممّن لم يشأ الله

هدايتهم، وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام، وهم أهل النفاق. فبعد أن ذُكرت دلائل انفراد الله تعالى بالإلهية وذُكر الكفّار الصرحاء الذين لم يهتدوا بها في قوله { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ } تهيّأ المقام لذكر صنف آخر من الكافرين الذين لم يهتدوا بآيات الله وأظهروا أنّهم اهتدوا بها.

وضمير الجمع عائد إلى معروفين عند السامعين وهم المنافقون، لأنّ ما ذكر بعده هو من أحوالهم، وعود الضمير إلى شيء غير مذكور كثير في القرآن، على أنّهم قد تقدّم ما يشير إليهم بطريق التعريض في قوله تعالى { رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ } [37].

وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثمّ إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضى بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة، وفريقا لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علنا.

{ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا** } إيماء إلى أنّ حظّهم من الإيمان مجرّد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات:14].

وعبّر بالمضارع لإفادة تجدّد ذلك منهم واستمرارهم عليه.

{ **أَطَعْنَا** } المفعول محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: أطعنا الله والرسول.

{ **وَمَا أُولَئِكَ** } الإشارة إلى ضمير (يقولون)، أي: يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم.

{ **وَإِذَا دُعُوا** } الضمير عائد إلى معاد ضمير (يقولون). وإسناد فعل { دُعُوا } إلى جميعهم، وإن كان المعرضون فريقا منهم لا جميعهم، للإشارة إلى أنّهم سواء في التهيّؤ إلى الإعراض ولكنّهم لا يظهرونه إلّا عندما تحلّ بهم النوازل، فالمعرضون هم الذين حلّت بهم الخصومات.

وقد شملت الآية نفرا من المنافقين حلت بهم خصومات فأبوا حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم، قبل أن يحكم عليهم أو بعدما حكم عليهم، فلم يُرضهم حكمه.

روى المفسّرون أنّ (بِشْرًا) - أحد الأوس أو الخزرج - تخاصم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مع يهودي فلمّا حكم النبيّ لليهوديّ لم يرض (بِشْر) بحكمه ودعاه إلى الحكم عند كعب بن الأشرف اليهوديّ، فأبى اليهوديّ.

وقيل إنّ أحد المنافقين اسمه (المغيرة بن وائل) من الأوس من بني أميّة بن زيد الأوسي تخاصم مع عليّ بن أبي طالب في أرض اقتسماها ثم كره أمية القِسْم الذي أخذه فرام نقض القسمة وأبى عليٌّ نقضها ودعاه إلى الحكومة لدى النبيّ صلى الله عليه وسلم. فقال المغيرة: أمّا محمد فلست آتيه لأنّه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليَّ، فنزلت هذه الآية.

{ **إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ** } وإنّما جُعل الدعاء إلى الله ورسوله كليهما، مع أنّهم دُعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّ حُكم الرسول حُكم الله، لأنّه لا يحكم إلّا عن وحي. ولهذا الاعتبار أفرد ضمير { لِيَحْكُمَ }.

{ **إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ** } ووقع حرف (إذا) المفاجأة في جواب (إذا) الشرطية لإفادة مبادرتهم بالإعراض دون تريّث، لأنّهم قد أيقنوا من قبل بعدالة الرسول وأيقنوا بأن الباطل في جانبهم.

{ **وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** } أي: إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنّه يكون في ظنّ صاحب الحقّ ويقينه أنّه على الحق. ومفهومه أنّ من لم يكن له الحقّ منهم، وهو العالم بأنّه مبطل، لا يأتي إذا دعي إلى الرسول عليه الصلاة، فعُلم منه أن الفريق المعرضين هم المبطلون. فسبب إعراض المعرضين علمهم بأن في جانبهم الباطل وهم قد تحقّقوا أنّ الرسول لا يحكم إلّا بالحقّ.

الإذعان: الانقياد والطاعة.

{ **أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ** } لمّا كان هذا شأنا عجيبا استؤنف عقبه بالجملة ذات الاستفهامات المستعملة في التنبيه على أخلاقهم ولفت الأذهان إلى ما انطووا عليه، والداعي إلى ذلك أنّها أحوال خفيّة، لأنّهم كانوا يظهرون خلافها.

وأتبع بعض الاستفهامات بعضا بحرف { **أَمْ** } المنقطعة التي هي هنا للإضراب الانتقالي. والانتقال هنا تدرّج في عدّ أخلاقهم. فكان الاستفهام، المكرّر ثلاث مرات، مستعملا في التنبيه مجازا مرسلا، كقوله { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } [الأعراف:195].

القلوب: العقول. **والمرض**: مستعار للفساد أو للكفر أو للنفاق، قال تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً } [البقرة:10]. وأتي في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات المرض وتأصله فيها.

الارتياب: الشك. والمراد: ارتابوا في حقّيّة الإسلام، أي: حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيمانا غير راسخ. وأتي في جانبه بالجملة الفعلية المفيدة للحدوث والتجدّد.

وهذا يشير إلى أنّهم فريقان: فريق لم يؤمنوا ولكنّهم أظهروا الإيمان وكتموا كفرهم، وفريق آمنوا إيمانا ضعيفا ثم ظهر كفرهم بالإعراض.

{ **أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ** } وجيء في جانبه بالفعلين المضارعين للإشارة إلى أنّه خوف في الحال من الحيف في المستقبل. فهم خافوا من وقوع الحيف بعد نشر الخصومة، فمن ثمّة أعرضوا عن التحاكم.

الحيف: الظلم والجور في الحكومة.

{ **أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ** } أسند الحيف إلى الله ورسوله بمعنى أن يكون ما شرعه الإسلام حيفا لا يُظهر الحقوق. فالكلام كناية عن إنكارهم أن تكون الشريعة إلهية وأن يكون الآتي بها صادقا فيما أتى به.

واعلم أن المنافقين اتصفوا بهذه الأمور الثلاثة وكلّها ناشئة عن عدم تصديقهم الرسول سواء في ذلك من حلّت به قضية ومن لم تحلّ.

{ **بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } و(بل) للإضراب الانتقالي من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر. وليست بل هنا

للإبطال، لأنّه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدّمة. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ السامع بعد تلك الاستفهامات الثلاثة يترقّب ماذا سيُرسي عليه تحقيق حالهم.
والمعنى: أنّهم يخافون أن يحيف الرسول عليهم ويظلمهم. وليس الرسول بالذي يظلم بل هم الظالمون.
وفي الجملة أربعة مؤكِّدات: اثنان من صيغة الحصر إذ ليس الحصر والتخصيص إلّا تأكيدا على تأكيد، والثالث ضمير الفصل، والرابع اسم الإشارة.
{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة، الموضوع للتمييز، استعمل هنا مجازا لتحقيق اتصافهم بالظلم، فهم يقيسون الناس على حسب ما يقيسون أنفسهم، فلمّا كانوا أهل ظلم ظنّوا بمن هو أهل الإنصاف أنّه ظالم.

{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [51]

استئناف بياني، يضع الفاصل الذي يميّز بين المؤمن الحقّ وبين الذي يُرائي بإيمانه. فقد كان المنافقون يموّهون بأنّ إعراض من أعرض منهم عن التحاكم عند رسول الله ليس لتزلزل في إيمانه بصدق الرسول ولكنّه إعراض لمراعاة أعراض من العلائق الدنيوية كقول بشْر: إنّ الرسول يبغضني. فبين الله بطلان ذلك بأنّ المؤمن لا يرتاب في عدل الرسول وعدم مصانعته.
وقد أفاد هذا الاستئناف أيضا الثناء على المؤمنين الأحقّاء بضدّ ما كان ذمّا للمنافقين. على عادة القرآن في إرداف التوبيخ بالترغيب والوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة والذمّ بالثناء.
{ **إِنَّمَا** } جيء بهذه الصيغة للحصر لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان، وإن قال بلسانه إنه مؤمن، فهذا القصر إضافي، أي: هذا قول المؤمنين الصادقين في إيمانهم لا كقول الذي أعرضوا عن حكم الرسول. وليس قصرا حقيقيا لأنّ أقوال المؤمنين حين يُدعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم غير منحصرة في قول { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ولا في مرادفه، فلعلّ منهم من يزيد على ذلك. وإنّما خُصّ هذان اللفظان بالذكر هنا من أجل أنهما كلمة مشهورة، وهي ممّا جرى مجرى المثل، كما يقال أيضا (سمعٌ وطاعةٌ) و(سمعًا وطاعةً). وتقدم عند قوله { وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [النساء:46]. وفي حديث أبي هريرة قال النبي للأنصار: " تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة ". فقال الأنصار: سمعنا وأطعنا.
والمقصود من القصر الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكروه. وفيه تعريض بالمنافقين إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بضدّها من كلمات الإعراض والارتياب. ونظير هذه الآية في طريق قصر بـ (إلّا) قوله { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } [آل عمران:147].

{ **قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ** } خبر { كَانَ } و { أَنْ يَقُولُوا } هو اسم (كان) وقُدّم الخبر متابعة للاستعمال العربي لأنّهم إذا جاءوا بعد (كان) بـ (أن) والفعل لم يجيئوا بالخبر إلّا مقدّما على الاسم، كراهية توالي أداتين وهما: (كان) و(أن). ونظائر هذا الاستعمال كثيرة في القرآن. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } [آل عمران:147].

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } جيء بمثل التركيب الذي وُصف به المنافقون بالظلم بصيغة القصر المؤكَّد ليكون الثناء على المؤمنين ضدا لمذمّة المنافقين تاما.

{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [52]

إطناب ليحصل تعميم الحكم والمحكوم عليه. وموقع هذه الجملة موقع تذييل لأنّها تعمّ ما ذُكر قبلها من قول المؤمنين { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } وتشمل غيره من الطاعات بالقول أو بالفعل. وصيغة الحصر للتعريض بالذين أعرضوا إذا دعوا إلى الله ورسوله وهي على وزان صيغة القصر التي تقدمتها.

وجمعت الآية أسباب الفوز في الدنيا والآخرة.

{ **وَمَنْ** } شرطية عامة، وجملة { **فَأُولَئِكَ** } جواب الشرط.

الطاعة: امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

الخشية: الخوف. وهي تتعلق بالخصوص بما عسى أن يكون قد فرّط فيه من التكاليف، وتعمّ التقصير كلّه.

التقوى: الحذر من مخالفة التكاليف في المستقبل.

الفوز: الظفر بالمطلوب الصالح.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [53]

عطف على جملة { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ } [47]. أُتبعت حكاية قولهم ذلك بحكاية قسم أقسموه بالله ليتنصّلوا من وصمة الإعراض عن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاؤوه فأقسموا إنّهم لا يضمرون عصيانه فيما يقضي به، فإنّه لو أمرهم الرسول بأشقّ شيء، وهو الخروج للقتال، لأطاعوه.

قال القرطبي: لما بيَّن كراهتهم لحكم النبيّ أتوه فقالوا: والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا. فنزلت هذه الآية.

الإقسام: النطق بالقسم، أي اليمين. وضمير { وَأَقْسَمُوا } عائد إلى ما عاد إليه ضمير { وَيَقُولُونَ }.

الجَهْد: (بفتح الجيم وسكون الهاء) منتهى الطاقة. ولذلك يطلق على المشقّة، كما في حديث بدء الوحي : " **فغطّني حتّى بلغ مني الجَهْد** ". لأنّ الأمر الشاق لا يُعمل إلّا بمنتهى الطاقة.

يجوز أن يكون نصب { جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } على الحال من ضمير { أَقْسَمُوا }، أي: جاهدين. والتقدير: جاهدين أنفسهم. ومعنى ذلك: أنّهم كرّروا الأيمان وعدّدوا عباراتها حتّى أتعبوا أنفسهم ليوهموا أنّهم صادقون في أيمانهم. وإضافة { جَهْدَ } إلى { أَيْمَانِهِمْ } إضافة على معنى (مِن)، أي: جهدا ناشئا مِن أيمانهم.

ويجوز أن يكون {جَهْدَ} منصوبا على المفعول المطلق الواقع بدلا من فعله. والتقدير: جهدوا أيمانهم جهدا. والتقدير: أقسموا يجهدون أيمانهم جهدا. وإضافة { جَهْدَ } إلى { أَيْمَانِهِمْ } على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله، جُعلت الأيمان كالشخص الذي له جَهد، ففيه استعارة مكنية.

وتقدّم الكلام على شيء من هذا عند قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } المائدة:53]، وقوله { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ } [الأنعام:109].

{ **لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ** } بيان لـ { أَقْسَمُوا }. وحذف المفعول لدلالة السياق. والتقدير: لئن أمرتهم بالخروج.

{ **قُلْ لا تُقْسِمُوا** } أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذه الكلمات ذات المعاني الكثيرة.

فيحتمل أن يكون نهيا عن إعادته، لأنّهم كانوا بصدد إعادته، بمعنى: لا حاجة بكم إلى تأكيد القسم.

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في معنى عدم المطالبة بالقسم، أي: ما كان لكم أن تقسموا إذ لا حاجة إلى القسم لعدم الشك في أمركم.

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في التسوية مثل { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ } [الطور:16].

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في حقيقته والمقسم عليه محذوف، أي لا تقسموا على الخروج من دياركم وأموالكم فإنّ الله لا يكلفكم بذلك.

ومقام مواجهة نفاقهم أن تكون هذه الاحتمالات مقصودة.

{ **طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ** } كلام أرسل مثلا وتحته معانٍ جمّة تختلف باختلاف الاحتمالات المتقدّمة.

فعلى احتمال أن يكون النهي عن القسم مستعملا في النهي عن تكريره يكون المعنى من قبيل التهكّم، أي: لا حرمة للقسم فلا تعيدوه، فطاعتكم معروفة، أي: معروف وَهَنُهَا وانتفاؤها.

وعلى احتمال استعمال النهي في عدم المطالبة باليمين يكون المعنى: لماذا تقسمون فلست أشك في حالكم، فإن طاعتكم معروفة عندي، أي: أعرف عدم وقوعها، والكلام تهكّم أيضا.

وعلى احتمال استعمال النهي في التسوية، فالمعنى: قسمكم ونفيه سواء لأنّ أيمانكم فاجرة وطاعتكم معروفة.

وعلى احتمال استعمال النهي في حقيقته، فالمعنى: لا تقسموا هذا القسم، أي: على الخروج من دياركم وأموالكم، لأنّ الله لا يكلّفكم الطاعة إلّا في معروف.

{ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } صالحة لتذييل الاحتمالات المتقدّمة، وهي تعليل لما قبلها.

{ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } [54].

تلقين آخر للرسول عليه الصلاة والسلام بما يردُّ بهتانهم بقلّة الاكتراث بمواعيدهم الكاذبة وأن يقتصروا من الطاعة على طاعة الله ورسوله فيما كلّفهم دون ما ادعوا كذبا.

{ **قُلْ** } أعيد الأمر للاهتمام بهذا القول، فيقع كلاما مستقلًّا غير معطوف.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** } يجوز أن يكون تفريعا على فعل { أَطِيعُوا } فيكون فعل { تَوَلَّوْا } من جملة ما أُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويكون فعلا مضارعا بتاء الخطاب. وأصله: تتولوا بتاءين حذفت منهما تاء الخطاب للتخفيف، وهو حذف كثير في الاستعمال. والكلام تبليغ عن الله تعالى إليهم، فيكون ضميرا { عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ } عائدين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون تفريعا على فعل (قل)، أي: فإذا قلتَ ذلك فتولوا ولم يطيعوا ...، فيكون فعل { تَوَلَّوْا } ماضيا بتاء واحدة مواجَهًا به النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: فإن تولوا ولم يطيعوا فإنّما عليك ما حمِّلت من التبليغ وعليهم ما حمِّلوا من تبعة التكليف. كمعنى قوله { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [النحل:82].

فيكون في ضمائر { فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } التفات. وأصل الكلام: فإنما عليك ما حمِّلت وعليهم ما حمِّلوا. والالتفات محسّن لا يحتاج إلى نكتة.

وبهذين الوجهين تكون الآية مفيدة معنيين: معنًى من تعلّق خطاب الله تعالى بهم، وهو تعريض بتهديد ووعيد، ومعنًى من موعظة النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم وموادعة بهم. وهذا كلّه تبكيت لهم ليعلموا أنّهم لا يضرّون بتوليهم إلّا أنفسهم.

البلاغ: اسم مصدر بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية. ومعنى كونه مبيَّنا أنّه فصيح واضح.

{ **وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** } إرداف الترهيب الذي تضمّنه قوله { وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } بالترغيب في الطاعة، استقصاء في الدعوة إلى الرشد.

{ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } بيان لإبهام قوله { مَا حُمِّلَ }.

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [55]

الأشبه أنّ هذا الكلام استئناف ابتدائي انتقل إليه بمناسبة التعرّض إلى أحوال المنافقين الذين أبقاهم على النفاق تردّدهم في عاقبة أمر المسلمين، وخشيتهم ألّا يستقرّ بالمسلمين المقام بالمدينة حتّى يغزوهم المشركون، أو يُخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك، كما حكى الله تعالى من قول ابن سلول { لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ } [المنافقون:8]، فكانوا يُظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام ويبطنون الكفر ممالأة لأهل الشرك.

وللكلام المناسبة مع قوله { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا }. فيكون المعنى: وإن تطيعوه تهتدوا وتُنصروا وتأمنوا.

قال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين، بعد ما أوحي إليه، خائفا هو وأصحابه ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين، يصبحون ويمسون في السلاح، فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: **" لا تُغبَّرون** (أي: لا تمكثون) **إلّا قليلا حتّى يجلس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة "**. ونزلت هذه الآية.

{ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ } وقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكنّ الله قدّم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم، تنبيها لهم بأنّ سنة الله أنّه لا تأمن أمّة بأس غيرها حتّى تكون قويّة مكينة مهيمنة على أصقاعها.

ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا إيماء إلى التهيّؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأنّ ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

{ مِنْكُمْ } الخطاب لأمّة الدعوة، بمشركيها ومنافقيها، بأنّ الفريق الذي يتحقّق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود بهذا الوعد.

{ الصَّالِحَاتِ } التعريف للاستغراق، أي: عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنّها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنّها فساد، لأنّ إبطال الفساد صلاح.

الصالحات: جمع صالحة، وهي الخصلة والفعلة ذات الصلاح.

وقد بيّن الله تعالى أصول انتظام أمور الأمّة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مثل قوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } [النحل:90].

وبيّن الرسول عليه الصلاة والسلام تصرّفات ولّاة الأمور في شؤون الرعيّة، ومع أهل الذمة، ومع الأعداء

في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبين أصول المعاملات بين النّاس.
فمتى اهتمّ ولّاة الأمور وعموم الأمّة باتباع ما وضّح لهم الشرع تحقّق وعد الله إيّاهم بهذا الوعد الجليل.
فلو أن قومًا غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيّتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين لتحقّق لهم الكثير من آثار النجاح. ألا ترى أنّ القادة الأوربيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية، ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه والسيرة النبوية قد نظّموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان فعظمت دولهم واستقامة أمورهم.
ولا عجب في ذلك فقد سلّط الله الآشوريين، وهم مشركون، على بني إسرائيل لفسادهم فقال { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً } [الإسراء:5/4].
الاستخلاف: جعلهم خلفاء، أي: عن الله في تدبير شؤون عباده، كما في قوله { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]. والسين والتاء للتأكيد. وأصله: ليخلفنّهم في الأرض.
{ **كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } المراد: صلحاء الملوك مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأنو شروان، وأصحمة النجاشي، وحمورابي الذي كان في زمن إبراهيم، وذي القرنين...
{ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** } انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متّبعيه. استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار، لأنّه إذا انتشر لم يُخش عليه الانعدام، فكان كالشيء المثبَّت المرسَّخ، وإذا كان متَّبعوه في قلّة كان كالشيء المضطرب المتزلزل.
وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها حديث الحديبية إذ جاء فيه قوله: **" وإن هم أبوا** (أي: إلّا القتال) **فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي،** (أي: ينفصل مقدم العنق عن الجسد) **ولينفذن الله أمره ".**
{ **لَهُمْ** } مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله { دِينَهُمْ } لأنّ المجرور بالحرف أضعف تعلّقا من مفعول الفعل، فقُدِّم عليه للإيماء إلى العناية بهم، أيّ بكون التمكين لأجلهم، كقوله { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ } [الشرح:2/1].
{ **دِينَهُمُ** } إضافة الدين إلى ضميرهم لتشريفهم به، لأنّه دين الله.
{ **الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** } الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنّه اختارهم أيضا ليكونوا أتباع هذا الدين.
وفيه إشارة إلى أنّ الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم.
{ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً** } ولم يقل: وليؤمِّننَّهم، كما قال في سابقيه، لأنّهم ما كانوا يطمحون يومئذ

إلى الأمن، كما ورد في حديث أبي العالية المتقدّم آنفا، فكانوا في حالة هي ضدّ الأمن، ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منّة واحدة.

{ **أَمْناً** } التنكير للتعظيم بقرينة كونه مبدَّلا من بعد خوفهم المعروف بالشدّة. والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين. وفيه بشارة بأنّ الله مزيل الشرك والنفاق من الأمّة.

وليس هذا الوعد بمقتضٍ ألّا تحدث حوادث خوف في الأمّة.

{ **يَعْبُدُونَنِي** } حال من ضمائر الغيبة المتقدّمة، أي: هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إيّاي. وفي هذه الحال إيذان بأنّ ذلك الوعد جزاء لهم.

وعبّر بالمضارع لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضا بالمنافقين، إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون.

{ **لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** } حال من ضمير الرفع في { يَعْبُدُونَنِي } تقييدا للعبادة بهذه الحالة، لأنّ المشركين قد يعبدون الله ولكنّهم يشركون معه غيره.

{ **وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس، دفعا للاتكال.

{ **بَعْدَ ذَلِكَ** } الإشارة إلى الإيمان المعبّر عنه هنا بـ { يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً } والمعبّر عنه في أوّل الآيات بقوله { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } أي: ومن كفر بعد الإيمان وما حصل له من البشارة عليه فهم الفاسقون.

وصيغة الحصر المأخوذة من تعريف المسند بلام الجنس مستعملة للمبالغة، للدلالة على أنّه الفسق الكامل.

ووصف الفاسقين له رشيق الموقع، لأنّ مادة الفسق تدل على الخروج من المكان من منفذ ضيق.

{ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [56]

عطف على جملة { يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً } لما فيها من معنى الأمر بترك الشرك، فكأنّه قيل: اعبدوني ولا تشركوا وأقيموا الصلاة، لأنّ الخبر إذا كان يتضمّن معنى الأمر كان في قوّة فعل الأمر.

والخطاب موجّه للذين آمنوا خاصة بعد أن كان موجّها لأمّة الدعوة. فالطاعة المأمور بها هنا غير الطاعة التي في قوله { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا }، لأنّ تلك دعوة للمعرضين وهذه ازدياد للمؤمنين.

{ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** }، أي: في كل ما يأمركم وينهاكم.

{ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } أي: في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن، وفي الآخرة بالدرجات العلى. والكلام على لعلّ تقدم في غير موضع في سورة البقرة.

{ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [57]

استئناف ابتدائي لتحقيق ما اقتضاه قوله { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } ، فقد كان المشركون يومئذ لم يزالوا في قوّة وكثرة، وكان المسلمون لم يزالوا يخافون بأسهم فربّما كان الوعد بالأمن من بأسهم متلقّى بالتعجّب والاستبطاء الشبيه بالتردّد فجاء القول تطمينا وتسلية.

والخطاب لمن قد يخامره التعجّب والاستبطاء دون تعيين.

والمقصود من النهي عن هذا الحسبان التنبيه على تحقيق الخبر.

المُعْجِز: الذي يعجز غيره، أي: يجعله عاجزا عن غلبه. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134]. وكذلك **المُعاجز** بمعنى المحاول عجز غيره، تقدّم في قوله تعالى { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ } [الحج:51].

الأرض: هي أرض الدنيا، أي: هم غير غالبين في الدنيا.

{ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ } أي: هم في الآخرة معلوم أنّ مأواهم النار.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [58] وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [59] }.

استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة. وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقُطع عند قوله { وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ }.

وقد ذُكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط، إذا أراد دخول بيت، فهو من متمّمات ما ذكر في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا } [27].

وهو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص العموم. ويقتضي عدم استئذانهم في غير تلك الأوقات الثلاثة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ } وُجّه الخطاب إلى المؤمنين وجُعلت صيغة الأمر موجَّهة إلى المماليك والصبيان على معنى: لتأمروا الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوا عليكم، لأنّ على أرباب البيوت تأديب أتباعهم، فلا يشكل توجيه الأمر إلى الذين لم يبلغوا الحلم. والأمر للوجوب عند الجمهور. وقال أبو قلابة: هو ندب.

{ **الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ** } فأمّا المماليك فلأنّ في عرف الناس أن لا يتحرّجوا من اطلاع المماليك عليهم إذ هم خول وتبع. ويشمل الذكور والإناث لمالكيهم الذكور والإناث.

وأمّا الأطفال فلأنّهم لا عناية لهم بتطلع أحوال الناس.

وأمّا مسألة النظر وتفصيلها في الكبير والصغير والذكر والأنثى فهي من علائق ستر العورة المفصّلة في كتب الفقه. وقد تقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا - إلى قوله - عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } [31]، فلا ينبغي التصدي بإيراد صورها في هذه الآية.

{ **ثَلاثَ مَرَّاتٍ** } كانت هذه الأوقات أوقاتا يتجرّد فيها أهل البيت من ثيابهم كما آذن به قوله تعالى { وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ }، فكان من القبيح أن يرى مماليكهم وأطفالهم عوراتهم، لأنّ ذلك منظر يخجل منه المملوك وينطبع في نفس الطفل، ولأنّه يجب أن ينشأ الأطفال على ستر العورة حتّى يكون ذلك كالسجيّة فيهم إذا كبروا. ولأنّها أوقات خلوة الرجال والنساء، وهي أوقات نوم، وقد سمّاها الله تعالى { عَورَاتِ }.

وانتصب { ثَلاثَ مَرَّاتٍ } على أنّه مفعول مطلق { لِيَسْتَأْذِنْكُمُ }، لأنّ مرات في قوّة استئذانات.

الظهيرة: وقت الظهر وهو انتصاف النهار.

وما بعد صلاة العشاء: هو الليل كلّه إلى حين الهبوب من النوم قبل الفجر.

{ **ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ** } نصّ على علّة إيجاب الاستئذان فيها.

العورة: في الأصل الخلل والنقص. وفيه قيل لمن فقدت عينه: أعْوَر وعُوِرت عينه، ومنه عورة الحيّ: وهي الجهة غير الحصينة منه بحيث يمكن الدخول منها كالثغر. كقوله { يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [الأحزاب:13]. ثم أطلقت على ما يَكره انكشافه كما هنا. وكما سُمِّي ما لا يحب الإنسان كشفه من جسده عورة.

{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ** } أي: بعد تلك الأوقات المحدّدة. فصلاة الفجر حدّ معلوم، وحالة وضع الثياب من الظهيرة تحديد بالعرف، وما بعد صلاة العشاء من الحصة التي تسع في العرف تصرف الناس في التهيؤ إلى النوم.

ولك أن تجعل { **بَعْدَهُنَّ** } بمعنى دون، أي: في غير تلك الأوقات، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23].

{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ** } إيماء إلى لحن خطاب حاصل من قوله { لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ } فإنّ الأمر باستئذان هؤلاء عليهم يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان على الذين ملكت أيمانهم إذا دعاهم داع إلى الدخول عليهم في تلك الأوقات. وإنّما لم يصرّح بأمر المخاطبين بأن يستأذنوا على الذين ملكت أيمانهم لندور دخول السادة على عبيدهم أو على غلمانهم، إذ الشأن أنّهم إذا دعتهم حاجة إليهم أن ينادوهم.

{ **طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ** } الكلام استئناف بياني، أي: إنّما رفع الجناح عليهم وعليكم في الدخول بدون استئذان بعد تلك الأوقات الثلاثة لأنّهم طوّافون عليكم، فلو وجب أن يستأذنوا لكان فيه حرج على الكلّ.

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ** } أي: مثل ذلك البيان، الذي طرق أسماعكم، يبيّن الله لكم الآيات، فبيانه بالغ الغاية في الكمال. والتعريف في { الْآيَاتِ } تعريف الجنس. والمراد بالآيات: القرآن، فإنّ ما يقع فيه إجمال منها يُبيَّن بآيات أخرى.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } معترضة. والمعنى: يبيّن الله لكم الآيات بيانا كاملا وهو عليم حكيم، فبيانه بالغ غاية الكمال لا محالة.

{ **وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ** } في موقع التصريح بمفهوم الصفة في قوله { وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ } ليُعلم أنّ الأطفال إذ بلغوا الحلم تغيّر حكمهم في الاستئذان إلى حكم استئذان الرجال الذي في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ } [27].

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } القول فيه كالقول في نظيره المتقدّم آنفا، وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام والامتنان. وإنّما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة { آيَاتِهِ } تفنّنا ولتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله { كَذَلِكَ }. وتأكيد معنى الوصفين العليم الحكيم.

{ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [60].

هذه الآية مخصِّصة لقوله { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا - إلى قوله - عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } [31].

ومناسبة هذا التخصيص هنا أنّه وقع بعد فرض الاستئذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها، وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهنّ عنهنّ، فاستُثني من عموم النساء النساءُ المتقدّمات في السن، بحيث بلغن إبّان الإياس من المحيض.

القواعد: جمع قاعد بدون هاء تأنيث مثل: حامل وحائض، لأنّه وصف نُقل لمعنى خاص بالنساء، وهو القعود عن الولادة وعن المحيض. استعير القعود لعدم القدرة، لأنّ القعود يمنع الوصول إلى المرغوب، وإنّما رغبة المرأة في الولد، والحيض من سبب الولادة.

{ **اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً** } وصف كاشف للقواعد وليس قيدا. وذلك من الكبر.

{ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ** } رخصّ لهنّ ألّا يضربن بخمرهن على جيوبهن، وألّا يدنين عليهن من جلابيبهن. عن ابن مسعود وابن عباس: الثياب الجلباب، أي: الرداء والمقنعة التي فوق الخمار. وقال

السدي: يجوز لهن وضع الخمار أيضا.
الوضع: إناطة شيء على شيء، وأصله أن يُعدَّى بحرف (على)، وقد يعدّى بحرف (عن) إذا أريد أنّه أزيل عن مكان ووضع على غيره، وهو المراد هنا. أي: أن يُزلن عنهنّ ثيابهنّ.
لمّا كان في الأمر بضرب الخُمُر على الجيوب أو إدناء الجلابيب كلفة على النساء المؤمورات، اقتضاها سدّ الذريعة، فلمّا انتفت الذريعة رُفع ذلك الحكم رحمة من الله، فإنّ الشريعة ما جَعلت في حكمٍ مشقّة لضرورة إلّا رُفعت تلك المشقّة بزوال الضرورة، وهذا معنى الرخصة.
{ **وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ** } تعقيب على الرخصة.
الاستعفاف: التعفّف، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب، أي: تعفّفهنّ عن وضع الثياب أفضل لهنّ.
{ **غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** } قيد، أي: وضعا لا يقارنه تبرّج بزينة. لأنّها وإن كانت من القواعد فإنّ تعريضها بذلك يخالف الآداب ويزيل وقار سنّها، وقد يرغب فيها بعض أهل الشهوات.
التبرج: التكشّف.
وفي الموطأ: دخلت حفصة بنت عبد الرحمان بن أبي بكر على عائشة أم المؤمنين وعلى حفصه خمار رقيق فشقّته عائشة وكستها خمارا كثيفا. أي: شقّته لئلّا تختمر به فيما بعد.
{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسّع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعا، فوصف **السميع** تذكير بأنّه يسمع ما تحدّثن به أنفسهنّ من المقاصد، ووصف **العليم** تذكير بأنّه يعلم أحوال وضعهنّ الثياب وتبرجهنّ ونحوها.

{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [61]
{ **لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** }.
اختُلف في أنّ قوله تعالى { لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ } منفصل عن قوله { وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ }، وأنّه في غرض غير غرض الأكل في البيوت، أي: فيكون من تمام آية الاستئذان، أو متّصل بما بعده في غرض واحد.
قال بالأوّل (منفصل): الحسن وجابر بن زيد، وهو مختار الجبّائي وابن العربي وأبي حيّان. قال ابن عطية :

" إنّه ظاهر الآية ". **وهو الذي نختاره** تفاديا من التكلّف الذي ذكره مخالفوهم لبيان اتصاله بما بعده في بيان وجه الرخصة لهؤلاء الثلاثة الأصناف في الطعام في البيوت المذكورة، ولأنّ في قوله تعالى { أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ } إلى آخر المعدودات، لا يظهر اتصاله بالأعمى والأعرج والمريض، فتكون هذه الآية نفيا للحرج عن هؤلاء الثلاثة فيما تجرّه ضرارتهم إليهم من الحرج من الأعمال.

فالحرج منفي عن الأعمى في التكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط فيه المشي والركوب، وعن المريض في التكليف الذي يؤثّر المرض في إسقاطه، كالصوم وشروط الصلاة والغزو.

ولكن المناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان أنّ المقصد الترخيص للأعمى أنّه لا يتعيّن عليه استئذان لانتفاء السبب الموجبة. ثم ذكر الأعرج والمريض إدماجا وإتماما لحكم الرخصة لهما للمناسبة مع الأعمى.

قال بالثاني (المتصل): جمهور المفسّرين وقد تكلّفوا لوجه عدّ هذه الأصناف الثلاثة في عداد الآكلين من الطعام الذي في بيوت من ذكروا في الآية الموالية.

والجملة على كلا الوجهين مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً }

مناسبة عطف هذه الرخص على رخصة الأعمى، على تقدير أنّه منفصل عنه كما تقدّم، وهو المختار عند المحققين، هو تعلّق كليهما بالاستئذان والدخول للبيوت سواء كان لغرض الطعام فيها أو كان للزيارة ونحوها، لاشتراك الكلّ في رفع الحرج، وعلى تقدير أنّه متصل به، على قول الجمهور، فاقتران الجميع في الحكم هو الرخصة للجميع في الأكل، فأذن الله للأعمى والأعرج والمريض أن يدخلوا للأكل لأنّهم محاويج لا يستطيعون التكسّب، فرُخّص لهؤلاء أن يدخلوا بيوت المسلمين لشبع بطونهم.

{ **وَلا** } أعيد حرف (لا) مع المعطوف على المنفي قبله تأكيدا لمعنى النفي، وهو استعمال كثير.

{ **عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } ذوات المخاطبين بعلامات الخطاب، فكأنه قيل: ولا عليكم جناح أن تأكلوا، إلى آخره.

{ **أَنْ تَأْكُلُوا** } المقصود هنا الأكل بدون دعوة، وذلك إذا كان الطعام محضرًا دون المختزن.

{ **مِنْ بُيُوتِكُمْ** } المراد بأكل الإنسان من بيته الأكل غير المعتاد، أي: أن يأكل أكلا لا يشاركه فيه بقيّة أهله، كأن يأكل الرجل وزوجته غائبة، أو أن تأكل هي وزوجها غائب، فهذه أثرة مرخّص فيها.

{ **أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ** } وعطف على بيوت أنفسهم بيوت آبائهم وأمّهاتهم، ولم يذكر بيوت أولادهم مع أنّهم أقرب إلى الآكلين من الآباء، فهم أحق بأن يأكلوا من بيوتهم، لأنّ بيوت الأبناء معلوم حكمها بالأولى من البقية، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنت ومالك لأبيك "**.

{ **أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ... أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ** } وهؤلاء المعدودون في الآية بينهم من القربة أو الولاية أو الصداقة ما يعتاد بسببه التسامح بينهم في الحضور للأكل بدون دعوة، لا يتحرّج أحد منهم من ذلك غالبا.

{ **أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ** } أريد به حفظها، بقرينة إضافته إلى المفاتيح دون الدور أو الحوائط.

وهذه رخصة للوكيل والمختزن للطعام وناطور الحائط ذي الثمر أن يأكل كلّ منهم ما تحت يده بدون إذن، ولا يتجاوز شبع بطنه. وذلك للعرف بأنّ ذلك كالإجارة، فلذلك قال الفقهاء: إذا كان لواحد من هؤلاء أجرة على عمله لم يجز له الأكل ممّا تحت يده.

{ **أَوْ صَدِيقِكُمْ** } و**الصديق**: فعيل بمعنى فاعل وهو الصادق في المودّة. وقد جُعل في مرتبة القرابة، ممّا هو موقور في النفوس من محبّة الصلة مع الأصدقاء.

{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً** } أعيدت تأكيدا للأولى، إذ الجناح والحرج كالمترادفين.

الجميع: المجتمعون على أمر.

الأشتات: الموزّعون فيما الشأن اجتماعهم فيه، قال تعالى { تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى } [الحشر:14].

والأشتات: جمع شَت، وهو مصدر شَتَّ إذا تفرّق. وأمّا شتَّى فجمع شتيت.

والمعنى: لا جناح عليكم أن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاؤوا للأكل مثله، أو أن يأكل وحده.

{ **فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } تفريع على الإذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأن ذكّرهم بأدب الدخول المتقدّم في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا } [27]، لئلّا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب، فإنّ واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد.

{ **فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } فليسلّم بعضكم على بعض. ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ وأهملوا دقيقته، فظنّوا أنّ الداخل يسلِّم على نفسه إذا لم يجد أحدا، وهذا بعيد من أغراض التكليف والآداب.

وأماّ ما ورد في التشهّد من قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فذلك سلام بمعنى الدعاء بالسلامة، جعله النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم عوضا عمّا كانوا يقولون: السلام على الله، السلام على النبيّ، السلام على جبريل وميكائيل، السلام على فلان وفلان. فقال لهم رسول الله: " **إنّ الله هو السلام** " ، إبطالا لقولهم: السلام على الله. ثم قال لهم: " **قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنّكم إذا قلتموها أصابت كل عبد الله صالح في السماء وفي الأرض** ".

وأمّا السلام في هذه الآية فهو التحيّة كما فسره بقوله { تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } ولا يُؤمر أحد بأن يسلِّم على نفسه.

التحيّة: أصلها مصدر حيّاه تحية. وهي قول: حيّاك الله. وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا } [النساء:86].

وكانت تحية الملوك (عِم صباحًا) فجعل الإسلام التحية كلمة (**السلام عليكم**)، وهي من جوامع الكلم، لأنّ المقصود من التحيّة تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه، وباللطف له إن كان معروفا.

المباركة: المجعولة فيها البركة. و**البركة**: وفرة الخير. وإنّما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نيّة المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة.

الطيّبة: ذات الطِّيب، وهو طيب مجازي بمعنى النزاهة والقَبول في نفوس الناس. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } [آل عمران:38]، وفي قوله { وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } [يونس:22].

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } تكرير للجملتين الواقعتين قبلها في آية الاستئذان، لأنّ في كلّ ما وقع قبل هذه الجملة بيانا لآيات القرآن، اتضحت به الأحكام التي تضمّنتها، وهو بيان يُرجى معه أن يحصل لكم الفهم والعلم بما فيه كمال شأنكم.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [62]

لمّا جرى الكلام السابق في شأن الاستئذان للدخول عقَّب ذلك بحكم الاستئذان للخروج ومفارقة المجامع فاعتُني من ذلك بالواجب منه، وهو استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم في مفارقة مجلسه أو مفارقة جمعٍ جُمِعَ عن إذنه لأمرٍ مهمٍّ كالشورى والقتال والاجتماع للوعظ ونحو ذلك.

وكان من أعمال المنافقين أن يحضروا هذه المجامع ثم يتسلّلوا منها تفاديا من عمل يشقّ أو سآمة من سماع كلام لا يهتبلون به، فنعى الله عليهم فعلهم بأن أعرض عن وصف نفاق المنافقين واعتنى باتصاف المؤمنين الأحقاء بضدّ صفة المنافقين، قال تعالى { وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} [التوبة:127]، ولذلك جاء في أواخر هذه الآيات قوله { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً } [63].

{ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ** } قصر موصوف على صفة. والتعريف في { المؤمنون } تعريف الجنس أو العهد، أي: أنّ جنس المؤمنين، أو أنّ الذين عُرفوا بوصف الإيمان هم الذين آمنوا بالله ورسوله ولم ينصرفوا حتّى يستأذنوه. فالمقصود: إظهار علامة المؤمنين وتمييزهم عن علامة المنافقين.

فليس سياق الآية لبيان حقيقة الإيمان، لأنّ للإيمان حقيقة معلومة ليس استئذان النبيّ صلى الله عليه وسلم عند إرادة الذهاب من أركانها.

فعلمتَ أن ليس المقصود من هذا الحصر سلب الإيمان عن الذي ينصرف دون إذن، لو وقع منه ذلك عن غير قصد الخذل للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو أذاه، إذ لا يعدو ذلك، لو فعله أحد المؤمنين، عن أن يكون تقصيرا في الأدب يستحقّ التأديب والتنبيه.

وعلمتَ أيضا أن ليس المقصود من التعريف في { الْمُؤْمِنُونَ } معنى الكمال، لأنّه لو كان كذلك لم يحصل قصد التشهير بنفاق المنافقين.

الأمر: الشأن والحال المهمّ. وتقدّم في قوله { وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء:59].

الجامع: الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلّم. والمراد: ما يجتمع المسلمون لأجله حول الرسول عليه الصلاة والسلام في مجلسه أو في صلاة الجماعة.

عن مالك: أنّ هذه الآية نزلت في المنافقين يوم الخندق، وذلك سنة خمس، كان المنافقون يتسلّلون من جيش الخندق ويعتذرون بأعذار كاذبة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } تأكيد لجملة {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ }، لأنّ مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى الجملة الأولى. وقد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسندا إليه في الثانية، والمسند إليه الأولى مسندا في الثانية، ومآل الأسلوبين واحد، لأنّ المآل الإخبار بأنّ هذا هو ذاك، تنويها بشأن الاستئذان، وليبني عليها تفريع { فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ }، ليعلِّم المؤمنين الأعذار الموجبة للاستئذان، أي: ليس لهم أن يستأذنوا في الذهاب إلّا لشأن مهمّ من شؤونهم.

{ يَسْتَأْذِنُونَكَ } التفات من الغيبة إلى الخطاب، تشريفا للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب.

{ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ } خيَّر الله رسوله في الإذن لمن استأذنه من المؤمنين، لأنّه أعلم بالشأن الذي قضاؤه أرجح من حضور الأمر الجامع، لأنّ مشيئة النبيّ لا تكون عن هوى.

{ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } مؤذن بأنّ ذلك الانصراف خلاف ما ينبغي، لأنّه لترجيح حاجته على الإعانة على حاجة الأمّة.

وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمّة، لأنّ من السنّة أن يكون لكلّ اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع. وقد أشارت مشروعيّة الإمامة إلى ذلك النظام. ومن السنّة ألّا يجتمع جماعة إلّا أمّروا عليهم أميرا، فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين، فهو في مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلّا بعد أن يستأذنه، لأنّه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة

لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضا في التخلّف عن الاجتماع عند الدعوة إليه، أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه إلّا لعذر واستئذان.

{ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [63]

لمّا كان الاجتماع للرسول في الأمور يقع بعد دعوته الناس للاجتماع وقد أمرهم الله ألّا ينصرفوا عن مجامع الرسول صلى الله عليه وسلم إلّا لعذر بعد إذنه، أنبأهم بهذه الآية وجوب استجابة دعوة الرسول إذا دعاهم.

وقد تقدّم قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ } [الأنفال:24].

فيجوز أن يكون المعنى: لا تجعلوا دعوة الرسول إيّاكم للحضور لديه مخيَّرين في استجابتها كما تتخيّرون في استجابة دعوة بعضكم بعضا، فوجه الشبه المنفي بين الدعوتين هو الخيار في الإجابة. والغرض من هذه الجملة ألّا يتوهَّموا أنّ الواجب هو الثبات في مجامع الرسول إذا حضروها، وأنّهم في حضورها إذا دعوا إليها بالخيار. والدعاء: على هذا التأويل، مصدر دعاه إذا ناداه أو أرسل إليه ليحضر.

ويجوز أن تكون إضافة { دُعَاءَ } من إضافة المصدر إلى مفعوله الفاعل المقدّر ضمير المخاطبين. والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فالمعنى نهيهم.

ووقع الالتفات من الغيبة إلى خطاب المسلمين، حثًّا على تلقي الجملة بنشاط، فالخطاب للمؤمنين، نهوا عن أن يدعوا الرسول عند مناداته كما يدعو بعضهم بعضا في اللفظ أو في الهيئة:

فأمّا في اللفظ، فبأن لا يقولوا: يا محمد، أو يا ابن عبد الله، أو يا ابن عبد المطلب، ولكن **يا رسول الله**، أو **يا نبي الله**، أو بكنية **يا أبا القاسم**.

وأمّا في الهيئة، فبأن لا يدعوه من وراء الحجرات، وأن لا يلحّوا في دعائه إذا لم يخرج إليهم، كما جاء في [الحجرات:4]، لأنّ ذلك كلّه من الجلافة التي لا تليق بعظمة قدر الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهذا أدب للمسلمين وسد لأبواب الأذى عن المنافقين.

وإذ كانت الآية تحتمل ألفاظها هذا المعنى صحّ للمتدبّر أن ينتزعه منها.

وفي الكلام على الوجهين تعريض بالمنافقين الذين تمالؤوا بينهم على التخلّف عن رسول الله إذا دعاهم كلّما وجدوا لذلك سبيلا، كما أشار إليه قوله تعالى { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } [التوبة:120].

{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً } استئناف تهديد للذين كانوا سبب نزول الآية. أي: أولئك المؤمنون

وضدّهم المعرَّض بهم ليسوا بمؤمنين. وقد علمهم الله وأطّلع على تسلُّلِهم.

{ **قَدْ** } لتحقيق الخبر، لأنّهم يظنّون أنّهم إذا تسلُّلوا متسترين لم يطّلع عليهم النبيّ، فأعلمهم الله أنّه علمهم، أي: أنه أعلم رسوله بذلك.

{ **الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ** } هم المنافقون. والتسلُّل: الانسلال من صُبرة، أي: الخروج منه بخفية، خروجا كأنّه سَلٌّ شيء من شيء. يقال: تسلَّل، أيّ تكلّف الانسلال.

اللواذ: مصدر لاوَذَهُ، إذا لاذ به الآخر. شُبّه تستر بعضهم ببعض عن اتفاق وتآمر عند الانصراف خفية بلوذ بعضهم ببعض، لأنّ الذي ستر الخارج حتّى يخرج هو بمنزلة من لاذ به أيضا فجعل حصول فعله مع فعل اللائذ كأنّه مفاعلة من اللوذ.

{ **مِنْكُمْ** } خطاب للمؤمنين، أي: قد علم الله الذين يخرجون من جماعتكم متسلِّلين ملاوذين.

{ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } تحذير من مخالفة ما نهى الله عنه بقوله { لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ }، بعد التنبيه على أنّه تعالى مطّلع على تسلّلهم.

المخالفة: المغايرة في الطريق التي يمشي فيها، بأن يمشي الواحد في طريق غير الطريق الذي مشى فيه الآخر، ففعلها متعدّ. وتعدية فعل المخالف بحرف (عن) لأنّه ضُمِّن معنى الصدود، كما عُدِّي بـ (إلى) في قوله تعالى { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ } [هود:88] لمّا ضُمِّن معنى الذهاب. يقال: خالفه إلى الماء، إذا ذهب إليه دونه.

{ **عَنْ أَمْرِهِ** } الضمير عائد إلى الله تعالى. والأمر هو ما تضمَّنه قوله { لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً }، فإنّ النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضدِّه، فكأنّه قال: اجعلوا لدعاء الرسول الامتثال في العلانية والسرّ.

الحذر: تجنب الشيء المخيف.

الفتنة: اضطراب حال الناس، وتقدّمت عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

العذاب الأليم: هنا عذاب الدنيا، وهو عذاب القتل.

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [64]

تذييل لما تقدّم في هذه السورة كلّها.

{ **ألا** } الافتتاح بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام، وتنبيه للنّاس ليعوا ما يرد بعد حرف التنبيه، وهو أنّ الله مالك ما في السماوات والأرض، فهو يجازي عباده بما يستحقّون، وهو عالم بما يفعلون.

{ **مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ** } أحوالكم، من خير وشر، فحرف الاستعلاء مستعار للتمكّن.

{ **وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ** } ذكّرهم بالمعاد، إذ كان المشركون والمنافقون منكريه.

{ **فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا** } كناية عن الجزاء، لأنّ إعلامهم بأعمالهم لو لم يكن كناية عن ذلك لما كانت له جدوى.

{ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل لجملة { قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } لأنّه أعم منه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

سُمِّيت هذه السورة سورة الفرقان في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، وبمَسمع منه.

ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنّه قال: " سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان، في حياة رسول الله، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره في الصلاة فتصبَّرت حتّى سلّم فلبَّبته بردائه فانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فقلت: إنّي سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ... ".

ووجه تسميتها (سورة الفرقان) لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات، في أوّلها ووسطها وآخرها.

وهي مكّيّة عند الجمهور. وروي عن ابن عباس أنّه استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة [68 - 70].

والصحيح عنه أنّ هذه الآيات الثلاث مكية كما في صحيح البخاري في تفسير الفرقان. عن القاسم بن أبي بَزة أنّه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمنا متعمّدا من توبة؟ فقرأت عليه { وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } [68]. فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها عليّ؟ فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء. يريد قوله تعالى { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً } [النساء:93]. وعن الضحّاك: أنّها مدنية إلّا الآيات الثلاث من أوّلها. وأسلوب السورة وأغراضها شاهدة بأنّها مكية.

وهي السورة **الثانية والأربعون في ترتيب النزول**، نزلت بعد سورة يس وقبل سورة فاطر، وعدد آياتها سبع وسبعون باتفاق أهل العدد.

أغراض السورة

*/ الابتداء بتحميد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية.

*/ التنويه بالقرآن، وجلال منزِّله، وما فيه من الهدى، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويه بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

*/ أقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الدعامة الأولى: إثبات أنّ القرآن منزَّل من عند الله، والتنويه بالرسول المنزَّل عليه، صلى الله عليه وسلم، ودلائل صدقه، ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا، وأنّه على طريقة غيره من الرسل، ومن ذلك تلقِّي قومه دعوته بالتكذيب.

الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء، والإنذار بالجزاء في الآخرة، والتبشير بالثواب فيها للصالحين، وإنذار المشركين بسوء حظّهم يومئذ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتّباع أئمة كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانيّة الله، وتفرّده بالخلق، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك، وإبطال إلهية الأصنام، وإبطال ما زعموه من بنوّة الملائكة لله تعالى.

وافتتحت آيات كلّ دعامة من هذه الثلاث بجملة { **تبارك الذي** }.

قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولهذا جُعل براعة استهلالها { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [1].

*/ ذكر بدائع من صنعه تعالى جمعا بين الاستدلال والتذكير.

*/ تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ومقاومته الكافرين.

*/ ضرب الأمثال للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم، مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.

*/ التوكّل على الله، والثناء على المؤمنين به، ومدح خصالهم ومزايا أخلاقهم، والإشارة إلى عذاب قريب يحلّ بالمكذبين.

{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [1]
افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب، لأنّ غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجرّدة أو مقترنة بحرف غير منفصل، أو بأفعال المضارعة ونحوها، أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل (إن) و(قد) و(الهمزة) و(هل).
وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع، لأنّ الندرة من العزّة، والعزّة من محاسن الألفاظ، وضدّها الابتذال.
تبارك: تعاظم خيره وتوفَّر، والمراد بخيره: كمالاته وتنزُّهاته. وتقدّم في قوله { تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف:54].
البركة: الخير، وتقدّم عند قوله تعالى { اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } [هود:48]، وعند قوله { تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } [النور:61].
{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ } الظاهر أنّه إخبار عن عظمة الله وتوفُّر كمالاته، فيكون المقصود به التعليم والإيقاظ. ويجوز مع ذلك أن يكون كناية عن إنشاء ثناء على الله تعالى، كقوله { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الإسراء:1] على طريقة الكلام العربي في إنشاء التعجّب من صفات المتكلّم في مقام الفخر والعظمة.
والموصول يومئ إلى علّة ما قبله فهو كناية عن تعظيم شأن الفرقان وبركته على الناس. فتلك منّة عظيمة توجب الثناء على الله. وهو أيضا كناية عن تعظيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام.
{ الَّذِي نَزَّلَ } التعريف بالموصول هنا لكون الصلة من صفات الله.
الفرقان: القرآن، وهو في الأصل مصدر (فَرَقَ)، كما في قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ } [الأنفال:41]. وجُعل عَلَمًا بالغلبة على القرآن، لأنّه فرَّق بين الحقِّ والباطل. وتقدّم في قوله تعالى { وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } في [آل عمران: 4].
وإيثار اسم الفرقان بالذكر هنا للإيماء إلى أنّ ما سيذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيّمة تفرّق بين الحقّ والباطل.
{ عَلَى عَبْدِهِ } تقريب للنبيّ وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } [7].
{ لِلْعَالَمِينَ } جميع الأمم من البشر، لأنّ العالم يطلق على الجنس وعلى النوع وعلى الصنف بحسب ما يسمح به المقام، والنذارة لا تكون إلّا للعقلاء ممّن قُصدوا بالتكليف. ومضى الكلام على { الْعَالَمِينَ } [الفاتحة: 2].
النذير: المخبر بسوء يقع، وهو فعيل بمعنى مُفْعِل بصيغة اسم الفاعل مثل الحكيم. والاقتصار في وصف الرسول هنا على النذير دون البشير لأنّ المقام هنا لتهديد المشركين، إذ كذّبوا بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك اكتفاء لأنّ البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة.

والآية جمعت بين التنويه بشأن القرآن، وأنّه منزّل من الله، والتنويه بشأن النبيّ عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله، وعموم رسالته.

{ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً } [2]

من بديع النظم أن جعل الوصفان المختلف فيهما مع المشركين { لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ } متوسطين بين الوصفين اللذين لا مريّة فيهما { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } حتّى يكون الوصفان المسلّمين كالدليل أوّلا والنتيجة آخرا، فإنّ الذي له ملك السماوات والأرض لا يليق به أن يتّخذ ولدا ولا أن يتخذ شريكا، لأنّ ملكه العظيم يقتضي غناه المطلق، فيقتضي أن يكون اتّخاذه ولدا وشريكا عبثا، إذ لا غاية له، وإذا كانت أفعال العقلاء تصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدّس.

الخلق: الإيجاد، أي: أوجد كلّ موجود من عظيم الأشياء وحقيرها.

{ **قَدَّرَهُ** } جعله على مقدار وحدّ معيّن لا مجرد مصادفة، أي: خلقه مقدّرا، أي: محكما مضبوطا صالحا لما خُلق لأجله، لا تفاوت فيه ولا خلل. كقوله { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر:49]. وتقدّم في قوله { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } في [الرعد:17].

{ **تَقْدِيراً** } تأكيد الفعل بالمفعول المطلق للدلالة على أنّه تقدير كامل في نوع التقادير.

وما جاء من أول السورة إلى هنا براعة استهلال بأغراضها، وهو يتنزل منزلة خطبة الكتاب أو الرسالة.

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً } [3]

الخبر غير مقصود به الإفادة بل هو للتعجيب من حالهم كيف قابلوا نعمة إنزال الفرقان بالجحد والطغيان، وكيف أشركوا بالذي تلك صفاته آلهة أخرى صفاتهم على الضدّ من صفات من أشركوهم به، وإلّا فإنّ اتخاذ المشركين آلهة أمر معلوم لهم وللمؤمنين فلا يقصد إفادتهم لحكم الخبر.

{ **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** } بينه وبين قوله { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً } [2] محسّن الطباق. والضمير عائد إلى المشركين ولم يسبق لهم ذكر في الكلام وإنّما هم معروفون في مثل هذا المقام.

{ **لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً** } مقابلة جملة { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

{ **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } مقابلة جملة { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً }. أي: وهم يُصنعون، أي: يصنعهم الصانعون، لأنّ أصنامهم كلّها حجارة منحوتة قوّمتها الصنعة، فأطلق الخلق على التشكيل والنحت من فعل الناس، وإن كان الخلق شاع في الإيجاد بعد العدم، إمّا اعتبارا بأصل مادة النحت، وإمّا على سبيل المجاز المرسل، وإمّا مشاكلة لقوله { لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً }.

{ **وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } مقابلة جملة { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ }، لأنّ الشركة في الملك تقتضي الشركة في التصرّف.

{ **لِأَنْفُسِهِمْ** } يجوز أن يعود الضمير إلى { آلِهَةً }، أي: لا تقدر الأصنام على ضرّ أنفسها ولا على نفعها. ويجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير { وَاتَّخَذُوا }، أي: لا تقدر الأصنام على نفع الذين عبدوها ولا على ضرّهم.

{ **ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } جرى مجرى المثل لقصد الإحاطة بالأحوال، فكأنّه قيل: لا يملكون التصرّف بحال من الأحوال. وهذا نظير أن يقال: شرقا وغربا، وليلا ونهارا.

الضَرّ: (بفتح الضاد) مصدر ضرَّه، إذا أصابه بمكروه. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } [يونس:49].

{ **وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً** } مقابلة جملة { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً } [2]، لأنّ أعظم مظاهر تقدير الخلق هو مظهر الحياة والموت، وذلك من المشاهدات.

{ **وَلا نُشُوراً** } تكميل لقرع المشركين نفاة البعث. و**النشور**: الإحياء بعد الموت. أصله نشر الشيء المطوي. ذُكر في هذه الآية من أقوالهم المقابلة للجمل الموصوف بها الله تعالى اهتماما بإبطال كفرهم المتعلّق بصفات الله، لأنّ ذلك أصل الكفر ومادته.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً }[4]

انتقال من ذكر كفرهم في أفعالهم إلى ذكر كفرهم بأقوالهم الباطلة.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } الإظهار هنا لإفادة أنّ مضمون الصلة هو علّة قولهم هذا، أي: ما جرّأهم على هذا البهتان إلّا إشراكهم وتصلّبهم فيه، وليس ذلك لشبهة.

وهذه الجملة مقابلة جملة { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [1] فهي المقصود من افتتاح الكلام كما آذنت بذلك فاتحة السورة. وإنّما أخّرت هذه الجملة مع أنّ مقتضى ظاهر المقابلة أن تذكر هذه الجملة قبل جملة { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } [3] اهتماما بإبطال الكفر المتعلّق بصفات الله، كما تقدم آنفا.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا** } قصر قلب، زعموا به ردّ دعوى أنّ القرآن منزّل من عند الله. والقصر متسلّط على كلتا

الجملتين، أي لا يخلو هذا القرآن بحسب زعمهم من مجموع الأمرين، هما: أن يكون افترى بعضه من نفسه، وأعانه قوم على بعضه.
وممّن قال هذه المقالة النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد. فإسناد هذا القول إلى جميع الكفّار لأنّه واقع بين ظهرانيهم وكلّهم يتناقلونه. والمشار إليه القرآن.
{ **افْتَرَاهُ** } الضمير المرفوع عائد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المعلوم من قوله { عَلَى عَبْدِهِ }.
الإفك: الكذب. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ } [النور:11].
الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد، وتقدّم في قوله { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [العقود:103].
{ **وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ** } أرادوا اليهود. روي هذا التفسير عن مجاهد وعن ابن عباس: أشاروا إلى عبيد كانوا للعرب من الفرس وهم: (عداس مولى حويطب ابن عبد العزى - يسار أبو فكيهة الرومي مولى العلاء بن الحضرمي [وفي سيرة ابن هشام أنّه مولى صفوان بن أمية بن محرث] - جبر مولى عامر).
وكان هؤلاء من موالي قريش بمكّة ممّن دانوا بالنصرانية وكانوا يعرفون شيئا من التوراة والإنجيل ثم أسلموا، وقد مرّ ذلك في [النحل:103]. فزعم المشركون أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتردّد إلى هؤلاء سرًّا ويستمدّ منهم أخبار ما في التوراة والإنجيل.
{ **فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً** } مستعمل في معنى (عملوا) وهو مجاز في العناية بالعمل والقصد إليه، لأنّ من اهتم بتحصيل شيء مشى إليه، وبهذا الاستعمال صحّ تعديته إلى مفعول.
الظلم: الاعتداء بغير حقّ بقول أو فعل قال تعالى { قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ } [ص:24] وتقدم في قوله { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ } [البقرة:114].
والظلم الذي أتوه هو نسبتهم الرسول إلى الاختلاق، فإنّه اعتداء على حقّه الذي هو الصدق.
الزور: الكذب، وأحسن ما قيل في الزور: إنّه الكذب المحسَّن المموَّه بحيث يشتبه بالصدق.

{ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [5]

الأساطير: جمع أُسطورة (بضم الهمزة) كالأحدوثة والأحاديث. وقد تقدّم معناها مفصّلا عند قوله { حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].
وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث العبدري قال: إنّ القرآن قصص من قصص الماضين. وكان النضر هذا قد تعلّم بالحيرة قصص ملوك الفرس وأحاديث رستم وأسفنديار فكان يقول لقريش: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا من محمد فهلّم أحدثكم، وكان يقول في القرآن: هو أساطير الأوّلين.

قال ابن عبّاس: كلّ ما ذكر فيه أساطير الأوّلين في القرآن فالمقصود منه قول النضر بن الحارث. وقد تقدّم هذا في سورة الأنعام، وفي أوّل سورة يوسف.

الاكتتاب: افتعال من الكتابة، وصيغة الافتعال تدلّ على التكلّف لحصول الفعل.

ومعنى هذا التكلّف: أنّه سأل من يكتبها له، والقرينة ما هو مقرّر لدى الجميع من أنّه أمّيّ لا يكتب، ومن قوله { فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ } لأنّه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه. وهذا كلّه حكاية لكلام النضر بلفظه أو معناه.

الإملاء: هو الإملال، وهو إلقاء الكلام لمن يكتب ألفاظه أو يرويها أو يحفظها.

البُكْرة: أوّل النهار. و**الأصيل**: آخر المساء، وتقدّم في قوله { بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الأعراف: 205]، وهذا مستعمل كناية عن كثرة الممارسة لتلقي الأساطير.

{ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً } [6]

لقّن الله رسوله الجواب لردّ بهتانهم.

{ **الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ** } عبَّر عن مُنزل القرآن بطريق الموصول لما تقتضيه الصلة من استشهاد الرسول الله على ما في سرّه، لأنّ الله يعلم كلّ سرّ في كل مكان. وفي ذلك كناية عن مراقبته الله فيما يبلّغه عنه.

وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبّروا في هذا الذي زعموه إفكا أو أساطير الأوّلين ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلّا الله الذي يعلم السرّ، فيوقنوا أنّ القرآن لا يكون إلّا من إنزاله، وليعلموا براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستعانة بمن زعموهم يعينونه.

{ **إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** } ترغيب لهم في الإقلاع عن هذه المكابرة وفي اتباع دين الحق ليغفر الله لهم ويرحمهم، وفيه تعريض بأنّهم إن لم يقلعوا ويتوبوا حقَّ عليهم الغضب والنقمة.

{ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً [7] أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً [8] انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً [9] }.

انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن وبيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرسول عليه الصلاة والسلام.

والضمير عائد إلى الذين كفروا، فمدلول الصفة مراعى كما تقدّم.

وقد أوردوا طعنهم في نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم بصيغة الاستفهام، والاستفهام تعجيبي مستعمل في لازمه، وهو بطلان كونه رسولا، بناء على أنّ التعجّب من الدعوى يقتضي استحالتها أو بطلانها.

{ **مَا لِهَذَا** } تركيب يفيد الاستفهام عن أمر ثابت له، فمثار الاستفهام في هذه الآية هو ثبوت حال أكل الطعام والمشي في الأسواق للذي يدعي الرسالة من الله.

وكتبت الـ (لام) منفصلة عن اسم الإشارة الذي بعدها في المصحف الإمام فاتبعته المصاحف، لأنّ رسم المصحف سنّة فيه، كما كتب { مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً } [الكهف:49]، وكما كتب { مال الذين كفروا قبلك مهطعين } [المعارج:36]، كما كتب { فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ } [النساء:78]. ولعلّ وجه هذا الانفصال أنّه طريقة رسم قديم كانت الحروف تكتب منفصلا بعضها عن بعض، ولا سيما حروف المعاني، فعاملوا ما كان على حرف واحد معاملة ما كان على حرفين فبقيت على يد أحد كتّاب المصحف آثاره من ذلك، وأصل حروف الهجاء كلها الانفصال، وكذلك هي في الخطوط القديمة للعرب وغيرهم. وكان وصل حروف الكلمة الواحدة تحسينا للرسم وتسهيلا لتبادر المعنى، وأمّا ما كان من كلمتين فوصله اصطلاح.

وأكثر ما وصلوا منه الكلمة الموضوعة على حرف واحد مثل حروف القسم أو كالواحد مثل (ال).

{ **يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** } كنُّوا بأكل الطعام والمشي في الأسواق عن مماثلة أحواله لأحوال الناس تذرُّعا منهم إلى إبطال كونه رسولا، لزعمهم أنّ الرسول عن الله تكون أحواله غير مماثلة لأحوال الناس.

وسيردّ الله عليهم قولهم ردًّا مباشرا لاحقا { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ } [20].

{ **لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً** } و(لولا) حرف تحضيض مستعمل في التعجيز، أي: لو أُنزل إليه ملك لاتبعناه. وخصّوا من أحوال الرسول حال النذارة لأنّها التي أنبتت حقدهم عليه.

{ **أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ** } و(أو) للتخيير في دلائل الرسالة في وهمهم .أي: ينزل إليه كنز من السماء، إذ كان الغنى فتنة لقلوبهم.

الإلقاء: الرمي، وهو هنا مستعار للإعطاء من عند الله.

الكنز: تقدّم في قوله تعالى { أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ } [هود:12].

{ **أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا** } جعلوا إعطاء جنّة له علامة على النبوّة، لأنّ وجودها في مكّة خارق للعادة.

ذكر أصحاب السير أنّ هذه المقالة صدرت من كبراء المشركين في مجلس لهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختري، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وأميّة بن خلف، وعبد الله بن أبي أميّة، والعاصي بن وائل، ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج، والنضر بن الحارث، وأنّ هذه الأشياء التي ذكروها تداولها أهل المجلس، إذ لم يعيّن أهل السير قائلها. قال ابن عطية: وأشاعوا ذلك في النّاس فنزلت هذه الآية.

وقد تقدّم شيء من هذا في [الإسراء:90-93].

{ **وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** } القائلون هم المشركون، فغيّر عنوانهم الأوّل إلى عنوان الظلم تنبيها على أنّ في هذا القول اعتداء على الرسول بنبزه بما هو بريء منه، وهم يعلمون أنّه ليس كذلك.

ذكر الماوردي: أن القائل هو عبد الله ابن الزِّبَعْرَى، أيّ هو مبتكر هذا البهتان، وإنّما أسند القول إلى جميع الظالمين لأنّهم تلقّفوه ولهجوا به.

المسحور: الذي أصابه السحر، وهو يورث اختلال العقل عندهم، أي: ما تتّبعون إلّا رجلا أصابه خلل العقل فهو يقول ما لا يقول مثله العقلاء.

{ **رَجُلاً** } هنا لتمهيد استحالة كونه رسولا، لأنّه رجل من الناس.

وهذا الخطاب خاطبوا به المسلمين الذين اتّبعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا** } أي: أنّهم ضربوا لك الأمثال الباطلة بأن مثّلوك برجل مسحور.

{ **انْظُرْ** } مستعار لمعنى العلم تشبيها للأمر المعقول بالأمر المرئي لشدّة وضوحه.

{ **كَيْفَ** } اسم للكيفية والحالة مجرّد هنا عن معنى الاستفهام.

{ **فَضَلُّوا** } فُرّع على هذا التعجيب إخبار عنهم بأنّهم ضلّوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرسول فسلكوا طرائق لا تصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم. فالفعل مستعمل في معنييه المجازيين هما: معنى عدم التوقّق في الحجّة، ومعنى عدم الوصول للدين الحقّ، وهو هنا تعجيب من خطلهم، وإعراض عن مجاوبتهم.

{ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً} [10]

{ **تَبَارَكَ الَّذِي** } ابتدئت السورة بتعظيم الله وثنائه على أن أنزل الفرقان على رسوله، وأعقب ذلك بما تلقّى به المشركون هذه المزيّة من الجحود والإنكار الناشئ عن تمسّكهم بما اتّخذوه من آلهة من صفاتهم ما ينافي الإلهية، ثم طعنوا في القرآن والذي جاء به، بما هو كفران للنعمة ومن جاء بها.

فلمّا أريد الإعراض عن باطلهم والإقبال على خطاب الرسول بتثبيته وتثبيت المؤمنين أعيد اللفظ الذي ابتدئت به السورة على طريقة وصل الكلام.

والجملة استئناف واقع موقع الجواب عن قولهم { أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ }، أي: إن شاء جعل لك خيرا من الذي اقترحوه. فالإشارة إلى المذكور من قولهم. ولكن الحكمة اقتضت عدم البسط للرسول في هذه الدنيا، ولكن المشركين لا يدركون المطالب العالية.

{ **إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ** } اقتران هذا الوعد بشرط المشيئة جار على ما تقتضيه العظمة الإلهية،

وإلّا فسياق الوعد يقتضي الجزم بحصوله، فالله شاء ذلك لا محالة. فموقع { إِنْ شَاءَ } اعتراض.
وأصل المعنى: تبارك الذي جعل لك خيرا من ذلك. ويساعد هذا قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم { وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُوراً } برفع { يَجْعَلُ } على الاستئناف دون إعمال حرف الشرط. وهذا المحمل أشدّ تبكيتا للمشركين وقطعا لمجادلتهم.
القصور: المباني العظيمة الواسعة على وجه الأرض، وتقدّم في قوله تعالى { تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً } [الأعراف:74]، وقوله { وَقَصْرٍ مَشِيدٍ } [الحج:45].

{ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً } [11]

{ **بَلْ** } للإضراب، فيجوز أن يكون إضراب انتقال من ذكر ضلالهم في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذكر ضلالهم في إنكار البعث.
ويجوز أن يكون إضراب إبطال لما تضمّنه قوله { إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ } على تأويل ابن عطية من الوعد بإيتائه ذلك في الآخرة، أي: بل هم لا يقنعون بأنّ حظّ الرسول عند ربه ليس في متاع الدنيا الفاني الحقير ولكنّه في خيرات الآخرة الخالدة غير المتناهية، أي: أنّ هذا ردّ عليهم ومقنع لهم لو كانوا يصدّقون بالساعة ولكنّهم كذّبوا بها فهم متمادون على ضلالهم لا تقنعهم الحجج.
الساعة: اسم غلب على عالم الخلود، تسمية باسم مبدئه وهو ساعة البعث. وإنّما قصر تكذيبهم على الساعة لأنّهم كذّبوا بالبعث، فهم بما وراءه أحرى تكذيبا.
{ **وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً** } معترضة بالوعيد لهم، وهو لعمومه يشمل المشركين المتحدّث عنهم، فهو تذييل. ومن غرضه مقابلة ما أعدّ الله للمؤمنين في العاقبة بما أعدّه للمشركين.
السعير: الالتهاب، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: مسعور، أي: زيد فيها الوقود. وتقدّم في قوله تعالى { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [الإسراء:97].
وقد يطلق علما بالغلبة على جهنّم وذلك على حذف مضاف، أي: ذات سعير.

{ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً [12] وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً [13] لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً [14] }.

تُخلِّص من اليأس من اقتناعهم إلى وصف السعير الذي أُعِدَّ لهم، وأُجري على السعير ضمير { رَأَتْهُمْ } بالتأنيث لتأويل السعير بجهنّم، إذ هو علم عليها بالغلبة كما تقدّم. وإسناد الرؤية إلى النّار استعارة.

ويجوز أن يكون معنى { رأتهم }: رآهم ملائكتها فأطلقوا منافذها فانطلقت ألسنتها بأصوات اللهيب كأصوات المتغيّظ وزفيره، فيكون إسناد الرؤية إلى جهنم مجازا عقليا.

التغيّظ: شدة الغيظ. والغيظ: الغضب الشديد، وتقدّم {عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119].

والمراد به هنا الصوت، بقرينة تعلّقه بفعل { سَمِعُوا }، فهو تشبيه بليغ.

الزفير: امتداد النفس من شدّة الغيظ وضيق الصدر، أي: صوتا كالزفير، فهو تشبيه بليغ أيضا.

ويجوز أن يكون الله قد خلق لجهنم إدراكا للمرئيّات بحيث تشدّد أحوالها عند انطباع المرئيات فيها فتضطرب وتفيض، فيكون إسناد الرؤية والتغيظ والزفير حقيقة، وأمور العالم الأخرى لا تقاس على أحوال الدنيا.

وعلى هذين الاحتمالين يُحمل ما ورد في القرآن والحديث نحو قوله تعالى { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ } [ق:30].

{ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً } وصف داخل جهنم ووصف وضع المشركين فيها.

الإلقاء: الرمي، وهو هنا كناية عن الإهانة.

{ ضَيِّقاً } قرأ الجمهور - بتشديد الياء - وقرأه ابن كثير { ضَيْقاً } - بسكون الياء - وكلاهما للمبالغة مثل: ميْت وميّت، لأنّ الضيق بالتشديد صيغة تمكّن الوصف من الموصوف، والضيق بالسكون وصف بالمصدر.

{ مُقَرَّنِينَ } حال من ضمير { أُلْقُوا } أي: مُقرَّنًا بعضهم في بعض، كحال الأسرى والمساجين أن يقرن عدد منهم في وثاق واحد، كما قال تعالى { وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ } [ص:38].

الدعاء: النداء بأعلى الصوت.

الثبور: الهلاك، أي نادوا: يا ثبورنا، والنداء كناية عن التمنّي، أي: تمنوا حلول الهلاك.

{ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً } مقولة لقول محذوف، أي: يقال لهم.

ووصف الثبور بالكثير إمّا لكثرة ندائه بالتكرير، وهو كناية عن عدم حصول الثبور، لأنّ انتهاء النداء يكون بحضور المنادى، أو هو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسّر.

{ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً [15] لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً [16] }.

<u>يجوز أن يقصد</u>: قل للمشركين الذين يسمعون الوعيد والتهديد السابق. فالجمل متّصلة السياق، والاستفهام حينئذ للتهكّم، إذ لا شبهة في كون الجنة الموصوفة خيرا.

ويجوز أن يقصد: قل للمؤمنين، فالجملة معترضة بين آيات الوعيد لمناسبة إبداء البون بين حال المشركين وحال المؤمنين. والاستفهام حينئذ مستعمل في التلميح والتلطّف. وهذا كقوله { أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ } [الصافات:62].

{ **أَذَلِكَ** } الإشارة إلى المكان الضيّق في جهنّم.

{ **خَيْرٌ** } اسم تفضيل، وأصله (أخير) بوزن اسم التفضيل فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال.

{ **كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً** } تذييل، لما فيها من التنويه بشأن الجنّة، مع الإيماء إلى أنّهم وعدوا بها وعد مجازاة على نحو قوله تعالى { نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً } [الكهف:31].

{ **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ** }، حال من { جَنَّةُ الْخُلْدِ }، أو صفة ثانية.

{ **كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً** } حال ثانية والرابط محذوف إذ التقدير: وعدا لهم.

المسؤول: الذي يسأله مستحقّه ويطالب به، أي: حقًّا للمتقين أن يترقّبوا حصوله، كأنّه أجر لهم عن عمل. وهذا مسوق مساق المبالغة في تحقيق الوعد والكرم كما يشكرك شاكرٌ على إحسان فتقول: ما أتيتُ إلا واجبا. ولا يتبادر هنا غير هذا المعنى، إذ لا معنى للوجوب على الله تعالى سوى أنّه تفضّل وتعهّد به.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ [17] قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً [18] }.

عطف على جملة { قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ } إن كان المراد: قل للمشركين.

أو عطف على جملة { وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً } على جواز أنّ المراد: قل للمؤمنين.

والظاهر أنّ ضمير { يَحْشُرُهُمْ } يعود على المشركين الذين قرّعتهم الآية بالوعيد، وهم الذين قالوا { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ - إلى قوله - مَسْحُوراً} [8/7]، لكن ما يقتضيه وصفهم بـ { الظَّالِمُونَ } والإخبار عنهم بأنّهم كذبوا بالساعة، وما يقتضيه ظاهر الموصول في قوله { لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ } [11] من شمول كلّ من تحقق فيه مضمون الصلة، كلّ ذلك يقتضي أن يكون ضمير { نحشرهم } عائدا إلى { مَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ } فيشمل المشركين الموجودين في وقت نزول الآية ومن انقرض منهم بعد بلوغ الدعوة المحمدية ومن سيأتي بعدهم من المشركين.

ووصفهم بـ { **عِبَادِي هَؤُلاءِ** } تسجيل عليهم بالعبودية وتعريض بكفرانهم حقّها. والإشارة إليهم لتمييزهم من بين بقية العباد.

وعلى كلا الوجهين فانتصاب { يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } على المفعولية لفعل محذوف معلوم في سياق أمثاله، تقديره: اذكر ذلك اليوم، لأنّه لمّا توعّدهم بالسعير وما يلاقون من هولها بيّن لهم حال ما قبل ذلك، وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم. وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم إذ يرون حقارتها بين يدي الله وتبرؤها من عبَّادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم عن القرآن.

{ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } عموم الموصول شامل لأصناف المعبودات التي عبدوها ولذلك أوثرت (ما) الموصولة لأنّها تصدق على العقلاء وغيرهم، على أنّ التغليب هنا لغير العقلاء.

{ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } الاستفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد.

والمعنى: أأنتم أضللتموهم أم ضلّوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم؟ ففي الكلام حذف دلّ عليه المذكور.

{ قَالُوا سُبْحَانَكَ } جواب عن سؤال الله إيّاهم { أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي }، فهو استئناف ابتدائي.

{ سُبْحَانَكَ } كلمة تنزيه كُني بها عن التعجّب من قول فظيع، وتقدّم {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} [النور:16].

والمجيبون هم العقلاء من المعبودين: الملائكة وعيسى عليهم السلام.

{ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا } أي: لا يمكن لنا أن نَتَّخِذَ عَبَدة، لأنّ (انبغى) مطاوع (بغاه): إذا طلبه، قال تعالى { وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } [ص:35]. وهو هنا كناية عن انتفاء طلبهم هذا الاتخاذ انتفاء شديدا.

الأولياء: جمع الولي بمعنى التابع في الولاء، كما في قوله { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } [مريم:45].

المعنى عليه: أنّهم يتبرّؤون من أن يدعوا الناس لعبادتهم، وهذا تسفيه للذين عبدوهم ونسبوا إليهم موالاتهم.

{ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً } الاستدراك الذي أفاده (لكن) ناشئ عن التبرّؤ من أن يكونوا هم المضلّين لهم بتعقيبه ببيان سبب ضلالهم لئلّا يُتوهّم أنّ تبرئة أنفسهم من إضلالهم يرفع تبعة الضلال عن الضالين. والمقصود بالاستدراك { نَسُوا الذِّكْرَ}.

{ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ } الخبر مستعمل في الثناء على الله بسعة الرحمة، وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة بالكفران، غضبا عليهم. ففيه تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ } للإيماء إلى أنّ ذلك التمتّع أفضى إلى الكفران لخبث نفوسهم.

النسيان: مستعمل هنا في الإعراض عن عمد، على وجه الاستعارة، لأنّه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير تأمّل ولا بصيرة. وتقدّم في قوله تعالى { وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } [الأنعام:41].

الذكر: القرآن، لأنّه يُتذكّر به الحق، وتقدّم في قوله { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

البور: جمع بائر، والبائر: هو الذي أصابه البوار، أي: الهلاك. وتقدّم في قوله تعالى { وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم:28] أي: الموت.

وقد استعير البور لشدّة سوء الحالة بناء على العرف الذي يعدّ الهلاك آخر ما يبلغ إليه الحي من سوء الحال.
وقيل: البوار الفساد في لغة الأزد، وأنّه وما اشتق منه، مما جاء في القرآن، بغير لغة مضر.

{ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً}[19]

{ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ } الفاء فصيحة، أي: إفصاح عن حجّة بعد تهيئة ما يقتضيها، وهو إفصاح رائع وزاده الالتفات في قوله { كَذَّبُوكُمْ }، وفي الكلام حذف فعل (قول) يدلّ عليه المقام. والتقدير: إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذّبوكم. فالجملة مستأنفة ابتدائية، هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ } بعد قوله { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } [يوسف:29].
وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنّه مشاهد غير محكي. وهو تفنّن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعا، ومنه قوله تعالى { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } [القمر:48].
{ بِمَا تَقُولُونَ } يجوز أن تكون (الباء) بمعنى (في) للظرفية المجازية، أي: كذّبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون.
ويجوز أن تكون للسببية، أي: كذّبوكم بسبب ما تقولون.
والذي قالوه هو ما يُستفاد من السؤال والجواب، وهو أنّهم قالوا: إنّهم دعوهم إلى أن يعبدوهم.
{ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً } وفُرّع على الإعلان بتكذيبهم إيّاهم تأييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بيّن لهم أنّهم لا يستطيعون **صرفا**، أي: صرف ضرّ عنهم، ولا **نصرا**، أيّ إلحاق ضرّ بمن يغلبهم.
ووجه التفريع ما دلّ عليه قولهم { سُبْحَانَكَ } [18] الذي يقتضي أنّهم في موقف العبودية والخضوع.
{ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً } تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب { مِنْكُمْ } لجميع المكلّفين. ويفيد ذلك أنّ المشركين المتحدّث عنهم معذّبون عذابا كبيرا: و**العذاب الكبير**: عذاب جهنم.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً } [20]

{ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ } هذا ردّ على قولهم { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } [7] الذي توسّلوا به إلى إبطال رسالته بثبوت صفات البشر له، فكان الردّ عليهم بأنّ جميع الرسل كانوا متّصفين بصفات البشر، ولم يكن المشركون منكرين وجود رسل

قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قالوا { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } [الأنبياء:5].
وإنّما أبقى الله الرسل على الحالة المعتادة للبشر فيما يرجع إلى أسباب الحياة المادية، إذ لا حكمة في تغيير حالهم عن ذلك وإنّما يغير الله حياتهم النفسية، لأنّ في تغييرها إعداد نفوسهم لتلقي الفيوضات الإلهية.
والله تعالى حافظ على نواميس نظام الخلائق والعوالم لأنّه ما خلقها عبثا فهو لا يغيّرها إلّا بمقدار ما تتعلّق به إرادته من تأييد الرسل بالمعجزات ونحو ذلك.
{ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** } تذييل، فضمير الخطاب في قوله { بَعْضَكُمْ } يعمّ جميع الناس بقرينة السياق، وكِلَا البعضين مبهم يبيّنه المقام.
{ **فِتْنَةً** } حال الفتنة مختلف، فبعضها فتنة في العقيدة، وبعضها فتنة في الأمن، وبعضها فتنة في الأبدان.
والكلام تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم عن إعراض بعض قومه عن الإسلام، ولذلك عقب بقوله:
{ **أَتَصْبِرُونَ** } استفهام مستعمل في الحثّ والأمر كقوله { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } [المائدة:91].
{ **وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** } موقع الحثّ على الصبر المأمور به، أي: هو عليم بالصابرين، وإيذان بأنّ الله لا يضيع جزاء الرسول على ما يلاقيه من قومه وأنّه ناصره عليهم.
{ **رَبُّكَ** } في الإسناد إلى وصف الربّ مضافا إلى ضمير النبيّ إلماع إلى هذا الوعد، فإنّ الربّ لا يضيع أولياءه.

{ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً }[21]

حكاية مقالة أخرى من مقالات تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد عُنون عليهم في هذه المقالة بـ { الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } وعُنون عليهم في المقالات السابقة بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } وبـ { الظَّالِمُونَ }، لأنّ بين هذا الوصف وبين مقالتهم انتقاض، فهم كذّبوا بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية الله والملائكة، وطلبوا رؤية الله في الدنيا، ونزول الملائكة عليهم، وأرادوا تلقّي الدين من الملائكة أو من الله مباشرة، فكان في حكاية قولهم وذكر وصفهم تعجيب من تناقض مداركهم.
واعلم أنّ أهل الشرك شهدوا على أنفسهم بإنكار البعث وتوهّموا أنّ شبهتهم في إنكاره أقوى حجّة لهم في تكذيب الرسل، فمن أجل ذلك أيضا جُعل قولهم ذلك طريقا لتعريفهم بالموصول كما قال تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس:15].

{ **لا يَرْجُونَ** } لا يظنّون ظنا قريبا، أيّ يعدُّون لقاء الله محالا.
{ **لَوْلا** } حرف تحضيض مستعمل في التعجيز والاستحالة، أي: هلَّا أنزل علينا الملائكة فنؤمن بما جئت به، يعنون أنّه إن كان صادقا فليسأل من ربّه وسيلة أخرى لإبلاغ الدين إليهم.
{ **أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا** } ومقصدهم من مقالهم أنّهم أعلى من أن يتلقّوا الدين من رجل مثلهم.
{ **لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً** } تعقيب على معنى التعجيب من ازدهائهم وغرورهم الباطل.
والجملة استئناف يتنزّل منزلة جواب عن قولهم.
الاستكبار: مبالغة في التكبّر، فالسين والتاء للمبالغة مثل استجاب.
{ **فِي** } للظرفية المجازية، شبّهت أنفسهم بالظروف في تمكّن المظروف منها، أي: هو استكبار متمكّن منهم كقوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذاريات:21].
ويجوز أن تكون { فِي } للتعليل كما في الحديث: " **دخلت امرأة النار في هرة حبستها** ...". أي: استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم.
العتو: تجاوز الحدّ في الظلم، وتقدّم في قوله تعالى { وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } [الأعراف:77].
وفي هذا إيماء إلى أنّ النبوّة لا تكون بالاكتساب وإنّما هي إعداد من الله الحكيم، قال تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124].

{ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً } [22].

استئناف ثان جواب عن مقالتهم، فبعد إبداء التعجيب منها عقّب بوعيد لهم فيه حصول بعض ما طلبوا حصوله الآن، أي: هم سيرون الملائكة ولكنّها رؤية تسوؤهم، حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ففي هذا الاستئناف تمليح وتهكّم بهم، لأنّ ابتداءه مُطْمع بالاستجابة وآخره مُؤيِّس بالوعيد، فالكلام جرى على طريقة الغيبة لأنّه حكاية عن تورّكهم، والمقصود إبلاغه لهم حين يسمعونه.
{ **لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ** } وانتفاء البشرى مستعمل في إثبات ضدّه وهو الحزن.
{ **لِلْمُجْرِمِينَ** } ذكر وصف المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بأنّهم مجرمون بعد أن وُصفوا بالكفر والظلم واليأس من لقاء الله.
{ **وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً** } الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم، ويقال بفتح الحاء وضمّها على الندرة) كلمة يقولونها عند رؤية ما يُخاف من إصابته بمنزلة الاستعاذة. قال الخليل وأبو عبيدة: كان الرجل إذا رأى الرجل الذي يخاف منه أن يقتله في الأشهر الحرم يقول له: (حِجْراً مَحْجُوراً)، أي حرام قتلي.
حِجْر: مصدر حَجَره، إذا منعه، قال تعالى { وَحَرْثٌ حِجْرٌ } [الأنعام:138].

{ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [23]

كانوا في الجاهلية يعدّون الأعمال الصالحة مجلبة لخير الدنيا لأنّها ترضي الله تعالى فيجازيهم بنعم في الدنيا إذا كانوا لا يؤمنون بالبعث، وقد قالت خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين تحيّر في أمر ما بدأه من الوحي وقال لها: " **لقد خشيت على نفسي** "، فقالت " والله لا يخزيك الله أبدا. إنّك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ".

فالظاهر أنّ المشركين إذا سمعوا آيات الوعيد يقولون في أنفسهم: لئن كان البعث حقًّا لنجدنّ أعمالا عملناها من البرّ تكون سببا لنجاتنا، فعلم الله ما في نفوسهم فأخبر بأنّ أعمالهم تكون كالعدم يومئذ.

{ وَقَدِمْنَا } القدوم مستعمل في معنى العمد والإرادة، وأفعال المشي والمجيء تجيء في الاستعمال لمعاني القصد والعزم والشروع مثل: قام يفعل، وذهب يقول، وأقبل، ونحوها. فموقعه في الكلام أرشق.

{ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ } (مِنْ) بيانية. والمراد: من عمل الخير.

الهباء: كائنات جسمية دقيقة لا ترى إلّا في أشعة الشمس المنحصرة في كوة ونحوها، تلوح كأنّها سابحة في الهواء، وهي أدقّ من الغبار، أي: فجعلناه كهباء منثور، وهو تشبيه لأعمالهم في عدم الانتفاع بها مع كونها موجودة بالهباء في عدم إمساكه مع كونه موجودا، وهذا تشبيه بليغ وهو هنا رشيق. ونظيره قوله { وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً } [الواقعة:6/5].

المنثور: غير المنتظم، وهو وصف كاشف لأنّ الهباء لا يكون إلّا منثورا، فذكر هذا الوصف للإشارة إلى ما في الهباء من الحقارة ومن التفرّق.

{ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً } [24]

استئناف ابتدائي جيء به لمقابلة حال المشركين في الآخرة بضدّها من حال أصحاب الجنّة وهم المؤمنون، لأنّه لمّا وصف حال المشركين في الآخرة عُلم أن لا حظ لهم في الجنّة فتعيّنت الجنّة لغير المشركين يومئذ وهم المؤمنون.

الخير: هنا تفضيل، وهو تهكّم بالمشركين، وكذلك { أَحْسَنُ }.

المستقرّ: مكان الاستقرار.

المقيل: المكان الذي يُؤوى إليه في القيلولة، والاستراحة في ذلك الوقت من عادة المترفين.

{ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً [25] الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً [26] }.

عطف على جملة { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ } [22]. والمقصود تأييسهم من الانتفاع بأعمالهم وبآلهتهم وتأكيد وعيدهم. وأدمج في ذلك وصف بعض شؤون ذلك اليوم، وأنّه يوم تنزيل الملائكة بمرأى من النّاس.

{ **وَيَوْمَ** } أعيد اللفظ على طريقة الإظهار في مقام الإضمار، وإن كان ذلك يوما واحدا، لبعد ما بين المعاد ومكان الضمير.

التشقّق: التفتّح بين أجزاء ملتئمة، ومنه { إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ } [الانشقاق:1]. ولعلّه انخراق يحصل في كور تلك العوالم. وتشقّق السماء حالة عجيبة تظهر يوم القيامة، ومعناه زوال الحواجز والحدود التي كانت تمنع الملائكة من مبارحة سماواتهم.

الغمام: السحاب الرقيق. وهو ما يغشى مكان الحساب قال تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ } [البقرة:210].

{ **بِالْغَمَامِ** } الباء قيل بمعنى (عن)، أي: تشقّق عن غمام يحفّ بالملائكة. وقيل للسببية، أي: يكون غمام يخلقه الله فيه قوّة تنشقّ بها السماء لينزل الملائكة، مثل قوّة البرق التي تشقّ السحاب. وقيل الباء للملابسة، أيّ تشقّق ملابسة لغمام يظهر حينئذ.

{ **وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً** } التأكيد بالمفعول المطلق لإفادة أنّه نزول بالذات لا بمجرد الاتصال النوراني.

{ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ** } : المُلك الخالص، كقولك: هذا ذهبٌ حقًّا. لأنّه لا يماثله ملك، لأنّ حالة الملك في الدنيا متفاوتة. والملك الكامل إنّما هو لله، ولكن العقول قد لا تلتفت إلى ما في الملوك من نقص وعجز وتبهرهم بهرجة تصرفاتهم وعطاياهم فينسون الحقائق، فأما في ذلك اليوم فالحقائق منكشفة وليس ثمّة من يدّعي شيئا من التصرّف، وفي الحديث: " **ثم يقول الله: أنا الملك أين ملوك الأرض** ".

{ **وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً** } باعتبار ما فيه من أمور عسيرة على المشركين. وتقديم {عَلَى الْكَافِرِينَ} للحصر. وهو قصر إضافي، أي: دون المؤمنين.

{ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً [27] يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً [28] لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً [29]}

حال آخر من أحوال المشركين فيه، أو باعتبار حال بعض المشركين المقصود من الآية.

{ **الظَّالِمُ** } يجوز أن يكون التعريف للاستغراق. والمراد بالظلم: الشرك، فيعم جميع المشركين الذين أشركوا

بعد ظهور الدعوة المحمدية.
ويجوز أن يكون للعهد المخصوص. والمراد بالظلم الاعتداء الخاص المعهود من قصّة عقبة بن أبي معيط وما أغراه به أبي بن خلف. قال الواحدي وغيره عن الشعبي وغيره: كان عقبة بن أبي معيط خليلا لأميّة بن خلف، وكان عقبة لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاما ودعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقدم من بعض أسفاره فصنع طعاما ودعا رسول الله فلمّا قرّبوا الطعام قال رسول الله: **ما أنا بآكل من طعامك حتّى تشهد أن لا اله إلا الله، وأنّي رسول الله "** فقال عقبة: أشهد أن لا اله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، فأكل رسول الله من طعامه. وكان أبي بن خلف غائبا فلما قدم أُخبر بقضيّته، فقال: صبأت يا عقبة. قال: والله ما صبأت ولكن دخل عليّ رجل فأبي أن يأكل من طعامي حتّى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال أبي: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدا إلّا أن تأتيه فتبصق في وجهه، فكفر عقبة وأخذ في امتثال ما امره به أميّة بن خلف، فيكون المراد بـ { **فُلاناً** } الكناية عن أبي بن خلف، فخصوصه يقتضي لحاق أمثاله من المشركين الذين أطاعوا أخلّتهم في الشرك ولم يتّبعوا سبيل الرسول.
العضّ: الشدّ بالأسنان على الشيء ليؤلمه أو ليمسكه، وحقّه التعدية بنفسه إلّا أنه كثرت تعديته بـ {عَلَى} لإفادة التمكّن من المعضوض إذا قصدوا عضًّا شديدا كما في هذه الآية.
العضّ على اليد: كناية عن الندامة، لأنّهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات بالجسد مثل التشذّر، وهو رفع اليد عند كلام الغضب، ومثل وضع اليد على الفم عند التعجّب قال تعالى { فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } [إبراهيم:9]. ومنه في الندم قرع السن بالأصبع، وعضّ السبابة، وعضّ اليد، وفي الغيض عضّ الأنامل قال تعالى { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119]، وكانت كنايات بناء على ما يلازمها في العرف من معان نفسيّة.
{ **يَا لَيْتَنِي** } على نحو قوله { يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [الأنعام:31].
الرسول: هو المعهود وهو محمد صلى الله عليه وسلم.
اتخاذ السبيل: أصل الأخذ: التناول باليد، أطلق هنا على قصد السير فيه، قال تعالى { واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ} [الكهف:63].
{ **مَعَ الرَّسُولِ** } أي: متابعا للرسول، وإنّما عدل عن الإتيان بفعل الاتّباع ونحوه بأن يقال: يا ليتني اتّبعت الرسول، إلى هذا التركيب المطنب لأنّ في هذا التركيب تمثيل هيئة الاقتداء بهيئة مسايرة الدليل تمثيلا محتويا على تشبيه دعوة الرسول بالسبيل.
{ **يَا وَيْلَتَا** } هو تحسّر بطريق نداء الويل. وتقدّم في قوله تعالى { يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ } [الكهف49].

والألف عوض عن ياء المتكلّم، وهو تعويض مشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلّم.

الويل: سوء الحال، وقد تقدّم الكلام على الويل في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ } [البقرة:79].

{ **لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً** } بدل من جملة { لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً }، بدل اشتمال لأنّ اتباع سبيل الرسول يشتمل على نبذ خلّة الذين يصدّون عن سبيله فتمنّي وقوع أوّلهما يشتمل على تمنّي وقوع الثاني.

{ **فُلاناً** } اسم يكنَّى عمّن لا يذكر اسمه العلم، كما يكنَّى بـ (فلانة) عمّن لا يراد ذكر اسمها العلم.

والداعي إلى الكناية بـ (فلان) إمّا قصد إخفاء اسمه خيفة عليه أو خيفة من أهله أو للجهل به، أو لعدم الفائدة لذكره، أو لقصد نوع من له اسمٌ عَلَم. وهذان الأخيران هما اللذان يجريان في هذه الآية إن حملت على إرادة خصوص عقبة وأبي، أو حملت على إرادة كلّ مشرك له خليل صدَّه عن اتباع الإسلام.

وإنّما تمنَّى أن لا يكون اتّخذه خليلا دون تمنِّي أن يكون عصاه فيما سوَّل له قصدا للاشمئزاز من خلّته من أصلها، إذ كان الإضلال من أحوالها.

وفيه إيماء إلى أنّ شأن الخلّة الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح فلا ينبغي أن يضع المرء خلَّته إلّا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء، قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } [آل عمران:118].

وهو عندي محمل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لو كنت متّخذا خليلا غير ربي لاتّخذت أبا بكر خليلا "** فإن مقام النبوّة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق المتعارفة في الناس، فلا يليق به إلّا متابعة ما لله من الكمالات بقدر الطاقة، ولهذا قالت عائشة: " كان خُلُقه القرآن ". وعلمنا بهذا أنّ أبا بكر أفضل الأمّة مكارم أخلاق بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ النبيّ جعله المخيَّر لخلَّته لو كان متخذا خليلا غير الله.

{ **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي** } تعليلية لتمنِّيه ألّا يكون اتّخذ فلانا خليلا بأنّه قد صدر عن خلَّته أعظم خسران لخليله إذ أضلّه عن الحقّ بعد أن كاد يتمكّن منه.

الضلال: إضاعة الطريق وخطؤه. ويستعار الضلال للحياد عن الحقّ والرشد إلى الباطل والسفه، كما يستعار ضدّه، وهو الهدى (إصابة الطريق) لمعرفة الحقّ والصواب، حتّى تساوى المعنيان الحقيقان والمعنيان المجازيّان لكثرة الاستعمال.

الإضلال: مستعار هنا للصرف عن الحق.

{ **الذِّكْرِ** } هو القرآن، أي نهاني عن التدبّر فيه والاستماع له بعد أن قاربت فهمه.

وقيل: كلمة الشهادة، بناء على تخصيص الظالم بعقبة بن أبي معيط، وتأتي في ذلك الوجوه المتقدّمة، فإنّ كلمة الشهادة لمّا كانت سبب النجاة مُثِّلت بسبيل الرسول الهادي، ومُثّل الصرف عنها بالإضلال عن السبيل.

فإذا حمل الظالم في قوله { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } على معيّن وهو عقبة بن أبي معيط فمعنى مجيء

الذكر إيّاه أنّه كان يجلس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ويأنس إليه حتّى صرفه عن ذلك أبَي بن خلف وحمله على عداوته وأذاته.

وإذا حمل الظالم على العموم فمجيء الذكر هو شيوع القرآن بينهم، وإمكان استماعهم إيّاه. وإضلال خِلّانهم إيّاهم صرف كلّ واحد خليله عن ذلك، وتعاون بعضهم على بعض في ذلك..

{ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً** } تذييل من كلام الله تعالى لا من كلام الظالم تنبيها للنّاس على أنّ كل هذا الإضلال من عمل الشيطان فهو الذي يسوِّل لخليل الظالم إضلال خليله، لأنّ الشيطان خذول الإنسان، أي: مجبول على شدّة خذله.

الخذل: تركُ نصر المستنجِد مع القدرة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ [آل عمران:160].

فإذا أعان على الهزيمة فهو أشدّ الخذل، وهو المقصود من صيغة المبالغة في وصف الشيطان بخذل الإنسان، لأنّ الشيطان يكيد الإنسان فيورّطه في الضرّ فهو خذول.

{ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً } [30]

عطف على أقوال المشركين ومناسبته لقوله { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } أنّ الذكر هو القرآن، فحكيت شكاية الرسول إلى ربّه قومه من نبذهم القرآن بإضلال زعمائهم وسادتهم إيّاهم.

والمقصود إنذار قريش بأنّ الرسول توجه إلى ربّه في هذا الشأن فهو يستنصر به ويوشك أن ينصره.

{ **إِنَّ قَوْمِي** } قريش، لزيادة التذمّر من فعلهم معه لأنّ شأن قوم الرجل أن يوافقوه. والتأكيد للاهتمام به ليكون التشكّي أقوى.

{ **اتَّخَذُوا** } فعل الاتخاذ إذا قيّد بحالة يفيد شدّة اعتناء المتخذ بتلك الحالة. فهذا أشد مبالغة في هجرهم القرآن من أن يقال: إنّ قومي هجروا القرآن.

{ **هَذَا الْقُرْآنُ** } اسم الإشارة لتعظيمه وأنّ مثله لا يتخذ مهجورا بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به.

المهجور: المتروك والمفارق. والمراد هنا ترك سماعه.

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً } [31]

هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ ما لقيه من بعض قومه هو سنّة من سنن الأمم مع أنبيائهم. وفيه تنبيه للمشركين ليعرضوا أحوالهم على هذا الحكم التاريخي.

{ **وَكَذَٰلِكَ** } تقدّم الكلام فيه عند قوله تعالى { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة:143].

العدوّ: اسم يقع على المفرد والجمع والمراد هنا الجمع.

{ **الْمُجْرِمِينَ** } الإجرام أعمّ من عداوة الأنبياء وهو أعظمها. وإنّما أريد هنا تحقيق انضواء أعداء الأنبياء في زمرة المجرمين، لأنّ ذلك أبلغ في الوصف.

{ **وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً** } التسلية بالوعد بهداية كثير ممّن هم يومئذ معرضون عنه، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده** "، وبأنّه ينصره على الذين يصرّون على عداوته.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}[32]

عَود إلى معاذيرهم وتعلُّلاتهم الفاسدة إذ طعنوا في القرآن بأنّه نزل منجّما، وقالوا: لو كان من عند الله لنزل كتابا جملة واحدة. وهذه جهالة منهم بكتب الرسل فإنّها لم ينزل شيء منها جملة واحدة وإنما كانت وحيا مفرّقا، فالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام في الألواح هي عشرة كلمات بمقدار سورة الليل في القرآن، وما كان الإنجيل إلّا أقوالا ينطق بها عيسى عليه السلام في الملأ، وكذلك الزبور نزل قطعا كثيرة.

وقيل: إنّ قائل هذا اليهود أو النصارى، فإن صحّ ذلك فهو بهتان منهم لأنّهم يعلمون أنّه لم تنزل التوراة والإنجيل والزبور إلّا مفرّقة.

{ **كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ** } ردّ على طعنهم، فهو كلام مستأنف. وعدل فيه عن خطابهم إلى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام إعلاما له بحكمة تنزيله مفرّقا، وفي ضمنه امتنان على الرسول.

التثبيت: جعل الشيء ثابتا. والثبات: استقرار الشيء في مكانه غير متزلزل قال تعالى { كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ } [إبراهيم:24]. ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه قال تعالى { لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً } [النساء:66].

الفؤاد: هنا العقل. وتثبيته بذلك الإنزال جعله ثابتا في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب فيه.

قال الزمخشري: " الحكمة في تفريقه أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتّى تعيه وتحفظه، لأنّ المتلقّن إنّما يقوى قلبه على حفظ العلم إذ ألقي إليه شيئا بعد شيء وجزءا عقب جزء، [وهو ينزل] على حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين " .

قلت: إنّ نزوله منجّما أعون لحفّاظه على فهمه وتدبّره.

{ **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** } والترتيل يوصف به الكلام إذا كان حسن التأليف بيّن الدلالة. واتفقت أقوال أئمة اللغة على

أنّ هذا الترتيل مأخوذ من قولهم: ثغر مُرَتَّلٌ ورَتِلٌ، إذا كانت أسنانه مفلَّجة تشبه نور الأقحوان.
أي: نزَّلناه مفرَّقا منسَّقا في ألفاظه ومعانيه غير متراكم، فهو مفرّق في الزمان فإذا كمل إنزال سورة جاءت آياتها مرتَّبة متناسبة كأنها أنزلت جملة واحدة.
ويجوز أن يراد بـ { رَتَّلْنَاهُ } أمرنا بترتيله، أي: بقراءته مرتَّلا، أي: بتمهُّل بأن لا يعجِّل في قراءته، وهو المذكور في قوله تعالى {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً } [الزمر:4].

{ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [33]

فذلكة جامعة تعمّ ما تقدّم وما عسى أن يأتوا به من الشكوك والتمويه. بأنّ كلّ ذلك مدحوض بالحجّة الواضحة **{ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ }** فعل الإتيان مجاز في أقوالهم والمحاجّة به، وتنكير (مثل) في سياق النفي للتعميم، أي: بكلّ مثل من أمثالهم المتقدّمة ابتداء من قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ } [4]، { وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [5]، { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } [7]، { وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً } [8]، { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ } [21]، { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32].
{ يَأْتُونَكَ } تعدية الفعل إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم لإفادة أنّ إتيانهم الأمثال يقصدون به أن يفحموه. والإتيان مستعمل مجازا في الإظهار. وصيغة المضارع تشمل ما عسى أن يأتوا به من هذا النوع كقولهم { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:92].
{ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ } استثناء من أحوال عامة يقتضيها عموم الأمثال، لأنّ عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال. وهو مقابل قوله { وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ }، إشارة إلى أن ما يأتون به باطل. وهو مجيء مجازي.
والتعبير في جانب ما يؤيّده الله من الحجّة بـ { جِئْنَاكَ } دون: أتيناك، كما عبّر عمّا يجيئون به بـ { يَأْتُونَكَ }، إمّا لمجرّد التفنّن، وإمّا لأنّ فعل الإتيان إذا استعمل مجازا كثر فيما يسوء وما يكره، كالوعيد والهجاء. بخلاف فعل (المجيء) إذا استعمل في مجازه فأكثر ما يستعمل في وصول الخير والوعد والنصر والشيء العظيم، قال تعالى { قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ } [النساء:174]، { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً } [الفجر:22]، { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ } [النصر:1]، { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [الإسراء:81].
وقد يكون متعلّق الفعل ذا وجهين باختلاف الاعتبار فيطلق كلا الفعلين نحو {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ} [هود:40]، فإنّ الأمر هنا منظور فيه إلى كونه تأييدا نافعا لنوح.
التفسير: البيان والكشف عن المعنى، وقد تقدّم ما يتعلّق به مفصّلا في المقدّمة الأولى من مقدّمات هذا الكتاب، والمراد هنا كشف الحجّة والدليل.

{ **وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** } ، أنّه أحقّ في الاستدلال، فالتفضيل للمبالغة إذ ليس في حجّتهم حسن. أو يراد بالحسن ما يبدو من بهرجة سفسطتهم وشبههم فيجيء الكشف عن الحقّ أحسن وقعا في نفوس السامعين من مغالطاتهم، فيكون التفضيل بهذا الوجه على حقيقته. فهذه نكتة من دقائق الاستعمال ودقائق التنزيل.

{ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً } [34]

استئناف ابتدائي لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولوعيد المشركين وذمّهم.

{ **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ** } الموصول واقع موقع الضمير كأنّه قيل: هم يحشرون على وجوههم، فيكون الضمير عائدا إلى الذين كفروا من قوله { **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** } [32] إظهار في مقام الإضمار لتحصيل فائدة أنّ أصحاب الضمير ثبت لهم مضمون الصلة، وليُبنى على الصلة موقع اسم الإشارة، وليُعلم من السياق بطريق التعريض أنّ الذين يحشرون على وجوههم هم الذين يأتون بالأمثال تكذيبا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ** } تقدم معناه عند قوله { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } [الإسراء:97].

{ **أُولَئِكَ** } والإتيان باسم الإشارة، عقب ما تقدّم، للتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بالمكان الأشرّ والسبيل الأضلّ، لأجل ما سبق من أحوالهم التي منها قولهم { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32].

شرّ: اسم تفضيل. وأصله (أشرّ). وصيغتا التفضيل في قوله { شَرٌّ – وَأَضَلُّ } مستعملتان للمبالغة في الاتصاف بالشر والضلال كقوله { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً } [يوسف:77].

المكان: المقر. و**السبيل**: الطريق، مكانهم جهنم، وطريقهم الطريق الموصول إليها، وهو الذي يحشرون فيه على وجوههم.

{ **سبيلا** } تمييز محوَّل عن الفاعل، فأصله: وضلَّ سبيلهم. وإسناد الضلال إلى السبيل في التركيب المحوَّل عنه مجاز عقلي لأنّ السبيل سبب ضلالهم.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً [35] فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً [36] }.

لمّا جرى الوعيد والتسلية بذكر حال المكذّبين للرسول عليه الصلاة والسلام عطف على ذلك تمثيلهم بالأمم المكذّبين رسلهم ليحصل من ذلك موعظة هؤلاء وزيادة تسلية الرسول والتعريض بوعده بالانتصار له.

وابتدئ بذكر موسى وقومه لأنّه أقرب زمنا من الذين ذكروا بعده ولأنّ بقايا شرعه وأمّته لم تزل معروفة

عند العرب. فإن صحّ ما روي أنّ الذين قالوا { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32] اليهود فوجه الابتداء بذكر ما أوتى موسى أظهر.

{ **وَلَقَدْ** } حرف التحقيق ولام القسم لتأكيد الخبر باعتبار ما يشتمل عليه من الوعيد بتدميرهم.

{ **الْكِتَابَ** } الوحي الذي يُكتب ويُحفظ وذلك من أوّل ما ابتدئ بوحيه إليه، وليس المراد بالكتاب الألواح لأنّ إيتاءه الألواح كان بعد زمن قوله { اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ }.

وفي وصف الوحي بالكتاب تعريض بجهالة المشركين القائلين { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } ، فإنّ الكتب التي أوتيها الرسل ما كانت إلّا وحيا نزل منجّما فجمعه الرسل وكتبه أتباعهم.

{ **وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً** } تعريض آخر بالردّ على المشركين إذ قالوا { لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ يَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [32]، فإنّ موسى لمّا اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيّد بملك ولكنّه أُيّد برسول مثله.

الوزير: المؤازر وهو المعاون المظاهر، مشتقّ من الأزر وهو القوّة. وأصل الأزر: شدّ الظهر بإزار عند الإقبال على عمل ذي تعب، وقد تقدم في [طه:29].

القوم: هم قبط مصر قوم فرعون.

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } الموصول للإيماء إلى علة الخبر عنهم بالتدمير. والتركيب وصف للقوم وليس هو من المقول لموسى وهارون لأنّ التكذيب حينئذ لمّا يقع منهم، ولكنّه وصف لإفادة قرّاء القرآن أنّ موسى وهارون بلّغا الرسالة وأظهر الله منها الآيات فكذّب بها قوم فرعون فاستحقوا التدمير تعريضا بالمشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم.

{ **فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً** } تفريع، وهو المقصود من الموعظة والتسلية.

وقد حصل بهذا النظم إيجاز عجيب اختصرت به القصّة فذكر منها حاشيتاها: أوّلها وآخرها، لأنّهما المقصود بالقصّة، وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم.

التدمير: الإهلاك، والهلاك: دُمور.

{ **تَدْمِيراً** } إتباع الفعل بالمفعول المطلق للمبالغة.

{ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً}[37]

في هذا النظم اهتمام بقوم نوح لأنّ حالهم هو محلّ العبرة فقُدّم ذكرهم ثم أُكّد بضميرهم.

الآية: الدليل، أي: جعلناهم دليلا على مصير الذين يكذّبون رسلهم.

{ **لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ** } وجعل قوم نوح مكذّبين الرسل مع أنّهم كذّبوا رسولا واحدا لأنّهم استندوا في تكذيبهم رسولهم إلى إحالة أن يرسل الله بشرا، إذ قالوا { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [المؤمنون:24]، فكان تكذيبهم مستلزما تكذيب عموم الرسل، ولأنّهم أوّل من كذّب رسولهم، فكانوا قدوة للمكذّبين من بعدهم. وقصّة قوم نوح تقدّمت في [الأعراف:59-64] وفي [هود:25-49].

{ **وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً** } عطف على { أَغْرَقْنَاهُمْ }. والمعنى: عذّبناهم في الدنيا بالغرق وأعتدنا لهم عذابا أليما في الآخرة. ووقع الإظهار في مقام الإضمار فقيل { لِلظَّالِمِينَ } عوضا عن: أعتدنا لهم، لإفادة أنّ عذابهم جزاء على ظلمهم بالشرك وتكذيب الرسول.

{ وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً [38] وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً [39] }.

انتصبت الأسماء الأربعة بفعل محذوف دل عليه { تَبَّرْنَا }. وفي تقديمها تشويق إلى معرفة ما سيخبر به عنها. ويجوز أن تكون هذه الأسماء منصوبة بالعطف على ضمير النصب من قوله { فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً }.

{ **عاداً** } التنوين وجه وجيه لأنّه اسم عَريّ عن علامة التأنيث وغير زائد على ثلاثة أحرف فحقّه الصرف.

{ **ثَمُودَا** } صرفه في قراءة الجمهور { ثَمُودًا } على اعتبار اسم الأب، والأظهر عندي أنّ تنوينه للمزاوجة مع { عَاداً } كما قال تعالى { سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً } [الإنسان:4].

وقرأه حمزة وحفص ويعقوب بغير تنوين على ما يقتضيه ظاهر اسم الأمّة من التأنيث المعنوي.

وتقدّم ذكر عاد في [الأعراف:65-72].

{ **وَأَصْحَابَ الرَّسِّ** } اختلف المفسّرون في تعيينهم واتفقوا على أنّ **الرّسّ**: بئر عظيمة أو حفير كبير. ولمّا كان اسما لنوع من أماكن الأرض أطلقه العرب على أماكن كثيرة في بلاد العرب.

وإضافة { أَصْحَابُ } إلى { الرَّسِّ } إمّا لأنّهم أصابهم الخسف في رسّ، وإمّا لأنهم نازلون على رسّ، وإمّا لأنّهم احتفروا رسًّا، كما سمّي أصحاب الأخدود الذين خدُّوه وأضرموه.

والأكثر على أنّه من بلاد اليمامة ويسمّى (فَلَجاً).

<u>قيل هم قوم من بقايا ثمود</u>. وقال السهيلي: هم قوم كانوا في عدن أُرسل إليهم (**حنظلة بن صفوان**) رسولا. وقد عبدوا الأصنام وقتلوا نبيهم فأهلكهم الله. قال وهب بن منبه: خسف بهم وبديارهم.

<u>وقيل: هم قوم شعيب</u>. وقيل: قوم كانوا مع قوم شعيب.

وقال مقاتل والسدي: الرس بئر بإنطاكية، وأصحاب الرس أهل إنطاكية بعث إليهم **(حبيب النجار)** فقتلوه ورسُّوه في بئر، وهو المذكور في قوله { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } [يس:20].

القرون : الأمم، فإنّ القرن يطلق على الأمّة، وقد تقدّم عند قوله { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [الأنعام: 6]. وفي الحديث: **" خير القرون قرني ثم الذين يلونهم "**.

{ **بَيْنَ ذَلِكَ** } المعنى أنّ أمما تخلّلت تلك الأقوام ابتداء من قوم نوح.

{ **كَثِيراً** } إيذان بطول مدد هذه القرون وكثرتها.

{ **وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ** } تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: وكلّهم ضربنا له الأمثال.

وانتصب { كُلّاً } بإضمار فعل يدل عليه { ضَرَبْنَا لَهُ } تقديره: حذّرنا كلًّا وضربنا له الأمثال.

ضرب الأمثال: قولها وتبيينها. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة: 26].

{ **وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** } انتصب { كُلّاً } بإضمار فعل يدل عليه { تَبَّرْنَا } وهو من قبيل الاشتغال كسابقه.

التتبير: التفتيت للأجسام الصلبة كالزجاج والحديد. وأطلق التتبير على الإهلاك على طريقة الاستعارة تبعية في { تَبَّرْنَا } وأصلية في { تَتْبِيراً } ، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ } [الأعراف:139]، وقوله { وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً } [الإسراء:7].

{ **تَتْبِيراً** } مفعول مطلق مؤكّد لعامله لإفادة شدّة هذا الإهلاك.

{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً } [40]

لمّا كان سوق خبر قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ وما بينهما من القرون مقصودا لاعتبار قريش بمصائرهم نُقل نظم الكلام هنا إلى إضاعتهم الاعتبار بذلك وبما هو أظهر منه لأنظارهم، وهو آثار العذاب الذي نزل بقرية قوم لوط.

وكانت قريش يمرّون بديار قوم لوط في أسفارهم للتجارة إلى الشام، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137-138]. وكان طريق تجارتهم من مكة على المدينة ويدخلون أرض فلسطين فيمرون حذو بحيرة لوط التي على شافتها بقايا مدينة (سدوم) ومعظمها غمرها الماء. وتقدّم ذكر ذلك عند قوله تعالى { وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } في سورة [الحجر:79].

الإتيان: المجيء. وتعديته بـ { عَلَى } لتضمينه معنى: مرّوا، لأنّ المقصود من التذكير بمجيء القرية التذكير

بمصير أهلها فكأنّ مجيئهم إيّاها مرور بأهلها، فإنّ المرور يتعلّق بالسكان والمجيء يتعلق بالمكان.

{ **عَلَى الْقَرْيَةِ** } هي المسماة (**سَدُوم**) - بفتح السين وتخفيف الدال - وكانت لقوم لوط قرى خمس أعظمها (سدوم). وتقدّم ذكرها عند قوله تعالى { ولوطا إذ قال لقومه } [الأعراف:80].

{ **الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** } وصفت بذلك لأنّها اشتهرت بمضمون الصلة بين العرب وأهل الكتاب. وهو عذاب نزل عليهم من السماء، وهو حجارة من كبريت ورماد، وتسميته مطرا على طريقة التشبيه لأنّ حقيقة المطر ماء السماء.

السَّوْء (بفتح السين): الضرّ والعذاب، وأمّا السُّوء (بضم السين) فهو ما يسوء.

{ **أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا** } استفهام صوري عن انتفاء رؤيتهم إيّاها حينما يأتون عليها. وهو استفهام إمّا مستعمل في الإنكار والتهديد، وإمّا مستعمل في الإيقاظ لمعرفة سبب عدم اتّعاظهم.

{ **بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً** } يجوز أن يكون { بَلْ } للإضراب الانتقالي انتقالا من وصف تكذيبهم بالنبيّ صلى الله عله وسلم وعدم اتعاظهم بما حلّ بالمكذبين من الأمم إلى ذكر تكذيبهم بالبعث، فيكون انتهاء الكلام عند قوله { أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} وهو الذي يجري على الوجه الأول في الاستفهام (الإنكار والتهديد). وعبّر عن إنكارهم البعث بعدم رجائه لأنّ منكر البعث لا يرجو منه نفعا ولا يخشى منه ضرّا.

النشور: مصدر نشر الميّت أحياه. وهو من الألفاظ التي جرت في كلام العرب على معنى التخيّل لأنّهم لا يعتقدونه.

والمعنى: أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأنّ الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس لطلب النجاة، وهؤلاء المشركون لمّا نشأوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل فلم يُعْنَوا إلّا بأسباب وسائل العاجلة، فهم مع براعتهم في تفرّس الذوات والشيات ومراقبة سير النجوم وأنواء المطر والريح ورائحة أتربة منازل الأحياء، هم مع ذلك كلّه معرضون بأنظارهم عن توسم الالهيات وحياة الأنفس ونحو ذلك. وأصل ذلك الضلال كلّه انجرّ لهم من إنكار البعث، فلذلك جُعل هنا علّة لانتفاء اعتبارهم بمصير أمّة كذّبت رسولها وعصت ربها. وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } [الحجر:75].

{ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً [41] إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً [42] }.

كان ما تقدّمت حكايته من صنوف أذاهم الرسول عليه الصلاة والسلام أقوالا في مغيبه، فعُطف عليها في هذه الآية أذى خاص وهو الأذى حين يرونه. وهذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرسول في غير زيّ الكبراء والمترفين، لا يجر المطارف ولا يركب النجائب ولا يمشي مرحا، ولا ينظر خيلاء، ويجالس الصالحين ويعرض عن المشركين، ويرفق بالضعفاء ويواصل الفقراء، وأولئك يستخفّون بالخُلُق الحسن، لما غلب على آرائهم من أفن. وهذا الكلام صدر من أبي جهل وأهل ناديه.

{ **إِذَا** } ظرف زمان مضمّن معنى الشرط فلذلك يجعل متعلَّقه جوابا له { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً }.

{ **يَتَّخِذُونَكَ** } إسناد الفعل إلى ضمير الجمع للدلالة على أنّ جماعاتهم يستهزئون به إذا رأوه وهم في مجالسهم ومنتدياتهم.

{ **إِلَّا هُزُوًا** } (بضمتين): مصدر هزأ به. وتقدّم في قوله { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا } [البقرة:67].

وصيغة الحصر للتشنيع عليهم بأنّهم انحصر اتخاذهم إيّاه في الاستهزاء به يلازمونه ويدأبون عليه.

{ **أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً** } بيان لجملة { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً } لأنّ الاستهزاء من قبيل القول فكان بيانه بما هو من أقوالهم ومجاذبتهم الأحاديث بينهم.

والاستفهام للإنكار. واسم الإشارة مستعمل في الاستصغار كما علمت في أوّل تفسير هذه الآية.

وقد تقدّم قريب من هذه الجملة في قوله تعالى { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ } [الأنبياء:36]، سوى أنّ الاستفهام هنالك تعجبي، فأنظره.

{ **إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا** } تفاخرهم بتصلّبهم في دينهم وأنّهم كادوا أن يتّبعوا دعوته بما يلقيه إليهم من الإقناع والإلحاح لولا أنّهم تريّثوا.

الصبر: الاستمرار على ما يشقّ عمله على النفس. ويُعدَّى فعله بحرف (على) لما يقتضيه من التمكّن من الشيء المستمرّ عليه.

{ **لَوْلا** } حرف امتناع لوجود، أي: امتناع وقوع جوابها لأجل وجود شرطها فتقتضي جوابا لشرطها، والجواب هنا محذوف لدلالة ما قبل { لَوْلا } عليه، وهو { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا } .

{ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا }

هذا جواب قولهم { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا } المتضمّن أنّهم على هدى في دينهم، وكان الجواب بقطع مجادلتهم وإحالتهم على حين رؤيتهم العذاب ينزل بهم، فتضمّن ذلك وعيدا بعذاب.

والأظهر أنّ المراد عذاب السيف النازل بهم يوم بدر، وممّن رآه أبو جهل سيد أهل الوادي، وزعيم القالة في ذلك النادي.
وأسلوب التهكّم للإعراض عن المحاجة بجعل ما ينكشف عنه المستقبل هو معرفة من هو أشدّ ضلالا من الفريقين على طريقة المجاراة وإرخاء العنان للمخطئ إلى أن يقف على خطئه.

{ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً } [43]

استئناف خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخطر بنفسه من الحزن على تكرّر إعراضهم عن دعوته إذ كان حريصا على هداهم والإلحاح في دعوتهم، فأعلمه بأنّ مثلهم لا يُرجى اهتداؤه لأنّهم جعلوا هواهم إلههم.
{ **اتَّخَذَ** } يتعدّى إلى مفعولين وهو من أفعال التصيير، فإنّ معناه صيّر شيئا إلى حالة غير ما كان عليه أو إلى صورة أخرى. والأصل فيه أنّ مفعوله الأوّل هو الذي أُدخل عليه التغيير إلى حال المفعول الثاني فلا يقدّم مفعوله الثاني على مفعوله الأوّل إلّا إذا لم يكن في الكلام لبس يلتبس فيه المعنى، فلا يدري أي المفعولين وقع تغييره إلى مدلول المفعول الآخر، أو كان المعنى الحاصل من التقديم مساويا للمعنى الحاصل من الترتيب في كونه مرادا للمتكلم.
{ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ }
إذا أجري على الترتيب كان معناه: جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته، أي: لمجرّد الشهوة لا لأنّ إلهه مستحق للإلهية. فإطلاق { إِلَهَهُ } على هذا الوجه إطلاق حقيقي. وهذا يناسب قوله قبله { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا } [42]، ومعناه منقول عن سعيد بن جبير. واختاره ابن عرفة في تفسيره.
وإذا أجري على اعتبار تقديم المفعول الثاني كان المعنى: من اتّخذ هواه قدوة له في أعماله لا يأتي عملا إلّا إذا كان وفاقا لشهوته، فكأنّ هواه إلهه. وعلى هذا يكون معنى { إِلَهَهُ } شبيها بإلهه في إطاعته على طريقة التشبيه البليغ. وهذا المعنى أشمل في الذمّ لأنّه يشمل عبادتهم الأصنام ويشمل غير ذلك من المنكرات والفواحش من أفعالهم. ونحا إليه ابن عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف وابن عطية.
وكلا المعنيين ينبغي أن يكون محملا للآية.
{ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً }
إن كانت متّصلة بالتي قبلها تعين فعل { أَرَأَيْتَ } لأن يكون فعلا قلبيا بمعنى العلم وكان الاستفهام الذي في الجملة الأولى إنكاريا كالذي هنا، وكان مجموع الجملتين كلاما على طريقة الإجمال ثم التفصيل. وتكون الفاء في قوله { أَفَأَنْتَ } فاء الجواب للموصول لمعاملته معاملة الشرط، وهمزة الاستفهام الثانية تأكيد

للاستفهام الأول، وتكون جملة { أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً } عوضا عن المفعول الثاني لفعل {أَرَأَيْتَ} ، والفعل معلّق عن العمل فيه بسبب الاستفهام، وعليه لا يوقف على قوله { هَوَاهُ } بل يوصل الكلام. وهذا النظم هو الذي مشى عليه كلام (الكشاف).

وإن كانت كل جملة من الجملتين مستقلّة عن الأخرى في نظم الكلام كان الاستفهام الذي في الجملة الأولى مستعملا في التعجيب من حال الذين اتخذوا إلههم هواهم تعجيبا مشوبا بالإنكار، وكانت الفاء في الجملة الثانية للتفريع على ذلك التعجيب والإنكار، وكان الاستفهام الثاني إنكاريا بمعنى: إنّك لا تستطيع قلعه عن ضلاله، كما أشار إليه قوله قبله { مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [42].

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [44]

انتقال عن التأييس من اهتدائهم، لغلبة الهوى على عقولهم، إلى التحذير من أن يُظنّ بهم إدراك الدلائل والحجج، وهذا توجيه ثان للإعراض عن مجادلتهم التي أنبأ عنها قوله تعالى { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [42].

{ **أَمْ** } منقطعة للإضراب الانتقالي من إنكار على إنكار وهي مؤذنة باستفهام.

{ **أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ** } نفي أثر السماع، وهو فهم الحقّ، لأنّ ما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرتاب فيه إلّا من هو كالذي لم يسمعه.

وعطف { أَوْ يَعْقِلُونَ } على { يَسْمَعُونَ } لنفي فهم الأدلّة السمعية والعقلية.

{ **أَكْثَرَهُمْ** } دون جميعهم، لأنّ هذا حال دهمائهم ومقلّديهم، وفيهم معشر عقلاء يفهمون ويستدلّون بالكائنات ولكنّهم غلب عليهم حبّ الرئاسة وأنفوا من ان يعودوا أتباعا للنبيّ صلى الله عليه وسلم ومساوين للمؤمنين من ضعفاء قريش وعبيدهم مثل عمار وبلال.

{ **إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، فكان تشبيههم بالأنعام تبيينا للجمع بين حصول اختراق أصوات الدعوى آذانهم مع عدم انتفاعهم بها.

{ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** } انتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشدّ من حال الأنعام بأنّهم أضلّ سبيلا منها.

ضلال السبيل: عدم الاهتداء للمقصود، لأنّ الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها، وهؤلاء لا يفقهون شيئا من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذا كقوله تعالى { فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } [البقرة:74].

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً [45] ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً [46] }.

استئناف ابتدائي فيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله. متصل بقوله { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً } [3]. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وقد جُعل مدّ الظل وقبضُه تمثيلا لحكمة التدريج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أنّ تنزيل القرآن منجّما جار على حكمة التدرّج لأنّه أمكن في حصول المقصود.

{ أَلَمْ تَرَ } الاستفهام تقريري فهو صالح لطبقات السامعين: من غافل يُسأل عن غفلته ليُقرَّ بها تحريضا على النظر، ومن جاحد يُنكَر عليه إهماله النظر، ومن موفّق يُحثُّ على زيادة النظر.

والرؤية بصرية، وقد ضُمّن الفعل معنى النظر فعدّي إلى المرئي بحرف (إلى).

{ كَيْفَ } مجرّدة عن الاستفهام وهي اسم دال على الكيفية فهي في محل بدل الاشتمال من { رَبِّكَ }، والتقدير: ألم تر إلى ربك إلى هيئة مده الظل. وقد تقدّم ذكر خروج (كيف) عن الاستفهام عند قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} [آل عمران:6]، فإنّه لا يخلو النهار من وجود الظل.

المدّ: بسط الشيء المنقبض المتداخل. يقال: مدّ الحبل ومدّ يده، ويطلق المدُّ على الزيادة في الشيء وهو استعارة شائعة، وهو هنا الزيادة في مقدار الظلّ.

{ الظِّلَّ } مقدار محدّد من الظلمة يحصل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع.

{ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً } أي: غير متزايد، لأنّه لمّا كان مدّ الظلّ يشبه صورة التحرّك أطلق على انتفاء الامتداد اسم السكون بأن يلازم مقدارا واحدا لا ينقص ولا يزيد، أي: لو شاء الله لجعل الأرض ثابتة في سمت واحد تجاه أشعة الشمس فلا يختلف مقدار ظلّ الأجسام التي على الأرض.

والجملة معترضة للتذكير بأنّ في الظل منّة.

{ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً } أي: أنّ الله مدّ الظل بأن جعل الشمس دليلا على مقادير امتداده.

والالتفات من الغيبة إلى التكلّم لأنّ ضمير المتكلّم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب فهو مشعر بأنّ هذا الجعل نعمة، وهي نعمة النور الذي به تمييز أحوال المرئيات، وعليه فالقول ارتقاء في المنّة.

الدليل: المرشد إلى الطريق والهادي إليه. فكما أنّ الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق، كذلك الشمس بتسبّبها في مقادير امتداد الظل تعرّف المستدلّ بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها.

{ **ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً** } عطف على جملة { مَدَّ الظِّلَّ } أو على جملة { **جَعَلْنَا** الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً }. { **ثُمَّ** } مثل الأولى مفيدة التراخي الرتبي، لأنّ مضمون هذه الجملة أهمّ في الاعتبار بمضمونها من مضمون السابقة، إذ في قبض الظلّ دلالة من دلالات الشمس هي عكس دلالتها على امتداده، فكانت أعجب إذ هي عملٌ ضدٌّ للعمل الأول، وصدور الضدّين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر.

القبض: ضدّ المدّ، فهو هنا استعارة للنقص. وتعديته بقوله { إِلَيْنَا } تخييل، شبّه الظلّ بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية.

{ **قَبْضاً يَسِيراً** } أريد أنّ هذا القبض يحصل ببطء دون طفرة. فأطلق اليسر وأريد به لازم معناه عرفا، وهو التدريج ببطء، على طريقة الكناية، ليكون صالحا لمعنى آخر سنتعرض إليه في آخر كلامنا.

وفي مدّ الظل وقبضه نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس وفوائد الفيء بحيث إنّ الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرّد بحلول الظل، والفريق الذي كان في الظلّ ينتفع بانقباضه.

هذا محل العبرة والمنة اللتين تتناولهما عقول الناس على اختلاف مداركهم. ووراء ذلك عبرة علمية كبرى توضّحها قواعد النظام الشمسي وحركة الأرض حول الشمس وظهور الظلمة والضياء.

ومن وراء ذلك إشارة إلى أصل المخلوقات كيف طرأ عليها الإيجاد بعد أن كانت عدما، وكيف يمتدّ وجودها في طور نمائها، ثم كيف تعود إلى العدم تدريجا في طور انحطاطها إلى أن تصير إلى العدم، فذلك ممّا يشير إليه { ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً }.

فيكون قد حصل من التذكير بأحوال الظل في هذه الآية مع المنّة والدلالة على نظام القدرة تقريب لحالة إيجاد الناس وأحوال الشباب وتقدّم السن، وأنّهم عقب ذلك صائرون إلى ربّهم يوم البعث مصيرا لا إحالة فيه ولا بعد، كما يزعمون، فلمّا صار قبض الظل مثلا لمصير النّاس إلى الله بالبعث وُصف القبض بيسير تلميحا إلى قوله { ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ } [ق: 44].

وفي هذا التمثيل إشارة إلى أنّ الحياة في الدنيا كظل يمتد وينقبض وما هو إلّا ظلّ.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [47]

مناسبة الانتقال من الاستدلال باعتبار أحوال الظلّ إلى الاعتبار بأحوال الليل والنهار ظاهرة فالليل يشبه الظلّ في أنده ظلمة تعقب نور الشمس.

{ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ** } قصر إفراد، أي لا يشاركه غيره في جعل الليل والنهار. فهم يقرّون به، ولكنّهم لمّا جعلوا له شركاء على الإجمال أُبطلت شركتهم بقصر التصرف في الأزمان على الله تعالى.

وقد رجع أسلوب الكلام من المتكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

{ **لِبَاساً** } مشبّه به على طريقة التشبيه البليغ، أي: ساترا لكم يستر بعضكم عن بعض، وفي هذا الستر منن كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها.

وتقديم الاعتبار بحالة ستر الليل على الاعتبار بحالة النوم لرعي مناسبة الليل بالظلّ كما تقدّم، بخلاف قوله { وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً } [النبأ:8-10]، فإنّ نعمة النوم أهمّ من نعمة الستر، ولأنّ المناسبة بين نعمة خلق الأزواج وبين النوم أشدّ.

<u>وقد جمعت الآية استدلالا وامتنانا</u> فهي دليل على عظم قدرة الخالق، وهي أيضا تذكير بنعمه، فإنّ في اختلاف الليل والنهار آيات جمّة لما يدلّ عليه حصول الظلمة من دقّة نظام دوران الأرض حول الشمس ومن دقّة نظام خلق الشمس، ولما يتوقّف عليه وجود النهار من تغيّر دوران الأرض ومن فوائد نور الشمس، ثم ما في خلال ذلك من نظام النوم المناسب للظلمة حين ترتخي أعصاب الناس فيحصل لهم بالنوم تجدّد نشاطهم، ومن الاستعانة على التستّر بظلمة الليل، ومن نظام النهار من تجدّد النشاط وانبعاث الناس للعمل وسآمتهم من الدعة، مع ما هو ملائم لذلك من النور الذي به إبصار ما يقصده العاملون.

السبات: له معان متعدّدة في اللغة ناشئة عن التوسّع في مادة (السبت) الذي هو **القطع**.

وأنسب المعاني بمقام الامتنان هو معنى **الراحة** وإن كان في كلا المعنيين اعتبار بدقيق صنع الله تعالى.

وفسّر الزمخشري السبات **بالنوم** على طريقة التشبيه البليغ.

{ **وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً** } إعادة فعل { جَعَلَ } دون أن يعاد في قوله { وَالنَّوْمَ سُبَاتاً } مشعرة بأنّه تنبيه إلى أنّه جعْل مخالف لجعل الليل لباسا.

النشور: الحياة بعد الموت، وتقدّم قريبا عند قوله تعالى { بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً } [40].

<u>يحتمل أن يكون مرادا به البروز</u> والانتشار فيكون ضدّ اللباس في قوله { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً } فيكون الإخبار به عن النهار حقيقيا، والمنّة في أنّ النهار ينتشر فيه الناس لحوائجهم واكتسابهم.

<u>ويحتمل أن يكون مرادا به بعث الأجساد</u> بعد موتها فيكون الإخبار على طريقة التشبيه البليغ. وفي هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أصبح " **الحمد لله الذي أحيانا بعد إذ أماتنا وإليه النشور** ".

{ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً [48] لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا [49] وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً [50] }.

استدلال على الانفراد بالخلق وامتنان بتكوين الرياح والأسحبة والمطر. ومناسبة الانتقال من حيث ما في الاستدلال الذي قبله من ذكر حال النشور والامتنان به. ومردود الاستدلال قصر إرسال الرياح وما عطف عليه على الله تعالى إبطالًا لادعاء الشركاء له في الإلهية.

{ **أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** } أطلق على تكوين الرياح فعل { **أَرْسَلَ** } الذي هو حقيقته في بعث شيء وتوجيهه، لأنّ حركة الرياح تشبه السير. وقد شاع استعمال الإرسال في إطلاق العنان لخيل السباق. وهذا استدلال بدقيق خلق الله في تكوين الرياح، فالعامة يعتبرون بما هو داخل تحت مشاهدتهم من ذلك، والخاصة يدركون كيفية حدوث الرياح وهبوبها واختلافها. ثم إنّ الرياح بهبوبها حارة مرة وباردة أخرى تكوّن الأسحبة وتؤذن بالمطر.

قرأ الجمهور { أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } بصيغة الجمع، وقرأ ابن كثير { الرِّيحُ } بصيغة الإفراد على معنى الجنس. والقراءتان متّحدتان في المعنى.

{ **بُشْراً** } تقدّم الكلام حول اختلاف القرّاء حولها عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [الأعراف:57].

والالتفات من الغيبة إلى المتكلّم في قوله { وَأَنْزَلْنَا - لِنُحْيِيَ - وَنُسْقِيَهُ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ } للامتنان.

{ **رَحْمَتِهِ** } المطر، لأنّه رحمة للناس والحيوان بما ينبته من الشجر والمرعى.

{ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً** } عطف على جملة { أَرْسَلَ الرِّيَاحَ }، فهي داخلة في حيّز القصر، أي: وهو الذي أنزل من السماء ماء طهور. وتقدّم معنى إنزال الماء من السماء عند قوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ } [البقرة:19].

الطَهور: (بفتح الطاء) من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال: رجل صبور. والمعنى: أنّ الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه. ووصف الماء بالطهور يقتضي أنّه مُطهّر لغيره. فيكون ذكر هذا الوصف إدماجا لمنّة في أثناء المنن المقصودة، كقوله { وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ } [الأنفال:11]

البلدة: الأرض. ووصفها بالحياة والموت مجازان للريّ والجفاف، لأنّ ريّ الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي، وجفاف الأرض يجفّ به النبات فيشبه الميّت.

ولماء المطر خاصيّة الإحياء لكلّ أرض لأنّه لخلوّه من الجراثيم ومن بعض الأجزاء المعدنية والترابية التي تشتمل عليها مياه العيون ومياه الأنهار والأودية كان صالحا بكلّ أرض وبكلّ نبات.

{ **بَلْدَةً مَيْتاً** } والبلد يذكّر ويؤنّث مثل كثير من أسماء أجناس البقاع كما قالوا: دار ودارة. ووصفت البلدة بميت، وهو وصف مذكر لتأويل { بَلْدَةً } بمعنى مكان، لقصد التخفيف.

{ **لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** } إيماء إلى تقريب إمكان البعث.

{ **وَنُسْقِيَهُ** } بضم النون مضارع (أسقى) مثل الذي بفتح النون فقيل هما لغتان يقال: أسقى وسقى. قال تعالى { قَالَتَا لا نَسْقِي } [القصص:23].

وقيل: سقى: أعطى الشراب، وأسقى: هيّأ الماء للشرب. وهذا القول أسدّ لأنّ الفروق بين معاني الألفاظ من محاسن اللغة فيكون المعنى: هيأناه لشرب الأنعام والأناسي.

{ **مِمَّا خَلَقْنَا** } حال من { أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ }، و(من) تبعيضية، و(ما) موصولة، أي: بعض ما خلقناه، والموصول للإيماء إلى علّة الخبر، أيّ نسقيهم لأنّهم مخلوقات. إشارة إلى رحمة الله بها لأنّها خلقه.

الأناسيّ: جمع إنسي، وهو مرادف إنسان. فالياء فيه ليست للنسب. وجمع على (فعالي) مثل كرسي وكراسي.

{ **وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا** } لأنّ بعض الأناسي لا يشربون من ماء السماء وهم الذين يشربون من مياه الأنهار كالنيل والفرات، والآبار والصهاريج، ولذلك وصف العرب بأنّهم (بنو ماء السماء). فالمنّة أخصّ بهم.

قال أبو هريرة، في ذكر هاجر زوج إبراهيم عليه السلام: " فتلك أمّكم يا بني ماء السماء "، يعني العرب.

وتقديم ذكر الأنعام على الأناسي اقتضاه نسج الكلام على طريقة الأحكام في تعقيبه بقوله { وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا } ، ولو قدّم ذكر { أناسيَّ } لتفكك النظم. ولم يقدّم ذكر الناس في قوله تعالى { مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [النازعات:33] لانتفاء الداعي للتقديم فجاء على أصل الترتيب.

{ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً** } توكيد الجملة بـ (لام القسم) و(قد) لتحقيق التعليل، لأنّ تصريف المطر محقّق لا يحتاج إلى التأكيد وإنّما الشيء الذي لم يكن لهم علم به هو أنّ من حكمة تصريفه بين الناس أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم مع نزوله عليهم وفي حالة إمساكه عنهم، فيعلموا أنّ الله هو الربّ الواحد المختار في خلق الأسباب والمسببات. وقد كانوا لا يتدبرون حكمة الخالق ويسندون الآثار إلى مؤثرات وهمية أو صورية.

التصريف: التغيير. والمراد هنا تغيير أحوال الماء، أي: مقاديره ومواقعه.

{ **لِيَذَّكَّرُوا** } ولمّا كن التذكّر شاملا لشكر المنعم عليهم بإصابة المطر ولتفطّن المحرومين إلى سبب حرمانهم إيّاه لعلهم يستغفرون، جيء في التعليل بهذا الفعل ليكون علّة لحالتي التصريف بينهم.

{ **فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً** } تركيب جرى بمادته وهيئته مجرى المثل في الإخبار عن تصميمي المخبر عنه على ما بعد حرف الاستثناء { كُفُوراً }، أي: فصمّموا على اختيار الكفور، وإن لم يكن هنالك عرض ولا إباء. ومنه قوله تعالى في سورة براءة { وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ } [براءة:32].

الكفور: مصدر بمعنى الكفر. وتقدّم نظير في [الإسراء:27]، أي: أبوا إلّا الإشراك بالله وعدم التذكّر.

{ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً [51] فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً [52] }.

جملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرّد الله بالخلق وذكر منّته على الخلق.

متّصلة بقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32]، فبعد أن بيّن إبطال طعنهم فقال { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } [32] انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيه موسى عليه السلام وكيف استأصل الله من كذّبوه، ثم استطرد بذكر أمم كذبوا رسلهم، ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأشار إلى تحرّج النبيّ صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن دعوته بقوله {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً } [43]. وتسلسل الكلام بضرب المثل بمدّ الظل وقبضه، وبحال الليل والنهار، وبإرسال الرياح، حتّى انتهى إلى هذه الآية { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً }.

ويؤيّد ما ذكرنا اشتمال التفريع على ضمير القرآن في قوله { وَجَاهِدْهُمْ بِهِ }.

{ **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ** } تفريع على جملة { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً } لأنّها تتضمّن أنّه مرسل إلى المشركين من أهل مكة وهم يطلبون منه الكفّ عن دعوتهم وعن تنقُّص أصنامهم.

والنهي مستعمل في التحذير والتذكير، وفعل { تُطِعِ } في سياق النهي يفيد عموم التحذير من أدنى طاعة.

الطاعة: عمل المرء بما يُطلب منه، أي: فلا تَهِن في الدعوة رعيا لرغبتهم أن تلين لهم.

{ **وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً** } بعد أن حذّره من الوهن في الدعوة أمره بالحرص والمبالغة فيها. وعبّر عن ذلك بالجهاد، وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة. وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده فلا يهن ولا يضعف ولذلك وصف بـ { كَبِيراً }، أي: الجامع لكل مجاهدة.

{ **بِهِ** } عائد إلى غير مذكور: فإمّا أن يعود إلى **القرآن**، لأنه مفهوم من مقام النذارة، وإما أن يعود إلى المفهوم من { لا تُطِعِ } وهو **الثبات على دعوته**، بأن يعصيهم، فإنّ النهي عن الشيء أمر بضده.

{ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً } [53]

عود إلى الاستدلال على تفرّده تعالى بالخلق. جمعت هذه الآية استدلالا وتمثيلا وتثبيتا ووعدا؛

فصريحها استدلال على شيء عظيم من آثار القدرة الإلهية، وهو التقاء الأنهار والأبحر كما سيأتي.

وفي ضمنها تمثيل لحال دعوة الإسلام في مكة يومئذ واختلاط المؤمنين مع المشركين بحال تجاور البحرين: أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج. وتمثيل الإيمان بالعذب الفرات والشرك بالملح الأجاج، وأن الله تعالى كما جعل بين البحرين برزخا يحفظ العذب من أن يكدره الأجاج، وكذلك حجز بين المسلمين والمشركين فلا يستطيع المشركون أن يدسّوا كفرهم بين المسلمين.

وفي هذا تثبيت للمسلمين بأنّ الله يحجز عنهم ضرّ المشركين.

والوعد من خلال التعريض الكنائي بأنّ الله ناصر لهذا الدين.

ولأجل ما فيها من التمثيل والتثبيت والوعد كان لموقعها عقب جملة { فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } [52] أكمل حُسْن. وهي معطوفة على جملة { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [48] ومناسبة وقوعها عقب التي قبلها أنّ كلتيهما استدلال بآثار القدرة في تكوين المياه المختلفة.

ومفاد القصر هنا نظير ما تقدّم في الآيتين السابقتين، إبطال لادعاء الشركاء له في الإلهية.

المَرَج: الخلط. واستعير هنا لشدّة المجاورة، والقرينة قوله { وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً }.

البحر: الماء المستبحر، أي: الكثير العظيم.

العذاب: الحلو. و**الفرات**: شديد الحلاوة.

المِلح: (بكسر الميم) وصف للماء بمعنى المالح، ولا يقال في الفصيح إلّا ملح وأمّا مالح فقليل.

وأريد هنا ملتقى ماء نهري الفرات والدجلة مع ماء بحر خليج العجم.

البرزخ: الحائل بين شيئين. والمراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح ممّا يدفع تخلل الماء العذب فيه بحيث لا يخلط أحدهما بالآخر ويبقى كلاهما حافظا لطعمه عند المصب.

{ **حِجْراً** } مصدر منصوب على المفعولية به لأنّه معطوف على مفعول { جَعَلَ }. وليس هنا مستعملا في التعوّذ كالذي تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً } [22] .

{ **مَحْجُوراً** } وصف لـ { حِجْراً } مشتق من مادته للدلالة على تمكّن المعنى المشتق منه كما قالوا: ليل أليل.

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً } [54]

استدلال بدقيق آثار القدرة في تكوين المياه وجعلها سبب حياة مختلفة الأشكال والأوضاع. ومن أعظمها دقائق الماء الذي خُلق منه أشرف الأنواع التي على الأرض وهو نطفة الإنسان، بأنّها سبب تكوين النسل للبشر، فإنّه يكون أوّل أمره ماء ثم يتخلّق منه البشر العظيم، فالتنوين في قوله { بَشَراً } للتعظيم.

والقصر المستفاد من تعريف الجزئين قصر إفراد لإبطال دعوى شركة الأصنام لله في الإلهية.

البشر: الإنسان. وقد تقدّم في قوله تعالى { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً } [مريم:17].

{ **فَجَعَلَهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى البشر، أي: فجعل البشر الذي خلقه من الماء نسبا وصهرا.

{ **نَسَباً وَصِهْراً** } مصدران سمي بهما صنفان من القرابة على تقدير: ذا نسب وصهر، وشاع ذلك في الكلام.

النسب: لا يخلو من أبوَّة وبنوَّة وأخوّة لأولئك، وبنوَّة لتلك الأخوَّة.

الصهر: اسم لما بين المرء وبين قرابة زوجه وأقاربه من العلاقة، ويسمَّى أيضا **مصاهرة**، لأنّه يكون من وجتهين، وهو آصرة اعتبارية تتقوّم بالإضافة إلى ما تضاف إليه، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها. والأكثر أن يُخصّ بقريب زوج الرجل، وأمّا قريب زوج المرأة فهو خَتَن لها أو حَمٌ.

وذلك أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب وتعاونهم ممّا جاء بهذه الحضارة المرتقية.

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } [الحجرات:13].

{ **وكان ربك قديرا** } إشارة إلى ما في هذا الخلق العجيب من دقائق نظام إيجادٍ طبيعي واجتماعي، أي: عظيم القدرة إذ أوجد من هذا الماء خلقا عظيما صاحب عقل وتفكير.

وفي التركيب من دقيق الإيذان بأنّ قدرته راسخة واجبة له، متّصف بها في الأزل بما اقتضاه فعل { كَانَ }، وما في صيغة { قَدِير } من الدلالة على قوّة القدرة المقتضية تمام الإرادة والعلم.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً } [55]

عَوْدٌ إلى حكاية شيء من أحوال مشركي مكّة، و(الواو) للحال. وهذا مستعمل في التعجيب من استمرارهم في الشرك بمناسبة ما وقع ذكره في الآيات السابقة من إلطافه بهم في تصاريف الكائنات إذ جعل لهم الليل والنهار، وخلق لهم الماء فأنبت به الزرع وسقى به الناس والأنعام، مع ما قارنه من دلائل القدرة.

{ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } المضارع للدلالة على تجدّد عبادتهم الأصنام وعدم إجداء الدلائل في جانبهم.

{ **مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ** } للتنبيه على انتفاء شبهة عبدة الأصنام في شركهم، لأنّ موجب العبادة إمّا رجاء النفع وإمّا اتّقاء ضرّ المعبود، وكلاهما منتف عن الأصنام بالمشاهدة.

{ **وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً** } تذييل لما قبله، فاللام في تعريف { الْكَافِرُ } للاستغراق.

{ **كَانَ** } للدلالة على أنّ اتصاف الكافر بالخبر أمر متقرّر معتاد من كلّ كافر.

الظهير: المظاهر، أي المعين، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء:88]، وهو فعيل بمعنى مفاعل، أي مظاهر، وعوين بمعنى معاون. جُعل المشرك في إشراكه، مع وضوح دلالة عدم استئهال الأصنام للإلهية، كأنّه ينصر الأصنام على ربّه الحقّ.

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً [56] قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً [57] }.

لمّا أفضى الكلام بأفانين انتقالاته إلى التعجيب من استمرارهم على أن يعبدوا ما لا يضرّهم ولا ينفعهم أُعقِب بما يومئ إلى استمرارهم على تكذيبهم محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بنسبة ما بلَّغه إليهم إلى الإفك، وأنّه أساطير الأولين، وأنّه سحر، فأُبطلت دعاويهم كلّها بوصف النبيّ بأنّه مرسل من الله، وقصره على صفتي التبشير والنذارة. والكلام جامع بين إبطال إنكارهم لرسالته وبين تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام. وفيه تعريض بأن لا يحزن لتكذيبهم إيّاه.

ثم أمره بأن يخاطبهم بأنّه غير طامع من دعوتهم في أن يعتزّ باتباعهم إيّاه حتّى يحسبوا أنّهم إن أعرضوا عنه فقد بلغوا من النكاية به أملهم، بل ما عليه إلّا التبليغ بالتبشير والنذارة لفائدتهم لا يريد منهم الجزاء.

الأجر: العوض على العمل ولو بعمل آخر يقصد به الجزاء.

{ **إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا** } الاستثناء تأكيد لنفي أن يكون يسألهم أجرا لأنّه استثناء من أحوال عامة محذوف ما يدل عليها لقصد التعميم. فالكلام على حذف مضاف يناسب { أَجْرٍ }، إذ التقدير: إلّا عمل من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا، وذلك هو اتباع دين الإسلام. وقد يسمُّون هذا الاستثناء الاستثناء المنقطع، ويقدّرونه كالاستدراك.

السبيل: الطريق. واتخاذ السبيل تقدّم آنفا في قوله { لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا } [27]. وجُعل السبيل هنا إلى الله، لأنه وسيلة إلى إجابته فيما دعاهم إليه، كقوله تعلى { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً } [النبأ:39].

{ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً** } [58]

عطف على جملة { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } [57]، أي: قل لهم ذلك وتوكّل على الله في دعوتك إلى الدين فهو الذي يجازيك على ذلك ويجازيهم.

التوكّل: الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكَّل عليه، وهو الوكيل، أيّ المتولّي مَهمّات غيره، وتقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ } [آل عمران:159].

{ **الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** } هو الله تعالى. وعدل عن اسم الجلالة إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكّل عليه، لأنّه الدائم فيفيد ذلك معنى حصر التوكّل عليه.

{ **الْحَيِّ** } التعريف للكامل، أي: الكامل حياته لأنّها واجبة باقية مستمرّة وحياة غيره معرضة للزوال بالموت ومعرّضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه، فإنّه من جنس الموت.

وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم بالأصنام، وهي أموات غير أحياء.

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ** } أمره بتنزيه الله عمّا لا يليق به، وأوّل ذلك الشركة في الإلهية، أي: إذا أهمّك أمر إعراض المشركين عن دعوة الإسلام فعليك نفسك فنزّه الله.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للمصاحبة، أي: سبّحه تسبيحا مصاحبا للثناء عليه بما هو أهله.

جمع له في هذا الأمر التخلية والتحلية مقدّما التخلية، لأنّ شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص. وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم يشمل الأمّة ما لم يرد دليل على الخصوصيّة.

{ **وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً** } اعتراض في آخر الكلام، فيفيد معنى التذييل لما فيه من الدلالة على عموم علمه تعالى بذنوب الخلق، ومن ذلك أحوال المشركين الذين هم غرض الكلام.

الكفاية: الإجزاء، وفي فعل { وَكَفَى } إفادة أنّه لا يحتاج إلى غيره، وهو مستعمل في الأمر بالاكتفاء بتفويض الأمر إليه.

{ **بِهِ** } الباء لتأكيد إسناد الفعل إلى الفاعل. وقد كثر دخول باء التأكيد بعد فعل الكفاية على فاعله أو مفعوله، وتقدّم في قوله تعالى { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء:14].

{ **بِذُنُوبِ عِبَادِهِ** } عمومان؛ عمومُ ذنوبهم كلّها، لإفادة الجمع المضاف عمومَ أفراد المضاف، وعمومُ الناس لإضافة (عباد) إلى ضمير الجلالة، أي: جميع عباده.

{ **خَبِيراً** } شدّة العلم، وهو يستلزم العموم فكان كعموم ثالث. والعلم بالذنوب كناية عن لازمه وهو أن يجازيهم عن ذنوبهم، والشرك جامع الذنوب. وفي الكلام تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه.

{ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً } [59]

أجريت هذه الصلة وصفا ثانيا لـ { الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ } [58] لاقتضائها سعة العلم وسعة القدرة وعظيم المجد، فصاحبها حقيق بأن يُتوكّل عليه ويُفوّض أمر الجزاء إليه. وهذا تخلّص إلى العود إلى الاستدلال على تصرّف الله تعالى بالخلق.

{ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } تقدم الكلام حولها في [البقرة:29]، وفي [الأعراف:54].

{ الرَّحْمانِ } خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الرحمان. وهذا من حذف المسند إليه الغالب في الاستعمال عندما تتقدّم أخبار أو أوصاف لصاحبها، ثم يراد الإخبار عنه بما هو إفصاح عن وصف جامع لما مضى أو أهم في الغرض ممّا تقدّمه، فإنّ وصف الرحمان أهمّ في الغرض المسوق له الكلام.

{ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً } تفريع للدلالة على أنّ في رحمته من العظمة والشمول ما لا يحيط به الوصف فيُسأل عنها من علمها وجرّبها.

{ خَبِيراً } التنكير للدلالة على العموم، لأنّ النكرة إذا تعلّق بها فعل اقتضت عموما.

وهذا يجري مجرى المثل، ولعله من مبتكرات القرآن نظير قول العرب (على الخبير سقطت).

ويجوز أن تكون الباء متعلقة بـ { خَبِيراً } وتقديم المجرور للرعي على الفاصلة وللاهتمام، فله سببان.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ <u>اسْجُدُوا</u> لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً } [60]

لمّا جرى وصف الله تعالى بالرحمان مع صفات أخر استطرد ذكر كفر المشركين بهذا الوصف. وقد علمتَ عند الكلام على البسملة في أوّل هذا التفسير أنّ وصف الله تعالى باسم (الرحمان) هو من وضع القرآن ولم يكن معهودا للعرب، ولذلك لمّا سمعوه من القرآن أنكروه قصدا بالتورُّك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وليس ذلك عن جهل بمدلول هذا الوصف.

والخبر مستعمل كناية في التعجيب من عنادهم وبهتانهم، وليس المقصود إفادة الإخبار عنهم بذلك لأنّه أمر معلوم من شأنهم.

{ اسْجُدُوا } والسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادتهم وإنّما كانوا يطوفون بالأصنام، وأمّا سجود الصلاة التي هي من قواعد الإسلام فليس مرادا هنا إذ لم يكونوا ممن يؤمر بالصلاة ولا فائدة في تكليفهم بها قبل أن يسلموا. ويدلّ لذلك حديث معاذ بن جبل حين أرسله النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فأمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول

الله، ثم قال: **" فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ..."**.
ومسألة تكليف الكفار بفروع الشريعة لا طائل تحتها.
{ **قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ** } استفهام مستعمل في الاستغراب، يعنون تجاهل هذا الاسم.
{ **أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا** } إنكار وامتناع، أي لا نسجد لشيء تأمرنا بالسجود له. ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله، لأنّ السجود الذي أمروا به سجود لله بنية افراد الله بالعبادة والتوجّه، وهم لا يجيبون إلى ذلك كما قال الله تعالى { وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [القلم:43]، أي: فيأبون.
{ **وَزَادَهُمْ نُفُوراً** } فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمان.
النفور: الفرار من الشيء. وأطلق هنا على لازمه وهو البعد. وإسناد زيادة النفور إلى القول { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ } لأنّه سبب تلك الزيادة، فهم كانوا أصحاب نفور من سجود لله فلمّا أمروا بالسجود للرحمان زادوا بعدا من الإيمان، وهذا كقوله تعالى { فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً } [نوح:6].
والآية موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق. ووجه السجود هنا إظهار مخالفة المشركين إذ أبوا السجود للرحمان، فلمّا حُكي إباؤهم من السجود للرحمان في معرض التعجيب من شأنهم عُزّز ذلك بالعمل بخلافهم فسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم هنا.

{ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً } [61]

استئناف ابتدائي جعل تمهيدا لقوله { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ }، التي هي محصول الدعامة الثالثة من الدعائم الثلاث التي أقيم عليها بناء هذه السورة، وافتتحت كل دعامة منها بـ { تَبَارَكَ الَّذِي }، كما تقدّم في صدر السورة.
{ **تَبَارَكَ** } ثناء على الله بالبركة والخير لما جعله للخلق من المنافع. وتقدّم المعنى في أوّل السورة وفي قوله تعالى { تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف:54].
البروج: منازل مرور الشمس فيما يرى الراصدون. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي** السَّمَاءِ بُرُوجاً } [الحجر:16]. والامتنان بها لأنّ الناس يوقّتون بها أزمانهم.
{ **سِرَاجاً** } قرأ الجمهور بصيغة المفرد. و**السراج**: الشمس كقوله { وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً } [نوح:16].
ومناسبة ذلك لما يرد بعده من قوله { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً } [62].
وقرأ حمزة والكسائي { **سُرُجاً** } - بضم السين والراء - جمع سراج، فيشمل مع الشمس النجوم، فيكون امتنانا بحسن منظرها للناس كقوله { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ } [الملك:5].
والكلام جار على التشبيه البليغ لأنّ حقيقة السراج: المصباح زاهر الضياء. والمقصود: أنّه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج، أو خلق النجوم كالسراج في التلألؤ وحسن المنظر.

ودلالة خلق البروج والشمس والقمر على عظيم القدرة دلالة بيّنة للعاقل، وكذلك دلالته على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختلّ ولا يختلف حتّى تسنّى للناس رصد أحوالها وإناطة حسابهم بها.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } [62]

استدلال بما في الليل والنهار من اختلاف الحال بين ظلمة ونور، وبرد وحر، وهذا مخالف للاستدلال الذي في قوله { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [47]، فهذه دلالة أخرى.

{ وَهُوَ الَّذِي } قصر حقيقي وليس إضافيا، فلذلك لا يراد به الردّ على المشركين بخلاف صيغ القصر السابقة من قوله { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً - إلى قوله - وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً } [45-47].

الخِلْفة: (بكسر الخاء وسكون اللام) اسم لما يَخْلف غيره في بعض ما يصلح له.

فالمعنى: جعل الليل خلفة والنهار خلفة: أي: كلّ واحد منهما خلفة عن الآخر.

{ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ } اللام لام التعليل وهي متعلّقة بـ { جَعَلَ } ، فأفاد ذلك أن هذا الجعل نافع من أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا.

التذكّر: تفعُّل من الذِّكر، أي: تكلّف الذكر. والذكر جاء في القرآن بمعنى التأمّل في أدلة الدين، وجاء بمعنى: تذكر فائت أو منسي، ويجمع المعنيين: استظهار ما احتجب عن الفكر.

الشُكور: (بضم الشين) مصدر مرادف الشكر، والشكر: عرفان إحسان المحسن. والمراد به هنا العبادة لأنّها شكر لله تعالى.

<u>فتفيد الآية معنى</u>: لينظر في اختلافهما المتفكّر فيعلم أن لابد لانتقالهما من حال إلى حال مؤثّر حكيم فيستدلّ بذلك على توحيد الخالق ويعلم أنّه عظيم القدرة فيوقن بأنّه لا يستحق غيره الإلهية، وليشكر الشاكر على ما في اختلاف الليل والنهار من نعم عظيمة منها ما ذكر في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [47]، فيكثر الشاكرون على اختلاف أحوالهم ومناسباتهم.

<u>وتفيد معنى</u>: ليتدارك الناسي ما فاته في الليل بسبب غلبة النوم أو التعب فيقضيه في النهار أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار فيقضيه بالليل عند التفرّغ فلا يرزؤه [يحرمه] ذلك ثواب أعماله. روي أنّ عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى يوما فقيل له: صنعت شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال: إنّه بقي عليَّ من وردي شيء فأحببت أن أقضيه، وتلا قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً }.

<u>وتفيد معنى</u>: لمن أراد أن يتقرّب إلى الله شكرا له بصلاة أو صيام فيكون الليل أسعد ببعض ذلك والنهار أسعد ببعض. فهذا مفاد عظيم في إيجاز بديع.

{ أَنْ يَذَّكَّرَ } المضارع للدلالة على التجدّد.

{ **شُكُوراً** } اقتصر في جانب الشاكرين على المصدر لأنّ الشكر يحصل دفعة.
{ **لِمَنْ أَرَادَ - أَوْ أَرَادَ** } أعيد الفعل لأجل الاختلاف بين النظمين، إذ لا يلتئم عطف {شُكُوراً} على {أَنْ يَذَّكَّرَ}.

{ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً } [63]

بمناسبة ذكر { لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } تخلّص إلى خصال المؤمنين أتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن، ومن جاء به، ومن اتبعوه، كما أشرنا إليه في الإلمام بأهم أغراضها في طالعة تفسيرها. وهذا من أبدع التخلّص.
{ **عِبَادُ الرَّحْمَنِ** } المراد بادئ ذي بدء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالصلات الثمان التي وصفوا بها في هذه الآية حكاية لأوصافهم التي اختصّوا بها. وقد شرّفهم الله بأن جعل عنوانهم عباده، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم الرحمان لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم { اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [60].
وإذ قد أجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنّة، عُلم أنّ من اتّصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاء.
وفي الإطناب بصفاتهم الطيّبة تعريض بأنّ الذين أبوا السجود للرحمان، وزادهم نفورا، هم على الضدّ من تلك المحامد، تعريضًا تُشعر به إضافة { عِبَادُ } إلى { الرَّحْمَنِ }.
واعلم أنّ هذه **الصلات** التي أجريت على { عِبَادُ الرَّحْمَنِ } جاءت على أربعة أقسام:
*/ <u>قسم هو من التحلّي بالكمالات الدينية</u>: وهي التي ابتدئ بها من قوله تعالى { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً - إلى قوله – سَلاماً } [63].
*/ <u>قسم هو من التخلّي عن ضلالات أهل الشرك</u>: وهو من قوله { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } [68].
*/ <u>قسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام</u>: وهو قوله { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } [64]، وقوله {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا} [67]، وقوله { وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ - إلى قوله - لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [68 - 72].
*/ <u>قسم من تطلّب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة</u>: وهو قوله { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا - إلى قوله - لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [74].
{ **يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً** } الظاهر أنّه مدح لمشية بالأرجل، وهو الذي حمل عليه جمهور المفسّرين.
وجوّز الزجاج أن يكون قوله { يَمْشُونَ } عبارة عن تصرّفاتهم في معاشرة الناس، فعبّر عن ذلك بالانتقال في الأرض وتبعه ابن عطية وهذا الذي ذكره مأخوذ ممّا روي عن زيد بن أسلم كما سيأتي.
الهون: اللين والرفق. ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره: (مشياً).

المشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال، فهو مخالف لمشي المتجبّرين المعجبين بنفوسهم وقوّتهم. وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله تعالى والتخلّق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية، فكانت هذه المشية من خِلال الذين آمنوا.

عن عمر بن الخطاب أنه رأى غلاما يتبختر في مِشيته فقال له " إنّ البَخْتَرة مِشية تُكره إلّا في سبيل الله ".

وحكى الله تعالى عن لقمان قوله لابنه { وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً } [لقمان:18].

والتخلّق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلّق بالرحمة المناسب لعباد الرحمان.

وعن زيد بن أسلم قال: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً } فما وجدت في ذلك شفاء فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: " هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض ".

فهذا رأي لزيد بن أسلم أُلْهِمه يجعل معنى { يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ } مستعار لفعل الخير، لأنّه هون على الناس، كما يسمّى بالمعروف.

{ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً } وقُرن وصفهم بالتواضع في سمتهم (المشي على الأرض هونا) بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول، وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون، إذ كانوا يتعرّضون للمسلمين بالأذى والشتم فعلّمهم الله متاركتهم.

{ الْجَاهِلُونَ } الجهل هنا ضدّ الحلم، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام. وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها، مما هو أشدّ مذمة مثل الكافرين، لأنّ هذا الوصف يُشعر بأنّ الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة.

{ قَالُوا سَلاماً } والسلام يجوز أن يكون مصدرا بمعنى السلامة، أي: لا خير بيننا ولا شر فنحن مُسْلَمون منكم. ويجوز أن يكون مرادا به لفظ التحيّة، فيكون مستعملا في لازمه وهو **المتاركة**.

{ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } [64]

عطف صفة أخرى على صفتيهم السابقتين. وإعادة الموصول لتأكيد أنّهم يُعرفون بهذه الصلة، والظاهر أنّ هذه الموصولات وصلاتها كلّها أخبار أو أوصاف لعباد الرحمان.

روي عن الحسن البصري أنّه كان إذا قرأ { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً } قال: هذا وصف نهارهم، ثمّ إذا قرأ { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } قال: هذا وصف ليلهم.

القيام: جمع قائم كالصِحاب، والسجود والقيام رُكنا الصلاة. فالمعنى: يبتون يصلّون، فوقع إطناب في التعبير عن الصلاة بركنيها تنويها بكليهما.

وتقديم { سُجَّداً } على { قِيَاماً } للرعي على الفاصلة، مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود، وهو ما يبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله: " **أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد** ". وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيري التهجّد، كما أثنى الله عليهم بذلك بقوله { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } [السجدة:16].

{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً [65] إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً [66] }.

دعاؤهم هذا أمارة على شدّة مخافتهم الذنوب فهم يسعون في مرضاة ربّهم لينجوا من العذاب.

{ **اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ** } المراد: إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح وتوفيره واجتناب السيّئات.

{ **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً** } يجوز أن تكون حكاية من كلام القائلين. ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى معترضة بين اسمي الموصول، وعلى كلّ فهي تعليل لسؤال صرف عذابها عنهم.

الغرام: الهلاك المُلِحّ الدائم، وغلب إطلاقه على الشرّ المستمر.

{ **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً** } يجوز أن تكون حكاية لكلام القائلين فتكون تعليلا ثانيا مؤكّدا لتعليلهم الأول، ويجوز أن تكون من جانب الله تعالى دون التي قبلها فتكون تأييدا لتعليل القائلين، ويجوز أن تكون من كلام الله مع التي قبلها فتكون تكريرا للاعتراض.

المستقرّ: مكان الاستقرار. والاستقرار: قوّة القرار. **المقام**: اسم مكان الإقامة.

أي: ساءت موضعا لمن يستقرّ فيها بدون إقامة مثل عصاة أهل الأديان، ولمن يقيم فيها من المكذّبين للرسل.

{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [67]

{ **إِذَا أَنْفَقُوا** } أفاد أنّ الإنفاق من خصالهم. وأريد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه، لأنّ الإنفاق الواجب لا يذمّ الإسراف فيه، والإنفاق الحرام لا يحمد مطلقا.

الإسراف: تجاوز الحدّ الذي يقتضيه الإنفاق بحسب حال المنفق وحال المنفق عليه. وتقدّم في قوله { وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً } [النساء:6]، وقوله { وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } [الأنعام:141].

الإقتار - القَتْر: عكس الإسراف. الإحجاف والنقص ممّا تسعه الثروة ويقتضيه حال المنفق عليه.

وكان أهل الجاهلية يسرفون في النفقة في اللذّات ويفتخرون بإتلاف المال ليتحدّث الناس عنهم، ويقترون على المساكين والضعفاء لأنّهم لا يسمعون ثناء الناس في ذلك. وقد تقدّم عند قوله { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ } [البقرة:180].

{ **بَيْنَ ذَلِكَ** } أي: بين الإسراف والإقتار.
القَوام: (بفتح القاف) العدل والقصد بين الطرفين.
وفيها إشعار بمدح { بَيْنَ ذَلِكَ } بأنّه الصواب الذي لا عوج فيه. وقد جرت الآية على مراعاة الأحوال الغالبة في إنفاق الناس. قال القرطبي: والقوام في كلذ واحد بحسب عياله وحاله، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدّق بجميع ماله ومنع غيره من ذلك.

{ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً [68] يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً [69] }.

هذا قسم آخر من صفات عباد الرحمان وهو قسم التخلّي عن المفاسد التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين، فتنزّه عباد الرحمان عنها بسبب إيمانهم.
{ **وَالَّذِينَ** } جُمع التخلّي عن هذه الجرائم الثلاث في صلة موصول واحد ولم يكرّر اسم الموصول كما كرّر في ذكر خصال تحلّيهم، للإشارة إلى أنّهم لمّا أقلعوا عن الشرك ولم يدعوا مع الله إلها آخر فقد أقلعوا عن أشدّ القبائح لصوقا بالشرك وذلك قتل النفس والزنى. فجلّ ذلك شبيه خصلة واحدة.
وقد يكون تكرير { **لَا** } مجزئا عن إعادة اسم الموصول وكافيا في الدلالة على أنّ كل خصلة من هذه الخصال موجبة لمضاعفة العذاب، ويؤيده ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أكبر؟: قال: **أن تدعوَ لله ندا وهو خلقك.** قلت: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك خيفة أن يَطْعَمَ معك.** قلت: ثم أي؟ قال: **أن تزاني حليلة جارك.** فأنزل الله تعالى تصديقا { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ - إلى - أَثَاماً }، (وفي رواية ابن عطية: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية).
{ **الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ** } بيان لحرمة النفس التي تقرّرت من عهد آدم. وكان قتل النفس متفشّيا في العرب بالعداوات والغارات وبالوأد في كثير من القبائل، وبالقتل لفرط الغيرة.
{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } المراد به يومئذ: قتل قاتل أحدهم، وهو تهيئة لمشروعية الجهاد عقب مدّة نزول هذه السورة. ولم يكن بيد المسلمين يومئذ سلطان لإقامة القصاص والحدود.
{ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً** } الإشارة إلى ما ذكر من الكبائر، والمتبادر من الإشارة أنها إلى المجموع، أي من يفعل مجموع الثلاث، ويعلم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضا، عدا الإشراك، دون جزاء من يفعل جميعها، وأنّ البعض أيضا مراتب.

الأثام: (بفتح الهمزة) جزاء الإثم على زنة الوبال والنكال، وهو أشد من الإثم، أي: يجازى على ذلك سوءا لأنّها آثام.

{ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً }

يجوز أن يكون المراد من مضاعفة العذاب أن يُعذّب على كل جرم ممّا ذكر عذابا مناسبا ولا يكتفي بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم، وهو الشرك، تنبيها على أنّ الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم والمفاسد، وذلك أنّ دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلّها. وهذا معنى قول من قال من العلماء بأنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، يعنون خطاب المؤاخذة على ما نهوا عن ارتكابه، وليس المراد أنّهم يطلب منهم العمل، إذ لا تقبل منهم الصاحبات بدون الإيمان، ولذلك رام بعض أهل الأصول تخصيص الخلاف بخطاب التكليف.

ويجوز أن تكون مضاعفة العذاب مستعملة في معنى قوّته، أي: يُعذّب عذابا شديدا وليست لتكرير عذاب مقدّر.

{ **وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً** } الخلود في العذاب اقتضاه الإشراك. فقد نهضت أدلة متظافرة من الكتاب والسنة على أنّ ما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود.

{ **مُهَاناً** } حال قصد منها تشنيع حالهم في الآخرة، أي: يعذّب ويهان إهانة زائدة على إهانة التعذيب.

{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [70]

الاستثناء من العموم الذي أفادته { مَنْ } الشرطية في قوله { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ }. وهذا تطمين لنفوس فريق من المؤمنين الذين قد كانوا تلبّسوا بخصال أهل الشرك ثم تابوا عنها بسبب الإيمان.

وفي صحيح مسلم: عن ابن عباس أنّ ناسا من أهل الشرك قَتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنّ الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أنَّ لِما عملنا كفّارةً فنزلت { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ}.

والمعنى: أنّه يُعفى عنه من عذاب الذنوب التي تاب منها، ولا يخطر بالبال أنّه يُعذب عذابا غير مضاعف وغير مخلد فيه، لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيّد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده، إلّا بقرينة.

التوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على ألّا يعود إلى الذنب، وإذ كان فيما سبق ذكر

الشرك فالتوبة هنا التلبّس بالإيمان، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم المؤاخذة بكلّ ما اقترفه المشرك في مدة شركه كما في الحديث: **" الإسلام يَجُبَّ ما قبله "**.

{ **وَآمَنَ** } عُطف على { مَنْ تَابَ } للتنويه بالإيمان، وليُبنى عليه قوله { **وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً** } وهو شرائع الإسلام، تحريضا على { عَمَلاً صَالِحاً }، وإيماء إلى أنّه لا يعتدّ به إلّا مع الإيمان، كما في قوله تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [سورة البلد:17]، وقال في عكسه { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً } [النور:39].

{ **فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** } كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك.

التبديل: جعل شيء بدلا عن شيء آخر، وتقدّم عند قوله { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ } [الأعراف:95]، أي: يجعل الله لهم حسنات كثيرة عوضا عن تلك السيئات التي اقترفوها قبل التوبة، وهذا لفضل الإيمان بالنسبة للشرك ولفضل التوبة بالنسبة للآثام الصادرة من المسلمين.

{ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** } لم تتعرّض الآية لمقدار الثواب، ولذلك جاء هذا التعقيب المقتضي أنّه عظيم المغفرة.

{ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً } [71]

إذا وقع الإخبار عن شيء أو توصيفٌ له أو حالةٌ منه بمرادف لما سبق مثله في المعنى دون زيادة تعيّن أن يكون الخبر الثاني مستعملا في شيء من لوازم معنى الإخبار يبيّنه المقام، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من رآني في المنام فقد رآني "**.

فيجوز أن يكون المقصود هو قوله { إِلَى اللَّهِ }، فيكون كناية عن عظيم ثوابه.

ويجوز أن يكون المقصود ما في المضارع من الدلالة على التجدّد، أي: فإنّه يستمرّ على توبته ولا يرتدّ على عقبيه، فيكون وعدا من الله تعالى أن يثبّته على القول الثابت إذا كان قد تاب وأيّد توبته بالعمل الصالح.

ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق من معنى التأكيد، أي: من تاب وعمل صالحا فإنّ توبته هي التوبة الكاملة الخالصة لله على حد قول النبي صلى الله عليه وسلم: **" إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه "**.

{ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [72]

أتبع خصال المؤمنين الثلاث التي هي قوام الإيمان بخصال أخرى من خصالهم هي من كمال الإيمان، والتخلّق بفضائله، ومجانبة أحوال أهل الشرك.

{ والذين لا يشهدون الزور } فعل (شهد) يُستعمل بمعنى (حضر) وهو أصل إطلاقه كقوله تعالى { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } [البقرة:185]، ويستعمل بمعنى أخبر عن شيء شهده وعلمه كقوله تعالى { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا } [يوسف:26].

الزور: الباطل من قول أو فعل وقد غلب على الكذب. وقد تقدّم في أوّل السورة.

فيجوز أن يكون معنى الآية: أنّهم لا يحضرون محاضر الباطل التي كان يحضرها المشركون، وهي مجالس اللهو والغناء والغيبة ونحوها، وكذلك أعياد المشركين وألعابهم. وهذا ثناء على المؤمنين بمقاطعة المشركين وتجنّبهم. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [الأنعام:68].

ويجوز أن يكون فعل { يَشْهَدُونَ } بمعنى الإخبار عمّا علموه ويكون الزور منصوبا على نزع الخافض، أي: لا يشهدون بالزور، أو مفعولا مطلقا لبيان نوع الشهادة، أي: لا يشهدون شهادة هي زور.

{ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } مناسب لكلا المعنيين.

اللغو: الكلام العبث والسفه الذي لا خير فيه. وتقدّم في قوله تعالى { لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً } [مريم:62].

أي: المرور بأصحابه اللاغين في حال لغوهم، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أنّ أصحاب اللغو متلبّسون به وقت المرور.

{ مَرُّوا كِرَاماً } أنّهم يمرّون وهم في حال كرامة، أي غير متلبّسين بالمشاركة فيه.

الكرامة: النزاهة ومحاسن الخِلال، وضدّها اللؤم والسفالة. وأصل الكرامة أنّها نفاسة الشيء في نوعه قال تعالى { أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } [الشعراء:7]. وقال تعالى { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً } [الأحزاب:44].

وهذا ثناء على المؤمنين بترفّعهم على ما كانوا عليه في الجاهلية كقوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70]، وقوله { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [القصص:55].

{ مَرُّوا } إعادة الفعل لبناء الحال عليه، وذلك من محاسن الاستعمال، ومنه قوله تعالى { رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا} [القصص:63].

{ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً } [73]

أريد تمييز المؤمنين والثناء عليهم مع التعريض بتفظيع حال المشركين، فإنّ المشركين إذا ذكّروا بآيات الله خرّوا صمًّا وعميانا. كحال من لا يحب أن يرى شيئا فيجعل وجهه على الأرض، فاستعير الخرور لشدّة الكراهية والتباعد. ومنه استعارة القعود للتخلّف عن القتال، وفي عكس ذلك يستعار الإقبال والتلقّي والقيام للاهتمام بالأمر والعناية به.

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى { وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً } [نوح:7].

ويجوز أن يكون الخرور واقعا منهم حقيقة، بطأطأة الرؤوس عندما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم. لأنّهم يكونون جلوسا في نواديهم. وتقدّم الخرور الحقيقي في قوله { يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً } [الإسراء:107]، وقوله { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26]، وقوله { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } [الأعراف:143].

{ صُمّاً وَعُمْيَاناً } حالان من ضمير { يَخِرُّوا }، أي: يخرّون كالصمّ والعميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصر منها ممّا يذكّرون به.

{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [74]

هذه صفة ثالثة للمؤمنين بأنّهم يُعْنَون بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله أن يرزقهم أزواجا وذرّيّات تقرّ بهم أعينهم، فالأزواج يطعنهم باتباع الإسلام وشرائعه، فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذرّيّات إذا نشأوا نشأوا مؤمنين، وقد جُمع ذلك لهم في صفة { **قُرَّةَ أَعْيُنٍ** } . فإنّها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقر عيون المؤمنين إلّا بأزواج وأبناء مؤمنين.

وقد نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في العصمة بقوله تعالى { وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } [الممتحنة:10]، وقال { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ } [الأحقاف:17]. فمن أجل ذلك جعل دعاؤهم هذا من أسباب جزائهم بالجنة وإن كان فيها حظّ لنفوسهم بقرّة أعينهم، إذ لا يناكد حظّ النفس حظّ الدين في أعمالهم.

{ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } كما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرّيّاتهم سألوا لأنفسهم، بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان، أن يجعلهم قدوة يقتدي بها المتّقون. وهذا يقتضي أنّهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجات العظيمة من التقوى، فإنّ القدوة يجب أن يكون بالغا أقصى غاية العمل. وهذا يقتضي أيضا أنّهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إليه بواسطتهم.

الإمام: أصله المثال والقالب، وتقدّم في قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة:124].

{ **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً** [75] **خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً** [76] }.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ ما يرد بعده كانوا أحرياء به لأجل ما ذكر قبله.

وتلك مجموع **إحدى عشرة خصلة** وهي: [التواضع - الحلم - التهجّد والخوف - ترك الإسراف - ترك الإقتار - التنزه عن الشرك - ترك الزنا - ترك قتل النفس – التوبة - ترك الكذب - قبول دعوة الحق - إظهار الاحتياج إلى الله بالدعاء].

{ **الْغُرْفَةَ** } البيت المعتلي يُصعد إليه بدرج، وهو أعز منزلا من البيت الأرضي، والتعريف في الغرفة تعريف الجنس فيستوي فيه المفرد والجمع. فالمعنى: يجزون الغرف، أي: من الجنّة، قال تعالى { وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ } [سبأ:37].

{ **بِمَا صَبَرُوا** } الباء للسببية، أي: بصبرهم، وهو صبرهم على ما لقوا من المشركين من أذى، وصبرهم على كبح شهواتهم لأجل إقامة شرائع الإسلام، وصبرهم على مشقة الطاعات.

اللُّقِيُّ - اللقاء: استقبال شيء ومصادفته، وتقدّم في قوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223]، وفي قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً } [الأنفال:15]، وتقدّم قريبا قوله { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً } [68].

وقد استعير اللُّقي لسماع التحية والسلام، أي: أنّهم يسمعون ذلك في الجنّة، تحية إكرام وثناء.

التحيَّة: تقدّمت في قوله { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ } [النساء:86]، وفي قوله { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [يونس:10]، وقوله { تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } [النور:61].

{ **حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً** } هو ضدّ ما قيل في المشركين { إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً } [66].

{ **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً** } [77]

لمّا استوعبت السورة أغراض التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمّنته من توحيد الله، ومن صفة كبرياء المعاندين وتعلّلاتهم، وأحوال المؤمنين، وأقيمت الحجج الدامغة للمعرضين، ختمت بأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يُزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنّهم قد شفوا غليلهم من الرسول بالإعراض عن دعوته وتورّكهم في مجادلته، فبيّن لهم حقارتهم وأنّه ما بعث إليهم رسوله وخاطبهم بكتابه إلّا رحمة منه بهم لإصلاح حالهم وقطعا لعذرهم، فإذ كذّبوا فسوف يحلّ بهم العذاب.

{ **مَا يَعْبَأُ** } نافية. والتركيب يدلّ على التحقير، وضدّه (عبأ به) يفيد الحفاوة.

والمعنى: ما يبالي وما يهتم، وهو مضارع عبأ مثل: ملأ يملأ، مشتقّ من **العِبء** (بكسر العين) وهو الحِمْل (بكسر الحاء وسكون الميم)، أي: الشيء الثقيل الذي يحمل على البعير.

{ **بِكُمْ** } الباء فيه للسببية، أي: بسببكم، وهو على حذف مضاف يدل عليه مقام الكلام. فالتقدير: ما يعبأ بخطابكم.

الدعاء: الدعوة إلى شيء، وهو هنا مضاف إلى مفعوله، والفاعل يدل عليه { رَبِّي }، أي: لولا دعاؤه إيّاكم، أي: لولا أنّه يدعوكم. وحذف متعلّق الدعاء لظهوره من قوله { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } ، أي: الداعي هو محمد صلى الله عليه وسلم، فتعين أنّ **الدعاء**: الدعوة إلى الإسلام.

والمعنى: أنّ الله لا يلحقه من ذلك انتفاع ولا اعتزاز بكم. وهذا كقوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } [الذاريات:56-57].

{ **دُعَاؤُكُمْ** } ضمير الخطاب موجّه إلى المشركين بدليل تفريغ { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ} عليه، وهو تهديد لهم، أي: فقد كذّبتم الداعي وهو الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذا التفسير هو الذي يقتضيه المعنى، ويؤيّده قول مجاهد والكلبي والفراء. وقد فسّر بعض المفسّرين الدعاء بالعبادة فجعلوا الخطاب موجّها إلى المسلمين فترتّب على ذلك التفسير تكلّفات.

{ **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ** } تفريع على قوله { لَوْلا دُعَاؤُكُمْ }، والتقدير: فقد دعاكم إلى الإسلام فكذّبتم.

{ **فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً** }، أي: سوف يكون تكذيبكم لزاما لكم، أي: لازما لا انفكاك لكم منه. وهذا تهديد بعواقب التكذيب، تهديدا مهولا بما فيه من الإبهام.

ودخل في هذا الوعيد ما يحلّ بهم في الدنيا من قتل وأسر وهزيمة، وما يحلّ بهم في الآخرة من العذاب.

اللزام: مصدر لازم، وقد صيغ على زنة المفاعلة لإفادة اللزوم، أي: عدم المفارقة، قال تعالى { وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً } [طه:129].

وعن ابن مسعود وأبي بن كعب: اللزام: عذاب يوم بدر. ومرادهما بذلك أنّه جزئي من جزيئات اللزام الموعود لهم. ولعلّ ذلك شاع حتّى صار اللزام كالعلم بالغلبة على يوم بدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

اشتهرت عند السلف بسورة الشعراء لأنّها تفرّدت من بين سور القرآن بذكر كلمة الشعراء. وكذلك جاءت تسميتها في كتب السنّة. وتسمّى أيضا سورة طسم.

وفي (أحكام القرآن) لابن العربي أنّها تسمّى أيضا الجامعة، ونسبه أبن كثير والسيوطي في (الإتقان) إلى تفسير مالك المروي عنه [تفسير مالك بن أنس، ذكره عياض في (المدارك) والداودي في (طبقات المفسرين)]. ولم يظهر وجه وصفها بهذا الوصف. ولعلّها أوّل سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة.

وهي مكّية، فقيل: جميعها مكّي، وهو المروي عن ابن الزبير. ورواية عن ابن عباس ونسبه ابن عطية إلى الجمهور. وروي عن ابن عباس أنّ قوله تعالى { وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } [224] إلى آخر السورة نزل بالمدينة لذكر شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم (حسان بن ثابت - ابن رواحة - كعب بن مالك).

وعن الداني قال: نزلت { وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } [224] في شاعرين تهاجيا في الجاهلية.

وعن مقاتل: أنّ قوله تعالى { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ }[197] نزل بالمدينة.

أقول: كان شعراء بمكّة يهجون النبيّ صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات { وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ }. وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة وكان في مكّة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة كما سيأتي.

والذي نوقن به أنّ السورة كلها مكّيّة.

وهي السورة **السابعة والأربعون في عداد نزول السور** نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل. وسيأتي في تفسير قوله تعالى { وأنذر عشيرتك الأقربين } ما يقتضي أنّ تلك الآية نزلت قبل نزول سورة أبي لهب.

وقد جعل أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة عدد آيها مائتين وستا وعشرين، وجعله أهل الشام وأهل الكوفة مائتين وسبعا وعشرين.

أغراض السورة

*/ أوّلها التنويه بالقرآن، والتعريض بعجزهم عن معارضته.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن.

*/ وفي ضمنه تهديدهم على تعرّضهم لغضب الله تعالى، وضرب المثل لهم بما حلّ بالأمم المكذّبة رسلها والمعرضة عن آيات الله.

*/ وأحسب أنّها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق، فافتتحت بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت له ورباطة لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنّة الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب؛ ولذلك ختم كل استدلال جيء به على المشركين المكذّبين بتذييل واحد هو قوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }، تسجيلا عليهم بأنّ آيات الوحدانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلّب الحقّ ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون، وأنّ الله عزيز قادر على أن يُنْزِل بهم العذاب، وأنّه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم.

*/ التنويه بالقرآن، وشهادة أهل الكتاب له، والردّ على مطاعنهم في القرآن وجعله عضين، وأنّه منزه عن أن يكون شعرا ومن أقوال الشياطين.

*/ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته، وأنّ الرسول ما عليه إلا البلاغ، وما تخلل ذلك من دلائل.

{ طسم } [1]

قد علمتَ في أوّل سورة البقرة أنّها حروف للتهجّي واستقصاء في التحدّي يُعجزهم عن معرضة القرآن، وعليه تظهر مناسبة تعقيبه بقوله { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [2].

والجمهور قرأوا { طسم } كلمة واحدة، وأدغموا النون من سين في الميم وقرأ حمزة بإظهار النون. وقرأ أبو جعفر حروفا مفكّكة، وقالوا: كذلك هي مرسومة في مصحف ابن مسعود حروفا مفككة (طَ سَ مَ).

{ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [2]

الإشارة إلى الحاضر في الأذهان من آيات القرآن المنزّل من قبل. ومعنى الإشارة إلى آيات القرآن قصد التحدي بأجزائه تفصيلا كما قُصد التحدي بجميعه إجمالا. والمعنى: هذه آيات القرآن تقرأ عليكم وهي بلغتكم وحروف هجائها فأتوا بسورة من مثلها. والخطاب لغير معيّن من كل متأهّل لهذا التحدّي من بلغائهم.

{ الْمُبِينِ } الظاهر، وهو من أبان مرادف بان، أي: تلك آيات الكتاب الواضح كونه من عند الله لما فيه من المعاني العظيمة والنظم المعجز.

ويجوز أن يكون من أبان المتعدي، أي: الذي يُبيّن ما فيه من معاني الهدى والحق.

وهذا من استعمال اللفظ في معنييه كالمشترك.

{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [3]

حُوِّل الخطاب من توجيهه إلى المعاندين إلى توجيهه للرسول عليه الصلاة والسلام. والكلام استئناف بياني جوابا عما يثيره مضمون قوله { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } من تساؤل النبيّ صلى الله عليه وسلم في نفسه عن استمرار إعراض المشركين عن الإيمان وتصديق القرآن كما في قوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]، وقوله { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر:8].

{ لَعَلَّ } إذا جاءت في ترجِّي الشيء المخوف سمِّيت إشفاقا وتوقعا. والترجي مستعمل في الطلب. والأظهر أنّه حثّ على ترك الأسف من ضلالهم.

الباخع: القاتل. وحقيقة البخع إعماق الذبح. يقال: بخع الشاة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ } [الكهف:6]. وهو هنا مستعار للموت السريع.

{ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } حذف المتعلّق، إمّا لأن المراد مؤمنين بما جئت به من التوحيد والبعث، وإمّا لأنّه أريد بمؤمنين الفريق المعروف بالمؤمنين وهم أمّة الإسلام.

وعدل عن: أن لا يؤمنوا، لأنّ في فعل الكون دلالة على الاستمرار زيادة على ما أفادته صيغة المضارع، فتأكّد استمرار عدم إيمانهم الذي هو مورد الإقلاع عن الحزن له. وقد جاء في سورة الكهف { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ } بحرف نفي الماضي وهو (لم) لأنّ سورة الكهف متأخرة النزول عن سورة الشعراء فعدم إيمانهم قد تقرّر حينئذ وبلغ حد المأيوس منه.

{ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [4]

استئناف بياني ناشئ عن قوله { أَنَّ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } لأنّ التسلية على عدم إيمانهم تثير في النفس سؤالا عن إمهالهم دون عقوبة ليؤمنوا، فأجيب بأنّ الله قادر على ذلك، فهذا الاستئناف اعتراض بين الجملتين المعطوفة إحداهما على الأخرى.

{ **إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ** } جيء بحرف { إِنْ } الذي الغالب فيه أن يفيد عدم الجزم بوقوع الشرط للإشعار بأنّ ذلك لا يشاؤه الله لحكمة اقتضت. ومعنى انتفاء هذه المشيئة أنّ الحكمة الإلهية اقتضت أن يحصل الإيمان عن نظر واختيار لأنّ ذلك أجدى لانتشار سمعة الإسلام في مبدأ ظهوره.

{ **آيَةً** } العلامة التي تدلّ على تهديدهم بالإهلاك تهديدا محسوسا بأن تظهر لهم بوارق تنذر باقتراب عذاب. وليس المراد آيات القرآن.

فإن قلت: لماذا لم يُرِهِم آية كما أُري بنو إسرائيل نتق الجبل فوقهم كأنّه ظلة ؟

قلت: كان بنو إسرائيل مؤمنين بموسى وما جاء به فلم يكن إظهار الآيات لهم لإلجائهم على الإيمان ولكنّه كان لزيادة تثبيتهم، كما قال إبراهيم { أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } [البقرة:260].

{ **فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** } عطف { فَظَلَّتْ } وهو ماض على المضارع { نُنَزِّلْ } لأنّ المعطوف عليه جواب شرط. والاختلاف بين الفعلين لا يخلو من خصوصية في كلام البليغ وخاصة في الكلام المعجز، وهي هنا أمران: التفنّن بين الصيغتين، وتقريب زمن مضي المعقَّب بالفاء من زمن حصول الجزاء، بحيث يكون حصول خضوعهم للآية بمنزلة حصول تنزيلها فيتمّ ذلك سريعا حتّى يخيّل لهم من سرعة حصوله أنّه أمر مضى، فلذلك قال { فَظَلَّتْ } ولم يقل: فتظلّ. وهذا قريب من استعمال الماضي في قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1]. وكلاهما للتهديد، ونظيره لقصد التشويق: قد قامت الصلاة.

الخضوع: التطامن والتواضع. ويستعمل في الانقياد مجازا، لأنّ الانقياد من أسباب الخضوع. وإسناد الخضوع إلى الأعناق مجاز عقلي. لأنّه لمّا كانت الأعناق هي مظهر الخضوع أسند الخضوع إليها وهو في الحقيقة ممّا يسند إلى أصحابها، ومنه قوله { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } [طه:108]، أي: أهل الأصوات.

الأعناق: جمع عُنُق (بضمّتين وقد تسكن النون) وهو الرقبة، وهو مؤنث.

{ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } [5]

عطف على جملة { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [3]، أي: هذه شنشنتهم فلا تأسف لعدم إيمانهم بآيات الكتاب المبين، وما يجيئهم منها من بعد فسيعرضون عنه لأنّهم عُرفوا بالإعراض.

{ **وَمَا يَأْتِيهِمْ** } المضارع هنا لإفادة التجدّد والاستمرار.

الذكر: القرآن، لأنّه تذكير للناس بالأدلة. وتقدّم وجه تسميته ذكرا عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

{ **مِنَ الرَّحْمَنِ** } ذكر اسم الرحمان هنا دون وصف الربّ كما في [الأنبياء:2] لأنّ السياق هنا لتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على إعراض قومه، وتشنيع لحال المعرضين، وتعريض لغباوتهم أن يعرضوا عمّا هو رحمة لهم.

المحدَث: الجديد، أي: من ذكر بعد ذكر يذكّرهم بما أنزل من القرآن من قبله. أي: أنّ بعضه يعقب بعضا ويؤيّده. وقد تقدّم في قوله { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأنبياء:2].

{ **إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ** } وفي الإتيان بفعل { كَانُوا } وخبره دون أن يقال: إلّا أعرضوا، إفادة أنّ إعراضهم راسخ فيهم وأنّه قديم مستمر.

{ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [6]

{ **فَقَدْ كَذَّبُوا** } فاء الفصيحة، أي: فقد تبيّن أنّ إعراضهم إعراض تكذيب، بعد الإخبار بأنّ سنّتهم الإعراض عن الذكر الآتي بعضه عقب بعض.

{ **فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ** } الفاء لتعقيب الإخبار بالوعيد بعد الإخبار بالتكذيب. وليس المراد هنا البلوغ كالذي في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } [ص:21] لأنّ بلوغ الأنباء قد وقع فلا يُحكى بعلامة الاستقبال، وإنّما المراد ظهور صدقها.

والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر عن الحدث العظيم، كقوله { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } ضمير { بِهِ } عائد إلى معلوم من المقام، وهو القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم. والمراد بأنباء استهزائهم أنباء جزائه وعاقبته، وهو ما توعّدهم به القرآن في غير ما آية.

{ **كَانُوا** } القول في إقحامه هنا كالقول في إقحامه في قوله تعالى { كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } ولكن أوثر الإتيان بالمضارع { يَسْتَهْزِئُونَ } دون اسم الفاعل كالذي في { كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } لأنّ الاستهزاء يتجدّد عند تجدّد وعيدهم بالعذاب، وأمّا الإعراض فمتمكّن منهم.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [7] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ [8] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [9] }.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الواو عاطفة على جملة { وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ } [5]، فالهمزة الاستفهامية منه مقدّمة على واو العطف لفظًا لأنّ للاستفهام الصدارة. والمقصود من الاستفهام إقامة الحجّة عليهم بأنّهم لا تغني فيهم الآيات لأنّ المكابرة تَصْرِفهم عن التأمّل في الآيات.

{ **إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** } الاستفهام إنكار على عدم رؤيتهم ذلك، لأنّ دلالة الإنبات على الصانع الواحد دلالة بيّنة لكلّ من يراه، فلمّا لم ينتفعوا بتلك الرؤية نزلت رؤيتهم منزلة العدم، فأنكر عليهم ذلك. والمقصود: إنكار عدم الاستدلال به.

الزوج: النوع، وشاع إطلاق الزوج على النوع في غير الحيوان، وتقدم قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى } [طه:53].

الكريم: النفيس من نوعه، قال تعالى { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال:4].

وهذا من إدماج الامتنان في ضمن الاستدلال، لأنّ الاستدلال على بديع الصنع يحصل بالنظر في إنبات الكريم وغيره. ففي الاستدلال بإنبات الكريم من ذلك وفاءٌ بغرض الامتنان مع عدم فوات الاستدلال.

{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً** } المشار إليه هو المذكور من الأرض، وإنبات الله الأزواج فيها، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة .والتأكيد بحرف { إِنَّ } لتنزيل المتحدّث عنهم منزلة من ينكر دلالة ذلك الإنبات وصفاته على ثبوت الوحدانية التي هي باعث تكذيبهم الرسول.

{ **لَآيَةً** } الإفراد لإرادة الجنس، أو لأنّ في المذكور عدّة أشياء في كلّ واحد منها آية، فيكون على التوزيع.

{ **وما كان أكثرهم مؤمنين** } إخبار عنهم بأنّهم مصرّون على الكفر بعد هذا الدليل الواضح.

{ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } تذييل لهذا الخبر بوصف الله بالعزّة، أي: تمام القدرة، فتعلمون أنّه لو شاء لعجّل لهم العقاب.

{ **الرَّحِيمُ** } إيماء إلى أنّ في إمهالهم رحمة بهم لعلهم يشكرون. وفيه أيضا إيماء إلى أنّه يرحم رسله بتأييده ونصره.

{ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [10] قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ [11] }.

شروع في عدّ آيات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر عواقب المكذّبين برسلهم ليحذر المخاطبون بالدعوة إلى الإسلام من أن يصيبهم ما أصاب المكذّبين.

وفي ضمن ذلك تبيين لبعض ما نادى به الرسل من البراهين.
وإنّما ابتدئ بذكر قصّة موسى ثم قصّة إبراهيم على خلاف ترتيب حكاية القصص الغالب في القرآن من جعلها على ترتيب سبقها في الزمان، لعلّه لأنّ السورة نزلت للردّ على المشركين في إلحاحهم على إظهار آيات من خوارق العادات في الكائنات، زاعمين أنّهم لا يؤمنون إلّا إذا جاءتهم آية، فضرب لهم المثل بمكابرة فرعون وقومه في آيات موسى.
{ **وَإِذْ** } اسم زمان منصوب بفعل محذوف تقديره: واذكر إذ نادى ربّك موسى. وفي هذا المقدَّر تذكير للرسول عليه الصلاة والسلام بما يسلّيه عمّا يلقاه من قومه.
{ **نَادَى رَبُّكَ مُوسَى** } هو الوحي إليه بكلام سمعه من غير واسطة ملك.
{ **أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تفسير لجملة { نَادَى }. واستحضار قوم فرعون بوصفهم بالقوم الظالمين إيماء إلى علّة الإرسال. وفي هذا الإجمال إثارة لغضب موسى عليهم حتّى ينضمّ داعي غضبه عليهم إلى داعي امتثال أمر الله، وذلك أوقع لكلامه في نفوسهم. وفيه إيماء إلى أنّهم اشتهروا بالظلم.
وظلمهم يعمّ أنواعه، فمنها ظلمهم أنفسهم بعبادة ما لا يستحق العبادة، ومنها ظلمهم الناس حقوقهم إذ استعبدوا بني إسرائيل واضطهدوهم، وتقدّم استعماله في المعنيين مرارا، في ضدّ العدل { ومن أظلم ممن منع مساجد الله } [البقرة:114]، وبمعنى الشرك في قوله { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } [الأنعام:82].
الإتيان: هو ذهابه لتبليغ الرسالة إليهم. وهذا إيجاز يبينه قوله تعالى { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [16] إلى آخره.
{ **قَوْمَ فِرْعَوْنَ** } وفي تكرير كلمة { قَوْمِ } موقع من التأكيد، فلم يقل: ائت قوم فرعون الظالمين.
واعلم أنّه قد عدل هنا عن ذكر ما ابتدئ به نداء موسى ممّا هو في سورة طه بقوله { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ - إلى قوله - لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } [طه:12-23] لأنّ المقام هنا يقتضي الاقتصار على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتعاظ بعاقبتهم. وأمّا مقام ما في سورة طه فلبيان كرامة موسى عند ربه ورسالته معا فكان مقام إطناب، مع ما في ذلك من اختلاف الأسلوب في حكاية القصّة الواحدة كما تقدّم في المقدمة السابعة من مقدّمات هذا التفسير.
{ **أَلا يَتَّقُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا. جيء بما يدلّ على توغّلهم في الظلم ودوامهم عليه تقوية للباعث لموسى على بلوغ الغاية في الدعوة، وتهيئة لتلقيه تكذيبهم بدون مفاجأة، فيكون { أَلا } مركّبا من حرفين همزة الاستفهام و(لا) النافية. والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم، وتعجيب موسى من ذلك، فإنّ موسى كان مطّلعا على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم وقد علم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتل أنبياء بني إسرائيل.
ويجوز أن يكون { أَلا } كلمة واحدة هي أداة العرض والتحضيض فتكون جملة { أَلا يَتَّقُونَ } بيانا لجملة

{ائْتِ} والمعنى: قل لهم: ألا تتقون. فحكى مقالته بمعناها لا بلفظها. وهذا العرض نظير قوله { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } [النازعات:18].

الاتقاء: الخوف والحذر، وحذف المتعلّق لظهور أن المراد: ألا يتّقون عواقب ظلمهم.

موسى: تقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } [البقرة:51].

فرعون: تقدمت ترجمته عند قوله تعالى { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ } [الأعراف:103].

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ [12] وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ [13] وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ [14] }.

{ **قَالَ رَبِّ** } افتتاح مراجعته بنداء الله بوصف الربّ مضافا إليه تحنين واستسلام.

{ **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** } لعلمه بأن مثل هذه الرسالة لا يتلقّاها المرسَل إليهم إلّا بالتكذيب.

{ **وَيَضِيقُ صَدْرِي** } الواو للحال فتكون حالا مقدّرة، أي: فيضيق ساعتئذ صدري من عدم اهتدائهم.

الضيق: ضدّ السعة، وهو هنا مستعار للغضب والكمد. وقد تقدّم عند قوله { يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } [الأنعام:125] وقوله { وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود:12].

والمعنى: أنّه يأسف ويكمد لتكذيبهم إيّاه ويجيش في نفسه روم إقناعهم بصدقه، وتلك الخواطر إذا خطرت في العقل نشأ منها إعداد البراهين، وفي ذلك الإعداد تكلّف وتعب للفكر، فإذا أبانها أحسّ بارتياح وبشبه السعة في الصدر فسمَّى ذلك شرحا للصدر، ولذلك سأله موسى { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي } [طه:25].

{ **وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي** } الانطلاق حقيقته مطاوع أطلقه إذا أرسله ولم يحبسه، فهو حقيقة في الذهاب. واستعير هنا لفصاحة اللسان وبيانه في الكلام، أي: ينحبس لساني فلا يبين عند إرادة المحاجة والاستدلال.

قيل كانت بموسى حُبسة في لسانه إذا تكلّم. وقد تقدّم في سورة طه وسيجيء في سورة الزخرف.

وليس القصد من هذا الكلام التنصّل من الاضطلاع بهذا التكليف العظيم ولكن القصد تمهيد ما فرَّعه عليه من طلب تشريك أخيه هارون معه لأنّه أقدر منه على الاستدلال والخطابة.

{ **فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ** } مجمل يبيّنه ما في قوله تعالى { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ } [القصص:34] فيُعلم أن في الكلام هنا إيجازا. وأنه ليس المراد: فأرسل إلى هارون عوضا عني.

{ **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** } تعريض بسؤال النصر والتأييد وأن يكفيه شرّ عدوّه حتّى يؤدّي ما عهد الله إليه على أكمل وجه.

الذنب: الجرم ومخالفة الواجب في قوانينهم. وأطلق الذنب على المؤاخذة، فإنّ الذي لهم عليه هو حقّ المطالبة

بدم القتيل الذي وكزه موسى فقضى عليه، وتوعّده القبط، فخرج من مصر خائفا، وكان ذلك سبب توجّهه إلى بلاد مَدْيَن، { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [القصص:15-16].
هارون: تقدم ذكره عند قوله تعالى { وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } [البقرة:248].

{ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ [15] فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [16] أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيل [17] }.

{ **كَلَّا** } حرف إبطال. وتقدّم في قوله تعالى { كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ } [مريم:79]. أي: لا يقتلونك.
{ **فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا** } تفريع، والأمر لموسى أن يذهب هو وهارون يقتضي أنّ موسى مأمور بإبلاغ هارون ذلك، فكان موسى رسولا إلى هارون بالنبوّة. ولذلك جاء في التوراة أنّ موسى أبلغ أخاه هارون ذلك عندما تلقّاه في (حوريب). وهو وعد بالتأييد بمعجزات تظهر عند الحاجة.
ومن الآيات: العصا التي انقلبت حيّة عند المناجاة، وكذلك بياض يده.
{ **إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ** } كناية عن عدم إهمال تأييدهما وكفّ فرعون عن اذاهما.
{ **مَعَكُمْ** } الضمير عائد إلى موسى وهارون وقوم فرعون. والمعيّة معيّة علم كالتي في قوله تعالى { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } [المجادلة:7].
{ **مُسْتَمِعُونَ** } أشد مبالغة من (سامعون) لأنّ أصل الاستماع أنّه تكلّف السماع والتكلّف كناية عن الاعتناء، فأريد هنا علم خاص بما يجري بينهما وبين فرعون وملئه، وهو العلم الذي ترافقه العناية واللطف.
والجمع بين قوله { بِآيَاتِنَا } وقوله { إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } تأكيد للطمأنة وربابطة لجأشهما.
{ **إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } ومبادأة خطابهما فرعون بأن وصفا الله بصفة رب العالمين مجابهة لفرعون بأنّه مربوب وليس بربّ، وإثبات ربوبية الله تعالى للعالمين. والنفي يقتضي وحدانية الله تعالى لأنّ (العالمين) شامل جميع الكائنات فيشمل معبودات القبط كالشمس وغيرها، فهذه كلمة جامعة لما يجب اعتقاده يومئذ.
الرسول: فعول بمعنى مفعل، أي: مرسل. والأصل فيه مطابقة موصوفه، بخلاف فعول بمعنى فاعل فحقه عدم المطابقة سماعا، ولكن رسول يجوز فيه أن يجرى مجرى المصدر فلا يطابق ما يجري عليه في تأنيث وما عدا الإفراد، وورد في كلامهم بالوجهين تارة ملازما الإفراد والتذكير كما في هذه الآية، وورد مطابقا كما في قوله تعالى { فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ } [طه:47].
{ **أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ** } تفسيرية لمّا تضمّنه { رَسُول } من الرسالة التي هي في معنى القول، أي: هذا قول رب العالمين لك.

{ **أَرْسِلْ مَعَنَا** } أي: أطلقهم ولا تحبسهم، فالإرسال هنا ليس بمعنى التوجيه. وهذا الكلام يتضمّن أنّ موسى أُمِر بإخراج بني إسرائيل من بلاد الفراعنة لقصد تحريرهم من استعباد المصريين كما سيأتي عند قوله { أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ } [22]،

وقد تقدّم في سورة البقرة بيان أسباب سكنى بني إسرائيل بأرض مصر ومواطنهم بها وعملهم لفرعون.

{ **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** [18] **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** [19] }.

طوي من الكلام ذهاب موسى وهارون إلى فرعون واستئذانهما عليه وإبلاغهما ما أمرهما الله أن يقولا لفرعون، إيجازا للكلام. ووجّه فرعون خطابه إلى موسى وحده لأنّه علم من تفصيل كلام موسى وهارون أنّ موسى هو الرسول بالأصالة وأنّ هارون كان عونا له.

أعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى وتخويفه من جنايته حسبانا بأنّ ذلك يقتلع الدعوة من جذمها ويكف موسى عنها، وقصده من هذا الخطاب إفحام موسى حيث أوجد له سببا يتذرّع به إلى قتله ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس.

{ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً** } الاستفهام تقريري وجعل التقرير على نفي التربية مع أنّ المقصود الإقرار بوقوع التربية مجاراة لحال موسى في نظر فرعون إذ رأى في هذا الكلام جرأة عليه لا تناسب حال من هو ممنون لأسرته بالتربية لأنّها تقتضي المحبّة والبرّ.

ويجوز أن يجعل الاستفهام إنكاريا عليه لأنّ لسان حال موسى في نظر فرعون حال من يجحد أنّه مربًّى فيهم ومن يظنّ نسيانهم لفعلته، فأنكر فرعون عليه ذلك.

وكلا الوجهين لا يخلو من تنزيل موسى منزلة من يجحد ذلك.

التربية: كفالة الصبي وتدبير شؤونه.

{ **فِينَا** } في عائلتنا، أي: عائلة ملك مصر.

الوليد: الطفل من وقت ولادته وما يقاربها فإذا نمى لم يُسم وليدا وسُمِّي طفلا، ويعني بذلك التقاطه من نهر النيل. وذلك أن موسى ربّي عند (رمسيس الثاني) من ملوك العائلة التاسعة عشرة من عائلات فراعنة مصر حسب ترتيب المحقّقين من المؤرخين.

وخرج موسى من مصر بعد أن قتل القبطي وعمره أربعون سنة لقوله تعالى { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً - إلى قوله - وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ } [القصص:14-15]، وبُعث وعمره ثمانون سنة حسبما في التوراة [الإصحاح السابع من سفر الخروج].

وكان فرعون الذي بعث إليه موسى هو (منفتاح الثاني ابن رمسيس الثاني)، فلا جرم كان موسى مُرَبَّى والده، فلذلك قال له: ألم نربك فينا وليدا، ولعلّه رُبِّيَ مع هذا الفرعون كالأخ.

{ **مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** } والسنين التي لبثها موسى فيهم هي نحو أربعين سنة.

الفعلة: المرة الواحدة من الفعل، أراد قتله القبطي.

{ **فَعْلَتَكَ** } عبر بالموصول، وفي ذلك تهويل للفعلة يكنّى به عن تذكيره بما يوجب توبيخه.

{ **وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** } حال من ضمير { وَفَعَلْتَ } . والمراد به كفر نعمة فرعون من حيث اعتدى على أحد خاصته وموالي آله، وكان ذلك انتصارا لرجل من بني إسرائيل الذين يعدّونهم عبيد فرعون وعبيد قومه، فجعل فرعون انتصار موسى لرجل من عشيرته كفرانا لنعمة فرعون لأنّه يرى واجب موسى أن يعدّ نفسه من قوم فرعون. وليس المراد الكفر بديانة فرعون.

ويجوز أن تكون جملة { وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } عطفا على الجمل التي قبلها التي هي توبيخ ولوم، فوبّخه على ما تقدّم رعيه تربيتهم إيّاه فيما مضى، ثم وبّخه على كونه كافرا بدينهم في الحال.

{ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ [20] فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ [21] وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ [22] }.

كانت رباطة جأش موسى وتوكّله على ربه باعثةً له على الاعتراف بالفعلة وذكر ما نشأ عنها من خير له، فابتدأ بالإقرار بفعلته ليعلم فرعون أنّه لم يجد لكلامه مدخل تأثير في نفس موسى. وأخَّر موسى الجواب عن قول فرعون { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ }.

{ **إِذاً** } هنا حرف جواب وجزاء، فنونه الساكنة ليست تنويا بل حرفا أصليا للكلمة، وقدّم { فَعَلْتُهَا } على (إذن) مبادرة بالإقرار ليكون كناية عن عدم خشيته من هذا الإقرار.

ومعنى الجزاء في قوله { فَعَلْتُهَا إِذاً } أنّ قول فرعون { وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ } قصد بها إفحام موسى وتهديده، فجعل موسى الاعتراف بالفعلة جزاء لذلك التهديد على طريقة القول بالموجب، أي: لا أتهيّب ما أردت.

{ **وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ** } إن كان مراد كلامه الذي حكت الآية معناه إلى العربية المعنى المشهور للضلال في

العربية، وهو ضلال الفساد، فيكون مراده: أنّ سورة الغضب أغفلته عن مراعاة حرمة النفس. ويؤيد هذا قوله في الآية الأخرى { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ } [القصص:16].

وإن كان المعنى: ضلال الطريق، أي: كنت يومئذ على غير معرفة بالحقّ لعدم وجود شريعة، وهو معنى الجهالة كقوله تعالى { وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى } [الضحى:7]، فالأمر ظاهر.

وعلى كلا الوجهين فجواب موسى فيه اعتراف بظاهر التقرير وإبطال لما يستتبعه من جعله حجّة لتكذيبه برسالته عن الله.

{ **فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** } استرسال في الجواب، أي: فكان فراري قد عقبه أنّ الله أنعم عليَّ فأصلح حالي وعلّمني وهداني وأرسلني. فليس ذلك من موسى مجرّد إطناب بل لأنّه يفيد معنى أن الإنسان ابن يومه لا ابن أمسه، والأحوال بأواخرها.

الحكم: الحكمة والعلم، وأراد بها النبوّة وهي الدرجة الأولى حين كلمه ربه.

{ **وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** } بعد أن أظهر له المعجزة وقال له { إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ } [الأعراف:144] أرسله بقوله { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه:24].

{ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ** } عاد إلى أوّل الكلام فكرَّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله وأبى أن يسمِّيه نعمة. إشارة إلى النعمة التي اقتضاها الامتنان في كلام فرعون.

ويجوز أن يكون { أَنْ عَبَّدْتَ } في محل نصب على نزع الخافض وهو لام التعليل والتقدير: لأن عبّدت بني إسرائيل. وقيل: الكلام استفهام بحذف الهمزة وهو استفهام إنكار.

{ **عَبَّدْتَ** } ذلَّلْت، يقال: عبَّد كما يقال: أعبد بهمزة التعدية.

وكلام موسى على التقادير الثلاثة نقض لامتنان فرعون بقلب النعمة نقمة، بتذكيره أنّ نعمة تربيته ما كانت إلّا بسبب إذلال بني إسرائيل، إذ أمر فرعون باستئصال أطفال بني إسرائيل. وفيه أن الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه لا يزيد إحسانا ولا منّة.

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ [23] قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ[24] }.

لما لم يَرُج تهويله على موسى عليه السلام وعلم أنّه غير مقلع عن دعوته ثَنَى عنان جداله إلى تلك الدعوة فاستفهم عن حقيقة ربّ العالمين، الذي ذكر موسى وهارون أنّهما مرسلان منه { إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

{ **قَالَ فِرْعَوْنُ** } إظهار اسم فرعون مع أنّ طريقة حكاية المقاولات والمحاورة يُكتفى فيها بضمير القائلين بطريقة قال قال، أو قال فقال، لإيضاح صاحب هذه المقالة، لبعد ما بين قوله هذا وقوله الآخر.

{ **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** } الواو عاطفة هذا الاستفهام على الاستفهام الأول. وحرف { مَا } الغالب فيه أن يكون للسؤال عن حقيقة الاسم بعده، كما في حديث الوفود، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم: **" مَا أَنْتُمْ ؟ "**.

ففرعون سأل موسى عليه السلام تبيين حقيقة هذا الذي وصفه بأنّه { رَبُّ الْعَالَمِينَ }، فقد كانت عقائد القبط تثبت آلهة متفرّقة قد اقتسمت التصرّف في عناصر هذا العالم وأجناس الموجودات.

وهو استفهام مشوب بتعجّب وإنكار على طريق الكناية.

ومن دقائق هذه المجادلة أنّ الاستفسار مقدّم في المناظرات ولذلك ابتدأ فرعون بالسؤال عن حقيقة الذي أرسل موسى عليه السلام.

{ **قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** } كان جواب موسى عليه السلام بيانا لحقيقة رب العالمين بما يصير وصفه بربّ العالمين نصا لا يحتمل غير ما أراداه من ظاهره، فأتى بشرح اللفظ بما هو تفصيل لمعناه، فبذكر السماوات والأرض وبعموم ما بينهما حصل بيان حقيقة المسؤول عنه بـ { مَا } .

<u>ومرجع هذا البيان إلى أنّه تعريف لحقيقة الربّ بخصائصها، لأنّ ذلك غاية ما تصل إليه العقول في معرفة الله أن يُعرف بآثار خلقه، فهو تعريف رسمي في الاصطلاح المنطقي.</u>

وجواب موسى، كما صرّح صاحب (المفتاح)، تضمّن تنبيها على أنّ الاستدلال على إثبات الخالق الواحد يحصل بالنظر في السماوات والأرض وما بينهما، نظرا يؤدّي إلى العلم بحقيقة الربّ الواحد الممتازة عن حقائق المخلوقات.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** } أي: إن كنتم مستعدّين للإيقان، طالبين لمعرفة الحقائق، غير مكابرين.

وضمير الجمع مراد به جميع حاضري مجلس فرعون، أراد موسى تشريكهم في الدعوة.

{ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ } [25]

أعرض فرعون عن خطاب موسى واستثار نفوس الملأ من حوله وهم مجلسه، فاستفهمهم استفهام تعجّب، تهييجا لنفوسهم كي لا تتمكّن منهم حجّة موسى، فسلّط الاستفهام على نفي استماعهم. وهذا التعجّب يقتضي التعجّب من كلام موسى بطريق فحوى الخطاب، فهو كناية عن تعجّب آخر.

{ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [26]

كلام موسى هذا في معرض الجواب عن تعجيب فرعون من سكوت من حوله فلذلك كانت حكايته قوله على الطريقة التي تُحكى بها المقالات. ولمّا كان في كلام فرعون إعراض عن مخاطبة موسى إذ تجاوزه إلى مخاطبة من حوله وجّه موسى خطابه إلى جميعهم، وإذ رأى موسى أنّهم جميعا لم يهتدوا إلى الاقتناع بالاستدلال على خلْق الله العوالم الذي ابتدأ به، إذ هو أوسع دلالة على وجود الله تعالى ووحدانيّته، فنزل بهم إلى الاستدلال بأنفسهم وبآبائهم، إذ أوجدهم الله بعد العدم ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم، لأنّ أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم وأيسر استدلالا على خالقهم، فالاستدلال الأوّل يمتاز بالعموم، والاستدلال الثاني يمتاز بالقرب من الضرورة.

الربّ: الخالق والسيد بموجب الخالقيّة.

{ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } [27]

احتدّ فرعون لمّا ذكر موسى ما يشمل آباءه المقدّسين بذكرٍ يخرجهم من صفة الإلهية، زاعما أنّ هذا يخالف العقل بالضرورة فلا يصدر إلّا من مختلّ الإدراك.

{ إِنَّ رَسُولَكُمُ } وقصد بإطلاق وصف الرسول على موسى التهكّم به بقرينة رميه بالجنون المحقّق عنده. وأضاف الرسول إلى المخاطبين رَبْئًا بنفسه عن أن يكون مقصودا بالخطاب، وتهييجا للسامعين كيلا يتأثروا أو يتأثر بعضهم بصدق موسى.

{ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } [28]

لمّا رأى موسى سوء فهمهم وعدم اقتناعهم بالاستدلال على الوحدانية بالتكوين المعتاد، انتقل إلى ما لا قبل لهم بجحده ولا التباسه وهو التصرّف العجيب المشاهد كل يوم مرّتين. كما انتقل إبراهيم عليه السلام من الاستدلال على وجود الله بالإحياء والإماتة إلى الاستدلال بطلوع الشمس، قال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ } [البقرة:258]، فكانت حجة موسى حجّة خليلية.

المشرق والمغرب: هما منتهى الأرض المعروفة للناس يومئذ فكأنّه قيل: ربّ طرفي الأرض، وهو كناية عن كون جميع الأرض ملكًا لله. وهذا استدلال عرفي، إذ لم يكونوا يعرفون يومئذ ملِكا يملك ما بين المشرق والمغرب، وما كان مُلك فرعون المؤلّه عندهم إلّا لبلاد مصر والسودان.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** } التذييل تنبيه لنظرهم العقلي ليعاودوا النظر فيدركوا وجه الاستدلال، أي: إن كنتم تُعملون عقولكم. ومن اللطائف جعل ذلك مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون، لأنّ الجنون يقابله العقل فكان موسى يقول لهم قولا ليّنا ابتداء فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول.

{ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } [29]

لمّا لم يجد فرعون لحِجاجه نجاحا ورأى شدّة شكيمة موسى في الحقّ عدل عن الحِجاج إلى التخويف. وهذا شأن من قهرته الحجّة وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد.

{ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي** } اللام موطّئة للقسم. والمعنى أنّ فرعون أكّد وعيده بما يساوي اليمين المجملة التي تؤذن بها ا(للام) الموطئة، كأن يكون فرعون قال: عليّ يمين، أو بالأيمان، أو أقسم.

{ **اتَّخَذْتَ** } يفيد الاستمرار، أي: أصررت على أنّ لك إلها أرسلك. وكان فرعون معدودا إلها للأمّة.

{ **لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** } لأسجننّك، فسلك فيه طريقة الإطناب لأنّه أنسب بمقام التهديد.

{ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ [30] قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [31] فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [32] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [33] }.

لمّا رأى موسى من مكابرة فرعون عن الاعتراف بدلالة النظر ما لا مطمع معه إلى الاسترسال في الاستدلال، لأنّه مُتَعَامٍ عن الحقّ، عدل موسى إلى إظهار آية من خوارق العادة دلالة على صدقه، وعرض عليه ذلك قبل وقوعه ليسد عليه منافذ ادّعاء عدم الرضى بها.

{ **أَوَلَوْ جِئْتُكَ** } استفهمه استفهامًا مشوبا بإنكار واستغراب على تقدير عدم اقرار فرعون بالشيء المبين، وأنّه ساجنه لا محالة إن لم يعترف بإلهية فرعون، قطعا لمعذرته من قبل الوقوع. وهذا التقدير دلت عليه { لَوْ } الوصلية التي هي لفرض حالة خاصة. و(الواو) واو الحال، والمستفهم عنه بالهمزة محذوف دلّ عليه أنّ الكلام جواب قول فرعون { لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }.

{ **مُبِينٌ** } اسم فاعل من أبان المتعدّي، أي: شيء يظهر أنّي رسول من الله.

{ **قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } أعرض فرعون عن التصريح بالتزام الاعتراف بما سيجيء به موسى. وفي كلام فرعون ما يقتضي أنّ فرض صدق موسى فرض ضعيف، كما هو الغالب في شرط (إِنْ).

الإلقاء: الرمي من اليد إلى الأرض، وتقدّم في [الأعراف:107].

الثعبان: الحيّة الضخمة الطويلة.

{ **مُبِينٌ** } اسم فاعل من أبان القاصر الذي بمعنى بان بمعنى ظهر، فـ { مبين } دال على شدّة الظهور، من أجل أنّ زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، أي: ثعبان ظاهر، لا لبس فيه ولا تخييل.

النزع: سَلُّ شيء ممّا يحيط به، ومنه نزع اللباس. ونزع اليد: إخراجها من القميص، فلذلك استغنى عن ذكر المنزوع منه لظهوره، أي: أخرج يده من جيب قميصه.

{ **فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** } دلت (إذا) المفاجئة على سرعة انقلاب لون يده بياضا. والأظهر أن تكون اللام في قوله { لِلنَّاظِرِينَ } بمعنى (عند) ويكون الجار والمجرور حالا. وقد مضى بيان ذلك عند قوله { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ] [الأعراف:108]. والتعريف للاستغراق العرفي، أي: لجميع الناظرين في ذلك المجلس. وهذا يفيد أنّ بياضها كان واضحا بيّنا مخالفا لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص.

{ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [34] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ [35] }.

تقدّم الكلام على نظير هذه الآية في [الأعراف:109-110] سوى أنّ في هذه الآية زيادة { بِسِحْرِهِ } وهو واضح، وفي هذه الآية أنّ هذا قول فرعون للملإ، وفي آية الأعراف { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ }، والجمع بينهما أنّ فرعون قاله لمن حوله فأعادوه بلفظه للموافقة التامة بحيث لم يكتفوا بقول: نعم، بل أعادوا كلام فرعون ليكون قولهم على تمام قوله.

{ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [36] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ [37] }.

تقدّم الكلام على نظيرها في [الأعراف:111] سوى أنّ في هذه الآية { وَابْعَثْ } بدل { وَأَرْسِلْ } وهما مترادفان، وفي هذه الآية { سَحَّارٍ } وهنالك { سَاحِرٍ }، و**السحّار** مرادف للساحر في الاستعمال، لأنّ صيغة فعّال هنا للنسب، دلالة على الصناعة مثل النجّار والقصّاب، ولذلك أتبع هنا وهناك بوصف { عَلِيمٍ }، أي: قويّ العلم بالسحر.

{ **فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [38] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ [39] لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ [40]** }.

دلّت (الفاء) على أنّ جمع السحرة وقع في أسرع وقت.

{ **فَجُمِعَ / وَقِيلَ** } بُني الفعلان للنائب لعدم تعيّن جامعين وقائلين.

{ **لِمِيقَاتِ** } اللام بمعنى (عند)، كاللام في قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الإسراء:78].

اليوم: هو يوم الزينة وهو يوم وفاء النيل. و**الوقت**: هو الضحى كما في [طه:59].

الميقات: الوقت، وأصله اسم آلة التوقيت. سمِّي به الوقت المعيّن تشبيها له بالآلة.

{ **لِلنَّاسِ** } التعريف للاستغراق العرفي، وهم ناس بلدة فرعون (منفيس / طيبة).

{ **هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ** } استحثاث للنّاس على الاجتماع، فالاستفهام مستعمل في طلب الإسراع بالاجتماع، كقوله تعالى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } [المائدة: 91].

{ **لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ** } كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتّبعونه. وليس المقصود أن يصير السحرة أيمة لهم، لأنّ فرعون هو المتّبَع.

{ **إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** } جيء بحرف (إنْ) لأنّها أصل أدوات الشرط ولم يكن لهم شك في أنّ السحرة غالبون.

{ **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ [41] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [42]** }.

تقدّم نظيرها في [الأعراف:113] بقوله { وَجَاءَ السَّحَرَةُ } وبطرح همزة الاستفهام إذ قال هناك { إِنَّ لَنَا لَأَجْراً }، وبدون كلمة { إذاً }، وهو تفنّن في حكاية مقالتهم عند إعادتها لئلّا تعاد كما هي.

وكذلك شأن القرآن في قصصه ألّا يخلو المعاد منها عن فائدة لم تذكر قبل، تجديدا لنشاط السامع.

وسؤالهم عن استحقاق الأجر إدلال بخبرتهم وبالحاجة إليهم إذ علموا أنّ فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين وخافوا أن يسخِّرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع.

{ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ [43] فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ [44] }.

حُكي كلام موسى في ذلك الجمع بإعادة فعل { قَالَ } مفصولا بطريقة حكاية المحاورات لأنّه كان المقصود بالمحاورة إذ هم حضروا لأجله.

ووقع في [الأعراف: 115] { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ } ، واختصر هنا تخييرهم موسى في الابتداء بالأعمال، وقد تقدّم بيانه هناك.

{ **أَلْقُوا** } تقدّم الإلقاء آنفا. وذكر هنا مفعول { أَلْقُوا } واختصر في سورة الأعراف.

{ **مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } في كلام موسى عليه السلام استخفاف بما سيلقونه لأنّه عبّر عنه بصيغة العموم، أي: ما تستطيعون إلقاءه.

{ **فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ** } تقدّم الكلام حولها عند الكلام على مثل هذه القصة في [طه:66].

{ **وَقَالُوا** } قرنت حكاية قول السحر بالواو خلافا للحكايات التي سبقتها لأنّ هذا قولٌ لم يقصد به المحاورة وإنّما هو قولٌ ابتدأوا به عند الشروع في السحر استعانة وتيمّنا بعزة فرعون.

{ **بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ** } الباء هنا كالباء في (بسم الله)، أرادوا التيمّن بقدرة فرعون، قاله ابن عطية.

وقيل الباء للقسم: أقسموا بعزة فرعون على أنّهم يغلبون، ثقة منهم. وهذا الذي نحاه المفسّرون، والوجه الأوّل أحسن لأنّ الجملتين على مقتضاه تفيدان فائدتين.

العزّة: القدرة، وتقدّم في قوله { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206].

{ **إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** } أرادوا بذلك إلقاء الخوف في نفس موسى ليكون ما سيلقيه في نوبته عن خور نفس. وقد أفادت الجملة بما فيها من المؤكّدات مفاد القسم.

{ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } [45]

تقدّم قريب منه في [الأعراف:117]، وفي [طه:69].

{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ [46] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [47] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [48] قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [49] }.

قصد فرعون إرهابهم بهذا الوعيد لعلّهم يرجعون عن الإيمان بالله.

ونظير أوّل هذه الآية تقدم في [الأعراف:120-124]، ونظير آخرها تقدم فيها وفي [طه:71].

{ **فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } لام القسم.

{ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [50] إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [51] }.

الضَيْر: مرادف الضرّ، يقال: ضَارَه (بتخفيف الراء) يَضِيرُه، والمعنى: لا يضرّنا وعيدك. ومعنى نفي ضرّه هنا: أنّه ضرّ لحظة يحصل عقبه النعيم الدائم، فهو بالنسبة لما تعقبه بمنزلة العدم.

{ **إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ** } تعليل لنفي الضير، وهي القرينة على المراد من النفي.

الانقلاب: الرجوع، وتقدّم في [الأعراف:125].

{ **إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا** } بيان للمقصود من جملة { إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ }.

الطمع: يطلق على الظنّ الضعيف، وعُرف بطلب ما فيه عسر. ويراد به الظنّ كما في قول إبراهيم عليه السلام { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [82]، فهذا الإطلاق تأدّب مع الله لأنّه يفعل ما يريد.

{ **أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** } علّلوا ذلك الطمع بأنّهم كانوا أوّل المؤمنين بالله بتصديق موسى عليه السلام، وفي هذا دلالة على رسوخ إيمانهم بالله ووعده.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } [52]

هذه قصّه أخرى من أحوال موسى في دعوة فرعون، فـ (الواو) لعطف القصّة ولا تفيد التتابع المتلاحق، فقد لبث موسى زمنا يطالب فرعون بإطلاق بني إسرائيل ليخرجوا من مصر وفرعون يماطل في ذلك حتّى رأى الآيات التسع، كما تقدّم في [الأعراف:134].

ونظير بعض هذه الآية تقدّم في [طه:77]. وزادت هذه بقوله { إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ }، أي: أعلم الله موسى أنّ فرعون سيتبعهم. والقصد من إعلامه بذلك تشجيعه.

{ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [53] إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ [54] وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ [55] وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ [56] }.

ظاهر ترتيب الجمل يقتضي أنّ الفاء للتعقيب على جملة { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى } وأنّ بين الجملتين محذوفا تقديره: فأسرى موسى وخرج بهم فأرسل فرعون حاشرين، أي: لمّا خرج بنو إسرائيل خشي فرعون أن ينتشروا في مدائن مصر فأرسل فرعون في المدائن جُندا يحشرون الناس ليلحقوا بني إسرائيل فيردّوهم إلى المدينة قاعدة الملك.

{ الْمَدَائِنِ } : جمع مدينة، أي البلد العظيم. ومدائن القطر المصري يومئذ كثيرة. منها: (منفيس - طيبة بالأقصر - سنى / سيناء - ساورت / أسيوط - سودو / الفيوم ...). والتعريف للاستغراق، أي: المدائن التي لحكم فرعون أو المظنون وقوعها قرب طريقهم. وكان فرعون وقومه لا يعلمون أين اتجه بنو إسرائيل فأراد أن يتعرّض لهم في كل طريق يُظنّ مرورهم به. وما كان يظنّ أنّهم يقصدون شاطئ البحر الأحمر بحر (القلزم) وكان يومئذ يسمَّى بحر (سُوف).

{ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ } الإشارة إلى حاضر في أذهان الناس، لأنّ أمر بني إسرائيل قد شاع في أقطار مصر في تلك المدّة التي بين جمع السحرة وبين خروج بني إسرائيل.

وفي اسم الإشارة إيماء إلى تحقير شأنهم أكّده التصريح.

الشرذمة: الطائفة القليلة من النّاس، هكذا فسّره المحقّقون من أئمة اللغة، فإتباعه بوصف { قَلِيلُونَ } للتأكيد.

{ قَلِيلُونَ } خبر ثان عن اسم الإشارة، فهو وصف في المعنى لمدلول { هَؤُلاءِ } وليس وصفا لشرذمة ولكنه لمعناها، ولهذا جيء به بصيغة جمع السلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة، ويجوز ملازمته الإفراد والتذكير. ونظيره في ذلك لفظ (كثير) وقد جمعها قوله تعالى { إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ } [الأنفال:43].

{ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ } اسم فاعل من غاظه الذي هو بمعنى أغاظه، أي: جعله ذا غيظ. والغيظ: أشدّ الغضب. وتقدّم في قوله تعالى { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119]، وقوله { وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ } [براءة:15]، أي: وأنّهم فعلوا ما يغضبنا.

{ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ } حثّ لأهل المدائن على أن يكونوا حذرين على ابلغ وجه إذ جعل نفسه معهم في ذلك وقرأه الجمهور بدون ألف بعد الحاء { حَذِرُونَ } فهو جمع حذر وهو من أمثلة المبالغة عند سيبويه والمحقّقين. وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر وخلف { حَاذِرُونَ } جمع (حاذر) بصيغة اسم الفاعل.

الحذر: أصل عظيم من أصول السياسة وهو سد ذرائع الفساد ولو كان احتمال إفضائها إلى الفساد ضعيفا، فالذرائع الملغاة في التشريع في حقوق الخصوص غير ملغاة في سياسة العموم، ولذلك يقول علماء الشريعة: إن نظر ولّاة الأمور في مصالح الأمّة أوسع من نظر القضاة، فالحذر أوسع من حفظ الحقوق، وهو الخوف من وقوع شيء ضار يمكن وقوعه، والترصّد لمنع وقوعه، وتقدم في قوله تعالى { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ } [براءة:64]. والمحمود منه هو الخوف من الضار عند احتمال حدوثه دون الأمر الذي لا يمكن حدوثه، فالحذر منه ضرب من الهوس.

{ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [57] وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ [58] كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ [59] فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ [60] }.

الفاء في { فَأَخْرَجْنَاهُمْ } تفريع على { إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ }. والتقدير: فأسرى موسى ببني إسرائيل فأخرجنا فرعون وجنده من بلادهم في طلب بني إسرائيل.

الجنّات: جنّات النخيل التي كانت على ضفاف النيل.

العيون: منابع تحفر على خلجان النيل.

الكنوز: الأموال المدّخرة.

المقام: أصله محلّ القيام أو مصدر قام. والمعنى على الأول: مساكن، وعلى الثاني: قيامهم في مجتمعهم.

الكريم: النفيس في نوعه. وذلك ما كانوا عليه من الأمن والثروة والرفاهية، كلّ ذلك تركه فرعون وجنوده الذين خرجوا منه لمطاردة بني إسرائيل، لأنّهم هلكوا فلم يرجعوا إلى شيء ممّا تركوا.

{ **كَذَلِكَ** } تقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [الكهف،91]، فهو بمنزلة الاعتراض.

{ **وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ** } معترضة أيضا، والواو اعتراضية وليست عطفا لأجزاء القصة لما ستعلمه.

الإيراث: جَعْل أحد وارثا. وأصله إعطاء مال الميت، ويطلق على إعطاء ما كان ملكا لغير المعطَى (بفتح الطاء)، كما قال تعالى { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأعراف:137]، أي: أورثنا بني إسرائيل أرض الشام، وقال { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } [فاطر:32].

المعنى: أنّ الله أرزأ أعداء موسى ما كان لهم من نعيم إذ أهلكهم وأعطى بني إسرائيل خيرات مثلها لم تكن لهم، وليس المراد أنّه أعطى بني إسرائيل ما كان بيد فرعون وقومه من الجنات والعيون والكنوز، لأنّ بني

إسرائيل فارقوا أرض مصر حينئذ وما رجعوا إليها كما يدل عليه قوله { كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ } [الدخان:28]. ولا صحة لما يقوله بعض أهل القصص من أنّ بني إسرائيل رجعوا فملكوا مصر، فإنّ بني إسرائيل لم يملكوا مصر بعد خروجهم منها سائر الدهر، فلا محيص من صرف الآية عن ظاهرها إلى تأويل يدلّ عليه التاريخ ويدلّ عليه ما في سورة الدخان.

{ **وَأَوْرَثْنَاهَا** } الضمير هنا عائد للأشياء المعدودة باعتبار أنّها أسماء أجناس، أي: أورثنا بني إسرائيل جنّات وعيونا وكنوزا، فعود الضمير هنا إلى لفظ مستعمل في الجنس وهو قريب من الاستخدام وأقوى منه، أي: أعطيناهم أشياء ما كانت لهم من قبل.

{ **فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ** } مفرّعة على جملة { فَأَخْرَجْنَاهُمْ } وما بينهما اعتراض. والتقدير: فأخرجناهم فأتبعوهم. والضمير المرفوع عائد إلى ما عاد عليه ضمير النصب من قوله { فَأَخْرَجْنَاهُمْ }، وضمير النصب عائد إلى { بِعِبَادِي } من قوله { أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي } [52].

{ **فَأَتْبَعُوهُمْ** } بهمزة قطع وسكون التاء بمعنى تبع، أي: فلحقوهم.

{ **مُشْرِقِينَ** } حال من الضمير المرفوع، يجوز أن يكون معناه قاصدين جهة الشرق يقال: أشرق، إذا دخل في أرض الشرق، كما يقال: أنجد. ويُعلم من هذا أنّ بني إسرائيل توجّهوا صوب الشرق وهو صوب بحر (القلزم) وهو البحر الأحمر، وسمّي يومئذ (بحر سُوف) وهو شرقي مصر.

ويجوز أن يكون المعنى داخلين في وقت الشروق، أي: أدركوهم عند الشروق.

{ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [61] قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [62] فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [63] وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ [64] وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ [65] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [66]** }.

لمّا بلغ فرعون وجنوده قريبا من مكان جموع بني إسرائيل بحيث يرى كلّ فريق منهما الفريق الآخر.

الترائي: تفاعل، لأنّه حصول الفعل من الجانبين.

{ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** } التأكيد لشدّة الاهتمام بهذا الخبر، وهو مستعمل في معنى الجزع.

{ **كَلَّا** } ردع. وتقدّم في قوله { كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ } [مريم:79]. ردع به موسى ظنّهم أنّهم يدركهم فرعون.

{ **إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** } علّل ردعهم عن ذلك. وإسناد المعيّة إلى الربّ على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه. وذلك أنّ موسى واثق بأنّ الله منجيه.

{ **سَيَهْدِينِ** } مستأنفة أو حال من { رَبِّي }. والمعنى: أنّه سيبيّن لي سبيل سلامتنا.

{ **أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ** } أمره الله أن يضرب بعصاه البحر فانفلق طرقا مرّت منها أسباط بني إسرائيل، واقتحم فرعون البحر فمدّ عليهم حين توسطوه فغرق جميعهم.

الفِرْق: (بكسر الفاء وسكون الراء) الجزء المفروق منه، وهو بمعنى مفعول مثل الفلق.

الطود: الجبل.

{ **أَزْلَفْنَا** } قرّبنا وأدنينا، مشتقّ من الزلَف (بالتحريك) وهو القرب. ويقال: ازدلف: اقترب، وتزلَّف: تقرَّب، فالهمزة للتعدية.

{ **الْآخَرِينَ** } : هم قوم فرعون، لوقوعه في مقابلة فريق بني إسرائيل.

والمعنى أنّ الله جرّأهم حتّى اقتحموا طرق البحر، كما رأوا فعل بني إسرائيل، يظنّون أنّه ماء غير عميق.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [67] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [68] }.

تقدّم القول في نظيره آنفا قبل قصة موسى [9/8]، وكانت هذه القصّة آية لأنّها دالة على أنّ ذلك الانقلاب العظيم في أحوال الفريقين الخارج عن معتاد تقلّبات الدول والأمم دليل على أنّه تصرّف إلهيّ خاص، أيّد به رسوله وأمّته، فهو آية على عواقب تكذيب رسل الله، مع ما تتضمّنه القصّة من دلائل التوحيد.

ووجه تذييل كل استدلال من دلائل الوحدانية وصدق الرسل في هذه السورة بجملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } إلى آخرها، تقدّمت الإشارة إليه في طالعة السورة.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ [69] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ [70] قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [71] قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ [72] أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [73] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [74] قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [75] أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ [76] فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ [77] }.

عُقِّبت قصّة موسى مع فرعون وقومه بقصّة إبراهيم. وقُدِّمت هنا على قصّة نوح على خلاف المعتاد في ترتيب قصصهم في القرآن لشدّة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر. وفي تمسّكهم بضلال آبائهم، وأنّ إبراهيم دعاهم إلى الاستدلال على انحطاط الأصنام عن مرتبة استحقاق العبادة ليكون إيمان الناس مستندا لدليل الفطرة، وفي أنّ قوم إبراهيم لم يُسلّط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سُلِّط على قوم نوح وعلى عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين، فأشبهوا قريشا في إمهالهم.

فرسالة محمد وإبراهيم صلى الله عليهما قائمتان على دعامة الفطرة في العقل والعمل، أي: في الاعتقاد والتشريع، فإنّ الله ما جعل في خلق الإنسان هذه الفطرة ليضيعها ويهملها، بل ليقيمها ويُعْمِلها.

فلمّا ضرب الله المثل للمشركين لإبطال زعمهم أنّهم لا يؤمنون حتّى تأتيهم الآيات كما أوتي موسى، فإنّ آيات موسى وهي أكثر آيات الرسل السابقين لم تقض شيئا في إيمان فرعون وقومه لمَّا كان خُلُقهم المكابرة والعناد، أعقب ذلك بضرب المثل بدعوة إبراهيم المماثلة لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم في النداء على إعمال دليل النظر.

التلاوة: القراءة. وتقدّم في قوله { مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ } [البقرة:102].

{ **عَلَيْهِمْ** } الضمير عائد إلى معلوم من السياق كما تقدّم في قوله أوّل السورة { أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [3].

نبأ إبراهيم: قصّته المذكورة هنا، أي: اقرأ عليهم ما ينزل عليك الآن من نبأ إبراهيم. وإنّما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتلاوته للإشارة إلى أنّ الكلام المتضمِّن نبأ إبراهيم هو آية معجزة.

إبراهيم: تقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ } [البقرة:124].

{ **إِذْ قَالَ** } ظرف، أي: حين قال. والجملة بيان للنبأ، لأنّ الخبر عن قصّة مضت فناسب أن تبيَّن باسم زمان مضاف إلى ما يفيد القصّة. نظيره قوله تعالى { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ } [يونس:71].

{ **لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ** } أدخل أباه في إلقاء السؤال عليهم، إمّا لأنّه كان حاضرا في مجلس قومه، إذ كان سادن بيت الأصنام كما روي، وإمّا لأنّه سأله على انفراد وسأل قومه مرّة أخرى فجمعت الآية حكاية ذلك.

والأظهر أنّ إبراهيم ابتدأ بمحاجّة أبيه ثم انتقل إلى محاجّة قومه، وأنّ هذه هي المحاجّة الأولى في ملأ أبيه وقومه، ألقى فيها دعوته في صورة سؤال استفسار غير إنكار استنزالا لطائر نفورهم، وأمّا قوله { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ } [الصافات:86/85] فذلك مقام آخر له في قومه كان بعد الدعوة الأولى.

{ **مَا تَعْبُدُونَ** } (مَا) اسم استفهام يُسأل به عن تعيين الجنس، كما تقدّم في قوله { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } [23].

والاستفهام صوري فإنّ إبراهيم يعلم أنّهم يعبدون أصناما ولكنّه أراد بالاستفهام افتتاح المجادلة معهم فألقى عليهم هذا السؤال ليكونوا هم المبتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم، فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من فساد، لأنّ الذي يتصدّى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر ممّا يشعر بذلك من يسمعه، ولأنّه يعلم أنّ جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم.

{ **قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ** } أجابوا استفهامه بتعيين نوع معبوداتهم. وأتوا في جوابهم بتكرير الفعل الواقع في السؤال، مع أنّ الشأن الاستغناء عن التصريح، ابتهاجا بهذا الفعل وافتخارا به. ولذلك عطفوا على الفعل ما يزيده تأكيدا بقولهم { **فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ** } .

{ **أَصْنَاماً** } التنوين للتعظيم. ولهذا قال إبراهيم لهم في مقام آخر { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً } [العنكبوت:17]، على وجه التحقير لمعبوداتهم والتحميق لهم.

{ **عَاكِفِينَ** } وضُمِّن معنى (عابدين) فعُدِّي إليه الفعل بـ (اللام) دون (على).

{ **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ** [72] **أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** } لمّا كان شأن الربّ أن يُلجأ إليه في الحاجة وأن ينفع أو يضرّ، ألقى إبراهيم عليهم استفهاما عن حال هذه الأصنام، هل تسمع دعاء الداعين وهل تنفع أو تضرّ، تنبيها على دليل انتفاء الإلهية عنها.

{ **قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** } {بَلْ} في حكاية جواب القوم لإضراب الانتقال من مقام إثبات صفاتهم إلى مقام قاطع للمجادلة في نظرهم، وهو أنّهم ورثوا عبادة هذه الأصنام.

{ **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** } اقتصر إبراهيم في هذا المقام، الذي رجّحنا أنّه أوّل مقام قام فيه للدعوة، على أن أظهر قلّة اكتراثه بهذه الأصنام.

العدوّ: مشتقّ من العدوان، وهو الإضرار بالفعل أو القول. والعدوّ: المبغض، فعدوّ: فعول بمعنى فاعل يلازم الإفراد والتذكير، فلا تلحقه علامات التأنيث إلّا نادرا.

والأصنام لا إدراك لها فلا توصف بالعداوة. ولذلك فقوله من قبيل التشبيه البليغ، أي: هم كالعدو لي في أنّي أبغضهم وأضرّهم. وهذا قريب من قوله { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } أي: عاملوه معاملة العدوّ.

{ **إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** } الاستثناء منقطع. و{ إِلَّا } بمعنى (لَكِنِ) إذ كان رب العالمين غير مشمول لعبادتهم، إذ الظاهر أنّهم ما كانوا يعترفون بالخالق ولم يكونوا يجعلون آلهتهم شركاء لله كما هو حال مشركي العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى { قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} فهو الصنم الأعظم عندهم.

ويظهر أن الكلدانيين، قوم إبراهيم، لم يكونوا يؤمنون بالخالق الذي لا تدركه الأبصار. وكان أعظم الآلهة عندهم هو كوكب الشمس والصنم الذي يمثّل الشمس هو (بعل)، فوظيفة الأصنام عندهم هو تدبير شؤون الناس في حياتهم. وأمّا الإيجاد والإعدام فكانوا من الذين يقولون {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية:24].

وقد يكونون معترفين بربّ عظيم للأكوان وإنّما جعلوا الأصنام شركاء له في التصرّف في نظام تلك المخلوقات، كما كان حال الإشراك في العرب، فيكون الاستثناء متّصلا، لأنّ الله من جملة معبوديهم، أي: إلّا الرب الذي خلق العوالم.

وتقدّم ذكر أصنام قوم إبراهيم في [الأنبياء:52].

{ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [78] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [79] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ [80] وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ [81] وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [82]** }.

{ **فَهُوَ يَهْدِينِ** } لأنّه إذا كان هو الخالق فهو الأولى بتدبير مخلوقاته دون أن يتولّاها غيره.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، دون أن يقول: فيهدين، لتخصيصه بأنّه متولي الهداية دون غيره، لأنّ المقام لإبطال اعتقادهم تصرّف أصنامهم بالقصر الإضافي، وهو قصر قلب.

والتعبير بالمضارع لأنّ الهداية متجدّدة له. وجعل فعل الهداية مفرّعا بـ (الفاء) على فعل الخلق لأنّه ملازم له، لأنّ الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنّها ناشئة عن خلق العقل، كما قال { الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [طه:50]. ومن الهداية الدلالة على طُرق العلم، كما في قوله { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد:10].

{ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ** } القول في تقديم المسند إليه هنا وفي قوله { فَهُوَ يَشْفِينِ } كالقول في سابقهما للردّ على زعمهم أنّ الأصنام تقدر لهم تيسير ما يأكلون وما يشربون وبها برؤهم إذا مرضوا.

{ **وَإِذَا مَرِضْتُ** } في إسناده فعل المرض إلى نفسه تأدّب مع الله.

{ **وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** } لم يأت فيه ما يقتضي الحصر لأنّهم لم يكونوا يزعمون أنّ الأصنام تميت، بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم.

{ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** } أطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع تواضعا لله تعالى ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة، وإنّما طمع في ذلك لوعد الله بذلك.

الخطيئة: الذنب. يقال: خطئ إذا أذنب. وتقدّم في قوله تعالى { نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ } [البقرة:58].

والمقصود في لسان الشرائع: مخالفة ما أمر به الشرع. وإذا قد كان إبراهيم حينئذ نبيّا والأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها فالخطيئة منهم هي مخالفة مقتضى المقام النبوي.

المغفرة: العفو عن الخطايا، وإنّما قيّده بـ { يَوْمِ الدِّينِ } لأنّه اليوم الذي يظهر فيه أثر العفو.

يوم الدين: هو يوم الجزاء، وهذا الكلام خبر يتضمّن تعريضا بالدعاء.

جمعت كلمات إبراهيم عليه السلام، مع دلالتها على انفراد الله بالتصرّف في أطوار الخلق الجسماني، دلالة أخرى على جميع أصول النعم من أوّل الخلق إلى الخلق الثاني وهو البعث، فذكر خلق الجسد وخلق العقل وإعطاء ما به بقاء المخلوق وهو الغذاء والماء، وما يعتري المرء من اختلال المزاج وشفائه، وذكر الموت الذي هو خاتمة الحياة الأولى، وأعقبه بذكر الحياة الثانية، للإشارة إلى أنّ الموت حالة لا يظهر كونها نعمة إلّا بغوص فكر، لأنّ وراءه حياة هي نعمة لا محالة لمن شاء أن تكون له كذلك.

{ **يَهْدِينِ، يَسْقِينِ، يَشْفِينِ، يُحْيِينِ** } حذفت ياآت المتكلّم لأجل التخفيف ورعاية الفاصلة لأنّها يوقف عليها، وفواصل هذه السورة أكثرها بالنون الساكنة.

{ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [83] وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [84] وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ [85] وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ [86] وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ [87] يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ [88] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [89] }.

قابل إبراهيم في دعائه النعم الخمس التي أنعم الله بها عليه المذكورة في قوله { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ - إلى قوله - يَوْمِ الدِّينِ } الراجعة إلى مواهب حسّيّة، بسؤال خمس نعم راجعة إلى الكمال النفساني، وأقحم بين طلباته سؤاله المغفرة لأبيه.

{ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً** } ابتدأ دعاءه بأن يُعطى حكما، هو الحِكمة والنبوّة، قال تعالى عن يوسف { آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً } [القصص:14] أي: النبوّة. وقد كان إبراهيم حين دعا نبيّا فلذلك كان السؤال طلبا للازدياد، بأن يعطى الرسالة مع النبوّة أو يعطى شريعة مع الرسالة، أو سأل الدوام على ذلك.

{ **وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** } ثم ارتقى فطلب إلحاقه بالصالحين. ولفظ الصالحين يعمّ جميع الصالحين من الأنبياء والمرسلين.

{ **وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** } ثم سأل بقاء ذكر له حسن في الأمم والأجيال الآتية من بعده. وهذا يتضمّن سؤال الدوام والختام على الكمال، وطلب نشر الثناء عليه، وهذا ما تتغذى به الروح من بعد موته. وقد جعل الله في ذرّيّته أنبياء ورسلا يذكرونه وتذكره الأمم التابعة لهم ويخلد ذكره في الكتب. وتقدّم الكلام على هذا مشبعا عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [الفرقان:74].

اللسان: مراد به الكلام، من إطلاق اسم الآلة على ما يتقوّم بها.

الصدق: هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه، لأنّه يرغب في تحقّقه ووقوعه في نفس الأمر.

{ **وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ** } سأل أن يكون من المستحقّين الجنّة خالدا فيها، فاستعير اسم الورثة إلى أهل الاستحقاق، قال { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [المؤمنون:10-11].

{ **وَاغْفِرْ لِأَبِي** } سأل المغفرة لأبيه قبل سؤال ألّا يخزيه الله يوم القيامة، لأنّه أراد ألّا يلحقه يومئذ شيء ينكسر منه خاطره.

{ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } تعليل لطلب المغفرة لأبيه فيه إيماء إلى أنّه سأل له مغفرة خاصة وهي مغفرة أكبر الذنوب، أعني الإشراك بالله، وهو سؤال اقتضاه مقام الخُلّة، وقد كان أبوه حيّا حينئذ، لقوله { قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } [مريم:47].

ويجوز أن يكون طلب الغفران له كناية عن سبب الغفران وهو هدايته إلى الإيمان.

{ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } تقدّم الكلام على معنى الخزي عند تفسير قوله { إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [سورة البقرة:85]، وقوله تعالى { إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } [آل عمران:192].

{ يُبْعَثُونَ } الضمير راجع إلى العباد، المعلوم من المقام.

{ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ } يظهر أنّه من كلام إبراهيم عليه السلام قصد به إظهار أنّ الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم.

ويرى ابن عطية: أنّ الآيات التي أولها { يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ - إلى قوله - فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي إخبار من الله تعالى صفة لليوم الذي وقف إبراهيم عنده في دعائه ألّا يُخزى فيه. وهو استظهار رشيق.

والاقتصار على المال والبنين في نفي النافعين جرى على غالب أحوال القبائل في دفاع أحد عن نفسه بأن يدافع إمّا بفدية وإمّا بنجدة، فالمال وسيلة الفدية، والبنون أحقّ من ينصرون أباهم. واقتضى ذلك أنّ انتفاء نفع ما عدا المال والبنين من وسائل الدفاع حاصل بالأولى بحكم دلالة الاقتضاء المستندة إلى العرف. فالكلام من قبيل الاكتفاء، كأنّه قيل: يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء آخر.

{ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } استثناء من مفعول { يَنْفَعُ }، تقديره: إلّا أحد أتى الله بقلب سليم.

فالذي يأتي الله يومئذ بقلب سليم هو منفوع بدلالة الاستثناء وهو نافع، أي: نافع نفسه، بدلالة المجرور المتعلق بفعل { أَتَى }.

القلب: يراد به هنا الإدراك الباطني.

السليم: الموصوف بقوّة السلامة، والمراد بها هنا السلامة المعنوية المجازية، أي: الخلوص من عقائد الشرك مما يرجع إلى معنى الزكاء النفسي. والاقتصار على السليم هنا لأنّ السلامة باعث الأعمال الصالحة والظاهرية، وإنّما تثبت للقلوب هذه السلامة في الدنيا باعتبار الخاتمة فيأتون بها سالمة يوم القيامة.

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ [90] وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ [91] وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [92] مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ [93] فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ [94] وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [95] }.

{ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ** } الظاهر أنّ الواو واو الحال، والعامل فيها { لا يَنْفَعُ مَالٌ } [88]، أي: يوم عدم نفع من عدا من أتى الله بقلب سليم وقد أزلفت الجنّة للمتقين.

والانتقال إلى تصوير هذه الأحوال شيء اقتضاه مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرهبة، لأنّه ابتدأ الدعوةَ بإلقاء السؤال على قومه فيما يعبدون إيقاظا لبصائرهم، ثمّ أعقب ذلك بإبطال إلهية أصنامهم، والاستدلال على عدم استئهالها الإلهية بدليل التأمّل، وهو أنّها فاقدة السمع والبصر وعاجزة عن النفع والضرّ، ثمّ طال دليل التقليد الذي نحا إليه قومه لمّا عجزوا عن تأييد دينهم بالنظر.

فلمّا نهضت الحجة على بطلان إلهية أصنامهم انتصب لبيان الإله الحق رب العالمين، الذي له صفات التصرّف في الأجسام والأرواح، تصرّف المنعم المتوحّد بشتّى التصرّف، إلى أن يأتي تصرّفه بالإحياء المؤبّد، ليعلموا أنّهم إن استغفروا الله عمّا سلف منهم من كفر فإنّ الله يغفر لهم، وأنّهم إن لم يقلعوا عن الشرك لا ينفعهم شيء يوم البعث. ثمّ صوّر لهم عاقبة حالي التقوى والغواية بذكر الدارين.

ولما كان قوم إبراهيم مستمرّين على الشرك ولم يكن يومئذ أحد مؤمنا غيره وغير زوجه وغير لوط ابن أخيه، كان المقام بذكر الترهيب أجدر ، فلذلك أطنب في وصف حال الضالين يوم البعث وسوء مصيرهم، حيث يندمون على ما فرّطوا في الدنيا من الإيمان والطاعة ويتمنّون أن يعودوا إلى الدنيا ليتداركوا.

الإزلاف: التقريب. وتقدّم في قوله { وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ } [64]. والمعنى: أنّ المتّقين يجدون الجنّة حاضرة فلا يتجشّمون مشقّة السوق إليها.

{ **وَبُرِّزَتِ** } مبالغة في أُبرزت، لأنّ التضعيف فيه مبالغة ليست في التعدية بالهمزة، ونظيره قوله { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى } [النازعات:36].

{ **لِلْغَاوِينَ** } الموصوفون بالغواية، أي: ضلال الرأي.

{ **وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } ذكر ما يقال للغاوين للإنحاء عليهم وإظهار حقارة أصنامهم، وفي الاقتصار على ذكر هذا دون غيره ممّا يخاطبون به يومئذ لمقام طلب الإقلاع عن عبادة تلك الأصنام.

{ **وَقِيلَ** } أُسند فعل القول إلى غير معلوم لأنّ الغرض معرفة القول لا القائل، فالقائل الملائكة بإذن من الله تعالى، لأنّ المشركين أحقر من أن يوجّه الله إليهم خطابه مباشرة.

والاستفهام استفهام عن تعيين مكان الأصنام إن لم تكن حاضرة، أو عن عملها إن كانت حاضرة في ذلك

الموقف، تنزيلا لعدم جدواها فيما كانوا يأملونه منها، منزلة العدم، تهكّما وتوبيخا وتوقيفا على الخطأ.

{ **هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ** } استفهام مع الإنكار أن تكون الأصنام نصراء.

الانتصار: طلب النصير.

{ **أَوْ** } للتخيير في التوبيخ والتخطئة، أي: هل أخطأتم في رجاء نصرها إياكم؟ أو في الأقل هل تستطيع نصر أنفسها؟ وذلك حين يُلقى بالأصنام في النار بمرأى من عبدتها.

{ **فَكُبْكِبُوا** } كُبُّوا فيها كبًّا بعد كبٍّ. مضاعف بالتكرير، وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى مثل: كفكف الدمع، ونظيره في الأسماء: جيش لَمْلَمٌ، أي: كثير، مبالغة في اللَّم.

{ **يَنْصُرُكُمُ - يَنْتَصِرُونَ - كُبْكِبُوا** } الضمائر عائد إلى { مَا تَعْبُدُونَ } بتنزيلها منزلة العقلاء.

جنود إبليس: هم أولياؤه وأصناف أهل الضلالات التي هي من وسوسة إبليس.

وتقدّم الكلام على إبليس في سورة البقرة.

{ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ [96] تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ [97] إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [98] وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ [99] فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ [100] وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [101] فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [102] }.

يجوز أن يكون هذا من حكاية كلام إبراهيم عليه السلام أطنب به الموعظة لتصوير هول ذلك اليوم، فتكون الجملة حالا، أو تكون مستأنفة استئنافا بيانيا كما سيأتي.

ويجوز أن يكون هذا الكلام موعظة من الله للسامعين من المشركين وتعليما منه للمؤمنين، فتكون الجملة استئنافا معترضا بين ذكر القصّة والتي بعدها، وهو استئناف بياني ناشئ عن قوله { فَكُبْكِبُوا فِيهَا }، لأنّ رؤيتهم أصنامهم هو مثار الخصومة بينهم.

{ **قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ** } في موضع الحال.

{ **تَاللَّهِ** } جيء في القسم بـ (التاء) دون (الواو) لأنّ التاء تختصّ بالقسم في شيء متعجَّب منه كما تقدّم في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ } [يوسف:73]، وقوله { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } [الأنبياء:57]. فهم يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئا.

{ **إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } أفادوا تمكّن الضلال منهم باجتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة، وأكّدوا ذلك بوصفهم الضلال بالمبين، أي: الواضح البيّن. وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشَّى عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مسكة من عقل.

{ **إِذْ نُسَوِّيكُمْ** } ظرف متعلق بـ { كُنَّا }، أي: كنّا في ضلال عند تسوية الأصنام برب العالمين. وليست { إِذْ } بموضوعة للتعليل.

التسوية: المعادلة والمماثلة، أي: إذ نجعلكم مثل ربّ العالمين، فالظاهر أنّهم جعلوهم مثله مع الاعتراف بالإلهية، وهو ظاهر حال إشراكهم كما تقدّم في قوله { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [77]،

وضمير الخطاب موجَّه إلى الأصنام، وهو من توجيه المتندِّم الخطابَ إلى الشيء الذي لا يعقل وكان سببا في الأمر الذي جرَّ إليه الندامة. والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه. منه ما روى الغزالي في الإحياء: أنّ عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق فوجده ممسكا بلسانه بأصبعيه وهو يقول: أنت أوردتني الموارد. وعن ابن مسعود أنّه وقف على الصفا يلبِّي ويقول: يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شرّ تسلم.

وصيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة حين يتوجّهون إلى الأصنام بالدعاء والنعوت الإلهية.

{ **وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ** } خطاب بعض العامة لبعض. وعنوا بالمجرمين أيمة الكفر الذين ابتدعوا لهم الشرك واختلقوا لهم دينا. والمناسب أن يكون التعريف في { الْمُجْرِمُونَ } مستعملا في كمال الإجرام، فإنّ من معاني اللام أن تدلّ على معنى الكمال.

{ **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ** } رتّبوا بـ (الفاء) انتفاء الشافعين على جملة { وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ } حيث أطمعوهم بشفاعة الأصنام لهم عند الله، مثل المشركين من العرب { وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]. وهذا الخبر مستعمل في التحسّر والتوجّع.

الشافع: الذي يكون واسطة جلب نفع لغيره أو دفع ضرّ عنه. وتقدّم ذكر **الشفاعة** في قوله تعالى { وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ } [البقرة:123]، و**الشفيع** في [يونس:18].

{ **وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** } تتميم أثاره ما يلقونه من سوء المعاملة ومن الحرمان الذي يعاملهم به كلّ من يسألونه الرفق بهم، حتّى علموا أنّ جميع الخلق تتبرّأ منهم، كما قال تعالى { وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:166]. ويومئذ حقّت كلمة الله { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف:67].

الصديق: هو الذي يواسيك أو يتوجّع لحالك، وتقدّم في قوله تعالى { أَوْ صَدِيقِكُمْ } [النور:61].

الحميم: القريب، فعيل من حَمَّ (بفتح الحاء) إذ دنا وقرب، أخصّ من الصديق.

{ **مِنْ شَافِعِينَ - وَلا صَدِيقٍ** } المراد جنس الشفيع وجنس الصديق لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكَّد بـ {مِنْ} الزائدة، وفي ذلك السياق يستوي المفرد والجمع في الدلالة على الجنس. والذي يبدو لي أنّه أوثر جمع {شَافِعِينَ} لأنّه أنسب بصورة ما في أذهانهم. وأمّا إفراد { صَدِيقٍ } فلأنّه أريد أن يجرى عليه وصف {حَمِيمٍ} فلو جيء بالموصوف جمعا لاقتضى جمع وصفه، وجمع { حَمِيمٍ } فيه ثقل لا يناسب منتهى الفصاحة ولا يليق بصورة الفاصلة، مع ما حصل في ذلك من التفنّن الذي هو من مقاصد البلغاء.

{ **فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } فرَّعوا على هذا التحسّر والندامة تمنِّي أن يُعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في الإيمان بالله وحده. و(لو) هذه للتمني، وأصلها (لو) الشرطية لكنّها تنوسي منها معنى الشرط. وأصلها: لو أُرجعنا إلى الدنيا لآمنا، لكنّه إذا لم يُقصد تعليق الامتناع على امتناع تمحَّضت (لو) للتمنِّي لما بين الشيء الممتنع وبين كونه متمنًّى من المناسبة.

الكرَّة: مرة من الكرّ وهو الرجوع.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [103] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [104] }.

تكرير ثالث لهاته الجملة تعدادا على المشركين وتسجيلا لتصميمهم.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى كلام إبراهيم عليه السلام، فإنّ فيه دليلا بيّنا على وحدانيّة الله تعالى وبطلان إلهية الأصنام. فكما لم يهتد بها قوم إبراهيم فما كان أكثر المشركين بمكة بمؤمنين بها بعد سماعها، ولكنّ التبليغ حقّ على الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ [105] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ [106] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [107] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [108] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [109] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [110] }.

استئناف لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناشئ عن قوله { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } [103]، أي: لا تأس عليهم ولا يعظم عليك أنّهم كذبوك فقد كذَّبت قوم نوح المرسلين. وقد علم العرب رسالة نوح.

{ **كَذَّبَتْ** } أُنِّث الفعل المسند إلى قوم نوح لتأويل { قَوْمُ } بمعنى الأمّة أو الجماعة كما يقال: قالت قريش، وقالت بنو عامر، وذلك قياس في كل اسم جمع لا واحد له من لفظه إذا كان للآدمي مثل: نفر ورهط، فأمّا إذا كان لغير الآدميين نحو إبل فمؤنث لا غير. قاله الجوهري.

{ **الْمُرْسَلِينَ** } جُمع لأنّ تكذيبهم لم يكن لأجل ذاته ولكنّه كان لإحالتهم أن يرسل الله بشرا وأن تكون عبادة أصنامهم ضلالا، فكان تكذيبهم إيّاه مقتضيا تكذيب كلّ رسول، لأنّ كلّ رسول يقول مثل ما قاله نوح عليه السلام. وقد حُكي تكذيبهم أن يكون الرسول بشرا في قوله { أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ } [الأعراف: 63].

{ **إِذْ قَالَ لَهُمْ** } ظرف، أي: كذّبوه حين قال لهم { أَلا تَتَّقُون }. وخص بالذكر في هذه السورة هذا الموقف من مواقفه لأنّه أنسب بغرض السورة في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر مماثل حاله مع قومه.

{ **أَخُوهُمْ نُوحٌ** } الأخ هنا مستعمل في معنى القريب من القبيلة. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [الأعراف:65]. وتقدّم ذكر **نوح** عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً } [آل عمران:33].

{ **أَلا تَتَّقُونَ** } يجوز أن يكون لفظ { أَلا } مركّبا من حرفين همزة استفهام دخلت على (لا) النافية، فهو استئناف عن انتفاء تقواهم مستعمل في الإنكار وهو يقتضي امتناعهم من الامتثال لدعوته.

ويجوز أن يكون { أَلا } حرفا واحدا هو حرف التحضيض مثل قوله تعالى { أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ } [التوبة:13]، وهو يقتضي تباطؤهم عن تصديقه.

التقوى: خشية الله من عقابه إيّاهم على أن جعلوا معه شركاء.

ويظهر أن قوله { أَلا تَتَّقُونَ } صدر بعد أن دعاهم من قبل وكرّر دعوتهم إذ رآهم مصرّين على الكفر، ويدلّ لذلك قولهم في مجاوبته { وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } [111].

{ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** } تعليل للإنكار أو للتحضيض، أي: كيف تستمرون على الشرك وقد نهيتكم عنه، وأنا رسول لكم أمين عنكم. وكان نوح موسوما بالأمانة لا يُتّهم في قومه كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يلقّب الأمين في قريش. وفي حكاية استدلال نوح بأمانته بين قومه في هذه القصة المسوقة مثلا للمشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم تعريض بهم إذ كذّبوه بعد أن كانوا يدعونه الأمين.

والتأكيد لتوقّع الإنكار منهم.

{ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** } عطف على الكلام السابق، أي: علمتم أنّي أمين لكم، وتعلمون أنّي لا أطلب من دعوتكم إلى الإيمان نفعا لنفسي.

{ **عَلَيْهِ** } الضمير عائد إلى معلوم من مقام الدعوة.

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ** } إشارة إلى يوم الجزاء، وكانوا ينكرون البعث كما دلّ عليه قوله { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح:18].

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } تأكيد لقوله { أَلا تَتَّقُونَ } وهو اعتراض بين الجملتين المتعاطفتين. وكرّر الجملة لزيادة التأكيد، فيكون قد افتتح دعوته بالنهي عن ترك التقوى ثمّ علّل ذلك ثم أعاد ما تقتضيه جملة الاستفتتاح، ثم علّل ذلك بقوله { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } ، ثم أعاد جملة الدعوة في آخر كلامه مرة ثانية بمنزلة النتيجة للدعوة ولتعليلها.

{ **أَطِيعُونِ** } حذفت الياء في الموضعين كما حذفت في قوله { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [14].

{ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ [111] قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [112] إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ [113] وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ [114] إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ [115]** }.

{ **قَالُوا** } هم كبراء القوم الذي تصدّوا لمحاورة نوح.

{ **أَنُؤْمِنُ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ** } استفهام إنكاري، أي: لا نؤمن لك وقد اتّبعك الأرذولون. والجملة حاليّة.

الأرذولون: سقط القوم الموصوفون بالرذالة: وهي الخسّة والحقارة، أرادوا بهم ضعفاء القوم وفقراءهم.

تكّبروا وتعاظموا أن يكونوا والضعفاء سواء في اتّباع نوح. وهذا كما قال عظماء المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا كان من المؤمنين عمار وبلال وزيد ابن حارثة: أنحن نكون تبعا لهؤلاء، أطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم أن نتّبعك. فأنزل الله {وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام:52].

{ **قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } جواب نوح يحتاج إلى تدقيق في **لفظه ومعناه؛**

<u>فأمّا لفظه</u> فاقتران أوله بـ (الواو) يجعله في حكم المعطوف على كلام قومه تنبيها على اتصاله بكلامهم. وذلك كناية عن مبادرته بالجواب، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } بعد قوله {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة:124]. ويسمَّى عطف تلقين مراعاة لوقوعه في تلك الآية والأَوْلى أن يسمَّى عطف تكميل.

<u>وأمّا معناه</u> فهو استفهام بمعنى: وما علمي بأعمالهم؟ <u>أي: الله اعلم بحالهم. فهو إمساك عن الجواب.</u>

ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الذين ماتوا من صبيان المشركين: **" الله أعلم بما كانوا عاملين ".**

{ **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ** } قصر موصوف على الصفة، والموصوف هو حسابهم والصفة هي على ربّي. وهو ردّ لما تضمّنه كلام قومه من مطالبته بإبعاد الذين آمنوا لأنّهم لا يستحقّون أن يكونوا مساوين لهم في الإيمان الذي طلبه نوح من قومه.

الحساب: حقيقته العدّ، واستعمل في معنى تمحيص الأعمال وتحقيق ظواهرها وبواطنها بحيث لا يفوت منها شيء أو يشتبه.

والمعنى: أنّ الله هو الذي يتولّى معاملتهم بما أسلفوا وما يعملون، وبحقائق أعمالهم. وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم:**" فإذا قالوها** (لا إله إلا الله) **عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله "،** أي: تحقيق مطابقة باطنهم لظاهرهم على الله.

{ **لَوْ تَشْعُرُونَ** } تجهيل لهم ورَغْمٌ لغرورهم وإعجابهم الباطل. وجواب { لَوْ } محذوف دلّ عليه ما قبله.

والتقدير: لو تشعرون لشعرتم بأنّ حسابهم على الله لا عليَّ. ودلّ على أنّه جهّلهم قوله {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً

تَجْهَلُونَ} [هود: 29].

{ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** } بعد أن أبطل مقتضى طردهم صرّح بأنّه لا يفعله.

{ **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } استئناف في معنى التعليل.

المبين: من أبان المتعدّي، بمعنى بيَّن ووضَّح. والقصر إضافي وهو قصر موصوف على صفة.

وقد تقدّم في [هود:29] حكاية موقف لنوح عليه السلام مع قومه شبيه بما حُكي هنا، وبين الحكايتين اختلاف ما، فلعلّهما موقفان أو هما كلامان في موقف واحد حُكي أحدهما هنالك والآخر هنا، على عادة قصص القرآن، فما في إحدى الآيتين من زيادة يُحمل على أنّه مُكمِّل لما في الأخرى.

{ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ [116] قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ [117] فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [118] فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [119] ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ [120] }.

لمّا أعياهم الاستدلال صاروا إلى سلاح المبطلين وهو المناضلة بالأذى.

الرجم: الرمي بالحجارة، وقد غلب استعماله في القتل به.

{ **مِنَ الْمَرْجُومِينَ** } أي: من بين الذين يستحقّون الرجم.

{ **إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ** } خبر مستعمل في إنشاء التحسّر واليأس من إقلاعهم عن التكذيب، تمهيدا للدعاء عليهم. وحذف الياء للفاصلة، كما تقدّم في قوله { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ }.

الفتح: الحُكم، وتأكيده بـ { **فَتْحاً** } لإرادة حكم شديد، وهو الاستئصال.

{ **وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } احتراس.

المشحون: المملوء.

{ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ** } للتراخي الرتبي في الإخبار، لأنّ إغراق أمّة كاملة أعظم دلالة على عظيم القدرة من إنجاء طائفة من الناس.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [121] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [122] }

الآية في قصّة نوح دلالتها على أنّ الله لا يقرّ الذين يكذّبون رسله، ففي هذه القصّة آية للمشركين من قريش، وهم يعلمون قصة نوح والطوفان.

{ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ [123] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ [124] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [125] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [126] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[127]** }.

جملة مستأنفة استئناف تعداد لأخبار التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، وتكرير الموعظة للمكذّبين.

والقول في هذه الآيات كالقول في نظيرتها في أوّل قصّة نوح سواء، سوى أنّ قوله تعالى:

{ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ** } يفيد أنّهم كذبوا رسولهم هودا وكذّبوا رسالة نوح، لأنّ هودا وعظهم بمصير قوم نوح في قوله تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69].

{ **كَذَّبَتْ** } اقترن الفعل بتاء التأنيث لأنّ اسم (عاد) علم على أمّة، فهو مؤوّل بمعنى الأمّة.

{ **أَلا تَتَّقُونَ** } القول فيه مثل القول في نظيره المتقدّم في قصّة قوم نوح.

{ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** } هو كقول نوح لقومه، فإنّ الرسول لا يُبعث إلّا وقد كان معروفا بالأمانة وحسن الخُلق قبل الرسالة. ويدلّ لكون هود قد كان كذلك في قومه قول قومه له { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود:54] الدال على أنّهم زعموا أن تغيّر حاله عمّا كان معروفا به بسبب سوء اعتقاده في آلهتهم.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } تفريع. وحذف (الياء) للفاصلة، كحذفها في قصة نوح وإبراهيم.

{ **عاد - هود** } تقدّم ذكرهما عند قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [سورة الأعراف: 65].

{ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ [128] وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [129] وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [130]** }.

كانت عاد قد بلغوا مبلغا عظيما من البأس وعِظَم السلطان والتغلُّب على البلاد، مما أثار قولهم { مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت:15]. فقد كانت قبائل العرب تصف الشيء العظيم في نوعه بأنّه (عادي)، وكانوا أهل رأي سديد ورجاحة أحلام. فطال عليهم الأمد، وتفنّنوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذّات واشتدّ الغرور بأنفسهم فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونيّة إرضاء الله على أعمالهم، لحب الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفّوا بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين. وأرسل الله إليهم هودا ففاتحهم بالتوبيخ على ما فتنوا بالإعجاب به وبذمّه إذ ألهاهم التنافس فيه عن معرفة الله.

فمن سابق أعمال عاد أنّهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدلّ على الطريق كيلا يضلّ السائرون في تلك الرمال المتنقّلة، واحتفروا وشيّدوا مصانع للمياه، وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في

الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشراف من الأرض.

وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأنّ فيها حفظ النّاس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا. فأما إذا أُهمل إرضاء الله تعالى بها واتُّخذت للرياء والغرور بالعظمة، وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله انقلبت عظمة دنيوية محضة لا يُنظر فيها إلى جانب النفع ولا تحثُّ الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها، وقصاراها التمدّح بما وجدوه منها. **فصار وجودها شبيها بالعبث** لأنّها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها، لأنّ الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته.

{ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** } الهمزة للإنكار، لأنّه لمّا صار أثر البناء شاغلا عن المقصد النافع للحياة في الآخرة نزل فعلهم المفضي إلى العبث منزلة الذي أريد منه العبث عند الشروع فيه.

{ **بِكُلِّ** } مستعمل في الكثرة، أي: في الأرياع المشرفة على الطرق المسلوكة.

الرِيع: (بكسر الراء) الشَّرف، أي: المكان المرتفع، كذا عن ابن عباس. والطريق والفجُّ بين الجبلين، كذا قال مجاهد وقتادة.

الآية: العلامة الدالة على الطريق، وتطلق الآية على المصنوع المعجِب لأنّه يكون علامة على إتقان صانعه أو عظمة صاحبه.

العبث: العمل الذي لا فائدة نفع فيه.

المصانع: جمع مصنع وأصله (مَفْعَل) مشتق من صَنَعَ، فهو مصدر ميمي وصف به للمبالغة.

<u>قيل:</u> الجابية المحفورة في الأرض. وروي عن قتادة: مبنية بالجير يخزّن بها الماء ويسمَّى صهريجا وماجلا.

<u>وقيل:</u> قصور، وهو عن مجاهد.

<u>وكانت بلاد عاد ما بين عمان وحضرموت شرقا وغربا ومتغلغلة في الشمال إلى الرمال وهي **الأحقاف**.</u>

{ **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** } مستأنفة. و(لعلّ) للترجي، وهو طلب المتكلم شيئا مستقرب الحصول، والكلام تهكّم بهم، أي: أرجو لكل الخلود بسبب تلك المصانع.

وقيل: جعلت عاد بنايات على المرتفعات على الطرق يعبثون فيها ويسخرون بالمارة. وقد يفسّر هذا القول بأنّ الأمّة في حال انحطاطها حولت ما كان موضوعا للمصالح إلى مفاسد فعمدوا إلى ما كان مبنيّا لقصد تيسير السير والأمن على السابلة من الضلال في الفيافي المهلكة فجعلوه مكامن لهو وسخرية، كما اتُّخذت بعض أديرة النصارى في بلاد العرب مجالس خمر، وكما أدركنا الصهاريج التي في قرطاجنة كانت خزانا

لمياه زغوان المنسابة إليها على الحنايا فرأيناها مكامن للصوص ومخازن للدواب إلى أول هذا القرن سنة 1303 هـ.

وقيل: إنّ المصانع قصور عظيمة اتّخذوها، فيكون الإنكار عليهم متوجّها إلى الإسراف في الإنفاق على أبنية راسخة مكينة كأنّها تمنعهم من الموت فيكون الكلام مسوقا مساق الموعظة من التوغّل في الترف والتعاظم.

{ **وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** } أعقب به موعظتهم على اللهو واللعب والحرص على الدنيا بأن وعظهم على الشدّة على الخلق في العقوبة، وهذا من عدم التوازن في العقول فهم يبنون العلامات لإرشاد السابلة ويصطنعون المصانع لإغاثة العطاش فكيف يلاقي هذا التفكير تفكيرا بالإفراط في الشدّة على الناس.

البطش: الضرب عند الغضب بسوط أو سيف، وتقدّم في قوله { أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا } [الأعراف:195].

{ **جَبَّارِينَ** } حال من ضمير { بَطَشْتُمْ }، وهو جمع جبّار، و**الجبّار**: الشديد في غير الحقّ. أي: الإفراط في الأذى وهو ظلم، قال تعالى { إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } [القصص:19]. وشأن العقاب أن يكون له حدّ مناسب للذنب المعاقَب عليه بلا إفراط ولا تفريط.

{ **وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ** } يقصد مثل هذا النظم لإفادة الاهتمام بالفعل إذ يحصل من تكريره تأكيد مدلوله.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [131] وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ [132] أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ [133] وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [134] إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [135]** }.

لمّا أفاد الاستفهام في قوله { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً } معنى الإنكار على ما قارن بناءهم الآيات واتخاذهم المصانع وعلى شدّتهم على الناس عند الغضب فرّع عليه أمرهم باتقاء الله، وحصل مع ذلك التفريع تكرير جملة الأمر بالتقوى والطاعة.

{ **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ** } علّق بفعل التقوى في الجملة الأولى اسم الذات المقدّسة للإشارة إلى استحقاقه سبحانه التقوى لذاته، ثم علّق بفعل التقوى في هذه الجملة اسم الموصول بصلته الدالة على إنعامه، للإشارة إلى استحقاقه جلّ وعلا التقوى التي هي عنوان الشكر على ما أنعم به.

{ **أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** } تفصيل النعمة التي جاءت مجملة في القول السابق { الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ }، وأعيد فعل { أَمَدَّكُمْ } في جملة التفصيل لزيادة الاهتمام بذلك الإمداد، فهو للتوكيد اللفظي.

والجملة بمنزلة بدل البعض من جملة { أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ }، فإنّ فعل { أَمَدَّكُمْ } الثاني وإن كان مساويا للأوّل فإنّما صار بدلا منه باعتبار ما يتعلّق به من قوله { بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ } الذي هو بعض مما تعلمون. وكلا الاعتبارين، التوكيد والبدل، يقتضي الفصل، فلأجله لم تعطف الجملة.

وابتدأ في تعداد النعم بذكر **الأنعام** لأنّها اجلّ نعمة على أهل ذلك البلد، لأنّ منها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم، وكانوا أهل نجعة، فهي سبب بقائهم، وعطف عليها **البنين** لأنّهم نعمة عظيمة فهم أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم وكثرة أمّتهم، وعطف **الجنات والعيون** لأنّها بها رفاهيّة حالهم واتّساع رزقهم وعيش أنعامهم.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } تعليل لإنكار عدم تقواهم وللأمر بالتقوى، أي: أخاف عليكم عذابا إن لم تتقوا، فإنّ الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضدّه.

العذاب: يجوز ان يريد به عذابا في الدنيا توعّدهم الله به على لسانه، ويجوز أن يريد به عذاب يوم القيامة.

{ **يَوْمٍ عَظِيمٍ** } وصف { يَوْمٍ } بـ { عَظِيمٍ } على طريقة المجاز العقلي، أي: عظيم ما يحصل فيه من الأهوال

{ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ [136] إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ [137] وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [138] فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [139] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [140] }.

أجابوا بتأييسه من أن يقبلوا إرشاده، فجعلوا وعظه وعدمه سواء.

{ **أَوَعَظْتَ** } الهمزة للتسوية. وتقدّمت عند قوله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:6].

الوعظ: التخويف والتحذير من شيء فيه ضرّ، والاسم **الموعظة**، { وهدى وموعظة للمتقين } [المائدة:46].

{ **أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ** } وهو أشد في نفي الصفة عنه من أن لو قيل: أم لم تعظ.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** } تعليل لمضمون جملة { سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ }، أي: كان سواء علينا فلا نتّبع وعظك لأنّ هذا خلق الأولين.

{ **خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** } قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة وعاصم وخلف { **خُلُقُ** } بضم الخاء وضم اللام.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب { **خَلْقُ** } بفتح الخاء وسكون اللام.

فعلى قراءة الفريق الأول { خُلُقُ } (بضمّتين) فهو السجيّة المتمكّنة في النفس الباعثة على عمل يناسبها من خير أو شرّ، وقد فُسّر بالقوى النفسية، وهو تفسير قاصر فيشمل طبائع الخير وطبائع الشرّ ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلّا بقيد يُضمّ إليه، فيقال: خُلُق حسن، ويقال في ضدّه: سوء خُلُق، أو خُلُق ذميم، قال تعالى { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم:4]. وفي الحديث: **" وخالق الناس بخُلق حسن "**.

فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخُلق الحسن.

فخُلُق المرء مجموع غرائز (طبائع نفسية) مؤتلفة من انطباع فكري: إمّا جبلّي في أصل خلقته، وإمّا كسبي

ناشئ عن تمرّن الفكر عليه وتقلّده إيّاه لاستحسانه عن تجربة نفعه أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبّة ما شاهد. ومحاولته تسمى تَخَلُّقًا.

فإذا استقر وتمكّن من النفس صار سجيّة له يُجري أعماله على ما تمليه عليه وتأمره به نفسه بحيث لا يستطيع ترك العمل بمقتضاها، ولو رام حمل نفسه على عدم العمل بما تمليه سجيّته لاستصغر نفسه وإرادته وحقّر رأيه.

يجوز أن يكون المعنى على هذا، أنّهم أرادوا مدحا لما هم عليه من الأحوال التي أصرُّوا على عدم تغييرها، فيكون مرادهم أنّها خُلُق أسلافهم وأسوتهم، كما قال تعالى عن أمثالهم { تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } [إبراهيم:10]. فالإشارة تنصرف إلى ما هم عليه الذي نهاهم عنه رسولهم.

ويجوز أن يكونوا أرادوا ما يدعو إليه رسولهم: أي: ما هو إلّا من خُلق أناس قبله انتحلها، كما قال مشركو قريش { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25]. والإشارة إلى ما يدعوهم إليه.

وأمّا على قراءة الفريق الثاني { خَلْقُ } (بفتح الخاء وسكون اللام) مصدر هو الإنشاء والتكوين.

والخَلْقُ أيضا مصدر **خَلَقَ**: إذا كذب في خبره، ومنه قوله تعالى { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً } [العنكبوت:17]. وتقول العرب: حدّثنا فلان بأحاديث الخَلْق، وهي الخرافات المفتعلة، ويقال له: اختلاق بصيغة الافتعال الدالة على التكلّف والاختراع، قال تعالى { إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ } [ص:7].

فيجوز أن يكون المعنى أنّ ما تزعم من الرسالة عن الله كذب، وما تخبرنا من البعث اختلاق، فالإشارة إلى ما جاء به هود.

ويجوز أن يكون المعنى أنّ حياتنا كحياة الأوّلين نحيا ثم نموت، فالكلام على التشبيه البليغ وهو كناية عن التكذيب بالبعث الذي حذّرهم جزاءه في قوله { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [135].

يقولون: كما مات الأوّلون ولم يُبعث أحد منهم قط، فكذلك نحيا نحن ثم نموت ولا نُبعث. وهذا كقول المشركين { فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الجاثية:25]، فالإشارة في قوله { إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ } إلى الخَلق الذي هم عليه، كما دل عليه المستثنى.

ولا شك أن قوم هود نطقوا بلغتهم جملا كثيرة تنحلّ إلى هذه المعاني فجمعها القرآن في قوله { إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ } باحتمال اسم الإشارة واختلاف النطق بكلمة (خلق)، فلله إيجاز وإعجازه.

{ **فَكَذَّبُوهُ** } الفاء الفصيحة، أي: فتبين أنّهم بقولهم { سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ ...} قد كذّبوه فأهلكناهم.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً** ...} إلى آخره، هو مثل نظيره في قصة نوح.

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ [141] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ [142] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [143] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [144] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [145] }.

موقع هذا الجملة استئناف تعداد وتكرير كما تقدّم في قوله { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } [123]. والكلام على هذه الآيات مثل الكلام على نظيرها في قصة نوح.

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ } لأنّهم كذّبوا صالحا وكذّبوا هودا، لأنّ صالحا وعظهم بعاد في قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } [الأعراف:74] وبتكذيبهم هود كذّبوا بنوح أيضا، لأنّ هودا ذكّر قومه بمصير قوم نوح في آية { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69].

ثمود - صالح : تقدم ذكرهم عند قوله تعالى { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } [الأعراف:73]، وكان صالح معروفا بالأمانة، لأنّه لا يرسل رسول إلّا وهو معروف بالفضائل { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124]، وقد دلّ على هذا المعنى قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } [153] المقتضي تغيير حاله عمّا كان عليه، وهو ما حكاه الله عن قومه { قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا } [هود: 62].

{ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ [146] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [147] وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ [148] وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ [149] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [150] وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ [151] الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ [152] }.

كانوا قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى، وأنكروا البعث وغرّهم أيمة كفرهم في ذلك فجاءهم صالح عليه السلام رسولا يذكّرهم بنعمة الله عليهم بما مكّن لهم من خيرات وما سخّر لهم من أعمال عظيمة.

{ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ } نُزّل حالهم منزلة من يظنّ الخلود ودوام النعمة، فخاطبهم بالاستفهام الإنكاري التوبيخي وهو في المعنى إنكار على ظنّهم ذلك. وسلط الإنكار على فعل الترك لأنّ تركهم على تلك النعم لا يكون. فكان إنكار حصوله مستلزما إنكار اعتقاده.

وهذا الكلام تعليل للإنكار الذي في قوله { أَلا تَتَّقُونَ } [142] لأنّ الإنكار عليهم دوام حالهم يقتضي أنّهم مفارقون هذه الحياة وصائرون إلى الله. وفيه حث على العمل لاستبقاء تلك النعم بأن يشكروا الله عليها.

{ هَاهُنَا } إشارة إلى بلادهم، أي: في جميع ما تشاهدونه، وهذا إيجاز بديع.

{ آمِنِينَ } حال مبيّنة لبعض ما أجمله قوله { فِيمَا هَاهُنَا }. وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدلّ عليها اسم الإشارة لأنّها لا يشار إليها وهي **نعمة الأمن** التي هي من أعظم النعم، ولا يُتذوَّق طعم النعم الأخرى إلّا بها.

{ **فِي جَنَّاتٍ** } ينبغي أن يعلَّق بـ { آمِنِينَ } ليكون مجموع ذلك تفصيلا لإجمال اسم الإشارة، أي: اجتمع لهم الأمن ورفاهية العيش. و**الجنّات**: الحوائط التي تشجّر بالنخيل والأعناب.

الطلع: وعاء يطلع من النخل فيه ثمر النخلة في أوّل أطواره يخرج كنصل السيف في باطنه شماريخ القِنو، ويسمَّى هذا الطلع **الكِمَّ** (بكسر الكاف)، وبعد خروجه بأيام ينفلق ذلك الوعاء عن الشماريخ وهي الأغصان التي فيها الثمر كحب صغير، ثم يغلظ ويصير بسرا ثم تمرا.

الهضيم: بمعنى المهضوم، وأصل الهضم شدخ الشيء حتّى يلين، واستعير هنا للدقيق الضامر. وتلك علامة على أنّه يخرج تمرا جيّدا. والنخل الذي يثمر تمرا جيّدا يقال له: النخل الإناث وضدّه فحاحيل، وهي جمع فُحَّال (بضم الفاء وتشديد الحاء المهملة) أي: ذكر، وطلعه غليظ وتمره كذلك.

وخص النخل بالذكر مع أنّه مما تشمله الجنّات لقصد بيان جودته بأن طلعه هضيم.

{ **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً** } عطف على { آمِنِينَ }، عبّر بصيغة المضارع لاستحضار الحالة. وتقدّم ذلك في [الأعراف:74].

{ **فَارِهِينَ** } بصيغة اسم الفاعل في قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. وفي قراءة الجمهور بدون ألف بعد الفاء { **فَرِهِين** } صيغة مبالغة مشتقّ من الفراهة وهي الحذق والكياسة، أي: عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنّها مبنيّة.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } مفرَّع مثل نظيره في قصّة عاد.

{ **الْمُسْرِفِينَ** } أيمة القوم وكبراؤهم الذين يبقونهم في الضلالة استغلالا لجهلهم، وليسخِّروهم لفائدتهم.

الإسراف: الإفراط في شيء، والمراد به هنا الإسراف المذموم كلّه؛ في المال وفي الكفر.

{ **الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ** } وصفهم بذلك لأنّ الإسراف منوط بالفساد.

{ **وَلا يُصْلِحُونَ** } عطف تأكيد بنفي الضدّ، مثل قوله تعالى { وأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

{ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [153] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [154] }.

أجابوا موعظته بالبهتان فزعموه فقد رشده وتغيّر حاله، واختلقوا أنّ ذلك من اثر سحر شديد.

المسحَّر: اسم مفعول سَحَّرَه إذا سَحَرَه سحرّا متمكّنا منه.

{ **مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** } أبلغ في الاتصاف بالتسحير من أن يقال: إنّما أنت مسحَّر.

{ **مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** } لمّا تضمّن قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } تكذيبهم إيّاه أيدوا تكذيبه بأنّه بشر مثلهم.

{ **فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } فرّعوا على تكذيبه المطالبة بأن يأتي بآية على صدقه، أي: أن يأتي بخارق عادة يدلّ على أنّ الله صدَّقه في دعوى الرسالة عنه.

{ **قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [155] وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ [156] فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ [157] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [158] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [159]** }.

تقدّم خبر هذه الناقة في [هود:64].

{ **لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ** } ذُكر هنالك أنّ صالحا جعل لها شِربا، (بكسر الشين وسكون الراء): النوبة في الماء للناقة، يوما تشرب فيه لا يزاحمونها فيه بأنعامهم.

{ **عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } تقدّم الكلام على نظيره في قصة عاد ورسولهم.

{ **فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ** } لمّا رأوا أشراط العذاب الذي توعّدهم به صالح، ولذلك لم ينفعهم الندم، لأنّ العذاب قد حلّ بهم سريعا، فلذلك عطف بـ (فاء) التعقيب.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً** ...} تقدّم نظيره.

{ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ [160] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ [161] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [162] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [163] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [164]** }.

القول في موقعها كالقول في سابقتها، والقول في تفسيرها كالقول في نظيرتها.

{ **أَخُوهُمْ لُوطٌ** } وجعل لوطا أخا لقومه ولم يكن من نسبهم وإنّما كان نزيلا فيهم، إذ كان قوم لوط من أهل فلسطين من الكنعانيين وكان لوط عبرانيّا وهو ابن أخي إبراهيم ولكنّه لمّا استوطن بلادهم وعاشر فيهم وحالفهم وظاهرهم جُعل أخا لهم. وهذا من إطلاق الأخوّة على ملازمة الشيء وممارسته، كقوله تعالى { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } [الإسراء: 27].

{ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ [165] وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [166] }.

هو في الاستئناف كقوله { أَتُتْرَكُونَ } [146] في قصّة ثمود.

الإتيان: كناية. و**الذكران**: جمع ذكر وهو ضد الأنثى.

{ **مِنَ الْعَالَمِينَ** } الأظهر فيه أنّه في موضع الحال من الواو في { أَتَأْتُونَ }.

{ **مِنْ** } فصلية، أي تفيد معنى الفصل بين متخالفين بحيث لا يماثل أحدهما الآخر. فالمعنى: مفصولين من العالمين لا يماثلكم في ذلك صنف من العالمين. وهذا المعنى جوّزه في الكشاف ثانيا، وهو أوفق بمعنى {الْعَالَمِينَ }.

فهذا تنبيه على أنّ هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان العجم، فهو عمل ابتدعوه ما فعله غيرهم، ونحوه قوله تعالى { إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ } [العنكبوت:28].

{ **وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ** } إيماء إلى الاستدلال بالصلاحية الفطرية لعمل على بطلان عمل يضاده، لأنّه مناف للفطرة. فهو من تغيير الشيطان وإفساده لسنّة الخلق قال تعالى حكاية عنه { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ } [النساء:119].

{ **بَلْ** } لإضراب الانتقال من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذمّ، تغليظا للإنكار بعد لينه، لأنّ شرف الرسالة يقتضي الإعلان بتغيير المنكر والأخذ بأصرح مراتب الإعلان، فإنّه إن استطاع بلسانه غليظ الإنكار لا ينزل منه إلى لينه، وأنّه يبتدئ باللين فإن لم ينفع انتقل منه إلى ما هو أشدّ، ولذلك انتقل لوط من قوله {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ } إلى قوله { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ }.

{ **أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** } الإتيان بالجملة الاسمية دون أن يقول: بل كنتم عادين، مبالغة في تحقيق نسبة العدوان إليهم.

{ **قَوْمٌ** } تنبيه على أنّ العدوان سجيّة فيهم حتّى كأنه من مقومات قوميّتهم، كما تقدم في قوله تعالى { لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة:164].

العادي: هو الذي تجاوز حدّ الحقّ إلى الباطل، يقال: عدا عليه، أي: ظلمه، وعدوانهم خروجهم عن الحدّ الموضوع بوضع الفطرة إلى ما هو مناف لها محفوف بمفاسد التغيير للطبع.

{ **قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ [167] قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ [168] رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ [169] فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ [170] إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ [171] ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ [172] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [173]** }.

كقول قوم نوح إلّا أنّ هؤلاء قالوا { لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ }، أي: هدّدوه بالإخراج لأنّه لم يكان من مدينتهم.

{ **مِنَ الْمُخْرَجِينَ** } هذه الصيغة أبلغ، كما تقدّم، من: لنخرجنّك.

{ **قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ** } جواب لوط على وعيدهم جواب مستخفّ بوعيدهم.

{ **رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ** } أقبل على الدعاء إلى الله أن ينجيه وأهله ممّا يعمل قومه، أي: من عذاب ما يعملونه، فلا بد من تقدير مضاف كما دلّ عليه قوله { فَنَجَّيْنَاهُ }. ولا يحسن جعل المعنى: نجّني من أن أعمل عملهم، لأنّه يفوت معه التعريض بعذاب سيحلّ بهم.

والقصة تقدّمت في [الأعراف: 80-84]، وفي [هود:77-83]، وفي [الحجر:59-77].

{ **فَنَجَّيْنَاهُ** } الفاء للتعقيب، أي: كانت نجاته عقب دعائه، حسبما يقتضي ذلك من أسرع مدّة بين الدعاء وأمر الله إيّاه بالخروج بأهله إلى قرية (صوغر).

العجوز: المرأة المسنّة، وهي زوج لوط.

{ **فِي الْغَابِرِينَ** }، **الغابر**: المتّصف بالغبور، وهو البقاء بعد ذهاب الأصحاب أو أهل الخيل. أي: باقية في العذاب بعد نجاة زوجها وأهله.

{ **ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ** } للتراخي الرتبي لأنّ إهلاك المكذّبين أجدر بأن يُذكر في مقام الموعظة من ذكر إنجاء لوط والمؤمنين.

التدمير: الإصابة بالدمار وهو الهلاك، وذلك أنّهم استؤصلوا بالخسف وإمطار الحجارة عليهم.

المطر: الماء الذي يسقط من السحاب. و**الإمطار**: إنزال المطر. وسُمِّي ما أصابهم من الحجارة مطرا لأنّه نزل عليهم من الجو. قيل: هو من مقذوفات براكين في بلادهم أثارتها زلازل الخسف فهو تشبيه بليغ.

{ **ساء** } فعل ذمّ بمعنى بئس.

{ **الْمُنْذَرِينَ** } تسجيل عليهم بأنّهم أنذروا فلم ينتذروا.

{ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [174] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [175] }.

أي: في قصّتهم المعلومة للمشركين آية، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137-138]، وتقدّم القول في نظيره آنفا.

{ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ [176] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ [177] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [178] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [179] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [180] }.

استئناف تعداد وتكرار كما تقدّم في جملة { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ }.

الأيكة: الشجر الملتف وهي الغيضة. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر { لَيْكَةِ } بلام مفتوحة بعدها ياء تحتية ساكنة ممنوعا من الصرف للعلمية والتأنيث. وقرأه الباقون { لْأَيْكَةِ } بحرف التعريف بعده همزة مفتوحة وبجر آخره على أنّه تعريف عهد لأيكة معروفة.

أصحاب الأيكة: اختُلف في أنّ أصحاب ليكة هم مدين أو هم قوم آخرون ساكنون في ليكة جوار مدين أرسل شعيب إليهم وإلى أهل مدين. وإلى هذا مال كثير من المفسّرين. روى عبد الله بن وهب عن جبير بن حازم عن قتادة قال: أُرسل شعيب إلى أمّتين؛ إلى قومه من أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة.

وروى ابن جريح عن ابن عباس: أنّ أصحاب الأيكة هم أهل مدين.

والأظهر أنّ أهل الأيكة قبيلة غير مدين، فإنّ مدين هم أهل نسب شعيب وهم ذرّيّة مدين بن إبراهيم من زوجه (قطورة) سكن مدين في شرق بلد الخليل كما في التوراة، فاقتضى ذلك أنّه وجده بلدا مأهولا بقوم فهم إذن أصحاب الأيكة فبنى مدين وبنوه المدينة وتركوا البادية لأهلها وهم سكّان الغيضة.

والذي يشهد لذلك ويرجّحه أنّ القرآن لمّا ذكر هذه القصة لأهل مدين وصف شعيبا بأنّه أخوهم، ولمّا ذكرها لأصحاب ليكة لم يصف شعيبا بأنّه أخوهم إذ لم يكن شعيب نسيبا ولا صهرا لأصحاب ليكة، وهذا إيماء دقيق إلى هذه النكتة. وممّا يرجّح ذلك قوله { وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ **وَإِنَّهُمَا** لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } [الحجر: 78 - 79] ، فجعل ضميرهم مثنّى باعتبار أنّهم مجموع قبيلتين: مدين وأصحاب ليكة.

وإنّما ترسل الرسل من أهل المدائن، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } [يوسف:109] وتكون الرسالة شاملة لمن حول القرية.

{ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ } افتتح شعيب دعوته بمثل دعوات الرسل من قبله للوجه الذي قدّمناه.

وشمل قوله { أَلا تَتَّقُونَ } النهي عن الإشراك، فقد كانوا مشركين، كما في آية سورة هود.

{ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ [181] وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ [182] وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [183] }.

استئناف من كلامه انتقل به من غرض الدعوة الأصلية بقوله { أَلا تَتَّقُونَ } إلى الدعوة التفصيليّة بوضع قوانين المعاملة بينهم، فقد كانوا مع شركهم بالله يطفّفون المكيال والميزان ويبخسون أشياء الناس إذا ابتاعوها منهم، ويفسدون في الأرض.

{ أَوْفُوا الْكَيْلَ } أمر بالإيفاء، أي: جعل الشيء تاما، أي: اجعلوا الكيل غير ناقص.

المُخْسِر: فاعل الخسارة لغيره، أي: المنقص.

القسطاس: (بضم القاف وبكسرها) من أسماء العدل، ومن أسماء الميزان، وتقدّم في قوله تعالى { وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [الإسراء:35]، حُمل على المعنيين هنا كما هنالك وإن كان الوصف بـ { المُسْتَقيمِ } يُرجّح أنّ المقصود به الميزان.

وتقدّم تفصيل ما يرجع إليه هذا التشريع في قصّته في [الأعراف:85].

{ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ } غبن منافعها وذمّها بغير ما فيها ليضطرُّوهم إلى بيعها بغبن.

البخس: النقص والذمّ. وتقدّم في قوله { وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً } [البقرة:282].

ومن بخس الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سلعة سليمة للبيع: إنّ سلعتك رديئة ليصرف عنها الراغبين فيشتريها برخص.

{ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ } [184]

كرّر هنا أمره بالتقوى للتأكيد، وزاد فيه دليل استحقاقه سبحانه التقوى بأنّه خلقهم وخلق الأمم من قبلهم، وباعتبار هذه الزيادة أدخل حرف العطف، ولو كان مجرّد تأكيد لم يصح عطفه.

{ الَّذِي خَلَقَكُمْ } إيماء إلى نبذ اتقاء غيره من شركائهم.

الجبلّة: (بكسر الجيم والباء وتشديد اللام) الخلقة، وأريد به المخلوقات، لأنّ الجبلّة اسم كالمصدر ولهذا وصف بـ { الْأَوَّلِينَ }. والمعنى: الذي خلقكم وخلق الأمم قبلكم.

{ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [185] وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ [186] فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [187] قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ [188]}

نفوا رسالته عن الله كناية وتصريحا فزعموه مسحورا. وذلك كناية عن بطلان أن يكون ما جاء به رسالة عن الله. وفي صيغة { **مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** } من المبالغة ما تقدم في قوله { مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [116] ومثيلاتها.

{ **وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** } الإتيان بواو العطف يجعل كونه بشرا إبطالا ثانيا لرسالته. وترك العطف في قصّة ثمود يجعل كونه بشرا حجّة على أنّ ما يصدر منه ليس وحيا على الله بل هو من تأثير كونه مسحورا. فمآل معنيي الآيتين متّحد ولكن طريق إفادته مختلف وذلك على حسب أسلوب الحكايتين.

{ **وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** } أطلق الظنّ على اليقين، وهو إطلاق شائع كقوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } [البقرة:46]، وقرينته هنا دخول اللام على المفعول الثاني لفعل (ظنّ)، لأنّ أصلها لام قسم.

{ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ** } الأمر للتعجيز.

الكِسْف: (بكسر الكاف وسكون السين) في قراءة من عدا حفصا: القطعة من الشيء.

وقرأ حفص { كِسَفاً } (بكسر الكاف وفتح السين) على أنّه جمع كِسْف كما في قوله { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء: 92].

{ **إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } كقول ثمود { فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [154]، إلّا أنّ هؤلاء عيّنوا الآية فيحتمل أنّ تعيينها اقتراح منهم، ويحتمل أنّ شعيبا أنذرهم بكسف يأتي فيه عذاب، وذلك هو يوم الظلّة.

{ **قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** } كان جواب شعيب بإسناد العلم إلى الله، فهو العالم بما يستحقّونه من العذاب.

{ **أَعْلَمُ** } هنا مبالغة في العالم وليس هو بتفضيل.

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [189]

الظُلّة: السحابة، كانت فيها صواعق متتابعة اصابتهم فأهلكتهم، كما تقدّم في [الأعراف:91]. وقد كان العذاب من جنس ما سألوه، ومن إسقاط شيء من السماء.

{ **فَكَذَّبُوهُ** } الفاء فصيحة، أي: فتبيّن من قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } أنّهم كذّبوه. وفي إعادة فعل التكذيب إيقاظ للمشركين بأنّ حالهم كحال أصحاب شعيب فيوشك أن يكون عقابهم كذلك.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [190] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [191] }.

أي: في ذلك آية لكفّار قريش إذ كان حالهم كحال أصحاب ليكة، فقد كانوا من المطفّفين مع الإشراك، قال تعالى { وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ - إلى قوله - لِيَوْمٍ عَظِيمٍ } [المطففين:1-5].

وقد تقدم القول في نظائره. وقد ذكرنا في طالعة هذا السورة وجه تكرير قوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً }.

{ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [192] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ [193] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [194] بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [195] }.

عَود إلى ما افتُتحت به السورة من التنويه بالقرآن وكونه الآية العظمى بما اقتضاه قوله { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [2] كما تقدّم، لتُختتم السورة بإطناب التنويه بالقرآن كما ابتدئت بإجمال التنويه به، والتنبيه على أنّه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين.

{ وَإِنَّهُ } الضمير عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر آيات الرسل الأوّلين. فبـ (واو) العطف اتصلت الجملة بالجمل التي قبلها، وبضمير القرآن اتصل غرضها بغرض صدر السورة.

{ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } معطوفة على الجمل التي قبلها المحكيّة فيها أخبار الرسل المماثلة أحوال أقوامهم لحال قوم محمد صلى الله عليه وسلم، وما أيّدهم الله به من الآيات، ليُعلم أنّ القرآن هو آية الله لهذه الأمّة، فعطْفها على الجمل التي مثلها عطْف القصّة على القصّة لتلك المناسبة. ولكن هذه الجملة متصلة في المعنى بجملة { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [2] بحيث لولا ما فصل بينها وبين الأخرى من طول الكلام لكانت معطوفة عليها.

وُجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ في التنويه بالقرآن تسلية له على ما يلاقيه من إعراض الكافرين عن قبوله وطاعتهم فيه.

{ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ } التأكيد بـ (إنّ) و(لام) الابتداء لردّ إنكار المنكرين.

التنزيل: مصدر بمعنى المفعول للمبالغة في الوصف حتّى كأنّ المنزَّل نفس التنزيل.

{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } بيان لـ { تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ }. والباء للمصاحبة.

{ الرُّوحُ الْأَمِينُ } : جبريل، وهو لقبه في القرآن، سُمّي روحا لأنّ الملائكة من عالم الروحانيّات.

وتقدّم الكلام على **الروح** في [الإسراء:85]، وتقدّم { رُوحُ الْقُدُسِ } [البقرة:87].

{ الْأَمِينُ } صفة جبريل لأنّ الله أمنه على وحيه.

{ **عَلَى قَلْبِكَ** } للاستعلاء المجازي، لأنّ النزول وصول من مكان عال فهو مقتض الاستقرار والتمكّن. مثل (على) التي في قوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ }]البقرة:5[.

القلب: يطلق على ما به قبول المعلومات، كما قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ } [ق:37].

ومعنى نزول جبريل على قلب النبيّ عليهما السلام: اتصاله بقوّة إدراك النبيّ لإلقاء الوحي الإلهي.

وقد وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك في حديث الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله: **أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثّل لي المَلَك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول** ". وهذان الوصفان خاصّان بوحي نزول القرآن.

وثمّة وحي من قبيل إبلاغ المعنى وسمّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث آخر **نَفْثًا**. فقال: " **إنّ روح القدس نفث في رُوعي أنّ نفسا لن تموت حتّى تستوفي أجلها** ". فهذا اللفظ ليس من القرآن فهو وحي بالمعنى . (**الرُّوع**: العقل).

وقد يكون الوحي في رؤيا النوم، فإنّ النبيّ لا ينام قلبه.

ويكون أيضا بسماع كلام الله من وراء حجاب.

وقد بيّنّا في شرح الحديث النكتة في اختصاص إحدى الحالتين ببعض الأوقات.

{ **لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** } لتكون من الرُّسل. واختير من أفعاله النذارة لأنّها أخصّ بغرض السورة فإنّها افتتحت بذكر إعراضهم وبإنذارهم.

{ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** } حال من الضمير المجرور في { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ }، والباء للملابسة.

اللسان: اللغة، أي: نزل بالقرآن بلغة عربية.

المبين: الموضِح الدلالة على المعاني التي يعنيها المتكلّم، فإنّ لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها لاحتمال المعاني الدقيقة الشريفة مع الاختصار، فإنّ ما في أساليب نظم كلام العرب من علامات الإعراب، والتقديم والتأخير، والحقيقة والمجاز والكناية، وما في سعة اللغة من الترادف، وأسماء المعاني المقيّدة، وما فيها من المحسِّنات، ما يلج بالمعاني إلى العقول سهلة متمكّنة، فقدّر الله تعالى هذه اللغة أن تكون هي لغة كتابه الذي خاطب به كافة الناس فأُنزل بادئ ذي بدء بين العرب، أهل ذلك اللسان ومقاويل البيان، ثم جُعل منهم حملته إلى الأمم تترجم معانيه فصاحتُهم وبيانُهم.

{ **وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ [196] أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ [197]** }.

تنويه آخر بالقرآن بأنّه تُصدِّقه كتب الأنبياء الأوّلين بموافقتها لما فيه، وخاصة في أخباره عن الأمم وأنبيائها.

{ **فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ** } أي: كتب الرسل السالفين.

ومعلوم أن ضمير القرآن لا يراد به ذات القرآن، أي: ألفاظه المنزّلة على النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ ليست سور القرآن وآياته مسطورة في زبر الأوّلين بلفظها كلّه، فتعيّن أن يكون الضمير للقرآن باعتبار اسمه ووصفه الخاص أو باعتبار معانيه:

فأمّا الاعتبار الأول (اسمه ووصفه الخاص)، فالضمير مؤوَّل بالعود إلى اسم القرآن كقوله تعالى { الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ } [الأعراف:157]، أي: يجدون اسمه ووصفه الذي يُعيّنه. فالمعنى أنّ ذكر القرآن وارد في كتب الأولين، أي: جاءت بشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنّه رسول يجيء بكتاب. ففي [سفر التثنية، الإصحاح:18] قول موسى: " قال لي الربُّ: أقيم لهم نبيّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به". إذ لا شك أنّ إخوة بني إسرائيل هم العرب كما ورد في [سفر التكوين، الإصحاح:16] عند ذكر الحمل بإسماعيل " وأمام جميع إخوته يسكن"، أي: لا يسكن معهم ولكن قبالتهم.

ولم يأت نبيّ بوحي مثل موسى وبشرع كشرع موسى غير محمد صلى الله عليه وسلم، وكلام الله المجعول في فمه هو القرآن.

وفي [إنجيل متَّى، الإصحاح:14] قال عيسى عليه السلام: " ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرا... ولكن الذي يصبر إلى المنتهى (أي: يدوم إلى آخر الدهر، أي: دينه، إذ لا خلود للأشخاص) فهذا يخلص ويَكْرَز (أي: يدعو) ببشارة الملكوت هذه في كلّ المسكونة (أي: الأرض المأهولة) شهادة لجميع الأمم (رسالة عامة) ثمّ يأتي المنتهى (أي: نهاية العالم) ".

فالبشارة هي الوحي، وهو القرآن، وهو الكتاب الذي دعا جميع الأمم، { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [إبراهيم:1]، وقوله { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [الإسراء: 89].

وفي [إنجيل يوحنا، الإصحاح:14] قول المسيح: " وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معَزيا (أي: رسولا) آخر ليمكث معكم إلى الأبد (هو دوام الشريعة)، هذا روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله (إشارة إلى تكذيب المكذبين) لأنّه لا يراه ولا يعرفه ".

وأمّا الاعتبار الثاني (باعتبار معانيه)، نحو قوله تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } [فاطر:10]، وقوله {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ } [مريم:41] أي: أحواله.

فالمعنى: أنّ ما جاء به القرآن موجود في كتب الأوّلين. وهذا كقول الإنجيل: " ويذكّركم بكلّ ما قلته لكم ".

{ **أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ** } تنويه ثالث بالقرآن، وحجّة على التنويه الثاني به الذي هو شهادة كتب الأنبياء له بالصدق، بأنّ علماء بني إسرائيل يعلمون ما في القرآن ممّا يختص بعلمهم.

{ **يَعْلَمَهُ** } شامل للعلم بصفة القرآن، أي: تحقّق صدق الصفات الموصوف بها، وشامل للعلم بما يتضمَّنه ممّا في كتبهم.

والضمير عائد إلى القرآن على تقدير: أن يعلم ذكره. ويجوز أن يعود على { وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ }.

{ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ [198] فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ [199] }.

كان من جملة مطاعن المشركين في القرآن أنّه ليس من عند الله ويقولون: تقوّله محمد من عند نفسه، وقالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا } فدمغهم الله بأن تحدّاهم بالإتيان بمثله فعجزوا.

وقد أظهر الله بهتانهم في هذه الآية بأنّهم إنّما قالوا ذلك حيث جاءهم بالقرآن رسول عربي وأنّه لو جاءهم بهذا القرآن رسول أعجمي لا يعرف العربية بأن أوحى الله بهذه الألفاظ إلى رسول لا يفهمها ولا يحسن تأليفها فقرأه عليهم، وفي قراءته وهو لا يحسن اللغة أيضا خارق عادة، لو كان ذلك لما آمنوا بأنّه رسول.

فلما فرغ من الاستدلال بتعجيزهم فضح نيّاتهم بأنّهم لا يؤمنون به في كلّ حال، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97/96].

{ **الْأَعْجَمِينَ** } جمع أعجم. والأعجم: شديد العُجمة، أي: لا يحسن كلمة بالعربية، وهو هنا مرادف أعجميّ (بياء النسب) فيصحّ في جمعه على أعجمين اعتبار أنّه لا حذف فيه، ويصحّ اعتبار حذف الياء للتخفيف.

{ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ [200] لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [201] فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [202] فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ [203] }.

{ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** } مستأنفة بيانية، أي: إن سألت عن استمرار تكذيبهم بالقرآن في حين أنّه نزل بلسان عربي مبين فلا تعجب، فكذلك سلوكه في قلوب المشركين، دخل قلوبهم بإبانته وعرفوا دلائل صدقه من أخبار علماء بني إسرائيل ومع ذلك لم يؤمنوا به. وتقدّم نظيره في [الحجر:12].

{ **سَلَكْنَاهُ** } أدخلناه.

{ **الْمُجْرِمِينَ** } لأنّ كفرهم بعد نزول القرآن إجرام.

{ **لا يُؤْمِنُونَ بِهِ** } في موضع الحال من { الْمُجْرِمِينَ }.

{ **حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ** } تهديد بعذاب سيحلّ بهم، وحثّ على المبادرة بالإيمان.

العذاب: صادق بعذاب الآخرة لمن هلكوا قبل حلول عذاب الدنيا، وصادق بعذاب السيف يوم بدر.

{ **فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً** } بدل اشتمال من جملة { يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } وأدخلت الفاء فيها لبيان صورة الاشتمال، أي: أن رؤية العذاب مشتملة على حصوله بغتة، أي: يرونه دفعة دون سبق أشراط له.

{ **فَيَقُولُوا** } الفاء لإفادة التعقيب في الوجود وهو صادق بأسرع تعذيب فتكون خطرة في نفوسهم قبل أن يهلكوا في الدنيا، أو يقولون ذلك ويردّدونه يوم القيامة حين يرون العذاب وحين يلقون فيه.

{ **هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ** } استفهام مراد به التمنّي مجازا، وجيء بعدها بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي: تمنّوا إنظارا طويلا يتمكّنون فيه من الإيمان والعمل الصالح.

{ **أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ [204] أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ [205] ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ [206] مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ [207]** }.

{ **أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب من غرورهم. والمعنى: أيستعجلون بعذابنا؟ فما تأخيره إلّا تمتيع لهم. وكانوا يستهزئون فيقولون { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [يونس:48]. قال مقاتل: قال المشركون للنبيّ صلى الله عليه وسلم: يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به، فنزلت { أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ }. وتقديم { **أَفَبِعَذَابِنَا** } للرعاية على الفاصلة وللاهتمام به في مقام الإنذار.

{ **أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ** } الاستفهام للتقرير، أي: أنّهم في مهلة منه ومتعة بالسلامة وأنّ ذلك يغرّهم بأنّهم في منجاة من الوعيد الذي جاءهم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم. ففي الكلام تعريض بالتهديد.

والرؤية قلبية، أي: أفعلمت. والخطاب لغير معيّن، يعمّ كلّ مخاطب، حتّى المجرمين.

{ **ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ** } للترتيب والمهلة، أي: جاءهم بعد سنين. وفيه رمز إلى أنّ العذاب حالّ بهم.

{ **مَا أَغْنَى عَنْهُمْ** } استفهام مستعمل في الإنكار، أي: لم يغن عنهم شيئا.

والمعنى: أعلمت أنّ تمتيعهم بالسلامة وتأخير العذاب، إن فرض امتداده سنين عديدة، غير مغن عنهم شيئا إن جاءهم العذاب بعد ذلك. وهذا كقوله تعالى { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [هود:8]، وذلك أنّ الأمور بالخواتيم.

{ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ } [208]

تذكير لقريش بأنّ القرى التي أهلكها الله والتي تقدّم ذكرها في هذه السورة قد كان لها رسل ينذرونها عذاب الله، ليقيسوا حالتهم على أحوال الأمم التي قبلهم.

والاستثناء من أحوال محذوفة. والتقدير: وما أهلكنا من قرية في حال من الأحوال إلّا في حال لها منذرون.

وعبّر عن الرُّسل بصفة الإنذار لأنّه المناسب للتهديد بالإهلاك.

{ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } [209]

أي: هذا بلاغ، وفي [إبراهيم:52] {هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ}، وفي [ص: 49] { هَذَا ذِكْرٌ } . والمعنى: هذه ذكرى لكم يا معشر قريش. وهذا المعنى هو أحسن الوجوه، وهو قول ابي إسحاق الزجاج والفراء.

وفي الآية معنى الإعذار لكفار قريش والإنذار بأنّهم سيحل بهم هلاك.

وحُذف مفعول { ظَالِمِينَ } لقصد تعميمه، كقوله تعالى { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف:49].

{ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ [210] وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ [211] إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ [212] }.

عطف على جملة { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وما بينهما اعتراض استدعاه تناسب المعاني وأخذ بعضها بحجر بعض تفنّنا في الغرض. وهذا ردّ على قولهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم هو كاهن { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [الطور: 29]، وزعمهم أنّ الذي يأتيه شيطان.

فقد قالت العوراء بنت حرب امرأة أبي لهب لمّا تخلّف رسول الله عن قيام الليل ليلتين لمرض: أرجو أن يكون شيطانك قد تركك.

فقد كانت العرب تعتقد أنّ الشياطين تسترق السمع، أي: تتحيّل على الاتصال بعلم ما يجري في الملأ الأعلى.

وبيان ذلك تقدّم في [الحجر:18] ويأتي في [الصافات:7].

{ **وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ** } ما يستقيم وما يصح، أي: لا يستقيم لهم تلقّي كلام الله تعالى الذي الشأن أن يتلقّاه الروح الأمين. والضمير عائد إلى ما عاد ضمير { بِهِ }، أي: ما ينبغي القرآن لهم، أي ما ينبغي أن ينزلوا به.

{ **وَمَا يَسْتَطِيعُونَ** } المفعول محذوف، أي ما يستطيعون تلقّيه لأنّ النفوس الشيطانية ظلمانية خبيثة بالذات فلا تقبل الانتقاش بصور ما يجري في عالم الغيب، فإنّ قبول فيضان الحق مشروط بالمناسبة بين المبدأ والقابل.

وقد تقدّم في سورة الحجر أنّ صنفا من الشياطين يتهيّأ للتلقي بما يسمَّى **استراق السمع** وأنّه يصرف عنه بالشهب.
{ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ } استئناف كالفذلكة لما قبله وهو بعمومه يتنزّل منزلة التذييل.
المعزول: المُبْعد عن أمر، فهو في عزلة عنه. وفي هذا إبطال للكهانة من أصلها. وهي وإن كانت فيها شيء من الاتصال بالقوى الروحية في سالف الزمان فقد زال ذلك منذ ظهور الإسلام.

{ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } [213]

لمّا وجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من قوله { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ } [193-194] إلى هنا، في آيات أشادت بنزول القرآن من عند الله تعالى وحقّقت صدقه بأنّه مذكور في كتب الأنبياء السالفين، وشهد به علماء بني إسرائيل، وأنحى على المشركين بإبطال ما ألصقوه بالقرآن من بهتانهم، لا جرم اقتضى ذلك ثبوت ما جاء به القرآن.
وأصل ذلك هو إبطال دين الشرك الذي تقلّدته قريش وغيرها وناضلت عليه بالأكاذيب، فناسب أن يتفرّع عليه النهي عن الإشراك بالله والتحذير منه.
{ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } خطاب لغير معيّن فيعم كل من يسمع هذا الكلام.
ويجوز أن يكون الخطاب موجها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه المبلّغ عن الله تعالى للاهتمام بهذا النهي مع تحقّق أنّه منته عن ذلك، فتعيّن أن يكون النهي للذين هم متلبّسون بالإشراك، ونظير هذا قوله تعالى { ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين } [الزمر:65].
وفي الكلام تعريض بالمشركين أنّهم سيعذّبون.

{ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [214]

عطف على قوله { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } [193-194]، فهو تخصيص بعد تعميم، للاهتمام بهذا الخاص. ووجه الاهتمام أنّهم أولى الناس بقبول نصحه وتعزيز جانبه، ولئلّا يسبق إلى أذهانهم أنّ ما يلقيه الرسول من الغلظة في الإنذار وأهوال الوعيد لا يقع عليهم لأنّهم قرابة هذا المنذر.
ويدلّ على هذا قوله صلى الله عليه وسلم في ندائه لهم: **" لا أغني عنكم من الله شيئا "** ،
وفيه تعريض بقلّة رعي كثير منهم حقّ القرابة، إذ آذاه كثير منهم وعصوه مثل أبي لهب.

وأن يعلموا أنّهم لا يُكتفى من مؤمنهم بإيمانه حتّى يضمّ إليه العمل الصالح، فهذا ممّا يدخل في النذارة، ولذلك دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية قرابته مؤمنين وكافرين.

ففي حديث عائشة وابن عباس وأبي هريرة في صحيحي البخاري ومسلم: لمّا نزلت { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } قام رسول الله على الصفا فدعا قريشا فجعل ينادي: **يا بني فهر يا بني عدي**، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فقال: **يا معشر قريش**، (فعمّ وخصّ)، **يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، أشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفيّة عمَّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا، غير أنّ لكم رحما سأبُلُّها ببِلالها ".**

وكانت صفيّة وفاطمة من المؤمنين وكان إنذارهما إعمال لفعل الأمر في معانيه كلّها من الدعوة إلى الإيمان وإلى صالح الأعمال، فجمع النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الإنذار من الشرك والإنذار من المعاصي.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } صعد النبيّ صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: **يا بني فهر يا بني عدي**، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال: **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ** ؟ قالوا: نعم ما جرّبنا عليك إلّا صدقا. قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.** فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } [المسد:1-2].

العشيرة: الأدنون من القبيلة، فوصف { **الْأَقْرَبِينَ** } تأكيد لمعنى العشيرة واجتلاب لقلوبهم إلى إجابة ما دعاهم إليه، وتعريض بأهل الإدانة منهم.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند.

وتقدّم ذكر العشيرة في قوله { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ } [براءة:24].

{ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [215]

معترض بين الجملتين ابتدارًا لكرامة المؤمنين قبل الأمر بالتبرؤ من الذين لا يؤمنون، وبعد الأمر بالإنذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس.

خفض الجناح: مَثَل للمعاملة باللين والتواضع. وتقدّم عند قوله { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر:88]، وقوله تعالى { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الإسراء:24]. والجناح للطائر بمنزلة اليدين للإنسان.
{ **لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } المراد المتابعة في الدين، وهي الأيمان. والغرض التنويه بشأن الإيمان.
كأنّه قيل: واخفض جناحك لهم لأجل إيمانهم.

{ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } [216]

تفريع على جملة { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } أي: فإن عصوك فما عليك إلّا أن تتبرّأ من عملهم.
فالتبرؤ إنّما هو من كفرهم. وذلك لا يمنع من صلتهم لأجل الرحم وإعادة النصح لهم كما قال { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } [الشورى:23]. وإنّما أُمر بأن يقول لهم ذلك لإظهار أنّهم أهل للتبرّؤ من أعمالهم، فلا يقتصر على إضمار ذلك في نفسه.

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ [217] الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ [218] وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ [219] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [220] }

قرأ نافع وابن عامر وأبي جعفر { **فَتَوَكَّلْ** } بفاء التفريع، فيكون تفريعا على { فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } تنبيها على المبادرة بالعوذ من شرّ أولئك الأعداء، وتنصيصا على اتصال التوكل بقوله { إِنِّي بَرِيءٌ }.
وقرأ الجمهور { **وَتَوَكَّلْ** } بالواو وهو عطف على جواب الشرط، أي: قل إنّي بريء وتوكّل، وعطفه على الجواب يقتضي تسبّبه على الشرط كتسبّب الجواب، وهو يستلزم البدار به.
ومآل القراءتين واحد وإنّ اختلف طريق انتزاعه.
والمعنى: فإن عصاك أهل عشيرتك فتبرأ منهم. ولما كان التبرؤ يؤذن بحدوث مجافاة وعداوة بينه وبينهم ثبّت الله جأش رسوله بأن لا يعبأ بهم وأن يتوكّل على ربه فهو كافيه، كما قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق:3].
{ **الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } الإيماء إلى أنّه يلاحظ قوله ويعلم نيّته، وللإشارة إلى أنّه بعزّته قادر على أن ينصره على عدوّه الذي هو أقوى منه، وأنّه برحمته يعصمه منهم.
وقد لوحظ هذان الاسمان غير مرّة في هذه السورة لهذا الاعتبار.
التوكّل: تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمّه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

{ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ** } الوصف مقصود به لازم معناه. وهو أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بمحلّ العناية منه لأنّه يعلم توجّهه إلى الله ويقبل ذلك منه.

{ **يَرَاكَ** } رؤية خاصة وهي رؤية الإقبال والتقبّل، كقوله تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

القيام: الصلاة في جوف الليل، غلب هذا الاسم عليه في اصطلاح القرآن.

{ **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** } صلاته في جماعات المسلمين في مسجده. وهذا يجمع معنى العناية بالمسلمين تبعا للعناية برسولهم، فهذا من بركته صلى الله عليه وسلم، وقد جمعها هذا التركيب عجيب الإيجاز.

وفي هذه الآية ذكر صلاة الجماعة.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } موقع التعليل للأمر بـ { فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ }، وللأمر بـ { تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } ، فصفة { السَّمِيعُ } مناسبة للقول، وصفة { الْعَلِيمُ } مناسبة للتوكّل، أي: أنّه يسمع قولك ويعلم عزمك. وضمير الفصل للتقوية.

{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ [221] تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [222] يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [223] }.

لما سفّه قولهم في القرآن: إنّه قول كاهن، فردّ عليهم بقوله { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ } وأنّه لا ينبغي للشياطين ولا يستطيعون مثله، وأنّهم حيل بينهم وبين أخبار أوليائهم، عاد الكلام إلى وصف حال كهّانهم.

{ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ** } استفهام صوري مستعمل كناية عن كون الخبر مما يُستأذن في الإخبار به. واختير له حرف استفهام دال على التحقيق وهو { هَلْ } لأنّها في الاستفهام بمعنى (قد). وهو استفهام لا يُترقب منه جواب المستفهَم لأنّه ليس بحقيقي، فلذلك يعقبه الإفضاء بما استفهم عنه قبل الإذن من السامع. ونظيره في الجواب قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ } [النبأ:2/1] وإن كان بين الاستفهامين فرق.

{ **عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ** } المجرور مقدّم على عاملة للاهتمام بالمُتنزَّل عليه.

{ **تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** } { كُلِّ } هنا مستعملة في معنى التكثير، أي: على كثير من الأفاكين، وهم الكهّان.

الأفّاك: كثير الإفك، أي: الكذب، و**الأثيم**: كثير الإثم.

وإنّما كان الكاهن أثيما لأنّه يضمّ إلى كذبه تضليل الناس بتمويه أنّه لا يقول إلّا صدقا، وأنّه يتلقّى الخبر من الشياطين التي تأتيه بخبر السماء.

{ **يُلْقُونَ السَّمْعَ** } صفة لـ { كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } ، أي: يظهرون أنّهم يلقون أسماعهم عند مشاهدة كواكب لتتنزل عليهم شياطينهم بالخبر، وذلك من إفكهم وإثمهم.

إلقاء السمع: هو شدة الإصغاء، شُبِّه توجيه حاسة السمع إلى المسموع الخفي بإلقاء الحجر من اليد إلى الأرض أو في الهواء، قال تعالى { أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } [ق:37].

{ **وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** } أي: أكثر هؤلاء الأفّاكين كاذبون فيما يزعمون أنّهم تلقّوه من الشياطين. فالقليل منهم فقط يتلقّى الشيء اليسير فيكذب عليه أضعافه.

ففي الحديث الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكهّان فقال: **ليسوا بشيء** قيل: يا رسول الله فإنّهم يحدّثون أحيانا بالشيء يكون حقًّا. فقال: **تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيَقَرُّها في أذُن وليّه قَرَّ الدجاجة فيخلطون عليها أكثر من مائة كذبة.**

ولمّا كان حال الكهّان قد يلتبس على ضعفاء العقول ببعض أحوال النبوّة في الإخبار عن غيب، وأسجاعهم قد تلتبس بآيات القرآن في بادئ النظر. أطنبت الآية في بيان ماهية الكهانة وبيّنت أنّ قصاراها الإخبار عن أشياء قليلة قد تصدق. فأين هذا من هدي النبيّ والقرآن وما فيه من الآداب والإرشاد والتعليم والبلاغة والفصاحة والصراحة والإعجاز.

{ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ** [224] **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ** [225] **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** [226] **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** [227] }.

كان ممّا حوته كنانة بهتان المشركين أن قالوا في النبيّ صلى الله عليه وسلم: هو شاعر، فلما نثلت الآيات السابقة سهام كنانتهم وكسرتها، وكان منها قولهم: هو كاهن، لم يبقَ إلّا إبطال قولهم: هو شاعر.

وكان بين الكهانة والشعر جامع في خيال المشركين، إذ كانوا يزعمون أنّ للشاعر شيطانا يملي عليه الشعر وربما سمُّوه الرَّئِيّ، فناسب أن يقارن بين تزييف قولهم في القرآن: هو شعر، وقولهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم: هو شاعر، وبين قولهم: هو قول كاهن، كما قرن بينهما في قوله تعالى { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ } [الحاقة:42/41].

ولمّا كان حال الشعراء في نفس الأمر مخالفا لحال الكهان، إذ لم يكن لملكة الشعر اتصال بالنفوس الشيطانية وإنّما كان ادعاء ذلك من اختلاق بعض الشعراء أشاعوه بين عامة العرب، اقتصرت الآية على نفي أن يكون الرسول شاعرا، وأن يكون القرآن شعرا. دون تعرّض إلى أنّه تنزيل الشياطين، كما جاء في ذكر الكهانة.

وقد كان نفر من الشعراء بمكّة يهجون النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان المشركون يُعْنَون بمجالسهم وسماع أقوالهم، ويجتمع إليهم الأعراب خارج مكة يستمعون أشعارهم وأهاجيهم، ومن هؤلاء (النضر بن الحارث -

هبيرة بن أبي وهب - مُسافع بن عبد مناف - أبو عزّة الجمحمي - ابن الزِّبَعْرَى - أميّة بن أبي الصلت - أبو سفيان ابن الحارث - العوراء بنت حرب زوج أبي لهب، التي لقّبها القرآن { حَمَّالَةَ الْحَطَبِ } [المسد:4]).

فكانت هذه الآية نفيا للشعر أن يكون من خلق النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذمّا للشعراء الذين تصدّوا لهجائه.

{ **يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ** } ذم لأتباعهم وهو يقتضي ذمّ المتبوعين بالأحرى.

الغاوي: المتّصف بالغيّ والغواية، وهي الضلالة الشديدة، أيّ يتبعهم أهل الضلالة والبطالة، الراغبون في الفسق والأذى.

فقد اشتملت هذه الجملة على تنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم وتنزيه أصحابه، وعلى ذمّ الشعراء وذم أتباعهم وتنزيه القرآن عن أن يكون شعرا.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي هنا لمجرّد التقوّي والاهتمام بالمسند إليه للفت السمع إليه، والمقام مستغن عن الحصر، لأنّه إذا كانوا يتّبعهم الغاوون فقد انتفى أتباعهم عن الصالحين.

وجعله في الكشاف للحصر، أيّ لا يتبعهم إلّا الغاوون، لأنّه أصرح في نفي اتباع الشعراء عن المسلمين.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الرؤية قلبية، لأنّ الهُيام والوادي مستعاران لمعاني اضطراب القول في أغراض الشعر، وذلك ممّا يُعلم لا ممّا يُرى.

والاستفهام تقريري، وأجري التقرير على نفي الرؤية لإظهار أنّ الإقرار لا محيد عنه. والخطاب لغير معيّن.

ومُثّلت حال الشعراء بحال الهائمين في أودية كثيرة مختلفة، لأنّ الشعراء يقولون في فنون من الشعر من هجاء واعتداء على أعراض الناس، ومن نسيب وتشبيب بالنساء، ومدح من يمدحونه رغبة في إعطائه وإن كان لا يستحق المدح، وذمّ من يمنعهم وإن كان من أهل الفضل، وربّما ذمّوا من كانوا يمدحونه ومدحوا من سبق لهم ذمّه.

{ **كُلِّ** } مستعمل في الكثرة.

الواد: المنخفَض بين عدوتين. وإنما ترعى الإبل الأودية إذا أقحلت الرَّبى، فمُثِّل حال الشعراء بحال الإبل الراعية في الأودية متحيّرة.

الهُيام: هو الحيرة والتردّد في المرعى.

{ **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** } شفَّع مذمَّتهم هذه بمذمَّة الكذب. والشاعر يقول ما لا يعتقد وما يخالف الواقع حتّى قيل: أحسن الشعر أكذبه.

والكذب مذموم في الدين الإسلامي فإن كان الشعر كذبا لا قرينة على مراد صاحبه فهو قبيح، وإن كان عليه قرينة كان كذبا معتذرا عنه فكان غير محمود.

وفي هذا إبداء للبون الشاسع بين حال الشعراء وحال النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يقول إلّا حقًّا ولا يصانع ولا يأتي بما يُضلِّل الأفهام.

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } استثناء من عموم الشعراء، أي: من حكم ذمّهم. وبهذا الاستثناء تعيّن أنّ المذمومين هم شعراء المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن والدخول في الإسلام.

{ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً } أي: كان إقبالهم على القرآن والعبادة أكثر من إقبالهم على الشعر.

{ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } وهم من أسلموا من الشعراء وقالوا الشعر في هجاء المشركين والانتصار للنبيّ صلى الله عليه وسلم، مثل الذين أسلموا وهاجروا إلى الحبشة، فقد قالوا شعرا كثيرا في ذمّ المشركين. وكذلك من أسلموا من الأنصار (عبد الله بن رواحة - حسّان بن ثابت)، ومن أسلم من بعد من العرب مثل (لبيد - كعب بن زهير - سُحيم عبد بني الحسحاس)

وليس ذكر المؤمنين من الشعراء بمقتضي كون بعض السورة مدنيّا.

وقد دلّت الآية على أن للشعر حالتين: حالة مذمومة، وحالة مأذونة، فتعيّن أن ذمّه ليس لكونه شعرا ولكن لما حفّ به من معان وأحوال اقتضت المذمّة، فانفتح بالآية للشعر باب قبول ومدح فحقّ على أهل النظر ضبط الأحوال التي تأوي إلى جانب قبوله أو إلى جانب مدحه، والتي تأوي إلى جانب رفضه. وقد أومأ إلى الحالة الممدوحة قوله { وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا }، وإلى الحالة المأذونة قوله { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }.

وقد أثنى النبيّ صلى الله عليه وسلم على بعض الشعر مما فيه محامد الخصال واسْتَنْصَتَ أصحابه لشعر كعب بن زهير ممّا فيه دقة صفات الرواحل الفارهة، وأذن لحسّان في مهاجاة المشركين وقال له: **"كلامك أشد عليهم من وقع النبل "** وقال له: **" قل ومعك روح القدس "**.

وسيأتي شيء من هذا عند قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ } [يس:69]. وأجاز عليه كما أجاز كعب بن زهير، فخلع عليه بردته، فتلك حالة مقبولة لأنّه جاء مؤمنا.

وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: **" أصدق كلمة، أو أشعر كلمة قالتها العرب كلمة لبيد:** " ألّا كلّ شيء ما خلا الله باطل ".

وكان يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من الحكمة وقال: **" كاد أمية أن يسلم "**.

وفي الشعر تحبيب لفصاحة العربية وبلاغتها، وهو آيل إلى غرض شرعي من إدراك بلاغة القرآن.

{ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } أي: من بعد ما ظلمهم المشركون بالشتم والهجاء.

{ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } ناسب ذكر الظلم أن ينتقل منه إلى وعيد الظالمين وهم المشركون الذين ظلموا المسلمين بالأذى والشتم بأقوالهم وأشعارهم.

وجُعلت هذه الآية في موقع التذييل فاقتضت العموم في مسمَّى الظلم الشامل للكفر وهو ظلم المرء نفسه، وللمعاصي القاصرة على النفس كذلك، وللاعتداء على حقوق الناس.

والآية تحذيرٌ من غمص الحقوق وحثٌّ عن استقصاء الجهد في النصح للأمّة، وهي ناطقة بأهْيَبِ موعظة وأَهْوَل وعيد لمن تدبّرها، لما اشتملت عليه من حرف التنفيس المؤذن بالاقتراب، ومن اسم الموصول المؤذن بأنّ سوء المنقلب يترقّب الظالمين لأجل ظلمهم، ومن الإبهام في قوله { أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ }، إذ ترك تبيينه بعقاب معيّن لتذهل نفوس الموعدين في كلّ مذهب ممكن من هول المنقلب، وهو على الإجمال منقلب سوء.

المنقلب: مصدر ميمي من الانقلاب، وهو المصير والمآل، لأنّ الانقلاب هو الرجوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل

أشهر أسمائها سورة النمل. وكذلك سُمِّيت في صحيح البخاري وجامع الترمذي. وتُسمَّى أيضا سورة سليمان. وذكر أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن أنّها تسمَّى سورة الهدهد.

ووجه الأسماء الثلاثة أنّ لفظ النمل ولفظ الهدهد لم يذكرا في سورة من القرآن غيرها، وأمّا تسميتها سورة سليمان فلأنّ ما ذكر فيها من مُلك سليمان مفصَّلًا لم يذكر مثله في غيرها.

وهي مكّيّة بالاتفاق كما حكاه ابن عطية والقرطبي والسيوطي وغير واحد.

وهي السورة **الثامنة والأربعون** في عداد نزول السور، نزلت بعد الشعراء وقبل القصص. كذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

وقد عُدَّت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة خمسا وتسعين، وعند أهل الشام والبصرة والكوفة أربعا وتسعين.

أغراض السورة

*/ افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه، بما يشير إليه الحرفان المقطّعان.

*/ التنويه بشأن القرآن وأنّه هدى لمن ييسّر الله له الاهتداء به دون من جحدوا أنّه من عند الله.

*/ التحدّي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء.

*/ الاعتبار بأعظم مُلك أوتيه نبيّ. وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام.

*/ الإشارة إلى أشهر أمّة في العرب أوتيت قوّة وهي أمّة ثمود.

*/ الإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ.

*/ محاجَّة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كُهَّانهم وعرَّافيهم، وسدنة آلهتهم.

*/ إثبات البعث وما يتقدّمه من أهوال القيامة وأشراطها.

*/ إثبات أنّ القرآن مهيمن على الكتب السابقة.

*/ موادعة المشركين وإنباؤهم بأنّ شأن الرسول الاستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأنّ آيات الصدق سيشاهدونها والله مطلع على أعمالهم.

قال ابن الفرس ليس في هذه السورة إحكام ولا نسخ. أي: أنّها لم تشتمل على تشريع قار ولا على تشريع منسوخ. **أقول**: قوله { لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً } يؤخذ منه حكمان كما سيأتي.

{ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ } [1]

{ طس } تقدّم القول في أنّ الراجح أنّ هذه الحروف تعريض بالتحدّي بإعجاز القرآن، وأنّه مؤتلف من حروف كلامهم.

{ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ } القول فيه كالقول في صدر سورة الشعراء، وخالفت هذه الآية سابقتها بثلاثة أشياء: بذكر اسم { الْقُرْآنِ } وبعطف { وَكِتَابٍ } عليه وبتنكير { كِتَابٍ }.

فأمّا ذكر اسم القرآن فلأنّه عَلَم للكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز والهدي. وهذا العلم يرادف (**الكتاب**) المعرّف بلام العهد المجعول علما بالغلبة على القرآن، إلّا أنّ اسم القرآن أدخل في التعريف لأنّه علم منقول. وأمّا الكتاب فعلم بالغلبة.

{ وَكِتَابٍ مُبِينٍ } المراد القرآن أيضا ولا وجه لتفسيره باللوح المحفوظ للتفصّي من إشكال عطف الشيء على نفسه، فعطف إحدى صفتين على أخرى كثير في الكلام. ونظيره قوله { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } [الحجر:1].

<u>وإنّما قدّم في هذه الآية القرآن</u> وعطف عليه { كِتَابٍ مُبِينٍ }، على عكس ما في طالعة سورة الحجر، لأنّ المقام هنا مقام التنويه بالقرآن ومتّبعيه المؤمنين، فلذلك وُصف بأنّه { هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }، أي: بأنّهم على هدى في الحال ومبشّرون بحسن الاستقبال، فكان الأهمّ هنا للوحي المشتمل على الآيات هو استحضاره باسمه العلم المنقول من مصدر القراءة، لأنّ القراءة تناسب حال المؤمنين به المتقبّلين لآياته. ثم عطف عليه { كِتَابٍ مُبِينٍ } ليكون التنويه به جامعا لعنوانيه ومستكملا للدلالة بالتعريف على معنى الكمال في نوعه من المقروآت.

<u>وأمّا ما في أول سورة الحجر</u> فهو مقام التحسير للكافرين من جرّاء إعراضهم عن الإسلام فناسب أن يبتدئوا باسم الكتاب المشتق من الكتابة دون القرآن لأنّهم بمعزل عن قراءته ولكنّه مكتوب، وحجّة عليهم باقية على مرّ الزمان. وقد تقّدم تفصيل ذلك في أوّل سورة الحجر.

{ مُبِينٍ } اسم فاعل إمّا من (أبان) القاصر بمعنى (بان). فالمبين أفاد معنيين أحدهما: أن شواهد صدقه وإعجازه وهديه بيّنة لكلّ متأمّل، وثانيهما أنّه مرشد ومفصّل.

{ هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [2] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [3] }.

{ **هُدىً وَبُشْرَى** } حالان من { كِتَابٌ } بعد وصفه بـ { مُبِينٌ }، وجعل الحال مصدرا للمبالغة بقوّة تسبّبه في الهدى وتبليغه البشرى للمؤمنين. ووصف الكتاب بالهدى والبشرى مجاز عقلي، وإنّما الهادي والمبشّر الله أو الرسول بسبب الكتاب.

{ **لِلْمُؤْمِنِينَ** } يتنازعه { هُدىً وَبُشْرَى }، لأنّ المؤمنين هم الذين انتفعوا بهديه، كقوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ }

{ **الَّذِينَ** } الوصف بالموصول لتمييزهم عن غيرهم لأنّهم عُرفوا يومئذ بإقامة الصلاة وإعطاء الصدقات للفقراء والمساكين، ألا ترى أنّ الله عرّف الكفار بقوله { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [فصلت:7/6]، ولأنّ في الصلة إيماء إلى وجه بناء الإخبار عنهم بأنّهم على هدى من ربهم ومفلحون.

الزكاة: الصدقة لأنّها تزكّي النفس أو تزكّي المال، أي: تزيده بركة. والمراد بالزكاة هنا الصدقة مطلقا أو صدقة واجبة كانت على المسلمين، وهي مواساة بعضهم بعضا، كما دلّ عليه قوله في صفة المشركين { كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18/17].

وأمّا الزكاة المقدّرة بالنُّصب والمقادير الواجبة على أموال الأغنياء فإنّها فرضت بعد الهجرة فليست مرادا هنا، فالسورة مكّية.

{ **وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** } عطف على الصلة وليست من الصلة ولذلك خولف بين أسلوبها وأسلوب الصلة فأتي له بجملة اسمية اهتماما بمضمونها لأنّه باعث على فعل الخيرات.

{ **هُمْ** } الضمير الثاني يجوز أن يُعتبر ضمير فصل دالا على القصر، أي: ما يوقن بالآخرة إلّا هؤلاء. والقصر إضافي بالنسبة إلى مجاوريهم من المشركين، وإلّا فإنّ أهل الكتاب يوقنون بالآخرة إلّا أنّهم غير مقصود حالهم للمخاطبين من الفريقين.

{ **بِالْآخِرَةِ** } التقديم للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بها.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ } [4]

يثير كون الكتاب المبين هدى وبشرى للذين يوقنون بالآخرة سؤالا في نفس السامع عن حال أضدادهم الذين لا يوقنون بالآخرة، لماذا لا يهتدون بهدي هذا الكتاب البالغ حدًّا عظيما في التبين والوضوح؟ فلا جرم أن يصلح المقام للإخبار عمّا صرف هؤلاء الأضداد عن الإيمان بالحياة الآخرة، فوقع هذا الاستئناف البياني لبيان سبب استمرارهم على ضلالهم. ذلك بأنّ الله يعلم خبث نواياهم فحرمهم التوفيق ولم يصرف إليهم عناية

تنشلهم من كيد الشيطان لحكمة علمها الله من حال ما جُبلت عليه نفوسهم، فوقع هذا الاستئناف بتوابعه موقع الاعتراض بين أخبار التنويه بالقرآن بما سبق والتنويه به بمن أنزل عليه بقوله { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ } [6].

{ **إِنَّ** } التأكيد للاهتمام بالخبر، لأنّه بحيث يلتبس على الناس سبب افتراق الناس في تلقّي الهدى بين مبادر ومتقاعس ومصرّ على الاستمرار في الضلال.

{ **الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** } مجيء المسند إليه موصولا يومئ إلى أنّ الصلة علّة في المسند.

{ **زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ** } تصوُّرهم إيّاها في نفوسهم زَينًا، فهم لإلفهم إيّاها وتصلّبهم فيها صاروا غير قابلين لهدي هذا الكتاب الذي جاءتهم آياته.

وقد أشارت الآية إلى معنى دقيق جدًّا وهو أنّ تفاوت الناس في قبول الخير كائن بمقدار رسوخ ضدّ الخير في نفوسهم وتعلّق فطرتهم به. وذلك من جرّاء ما طرأ على سلامة الفطرة من فساد، كما أشار إليه قوله { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [التين:6/5].

فإسناد تزيين أعمال المشركين إلى الله في هذه الآية وغيرها مثل قوله تعالى { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } [الأنعام:108] لا ينافي إسناد ذلك إلى الشيطان في قوله الآتي { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } [24]. فالله تعالى مُزيّن لهم بسبب فساد جِبلّة نفوسهم، والشيطان مُزيّن لهم بالوسوسة التي تجد في نفوسهم مرتعا خصبا ومنبتا لا يقحل ، كما قال تعالى حكاية عنه { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [ص:83/82]. وتقدّم ذلك في قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

{ **فَهُمْ يَعْمَهُونَ** } فُرّع على تزيين أعمالهم لهم أنّهم في عَمَه متمكِّن منهم، والتمكّن أفادته الجملة الاسمية، والمضارع للتجدّد.

العَمَه: الضلال عن الطريق بدون اهتداء. وقد تقدّم في قوله { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } [5].

{ **أُولَئِكَ** } قُصد باسم الإشارة زيادة تمييزهم فضحا لسوء حالهم مع ما ينبّه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أنّ استحقاقهم ما يخبر به عنهم ناشئ عمّا تقدّم اسم الإشارة.

{ **الَّذِينَ** } عُقّب باسم الموصول وصلته لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر.

{ **سُوءُ الْعَذَابِ** } الظاهر أنّ المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر بقرينة ما بعده.

ففي الآية إشارة إلى جزاءين: جزاء في الدنيا معدود لهم يستحقّونه بكفرهم فهم ما داموا كافرين متهيّئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر.

وجزاء في الآخرة ينال من صار إلى الآخرة وهو كافر وهذا المصير يسمَّى بـ (الموافاة) عند الأشعري.

{ **لَهُمْ** } لام الاختصاص مفيدة كون العذاب مهيًّأ تهيّئة، وكون نوال العذاب الأوّل إيّاهم قابلا للتفصِّي منه بالإيمان قُبيل حلوله بهم. أمّا أصالة جزاء الآخرة إيّاهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم.
{ **وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } الجملة الاسمية وضمير الفصل للدلالة على ثبات مضمون الجملة وعلى انحصار مضمونها فيهم، كما تقدّم في قوله { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [3].
{ **الْأَخْسَرُونَ** } اسم التفضيل للدلالة على أنّ خسرانهم لا يشبهه خسران غيرهم، لأن الخسران في الآخرة متفاوات المقدار والمدّة وأعظمه فيهما خسران المشركين.

{ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } [6]

عطف على جملة { تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ } انتقال من التنويه بالقرآن إلى التنويه بالذي أنزل عليه، بأنّ القرآن آيات دالة على أنّه كتاب مبين، وذلك آية أنّه من عند الله، ثم بأنّه آية على صدق من أنزل عليه إذ أنبأه بأخبار الأنبياء والأمم الماضين التي ما كان يعلمها هو ولا قومه.
والآية تمهيد لما يذكر بعده من القصص.
{ **تُلَقَّى** } مضارع لقاه مبني للمجهول، أي جعله لاقيا. واللُّقيُّ واللقاء: وصول أحد الشيئين إلى شيء آخر قصدا أو مصادفة. والتلقية: جعل الشيء لاقيا غيره، قال تعالى { وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً } [الإنسان:11]، وهو هنا تمثيل لحال إنزال القرآن إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بحال التلقية، كأنّ جبريل سعى للجمع بين النبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن.
{ **مِنْ لَدُنْ** } تنبيه على شدّة انتساب القرآن إلى جانب الله تعالى، فإنّ أصل { لَدُنْ } الدلالة على المكان مثل (عند) ثم شاع إطلاقها على ما هو من خصائص ما تضاف هي إليه تنويها بشأنه، قال تعالى { وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً } [الكهف:65].
الحكيم: القوي الحكمة، و**العليم**: الواسع العلم. وفي التنكير إيذان بالتعظيم.
وفي الوصفين الشريفين مناسبة للمعطوف عليه وللممهّد إليه، فإنّ ما في القرآن دليل على حكمة وعلم من أوحى به، وأنّ ما يذكر هنا من القصص وما يستخلص منها من المغازي والأمثال والموعظة، من آثار حكمة وعلم .

{ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}[7]

استئناف ابتدائي. ومناسبة موقعها إفادة تنظير تلقّي النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن بتلقّي موسى عليه السلام كلام الله. وذلك من بديع التخلّص إلى ذكر قصص هؤلاء الأنبياء عقب التنويه بالقرآن.

والمعنى: أنّ الله يقصّ عليك من أنباء الرسل ما فيه مثل لك ولقومك وما يثبّت به فؤادك.

{ **إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ** } زمان قول موسى لأهله هذه المقالة هو وقت اجتلابه للمبادرة بالوحي إليه.

الأهل: مراد به زوجه، ولم يكن معه إلّا زوجه وابنان صغيران.

{ **إِنِّي آنَسْتُ نَاراً** } لم تظهر النار إلّا لموسى دون غيره من أهله لأنّها لم تكن نارا معتادة لكنّها من أنوار عالم الملكوت جلّاه الله لموسى فلا يراه غيره. ويؤيد هذا تأكيده الخبر بـ (إن) المشير إلى أنّ زوجه تردّدت في ظهور نار لأنّها لم ترها.

الإيناس: الإحساس والشعور بأمر خفي، فيكون في المرئيات وفي الأصوات.

{ **سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ** } خبر المكان الذي تلوح منه النار. ولعلّه ظنّ أنّ هنالك بيتا يرجو استضافتهم.

{ **أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** } أو يأت منهم بجمرة نار.

الشهاب: الجمر المشتعل. و**القبس:** جمرة أو شعلة نار تُقْبَس، أي يؤخذ اشتعالها من نار أخرى.

الاصطلاء: افتعال من الصَلْي وهو الشيُّ بالنار. ودلت صيغة الافتعال أنّه محاولة الصلْي فصار بمعنى التدفؤ

{ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [8] يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [9] وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ [10] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ [11] }.

{ **جَاءَهَا** } أُنِّث الضمير جريا على ما تقدّم من تسمية النور نارا بحسب ما لاح لموسى. وتقدّم ذكر هذه القصة في [طه:9-12]، فبنا أن نتعرّض هنا لما انفردت به هذه الآيات من المفردات والتراكيب.

{ **أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** } هو بعض ما اقتضاه قوله في طه { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً } [طه:12].

{ **أَنْ** } تفسيرية لفعل { نُودِيَ } لأنّ فيه معنى القول دون حروفه، أي: نودي بهذا الكلام.

{ **بُورِكَ** } قُدِّس وزُكِّيَ. وتقدّم بيان معنى البركة في قوله تعالى { لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران:96]، وقوله { وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ } [هود:48].

{ **مَنْ فِي النَّارِ** } مراد به موسى، فإنّه لمّا حلّ في موضع النور صار محيطا به.

والكلام بشارة لموسى عليه السلام ببركة النبوّة.

{ **وَمَنْ حَوْلَهَا** } هو جبريل والملائكة الذين وكلّ إليهم إنارة المكان وتقديسه، إن كان النداء بغير واسطة جبريل بل كان من لدن الله تعالى. فهذا التبريك تبريك ذوات لا تبريك مكان بدليل ذكر { مَنْ } الموصولة في الموضعين، وهو تبريك الاصطفاء الإلهي بالكرامة.

وقيل: إنّ قوله { أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ } إنشاء تحية من الله تعالى إلى موسى عليه السلام كما كانت تحية الملائكة لإبراهيم { رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } [هود:73] أي: أهل هذا البيت الذي نحن فيه.

{ **وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } عطف على ما نودي به موسى إخبارا بتنزيه الله تعالى عمّا لا يليق بإلهيّته من أحوال المحدثات ليعلم موسى أمرين:

<u>الأوّل:</u> أنّ النداء وحي من الله تعالى.

<u>الثاني:</u> أنّ الله منزّه عمّا عسى أن يخطر بالبال أن جلالته في ذلك المكان.

ويجوز أن يكون { وَسُبْحَانَ اللَّهِ } مستعملا للتعجيب من ذلك المشهد، وأنّه أمر عظيم من أمر الله تعالى وعنايته يقتضي تذكّر تنزيهه وتقديسه.

فالمعنى: ونزّه الله تنزيها عن كلّ ما لا يليق به، ومن أوّل تلك الأشياء تنزيهه عن أن يكون حالا بالمكان.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } فيه معنى التعليل للتنزيه عن شؤون المحدثات، لأنّه ربّ العالمين فلا يشبههم.

{ **إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } الضمير { إِنَّهُ } ضمير الشأن والجملة بعده خبر عنه. والمعنى: إعلامه بأنّ أمرا مهمّا يجب علمه، وهو أنّ الله عزيز حكيم، أي: لا يغلبه شيء ولا يستصعب عليه تكوين.

وتقديم هذا بين يدي ما سيُلقى إليه من الأمر لإحداث رباطة جأش لموسى ليعلم أن قد خُلعت عليه النبوّة، ويعلم أنّه سيتعرّض إلى أذى وتألُّب عليه، وأنّ الله يؤيّده وينصره، وليعلم أنّ ما شاهد من النار وما تلقّاه من الوحي وما سيشاهده من قلب العصا حيّة ليس بعجيب في جانب حكمة الله تعالى، فتلك ثلاث كنايات.

{ **وَأَلْقِ عَصَاكَ** } وقلنا ألق عصاك.

الاهتزاز: الاضطراب، وهو افتعال من الهزّ وهو الرفع.

الجانّ: ذَكَر الحيّات، وهو شديد الاهتزاز وجمعه جِنَّان (وأمّا الجان بمعنى واحد الجنّ فاسم جمعه جِنٌّ).

والتشبيه في سرعة الاضطراب لأنّ الحيّات خفيفة التحرّك، وأمّا تشبيه العصا بالثعبان في آية { فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } [الأعراف:107] فذلك لضخامة الجرم.

التولّي: الرجوع عن السير في طريقه. وفعل (تولّى) مرادف فعل { وَلَّى } كما هو ظاهر صنيع القاموس وإن كان مقتضى ما في فعل (تولى) من زيادة المبنى أن يفيد زيادة في المعنى.

{ **مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ** } قُصد من هذا التأكيد إفادة قوّة تولّيه لمّا رأى عصاه تهتزّ.

الإدبار: التوجّه إلى جهة الخلف وهو ملازم للتولّي فقوله { مُدْبِراً } حال لازمة لفعل { وَلَّى }.

التعقُّب: الرجوع بعد الانصراف مشتقّ من العقب لأنّه رجوع إلى جهة العقب، أي: الخلف.

وكان ذلك التولّي منه لتغلّب القوّة الواهمة، التي في جبلّة الإنسان، على قوّة العقل الباعثة على التأمّل فيما دلّ عليه قوله { إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } من الكناية عن إعطائه النبوّة والتأييد، إذ كانت القوّة الواهمة متأصّلة في الجبلّة سابقة على ما تلقّاه من التعريض بالرسالة.

{ **يَا مُوسَى لا تَخَفْ** } مقول قول محذوف، أي: قلنا له. والنهي عن الخوف مستعمل في النهي عن استمرار الخوف لأنّ خوفه قد حصل.

{ **إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ** } تعليل للنهي عن الخوف، وتحقيق لما يتضمَّنه نهيه عن الخوف من انتفاء موجبه. وهذا كناية عن تشريفه بمرتبة الرسالة، إذ عُلِّل بأنّ المرسلين لا يخافون لدى الله تعالى.

{ **لَدَيَّ** } في حضرتي، أي: حين تلقِّي رسالتي. وحقيقة { لَدَيَّ } مستحيلة على الله لأنّ حقيقتها المكان.

وليس في النهي حطّ لمرتبة موسى عليه السلام عن مراتب غيره من المرسلين.

{ **إ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** }

ظاهره أنّ الاستثناء متّصل. ونسب ابن عطية هذا إلى مقاتل وابن جريج فيكون الكلام مستثنى من عموم الخوف الواقع فعله في حيّز النفي، فيعمّ الخوف بمعنى الرعب والخوف الذي هو خوف العقاب على الذنب، أي: إلّا رسولا ظَلَم، أيّ فَرَط منه ظلم، أي: ذنب قبل اصطفائه للرسالة، فهو يخاف أن يؤاخذه الله به ويجازيه على ارتكابه، وذلك مثل كيد إخوة يوسف لأخيهم، واعتداء موسى على القبطي بالقتل.

والمقصود من هذا الاستثناء على هذا الوجه تسكين خاطر موسى وتبشيره بأنّ الله غفر له.

ومن ألطف الإيماء الإتيان بفعل { ظَلَمَ } ، ليومئ إلى قول موسى يوم ارتكب الاعتداء { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } [القصص:16].

وقيل: الاستثناء منقطع، قاله الفراء والزجاج والزمخشري وجرى عليه كلام الضحاك. وحرف الاستثناء بمعنى الاستدراك، فالكلام استطراد للتنبيه على أنّ من ظلم وبدّل حسنا بعد سوء من الناس يُغفر له. وعليه تكون {من} صادقة على كلّ شخص ظلم وليس المراد بها مخالفات بعض الرسل، وهذا التأويل دعا إليه أن الرسالة تنافي سبق ظلم النفس. والقول الأوّل أظهر كما أسلفنا.

{ **بَدَّلَ** } يقتضي شيئين: مأخوذا، ومعطى، فيتعدّى الفعل إلى الشيئين تارة بنفسه كقوله تعالى { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } [الفرقان:70]، ويتعدّى تارة إلى المأخوذ بنفسه وإلى المعطى بـ (الباء) على تضمينه معنى عاوض كقوله تعالى { وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].

{ **ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ** } أي: أخذ حسنا بسوء، فإنّ كلمة { بَعْدَ } تدلّ على أّن ما أضيفت إليه هو الذي كان ثابتا ثم زال وخلفه غيره، فالحالة الحسنة هي المجعولة في موضع الحالة السيئة.

{ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ } [12]

عطف على قوله { وَأَلْقِ عَصَاكَ } وما بينهما اعتراض، بعد أن أراه آية انقلاب العصا ثعبانا أراه آية أخرى ليطمئن قلبه بالتأييد، والمقصود من ذلك أن يجعل له ما تطمئن له نفسه من تأييد الله إيّاه عند لقاء فرعون.

{ **فِي تِسْعِ آيَاتٍ** } والآيات هي: [العصا – اليد – الطوفان – الجراد – القُمَّل – الضفادع – الدم – القحط - انفلاق البحر (وهو أعظمها)]، قد عُدّ بعضها في سورة الأعراف:103].

{ **إِلَى فِرْعَوْنَ** } صفة لآيات، أي: آيات مسوقة إلى فرعون. وفي هذا إيذان بكلام محذوف إيجازا، وهو أمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون، كما بيّن في سورة الشعراء.

{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [13] وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [14] }.

أوجز بقية القصّة وانتقل إلى العبرة بتكذيب فرعون وقومه الآيات، ليُعتَبر بذلك حال الذين كذّبوا بآيات محمد صلى الله عليه وسلم، وقُصد من هذا الإيجاز طيّ بساط القصّة لينتقل منها إلى قصّة داود ثم قصّة سليمان.

{ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا** } حصولها واحدة بعد أخرى، وهي الآيات الثمان التي قبل الغرق.

المبصرة: الظاهرة. صيغ لها وزن اسم فاعل الإبصار على طريقة المجاز العقلي، وإنّما المبصِر الناظر إليها. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً } [الإسراء:59].

الجحود: الإنكار باللسان.

{ **وَاسْتَيْقَنَتْهَا** } بمعنى أيقنت بها، فحذف حرف الجر وعدّي الفعل إلى المجرور على التوسّع أو على نزع الخافض، أيّ تحقَّقتها عقولهم، والسين والتاء للمبالغة.

{ **ظُلْماً وَعُلُوّاً** } الظلم في تكذيبهم الرسول لأنّهم ألصقوا به ما ليس بحقّ، فظلموه حقّه. و**العلو**: الكبر.

نشر على ترتيب اللف؛ فالظلم في الجحد بها والعلو في كونهم موقنين بها.
{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** } جُعل ما هو معلوم من حالهم فيما لحق بهم من العذاب بمنزلة الشيء المشاهد للسامعين فأمر بالنظر إليه. والخطاب لغير معيّن. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تسلية له بما حل بالمكذّبين بالرسل قبله لأنّ في ذلك تعريضا بتهديد المشركين بمثل تلك العاقبة.
{ **كَيْفَ** } يجوز أن يكون مجردا عن معنى الاستفهام، ويجوز أن يكون استفهاما للتعجيب.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}[15]

كما كان في قصّة موسى وإرساله إلى فرعون آياتٍ عبرةٌ ومَثَلٌ للذين جحدوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، كذلك في قصّة سليمان وملكة سبأ، وما رأته من آياته وإيمانها به، مثلٌ لعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وإظهار لفضيلة ملكة سبأ، إذ لم يصدّها ملكها عن الاعتراف بآيات سليمان فآمنت به.
{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ** } افتتاح الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين به منزلة من يتردّد في ذلك لأنّهم جحدوا نبوّة مثل داود وسليمان إذ قالوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ:31].
وتقديم ذكر داود ليُبنى عليه ذكر سليمان، إذ ورث ملكه من أبيه. ولأنّ في ذكر داود مثل لإفاضة الحكمة على من لم يكن متصدِّيا لها، وما كان من أهل العلم بالكتاب، فقد كان داود راعيا غنم أبيه (يسِّي) في بيت لحم، فأمر الله (شمويل النبيّ) أن يجعل داود نبيّا في مدّة ملك (طالوت / شاول).
لذلك فلا عجب أن يُعطى محمد صلى الله عليه وسلّم الحكمة والنبوّة ولم يكن يعلم ذلك من قبل، كما قال { مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا } [هود:49]، لذا فللقصّة اتصال بقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } [6].
{ **عِلْماً** } التنكير للتعظيم لأنّه علم بنبوّة وحكمة. وفي فعل { **آتَيْنَا** } ما يؤذن بأنّه علم مفاض من عند الله لأنّ (الإيتاء) أخصّ من { وَعَلَّمْنَاهُ }، فلذلك استغني هنا عن كلمة { مِنْ لَدُنَّا } التي في قوله تعالى { وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً } [الكهف:65].
{ **وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** } حكاية قولهما كناية عن تفضيلهما بفضائل غير العلم، وتنويه بأنّهما شاكران نعمته. ولأجل ذلك عطف قولهما بـ (الواو) دون (الفاء) لأنّه ليس حمدا لمجرّد الشكر على إيتاء العلم.

{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } [16]

{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ } طوى خبر ملك داود وبعض أحواله إلى وفاته لأنّ المقصود هو قصة سليمان.

وقد كان داود ملكا على بني إسرائيل ودام ملكه أربعين سنة وتوفي وهو ابن سبعين سنة. فخلفه سليمان، فهو وارث ملكه والقائم في مقامه في سياسة الأمة، وظهور الحكمة ونبوّة بني إسرائيل.

الإرث: هنا مستعمل في معناه المجازي، لظهور أن ليس غرض الآية إفادة من انتقلت إليه أموال داود، بقرينة ما قبله { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا } [15]. وقد كان لداود أحد عشر ولدا فلا يختص إرث ماله بسليمان وليس هو أكبرهم. وكان داود قد أقام سليمان ملكا على إسرائيل.

{ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ }

قال سليمان هذه المقالة في مجمع عظيم لأنّ لهجة هذا الكلام لهجة خطبته في مجمع من الناس الحاضرين مجلسه من الخاصة والسامعين من العامة. فهذه الجملة متضمّنة شكر الله تعالى ما منحه من علم وملك، وليقدِّر الناس قدره ويعلموا واجب طاعته، إذ كان الله قد اصطفاه لذلك.

كما كان تعليم فضائل النبوّة من مقاصد الشرع، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **" أنا سيد ولد آدم ولا فخر "** أي: أقوله لقصد الإعلام بواجب التقدير لا لقصد الفخر على الناس.

{ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } وعلم منطق الطير أوتيه سليمان من طريق الوحي بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها وإرادتها. وفائدة هذا العلم أنّ الله جعله سبيلا له يهتدي به إلى تعرّف أحوال يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القوى الكثيرة.

والاقتصار على منطق الطير إيجاز لأنّه إذا عُلِّم منطق الطير، وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان وأسرعها نفورا منه، عُلم أنّ منطق ما هو أكثر اختلاطا بالإنسان حاصل له بالأحرى، كما يدلّ عليه قوله تعالى فيما يأتي قريبا { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا } [19]، فتدلّ هذه الآية على أنّه عُلِّم منطق أصناف الحيوان.

وهذا العلم سماه العرب علم **الحُكْل** (بضم الحاء المهملة وسكون الكاف).

{ مَنْطِقَ } عبّر عن أصوات الطير بهذا الفظ تشبيها له بنطق الإنسان من حيث هو ذو دلالة لسليمان على ما في ضمائر الطير، فحقيقة المنطق: الصوت المشتمل على حروف تدلّ على معان.

{ عُلِّمْنَا - أُوتِينَا } الضمير مراد به نفسه، جاء به على صيغة المتكلّم المشارك، إمّا لقصد التواضع، كأنّ جماعة علموا وأوتوا وليس هو وحده، وإمّا لأنّه المناسب لإظهار عظمة الملك.

{ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } كلّ شيء من الأشياء المهمة، فـ { كُلِّ } مستعملة في الكثرة و{ شَيْءٍ } مستعمل في

الأشياء المهمّة مما له علاقة بمقام سليمان.

{ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } التأكيد بحرف التوكيد ولامه الذي هو في الأصل لام قسم وبضمير الفصل مقصود به تعظيم النعمة أداء للشكر عليها بالمستطاع من العبارة.

{ الْفَضْلُ } الزيادة من الخير والنفع. و**{ الْمُبِينُ }** : الظاهر الواضح.

{ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } [17]

وهب الله سليمان قوّة من قوى النبوّة يدرك بها من أحوال الأرواح والمجرّدات كما يدرك منطق الطير ودلالة النمل ونحوها.

وقد وهب الله هذه القوّة محمدًا صلى الله عليه وسلم فصرف إليه نفرا من الجنّ يستمعون القرآن، ويخاطبونه. وإنّما أمسك رسول الله عن أن يتصرّف فيها ويزعها كرامة لأخيه سليمان، إذ سأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. فالله قد محّضه لما هو أهم وأعلى، فنال بذلك فضلا مثل فضل سليمان، ورجح بإعراضه عن التصرف لأنّ جانب النبوّة في رسول الله أقوى من جانب الملك، كما قال للرجل الذي رعد حين مثل بين يديه " **إنّي لست بملك ولا جبّار** ". وقد ورد في الحديث: " أنّه خُيِّر بين أن يكون نبيّا عبدا أو نبيّا ملكا فاختار أن يكون نبيّا عبدا ". فرتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم رتبة التشريع وهي أعظم من رتبة الملك، وسليمان لم يكن مشرّعا لأنّه ليس برسول، فوهبه الله ملكا يتصرّف به في السياسة.

الحشر: الجمع. والمعنى: أنّ جنوده كانت مُحْضَرة في حضرته مُسَخَّرة لأمره.

الجنود: جمع جند، وهو الطائفة التي لها عمل متّحد تسَّخر له. وغلب إطلاق الجند على طائفة من الناس يُعدُّها الملك لقتال العدو ولحراسة البلاد.

{ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } بيان للجنود، فهي ثلاثة أصناف:

صنف الجنّ، وهو لتوجيه القوى الخفيّة، والتأثير في الأمور الروحيّة.

صنف الإنس، وهو جنود تنفيذ أوامره ومحاربة العدو وحراسة المملكة.

صنف الطير، وهو من تمام الجند لتوجيه الأخبار وتلقيها وتوجيه الرسائل إلى قوّاده وأمرائه.

واقتصر على الجن والطير لغرابة كونهما من الجنود، فلذلك لم يذكر الخيل وهي من الجيش.

الوزع: الكفّ عمّا لا يراد، فشمل الأمر والنهي، أي: فهم يُؤمرون فيأتمرون، ويُنهون فينتهون.

وفي الآية إشارة إلى أنّ جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك.

{ **حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** [18] **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** [19] }.

{ **حَتَّى** } ابتدائية ومعنى الغاية لا يفارقها ولكنّها مع الابتدائية غاية غير نهاية.

{ **إِذَا** } ظرف زمان بمعنى حين. والتقدير: قالت نملة حين أتوا على واد النمل.

{ **وَادِ النَّمْلِ** } يجوز أن يكون مرادا به الجنس، لأنّ للنمل شقوقا ومسالك هي بالنسبة إليها كالأودية للبشر. ويجوز أن يراد به مكان مشتهر بالنمل غلب عليه هذا المضاف كما سُمِّي (وادي السباع) موضع معلوم بين البصرة ومكّة. قيل: وادي النمل في جهة الطائف وقيل غير ذلك، وكلّه غير ظاهر من سياق الآية.

{ **النَّمْلِ** } : اسم جنس لحشرات صغيرة ذات ستة أرجل تسكن في شقوق من الأرض. وهي أصناف متفاوتة في الحجم، والواحد منه نملة بتاء الوحدة، فكلمة نملة لا تدل إلّا على فرد واحد من هذا النوع دون دلالة على تذكير ولا تأنيث فقوله { **قَالَتْ نَمْلَةٌ** } مفاده: قال واحد من هذا النوع.

{ **يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } يجوز أن يخلق الله لها دلالة وللنمل الذي معها فهما لها وأن يخلق فيها إلهاما بأنّ الجيش جيش سليمان على سبيل المعجزة له.

الحطم: حقيقته الكسر لشيء صلب. واستعير هنا للرفس.

{ **لا يَحْطِمَنَّكُمْ** } إن جعلت { **لا** } فيه ناهية كانت الجملة مستأنفة تكريرا للتحذير ودلالة على الفزع لأنّ المحذِّر من شيء مفزع يأتي بجمل متعدّدة للتحذير من فرط المخافة. والنهي عن حطم سليمان إيّاهن كناية عن نهيهن عن التسبّب فيه وإهمال الحذر منه.

وإن جعلت { **لا** } نافية كانت الجملة واقعة في جواب الأمر فكان لها حكم جواب شرط مقدّر. فالتقدير: إن تدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وإن لم تفعلوا حطّمكم.

{ **سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ** } تسمية سليمان في حكاية كلام النملة يجوز أن تكون حكاية بالمعنى وإنّما دلت دلالة النملة على الحذر من حطم ذلك المحاذي لواديها فلمّا حُكيت دلالتها حُكيت بالمعنى لا باللفظ، ويجوز أن يكون قد خلق الله علما في النملة علمت به أنّ المار بها يدعى سليمان، على سبيل المعجزة وخرق العادة.

{ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا** } تبسّم تعجّب. والتبسّم أضعف حالات الضحك، فقوله { ضَاحِكاً } حال مؤكّدة. وإنّما تعجّب من أنّها عرفت اسمه وأنّها قالت { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة وأنّهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل بكلّ مخلوق لا فساد منه.

{ **وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ** } سأل الله الدوام على شكر النعمة لما في الشكر من الثواب ومن ازدياد النعم.

أوزع: مزيد (وَزَعَ) الذي هو بمعنى(كفَّ) كما تقدّم آنفا، والهمزة للإزالة، أيّ أزال الوزع، أي: الكفّ. وهو كناية عن ضدّ معناه، أي: كناية عن الحثّ على العمل. وشاع هذا الإطلاق فصار معنى أوزع: أغرى بالعمل. أي: اجعلني ملازما شكر نعمتك.

{ **وَعَلَى وَالِدَيَّ** } أدرج سليمان ذكر والديه عند ذكر إنعام الله تعالى عليه لأنّ صلاح الولد نعمة على الوالدين بما يُدخل عليهما من مسرّة في الدنيا وما ينالهما من دعائه وصدقاته عنهما من الثواب.

ووالداه هما أبوه: (**داود بن يسّي**) وأمه (**بثشبع بنت اليعام**) وهي التي كانت زوجة (أوريا) الحثّي فاصطفاها داود لنفسه [سفر صمويل الثاني، الإصحاح:11 والإصحاح: 12 - سفر الملوك الأول، الإصحاح: 2] وهي التي جاءت فيها قصة نبأ الخصم المذكور في [ص:21].

{ **وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** } عطف على {أَنْ أَشْكُرَ }.

والإدخال في العباد الصالحين مستعار لجعله واحدا منهم، فشبّه إلحاقه بهم في الصلاح بإدخاله في زمرتهم، وسؤاله ذلك مراد به الاستمرار والزيادة من رفع الدرجات لأنّ لعباد الله الصالحين مراتب كثيرة.

{ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ [20] لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [21] }.

{ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ** } صيغة التفعّل تدلّ على التكلّف والطلب. واشتقاق { تَفَقَّد } من الفقد يقتضي أنّ { تَفَقَّد } بمعنى طلب الفقد. ولكنّهم توسعوا فيه فأطلقوه على طلب معرفة سبب الفقد.

والمعنى: تفقّد الطير في جملة ما تفقّده فقال لمن يلون أمر الطير:

{ **مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ** } في موضع الحال من ياء المتكلّم المجرور باللام، فالاستفهام حقيقي وهو كناية عن عدم ظهور الهدهد.

الهدهد: نوع من الطير وهو ما يقرقر وفي رائحته نتن وفوق رأسه قزعة سوداء، وهو أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات الحبوب والدود، يرى الماء من بعد ويحس به في باطن الأرض فإذا رفرف على موضع عُلم أن به ماء، وهذا سبب اتخاذه في جند سليمان. قال الجاحظ: يزعمون أنّه هو الذي كان يدلّ سليمان على مواضع الماء في قعور الأرضين.

{ **أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** } إضراب الانتقال من استفهام إلى استفهام آخر أفادته { أَمْ }. والتقدير: بل أكان من الغائبين؟ ولما كان قول سليمان هذا صادرا بعد تقصّيه أحوال الطير ورجح عنده أنّه غاب فقال:

{ **لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ** } لأنّ تغيّبه من دون إذن عصيان يقتضي عقابه وذلك موكول لاجتهاد سليمان في المقدار الذي يراه استصلاحا له، إن كان يُرجى صلاحه، أو إعداما له لئلا يلقّن بالفساد غيره.

ويؤخذ من هذا جواز عقاب الجندي إذا خالف ما عيّن له من عمل أو تغيّب عنه.

وأمّا عقوبة الحيوان فإنّما تكون عند تجاوزه المعتاد في أحواله. قال القرافي في (تنقيح الفصول): سئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن قتل الهرّ المؤذي هل يجوز؟ فكتب وأنا حاضر: إذا خرجت أذيّته عن عادة القطط وتكرّر ذلك منه قتل ".

أمّا العقاب الخفيف للحيوان لتربيته وتأديبه كضرب الخيل لتعليم السير ونحو ذلك فهو مأذون فيه للمصلحة، وكذلك السبق بين الخيل مع ما فيه من إتعابها لمصلحة السير عليها في الجيوش.

{ **أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } جعله ثالث الأمور التي جعلها جزاء لغيبته وهو أن يأتي بما يدفع به العقاب عن نفسه من عذر مقبول في التخلّف.

السلطان: الحجّة. و**المبين**: المظهر للحقّ المحتجّ بها. وهذه الزيادة من النبيّ سليمان استقصاء للهدهد في حقه، لأنّ الغائب حجّته معه.

{ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ [22] إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [23] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ [24] أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [25] اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [26] }.

{ **فَمَكَثَ** } الفاء للتفريع والعطف والضمير للهدهد. و**المكث**: البقاء في المكان وملازمته زمنا ما.

وأُطلق المكث هنا على البطء لأنّ الهدهد لم يكن ماكثا بمكان ولكنّه كان يطير وينتقل، فإطلاق المكث على البطء مجاز مرسل لأنّ المكث يستلزم زمنا.

{ **غَيْرَ بَعِيدٍ** } صفة لاسم زمن أو اسم مكان، أي: مكث زمنا غير بعيد، أو في مكان غير بعيد. وكلا المعنيين يقتضي أنّه رجع إلى سليمان بعد زمن قليل.

والبعد والقرب حقيقتهما من أوصاف المكان ويستعاران لقلّة الحصّة، بتشبيه الزمن القصير بالمكان القريب

وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة قال تعالى { وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } [هود:89].

{ **فَقَالَ** } الفاء عاطفة. وجعل القول عقيب المكث لأنّه لمّا حضر صدر القول من جهته، فالتعقيب حقيقي.

والقول المسند إلى الهدهد **إن حُمل على حقيقة القول فهذا وحي لسليمان أجراه الله على لسان الهدهد**.

فليس للهدهد قِبَل بإدراك ما اشتمل عليه القول المنسوب إليه ولا باستفادة الأحوال من مشاهدة الأقوام والبلدان حتّى تخطر في نفسه وحتّى يُعبّر عنها بمنطقه الذي عُلّم سليمان دلالته.

وأمّا قول سليمان { سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } فيجوز أنّ سليمان قد خشي أن يكون ذلك الكلام الذي سمعه من تلقاء الهدهد كلاما ألقاه الشيطان من جانب الهدهد.

{ **أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** } تنبيه لسليمان بأنّ في مخلوقات الله ممالك وملوكا تداني ملكه أو تفوقه في بعض أحوال الملك، جعله الله مثلا له، كما جعل عِلم الخضر مثلا لموسى عليه السلام.

وفي هذا الاستهلال استدعاء لإقباله على ما سيلقى إليه بشراشره لأهمية هذا المطلع في الكلام، فإنّ معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يُعنى به ملوك الصلاح.

الإحاطة: الاشتمال على الشيء وجعله في حوزة المحيط، وهي هنا مستعارة لاستيعاب العلم بالمعلومات كقوله تعالى { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف:68].

{ **بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** } معلومات لم يحط بها علم سليمان.

{ **سَبَإٍ** } : بهمزة في آخره وقد يخفّف، اسم رجل هو (**عَبّشَمْس بن يَشْجُب بن يعرب بن قحطان**)، لُقّب بسبأ.

قالوا: لأنّه أوّل من سبى في غزوه. وهو جد جِذَم عظيم من أجذام العرب. وذرّيّته كانوا باليمن ثم تفرّقوا كما سيأتي في (سورة سبإ).

وأطلق هذا الاسم هنا على ديارهم لأنّ { مِنْ } ابتدائية، وهي لابتداء الأمكنة غالبا.

فاسم { سَبَإٍ } غلب على القبيلة المتناسلة من سبأ المذكور وهم من الجِذم القحطاني المعروف بالعرب المستعربة، أي: الذين لم ينشأوا في بلاد العرب ولكنّهم نزحوا من العراق إلى بلاد العرب.

وأوّل نازح منهم هو **يَعْرُب** (بفتح التحتية وضم الراء) بن قحطان. ولمّا انتقل **يَعْرُب** سكن جنوب البلاد العربية (اليمن) فاستقر بموضع بنى فيه مدينة **ظَفَارِ** (بفتح الظاء المشالة المعجمة وكسر الراء) فهي أوّل مدينة في بلاد اليمن وانتشر أبناؤه في بلاد الجنوب الذي على البحر وهو بلاد (**حضرموت**) ثم بنى ابنه **يَشْجُب** (بفتح التحتية وضم الجيم) مدينة **صنعاء** وسمَّى البلاد بـ (**اليمن**)، ثم خلفه ابنه **عَبّشَمِس** (بتشديد الموحدة) ومعناه ضوء الشمس، وساد قومه ولُقّب سبأ، واستقل بأهله فبنى مدينة **مأرب** حاضرة سبأ.

ثم جاء بعد سبأ ابنه **حِمْيَر** ويُلَقّب العَرَنْجج (أي: العتيق)، ويظهر أنّه جعل بلاده **ظَفَارِ** بعد أن انتقل أبناء يشجُب منها إلى صنعاء.

فكانت البلاد اليمنية أو القحطانية منقسمة إلى ثلاث قبائل: **اليمنية – السبئية - الحِمْيرية**. وكان على كلّ قبيلة ملك منها، واستقلّت أفخاذهم بمواقع أطلقوا على الواحد منها اسم مِخلاف (بكسر الميم) وكان لكلّ مخلاف رئيس يلقب بـ (**القَيْل**) ويقال له: ذو كذا، بالإضافة إلى اسم مخلافه، مثل: **ذو رعين**.
والملك الذي تتبعه الأقيال كلّها ويحكم اليمن كلّها يلقب (**تُبَّع**) لأنّه متبوع بأمراء كثيرين.
وقد انفردت سبأ بالملك في حدود (القرن 17 ق هـ) وكان أشهر ملوكهم، أو أوّلهم، **الهَدهاد بن شراحيل** ويلقب **اليَشْرَّح** (بفتح التحتية وفتح الشين المعجمة وفتح الراء مشددة وبحاء مهملة في آخره).
ثم وليت بعده **بلقيس** ابنته ولم تكن ذات زوج فيما يظهر من سياق القرآن. وقيل كانت متزوجة **شدد بن زرعة**، فإنّ صحّ ذلك فلعلّه لم تطل مدّته فمات.
وكان أهل سبأ **صابئة يعبدون الشمس**. وبقيّة ذكر حضارتهم تأتي في تفسير سورة سبأ.
{ **بِنَبَأٍ يَقِينٍ** } تحقيق لكون ما سيلقى إليه شيء محقّق لا شبهة فيه، فوصف بالمصدر للمبالغة.
{ **إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** } بيان لـ { نَبَأٍ } فلذلك لم تعطف.
{ **إِنَّ** } التأكيد لأهمية الخبر، إذ لم يكن معهودا في بني إسرائيل أن تكون المرأة ملكا.
{ **تَمْلِكُهُمْ** } هنا مشتق من المُلك (بضم الميم) وفعله كفعل ملك الأشياء.
وهذه المرأة أريد بها **بِلْقِيس** (بكسر الموحدة وسكون اللام وكسر القاف) ابنة شراحيل، كانت معاصرة سليمان في أوائل القرن (17 ق هـ)، وكانت امرأة عاقلة. ويقال: هي التي بنت سُدَّ مأرب. وكانت حاضرة ملكها مأرب مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة مراحل، وسيأتي ذكرها في سورة سبأ.
{ **وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } عموم (كلّ شيء) عموم عرفي من جهتين يفسّره المقام، أي: أوتيت من خصال الملوك ومن ذخائرهم وعُددهم وجيوشهم وثراء مملكتهم وزخرفها ونحو ذلك من المحامد والمحاسن.
{ **أُوتِيَتْ** } بُني الفعل إلى المجهول لانعدام الغرض بتعيين أسباب ما نالته. والأسباب شتّى فمنها ما كان إرثا من الملوك الذي سلفوها، ومنها ما كان كسبا من كسبها واقتنائها، ومنها ما وهبها الله من عقل وحكمة، وما منح بلادها من خصب ووفرة مياه. وقد كان اليونان يلقبون مملكة اليمن بـ (العربية السعيدة) أخذا من معنى اليمن في العربية. قال تعالى { لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } [سبأ:15]. وأمّا رجاحة عقولهم ففي الحديث: " **أتاكم أهل اليمن هم أرقّ أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية** ".
{ **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** } خصّ من نفائس الأشياء عرشها إذ كان عرشا بديعا ولم يكن لسليمان عرش مثله. جاء في [سفر الملوك الأول، الإصحاح:10] ما يقتضي أنّ سليمان صنع كرسيَّهُ البديع بعد أن زارته ملكة سبأ.
العظيم: مستعمل في عظمة القدر والنفاسة في ضخامة الهيكل والذات.

{ **وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } أعقب التنويه بشأنها بالحطّ من حال اعتقادهم إذ هم يسجدون، أي يعبدون الشمس. ولأجل الاهتمام بهذا الخبر أعيد فعل (وجدتها) إنكارا عليهم.

وكان عرب اليمن أيّامئذ من عبدة الشمس ثم دخلت فيهم الديانة اليهودية في زمن **تُبَّع أسعد** من ملوك حِمْير.

ولكونهم عَبَدة شمس كانوا يُسمُّون (عبد شمس) كما تقدّم في اسم سبأ.

{ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** }

يجوز أن يكون هذا من جملة الكلام الذي ألقي على لسان الهدهد، فالواو للعطف.

والأظهر أنّه كلام آخر من القرآن ذَيّل به الكلام الملقى إلى سليمان، فالواو للاعتراض بين الكلام الملقى لسليمان وبين جواب سليمان، والمقصود التعريض بالمشركين.

{ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** } تقدّم في أوّل السورة عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ } [4]. وإسناده هنا للشيطان حقيقي.

{ **السَّبِيلِ** } مستعار للدين الذي باتّباعه تكون النجاة من العذاب وبلوغ دار الثواب.

{ **أَلَّا يَسْجُدُوا** } قرأه الجمهور بتشديد اللام على أنّه مركب في الخط من (أن) و(لا) النافية. أي: صدّهم لأجل أن لا يسجدوا لله.

الخبء: مصدر خبَّأ الشيء إذا أخفاه. أطلق هنا على اسم المفعول، أي: المخبوء، للمبالغة في الخفاءّ.

إخراج الخبء: إبرازه للناس، أي: إعطاء ما هو غير معلوم لهم من المطر وإخراج النبات وإعطاء الأرزاق، وهذا مؤذن بصفة القدرة.

{ **وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** } مؤذن بعموم صفة العلم.

{ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } استئناف هو بمنزلة النتيجة للصفات التي أجريت على اسم الجلالة، وهو المقصود من هذا التذييل، أي: ليس لغير الله شبهة إلهية.

{ **رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** } أي: مالك الفلك الأعظم المحيط بالعوالم العليا، وقد تقدّم.

وفي هذا تعريض بأن عظمة ملك بلقيس وعظم عرشها ما كان حقيقا بأن يغرّها بالإعراض عن عبادة الله تعالى، لأن الله هو رب الملك الأعظم.

{ **الْعَرْشِ** } التعريف للدلالة على معنى الكمال.

{ **الْعَظِيمِ** } للدلالة على كمال العظم في تجسّم النفاسة.

وفي منتهى هذه الآية موضع سجود تلاوة تحقيقا للعمل بمقتضى قوله { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ } .

{ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [27]

تقدّم عند قوله { أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } بيان وجه تطلّب سليمان تحقيق صدق خبر الهدهد.

{ **سَنَنْظُرُ** } النظر هنا نظر العقل، وهو التأمّل.

وفي القول إيذان بتوضيح تهمته بالكذب ليتخلّص من العقاب، وفيه إيذان بالتوبيخ والتهديد وإدخال الروع عليه بأنّ كذبه أرجح عند الملك ليكون الهدهد مغلّبا الخوف على الرجاء، وذلك أدخل في التأديب على مثل فعلته وفي حرصه على تصديق نفسه بأن يبلّغ الكتاب الذي يرسله معه.

{ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } [28]

مبيّنة للجملة السابقة لأنّ فيما سينكشف بعد توجيه كتابه إلى ملكة سبأ ما يصدّق خبر الهدهد، إن جاء من الملكة جواب عن كتابه، أو يكذّب خبره إن لم يجيء منها جواب.

ألهم الله سليمان بحكمته أن يجعل لاتصاله ببلاد اليمن طريق المراسلة، فكتب إلى ملكة سبا كتابا لتأتي إليه وتدخل تحت طاعته وتصلح ديانة قومها، وليعلم أنّ الله ألقى في نفوس الملوك المعاصرين له رهبة من ملكه وجلبا لمرضاته لأنّ الله أيّده وأن كانت مملكته أصغر من ممالك جيرانه مثل مملكة اليمن ومملكة مصر.

وكانت مملكة سليمان يومئذ محدودة بالأردن وتخوم مصر وبحر الروم [سفر الملوك الأولى،الإصحاح:4].

ولم يزل تبادل الرسائل بين الملوك من سنة الدول ومن سنّة الدعاة إلى الخير. وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر.

الإلقاء: الرمي إلى الأرض. وتقدّم في قوله تعالى { وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ } [يوسف:10] وهو هنا مستعمل إمّا في حقيقته إن كان شأن الهدهد أن يصل إلى المكان فيرمي الكتاب من منقاره، وإمّا في مجازه إن كان يدخل المكان المرسل إليه فيتناول أصحابه الرسالة من رجله التي تربط فيها الرسالة.

{ **مَاذَا يَرْجِعُونَ** } رجع الجواب عن الكتاب، أي: من قبول أو رفض.

{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ [29] إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [30] أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ [31] }.

طويت أخبار كثيرة دلّ عليها ما بين الخبرين المذكورين من اقتضاء عدّة أحداث.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ غرابة قصّة إلقاء الكتاب إليها يثير سؤالا عن شأنها حين بلغها الكتاب.

{ **الْمَلأِ** } الجماعة من أشراف القوم، وهم أهل مجلسها.

{ **أُلْقِيَ إِلَيَّ** } الظاهر أنّ الكتاب سلّم إليها دون حضور أهل مجلسها.

{ **كِتَابٌ كَرِيمٌ** } ووصف الكتاب بالكريم ينصرف إلى نفاسته في جنسه. بأن كان نفيس الصحيفة نفيس التخطيط بهيج الشكل مستوفيا كل ما جرت عادة أمثالهم بالتأنق فيه. ومن ذلك أن يكون مختوما، وقد قيل: كرم الكتاب ختمه.

قال ابن العربي: " الوصف بالكرم في الكتاب غاية الوصف، ألا ترى إلى قوله تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ } [الواقعة:77] وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير، والأثير، والمبرور، فإن كان لملك قالوا: العزيز، وأسقطوا الكريم غفلة وهو أفضلها خصلة ".

{ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } يحتمل أن يكون قد تُرجم لها قبل أن تخرج إلى مجلس مشورتها، ويحتمل أن تكون عارفة بالعبرانية، ويحتمل أن يكون الكتاب مكتوبا بالعربية القحطانية فإنّ عظمة ملك سليمان لا تخلو من كتّاب عارفين بلغات الأمم المجاورة لمملكته، وكونه بلغته أظهر وأنسب بشعار الملوك، وقد كتب النبيّ صلى الله عليه وسلم للملوك باللغة العربية.

أمّا الكلام المذكور في هذه الآية فهو ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى بتضمين دقائقه وخصوصيات اللغة التي أنشئ بها.

{ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ** } حكاية لمقالها، وعرفت هي ذلك من عنوان الكتاب بأعلاه أو بظاهره على حسب طريقة الرسائل السلطانية في ذلك العهد في بني إسرائيل، مثل افتتاح كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بجملة (من محمد رسول الله).

{ **إِنَّهُ / وَإِنَّهُ** } التأكيد بـ (إنَّ) في الموضعين يترجم عمّا في كلامهما باللغة السبائية من عبارات دالة على اهتمامها بمرسل الكتاب وبما تضمّنه.

{ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } افتتاح الكتاب بجملة البسملة يدلّ على أنّ مرادفها كان خاصا بكُتُب النبيّ سليمان أن يُتْبع اسم الجلالة بوصفي: الرحمان الرحيم، فصار ذلك سنة لافتتاح الأمور ذوات البال في الإسلام، ادّخره الله للمسلمين من بقايا سنة الأنبياء بعد أن تُنوسي ذلك، فإنّه لم يعرف أن بني إسرائيل افتتحوا كتبهم باسم الله الرحمن الرحيم.

روى أبو داود في كتاب (المراسيل): أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكتب (باسمك اللهم)، كما كانت قريش تكتب، فلمّا نزلت هذه الآية صار يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم).

{ **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** } كان كتاب سليمان وجيزا لأنّ ذلك أنسب بمخاطبة من لا يحسن لغة المخاطِب فيقتصر له على المقصود لإمكان ترجمته وحصول فهمه. وهو نهي مستعمل في التهديد، وطلب للطاعة له، كما كان شأن الملوك المجاورين له بمصر وصور والعراق.

{ **وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** } هو إتيان مجازي مثل ما يقال: اتّبع سبيلي.
{ **مُسْلِمِينَ** } جمع سليمان بين دعوتها إلى مسالمته وطاعته، وذلك تصرّف بصفة الملك، وبين دعوتها قومها إلى اتباع دين التوحيد وذلك تصرّف بالنبوّة، لأنّ النبيّ يلقي الإرشاد إلى الهدى حيثما تمكّن منه.
فالأنبياء مأمورون أمرا عاما بالإرشاد إلى الحقّ. قال النبيء صلى الله عليه وسلم: **" لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حُمْر النعم "**، فهذه سنة الشرائع، لأن الغاية عندها هو إصلاح النفوس دون التشفّي وحبّ الغلبة.

{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ } [32]

سألتهم إبداء آرائهم ماذا تعمل تجاه دعوة سليمان. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا مثل التي قبلها.
الإفتاء: الإخبار بالفتوى، وهي إزالة مشكل يعرض. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [يوسف:41].
الأمر: الحال المهم، وإضافته إلى ضميرها لأنّها المخاطبة بكتاب سليمان، ولأنّها المضطلعة بما يجب إجراؤه من شؤون المملكة، وعليها تبعة الخطأ في المنهج الذي تسلكه من السياسة، ولذلك يقال للخليفة وللملك وللأمير ولعالم الدين: وليّ الأمر.
{ **مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ** } تؤذن الصيغة بأنّ ذلك دأبها وعادتها معهم، فكانت عاقلة حكيمة مستشيرة لا تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها ولا تعرض ملكها لمهاوي أخطاء المستبدّين.
{ **حَتَّى تَشْهَدُونِ** } كناية من معنى: توافقوني فيما أقطعه.
وليس في هذه الآية دليل على مشروعية الشورى لأنّها لم تحك شرعا إلهيا ولا سيق مساق المدح، ولكنّه حكاية ما جرى عند أمّة غير متدينة بوحي إلهي. غير أنّ شأن القرآن فيما يذكره من القصص أن يذكر المهم منها للموعظة أو للإسوة، كما قدمنه في المقدمة السابعة. فلذلك يُستروح من سياق هذه الآية حسن الشورى. وتقدم ذكر الشورى في [آل عمران:159].

{ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } [33]

جواب بأسلوب المحاورة فلذلك فُصل ولم يعطف كما هي طريقة المحاورات.
القوّة: حقيقتها ومجازها تقدّم عند قوله تعالى { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } [الأعراف:145]. وأطلقت على وسائل القوّة كما تقدّم في قوله تعالى { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال:60]، أيّ وسائل القدرة على القتال والغلبة. ومن القوة كثرة القادرين على القتال والعارفين بأساليبه.

البأس: الشدّة على العدو، قال تعالى { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } [البقرة:177]، أي: في مواقع القتال، وقال { بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ } [الحشر:14].

تصريح بأنّهم مستعدّون للحرب للدفاع عن مُلكهم، وتعريض بأنّهم يميلون إلى الدفع بالقوة إن أراد أن يكرههم على الدخول تحت طاعته.

{ **وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** } مع إظهار رأيهم، الذي جاء مضمّنا، فوضوا الأمر إلى الملكة لثقتهم بأصالة رأيها لتنظر ما تأمرهم فيمتثلونه.

{ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [34] وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [35] }.

أَبْدَت لهم رأيها مفضِّلة جانب السلم على جانب الحرب لأنّ نهاية الحرب فيها احتمال أن ينتصر سليمان فتصير مملكة سبا إليه، وفي نفس الوقت حذّرت من الدخول تحت سلطة سليمان اختيارا لأنّ ذلك إلقاء للمملكة في تصرّفه، وفي كلا الحالين يحصل تصرف ملك جديد في مدينتها.

{ **وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** } استدلال على المستقبل بحكم الماضي على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا } . والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجعل الأعزة أذلة.

{ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** } دبّرت أن تتفادى من الحرب ومن الإلقاء باليد، بطريقة المصانعة والتزلّف إلى سليمان بإرسال هدية إليه. وهذا الكلام مقدّمة لما ستلقيه إليهم من عزمها. ويتضمَّن تعليلا لما عزمت عليه.

فالتقدير: مرسلة إليهم كتابا ووفدا مصحوبا بهدية، إذ لا بدّ أن يكون الوفد مصحوبا بكتاب تجيب به كتاب سليمان، فإنّ الجواب عن الكتاب عادة قديمة.

<u>حكم الردّ على الرسالة</u>: هو من سنن المسلمين، وعُدَّ من حقّ المسلم على المسلم. قال القرطبي: إذا ورد على إنسان في كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يردّ الجواب لأنّ الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر.

وروي عن ابن عباس أنّه كان يرى ردّ الكتاب واجبا كردّ السلام. ولم أقف على حكم فيه من مذاهب الفقهاء.

والظاهر أنّ الجواب إن كان عن كتاب مشتمل على صيغة السلام أن يكون ردّ الجواب واجبا وأن يشتمل على ردّ السلام، لأنّ الردّ بالكتابة يقاس على الرد بالكلام.

ولم أر في كتب النبيّ صلى الله عليه وسلم جوابا عن كتاب إلّا جوابه عن كتاب مسيلمة: " والسلام على من أتبع الهدى ".

الهديّة: فعيلة من أهدى: فالهديّة ما يُعطى لقصد التقرّب والتحبّب، والجمع هدايا على اللغة الفصحى.

{ **فَنَاظِرَةٌ** } اسم فاعل من نظر بمعنى انتظر، أي: مترقّبة.

{ **بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** } مبيّنة لجملة { فَنَاظِرَةٌ }، أو مستأنفة.

(الباء) متعلّقة بفعل { يَرْجِعُ } قُدِّمت على متعلِّقها لاقترانها بحرف (ما) الاستفهامية، لأنّ الاستفهام له صدر الكلام. وفي التقديم إشارة إلى أنّها متردّدة فيما يرجع به المرسلون.

{ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ [36] ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ [37] }.

{ **فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ** } أي: فلما جاء الرسول الذي دل عليه قوله { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ }، والرسول لفظه مفرد ويصدق بالواحد والجماعة. وأيضا فإنّ هدايا الملوك يحملها ركب.

وقد أبى سليمان قبول الهدية لأنّ الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه، ولعلّها سكتت عن الجواب عمّا تضمّنه كتابه من قوله { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } فتبيّن له قصدها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمّنه الكتاب.

{ **قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ** } الخطاب لوفد الهدية لقصد تبليغه إلى الملكة. والاستفهام إنكاري لأن حال إرسال الهدية والسكوت عن الجواب يقتضي محاولة صرف سليمان عن طلبه. ويظهر أنّ الهديّة كان ذهبا ومالا.

{ **فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ** } الفاء لتفريع الكلام الذي بعدها على الإنكار السابق، أي: أنكرت عليكم ظنّكم فرحي بما وجّهتم لي، لأنّ ما أعطاني الله خير مما أعطاكم.

وسوق التعليل يشعر بأنّه علم أنّ الملكة لا تعلم أن لدى سليمان من الأموال ما هو خير مما لديها.

وهذا من أسرار الفرق في الكلام البليغ بين (الواو) و(الفاء) في هذه الجملة، فلو قال: وما آتاني الله خير مما آتاكم، لكان مشعرا بأنّها تعلم ذلك لأنّ (الواو) تكون للحال.

{ **بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ** } { بَلْ } للإضراب الانتقالي، وهو انتقال من إنكاره عليهم إمداده بمال إلى ردّ ذلك المال وإرجاعه إليهم. فالخبر استعمل كناية عن ردّ الهديّة.

{ **تَفْرَحُونَ** } يجوز أن يكون تُسَرُّون، ويجوز أن يكون تفتخرون، أي: أنتم تعظم عندكم تلك الهدية لا أنا لأنّ الله أعطاني خيرا منها.

{ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** } توعّدهم وهدّدهم بأنّه مرسل إليهم جيشا لا قبل لهم بحربه.

القِبَل: الطاقة. وأصله المقابلة، فأطلق على الطاقة لأنّ الذي يطيق شيئا يثبت للقائه ويقابله. فإذا لم يطقه تقهقر

عن لقائه. ولعلّ أصل هذا الاستعمال ناظر إلى المقابلة في القتال.

{ **بِهَا** } الضمير للجنود.

{ **مِنْهَا** } الضمير للمدينة، وهي مأرب، أي: يخرجهم أسرى ويأتي بهم إلى مدينته.

الصاغر: الذليل، اسم فاعل من **صغُر** (بضم الغين) المستعمل بمعنى ذَلَّ، ومصدره الصَّغَار.

المراد: ذلّ الهزيمة والأسر.

{ **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ [38] قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ [39] قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [40]** }.

طوي خبر رجوع الرسل والهداية، وعلم سليمان أنّ ملكة سبأ لا يسعها إلّا طاعته ومجيئها إليه، أو ورد له منها أنّها عزمت على الحضور عنده عملا بقوله { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [31].

{ **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا** } مستأنفة ابتداء لجزء من القصة. يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطت رحال الملكة في مدينة أورشليم وقبل أن تتهيأ للدخول على الملك، أو حين جاءه الخبر بأنّها شارفت المدينة فأراد أن يحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه ليريها مقدرة أهل دولته.

{ **يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا** } قد يكون عرشها محمولا معها في رحالها جاءت به معها لتجلس عليه خشية ألّا يهيئ لها سلميان عرشا.

أراد سليمان أن يبهتها بإحضار عرشها الذي تفتخر به وتعدّه نادرة الدنيا.

{ **عِفْرِيتٌ** } حسبما يُستخلص من مختلف كلمات أهل اللغة أنّه اسم للشديد الذي لا يُصاب ولا يُنال، فهو يُتَّقى لشرّه. وأصله اسم لعتاة الجن، ويوصف به الناس على معنى التشبيه.

{ **الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ** } رجل من أهل الحكمة من حاشية سليمان.

{ **مِنَ الْكِتَابِ** } أي: عنده علم مكتسب من الكتب، أي: من الحكمة، وليس المراد بالكتاب التوراة.

وذكر أهل التفسير والقصص أنّه (**آصف بن برخيا**) وأنّه كان وزير سليمان.

ارتداد الطرف: حقيقته رجوع تحديق العين إلى جهة منظورة تحوّل عنها لحظة. وعبّر عنه بالارتداد لأنّهم يعبّرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر فكان الارتداد استعارة مبنيّة على ذلك.

وهذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنّه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتّى بالقوة، وأنّ الحكمة مكتسبة لقوله { عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ }. فذكر في هذه القصة مثلا لتغلّب العلم على القوّة. ولمّا كان هذان الرجلان مسخَّرين لسليمان كان ما اختُصَّا به من المعرفة مزيّة لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى.

الاستقرار: التمكّن في الأرض وهو مبالغة في القرار.

{ **قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي** } لإظهار أنّ فضل الله عليه عظيم. فليس إحسان الله إليه إلّا فضلا محضا.

{ **لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** } لم يشتغل سليمان حين أُحضِر له العرش بأن يبتهج بسلطانه ولا بمقدرة رجاله ولكنّه انصرف إلى شكر الله تعالى على ما منحه من فضل وأعطاه من جند مسخَّرين بالعلم والقوة.

{ **وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** } ضرب حكمة خلقية دينية، فكلّ متقرّب إلى الله بعمل صالح يجب أن يستحضر أنّ علمه إنّما هو لنفسه يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة ويرجو دوام التفضُّل من الله عليه في الدنيا، فالنفع حاصل له في الدارين، ولا ينتفع الله بشيء من ذلك.

{ **وَمَنْ كَفَرَ** } المراد: من كفر فضل الله عليه بأن عبد غير الله فإنّ الله غني عن شكره وهو كريم في إمهاله ورزقه في هذه الدنيا. وقد تقدم عند قوله { قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ } [19]

{ **فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** } العدول عن الإضمار إلى الإظهار، دون أن يقول: فإنه غني كريم، تأكيد للاعتراف بتمحّض الفضل المستفاد من قوله { فَضْلِ رَبِّي }.

{ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ } [41]

هذا من جملة المحاورة التي جريت بين سليمان عليه السلام وبين ملئه ولذلك لم يعطف لأنه جرى على طريقة المقاولة والمحاورة. قالوا: أراد مفاجأتها واختبار فطنتها.

التنكير: التغيير للحالة.

{ **مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ** } أبلغ في انتفاء الاهتداء من: لا تهتدي، كما تقدّم في نظائره غير مرة.

{ فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ [42] وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ [43] }.

{ **فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ** } طُوي خبر ارتحالها، إذ ليس موضع عبرة. والمقصود أنّها خضعت لأمر سليمان وجاءته راغبة في الانتساب إليه. والظاهر أنّ الذي قال ذلك هو سليمان.

{ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ }

هذا من قول سليمان. أي: قال سليمان ذلك في ملئه شكرا لله على ما لديه من العلم، أو قال بعض ملأ سليمان لبعض هذه المقالة.

{ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ } أرادوا بالعلم علم الحكمة الذي علّمه الله سليمان ورجال مملكته وتشاركهم بعض أهل سبأ في بعضه، فقد كانوا أهل معرفة أنشأوا بها حضارة مُبْهِتَةٍ.

{ مِنْ قَبْلِهَا } إن حمل على ظاهره، كان المعنى أنّ بني إسرائيل كانوا أسبق في معرفة الحكمة والحضارة من أهل سبا، لأنّ الحكمة ظهرت في بني إسرائيل من عهد موسى، فقد سنّ لهم الشريعة، وأقام لهم نظام الجماعة، وعلّمهم أسلوب الحضارة بتخطيط رسوم مساكنهم وملابسهم ونظام الجيش والحرب والمواسم والمحافل. ثمّ أخذ ذلك يرتقي إلى أن بلغ غاية بعيدة في مدّة سليمان، فبهذا الاعتبار كانوا بنو الأسبق.

وإن أريد القبلية الاعتبارية، وهي الفضل والتفوّق في المزايا **وهو الأليق بالمعنى**، كان المعنى: إنّا أوسع وأقوى منها علما، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نحن الأوّلون السابقون بَيْدَ أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا "**، أي: نحن الأوّلون في غايات الهدى، وجعل مثلا لذلك اهتداء أهل الاسلام ليوم الجمعة فقال: **" وهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه ".**

{ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } زادوا في إظهار فضلهم عليها بذكر الناحية الدينية، أي: وكنّا مسلمين دونها. وفي ذكر فعل الكون دلالة على تمكّنهم من الإسلام منذ القدم.

{ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ } أي: صدّها معبودها من دون الله. وما كانت تعبده هو **الشمس**.

وإسناد الصدّ إلى المعبود مجاز عقلي لأنّه السبب في صدّها عن التوحيد، كقوله تعالى { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود:101] وقوله تعالى { غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ } [الأنفال:49].

{ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } دلالة على تمكّنها من عبادة الشمس، وكان ذلك التمكّن بسبب الانحدار من سلالة المشركين، فالشرك منطبع في نفسها بالوراثة. فمن أين يخلص إليها الهدى والإيمان.

{ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [44]

استئناف ابتدائي لجزء من القصة. وطُوي ذكر ترحُّلها إلى وصولها في ذكر ما يدلّ عليه من حلولها أمام صرح سليمان للدخول معه إليه أو الدخول عليه وهو فيه.

لمّا أراها سليمان عظمة حضارته انتقل بها حيث تشاهد أثرا بديعا من آثار الصناعة الحكيمة وهو الصرح.

الصَّرْح: يطلق على صحن الدار وعَرصتها. هو بيت وَعْر له بابان كان يجلس فيه سليمان للقضاء بين الناس [سفر الملوك الأول، الإصحاح:7] .

{ **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا** } بدا لها ذلك في حين دخولها، فهو لا محالة ساحة مَعْنِيَّةٌ للنزهة فُرشت بزجاج شفَّاف وأجري تحته الماء حتّى يخاله الناظر لجّة ماء. وهذا من بديع الصناعة التي اختصت بها قصور سليمان في ذلك الزمان لم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء.

كشف ساقيها: كان من أجل أنّها شمَّرت ثيابها كراهية ابتلالها بما حسبته ماء. فالكشف عن ساقيها يجوز أن يكون بخلع خفَّيها أو نعليها، ويجوز أن يكون بتشمير ثوبها.

{ **إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ** } القائل هو سليمان كان مصاحبا لها أو كان يترقّبها.

القوارير: جمع قارورة وهي اسم لإناء من الزجاج كانوا يجعلونه للخمر ليظهر للرائي ما قرّ في قعره من نفث الخمر، فيظهر المقدار الصافي منها. فسمِّي ذلك الإناء قارورة لأنّه يظهر منه ما يقرّ في قعره.

وتقدّم ذكر الزجاج عند قوله تعالى { الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ } [النور:35].

{ **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** } بهرها ما رأت من آيات علمت منها أنّ سليمان صادق فيما دعاها إليه وأنّه مؤيّد من الله تعالى، وعلمت أنّ دينها ودين قومها باطل فاعترفت بأنّها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس. وهذا درجة أولى في الاعتقاد وهو **درجة التخلية**.

{ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي **درجة التحلِّي** بالإيمان الحقّ، فاعترفت بأنّ الله هو ربّ جميع الموجودات، وهذا مقام التوحيد.

{ **مَعَ سُلَيْمَانَ** } إيمان بالدين الذي تقلّده سليمان وهو دين اليهودية، وقد أرادت جمع معاني الدين في هذه الكلمة ليكون تفصيلها فيما تتلقّاه من سليمان من الشرائع والأحكام.

الإسلام: الانقياد إلى الله تعالى. وتقلّد بلقيس للتوحيد كان في خاصة نفسها إذ لم يثبت أنّ أهل سبأ انخلعوا عن عبادة الأصنام كما يأتي في (سورة سبأ). وأمّا دخول اليهودية بلاد اليمن فيأتي في (سورة البروج).

وسكت القرآن عن بقية خبرها ورجوعها إلى بلادها وللقصّاصين أخبار لا تصح، فهذا تمام القصة.

ومكان العبرة من القصّة الاتعاظ بحال هذه الملكة، إذ لم يصدّها علو شأنها وعظمة سلطانها مع ما أوتيته من سلامة الفطرة وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد، وتوقن بفساد الشرك وتعترف بالوحدانية لله. فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الاسلامي إلّا لسخافة أحلامهم أو لعمايتهم عن الحق وتمسّكهم بالباطل وتصلّبهم فيه.

ولا أصل لما يذكره القصّاصون وبعض المفسّرين من أنّ سليمان تزوّج بلقيس ولا أنّ له ولدا منها. فإنّ **رحبعام** ابنه الذي خلفه في الملك كان من زوجة عَمُّونيَّة.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } [45]

هذا مثل ثالث ضربه الله لحال المشركين مع المؤمنين وجعله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنّ له أسوة بالرسل والأنبياء من قبله.

والانتقال من ذكر ملك سليمان وقصة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جوار البلاد لأنّ ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان وكانت في طريق السائر من سبأ إلى فلسطين.

ألا ترى أنّه أعقب ذكر ثمود بذكر قوم لوط وهم أدنى إلى بلاد فلسطين، فكان سياق هذه القصص مناسبا لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين.

{ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } لمّا كان ما حلّ بالقوم أهمّ ذكرا في هذا المقام قدّم المجرور على المفعول لأنّ المجرور هو محلّ العبرة، وأمّا المفعول فهو محل التسلية، والتسلية غرض تبعي.

{ وَلَقَدْ } ولام القسم لتأكيد الإرسال باعتبار ما اتصل به من بقية الخبر، فإمّا أن يكون التأكيد لمجرّد الاهتمام، وإمّا أن يبنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يتردّد فيما تضمّنه الخبر من تكذيب قومه إياه واستخفافهم بوعيد ربهم على لسانه.

{ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ } تفسير لما دلّ عليه { أَرْسَلْنَا } من معنى القول.

{ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } الفاء للتعقيب وهو تعقيب بحسب ما يقتضيه العرف بعد سماع الدعوة.

والجملة تفريع على { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا }. فالمعنى: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا لإنقاذهم من الشرك فأعرض فريق عن الإيمان وآمن فريق.

{ فَإِذَا } الإتيان بحرف المفاجأة كناية عن كون انقسامهم غير مرضي، فكأنَّه غير مترقَّب، إشارة إلى أنّ مجرّد بقاء الكفر فيهم كاف في قبح فعلهم. وحالهم هذا مساو لحال قريش تجاه الرسالة المحمّدية.

{ فَرِيقَانِ } هما: فريق الذين استكبروا، وفريق الذين استضعفوا وفيهم صالح.

الاختصام: واقع مع صالح ابتداء ومع أتباعه تبعا.

{ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [46]

لمّا كان الاختصام بين الفريقين في شأن صالح ابتداء جيء بجواب صالح عمّا تضمّنه اختصامهم من محاولتهم إفحامه بطلب نزول العذاب. فقوله هذا ليس هو ابتداء دعوته فقد تقدّم قوله { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ } [45] اقتصر هنا على مراجعة صالح قومه في شأن غرورهم بظنّهم أنّ تأخّر العذاب أمارة على كذب الذي توعّدهم به، فإنّهم قالوا { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الأعراف:70]، لأنّ الغرض هنا موعظة

قريش في قولهم { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32]. ليعلموا أنّ عاقبة ذلك مماثلة لعاقبة ثمود لتماثل الحالين، قال تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [العنكبوت:53].

{ **لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ** } الاستفهام إنكار لأخذهم جانب العذاب دون جانب الرحمة. فالاستعجال: المبادرة. و(الباء) للملابسة. والمفعول محذوف تقديره: تستعجلونني متلبّسين بسيّئة التكذيب.

{ **السَّيِّئَةِ** } : صفة لمحذوف، أي: الحالة السيئة التي يترقبون حلولها، وهي ما سألوا من تعجيل العذاب المحكي عنهم في [الأعراف:70].

{ **الْحَسَنَةَ** } ضدّ ذلك، أي: حالة سلامتهم من حلول العذاب.

والمعنى: إنكار جعلهم تأخير العذاب أمارة على كذب الوعيد به، وأنّ الأولى بهم أن يجعلوا امتداد السلامة أمارة على إمهال الله إيّاهم فيتّقوا حلول العذاب.

{ **لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } أعقب الإنكار بتحريضهم على الإقلاع عن ذلك بالتوبة وطلب المغفرة لما مضى منهم عسى أن يرحمهم الله. والكلام استنزال لطائرهم، وترغيب بعد ترهيب.

{ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } [47]

هذا من محاورتهم مع صالح فلذلك لم يعطف فعلا القول وجاء على سنن حكاية أقوال المحاورات.

{ **اطَّيَّرْنَا** } أصلها تطيَّرنا، فقلبت التاء طاء لقرب مخرجيهما وسكنت لتخفيف الإدغام وأدخلت همزة الوصل لابتداء الكلمة بساكن. { **بِكَ** } الباء للسببية.

التطير: التشاؤم. أطلق عليه التطير لأنّ أكثره ينشأ من الاستدلال بحركات الطير من سانح وبارح.

وكان التطيّر من أوهام العرب (وثمود من العرب). وتقدّم معنى الشؤم عند قوله تعالى { بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ } [الأعراف:131].

{ **قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ** } أجاب كلامهم بأنّه ومن معه ليسوا سبب شؤم ولكن سبب شؤمهم وحلول المضار بهم هو قدرة الله. واستُعير لما حلَّ بهم اسم الطائر مشاكلة لقولهم، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم.

{ **عِنْدَ** } للمكان المجازي مستعارا لتحقّق شأن من شؤون الله، يُقدَّر به الخير والشرّ، وهو تصرّف الله وقدره.

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** } أضرب بـ { بَلْ } عن مضمون قولهم {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ}، بأنّهم قوم فتنهم الشيطان فتنة متجدّدة بإلقاء الاعتقاد بصحة ذلك في قلوبهم. وصيغة المضارع دالة على التجدّد.

{ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ [48] قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [49] }.

{ **الْمَدِينَةِ** } هي حِجْرُ ثمود (بكسر الحاء وسكون الجيم) المعروف مكانها اليوم بديار ثمود ومدائن صالح، وهي بقايا تلك المدينة من أطلال وبيوت منحوتة في الجبال. وهي بين المدينة المنوّرة وتبوك في طريق الشام وقد مرّ بها النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون في مسيرهم في غزوة تبوك ورأوا فيها آبارا نهاهم النبيّ عن الشرب والوضوء منها إلّا بئرا واحدة أمرهم بالشرب والوضوء بها وقال: **" إنّها البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح "**.

الرهط: العدد من الناس حوالي العشرة وهو مثل النفر. وكان هؤلاء الرهط من عتاة القوم، واختُلف في أسمائهم على روايات هي من وضع القصّاصين ولم يثبت في ذلك ما يُعتمد. وأشتهر أنّ الذي عقر الناقة اسمه **قُدار** (بضم الميم وتخفيف الدال).

{ **الأرض** } : أرض ثمود فالتعريف للعهد.

{ **وَلا يُصْلِحُونَ** } للدلالة على أنّهم تمحّضوا للإفساد ولم يكونوا ممّن خلطوا إفسادا بإصلاح.

{ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ** } فعل أمر، أي: قال بعضهم: تقاسموا. فلمّا قال ذلك بعضهم توافقوا عليه وأعادوه فصار جميعهم قائلا ذلك، فلذلك أسند القول إلى التسعة.

والقَسم بالله يدلّ على أنهم يعترفون بالله ولكنّهم يشركون به الآلهة، كما تقدم في قصصهم فيما مرّ من السور.

{ **لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ** } جواب القسم، والضمير عائد إلى صالح. و**التبييت والبيات**: مباغتة العدو ليلا. وعكسه التصبيح: الغارة في الصباح، وكان شأن الغارات عند العرب أن تكون في الصباح. <u>فالتبييت لا يكون إلّا لقصد الغدر</u>. والمعنى: أنّهم يغيرون على بيته ليلا فيقتلونه وأهله غدرا من حيث لا يُعرف قاتله ثم ينكرون أن يكونوا هم قتلوهم ولا شهدوا مقتلهم.

{ **ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ** } وليُّ صالح هم أقرب القوم إليه، أي: إذا راموا الأخذ بثأره.

المُهلك: مصدر ميمي من أهلك الرباعي، أي شهدنا مقتلهم.

{ **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** } أي: ونؤكّد إنّا لصادقون. ولم يذكروا أنّهم يحلفون على أنّهم صادقون.

وهذا الجزء من قصة ثمود لم يذكر في غير هذه السورة. وأحسب أن سبب ذكره هنا أنّ نزول هذه السورة كان في وقت تآمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو التآمر الذي حكاه الله في قوله { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الأنفال:30]؛ فضرب الله لهم مثلا بتآمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم،

ولذلك ترى بين الآيتين تشابها، وترى تكرير ذكر (مكرهم ومكر الله بهم)، وذكر أنّ في قصتهم آية لقوم يعلمون.

{ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [50] فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [51] فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [52] وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [53] }.

{ **وَمَكَرُوا مَكْراً** } سمّى الله تآمرهم مكرا لأنّه كان تدبير ضرٍّ في خفاء. وأكّد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوّته في جنس المكر، وتنوينه للتعظيم.

{ **وَمَكَرْنَا مَكْراً** } مكر مجازي. استعير اللفظ لمبادرة الله إيّاهم باستئصالهم قبل أن يتمكّنوا من تبييت صالح وأهله، وتأخير ذلك إلى الوقت الذي تآمروا فيه على قتل صالح، مع عدم إشعارهم بذلك.

{ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } تأكيد لاستعارة المكر لتقدير الاستئصال فليس في ذلك ترشيح للاستعارة ولا تجريد.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. واقترانه بـ (فاء) التفريع إيماء إلى أنّ الاعتبار بمكر الله بهم هو المقصود من سوق القصة، تعريضا بأنّ عاقبة أمره مع قريش أن يكفّ عنه كيدهم وينصره عليهم، وفي ذلك تسلية له. و**النظر** نظر قلبي.

{ **أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ** } قرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الهمزة فيكون المصدر بدلا من { عَاقِبَةُ }. والتأكيد للاهتمام بالخبر. وقرأ الجمهور بكسر الهمزة فتكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لما يثيره الاستفهام في قوله { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ } من سؤال عن هذه الكيفية. والتأكيد أيضا للاهتمام.

التدمير: الإهلاك الشديد، وتقدّم غير مرة في سورة الشعراء.

والقصة تقدمت، وتقدّم إنجاء صالح والذين آمنوا معه، وذلك أنّ الله أوحى إليه أن يخرج ومن معه إلى أرض فلسطين حين أنذر قومه بتمتّع ثلاثة أيام.

{ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً** } تفريع إخبار. والإشارة منصرفة إلى معلوم غير مشاهد، لأنّ تحقّقه يقوم مقام حضوره، فإنّ ديار ثمود معلومة لجميع قريش وهي في طريقهم إلى الشام.

الخاوية: الخالية، ومصدره الخواء، أي: فالبيوت باق بعضها في الجبال لا ساكن بها.

{ **بِمَا ظَلَمُوا** } الباء للسببية، والـ (مَا) مصدرية، أي: كان خواؤها بسبب ظلمهم.

الظلم: الشرك وتكذيب رسولهم، فذلك ظلم في جانب الله لأنّه اعتداء على حق وحدانيّته، وظلم للرسول بتكذيبه وهو الصادق.

ولمّا خص الله عملهم بوصف الظلم من بين عدّة أحوال يشتمل عليها كفرهم كالفساد، كان ذلك إشارة إلى أنّ للظلم أثرا في خراب بلادهم. وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنّه قال: أجد في كتاب الله أنّ الظلم يخرِّب البيوت وتلا: { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا }.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } معترضة بين الجمل المتعاطفة. والإشارة إلى ما ذكر من عاقبة مكرهم.

الآية: الدليل على انتصار الله لرسله.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } اللام لام التعليل يعني: آية لأجلهم، أي: لأجل إيمانهم. وفيه تعريض بأنّ المشركين الذين سبقت إليهم هذه الموعظة إن لم يتّعظوا بها فهم قوم لا يعلمون.

{ **وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } في تأخير الجملة طمأنه لقلوب المؤمنين بأنّ الله ينجيهم ممّا توعّد به المشركين، كما نجّى الذين آمنوا وكانوا يتّقون من ثمود، وهم صالح ومن آمن معه.

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [54] أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [55] }.

لم يذكر المرسل إليهم هنا كما ذكر في قصّة ثمود لعدم تمام المشابهة بين قوم لوط وبين قريش فيما عدا التكذيب والشرك.

والاقتصار على قصة قوم لوط دون قصة عاد وقصة مدين لمناسبة مجاورة ديار قوم لوط لمملكة سليمان ووقوعها بين ديار ثمود وبين فلسطين، وكانت ديارهم ممر قريش إلى بلاد الشام قال تعالى { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } [الحجر:76] وقال { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137/138].

{ **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ** } استفهام إنكاري.

{ **وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** } حال، زيادة في التشنيع، أي: تفعلون ذلك عَلَنًا يبصر بعضكم بعضا.

فإنّ التجاهر بالمعصية معصية لأنّه يدلّ على استحسانها، وذلك استخفاف بالنواهي.

{ **أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ** } تقدّم في [الأعراف:81] { إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ } ، فهنا جيء بالاستفهام الإنكاري وما في الأعراف جاء الخبر مستعملا في الإنكار. فيجوز أن يكون اختلاف الحكاية تفنّنا مع اتحاد المعنى. وكلا الأسلوبين يقع في قصص القرآن، لأنّ في تغيير الأسلوب تجديدا لنشاط السامع.

ونظير بقية الآية تقدّم في [الأعراف:79-83].

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** } وصفهم هنا بالجهالة، وهي اسم جامع لأحوال أفن الرأي وقساوة القلب. وفي [الأعراف:80] وصفهم بأنّهم { قَوْمٌ مُسْرِفُونَ } وذلك يُحمل على اختلاف المقالتين في مقامين.

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [56] فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ [57] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [58] }.

تقدّم نظير هاته الآية في [الأعراف:82-84]، وخالفتها هذه بوقوع العطف بالفاء في قوله { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ } دون (الواو)، وبقوله { أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ } عوض { أَخْرِجُوهُمْ } وبقوله { قَدَّرْنَاهَا } عوض { كَانَتْ }، وبقوله { فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ } عوض { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ }.

{ **فَمَا كَانَ** } الفاء هنا لتعقيب الجملة المعطوفة على التي قبلها تعقيب جزء القصة على أوّله فلا تفيد إلّا تعقيب الإخبار، وهي في ذلك مساوية للواو. ولكن أوثر حرف التعقيب لكونها على نسج ما حكيت به قصة ثمود في قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } [45]، فالاختلاف بين هذه الآية وآية الأعراف تفنّن في الحكاية، ومراعاة للنظير في النسج. وهذا من أساليب قصص القرآن، كما بيّنته في المقدمة السابعة.

{ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ** } دون { أَخْرِجُوهُمْ }، لأنّ المحكي من كلام القوم هو تآمرهم على إخراج آل لوط، فما هنا حكاية بمرادف كلامهم وما في الأعراف حكاية بالمعنى، والغرض هو التفنّن أيضا.

{ **قَدَّرْنَاهَا** } الاختلاف بينها وبين { كَانَتْ } تفنّن كذلك.

{ **فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ** } الاختلاف بينها وبين { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } للتوزيع، فهما عبرتان بحالهم تفرّعتا على وصف ما حلّ بهم فوزّعت العبرتان على الآيتين لئلّا يخلو تكرير القصة من فائدة.

{ **آلَ لُوطٍ** } المراد لوط وأهل بيته.

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } [59]

لمّا استوفى غرض الاعتبار والإنذار حقّه بذكر عواقب بعض الأمم التي كذّبت الرسل، وهي أشبه أحوالا بأحوال المكذّبين بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذي انزل عليه، اقبل الله بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يلقّنه ماذا يقول عقب القصص والمواعظ السالفة استخلاصا واستنتاجا منها.

{ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** } أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم، وعلى ما أعقبهم الله على صبرهم، من النصر ورفعة الدرجات، وعلى أن اهلك الأعداء الظالمين كقوله { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:45]، ونظيره قوله تعالى { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [العنكبوت:45].

{ **وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** } إنشاء طلب من الله أن يسلّم على المصطفين من عباده، أي: أن يجعل

لهم ذكرا حسنا في الملأ الأعلى.

السلام: في الأصل اسم يقوله القائل لمن يلاقيه بلفظ: سلام عليك، أو السلام عليك. ومعناه سلامة وأمن ثابت لك. فكان اللفظ كالعهد بالأمان. ثم لمّا كانت المفاتحة بذلك تدلّ على الابتداء بالإكرام والتلطّف عند اللقاء ونيّة الإعانة والقِرى، شاع إطلاق كلمة: السلام عليك، ونحوها عند قصد الإعراب عن التلطّف والتكريم، فشاعت في العرب وصارت بمنزلة الدعاء الذي هو إعراب عن إضمار الخير للمدعو له بالسلامة في حياته. فلذلك قال تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } [النور:61].

ثم ذكر القرآن السلام من عند الله تعالى على معنى كونه معاملة منه سبحانه بكرامة الثناء وحسن الذكر للذين رضي الله عنهم من عباده في الدنيا وكذلك في الآخرة، كقوله حكاية عن عيسى إذ أنطقه بقوله { وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ } [مريم:33].

وجاء في القرآن السلام على خمسة من الأنبياء في [الصافات: 130/120/109/79] . وأيضا أمر الله الأمة بالسلام على رسولها فقال { أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [الأحزاب:56].

{ **عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** } في مقدّمتهم الرسل والأنبياء ويشمل ذلك الصالحين من عباده كما في صيغة التشهّد: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين).

{ **آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** } أُمر الرسول أن يَشرع في الاستدلال على مسامع المشركين فيقول لهم هذا الكلام، بقرينة قوله { **أَمَّا تُشْرِكُونَ** } بصيغة الخطاب في قراءة الجمهور.

<u>والاستفهام مستعمل في الإلجاء وإلزام المخاطب بالإقرار بالحقّ</u> وتنبيهه على خطئه. وهذا دليل إجمالي يقصد به ابتداء النظر في التحقيق بالإلهية والعبادة.

{ **خَيْرٌ** } في هذا الاستفهام عن الأفضل في الخير تنبيه لهم على الخطأ المفرط والجهل المورّط لتنفتح بصائرهم إلى الحقّ إن أرادوا اهتداء. والاستفهام على حقيقته بقرينة وجود { أَمْ } المعادلة للهمزة، فإنّ التهكّم يُبنى على الاستعمال الحقيقي. والمعنى: الله الحقيق بالإلهية أم ما تشركون معه.

{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } [60].

{ **أَمْ** } منقطعة بمعنى (بَلْ) للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض مع مراعاة وجود معنى الاستفهام أو لفظه بعدها، لأنّ (أَمْ) لا تفارق معنى الاستفهام. انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي التهكّمي إلى

الاستفهام التقريري، ومن المقدّمة الإجمالية وهي قوله { آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ }، إلى الغرض المقصود وهو الاستدلال. وهو مشوب بتوبيخ، فلذلك ذُيّل بقوله { بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ }.

وفي الكلام تعداد للخيرات والمنافع التي هي من آثار رحمته ومن آثار قدرته. فهو استدلال مشوب بامتنان، امتنان بنعمة إيجادهم وإيجاد ما به قوام شؤونهم في الحياة، وبسابق رحمته.

{ **وَأَنْزَلَ لَكُمْ** } الخطاب موجّه إلى المشركين للتعريض بأنّهم ما شكروا نعمة الله.

{ **مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا** } ذكر إنزال الماء لأنّه من جملة ما خلقه الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إنّ المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغترارا بالسبب فبودروا بالتذكير بأنّ الله خلق الأسباب وهو خالق المسبّبات بإزالة الموانع والعوارض، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب.

{ **فَأَنْبَتْنَا** } نون الجمع التفات من الغيبة إلى الحضور. ومن لطائفه هنا التنصيص على أنّ المقصود إسناد الإنبات إليه لئلّا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء، لأنّ التذكير بالمُنبت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نعمه.

الإنبات: تكوين النبات.

الحدائق: جمع حديقة وهي البستان والجنّة التي فيها نخل وعنب. سُمِّيت حديقة لأنّهم كانوا يُحْدِقون بها حائطا يمنع الداخل إليها صونا للعنب لأنّه ليس كالنخل الذي يعسر اجتناء ثمره. ولا تطلق الحديقة إلّا على ذلك.

البهجة: حسن المنظر، لأنّ الناظر يبتهج به.

{ **مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا** } ليس في ملككم أن تنبتوا شجر تلك الحدائق. وقدّم الخبر على الاسم للاهتمام بنفي ملك ذلك.

{ **أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ** } استئناف هو كالنتيجة للجملة قبلها، لأنّ إثبات الخلق والرزق والإنعام لله تعالى بدليل لا يسعهم إلّا الإقرار به يقود ولابد إلى الاعتراف أنّه لا إله معه. والاستفهام إنكاري.

{ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** } للإضراب عن الاستفهام الإنكاري تفيد معنى (لكن) باعتبار ما تضمّنه الإنكار من انتفاء أن يكون مع الله إله. فكان حقّ الناس ألّا يشركوا معه في الإلهية غيره، فجيء بالاستدراك لأنّ المخاطبين لم ينتفعوا بالدليل مع أنّه دليل ظاهر مكشوف، فهم مكابرون في إعراضهم عن الاهتداء بهذا الدليل، فهم يعدلون بالله غيره، أي: يجعلون غيره مثيلا له في الإلهية.

{ **يَعْدِلُونَ** } من عدل الذي يتعدى بـ (الباء)، أو يعدلون عن الحق من عدل الذي يّعدَّى بـ (عَنْ). والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنّهم مستمرّون على شركهم لم يستنيروا بدليل العقل ولا أقلعوا بعد التذكير بالدلائل.

وفي الإخبار عنهم بأنّهم { قَوْمٌ } إيماء إلى تمكّن صفة العدول عن الحق منهم حتّى كأنّها من مقومات قوميتهم

{ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [61]

{ أَمْ } للإضراب الانتقالي مثل أختها السابقة. وهذا انتقال من الاستدلال المشوب بالامتنان إلى الاستدلال المجرّد بدلائل قدرته وعلمه بأنْ خلق المخلوقات العظيمة، وبتدبيره نظامها حتّى لا يطغى بعضها على بعض ولأجل كون الغرض من هذا الاستدلال إثبات عظم القدرة وحكمة الصنع لم يجيء خلاله بخطاب للمشركين كما جاء في الآية السابقة، وإن كان هذا الصنع العجيب لا يخلو من لطف بالمخلوقات، ولكن ذلك غير مقصود بالقصد الأوّل من سوق الدليل هنا.

القرار: مصدر قَرَّ، إذا ثبت وسكن. ووصف الأرض به للمغالبة، أي: ذات قرار. والمعنى جعل الأرض ثابتة قارة غير مضطربة. وهذا تدبير عجيب ولا يُدرك تمام هذا الصنع العجيب إلّا عند العلم بأنّ هذه الأرض سابحة في الهواء متحرّكة في كل لحظة، وهي مع ذلك قارة فيما يبدو لسكّانها فهذا تدبير أعجب.

{ وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً } وشقّ فيها الأنهار فجعلها خلالها. وخلال الشيء: منفرج ما بين أجزائه. والأنهار تشقّ الأرض في أخاديد فتجري خلال الأرض.

الرواسي: الجبال، جمع راسٍ، وهو الثابت.

{ لَهَا } لام العلة، أي: الرواسي لأجل قرار الأرض.

{ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً } وجعْل الحاجز بين البحرين من بديع الحكمة، وهو حاجز معنوي حاصل من دفع كلا الماءين عن الاختلاط، بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركّب منها الماء المالح والماء العذب. فالحاجز حاجز من طبعهما وليس جسما آخر فاصلا بينهما، وتقدّم في [النحل:14].

{ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ } ثمّ ذيّل بالاستفهام الإنكاري وبالاستدراك بجملة مماثلة لما ذُيّل به الاستدلال الذي قبلها على طريقة التكرير تعدادا للإنكار وتمهيدا للتوبيخ بقوله:

{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } أوثر هنا نفي صفة العلم عن أكثر المشركين لقلّة من ينظر في دقائق هذه المصنوعات وخصائصها منهم، فإنّ اعتياد مشاهدتها من أوّل نشأة الناظر يذهله عمّا فيها من دلائل بديع الصنع.

{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ } [62]

ارتقى الاستدلال من التذكير بالتصرّف الربّاني في ذوات المخلوقات إلى التذكير بتصرّفه في أحوال الناس التي لا يخلو عنها أحد وهي: حالة الاحتياج، وحالة البؤس، وحالة الانتفاع.

{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } فالمضطرّ هو ذو الضرورة. فالمرء محتاج إلى أمور كثيرة بها قوام أوده ليست متّصلة بذاته مثل الأقوات والنكاح والملابس اللازمة، فالمرء يتطلّبها بوجوه من المعاوضات، وهي تتعسّر بقدر وفرة منافعها وعزة حصولها، فيسأل الله سُبل التيسير. وهذه مرتبة الحاجيات.

الاضطرار: افتعال من الضرورة لا من الضُرّ. وليس له فعل مجرّد وإنّما يقال: اضطرّه كذا إلى كذا.

الإجابة: إعطاء الأمر المسؤول.

{ وَيَكْشِفُ السُّوءَ } حالة البؤس.

الكشف: أصله رفع الغشاء، فشُبِّه السوء الذي يعتري المضرور بغشاء يحول دون المرء ودون الاهتداء إلى الخلاص، تشبيه معقول بمحسوس.

وهذه مرتبة الضروري فإنّ معظمها أو جميعها حفظ من تطرّق السوء إلى مُهِمّ أحوال الناس، مثل الكلّيّات وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والعرض.

وظاهر التقييد بالظرف يقتضي ضمان الإجابة. والواقع أنّ الإجابة منوطة بإرادة الله تعالى بحسب ما يقتضيه حال الداعي وما يقتضيه معارضه من أصول أخرى، والله أعلم بذلك.

{ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ } حالة الانتفاع، أي: يجعلكم تعمرون الأرض وتجتنون منافعها، فضمَّن { خُلَفَاءَ } معنى المالكين، فأضيف إلى الأرض على تقدير: مالكين لها، والملك يستلزم الانتفاع بما يُنتفع به منها.

وهذه مرتبة التحسيني.

وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المناسب وهو ما يجلب نفعا أو يدفع ضررا، وهو من مسالك العلة في أصول الفقه.

{ يُجِيبُ - يَكْشِفُ - يَجْعَلُكُمْ } ولمَا اقتضته الخلافة من تجدّد الأبناء عقب الآباء والأجيال بعد الأجيال، وما اقتضته الاستجابة وكشف السوء من كثرة الداعين والمستائين عبّر في أفعال الجعل التي تعلقت بها بصيغة المضارع الدال على التجدّد بخلاف أفعال الجعل الأربعة التي في الآية قبلها.

{ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ } ثم استؤنف عقب هذا الاستدلال باستفهام إنكاري تكريرا لما تقدّم عقب الأدلة السابقة زيادة في تعداد أخطائهم.

{ **قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** } انتصب { قَلِيلًا } على الحال، أي: فعل ذلك لكم وأنتم في حال قلّة تذكّركم، فتفيد معنى التعجّب من حالهم.

التذكّر: من الذُّكر (بضم الذال) وهو ضدّ النسيان، فهو استحضار المعلوم، أي: قليلا استحضاركم الافتقار إلى الله وما أنتم فيه من إنعامه فتهتدوا بأنّه الحقيق بأن لا تشركوا معه غيره.

والقليل هنا مُكنًّى به عن المعدوم، لأنّ التذكّر المقصود (الاستدلال) معدوم منهم.

{ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [63]

{ **أَمْ** } لإضراب الانتقال من نوع دلائل التصرّف في أحوال عامة الناس إلى دلائل التصرّف في أحوال المسافرين منهم في البر والبحر، فإنّهم أدرى بهذه الأحوال وأقدر لما في خلالها من النعمة والامتنان.

{ **يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** } الهدى في هذه الظلمات بسير النجوم كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:97]. فالله الهادي للسير في تلك الظلمات بأنّ خلق النجوم على نظام صالح للهداية في ذلك، وبأنّ ركّب في الناس مدارك للمعرفة بإرصاد سيرها وصعودها وهبوطها، وهداهم أيضا بمهاب الرياح، وخولهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها.

{ **وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** } وبهذه المناسبة أدمج الامتنان بفوائد الرياح في إثارة السحاب الذي به المطر وهو المعني برحمة الله. وإرساله الرياح هو خلق أسباب تكوّنها.

{ **بُشْراً** } اختلفت القراءات، وتقدّمت في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [الأعراف:57]، وفي قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [الفرقان:48]. وتوجيه هذه القراءات هنالك.

{ **أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } ذيل هذا الدليل بتنزيه الله تعالى عن إشراكهم معه آلهة، لأنّ هذا خاتمة الاستدلال عليهم بما لا ينازعون في أنّه من تصرّف الله، فجيء بعده بالتنزيه عن الشرك كلّه، وذلك تصريح بما أشارت إليه التذييلات السابقة.

{ أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [64]

تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. والاستفهام تقريري لأنّهم لا ينكرون أنّه يبدأ الخلق وأنّه يرزقهم.

{ ثُمَّ يُعِيدُهُ } ادماج في خلال الاستفهام، لأنّ تسليم بدئه الخلق يلجئهم الى فهم إمكان إعادة الخلق التي أحالوها

{ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أعيد الاستفهام حتّى لا يظنّوا أن رزقهم في الدنيا من نعم آلهتهم. لأنّ الرزق عطف على إعادة الخلق.

{ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } وإذا قد كانوا منكرين للبعث ذُيّلت الآية بأمر التعجيز بالإتيان ببرهان على عدم البعث.

البرهان: الحجّة. وتقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ } [النساء:174].

وجماع ما تقدّم في هذه الآيات [59 – 64]، من قوله { آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } [59] أنّها أجملت الاستدلال على أحقية الله تعالى بالإلهية وحده ثم فصّلت ذلك بآيات { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - إلى قوله - قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [60-64]. **فابتدأت** بدليل قريب من برهان المشاهدة، وهو خلق السماوات والأرض وما يأتي منهما من خير للناس، ودليل كيفية خلق الكرة الأرضية وما على وجهها منها، وهذا ملحق بالمشاهدات. **وانتقلت** إلى استدلال من قبيل الأصول الموضوعة، وهو ما تمالأ عليه الناس من اللجأ إلى الله تعالى عند الاضطرار. **وانتقلت** إلى الاستدلال عليهم بما مكّنهم من التصرّف في الأرض إذ جعل البشر خلفاء في الأرض، وسخّر لهم التصرّف بوجوه التصاريف المعينة على هذه الخلافة، وهي تكوين هدايتهم في البر والبحر، وذلك جامع لأصول تصرفات الخلافة المذكورة في الارتحال والتجارة والغزو. **وختم** ذلك بكلمة جامعة لنعمتي الإيجاد والإمداد وفي مطاويها جوامع التمكّن في الأرض.

{ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [65] بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ [66] }.

لما أبطلت الآيات السابقة إلهية أصنام المشركين بالأدلة المتظاهرة فانقطع دابر عقيدة الإشراك ثُنِّيَ عنانُ الإبطال إلى أثر من آثار الشرك وهو ادعاء علم الغيب بالكهانة وإخبار الجنّ، كما كان يزعمه الكُهَّان والعرَّافون وسدنة الأصنام. ويؤمن بذلك المشركون.

قيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة، وما كان سؤالهم عن ذلك إلّا لظنهم أنّ ادعاء العلم بوقتها من شأن النبوّة توصلا لجحد النبوّة إن لم يعيّن لهم وقتها، فأبطلت الآية هذه المزاعم إبطالا عاما معياره الاستثناء بقوله { إِلَّا اللَّهُ }.

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** } أي: أنّ الذين يزعمون علم الغيب ما يشعرون بوقت بعثهم.

{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن الزمان. وهذا تورّك وتعيير للمشركين فإنّهم لا يؤمنون بالبعث بله شعورهم بوقته.

{ **بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ** } إضراب انتقالي، وهو ارتقاء إلى ما هو أغرب وأشدّ ارتقاء من تعييرهم بعدم شعورهم بوقت بعثهم إلى وصف علمهم بالآخرة التي البعث من أوّل أحوالها.

{ **ادَّارَكَ** } وقرأ الجمهور بهمز وصل في أوّله وتشديد الدال على أن أصله (تدارك). قال الفراء وشمر: وهو تفاعل من الدَّرَك بفتحتين وهو **اللحاق**. وقد امتلكت اللغويين والمفسرين حيرة في تصوير معنى الآية.

والذي أراه في تفسيرها على هذا الاعتبار اللغوي أنّ معنى التدارك هو أنّ علم بعضهم لَحِقَ علم بعض آخر في أمر الآخرة. أي: تلاحقت وتتابعت علومهم، فتلقّى الخلف عن السلف علمهم في الآخرة وتقلّدوها عن غير بصيرة ولا نظر. وقريب من هذا قوله تعالى { بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ } [المؤمنين:81].

الوجه الثاني أن يكون التدارك مستعملا مجازا مرسلا في الاختلاط والاضطراب، لأنّ التدارك والتلاحق يلزمه التداخل. فهم ينفون البعث ثمّ يزعمون أنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله من العذاب، وهذا يقتضي إثبات البعث ولكنّهم لا يعذبون، ثم يتزوّدون تارة للآخرة ببعض أعمالهم التي منها: أنّهم كانوا يحبسون الراحلة على قبر صاحبها ويتركونها لا تأكل ولا تشرب حتّى تموت فيزعمون أن صاحبها يركبها ويسمونها البليَّة.

ويجوز وجه آخر وهو أن يكون { ادَّارَكَ } مبالغة في (أدرك) ومفعوله محذوفا تقديره: إدراكهم، أي: حصل لهم علمهم بوقت بعثهم، أي: في اليوم الذي يبعثون فيه، أي: يومئذ يوقنون بالبعث،

فيكون الفعل الماضي مستعملا في معنى التحقّق، ويكون حرف (فِي) على اصله من الظرفية.

{ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا** } إضراب انتقال للارتقاء من كونهم اضطرب علمهم في الآخرة، أو تقلّد خلفهم ما لقنه سلفهم، أو من أنّهم انتفى علمهم في الآخرة، إلى أنّ ذلك الاضطراب في العلم قد أثار فيهم شكًّا من وقوع الآخرة. وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات الخبر ودوامه، والظرفية للدلالة على إحاطة الشك بهم.

{ **بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ** } آخر درجات الارتقاء في إثبات ضلالهم وهو أنّهم عميان عن شأن الآخرة.

{ **عَمُونَ** } : جمع عَمٍ (بالتنوين)، وهو (فَعِلٌ) من العمى، صاغوا له مثال المبالغة للدلالة على **شدّة العمى**.

فشبّه ضلالهم عن البعث بالعمى في عدم الاهتداء إلى المطلوب، تشبيه المعقول بالمحسوس.

وترتيب هذه الإضرابات الثلاثة ترتيب لتنزيل أحوالهم:

فوصفوا أوّلا بأنّهم لا يشعرون بوقت البعث، ثم بأنّهم تلقّفوا في شأن الآخرة التي البعث من شؤونها علما مضطربا أو جهلا فخبطوا في شك ومِرْية، فأعقبهم عمًى وضلالة. بحيث إنّ هذه الانتقالات مندرجة متصاعدة حتى لو قيل: بل أدّارك علمهم في الآخرة فهم في شك منها فهم منها عمون لحصل المراد.

ولكن جاءت طريقة التدرّج بالإضراب الانتقالي أجزل وأبهج وأروع وأدلّ على أنّ كلاًّ من هذه الأحوال المرتّبة جدير بأن يعتبر فيه المعتبِر باستقلاله لا بكونه متفرّعا على ما قبله.

{ **يَشْعُرُونَ - يُبْعَثُونَ - عِلْمُهُمْ - هُمْ فِي شَكٍّ - هُمْ مِنْهَا عَمُونَ** } ضمائر جمع الغائبين عائدة إلى (من) الموصولة في قوله تعالى { قُلْ لا يَعْلَمُ **مَنْ** فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } . و(من) هذه وإن كانت من صيغ العموم فالضمائر المذكورة عائدة إليها بتخصيص عمومها ببعض من في الأرض، وهم الذين يزعمون أنّهم يعلمون الغيب؛ من الكُهَّان والعرَّافين وسدنة الأصنام الذين يستقسمون للناس بالأزلام.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ [67] لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [68] }.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } ذكر شبهتهم التي أرتهم البعث مستحيل الوقوع، ولذلك أسند القول هنا إلى جميع الذين كفروا دون خصوص الذين يزعمون علم الغيب، ولذلك عطف الجملة لأنّها غايرت التي قبلها بأنّها أعمّ.

والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من الإيماء إلى علّة قولهم هذه المقالة، وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين.

{ **أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا** } أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام لتجهيل معتقد ذلك وتعجيزه عن الجواب بزعمهم.

وقد تقدّم في [المؤمنون:82] حكاية مثل هذه المقالة عن الذين كفروا إلّا أنّ اسم الإشارة الأول وقع مؤخرا عن { نَحْنُ } في سورة المؤمنين ووقع مقدّما عليه هنا، وتقديمه وتأخيره سواء في اصل المعنى.

وفي الاختلاف بين أسلوب الآيتين تفنّن كما تقدّم في المقدمة السابعة.

الأساطير: جمع أسطورة، وهي القصّة والحكاية. وتقدّم الكلام على ذلك عند قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [النحل:24]. والمعنى: ما هذا إلّا كلام معاد قاله الأوّلون وسطّروه وتلقّفه من جاء بعدهم ولم يقع شيء منه.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [69]

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأنّ يقول لهم هذه الكلمة ولذلك فصل فعل (قُلْ)، وتقدّم نظيره [الأنعام:11]. والمناسبة في الموضعين هي الموعظة بحال المكذّبين لأنّ إنكارهم البعث تكذيب للرسول وإجرام. والوعيد بأن يصيبهم ما أصابهم، إلّا أنّها هنالك عطفت بـ { ثُمَّ انْظُرُوا } وهنا بالفاء { فَانْظُرُوا }. وذكر هنالك { عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } وذكر هنا { عَاقِبَةُ الْجُرْمِينَ }، والمكذّبون مجرمون. والاختلاف بين الحكايتين للتفنن.

{ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [70]

كانت الرحمة غالبة على النبيّ صلى الله عليه وسلم والشفقة على الأمة من خلاله، فلمّا أنذر المكذّبون بهذا الوعيد تحرّكت الشفقة في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام فربط الله على قلبه بهذا التشجيع ألّا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أنذروا به. وكان من رحمته صلى الله عليه وسلم حرصه على إقلاعهم عمّا هم عليه من تكذيبه والمكر به.

الضيق: (بفتح الضاد وكسرها)، قرأه الجمهور بالفتح، وابن كثير بالكسر. وحقيقته: عدم كفاية المكان أو الوعاء لما يراد حلوله فيه، وهو هنا مجاز في الحالة الحرجة التي تعرض للنفس عند كراهية شيء، فيحس المرء في مجاري نَفَسه بمثل ضَيق عرض لها. وإنّما هو انضغاط في أعصاب صدره. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل:127].

المكر: تقدّم عند قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } [آل عمران: 54].

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [71] قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ [72] }.

عطف على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً } [67]. والتعبير هنا بالمضارع للدلالة على تجدّد ذلك القول منهم، أي: لم يزالوا يقولون.

{ **مَتَى هَذَا الْوَعْدُ** } المراد ما أنذروا به من العقاب. والاستفهام عن زمانه، وهو استفهام تهكّم منهم بقرينة قوله { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }.

{ **قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ** } أمر الله نبيه بالجواب عن قولهم لأنّ هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله ومن أطلعه على شيء منه من عباده المصطفين. والجواب جار على الأسلوب الحكيم بحمل استفهام على حقيقته، تنبيها على أنّ حقّهم أن يسألوا عن وقت الوعيد ليتقدّموه بالإيمان.

{ **عَسَى** } للرجاء، وهو مستعمل في التقريب مع التحقيق.
{ **رَدِفَ** } تبع بقرب. وعُدّي بـ (اللام) هنا مع أنّه صالح للتعدية بنفسه لتضمينه معنى (اقترب)، أو (اللام) للتوكيد مثل شكر له. والمعنى: رجاء أن يكون ذلك قريب الزمن. وهذا إشارة إلى ما سيحلّ بهم يوم بدر.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ } [73]

استدراك على قوله { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ } [72] أي: أنّ تأخير العذاب عنهم هو من فضل الله عليهم. وهذا خبر خاص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيها على أنّ تأخير الوعيد أثر من آثار رحمة الله، لأنّ أزمنة التأخير أزمنة إمهال فهم فيها بنعمة، لأنّ الله ذو فضل على الناس كلّهم.
ومسألة أنّ نعمة الكافر نعمة حقيقية أو ليست نعمة؟ مختلف فيها بين الأشعري والماتريدي.
{ **ذُو فَضْلٍ** } يدلّ على أن الفضل من شؤونه سبحانه. والتنكير للتعظيم.
{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** } استدراك ناشئ عن عموم الفضل منه تعالى، فإنّ عمومه وتكرّره يستحق بأن يعلمه الناس فيشكروه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، كهؤلاء الذين قالوا { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [الأنبياء:38] فإنّهم يستعجلون العذاب تهكّما وتعجيزا.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [74]

استئناف بياني، لأنّ قوله { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } [73] يثير سؤالا في نفوس المؤمنين أن يقولوا: إنّ هؤلاء المكذّبين قد أضمروا المكر وأعلنوا الاستهزاء فحالهم لا يقتضي إمهالهم. فيجاب بأنّ الذي أمهلهم مطّلع على ما في صدورهم وما أعلنوه وأنّه أمهلهم لحكمة يعلمها.
وفيه إشارة إلى أنّهم يكنّون أشياء للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، منها: أنّهم يتربّصون بهم الدوائر، وأنّهم تخامر نفوسهم خواطر إخراجه وإخراج المؤمنين.
{ **وَإِنَّ رَبَّكَ** } التوكيد لك أن تجعله لتنزيل السائل منزلة المتردّد، وذلك تلويح بالعتاب.
{ **تَكُنُّ** }، تُخفي، وهو من (أَكَنَّ) إذا جعل شيئا كانًّا، أي: حاصلا في كِنّ. والكِنُّ: المسكن. وإسناد { تَكُنُّ } إلى الصدور مجاز عقلي باعتبار أنّ الصدور مكانه.
الإعلان: الإظهار.

{ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [75]

عطف على الجملة السابقة، وهو في معنى التذييل لها، لأنّها منها علمُ الله بضمائرهم، فذُيّل ذلك بأنّ الله يعلم كل غائبة في السماء والأرض.

وإنّما جاء معطوفا لأنّه جدير بالاستقلال بذاته من حيث إنّه تعليمٌ لصفة علم الله تعالى وتنبيه لهم من غفلتهم عن إحاطة علم الله لما تُكنّ صدورهم وما يعلنون.

الغائبة: اسم للشيء الغائب، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في العافية، والعاقبة. مشتقّ من الغيب وهو ضدّ الحضور. والمراد: الغائبة عن علم الناس. استعمِل الغيب في الخفاء مجازا مرسلا.

الكتاب: يُعبّر به عن علم الله. استعير له الكتاب لما فيه من التحقّق وعدم قبول التغيير. ويجوز أن يكون مخلوقا غيبيّا يُسجّل فيه ما سيحدث.

المبين: المفصَّل، لأنّ الشيء المفصَّل يكون بيّنًا واضحا. والمعنى: أنّ الله لا يعزب عن علمه شيء ممّا خفي على العالمين. وذلك يقتضي أنّ كلّ ما يتلقّاه الرسل من جانب الله تعالى فهو حقّ.

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [76]

إبطال لقول الذين كفروا { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [68]. ولها مناسبة بما قبلها، فإنّ القرآن وحي من عند الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكلّ ما فيه فهو من آثار علم الله تعالى.

ومن ذلك ما اشتمل عليه القرآن من تحقيق أمور الشرائع الماضية والأمم الغابرة ممّا خبطت فيه كتب بني إسرائيل خبطا من جرّاء ما طرأ على كتبهم من التشتّت والتلاشي وسوء النقل من لغة إلى لغة في عصور انحطاطهم، ولما في القرآن من الأصول الصريحة في الإلهيات ممّا يكشف سوء تأويلهم لكلمات كتابهم في متشابه التجسيم ونحوه، فإنّك لا تجد في التوراة ما يساوي قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى:11].

فموقع هذه الآية استكمال نواحي هدي القرآن للأمم، فإنّ السورة افتتحت بأنّه هدى وبشرى للمؤمنين وأنّ المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعمهون في ضلالهم فلم ينتفعوا بهديه. فاستكملت هذه الآية ما جاء به من هدي بني إسرائيل لما اختلفوا فيه.

{ **إِنَّ** } التأكيد، مثل ما تقدّم في نظائره.

{ **أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } هو ما جاء في القرآن من إبطال قولهم فيما يقتضي إرشادهم إلى الحقّ أن يُبيَّن لهم، وغيره ما لا مصلحة في بيانه لهم.

ومن مناسبة التنبيه على أنّ القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر ما هم فيه مختلفون، أنّ ما قصّه ممّا جرى بين ملكة سبأ مع سليمان كان فيه ممّا يخالف ما في (كتاب الملوك الأوّل وكتاب الأيام الثاني) ففي ذينك الكتابين أنّ ملكة سبأ جاءت إلى أورشليم من تلقاء نفسها، محبة منها في الاطلاع على ما بلغ مسامعها من عظمة ملك سليمان وحكمته. وليس ممّا يصح في حُكم العقل وشواهد التاريخ في تلك العصور أنّ ملكة عظيمة كملكة سبأ تعمد إلى الارتحال عن بلدها وتدخل بلد ملك آخر غير هائبة، لو لا أنّها كانت مضطرّة إلى ذلك بسياسة ارتكاب أخف الضرَّين إذ كان سليمان قد ألزمها بالدخول في دائرة نفوذه.

ومن العجيب أيضا إهمال كُتَّاب اليهود دعوة سليمان بلقيس إلى عقيدة التوحيد، وهل يُظنّ بنبي أن يقرّ الشرك على منتحليه.

{ وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } [77]

هذا راجع إلى قوله في طالع السورة { هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [2] ذُكر هنا لاستيعاب جهات هدي القرآن. أمّا كونه **هدى** للمؤمنين فظاهر، وأمّا كونه **رحمة لهم** فلأنّهم لمّا اهتدوا به قد نالوا الفوز في الدنيا بصلاح نفوسهم واستقامة أعمالهم واجتماع كلمتهم، وفي الآخرة بالفوز بالجنة. والرسالة المحمدية وإن كانت رحمة للعالمين كما في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:107] فرحمته للمؤمنين أخصّ.

{ إِنَّ } التأكيد منظور فيه إلى المعرّض بهم كما تقدّم في قوله { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } [73].

{ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [78]

لمّا سبق ذكرُ المشركين بطعنهم في القرآن وتكذيبهم بوعيده، وذكرُ بني إسرائيل بما يقتضي طعنهم فيه، وذكرُ المؤمنين بأنّهم اهتدوا به وكان لهم رحمة فهم موقنون بما فيه، تمخّض الكلام عن خلاصة هي افتراق الناس في القرآن فريقين: فريق طاعن، وفريق موقن، فلا جرم اقتضى ذلك حدوث تدافع بين الفريقين.

{ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ } استئناف بياني أفاد أنّ الله يقضي بين المؤمنين بالقرآن والطاعنين فيه قضاء يبيّن المُحقّ من المُبطل. وهذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن استبطائهم النصر.

{ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } تذييل، فإنّ العزيز لا يصانع، والعليم لا يفوته الحق.

{ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [79]

أمر للرسول بأن يطمئن بالا ويتوكّل على ربّه فيما يقضي به، فإنّه يقضي له بحقّه، وعلى معانده بما يستحقّه.

{ فَتَوَكَّلْ } الـ (الفاء) للتفريع، والأمر بالتوكل مستعمل في كنايته وصريحه فإنّ من لازمه أنّه أدى رسالة ربّه، وأنّ إعراض المعرضين عن أمر الله ليس تقصيرا منه. وهو معنى تكرّر في القرآن كقوله { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ } [الشعراء:3]، وقوله { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } [النحل:27].

التوكّل: تفعُّل من وَكَلَ إليه الأمر إذا أسند إليه تدبيره ومباشرته، فالتفعُّل للمبالغة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]، وقوله { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [المائدة:23]، وقوله { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [إبراهيم:11].

وجيء في فعل التوكّل بعنوان اسم الجلالة لأنّ ذلك الاسم يتضمّن معاني الكمال كلّها، ومن أعلاها العدل في القضاء ونصر المُحق.

{ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } لم يخاطب الله تعالى أحدا من رسله بمثله، فكان ذلك شهادة لرسوله بالعظمة الكاملة المنزَّهة عن كلّ نقص، لما دلّ عليه حرف **{ عَلَى }** من التمكّن، وما دلّ عليه اسم **{ الْحَقِّ }** من معنى جامع لحقائق الأشياء. وما دلّ عليه وصف **{ الْمُبِينِ }** من الوضوح والنهوض.

والجملة تعليل للأمر بالتوكل على الله إشعارا بأنّه على الحق.

{ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } [80]

استئناف بياني جوابا عمّا يخطر في بال السامع عقب قوله { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } من التساؤل عن إعراض أهل الشرك لما عليه الرسول من الحق المبين. وهو أيضا تعليل آخر للأمر بالتوكّل على الله بالنظر إلى مدلوله الكنائي. وهذا عذر للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له.

الإسماع: إبلاغ الكلام إلى المسامع.

{ الْمَوْتَى – الصُّمَّ } : مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق ويكابرون. شُبِّهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن، وشُبِّهوا بالصمّ كذلك في انتفاء أثر بلاغة ألفاظه عن نفوسهم.

وللقرآن أثران:

<u>أثر عقلي</u>: ما يشتمل عليه من المعاني المقبولة لدى أهل العقول السليمة، وهي المعاني التي يدركها ويسْلم لها من تبلغ إليه ولو بطريقة الترجمة بحيث يستوي في إدراكها العربي والعجمي.

أثر لفظي: دلالة نظمه وبلاغته على أنّه خارج عن مقدرة البلغاء العرب. وهو دليل الإعجاز، وهو خاص

بالعرب مباشرة، وحاصل لغيرهم من أهل النظر والتأمّل إذا تدبّروا في عجز البلغاء من أهل اللسان الذي جاء به القرآن، فهؤلاء يوقنون بأنّ عجز بلغاء أهل ذلك اللسان على معارضته دال على أنّه فوق مقدرتهم.
فالمشركون شُبّهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول، وشُبّهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني.
واستدلت السيدة عائشة رضي الله عنها بهذه الآية على ردّ ظاهر حديث ابن عمر: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر وفيه قتلى المشركين فناداهم بأسمائهم وقال: **" هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا "**، قال ابن عمر: فقيل له: يا رسول الله أتنادي أمواتا فقال: **" إنّهم الآن يسمعون ما أقول لهم "**. فقالت عائشة: إنّما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: إنّهم الآن ليعلمون أنّ الذي كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت قوله تعالى { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى }.
وهذا من الاستدلال بظاهر الدلالة من القرآن ولو باحتمال مرجوح، كما بيّنّاه في المقدمة التاسعة. وإلّا فإن الموتى هنا استعارة وليس بحقيقة.
{ **إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** } الضميران عائدان إلى الصمّ، وهو تتميم للتشبيه حيث شُبّهوا في عدم بلوغ الأقوال إلى عقولهم بصمٍّ ولوا مدبرين.

{ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } [81]

{ **وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ** } كرّر تشبيه المشركين في إعراضهم عن الحق بأنّ شُبّهوا في ذلك بالعُمي بعد أن شُبّهوا بالموتى وبالصم، على طريقة الاستعارة، إطنابا في تشنيع حالهم الموصوفة.
وحسَّن هذا التكرير هنا ما بين التشبيهين من الفروق مع اتحاد الغاية، فإنّهم شُبّهوا بالموتى في انتفاء إدراك المعاني الذي يتمتع به العقلاء، وبالصمّ في انتفاء إدراك بلاغة الكلام الذي يضطلع به بلغاء العرب. وشُبّهوا ثالثا بالعُمي في انتفاء التمييز بين طريق الهدى وطريق الضلال من حيث إنّهم لم يتّبعوا هدي دين الإسلام.
الهدى: الدلالة على طريق السائر بأن يصفه له. والذي يسلك بالقوافل مسالك الطريق يُسمَّى هاديا. والتوصّل إلى معرفة الطريق يُسمّى اهتداء.
{ **عَنْ ضَلالَتِهِمْ** } مستعارة لعدم إدراك ألحق تبعا للاستعارة المكنية، وأطلقت هنا على عدم الاهتداء للطريق.
وضمِّن { هَادِيَ } معنى صارف. فصار المعنى: ما أنّت بصارفهم عن ضلالتهم.
وسُلّط النفي هنا على جملة اسمية للدلالة على ثبات النفي. وأكِّد ذلك الثبات بالباء المزيدة لتأكيد النفي. وهذا كقوله تعالى {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [القصص:56].
{ **إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** } استئناف بياني لترقّب السامع معرفة من يهتدون بالقرآن. والإسماع مستعمل في معناه المجازي كما تقدّم.

{ **مَنْ يُؤْمِنُ** } أوثر التعبير بالمضارع ليشمل من آمنوا من قبل فيفيد استمرار إيمانهم ويشمل من يلحقهم.

{ **فَهُمْ مُسْلِمُونَ** } تفريع مفيد للدوام والثبات، لأنّهم إذا آمنوا فقد صار الإسلام راسخا فيهم ومتمكّنا منهم.

{ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ} [82]

انتقال إلى التذكير بالقيامة وما ادُّخر لهم من الوعيد. فهذه الجملة معطوفة على الجمل قبلها عطف قصة على قصة. ومناسبة ذكرها ما تقدّم من قوله { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى - إلى قوله - عَنْ ضَلالَتِهِمْ } [81/80].

والضمير عائد إلى الموتى والصم والعُمي، وهم المشركون.

{ **الْقَوْلِ** } أريد به أخبار الوعيد التي كذّبوها متهكّمين باستبطاء وقوعها بقولهم { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس:48]، فالتعريف فيه للعهد يفسّره المقام.

الوقوع: مستعار لحلول وقته وذلك من وقت تهيؤ العالم للفناء إلى انتهاء الحساب. والآية تشير إلى شيء من أشراط الساعة، وهو من خوارق العادات.

{ **وَقَعَ** } وصيغة الماضي لتقريب زمن الحال من المُضي، أي: أشرف وقوعه.

{ **دَابَّةً** } اسم للحي من الإنسان، مشتقّ من الدبيب، وهو المشي على الأرض، وهو من خصائص الأحياء. وتقدم الكلام عنها في [الأنعام: 38]. وقد رويت في وصف هذه الدابة ووقت خروجها ومكانه أخبار مضطربة ضعيفة الأسانيد لا طائل في جلبها ونقدها.

وإخراج الدابة من الأرض ليريهم كيف يحي الله الموتى إذ كانوا قد أنكروا البعث. ولا شك أن كلامها لهم خطاب لهم بحلول الحشر. وإنّما خلق الله الكلام لهم على لسان دابة تحقيرا لهم وتنديما على إعراضهم عن قبول أبلغ كلام وأوقعه من أشرف إنسان وأفصحه، ليكون لهم خزيا في آخر الدهر يعيّرون به في المحشر. فيقال: هؤلاء الذين أعرضوا عن كلام رسول كريم فخوطبوا على لسان حيوان بهيم.

{ **أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** } تعليل لإظهار هذا الخارق للعادة حيث لم يوقن المشركون بآيات القرآن فجعل ذلك إلجاء لهم حين لا ينفعهم. وهو تسجيل توبيخ وتنديم لأنّهم حينئذ قد وقع القول عليهم { لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ } [الأنعام:158].

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ [83] حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [84] }.

هذا حشر خاص بعد حشر جميع الخلق المذكور في قوله تعالى بعد هذا { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } [87]، وهو في معنى قوله تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [يس:59]، فيُحشر من كلّ أمّة مكذّبو رسولها.

الفوج: الجماعة من الناس. وهذا الفوج هو زعماء المكذّبين وأئمتهم فيكونون في الرعيل الأوّل إلى العذاب.

وهذا قول أبن عباس إذ قال: مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة.

{ **مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ** } (من) هنا تبعيضية.

{ **مِمَّنْ يُكَذِّبُ** } (من) هنا بيانية، فيكون فوج كلّ أمّة.

{ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** } تقدّم تفسيرها في قصة سليمان من هذه السورة. والمعنى هنا: أنّهم يُزجرون إغلاظا عليهم كما يُفعل بالأسرى.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءُوا** } ولم يذكر الموضع الذي جاءوه لظهوره وهو مكان العذاب، أي: جهنم ، كما في قوله تعالى { حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا } [فصلت: 20].

{ **قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي** } هو صدر الجملة في التقدير وما قبله مقدم للاهتمام.

{ **قَالَ** } التفات من التكلم إلى الغيبة، وهو صادر من جانب الله تعالى يسمعونه أو يبلّغهم إيّاه الملائكة.

والاستفهام يجوز أن يكون توبيخا مستعملا في لازمه وهو الإلجاء إلى الاعتراف بأنّ المستفهم عنه واقع منهم، تبكيتا لهم. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريرا.

{ **وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً** } في موضع الحال، أي: كذّبتم دون أن تحيطوا علما بدلالة الآيات.

{ **أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } استفهام واسم إشارة وهو بمعنى اسم الموصول إذا وقع بعد {مَا} . كأنه قيل: ما الذي كنتم تعملون؟

{ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ } [85]

هو القول السابق في آية { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ } فإنّ ذلك القول مشتمل على حوادث كثيرة فكلّما تحقّق شيء منها فقد وقع القول.

{ **وَقَعَ** } التعبير بالماضي هنا على حقيقته، وأعيد ذكره تعظيما لهوله.

{ **بِمَا ظَلَمُوا** } بمعنى المصدر، والباء السببية، أي: بسبب ظلمهم.

الظلم: هنا الشرك وما يتبعه من الاعتداء على حقوق الله وحقوق المؤمنين، فكان ظلمهم سبب حلول الوعيد بهم، وفي الحديث: " **الظلم ظلمات يوم القيامة** "، فكلّ من ظلم سيقع عليه القول الموعود به الظالمون.

{ **فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ** } تفريع، أي: وقع عليهم وقوعا يمنعهم الكلام، أي: الاعتذار أو الإنكار، أي: فوجموا لوقوع ما وعِدوا به، قال تعالى { هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات:36/35].

{ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [86]

هذا الكلام متصل بسابقه. ذكّرهم بدلائل الوحدانية بذكر أظهر الآيات وأكثرهم تكرارا على حواسهم وأجدرها بأن تكون مقنعة في ارعوائهم عن شركهم، وهي آية اختلاف الليل والنهار الدالة على انفراده تعالى بالتصرّف في هذا العالم، وفيها تذكير بتمثيل الموت والحياة بعده بسكون الليل وانبثاق النهار عقبه.

والجملة معترضة بين جملة { وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ } [85] وجملة { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [87] ليتخلل الوعيد بالاستدلال فتكون الدعوة إلى الحق بالإرهاب تارة واستدعاء النظر تارة أخرى.

{ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً** } الاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حالهم لأنّها لغرابتها تستلزم سؤال من يسأل عن عدم رؤيتهم. أي: كيف لم يعلموا أنّا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا مع أنّ ذلك واضح الدلالة على هذا الجعل. والرؤية يجوز أن تكون قلبية.

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية، والمعنى: كيف لم يبصروا جعل الليل للسكون والنهار للإبصار مع أنّ ذلك بمرأى من أبصارهم.

المُبصر: اسم فاعل أبصر بمعنى رأى. ووصف النهار بأنّه مُبصر من قبيل المجاز العقلي لأنّ نور النهار سبب الإبصار.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } تعليل للتعجّب من حالهم إذ لم يستدلّوا باختلاف الليل والنهار على الوحدانية ولا على البعث.

{ **لَآياتٍ** } ووجه كون الآيات في ذلك كثيرة، كما اقتضاه الجمع، هو أنّ في نظام الليل آيات على الانفراد بخلق الشمس وخلق نورها الخارق للظلمات، وخلق الأرض، وخلق نظام دورانها اليومي تجاه أشعة الشمس، وفي خلق طبع الإنسان بأن يتلقى الظلمة بطلب السكون لما يعتري الأعصاب من الفتور دون بعض الدواب التي تنشط في الليل كالهوام والخفافيش، وفي ذلك أيضا دلالة على تعاقب الموت والحياة، فتلك آيات وفي كلّ آية منها دقائق ونظُم عظيمة.

وفي جعل النهار مبصرا آيات كثيرة على الوحدانية ودقة الصنع تقابل ما تقدّم في آيات جعل الليل سكنا.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } لناس شأنهم الإيمان والاعتراف بالحجّة ولذلك جعل الإيمان صفة جارية على { قوم } لما

قلناه غير مرة من أن إناطة الحكم بلفظ { قَوْمٍ } يومئ إلى أن ذلك الحكم متمكّن منهم حتّى كأنّه من مقوّماتهم. وجيء بصيغة المضارع لأنّ الإيمان مرجو منهم، إذ ليس المقصود أنّ في ذلك آيات للذين آمنوا لأنّ ذلك حاصل بالفحوى والأولوية، فصار المعنى: أنّ في ذلك لآيات للمؤمنين ولمن يُرجى منهم الإيمان عند النظر في الأدلة. وقريب منه قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } [التكوير:28/27]. ولهذا خولف بين ما هنا وبين ما في قوله { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [يونس:67]، لأنّ آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب، وجُعلت دلالتها لكلّ من يسمع أدلّة القرآن، فمنهم مهتد وضال، ولذلك جيء فيها بفعل { يَسْمَعُونَ } المؤذن بالامتثال والإقبال على طلب الهدى.

وأمّا هذه الآية فمسوقة مساق التعجيب والتوبيخ فجُعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومهم أنّه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الإنصاف والاعتراف، ولذلك أوثر فيه فعل { يُؤْمِنُونَ }.

{ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } [87]

عطف على { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً } [83] عاد به السياق إلى الموعظة والوعيد، فإنّهم لما ذُكّروا بيوم الحشر إلى النار ذُكّروا أيضا بما قبل ذلك، وهو يوم النفخ في الصور، تسجيلا عليهم بإثبات وقوع البعث وإنذارا بما يعقبه ممّا دلّ عليه قوله { أَتَوْهُ دَاخِرِينَ }.

النفخ في الصور: تقدّم في قوله تعالى { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [الأنعام: 73]، وهو تقريب لكيفية صدور الأمر التكويني لإحياء الأموات، وهو النفخة الثانية المذكورة في قوله تعالى { نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68]، وذلك هو يوم الحساب.

وأمّا النفخة الأولى فهي نفخة يُعنى بها الإحياء، أي: نفخ الأرواح في أجسامها، وهي ساعة انقضاء الحياة الدنيا، فهم يصعقون.

{ فَفَزِعَ } هو الخوف من عاقبة الحساب، فكلّ أحد يخشى أن يكون معذَّبا. وجيء بصيغة الماضي مع أنّ النفخ مستقبل، للإشعار بتحقّق الفزع وأنّه واقع لا محالة كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، فصيغة الماضي كناية عن التحقّق، وقرينة الاستقبال ظاهرة من المضارع في قوله { يُنْفَخُ }.

{ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } الاستثناء مجمل يبيّنه قوله تعالى بعد { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا

وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ } [89]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى - إلى قوله - لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ } [الأنبياء:101-103].

وأمّا من استثنى الله بأنّه شاء أن لا يفزعوا فهم لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة، وذلك بأن يبادرهم الملائكة بالبشارة. قال تعالى { و َتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء:103] وقال { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [يونس:64].

{ **أَتَوْهُ** } ضمير الغيبة الظاهر عائد إلى اسم الجلالة، والإتيان إلى الله الإحضار في مكان قضائه.

ويجوز أن يعود الضمير على { يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ }.

الداخرون: الصاغرون. أي: الأذلّاء، يقال: دَخِرَ بوزن فرح. والمصدر الدَّخْرُ بالتحريك والدُّخُور.

{ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } [88]

الجملة وقعت موقع الجملة المعترضة بين المُجْمل وبيانه من قوله { فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ } [87-89] بأن يكون من تخلُّل دليل على دقيق صنع الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد.

فإنّ الناس كانوا يحسبون أنّ الشمس تدور حول الأرض فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار، ويحسبون الأرض ساكنة. واهتدى بعض علماء اليونان أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضية تقريبا وضياء النصف الآخر وذلك ما يعبّر عنه بالليل والنهار.

والقرآن يدمج في ضمن دلائله الجمّة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلا **رمز إليه رمزا:** هو دوران الأرض. وإنّما ناط دلالة تحرك الأرض بتحرّك الجبال منها لأنّ الجبال هي الأجزاء الناتئة من الكرة الأرضية. ولهذا الاعتبار غير أسلوب الاستدلال الذي في قوله تعالى { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ } [86] فجُعل هنا بطريق الخطاب { وَتَرَى الْجِبَالَ }.

وهذا التأويل للآية هو الذي يساعد قوله { وَتَرَى الْجِبَالَ } المقتضي أنّ الرائي يراها في هيئة الساكنة.

الجامدة: الساكنة، قاله أبن عباس. وفي الكشاف: الجامدة من جمد في مكانه إذا لم يبرح، يعني أنّه جمود مجازي. كثر استعمال هذا المجاز حتى ساوى الحقيقة.

{ **وهي تَمُرُّ** } أي: مرا واضحا لكنّه لا يبين من أوّل وهلة.

{ **مَرَّ السَّحَابِ** } مصدر مُبيِّن لنوع مرور الجبال، أي: مرورا تنتقل به من جهة إلى جهة أخرى مع أنّ الرائي يخالها ثابتة في مكانها كما يخال ناظر السحاب الذي يعم الأفق أنّه مستقر وهو ينتقل. وبهذا تعلم أن المَرَّ غير السير الذي في قوله تعالى { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً } [الكهف:47]، فإنّ ذلك في وقت اختلال نظام العالم الأرضي.

{ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** } المقتضي أنّه اعتبار بحالة نظامها المألوف لا بحالة انخرام النظام لأنّ خرم النظام لا يناسب وصفه بالصنع المتقن ولكنّه يوصف بالأمر العظيم أو نحو ذلك من أحوال الآخرة التي لا تدخل تحت التصوّر. وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة والناس يحسبونها ثابتة.

الصنع: قال الراغب: إجادة الفعل فكلّ صنع فعل وليس كلّ فعل صنعا، قال { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } [هود:38]، وقال تعالى { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ } [الأنبياء: 80]. فالصنع إذا أطلق انصرف للعمل الجيّد النافع وإذا أريد غير ذلك وجب تقييده على أنّه قليل أو تهكّم أو مشاكلة.

واعلم أنّ الصنع يطلق على العلم المتقن في الخير أو الشر قال تعالى { تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ } [طه:69].

{ **إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** } تذييل أو اعتراض في آخر الكلام للتذكير والوعظ والتحذير، لأنّ إتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم فالذي بعلمه أتقن كلّ شيء هو خبير بما يفعل الخلق، فليحذروا أن يخالفوا عن أمره.

{ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ [89] وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [90] }.

هذه الجملة بيان ناشئ عن قوله { فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } [87] لأنّ الفزع مقتضٍ الحشر والحضور للحساب.

والمجيء مستعمل في حقيقته. والباء في { بِالْحَسَنَةِ } و { بِالسَّيِّئَةِ } للمصاحبة المجازية، ومعناها: أنّه ذو الحسنة أو ذو السيئة. فالمعنى هنا: من يجيء يومئذ وهو من فاعلي الحسنة ومن جاء وهو من أهل السيئة.

{ **فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا** } اسم تفضيل اتصلت به {مِنْ} التفضيلية، أي: فله جزاء خير من حسنة واحدة لقوله { فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام:160]، أو خير منها شرفا، لأنّ الحسنة من فعل العبد والجزاء عليها من عطاء الله.

{ **وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ** } تبيين قوله آنفا { إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } [87] وهؤلاء هم أهل الحسنات.

{ **وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ** }، أي: غلبت سيئاتهم وغطت على حسناتهم أو تمحّضوا للسيئات بأن كانوا غير مؤمنين أو كانوا من المؤمنين أهل الجرائم والشقاء.
وبين أهل هاتين الحالتين أصناف كثيرة في درجات الثواب ودرجات العقاب.
الكَبُّ: جعل ظاهر الشيء إلى الأرض. وعدّي الكب في هذه الآية إلى الوجوه دون بقية الجسد، وإن كان الكب لجميع الجسم، لأنّ الوجوه أوّل ما يقلب إلى الأرض عند الكبّ.
{ **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تذييل للزواجر المتقدّمة، فالخطاب للمشركين الذين يسمعون القرآن على طريقة الالتفات من الغيبة بذكر الأسماء الظاهرة وهي من قبيل الغائب. ومقتضى الظاهر أن يقال: هل يجزون إلّا ما كانوا يعملون. فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدّم وهو أنّ الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم وما العقيدة إلّا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة.

{ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** [91] **وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ** [92] }.
تثبيت وتطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه أرضى ربه بأداء أمانة التبليغ وذلك بأن أمر الرسول عليها الصلاة والسلام أن يقول لهم هذا الكلام. والجملة مقول قول محذوف.
{ **إِنَّمَا أُمِرْتُ** } افتتاح الكلام بأداة الحصر لإفادة حصر إضافي باعتبار ما تضمّنته محاوراتهم السابقة من طلب تعجيل الوعيد، وما تطاولوا به من إنكار الحشر.
والمعنى: ما أمرت بشيء ممّا تبتغون، من تعيين أجل الوعيد ولا من اقتلاع إحالة البعث من نفوسكم ولا بما سوى ذلك إلّا بأن أَثبُت على عبادة ربٍّ واحد وأن أكون مسلما وأن أتلو القرآن عليكم، ففيه البراهين الساطعة والدلالات القاطعة، فمن اهتدى فلا يمنّ علي اهتداءه وإنّما نفع به نفسه، ومن ضلّ فما أنا بقادر على اهتدائه، ولكنّي منذره كما أنذرت الرسل أقوامها فلم يملكوا لهم هديا حتّى أهلك الله الضالين. وهذا في معنى قوله تعالى { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } [آل عمران:20].
{ **رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا** } تنويه بشأن مكة وتعريض بكفرهم بالذي أسكنهم بها وحرَّمها فانتفعوا بتحريمها، وأشعرهم بأنّهم لا يملكون تلك البلدة. وقد كاشفهم الله سابقا بما تكنّه صدورهم من خواطر إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة وذلك من جملة ما اقتضاه قوله تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [74].

{ **هَذِهِ الْبَلْدَةِ** } الإشارة إلى البلدة التي هم بها لأنّها حاضرة لديهم بحضور ما هو باد منها للأنظار. والعدول عن ذكر مكة باسمها العلم إلى طريقة الإشارة لما تقتضيه الإشارة من التعظيم.

{ **الَّذِي حَرَّمَهَا** } أجرى على الله صلة (حرَّم) تلك البلدة، دون أن يكون الموصول للبلدة فلذا لم يقل: التي حرّمها الله، لما تتضمّنه الصلة من التذكير بالنعمة عليهم ومن التعريض بظلالهم إذ عبدوا أصناما لا تملك من البلدة شيئا ولا أكسبتها فضلا ومزية، وهذا كقوله تعالى { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ } [قريش: 3].

{ **حَرَّمَهَا** } جعلها حراما، والحرام الممنوع، والتحريم المنع. ويُعلم متعلّق المنع بسياق ما يناسب الشيء الممنوع. فالمراد من تحريم البلدة تحريم أن يدخل فيها ما يضاد صلاحها وصلاح ما بها. فيدخل في ذلك منع غزو أهلها والاعتداء عليهم وظلمهم وإخافتهم، ومنع صيدها وقطع شجرها على حدود معلومة. وهذا التحريم استجابة لدعوة إبراهيم إذ قال { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً } [البقرة:126].

التحريم : يكون كمالا للمحرَّم ويكون نقصا على اختلاف اعتبار سبب التحريم وصفته:

فتحريم الزمان والمكان مزية وتفضيل، فتحريم المكان: منع ما يضرّ بالحال فيه. وتحريم الزمان، كتحريم الأشهر الحرم: منع ما فيه ضرّ للموجودين فيه.

وتحريم الفواحش والميتة والدم والخمر تحقير لها.

والمحرّمات للنسل والرضاع والصهر زيادة في الحرمة.

{ **وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ** } تعقيب للاحتراس لئلّا يُتوهم من إضافة ربوبيته إلى البلدة اقتصار مُلكه عليها ليُعلم أن تلك الإضافة لتشريف المضاف إليه لا لتعريف المضاف بتعيين مظهر مُلكه.

{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } تكرير (أمرت) للإشارة إلى الاختلاف بين الأمرين، فإنّ الأوّل أمر يعلمه في خاصة نفسه، وهو أمر إلهام، إذ عصمه الله من عبادة الأصنام من قبل الرسالة. والأمر الثاني أمر يقتضي الرسالة وقد شمل دعوة الخلق إلى التوحيد. ولهذه النكتة لم يكرّر أمرت في قوله { وأن أتلوا القرآن } لأنّ كلًّا من الإسلام والتلاوة من شؤون الرسالة.

{ **أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } تنويه بهذه الأمّة إذ جعل الله رسوله آحادها، وذلك نكتة من العدول عن أن يقول: أن أكون مسلما.

التلاوة: قراءة كلام معيّن على الناس، وتقدم في قوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ } [البقرة:121]، وقوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

وحذف متعلق التلاوة لظهوره، أي: أن أتلوا القرآن على الناس.

{ **فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ** } فرّع على التلاوة ما يقتضي انقسام الناس إلى مهتد وضال، أي: منتفع بتلاوة القرآن عليه وغير منتفع. مبيّنا أنّ من اهتدى فإنّما كان اهتداؤه لفائدة نفسه. وهذا زيادة في تحريض السامعين على الاهتداء بهدي القرآن لأنّ فيه نفعهم.

المنذِرين: الرسل، أي: إنّما أنا واحد من الرسل، ما كنت بدعا من الرسل، وسنّتي سنّة من أرسل قبلي، وهي التبليغ { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [النحل:35].

{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [93]

كان ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمعاندين مشتملا على أنّ الله هداه للدين الحقّ من التوحيد وشرائع الإسلام، وأنّ هدى به الناس بما أنزل عليه من القرآن المتلو، وأنّه جعله في عداد الرسل المنذِرين، فكان ذلك من أعظم النعم عليه في الدنيا وأبشرها بأعظم درجة في الآخرة، من أجل ذلك أمر بأن يحمد الله بالكلمة التي حمد الله بها نفسه وهي كلمة { **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } الجامعة لمعان من المحامد تقدّم بيانها في الفاتحة.

وقد تقدم الكلام على قوله { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } في هذه السورة [59].

{ **سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } استأنف بالاحتراس ممّا يتوهّمه المعاندون حين يسمعون آيات التبرؤ من معرفة الغيب، وقصر مقام الرسالة على الدعوة إلى الحق من أن يكون في ذلك نقض للوعيد بالعذاب فختم الكلام بتحقيق أنّ الوعيد قريب لا محالة وأنّ الله لا يُخلف وعده فتظهر لهم دلائل صدق الله في وعده.

{ **آيَاتِهِ** } عبّر عن الوعيد بالآيات للدلالة على أنّهم سيحلّ بهم ما فيه تصديق لما أخبرهم به الرسول.

{ **سَيُرِيكُمْ** } السين تؤذن بأنها إراءة قريبة، فالآيات حاصلة في الدنيا مثل الدخان، وانشقاق القمر، واستئصال صناديدهم يوم بدر، ومعرفتهم إيّاها تحصل عقب حصولها ولو في وقت النزع والغرغرة.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } قرأه نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب { تَعْمَلُون } بتاء الخطاب فيكون ذلك من تمام ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله للمشركين. وفيه زيادة إنذار بأنّ أعمالهم تستوجب ما سيرونه من الآيات. وقرأ الباقون { يَعْمَلُونَ } بياء الغيبة فهو عطف على { قُلْ } والمقصود تسلية الرسول عليه السلام.

{ **بِغَافِلٍ** } نفي الغفلة عن الله مستعمل في التعريض بأنّه منهم بالمرصاد لا يغادر لهم من عملهم شيئا.

وقد جاءت خاتمة جامعة بالغة أقصى حد من بلاغة حسن الختام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القَصَص

سُمِّيت سورة القَصَص ولا يُعرف لها اسم آخر. ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ { الْقَصَصُ } فيها عند قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ } [25]. والقصص الذي أضيفت إليه السورة هو قصص موسى الذي قصَّه على شعيب عليهما السلام فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها.

وجاء لفظ { الْقَصَصُ } في [يوسف:3] ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة.

مكّيّة في قول جمهور التابعين. وفيها آية { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ } [85]. قيل نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم في (الجُحفة) في طريقه إلى المدينة للهجرة تسلية له على مفارقة بلده. وهذا لا يناكد أنّها مكية لأنّ المراد بالمكي ما نزل قبل حلول النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، كما أنّ المراد بالمدني ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكة.

وعن مقاتل وأبن عباس أن قوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ - إلى قوله - سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [52-55] نزل بالمدينة.

وهي السورة **التاسعة والأربعون** في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل وقبل سورة الإسراء، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى عليه السلام.

وهي **ثمان وثمانون آية** باتفاق العادين.

أغراض السورة

*/ اشتملت هذه السورة على التنويه بشأن القرآن والتعريض بأنّ بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بمثله.

*/ تفصيل ما أجمل في [الشعراء19/18] من قول فرعون لموسى { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً - إلى قوله - وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ففصَّلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون.

*/ بيَّن فيها سبب زوال ملك فرعون.

*/ تفصيل ما أجمل في [النمل:7] من قوله { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً } ففصَّلت سورة القصص كيف سار موسى وأهله وأين آنس النار، ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون، فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم أجملت ما بعد ذلك لأنّ تفصيله في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء. والمقصود من التفصيل زيادة المواعظ والعبر.

*/ تنبيه المشركين وتحذيرهم من سوء عاقبة الشرك، وأنذرهم إنذارا بليغا، وفند قولهم { لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [القصص: 48] من الخوارق كقلب العصا حية.

*/ تحدّاهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة.

*/ أبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حلّ بالأمم المكذّبة رسل الله.

*/ ساق لهم أدلة على وحدانية الله تعالى وفيها كلّها نعم عليهم، وذكّرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء.

*/ أنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوّتهم ونعمتهم ومالهم بأنّ ذلك متاع الدنيا وأنّ ما ادُّخر للمسلمين عند الله خير وأبقى.

*/ أعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى. وتخلّص من ذلك إلى التذكير بأنّ أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأنّ العاقبة للمتقين.

*/ تخلّل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة، وإيماء إلى أنّ الله مظهرهم على المشركين.

*/ ختم الكلام بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيته ووعده بأنّه يجعل بلده في قبضته.

ويقرب عندي أن يكون المسلمون ودّوا أن تُفصَّل لهم قصة رسالة موسى عليه السلام، فكان المقصود انتفاعهم بما في تفاصيلها من معرفة نافعة لهم تنظيرا لحالهم وحال أعدائهم. فالمقصود ابتداءً هم المسلمون ولذلك قال تعالى في أوّلها { نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [3] أي للمؤمنين.

{ **طسم** } [1]

تقدّم القول في نظيره في فاتحة سورة الشعراء.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** [2] **نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** [3] }.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** } الإشارة على نحو الإشارة في نظيره في سورة الشعراء. فالمشار إليه ما هو مقروء يوم نزول هذه الآية من القرآن، تنويها بشأن القرآن.

{ **نَتْلُو عَلَيْكَ** } للتشويق لهذا النبأ لما فيه من شتّى العبر بعظيم تصرّف الله في خلقه. والمفعول محذوف دلّ عليه صفته وهي { مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ }. فالتقدير: نتلو عليك كلاما من نبأ موسى وفرعون.

التلاوة: القراءة لكلام مكتوب أو محفوظ كما قال تعالى { وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ } [النمل:92]، وهو يتعدّى إلى من تُبلّغ إليه التلاوة بحرف (على)، وتقدّمت عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ } [البقرة:102].

وإسناد التلاوة إلى الله إسناد مجازي لأنّه الذي يأمر بتلاوة ما يوحى إليه من الكلام والذي يتلو حقيقة هو جبريل بأمر من الله، وهذا كقوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ } [البقرة:202].

{ **عَلَيْكَ** } جعلت التلاوة على النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه الذي يتلقى ذلك المتلو.

{ **مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ** } النبأ الخبر المهم العظيم. و(من) تبعيضية، فإنّ المتلو في هذه السورة بعض قصة موسى وفرعون. ألا ترى أنّه لم تذكر هنا آية الطوفان والجراد.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهو حال من ضمير { نَتْلُو }، أو صفة للتلاوة.

الحق: الصدق، لأنّ الصدق حقٌ، إذ الحق هو ما يحقُّ له أن يثبت عند أهل العقول السليمة والأديان القويمة.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } لام التعليل، أي: نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون، فكانت الغاية من تلاوة النبأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم هي أن ينتفع بذلك قوم يؤمنون، فالنبيّ يبلّغ ذلك للمؤمنين.

فإن كان فريق من المؤمنين سألوا أو تشوّفوا إلى تفصيل ما جاء من قصة موسى وفرعون في سورة الشعراء وسورة النمل **وهو الظاهر**، فتخصيصهم بالتعليل واضح وانتفاع النبيّ بذلك معهم أجدر وأقوى.

وإن لم يكن نزول هذه القصة عن تشوّف من المسلمين فتخصيص المؤمنين بالتلاوة لأجلهم تنويه بأنّهم الذين ينتفعون بالعبر والمواعظ لأنّهم بإيمانهم أصبحوا متطلّبين للعلم والحكمة متشوّفين لأمثال هذه القصص.

وحصول ازدياد العلم للنبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك معلوم من كونه هو المتلقّي والمبلغ، وفي ذلك أيضا تثبيت فؤاده كما قال تعالى { وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود:120].

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } قوم الإيمان شأنهم وسجيّتهم. وللإشارة إلى معنى تمكّن الإيمان من نفوسهم أجري وصف الإيمان على كلمة { قَوْمٍ } ليفيد أنّ كونهم مؤمنين هو من مقوّمات قوّميّتهم كما قدّمناه غير مرة.
وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أنّ إيمانهم موجود في الحال ومستمر متجدّد.
وفي هذا إعراض عن المشركين في سوق هذه القصة بما يقصد فيها من العبرة والموعظة فإنّهم لم ينتفعوا بذلك وإنّما انتفع بها من آمن ومن سيؤمن بعد سماعها.

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [4]

بيان لجملة { نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ } [3]، فقدّم له الإجمال للدلالة على أنّه نبأ له شأن عظيم بما فيه من شتّى العبر. وافتتاحها بحرف التوكيد للاهتمام.
{ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ** } ابتدأت القصة بذكر أسبابها لتكون عبرة للمؤمنين يتخذون منها سُننا يعلمون بها علل الأشياء ومعلولاتها، ويسيرون في شؤونهم على طرائقها، فلولا تجبّر فرعون، وهو من قبيح الخلال، ما حلّ به وبقومه الاستئصال.
وصورت عظمة فرعون في الدنيا بقوله {عَلا فِي الْأَرْضِ} لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر.
العلوّ: هنا الكبر، وهو المذموم، من العلوّ المعنوي كالذي في قوله تعالى { نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ } [83]. ومعناه أن يستشعرالمرء نفسه عاليا على موضع غيره، ليس يساويه أحد. فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرّفاته برعي صلاح وتجنّب فساد وضرّ، وإنّما يتّبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه.
وحسبك أنّ فرعون كان يجعل نفسه إلها وأنّه ابن الشمس.
فرعون: هذا هو رمسيس الثاني وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للفراعنة، وكان فاتحا كبيرا شديد السطوة، وهو الذي وُلِد موسى عليه السلام في زمانه على التحقيق.
{ **الْأَرْضِ** } أرض مصر، فالتعريف فيها للعهد، لأنّ ذكر فرعون يجعلها معهودة عند السامع لأنّ فرعون اسم ملك مصر.
الشيع: جمع شيعة. والشيعة: الجماعة التي تشايع فردا على ما يريد، أي: تتابعه وتطيعه وتنصره، كما قال تعالى { هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ } [15]، وأُطلق على الفرقة من الناس على سبيل التوسّع، قال تعالى { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [الروم: 32].
ومن البلاغة اختيار هذه اللفظة هنا ليدلّ على أنّه جعل أهل بلاد القبط فرقا ذات نزعات تتشيع كلّ فرقة إليه

وتعادي الفرقة الأخرى ليتم له ضرب بعضهم ببعض. وهي سياسة لا تليق بولي أمر الأمّة الواحدة.
وكان رمسيس الثاني قسّم بلاد مصر إلى ست وثلاثين إيالة وأقام على كل إيالة أمراء نوّابا عنه ليتسنّى له ما حُكي عنه في هذه الآية.
{ **يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ** } حال من ضمير { جَعَلَ }. وضمير { مِنْهُمْ } عائد إلى أهلها لا إلى { شِيَعاً }.
والطائفة المستضعفة هي طائفة بني إسرائيل.
{ **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** } بدل اشتمال، لأنّه ما فعل ذلك بهم إلّا لأنّه عدَّهم ضعفاء، أي: أذلّة، فكان يسومهم العذاب ويسخّرهم للأعمال الشاقة. وتقدّم الكلام على ذبح أبناء بني إسرائيل في [البقرة:49].
{ **إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** } تعليل. والخبر بتلك الصيغة أدلّ على تمكّن الوصف مما لو قيل: كان فاسدا.
وفعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:
المفسدة الأولى: **التكبّر والتجبّر**، فإنّه مفسدة نفسية عظيمة تتولّد منها مفاسد جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبثّ عداوته فيهم، وسوء ظنّه بهم، فإذا انضمّ إلى ذلك أنّه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار، فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضرّ عنهم، وأن يبتزّ منافعهم لنفسه ويسخّر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بثّ الرعب في نفوسهم.
فهذه الصفة هي أمّ المفاسد وجماعها ولذلك قدّمت على ما يذكر بعدها ثم أعقبت بأنّه { كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }.
المفسدة الثانية: أنّه **جعل أهل المملكة شيعا** وفرّقهم أقساما وجعل منهم شيعا مقربين منه وبعضهم بضدّ ذلك، وذلك فساد في الأمّة لأنّه يثير بين أفرادها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضهم يتربّص الدوائر ببعض.
وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعيّة منه كلّها بمنزلة واحدة.
المفسدة الثالثة: أنّه **يستضعف طائفة** من أهل مملكته فيجعلها محقّرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها.
والمراد بالطائفة المستضعفة: بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها وتكاثروا فيها ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة، فكان لهم من الحقّ في أرض المملكة ما لسائر سكّانها فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى { طَائِفَةً مِنْهُمْ } إذ جعلها من أهل الأرض.
وأشار بقوله { طَائِفَةً } إلى أنّه استضعف فريقا كاملا، أي أنّ الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقضي استضعافهم، ككونهم ساعين بالفساد أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافهم على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد.

المفسدة الرابعة: أنّه { **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ** } أي: يأمر بذبحهم، فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي. والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال. وقد تقدّم ذكر ذلك في [البقرة:49]. وقصده من ذلك ألّا تكون لبني إسرائيل قوّة من رجال قبيلتهم حتّى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنّه **يستحيي النساء**، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنّه يستحييهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا، إذ كان احتقارهنّ يصدّ قومه عن التزوّج بهن. وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة.

{ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ [5] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [6] }.

بيان لنبأ موسى وفرعون، فإنّ إرادة الله الخير بالذين استضعفهم فرعون من تمام النبأ، وهو موقع عبرة عظيمة من عبر هذه القصة.

{ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ** } جيء بصيغة المضارع في حكاية إرادة مضت لاستحضار ذلك الوقت كأنّه في الحال، لأنّ المعنى أنّ فرعون يطغى عليهم والله يريد في ذلك الوقت إبطال عمله وجعلهم أمّة عظيمة.

المنّ: الإنعام، وجاء مضارعه مضموم العين على خلاف القياس.

{ **عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ** } هم الطائفة التي استضعفها فرعون. ونكتة إظهار الذين استضعفوا دون إيراد ضمير الطائفة للتنبيه على ما في الصلة من التعليل، فإنّ الله رحيم بعباده، وينصر المستضعفين المظلومين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

وخصّ بالذكر من المنّ أربعة أشياء عطفت على فعل { نَمُنَّ } عطف الخاص على العام وهي: جعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، والتمكين لهم في الأرض، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم، في نعم أخرى جمة، ذكر كثير منها في سورة البقرة.

{ **وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً** } بأن أخرجهم من ذلّ العبودية وجعلهم أمّة حرّة مالكة أمر نفسها لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها، وقوّة تدفع بها أعداءها، ومملكة خالصة لها، وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرتها، بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء، فهذا معنى جعلهم أئمة، أي: يقتدي بهم غيرهم، ويدعون الناس إلى الخير، وناهيك بما بلغه ملك إسرائيل في عهد سليمان عليه السلام.

{ **وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** } فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين ويحكّمهم فيهم، فالإرث مستعمل مجازًا في خلافة أمم أخرى. فإنّ الله أورثهم أرض (الكنعانيين والحثّيين والأموريين والأراميين)، وأحلّهم محلّهم على ما كانوا

عليه من العظمة، حتّى عُرفوا بالجبابرة، قال تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ } [المائدة: 22].
{ **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ** } تثبيت سلطانهم فيما ملكوه منها، وهي أرض الشام. ويحتمل أن يكون المعنى تقويتهم بين أمم الأرض، إن حمل التعريف على العهد.
التمكين: أصله الجعل في المكان، وقد تقدّم في قوله تعالى { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ } [الكهف:84]، وتقدّم الكلام على اشتقاق التمكين وتصاريفه عند قوله تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام: 6].
{ **وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** } أن يكون زوال ملكهم بسبب رجل من بني إسرائيل حسبما أنذره بذلك الكُهّان. ومعنى إراءتهم ذلك إراءتهم مقدّماته وأسبابه.
فرعون: الذي أري ذلك هو ملك مصر **منفتاح الثالث** وهو الذي حكم مصر بعد **رمسيس الثاني** الذي كانت ولادة موسى في زمانه، وهو الذي كان يحذر ظهور رجل من إسرائيل يكون له شأن.
{ **هَامَانَ** } قال المفسّرون: هو وزير فرعون. وظاهر آيات هذه السورة يقتضي ذلك. وأحسب أنّ هامان ليس باسم علم ولكنّه **لقب خطة** مثل فرعون وكسرى وقيصر ونجاشي. فالظاهر أنّ هامان لقب وزير الملك.
الجنود: جمع الجند. والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه: هو الجماعة من الناس التي تجتمع على أمر تتبعه، فلذلك يطلق على العسكر لأنّ عملهم واحد وهو خدمة أميرهم وطاعته. ويطلق على الأمّة، قال تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ } [البروج:18/17].

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [7]

تتضمّن هذه الجملة تفصيلا لمجمل قوله { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } ، فإنّ الإرادة لمّا تعلّقت بإنقاذ بني إسرائيل من الذلّ خلق الله المنقذ لهم.
{ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى** } وحي إلهام. أوجد عندها من انشراح الصدر ما يحقّق لديها أنّه خاطر من الواردات الإلهية. فإنّ الإلهام الصادق يعرض للصالحين فيُوقع في نفوسهم يقينا ينبعثون به إلى عمل ما ألهموا إليه. وقد يكون هذا الوحي برؤيا صادقة رأتها.
أم موسى: لم يعرف اسمها في كتب اليهود، وذكر المفسّرون لها أسماء لا يُوثق بصحتها.
{ **أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ** } تفسير لـ { أَوْحَيْنَا } . أي: أخفيه مدّة ترضعينه فيها، فإذا خفت عليه أن يُعرف خبره فألقيه في اليمّ. والظاهر أنّ هذا الوحي إليها كان عند ولادته وأنّها أمرت بأن تلقيه في اليم عند الضرورة، ثم ألقي في يقينها بأنّه لا بأس عليه.

وحكت كتب اليهود أنّ أم موسى خبّأته ثلاثة أشهر ثم خافت أن يفشو أمره فوضعته في سفط مقيَّر وقذفته في النهر. وقد بشرها الله بما يزيل همّها بأنه رادُّه إليها، وزاد على ذلك فبشّرها بما سيكون له من مقام كريم في الدنيا والآخرة { وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }.

{ **الْيَمِّ** } في كلام العرب مرادف البحر، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر، فالنهر العظيم يسمَّى بحرا قال تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } [فاطر:12]، وهو هنا نهر النيل الذي كان يشقّ مدينة فرعون حيث منازل بني إسرائيل.

وقد كانت هذه الآية مثالا من أمثلة دقائق الإعجاز البياني، حيث جمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين:

الخبران: هما { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى } وقوله { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ }.

الأمران: هما { أَرْضِعِيهِ } و { ألقيه }.

النهيان: { وَلا تَخَافِي } و{ وَلا تَحْزَنِي }.

البشارتان: { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }.

الخوف: توقّع أمر مكروه. **الحزن**: حالة نفسية تنشأ من حادث مكروه للنفس كفوات أمر محبوب.

والمعنى: لا تخافي عليه الهلاك من الإلقاء في اليم، ولا تحزني على فراقه.

{ **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ** } في موقع العلّة للنهيين لأنّ ضمان ردّه إليها يقتضي أنّه لا يهلك وأنه لا يغيب عنها طويلا.

{ **وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** } إدخالٌ للمسرّة عليها.

{ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}[8]

الالتقاط: افتعال من اللقط، وهو تناول الشيء الملقى في الأرض ونحوها بقصد أو ذهول. أسند الالتقاط إلى آل فرعون لأنّ استخراج تابوت موسى من النهر كان من إحدى النساء الحافّات بابنة فرعون حين كانت مع أترابها وداياتها على ساحل النيل [سفر الخروج، الإصحاح:2].

{ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً** } لام التعليل وهي المعروفة عند النحاة بلام (كي). والكلام استعارة لظهور أنّهم لم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكنّهم التقطوه رأفة به وحبا له، لمَا ألقي في نفوسهم من الشفقة عليه، ولكن لمّا كانت عاقبة التقاطهم إيّاه أن كان لهم عدوّا في الله وموجب حزن لهم، شُبّهت العاقبة بالعلّة في كونها نتيجة للفعل، أي: استعير الحرف تبعا لاستعارة معناه، فلذلك سُمّيت استعارة تبعية.

{ **لَهُمْ** } ضمير يعود إلى آل فرعون، لأنّ موسى كان عدوّا لفرعون آخر بعد هذا، أي: عدوّا لدولتهم وأمّتهم.

{ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** } في موضع العلّة لجملة { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } أي: قدّر

الله نجاة موسى ليكون لهم عدوّا وحزنا، لأنّهم كانوا مجرمين، فجعل الله ذلك عقابا لهم على ظلمهم بني إسرائيل وعلى عبادة الأصنام.

الخاطئ: اسم فاعل من خَطِئَ كفرح، إذا فعل الخطيئة وهي الإثم والذنب، قال تعالى { نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ } [العلق:16]. ومصدره الخِطْء (بكسر الخاء وسكون الطاء). وتقدّم في قوله { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } [الإسراء:31]. وأمّا الخَطَأ وهو ضد العَمْد ففعله أخطأ فهو مخطئ، قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب:5].

ويظهر أنّ أصلهما لغتان في معنى مخالفة الصواب عن غير عمد أو عن عمد، ثم غلب الاستعمال الفصيح على تخصيص أخطأ بفعل على غير عمد وخَطِئَ بالإجرام والذنب، وهذا الذي استقرّ عليه استعمال اللغة.

فأمّا محمل الآية هنا فلا يناسبه إلّا أن يكون { خَاطِئِينَ } من الخطيئة ليكون الكلام تعليلا.

{ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [9]

يدّل الكلام على أنّ الذين انتشلوه جعلوه بين ايدي فرعون وامرأته فرقَّت له امرأة فرعون وصرفت فرعون عن قتله بعد أن همّ به لأنّه علم أنّ الطفل ليس من أبناء القبط بلون جلدته وملامح وجهه. فعلم أنّ وضعه في التابوت لقصد إنجائه من الذبح.

وكانت امرأة فرعون امرأة ملهمة للخير، وقدّر الله نجاة موسى بسببها. وقد قال تعالى في شأنها { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم:11].

{ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ } سُمِّيت آسية كما في الحديث المروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون ".**

{ قُرَّتُ عَيْنٍ } خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الطفل. وحذفه لأنّه دلّ عليه حضوره بين أيديهم.

قرّة العين: كناية عن السرور، وهي كناية ناشئة عن ضدّها وهو **سُخْنة العين** التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن، فلمّا كنِّي عن الحزن بسُخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء: أسخن الله عينه، أتبعوا ذلك بأن كنُّوا عن السرور بضدّ هذه الكناية فقالوا: قُرّة عين، وأَقَرَّ الله عينه.

فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرّة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنّى به العرب عن ذلك وهو { قُرَّتُ عَيْنٍ }.

ويجوز أن يكون قسما كما يقال: أيمن الله. فإنّ العرب يقسمون بذلك، أي: أقسم بما تقَرّ به عيني.
{ **لا تَقْتُلُوهُ** } ضمير الجمع الأحسن أن يراد به خطاب فرعون داخلا فيه أهل دولته هامان والكهنة الذين ألقوا في نفس فرعون الخوف من الفتى باعتباره من بني إسرائيل.
{ **عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً** } في موقع العلّة لمضمون جملة { لا تَقْتُلُوهُ } فاتصالها بها كاتصال جملة { قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ } بها، ولكن نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل، وهو وازع المحبة، هو المقدّمة لأنّه أشدّ تعلقا بالنفس، فهو يشبه المعلوم البديهي. وجعل الوازع العقلي بعد النهي لاحتياجه إلى الفكر.
تضمّن قولها إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأنّ هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه لأنّه لما انضم في أهلهم وسيكون ربيَّهم فإنّه يُرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد.
ولعلّ الله حقّق لامرأة فرعون رجاءها فكان موسى قرّة عين لها ولزوجها، فلمّا هلكا وجاء فرعون آخر بعدهما كان ما قدّره الله من نصر بني إسرائيل.
{ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } لأنّه من العلم الخفي، أي: لا يعلمون هذا الأمر الخفي.

{ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [10]

{ **أَصْبَحَ** } مستعمل في معنى (صار) فاقتضى تحوّلا من حالة إلى حالة أخرى.
الفؤاد مستعمل في معنى العقل واللب. و**الفراغ** مجازي. أي: عدم جولان معنى ذلك الأمر في العقل، أي: ترك التفكير فيه.
واختلف المفسّرون في متعلّق الفراغ ما هو؟ ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين:
*/ الناحية الأولى تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جاشها: (وهذا أحسن ما فُسِّرت به الآية) فالمعنى أنّه فارغ من الخوف والحزن، فأصبحت واثقة بحسن عاقبته تبعا لما ألهمها الله من ألّا تخاف، فهو ثناء عليها. وهذا اسعد بقوله تعالى بعد { لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } لأنّ ذلك الربط من توابع ما ألهمها الله من ألّا تخاف ولا تحزن. أي: أنّها لمّا ألقته في اليمّ، كما ألهمها الله، زال عنها ما كانت تخافه عليه من الظهور عليه عندها وقتله لأنّها لمّا تمكّنت من إلقائه في اليم ولم يشعر بها أحد قد علمت أنّه نجا. وهذا المحمل يساعده أيضا ما شاع من قولهم: فلان خلي البال: إذا كان لا همّ بقلبه.
وهذا التفسير يقتضي الجمع بين الثناء عليها بحسن ثقتها بالله والإشارة إلى ضعف الأمومة.

*/ <u>الناحية الثانية تؤذن بتطرّق الضعف والشك إلى نفسها:</u> قال ابن عطية والقرطبي عن ابن القاسم عن مالك: الفراغ هو ذهاب العقل. قال ابن عطية: هو كقوله تعالى { وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ } [إبراهيم:43]. أي: لا عقول فيها. وكلّ الأقوال الراجعة إلى هذه الناحية ترمى إلى أنّ أم موسى لم تكن جَلْدة على تنفيذ ما أمرها الله تعالى وأن الله تداركها بوضع اليقين في نفسها.

{ **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** } تكون بالنسبة للتفسير الأول (الراجح) استئنافا بيانيا لما اقتضاه فعل { أَصْبَحَ }. فالمعنى: كادت أن تبدي خبره في مدّة إرضاعه من شدّة الهلع والإشفاق عليه أن يقتل لولا أن ربطنا على قلبها.

{ **لَتُبْدِي بِهِ** } هنا بمعنى تبوح.

الربط على القلب: توثيقه عن أن يضعف كما يُشدّ العضو الوَهِن، أي: ربطنا على قلبها بخَلْق الصبر فيه.

{ **لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } المراد بالمؤمنين المصدّقون بوعد الله. واللام للتعليل، أي: لتحرز رتبة المؤمنين بأمر الله الذين لا يتطرّقهم الشك فيما يأتيهم من الواردات الإلهية. فالإيمان هنا مستعمل في معناه اللغوي دون الشرعي لأنّها كانت من المؤمنين من قبل.

{ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [11]

ظاهر ترتيب الأخبار أنّها على وفق ترتيب مضامينها في الحصول. أي: لما ألقته في اليم قالت لأخته: انظري أين يلقيه اليم ومتى يُستخرج منه.

أخت موسى: اسمها مريم، وقد مضى ذكر القصّة في [طه:40].

القَصُّ: اتباع الأثر، استعمل هنا في تتبّع الذات بالنظر فلذلك عدّي إلى ضمير موسى دون ذكر الأثر. وقد تقدّم في عند قوله { فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً } [الكهف:64]

{ **فَبَصُرَتْ بِهِ** } بصُر بالشيء صار ذا بصر به. يفيد قوّة الإبصار. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ } [طه:96].

الجُنُب: (بضمّتين) البعيد. وهو صفة لموصوف يعرف من المقام، أي من مكان بعيد.

{ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } أي: آل فرعون حين التقطوه لا يشعرون بأنّ أخته تراقب أحواله وذلك من حذقها.

{ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}[12]

التحريم: المنع، أيّ قدّرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها ليضطرّ آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبّل ثديها. ومن مقدّمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمّه مدّة تعوّد فيها بثديها.

{ **مِنْ قَبْلُ** } من قبل التقاطه.

{ **فقالت** } الفاء فاء فصيحة تؤذن بجملة مقدّرة، أي: فأظهرت أخته نفسها وعرضت سعيها في المساعدة على إيجاد مرضع بطريق الاستفهام المستعمل في العرض تلطفا مع آل فرعون وإبعادا للظنّة عن نفسها.

{ **يَكْفُلُونَهُ** } يتعهّدون بحفظه وإرضاعه. فيدلّ هذا على أنّ عادتهم في الإرضاع أن يُسلَّم الطفل إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها كما كانت عادة العرب. كما جاء في خبر إرضاع محمد صلى الله عليه وسلم عند حليمة بنت وهب في حي بني سعد بن بكر.

قال صاحب (الكشاف): فدفعه فرعون إليها وأجرى لها وذهبت به إلى بيتها.

{ **وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** } العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لقصد تأكيد أنّ النصح من سجاياهم وممّا ثبت لهم، فلذلك لم يقل: وينصحون له، كما قيل { يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ } لأنّ الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية.

النصح: العمل الخالص الخلي من التقصير والفساد.

{ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}[13]

{ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ** } تقدّم نظيره في [طه:40].

{ **وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } لام التعليل لتأكيد حرف { كَيْ } بمرادفه، وهو للتنصيص على أنّه معطوف على الفعل المثبت { تَقَرَّ عَيْنُهَا } لا على الفعل المنفي.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } عائد إلى الناس المفهوم من المقام أو إلى رعيّة فرعون، ومن الناس بنو إسرائيل. والاستدراك ناشئ عن نصب الدليل لها على أنّ وعد الله حق، أي: فعلمت ذلك وحدها وأكثر القوم لا يعلمون ذلك لأنّهم بين مشركين وبين مؤمنين تقادم العهد على إيمانهم فأصبح قريبا من الشرك.

وفي القصّة مجموعة من العبر و المواعظ تصلح للمؤمنين وللمشركين:

<u>العبرة الأولى</u>: إظهار أنّ ما علمه الله وقدّره هو كائن لا محالة كما دلّ عليه قوله تعالى { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - يَحْذَرُونَ} [6]، وأنّ الحذر لا ينجي من القدر.

العبرة الثانية: إظهار أنّ العلوّ الحق لله تعالى وللمؤمنين وأنّ علوّ فرعون لم يغن عنه شيئا في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة.

العبرة الثالثة: أنّ تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشير إلى أنّ ذلك هو سبب الانتقام منه والأخذ بناصر المستضعفين ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

العبرة الرابعة: الإشارة إلى حكمة { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [البقرة:216] في جانب بني إسرائيل { وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ } [البقرة:216] في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.

العبرة الخامسة: أنّ إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أمّلوا منه النفع أشدّ عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر، وأدلّ على أنّ انتقام الله يكون أعظم كما قال { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [8] مع قوله تعالى { عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [9].

العبرة السادسة: أنّه لا يجوز أن تستأصل أمّة كاملة لتوقُّع مَفسد منها لعدم التوازن بين المفسدتين.

العبرة السابعة: تعليم أنّ الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولكنّه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقّلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم إلى أن ردّه إلى أمّه، فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين { قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32] لينظروا في ظهور النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوّة، وأنّه سائر على سنّة الله في التمكين.

العبرة الثامنة: بأنّ وجود الصالحين من بين المفسدين يخفّف من لأواء فساد المفسدين، فإنّ وجود امرأة فرعون كان سببا في صدّ فرعون عن قتل الطفل مع تحقّقه أنّه إسرائيلي.

العبرة التاسعة: ما في قوله تعالى { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأنّ نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأنّ وعيدهم لا مفرّ لهم منه.

العبرة العاشرة: ما في قوله { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } من الإشارة إلى أنّ المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل.

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [14]

هذا اعتراض بين أجزاء القصة المرتّبة على حسب ظهورها في الخارج. وهذا الاعتراض نشأ عن جملة { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [13] فإنّ وعد الله لها قد حكي في قوله تعالى { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [7]. فلمّا انتهى إلى حكاية ردّه إلى أمّه بقوله تعالى { فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا } [13]،

كمّل ما فيه وفاء وعد الله إيّاها بهذا الاستطراد. وإنّما أوتي الحكم (النبوّة) بعد خروجه من أرض مدين كما سيجيء في قوله تعالى { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [29].

وتقدم نظير هذه الآية في [يوسف:22]، إلّا قوله { وَاسْتَوَى }.

{ **وَاسْتَوَى** } قيل: بمعنى بلغ أشدّه، فيكون تأكيدا، والحقّ أنّ الأشد كمال القوة لأنّ أصله جمع شِدّة (بكسر الشين) وهي هيئة بمعنى القوّة ثم عومل معاملة المفرد. وأنّ الاستواء: **كمال البنية** كقوله تعالى في وصف الزرع { فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } [الفتح:29]، ولهذا أريد لموسى الوصف بالاستواء ولم يوصف يوسف إلّا ببلوغ الأشدّ، لأنّ موسى كان رجلا طُوالا كما في الحديث: **" كأنّه من رجال شنوءة "** فكان كامل الأعضاء، ولذلك كان وكزه القبطي قاضيا عليه.

الحكم: الحكمة، و**العلم**: المعرفة بالله.

{ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } [15]

طويت أخبار كثيرة تنبئ عنها القصّة وذلك أنّ موسى يفع وشبّ في قصر فرعون فكان معدودا من أهل بيت فرعون. قيل: كان يدعى موسى ابن فرعون.

{ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ** } عطف على جملة { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } عطف جزء القصة على جزء آخر منها، وقد علم موسى أنّه من بني إسرائيل. و**المدينة**: هي منفيس قاعدة مصر الشمالية.

{ **عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ** } هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عمّا يجري فيها، وهو وقت استراحة الناس وتفرّقهم وخلو الطريق منهم. قيل: كان ذلك في وقت القيلولة.

{ **هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ** } الإشارتان تفصيل لما أجمل في قوله { رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ }.

الشيعة: الجماعة المنتمية إلى أحد، وتقدّم آنفا في قوله { وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً } [4].

العدو: الجماعة التي يعاديها موسى، أي: يبغضها. والعدو وصف يستوي فيه الواحد والجمع كما في قوله تعالى { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي } [الشعراء:77].

فالمراد بالذي من شيعته أنه رجل من بني إسرائيل، وبالذي من عدوّه رجل من القبط، قوم فرعون.

الاستغاثة: طلب الغوث وهو التخليص من شدّة أو العون على دفع مشقّة.

الوكز: الضرب باليد.

{ **فَقَضَى عَلَيْهِ** } جملة تقال بمعنى مات. وكان هذا قتل خطأ، صادف الوكز مَقاتِلَ القبطي ولم يكن عن قصد.
{ **قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا. وحكاية ذلك للتنبيه على أنّ موسى لم يخطر بباله حينئذ إلّا النظر في العاقبة الدينية. وقوله كلام نفسي. والمعنى: أنّ الشيطان أوقد غضبه حتّى بالغ في شدّة الوكز.
{ **إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ** } تعليل لكون شدّة غضبه من عمل الشيطان إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على زجر القبطي أو كفّه عن الذي من شيعته.
وفي هذا دليل على أنّ الأصل في النفس الإنسانية هو الخير وأنّه الفطرة، وأنّ الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري، وهو تخلّل نزع الشيطان في النفس.
{ **مُضِلٌّ مُبِينٌ** } رتّب على الأخبار عنه بالعداوة وصفه بالإضلال لأنّ العدو يعمل لإلحاق الضرّ بعدوه.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [16]

بدل اشتمال من جملة { قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } لأنّ الجزم بكون ما صدر منه من عمل الشيطان وتغريره يشتمل على أنّ ذلك ظلم لنفسه، وأنّ يتوجّه إلى الله بالاعتراف بخطئه ويُفرّع عليه طلب غفرانه.
{ **ظَلَمْتُ نَفْسِي** } سمَّى فعله ظلما لنفسه لأنّه كان يستطيع أن يملك من غضبه، فكان تعجيله بوكز القبطي وكزة قاتلة ظلما جرّه لنفسه. وسمّاه **ضلالا** في قوله تعالى { قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } [الشعراء:20].
{ **فَغَفَرَ لَهُ** } الفاء للتعقيب، أي: استجاب له ربّه فعجّل له بالمغفرة. وفي الكلام إعلام لأهل القرآن بكرامة موسى عليه السلام عند ربّه.
{ **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تعليل، علّل المغفرة له بأنّه شديد الغفران ورحيم بعباده، مع تأكيد ذلك بصيغة القصر إيماء إلى أنّ ما جاء به هو من ظلم نفسه.

{ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ } [17]

{ **قَالَ** } أعيد القول للتنبيه على اتصال كلام موسى حيث وقع الفصل بينه بجملتي { فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }. وليس القول مستأنفا عن قوله { فَغَفَرَ لَهُ } لأنّ موسى لم يعلم أّن الله غفر له، إذ لم يكن يوحى إليه.
{ **بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** } الباء للسببية و(ما) موصولة. أي: ما أوتيه من الحكمة والعلم، فتميّزت عنده الحقائق ولم يبق للعوائد والتقاليد تأثير على شعوره. فأصبح لا ينظر الأشياء إلا بعين الحقيقة، ومن ذلك ألّا يكون ظهيرا وعونا للمجرمين. ولعلّ هذا الكلام ساقه موسى مساق الاعتبار عن قتله القبطي وثوقا بأنّه قتله خطأ.

الظهير: النصير.

وقد دلّ هذا النظم على أن موسى أراد أن يجعل عدم مظاهرته للمجرمين جزاء على نعمة الحكمة والعلم بأن جعل شكر تلك النعمة الانتصار للحقّ وتغيير الباطل. وممّا يؤيد هذا التفسير أنّ موسى لمّا أصبح من الغد فوجد الرجل الذي استصرخه في أمسه يستصرخه على قبطي آخر أراد موسى أن يبطش به وفاء بوعده.

وقد جعل جمهور من السلف هذه الآية حجّة على منع إعانة أهل الجور في شيء من أمورهم. ولعلّ وجه الاحتجاج بها أنّ الله حكاها عن موسى في معرض التنويه به فاقتضى ذلك أنّه من القول الحق.

{ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ [18] **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ** [19] **}**.

أي: أصبح خائفا من أن يطالَب بدم القطبي الذي قتله.

{ **يَتَرَقَّبُ** } أي: يراقب ما يقال في شأنه ليكون متحفّزا للاختفاء أو الخروج من المدينة لأنّ خبر قتل القبطي لم يفش أمره لأنّه كان في وقت تخلو فيه أزقة المدينة كما تقدّم.

{ **فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ** } (إذا) للمفاجأة، أي: ففاجأه أنّ الذي استنصره بالأمس يعيد الكرَّة.

الاستصراخ: المبالغة في الصراخ، أي: النداء. عبّر عنه سابقا [15] **بالاستغاثة** فخولف بين العبارتين للتفنّن.

{ **إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ** } تذمر من الإسرائيلي إذ كان استصراخه السالف سببا في قتل نفس.

الغويّ: شديد الغواية، وهي الضلال وسوء النظر وكثرة خصوماته.

البطش: الأخذ بالعنف، والمراد به الضرب.

{ **عَدُوٌّ لَهُمَا** } ظاهر العبارة أنّ المقصود القبطي.

الجبّار: الذي يفعل ما يريد ممّا يضرّ بالنّاس، ويؤاخذ الناس بالشدّة دون الرفق. وتقدّم في قوله تعالى { وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [الرعد:15]، وفي قوله تعالى { وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً } [مريم:32].

{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ [20] فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [21] }.

{ **رَجُلٌ** } قيل كان من بني إسرائيل. وقيل: كان من القبط ولكنّه كان مؤمنا يكتم إيمانه، وهو الراجح.

{ **أَقْصَى الْمَدِينَةِ** } الظاهر أنّه ناحية قصور فرعون وقومه، فإنّ عادة الملوك السكنى في أطراف المدن. وقيل: منازل الأشراف. وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل، وأنّه كان يعرف موسى.

السعي: السير السريع، وتقدّم عند قوله { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } [طه: 20]. وتقدّم بيان حقيقته ومجازه في قوله { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء: 19].

{ **الْمَلأِ** } الجماعة أولو الشأن، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ } [الأعراف:60]. أراد بهم أهل دولة فرعون.

{ **يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ** } أي: يتشاورون في قتلك فاخرج. وضُمِّن معنى (يهمّون) فعدّي بالباء فكأنّه قيل: يأتمرون ويهمّون بقتلك. وأصل الائتمار: قبول أمر الآمر فهو مطاوع أمره. ثم شاع إطلاق الائتمار على التشاور لأنّ المتشاورين يأخذ بعضهم أمر بعض فيأتمر به الجميع، قال تعالى {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق:6]. وهذا يقتضي أنّ القضية رفعت إلى فرعون. وفي التوراة (فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى) [سفر الخروج، الإصحاح:2]. ولمّا علم هذا الرجل بذلك أسرع إلى موسى ينصحه بالخروج.

{ **إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** } تعليل لأمره بالخروج. وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة.

الترقّب: حقيقته الانتظار، وهو مشتقّ من رقب إذا نظر أحوال شيء. ومنه سمِّي المكان المرتفع: مَرْقُبة ومرتقبا، وهو هنا <u>مستعار للحذر.</u>

{ **قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } بدل اشتمال من جملة { يَتَرَقَّبُ } لأنّ ترقّبه يشتمل على الدعاء.

القوم الظالمون: هم قوم فرعون. ووصفهم بالظلم لأنّهم راموا قتله قصاصا عن قتل خطأ وذلك ظلم، لأنّ الخطأ في القتل لا يقتضي الجزاء بالقتل في نظر العقل والشرع.

<u>ومحل العبرة من قصة موسى مع القبطي وخروجه من المدينة:</u>

*/ أنّ الله يصطفي من يشاء من عباده. وأنّه أعلم حيث يجعل رسالاته.

*/ أنّه إذا تعلّقت إرادته بشيء هيأ له أسبابه بقدرته فأبرزه على أتقن تدبير.

*/ أنّ الناظر البصير في آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول في دعوته كما أشار إليه قوله { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [يونس:16]. وأوضح تلك المظاهر استقامة السيرة ومحبّة الحقّ.

*/ أنّ دليل عناية الله بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته ممّا كادوا له من المكائد.

وفي ذلك كله مثل للمشركين لو نظروا في حال محمد صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي حالهم معه.

{ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ } [22]

هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم عليه السلام إذ قال { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } [العنكبوت:26]. وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيا يبصّره بآداب النبوّة. ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجّه ولا من سيجد في وجهته كما دلّ عليه قوله { عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ }. قال ابن عباس: خرج موسى ولا علم له بالطريق إلّا حسن ظنّ بربّه.

{ تِلْقَاءَ } : أصله مصدر على وزن التِّفعال بكسر التاء، وليس له نظير في كسر التاء إلّا تمثال. بمعنى: اللقاء والمقاربة. وشاع إطلاق هذا المصدر على جهته فصار من ظروف المكان. وتقدّم قوله تعالى { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ } [الأعراف:47].

{ مَدْيَنَ } قوم من ذرية مدين بن إبراهيم. وقد مضى الكلام عليهم عند قوله تعالى { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً } [الأعراف: 85]. وأرض مدين واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر، وكان موسى قد سلك إليها عند خروجه من بلد (منفيس) طريقا غربية جنوبية فسلك برّيّة تمرّ به على أرض العمالقة وأرض الأدوميين ثمّ بلاد النبط إلى أرض مدين. تلك مسافة **ثمانمائة وخمسين ميلا** تقريبا. وإذ قد كان موسى في سيره ذلك راجلا فتلك المسافة تستدعي من المدة نحوًا من **خمسة وأربعين يوما**. وكان يبيت في البرّيّة لا محالة.

السواء: النهج المستقيم الذي لا التواء فيه. وقد ألهمه الله هذه الدعوة التي في طيّها توفيقه إلى الدين الحقّ.

{ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ [23] فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ [24] }.

{ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ } الورود هنا معناه الوصول والبلوغ كقوله تعالى { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } [مريم:71]

ماء القوم: هو الذي تعرف به ديارهم، لأنّ القبائل كانت تقطن عند المياه وكانوا يكنّون عن أرض القبيلة بماء بني فلان. أي: عندما بلغ بلاد مدين.

الأمّة: الجماعة كثيرة العدد، وتقدّم في قوله تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } [البقرة:213].

{ يَسْقُونَ } حذف المفعول لتعميم ما شأنه أن يسقى، وهو الماشية والناس، ولأنّ الغرض لا يتعلّق بمعرفة المسقي ولكن بما بعده من انزواء المرأتين. فيكون من تنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللازم، أو للاختصار.

{ **مِنْ دُونِهِمُ** } في مكان غير المكان الذي حول الماء، أي: وجد امرأتين في جهة مبتعدة عن جهة الساقين، لأنّ حقيقة كلمة (دون) أنّها وصف للشيء الأسفل من غيره. وتتفرّع من ذلك معان مجازية مختلفة العلاقات.

{ **امْرَأَتَيْنِ** } اسمهما (**ليَّا**) و(**صَفُّورة**)، ابنتا شعيب عليه السلام.

{ **تَذُودَانِ** } تطردان. وحقيقة الذَّود طرد الأنعام عن الماء، ولذلك سمّوا القطيع من الإبل الذَّود. فلا يقال: ذدت الناس إلّا مجازا مرسلا، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: **" فليذادَّن أقوام عن حوضي ...".**

{ **قَالَ مَا خَطْبُكُمَا** } فلما رأى موسى المرأتين تمنعان أنعامهما من الشرب سألهما قصّتهما؟

الخطب: الشأن والحدث المهم، وتقدّم عند قوله { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ } [يوسف:51].

{ **قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ** } فأجابتا بأنّهما كرهتا أن تسقيا في حين اكتظاظ المكان بالرعاء، وأنّهما تستمرّان على عدم السقي (كما اقتضاه التعبير بالمضارع) إلى أن ينصرف الرعاء.

{ **الرِّعَاءُ** } جمع راع.

الإصدار: الإرجاع عن السقي، أي: حتّى يسقي الرعاء ويُصدِروا مواشيَهم، أي: حتى يذهب رعاء الإبل بأنعامهم فلا يبقى الزحام. وصدّهما عن المزاحمة عادتهما إذ كانتا ذواتي مروءة وتربية زكيّة.

{ **وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** } اعتذار عن حضورهما للسقي مع الرجال، لأنّ الرجل الوحيد لهما هو أبوهما وهو شيخ كبير لا يستطيع ورود الماء لضعفه عن المزاحمة.

وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها وظهورها في مجامع الناس إذ كانت تستر ما يجب ستره، فإنّ شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه. وأمّا تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة، والعادات متباينة فيه، وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف.

{ **فَسَقَى لَهُمَا** } أي: رأفة بهما وغوثا لهما. وذلك من قوّة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء عند الوصول.

التولّي: الرجوع على طريقه، وذلك يفيد أنّه كان جالسا من قبل في ظلّ فرجع إليه.

{ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** } تذكّر وهو في نعمة برد الظل والراحة من التعب نعما سابقة أسداها الله إليه؛ من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، وإيصاله إلى أرض معمورة بأمّة عظيمة بعد أن قطع فيافي ومفازات، فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء.

الفقير: المحتاج، فقوله شكر على نعم سلفت.

الخير: ما فيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به، فمنه خير الدنيا ومنه خير الآخرة.

*/ من الخير إنجاؤه من القتل، وتربيته الكاملة في بذخة الملك وعزّته، وحفظه من أن تتسرّب إليه عقائد العائلة التي رُبّي فيها، فكان منتفعا بمنافعها مجنَّبا رذائلها وأضرارها.

*/ ومن الخير أن جُعل نصر قومه على يده، وأن أنجاه من القتل الثاني ظلما، وأن هداه إلى منجى من الأرض، ويسر له التعرّف ببيت نبوّة.

وأحسن خير للغريب وجود مأوى له يطعم فيه ويبيت وزوجةٌ يأنس إليها ويسكن. فكان استجابة الله له بأن ألهم شعيبا أن يرسل وراءه لينزله عنده ويزوّجه ابنته.

{ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }[25]

{ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا } الفاء تؤذن بأنّ الله استجاب له فقيَّض شعيبًا أن يرسل وراءه ليضيّفه. وتؤذن الفاء أيضا بأن شعيبا لم يتريث في الإرسال وراءه فأرسل إحدى البنتين اللتين سقى لهما وهي (**صَفُّورة**) فجاءته وهو لم يزل عند مكانه في الظل.

{ تَمْشِي } ذكر الفعل ليبني عليه قوله { عَلَى اسْتِحْيَاءٍ } وإلّا فإن فعل { فَجَاءَتْهُ } مغن.

{ عَلَى } للاستعلاء المجازي مستعارة للتمكّن من الوصف. والمعنى: أنّها مستحيية في مشيها.

الاستحياء: مبالغة في الحياء مثل قوله تعالى { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ - إلى قوله - لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ } [النور:31].

{ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ } تأكيد الجملة حكاية لما في كلامها من تحقيق الخبر للاهتمام به وإدخال المسرّة على المخبَر به.

الجزاء: المكافأة على عمل حسن أو سيّء بشيء مثله في الحسن أو الإساءة، قال تعالى { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } [الرحمن:60]، وقال تعالى { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا } [سبأ:17].

الأجر: التعويض على عمل نافع للمعوَّض، ومنه سُمّي ثواب الطاعات أجرا، قال تعالى { وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ } [محمد:36].

وكان فعل موسى معروفا محضا لا يطلب عليه جزاء لأنّه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما، وكان فعل شعيب كرما محضا، وتضييف الغريب من سنة إبراهيم عليه السلام ، فلا غرو أن يعمل بها رجلان من ذرّيّته.

{ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } كانت العوائد أن يفاتَح الضيف بالسؤال عن حاله ومَقْدَمه فلذلك قصّ موسى عليه قصّته كلّها. وذلك يقتضي أنّ شعيبا سأله عن سبب قدومه.

القصص: الخبر، والتعريف عوض عن المضاف إليه، أي قصصه، أو للعهد، أي: القصص المذكور آنفا.

{ **قَالَ لا تَخَفْ** } طمأنه شعيب بأنّه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون، لأنّ بلاد مدين تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة.

{ **نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } تعليل للنهي عن الخوف. ووصف قوم فرعون بالظالمين تصديقا لما أخبره به موسى من رَوْمهم قتله قصاصا عن قتل خطأ. وما سبق ذلك من خبر عداوتهم على بني إسرائيل.

{ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** [26] **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** [27] **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** [28] }.

حذف ما لقيه موسى من شعيب من الجزاء بإضافته وإطعامه، وانتقل منه إلى عرض إحدى المرأتين على أبيها أن يستأجره للعمل في ماشيته إذ لم يكن لهم ببيتهم رجل يقوم بذلك وقد كبر أبوهما، فلمّا رأت أمانته وورعه رأت أنّه خير من يستأجر للعمل عندهم لقوّته على العمل وأمانته.

{ **أَبَتِ** } التاء عوض عن ياء المتكلّم في النداء خاصة، ويجوز كسرها وبه قرأ الجمهور. ويجوز فتحها وبه قرأ ابن عامر وأبو جعفر.

{ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** } علّة للإشارة عليه باستئجاره، أي: لأنّ مثله من يستأجر. وجاءت بكلمة جامعة مرسلة مثلا لما فيها من العموم ومطابقة الحقيقة بدون تخلّف.

{ **مَنِ اسْتَأْجَرْتَ** } الخطاب موجّه إلى شعيب، وصالح لأنّ يعمَّ كلّ من يصلح للخطاب لتتمّ صلاحيّة هذا الكلام لأنّ يُرسل مثلا. فالتقدير: من استأجر شخصا فليستأجر القويّ الأمين.

وعن عمر بن الخطاب أنّه قال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي. يريد أسأله أن يؤيّدني بقويّ أمين.

{ **إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** } الإشارة إلى المرأتين اللتين سقى لهما إن كانتا حاضرتين معا دون غيرهما من بنات شعيب، أو تكون الإشارة إليهما لحضورهما في ذهن موسى باعتبار قرب عهده بالسقي لهما.

وفيه جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوّجها رغبة في صلاحه.

وجعل لموسى اختيار إحداهما. وكانت التي اختارها موسى (**صَفُّورة**) وهي الصغرى كما جاء في رواية أبي ذر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وإنّما اختارها دون أختها لأنّها التي عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها، فكان ذلك ترجيحا لها عنده.

{ **عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ** } حرف (على) من صيغ الشرط في العقود.

{ **تَأْجُرَنِي** } مضارع **آجره** مثل ناصره، إذا كان أجيرا له.

الحِجَجَ: اسم جمع حِجّة (بكسر الحاء) وهي السنة، مشتقّة من أسم الحجّ لأنّ الحجّ يقع كل سنّة.

ولم يقع التعرّض في الآية للعمل المستأجر عليه. وورد في [سفر الخروج] أنّه رعى غنم **يثرون** (شعيب).

{ **فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ** } جعل ذلك إلى موسى تفضّلا منه إن اختاره.

{ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ** } معناه: أن أكون شاقا عليك. أي: ما أريد أن أشترط عليك ما فيه مشقتك. وهذا من السماحة الوارد فيها حديث: " **رحم الله أمرأ سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى ...**".

المشقّة: العسر والتعب والصعوبة في العمل. والأصل أن يوصف بالشاق العمل المتعب فإسناد أشقّ إلى ذاته إسناد مجازي.

{ **سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** } في حُسْن المعاملة ولين الجانب. وليس هذا من تزكية النفس المنهي عنه لأنّ المنهيّ عنه ما قصد به قائله الفخر والتمدّح، فأمّا ما كان لغرض الدين أو المعاملة فذلك حاصل لداع حسن كما قال يوسف { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف:55].

{ **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ** } حكاية لجواب موسى. واسم الإشارة إلى المذكور وهو { أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ }. وهذا قبول موسى لما أوجبه شعيب، وبه تمّ التعاقد على النكاح وعلى الإجارة.

{ **أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ** } (أي) اسم موصول مبهم مثل (ما). وزيدت بعدها (ما) للتأكيد ليصير الموصول شبيهًا بأسماء الشرط. والجملة كلّها بدل اشتمال من جملة { ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ }.

العُدوان: (بضم العين) الاعتداء على الحقّ، أي: فلست تعتدي عليَّ بما اشترطّه.

{ **وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** } استشهد موسى على نفسه وعلى شعيب بشهادة الله.

الوكيل: أصله الذي وُكِّل إليه الأمر. ولمّا ضُمِّن الوكيل معنى الشاهد عُدّي بحرف (على) وكان حقّه بـ (إلى).

{ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ** - إلى قوله - **وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** } [22-28]

العبرة من سياقة هذا الجزء من القصّة هو ما تضمّنته من فضائل الأعمال ومناقب أهل الكمال، وكيف هيّأ الله تعالى موسى لتلقّي الرسالة بأن قلّبه في أطوار الفضائل، وأعظمها معاشرة رسول من رسل الله ومصاهرته، وما تتضمّنه من خصال المروءة والفتوّة التي استكنَّت في نفسه من فعل المعروف، وإغاثة الملهوف، والرأفة بالضعيف، والزهد، والقناعة، وشكر ربّه على ما أسدى إليه، ومن العفاف والرغبة في عشرة الصالحين، والعمل لهم، والوفاء بالعقد، والثبات على العهد حتّى كان خاتمة ذلك تشريفه بالرسالة. ليعتبر المشركون بذلك، إن كان لهم اعتبار، في مقايسة تلك الأحوال بأجناسها من أحوال النبيّ صلى الله

عليه وسلم فيهتدوا إلى أنّ ما عرفوه به من زَكِيِّ الخصال قبل رسالته؛ من استقامة سيرته، وإعانته على نوائب الحق، وتزوّجه أفضل امرأة من نساء قومه، إن هي إلّا بوارق لانهطال سحاب الوحي عليه. والله أعلم حيث يجعل رسالته، ولْيَأْتَسِي المسلمون بالأسوة الحسنة من أخلاق أهل النبوّة والصلاح.

{ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } [29]

لم يذكر القرآن أيّ الأجلين قضى موسى إذ لا يتعلّق به غرض في سياق القصّة. وعن ابن عباس: " قضى أوفاهما وأطيبهما، إنّ رسول الله إذا قال فعل ".

الأهل: من إطلاقه الزوجة كما في الحديث: " **والله ما علمتُ على أهلي إلّا خيرا** ".

وفي سفر الخروج: أنّه استأذن صهره في الذهاب إلى مصر لافتقاد أخته وآله.

وبقيّة القصة تقدّمت في [النمل:7] إلّا زيادة قوله { آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً } وذلك مساو لقوله هنا { إِذْ رَأى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً }.

الجذوة: (مثلث الجيم)، وقرئ بالوجوه الثلاثة، فالجمهور بكسر الجيم، وعاصم بفتح الجيم وحمزة وخلف بضمّها، وهي العود الغليظ. قيل: مطلقا وقيل: المشتعل وهو الذي في (القاموس).

{ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [30] وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ [31] اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [32] }.

تقدّم مثل هذا في [النمل:8-12] إلّا مخالفة ألفاظ مثل:

*/ { **أَتَاهَا** } هنا، و{ جَاءَهَا } [النمل:8].

*/ { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ** } هنا، و{ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ } [النمل:9]، بضمير عائد إلى الجلالة هنالك، وضمير الشأن هنا، وهما متساويان في الموقع لأنّ ضمير الجلالة شأنه عظيم.

*/ { **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } هنا، و{ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [النمل:9]، وهذا يقتضي أنّ الأوصاف الثلاثة قيلت له حينئذ.

*/ { **وَأَنْ أَلْقِ** } هنا، و{ أَلْقِ} [النمل:10].

*/ { **اسْلُكْ** } هنا، { وَأُدْخِلَ } [النمل:12].

والمخالفات في مجملها تفنّن في تكرير القصة لتجدّد نشاط السامع لها.

{ **أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } تقديم صفة الله تعالى قبل إصدار أمره له بإلقاء العصا ليثبّت بذلك قلب موسى من هول تلقّي الرسالة، لأنّ وصف { رَبِّ الْعَالَمِينَ } يدلّ على أنّ جميع الخلائق مسخّرة له.

{ **مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ** } هذا واد في سفح الطور.

شاطئه: جانبه وضفّته.

{ **الْأَيْمَنِ** } ووصف الشاطئ بالأيمن، إن حُمل الأيمن على أنّه ضدّ الأيسر، فهو أيمن باعتبار أنّه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط الواقع، وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار ويريدون هذا المعنى. فيكون الأيمن يعني الغربي للجبل، أي: جهة مغرب الشمس من الطور. وهذا هو الملائم لقوله الآتي { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ } [44]

وأمّا جعله بمعنى الأيمن لموسى فلا يستقيم مع قوله تعالى { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } [طه:80] فإنّه لم يجر ذكر لموسى هناك.

ويجوز أنّه تفضيل من اليُمْن وهو البركة، فهو كوصفه بـ { الْمُقَدَّسِ } في قوله تعالى { إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً } [النازعات:16].

{ **الْبُقْعَةِ** } (بضم الباء ويجوز فتحها) هي القطعة من الأرض المتميّزة عن غيرها.

المباركة: لاختيارها لنزول الوحي على موسى.

{ **مِنَ الشَّجَرَةِ** } يجوز أن يتعلّق بفعل { نُودِيَ } فتكون الشجرة مصدر هذا النداء وتكون { مِنَ } للابتداء. أي: سمع كلاما خارجا من الشجرة.

ويجوز أن يكون ظرفا مستقرًّا نعتا ثانيا للواد أو حالا، أي: عندها، أي: البقعة التي تتصل بالشجرة.

{ **يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ** } زيادة { أَقْبِلْ } هنا، وهي تصريح بمضمون قوله { لا تَخَفْ } [النمل:10]، لأنّه لمّا أدبر خوفا من الحيّة كان النهي عن الخوف يدلّ على معنى طلب إقباله فكان الكلام هنالك إيجازا وكان هنا مساواة، تفنّنا في حكاية القصّتين.

{ **إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ** } زيادة هنا ولم يحكَ في سورة النمل وهو تأكيد لمفاد { وَلا تَخَفْ }. وفيه زيادة تحقيق أمنه بما دلّ عليه التأكيد بـ (إنّ) وجعله من جملة الآمنين.

{ **وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ** } تردّد المفسّرون في تبيين المعنى.

قيل: الجناح اليد، ولا يحسن أن يكون مجازا عن اليد لأنّه يفضي إمّا إلى تكرير مفاد قوله { اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ }، وحرف العطف مانع من احتمال التأكيد. وادعاء أن يكون التكرير لاختلاف الغرض من الأول

والثاني، كما في الكشاف بعيد. وأوّله الضحاك عن ابن عباس ومجاهد بأنّ وضع اليد على الصدر يذهب الخوف، وهو تأويل بعيد.

وحجّتهم ورود الجناح مجازا عن اليد في القرآن وغيره، وليس ذلك بقاض بحمله على ذلك المعنى حيثما وقع في القرآن.

والوجه عندي: أنّ قوله { وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ } تمثيل بحال الطائر إذا سكن عن الطيران، جُعل كناية عن سكون اضطراب الخوف. ويكون {مِنَ} هنا للبدلية، أي: اسكن سكون الطائر بدلا من أن تطير خوفا. لأنّ {الرَّهبِ} معروف أنّه الخوف كقوله تعالى { وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً } [الأنبياء:90].

والمعنى: انْكَفِفْ عن التخوّف من أمر الرسالة. وفي الكلام إيجاز وهو ما دلّ عليه قوله بعده { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [33].

{ **فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } تفريع على قوله { وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ } والإشارة إلى العصا وبياض اليد.

البرهان: الحجّة القاطعة. و{ مِنَ } للابتداء، و{ إِلَى } للانتهاء المجازي.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } تعليل، فهم يُقرعون بالبراهين بسبب تمكّن الكفر من نفوسهم حتّى كان كالجبلّة فيهم وبه قوام قوميتهم، لما يؤذن به قوله { كَانُوا }.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [33]

المعنى: أخاف أن يذكروا قتلي القبطي فيقتلوني. أراد أن يكون في أمن إلهيّ من أعدائه. فهذا تعريض بالدعاء، ومقدّمة لطلب تأييده بهارون أخيه.

{ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ } [34]

هذا سؤال صريح يدلّ على أن موسى لا يريد التنصل من التبليغ ولكنّه أراد تأييده بأخيه. وإنّما عيّنه ولم يسأل مؤيِّدا ما لعلمه بأمانته وإخلاصه لله ولأخيه وعلمه بفصاحة لسانه.

{ **رِدْءاً** } الردء بالهمز في آخره: العون. وقرأه نافع وأبو جعفر {ردا} مخفّفا.

{ **يُصَدِّقُنِي** } قرأه عاصم وحمزة بالرفع على أنّ الجملة حال من الهاء من { أَرْسِلْهُ }.

وقرأه الجمهور { يُصَدِّقْنِي } مجزوما في جواب الطلب بقوله { فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ }.

ومعنى تصديقه إيّاه أن يكون سببا في تصديق فرعون وملئه إيّاه بإبانته عن الأدلة التي يلقيها موسى في مقام مجادلة فرعون. فإسناد التصديق إلى هارون مجاز عقلي لأنّه سببه، والمصدّقون حقيقة هم الذين يحصل لهم العلم بأن موسى صادق فيما جاء به.

{ **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** } تعليل لسؤال تأييده بهارون، فهذه مخافة ثانية من التكذيب، والأولى من القتل.

{ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآياتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } [35]

استجاب الله له دعوتيه وزاده تفضُّلا بما لم يسأله؛ فاستجابة الدعوة الثانية بقوله { سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ }، واستجابة الأولى بقوله { فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا }، والتفضّل بقوله { وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً }، فأعطى موسى ما يماثل ما لهارون من المقدرة على إقامة الحجّة، إذ أن موسى سأل الله تعالى أن يَحْلُلْ عقدة من لسانه كما في [طه:27]. وقد دلّ على ذلك ما تكلّم به موسى عليه السلام من حجج في مجادلة فرعون، كما في سورة الشعراء وهنا، وما خاطب به بني إسرائيل ممّا حُكي في سورة الأعراف. ولم يحكِ في القرآن أنّ هارون تكلّم بدعوة فرعون.

الشَدُّ: الربط. جُعل الأخ هنا بمنزلة الرباط الذي يُشَدُّ به، وهو مجاز عقلي. المراد: أنّه يؤيّده بفصاحته.

السلطان: هنا مصدر بمعنى التسلُّط على القلوب والنفوس. أي: مهابة في قلوب الأعداء ورعبا منكما كما، ألقى على موسى محبّة حين التقطه آل فرعون. وتقدّم معنى السلطان حقيقة في قوله تعالى { فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً } [الإسراء:33].

{ **فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا** } تفريع على جعل السلطان. أي: لا يؤذونكما بسوء، وهو القتل ونحوه. فالوصول مستعمل مجازا في الإصابة.

{ **بِآياتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** } يجوز أن يكون { بِآياتِنَا } متعلّقا بمحذوف دلّ عليه قوله { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ } [32] تقديره: اذهبا بآياتنا. وقد صرّح بذلك في قوله تعالى {قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} [الشعراء:15].

ويجوز أن يتعلّق بـ { نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً } أي: سلطانا عليهم بآياتنا حتّى تكون رهبتهم منكما آية من آياتنا.

ويجوز أن يتعلّق بـ { لا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا } أي: يُصرفون عن أذاكم بآيات منّا.

ويجوز أن يتعلّق بـ { الْغَالِبُونَ } أي: تغلبونهم وتقهرونهم بآياتنا التي نؤيّدكما بها.

ويجوز أن تكون (الباء) حرف قسم تأكيدا لهما بأنّهما الغالبون وتثبيتا لقلوبهما.

{ **بِآياتِنَا** } وعلى الوجوه كلّها فالآيات تشمل خوارق العادات المشاهدة مثل الآيات التسع، وتشمل المعجزات الخفيّة كصرف قوم فرعون عن الإقدام على أذاهما مع ما لديهم من القوّة، وما هم عليه من العداوة بحيث لولا الصرفة من الله لأهلكوا موسى وأخاه.

ومحلّ العبرة من هذا الجزء من القصة:

*/ التنبيه إلى أنّ الرسالة فيضٌ من الله على من اصطفاه من عباده.

*/ وأنّ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كرسالة موسى جاءته بغتة فنودي محمد في غار جبل حراء كما نودي موسى في جانب جبل الطور، وأنّه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى، وأنّ الله ثبّته كما ثبّت موسى، وأن الله يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36]

طوي ما بين نداء الله إيّاه وبين حضوره عند فرعون من الأحداث لعدم تعلّق العبرة به.

{ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآياتِنَا** } أسند المجيء بالآيات إلى موسى عليه السلام وحده دون هارون لأنّه الرسول الأصلي الذي تأتي المعجزات على يديه.

الآيات البيّنات: هي خوارق العادات التي أظهرها، أي: جاءهم بها آية بعد أية في مواقع مختلفة.

{ **قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ** } قالوا ذلك عند كل آية.

المفترى: المكذوب. مكذوب في ادّعائه أنّه من عند الله، وإخفاء كونه سحرا.

{ **بِهَذَا** } الإشارة إلى ادعاء الرسالة من عند الله. أي: ما سمعنا من يدعو آباءنا إلى مثل ما تدعو إليه، فالكلام على حذف مضاف دلّ عليه حرف الظرفية، أي: في زمن آبائنا.

{ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [37]

لما تمسّكوا بعلم آبائهم تمسّك موسى بعلم الله تعالى. فقد احتجّ موسى بنفسه ولم يَكِلْ ذلك إلى هارون.

{ **رَبِّي** } عبّر عن الله بوصف الربوبية مضافا إلى ضميره للتنصيص على أنّ الذي يعلم الحقّ هو الإله الحقّ لا آلهتهم المزعومة.

{ **أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ** } إشهاد لله تعالى وكلام منصف، أي: ربي أعلم بتعيين الجائي بالهدى أنحن أم أنتم، على نحو قوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [سبأ:24].عبّر بالماضي لأنّ المجيء قد تحقّق ومضى.

{ **وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ** } تفويض إلى ما سيظهر من نصر أحد الفريقين على الآخر، وهو تعريض بالوعيد بسوء عاقبتهم. وعبّر بالمضارع لأنّ العاقبة مرجوة لمّا تظهر بعد.

{ **عَاقِبَةُ الدَّارِ** } كلمة جرت مجرى المثل في خاتمة الخير بعد المشقّة. وتقدّم في قوله تعالى { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } [الأنعام:135] ، وفي قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:22] وقوله تعالى { وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:42].

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** } تأكيد، دلالة على ثقته بأنّه على الحقّ، وذلك يفُتّ من أعضادهم، ويُلقي رعب الشك في النجاة في قلوبهم. وضمير { إِنَّهُ } ضمير الشأن، لأنّ الجملة بعده ذات معنى له شأن وخطر.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [38]

كلام فرعون المحكي هنا واقع في مقام غير مقام المحاورة مع موسى فهو كلام أقبل به على خطاب أهل مجلسه إثر المحاورة فلذلك حُكي بحرف العطف، عطف القصة على القصة.

{ **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي** } أراد بخطابه مع ملئه أن يثبتهم على عقيدة إلهيّته إبطالا لقول موسى المحكي في قوله تعالى { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [الشعراء:26]، وقوله تعالى { قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ } [الشعراء:24].

والمقصود نفي وجود الإله الذي أثبته موسى وهو خالق الجميع. وأمّا آلهتهم التي يزعمونها فإنّها ممّا تقتضيه إلهية فرعون، لأنّ فرعون عندهم هو مظهر الآلهة المزعومة عندهم لأنّه في اعتقادهم ابن الآلهة.

{ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى** }

أراد أن يظهر لقومه في مظهر المتطلّب للحقّ المستقصي للعوالم حتّى إذا أخبر قومه بعد ذلك بأنّ نتيجة بحثه أسفرت عن كذب موسى ازدادوا ثقة ببطلان قول موسى عليه السلام.

{ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ** } أراد أن يأمر { هَامَانُ } العملة أن يطبخوا الطين ليكون آجُرًّا ويبنوا به. فكُنِّي عن البناء بمقدّماته وهي إيقاد الأفران لتجفيف الطين. وإسناد الإيقاد على الطين إلى هامان مجاز عقلي باعتبار أنّه الذي يأمر بذلك. و{ **هَامَانُ** } لقب أو اسم لوزير فرعون كما تقدّم آنفا.

الصرح: القصر المرتفع، وقد تقدّم عند قوله تعالى { **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ** } [النمل:44].
الاطلاع: الطلوع القوي المتكلّف لصعوبته.
{ **وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** } استعمل الظنّ بمعنى القطع.
ولم يذكر القرآن أنّ هذا الصرح بني. واختلف المفسّرون هل وقع بناء هذا الصرح وتم أو لم يقع، فحكى بعضهم أنّه تم وصعد فرعون إلى أعلاه ونزل وزعم أنّه قتل رب موسى. وحكى بعضهم أنّ الصرح سقط قبل إتمام بنائه فأهلك خلقا كثيرا من عملة البناء والجند. وحكى بعضهم أنّه لم يشرع في بنائه. وقد لاح لي في معنى الآية وجه آخر سأذكره إن شاء الله في سورة غافر.

{ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ } [39]

الاستكبار: أشدّ من الكبر، أي: تكبّر تكبّرا شديدا إذ طمع في الوصول إلى الربّ العظيم.
{ **جُنُودُهُ** } أتباعه. واستكبار جنوده تبع لاستكباره لأنّهم يتّبعونه ويتلقّون ما يمليه عليهم من العقائد.
{ **فِي الْأَرْضِ** } الراجح أن يراد بها المعهودة، أي: أرض مصر.
{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } حالة لازمة لعاملها إذ لا يكون الاستكبار إلّا بغير الحقّ.
{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ** } معلوم بالفحوى من كفرهم بالله، وإنّما صرّح به لأهمية إبطاله، ولأنّ في التصريح به تعريضا بالمشركين في أنّهم وإيّاهم سواء فليضعوا أنفسهم في أيّ مقام من مقامات أهل الكفر.
وقد كان أبو جهل يلقّب عند المسلمين بفرعون هذه الأمّة أخذا من تعريضات القرآن.
أي: ظنّوا أن لا بعث ولا رجوع . ويجوز أن يكون المعنى: وظنّوا أنّهم في منعة من أن يرجعوا في قبضة قدرتنا.

{ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [40]

أي ظنّوا أنّهم لا يرجعون إلينا فعجّلنا بهلاكهم، فإنّ ذلك من الرجوع إلى الله لأنّه رجوع إلى حكمه وعقابه، ويعقبه رجوع أرواحهم إلى عقابه، فلهذا فُرّع على ظنّهم ذلك الإعلامُ بأنّه أُخِذ وجنوده، وجعل هذا التفريع كالاعتراض بين حكاية أحوالهم.
{ **فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ** } يتضمّن استعارة مكنية: شُبِّه وجنوده بحَصَيّات أخذهنّ في كفه فطرحهن في البحر.
ويجوز أن يُجعل جميع ذلك استعارة تمثيلية كما لا يخفى.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** } اعتبار بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر وظلمهم الرسول بالاستكبار عن سماع دعوتهم.

وهذا موضع العبرة من سوق هذه القصة ليعتبر بها المشركون فيقيسوا حال دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بحال دعوة موسى عليه السلام، ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، فيوقنوا بأنّ ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة. وهذا من جملة محلّ العبرة بهذا الجزء من القصة، ابتداء من قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ } [36]، ليعتبر الناس بأنّ شأن أهل الضلالة واحد، فإنّهم يتلقّون دعاة الخير بالإعراض والاستكبار واختلاق المعاذير؛

فكما قال فرعون وقومه {مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36] قالت قريش { بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } [الأنبياء:5]، وقالوا { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } [ص:7]، أي: التي أدركناها.

وكما طمع فرعون أن يبلغ إلى الله استكبارا منه في الأرض سأل المشركون { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً } [الفرقان:21].

وكما ظنّ فرعون وقومه أنّهم لا يرجعون ظنّوا المشركون مثل ظنّهم.

فيوشك، نتيجة كلّ ذلك، أن يصيبهم من الاستئصال ما أصاب أولئك.

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ } [41]

أي جعلناه وجنوده أئمة للضلالة المفضية إلى النار، فكأنّهم يدعون إلى النار؛ فدعوة فرعون أمرُه، ودعوة كهنته باختراع قواعد الضلالة وأوهامها، ودعوة جنوده، بتنفيذ ذلك والانتصار له.

الأئمة: جمع إمام وهو من يُقتدى به في عمل من خير أو شرّ، قال تعالى { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } [الأنبياء:73].

والدعاء إلى النار هو الدعاء إلى العمل الذي يوقع في النار، فهي دعوة إلى النار بالمآل.

{ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ** } إذا كانوا في الدنيا يعتزّون بما لديهم من اتباع وجند فإنّهم يوم القيامة لا يجدون من ينصرهم فيدفع عنهم العذاب.

{ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ } [42]

إتباعهم باللعنة في الدنيا جعلُ اللعنة ملازمة لهم في علم الله تعالى، فقدّر لهم هلاكا لا رحمة فيه، فعبّر عن تلك الملازمة بالإتباع على وجه الاستعارة، لأنّ التابع لا يفارق متبوعه، وكانت النار عاقبتهم.

ويجوز أن يراد باللعنة في الدنيا لعن الناس إيّاهم، يعني أنّ أهل الإيمان يلعنونهم.

{ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ** } المقبوح المشتوم بكلمة: قُبِّح، أي: قبَّحه الله أو الناس، أي: جعْله مذموما.

{ **هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ** } جيء بالجملة الاسمية المقتضية الدوام والثبات لأنّ تقبيح حالهم يوم القيامة ملازم لهم.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [43]

إتمام لتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة موسى عليه السلام في أنّها جاءت بعد فترة طويلة لا رسالة فيها. فإذا كان المشركون يحاولون بقولهم { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36] إبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعلّة تأخّرها فإنّ دليلهم مقدوح فيه بقادح القلب بأنّ الرسل قد جاءوا إلى الأمم من قبل ثم جاء موسى بعد فترة من الرسل.

وقد كان المشركون لمّا بهرهم أمر الإسلام لاذوا باليهود يسترشدونهم في طرق المجادلة الدينية فكان المشركون يخلطون ما يلقّنهم اليهود من المغالطات بما استقر في نفوسهم من تضليل أمّة الشرك فيأتون بكلام يلعن بعضه بعضا، فمرّة يقولون { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36]، وهو من مجادلات الأميين، ومرّة يقولون { لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [48]، وهو تلقين اليهود، ومرّة يقولون { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91]، فكان القرآن يدمغ باطلهم بحجّة الحق بإلزامهم تناقض مقالاتهم.

والجملة تخلّص من قصة بعثة موسى عليه السلام إلى تأييد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد أعرض القرآن عن بيان حكمة الفتر التي تسبق إرسال الرسل، واقتصر على بيان الحكمة في الإرسال عقبها لأنّه المهمّ في مقام نقض حجّة المبطلين للرسالة.

{ **الْكِتَابَ** } التوراة التي خاطب الله بها موسى عليه السلام.

البصائر: جمع بصيرة، وهي إدراك العقل، سُمِّي بصيرة اشتقاقا من بصر العين.

وجعل الكتاب بصائر باعتبار عدّة دلائله وكثرة بيّناته، كما في قوله تعالى { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ } [الإسراء: 102].

{ **الْقُرُونَ الْأُولَى** } قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط.

القرن: الأمّة، قال تعالى { كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [الأنعام:6]. وفي الحديث: **" خير القرون قرني".**

{ **لِلنَّاسِ** } هم الذين أُرسل إليهم موسى من بني إسرائيل وقوم فرعون، ولمن يريد أن يهتدي بهديه مثل الذين تهوّدوا من عرب اليمن.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً** } لهم، ولمن يقتبس منهم، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44].
ومن جملة ما تشتمل عليه التوراة تحذيرها من عبادة الأصنام.
{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } الضمير عائد إلى الناس الذين خوطبوا بالتوراة. وفيه تعريض بالمشركين، فكأنّه يخاطبهم: فكذلك إرسال محمد لكم هدى ورحمة لعلكم تتذكّرون.

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [44]

لما بطلت شبهتهم التي حاولوا بها إحالة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم نقل الكلام إلى إثبات رسالته بالحجّة الدامغة، وذلك بما أعلمه الله به من أخبار رسالة موسى ممّا لا قبل له بعلمه لولا أنّ ذلك وحي إليه من الله تعالى. فهذا تخلّص من الاعتبار بدلالة الالتزام في قصة موسى إلى الصريح من إثبات نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.
{ **وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ** } نفي لوجوده هناك وحضوره، لذا تعين أن المراد من الشاهدين أهل الشهادة، أي: الخبر اليقين، وهم علماء بني إسرائيل لأنّهم الذين أشهدهم الله على التوراة وما فيها، ألا ترى أنّه ذمّهم بكتمهم بعض ما تتضمنه التوراة من البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة:140].
والمعنى: ما كنت من أهل ذلك الزمن ولا ممّن تلقّى أخبار ذلك بالخبر اليقين المتواتر من كتبهم يومئذ فتعيّن أنّ طريق علمك بذلك وحي الله تعالى.
{ **بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ** } هو من إضافة الموصوف إلى صفته، وأصله بالجانب الغربي. وهو الذي ذكر آنفا بوصف { شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ } [30]، أي: على بيت القبلة.
{ **إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ** } هو أمر النبوة لموسى، إذ تلقاها موسى.

{ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [45]

{ **وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** } استدراك متّصل بقوله { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى } [43] وإن ما بين ذلك وبين هذا استطراد. وبيانه أنّ الآية [43] مسوقة مساق إبطال تعجّب المشركين من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حين لم يسبقها رسالة رسول إلى آبائهم الأوّلين، كما علمت ممّا تقدّم آنفا، فذكّرهم بأنّ الله أرسل موسى كذلك بعد فترة عظيمة، وأنّ الذين أُرسل إليهم موسى

أثاروا مثل هذه الشبهة فقالوا { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36]، فكما كانت رسالة موسى عليه السلام بعد فترة من الرسل كذلك كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فالمعنى: فكان المشركون حقيقيين بأن ينظِّروا رسالة محمد برسالة موسى، ولكن الله أنشأ قرونا (أي: أمما بين زمن موسى وزمنهم) فتطاول الزمن فنسي المشركون رسالة موسى فقالوا { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } [ص:7]. كما قال تعالى عن اليهود حين صاروا يحرّفون الكلم عن مواضعه { وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ } [المائدة:13]، وقال عن النصارى { أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ } [المائدة:14].

{ **عَلَيْهِمُ** } ضمير الجمع عائد إلى المشركين لا إلى القرون.

{ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ }

هذا تكرير للدليل بمثل آخر مثل ما في قوله { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ } أي: ما كنت مع موسى في وقت التكليم ولا كنت من أهل مدين إذ جاءهم موسى وحدث بينه وبين شعيب ما قصصنا عليك.

الثواء: الإقامة.

{ **عَلَيْهِمْ** } عائد إلى المشركين من أهل مكّة لا إلى أهل مدين لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يتلو آيات الله على المشركين.

{ **آيَاتِنَا** } الآيات المتضمّنة قصّة موسى في أهل مدين من قوله { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ - إلى قوله - فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [22-29].

{ **وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** } استدراك، أي: ما كنت حاضرا في أهل مدين فتعلم خبر موسى عن معاينة ولكنّا كنا مُرسلينك بوحينا فعلّمناك ما لم تكن تعلمه أنت ولا قومك من قبل هذا.

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [46]

جانب الطور: هو الجانب الغربي، وهو الجانب الأيمن المتقدّم وصفه بذلك الوصفين.

{ **نَادَيْنَا** } حذف مفعول النداء لظهور أنّه نداء موسى من قبل الله تعالى، وهو النداء لميقات أربعين ليلة وإنزال ألواح التوراة عقب تلك المناجاة، كما حُكي في [الأعراف:142] وكان ذلك في جانب الطور إذ كان بنو إسرائيل حول الطور كما في قوله تعالى { يَا بَنِي إِسْرائيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } [طه:80]، وهو نفس المكان الذي نودي فيه موسى للمرّة الأولى في رجوعه من ديار مدين كما تقدّم، فهذا النداء غير النداء الذي في قوله { فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن - إلى قوله - أَنْ يَا

مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ } [30]. وهذا الاحتجاج بما علمه النبيّ صلى الله عليه وسلم من خبر استدعاء موسى عليه السلام للمناجاة. وتلك القصة لم تذكر في هذه السورة وإنّما ذكرت في سورة أخرى مثل سورة الأعراف.

{ **وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } { لَكِنْ } هنا لمجرّد الاستدراك . والواو اعتراضية. والاستدراك ناشئ عن دلالة قوله { وما كنت بجانب الطور}. على معنى: ما كان علمك بذلك لحضورك، ولكن كان علمك رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك.

{ **لِتُنْذِرَ قَوْماً** } اللام للتعليل. و**القوم**: قريش والعرب، فهم المخاطبون ابتداء بالدين.

{ **مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ** } وقريش والعرب لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وأمّا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلة قريش موجودة يومئذ ولا قبائل العرب العدنانية، لأنّ اشتقاق نسب قريش كان من عدنان وعدنان بينه وبين إسماعيل قرون كثيرة. وأمّا القحطانية فلم يرسل إليهم إبراهيم.

وإنّما اقتصر على قريش أو على العرب دون سائر الأمم التي بُعث إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنّ المنّة عليهم أوفى إذ لم تسبق لهم شريعة من قبل فكان نظامهم مختلّا غير مشوب بإثارة من شريعة معصومة، فكانوا في ضرورة إلى إرسال نذير.

وليس في الكلام ما يقتضي تخصيص النذارة بهم ولا ما يقتضي أنّ غيرهم ممّن أنذرهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يأتهم نذير من قبله مثل اليهود والنصارى وأهل مدين.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } تقدّم آنفا نظيرها.

التذكّر: هو النظر العقلي في الأسباب التي دعت إلى حكمة إنذارهم، وهي تناهي ضلالهم فوق جميع الأمم الضالة إذ جمعوا إلى الإشراك مفاسد جمّة من قتل النفوس، وارتزاق بالغارات وبالمقامرة، واختلاط الأنساب، وانتهاك الأعراض. فوجب تذكيرهم بما فيه صلاح حالهم.

{ وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [47]

هذا متّصل بقوله تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [46]، لأنّ الإنذار يكون بين يدي عذاب.

{ **لَوْلا** } الأولى حرف امتناع لوجود، أي: انتفاء جوابها لأجل وجود شرطها. والتقدير هنا: ولولا إصابتهم بمصيبة يعقبها قولهم { رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ ... } لما عبأنا بإرسالك إليهم لأنّهم أهل عناد وتصميم على الكفر.

وجواب { لَوْلا } محذوف دلّ عليه الكلام السابق، أي: لولا الرحمة بهم بتذكيرهم وإنذارهم لكانوا مستحقّين حلول المصيبة بهم.

{ **لَوْلا** } الثانية حرف تحضيض، أي: أرسلت إلينا قبل أن تأخذنا بعذاب فتصلح أحوالنا.

{ **تُصِيبَهُمْ** } الضمير عائد إلى القوم الذين لم يأتهم نذير من قبل.

المصيبة: ما يصيب الإنسان، أي: يحلّ به من الأحوال، وغلب اختصاصها بما يحل بالمرء من العقوبة والأذى.

{ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** } ما سلف من الشرك. الباء للسببية، أي: عقوبة كان سببها ما سبق على أعمالهم السيئة. والمراد بها هنا عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه، وتقدّم عند قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } [النساء:62]. وهي ما يجترحونه من الأعمال الفاحشة.

الأيدي: مستعار للعقول المكتسبة لعقائد الكفر. فشبَّه الاعتقاد القلبي بفعل اليد تشبيه معقول بمحسوس.

وهذه الآية تقتضي أنّ المشركين يستحقّون العقاب بالمصائب في الدنيا ولو لم يأتهم رسول، لأنّ أدلة وحدانية الله مستقرّة في الفطرة ومع ذلك فإنّ رحمة الله أدركتهم فلم يصبهم بالمصائب حتّى أرسل إليهم رسولا.

فالمشركون الذين انقرضوا قبل البعثة المحمّدية مؤاخذون بشركهم ومعاقبون عليه في الآخرة ولو شاء الله لعاقبهم عليه بالدنيا بالاستئصال ولكن الله أمهلهم، والمشركون الذين جاءتهم الرسل ولم يصدّقوهم مستحقّون عذاب الدنيا زيادة على عذاب الآخرة، قال تعالى { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: 21].

{ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ } [48]

الفاء فصيحة. لمّا بهرتهم آيات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجدوا من المعاذير إلّا ما لقّنهم اليهود وهو أن يقولوا { لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى }، أي: بأن تكون آياته مثل آيات موسى التي يقصّها عليهم اليهود، وقصّ بعضها القرآن. وإثبات المجيء إليهم استعارة بتشبيه سماع الحق بمجيء الشخص، أو هو مجاز عقلي وإنّما الجائي الرسول الذي يبلّغه عن الله، فعبّر عنه بالحقّ لإدماج الثناء عليه في ضمن الكلام.

{ **الْحَقُّ** } هو ما في القرآن من الهدى.

{ **يَكْفُرُوا** } الضمير عائد إلى القوم من قوله { لِتُنْذِرَ قَوْماً }[46] لتتناسق الضمائر من قوله تعالى { وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ } [47] وما بعده من الضمائر أمثاله. فيشكل عليه أنّ الذين كفروا بما أوتي موسى هو قوم فرعون

دون مشركي العرب، فقال بعض المفسّرين هذا من إلزام المماثل بفعل مثيله لأنّ الإشراك يجمع الفريقين فتكون أصول تفكيرهم واحدة ويتّحد بهتانهم، فإنّ القبط أقدم منهم في دين الشرك فهم أصولهم فيه والفرع يتبع أصله ويقول بقوله، أي: متماثلون في سبب الكفر والطغيان.

{ **قَالُوا سِحْرَانِ** } كذا في قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف على أنّه من الإخبار بالمصدر للمبالغة، أي: قالوا: هما ذوا سحر، وقرأ الجمهور { سِاحِرَانِ } تثنية ساحر.

من قول مشركي مكة في موسى وهارون لمّا سمعوا قصتهما، أو في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهو الأظهر وهو الذي يلتئم مع قوله تعالى بعده { وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا } [48-49].

التظاهر: التعاون.

{ **بِكُلٍّ** } التنوين عوض عن المضاف إليه فيقدر المضاف إليه.

{ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [49] فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [50] }.

{ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** } أي: أجب كلامهم المحكي من قولهم { سِحْرَانِ - وقولهم - إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ } [48]. وفي الكلام ادماج لمدح القرآن والتوراة بأنّهما كتابان من عند الله.

والمراد بالتوراة ما اشتملت عليه الأسفار الأربعة المنسوبة إلى موسى عليه السلام من كلام الله إلى موسى، أو من اسناد موسى أمرا إلى الله، لا كلّ ما اشتملت عليه تلك الأسفار، فإنّ فيها قصصا وحوادث ما هي من كلام الله. فيقال للمصحف هو كلام الله بالتحقيق ولا يقال لأسفار العهدين كلام الله إلّا على التغليب.

{ **أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } جواب { فَأْتُوا } أي إن تأتوا به أتّبعه، وهو مبالغة في التعجيز، وذلك ممّا يوفّر دواعيهم على المحاولة فإن لم يفعلوا فقد حقّ عليهم الحقّ ووجبت عليهم المغلوبية، فكان ذلك أدلّ على عجزهم وأثبت في إعجاز القرآن.

{ **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ** } أي: إن لم يستجيبوا لدعوتك فاعلم أنّ استمرارهم على الكفر بعد ذلك ما هو إلّا اتّباع للهوى. ويجوز أن يراد بعدم الاستجابة عدم الإتيان بكتاب أهدى من القرآن.

{ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ** } تذييل عجيب وهو أنّه لا أحد أشدّ ضلالا من أحد اتبع هواه المنافي لهدى الله. وهو كقوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة:140].

ووجه كونه لا أضلّ منه أنّ الضلال في الأصل خطأ الطريق وأنّه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقّة أو الخطر أو الهلاك بالكلية، على حسب تفاوت شدة الضلال. وإتباع الهوى مع إلغاء أعمال النظر ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضرّ بدون تحديد ولا انحصار. فلا جرم يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشدّ الضلال، فصاحبه أشدّ الضالين ضلالا.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تمام التذييل، إذ فيه تعيين هذا الفريق المبهم الذي هو أشد الضالين ضلالا فإنّه الفريق الذين كانوا قوما ظالمين، أي: كان الظلم شأنهم وقوام قوميّتهم ولذلك عبّر عنهم بـ { الْقَوْمَ }.

{ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [51]

عطف على جملة { وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ - إلى قوله - لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} [47-48].

{ **وَلَقَدْ** } الـ (لام) و(قد) كلاهما للتأكيد ردّا عليهم إذ جهلوا حكمة تنجيم نزول القرآن، وذُكرت لهم حكمة تنجيمه هنا بما يرجع إلى فائدتهم بقوله { **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } .

التوصيل: مبالغة في الوصل، وهو ضمُّ بعض الشيء إلى بعض يقال: وصل الحبل إذا ضمّ قطعه بعضها إلى بعض فصار حبلا.

{ **الْقَوْلَ** } المراد به القرآن قال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ } [الطارق:13] وقال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [الحاقة:40]، فالتعريف للعهد، أي: القول المعهود. وللتوصيل أحوال كثيرة فهو:

*/ <u>باعتبار ألفاظه</u> وصل بعضه ببعض ولم ينزل جملة واحدة.

*/ <u>باعتبار معاينة</u> وصل أصنافا من الكلام: وعداً، ووعيداً، وترغيباً، وترهيباً، وقصصاً ومواعظ وعبراً، ونصائح يعقب بعضها بعضا، وينتقل من فنّ إلى فنّ، وفي كلّ ذلك عون على نشاط الذهن للتذكّر والتدبّر.

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ [52] وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [53] }.

لمّا أفْهَم قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [51] أنّهم لم يفعلوا ولم يكونوا عند رجاء الراجي عقَّب ذلك بهذه الجملة المستأنفة استئنافا بيانيا لأنّها جواب لسؤال من يسأل هل تذكّر غيرهم بالقرآن؟ أو استوى الناس في عدم التذكّر به؟ فأجيب بأنّ الذين أوتوا الكتاب من قبل نزول القرآن يؤمنون به إيمانا ثابتا.

{ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ** } المراد طائفة معهودة من أهل الكتاب شهد الله لهم بأنّهم يؤمنون بالقرآن ويتدبّرونه، وهم بعض النصارى ممّن كان بمكة مثل ورقة بن نوفل، وصهيب، وبعض يهود المدينة مثل عبد

الله بن سلام ورفاعة بن رفاعة القرظي، ممّن بلغته دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر النبيّ إلى المدينة فلمّا هاجر أظهروا إسلامهم.
وقيل: أريد بهم وفد من نصارى الحبشة اثنا عشر رجلا بعثهم النجاشي لاستعلام أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فجلسوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فآمنوا به.
{ **مِنْ قَبْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن.
{ **هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوّي الخبر. وضمير الفصل مقيّد للقصر الإضافي، أي: هم يوقنون بخلاف هؤلاء الذين وصّلنا لهم القول. والمضارع للدلالة على استمرار إيمانهم وتجدّده.
{ **قَالُوا آمَنَّا بِهِ** } حكاية إيمانهم بصيغة الماضي، مع أنّهم يقولون ذلك عند أوّل سماعهم القرآن، الراجح أنّه للإشارة إلى أنّهم آمنوا به من قبل نزوله، أي: آمنوا بأنّه سيجيء رسول بكتاب مصدّق لما بين يديه، يعني إيمانا إجماليا يعقبه إيمان تفصيلي عند سماع آياته. وينظر إلى هذا المعنى قوله { **إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** }، أي مصدّقين بمجيء رسول الإسلام. ويجوز أن يراد موحّدين مصدّقين بالرسل، فإنّ التوحيد هو الإسلام، كما قال إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132].
{ **إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا** } في موقع التعليل لجملة {آمَنَّا بِهِ }.

{ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [54] وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [55] }.

{ **أُولَئِكَ** } التعبير عنهم باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي ذكرت قبله. وعدّ الله لهم **سبع خصال** من خصال أهل الكمال:
إحداها: أخروية، وهي { **يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ** } أي: أنّهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي: يضاعف لهم الثواب لأجل أنّهم آمنوا بكتابهم من قبل ثم آمنوا بالقرآن. وفي الصحيح عن أبي موسى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وأدركني فآمن بي واتّبعني وصدّقني فله أجران، وعبد مملوك أدّى حقّ الله تعالى وحقّ سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذّاها فأحسن غِذاءها ثم أدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران ".**
الثانية: الصبر، والصبر من أعظم خصال البرّ وأجمعها للمبرّات، وأعونها على الزيادة. والمراد بالصبر صبرهم على أذى أهل ملّتهم أو صبرهم على أذى قريش.

الثالثة: درؤهم السيّئة بالحسنة هي من أعظم خصال الخير وأدعاها إلى حُسن المعاشرة، قال تعالى { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34].

الرابعة: لعلّهم كانوا ينفقون على فقراء المسلمين بمكّة. ولا يخفى ما في هذه الخصلة من البرّ.

الخامسة: الإعراض عن اللغو، وهو الكلام العبث الذي لا فائدة فيه، وهذا الخُلُق من مظاهر الحكمة، إذ لا ينبغي للعاقل أن يشغل سمعه ولبّه بما لا جدوى له، وبالأولى يتنزّه عن أن يصدر منه ذلك.

السادسة: الكلام الفصل وهو قولهم { **لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ** } وهذا من أحسن ما يجاب السفهاء، وهو أقرب لإصلاحهم وأسلم من تزايد سفههم.

{ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ** } سلام المتاركة المكنَّى بها عن الموادعة. أي: لا نعود لمخاطبتكم.

قال الحسن: كلمة: السلام عليكم، تحيّة بين المؤمنين، وعلامة الاحتمال من الجاهلين.

السابعة: ما أفصح عنه قولهم { **لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** } أي: أنّهم يتطلّبون العلم ومكارم الأخلاق. والجملة تعليل للمتاركة، أي: لأنّا لا نحب مخالطة أهل الجهالة بالله وبدين الحق وأهل خلق الجهل، الذي هو ضد الحلم.

{ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** } [56]

لمّا ذكر معاذير المشركين وكفرهم بالقرآن، وأعلم رسوله أنّهم يتّبعون أهواءهم وأنّهم مجرّدون عن هدى الله، ثمّ أثنى على فريق من أهل الكتاب أنّهم يؤمنون بالقرآن، وكان يحزن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يُعرض قريش، وهم أخصُّ الناس به، عن دعوته أقبل الله على خطاب نبيّه صلى الله عليه وسلم بما يسلّي نفسه ويزيل كمده بأن ذكَّره بأنّ الهدى بيد الله. وهو كناية عن الأمر بالتفويض في ذلك إلى الله تعالى.

والجملة استئناف ابتدائي، وافتتاحها بحرف التوكيد (إنّ) اهتمام باستدعاء إقبال النبيّ عليه الصلاة والسلام.

{ **أَحْبَبْتَ** } المفعول محذوف دّل عليه { لا تَهْدِي } والتقدير: من أحببت هديه أو اهتداءه.

وقد تضافرت الروايات على أنّ المراد بذلك أبا طالب عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أغتم لموته على غير الإسلام كما في الأحاديث الصحيحة. قال الزجاج: أجمع المسلمون أنّها نزلت في أبي طالب. قال القرطبي: وهو نصّ حديث البخاري ومسلم، وقد تقدّم ذلك في براءة.

وهذا من العام النازل على سبب خاص فيعمّه وغيره، وهو يقتضي أن تكون هذه السورة نزلت عقب موت أبي طالب، وكانت وفاة أبي طالب سنة ثلاث قبل الهجرة، أو كان وضعها هنا بتوقيف خاص.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } مفعول فعل المشيئة محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: من يشاء اهتداءه.

والمشيئة تعرف بحصول الاهتداء وتتوقف على ما سبق من علمه وتقديره.

{ **وهو أعلم بالمهتدين** } إيماء إلى ذلك، أي: هو أعلم بالمهتدين في أحوالهم ومقادير استعدادهم على حسب

ما تهيأت إليه فطرهم من صحيح النظر وقبول الخير واتقاء العاقبة والانفعال لما يُلقى إليها من الدعوة ودلائلها. ولكلّ ذلك حال ومدى.

{ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [57]

هذه بعض معاذيرهم قالها فريق منهم ممّن غلبه الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب، وغلبه إلف ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق، فاعتذروا بهذه المعذرة.

روي عن ابن عباس أنّ الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وناسا من قريش جاؤوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال الحارث: " إنّا لنعلم أنّ قولك حق ولكنّا نخاف إن اتّبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن يتخطّفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنّما نحن أكلة رأس ". (أي: أنَّ جمْعنا يُشبعه الرأس الواحد من الإبل، وهذه الكلمة كناية عن القلّة).

التخطّف: مبالغة في الخطف، وهو انتزاع شيء بسرعة، وتقدّم في قوله تعالى { تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ } [الأنفال: 26].

{ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً } ردّ الله عليهم بأنّ قريشا مع قلّتهم عَدًّا وعُدَّة أتاح الله لهم بلدا هو حرم آمن يكونون فيه آمنين من العدو على كثرة قبائل العرب واشتغالهم بالغارة على جيرتهم، وجبى إليهم ثمرات كثيرة قرونا طويلة، فلو اعتبروا لعلموا أنّ لهم منْعة ربّانية وأنّ الله الذي أمَّنهم في القرون الخالية يؤمِّنهم إن استجابوا لله ورسوله. والاستفهام إنكار أن يكون الله لم يمكّن لهم حرما. ووجه الإنكار أنهم نُزِّلوا منزلة من ينفي أنّ ذلك الحرم من تمكين الله. وهذا الإنكار يقتضي توبيخا.

التمكين: الجعل في مكان، وتقدّم في قوله تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام: 6]، وقوله في أوّل هذه السورة { وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ] [6]. واستعمل هنا مجازا في الإعداد والتيسير.

الجبي: الجمع والجلب ومنه جباية الخراج.

{ كُلُّ شَيْءٍ } عام في كلّ ذي ثمرة، وهو عموم عرفي، أي: ثمر كلّ شيء من الأشياء المثمرة المعروفة في بلادهم والمجاورة لهم، أو استعمل { كُلُّ } في معنى الكثرة.

{ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا } حال من { ثَمَرَاتُ }، أي: من عندنا، والعندية مجاز في التكريم والبركة.

وقد حصل في خلال الرد إدماج للامتنان عليهم بهذه النعمة ليحصل لهم وازعان عن الكفر بالنعم: وازع إبطال معذرتهم عن الكفر، ووازع التذكير بنعمة المكفور به.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك متعلّق بالكلام المسوق مساق الردّ على قولهم { إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} إذ التقدير: أنّ تلك نعمة ربّانية ولكن أكثرهم لا علم لهم.

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } [58]

عطف على جملة { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً } [57] باعتبار ما تضمّنته من الإنكار والتوبيخ، فإنّ ذلك يقتضي التعرّض للانتقام شأن الأمم التي كفرت بنعم الله، فهو تخويف لقريش من سوء عاقبة أقوام كانوا في مثل حالهم من الأمن والرزق فغمطوا النعمة وقابلوها بالبطر.

البطر: التكبّر. وفعله قاصر من باب فرح. وضمّن الفعل معنى (كفرت) لأنّ البطر، وهو التكبر، يستلزم عدم الاعتراف بما يُسدى إليه من الخير. أي: كفرت نعمة عيشها.

المعيشة: هنا اسم مصدر بمعنى العيش والمراد حالته، فهو على حذف مضاف دلّ عليه المقام، ويعلم أنّها حالة حسنة من قوله { بَطِرَتْ }، وهي حالة الأمن والرزق.

{ **لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ** } خبر عن اسم الإشارة. والتقدير: فمساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلا.

السكنى: الحلول في البيت ونحوه.

والمعنى: لم يتركوا فيها خلفا لهم. كناية عن انقراضهم عن بكرة أبيهم.

{ **إِلَّا قَلِيلاً** } احتراس. أي: إلّا إقامة المارين بها المعتبرين بهلاك أهلها.

السكن القليل: هو مطلق الحلول بغير نيّة إطالة، فهي إلمام لا سكنى. أي: أن الله قدر بقاءها خالية لتبقى عبرة وموعظة بعذاب الله في الدنيا. فإطلاق السكنى على ذلك مشاكلة ليتأتّى الاستثناء.

وبهذه الآية يظهر تأويل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين مر في طريقه إلى تبوك بحجر ثمود فقال: **" لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبك مثل ما أصابهم إلّا أن تكونوا باكين"**.

{ **وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** } قصر إرث تلك المساكن على الله تعالى حقيقي، أي: لا يرثها غيرنا. وهو كناية عن حرمان تلك المساكن من الساكن. وتلك الكناية رمز إلى شدّة غضب الله تعالى على أهلها الأوّلين بحيث تجاوز غضبه الساكنين إلى نفس المساكن فعاقبها بالحرمان من بهجة المساكن، لأن بهجتها سكّانها.

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [59]

أعقب الاعتبار بالقرى المُهْلَكة ببيان أشراط هلاكها وسببه، استقصاء للإعذار لمشركي العرب، فبيّن لهم أن ليس من عادة الله تعالى أن يهلك القرى حتّى يبعث رسولا في القرية الكبرى منها، لأنّ القرية الكبرى هي مهبط أهل القرى والبوادي المجاورة لها فلا تخفى دعوة الرسول فيها، ولأنّ أهلها قدوة لغيرهم.

{ **وَمَا كَانَ** } من صيغ الجحود يفيد رسوخ هذه العادة واطّرادها، كما تقدّم في نظائره منها قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ } [آل عمران:79] وقوله تعالى { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ } [يونس:37].

{ **رَبُّكَ** } إسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّ المقصود بهذا الإنذار هم أمّة محمد الذين كذّبوا، فالخطاب للنبيّ عليه السلام لهذا المقصد.

{ **الْقُرَى** } هي المنازل لجماعات من الناس ذوات البيوت المبنيّة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } [البقرة:58]. وخُصَّت بالذكر لأنّ العبرة بها أظهر، لأنّها إذا أُهْلِكت بقيت آثارها وأطلالها ولم ينقطع خبرها من الأجيال الآتية بعدها. وقرى بلاد العرب كثيرة مثل مكّة وجدّة ومنى والطائف ويثرب وما حولها من القرى، وكذلك قرى اليمن وقرى البحرين.

{ **أُمِّهَا** } أم القرى هي القرية العظيمة منها. وكانت مكّة أعظم بلاد العرب شهرة وأذكرها بينهم وأكثرها مارة وزوارا لمكان الكعبة فيها والحجّ لها.

{ **عليهم** } الضمير عائد إلى المعلوم من القرى وهو أهلها كقوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } [يوسف:82]، ومنه أيضا قوله تعالى { فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ } [العلق:14].

{ **آيَاتِنَا** } التفات إلى ضمير المتكلّم للإشارة إلى أنّ الآيات من عند الله وأنّ الدين دين الله.

{ **وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** } بيّن سبب الإهلاك. أي: ما كان من عادتنا أن نهلك أهل القرى بالإشراك، فالإشراك سبب الإهلاك وإرسال رسول شرطه، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول.

{ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ } [60]

لمّا ذكّرهم الله بنعمه عليهم تذكيرا أُدْمِج في خلال الردّ على قولهم { إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} [57] بقوله { يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا } [57] أعقبه بأنّ كلّ ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأمّا ما عند الله من نعيم الآخرة خير من

ذلك وأبقى، لئلّا يحسبوا أنّ ما هم فيه من الأمن والرزق هو الغاية المطلوبة فلا يتطلّبوا ما به تحصيل النعيم العظيم الأبدي، وتحصيله بالإيمان. هذا وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها.

{ **وَمَا أُوتِيتُمْ** } التفت الكلام من الغيبة من قوله { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً} إلى الخطاب لأنّ ما تقدّم من الكلام أوجب توجيه التوبيخ المباشرة إليهم.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان، والمراد المنافع، كما دلّ عليه المقام، لأنّ الإيتاء شائع في إعطاء ما ينفع.

المتاع: ما يُنتفع به زمنا ثم يزول.

الزينة: ما يحسِّن الأجسام.

{ **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } المراد: أنّ أجناس الآخرة خير ممّا أوتوه في كمال أجناسها، وأمّا كونه أبقى فهو بمعنى الخلود.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } تفريع، استفهام توبيخي وتقريري على عدم عقل المخاطبين، لأنّهم لمّا لم يستدلوا بعقولهم على طريق الخير نزلوا منزلة من أفسد عقله.

{ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [61]

أحسب أن موقع (فاء) التفريع هنا أنّ ممّا أومأ إليه قوله { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [60] ما كان المشركون يتبجّحون به على المسلمين من وفرة الأموال ونعيم الترف في حين كان معظم المسلمين فقراء ضعفاء، قال تعالى { وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } [المطففين:31] أي: منعَّمين، وقال { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

فلمّا أنبأهم الله بأنّ ما هم فيه من الترف إن هو إلّا متاع قليل، قابل ذلك بالنعيم الخالد الذي أُعدّ للمؤمنين.

{ **أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ** } هم الذين وعدهم الله الوعد الحسن وهم المؤمنون.

{ **كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ** } هم الكافرون. والاستفهام مستعمل في إنكار المشابهة والمماثلة التي أفادها كاف التشبيه فالمعنى أنّ الفريقين ليسوا سواء إذ لا يستوي أهل نعيم عاجل زائل وأهل نعيم آجل خالد.

{ **فَهُوَ لاقِيهِ** } معترضة لبيان أنّه وعد محقّق، والفاء للتسبّب.

{ **ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** } عطف على جملة { مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } فهي من تمام صلة الموصول. و{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي لبيان أنّ رتبة مضمونها في الخسارة أعظم من مضمون التي قبلها، أي: لم تقتصر خسارتهم على حرمانهم من نعيم الآخرة بل تجاوزت إلى التعويض بالعذاب الأليم.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [62] قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ [63] }.

تخلُّصٌ من إثبات بعثة الرسل وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى إبطال الشركاء لله.

{ **يُنَادِيهِمْ** } الضمير المرفوع عائد إلى الله تعالى. وضمير الجمع المنصوب عائد إلى المتحدَّث عنهم في الآيات السابقة ابتداء من قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا } [57]، فالمنادَون جميع المشركين كما اقتضاه قوله تعالى { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ }.

{ **أَيْنَ شُرَكَائِيَ** } الاستفهام ظاهره استفهام عن المكان الذي يوجد فيه الشركاء، ولكنّه مستعمل كناية عن انتفاء وجود الشركاء المزعومين يومئذ، فالاستفهام مستعمل في الانتفاء.

{ **قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** } جُرّدت الجملة عن حرف العطف لأنّها وقعت في موقع المحاورة فهي جواب عن قوله تعالى { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ }.

والذين تصدّوا للجواب هم أئمة أهل الشرك من أهل مكة مثل أبي جهل وأمية بن خلف وسدنة أصنامهم.

ولذلك عبّر عنهم بـ { الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } ولم يعبّر عنهم بـ (قالوا).

{ **حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** } يجوز أن يكون بمعنى تحقّق وثبت، ويكون القول قولا معهودا وهو ما عهد للمسلمين من قوله تعالى { حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة:13] وقوله { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ } [الزمر:19].

ويجوز أن يكون { حَقَّ } بمعنى وجب وتعين، أي: حقّ عليهم الجواب لأنّهم علموا أنّ قوله تعالى { فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } موجّه إليهم فلم يكن لهم بد من إجابة ذلك السؤال.

{ **رَبَّنَا** } ابتدأوا جوابهم بتوجيه النداء إلى الله بعنوان أنّه ربّهم، نداء أريد منه الاستعطاف بأنّه الذي خلقهم، اعترافا منهم بالعبودية وتمهيدا للتنصّل من أن يكونوا هم المخترعين لدين الشرك.

{ **هَؤُلَاءِ** } الإشارة إلى بقية المنادين معهم قصدا لأن يتميّزوا عمن سواهم من أهل الموقف، وذلك بإلهام من الله ليزدادوا رعبا، وأن يكون لهم مطمع في التخليص.

{ **الَّذِينَ أَغْوَيْنَا** } خبر عن اسم الإشارة وهو اعتراف بأنّهم أغووهم.

{ **أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا** } استئناف بياني لجملة { الَّذِينَ أَغْوَيْنَا } أرادوا بيان الباعث لهم على إغواء إخوانهم وهو أنّهم بثوا الغواية المستقرّة في نفوسهم وظنّوا أنّ ذلك الاعتراف يخفف عنهم من العذاب بقرينة قولهم: { **تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ** } استئناف.

التبرّؤ: تفعّل من البراءة. فالتبرؤ: معالجة إثبات البراءة وتحقيقها. فالمعنى هنا تحقّق التبرؤ لديك، والمتبرَّأ منه هو مضمون جملة { مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ }، فهي بيان لإجمال التبرّؤ.

والمقصود: أنّهم يتبرّؤون من أن يكونوا هم المزعوم أنّهم شركاء، وإنّما قصارى أمرهم أنهم مُضِلّون، وكان هذا المقصد إلجاء من الله إياهم ليعلنوا تنصّلهم من إدّعاء أنهم شركاء على رؤوس الملأ، أو حَمَلهم على ذلك ما يشاهدون من فظاعة عذاب كل من ادّعى المشركون له الإلهية.

وتقديم { إِيَّانَا } على { يَعْبُدُونَ } دون أن يقال يعبدوننا للاهتمام بهذا التبرؤ مع الرعاية على الفاصلة.

{ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } [64]

هذا موجّه إلى جميع الذين نودوا بقوله { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [62] فإنّ ذلك النداء كان توبيخا لهم على اتخاذهم آلهة شركاء لله تعالى. فلمّا شعروا بالمقصد من ندائهم وتصدّى كبراؤهم للاعتذار عن اتخاذهم أُتْبِعَ ذلك بهذا القول.

{ **وَقِيلَ** } أسند الفعل إلى المجهول لأنّ الفاعل معلوم ممّا تقدّم، أي: وقال الله.

{ **ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ** } الأمر مستعمل في الإطماع ليكون التأييس لاحقا أوقع في النفوس.

وإضافة الشركاء إلى ضمير المخاطبين لأنّهم الذين ادعوا لهم الشركة كما في قوله تعالى { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ } [الأنعام:94].

الدعاء: دعاء الاستغاثة حسب زعمهم أنّهم شفعاؤهم عند الله في الدنيا.

{ **فلم يستجيبوا لهم** } محل التأييس المقصود من الكلام.

{ **وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ** } للمفسّرين في تفسيرها أربعة وجوه، ووجه خامس هو من عندي:

<u>الوجه الأوّل</u>: أن يكون عطفا على جملة { فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } . والرؤية بصرية، والعذاب عذاب الآخرة.

وعلى هذا تكون جملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } مستأنفة ابتدائية مستقلة عن جملة { وَرَأَوُا الْعَذَابَ }.

<u>الوجه الثاني</u>: أن تكون الواو للحال والرؤية أيضا بصرية والعذاب عذاب الآخرة. أي: وقد رأوا العذاب فارتبكوا في الاهتداء إلى سبيل الخلاص فقيل لهم: ادعوا شركاءكم لخلاصكم، وتكون جملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } كذلك مستأنفة ابتدائية.

<u>الوجه الثالث</u>: أن تكون الرؤية علمية، وحذف المفعول الثاني اختصارا، والعذاب عذاب الآخرة. والمعنى: وعلموا العذاب حَائِقًا بهم، والواو للعطف أو الحال. وجملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } مستأنفة استئنافا بيانيا، كأنّ سائلا سأل: ماذا صنعوا حين تحقّقوا أنّهم معذّبون؟ فأجيب بأنّهم لو أنّهم كانوا يهتدون سبيلا لسلكوه ولكنهّم لا سبيل لهم إلى النجاة.

{ **لَوْ** } على هذه الوجوه الثلاثة حرف شرط وجوابها محذوفا دلّ عليه حذف مفعول { يَهْتَدُونَ }، أي: يهتدون خلاصا أو سبيلا. والتقدير: لتخلّصوا منه.

{ **يَهْتَدُونَ** } صيغة المضارع دالة على التجدّد فالاهتداء منقطع منهم، وهو كناية عن عدم الاهتداء من أصله.

الوجه الرابع: أن تكون { لَوْ } للتمنّي المستعمل في التحسّر عليهم. والمراد اهتداؤهم في حياتهم الدنيا كيلا يقعوا في هذا العذاب، وفعل { كَانُوا } حينئذ في موقعه الدال على الاتصاف بالخبر في الماضي، وصيغة المضارع في { يَهْتَدُونَ } لقصد تجدّد الهدى المتحسّر على فواته عنهم، فإنّ الهدى لا ينفع صاحبه إلّا إذا استمر إلى آخر حياته.

وجه خامس عندي: أن يكون المراد بالعذاب عذاب الدنيا، والكلام على حذف مضاف تقديره: ورأوا آثار العذاب. والرؤية بصرية، أي: وهم رأوا العذاب في حياتهم، أي: رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذّبوا الرسل. وهذا في معنى قوله تعالى { وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ } [إبراهيم:45] وجملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } شرط جوابه محذوف. أي: بالاتعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدنيا على أنّ وراءه عذابا أعظم منه.

فهذه عدة معان يفيدها لفظ الآية، وكلّها مقصود، فالآية من جوامع الكلم.

{ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** [65] **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ** [66] }.

{ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ** } هذا كقوله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [62]، كرّر الحديث عن ذلك اليوم باعتبار تعدّد ما يقع فيه، لأنّ مقام الموعظة يقتضي الإطناب في تعداد ما يُستحق به التوبيخ.

{ **مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** } في الدعوة إلى توحيد الله وإبطال الشركاء. والاستفهام صوري مقصود منه إظهار بلبلتهم. والمراد بـ { الْمُرْسَلِينَ } محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى { فَكَذَّبُوا رُسُلِي } [سبأ:45]. وله نظائر في القرآن منها قوله { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا } [يونس:103] يريد محمدا صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء:105].

وإنّما كذّب كلّ فريق من أولئك رسولا واحدا. والذي اقتضى صيغة الجمع أنّ جميع المكذّبين إنّما كذّبوا رسلهم بعلّة استحالة رسالة البشر إلى البشر، فهم إنّما كذّبوا بجنس المرسلين.

{ **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ** } خفيت عليهم الأنباء ولم يهتدوا إلى جواب وذلك من الحيرة والوهل فإنّهم لمّا نودوا { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [62] انبرى رؤساؤهم فلفّقوا جوابا عَدَلوا به عن جادة الاستفهام

إلى إنكار أن يكونوا هم الذين سنّوا لقومهم عبادة الأصنام، فلمّا سئلوا عن جواب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم عَيُوا عن الجواب فلم يجدوا مغالطة لأنّهم لم يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرسول فإنّ الرسول بعث إليهم.

{ **عَمِيَتْ** } خفيت عليهم، وهو مأخوذ من عمى البصر لأنّه يجعل صاحبه لا يتبين الأشياء، فتصرّفت من العمى معان كثيرة متشابهة يبيّنها تعدية الفعل، كما عدِّي هنا بحرف (على) المناسب للخفاء. يقال: عمي عليه الطريق. إذا لم يعرف ما يوصل منه.

الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر عن أمر مهم.

{ **فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ** } تفريع، أي لا يسأل بعضهم بعضا، وذلك من شدّة البهت والبغت على الجميع أنّهم لا مُتنصل لهم من هذا السؤال فوُجموا.

وإذ كان الاستفهام لتمهيد أنّهم محقوقون بالعذاب عُلم من عجزهم عن الجواب أنّهم قد حقّ عليهم العذاب.

{ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ } [67]

تخلّل بين حال المشركين ذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين على طريقة الاعتراض، لأنّ الأحوال تزداد تميّزا بذكر أضدادها.

{ **فَأَمَّا** } الفاء للتفريع على ما أفاده قوله { فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ } من أنهم حقّ عليهم العذاب. ولمّا كانت (أمّا) تفيد التفكيك والفصل بين شيئين أو أشياء في حكم فهي مفيدة هنا أنّ غير المؤمنين خاسرون في الآخرة وذلك ما وقع الإيماء إليه بقوله { فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ } [66]، فإنّه يُكتفى بتفصيل أحد الشيئين عن ذكر مقابله.

التوبة: هنا الإقلاع عن الشرك والندم على تقليده.

{ **وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } عطف الإيمان على التوبة لأنّ المقصود حصول إقلاع عن عقائد الشرك وإحلال عقائد الإسلام محلّها ولذلك عطف عليه { وَعَمِلَ صَالِحاً } لأنّ بعض أهل الشرك كانوا شاعرين بفساد دينهم وكان يصدّهم عن تقلد شعائر الإسلام أسباب مغرية من الأعراض الزائلة التي فُتنوا بها.

{ **فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ** } ترجٍّ لتمثيل حالهم بحال من يُرجى منه الفلاح. والصيغة أشدّ في إثبات الفلاح من: أن يفلح، كما تقدّم غير مرة.

{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [68]

هذا من تمام جملة الاعتراض { فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } [67]، وظاهر عطفه على ما قبله أنّ معناه آيل إلى التفويض إلى حكمة الله تعالى في خلق قلوب منفتحة للاهتداء ولو بمراحل، وقلوب غير منفتحة له فهي قاسية صماء، وأنه الذي اختار فريقا على فريق.

{ **وَرَبُّكَ** } في ذكر الله تعالى بعنوان كونه ربّا للنبيّ صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنّه اختاره لأنّه ربّه وخالقه، فهو قد علم استعداده لقبول رسالته.

في أسباب النزول للواحدي : " قال أهل التفسير نزلت جوابا للوليد بن المغيرة حين قال فيما أخبر الله عنه {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31] ". يعنون بذلك الوليد بن المغيرة من أهل مكة وعروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف. وهما المراد بالقريتين.

فإذا كان اتصال معناها بقوله تعالى { مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [65]، فإن قولهم { لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم } هو من جملة ما أجابوا به دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أي: ربك وحده لا أنتم تختارون من يرسل إليكم. وهذا في معنى قوله تعالى { الله أعلم حيث يجعل رسالاته } [الأنعام:124] وأن ليس ذلك لاختيار الناس ورغباتهم.

{ **مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** } استئناف مؤكِّد لمعنى القصر لئلّا يُتوهّم أنّ الجملة قبله مفيدة مجرّد التقوّي.

وصيغة { مَا كَانَ } تدل على النفي أشدّ ممّا يفيد لو قيل: ما لهم الخيرة.

{ **الْخِيَرَةُ** } (بكسر الخاء وفتح التحتية) اسم لمصدر الاختيار مثل الطِّيَرة اسم لمصدر التطيّر.

{ **لَهُمُ** } اللام للملك، أي: ما كانوا يملكون اختيارا في المخلوقات حتّى يقولوا { لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31].

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } استئناف ابتدائي لإنشاء تنزيه الله وعلوّه على طريقة الثناء عليه بتنزُّهه عن كل نقص وهي معترضة بين المتعاطفين.

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ** } أضيف { سُبْحَانَ } إلى اسمه العلم دون أن يقال: سبحانه، بعد أن قال { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ } [69] لأنّ اسم الجلالة مختصّ به تعالى وهو مستحقّ للتنزيه بذاته.

{ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [69]

عطف على { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ } [68]، أي: وكما أنّه الخالق والمختار على الحقيقة فهو أيضا يعلم ما تخفيه صدورهم، أي: نفوسهم، وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم.

{ **وَرَبُّكَ** } وفي إحضار اسم الجلالة إيماء إلى أنّ ممّا تكنه صدورهم بغض محمد صلى الله عليه وسلم.
وحيث أجريت عليهم ضمائر العقلاء فقد تعين أنّ المقصود البشر من المخلوقات، وهم المقصود من العموم في { مَا يَشَاءُ } [68] فبحسب ما يعلم منهم يختارهم ويجازيهم، فحصل بهذا إيماء إلى علة الاختيار وإلى الوعد والوعيد. وهذا منتهى الإيجاز.
وتقدّم نظير هذه الآية في قوله تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [النمل:74].

{ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [70]
عطف على الجمل السابقة. والمقصود من الآية قوله { وَلَهُ الْحُكْمُ } وإنّما قدّم عليه ما هو دليل على أنّه المنفرد بالحكم مع إدماج صفات عظمته الذاتية المقتضية افتقار الكلّ إليه.
{ **وَهُوَ اللَّهُ** } ابتدئت الجملة بضمير الغائب ليعود إلى المتحدّث عنه بجميع ما تقدّم من قوله تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} [58] إلى هنا، أي: الموصوف بتلك الصفات العظيمة والفاعل لتلك الأفعال الجليلة. فضمير الغيبة مبتدأ واسم الجلالة خبره، أي: فلا تلتبسوا فيه ولا تخطئوا بادعاء ما لا يليق باسمه.
وقريب منه قوله تعالى { فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ } [يونس:64].
{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } خبر ثان عن ضمير الجلالة، وفي الخبر الثاني زيادة تقرير لمدلول الخبر الأوّل فإنّ اسم الجلالة اختص بالدلالة على الإله الحقّ إلّا أن المشركين حرّفوا أو أثبتوا الإلهية للأصنام مع اعترافهم بأنّها إلهية دون إلهية الله تعالى، فكان هذا إبطال للشرك بعد إبطاله بحكاية تلاشيه عن أهل ملته يوم القيامة بقوله تعالى { وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } [64].
{ **لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ** } استدلال على انتفاء إلهية غيره بحجّة أنّ الناس مؤمنهم وكافرهم لا يحمدون في الدنيا إلّا الله فلا تسمع أحدا من المشركين يقول: الحمد للعزى.
{ **الْأُولَى** } هي الدنيا وتخصيص الحمد به في الدنيا اختصاص لجنس الحمد به لأنّ حمد غيره مجاز. وأمّا الحمد في { **الْآخِرَةِ** } فمقصور على الله، فهو ما في قوله { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ } [الإسراء:52].
{ **وَلَهُ الْحُكْمُ** } اللام فيه أيضا للملك. والتقديم للاختصاص أيضا. والاختصاص مستعمل في حقيقته ومجازه لأنّ الحكم في الدنيا يثبت لغير الله على المجاز، وأمّا الحكم في الآخرة فمقصور على الله.
الحكم: القضاء، وهو تعيين نفع أو ضرّ للغير. وحذف المتعلّق لدلالة قوله تعالى { فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ } عليه، أي: له الحكم في الدارين.
{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تخصيص بعد تعميم، فبعد أن أثبت لله كلّ حمد وكلّ حكم. والمقصود بهذا إلزامهم بإثبات البعث. وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بالانتهاء إليه، أي: إلى حكمه.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تسمعون [71] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ [72] }.

انتقال من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس وتعريض بكفر المشركين جلائل نعمه.

ومن أبدع الاستدلال أن اختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرّر كل يوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كلّ مميّز، والذي هو أجلى مظاهر التغير في هذا العالم، فهو دليل الحدوث.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** } سيق إليهم هذا الاستدلال بأسلوب تلقين النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم اهتماما بهذا التذكير. والاستفهام تقريري، والرؤية قلبية.

{ **إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } الاستدلال بعبرة خلق النور، فلذلك فرض استمرار الليل، والمقصود ما بعده وهو قوله { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ }.

السرمد: الدائم الذي لا ينقطع. قال في الكشاف: من السرد وهو المتابعة.

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } المراد بالغاية إحاطة أزمنة الدنيا وليس المراد انتهاء جعله سرمدا.

{ **مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ** } الاستفهام إنكاري. وهم معترفون بهذا الانتفاء وأنّ خالق الليل والنهار هو الله تعالى لا غيره.

الضياء: النور. وهو في هذا العالم من شعاع الشمس قال تعالى { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً } [يونس:5].

وعبّر بالضياء دون النهار لأنّ ظلمة الليل قد تخف قليلا بنور القمر فكان ذكر الضياء إيماء إلى ذلك.

{ **يَأْتِيكُمْ** } في تعدية الفعل في الموضعين إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أنّ إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس. وهذا إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال على الانفراد بالإلهية.

{ **أَفَلا تَسْمَعُونَ** } وإذ قد استمر المشركون على عبادة الأصنام بعد سطوع هذا الدليل وقد علموا أنّ الأصنام لا تقدر على إيجاد الضياء. جُعلوا كأنّهم لا يسمعون هذه الآيات التي أقامت الحجّة الواضحة على فساد معتقدهم، ففرّع على تلك الحجة الاستفهام الإنكاري عن انتفاء سماعهم. وليس القول تذييلا.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ** } كرّر الأمر بالقول في مقام التقرير لأنّ التقرير يناسبه التكرير مثل مقام التوبيخ ومقام التهويل. وعكس الاستدلال الثاني بفرض أن يكون النهار وهو انتشار نور الشمس، سرمدا بأن خلق الله الأرض غير كروية الشكل بحيث يكون شعاع الشمس منتشرا على جميع سطح الأرض دوما.

{ **تَسْكُنُونَ فِيهِ** } إدماج للمنّة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة، وتلك هي نعمة

السكون فيه، فإنّها تشمل لذة الراحة، ولذة الخلاص من الحر، ولذة استعادة النشاط، ولذة الأمن من العدو. ولم يوصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها.

{ **أَفَلا تُبْصِرُونَ** } تفرع على هذا الاستدلال أيضا تنزيلهم منزلة من لا يبصرون الأشياء الدالة على عظيم صنع الله وتفرّده بصنعها وهي منهم بمرأى الأعين. وليس القول تذييلا.

{ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [73]

تصريح بنعمة تعاقب الليل والنهار على الناس، وذلك ممّا دلّت عليه الآية السابقة بطريق الإدماج.

والجملة معطوفة على السابقة.

{ **وَمِنْ رَحْمَتِهِ** } تبعيضية، فإنّ رحمة الله بالناس حقيقة كلّية لها تحقّق في وجود أنواعها وآحادها العديدة. والمقصود إظهار أنّ هذا رحمة من الله وأنّه بعض من رحمته ليتذكّروا نعما أخرى.

{ **لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ** } طريقة اللف والنشر المعكوس، فيعود { لِتَسْكُنُوا فِيهِ } إلى الليل، ويعود {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } إلى النهار، والتقدير: ولتبتغوا من فضله فيه. والـ (لام) في كليهما للتعليل.

الابتغاء من فضل الله: كناية عن العمل والطلب لتحصيل الرزق قال تعالى { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } [المزمل:20]. والرزق: فضل من الله. وتقدّم في قوله تعالى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198].

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } عطف على العلتين رجاء شكرهم. فالشأن أن يتذكّروا بذلك مظاهر الرحمة الربّانية وجلائل النعم فيشكروه بإفراده بالعبادة. وهذا تعريض بأنّهم كفروا فلم يشكروا.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [74] وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ [75] }.

{ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ** } أُعيدت الجملة مرة ثانية بعد { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [65]،لأنّ التكرير من مقتضيات مقام التوبيخ، فأعيد ذكر أنّ الله يناديهم بهذا الاستفهام التقريعي.

فظاهر الآية أنّ ذلك النداء يكرّر يوم القيامة. ويحتمل أنّه إنّما كرّرت حكايته وأنّه نداء واحد يقع عقبه جواب الذين حق عليهم القول من مشركي العرب، ويقع نزع شهيد من كلّ أمّة عليهم فهو شامل لمشركي العرب وغيرهم من الأمم.

{ **وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً** } صيغة الماضي إمّا للدلالة على تحقيق وقوعه حتّى كأنّه قد وقع، وإمّا لأنّ الواو للحال وهي يعقبها الماضي بـ (قد) وبدون (قد)، أي: يوم يكون ذلك النداء وقد أخرجنا من كلّ أمّة شهيدا عليهم وأخرجنا من هؤلاء شهيدا هو محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ } [النحل:89]. وشهيد كلّ أمّة رسولها.

النزع: جذب شيء من بين ما هو مختلط به، واستعير هنا لإخراج بعض من جماعة كما في قوله تعالى { ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً } [مريم:69]. وذلك أنّ الأمم تأتي إلى المحشر تتبع أنبياءها. كما ورد في الحديث: " **يأتي النبيّ معه الرهط والنبيّ وحده ما معه أحد** ".

{ **وَنَزَعْنَا** } التُفت من الغيبة إلى التكلّم لإظهار عظمة المتكلّم.

{ **هَاتُوا** } المخاطب هم المشركون، أي: هاتوا برهانكم على إلهية أصنامكم. وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة:111] .والأمر مستعمل في التعجيز.

{ **فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ** } لمّا علموا عجزهم من إظهار برهان لهم في جعل الشركاء لله أيقنوا أنّ الحقّ مستحق لله تعالى، أي: علموا علم اليقين أنّهم لا حقّ لهم في إثبات الشركاء وأنّ الحق لله إذ كان ينهاهم عن الشرك على لسان الرسول في الدنيا.

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ** } يشمل ما كانوا يكذبونه من المزاعم في إلهية الأصنام.

الضلال: أصله عدم الاهتداء إلى الطريق. واستعير هنا لعدم خطور الشيء في البال.

{ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [76] وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [77] }.

ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة، فضرب هنا لحال تعاظمهم بأموالهم مثلا بحال قارون مع موسى. إذ كان من صنوف أذى أئمة الكفر النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ومن دواعي تصلّبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31] أي: على رجل من أهل الثروة، فهي عندهم سبب العظمة. وقد تكرّر في القرآن توبيخهم على ذلك كقوله تعالى { وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً } [سبأ:35]، وقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11].

{ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى } استئناف ابتدائي لذكر قصة ضربت مثلا لحال بعض كفار مكة وهم سادتهم، مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل بن هشام. وللقصة مزيد تعلّق بجملة { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا - إلى قوله - يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [60-61]. ولها أيضا اتصال بانتهاء قصة جند فرعون المنتهية عند قوله { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا } [46].

{ قَارُونَ } اسم معرّب أصله في العبرانية **قُورَح** (بضم القاف مشبعة وفتح الراء)، وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت، وجالوت، فليست حروفه حروف اشتقاق من مادة قرن.

وقورح هذا ابن عم موسى عليه السلام. فهو قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى بن يعقوب. وموسى هو ابن عمرم (المسمى عمران في العربية) ابن قاهت، فيكون يصاهر أخا عمرم.

وورد في [سفر العدد، الإصحاح:16]: أنّ **قورح** هذا تألّب مع بعض زعماء بني إسرائيل على موسى وهارون عليهما السلام حين جعل الله الكهانة في بني هارون من سبط (لاوى) فحسدهم قورح.

وذكر المفسّرون أنّ فرعون كان جعل **قُورح** رئيسا على بني إسرائيل في مصر، وأنّه جمع ثروة عظيمة.

وما حكاه القرآن يبيّن سبب نشوء الحسد في نفسه لموسى، لأن موسى لما جاء بالرسالة وخرج ببني إسرائيل زال تأمُّر قَارُونَ على قومه فحقد على موسى.

وقد أكثر القصّاص من وصف بذخه وعظمته ما ليس في القرآن، وما لهم به من برهان.

{ إِنَّ } تأكيد، والإخبار عن قارون بأنّه من قوم موسى ليس من شأنه أن يتردّد فيه السامع حتى يؤكّد له، فمصبّ التأكيد هو ما بعد قوله { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ } إلى آخر القصة المنتهية بالخسف.

ويجوز أن تكون { إِنَّ } لمجرد الاهتمام بالخبر.

{ مِنْ قَوْمِ مُوسَى } إيماء إلى أنّ لقارون اتصالا خاصا بموسى فهو اتصال القرابة. وفي الكلام تمهيد للكناية بهذا الخبر عن إرادة التنظير بما عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي بعض قرابته عليه.

{ فَبَغَى عَلَيْهِمْ } معترضة بين جملة { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى } وجملة { وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ }، والفاء فيها للترتيب والتعقيب، أي: لم يلبث أن بطر النعمة واجترأ على ذوي قرابته، وهي أيضا للتعجيب من فعله.

البغي: الاعتداء، والاعتداء على الأمّة الاستخفاف بحقوقها، وأوّل ذلك خرق شريعتها.

{ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } كثرة المفاتيح كناية عن كثرة الخزائن، وتلك كناية عن وفرة المال، فهو كناية بمرتبتين.

الكنوز: جمع كنز وهو مختزن المال من صندوق أو خزانة، وتقدّم في قوله {لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ} [هود:12]

المفاتح: جمع مِفتح (بكسر الميم وفتح المثناة الفوقية) وهو آلة الفتح، ويُسمَّى المفتاح أيضا. وتقدّم عند قوله تعالى { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } [الأنعام: 59].

{ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } تَثْقُل. فهي لشدة ثقلها تثقل مع أن حملتها عصبة أولو قوّة.

العصبة: الجماعة، وتقدم في [يوسف:8]. وأقرب الأقوال في مقدارها قول مجاهد أنه من 10 إلى 15.

{ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ }

{ إِذْ } المقصود من هذا الظرف القصّة وليس القصد به توقيت البغي، ولذلك قدّره بعض المفسرين متعلّقا بـ (اذكر) محذوفا، وهو المعني في نظائره من القصص.

{ قَوْمُهُ } إمّا جماعة منهم، وهم أهل الموعظة، وإمّا موسى عليه السلام لأنّه قدوة للقوم فكأنّهم قالوا قوله.

الفرح: يطلق على السرور كما في قوله تعالى { وَفَرِحُوا بِهَا } [يونس:22]. ويطلق على البطر والإزدهاء، وهو الفرح المفرط المذموم، وتقدّم في قوله تعالى { وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [الرعد: 26].

{ لا تَفْرَحْ } حذف المتعلّق لدلالة المقام على أنّ المعنى لا تفرح بلذّات الدنيا معرضا عن الدين والعمل للآخرة، كما أفصح عنه قوله { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ }.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ }، أي: المفرطين في الفرح. والجملة علّة للتي قبلها، والمبالغة في الفرح تقتضي شدّة الإقبال على ما يفرح به وهي تستلزم الإعراض عن غيره فصار النهي عن شدة الفرح رمزا إلى الإعراض عن الجد والواجب.

{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ } أي: طلب نعيمها وثوابها. أي: أطلب بكنوزك أسباب حصول الثواب بالإنفاق منها في سبيل الله وما أوجبه ورغّب فيه من القربات ووجوه البرّ.

{ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } جملة معترضة بين الجملتين الحافتين بها. والنهي مستعمل في الإباحة.

النسيان: هنا كناية عن الترك، أي: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا. وهذا احتراس في الموعظة خشية نفور الموعوظ من الموعظة.

النصيب: الحظ والقسط، وإضافة النصيب إلى ضميره دالة على أنّه حقه، وأنّ للمرء الانتفاع بماله فيما يلائمه في الدنيا خاصة مما ليس من القربات ولم يكن حراما. قال قتادة: نصيب الدنيا هو الحلال كلّه.

{ مِنَ الدُّنْيَا } للتبعيض. والمراد بالدنيا: نعيمها. فالمعنى: نصيبك الذي هو بعض نعيم الدنيا.

{ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } الإحسان داخل في عموم ابتغاء الدار الآخرة ولكنّه ذكر هنا ليبني عليه الاحتجاج بقوله { كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} والكاف للتشبيه، أي: كإحسان الله إليك.

وحُذف متعلّق الإحسان لتعميم ما يُحسن إليه فيشمل نفسه وقومه ودوابه ومخلوقات الله الداخلة في دائرة التمكّن من الإحسان إليها. وفي الحديث: " **إن الله كتب الإحسان على كل شيء** ". فالإحسان في كل شيء

بحسبه، والإحسان لكلّ شيء بما يناسبه، حتّى الأذى المأذون فيه فبقدره.

{ **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ** } للتحذير من خلط الاحسان بالفساد، فإنّ الفساد ضدّ الإحسان.

{ **فِي الْأَرْضِ** } أرضهم التي هم مقيمون بها. والفساد في الجزء كالفساد في العموم. وتقدّمت نظائره منها قوله تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا } [البقرة:205].

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** } علّة للنهي عن الإفساد، لأنّ العمل الذي لا يحبّه الله لا يجوز لعباده عمله. وقد كان قارون موحّدا على دين إسرائيل ولكنّه كان شاكا في صدق مواعيد موسى وفي تشريعاته.

{ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } [78]

جواب متصلّف حاول به إفحامهم وأن يقطعوا موعظتهم.

{ **إِنَّمَا** } أداة حصر مركّبة من (إن) و(ما). والمعنى: ما أوتيت هذا المال إلّا على علم علمته.

{ **أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً** } إقبال على خطاب المسلمين. والهمزة للاستفهام الإنكاري التعجيبي، تعجيبا من عدم جريه على موجب علمه بأنّ الله أهلك أمما على بطرهم النعمة وإعجابهم لقوتهم، ونسيانه حتّى صار كأنّه لم يعلمه.

القوّة: ما به يُستعان على الأعمال الصعبة تشبيها لها بقوّة الجسم التي تخوّل صاحبها حمل الأثقال ونحوها قال تعالى { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال:60].

الجمع: الجماعة من الناس. قيل: كان أشياع قارون مائتين وخمسين من بني إسرائيل، رؤساء جماعات.

{ **وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** } تذييل للكلام، فهو استئناف وليس عطفا على أنّ الله قد أهلك من قبله. والسؤال المنفي السؤال في الدنيا وليس سؤال الآخرة.

يحتمل أن يكون السؤال كناية عن عدم الحاجة إلى السؤال عن ذنوبهم، فهم كناية عن علم الله تعالى بذنوبهم، وهو كناية عن عقابهم على إجرامهم، فهي كناية بوسائط. والكلام تهديد للمجرمين ليكونوا بالحذر من أن يؤخذوا بغتة.

ويحتمل أن يكون السؤال بمعناه الحقيقي، أي: لا يسأل الله المجرم عن جرمه قبل عقابه، لأنّه قد بيّن للناس على ألسنة الرسل بحدّي الخير والشر، وأمهل المجرم فإذا أخذه أخذه بغتة، وهذا كقوله تعالى { حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون } [الأنعام:44]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " **إنّ الله يمهل الظالم حتّى إذا أخذه لم يفلته** ".

{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [79]

دلّت الفاء على أن خروجه بين قومه في زينته، بعد كلّ تلك المواعظ، كان دليلا على أنّه لم يتعظ.

الزينة: ما به جمال الشيء والتباهي به، من الثياب والطيب والمراكب والسلاح والخدم، وتقدّم قوله { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } [النور:31].

{ **قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** } فصلت جملة ولم تعطف لأنّها تتنزّل منزلة بدل الاشتمال لما اشتملت عليه الزينة من أنّها ممّا يتمناه الراغبون في الدنيا. لأنّ الذين يريدون الحياة الدنيا لهم أميال مختلفة ورغبات متفاوتة فكلّ يتمنّى أمنية مما تلبّس به قارون من الزينة، فحصل هذا المعنى مع حصول الإخبار عن انقسام قومه إلى مغترّين بالزخارف العاجلة عن غير علم، وإلى علماء يؤثرون الآجل على العاجل.

ولو عطفت الجملة بالواو أو الفاء لفاتت هذه الخصوصية البليغة فصارت الجملة إمّا خبرا من جملة الأخبار عن حال قومه، أو جزء خبر من قصته.

ولمّا قوبلوا بـ { الذين أوتوا العلم } [80] كان المعني بهم عامة الناس وضعفاء اليقين الذين تلهيهم زخارف الدنيا عمّا يكون في مطاويها من سوء العواقب فتقصر بصائرهم عن التدبّر. فهؤلاء وإن كانوا مؤمنين إلّا أنّ إيمانهم ضعيف فلذلك عظم في عيونهم ما عليه قارون من البذخ.

{ **إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** } أي أنّه لذو بخت وسعادة. والتوكيد دفع للتعجّب المتوقّع من السامع.

الحظّ: أصله القِسم الذي يُعطاه المقسوم له عند العطاء، وأريد به هنا ما قُسم له من نعيم الدنيا.

{ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}[80].

مشاركة للجملة السابقة في معناها. وفي كلام الذين { أوتوا العلم } تنبيه على فتنة قارون ببهرجته وقلّة اعتداده بثواب الله، وعلى تمحُّضه للإقبال على لذائذ الدنيا ومفاخرها الباطلة، والكلام أيضا إزالة لما تستجلبه حالة قارون من نفوس المبتلين بزخارف الدنيا.

{ **وَيْلَكُمْ** } اسم للهلاك وسوء الحال، وتقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]. ويستعمل اللفظ في التعجّب المشوب بالزجر، فليس الذين أوتوا العلم داعين بالويل على الذين يريدون الحياة الدنيا، لأنّ المناسب لمقام الموعظة لين الخطاب ليكون أعون على الاتعاظ، ولكنّهم يتعجّبون من تعلق نفوس أولئك بزينة الحياة الدنيا واغتباطهم بحال قارون دون اهتمام بثواب الله.

{ **ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ** } تقديم المسند إليه ليتمكّن الخبر في ذهن السامعين لأنّ الابتداء بما يدلّ على الثواب المضاف إلى أوسع الكرماء كرما ممّا تستشرف إليه النفس.

{ **لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } عدل عن الإضمار إلى الموصولية دون: خير لكم، لما في الإظهار من الإشارة إلى أنّ ثواب الله إنّما يناله المؤمنون الذين يعملون الصالحات، مع ما في الموصول من الشمول لمن كان منهم كذلك ولغيرهم ممّن لم يحضر ذلك المقام.

{ **وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** } يجوز أن تكون الواو للعطف، فهي من كلام الذين أوتوا العلم، أمروا الذين فتنهم حال قارون بأن يصبروا على حرمانهم. ويجوز أن تكون الواو اعتراضية والجملة معترضة من جانب الله تعالى، علّم بها عباده فضيلة الصبر.

{ **يُلَقَّاهَا** } الضمير عائد إلى مفهوم من الكلام يجري على التأنيث، أي: ثواب الله أو السيرة القويمة، وهي سيرة الإيمان والعمل الصالح.

التلقية: جعل الشيء لاقيا، أي مجتمعا مع شيء آخر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً } [الفرقان:75]. وهو مستعمل في الإعطاء على طريقة الاستعارة، أي: لا يُعطى تلك الخصلة أو السيرة إلا الصابرون.

{ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ } [81]

دلت الفاء على تعجيل عقابه في الدنيا بمرأى من الذين تمنّوا أن يكونوا مثله.

الخسف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، وعكسه. يقال : خسفت الأرض وخسف الله الأرض فانخسفت ، فهو يستعمل قاصرا ومعتدّيا ، وإنّما يكون الخسف بقوة الزلزال. وأمّا قولهم : خسفت الشمس فذلك على التشبيه.

{ **بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ** } الباء للمصاحبة ، أي: خسفنا الأرض مصاحبة له ولداره، فهو وداره مخسوفان مع الأرض التي هو فيها، وتقدّم قوله تعالى { أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ } [النحل:45].

وهذا الخسف خارق للعادة لأنّه لم يتناول غير قارون ومن ظاهره، فهو معجزة لموسى عليه السلام.

جاء في [سفر العدد، الإصحاح:16] من أنّ قورح (قارون) ومن معه لمّا آذوا موسى كما تقدم ، وذكّرهم موسى بأنّ الله أعطاهم مزيّة خدمة خيمته ولكنّه أعطى الكهانة بني هارون، ولم تجد فيهم الموعظة غضب موسى عليهم ودعا عليهم ثم أمر الناس بأن يبتعدوا من حوالي دار قورح (قارون) وخيام جماعته.

{ **فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } كان قد أعدّهم للنصر على موسى فخسف بهم معه.

{ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ** } كما كان يحسب. يقال: انتصر فلان، إذا حصل له النصر، أي: فما نصره أنصاره ولا حصل له النصر بنفسه.

{ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } [82]

{ **أَصْبَحَ** } هنا بمعنى صار.

{ **مَكَانَهُ** } مستعمل مجازا في الحالة المستقرّ فيها صاحبها، وقد يعبّر عن الحالة أيضا بالمنزلة.

{ **بِالْأَمْسِ** } مستعمل في مطلق زمن مضى قريبا، على طريقة المجاز المرسل.

{ **يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** } ندامة على ما تمنّوه، ورجوعا إلى التفويض لحكمة الله فيما يختاره لمن يشاء من عباده.

{ **وَيْكَأَنَّ** }

*/ عند الأخفش وقطرب مركّبة من **ثلاث كلمات**: (وي - كاف الخطاب - أنّ):

(**وي**) اسم فعل بمعنى: أعجب.

(**الكاف**) لتوجيه الخطاب تنبيها عليه مثل الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة.

(**أنّ**) أخت (إنّ) المكسورة الهمزة فما بعدها في تأويل مصدر هو المتعجب منه.

فالتقدير: أعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء.

*/ وذهب الخليل ويونس وسيبويه والجوهري والزمخشري إلى أنّها مركبة من **كلمتين** (وي - كأنّ).

والمعنى: التعجّب من الأمر وأنّه يشبه أن يكون كذا، والتشبيه مستعمل في الظن واليقين.

*/ وذهب أبو عمرو بن العلاء والكسائي والليث وثعلب أنّها مركبة من **أربع كلمات**: كلمة (ويل) وكاف الخطاب وفعل (أعلم) و(أن). وأصله: ويلك اعلم أنّه كذا.

ومعنى الآية على الأقوال كلّها أنّ الذين كانوا يتمنّون منزلة قارون ندموا على تمنّيهم لمّا رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة، ومن خفيّ تصرفات الله تعالى في خلقه، وعلموا وجوب الرضى بما قُدِّر للناس من الرزق، فخاطب بعضهم بعضا بذلك وأعلنوه.

البسط: مستعمل مجازا في السعة والكثرة.

{ **لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } فائدة البيان الإيماء إلى أنّه في بسطة الأرزاق وقدرها متصرّف تصرف المالك في ملكه إذ المبسوط لهم والمقدور عليهم كلّهم عبيده فحقّهم الرضى بما قسم لهم مولاهم.
{ **يَقْدِرُ** } مضارع قدر المتعدّي، وهو بمعنى: أعطى بمقدار، وهو مجاز في القلّة لأنّ التقدير يستلزم قلّة المقدَّر لعسر تقدير الشيء الكثير قال تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا } [الطلاق:7].
{ **لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** } لولا أن منّ الله علينا فحفظنا من رزق كرزق قارون لخسف بنا، أي: لكنّا طغينا مثل طغيانه فخسف بنا كما خسف به. أو لو لا أن منّ الله علينا بأن لم نكن من شيعته لخسف بنا كما خسف به وبأتباعه. أو لولا أن منّ الله علينا بثبات الإيمان.
{ **وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** } تكرير للتعجّب، أي: قد تبيّن أن سبب هلاك قارون هو كفره برسول الله.

{ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [83]

انتهت قصة قارون بما فيها من العبر من خير وشرّ، فأُعقِبت باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضدّه في الحياة الأبدية، وأنّها مُعدَّة للذين حالهم بضدّ حال قارون. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود تبليغه إلى الأمّة شأن جميع آي القرآن. ويجوز لغير معيّن فهو موجّه إلى كل سامع.
وذكر الجنّة بعنوان الدار لمناسبة ذكر الخسف بدار قارون، للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة.
وابتدئ الكلام بابتداء مشوِّق وهو اسم الإشارة إلى غير مذكور من قبل ليستشرف السامع إلى معرفة المشار إليه فيعقبه بيانه بالاسم المعرّف باللام { الدَّارُ } الواقع بيانا أو بدلا من اسم الإشارة.
{ **الدَّارُ** } محل السكنى، كقوله تعالى { لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [الأنعام:127]. وأمّا إطلاق الدار على جهنم في قوله تعالى { وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } [إبراهيم:28] فهو تهكّم.
{ **الْآخِرَةُ** } مراد به الدائمة، أي: التي لا دار بعدها، فاللفظ مستعمل في صريح معناه وكنايته.
{ **نَجْعَلُهَا** } خبر. ومعنى جعلها لهم أنّها مُحضرة لأجلهم، ليس لهم غيرها. وأمّا من عداهم فلهم أحوال ذات مراتب أفصحت عنها آيات أخرى وأخبار نبوية. وعن الفضيل بن عياض أنّه قرأ هذه الآية ثم قال: ذهبت الأماني ههنا، أي: أماني الذين يزعمون أنّه لا يضر مع الإيمان شيء وأنّ المؤمنين كلهم ناجون من العقاب.
{ **لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً** } كناية عن: لا يفعلون، لأنّ من لا يريد الفعل لا يفعله إلّا مكرها. وهذا من باب { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ } [5].
العلوّ: التكبّر عن الحق وعلى الخلق، والطغيان في الأعمال.

الفساد: ضدّ الصلاح، وهو كلّ فعل مذموم في الشريعة أو لدى أهل العقول الراجحة.

{ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } تذييل، وهو معطوف على جملة { تِلْكَ الدَّارُ } وبه صارت الجملة كلّها تذييلا.

العاقبة: وصف عومل معاملة الأسماء لكثرة الوصف به، وهي الحالة الآخرة بعد حالة سابقة، وغلب إطلاقها على عاقبة الخير. وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11]

{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [84]

بدل اشتمال لجملة { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } لأن العاقبة ذات أحوال من الخير ودرجات من النعيم، وهي على حسب ما يجيء به المتّقون من الحسنات فتفاوت درجاتهم بتفاوتها.

{ **جَاءَ** } اختيار الفعل في الموضعين إشارة إلى أنّ المراد من حضر بالحسنة ومن حضر بالسيئة يوم العرض على الحساب. ففيه إشارة إلى أنّ العبرة بخاتمة الأمر وهي مسألة الموافاة. وأمّا اختيار فعل {**عَمِلُوا**} فلما فيه من التنبيه على أنّ عملهم هو علّة جزائهم، زيادة في التنبيه على عدل الله تعالى.

{ **فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا** } فكلّ حسنة تحتوي على خير لا محالة يصل إلى نفس المحسن أو إلى غيره. فيكون المعنى: فله من الله إحسان عليها خير من الإحسان الذي في حسنته.

{ **وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ** } لمّا ذكر جزاء الإحسان أعقب بضدّ ذلك، مقابلة فضل الله تعالى على المحسن بعدله مع المسيء، على عادة القرآن من قرن الترغيب بالترهيب.

{ **الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ** } عين { وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ } فكان المقام مقام الإضمار بأن يقال: ومن جاء بالسيئة فلا يجزون...، ولكنّه عدل عن مقتضى الظاهر لأنّ في التصريح بوصفهم بـ { عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ } تكريرا لإسناد عمل السيئات إليهم لقصد تهجين هذا العمل الذميم وتبغيض السيّئة إلى قلوب السامعين من المؤمنين.

{ **إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } استثناء مفرَّغ عن فعل { يُجْزَى } المنفي، المفيد بالنفي عموم أنواع الجزاء، والمستثنى تشبيه بليغ، أي: جزاء شبيه الذي كانوا يعملونه. أي: جزاء وفاقا لا حيف فيه.

{ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [85]

تنويه بشأن محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده ووعده بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وأنّ إنكار أهل الضلال رسالته لا يضيره، لأنّ الله أعلم بأنّه على هدى وأنّهم على ضلال.

{ **إِنَّ الَّذِي** } افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام به. وجيء بالمسند إليه اسم موصول دون اسمه تعالى العلم لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وأنّه خبر الكرامة والتأييد. أي: أنّ الذي أعطاك القرآن ما كان إلّا مقدِّرا نصرك وكرامتك، لأنّ إعطاء القرآن شيء لا نظير له، فهو دليل على كمال عناية الله بالمعطى.

قال كعب بن زهير:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

{ **فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ** } اختاره لك، من قولهم: فرض له كذا، إذا عيّن له فرضا، أي: نصيبا. ولمّا ضُمّن معنى (أنزل) عدّي بحرف (على).

الردّ: إرجاع شيء إلى حاله أو مكانه.

{ **مَعَادٍ** } اسم مكان العود، أي: الأول كما يقتضيه حرف الانتهاء. والتنكير للتعظيم كما يقتضيه مقام الوعد والبشارة. والمعاد يجوز أن يكون مستعملا في معنى آخر أحوال الشيء وقراره الذي لا انتقال منه. قال ابن عطية: " وقد اشتهر يوم القيامة بالمعاد لأنّه معاد الكل ".

أي: فأبشر بما تلقى في معادك من الكرامة التي لا تعادلها كرامة والتي لا تعطى لأحد غيرك. فتنكير {مَعَادٍ} أفاد أنه عظيم الشأن. وترتّبه على الصلة أفاد أنه لا يعطى لغيره مثله كما أنّ القرآن لم يفرض على أحد مثله.

ويجوز أن يراد بالمعاد معناه المشهور القريب من الحقيقة. وهو ما يعود إليه المرء إن غاب عنه، فيراد هنا بلده الذي كان به وهو مكة. فقد قيل: إنّ هذه الآية نزلت عليه وهو في الجحفة في طريقه إلى الهجرة كما تقدّم في أول السورة، فَوُعِدَ بالردِّ عليها، وهو دخوله إليها فاتحا لها ومتمكّنا منها. وروي هذا عن ابن عباس.

وكلا الوجهين يصحّ أن يكون مرادا.

{ **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى** } بالنسبة إلى الوجه الأول بمنزلة التفريع على جملة { لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ }، أي: رادك إلى يوم المعاد فمظهرٌ المهتدي والضالين، فيكون علم الله بالمهتدي والضال مُكنًّى به عن اتضاح الأمر بلا ريب، لأنّ علم الله تعالى لا يعتريه تلبيس، وتكون هذه الكناية تعريضا بالمشركين أنّهم الضالون، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هو المهتدي.

وبالنسبة إلى الوجه الثاني تكون بمنزلة الموادعة والمتاركة وقطع المجادلة. فالمعنى: عُدْ عن إثبات هداك وضلالهم وكِلْهم إلى يوم ردِّك إلى معادك، يوم يتبيّن أنّ الله نصرك وخذلهم.

وعلى المعنيين الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا عن جملة { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } جوابا لسؤال سائل يثيره أحد المعنيين.

{ **وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ [86] وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [87]** }.

{ **وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } عطف على قوله { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } [85] باعتبار ما تضمّنته من الوعد بالثواب الجزيل أو بالنصر المبين، أي: كما حمَّلك تبليغ القرآن فكان ذلك علامة على أنّه أعدّ لك الجزاء بالنصر في الدنيا والآخرة. كذلك إعطاؤه إيّاك الكتاب عن غير ترقُّب منك بل بمحض رحمة منه.

إلقاء الكتاب: وحيه به إليه. أطلق عليه اسم الإلقاء على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ } [النحل:86-87].

{ **إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } استثناء منقطع، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخامر نفسه رجاء أن يبعثه الله بكتاب من عنده بل كان ذلك مجرّد رحمة من الله تعالى به واصطفاء له.

{ **فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ...** } تفريع على جملة { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } وما عطف عليها وما تخلّل بينهما مما اقتضى جميعه الوعد بنصره وظهور أمره وفوزه في الدنيا والآخرة، وأنّه جاء من الله إلى قوم هم في ضلال مبين، وأنّ الذي رحمه فآتاه الكتاب على غير ترقب منه لا يجعل أمره سدى فأعقب كلّ ذلك بتحذيره من أدنى مظاهرة للمشركين.

الظهير: المعين. والمظاهرة: المعونة، وهي مراتب أعلاها النصرة وأدناها المصانعة والتسامح، لأنّ في المصانعة على المرغوب إعانة لراغبه. فلما شمل النهي جميع أكوان المظاهرة لهم اقتضى النهي عن مصانعتهم والتسامح معهم، وهو يستلزم الأمر بضدّ المظاهرة فيكون كناية عن الأمر بالغلظة.

وهذا المعنى يناسب كون الآيات آخر ما نزل قبل الهجرة وبعد متاركته المشركين.

وقيل: النهي للتهييج لإثارة غضب النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم وتقوية داعي شدّته معهم.

{ **وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ** } توجيه النهي إليه عن أن يصدُّوه عن آيات الله كناية عن نهيه عن أن يتقبّل منهم ما فيه صدّ عن آيات الله كما يقول العرب: لا أعرفنك تفعل كذا، كنّوا به عن: أنه لا يفعله. والمقصود: تحذير المسلمين من الركون إلى الكافرين في شيء من شؤون الإسلام. وقيل: هو للتهييج أيضا.

ويجوز أن يكون النهي في { وَلا يَصُدُّنَّكَ } نهي صرفة. فالمعنى: أنّ الله قد ضمن لرسوله صرف المشركين عن أن يصدُّوه عن آيات الله وذلك إذ حال بينه وبينهم بأن أمره بالهجرة ويسّرها له وللمسلمين معه.

{ **بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ** } التقييد بالبعدية لتعليل النهي أيًّا ما كان المراد منه.

{ **وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ** } الأمر مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله لا إلى إيجاد الدعوة لأنّ ذلك حاصل،

أي لا يصرفك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إعذارا لهم.
ويجوز أن يكون الدعاء مستعملا في الأكمل من أنواعه، أي: أنّك بعد الخروج من مكة أشدّ تمكّنا في الدعوة إلى الله ممّا كنت من قبل.
{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } الخطاب للنبيّ والتحذير موجّه للمؤمنين.

{ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[88]
هذا النهي موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمقصود به إبطال الشرك وإظهار ضلال أهله إذ يزعمون أنّهم معترفون بإلهية الله تعالى وأنّهم إنّما اتخذوا له شركاء وشفعاء، فبيّن لهم أنّ الله لا إله غيره، وأنّ انفراده بالإلهية في نفس الأمر يقضي ببطلان الإشراك في الاعتقاد ولو أضعف إشراك.
{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } في معنى العلّة للنهي الذي في الجملة قبلها.
{ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** } علة ثانية للنهي، لأنّ هلاك الأشياء التي منها الأصنام وكلّ ما عُبد مع الله وأشرك به دليل على انتفاء الإلهية عنها، لأنّ الإلهية تنافي الهلاك وهو العدم.
الهلاك: الزوال والانعدام.
{ **وَجْهَهُ** } مستعمل في معنى الذات. والمعنى: كل موجود هالك إلّا الله تعالى.
{ **لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تذييل فلذلك كانت مفصولة عمّا قبلها. وتقديم المجرور باللام لإفادة الحصر، والمحصور فيه هو الحكم الأتم.
{ **وَإِلَيْهِ** } تقديم المجرور للاهتمام بالخبر، لأنّ المشركين نفوا الرجوع من أصله.
الرجوع: حقيقته الانصراف إلى مكان قد فارقه فاستعمل في مصير الخلق وهو <u>البعث بعد الموت</u>.
والمقصود من تعدّد هذه الجمل إثبات أنّ الله منفرد بالإلهية في ذاته، وهو مدلول جملة { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }.
وذلك أيضا يدلّ على صفة القدم لأنّه لمّا انتفى جنس الإلهية عن غيره تعالى تعيّن أنّه لم يوجده غيره فثبت له القدم الأزلي، وأنّ الله تعالى باق لا يعتريه العدم لاستحالة عدم القديم، وذلك مدلول { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }، وأنّه تعالى منفرد في أفعاله بالتصرّف المطلق الذي لا يردّه غيره، فيتضمّن ذلك إثبات الإرادة والقدرة. وفي كل هذا ردّ على المشركين الذين جوّزوا شركته في الإلهية، وأشركوا معه آلهتهم في التصرف بالشفاعة والغوث. ثم أبطل إنكارهم البعث بقوله { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }.

الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء التاسع

(العنكبوت - الروم - لقمان – السجدة – الأحزاب – سبا – فاطر)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2024م / 1446هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

اشتهرت هذه السورة بسورة العنكبوت من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رواه عكرمة قال: كان المشركون إذا سمعوا تسمية سورة العنكبوت يستهزئون بهما، أي: بهذه الإضافة فنزل قوله تعالى { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئينَ } [الحجر:95]، يعني المستهزئين بهذا ومثله، وقد تقدّم الإلماع إلى ذلك عند قوله { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا } [البقرة:26].

ووجه إطلاق هذا الاسم على هذه السورة أنّها اختصت بذكر مثل العنكبوت في قوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً } [41].

وهي **مكية كلّها في قول الجمهور**، ومدنية كلّها في أحد قولي ابن عباس وقتادة، وقيل بعضها مدني. روى الطبري والواحدي في أسباب النزول عن الشعبي أنّ الآيتين الأوليين منها أي: إلى قوله { وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [3] نزلتا بعد الهجرة في أناس من أهل مكّة اسلموا فكتب إليهم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من المدينة أن لا يقبل منهم إسلام حتّى يهاجروا إلى المدينة فخرجوا مهاجرين فاتبعهم المشركون فردوهم.

وروى الطبري عن عكرمة عن ابن عباس أنّ قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ - إلى قوله - وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } [11/10] نزلت في قوم بمكة وذكر قريبا ممّا روي عن الشعبي.

وهذه السورة هي السورة **الخامسة والثمانون في ترتيب النزول**، نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين، فتكون من أخريات السور المكية بحيث لم ينزل بعدها بمكّة إلّا سورة المطففين.

وآياتها تسع وستون باتفاق أصحاب العدد من أهل الأمصار.

أغراض السورة

*/ افتتاح هذه السورة بالحروف المقطعة يؤذن بأنّ من أغراضها تحدّي المشركين بالإتيان بمثل سورة منه كما بيّنّا في سورة البقرة.

*/ أوّل أغراض هذه السورة تثبيت المسلمين الذين فتنهم المشركون وصدّوهم عن الإسلام أو عن الهجرة.

*/ وعد الله بنصر المؤمنين وخذل أهل الشرك وأنصارهم وملقنيهم من أهل الكتاب.

*/ الأمر بمجافاة المشركين والابتعاد عنهم ولو كانوا اقرب القرابة.

*/ وجوب صبر المؤمنين على أذى المشركين وأنّ لهم في سعة الأرض ما ينجيهم من أذى أهل الشرك.

*/ مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ما عدا الظالمين منهم.

*/ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالثبات على إبلاغ القرآن وشرائع الإسلام.

*/ التأسّي بأحوال الأمم التي جاءتها الرسل، وأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بمثل ما جاؤوا به.

*/ ما تخلّل أخبارَ من ذُكر فيها من الرسل من العِبَر.

*/ الاستدلال على أنّ القرآن منزّل من عند الله بدليل أمّيّة من أنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

*/ تذكير المشركين بنعم الله عليهم ليقلعوا عن عبادة ما سواه.

*/ إلزامهم بإثبات وحدانيته بأنّهم يعترفون بأنّه خالق من في السماوات ومن في الأرض.

*/ الاستدلال على البعث بالنظر في بدء الخلق وهو أعجب من إعادته.

*/ إثبات الجزاء على الأعمال.

*/ توعّد المشركين بالعذاب الذي يأتيهم بغتة وهم يتهكّمون باستعجاله.

*/ ضرب المثل لاتخاذ المشركين أولياء من دون الله بمَثَل وهن بيت العنكبوت.

{ **الم** } [1]

تقدّم القول في معاني أمثالها مستوفى عند مفتتح سورة البقرة. واعلم أن التهجي المقصود به التعجيز يأتي في كثير من سور القرآن وليس يلزم أن يقع ذكر القرآن أو الكتاب بعد تلك الحروف وإن كان ذلك هو الغالب ما عدا ثلاث سور: وهي فاتحة سورة مريم وفاتحة هذه السورة وفاتحة سورة الروم. على أنّ هذه السورة لم تخل من إشارة إلى التحدّي بإعجاز القرآن لقوله { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } [51].

{ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** } [2]

{ **أَحَسِبَ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار. وحسب بمعنى ظنّ، وتقدّم في قوله تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ } [البقرة:214].

{ **النَّاسُ** } كل الذين آمنوا، فالقول كناية عن حصول المقول في نفس المرء. والتقدير: أحسب الناس تركهم غير مفتونين لأجل قولهم: آمنا.

الترك: عدم تعهّد الشيء بعد الاتصال به. والترك هنا مستعمل في حقيقته، لأنّ الذين آمنوا قد كانوا مخالطين للمشركين، فلمّا آمنوا اختصّوا بأنفسهم وخالفوا أحوال قومهم وذلك مظنّة أن يتركهم المشركون وشأنهم، فلما أبى المشركون إلّا منازعتهم طمعا في إقلاعهم عن الإيمان وقع ذلك منهم موقع المباغتة والتعجّب.

{ **وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** } حال، أي: لا يحسبوا أنّهم سالمون من الفتنة إذا آمنوا.

الفتن والفتون: فساد حال الناس بالعدوان والأذى في الأنفس والأموال والأهلين. والاسم الفتنة. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } [البقرة:102].

{ **يُتْرَكُوا - يُفْتَنُونَ** } البناء للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهور أن الفاعل قوم ليسوا بمؤمنين.

وإنما لم نقدر أنّ الفاعل هو الله تعالى تحاشيا من التشابه مع وجود مندوحة عنه.

{ **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** } [3]

انتقال إلى التنويه بالفتون لأجل الإيمان بالله بأنّه سنّة الله في سالف أهل الإيمان.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المؤمنين حين استبطأوا النصر على الظالمين، منزلة من ينكر أنّ من يخالف الدهماء في ضلالهم ويتجافى عن أخلاقهم ورذالتهم لا بد أن تلحقه منهم فتنة.

{ **فَتَنَّا** } أسند فتون تلك الأمم إلى الله تعالى إسنادا مجازيا لأنّه خالق أسبابه، وفي هذا الإسناد إيماء إلى أنّ الذي خلق أسباب تلك الفتن قريبها وبعيدها قادر على صرفها بأسباب تضادها.

والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد، كما لقي صالحو النصارى من مشركي الرومان في عصور المسيحية الأولى، وقد قصّ القرآن بعض ذلك في سورة البروج.
وحكمها سار في حال كل من يتمسّك بالحق بين قوم يستخفّون به، لأنّ نكران الحق أنواع كثيرة.
{ **فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** } تفريع على جملة { وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ } [2]، أي: يفتنون فيعلم الله الذين صدقوا منهم والكاذبين. والمراد بالصدق هنا ثبات الشيء ورسوخه، وبالكذب ارتفاعه وتزلزله، وذلك أنّ المؤمنين حين قالوا { آمَنَّا } لم يكن منهم من هو كاذب في إخباره عن نفسه، فإذا لحقهم الفتون من أجل دخولهم في دين الإسلام فمن لم يعبأ بذلك ولم يترك أتباع الرسول فقد تبيّن رسوخ إيمانه ورباطة عزمه فكان إيمانه حقًّا وصدقا، ومن ترك الإيمان خوف الفتنة فقد استبان من حاله عدم رسوخ إيمانه وتزلزله، وتقدم هذا المعنى عند قوله تعالى { أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [يونس:2].
{ **فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ** } لمّا كان علم الله بمن يكون إيمانه صادقا عند الفتون ومن يكون إيمانه كاذبا بهذين المعنيين متقرّرا في الأزل من قبل أن يحصل الفتون والصدق والكذب <u>تعيّن تأويل الفعل { فَلَيَعْلَمَنَّ } بمعنى حصول أمر كان في علم الله أنه سيكون</u>، وهو شبيه بتعلّق الإرادة المعبر عنه **بالتعلق التنجيزي**. ولا مانع من إثبات تعلقين لعلم الله تعالى: أحدهما قديم، والآخر تنجيزي حادث. ولا يفضي ذلك إلى اتصاف الله تعالى بوصف حادث لأنّ تعلّق الصفة تحقّق مقتضاها في الخارج لا في ذات موصوفها، وتقدم عند قوله تعالى { إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ } [البقرة:143]، وقوله { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ } [آل عمران:140].
وعدل هنا إلى طريق الغيبة بإظهار اسم الجلالة على أسلوب الالتفات لما في هذا الإظهار من الجلالة، ليُعلم أنّ الجزاء على ذلك جزاء مالك الملك. لأنّ العلم سبب للجزاء بما يقتضيه فكانت الكناية مقصودة.
{ **الَّذِينَ صَدَقُوا** } تعريف المتَّصفين بصدق الإيمان بالموصول والصلة الماضوية لإفادة أنّهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان وأنّ صدقهم محقّق.
{ **الْكَاذِبِينَ** } وأمّا تعريف المتّصفين بالكذب بطريق التعريف باللام وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنّهم عهدوا بهذا الوصف وتميّزوا به، مع ما في ذلك من التفنّن والرعاية على الفاصلة.
قال الطبري : نزلت هذه الآية { الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا - إلى قوله - وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [1-3] في عمار بن ياسر وأمثاله، مثل: عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة ابن هشام ممّن كانوا يعذّبون.

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [4]

أعقب تثبيت المؤمنين على ما يصيبهم من فتون المشركين وما في ذلك من الوعد والوعيد بزجر المشركين على ما يعملونه من السيّئات في جانب المؤمنين، وأعظم تلك السيئات فتونهم المسلمين.

وهذا وعيد بأنّ الله لا يفلتهم. وفيه أيضا زيادة تثبيت للمؤمنين بأنّ الله ينصرهم من أعدائهم.
السبق: مستعمل مجازا في النجاة والانفلات. وتقدّم المعنى عند قوله تعالى { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ } [الأنفال:59]. والمعنى: أم حسبوا أن قد شفوا غيظهم من المؤمنين.
{ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** } ذمّ لحسبانهم ذلك وإبطال له. فهي مقرّرة لمعنى الإنكار في جملة { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } فلها حكم التوكيد فلذلك فصلت.
الحكم :مستعمل في معنى الظن والاعتقاد تهكّما بهم بأنّهم نصبوا أنفسهم منصب الذي يحكم فيطاع.
وهذه الآية وإن كانت واردة في شأن المشركين المؤذين للمؤمنين فهي تحذير للمسلمين من مشابهتهم في اقتراف السيئات استخفافا بوعيد الله عليها لأنّهم في ذلك يأخذون بشيء من مشابهة حسبان الانفلات، وإن كان المؤمن لا يظنّ ذلك، ولكنّه ينزل منزلة من يظنّه لإعراضه عن الوعيد حين يقترف السيّئة.

{ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [5]

هذا مسوق للمؤمنين خاصة لأنّهم الذين يرجون لقاء الله، فالجملة مفيدة التصريح بما أومأ إليه قوله { أَنْ يَسْبِقُونَا } من الوعد بنصر المؤمنين على عدوّهم، مبيّنة لها ولذلك فصلت.
رجاء لقاء الله: ظنّ وقوع الحضور لحساب الله. ولقاء الله: الحشر للجزاء لأنّ الناس يتلقون خطاب الله المتعلق بهم، لهم أو عليهم، مباشرة بدون واسطة، وقد تقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } [البقرة:46]، وقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة: 223].
وعبر بفعل **الرجاء** عن ترقّب البعث لأنّ الكلام مسوق للمؤمنين وهم ممّن يرجو لقاء الله لأنّهم يترقبون البعث لما يأملون من الخيرات فيه. قال بلال رضي الله عنه حين احتضاره متمثلا بقول بعض الأشعريين الذين وفدوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم:

غـدا ألـقـى الأحـبـة ... مـحـمـدا وصـحـبـه

{ **فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ** } إظهار اسم الجلالة مع كون مقتضى الظاهر الإضمار لتقدم اسم الجلالة في جملة الشرط { مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ } لئلا يلتبس معاد الضمير بأن يعاد إلى {مَنْ} إذ المقصود الإعلام بأجل مخصوص وهو وقت النصر الموعود كما في قوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ } [سبأ:29-30]. فيكون الكلام تثبيتا للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حين استبطأ المؤمنون النصر للخلاص من فتنة المشركين. والمعنى : إن كنتم مؤمنين بالبعث إيقانا ينبعث من تصديق وعد الله به فإنّ تصديقكم بمجيء النصر أجدر لأنّه وعدكم به، فـ { مَنْ }

شرطية، وجعل فعل الشرط فعل الكون { مَنْ كَانَ يَرْجُو } للدلالة على تمكّن هذا الرجاء من فاعل فعل الشرط.

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } التذييل بهذين الوصفين دون غيرهما من الصفات العلى للإيماء بوصف { **السَّمِيعُ** } إلى أنّ الله تعالى سمع مقالة بعضهم من الدعاء بتعجيل النصر، كما أشار إليه قوله تعالى { وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } [البقرة:214]. وكقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج سلمة بن هشام اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف** ".

والإيماء بوصف { **الْعَلِيمُ** } إلى أن الله علم ما في نفوسهم من استعجال النصر. ولو كان المراد من {أَجَلَ اللَّهِ} الموت لما كان وجه للإعلام بإتيانه بله تأكيده، وكذا لو كان المراد منه البعث لكان قوله { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ } كافيا، فهذا وجه ما أشارت إليه الآيات بالمنطوق والاقتضاء.

{ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } [6]

أي: ومن جاهد ممّن يرجون لقاء الله، فليست الواو للتقسيم، وليس { مَنْ جَاهَدَ } بقسيم لمن كانوا يرجون لقاء الله، بل الجهاد من عوارض من كانوا يرجون لقاء الله.

الجهاد: مبالغة في الجهد الذي هو مصدر جَهَدَ، إذا جدّ في عمله وتكلّف فيه تعبا، ولذلك شاع إطلاقه على القتال في نصر الإسلام. وهو هنا يجوز أن يكون الصبر على المشاق والأذى اللاحقة بالمسلمين لأجل دخولهم في الإسلام ونبذ دين الشرك حيث تصدّى المشركون لأذاهم. فإطلاق الجهاد هنا هو مثل إطلاقه في قوله تعالى { وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي } [8]، ومثل إطلاقه في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد قفل من إحدى غزواته: " **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** ".

وهذا المحمل هو المتبادر في هذه السورة بناء على أنّها كلها مكّية، لأنّه لم يكن جهاد القتال في مكة.

ويجوز أن يراد بالجهاد المعنى المنقول إليه في اصطلاح الشريعة وهو قتال الكفار لأجل نصر الإسلام والذب عن حوزته، ويكون ذكره هنا لإعداد نفوس المسلمين، فيكون كقوله تعالى { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } [الفتح:16]، ومناسبة التعريض له على هذا المحمل هو أن قوله { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ } تضمّن ترقبا لوعد نصرهم على عدوهم، فقدّم إليهم أن ذلك بعد جهاد شديد وهو ما وقع يوم بدر.

والأوفق ببلاغة القرآن أن يكون المحملان مرادين كما قدّمنا في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [7]

يجوز أن يكون عطفا على جملة { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا } [4] لما تضمّنته الجملة المعطوف عليها من التهديد والوعيد، فعطف عليها ما هو وعد وبشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع ما أفضى إلى ذكر هذا الوعد من قوله قبله { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } [6] فإنّ مضمون جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} يفيد بيان لمن جاهد لنفسه.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } وسلك بها طريق العطف باعتبار ما أومأ إليه الموصول وصلته من أنّ سبب هذا الجزاء الحسن هو أنّهم آمنوا وعملوا الصالحات، وهو على هذا الوجه إظهار في مقام الإضمار لنكتة هذا الإيماء.

{ **لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ** } فالجزاء فضل لأنّ العبد إذا امتثل أمر الله فإنما دفع عن نفسه تبعة العصيان، فأمّا الجزاء على طاعة مولاه فذلك فضلٌ من المولى، وغفران ما تقدّم من سيّئاتهم فضلٌ عظيم لأنّهم كانوا أحقاء بأن يؤاخذوا بما عملوه.

{ **أَحْسَنَ** } انتصب على أنّه وصف لمصدر محذوف هو مفعول مطلق من فعل { لَنَجْزِيَنَّهُمْ }. والتقدير: ولنجزينهم جزاء أحسن. وإضافته إلى { **الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } لإفادة عظم الجزاء.

{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [8] **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** [9] }.

لم يترك القرآن فاذّة من أحوال علائق المسلمين بالمشركين إلّا بين واجبهم فيها المناسب لإيمانهم، ومن أشدّ تلك العلائق علاقة النسب، فالنسب بين المشرك والمؤمن يستدعي الإحسان وطيب المعاشر ولكن اختلاف الدين يستدعي المناواة والمغاضبة، فبيّن الله بهذه الآية ما على المسلم في معاملة أنسبائه من المشركين.

وخصّ بالذكر منها نسب الوالدين لأنّه أقرب نسب، فيكون ما هو دونه أولى بالحكم الذي يشرّع له.

وحدثت قضية أو قضيتان دعتا إلى تفصيل هذا الحكم:

*/ روي أنّ سعد بن أبي وقاص حين أسلم قالت له أمّه حمنة بنت أبي سفيان يا سعد بلغني أنّك صبأت، فوالله لا يظلّني سقف بيت، وإنّ الطعام والشراب عليّ حرام حتّى تكفر بمحمد، وبقيت كذلك ثلاثة أيّام فشكا سعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها

ويترضّاها بالإحسان.

*/ وروي أنّه لما أسلم عياش بن أبي ربيعة المخزومي وهاجر مع عمر بن الخطاب إلى المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل وأخوه الحارث وكانا أخوي عياش لأمّه فنزلا بعياش وقالا له: إنّ محمدا يأمر ببر الوالدين وقد تركت أمّك وأقسمت أن لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتا حتّى تراك وهي أشدّ حبا لك منها لنا، فاخرج معنا. فاستشار عمر فقال عمر: هما يخدعانك، فلم يزالا به حتّى عصى نصيحة عمر وخرج معهما. فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إنّ ناقتي كلت فاحملني معك. قال عياش: نعم، ونزل ليوطئ لنفسه ولأبي جهل. فأخذاه وشداه وثاقا وذهبا به إلى أمّه فقالت له: لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد وأوثقته عندها.

فقيل: إن هذه الآية نزلت في شأنهما.

{ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي** } المقصود من الآية، وإنما افتتحت بـ { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً } لأنّه كالمقدمة للمقصود ليعلم أن الوصاية بالإحسان إلى الوالدين لا تقتضي طاعتهما في السوء ونحوه، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق "**. ولقصد تقرير حكم الإحسان للوالدين في كل حال إلّا في حال الإشراك حتّى لا يلتبس على المسلمين وجه الجمع بين الأمر بالإحسان للوالدين وبين الأمر بعصيانهما إذا أمرا بالشرك.

التوصية: كالإيصاء، يقال: أوصى ووصّى، وهي أمر بفعل شيء في مغيب الآمر به، وتقدّم في قوله تعالى { الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ } [البقرة:180]، وقوله تعالى { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ } [البقرة:132].

الحسن: اسم مصدر، أي بإحسان.

{ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي** } عطف على جملة { وَصَّيْنَا } وهو بتقدير قول محذوف لأنّ المعطوف عليه فيه معنى القول. أي: ألحّا لأجل أن تشرك بي. و**المجاهدة**: الإفراط في بذل الجهد في العمل.

{ **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** } المراد العلم الحق المستند إلى دليل العقل أو الشرع، أي: أن تشرك بي أشياء لا تجد في نفسك دليلا على استحقاقها العبادة، كقوله تعالى { فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [هود:46].

وفي الكشاف: أن نفي العلم كناية عن نفي المعلوم، كأنّه قال: أن تشرك بي شيئا لا يصحّ أن يكون إلها.

{ **إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لزيادة تحقيق ما أشارت إليه مقدّمة الآية من قوله { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً }، لأنّ بقية الآية لما آذنت بفظاعة أمر الشرك وحذّرت من طاعة المرء والديه فيه كان ذلك ممّا يثير سؤالا في نفوس الأبناء أنّهم هل يعاملون الوالدين بالإساءة لأجل إشراكهما فأنبئوا أنّ عقابهما على الشرك مفوض إلى الله تعالى فهو الذي يجازي المحسنين والمسيئين.

المرجع: البعث.

الإنباء: الإخبار، وهو مستعمل كناية عن علمه تعالى بما يعملونه من ظاهر الأعمال وخفيّها. وذلك ايضاً كناية عن الجزاء عليه من خير أو شرّ.

{ **فَأُنَبِّئُكُمْ** } فيه كنايتان: أولاهما إيماء، وثانيتهما تلويح، أي: فأجازيكم ثوابا على عصيانهما فيما يأمران، وأجازيهما عذابا على إشراكهما.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** } تصريح ببعض ما أفادته الكناية التي في قوله تعالى { فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، اهتماما بجانب جزاء المؤمنين.

{ **فِي الصَّالِحِينَ** } من لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أنّ المؤمن لمّا أمر بعصيان والديه إذا أمراه بالشرك كان ذلك ممّا يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة فجعل الله جزاء عن وحشة تلك التفرقة أنسا بجعله في عداد الصالحين يأنس بهم.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ } [10]

هذا فريق من الذين أسلموا بمكّة ولكن لم يصبروا على الأذى فرجعوا إلى الشرك بقلوبهم وكتموا ذلك عن المسلمين فكانوا منافقين، فأنزل الله فيهم هذه الآية قبل الهجرة.

وقد تقدّم في [النحل:106] أنّ من هؤلاء الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبا قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج. فهؤلاء استنزلهم الشيطان فعادوا إلى الكفر بقلوبهم لضعف إيمانهم وكان ما لحقهم من الأذى سبباً لارتدادهم، ولكنّهم جعلوا يظهرون للمسلمين أنّهم معهم. ولعلّ التظاهر كان بتمالؤ بينهم وبين المشركين فرضوا منهم بأن يختلطوا بالمسلمين ليأتوا المشركين بأخبار المسلمين، فعدّهم الله منافقين وتوعّدهم بهذه الآية.

{ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ** } إشارة إلى أن إيمان هؤلاء لم يرسخ، فلا جرم أنّهم من الفريق الذين قال الله تعالى فيهم { وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ } [النحل:106]، وأنّهم غير الفريق الذين استثنى الله تعالى بقوله { إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } [النحل: 106]. فليس بين هذه الآية وآيات أواخر سورة النحل اختلاف كما قد يُتوهّم من سكوت المفسّرين عن بيان الأحكام المستنبطة من هذه الآية مع ذكرهم الإحكام المستنبطة من آيات سورة النحل.

{ **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ** } حرف الظرفية مستعمل في معنى التعليل كاللام، أي: لأجل اتباع ما دعاه الله إليه.

{ **جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ** } يريد جعلها مساوية لعذاب الله، كما هو مقتضى أصل التشبيه، فهؤلاء إن

كانوا قد اعتقدوا البعث والجزاء فمعنى هذا الجعل: أنّهم سوَّوا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فتوقَّوا فتنة الناس وأهملوا جانب عذاب الله فلم يكترثوا به. وإن كانوا نبذوا اعتقاد البعث تبعا لنبذهم الإيمان، فمعنى الجعل: أنّهم جعلوه كعذاب الله عند المؤمنين الذين يؤمنون بالجزاء.

{ **وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** } بيّن الله تعالى نيّتهم في إظهارهم الإسلام بأنّهم جعلوا إظهار الإسلام عُدَّة لما يُتوقع من نصر المسلمين، فيجدون أنفسهم متعرّضين لفوائد ذلك النصر.

وهذا يدلّ على أنّ هذه الآية نزلت بقرب الهجرة من مكة حين دخل الناس في الإسلام وكان أمره في ازدياد. ولعلّ ذلك حصل يوم فتح مكة فقال ذلك من كان حيا من هذا الفريق، وهو قول يريدون به نيل رتبة السابقية في الإسلام. وذكر أهل التاريخ أنّ الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وجماعة من وجوه العرب كانوا على باب عمر ينتظرون الإذن لهم، وكان على الباب بلال وسلمان وعمّار بن ياسر، فخرج إذن عمر أن يدخل سلمان وبلال وعمّار فتمعَّرت وجوه البقيّة، فقال لهم سهيل بن عمرو: " لم تتمعَّر وجوهكم، دُعوا ودُعينا فأسرعوا وأبطأنا ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر ".

{ **أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** } تذييل، والواو اعتراضية، والاستفهام إنكاري إنكارا عليهم قولهم { آمَنَّا بِاللَّهِ } وقولهم { إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ }، لأنّهم قالوا ذلك ظنّا منهم أن يروج كذبهم ونفاقهم على رسول الله، فكان الإنكار عليهم متضمّنا أنّهم كاذبون في قوليهم المذكورين.

والخطاب موجّه للنبيّ صلى الله عليه وسلم لقصد إسماعهم هذا الخطاب فإنّهم يحضرون مجالس النبيّ والمؤمنين ويستمعون ما ينزل من القرآن وما يتلى منه بعد نزوله، فيشعرون أنّ الله مطّلع على ضمائرهم.

ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا وجّه الله به الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة التقرير بما أنعم الله به عليه من إنبائه بأحوال الملتبسين بالنفاق. وهذا الأسلوب شائع في الاستفهام التقريري وكثيرا ما يلتبس بالإنكاري ولا يفرق بينهما إلّا المقام، أي: فلا تصدّق مقالهم.

{ **بِأَعْلَمَ** } اسم التفضيل مسلوب المفاضلة، أي: أليس الله عالما علما تفصيليا لا تخفى عليه خافية.

{ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } [11]

خصّ بالذكر فريقان هما ممّن شمله عموم قوله { الْعَالَمِينَ } [10] اهتماما بهاذين الفريقين وحاليهما، لأنّ العلم بما في صدور الفريقين، من إيمان ونفاق، يترتّب عليه الجزاء المناسب لحاليهما في العاجل والآجل، فذلك ترغيب وترهيب.

{ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ** } جيء بـ (لام القسم) و(نون التوكيد) في جانب الفعل المضارع المستقبل، إمّا لأنّ العلم مكنّى به عن لازمه وهو مقابلة كلّ فريق بما يستحقّه بحسب ما علم من حاله، والمجازاة أمر مستقبل، وإمّا لأنّ

المراد علم بمستقبل، وهو اختلاف أحوالهم يوم يجيء النصر، فلعلّ من كانوا منافقين وقت نزول الآية يكونون مؤمنين يوم النصر ويبقى قوم على نفاقهم.
والمخالفة بين المؤمنين والمنافقين في التعبير عن الأولين بطريق الموصول والصلة الماضوية **{الَّذِينَ آمَنُوا}** وعن الآخرين بطريق اللام واسم الفاعل { **الْمُنَافِقِينَ** } لما يؤذن به الموصول من اشتهارهم بالإيمان وما يؤذن به الفعل الماضي من تمكّن الإيمان منهم وسابقيته، وما يؤذن به التعريف باللام من كونهم عهدوا بالنفاق وطريانه عليهم بعد أن كانوا مؤمنين، ففيه تعريف بسوء عاقبتهم، مع ما في ذلك من التفنّن ورعاية الفاصلة.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [12]

هذا غرض آخر من أغراض مخالطة المشركين مع المؤمنين وهو محاولة المشركين ارتداد المسلمين بمحاولات فتنةٍ بالشك والمغالطة للذين لم يقدروا على فتنتهم بالأذى والعذاب، إمّا لعزّتهم وخشية بأسهم مثل عمر بن الخطاب، فقد قيل: إن هذه المقالة قيلت له، وإمّا لكثرتهم حين كثر المسلمون وأعيت المشركين حيل الصدّ عن الإسلام.
{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } طائفة منهم وهم: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، قبل أن يسلم، قالوا للمسلمين ومنهم عمر بن الخطاب: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك فإنّا نحمل عنكم آثامكم.
وهذا كقول العاصي بن وائل لخباب بن الأرت: لئن بعثني الله ليكوننّ لي مال فأقضيك دينك، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً } [مريم:77].
{ **وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ** } حكى الله عنهم قولهم بصيغة الأمر بلام الأمر، إمّا لأنهم نطقوا بمثل ذلك لبلاغتهم، وإمّا لإفادة ما تضمّنته مقالتهم من تأكيد تحمّلهم بذلك.
الحمل: مجاز تمثيلي لحال الملتزم بمشقة غيره بحال من يحمل متاع غيره، فيؤول إلى معنى الضمان.
{ **خَطَايَاكُمْ** } دلّ على العموم لأنّه جمع مضاف، وهو من صيغ العموم.
{ **وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ** } إبطال لقولهم، نقض العموم في الإثبات بعموم في النفي، لأنّ {شَيْءٍ} في سياق النفي يفيد العموم لأنّه نكرة، وزيادة حرف { مِنْ } تنصيص على العموم.

{ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } [13].

بعد أن كذّبهم في قولهم { وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ }، وكشف كيدهم بالمسلمين عطف عليه ما أفاد أنّهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين وهم الأقوام الذين أضلّوهم وسوّلوا لهم الشرك والبهتان.

الأثقال: مجاز عن الذنوب والتبعات، وهو تمثيل للشقاء والعناء يوم القيامة.

{ **وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } تذييل جامع لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوه من الإفك والتضليل سواء ما أضلّوا به أتباعهم وما حاولوا به تضليل المسلمين فلم يقعوا في أشراكهم، وقد شمل ذلك كله لفظ **الافتراء**، كما عبّر عن محاولتهم تغرير المسلمين بأنهم فيه كاذبون.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** [14] **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** [15] }.

سيقت هذه القصة واللاتي بعدها شواهد على ما لقي الرسل والذين آمنوا معهم من تكذيب المشركين.

وابتدئت القصص بقصة أوّل رسول بعثه الله لأهل الأرض، وقد تقدّم تفصيل قصته في [هود:25-49].

{ **فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً** } زيادة على ما في سورة هود. وظاهر الآية أنّ هذه مدّة رسالته إلى قومه ولا غرض في معرفة عمره يوم بعثه الله إلى قومه، وفي ذلك اختلاف بين المفسّرين وفائدة ذكر هذه المدة للدلالة على شدّة مصابرته على أذى قومه ودوامه على إبلاغ الدعوة تثبيتا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ** } طوي ذكر ما ترتّب عليه أخذهم بالطوفان، وهو استمرار تكذيبهم.

{ **وَهُمْ ظَالِمُونَ** } حال، أي: أخذهم وهم متلبسون بالظلم، أي: الشرك وتكذيب الرسول. وهذا تعريض للمشركين بأنّهم سيأخذهم عذاب.

{ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ** } إيماء إلى أنّ الله منجي المؤمنين من العذاب.

{ **وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** } الضمير للسفينة. ومعنى كونها آية أنّها دليل على وقوع الطوفان عذابا من الله للمكذّبين الرسل، فكانت السفينة آية ماثلة في عصور جميع الأمم الذين جاءتهم الرسل بعد نوح موعظة للمكذّبين وحجّة للمؤمنين. ويجوز أن يكون ضمير النصب في { وَجَعَلْنَاهَا } عائدا إلى الخبر المذكور بتأويل القصة أو الحادثة. قال تعالى { وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر:15].

{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [16] إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [17] }.

الانتقال إلى خبر إبراهيم لمناسبة إنجاء إبراهيم من النار كإنجاء نوح من الماء. وفيه تنبيه إلى عظم القدرة.

{ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ** } اقتضى أنّهم لم يكونوا عابدين لله أصلاً، وفي المسألة خلاف كما سنبيّن.

{ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } تعليل للأمر بعبادة الله. أي: إن كنتم تعلمون أدلّة اختصاص الله بالإلهية.

ويجوز جعل فعل { تَعْلَمُونَ } منزّلا منزلة اللازم، أي: إن كنتم أهل علم ونظر.

{ **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً** } تعليل لجملة {اعْبُدُوا اللَّهَ }. يجوز أن يكون قصرا على عبادتهم الأوثان، أي: دون أن يعبدوا الله فهو قصر حقيقي إذ كان قوم إبراهيم لا يعبدون الله، فالقصر منصبّ على قوله {مِنْ دُونِ اللَّهِ } أي: إنّما تعبدون غير الله.

ويجوز أن يكون قصر قلب لإبطال اعتقادهم إلهية تلك الصور كما قال تعالى { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ }، لأنّهم وُصفوا بالشرك في قوله تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } [الأنعام:78] فهم مثل مشركي العرب، فالقصر منصب على عبادتهم الموصوفة بالوثنية، أي: ما تعبدون إلّا صورا لا إدراك لها.

وعلى كلا الوجهين يكون المعنى: تعبدون أوثانا موصوفة بأنّها مخالفة لصفات الله.

الأوثان: جمع وَثَن (بفتحتين)، وهو صورة من حجر أو خشب مجسّمة على صورة إنسان أو حيوان. والوثن أخصّ من الصنم لأنّ الصنم يطلق على حجارة غير مصوّرة مثل أكثر أصنام العرب كصنم ذي الخلصة لخثعم، وكانت أصنام قوم إبراهيم صورا قال تعالى { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95]. وتقدّم وصف أصنامهم في [الأنبياء:77].

{ **تَخْلُقُونَ** } مضارع خلق الخبر، أي: اختلقه، أي: وتضعون لها أخبارا ومناقب وأعمالا مكذوبة موهومة.

الإفك: الكذب. وتقدّم في قوله { إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ } [النور:11].

{ **إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً** } إن كان قوم إبراهيم يعترفون لله تعالى بالإلهية والخلق والرزق ولكنّهم يجعلون له شركاء في العبادة ليكونوا لهم شفعاء كحال مشركي العرب تكون الجملة تعليلا لجملة { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ }، أي: هو المستحق للعبادة التي هي شكر على نعمه.

وإن كان قومه لا يثبتون إلهية لغير أصنامهم كانت جملة { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } مستأنفة ابتدائية إبطالا لاعتقادهم أن آلهتهم ترزقهم، **ويرجّح هذا الاحتمال** التفريع في قوله { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} .

وقد تقدّم في سورة الشعراء التردّد في حال إشراك قوم إبراهيم، وكذلك في سورة الأنبياء.

{ **رِزْقاً** } التنكير في سياق النفي يدلّ على عموم نفي قدرة أصنامهم على كلّ رزق ولو قليلا.

{ **فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ** } تفريع الأمر بابتغاء الرزق من الله إبطال لظنّهم الرزق من أصنامهم، أو تذكير بأنّ الرازق هو الله، فابتغاء الرزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة كما دلّ عليه عطف قوله تعالى { وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ } .

وقد سلك إبراهيم مسلك الاستدلال بالنعم الحسّية لأنّ إثباتها أقرب إلى أذهان العموم.

{ **عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ** } ظرف مكان وهو مجاز. شبّه طلب الرزق من الله بالبحث عن شيء في مكان يختصّ به.

{ **وَاشْكُرُوا لَهُ** } عدّي الشكر بـ (اللام) جريا على أكثر استعماله في كلام العرب لقصد إفادة ما في (اللام) من معنى الاختصاص، أي: الاستحقاق.

{ **الرِّزْقَ** } لام التعريف هنا هي لام الجنس المفيدة للاستغراق بمعونة المقام، أي: فاطلبوا كلّ رزق، قلّ أو كثر، من الله دون غيره.

{ **إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تعليل للأمر بعبادته وشكره، أي: لأنه الذي يجازي على ذلك ثوابا وعلى ضدّه عقابا، إذ إلى الله لا إلى غيره مرجعكم بعد الموت. وفي هذا إدماج تعليل العبادة بإثبات البعث.

{ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [18]

يجوز أن تكون هذه الجملة من بقية مقالة إبراهيم عليه السلام بأن يكون رأى منهم مخائل التكذيب ففرض وقوعه، أو يكون سبق تكذيبهم إيّاه مقالته هذه، فيكون الغرض من هذه الجملة لازم الخبر، وهو أنّ تكذيبهم إياه ليس بعجيب فلا يضيره، فإنّ ذلك قد انتاب الرسل قبله من أممهم.

ويجوز أن تكون الجملة معترضة بين كلام إبراهيم وجواب قومه، فهو كلام موجّه من جانب الله تعالى إلى المشركين، التفت به من الغيبة إلى الخطاب تسجيلا عليهم، والمقصود منه بيان فائدة سوق قصة نوح وإبراهيم وأنّ للرسول صلى الله عليه وسلم إسوة برسل الأمم الذين قبله وخاصة إبراهيم جدّ العرب المقصودين بالخطاب على هذا الوجه.

{ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** } إعلام للمخاطبين بأنّ تكذيبهم لا يلحقه منه ما فيه تشفٍّ منه، فإن كان من كلام إبراهيم، فهو تصريح بأنّ واجبه إبلاغ ما أرسل به بيّنًا واضحا، وإن كان من خطاب الله مشركي قريش فالمراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد غلب عليه هذا الوصف في القرآن.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [19]

الراجح أن هذا مسوق من جانب الله تعالى إلى المشركين لأنّ الجمهور قرأوا { أَوَلَمْ يَرَوْا } بياء الغيبة.

ومناسبة التعرّض لهذا هو ما جرى من الإشارة إلى البعث في قوله { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } تنظيرا لحال مشركي العرب بحال قوم إبراهيم.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الهمزة للاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية، نزلوا منزلة من لم ير فأنكر عليهم.

الرؤية: يجوز أن تكون بصرية، والاستدلال بما هو مشاهد من تجدّد المخلوقات في كلّ حين.

ويجوز أن تكون الرؤية علمية متعدّية إلى مفعولين: أنكر عليهم تركهم النظر والاستدلال الموصل إلى علم كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، لأنّ أدلة بدء الخلق تفضي بالناظر إلى العلم بأنّ الله يعيد الخلق.

{ **كَيْفَ** } اسم استفهام وهي معلّقة فعل { يَرَوْا } عن العمل في معموله أو معموليه. والمعنى: ألم يتأمّلوا في هذا السؤال، أي: في الجواب عنه. فالاستفهام مستعمل في التنبيه ولفت النظر لا في طلب الإخبار.

إبداء الخلق: بدؤه وإيجاده بعد أن لم يكن موجودا. يقال: **أبدأ**، بهمزة في أوله و**بدأ** بدونها، وقد وردا معا في هذه المقطع إذ قال هنا { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ } ثم قال لاحقا { فانظروا كيف بدأ الخلق } [20].

وجيء بصيغة المضارع لإفادة تجدّد بدء الخلق. ولم يجيء في أسمائه تعالى إلّا **المبدئ** دون البادئ.

الخلق: مصدر بمعنى المفعول، أي: المخلوق، كقوله تعالى { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ } [لقمان:11].

{ **ثُمَّ يُعِيدُهُ** } مستأنفة ابتدائية مستقلة معترضة بين جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا } وجملة { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ }.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ أمر إعادة الخلق أهم وأرفع رتبة من بدئه لأنّه غير مشاهد ولأنّهم ينكرونه.

{ **إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } مبيّنة لما تضمّنه الاستفهام من إنكار عدم الرؤية المؤدية إلى العلم بوقوع الإعادة، إذ أحالوها مع أنّ إعادة الخلق إن لم تكن أيسر من البدء في العرف فلا أقل من كونها مساوية لها، وهذا كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [20]

اعتراض انتقالي من الإنكار عليهم ترك الاستدلال بما هو بمرأى منهم، إلى إرشادهم للاستدلال بما هو بعيد عنهم من أحوال إيجاد المخلوقات وتعاقب الأمم، فإنّ تعوّد الناس بما بين أيديهم يصرف عقولهم عن التأمّل فيما وراء ذلك من دلائل دقائقها على ما تدّل عليه.

فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة.
{ **فَانْظُرُوا** } جيء في هذا الاستدلال بفعل النظر لأنّ إدراك ما خلقه الله حاصل بطريق البصر وهو بفعل النظر أولى وأشهر.
{ **كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ** } جيء بالفعل الماضي لأنّ السائر يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أنّ الذي أوجدها إنّما أوجدها بعد أن لم تكن وأنّه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها. والاستدلال بالأفعال التي مضت أمكن لأنّ للشيء المتقرّر تحقُّقا محسوسا.
{ **ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ** } جملة مستقلّة. و{ ثُمَّ } للترتيب الرتبي. وإظهار اسم الجلالة بعد تقدم ضميره في قوله {كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}، لتسجيل وقوع هذا الإنشاء الثاني، فتكون الجملة مستقلّة حتّى تكون عنوان اعتقاد بمنزلة المثل، لأنّ في اسم الجلالة إحضارا لجميع الصفات الذاتية التي بها التكوين.
النشأة: المرة من النشء وهو الإيجاد، وكذلك قرأها الجمهور، عُبِّر عنها بصيغة المرّة لأنّها نشأة دفعية تخالف النشء الأوّل.
{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل، أي: قدير على البعث وعلى كل شيء إذا أراده. وإظهار اسم الجلالة لتكون جملة التذييل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال.

{ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } [21]

لمّا ذكر النشأة الآخرة أتبع ذكرها بذكر أهمّ ما تشتمل عليه وما أوجدت لأجله وهو الثواب والعقاب. وابتدئ بذكر العقاب لأنّ الخطاب جار مع منكري البعث الذين حظّهم فيه هو التعذيب. والفريقان معلومان من آيات الوعد والوعيد.
{ **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** } تقديم المجرور على عامله للاهتمام والتأكيد، إذ ليس المقام للحصر إذ ليس ثمّة اعتقاد مردود. وفي هذا إعادة إثبات وقوع البعث وتعريض بالوعيد.
القلب: الرجوع، أي: وإليه ترجعون.

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ }[22]

عطفت على جملة { وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } باعتبار ما تضمنته من الوعيد.
المعجز: حقيقته هو الذي يجعل غيره عاجزا عن فعل ما، وهو هنا مجاز في الغلبة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134]. والمفعول محذوف للعلم به، أي: بمعجزين الله.

فالمعنى: وما أنتم بمُفْلَتين من العذاب.

{ **فِي الْأَرْضِ** } يتعلق { بِمُعْجِزِينَ }، أي: ليس لكم انفلات في الأرض، أي: لا تجدون موئلا ينجيكم من قدرتنا عليكم في أي مكان من الأرض.

{ **وَلا فِي السَّمَاءِ** } احتراس وتأييس من الطمع في النجاة، وإن كانوا لا مطمع لهم في الالتحاق بالسماء.

ومنه قوله تعالى { لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ } [سبأ:22].

ولم تقع مثل هذه الزيادة في [الشورى:31] { وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }، لأن تلك الآية جمعت خطابا للمسلمين والمشركين بقوله { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى:30] إذ العفو عن المسلمين.

وما في هذه الآية من الزيادة { وَلا فِي السَّمَاءِ } من المبالغة المفروضة وهي من المبالغة المقبولة. وهي أظهر في قوله تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا } [الرحمن:33]. وفي هذا إشارة إلى إبطال اغترارهم بتأخير الوعيد الذي تُوعّدوه في الدنيا.

{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** } لمّا آيسهم من الانفلات بأنفسهم في جميع الأمكنة أعقبه بتأييسهم من الانفلات من الوعيد بسعي غيرهم لهم، من أولياء يتوسّطون في دفع العذاب عنهم بنحو السعاية أو الشفاعة، أو من نصراء يدافعون عنهم بالمغالبة والقوّة.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [23]

بيان لما في قوله تعالى { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ } [21]، وإنّما عطف لما فيه من زيادة الإخبار بأنّهم لا ينالهم الله برحمة وأنّه يصيبهم بعذاب أليم.

الكفر بآيات الله: هو كفرهم بالقرآن. و**الكفر بلقائه:** إنكار البعث.

{ **بِآيَاتِ اللَّهِ** } التعبير بالاسم الظاهر دون ضمير التكلم للتنويه بشأن الآيات حيث أضيفت إلى الاسم الجليل لما في الاسم الجليل من التذكير بأنّه حقيق بأن لا يكفر بآياته.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة يفيد أنّ ما سيذكره بعده نالهم من أجل ما ذكر قبله من أوصاف، أي: أنّهم استحقّوا اليأس من الرحمة وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم بالقرآن وإنكارهم البعث.

{ **يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي** } أخبر عن يأسهم من رحمة الله بالفعل الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه. والمعنى: أولئك سييأسون من رحمة الله لا محالة.

{ **رَحْمَتِي** } التفات عاد به أسلوب الكلام إلى مقتضى الظاهر.

{ **وَأُولَئِكَ** } إعادة اسم الإشارة لتأكيد التنبيه على استحقاقهم ذلك.

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [24]

لمّا تم الاعتراض الواقع في خلال قصة إبراهيم عاد الكلام إلى بقية القصة بذكر ما أجابه به قومه.

{ **فَمَا** } الفاء تفريع على جملة { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ } [16].

{ **إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ** } جيء بصيغة حصر الجواب للدلالة على أنّهم لم يتردّدوا في جوابه وكانت كلمتهم واحدة في تكذيبه، وهذا من تصلّبهم في كفرهم. وإنّما تردّدوا في طريق إهلاكه بين القتل بالسيف والإتلاف بالإحراق ثم استقر أمرهم على إحراقه لما دل عليه قوله تعالى:

{ **فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ** } وقد أُجمل إنجاؤه من النار هنا وهو مفصّل في [الأنبياء:69].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } الإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى الإنجاء من النار، وجعل ذلك الإنجاء آيات ولم يجعل آية واحدة لأنّه يدلّ على قدرة الله، وكرامة رسوله، وتصديق وعده، وإهانة عدوه، وأنّ المخلوقات كلّها جليلها وحقيرها مسخّرة لقدرة الله تعالى.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } جيء بهذا التركيب ليدلّ على أنّ إيمانهم متمكّن منهم ومن مقومات قوميتهم. وفيه تعريض بأنّ تلك الآيات لم يصدق بها قوم إبراهيم لشدّة مكابرتهم وكون الإيمان لا يخالط عقولهم.

{ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [25]

الأظهر من ترتيب الكلام أن تكون مقالته هذه بعد أن أنجاه الله من النار، أراد بها إعلان مكابرتهم الحقّ وإصرارهم على عبادة الأوثان بعد وضوح الحجّة عليهم بمعجزة سلامته من حرق النار.

{ **إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ** } محط القصر هو المفعول لأجله { **مَوَدَّةَ** بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، أمّا قصر المعبودات من دون الله على كونها أوثانا فقد سبق في قوله { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً } [17]. أي: ما اتخذتم أوثانا إلّا لأجل مودّة بعضكم بعضا. ووجه الحصر أنّه لم تبق لهم شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بإبطالها فتمحّض أن يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودة بعضهم بعضا الداعية لإباية المخالفة.

الأوثان: تقدم ذكرها قريبا.

المودة: المحبة والإلف، ويتعين أن يكون ضمير { **بَيْنِكُمْ** } شاملا للأوثان.

قال الفخر: أي مودة بين الأوثان وعَبَدتها، فإنّ من غلبت عليه اللذات الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية. والخبر مستعمل في غير إفادة الحكم بل في التنبيه على الخطأ.

{ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً** } تنبيه لسوء عاقبة هذه المودّة وإزالة للغرور والغفلة، ليعلموا أنّ اللذات العاجلة لا عبرة بها إن كانت تعقب ندامة آجلة. والمعنى: أنّ المخاطبين يكفرون بالأصنام التي كانوا يعبدونها، إذ يجحدون يوم القيامة أنّهم كانوا يعبدونها.

{ **وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } ثم ذكر ما يعمّهم من عذاب الخزي وانعدام النصير. وجيء في نفي الناصر بصيغة الجمع هنا خلافا لقوله آنفا { وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [22] لأنّهم لمّا تألّبوا على إبراهيم وتجمّعوا لنصرة أصنامهم كان جزاؤهم حرمانهم من النصراء مطابقة بين الجزاء والحالة التي كانوا عليها. على أن المفرد والجمع في حيّز النفي سواء في إفادة نفي كلّ فرد من الجنس.

{ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [26]

{ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ** } جملة معترضة بين الإخبار عن إبراهيم اعتراضَ التفريع، وأفادت الفاء مبادرة لوط بتصديق إبراهيم. والاقتصار على ذكر لوط يدلّ على أنّه لم يؤمن به إلّا لوط لأنّه الرجل الفرد الذي آمن به وأمّا امرأة إبراهيم وامرأة لوط فلا يشملهما اسم القوم في قوله تعالى { وإبراهيم إذ قال لقومه } لأن القوم خاص برجال القبيلة. وفي التوراة أنّه كانت معه زوجه (سارة) وزوج لوط واسمها (ملكة). ولوط هو ابن (هارون) أخي إبراهيم، فلوط يومئذ من أمّة إبراهيم عليهما السلام.

{ **وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } عطف على جملة { فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ } [24].

{ **قَالَ** } الضمير عائد إلى إبراهيم، أي: أعلن أنّه مهاجر ديار قومه وذلك لأنّ الله أمره بمفارقة أهل الكفر. وهذه أوّل هجرة لأجل الدين ولذلك جعلها هجرة إلى ربّه.

المهاجرة: مفاعلة من الهجر: وهو ترك شيء كان ملازما له، والمفاعلة للمبالغة أو لأن الذي يهجر قومه يكونون هم قد هجروه أيضا.

{ **إِلَى رَبِّي** } حرف (إِلَى) للانتهاء المجازي، إذ جعل هجرته إلى الأرض التي أمره الله بأن يهاجر إليها كأنها هجرة إلى ذات الله تعالى فتكون { إِلَى } تخييلا لاستعارة مكنية.

أو جعل هجرته من المكان الذي لا يعبد أهله الله لطلب مكان ليس فيه مشركون بالله كأنه هجرة إلى الله، فتكون {إِلَى} على هذا الوجه مستعارة لمعنى لام التعليل استعارة تبعية.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } جملة واقعة موقع التعليل لمضمون { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي }، لأنّ من كان عزيزا يعتز به جاره ونزيله.

{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } لإفادة أنّ عزّته محكمة واقعة موقعها المحمود عند العقلاء مثل نصر المظلوم، ونصر الداعي إلى الحق، ويجوز أن يكون { الْحَكِيمُ } بمعنى الحاكم فيكون زيادة تأكيد معنى { الْعَزِيزُ }.
وقد مضت قصة إبراهيم وقومه وبلادهم مفصّلة في [الأنبياء:51-73].

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [27]

هذا الكلام عُقّبت به قصة إبراهيم تبيانا لفضله إذ لا علاقة له بالقصة. والظاهر أن يكون المراد بـ { **وَهَبْنَا، وَجَعَلْنَا** } الإعلام بذلك، فيكون من تمام القصّة كما في [هود:71]. وتقدّم نظير هذه الآية في [الأنعام:84].
الكتاب: مراد به الجنس، فالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن كتب نزلت في ذرّيّة إبراهيم.
{ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } جمع الله له أجرين: أجرا في الدنيا بنصره على أعدائه وبحسن السمعة وبث التوحيد ووفرة النسل، وأجرا في الآخرة وهو كونه في زمرة الصالحين.
{ **الصَّالِحِينَ** } التعريف للكمال، أي: من كُمَّل الصالحين.

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ [28] أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [29] قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ [30] }.

الانتقال من رسالة إبراهيم إلى قومه إلى رسالة لوط لمناسبة أنّه شابه إبراهيم في أن أنجاه الله من عذاب الرجز. وتقدم نظيرها في [النمل:54-58]، وفي [الشعراء:160-169]. وما بين الآيات من تفاوت هو تفنّن في حكاية القصة للغرض الذي ذكرته في المقدّمة السابعة.
قوم لوط: من الكنعانيين، وتقدم ذكرهم في [الأعراف:80].
{ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ** } لم يقع له نظير فيما مضى. وتوكيد الجملة بـ (إنَّ) والـ (لام) توكيد لتعلق النسبة بالمفعول، فالمقصود تحقيق أنّ الذي يفعلونه فاحشة، أي: عمل قبيح بالغ الغاية في القبح، لأنّ **الفحش** بلوغ الغاية في شيء قبيح، لأنّهم كانوا غير شاعرين بشناعة عملهم وقبحه.
{ **مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ** } تشديد في الإنكار عليهم في أنّهم الذين سنُّوا هذه الفاحشة السيّئة للناس وكانت لا تخطر لأحد ببال، وإنّ كثيرا من المفاسد تكون الناس في غفلة عن ارتكابها لعدم الاعتياد بها حتّى إذا أقدم أحد على فعلها وشوهد ذلك منه تنبّهت الأذهان إليها وتعلّقت الشهوات بها.

{ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** } بدل اشتمال من مضمون جملة { لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ }، لأن إتيان الرجال وقطع السبيل وإتيان المنكر في ناديهم ممّا يشتمل عليه إتيان الفاحشة.

وأدخل استفهام الإنكار على جميع التفصيل وأعيد حرف التأكيد لتتطابق جملة البدل مع الجملة المبدل منها.

قطع السبيل: قطع الطريق، أي: التصدّي للمارين فيه بأخذ أموالهم أو قتل أنفسهم أو إكراههم على الفاحشة. وكانوا يقعدون بالطرق ليأخذوا من المارة من يختارونه. فهو فساد في ذاته وهو أفسد في هذا المقصد.

إتيان المنكر في ناديهم: فإنّهم جعلوا ناديهم للحديث في ذكر هذه الفاحشة والاستعداد لها.

النادي: المكان الذي ينتدي فيه الناس، أي: يجتمعون نهارا للمحادثة والمشاورة وهو مشتق من **النَّدْو** بوزن العفو، وهو الاجتماع نهارا. وأمّا مكان الاجتماع ليلا فهو السامر، ولا يقال للمجلس ناد إلّا ما دام فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يسم ناديا.

{ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } الكلام فيه كالقول في نظيره المتقدّم في قوله { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ } [24].

{ **ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ** } الأمر للتعجيز، وهو يقتضي أنّه أنذرهم العذاب في أثناء دعوته. ولم يتقدّم ذكر ذلك في قصة لوط فيما مضى، لكن الإنذار من شؤون دعوة الرسل.

{ **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ** } أراد بالنصر عقاب المكذّبين ليريهم صدق ما أبلغهم به.

ووصفهم بـ { الْمُفْسِدِينَ } لأنّهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتدريبهم بها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر لأنّ الله لا يحبّ المفسدين.

{ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ [31] قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [32] }.

{ **لَمَّا** } أداة تدلّ على التوقيت، تستلزم جملتين: أولاهما فعلية ماضوية وتضاف إليها { لَمَّا }، والثانية فعلية أو اسمية مشتملة على ما يصلح لأنّ يتعلّق به الظرف من فعل أو اسم مشتق، ويطلق على الجملة الثانية الواقعة بعد (لَمَّا) اسم الجزاء تسامحا.

{ **جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى** } هي ما دلّ عليه قوله تعالى آنفا { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } [27]. ومن لطف الله بإبراهيم أن قدّم له البشرى قبل إعلامه بإهلاك قوم لوط.

البشرى: اسم للبشارة، وهي الإخبار بما فيه مسرّة للمخبَر (بفتح الباء) وتقدّم ذكر البشارة عند قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119].

القرية: هي (سدوم) قرية قوم لوط. وتقدّم ذكرها في [الأعراف:82].

{ **إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ** } تعليل للإهلاك وقصد به استئناس إبراهيم لقبول هذا الخبر المحزن، وأيضا لأنّ العدل يقتضي ألّا يكون العقاب إلّا على ذنب يقتضيه.

الظلم: ظلمهم أنفسهم بالكفر والفواحش، وظلمهم الناس بالغصب على الفواحش والتدرّب بها.

{ **قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً** } خبر مستعمل في التذكير بسنة الله مع رسله من الإنجاء من العذاب الذي يحلّ بأقوامهم. ولوط وإن لم يكن من أهل القرية بالأصالة إلّا أنّ كونه بينهم يقتضي الخشية عليه من أن يشمله الإهلاك. ولهذا قال { إِنَّ فِيهَا لُوطاً } بحرف الظرفية ولم يقل: إنّ منها.

{ **قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا** } أي: نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند الله، واستحقاق غيره العذاب، فإنّ الملائكة لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، وكان جوابهم مُطَمْئِنًا إبراهيم.

{ **لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** } بيان لجملة { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا } فلذلك لم تعطف عليها وفصلت، فقد علموا بإذن الله ألّا ينجو إلا لوط وأهله، أي: بنتاه لا غير، ويهلك الباقون حتّى امرأته.

{ **كَانَتْ** } مستعمل في معنى تكون، فعبّر بصيغة الماضي تشبيها للفعل المحقّق وقوعه بالفعل الذي مضى مثل قوله { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، ويجوز أن يكون مرادا به الكون في علم الله، وتقديره، كما في قوله تعالى { قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ } [النمل:57]، فتكون صيغة الماضي حقيقة.

{ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } [33]

{ **أَنْ** } حرف مزيد للتوكيد وأكثر ما يزاد بعد { لَمَّا } وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد { لَمَّا }، فهي لتحقيق الربط بين مجيء الرسل ومساءة لوط بهم. ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران بين الشرط والجزاء، وذلك لما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم. ولم يكن لوط عالما بأنّهم ملائكة لأنهم جاءوا في صورة رجال، فأريد هنا التنبيه على أنّ ما حدث به من المساءة وضيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنّهم ملائكة جاءوا لإهلاك أهل القرية. وقد تقدّم تفصيل ذلك في [هود:77-81].

{ **سِيءَ** } بناء الفعل للمجهول لأنّ المقصود حصول المفعول دون فاعله.

{ **وَقَالُوا لا تَخَفْ** } قدّموا تأمينه قبل إعلامه بأنّهم منزلون العذاب على أهل القرية تعجيلا بتطمينه.

وقد طويت جمل دلّ عليها قوله { إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ} وهي الجمل التي ذكرت معانيها في قوله تعالى { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ - إلى قوله - قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ } [هود:81].

{ **وَلا تَحْزَنْ** } عطف على { لا تَخَفْ } جمع بين تأمينه من ضرّ العذاب وبين إعلامه بأنّ الذين سيهلكون ليسوا أهلا لأن يحزن عليهم، ومن أولئك امرأته لأنّه لا يحزن على من ليس بمؤمن به.

{ **إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** } تعليل للنهي عن الأمرين. واستثناء امرأته من عموم أهله استثناء من التعليل لا من النهي، ففي ذلك معذرة له بما عسى أن يحصل له من الحزن على هلاك امرأته مع أنّه كان يحسبها مخلصة له، وقد بيّنا وجه ذلك في تفسير سورة هود.

{ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [34]

مستأنفة وقعت بيانا لما في جملة { لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ } من الإيذان بأنّ ثمة حادثا يخاف منه ويحزن له.

الرجز: العذاب المؤلم. ومعنى كونه من السماء أنّه أنزل عليهم من الأفق، وقد مضى بيانه في سورة هود.

{ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [35]

عطف على { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... } عطف آية على آية لأنّ قصة لوط آية بما تضمّنته من الخبر، وآثار قرية قومه آية أخرى بما يمكن مشاهدته لأهل البصر. ويجوز أن تكون جملة معترضة في آخر القصة.

وعلى كلا الوجهين فهو من كلام الله.

والمعنى: ولقد تركنا من القرية آثارا دالة لقوم يستعملون عقولهم في الاستدلال بالآثار على أحوال أهلها.

وهذه العلامة هي بقايا قريتهم مغمورة بماء بحيرة لوط تلوح من تحت المياه شواهد القرية، وبقايا لون الكبريت والمعدن التي رجمت بها قريتهم وفي ذلك عدّة أدلة باختلاف مدارك المستدلين.

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [36]

التقدير: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً. والمناسبة في الانتقال من قصة لوط وقومه إلى قصة مدين ورسولهم أنّ **مدين** كان من أبناء إبراهيم وأنّ الله أنجاه من العذاب كما أنجى لوطا.

{ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً** } تقديم المجرور ليتأتى الإيجاز في وصف شعيب بأنّه أخوهم لأنّ هذا الوصف غير موجود في نوح وإبراهيم ولوط. وتقدّم معنى كونه أخا لهم في [هود:84].

الرجاء: الترقّب واعتقاد الوقوع في المستقبل. وأمره إيّاهم بترقّب اليوم الآخر دلّ على أنّهم كانوا لا يؤمنون بالبعث.

{ **وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** } تقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [البقرة:60]. وتقدمت قصة شعيب في [هود:84-95].

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [37]

الأخذ: الإعدام والإهلاك؛ شبّه الإعدام بالأخذ بجامع الإزالة.

الرجفة: الزلزال الشديد الذي ترتجف منه الأرض، وفي [هود:94] سمّيت بـ (**الصيحة**) لأنّ لتلك الرجفة صوتا شديدا كالصيحة. وتقدم تفسير ذلك.

{ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ } [38]

لمّا جرى ذكر أهل مدين وقوم لوط أُكملت القصص بالإشارة إلى عاد وثمود، إذ قد عُرف في القرآن اقتران هذه الأمم في نسق القصص.

{ **وَعَاداً** } يجوز أن يكون الفتح بفعل مقدّر يدل عليه السياق، تقديره: وأهلكنا عادا، لأنّ قوله آنفا { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } [37] يدلّ على معنى الإهلاك، قاله الزجاج وتبعه الزمخشري. ويجوز أن يكون معطوفا على ضمير { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ }، والتقدير: وأخذت عادا وثمودا. ويجوز أن يقدّر فعل (واذكر) كما هو ظاهر ومقدّر في كثير من قصص القرآن.

والأظهر أن نجعله منصوبا بفعل تقديره (وأخذنا) يفسره قوله { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ } [40] لأنّ (كلًّا) اسم يعمّ المذكورين فلمّا جاء منتصبا بـ { أَخَذْنَا } تعين أنّ ما قبله منصوب بمثله وتنوين العوض الذي لحق (كلا) هو الرابط، وأصل نسج الكلام: وعادا وثمودا وقارون وفرعون الخ... كلّهم أخذنا بذنبه.

{ **وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ** } في موضع الحال أو هي معترضة. والمعنى: تبين لكم من مشاهدة مساكنهم أنّهم كانوا فيها فأُهلكوا عن بكرة أبيهم. و**مساكن عاد وثمود** معروفة عند العرب ومنقولة بينهم أخبارها وأحوالها ويمرّون عليها في أسفارهم إلى اليمن وإلى الشام.

{ **تَبَيَّنَ** } الضمير المستتر عائد على المصدر المأخوذ من الفعل المقدّر، أي يتبيّن لكم إهلاكهم أو أخذنا إيّاهم.

{ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** } معطوفة على جملة { وَعَاداً وَثَمُودَ}.

التزيين: التحسين. والمراد: زيّن لهم أعمالهم الشنيعة فأوهمهم بوسوسته أنّها حسنة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } [الأنعام:108].
الصدّ: المنع عن عمل. و**السبيل**: هنا ما يوصل إلى المطلوب الحق وهو السعادة الدائمة. فإنّ الشيطان بتسويله لهم كفرهم قد حرمهم من السعادة الأخروية فكأنّه منعهم من سلوك طريق يبلّغهم إلى المقر النافع.
{ **وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** } أي: أنّهم كانوا أهل بصائر، أي: عقول فلا عذر لهم في صدّهم عن السبيل.
الاستبصار: البصارة بالأمور، والسين والتاء للتأكيد مثل: استجاب واستمسك.

{ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ } [39]

كما ضرب الله المثل لقريش بالأمم التي كذبت رسلها فانتقم الله منها، كذلك ضرب المثل لصناديد قريش مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وأبي لهب، بصناديد بعض الأمم السالفة كانوا سبب مصاب أنفسهم ومصاب قومهم الذين اتّبعوهم، إنذارا لقريش بما عسى أن يصيبهم من جرّاء تغرير قادتهم بهم وإلقائهم في خطر سوء العاقبة.
{ **بِالْبَيِّنَاتِ** } وهي المعجزات التي تحدّاهم بها على صدقه فأعرض فرعون عنها وأتبعه هامان وقومه. وأمّا ما جاء به موسى لقارون فنهيه عن البطر. وتقدّمت قصصهم في [القصص:36-42 /76-82]
{ **فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ** } إيماء إلى أنّهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء كقوله تعالى { وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ } [الجاثية:23]، فكان حالهم كحال صناديد قريش الذين لا يُظنّ أنّ فطنتهم لم تبلغ بهم إلى تحقُّق أنّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم صدق وأنّ ما جاء به القرآن حقّ ولكن غلبت الأنفة.
الاستكبار: شدّة الكبر، فالسين والتاء للتأكيد، كقوله تعالى { وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ }.
{ **فِي الْأَرْضِ** } التعريف للعهد، فيصحّ أن يكون المعهود هو أرض كلّ منهم، أو أن يكون المعهود الكرة الأرضية، مبالغة في انتشار استكبار كلّ منهم في البلاد حتى كأنّه يعمّ الدنيا كلها.
{ **وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ** } أي: الانفلات من تصريف الحكم فيهم. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوا } [الأنفال:59]، فالواو للحال، أي: استكبروا في حال أنّهم لم يفدهم استكبارهم.
وإقحام فعل الكون بعد النفي لأنّ المنفي هو ما حسبوه نتيجة استكبارهم، أي: أنّهم لا ينالهم أحد لعظمتهم.

{ فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [40]

أي: فكان من عاقبة ذلك أن أخذهم الله بذنوبهم العظيمة الناشئة عن تزيين الشيطان لهم أعمالهم وعن استكبارهم في الأرض، وليس المفرّع هو أخذ الله إياهم بذنوبهم لأنّ ذلك قد أشعر به ما قبل التفريع، ولكنه ذُكر ليُفضي بذكره إلى تفصيل أنواع أخذهم، وللدلالة على عظيم تصرّف الله.

{ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً } فهم عاد. و**الحاصب**: الريح الشديدة، سُمِّيت حاصبا لأنها تقلع الحصباء من الأرض. وليس المراد بهم قوم لوط كالذي في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ } [القمر:34]، فقد مرّ آنفا الكلام على عذابهم مفصّلا فلا يدخلون في هذا الإجمال.

{ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ } هم ثمود.

{ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ } هو قارون وأهله. وقد تقدّم ذكر الخسف في [القصص:81-82]

{ مَنْ أَغْرَقْنَا } فرعون وهامان ومن معهما من قومهما.

الأخذ: الإتلاف والإهلاك، شبّه الإعدام بالأخذ بجامع إزالة الشيء من مكانه، فاستعير له فعل { أَخَذْنَا }.

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ } نُفي عن الله تعالى ظلم هؤلاء لأنّ إيلامهم كان جزاء على أعمالهم.

{ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } هو تسبّبهم في عذاب أنفسهم فجروا إليها العقاب، لأنّ النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها. والاستدراك ناشئ عن نفي الظلم عن الله في عقابهم لأنّه يُتوهم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هذا التوهم.

{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [41]

لمّا بُيّنت لهم الأشباه والأمثال من الأمم التي اتخذت الأصنام من دون الله فما أغنت عنهم أصنامهم لمّا جاءهم عذاب الله، **أعقب** ذلك بضرب المثل لحال جميع أولئك وحال من ماثلهم من مشركي قريش في اتخاذهم ما يحسبونه دافعا عنهم، وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتا تحسب أنّها تعتصم به من المعتدي عليها فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك فيسقط ويتمزّق. والمقصود بهذا الكلام مشركو قريش.

وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن كما سيأتي قريبا عند قوله { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ } [43].

{ الْعَنْكَبُوتِ } صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي أصناف، وسُمِّي مسكنها بيتا لشبهه بالخيمة في

أنّه منسوج ومشدود من أطرافه، فهو كبيت الشعر.
{ **وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ** } معترضة مبيّنة وجه الشبه، وهذه الجملة تجري مجرى المثل فيضرب لقلة جدوى شيء، فاقتضى ذلك أنّ الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الرشد وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت في الأوهنية.
{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } متصلة بجملة { كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ} لا بجملة { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ }.
فتقدير جواب { لَوْ } هكذا: لو كانوا يعلمون أنّ ذلك مثلهم.

{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [42]

لما نفى عنهم العلم بما تضمّنه التمثيل من حقارة أصنامهم التي يعبدونها وقلّة جدواها بقوله { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [41] المفيد أنّهم لا يعلمون، **أعقبه** بإعلامهم بعلمه بدقائق أحوال تلك الأصنام على اختلافها واختلاف معتقدات القبائل التي عبدتها، دفعا بهم إلى أن يتّهموا عقولهم وأنّ عليهم النظر في حقائق الأشياء.
فهذا توقيف لهم على تفريطهم في علم حقائق الأمور التي علمها الله وأبلغهم دلائلها النظرية ونظائرها التاريخية، وقرّبها إليهم بالتمثيلات الحسية فعموا وصموا عن هذا وذاك.
{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل، فهو عزيز لا يغلب، وحكيم لا تنطلي عليه الأوهام.

{ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [43]

بعد أن بيّن الله لهم فساد معتقدهم في الأصنام، وأعقبه بتوقيفهم على جهلهم بذلك، **نعى** عليهم هنا أنّهم ليسوا بأهل لتفهّم تلك الدلائل التي قُرّبت إليهم بطريقة التمثيل.
{ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ** } اسم الإشارة للتنويه بالأمثال المضروبة في القرآن التي منها هذا المثل بالعنكبوت.
{ **نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ** } خبر عن اسم الإشارة. وهذه الجملة الخبرية مستعملة في الامتنان لأنّ في ضرب الأمثال تقريبا لفهم الأمور الدقيقة. قال الزمخشري: " ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المُثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتّى تريك المتخيَّل في صورة المتحقّق والغائبَ كالمُشاهد " . وتقدّم بيان مزيّة ضرب الأمثال عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا } [البقرة:26].
{ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** } العقل هنا بمعنى الفهم، أي: لا يفهم مغزاها إلّا الذين كملت عقولهم فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام. وفي هذا تعريض بأنّ الذين لم ينتفعوا بها جهلاء العقول، فما بالك بالذين اعتاضوا عن

التدبّر في دلالتها باتخاذها هُزْءًا وسخرية. كما كان حال قريش لمّا سمعوا قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ} [الحج:73]، وقوله { كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً } [41] قالوا: ما يستحيي محمد أن يُمثِّل بالذباب والعنكبوت والبعوض.

{ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ } [44]

بعد أن بيّن الله تعالى عدم انتفاع المشركين بالحجّة ومقدماتها ونتائجها الموصلة إلى بطلان إلهية الأصنام مستوفاة مغنية لمن يريد التأمّل والتدبّر في صحة مقدّماتها بإنصاف، **نُقل** الكلام إلى مخاطبة المؤمنين لإفادة التنويه بشأن المؤمنين إذ انتفعوا بما هو أدقّ من ذلك، وهو حالة النظر والفكر في دلالة الكائنات على أنّ خالقها هو الله، وأن لا شيء غيره حقيقا بمشاركته في إلهيّتة. فأفْهَمَ ذلك أنّ من لم يعقلوها ليسوا بعالمين.

{ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } ما يشمل ذاتهما والموجودات المظروفة فيهما.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة. والحق في كلّ عمل هو إتقانه وحصول المراد منه، قال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً } [ص:27].

{ **لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** } الاقتصار عند ذكر دليل الوحدانية على انتفاع المؤمنين بتلك الدلالة المفيد بأن المشركين لم ينتفعوا بذلك يشبه الاحتباك بين الآيتين.

{ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [45]

بعد أن ضرب الله للناس المثل بالأمم السالفة جاء بالحجّة المبيّنة فساد معتقد المشركين، ونوّه بصحة عقائد المؤمنين بمنتهى البيان الذي ليس وراءه مطلب، **أَقْبَلَ** على رسوله بالخطاب الذي يزيد تثبيته على نشر الدعوة وملازمة الشرائع وإعلان كلمة الله بذلك. وما الرسول عليه الصلاة والسلام إلّا قدوة للمؤمنين وسيدهم فأمره أمر لهم، كما دلّ عليه التذييل بقوله { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } بصيغة جمع المخاطبين.

{ **اتْلُ** } حذف متعلّق الفعل ليعم التلاوة على المسلمين وعلى المشركين. وهذا كقوله تعالى { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا - إلى قوله - وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ} [النمل:91-92].

{ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** } أمره بإقامة الصلاة لأنّ الصلاة عمل عظيم، والأمر

يشمل الأمّة، فقد تكرّر الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة. وعلّل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني.

{ **إنَّ** } موقع فاء التعليل، ولا شك أنّ هذا التعليل موجّه إلى الأمّة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم معصوم.

وإذ كانت الآية مسوقة للتنويه بالصلاة وبيان مزيّتها في الدين تعيّن أن يكون المراد: أنّ الصلاة تحذّر من الفحشاء والمنكر تحذيرا هو من خصائصها.

قال ابن عطية: " وذلك عندي بأنّ المصلّي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات صلحت بذلك نفسه وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطّرد ذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر".

والوجه عندي في معنى الآية: أن يُحمل فعل { تَنْهَى } على المجاز الأقرب إلى الحقيقة وهو تشبيه ما تشتمل عليه الصلاة بالنهي، وتشبيه الصلاة في اشتمالها عليه بالناهي، ووجه الشبه أنّ الصلاة تشتمل على مُذكِّرات بالله، من أقوال وأفعال، من شأنها أن تكون للمصلّي كالواعظ المذكّر بالله تعالى، إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله.

<u>ففي الصلاة من الأقوال</u>؛ تكبير لله وتحميده وتسبيحه والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلّها تُذكّر بالتعرض إلى مرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلى غضبه فذلك صد عن الفحشاء والمنكر.

<u>وفي الصلاة أفعال</u>؛ هي خضوع وتذلل لله تعالى من قيام وركوع وسجود وذلك يُذكّر بلزوم اجتلاب مرضاته والتباعد عن سخطه. وكلّ ذلك ممّا يصدّ عن الفحشاء والمنكر.

<u>وفي الصلاة أعمال قلبية</u>؛ من نيّة واستعداد للوقوف بين يدي الله وذلك يُذكّر بأنّ المعبود جدير بأن تُمتثل أوامره وتُجتنب نواهيه.

فكانت الصلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر، فإن الله قال { تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } ولم يقل تصدّ وتحول ونحو ذلك مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر.

وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزّعة على أوقات من النهار والليل ليتجدّد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرّر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتّى تصير التقوى ملكة لها.

ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. روى أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، فقال: " **سينهاه ما تقول** "، أي: صلاته بالليل.

الفحشاء: اسم للفاحشة، والفحش: تجاوز الحدّ المقبول. فالمراد من الفاحشة: الفعلة المتجاوزة ما يُقبل بين الناس. وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169]. والمقصود هنا من الفاحشة: تجاوز الحدّ المأذون فيه شرعا من القول والفعل، و**المنكر**: ما ينكره الشرع ولا يرضى بوقوعه.

{ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** } يجوز أن يكون عطفا على جملة { إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } فيكون عطف علّة على علّة، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة، كما في قوله تعالى { فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } [الجمعة:9]، أي: صلاة الجمعة. ويكون العدول عن لفظ الصلاة الذي هو كالاسم لها إلى التعبير عنها بطريق الإضافة للإيماء إلى تعليل أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي: إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر لأنّها ذكر الله وذكر الله أمر كبير. فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة مقصود به قوة الوصف كما في قولنا: الله أكبر، لا تريد أنّه أكبر من كبير آخر.

ويجوز أن يكون عطفا على جملة { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ }. والمعنى: واذكر الله فإنّ ذكر الله أمر عظيم، فيصحّ أن يكون المراد من الذكر تذكُّر عظمة الله تعالى. ويصحّ أن يكون المراد ذكر الله باللسان ليعمّ ذكر الله في الصلاة وغيرها. واسم التفضيل أيضا مسلوب المفاضلة.

ويجوز أن يكون المراد بالذكر تذكّر ما أمر الله به ونهى عنه، أي: مراقبة الله تعالى وحذر غضبه، فالتفضيل على بابه، أي: ولذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة في ذلك النهي، وذلك لإمكان تكرار هذا الذكر أكثر من تكرر الصلاة فيكون قريبا من قول عمر رضي الله عنه: أفضل من شكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** } تذييل لما قبله، وهو وعد ووعيد باعتبار ما اشتمل عليه الكلام السابق.

الصنع: العمل.

{ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [46]

عطف على جملة { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } [45]، باعتبار ما تستلزمه تلك من متاركة المشركين والكفّ عن مجادلتهم بعد قوله تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [43].

وهذه توطئة لما سيحدث من الدعوة في المدينة بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنّ مجادلة أهل الكتاب لا تعرض للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولا للمؤمنين في مكّة، ولكن لمّا كان النبيّ عليه الصلاة والسلام في إبّان نزول أواخر هذه السورة على وشك الهجرة إلى المدينة وكانت الآيات السابقة مجادلة للمشركين غليظة

عليهم من تمثيل حالهم بحال العنكبوت، وقوله { وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } هيّأ الله لرسوله عليه الصلاة والسلام طريقة مجادلة أهل الكتاب.

والآية معترضة بين محاجّة المشركين والعود إليها في قوله { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ } [47].

{ **وَلا تُجَادِلُوا** } جيء في النهي بصيغة الجمع ليعمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، إذ قد تعرض للمسلمين مجادلات مع أهل الكتاب في غير حضرة النبيّ صلى الله عليه وسلم أو قبل قدومه المدينة.

المجادلة: مفاعلة من الجدل، وهو إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. ولا علاقة لهذه الآية بحكم قتال أهل الكتاب حتّى يُنظر فيها هل نسخت أم بقي حكمها.

{ **أَهْلَ الْكِتَابِ** } اليهود والنصارى في اصطلاح القرآن. والمقصود هنا اليهود فهم الذين كانوا كثيرين في المدينة والقرى حولها. ويشمل النصارى إن عرضت مجادلتهم مثل ما عرض مع نصارى نجران.

{ **بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } مستثنى من محذوف دل عليه المستثنى، تقديره: لا تجادلوهم بجدال إلّا بجدال بالتي هي أحسن. و{ أَحْسَنُ } اسم تفضيل يجوز أن يكون على بابه فيقدّر المفضل عليه ممّا دلت عليه القرينة، أي: بأحسن من مجادلتكم المشركين، أو بأحسن من مجادلتهم إيّاكم.

ويجوز كون اسم التفضيل مسلوب المفاضلة لقصد المبالغة في الحسن، أي: إلّا بالمجادلة الحسنى، كقوله تعالى { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل: 125]. فالله جعل الخيار للنبيّ صلى الله عليه وسلم في مجادلة المشركين بين أن يجادلهم بالحسنى كما اقتضته آية سورة النحل، وبين أن يجادلهم بالشدّة كقوله { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التوبة:73]، فإنّ الإغلاظ شامل لجميع المعاملات ومنها المجادلات ولا يختص بخصوص الجهاد، فإنّ الجهاد كلّه إغلاظ فلا يكون عطف الإغلاظ على الجهاد إلّا إغلاظا غير الجهاد.

ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أنّ أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به فهم متأهّلون لقبول الحجّة غير مظنون بهم المكابرة، ولأنّ آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجّة دون إغلاظ حذرا من تنفيرهم، بخلاف المشركين فقد ظهر من تصلّبهم وصلفهم وجلافتهم ما أيأس من إقناعهم بالحجّة النظرية، وعيَّن أن يُعامَلوا بالغلظة وأن يُبالغ في تهجين دينهم وتفظيع طريقتهم لأنّ ذلك أقرب نجوعا لهم.

{ **إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** } هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين وأبوا أن يتلقّوا الدعوة فهؤلاء ظلموا النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين حسدا وبغضا على أن جاء الإسلام بنسخ شريعتهم، وجعلوا يكيدون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونشأ منهم المنافقون، وكلّ هذا ظلم واعتداء.

وقد كان اليهود قبل هجرة المسلمين إلى المدينة مسالمين الإسلام وكانوا يقولون: إنّ محمدا رسول الأميين كما قال ابن صيّاد لما قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم " **أتشهد أني رسول الله؟** " فقال: أشهد أنّك رسول الأميين ". فلمّا جاء المدينة دعاهم في أوّل يوم قدم فيه، وهو اليوم الذي أسلم فيه عبد الله بن سلام، فأخذوا من يومئذ يتنكّرون للإسلام.

{ **وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا** } القرآن. والتعبير عنه بهذه الصلة للتنبيه على خطأ أهل الكتاب إذ جحدوا أن يُنزّل الله كتابا على غير أنبيائهم.

{ **وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ** } التوراة. وهذا كقوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ } [المائدة:59].

{ **وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ** } تذكير بأنّ المؤمنين واليهود يؤمنون بإله واحد. فهذان أصلان يختلف فيهما كثير من أهل الأديان.

{ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** } مراد به كلا الفريقين فريق المتكلمين وفريق المخاطبين، أي: وكلانا مسلمون لله تعالى لا نشرك معه غيره.

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآياتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ } [47]

هذا عود إلى مجادلة المشركين في إثبات أنّ القرآن منزّل من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **فالذين أتيناهم الكتاب** } ولم يقل: فأهل الكتاب، لأنّ في هذا التركيب تذكيرا لهم بأنّهم أمناء عليه، كما قال تعالى { بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ } [المائدة:44].

{ **يُؤْمِنُونَ بِهِ** } جيء بصيغة المضارع للدلالة على أنّه سيقع في المستقبل، أو للدلالة على تجدّد إيمان هذا الفريق به.

{ **وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ** } الإشارة إلى أهل مكة بتنزيلهم منزلة الحاضرين عند نزول الآية لأنّهم حاضرون في الذهن بكثرة ممارسة أحوالهم وجدالهم. والمعنى: ومن مشركي أهل مكة من يؤمن بأنّ القرآن منزّل من الله، وهؤلاء هم الذين أسلموا والذين يسلمون من بعد، ومنهم من يؤمن به في باطنه ولا يظهر ذلك عنادا وكبرا مثل الوليد بن المغيرة.

{ **وَمَا يَجْحَدُ بِآياتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ** } إشارة إلى أنّ من الفريقين من يكتم إيمانه جحودا منهم لأجل تصلّبهم.

{ **بِآيَاتِنَا** } عبّر عن الكتاب بالآيات لأنّه آيات دالة على أنّه من عند الله بسبب إعجازه وتحديه وعجز

المعاندين عن الإتيان بسورة مثله. وهذا يتوجّه ابتداء إلى المشركين لأنّ جحودهم واقع، وفيه تهيئة لتوجيهه إلى من عسى أن يجحد به من أهل الكتاب.

{ **الْكَافِرُونَ** } التعريف للدلالة على معنى الكمال في الوصف المعرف، أي: إلّا المتوغلون في الكفر الراسخون فيه.

{ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } [48]

هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالتها على أنّه موحى إليه من الله أعظم دلالة، وقد ورد الاستدلال بها في القرآن في مواضع كقوله { مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَان } [الشورى:52] وقوله تعالى { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [يونس:16].

{ **إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** } وصف المكذّبين بالمبطلين منظور فيه لحالهم في الواقع لأنّهم كذّبوا مع انتفاء شبهة الكذب، فكان تكذيبهم الآن باطلا، فهم مبطلون متوغلون في الباطل، فالقول في وصفهم بالمبطلين كالقول في وصفهم بالكافرين.

{ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } [49]

{ **بَلْ** } إبطال لما اقتضاه الفرض من قوله { إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }، أي: بل القرآن لا ريب يتطرّقه في أنّه من عند الله، فهو كلّه آيات دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأنّه من عند الله لما اشتمل عليه من الإعجاز في لفظه ومعناه.

{ **فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } صدر النبيّ صلى الله عليه وسلم عبّر عنه بالجمع تعظيما له.

و{ **الْعِلْمَ** } الذي أوتيه النبيّ صلى الله عليه وسلم هو النبوة كقوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً }.

ويجوز أن يكون المراد صدور أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وحفّاظ المسلمين، وهذا يقتضي أن يكون القول تتميما للثناء على القرآن.

{ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ** } تذييل يؤذن بأنّ المشركين جحدوا آيات القرآن على ما هي عليه من وضوح الدلالة على أنّها من عند الله لأنّهم ظالمون لا إنصاف لهم، وشأن الظالمين جحد الحقّ، كما قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل:14]، فهم متوغّلون في الظلم كما تقدّم في وصفهم بالكافرين والمبطلين.

{ **وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } [50]

لمّا ذكر الجاحدين لآية القرآن ثلاث مرات ووصفهم بالكافرين والمبطلين والظالمين انتقل الكلام إلى مقالتهم الناشئة عن جحودهم، وذلك طلبهم أن يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بآيات مرئية خارقة للعادة كناقة صالح وعصا موسى. وهذا من جلافتهم أن لا يتأثروا إلّا للأمور المشاهدة. وقد قدّم بيان هذا الوهم عند قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [الأنعام:37]

{ **قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ** } أي: أنّها من عمل القدرة الذي يجري على وفق إرادته تعالى، فلكونها منوطة بإرادته شُبِّهت بالشيء المحفوظ عند مالكه.

{ **وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } قصر النبيّ عليه الصلاة والسلام على صفة النذارة، أي: الرسالة لا يتجاوزها إلى خلق الآيات أو اقتراحها على ربه، فهو قصر إفراد ردًّا على زعمهم أنّ من حقّ الموصوف بالرسالة أن يأتي بالخوارق المشاهدة. وخصّ بالذكر من أحوال الرسالة وصف النذير تعريضا بالمشركين بأنّ حالهم يقتضي الإنذار، وهو توقع الشر.

المبين: الموضِّح للإنذار بالدلائل العقلية الدالة على صدق ما يخبر به.

{ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** }[51]

عطف على الجملة السابقة وهو ارتقاء في المجادلة.

{ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ** } الاستفهام تعجيبي إنكاري. والمعنى: وهل لا يكفيهم من الآيات آيات القرآن فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **الْكِتَابَ** } القرآن. وعدل عن لفظ القرآن الذي هو كالعلم عليه إلى لفظ الكتاب المعهود لإيمائه إلى معنى تعظيمه بأنّه المشتهر من بين كتب الأنبياء.

{ **يُتْلَى عَلَيْهِمْ** } مستأنفة أو حال، لأنّ الكتاب معلوم غير محتاج للوصف لما تشعر به مادة التلاوة من الانتشار والشيوع. واختير المضارع دون الوصف بأن يقال: متلو عليهم، لما يؤذن به المضارع من الاستمرار، فحصل من مادة { يُتْلَى } ومن صيغة المضارع دلالة على عموم الأمكنة والأزمنة.

مزايا للقرآن: وقد أشار قوله { يُتْلَى عَلَيْهِمْ } وما بعده إلى خمس مزايا للقرآن على غيره من المعجزات:

المزيّة الأولى: ما أشار إليه قوله { يُتْلَى عَلَيْهِمْ } من انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان المختلفة بحيث لا يختصّ بإدراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص شأن المعجزات المشهودة مثل عصا موسى وناقة صالح وبرء الأكمه، فهو معجزة باقية والمعجزات الأخرى مرتبطة بمكان وزمان.

المزيّة الثانية: كونه ممّا يتلى، فإدراكه إدراك عقلي فكري، وهو أعلى من المدركات الحسية، فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيّأت إليها الإنسانية.

المزيّة الثالثة: ما أشار إليه قوله { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً** }، فالكتاب المتلو مشتمل على ما هو رحمة لهم لأنّه يشتمل على إقامة الشريعة، فالقرآن مع كونه معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ومرشدة إلى تصديقه فهو أيضا وسيلة علم وتشريع وآداب للمتلو عليهم وبذلك فضل غيره من المعجزات التي لا تفيد إلّا تصديق الرسول الآتي بها.

المزيّة الرابعة: ما أشار إليه قوله { **وَذِكْرَى** }، فإنّ القرآن مشتمل على مواعظ ونذر وتعريف بعواقب الأعمال، وإعداد إلى الحياة الثانية، ونحو ذلك ممّا هو تذكير بما في تذكّره خير الدارين، وبذلك فضل غيره من المعجزات الصامتة التي لا تفيد أزيد من كون الآتية على يديه صادقا.

المزيّة الخامسة: أنّ كون القران كتابا متلوا مستطاعا إدراك خصائصه لكلّ عربي، ولكلّ من حذق العربية من غير العرب مثل أئمة العربية، فلا يستطيع طاعن أن يزعم أنّه تخيّلات.

فهذه مزايا عظيمة لمعجزة القرآن حاصلة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيبته.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } ولم يقل: للمؤمنين، لما في لفظ قوم من الإيماء إلى أنّ الإيمان من مقوّمات قوميّتهم، أي: لقوم شعارهم شعارهم النظر والإنصاف، فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلما وعلوّا. وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [52]

{ **قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } بعد أن ألقمهم حجر الحجّة الدامغة أُمِرَ بأن يجعل الله حكما بينه وبينهم لمّا استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة.

{ **كَفَى بِاللَّهِ** } أي: هو كاف لي في إظهار الحقّ. والباء مزيدة للتوكيد. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وكفى بالله شهيدا } [النساء:79].

الشهيد: الشاهد. ولمّا ضُمِّن معنى الحاكم عدي بظرف { **بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** }.

{ **يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } مقرّرة لمعنى الاكتفاء به شهيدا، فهي تتنزّل منها منزلة التوكيد.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } فهم إن تأمّلوا في إيمانهم بالله حقّ التأمل وجدوا أنفسهم غير مؤمنين بإلهيته لأنّهم أشركوا معه ما ليس حقيقا بالإلهية فعلموا أنّهم كفروا بالله، فتعين أنّهم آمنوا

بالباطل. وفي الجمع بين { **آمَنُوا** } { **وَكَفَرُوا** } محسّن المضادة، وهو الطباق.

الباطل: ضدّ الحق، أي: ما ليس بحقيق أن يؤمن به، أي: ما ليس بإله حق ولكنهم يدعون له الإلهية.

{ **وَكَفَرُوا بِاللَّهِ** } لأنّهم أشركوا معه في الإلهية، فكفروا بأعظم صفاته وهي الوحدانية.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة يفيد التنبيه على أنّ المشار إليهم أحرياء بالحكم الوارد بعده لأجل الأوصاف التي ذكرت لهم قبله.

{ **هُمُ الْخَاسِرُونَ** } القصر ادعائي للمبالغة في اتصافهم بالخسران العظيم، فكأنّهم انفردوا بالخسران فأطلق عليهم المركّب المفيد قصر الخسران عليهم وذلك لأنّهم حقّت عليهم الشقاوة العظمى الأبدية.

واستعير الخسران لانعكاس المأمول من العمل تشبيها بحال من كدّ في التجارة لينال مالا فأفنى رأس ماله، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة: 16].

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [53] يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [54] يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [55] }.

عطف على جملة { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ } [50] استقصاء في الردّ على شبهاتهم وإبطالا لتعلّات إعراضهم الناشئ عن المكابرة، وهم يُخيّلون أنّهم إنّما أعرضوا لعدم اقتناعهم بآية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. ومناسبة وقوعه هنا أنّه لمّا ذكر كفرهم بالله وكان النبيّ عليه الصلاة والسلام ينذرهم على ذلك بالعذاب وكانوا يستعجلونه به ذُكر تورُّكهم عليه عقب ذكر الكفر.

{ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ** } طلب تعجيله، وقصدهم من ذلك الاستخفاف بالوعيد. وتقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ } [يونس:11]، وقوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} [الرعد:6].

وحكي استعجالهم العذاب بصيغة المضارع لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجيب منها.

{ **وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ** } أبطل ما قصدوه، وذلك أنّ حلول العذاب ليس بيد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا جاريا على طلبهم واستبطائهم فإنّ الله هو المقدّر لوقت حلوله بهم في أجل قدّره بعلمه.

{ **مُسَمّىً** } أريد به المعيّن المحدود في علم الله تعالى. وتقدّم عند قوله تعالى { وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } [الحج:5].

والمعنى: لولا الأجل المعيّن لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلا لأنّ كفرهم يستحق تعجيل عقابهم ولكن

أراد الله تأخيره لحِكم علمها؛ منها إمهالهم ليؤمن منهم من آمن بعد الوعيد، وليعلموا أنّ الله لا يستفزّه استعجالهم العذاب لأنّه حكيم لا يخالف ما قدّره بحكمته، حليم يمهل عباده.

{ **وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } أنذرهم بأنّه بغتة، وأنّ إتيانه محقّق لما دلّ عليه (لام القسم) و(نون التوكيد) وذلك عند حلول الأجل المقدّر له. وقد حلّ بهم عذاب يوم بدر بغتة كما قال تعالى { وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } أالأنفال:42]، فاستأصل صناديدهم يومئذ وسُقط في أيديهم.

{ **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } أعقب إنذارهم بعذاب يوم بدر بإنذارهم بالعذاب الأعظم. وأعيد لأجله ذكر استعجالهم بالعذاب معترضا بين المتعاطفين إيماء إلى أنّ ذلك جواب استعجالهم فإنّهم استعجلوا العذاب فأنذروا بعذابين، أحدهما أعجل من الآخر. وفي إعادة { يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } تهديد وإنذار بأخذهم.

الإحاطة: كناية عن عدم إفلاتهم منها.

{ **بِالْكَافِرِينَ** } المستعجلون. واستحضروا بوصف الكافرين للدلالة على أنّه موجب إحاطة العذاب بهم.

{ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** } متعلّقة بـ (محيطة)، أي تحيط بهم يوم يغشاهم العذاب.

الغشيان: التغطية والحجب.

{ **مِنْ فَوْقِهِمْ** } بيان للغشيان لتصويره تفظيعا لحاله، وتأكيدا له لرفع احتمال المجاز، فهو في موضع الحال من { الْعَذَابِ }، وهي حال مؤكّدة.

{ **وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** } احتراس عمّا قد يوهمه الغشيان من الفوقيّة خاصة.

والمقصود من هذا الكناية أنّ العذاب محيط بهم، فلذلك لم يذكر الجانبان الأيمن والأيسر لأنّ الغرض من الكناية قد حصل، والمقام مقام إيجاز لأنّه مقام غضب وتهديد، بخلاف قوله تعالى { ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } [الأعراف:17] لأنّه حكاية لإلحاح الشيطان في الوسوسة.

{ **وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } قراءة نافع وعاصم وحمزة والكسائي، والضمير عائد إلى معلوم من المقام.

<u>فالتقدير: ويقول الله</u>. وعدل عن ضمير التكلّم على خلاف مقتضى الظاهر على طريقة الالتفات.

<u>أو يقدر: ويقول الملك الموكل بجهنم</u>.

{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ } [56]

استئناف ابتدائي وقع اعتراضا بين جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } وجملة {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً } [58]. وهذا أمر بالهجرة من دار الكفر.

ومناسبته أنّ الله **لمّا ذكر** عناد المشركين في تصديق القرآن، **وذكر** إيمان أهل الكتاب به، **آذن** المؤمنين من أهل مكة أن يخرجوا من دار المكذّبين إلى دار الذين يصدّقون بالقرآن، وهم أهل المدينة، فإنّهم يومئذ ما بين مسلمين وبين يهود، فيكون المؤمنون في جوارهم آمنين من الفتن يعبدون ربهم غير مفتونين.

وقد كان فريق من أهل مكة مستضعفين قد آمنوا بقلوبهم ولم يستطيعوا إظهار إيمانهم خوفا من المشركين مثل الحارث بن ربيعة بن الأسود، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ } [10]، وكان لهم العذر حين كانوا لا يجدون ملجأ سالما من أهل الشرك، فلمّا أسلم أهل المدينة زال عذر المؤمنين المستضعفين إذ أصبح في استطاعتهم أن يهاجروا إلى المدينة.

{ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا** } النداء بعنوان التعريف بالإضافة لتشريف المضاف. ومصطلح القرآن أنّ (عباد) إذا أضيف إلى ضمير الجلالة فالمراد بهم المؤمنون غالبا إلّا إذا قامت قرينة كقوله { أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ } [الفرقان:17]، وعليه فالوصف بـ { الَّذِينَ آمَنُوا } لما في الموصول من الدلالة على أنّهم آمنوا بالله حقا ولكنّهم فتنوا إلى حد الإكراه على إظهار الكفر.

{ **إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ** } كلام مستعمل مجازا مركّبا في التذكير بأنّ في الأرض بلادا آمنة للمسلمين.

{ **فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** } أشعر أنّ علّة الأمر لهم بالهجرة هي تمكينهم من إظهار التوحيد وإقامة الدين.

والفاء في قوله { فَإِيَّايَ } فاء التفريع، والفاء في قوله { فَاعْبُدُونِ } مؤكدة للفاء الأولى للدلالة على تحقيق التفريع في الفعل وفي معموله.

وحذفت ياء المتكلّم بعد نون الوقاية تخفيفا، وللرعاية على الفاصلة. ونظائره كثيرة.

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [57]

اعتراض ثان بين الجملتين المتعاطفتين قصد منها تأكيد الوعيد الذي تضمّنته جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ } إلى آخرها، والوعد الذي تضمّنته جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً }.

أي: الموت مدرك جميع الأنفس ثم يرجعون إلى الله. وقصد منها أيضا تهوين ما يلاقيه المؤمنون من الأذى في الله، ولو بلغ إلى الموت، بالنسبة لما يترقّبهم من فضل الله وثوابه الخالد، وفيه إيذان بأنّهم يترّقبهم جهاد في سبيل الله.

{ **تُرْجَعُونَ** } في قراءة الجمهور بتاء الخطاب على أنّه خطاب للمؤمنين في قوله { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا }.

وقرأه أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة تبعا لقوله { يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ }.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [58] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [59] }.

عطف على جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ }.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } جيء بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، أي: نبوّئهم غرفا لأجل إيمانهم وعملهم الصالح.

التبوئة: الإنزال والإسكان، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس:93].

وقرأ الجمهور { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ }. وقرأ حمزة والكسائي وخلف { لَنُثَوِّيَنَّهُمْ } من **أثواه**، بهمزة التعدية، إذا جعله ثاويا، أي: مقيما في مكان.

الغرف: جمع غرفة وهو البيت المعتلي على غيره. وتقدّم عند قوله { أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ } [الفرقان:75].

{ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذي أُعطوه، فلذلك قطعت عن العطف.

{ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } خبر مبتدأ محذوف اتباعا للاستعمال، والتقدير: هم الذين صبروا.

والمراد: صبرهم على إقامة الدين وتحمّل أذى المشركين، وقد علموا أنّهم لاقوه فتوكّلوا على ربهم ولم يعبأوا بقطيعة قومهم ولا بحرمانهم من أموالهم، ثمّ فارقوا أوطانهم فرارا بدينهم من الفتن.

التوكّل: تقدّم معناه عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]. وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام.

ومن اللطائف مقابلة غشيان العذاب الكفار من فوقهم ومن تحت أرجلهم بغشيان النعيم المؤمنين من فوقهم بالغرف ومن تحتهم بالأنهار.

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [60]

عطف على جملة { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ } [57]، فإنّ الله لمّا هوّن بها أمر الموت في مرضاة الله، وكانوا ممّن لا يعبأ بالموت علم أنّهم يقولون في أنفسهم: إنّا لا نخاف الموت ولكنّا نخاف الفقر والضيعة. واستخفاف العرب بالموت سجيّة كما أنّ خشية المعرّة من سجاياهم كما بيّنّاه عند قوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [الإسراء:31]، **فأعقب** ذلك بأن ذكّرهم بأنّ رزقهم على الله وأنّه لا يضيعهم. وضرب لهم المثل برزق الدواب.

<u>وفيه مناسبة</u> لقوله تعالى { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ } [56]، من توقّع الذين يهاجرون من مكة ألّا يجدوا رزقا في البلاد التي يهاجرون إليها.

وهو أيضا مناسب لوقوعه عقب ذكر التوكّل في قوله { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [59]. وفي الحديث: " **لو توكلتم على الله حق توكله لرُزقتم كما تُرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا** ". ولعلّ ما في هذه الآية وما في الحديث مقصود به المؤمنون الأوّلون، ضمن الله لهم رزقهم لتوكّلهم عليه في تركهم أموالهم بمكة للهجرة إلى الله ورسوله. وتوكّلهم هو حقّ التوكّل، أي: أكمله وأحزمه.

{ **وَكَأَيِّنْ** } تقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران:146].

والخبر غير مقصود منه إفادة الحكم بل هو مستعمل مجازا مركبا في لازم معناه وهو الاستدلال على ضمان رزق المتوكلين من المؤمنين. وتمثيله للتقريب بضمان رزق الدواب الكثيرة التي تسير في الأرض.

{ **لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا** } يجوز أن يكون الحمل مستعملا في حقيقته، أي: تسير غير حاملة رزقها، ويجوز أن يستعمل مجازا في التكلّف له، أي: لا تتكلّف لرزقها. وهذا حال معظم الدواب عدا بعض الحيوانات.

{ **اللَّهُ يَرْزُقُهَا** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، دون أن يقول: يرزقها الله، ليفيد معنى الاختصاص. أي: الله يرزقها لا غيره، فلماذا تعبدون أصناما ليس بيدها رزق؟

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } عطف على جملة { اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ }. فالمعنى: الله يرزقكم وهو السميع لدعائكم العليم بما في نفوسكم من الإخلاص لله في أعمالكم وتوكّلكم ورجائكم منه الرزق.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}[61]

هذا الكلام عائد إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [52] تعجيبا من نقائض كفرهم، أي: هم كفروا بالله وإن سألهم سائل عمّن خلق السماوات والأرض يعترفوا بأنّ الله هو خالق ذلك ولا يثبتون لأصنامهم شيئا من الخلق، فكيف يلتقي هذا مع ادعائهم الإلهية لأصنامهم. ولذلك قال { فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } أي: كيف يُصرفون عن توحيد الله وعن إبطال إشراكهم به ما لا يخلق شيئا.

{ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** } ضمير جمع الغائبين عائد إلى الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله واستعجلوا بالعذاب.

{ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** } تخصيص تسخير الشمس والقمر بالذكر لما في حركتهما من دلالة على عظيم القدرة، مع ما في ذلك من المنّة على الناس إذ ناط بحركتهما أوقات الليل والنهار وضبط الشهور والفصول.

تسخير الشيء: إلجاؤه لعمل شديد. وأحسب أنّه حقيقة سواء كان المسخَّر (بالفتح) ذا إرادة أم كان جمادا. وقد تقدم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54].

{ **فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** } الاستفهام إنكار وتعجيب.

{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [62]

هذا إلزام آخر لهم بإبطال شركهم وافتضاح تناقضهم، فإنّهم كانوا معترفين بأنّ الرازق هو الله تعالى { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - إلى قوله - فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } [يونس:31]. وإنّما جاء أسلوب هذا الاستدلال مخالفا لأسلوب الذي قبله والذي بعده فعدل عن تركيب { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ } [61] تفنّنا في الأساليب لتجديد نشاط السامع. و**أدمج** في الاستدلال على انفراده تعالى بالرزق **التذكير** بأنّه تعالى يرزق عباده على حسب مشيئته لأنّه المختار في تصرّفه.

{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ } بسط الرزق: إكثاره، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص، أي: الله لا غيره يبسط الرزق ويقدر. والتعبير بالمضارع لإفادة تجدّد البسط والقدر.

{ وَيَقْدِرُ لَهُ } قدره: تقليله. والمقصود: أنّه الرازق لأحوال الرزق. وتقدّم في قوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد: 26]. وزيادة { له } بعد { وَيَقْدِرُ } في هذه الآية دون آية الرعد و[القصص:82] للتعريض بتبصير المؤمنين الذين ابتلوا في أموالهم من اعتداء المشركين عليها كما أشار إليه قوله { وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا } [60] بأن ذلك القدر في الرزق هو لهم لا عليهم لما ينجرّ لهم منه من الثواب ورفع الدرجات، فغُلِّب في هذا الغرض جانب المؤمنين، ولهذا لم يُعَّدَ { يَقْدِرُ } بحرف (على) كما هو مقتضى معنى القدر، كما في قوله تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ } [الطلاق:7].

{ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } أي: أنّه يبسط الرزق لفريق ويقدر لفريق.

{ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } التذييل لإفادة أنّ ذلك كلّه جار على حكمة لا يطّلع عليها الناس، وأنّ الله يعلم صبر الصابرين وجزع الجازعين، كما تقدّم في قوله { فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [3].

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [63]

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ } أعيد أسلوب السؤال والجواب ليتّصل ربط الأدلة بعضها ببعض على قرب. فقد كان المشركون لا يدّعون أنّ الأصنام تنزل المطر كما صرّحت به الآية، فقامت الحجّة عليهم.

وأدمج في الاستدلال عليهم بانفراده تعالى بإنزال المطر أنّ الله أحيا به الأرض بعد موتها. وفي هذا الإدماج استدلال تقريبي لإثبات البعث كما قال تعالى { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم: 50]، وقال تعالى { وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [الروم:19].

{ **مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا** } لمّا كان سياق الكلام هنا في مساق التقرير كان المقام مقتضيا للتأكيد بزيادة { مِنَ } إلجاء لهم إلى الإقرار بأنّ فاعل ذلك هو الله دون أصنامهم، فلذلك لم يكن مقتض لزيادة (من) في قوله { فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } [البقرة:164 / الجاثية:5]

موت الأرض: موت نباتها، ويكون بإمساك المطر عنها في فصول الجفاف أو في سنين الجدب، فلا جرم أن يكون موتها بتقدير الله، للعلم بأنّ موت الأرض كان بعد حياة سبقت من نوع هذه الحياة، فصارت الآية دالة على أنّه المتصرّف بإحياء الأرض وإماتتها، ويعلم منه أنّه محيي الحيوان ومميته بطريقة لحن الخطاب.

فانتظم من هذه الآيات المفتتحة بقوله { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [61] إلى هنا، أصول صفات أفعال الله تعالى، وهي: **الخلق**، و**الرزق**، و**الإحياء**، و**الإماتة**، من أجل ذلك عُقِّبت بأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يحمده بكلام يدلّ على تخصيصه بالحمد.

{ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** } لمّا اتضحت الحجّة على المشركين بأنّ الله منفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، **ولزم** من ذلك أن ليس لأصنامهم شرك في هذه الأفعال التي هي أصول نظام ما على الأرض من الموجودات فكان ذلك موجبا لإبطال شركهم بما لا يستطيعون إنكاره ولا تأويله بعد أن قرعت أسماعهم دلائله، **فلزم** من ذلك صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما دعاهم إليه، وكذبهم فيما تطاولوا به عليه، **أمر الله ورسوله** بأن يحمده على أن نصره بالحجّة نصرا يؤذن بأنّه سينصره بالقوّة. وتلك نعمة عظيمة تستحق أن يحمد الله عليها إذ هو الذي لقّنها رسوله صلى الله عليه وسلم بكتابه وما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** } إضراب انتقال من حمد الله على وضوح الحجج إلى ذمّ المشركين بأنّ أكثرهم لا يتفطّنون لنهوض تلك الحجج الواضحة فكأنّهم لا عقل لهم، لأنّ وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كلّ ذي مسكة من عقل فنزلوا منزلة من لا عقول لهم.

{ **أَكْثَرُهُمْ** } أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأنّ من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا، ومنهم من أصرّوا على الكفر عنادا.

{ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [64]

هذا الكلام مُبلَّغ إلى الفريقين اللذين تضمّنهما قوله تعالى { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [63]، فإنّ عقلاءهم آثروا باطل الدنيا على الحقّ الذي وضح لهم، ودهماءهم لم يشعروا بغير أمور الدنيا، وجميعهم أنكروا البعث فأعقب الله ما أوضحه لهم من الدلائل بأن نبّههم على أنّ الحياة الدنيا كالخيال وأن الحياة الثانية هي الحق.

{ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا** } الحصر ادعائي كما تقدّم. وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث. ولم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ

وَلَهْوٌ } [الأنعام: 32]. ووجه ذلك أنّ هذه الآية لم يتقدّم فيها ما يقتضي تحقير الحياة فجيء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها، وأمّا آية الأنعام فتقدم قوله { إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [31] فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى. كذلك كان الابتداء بأنّها لعب مشيرا إلى تحقيرها، لأنّ اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو.

اللهو: ما يلهو به الناس، أي: يشتغلون به عن الأمور المكدّرة، أو يعمرون به أوقات فراغهم.

اللعب: ما يقصد به الهزل والانبساط. وتقدّم تفسيرهما ووجه حصر الحياة الدنيا فيهما في آية الأنعام.

{ **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** } تصريح بأنّ الحياة الآخرة هي الحياة الحق فصيغ لها وزن الفعلان الذي هو صيغة تنبئ عن معنى التحرّك توضيحا لمعنى كمال الحياة. فإنّ التحرّك والاضطراب أمارة على قوّة الحيوية في الشيء مثل الغليان.

{ **لو كانوا يعلمون** } لأنّهم جهلوا الحياة الآخرة ولم يعترفوا بها.

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [65] لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [66] }.

هذا انتقال إلى إلزامهم بما يقتضيه دعاؤهم حين لا يشركون فيه إلها آخر مع الله بعد إلزامهم بموجبات اعترافاتهم فإنّهم يدعون أصنامهم في شؤون من أحوالهم ويستنصرونهم ولكنّهم إذا أصابهم هول توجهوا بتضرعهم إلى الله.

{ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ** } وإنّما خصّ بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية وفي آيات كثيرة مثل ما في سورة يونس وما في سورة الإسراء لأنّ أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوف يعمّ جميع السفر، لأنّهم كانوا يسافرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرّون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأمّا سفرهم في البحر فإنّهم يفرقون من هوله.

وتقدم تعدية الركوب بحرف (في) عند قوله تعالى { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } [هود:41].

الإخلاص: التمحيض والإفراد.

الدين: المراد به هنا الدعاء، أي: دعوا الله غير مشركين معه أصنامهم.

{ **إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** } جيء بحرف المفاجأة للدلالة على أنّهم ابتدروا إلى الإشراك بمجرّد الإرساء في البر. أي: أسرعوا إلى ما اعتادوه من زيارة أصنامهم والذبح لها.

{ **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } لام التعليل وهي (لام كي) وهي متعلقة بفعل { يُشْرِكُونَ }.

والكفر هنا ليس هو الشرك ولكنّه كفران النعمة بقرينة قوله { بِمَا آتَيْنَاهُمْ } فإن الإيتاء بمعنى الإنعام وبقرينة تفريعه على { يُشْرِكُونَ }، فالعلة مغايرة للمعلول وكفران النعمة مسبَّب عن الإشراك، لأنّهم لمّا بادروا إلى شؤون الإشراك فقد أخذوا يكفرون النعمة.

{ **وَلِيَتَمَتَّعُوا** } (اللام بالكسر) في قراءة ورش عن نافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وأبي جعفر ويعقوب على أنها لام التعليل. وقرأه قالون عن نافع وابن كثير، وحمزة والكسائي، وخلف { **وَلْيَتَمَتَّعُوا** } (بسكونها) فهي لام الأمر، والأمر مستعمل في التهديد، نظير قوله تعالى { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الروم:34]

التمتع: الانتفاع القصير زمنه.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفريع على التهديد بالوعيد.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ } [67]

هذا تذكير خاص لأهل مكّة لأنّهم قُدوة لجميع القبائل، ألا ترى أنّ أكثر قبائل العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة فلما أسلم أهل مكّة يوم الفتح أقبلت وفود القبائل معلنة إسلامهم.

والجملة معطوفة على الجملة السابقة باعتبار ما اشتملت عليه تلك الجملة من تقريعهم على كفران نعم الله تعالى، ولذلك عقبت هذه الجملة بقوله { وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ }.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري، وجعلت نعمة أمن بلدهم كالشيء المشاهد فأنكر عليهم عدم رؤيته.

ومعنى هذه الآية يُعلم ممّا تقدم عند الكلام على قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً } [القصص:57]. فقد كان أهل مكة في بحبوحة من الأمن وكان غيرهم من القبائل حول مكة وما بعُد منها يغزو بعضهم بعضا ويتغاورون ويتناهبون، وأهل مكة آمنون لا يعدو عليهم أحد مع قلّتهم، فذكّرهم الله هذه النعمة عليهم.

الباطل: هو الشرك، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ } [52].

{ **وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ** } المراد بها الجنس الذي منه إنجاؤهم من الغرق، وما عداه من النعم المحسوسة المعروفة، ومن النعم الخفية التي لو تأمّلوا لأدركوا عظمها، ومنها نعمة الرسالة المحمدية.

والمضارع في الأفعال دال على تجدد الفعل.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ} [68]

لمّا أوفاهم ما يستأهلونه من تشنيع أحوالهم وسوء انتظام شؤونهم جاء في عقبه بتذييل يجمعها في أنّها افتراء على الله وتكذيب بالحقّ، ثم جزاهم الجزاء الأوفى اللائق بحالهم وهو أنّ النار مثواهم.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ } افتتح تشخيص حالهم بالاستفهام عن وجود فريق هم أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله وكذّبوا بالحق توجيها لأذهان السامعين نحو البحث هل يجدون أظلم منهم، حتّى إذا أجادوا التأمّل واستقروا مظان الظلمة واستعرضوا أصنافهم تيقّنوا أن ليس ثمّة ظلم أشد من ظلم هؤلاء.

فمدار أمور أهل الشرك على الافتراء على الله بأن سلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول، وأثبتوا له ما هو منزّه عنه من الصفات والأفعال بدلالة العقول، وعلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونكران دلالة المعجزة التي يقتضيها العقل، وعلى رمي الرسول عليه الصلاة والسلام بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتانا وكذبا، فكانوا بمجموع الأمرين وضعوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها، فكانوا أظلم الناس.

{ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } تقييد الافتراء بالحال المؤكّدة في قوله { كَذِباً } لزيادة تفظيع الافتراء لأنّ اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنّما اختير الافتراء للدلالة على أنّهم يتعمّدون الاختلاق.

{ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ } تقييد تكذيبهم بالحق بقوله { لَمَّا جَاءَهُ } لإدماج ذمّ المكذّبين بنكران نعمة إرسال الحقّ إليهم التي لم يقدّروها قدرها، وكان شأن العقلاء أن يتطلّبوا الحقّ ويرحلوا في طلبه، وهؤلاء جاءهم الحقّ بين أيديهم فكذّبوا به.

{ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ } بيان للجملة السابقة وتقرير لها، فالكلام السابق فيه إيذان إجمالي بجزاء فظيع يترقّبهم. وهو بألفاظه ونظمه يفيد تمكّنهم من عذاب جهنم إذ جُعلت مثواهم.

المثوى: مكان الثواء. و**الثواء**: الإقامة الطويلة والسكنى.

{ لِلْكَافِرِينَ } تعريف العهد، أي: لهؤلاء الكافرين، وهم الذين ذُكروا من قبل بأنّهم افتروا على الله كذبا وكذّبوا بالحق، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لإحضارهم بوصف الكفر.

{ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ } الهمزة للاستفهام التقريري، وهو تقرير لمن يسمع هذا الكلام. جعل كون جهنم مثواهم أمرا مسلّما معروفا بحيث يقرّ به كل من يسأل عنه.

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [69]

ختم توبيخ المشركين وذمّهم بالتنويه بالمؤمنين إظهارا لمزيد العناية بهم، فلا يخلو مقام ذمّ أعدائهم عن الثناء عليهم، لأنّ ذلك يزيد الأعداء غيظا وتحقيرا.

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا } هم المؤمنون الأوّلون، فالموصول بمنزلة المعرف بلام العهد. وهذا الجهاد هو الصبر على الفتن والأذى ومدافعة كيد العدو، وهو المتقدّم في أوّل السورة { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } [6]. إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال كما علمت من قبل. وجيء بالموصول للإيماء إلى أن الصلة سبب الخبر.

{ جَاهَدُوا فِينَا } جاهدوا في مرضاتنا، والدين الذي اخترناه لهم. والظرفية مجازية، يقال: هي ظرفية تعليل تفيد مبالغة في التعليل.

{ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } إيماء إلى تيسير طريق الهجرة التي كانوا يتأهّبون لها أيام نزول هذه السورة.

الهداية: الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي والإرشاد الشرعي، أي: لنزيدنّهم هدى.

سبل الله: الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه، شُبّهت بالطرق الموصلة إلى منزل الكريم المكرم للضيف.

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } الجملة في معنى التذييل بما فيها من معنى العموم. وإنّما جيء بها معطوفة للدلالة على أنّ المهم من سوقها هو ما تضمّنته من أحوال المؤمنين، فعطفت على حالتهم الأخرى وأفادت التذييل بعموم حكمها. وفيه تنويه بالمؤمنين بأنّهم في عداد من مضى من الأنبياء والصالحين. وهذا أوقع في إثبات الفوز لهم مما لو قيل: فأولئك المحسنون، لأن في التمثيل بالأمور المقرّرة المشهورة تقريرا للمعاني.

المعية: هنا مجاز في العناية والاهتمام بهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم

تسمَّى سورة الروم في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه. ووجه ذلك أنّه ورد فيها ذكر اسم الروم ولم يرد في غيرها من القرآن.

وهي **مكية كلّها بالاتفاق**، حكاه ابن عطية والقرطبي.

وهي السورة **الرابعة والثمانون** في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الانشقاق وقبل سورة العنكبوت.

وعدد آيها في عد أهل المدينة وأهل مكة تسع وخمسون. وفي عدد أهل الشام والبصرة والكوفة ستون.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن ابن عباس والواحدي وغير واحد: أنّه لمّا تحارب الفرس والروم الحرب التي سنذكرها عند قوله تعالى { غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ } [3/2] وتغلّب الفرس على الروم كان المشركون من أهل مكة فرحين بغلب الفرس على الروم لأنّ الفرس كانوا مشركين ولم يكونوا أهل كتاب فكان حالهم أقرب إلى حال قريش، ولأنّ عرب الحجاز والعراق كانوا من أنصار الفرس وكان عرب الشام من أنصار الروم فأظهرت قريش التطاول على المسلمين بذلك فأنزل الله هذه السورة مقتا لهم وإبطالا لتطاولهم بأنّ الله سينصر الروم على الفرس بعد سنين.

فلذلك لما نزلت الآيات الأولى من هذه السورة خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة { الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ } [4/1], وراهن أبو بكر المشركين على ذلك كما سيأتي.

أغراض السورة

*/ أوّل أغراض هذه السورة سبب نزولها على ما سرّ المشركين من تغلّب الفرس على الروم، فقمع الله تعالى تطاول المشركين به وتحدّاهم بأنّ العاقبة للروم في الغلب على الفرس بعد سنين قليلة.

*/ ثمّ تطرق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنّهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية ولم يتّعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله.

*/ ثمّ انتقل إلى ذكر البعث. واستدل لذلك ولوحدانيته تعالى بدلائل من آيات الله في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان.

*/ حضّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين على التمسّك بهذا الدين وأثنى عليه.

*/ نظر بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم.

*/ ضرب أمثالا لإحياء مختلف الأموات بعد زوال الحياة عنها ولإحياء الأمم بعد يأس الناس منها، وأمثالا لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك.

*/ ختم ذلك بالعود إلى إثبات البعث ثم بتثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ووعده بالنصر.

*/ ومن أعظم ما اشتملت عليه التصريح بأنّ الإسلام دين فطر الله الناس عليه، وأنّ من ابتغى غيره دينا فقد حاول تبديل ما خلق الله وأنّى له ذلك.

{ الم } [1]

تقدّم القول على نظيره في سور كثيرة وخاصة في سورة العنكبوت، وأنّ هذه السورة إحدى ثلاث سور مما افتتح بحروف التهجي المقطّعة غير معقبة بما يشير إلى القرآن، وتقدّم في أوّل سورة مريم.

{ غُلِبَتِ الرُّومُ [2] فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ [3] فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ [4] بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [5] }.

{ غُلِبَتِ الرُّومُ } خبر مستعمل في لازم فائدته على طريق الكناية، أي: نحن نعلم بأنّ الروم غُلبت، فلا تطاولوا به على رسولنا وأوليائنا فإنّا نعلم أنّهم سيغلبون من غلبوهم بعد بضع سنين بحيث لا يعد الغلب في مثله غلبا. فالمقصود من الكلام هو جملة { وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } وكان ما قبله تمهيدا له.

وإسناد الفعل إلى المجهول لأنّ الغرض هو الحديث عن المغلوب لا على الغالب، ولأنّه قد عرف أنّ الذين غلبوا الروم هم الفرس.

{ الرُّومُ } اسم غلب في كلام العرب على أمّة مختلطة من اليونان والصقالبة ومن الرومانيين الذين أصلهم من اللاتينيين سكان إيطاليا نزحوا إلى أطراف شرق أوربا. تقوّمت هذه الأمة المسمّاة الروم على هذا المزيج فجاءت منها مملكة تحتل قطعة من أوربا وقطعة من آسيا الصغرى وهي بلاد الأناضول. وقد أطلق العرب على مجموع هذه الأمّة اسم الروم تفرقة بينهم وبين الرومان اللاتينيين.

وسمُّوا الروم أيضا بـ (**بني الأصفر**)، كما جاء في حديث أبي سفيان عن كتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم المبعوث إلى هرقل سلطان الروم وهو في حمص من بلاد الشام إذ قال أبو سفيان لأصحابه، " لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنّه يخافه ملك بني الأصفر ".

ويُعرف الروم عند الإفرنج بـ (**البيزنطيين**) نسبة إلى بيزنطة، اسم مدينة يونانية قديمة واقعة على شاطئ البوسفور.

وهذا الغلب الذي ذكر في هذه الآية هو انهزام الروم في الحرب التي جرت بينهم وبين الفرس سنة (615 م) وذلك أنّ (خسرو ابن هرمز) ملك الفرس غزا الروم في بلاد الشام وفلسطين وهي من البلاد الواقعة تحت حكم هرقل قيصر الروم، فنازل إنطاكية ثم دمشق وكانت الهزيمة العظيمة على الروم في أطراف بلاد الشام المحادَّة بلاد العرب بين (بُصرى) و(أذرعات).

{ **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ** } حذف متعلق { أَدْنَى } لظهور أن تقديره: من أرضكم، أي أقرب بلاد الروم من أرض العرب، فإنّ بلاد الشام تابعة يومئذ للروم وهي أقرب مملكة الروم من بلاد العرب. وكانت هذه الهزيمة هزيمة كبرى للروم.

{ **وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ** } إخبار بوعد معطوف على الإخبار الذي قبله. وضمائر الجمع عائدة إلى الروم.

{ **غَلَبِهِمْ** } مصدر مضاف إلى مفعوله. وفائدة ذكر { مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ } التنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم، وأنها بحيث لا يظن نصر لهم بعدها، فابتهج بذلك المشركون. فالوعد بأنهم سيغلبون بعد ذلك الانهزام في أمد غير طويل تحدٍّ تحدَّى به ا لقرآن المشركين.

{ **سَيَغْلِبُونَ** } حذف المفعول للعلم بأنّ تقديره: سيغلبون الذين غلبوهم، أي: الفرس.

{ **فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ** } كناية عن عدد قليل لا يتجاوز العشرة، وقد تقدّم في قوله تعالى { فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } [يوسف:42].

وحكمة إبهام عدد السنين أنّه مقتضى حال كلام العظيم الحكيم أن يقتصر على المقصود إجمالا وألّا يتنازل إلى التفصيل، لأنّ ذلك التفصيل يتنزّل منزلة الحشو عند أهل العقول الراجحة.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الجهة الرابعة في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير.

روى الترمذي بأسانيد حسنة وصحيحة: أنّ المشركين كانوا يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنّهم وإيّاهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنّهم أهل كتاب مثلهم فكانت فارس يوم نزلت { الم غُلِبَتِ الرُّومُ } قاهرين للروم فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله: " **أمّا أنّهم سيغلبون** " ونزلت هذه الآية.

فخرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة { الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ } [1-3]، فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أنّ الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك قال: بلى(وذلك قبل تحريم الرهان) وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسمّ بيننا وبينك وسطا ننتهي إليه. فسمَّى أبو بكر لهم ست سنين فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان فمضت ست السنين قبل أن يظهر الروم فأخذ المشركون رهن أبي بكر. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: " **ألا أخفضت يا أبا بكر، ألا جعلته إلى دون العشر فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع** ". وعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين.

وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أبي بن خلف، وأنهم جعلوا الرهان خمس قلائص.

وفي رواية أنهم بعد أن جعلوا الأجل ستة أعوام غيروه فجعلوه تسعة أعوام وازدادوا في عدد القلائص.

والراجح أنّ المدة بين انهزام الروم وانهزام الفرس سبع سنين.

وقد كان غلب الروم على الفرس في سلطنة هرقل قيصر الروم، وبإثره جاء هرقل إلى بلاد الشام ونزل حمص ولقي أبا سفيان بن حرب في رهط من أهل مكة جاءوا تجارا إلى الشام.

وتحقيق مسألة المراهنة التي جرت بين أبي بكر وأبي بن خلف أنّها جرت على الإباحة الأصلية إذ لم يكن شرع بمكة أيامئذ فلا دليل فيها على إباحة المراهنة وأن تحريم المراهنة بعد ذلك تشريع أُنف وليس من النسخ في شيء.

{ **لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ** } جملة معترضة بين المتعاطفات. والمراد بالأمر أمر التقدير والتكوين، أي: أنّ الله قدّر الغلب الأوّل والثاني قبل أن يقعا.

{ **لِلَّهِ الْأَمْر** } تقديم المجرور لإبطال تطاول المشركين الذين بهجهم غلب الفرس على الروم لأنّهم عبدة أصنام مثلهم لاستلزامه الاعتقاد بأنّ ذلك الغلب من نصر الأصنام عبادها، فبيّن لهم بطلان ذلك وأنّ التصرّف لله وحده في الحالين.

وفيه أدب عظيم للمسلمين لكيلا يعلّلوا الحوادث بغير أسبابها وينتحلوا لها عللا توافق الأهواء كما كانت تفعله الدجاجلة من الكهان وأضرابهم.

{ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } عطف على جملة { وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ...} أي: ويوم إذ يغلبون يفرح المؤمنون بنصر الله، أي: بنصر الله إياهم على الذين كانوا غلبوهم من قبل، وكان غلبهم السابق أيضا بنصر الله إياهم على الروم لحكمة اقتضت هذا التعاقب.

وفي كلّ ذلك تهيئة أسباب انتصار المسلمين على الفريقين، إذا حاربوهم بعد ذلك لنشر دين الله، وقد أومأ إلى هذا قوله { لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ }.

{ **يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ** } تذييل، لأنّ النصر المذكور فيها عام بعموم مفعوله وهو { مَنْ يَشَاءُ } فكلّ منصور داخل في هذا العموم، أي: من يشاء نصره لحكم يعلمها، فالمشيئة هي الإرادة.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** } فإنّ العزيز المطلق هو الذي يغلب كلّ مغالب له، وعقّبه بـ { **الرَّحِيمِ** } للإشارة إلى أن عزّته تعالى لا تخلو من رحمة بعباده.

{ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [6] يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ [7] }.

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } مفعول مطلق مؤكّد لمعنى الجملة السابقة. وإضافة الوعد إلى الله تلويح بأنّه وعد محقّق الإيفاء.

{ **لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ** } بيان للتلويح السابق، بيّن ذلك بالصريح. ولكونها في موقع البيان فصلت، وفائدة الإجمال ثم التفصيل تقرير الحكم لتأكيده، وفيه إدخال الروع على المشركين بهذا التأكيد.

وسمّاه وعدا نظرا لحال المؤمنين الذي هو أهم هنا. وهو أيضا وعيد للمشركين بخذلان أشياعهم.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } استدراك اقتضاه الإجمال. استدرك بأنّ مراهنة المشركين على عدم وقوعه نشأت عن قصور عقولهم فأحالوا أن تكون للروم بعد ضعفهم دولة على الفرس في زمن قصير، هو بضع سنين، ولم يعلموا أنّ ما قدّره الله أعظم.

{ **أَكْثَرَ النَّاسِ** } ابتداءً المشركون لأنّهم سمعوا الوعد وراهنوا على عدم وقوعه. ويشمل أيضا كلّ من كان يعدُّ انتصار الروم على الفرس في مثل هذه المدة مستحيلا.

{ **يَعْلَمُونَ** } المفعول محذوف، دلّ عليه قوله { سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ }. فالتقدير: لا يعلمون هذا الغلب القريب العجيب. ويجوز أن يكون المراد تنزيل الفعل منزلة اللازم بأن نزلوا منزلة من لا علم عندهم أصلا. فيكون في ذلك مبالغة في تجهيلهم، وهو مما يقتضيه المقام.

{ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أعقب إخباره عن انتفاء علمهم صدق وعد القرآن، بأن وصف حالة علمهم كلّها بأن قصارى تفكيرهم منحصر في ظواهر الحياة الدنيا غير المحتاجة إلى النظر العقلي وهي المحسوسات، ولا يعلمون بواطن الدلالات المحتاجة إلى إعمال الفكر والنظر.

والكلام يشعر بذم حالهم، ومحط الذم هو جملة { وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } .

{ **وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** } عبّر عن جهلهم الآخرة بالغفلة كناية عن نهوض دلائل وجود الحياة الآخرة لو نظروا في الدلائل المقتضية وجود حياة آخرة، فكان جهلهم بذلك شبيها بالغفلة لأنّه بحيث ينكشف لو اهتموا بالنظر فاستعير له { غَافِلُونَ } استعارة تبعية.

{ **وَهُمْ** } الأولى في موضع مبتدأ و { **هُمْ** } الثانية ضمير فصل. والجملة الاسمية دالة على تمكّنهم من الغفلة عن الآخرة وثباتهم في تلك الغفلة، وضمير الفصل لإفادة الاختصاص بهم، أي: هم الغافلون عن الآخرة دون المؤمنين.

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } [8].

عطف على جملة { وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [7] لأنّهم نفوا الحياة الآخرة فسيق إليهم هذا الدليل على أنّها من مقتضى الحكمة.

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا } الضمير عائد إلى الغافلين عن الآخرة وفي مقدمتهم مشركو مكّة. والاستفهام تعجيبي من غفلتهم وعدم تفكّرهم.

التفكّر: إعمال الفكر، وهو التأمّل في الدلالة العقلية. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

الأنفس: جمع نفس. والنفس يطلق على الذات كلّها، ويطلق على باطن الإنسان، ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي } [المائدة:116].

{ فِي أَنْفُسِهِم } يجوز أن يكون للظرفية الحقيقية الاعتبارية، فيكون ظرفا لمصدر { يَتَفَكَّرُوا}، أي: تفكرا مستقرا في أنفسهم. ويجوز أن يكون للظرفية المجازية متعلّقة بفعل { يَتَفَكَّرُوا }، أي: يتدبّروا ويتأمّلوا في أنفسهم. والمراد بالأنفس الذوات، فهو في معنى قوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذاريات:21].

{ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً } أنّ خلقهم ملابس للحقّ.

الحقّ: هنا هو ما يحق أن يكون حكمة لخلق السماوات والأرض وعلّة له، وحقّ كل ماهية ونوع هو ما يحقّ أن يتصرف به من الكمال في خصائصه.

المسمَّى: المقدّر. أطلقت التسمية على التقدير، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } [الحج:5]. وعند قوله تعالى { وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ } [العنكبوت:53].

{ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } تذييل. وتأكيده بـ { إِنَّ } لتنزيل السامع منزلة من يشك في وجود من يجحد لقاء الله بعد هذا الدليل الذي مضى، بله أن يكون الكافرون به كثيرا.

{ كَثِيراً } المراد بهم مشركو أهل مكة وبقية مشركي العرب المنكرين للبعث ومن ماثلهم من الدهريين. ولم يعبر هنا بـ { أَكْثَرَ النَّاسِ } [العنكبوت:60] لأن المثبتين للبعث كثيرون مثل أهل الكتاب والصابئة والمجوس والقبط.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [9]

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } عطف على الجملة السابقة. متصل بما يتضمّنه قوله { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [6] أنّ من أسباب عدم علمهم تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام الذي أنبأهم بالبعث، فلمّا سيق إليهم دليل حكمة البعث والجزاء بالحق **أعقب بإنذارهم** موعظة لهم بعواقب الأمم الذين كذّبوا رسلهم، لأنّ المقصود هو عاقبة تكذيبهم رسل الله.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا } الاستفهام تقريري. والأمر بالسير في الأرض تقدّم في قوله تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11]، وقوله تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } [العنكبوت:20]

النظر: هنا نظر العين لأنّ قريشا كانوا يمرّون في أسفارهم إلى الشام على ديار ثمود وقوم لوط، وفي أسفارهم إلى اليمن على ديار عاد.

{ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } هي حالة آخر أمرهم من خراب بلادهم وانقطاع أعقابهم.

العاقبة: آخر الأمر من الخير والشر، بخلاف **العُقبى** فهي للخير خاصة إلّا في مقام المشاكلة، وتقدّم ذكر العاقبة في قوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف:128].

والكلام يتضمّن وعيدا على تكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وتجهيلا لإحالتهم المُمْكِنَ، حيث أيقنوا بأنّ الفرس لا يُغلبون بعد انتصارهم. فهذه آثار أمم عظيمة كانت سائدة على الأرض فزال ملكهم وخلت بلادهم من سبب تغلّب أمم أخرى عليهم.

{ مِنْ قَبْلِهِمْ } عاد وثمود وقوم لوط، وأمثالهم الذين شاهد العرب آثارهم.

والمعنى: أنّهم كانوا من قبلهم في مثل حالتهم من الشرك وتكذيب الرسل المرسلين إليهم.

{ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً } بيان لجملة { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }. كلّ أولئك كانوا أشد قوة من قريش وأكثر تعميرا في الأرض، وكلّهم جاءتهم رسل، وكلّهم كانت عاقبتهم الاستئصال، وكلّ ذلك تقرّ به قريش.

الشدّة: صلابة جسم، وتستعار بكثرة لقوّة صفة من الأوصاف في شيء تشبيها لكمال الوصف وتمامه بالصلابة في عسر التحوّل، وتقدّم في قوله تعالى { وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ } [النمل:33]

القوّة: حالة يقاوم بها صاحبها ما يوجب انخرامه، فمن ذلك قوّة البدن، وتستعار القوّة لما به تدفع العادية

وتستقيم الحالة، فهي مجموع صفات يكون بها بقاء الشيء على أكمل أحواله كما في قوله { نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ } [النمل:33]. فقوّة الأمّة مجموع ما به تدفع العوادي عن كيانها وتستبقي صلاح أحوالها.
وحالة مشركي قريش لا تداني أحوال تلك الأمم في القوة، وناهيك بعاد فقد كانوا مضرب الأمثال في القوّة في سائر أمورهم، والعرب تصف الشيء العظيم في جنسه بأنّه عادي نسبة إلى عاد.
{ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } أطلقت الإثارة هنا على قلب تراب الأرض بجعل ما كان باطنا ظاهرا وهو **الحرث،** قال تعالى { لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ } [البقرة:71].
ويجوز أن يكون تمثيلا لحال **شدّة تصرّفهم** في الأرض وتغلّبهم على من سواهم بحال من يثير ساكنا ويهيجه، ومنه أطلقت الثورة على الخروج عن الجماعة. وهذا الاحتمال أنسب بالمقصود الذي هو وصف الأمم بالقوّة والمقدرة. ولكون قريش لم تكن لهم إثارة في الأرض بكلا المعنيين إذ كانوا بواد غير ذي زرع لم يقل في هذا الجانب: أكثر ممّا أثاروها.
عمارة الأرض: جعلها عامرة غير خلاء، وذلك بالبناء والغرس والزرع. يقال: ضيعة عامرة، ويقال في ضدّه: ضيعة غامرة.
{ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } أي: عمر الذين من قبلهم الأرض أكثر ممّا عمرها هؤلاء، فإنّ لقريش عمارة في الأرض من غرس قليل وبناء وتفجير ولكنّه يتضاءل أمام عمارة الأمم السالفة من عاد وثمود.
{ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } تفريع على قوله **{ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ }** إيجاز حذف بديع، لأنّ مجيء الرسل بالبيّنات يقتضي تصديقا وتكذيبا فلما فرّع عليه أنّهم ظلموا أنفسهم عُلم أنّهم كذّبوا الرسل وأنّ الله جازاهم على تكذيبهم رسله بأن عاقبهم عقابا لو كان لغير جرم لشابه الظلم، فجعل من مجموع نفي ظلم الله إيّاهم ومن إثبات ظلمهم أنفسهم معرفة أنّهم كذبوا الرسل وعاندوهم وحلّ بهم ما هو معلوم من مشاهدة ديارهم وتناقل أخبارهم.
{ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } عبّر عن ظلمهم أنفسهم بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ظلمهم وتكرّره، وأنّ الله أمهلهم فلم يقلعوا حتّى أخذهم بما دلّت عليه تلك العاقبة.
وتقديم { أَنْفُسَهُم } وهو مفعول { يَظْلِمُونَ } على فعله للاهتمام بأنفسهم في تسليط ظلمهم عليها لأنّه ظلم يُتعجّب منه، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة. وليس تقديم المفعول هنا للحصر.

{ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ } [10]

{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي لأنّ هذه العاقبة أعظم رتبة في السوء من عذاب الدنيا، فيجوز أن يكون هذا الكلام تذييلا لحكاية ما حلّ بالأمم السالفة. فيكون تعريضا بالتهديد لمشركي العرب. ويكون { الَّذِينَ أَسَاءُوا } كلّ

مسيء من جنس تلك الإساءة وهي: الشرك. ويجوز أن يكون إنذارا لمشركي العرب المتحدّث عنهم من قوله { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [6] فيكونوا المراد بـ { الَّذِينَ أَسَاءُوا }، ويكون إظهارا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لقصد الإيماء بالصلة، أي: أن سبب عاقبتهم السوأى هو إساءتهم.

وهذا إنذار بعد الموعظة ونص بعد القياس، **فإنّ الله وعظ** المكذّبين للرسول صلى الله عليه وسلم بعواقب الأمم التي كذّبت رسلها ليكونوا على حذر من مثل تلك العاقبة بحكم قياس التمثيل، **ثم أعقب** تلك الموعظة بالنذارة بأنّهم ستكون لهم مثل تلك العاقبة، وأوقع فعل {كَانَ} الماضي في موقع المضارع { يَسْتَهْزِئُونَ } للتنبيه على تحقيق وقوعه مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّه } [النحل:1] إتماما للنذارة.

العاقبة: الحالة الأخيرة التي تعقب حالة قبلها. وتقدّمت في قوله تعالى { ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11]، وقوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه:132].

{ **السُّوأَى** } : تأنيث الأسوإ، أي: الحالة الزائدة في الاتصاف بالسوء، وهو أشدّ الشرّ، كما أنّ الحسنى مؤنث الأحسن في قوله { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى } [يونس:26].

{ **بِآيَاتِ الله** } القرآن ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** } الباء للتعدية، وتقديم المجرور للاهتمام بشأن الآيات، وللرعاية على الفاصلة.

{ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [11]

استئناف ابتدائي، وهو شروع فيما أقيمت عليه هذه السورة من بسط دلائل انفراد الله تعالى بالتصرّف في أحوال الناس، لإبطال أن يكون لشركائهم شيء من التصرّف في ذلك. فهي دلائل ساطعة على ثبوت الوحدانية التي عموا عنها.

وإذ كان نزول أوّل السورة على سبب ابتهاج المشركين لتغلّب الفرس على الروم، وبعد أن قطع الله تطاولهم على المسلمين، جعل ذلك الحدث مناسبة لإفاضة الاستدلال في هذه السورة على إبطال دين الشرك.

وقد فصلت هذه الدلائل على أربعة استئنافات متماثلة الأسلوب، ابتدئ كل واحد منهم باسم الجلالة مجرى عليه أخبار عن حقائق لا قبل لهم بدحضها لأنّهم لا يسعهم إلّا الإقرار ببعضها أو العجز عن نقض دليلها:

الاستئناف الأوّل المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ }.

الاستئناف الثاني المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ } [40].

الاستئناف الثالث المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [48].

الاستئناف الرابع المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ } [54].

{ **اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ** } استدلال بما لا يسعهم إلّا الاعتراف به وهو بدء الخلق، إذ لا ينازعون في أنّ الله وحده هو خالق الخلق، ولذلك قال الله { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ } [الرعد:16].

{ **ثُمَّ يُعِيدُهُ** } إدماج لأنّه إذا سُلِّم له بدء الخلق كان تسليم إعادته أولى وأجدر. وحسن موقع الاستئناف وروده بعد ذكر أمم غابرة وأمم حاضرة خلف بعضها بعضا، وإذ كان ذلك مثالا لإعادة الأشخاص بعد فنائها وذكر عاقبة مصير المكذبين للرسل في العاجلة، ناسب في مقام الاعتبار أن يقام لهم الاستدلال على إمكان البعث ليقع ذكر ما يعقبه من الجزاء موقع الإقناع لهم.

{ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } { ثُمَّ } هنا للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، وذلك أنّ شأن الإرجاع إلى الله أعظم من إعادة الخلق، إذ هو المقصد من الإعادة ومن بدء الخلق.

والخطاب في { تُرْجَعُونَ } للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

{ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ** [12] **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** [13] }.

عطف على جملة { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [11] تبيينا لحال المشركين في وقت ذلك الإرجاع. وله مزيد اتصال بجملة { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى } [10]. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ويومئذ يبلس المجرمون أو ويومئذ تبلسون، فعدل عن ذلك بذكر جملة أخرى هي في معناها لتزيد الإرجاع بيانا أنّه إرجاع الناس إليه يوم تقوم الساعة، فهو إطناب لأجل البيان وزيادة التهويل لما يقتضيه إسناد القيام إلى الساعة من المباغتة والرعب. ويدل لهذا القصد تكرير هذا الظرف في الآية بعدها بهذا الإطناب.

{ **السَّاعَةُ** } شاع إطلاقها على وقت الحشر والحساب. وأصل الساعة: المقدار من الزمن، ويتعيّن تحديده بالإضافة أو التعريف.

الإبلاس: سُكُون بحَيْرَةٍ. يقال: أبلس، إذا لم يجد مخرجا من شدّة هو فيها. وتقدّم عند قوله تعالى { إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُون } [المؤمنين:77].

{ **الْمُجْرِمُونَ** } المشركون، وهم الذين أجريت عليهم ضمائر الغيبة وضمائر الخطاب.

والإظهار في مقام الإضمار لإجراء وصف الإجرام عليهم. ووصفوا بالإجرام لتحقير دين الشرك وأنّه مشتمل على إجرام كبير.

{ **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ** } ذكر أحد أسباب الإبلاس وأعظمها حينئذ وهو أنّهم لم يجدوا شفعاء من آلهتهم التي أشركوا بها وكانوا يحسبونها شفعاء عند الله، فلما نظروا فلم يجدوا شفعاء خابوا وخسئوا وأبلسوا.

{ **وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِين** } لأنّ المراد أنّهم يكفرون بهم يوم تقوم الساعة، كقوله تعالى { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ويلعن بعضكم بعضا } [العنكبوت:25].

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [14] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [15] وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [16]

تفصيل أحوال الناس يومئذ مع بيان مغبة إبلاس الكافرين.

{ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ** } أعيدت لزيادة التهويل الذي تقدّم بيانه آنفا.

{ **يَوْمَئِذٍ** } كرّر لتأكيد حقيقة الظرفية.

التفرّق: انقسام الجمع وتشتت أجزاء الكل. وقد كُني به هنا عن التباعد، لأنّ التفرّق يلازمه التباعد عرفا.

الروضة: كلّ أرض ذات أشجار وماء وأزهار في البادية أو في الجنان.

{ **يحبرون** } يُسَرُّون من الحبور، وهو السرور الشديد يقال: حبره: إذا سرّه سرورا تهلّل له وجهه.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة تنبيه على أنّهم أحرياء بتلك العقوبة لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة.

{ **مُحْضَرُونَ** } يجوز أن يكون من الإحضار، أي: جعل الشيء حاضرا، أي: لا يخرجون منه.

ويجوز أن يكون محضرون بمعنى مأتِيٌّ بهم إلى العذاب، فقد كثر في القرآن استعمال محضر ونحوه بمعنى **مُعَاقب**، قال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات:158].

{ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [17] وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ [18] }.

{ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ** } الفاء تقتضي اتصال ما بعدها بما قبلها وهي **فاء فصيحة**، أو عطف تفريع على ما قبلها وقد كان أوّل الكلام قوله { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [8].

والقول إنشاء تنزيه الله تعالى عمّا نسبوه إليه من العجز عن إحياء الناس بعد موتهم، وفيه ثناء عليه.

{ **حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** } الخطاب تابع للخطاب الذي قبله في قوله { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [11]، وهو موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات.

الإمساء: حلول المساء. و**الإصباح**: حلول الصباح. وتقدّم في قوله { فَالِقُ الْإِصْبَاحِ } [الأنعام:96].

العشي: ما بعد العصر، وقد تقدم عند قوله { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52].

الإظهار: حلول وقت الظهر وهو نصف النهار.

{ **تُمْسُونَ / تُصْبِحُونَ / عَشِيّاً / تُظْهِرُونَ** } ظروف متعلقة بما في إنشاء التنزيه من معنى الفعل، أي ينشأ تنزيه الله في هذه الأوقات وهي الأجزاء التي يتجزّأ الزمان إليها، والمقصود التأييد كما تقول: سبحان الله دوما. وسلك به مسلك الإطناب لأنّه مناسب لمقام الثناء.

وقد استعمل **الإفعال**، الذي همزته للدخول في المكان مثل: أنجد، في حلول الأوقات من المساء والصباح والظهر تشبيها لذلك الحلول بالكون في المكان. فيكثر أن يقال: أصبح وأضحى وأمسى وأعتم وأشرق، قال تعالى { فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ } [الشعراء:60].

{ **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } جملة معترضة بين الظروف تفيد أنّ تسبيح المؤمنين لله ليس لمنفعة الله تعالى بل لمنفعة المسبّحين، لأنّ الله محمود في السماوات والأرض فهو غني عن حمدنا.

وتقديم المجرور لإفادة القصر الادعائي لجنس الحمد على الله تعالى لأنّ حمده هو الحمد الكامل.

ولك أن تجعل التقديم للاهتمام بضمير الجلالة.

{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ } [19]

بدل من جملة { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [11]. ويجوز أيضا أن تكون موقع العلة لجملة { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ } [17] وما عطف عليها، أي: هو مستحق للتسبيح والحمد لتصرّفه في المخلوقات بالإيجاد العجيب وبالإحياء بعد الموت. واختير من تصرّفاته العظيمة تصرف الإحياء والإماتة في الحيوان والنبات لأنّه تخلّص للغرض المقصود من إثبات البعث. فتحصَّل من ذلك أنّ الأمر بتسبيحه وحمده معلول بأمرين: إيفاء حقّ شكره، وإيفاء حقّ التعظيم والإجلال. وهذا الخطاب للمؤمنين تعريض بالرد على المشركين.

الإخراج: فصل شيء محوي عن حاويه. يقال: أخرج يده من جيبه، فهو هنا مستعمل لإنشاء شيء من شيء.

{ **يَخْرُجُ - يُحْيِي** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة. فهذا الإخراج والإحياء آية عظيمة على استحقاقه التعظيم والإفراد بالعبادة، إذ أودع هذا النظام العجيب في الموجودات فجعل في الشيء الذي لا حياة له قوة وخصائص تجعله ينتج الأشياء الحية الثابتة المتصرّفة، ويجعل في تراب الأرض قوى تخرج الزرع والنبات حيا ناميا. وإخراج الحي من الميت يظهر في أحوال كثيرة منها: إنشاء الأجنة من النطف، وإنشاء الفراخ من البيض، وإخراج الميت من الحي يظهر في العكس وقد تقدّم في [آل عمران:27].

وفي الآية إيماء إلى أنّ الله يخرج من غلاة المشركين أفاضل من المؤمنين مثل إخراج خالد بن الوليد من أبيه الوليد بن المغيرة. وإخراج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من أبيها. ولما كلمت أم كلثوم بنت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن إسلامها وهجرتها إلى المدينة حين جاء أخواها يرومان ردها إلى

مكة حسب شروط الهدنة فقالت: يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي، فقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ }، ونزلت آية الامتحان فلم يردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما، وكانت أوّل النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية.

{ **وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** } يجوز أن يكون التشبيه راجعا إلى أقرب مذكور وهو إحياء الأرض بعد موتها، أي: وكإخراج النبات من الأرض بعد موته فيها يكون إخراجكم من الأرض بعد أن كنتم أمواتا فيها، كما قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح:18/17].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } [20].

لمّا كان الاستدلال على البعث متضمّنا آيات على تفرّده تعالى بالتصرّف، ودلالته على الوحدانية انتقل من ذلك الاستدلال إلى آيات على ذلك التصرف العظيم تثبيتا للمؤمنين وإعذارا لمن أشركوا في الإلهية.

{ **وَمِنْ آيَاتِهِ** } وهذه أولى ست آيات على الوحدانية. ولها شبه بالاستدلال على البعث لأنّ خلق الناس من تراب وبث الحياة والانتشار فيهم هو ضرب من ضروب إخراج الحيّ من الميت، فلذلك كانت هي الأولى في الذكر لمناسبتها لما قبلها، فجُعلت تخلُّصا من دلائل البعث إلى دلائل عظيم القدرة. وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الإنسان وتقويم بشريّته.

{ **أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ** } تقدم معناها عند قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ } [المؤمنون:13/12]. فضمير النصب في { خَلَقَكُمْ } عائد إلى جميع الناس.

وهذا استدلال للناس بأنفسهم لأنهم أشعر بها مما سواها، والناس يعلمون أن النطف أصل الخلقة، وهم إذا تأملوا علموا أن النطفة تتكون من ا لغذاء، وأن الغذاء يتكون من نبات الأرض، وأن نبات الأرض مشتمل على الأجزاء الترابية التي أنبتته فعلموا أنهم مخلوقون من تراب، فبذلك استقام جعل التكوين من التراب آية للناس، أي: علامة على عظيم القدرة مع كونه أمرا خفيا. على أنّه يمكن أن يكون الاستدلال مبنيا على ما هو شائع بين البشر أن أصل الإنسان تراب حسبما أنبأت به الأديان كلها. وأوّل الوجوه أظهرها.

{ **ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ** } لمّا كان تمام البشرية ينشأ عن تطور التراب إلى نبات ثم إلى نطفة ثم إلى أطوار التخلّق في أزمنة متتالية عطفت الجملة بحرف المهلة (**ثُمَّ**) الدال على تراخي الزمن مع تراخي الرتبة الذي هو الأصل في عطف الجمل. وصدرت الجملة بحرف المفاجأة (**إِذَا**) لأنّ الخروج يظهر للنّاس فجأة بوضع الأجنة، وما بين ذلك من الأطوار التي اقتضاها حرف المهلة هي أطوار خفية غير مشاهدة، فكان الجمع بين حرف المهلة وحرف المفاجأة تنبيها على ذلك التطور العجيب.

الانتشار: الظهور على الأرض والتباعد بين الناس في الأعمال، { فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ } [الجمعة: 10].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [21].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ } هذه آية ثانية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام، وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل، وهو نظام عجيب جعله الله مرتكزا في الجبلّة لا يشذ عنه إلا الشذّاذ. والخطاب لجميع نوع الإنسان الذكور والإناث.

وهي آية تنطوي على عدة آيات منها:

*/ أن جعل للإنسان ناموس التناسل.

*/ أن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه.

*/ جعل في ذلك التزاوج أنسا ومحبّة بين الزوجين.

*/ جعل بينهما رحمة فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة.

{ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } من نوعكم، فجميع الأزواج من نوع الناس، وما يزعمه المشعوذون من التزوّج بالجنيات، فمن تكاذيبهم.

الزوج: هو الذي به يصير للواحد ثان فيطلق على امرأة الرجل ورجل المرأة، فجعل الله لكل فرد زوجه.

{ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } ضُمِّن معنى **لتميلوا** فعدي بحرف (إلى).

السكون: هنا مستعار للتأنّس وفرح النفس لأنّ في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد.

المودة: المحبة. و**الرحمة**: صفة تبعث على حسن المعاملة.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل ويتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدة.

{ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } لأنّ التفكّر والنظر في تلك الدلائل هو الذي يجلّي كنهها ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها. والذين يتفكرون: المؤمنون وأهل الرأي من المشركين الذين يؤمنون بعد نزول هذه الآية.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } [22].

هذه الآية الثالثة، وهي آية النظام الأرضي في خلق الأرض بمجموعها وسكانها. والظاهر أنّ **المقصود** هو <u>آية اختلاف اللغات والألوان</u>، وأنّ ما تقدمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له وإيماء إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض.

وتقدّم قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [آل عمران:190]

الألسنة: جمع لسان، وهو يطلق على اللغة كما في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } [إبراهيم:4]، وقوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ } [النحل:103].

واختلاف لغات البشر آية عظيمة فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كوّنه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرّف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات، والتخفيف والحذف والزيادة، بحيث تتغيّر الأصول المتّحدة إلى لغات كثيرة.

فلا شك أنّ اللغة كانت واحدة للبشر حين كانوا في مكان واحد، وما اختلفت اللغات إلّا بانتشار البشر في المواطن المتباعدة، وتطرّق التغير تطرقا تدريجيا. على أنّ توسّع اللغات بتوسّع الحاجة إلى التعبير.

فمحلّ العبرة هو اختلاف اللغات مع اتحاد أصل النوع كقوله تعالى { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4].

وأمّا اختلاف ألوان البشر فهو آية أيضا، لأنّ البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة، فلمّا تعدّد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم وذلك الاختلاف معلول لعدّة علل أهمها المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة، ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون، ومنها العلل والأمراض، ومنها اختلاف الأغذية.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ** } وجعل ذلك آيات لما علمت من تفاصيل دلائله وعلله، أي: آيات لجميع الناس، وهو نظير قوله آنفا { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [21]. وجعل ذلك آيات للعالمين لأنّه مقرّر معلوم لديهم يمكنهم الشعور بآياته بمجرد التفات الذهن دون إمعان نظر.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[23].

هذه آية رابعة، وهي كائنة في أعراض من أعراض الناس لا يخلو عنها أحد من أفرادهم، إلّا أنّها أعراض مفارقة غير ملازمة فكانت دون الأعراض التي أقيمت عليها الآية الثالثة ولذلك ذكرت هذه الآية بعدها.

{ **مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانونا يسترد به قوته بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده، فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ } [البقرة:255].

المنام: مصدر ميمي للنوم أو هو اسم مصدر.

{ **بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } الباء للظرفية بمعنى (في)، فالناس ينامون بالليل ومنهم من ينام بالنهار في القائلة وبخاصة

أهل الأعمال المضنية إذا استراحوا منها في منتصف النهار خصوصا في البلاد الحارة أو في فصل الحر.

{ **وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ** } طلب الرزق بالعمل، لأن فضل الله الرزق، وجعل هذا كناية عن الهبوب إلى العمل لأنّ الابتغاء يستلزم الهبوب من النوم.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } جعلت دلالات المنام والابتغاء من فضل الله { لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } لوجهين:

أحدهما: أنّ هذين حالتان متعاورتان على الناس قد اعتادوهما فقل من يتدبّر في دلالتهما على دقيق صنع الله تعالى، فمعظم الناس في حاجة إلى من يوقفهم على هذه الدلالة ويرشدهم إليها.

ثانيهما: أنّ فيما يسمعه الناس من أحوال النوم ما هو أشد دلالة على عظيم صنع الله تعالى ممّا يشعر به صاحب النوم من أحوال نومه، فطريق السمع هو أعم الطرق لمعرفة تفاصيل أحوال النوم.

وأيضا لأنّ النوم يحول دون الشعور بالمسموعات بادئ ذي بدء قبل أن يحول دون الشعور بالمبصرات.

ووجه جعل ذلك { **لَآياتٍ** } لما ينطوي عليه من تعدّد الدلالات بتعدد المستدلّين، وتولّد دقائق تلك الآية بعضها عن بعض كما تقدم آنفا.

{ **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } [24].

تلك آية خامسة وهي متعلّقة بالإنسان وليست متّصلة به، فإنّ البرق آية من آيات صنع الله، وهو من خلق القوى الكهربائية النورانية في الأسحبة وجعلها آثارا مشاهدة، وكم من قوى أمثالها منبثّة في العوالم العلوية لا تُشاهد آثارها. ومن الحكم الإلهية في كون البرق مرئيا أنّ ذلك يثير في النفوس خوفا من أن يكون الله سلّطه عقابا، وطمعا في أن يكون أراد به خيرا للناس فيطمعون في نزول المطر.

{ **الْبَرْقَ** } تقدّم الكلام على البرق في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً } [الرعد:12].

{ **خَوْفاً وَطَمَعاً** } مفعول لأجله. فالمصدران مؤوّلان بمعنى الإرادة، أي: إرادة أن تخافوا وتطمعوا.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ** } جعلت هذه الآية آيات لانطوائها على دقائق عظيمة في خلق القوى التي هي أسباب البرق ونزول المطر وخروج النبات من الأرض بعد جفافها وموتها.

{ **لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } نيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل لأنّ العقل المستقيم غير المشوب بعاهة العناد والمكابرة كاف في فهم ما في تلك المذكورات من الدلائل والحكم على نحو ما قُرّر في نظائره آنفا.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}[25].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } ختمت الآيات بهذه الآية السادسة وهي التي دلّت على عظيم القدرة على حفظ نظام المخلوقات العظيمة بعد خلقها، فخلق السماوات والأرض آية مستقلة تقدّمت، وبقاء نظامهما على ممر القرون آية أخرى.

وموقع **العبرة** من هاته الآية هو أوّلها وهو أن تقوم السماء والأرض هذا القيام المتقن بأمر الله دون غيره.

وهذا هو المعبّر عنه في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا } [فاطر:41]، وقوله تعالى { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ } [الحج:65].

{ بِأَمْرِهِ } متعلق بفعل { تَقُومَ }، والباء للسببية. والأمر المضاف إلى الله هو أمره التكويني، وهو مجموع ما وضعه الله من نظام العالم العلوي والسفلي، ذلك النظام الحارس لهما من تطرق الاختلال.

{ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } احتراس عمّا قد يُتوهّم من الجملة السابقة من أبدية وجود السماوات والأرض، فأفادت الجملة أنّ هذا النظام الأرضي يعتوره الاختلال إذا أراد الله انقضاء العالم الأرضي وإحضار الخلق إلى الحشر، تسجيلا على المشركين بإثبات البعث.

ومضمون الجملة ليس من تمام هذه الآية السادسة ولكنّه تكملة وإدماج موجّه إلى منكري البعث.

{ مِنَ الْأَرْضِ } الأحسن والأبعد عن التكلّف أن يكون متعلقا بـ { تَخْرُجُونَ } قُدّم عليه. وعليه فتقديم المجرور للاهتمام تعريضا بخطئهم إذ أحالوا أن يكون لهم خروج من الأرض في قولهم المحكي عنهم بقوله تعالى { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة:10]، وقولهم { أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ } [النمل:67].

{ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } جيء بحرف المفاجأة لإفادة سرعة خروجهم إلى الحشر كقوله تعالى { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [النازعات:14/13]. وجيء بالمضارع لاستحضار الصورة العجيبة في ذلك الخروج كقوله تعالى { فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [يس:51].

{ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } [26].

أتبع ذكر إقامة الله تعالى السماوات والأرض بالتذكير بأنّ كل العقلاء في السماوات والأرض عبيد لله تعالى، فيكون من مكمّلات ما تضمّنته جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [25]، لزيادة بيان معنى إقامته السماء والأرض.

يجوز أن يكون المعنى: أنّهم منقادون لأمره. والمخلوقات السماوية ممتثلون لأمره ساعون في مرضاته، قال تعالى { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء:27]. وأمّا المخلوقات الأرضية العقلاء فهم مخلوقون للطاعة، قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56], فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها، وهم في انحرافهم متفاوتون، فالضالون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أندادا، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده، ولكنّهم ربّما خالفوا بعض أوامره قليلا أو كثيرا، هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق متفاوتون فيه.

ويجوز أن تكون الجملة تكملة لجملة { ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } [25] على معنى: وله يومئذ من في السماوات والأرض كل له قانتون، فالقنوت بمعنى الامتثال الواقع في ذلك اليوم وهو امتثال الخضوع لأنّ امتثال التكليف قد انقضى بانقضاء الدنيا. أي: لا يسعهم إلّا الخضوع فيما يأمر الله به من شأنهم { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24].

القنوت: تقدم في قوله تعالى { قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } [النحل:120].

{ وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [27].

تقدّم نظير صدر هذه الآية في هذه السورة [11] وأعيد هنا ليبنى عليه قوله { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } تكملة للدليل إذ لم تذكر هذه التكملة هناك. فهذا ابتداء بتوجيه الكلام إلى المشركين لرجوعه إلى نظيره المسوق إليهم.

وهذا أشبه بالتسليم الجدلي في المناظرة، فإنّ إعادة المصنوع مرة ثانية أهون على الصانع من صنعته الأولى وأدخل تحت تأثير قدرته فيما تعارفه الناس في مقدوراتهم.

{ **أَهْوَنُ** } اسم تفضيل، مستعمل في معنى المفاضلة على طريقة إرخاء العنان والتسليم الجدلي، أي: الخلق الثاني أسهل من الخلق الأول، وهذا في معنى قوله تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15]. ومراده: أنّ إعادة الخلق مرة ثانية مساوية لبدء الخلق في تعلّق القدرة الإلهية، فتحمل صيغة التفضيل على معنى قوة الفعل. فقوله تعالى { **وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** } مجرّد تقريب لأفهامهم لذلك عقّب بقوله: { **وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } ، أي: ثبت له واستحق الشأن الأتم الذي لا يقاس بشؤون الناس المتعارفة وإنّما لقصد التقريب لأفهامكم.

{ **الْأَعْلَى** } الأعظم، البالغ نهاية حقيقة العظمة والقوة.

{ **فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } أي: هو موصوف بأشرف الصفات وأعظم الشؤون على ألسنة العقلاء، وهي

الملائكة والبشر المعتدّ بعقولهم، ولا اعتداد بالمعطّلين منهم لسخافة عقولهم، وفي دلائل الأدلة الكائنة في السماوات وفي الأرض، فكلّ تلك الأدلة شاهدة بأنّ لله المثل الأعلى.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } ومن جملة المثل الأعلى عزّته وحكمته تعالى، فخُصّا بالذكر هنا لأنّهما الصفتان اللتان تظهر آثارهما في الغرض المتحدث عنه وهو بدء الخلق وإعادته.

العزّة: تقتضي الغنى المطلق، فهي تقتضي تمام القدرة.

الحكمة: تقتضي عموم العلم.

{ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [28].

الخطاب للمشركين. شُبِّهت الهيئة المنتزعة من زعم المشركين أنّ الأصنام شركاء لله في التصرّف ودافعون عن أوليائهم، وهم مع ذلك يعترفون بأنّها مخلوقة لله. هذه الهيئة شُبِّهت بهيئة ناس لهم عبيد صاروا شركاء في أرزاق سادتهم، شركة على السواء، فصار سادتهم يحذرون إذا أرادوا أن يتصرّفوا في تلك الأرزاق أن يكون تصرفهم غير مرضي لعبيدهم.

فهذه الهيئة المشبّه بها هيئة قبيحة مشوّهة في العادة لا وجود لأمثالها في عرفهم فكانت منفية منكرة، ولذلك أدخل عليها استفهام الإنكار والجحود لينتج أنّ الصورة المزعومة للأصنام صورة باطلة بطريق التصوير والتشكيل.

ضرب المثل: إيقاعه ووضعه، أو يراد بضربه جعله ضربا، أي: مثلا ونظيرا. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ **لَكُمْ** } لام التعليل، أي: ضرب مثلا لأجلكم، أي: لأجل إفهامكم.

{ **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** } و{ مِنْ } ابتدائية متعلقة بـ {ضَرَبَ} ، أي: جعل لكم مثلا منتزعا من أنفسكم، أي: مثلا من أحوال جماعتكم، إذ لا تخلو جماعة في ذلك الحين، عن ناس لهم عبيد. فالخطاب لجميع الأمة باعتبار وجود فريق فيهم ينطبق عليهم هذا المثل.

{ **هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار ومناط الإنكار قوله تعالى { فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ } إلى آخره، أي: من شركاء لهم هذا الشأن.

الشركاء: جمع شريك، وهو المشارك في المال لقوله { فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ }، أي: فتكونوا متساوين فيما أنتم فيه شركاء.

{ **تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ** } في موضع الحال من ضمير الفاعل في {سَوَاءٌ}. والأنفس هنا أنفس الذين لهم شركاء ممّا ملكت أيمانهم من المخاطبين، لأنّهم بعض المخاطبين.

الخوف: انفعال نفساني ينشأ من توقّع إصابة مكروه، وهو هنا التوقّي من التفريط في حظوظهم من الأرزاق أي: كما تتوقّون أنفسكم من إضاعة حقوقكم عندهم.

{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } أي: نفصّل الدلائل على الاعتقاد الصحيح تفصيلا كهذا التفصيل وضوحا بينا. والقوم الذين يعقلون هم المتنزّهون عن المكابرة والإعراض، والطالبون للحق والحقائق.

وفي هذا تعريض بالمتصلّبين في شركهم بأنّهم ليسوا من أهل العقول، وليسوا ممّن ينتفعون بالآيات، كقوله تعالى { وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [العنكبوت:43]، وقوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [البقرة:171].

{ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[29].

إضراب إبطالي لما تضمّنه التعريض الذي في قوله تعالى { كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [28]، إذ اقتضى أنّ الشأن أن ينتفع الناس بمثل هذا المثل فيقلع المشركون منهم عن إشراكهم ويلجوا حظيرة الإيمان، ولكنهم اتبعوا أهواءهم وما تسوّله لهم نفوسهم ولم يطلبوا الحق ويتفهّموا دلائله. فالتقدير: فما نفعتهم الآيات المفصّلة بل اتبعوا أهواءهم.

{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } المشركون { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:31].

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } التقييد لتشنيع هذا الاتباع، فإنّه اتباع شهوة مع جهالة.

{ **فَمَنْ يَهْدِي** } الفاء للتفريع، أي: يترتّب على اتباعهم أهواءهم بغير علم انتفاء الهدى عنهم أبدا.

{ **مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** } من قدّر له الضلال وطبع على قلبه، فإسناد الإضلال إلى الله إسناد لتكوينه وذلك بيّن.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } ردّ على المشركين الزاعمين أنّهم إذا أصابوا خطيئة عند الله أنّ الأصنام تشفع لهم.

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [30].

الفاء فصيحة. والأمر مستعمل في طلب الدوام. والمقصود: ألّا تهتم بإعراضهم، كقوله تعالى { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } [آل عمران:20].

إقامة الوجه: تقويمه وتعديله باتجاهه قبالة نظره غير ملتفت يمينا ولا شمالا. وهو تمثيل لحالة الإقبال على

الشيء والتمحّض للشغل به، وهذا كقوله تعالى { وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ } [الأعراف:29]، وقوله تعالى { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ} [آل عمران:20]، أي أعطيته لله، وذلك معنى التمحيض لعبادة الله وألّا يلتفت إلى معبود غيره.

{ **لِلدِّينِ** } التعريف للعهد وهو دينهم الذي هم عليه وهو دين الإسلام.

{ **حَنِيفاً** } يجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر في فعل { أَقِمْ } فيكون حالا للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما كان وصفا لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } [النحل:120].

ويجوز كونه حالا من الدين على ما فسّر به الزجاج فيكون استعارة بتشبيه الدين برجل حنيف في خلوّه من شوائب الشرك، فيكون الحنيف تمثيلية، وفي إثباته للدين استعارة تصريحية.

حنيف: صيغة مبالغة في الاتصاف بالحنف وهو الميل، وغلب استعمال هذا الوصف في **الميل عن الباطل،** أي: العدول عنه بالتوجّه إلى الحقّ، أي: عادلا ومنقطعا عن الشرك، كقوله تعالى { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [البقرة:135].

{ **فِطْرَتَ اللَّهِ** } بدل اشتمال من { حَنِيفاً }، فهو في معنى الحال من { الدِّينِ } وهو حال ثانية، فإنّ الحال كالخبر تتعدد بدون عطف على التحقيق عند النحاة. وهذا أحسن لأنّه أصرح في إفادة أنّ هذا الدين مختص بوصفين هما: التبرؤ من الإشراك، وموافقته الفطرة، فيفيد أنّه دين سمح سهل لا عنت فيه. ونظيره قوله تعالى { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً } [الكهف:2/1].

{ **الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** } أي: أنّ الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله، لأنّ التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتّى لو تُرك الإنسان وتفكيره ولم يُلقن اعتقادا ضالا لاهتدى إلى التوحيد بفطرته.

ومعنى كون الإسلام هو الفطرة عندي: بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخصّ نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسدا وعقلا، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أنّ يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدّماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية.

وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختصّ بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه أمّا أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية، وهذا ما أفاده قوله تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } .

فالإسلام عام خالد مناسب لجميع العصور وصالح بجميع الأمم، ولا يستتب ذلك إلّا إذا بُنيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية ليكون صالحا للناس كافة وللعصور عامة.

وتفصيل ذلك وبيانه في كتابي المسمَّى (**مقاصد الشريعة الإسلامية**) .

{ **الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** } بيان لمعنى الإضافة في قوله تعالى { فِطْرَتَ اللَّهِ }، وتصريح بأنّ الله خلق الناس سالمة عقولهم ممّا ينافي الفطرة، من الأديان الباطلة والعادات الذميمة، وأنّ ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلّا من جراء التلقّي والتعوّد، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يولد الولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ".**

وفي صحيح مسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه: **" وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلهم** (أي: غير مشركين) **وأنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ...".**

{ **لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** } جارية مجرى حال ثالثة من { الدِّينِ } على تقدير رابط محذوف. والتقدير: لا تبديل لخلق الله فيه، أي في هذا الدين. فالمعنى: أنّه الدين الحنيف الذي ليس فيه تبديل لخلق الله، خلاف دين أهل الشرك، قال تعالى عن الشيطان { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ } [النساء:119].

ويجوز أن تكون الجملة معترضة لإفادة النهي عن تغيير خلق الله فيما أودعه الفطرة. فتكون الجملة خبرا مستعملا في معنى النهي على وجه المبالغة.

{ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** } اسم الإشارة لزيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه.

{ **الْقَيِّمُ** } وصف بوزن فَيْعِلَ، مثل هيّن وليّن، يفيد قوة الاتصاف بمصدره، أي: البالغ قوّة القيام.

القيام: حقيقته الانتصاب ضد القعود والاضطجاع، ويطلق مجازا على انتفاء الاعوجاج. كما في قوله { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّماً } [الكهف:2/1]، وقوله تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } [براءة:36].

ويطلق أيضا على الرعاية والمراقبة والكفالة بالشيء لأنّها تستلزم القيام والتعهّد قال تعالى { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد:33]، ومنه قلنا لراعي التلامذة ومراقب أحوالهم: **قيّم.**

ويطلق القيّم على المهيمن والحافظ.

والمعاني كلّها صالحة للحمل عليها هنا، فإنّ هذا الكتاب معصوم عن الخطأ ومتكفّل بمصالح الناس وشاهدا على الكتب السالفة تصحيحا ونسخا قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48]. فهذا الدين به قوام أمر الأمّة.

قال عمر بن الخطاب لمعاذ بن جبل: يا معاذ ما قوام هذه الأمة؟ قال: الإخلاص وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والصلاة وهي الدين، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت. يريد معاذ بالإخلاص التوحيد كقوله تعالى { مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } [البينة:5].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك لدفع توهّم واهم يقول إذا كان هو دين الفطرة وهو القيّم فكيف أعرض كثير من الناس عنه بعد تبليغه، فاستدرك ذلك بأنّهم جهّال لا علم عندهم، فإن كان قد بلغهم فإنّهم

جهلوا معانيه لأنّهم لم يسعوا في أن تبلغهم على الوجه الصحيح.

{ **أَكْثَرَ النَّاسِ** } المشركون إذ أعرضوا عن دعوة الإسلام، وأهل الكتاب إذ أبوا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة أديانهم بعد إبطالها لانتهاء صلاحية تفاريعها بانقضاء الأحوال التي شرعت لها.

{ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [31] مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] }.

{ **مُنِيبِينَ** } حال من ضمير { فَأَقِمْ } [30] للإشارة إلى أنّ الخطاب الموجه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مراد منه نفسه والمؤمنون معه كما تقدّم.

المنيب: الملازم للطاعة. ويظهر أنّ معنى أناب صار ذا نوبة، أي: ذا رجوع متكرّر. والنوبة: حصة من عمل يتوزّعه عدد من الناس. يقال: تناوبوا عمل كذا. وفي حديث عمر: " كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يوما وأنزل يوما ".

فإطلاق المنيب على المطيع استعارة لتعهّد الطاعة تعهدا متكررا، وجعلت تلك الاستعارة كناية عن مواصلة الطاعة وملازمتها، قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].

وفُسّرت الإنابة أيضا بالتوبة. وقد قيل: إنّ ناب مرادف تاب، وهو المناسب لقوله في الآية الموالية { دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [33].

{ **وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } الأمر مستعمل في طلب الدوام.

{ **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً** } هم المشركون لأنّهم اتخذوا عدّة آلهة. وتقدّم الكلام على معناها في [الأنعام:159].

وقرأ الجمهور { **فَرَّقُوا** } بتشديد الراء. وقرأه حمزة والكسائي { **فَارَقُوا دِينَهُمْ** } بألف بعد الفاء، فالمراد بالدين دين الإسلام. ومعنى مفارقتهم إيّاه ابتعادهم منه، فاستعيرت المفارقة للنبذ إذ كان الإسلام هو الدين الذي فطر الله عليه الناس فلمّا لم يتّبعوه جعل إعراضهم عنه كالمفارقة لشيء كان مجتمعا معه، وليس المراد الارتداد عن الإسلام.

الشيع: جمع شيعة وهي الجماعة التي تشايع رأيا أو شخصا، وتقدم قوله تعالى { ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ } [مريم:69].

{ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** } تقدّم النظر فيها في [المؤمنون:53].

الحزب: الجماعة الذين رأيهم ونزعتهم واحدة. و{ **مَا لَدَيْهِمْ** } هو ما اتفقوا عليه. و**الفرح**: الرضا والابتهاج.

وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها، فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه اختلاف الاجتهاد، أو اختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد فليحذروا أن يجرّهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعا متعادين متفرّقين.

{ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [33] لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [34] }.

عطف على الجملة السابقة، أي: فرّقوا دينهم وكانوا شيعا، وإذا مسهم ضرّ فدعوا الله وحده فرحمهم عادوا إلى شركهم وكفرهم نعمة الذي رحمهم. بخلاف حال المؤمنين فإنّهم إذا أذاقهم الله رحمة بعد ضرّ شكروا نعمة ربهم وذلك من إنابتهم إلى الله.

ونسج الكلام على هذا الأسلوب ليكون بمنزلة التذييل بما في لفظ { النَّاسَ } من العموم وإدماجا لفضيلة المؤمنين الذين لا يكفرون نعمة الرحيم.

المسّ: مستعار للإصابة. وحقيقة المسّ أنّه وضع اليد على شيء، وتقدّم في قوله تعالى { لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [المائدة:73]. واختير هنا لما يستلزمه من خفة الإصابة، أي: يدعون الله إذا أصابهم خفيف ضر بله الضرّ الشديد.

الضُرّ: (بضم الضاد) سوء الحال في البدن أو العيش أو المال.

وهذا نحو ما أصاب قريشا من الشدّة والقحط حتّى كانوا يرون في الجو مثل الدخان من شدة الجفاف، وحتى أكلوا العظام والميتة، وقد أصاب ذلك مشركيهم ومؤمنيهم، وكانت شدّته على المشركين لأنّهم كانوا في رفاهية. فأرسلوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستشفعون به أن يدعو الله بكشف الضرّ عنهم فدعا فأمطروا فعادوا إلى ترفهم، قال تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } [الدخان:10].

{ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } فدعاؤهم ربّهم يشمل طلبهم أن يدعو لهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **مُنِيبِينَ** } حال من الناس كلّهم، أي: استووا في الإنابة إليه.

الإذاقة: مستعارة للإصابة أيضا، وحقيقتها إصابة المطعوم بطرف اللسان، فهي أقل من المضغ والبلع، وتقدّم في قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95]، وقوله تعالى { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ } [يونس:21]. واختير فعل الإذاقة لما يدلّ عليه من إسراعهم إلى الإشراك بمجرّد ابتداء الرحمة لهم.

الرحمة: تخليصهم من الشدّة.

{ **مِنْهُ رَحْمَةً** } الضمير عائد إلى الله تعالى، و{ مِنْ } ابتدائية متعلقة بـ{ أَصَابَهُمْ }. وتقديم المجرور على

الفاعل للاهتمام به ليظهر أنّ الذي أصابهم هو من فضل الله وتقديره لا غير ذلك.

{ **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا** } لام التعليل وهي مستعارة لمعنى التسبّب، لأنّهم لمّا أشركوا محبة للشرك فكان الشرك مفضيا إلى كفرهم نعمة الله. على نحو قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8].

الإيتاء: إعطاء النافع، أي: بما أنعمنا عليهم من النعم التي هي نعمة الإيجاد والرزق وكشف الضرّ عنهم.

{ **فَتَمَتَّعُوا** } ثمّ التفت عن الغيبة إلى الخطاب توبيخا لهم وإنذارا. وجيء بفاء التفريع لأنّ الإنذار والتوبيخ مفرّعان عن الكلام السابق. والأمر مستعمل في التهديد والتوبيخ.

التمتّع: الانتفاع بالملائم وبالنعمة مدّة تنقضي.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } الفاء لتفريع الإنذار على التوبيخ، وهو رشيق. و**العلم** كناية عن حصول الأمر الذي يعلم، أي: عن حلول مصائب بهم لا يعلمون كنهها الآن. وهم كانوا يستعجلون بعذاب من جنس ما عُذّب به الأمم الماضية مثل عاد وثمود.

{ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } [35].

{ أَمْ } منقطعة، مثل (بل) للإضراب، وهو إضراب انتقالي. فهو عطف قصة على قصة بمنزلة ابتداء.

والكلام توبيخ ولوم متصل بالتوبيخ الذي أفاده قوله تعالى { فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [34]. وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين تعجيبا من حال أهل الشرك.

وحيثما وقعت (أَمْ) فالاستفهام مقدّر بعدها، وهو هنا استفهام إنكاري، أي: ما أنزلنا عليهم سلطانا.

السلطان: الحجّة. ولمّا جُعل السلطان مفعولا للإنزال من عند الله تعيّن أنّ **المراد به كتاب** كما قالوا { حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ } [الإسراء:93].

{ **فَهُوَ يَتَكَلَّمُ** } الدلالة بالكتابة كقوله تعالى { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ } [الجاثية:29], أي: **تدلّ كتابته**، أي: كتب فيه تفصيل شركهم.

{ **بِهِ يُشْرِكُونَ** } قدّم { بِهِ } للاهتمام بالتنبيه على سبب إشراكهم، وللرعاية على الفاصلة.

{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ [36] أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [37] }.

أعيد الكلام على أحوال المشركين زيادة في بسط الحالة التي يتلقّون بها الرحمة وضدّها. فأريد تنبيههم هنا إلى حالة تلقّيهم ضدّ الرحمة بالقنوط ليحذروا ذلك ويرتاضوا برجاء الفرج والابتهال إلى الله في ذلك، والأخذ في أسباب انكشافها.

الرحمة: أطلقت على أثر الرحمة وهو المنافع والأحوال الحسنة الملائمة. **السيّئة**: ما يسوء صاحبه ويحزنه.

وقدّمت في هذه الآية إصابة الرحمة على إصابة السيئة عكس التي قبلها للاهتمام بالحالة التي جُعلت مبدأ العبرة وأصل الاستدلال، فقوله { فَرِحُوا بِهَا } وصف لحال الناس عندما تصيبهم الرحمة ليُبنى عليه ضدّه في قوله { إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } لما يقتضيه القنوط من التذمّر والغضب.

فليس في الكلام تعريض بإنكار الفرح. فالقنوط هو محل الإنكار عليهم، وهذا كقوله تعالى { لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ } [فصلت:49].

والمعنى: أنّهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها، فكذلك ينبغي أن يصبروا عند ما يمسّهم الضرّ ولا يقنطوا من زواله.

الإذاقة: تقدّم ذكرها آنفا [33].

{ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ** } إدماج في خلال الإنكار عليهم لتنبيههم إلى أنّ ما يصيبهم من حالة سيّئة في الدنيا إنّما سببها أفعالهم التي جعلها الله أسبابا لمسببات مؤثّرة لا يحيط بأسرارها ودقائقها إلّا الله تعالى، فما على الناس إلا أن يحاسبوا أنفسهم ويجروا أسباب إصابة السيئات، ويتداركوا ما فات، فذلك أنجى لهم من السيّئات وأجدر من القنوط. وهذا أدب جليل من آداب التنزيل، قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء: 79].

القنوط: اليأس، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } [الحجر:55].

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** } عطف على الجملة السابقة. والاستفهام إنكاري في معنى النفي، أنكر عليهم إهمال التأمّل في سنة الله الشائعة في الناس: من لحاق الضر وانفراجه، ومن قسمة الحظوظ في الرزق بين بسط وتقتير.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } تذييل، أي: في جميع ما ذُكر آيات كثيرة حاصلة كثرتها من اشتمال كلّ حالة من تلك الأحوال على أسباب خفية وظاهرة، ومسبباتها كذلك، ومن تعدد أحوال الناس من الاعتبار بها

والأخذ منها، كلّ على حسب استعداده. وخصّ **القوم المؤمنون** بذلك لأنّهم أعمق بصائر بما ارتاضت عليه أنفسهم من آداب الإيمان ومن نصب أنفسهم لطلب العلم والحكمة من علوم الدين وحكمة النبوّة.

{ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [38].

{ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى } فاء التفريع تفيد أنّ الكلام بعدها مترتّب على الكلام الذي قبلها، وقد اشتمل الكلام قبلها على لحاق آثار رحمة الله بالناس، وإصابة السوء إيّاهم، وعلى أنّ ما يصيبهم من السوء بما قدّمت أيدي الناس، وذكر بسط الرزق وتقديره. وتضمّن ذلك أنّ الفرح يلهيهم عن الشكر، وأنّ القنوط يلهيهم عن المحاسبة في الأسباب، **فكان الأمر** بإيتاء الضعفاء والمنكوبين إرشادا إلى وسائل شكر النعمة عند حصولها، واستكشاف الضرّ عند نزوله، وإلى أن من الحقّ التوسعة على المضيق عليهم الرزق.

والخطاب بالأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم باعتبار من معه من المؤمنين ممّن يحقّ عليه الإيتاء، وهو الذي بُسط له في الرزق. ويجوز أن يكون خطابا لغير معيّن من المؤمنين.

الإيتاء: الإعطاء. وهو مشعر بأنّ المعطى مال، ويقوّي ذلك وقوع الآية عقب قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ } [37].

وصيغة الأمر للوجوب في الأصل، والمأمور بإيتائه هنا عُبِّر عنه بأنّه حقّ، والأصل في الحقّ الوجوب.

وعن مجاهد وقتادة: صلة الرحم (بالمال) فرض من الله عز وجل لا تُقبل صدقة أحدٍ ورَحِمُهُ مُحْتَاجَة.

وقال الحسن: حقّ ذي القربى المواساة في اليسر، وقول ميسور في العسر.

وقال ابن عطية: " معظم ما قُصد أمر المعونة بالمال ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" في المال حقّ سوى الزكاة "**، وللمساكين وابن السبيل حقّ، وبَيّنٌ أنّ حق هذين في المال ".

أقول: ولذلك قال جمع كثير: إنّ هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وقال فريق: لم تنسخ بل للقريب حقّ في البرّ على كل حال، أي: لا نسخ في جميع ما تضمّنته بل نسخ بعضه بآية المواريث وبقي ما عداه.

قلت: وما بقي غير منسوخ مختلفة أحكامه، وهو مجمل تبيّنه أدلة أخرى متفرقة من الشريعة.

{ الْقُرْبَى } قرب النسب والرحم. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى } [النساء:36].

{ الْمِسْكِينِ } تقدّم في قوله تعالى { لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } [التوبة:60].

{ ابْنَ السَّبِيلِ } المسافر المجتاز بالقرية أو بالحي.

{ **حَقَّهُ** } وقع الحقّ مجملا والحوالة في بيانه على ما هو متعارف بين الناس وعلى ما يبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم. وكانت الصدقة قبل الهجرة واجبة على الجملة موكولة إلى حرص المؤمن. وقد أطلق عليها اسم الزكاة في آيات مكية كثيرة، وقرنت بالصلاة، فالمراد بها في تلك الآيات الصدقة الواجبة وكانت غير مضبوطة بنصب ثم ضبطت بعد الهجرة بأصناف ونصب ومقادير مخرجة عنها فصار ما عداها من الصدقة غير واجب. وقُصر اسم الزكاة على الواجبة وأطلق على ما عداها اسم الصدقة أو البر أو نحو ذلك.

*/ فحق ذي القربى يختلف بحسب حاجته، فللغني حقّه في الإهداء تودّدا، وللمحتاج حقّ أقوى. والظاهر أنّ المراد ذو القرابة ضعيف المال الذي لم يبلغ به ضعفه مبلغ المسكنة بقرينة التعبير عنه بالحقّ. وأمّا إعطاء القريب الغني فلعلّه غير مراد هنا، وإنّما يدخل في حسن المعاملة المرغَّب فيها.

*/ حق المسكين: سد خلَّته.

*/ حق ابن السبيل: الضيافة كما في الحديث: " **جائزته يوم وليلة** " .

والمقصود من الآية إبطال عادة أهل الجاهلية إذ كانوا يؤثرون البعيد على القريب في الإهداء والإيصاء حبًّا للمدحة، ويؤثرون بعطاياهم السادة وأهل السمعة تقرُّبا إليهم، فأُمِر المسلمون أن يتجنّبوا ذلك في قوله { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة:180].

{ **ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ** } تعقيب، أي: الذين يتوخّون بعطاياهم إرضاء الله وتحصيل ثوابه.

{ **ذَلِكَ خَيْرٌ** } الإشارة إلى الإيتاء المأخوذ من قوله تعالى { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ }. للتنويه بالمأمور به.

يجوز أن يكون تفضيلا والمفضّل عليه مفهوم من السياق، أنّ ذلك خير من صنيع أهل الجاهلية الذين يعطون الأغنياء البعداء للرياء والسمعة.

أو المراد: ذلك خير من بذل المال في المراباة التي تُذكر بعد في قوله تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً } [39].

ويجوز أن يكون الخير ما قابل الشر، أي: ذلك فيه خير للمؤمنين، وهو ثواب الله.

{ **يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ** } تمثيل، كأنّ المعطي أعطى المال بمرأى من الله، لأنّ الوجه هو محل النظر. وفيه أيضا مشاكلة تقديرية لأنّ هذا الأمر أريد به مقابلة ما كان يفعله أهل الجاهلية من الإعطاء لوجه المعطى من أهل الوجاهة في القوم، فجعل هنا الإعطاء لوجه الله.

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } صيغة قصر من أجل ضمير الفصل، وهو قصر إضافي، أي: أولئك المتفرّدون بالفلاح، وهو نجاح عملهم في إيتاء من ذُكر لوجه الله تعالى لا للرياء والفخر. فمن آتى للرياء والفخر فلا فلاح له من إيتائه.

{ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [39] **}.**

لمّا أرشد الله المسلمين إلى مواساة أغنيائهم فقراءهم أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكفّ عن المعاملة بالربا للمقترضين منهم، فإنّ المعاملة بالربا تنافي المواساة، لأنّ شأن المقترض أنه ذو خَلَّة، وشأن المقرِض أنّه ذو جِدة، فمعاملته المقترض منه بالربا استغلال لاضطراره، وذلك لا يليق بالمؤمنين.

وكان الربا فاشيا في زمن الجاهلية وصدر الإسلام وخاصة في ثقيف وقريش.

ومضمون هذه الجملة بمنزلة الاستدراك للتنبيه على إيتاء مال هو ذميم. وجيء بالجملة الشرطية لأنّها أنسب بمعنى الاستدراك على الكلام السابق. فالخطاب للمسلمين الذين يريدون وجه الله الذين كانوا يقرضون بالربا قبل تحريمه.

{ **آتَيْتُمْ** } آتى بعضكم بعضا، لأنّ الإيتاء يقتضي معطيا وآخذا.

{ **لِيَرْبُوَ** } قرأ الجمهور { لِيَرْبُوَ } بتحتية مفتوحة وفتحة إعراب على واو. وكتب في المصاحف بألف بعد الواو وليس واو الجماعة بالاتفاق، ورسم المصحف سنة، وقرأ نافع { لِتُرْبُوا} بتاء الخطاب مضمومة وواو ساكنة هي واو الجماعة. أي: لتزيدوا لأنفسكم أموالا على أموالكم.

{ **فِي أَمْوَالِ النَّاسِ** } للظرفية المجازية بمعنى (من) الابتدائية، أي: لتنالوا زيادة وأرباحا تحصل لكم من أموال الناس.

{ **فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ** } جواب الشرط. أي: أنّه عمل ناقص عند الله، والنقص يكنّى به عن المذمة والتحقير.

وهذا التفسير هو المناسب لمحمل لفظ الربا على حقيقته المشهورة، ولموافقة معنى قوله تعالى { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } [البقرة:276], ولمناسبة ذكر الإضعاف في قوله هنا { فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } وقوله { لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً } [آل عمران:130]. وهذا المعنى مروي عن السدي والحسن.

ويجوز أن يكون لفظ { رباً } في الآية أطلق على الزيادة في مال لغيره، أي: إعطاء المال لذوي الأموال قصد الزيادة في أموالهم تقرّبا إليهم، فيشمل هبة الثواب والهبة للزلفى والملق. ويكون الغرض من الآية التنبيه على أن ما كانوا يفعلونه من ذلك لا يغني عنهم من موافقة مرضاة الله تعالى شيئا وإنّما نفعه لأنفسهم.

ودرج على هذا المعنى جم غفير من المفسّرين، والمعنى: وما أعطيتم من زيادة لتزيدوا في أموال الناس.

{ **وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ** } رجوع إلى قوله تعالى { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حقه } [38]، لأنّ ذلك الحق هو المسمَّى بالزكاة.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** } جواب { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ }، أي: أولئك الذين حصل لهم الإضعاف، وهو إضعاف الثواب.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة للتنويه بهؤلاء والدلالة على أنهم أحرياء بالفلاح.

{ **هُمُ** } ضمير الفصل لقصر جنس المضعفين على هؤلاء، وهو قصر ادعائي للمبالغة .

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [40] }.

هذا الاستئناف الثاني من الأربعة التي أقيمت عليها دلائل انفراد الله تعالى بالتصرّف في الناس وإبطال ما زعموه من الإشراك في الإلهية كما أنبأ عنه قوله تعالى { هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ }، وإدماجا للاستدلال على وقوع البعث. وقد جاء هذا الاستئناف على طريقة قوله تعالى { الله يبدأ الخلق ثم يعيده } [يونس:34] واطرد الافتتاح بمثله في الآيات التي أريد بها إثبات البعث كما تقدّم عند قوله تعالى { اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [11]، وسيأتي في الآيتين بعد هذه.

{ **ثُمَّ** } مستعمل في معنيي التراخي الزمني والرتبي.

{ **هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ** } استفهام إنكاري في معنى النفي. والمعنى: ما من شركائكم من يفعل شيئا من ذلكم. و(مِنْ) في قوله { مِنْ شَيْءٍ } زائدة لتحقيق نفي الجنس كلّه.

{ **مِنْ ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، وهي مصادر الأفعال المذكورة.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } مستأنفة لإنشاء تنزيه الله تعالى عن الشريك في الإلهية. وموقعها بعد الجملتين السابقتين موقع النتيجة بعد القياس.

{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [41]

موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة، وهي من جوامع كلم القرآن. والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

الوجه الأوّل: يجوز أن تكون متصلة بقوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [9]. فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع النتيجة من مجموع الاستدلال، أو موقع الاستئناف البياني بتقدير سؤال عن سبب ما حل بأولئك الأمم.

فالكلام تذكير بأنّ ما حلّ بالأمم الماضية من المصائب ما كان إلّا بما كسبت أيديهم، أي: بأعمالهم.

الوجه الثاني: يجوز أن تقع هذه الآية موقع التكملة لقوله تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ } [33]، فهي خبر مستعمل في التنديم على ما حلّ بالمكذبين المخاطبين من ضرّ ليعلموا أنّ ذلك عقاب من الله تعالى فيقلعوا عنه خشية أن يحيط بهم ما هو أشدّ منه، كما يؤذن به قوله عقب ذلك { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }.

فالآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين وعطلت منافعها، ولعلّها مما نشأ عن الحرب بين الروم وفارس، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصار أولئك، فكان من جرّاء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر فتعطّلت التجارة وقلت الأقوات بمكة والحجاز.

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع الاستئناف البياني لسبب مس الضرّ إيّاهم حتّى لجأوا إلى الضراعة إلى الله، وما بينها وبين جملة { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضرّ ... } [33]، اعتراض واستطراد تخلّل في الاعتراض.

الوجه الثالث: يجوز أن يكون موقعها موقع الاعتراض بين ذكر ابتهال الناس إلى الله إذا أحاط بهم ضرّ ثم إعراضهم عن عبادته إذا أذاقهم منه رحمة، وبين ذكر ما حل بالأمم الماضية، اعتراضا ينبئ أنّ الفساد الذي يظهر في العالم ما هو إلّا من جراء اكتساب الناس، وأن لو استقاموا لكان حالهم على صلاح.

والتعريف في { الْفَسَادَ } على هذا الوجه، إمّا أن يكون تعريف العهد لفساد معهود لدى المخاطبين، وإمّا أن يكون تعريف الجنس الشامل لكل فساد ظهر في الأرض برّها وبحرها. أي: أنّه فساد في أحوال البر والبحر، لا في أعمال الناس بدليل قوله { لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }.

وتكون الباء في { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ } للعوض، أي: جزاء لهم بأعمالهم، كالباء في قوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى:30]. واللام في { لِيُذِيقَهُمْ } على حقيقة معنى التعليل.

الوجه الرابع: يجوز أن يكون المراد بالفساد **الشرك**، قاله قتادة والسدي، فتكون هذه الآية متصلة بقوله { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ - إلى قوله - هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ } [40]، فتكون الجملة إتماما للاستدلال على وحدانية الله تعالى تنبيها على أنّ الله خلق العالم سالما من الإشراك، وأنّ الإشراك ظهر بما كسبت أيدي الناس من صنيعهم، وهذا معنى قوله في الحديث القدسي في صحيح مسلم: " **إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وأنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي** ".

فذكر البر والبحر لتعميم الجهات. ويكون الباء في قوله { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ } للسببية، ويكون اللام في قوله { لِيُذِيقَهُمْ } لام العاقبة. أي: فأذقنا الذين أشركوا بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم.

الوجه الخامس: يجوز أن يكون المعنى أن الله تعالى خلق العالم على نظام محكم ملائم صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة. فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم، قال تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [التين:4-6]. وعلى هذا الوجه يكون محمل الباء ومحمل اللام مثل محملهما على الوجه الرابع.

{ **ظَهَرَ الْفَسَادُ** } أطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن، فشُبِّه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء الذي كان مختفيا.

{ **لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا** } تبعيض للجزاء، فالمراد بعض الجزاء على جميع العمل لا الجزاء على بعض العمل، أي: أنّ ما يذيقهم من العذاب هو بعض ما يستحقّونه. وفي هذا تهديد إن لم يقلعوا عن مساوئ أعمالهم كقوله تعالى { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ } [الفاطر:45]، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة كما قال تعالى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه: 127].

الإذاقة: استعارة مكنية، شبّه ما يصيبهم من الآلام فيحسون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } يشير الرجاء إلى أنّ ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عمّا هم اكتسبوه، وأنّ حالهم حال من يُرجى رجوعه، فإن هم لم يرجعوا فقد تبيّن تمرّدهم وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله تعالى { أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } [التوبة:126].

الرجوع: مستعار هنا للإقلاع عن المعاصي.

{ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** } [42].

لمّا وعظهم بما أصابهم من فساد الأحوال، ونبّههم إلى أنّها بعض الجزاء على ما كسبت أيديهم، عرّض لهم بالإنذار بفسادٍ أعظم قد يحلّ بهم، وهو ما أصاب الذين من قبلهم بسبب ما كانوا عليه من نظير حال هؤلاء في الإشراك، فأمرهم بالسير في الأرض والنظر في مصير الأمم التي أشركت وكذّبت، مثل عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم. فهذا تكرير وتأكيد لقوله السابق { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [9]، وإنّما أعيد اهتماما بهذه العبرة مع مناسبة قوله تعالى { لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا } [41].

العاقبة: نهاية الأمر. والمراد بالعاقبة الجنس، وهو متعدّد الأفراد بتعدد الذين من قبل، فلكلّ قوم عاقبة.

{ **كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** } واقعة موقع التعليل لجملة { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ }، أي: سبب تلك العاقبة المنظورة هو إشراك الأكثرين منهم.

{ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** } [43].

تفرّع على الإنذار والتحذير من عواقب الشرك تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على شريعته، ووعد بأن يأتيه النصر، كقوله تعالى { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر:99]، مع التعريض بالإرشاد إلى الخلاص من الشرك باتباع الدين القيم، أي: الحق.

والآية تأكيد للأمر بإقامة الوجه للدين في قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً } [30].

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر إعراضٌ عن صريح خطاب المشركين. والمقصود التعريض بأنّهم حرموا أنفسهم من اتباع هذا الدين العظيم الذي فيه النجاة. يؤخذ هذا التعريض من أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام بالدوام على الإسلام ومن قوله عقب ذلك { يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ }.

{ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ** } تقدّم الكلام على نظيره، وعلى معنى **إقامة الوجه** عند الآية [30].

{ **الْقَيِّمُ** } بوزن فيعل، وهي زنة تدل على قوّة ما تصاغ منه، أي: شديد القيام، والقيام هنا مجاز في الإصابة لأنّ الصواب يُشبَّه بالقيام، وضدّه يُشبَّه بالعوج، وقد جمعهما قوله { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً } [الكهف:2/1] فوُصف الإسلام في الآية السابقة بالحنيف والفطرة ووُصف هنا بالقيّم. وبين { **أَقِمْ – الْقَيِّمُ** } مُحسِّن الجناس.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ** } المراد بـ { يَوْمٌ } يوم عذاب في الدنيا وأنّه إذا جاء لا يردُّه عن المجازين به راد لأنه آت من الله. <u>والظاهر أنّ المراد به يوم بدر</u>.

المَرَدُّ: مصدر ميمي من الردّ وهو الدفع.

{ **يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** } المراد يوم الحشر.

{ **يَصَّدَّعُونَ** } أصله يتصدّعون فقلبت التاء صادا لتقارب مخرجيهما لتأتّي التخفيف بالإدغام. والتصدّع: مطاوع الصدع، وحقيقة الصدع: الكسر والشق، ومنه تصدع القدح. والتصدع هنا **التفرّق والتمايز**. ويكون ضمير الجمع عائدا إلى جميع الناس، أي: يومئذ يفترق المؤمنون من الكافرين، على نحو قوله تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } [الروم:14-16].

{ **مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** [44] **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** } [45].

بيان لإجمال قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ } [43]، إذ التثبيت على الدين بعد ذكر ما أصاب المشركين من الفساد بسبب شركهم يتضمّن تحقير شأنهم عند الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فبيّن ذلك بأنّهم

لا يضرّون بكفرهم إلّا أنفسهم، والذي يكشف هذا المعنى تقديم المسند في قوله تعالى { فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ }، فإنّه يفيد تخصيصه بالمسند إليه، أي: فكفره عليه لا عليك ولا على المؤمنين، ولهذا ابتدئ بذكر حال من كفر ثم ذكر بعده { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً } .

{ **فَعَلَيْهِ - فَلِأَنْفُسِهِمْ** } اقتضى حرف الاستعلاء (**على**) أنّ في الكفر تبعة وشدّة وضرًّا على الكافر، لأنّ (على) تقتضي ذلك في مثل هذا المقام، كما اقتضى الـ (**لام**) في قوله { فَلِأَنْفُسِهِمْ } أنّ لمجرورها نفعا وغُنما، ومنه قوله تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة:286].

{ **مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** } هذا التركيب من جوامع الكلم لدلالته على ما لا يُحصى من المضار في الكفر على الكافر وأنّه لا يضرّ غيره، مع تمام الإيجاز، وهو وعيد لأنّه في معنى: من كفر فجزاؤه عقاب الله، فاكتفي عن التصريح بذلك اكتفاء بدلالة (على)، كما بيّنّاه آنفا.

{ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** } الأمر بملازمة التحلّي بالإسلام وما في ذلك من الخير العاجل والآجل، مع ما تقتضيه عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والترهيب بالترغيب، فهو كالتكملة للبيان.

{ **مَنْ كَفَرَ - مَنْ عَمِلَ صَالِحاً** } لم يقابل بـ (من آمن) للتنويه بشأن المؤمنين بأنّهم أهل الأعمال الصالحة دون الكافرين. فاستغني بذكر العمل الصالح عن ذكر الإيمان لأنّه يتضمّنه، ولتحريض المؤمنين على الأعمال الصالحة لئلا يتكلوا على الإيمان وحده فتفوتهم النجاة التامة. وهذا اصطلاح القرآن في الغالب.

{ **فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** } التقديم للاهتمام بهذا الاستحقاق وللرعاية على الفاصلة وليس للاختصاص.

{ **يَمْهَدُونَ** } يجعلون مِهادا، والمهاد: الفراش. مُثِّلت حالة المؤمنين في عملهم الصالح بحال من يتطلب راحة رقاده فيوطِّئ فراشه ويسوّيه.

{ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ** } عدل عن الإضمار إلى الإظهار للاهتمام بالتصريح بأنّهم أصحاب صلة الإيمان والعمل الصالح وأنّ جزاء الله إيّاهم مناسب لذلك، لتقرير ذلك في الأذهان.

{ **مِنْ فَضْلِهِ** } يُفهم منه أنّ الله يجازيهم أضعافا لرضاه عنهم ومحبّته إياهم كما اقتضاه القول اللاحق:

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** } يدل بتعليله لما قبله على أنّ الكافرين محرومون من الفضل، وبمفهومه على أنّ الجزاء موفور للمؤمنين **فضلا** وأنّ العقاب معين للكافرين **عدلا**.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [46].

عود إلى تعداد الآيات الدالة على تفرّده بالإلهية، فهو عطف على جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [25]، وما تخلّل بينهما من أفانين الاستدلال على الوحدانية والبعث ومن طرائق الموعظة لتطرية نشاط السامعين لهذه الدلائل الموضَّحة المبيَّنة.

الإرسال: مستعار لتقدير الوصول، أي: يقدّر تكوين الرياح ونظامها الذي يوجّهها.

{ الرِّيَاحَ } تقدّم ذكرها في آيات كثيرة، منها قوله { وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } [البقرة:164]، وعلى كونها **لواقح** في [الحجر:22].

المبشّرات: المؤذنة بالخير وهو المطر. وأصل البشارة: الخبر السار. شبهت الرياح برسل موجهة بأخبار المسرّة. وذلك أن الرياح تسوق سحاب المطر.

البشارة: تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة:25]، وقوله { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى } [النحل:58].

{ وَلِيُذِيقَكُمْ } عطف على { مُبَشِّرَاتٍ } لأنّ { مُبَشِّرَاتٍ } في معنى التعليل للإرسال. وتقدم الكلام على الإذاقة.

{ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ } من حكمة خلق الرياح ومن نعمه، وتقدّم في [البقرة:164].

{ بِأَمْرِهِ } التقييد لتعليم للمؤمنين وتحقيق للمنّة، أي: لولا تقدير الله ذلك وجعله أسباب حصوله لما جرت الفلك. وتحت هذا معان كثيرة يجمعها إلهام الله البشر لصنع الفلك وتهذيب أسباب سيرها. وخلق نظام الريح والبحر لتسخير سيرها كما دلّ على ذلك قوله:

{ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } تقدم تفصيل معناها في سورة [الحج:36].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } [47].

جملة معترضة مستطرَدة أثارها ذكر سير الفلك في عِداد النعم فعقّب ذلك بما كان سير الفلك فيه تذكير بنقمة الطوفان لقوم نوح، وبجعل الله الفلك لنجاة نوح وصالحي قومه. فأريد تحذير المكذّبين من قريش أن يصيبهم ما أصاب المكذّبين قبلهم. ألا ترى إلى حكاية قول نوح { رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون:26]، وقوله هنا { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }.

الانتقام: من النَّقْم وهو الكراهية والغضب، وفعله كضرَب وعلِم، كقوله { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا } [الأعراف:126].

والانتقام العقوبة لمن يفعل ما لا يرضي، كأنّه صيغ منه الافتعال للدلالة على حصول أثر النقم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } [الأعراف:136].

{ **حَقّاً عَلَيْنَا** } من صيغ الالتزام، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } [الأعراف:105]، وهو محقوق بكذا، أي لازم له.

{ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [48] وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ [49] }.

جاءت هذه الجملة على أسلوب أمثالها كما تقدّم في قوله { هو الذي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [27]، وجاءت المناسبة هنا لذكر الاستدلال بإرسال الرياح في قوله { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ } [46] استدلالا على التفرّد بالتصرّف وتصوير الصنع الحكيم الدال على سعة العلم، ثم أعقب بالاستدلال بإرسال الرياح تَوَسُّلًا إلى ذكر إحياء الأرض بعد موتها المستدلّ به على البعث.

{ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ** } أفادت صيغة الحصر أنّه المتصرّف في هذا الشأن العجيب دون غيره، وكفى بهذا إبطالا لإلهية الأصنام.

{ **يُرْسِلُ** ، **تُثِيرُ** ، **يَبْسُطُهُ** ، **يَجْعَلُهُ** } التعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصور العجيبة في تلك التصرّفات حتّى كأنّ السامع يشاهد تكوينها، مع الدلالة على تجدّد ذلك.

{ **الرِّيَاحَ** } جيء بصيغة الجمع لما شاع في استعمالهم من إطلاقها على <u>ريح البشارة بالمطر</u> لأنّ الرياح التي تثير السحاب هي الرياح المختلفة جهات هبوبها. بخلاف اسم **الريح** المفردة فإنّه غلب في الاستعمال إطلاقه على <u>ريح القوة والشدة</u> لأنها تتصل واردة من صوب واحد فلا تزال تشتد. وتقدّم قوله تعالى { وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } [البقرة:164].

الإثارة: تحريك القار تحريكا يضطرب به عن موضعه. وإثارة السحاب إنشاؤه بما تحدثه الرياح في الأجواء من رطوبة تحصل من تفاعل الحرارة والبرودة.

البسط: النشر. و**السماء**: الجو الأعلى وهو جو الأسحِبة.

{ **كَيْفَ يَشَاءُ** } هنا مجرّدة عن معنى الاستفهام، مفعول مطلق من { يَبْسُطُهُ }، أي: يبسطه بسطا كيفيته يشاؤها الله، وتقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ } [آل عمران:6].

ومن زعم أنّها شرط لم يصادف الصواب.

{ **كِسَفاً** } (بكسر ففتح) في قراءة الجمهور جمع كِسْف (بكسر فسكون)، ويقال: كسفة وهو القطعة.
وتقدّم في قوله تعالى { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:92]. وتقدم الكسف في قوله تعالى { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الشعراء:187].
والمعنى: أنه يبسط السحاب في السماء تارة، أي: يجعله ممتدا عاما في جو السماء وهو المدجن الذي يظلم به الجو ويقال المغلق، ويجعله كسفا تارة أخرى، أي: يجعله غمامات، لأنّ حالة جعله كسفا غير حالة بسطه في السماء، فتعيّن أن يكون الجمع بينهما في الذكر مرادا منه اختلاف أحوال السحاب.
والمقصود: أنّ اختلاف الحال آية على سعة القدرة.
{ **فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** } الخطاب لغير معيّن، وهو كلّ من يتأتّى منه سماع ورؤية الودق.
الودق: المطر.
{ **مِنْ خِلالِهِ** } الضمير للسحاب بحالتيه المذكورتين وهما { فَيَبْسُطُهُ - كِسَفاً }.
الخلال: جمع خَلَل (بفتحتين) وهو الفرجة بين شيئين. وتقدم نظير هذه الجملة في [النور:43].
{ **فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } ذكر اختلاف أحوال العباد في وقت نزول المطر وفي وقت انحباسه بين استبشار وإبلاس إدماج للتذكير برحمة الله إيّاهم، وللاعتبار باختلاف تأثّرات نفوسهم في السراء والضراء.
{ **وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ** }
{ **مِنْ قَبْلِهِ** } تكرير، لتوكيد معنى قبلية نزول المطر، وتقريره في نفوس السامعين.
الإبلاس: يأس مع انكسار.

{ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [50] }.

رتّب على ما تقرّر من استحضار صورة تكوين المطر واستبشار الناس بنزوله بعد الإبلاس، أن اعترض بالأمر بالنظر إلى أثر الرحمة وإغاثة الله عباده حين يحيي لهم الأرض بعد موتها بالجفاف.
{ **فَانْظُرْ** } الأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال. والنظر: رؤية العين. والخطاب لغير معيّن ليعمّ كلّ من يتأتى منه النظر مثل قوله تعالى { فَتَرَى الْوَدْقَ } [48].

{ **إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ** } أثر الشيء: ما ينشأ عنه ممّا يدلّ عليه. فرحمة الله دلّت عليها الآثار الدالة على وجوده وتصرّفه بما فيه رحمة للخلق. و**رَحْمَةِ اللَّهِ**: هي صفته التي تتعلق بإمداد مخلوقاته ذوات الإدراك بما يلائمها ويدفع عنها ما يؤلمها وذلك هو **الإنعام**.

{ **كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** } و{ كَيْفَ } بدل من { أَثَرِ } أو مفعول لـ { انْظُرْ }، أي: انظر هيئة إحياء الله الأرض بعد موتها، تلك الحالة التي هي أثر من آثار رحمته الناس. وقد مضى عند قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ } [الفرقان:45]، وتقدّم آنفا في قوله تعالى { فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ } [48].

{ **يُحْيِي الْأَرْضَ** } إنبات الأرض.

{ **مَوْتِهَا** } جفاف الأرض وقحولتها، لأنّ قوام الحياة الرطوبة.

{ **إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى** } استئناف وهو إدماج، أدمج دليل البعث عقب الاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها. وحرف التوكيد يفيد مع تقرير الخبر زيادة معنى فاء التسبّب.

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة عائد إلى اسم الله تعالى بما أجرى عليه من الإخبار بإحياء الأرض بعد موتها ليفيد اسم الإشارة معنى أنّه جدير بما يرد بعده، فالمعنى: أنّ الله الذي يحيي الأرض بعد موتها لمحيي الموتى، تقريبا لتصوّر البعث. وعدل عن الموصول للإيجاز، ولما في الإشارة من التعظيم.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل، فإنّه يعمّ جميع الأشياء والبعث من جملتها، إذ ليس هو إلّا إيجاد خلق وهو مقدور لله تعالى كما أنشأ الخلق أوّل مرّة. والشبه تام لأنّ إحياء الأرض إيجاد أمثال ما كان عليها من النبات فكذلك إحياء الموتى إيجاد أمثالهم.

{ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } [51].

عطف على جملة { وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ } [49] وما بينهما اعتراض واستطراد. والجملة للتنبيه على أنّ الكفران مطبوع في نفوسهم بحيث يعاودهم بأدنى سبب، فهم إذا أصابتهم النعمة استبشروا ولم يشكروا وإذا أصابتهم البأساء أسرعوا إلى الكفران.

{ **رَأَوْهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى { أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ }، وهو الزرع والكلأ والشجر.

{ **مُصْفَرّاً** } الاصفرار في الزرع ونحوه مؤذن بيبسه. أي: فرأوه يصير أصفر.

ظلّ: بمعنى صار.

{ **يَكْفُرُونَ** } صيغة المضارع لتصوير مبادرتهم إلى الكفر ثم استمرارهم عليه.

{ **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ [52] وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** [53] }.

الفاء للترتيب على قوله { لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } [51]، أو الفاء فصيحة تدلّ على كلام مقدّر، أي: إن كبر عليك إعراضهم وساءك استرسالهم على الكفر فإنّهم كالموتى، وإنك لا تسمع الموتى. وهذا معذرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونداء على أنّه بذل الجهد في التبليغ.

وفيما عدا الفاء فالآية نظير التي في آخر [النمل:81/80].

وتعداد التشابيه منظور فيه إلى اختلاف أحوال طوائف المشركين فكان لكلّ فريق تشبيه:

{ **الْمَوْتَى** } هم من غلب عليهم التوغّل في الشرك فلا يصدّقون بما يخالفه، ولا يتأثّرون بالقرآن والدعوة إلى الحق، فهؤلاء بمنزلة الأموات أشباح بلا إدراك، وهؤلاء هم دهماؤهم وأغلبهم ولذلك ابتدئ بهم.

{ **الصُّمَّ الدُّعَاءَ** } هم من يعرض عن استماع القرآن، وهم الذين يقولون { فِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [فصلت:5]، ويقولون { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ } [فصلت:26] وهؤلاء هم ساداتهم ومدبّروا أمرهم، يخافون إن أصغوا إلى القرآن أن يملك مشاعرهم فلذلك يتباعدون عن سماعه، ولهذا قُيِّد الذي شبِّهوا به بوقت توليهم مدبرين إعراضا عن الدعوة { إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ }.

{ **الْعُمْيِ** } هم من سلكوا مسلك ساداتهم واقتفوا خطاهم فانحرفت أفهامهم عن الصواب فهم يسمعون القرآن ولا يستطيعون العمل به، وهؤلاء هم الذين اعتادوا متابعة أهوائهم، وهم الذين قالوا { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف: 22].

ويحصل من جميع ذلك تشبيه جماعتهم بجماعة تجمع أمواتا وصما وعميا.

{ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** } [54].

هذا رابع استئناف، رجوع إلى الاستدلال على عظيم القدرة في مختلف المصنوعات من العوالم لتقرير إمكانية البعث وتقريب حصوله إلى عقول منكريه.

فموقع هذه الآية كموقع قوله { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً } [48] ونظائرها، ولذلك جاءت فاتحتها على أسلوب فواتح نظائرها وهذا ما يؤذن به تعقيبها بقوله { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ } [55].

{ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ** } مبتدأ وصفة، وقوله { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } هو الخبر.

الضعف (بضم الضاد وهو أفصح وهو لغة قريش. ويجوز في ضاده الفتح وهو لغة تميم): الوهن واللين.

المعنى: أنّه كما أنشأكم أطوارا تبتدئ من الوهن وتنتهي إليه فكذلك ينشئكم بعد الموت إذ ليس ذلك بأعجب من الإنشاء الأوّل وما لحقه من الأطوار، ولهذا أخبر عنه بقوله { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }.

الشيبة: اسم مصدر الشيب. وتقدّم في قوله تعالى { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً } [مريم:4].

{ **وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** } ذكر وصف العلم والقدرة لأنّ التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم، وإبرازه على أحكم وجه هو من أثر القدرة.

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } [55].

لمّا ذُكر عدم انتفاع المشركين بآيات القرآن وشُبِّهوا بالأموات والصم والعمي فظهرت فظاعة حالهم في العاجلة **أتبع** ذلك بوصف حالهم حين تقوم الساعة في استصحاب مكابرتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، بأنّ الله حين يعيد خلقهم وينشئ لهم أجساما كأجسامهم ويعيد إليهم عقولهم يكون تفكيرهم يومئذ على وفاق ما كانوا عليه في الدنيا من السفسطة والمغالطة والغرور.

{ **كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ** } استئناف بياني، لأنّ غرابة حالهم من فساد تقدير المدّة والقسم عليه يثير سؤال سائل عن مثار هذا الوهم في نفوسهم فكان هذا القول بيانا لذلك. ومعناه: أنّهم لا عجب في صدور ذلك منهم فإنّهم كانوا يجيئون بمثل تلك الأوهام مدة كونهم في الدنيا، وكانوا يقسمون على عقائدهم كما في قوله { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} [النحل:38] استخفافا بالأيمان.

وفيه إشارة إلى انصرافهم عن الحق يوم البعث.

الأَفْك (بفتح الهمزة): الصَّرف، ويعدّى إلى الشيء المصروف عنه بحرف (عَنْ)، وتقدّم عند قوله { لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [العنكبوت:60].

{ **كَانُوا** } للدلالة على أنّ المراد في زمان قبل ذلك الزمن، أي: في زمن الحياة الدنيا.

والمعنى: أنّ ذلك خلق تخلقوا به وصار لهم كالسجيّة في حياتهم الدنيا حتى إذا أعاد الله إليهم أرواحهم صدر عنهم ما كانوا تخلّقوا به.

{ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [56].

الجملة معترضة. لمّا سمع المؤمنون، الذين أوتوا علم القرآن وأشرقت عقولهم في الحياة الدنيا بالعقائد الصحيحة وآثار الحكمة، مكابرتهم وقسمهم لم يتمالكوا ألّا يردّوا عليهم غلطهم ردًّا يكون عليهم حسرات ألّا

يكونوا قبلوا دعوة الحقّ كما قبلها المؤمنون. جعل الله منكري البعث هدفا لسهام التغليط والافتضاح في وقت النشور.

{ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ } عطف الإيمان على العلم للاهتمام به، لأنّ العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التي بها الفوز في الحياة الآخرة.

{ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ } صرفٌ لهم عن تلك المعذرة، كأنّهم يقولون: دعوا عنكم هذا فلا جدوى فيه واشتغلوا بالمقصود وما وعدتم به من العذاب يوم البعث.

{ لَبِثْتُمْ } مستعمل في حقيقته، أي: مكثتم، والخبر مستعمل في التحزين والترويع باعتبار ما يرد بعده من الإفصاح عن حضور وقت عذابهم.

{ فِي كِتَابِ اللَّهِ } للتعليل، أي: لقد بلغكم ذلك وسمعتموه فكان الشأن أن تؤمنوا به ولا تعتذروا بقولكم ما لبثنا غير ساعة.

{ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ } فاء الفصيحة أفصحت عن شرط مقدّر، وتفيد معنى المفاجأة، أي: إذ كان كذلك فهذا يوم البعث. وهذا توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقّبهم من العذاب.

{ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } استدراك، أي: لقد بلغكم ذلك وكان الشأن أن تستعدّوا له ولكنكم كنتم لا تعلمون، أي: لا تتصدّون للعلم بما فيه النفع بل كان دأبكم الإعراض عن تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [57].

تفريع على جملة { كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } [55]. و**{ الَّذِينَ ظَلَمُوا }** هم المشركون الذين أقسموا ما لبثوا غير ساعة، فالتعبير عنهم بالذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار لغرض التسجيل عليهم <u>بوصف الظلم وهو الإشراك بالله</u> لأنّه جامع لفنون الظلم، ففيه الاعتداء على حق الله، وظلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، وظلمهم المؤمنين بالاعتداء عليهم.

المعذرة: اسم مصدر اعتذر، إذا أبدى علّة أو حجّة ليدفع عن نفسه مؤاخذة على ذنب أو تقصير. وهو مشتق من فعل **عذره**، إذا لم يؤاخذه على ذنب أو تقصير لأجل ظهور سبب يدفع عنه المؤاخذة بما فعله.

<u>يجوز</u> أن تكون الإضافة للتعريف بمعذرة معهودة فتكون هي قولهم { مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ } [55].

<u>ويجوز</u> أن يكون التعريف للعموم كما هو شأن المصدر المضاف، أي: لا تنفعهم معذرة يعتذرون بها مثل قولهم { غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا } [المؤمنون:106]، وقولهم { هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا } [الأعراف:38].

واعلم أنّ هذا لا ينافي قوله تعالى { وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات:36] المقتضي نفي وقوع الاعتذار منهم، <u>لأنّ الاعتذار المنفي هو الاعتذار المأذون فيه</u>، أي: المقبول، لأنّ الله لو أذن لهم في الاعتذار لكان ذلك

توطئة لقبوله اعتذارهم نظير قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } [البقرة:255].
والمثبت هنا معذرة من تلقاء أنفسهم لم يؤذن لهم بها فهي غير نافعة لهم.
{ **وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** } مبني للمجهول والمبني منه للفاعل **استعتب**، إذا سأل العُتبى (بضم العين وبالقصر)، أي: إزالة العتب، قال تعالى { وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ } [فصلت:24].
والمعنى: لا ينفعهم اعتذار بعذر ولا إقرار بالذنب وطلب العفو. وتقدم قوله { وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } النحل:84].

{ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ** [58] **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** [59] }.
لمّا انتهى ما أقيمت عليه السورة من دلائل الوحدانية وإثبات البعث عقّب ذلك بالتنويه بالقرآن وبلوغه الغاية القصوى في البيان والهدى.
الضرب: حقيقته الوضع والإلصاق. واستعير في مثل هذه الآية للذكر والتبيين، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26]، وتقدّم آنفا عند قوله { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [28].
وهذا كقوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [الإسراء:89].
{ **لِلنَّاسِ** } أريد به المشركون لأنّهم المقصود من تكرير هذه الأمثال.
{ **وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ** } وصف لتلقّي المشركين أمثال القرآن، فإذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بآية فيها إرشادهم تلقّوها بالإنكار فقالوا { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ }.
{ **إِنْ أَنْتُمْ** } ضمير جمع المخاطب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لقصد تعظيمه من جانب الله تعالى، وإنّما يقول الذين كفروا: إن أنت إلّا مبطل، فحكي كلامهم بالمعنى للتنويه بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام.
وقيل: الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهو حكاية باللفظ.
{ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } اعتراض بين الجملتين المتعاطفتين تمهيدا للأمر بالصبر على غلوائهم، أي: تلك سنة أمثالهم.
الطبع على القلب: تصيره غير قابل لفهم الأمور الدينية وهو الختم، وتقدّم في قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].
{ **الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } مراد بهم الذين كفروا أنفسهم، فعدل عن الإضمار لزيادة وصفهم بانتفاء العلم عنهم بعد أن وصفوا: بالمجرمين، والذين ظلموا، والذين كفروا.

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ } [60].

الأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالصبر تفرَّع على جملة { وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ } [58] لتضمّنها تأييسه من إيمانهم. وحذف متعلق الأمر بالصبر لدلالة المقام عليه، أي: اصبر على تعنّتهم.

{ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } تعليل للأمر بالصبر وهو تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذّبين ومن نصر الرسول عليه الصلاة والسلام.

الحقّ: الثابت الذي لا ريب فيه ولا مبالغة.

الاستخفاف: مبالغة في جعله خفيفا فالسين والتاء للتقوية. والخفّة مستعارة لحالة الجزع وظهور آثار الغضب. وهي مثل القلق المستعار من اضطراب الشيء، لأنّ آثار الجزع والغضب تشبه تقلقل الشيء الخفيف، وفي ضده يستعار الرسوخ والتثاقل. وشاعت هذه الاستعارات حتى ساوت الحقيقة في الاستعمال.

المعنى: لا يحملُنَّك على ترك الصبر.

وأسند الاستخفاف إليهم على طريقة المجاز العقلي لأنّهم سببه بما يصدر من عنادهم.

{ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ } هم المشركون الذين أجريت عليهم الصفات المتقدّمة من الإجرام، والظلم، والكفر، وعدم العلم، فهو إظهار في مقام الإضمار للتصريح بمساويهم. قيل: كان منهم النضر بن الحارث.

والمعنى: أنّهم لا يوقنون بالأمور التي دلت عليها الدلائل القطعية فهم مكابرون.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة لقمان

سُمِّيت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان لأنّ فيها ذكر لقمان وحكمته وجملا من حكمته التي أدّب بها ابنه.
وليس لها اسم غير هذا الاسم، وبه عُرفت بين القرّاء والمفسرين.
وهي **مكية** عند جمهور المفسرين. وأمّا القول باستثناء آيتين وثلاث فمستند إلى ما رواه ابن جرير عن قتادة وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس. والأقوال تتجاذبها آراء الرجال ولم يثبت شيء يرجّحها.
قال أبو حيان: **سبب نزول** هذه السورة أنّ قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصّة لقمان مع ابنه. وهذا القول يؤيّده تصدير السورة بقوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ } [6].
وهي **السابعة والخمسون في تعداد نزول السور**، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.
وعُدَّت آياتها ثلاثا وثلاثين في عدّ أهل المدينة ومكة، وأربعا وثلاثين في عدّ أهل الشام والبصرة والكوفة.

أغراض السورة

*/ صدرت بالتنويه بهدى القرآن ليعلم الناس أنّه لا يشتمل إلّا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثل الكمال النفساني، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلّا في مقام التحذير ممّا هم فيه ومن عواقبه.
*/ انتقل من ذلك إلى تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة.
*/ ذكر لقمان بالتنويه بأن آتاه الله الحكمة وأمره بشكر النعمة.
*/ أطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك، ومن الأمر ببرّ الوالدين، ومن مراقبة الله لأنّه عليم بخفيّات الأمور، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، والتحذير من الكبر والعجب، والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام.
*/ سلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمّنته وصية لقان لابنه.
*/ تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسّكوا بما ألفوا عليه آباءهم.
*/ ذكرت مزية دين الإسلام.
*/ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتمسّك المسلمين بالعروة الوثقى، وأنّه لا يحزنه كفر من كفروا.
*/ الردّ على المعارضين للقرآن في قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ } {27] وما بعدها.
*/ ختمت بالتحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء علم الغيب.

{ **الم** } [1]

تقدّم الكلام على نظائرها في أوّل سورة البقرة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [2] هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ [3] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4] أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [5]** }.

إذا كانت هذه السورة نزلت بسبب سؤال قريش عن لقمان وابنه فهذه الآيات إلى قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} [12] بمنزلة مقدّمة لبيان أنّ مرمى القرآن من قصّ القصة ما فيها من علم وحكمة وهدى وأنّها مسوقة للمؤمنين لا للذين سألوا عنها فكان سؤالهم نفعا للمؤمنين.

{ **تِلْكَ** } الإشارة إلى ما سيُذكر في هذه السورة، فالمشار إليه مقدّر في الذهن مترقَّب الذِّكر.

{ **آيَاتُ الْكِتَابِ** } خبر عن اسم الإشارة. وفي الإشارة تنبيه على تعظيم قدر تلك الآيات بما دل عليه اسم الإشارة من البعد المستعمل في رفعة القدر، وبما دلت عليه إضافة الآيات إلى الكتاب الموصوف بأنّه الحكيم وأنّه هدى ورحمة وسبب فلاح.

{ **الْحَكِيمِ** } وصف للكتاب بمعنى ذي الحكمة، أي: لاشتماله على الحكمة. ويجوز أن يكون الحكيم بمعنى المُحكم بصيغة اسم المفعول. وتقدّم وصف الكتاب بـ { الْحَكِيمِ } في [يونس:1].

وفي وصف { الْكِتَابِ } بهذا الوصف براعة استهلال للغرض من ذكر حكمة لقمان.

{ **هُدىً وَرَحْمَةً** } حال من { الْكِتَابِ } والنصب قراءة الجمهور. وقرأه حمزة وحده برفع { رَحْمَةٌ } على جعل { هُدىً } خبرا ثانيا عن اسم الإشارة. وزيادة وصف الكتاب بـ { رَحْمَةً } بعد { هُدىً } لأنّه لمّا كان المقصد من هذه السورة قصّة لقمان نبّه على أنّ ذكر القصة رحمة لما تتضمّنه من الآداب والحكمة لأنّ في ذلك زيادة على الهدى أنّه تخلّق بالحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، والخير الكثير: رحمة من الله تعالى.

{ **لِلْمُحْسِنِينَ** } الفاعلون للحسنات، وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك خصت هذه الثلاث بالذكر بعد إطلاق المحسنين لأنّها أفضل الحسنات، وإن كان المحسنون يأتون بها وبغيرها.

{ **الزَّكَاةَ** } هنا الصدقة وكانت موكولة إلى همم المسلمين غير مضبوطة بوقت ولا بمقدار.

{ **وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4] أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } تقدّم الكلام حولها في أوّل سورة [البقرة:7/6].

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [6] وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [7] }.

عطف على جملة { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [2]. والمعنى: أنّ حال الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين، وأنّ من الناس معرضين عنه يؤثرون لهو الحديث ليضلُّوا عن سبيل الله الذي يهدي إليه الكتاب. وهذا من مقابلة الثناء على آيات الكتاب الحكيم بضد ذلك في ذمّ ما يأتي به بعض الناس، وهذا تخلّص من المقدّمة إلى مدخل للمقصود، وهو تفظيع ما يدعوا إليه النضر بن الحارث ومشايعوه من اللهو بأخبار الملوك التي لا تكسب صاحبها كمالا ولا حكمة.

{ وَمِنَ النَّاسِ } تقديم المسند للتشويق إلى تلقّي خبره العجيب. والأصح أنّ المراد بهذا القول **النضر بن الحارث** فإنّه كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس فيتلقّى أكاذيب الأخبار عن أبطالهم في الحروب المملوءة أكذوبات فيقصّها على قريش في أسمارهم ويقول: إن كان محمد يحدّثكم بأحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار وبهرام.

ومن المفسّرين من قال: إنّ النضر كان يشتري من بلاد فارس كتب أخبار ملوكهم فيحدث بها قريشا.

ويشمل لفظ { النَّاسِ } أهل سامره الذين ينصتون لما يقصّه عليهم كما يقتضيه قوله تعالى إثره { أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ }.

الاشتراء: كناية عن العناية بالشيء والاغتباط به. فالاشتراء هنا مستعمل في صريحه وكناية:

فالصريح تشويه لاقتناء النضر بن الحارث قصص رستم واسفنديار وبهرام، والكناية تقبيح للذين التفوا حوله وتلقوا أخباره، أي: من الناس من يشغله لهو الحديث والولع به عن الاهتداء بآيات الكتاب الحكيم.

{ لَهْوَ الْحَدِيثِ } ما كان من الحديث مرادا للهو ، وهو ما يقصد منه تشغيل البال وتقصير طول وقت البطالة دون نفع. وتقدّم اللهو في قوله تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } [الأنعام:32].

{ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً } أنّه يفعل ذلك ليلهي قريشا عن سماع القرآن، فإنّ القرآن سبيل موصل إلى الله تعالى، فلم يكن قصده مجرد اللهو بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله.

{ بِغَيْرِ عِلْمٍ } عن غير بصيرة في صالح نفسه حيث يستبدل الباطل بالحق.

الهزؤ: مصدر هزأ به إذا سخر به، كقوله تعالى { وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً } [البقرة:231]

{ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } لمّا كان القول صادقا على النضر بن الحارث والذين يستمعون إلى قصصه من المشركين جيء في وعيدهم بصيغة الجمع.

{ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً** } دلّ أنّه يواجَه بتبليغ القرآن وإسماعه. وقوله { وَلَّى } تمثيل للإعراض عن آيات الله كقوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى } [النازعات:22].

{ **مُسْتَكْبِراً** } حال، أي: هو إعراض استكبار لا إعراض تفريط في الخير فحسب. شُبّه في ذلك بالذي لا يسمع الآيات التي تتلى عليه، ووجه الشبه هو عدم التأثّر ولو تأثرا يعقبه إعراضٌ كتأثر الوليد بن المغيرة.

الوقر: أصله الثقل، وشاع في الصمم مجازا مشهورا ساوى الحقيقة، وتقدّم في قوله تعالى { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً} [الأنعام:25].

{ **فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } وقد ترتّب على هذه الأعمال التي وُصف بها أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوعده بعذاب أليم. وإطلاق البشارة هنا استعارة تهكمية.

وقد عُذِّب النضر بالسيف إذ قُتل صبرا يوم بدر، فذلك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة أشد.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ [8] خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [9] }.

لمّا ذكر عذاب من يُضلّ عن سبيل الله اتبع ببشارة المحسنين الذين وصفوا بأنّهم { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [4].

{ **وَعْدَ اللهِ** } مفعول المطلق النائب عن فعله. و { حَقّاً } حال مؤكّدة لمعنى عاملها.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } إجراء الاسمين الجليلين على ضمير الجلالة لتحقيق وعده، لأنّه لعزّته لا يعجزه الوفاء بما وعد، ولحكمته لا يخطئ ولا يذهل عمّا وعد، فموقع الجملة موقع التذييل بالأعم.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [10] هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [11] }.

استئناف للاستدلال على الذين دأبهم الإعراض عن آيات الله بأنّ الله هو خالق المخلوقات فلا يستحق غيره أن تثبت له الإلهية. فموقع هذه الآيات موقع دليل الدليل، وهو المقام المعبّر عنه في علم الاستدلال بالتدقيق، وهو ذكر الشيء بدليله ودليل دليله، فالخطاب في قوله تعالى { تَرَوْنَهَا } و { بُكُمْ } للمشركين.

{ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** } تقدّم قوله { اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [الرعد:2].

{ **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ** } خوف أن تميد بكم، أو لئلّا تُميدكم، كما بيّنّاه في [النحل:15].

{ **وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } [البقرة:164].

{ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** } هو نظير قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ } [البقرة:164]، وقوله تعالى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ } [الرعد:17].

{ **وَأَنْزَلْنَا** } الالتفات من الغيبة إلى التكلّم للاهتمام بهذه النعمة التي هي أكثر دورانا عند الناس.

الزوج: الصنف، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53] وقوله تعالى { وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج:5]

الكريم: النفيس في نوعه، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

أدمج في أثناء دلائل صفة الحكمة الامتنان بما في ذلك من منافع للخلق، فإنّ من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحومها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها، والحمل عليها والتجمّل، ثم من نعمة منافع النبات من الحب والثمر والكلأ. فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة، فأرانا آثار الحكمة والرحمة.

{ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** } نتيجة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال والدواب وإنزال المطر. و{ **هَذَا** } إشارة إلى ما تضمّنه قوله { خَلْقِ السَّمَاوَاتِ - إلى قوله - مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}.

{ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ** } الانتقال من التكلّم إلى الغيبة التفاتا لزيادة التصريح بأنّ الخطاب وارد من جانب الله.

{ **فَأَرُونِي** } يجوز أن تكون الرؤية علمية، أي: فأنبئوني، والفعل معلّقا عن العمل بالاستفهام بـ{ مَاذَا }.

فيتعيّن أن يكون الأمر تهكّما مستعملا في التعجيز، لأنّهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله.

{ **الَّذِينَ** } إجراء اسم موصول العقلاء على الأصنام مجاراة للمشركين إذ يعدّنهم عقلاء.

{ **بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } للإضراب الانتقالي من غرض المجادلة إلى غرض تسجيل ضلالهم، أي: في اعتقادهم إلهية الأصنام. و{ **الظَّالِمُونَ** } المشركون.

الضلال المبين: الكفر الفظيع، لأنّهم أعرضوا عن دعوة الإسلام للحق، وذلك ضلال، وأشركوا مع الله غيره في الإلهية، فذلك كفر فظيع.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } [12]

الواو عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث المتقدّمة في قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [6]، مقابلة بين حالة عجيبة في الضلالة والسفه وحالة عجيبة في الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادان.

لأنّ الكلام لمّا طال في قصة النضر التي سيقت مساق المقدّمة والمدخل إلى المقصود خرجت عن سنن المقدّمات إلى المقصودات بالذات فلذلك عُطفت عطف القصص ولم تفصل فصل النتائج عقب مقدّماتها.

الإيتاء: الإعطاء، وهو مستعار هنا للإلهام أو الوحي.

{ **لُقْمَانَ** } اسم رجل حكيم صالح. وأكثر الروايات في شأنه التي يعضد بعضها، وإن كانت أسانيدها ضعيفة، تقتضي أنّه كان من السود، فقيل هو من بلاد النوبة، وقيل من الحبشة.

وقد اختلف السلف في أنّ لقمان المذكور في القرآن كان حكيما أو نبيّا. فالجمهور قالوا: كان حكيما صالحا. ويظهر من الآيات المذكورة في قصّته هذه أنّه لم يكن نبيّا لأنّه لم يُمْتَنَّ عليه بوحي ولا بكلام الملائكة. والاقتصار على أنّه أوتي الحكمة يومئ إلى أنّه أُلهم الحكمة ونطق بها، ولأنّه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى { وَهُوَ يَعِظُهُ } [13]، وذلك مؤذن بأنّه تعليم لا تبليغ تشريع.

وذكر أهل التفسير والتاريخ أنّه كان في زمن داود. وبعضهم يقول إنّه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، فتعيّن أنّه عاش في بلاد إسرائيل. وذكر بعضهم أنّه كان عبدا فأعتقه سيده. قيل كان راعيا لغنم وقيل كان نجارا وقيل خياطا. وفي تفسير ابن كثير عن ابن وهب: أنّ لقمان كان عبدا لبني الحسحاس وهم من العرب.

{ **الْحِكْمَةَ** } حكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقرّبة للخفيّات بأحسن الأمثال. وقد عُني بها أهل التربية وأهل الخير، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في الموطأ بلاغين في كتاب (الجامع)، وذكر منها أحمد بن حنبل في مسنده، ولا نعرف كتابا جمع حكمة لقمان.

وكان لقمان معروفا عند خاصة العرب. قال ابن إسحاق في السيرة : " قدم سويد ابن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجا أو معتمرا فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **وما الذي معك؟** قال: مجلّة لقمان. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اعرضها عليَّ**، فعرضها عليه، فقال: " **إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله** ". قال ابن إسحاق: " قيل: قتلته الخزرج يوم بعاث. وكان رجال من قومه يقولون: إنّا لنراه قد قُتل وهو مسلم، وكان قومه يدعونه الكامل ".

وقد تقدّم في صدر الكلام على هذه السورة أنّ قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لقمان وابنه وذلك يقتضي أنّه كان معروفا للعرب. وقد انتهى إليَّ حين كتابة هذا التفسير من حِكم لقمان المأثورة ثمان وثلاثون حكمة غير ما ذكر في هذه الآية وسنذكرها عند الفراغ من تفسير هذه الآيات.

وتقدّم تعريف { الْحِكْمَةَ } عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269] وقوله تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ } [النحل:125].

{ **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** } وكان أوّل ما لُقِّنه لقمان من الحكمة هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله بشكره على ما هو

محفوف به من نعم الله. وهذا رأس الحكمة لتضمّنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء وقبل التصدي لإرشاد غيره. وأيضا فإنّ شكر الله من الحكمة، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، وذلك العمل من الشكر.

{ **وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** } تنبيه ببيان أنّ فائدة الشكر لنفس الشاكر لا للمشكور، لأنّ آثار شكر الله كمالات حاصلة للشاكر ولا تنفع المشكور شيئا لغناه سبحانه عن شكر الشاكرين، ولذلك جيء به في صورة الشرط، فإنّ الشرط أدلّ على ذلك من الإخبار. أي: ما يشكر إلّا لفائدة نفسه.

وجيء في فعل { يَشْكُرُ } بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد.

{ **وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** } زيد ذلك تبينا بعطف ضدّه لإفادة أنّ الإعراض عن الشكر بعد استشعاره كفر للنعمة، وأنّ الله غنيّ عن شكره.

{ **حَمِيدٌ** } أي: كثير المحمودية بلسان حال الكائنات كلّها حتّى حال الكافر به.

{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [13]

عطف على الجملة السابقة لأنّ الواو نائبة مناب الفعل فمضمون هذه الجملة يفسّر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان. فكان ذلك القول من الحكمة لا محالة. وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء إلى وصفه بحكمة الهدي والإرشاد. وقد جمعت مواعظه أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس.

{ **وَهُوَ يَعِظُهُ** } إشارة إلى أنّ قوله هذا كان لتلبّس ابنه بالإشراك، وقد قال جمهور المفسّرين: إنّ ابن لقمان كان مشركا فلم يزل لقمان يعظه حتّى آمن بالله وحده. و**الوعظ**: زجر مقترن بتخويف قال تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً } [النساء:63]

{ **يَا بُنَيَّ** } افتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ، مع أن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام، وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام، كما تقدّم عند قوله تعالى { يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً } [يوسف:4].

{ **بُنَيَّ** } تصغير (ابن) مضافا إلى ياء المتكلّم فلذلك كسرت الياء. والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبّب له، ففيه حثّ على الامتثال للموعظة.

{ **لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ** } ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله. فإنّ إصلاح الاعتقاد أصل الإصلاح العمل. وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين هما الدهرية والإشراك.

{ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** } تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنّه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخسّ الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم

وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها. وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق، ودلّ عليه الحديث في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لمّا نزلت { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } [الأنعام:82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ليس هو كما تظنّون إنّما هو كما قال لقمان لابنه** { يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }. وجوّز ابن عطية أن تكون الجملة من كلام الله تعالى، أي معترضة بين كلم لقمان.

{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ [14] وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [15] }.

إذا درجنا على أنّ لقمان لم يكن نبيّا مبلّغا عن الله وإنّما كان حكيما مرشدا كان هذا الكلام اعتراضا بين كلامي لقمان، لأنّ صيغة هذا الكلام مصوغة على أسلوب الإبلاغ والحكاية لقول من أقوال الله. والضمائر ضمائر العظمة جرّته مناسبة حكاية نهي لقمان لابنه عن الإشراك وتفظيعه بأنّه عظيم، فهو تأكيد لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال لئلّا يتوهّم متوهّم أنّ النهي خاص بابن لقمان أو ببعض الأحوال، فحكى الله أنّه أوصى بذلك كلّ إنسان وأن لا هوادة فيه ولو في أحرج الأحوال وهي حال مجاهدة الوالدين أولادهم على الإشراك.

وأحسن من هذه المناسبة أن تجعل مناسبة هذا الكلام المنّة على العباد، إذ أوصى الله الأبناء ببر الآباء فدخل في العموم المنّة على لقمان جزاء على رعيه لحق الله في ابتداء موعظة ابنه، فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا برعي حقّه. ويقوي هذا التفسير اقتران شكر الله وشكر الوالدين في الأمر.

وإذا درجنا على أنّ لقمان كان نبيّا فهذا الكلام ممّا أبلغه لقمان لابنه وهو مما أوتيه من الوحي ويكون قد حكي بالأسلوب الذي أوحي به إليه على نحو أسلوب قوله { أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ } [12]. وهذا الاحتمال أنسب بسياق الكلام، ويرجّحه اختلاف الأسلوب بينها وبين آيتي سورة العنكبوت وسورة الأحقاف، لأنّ ما هنا حكاية ما سبق في أمّة أخرى والأخريين خطاب أنف لهذه الأمّة.

{ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ } في موضع التعليل للوصاية بالوالدين قصدا لتأكيد تلك الوصاية، لأنّ تعليل الحكم يفيده تأكيدا، ولأنّ في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبرّ بأمّه ويستتبع البرّ بأبيه. وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما، وهي الأم، اكتفاء بأنّ تلك الحالة

تقتضي الوصاية بالأب أيضا للقياس، فإنّ الأب يلاقي مشاق وتعبا في القيام على الأم لتتمكّن من الشغل بالطفل في مدّة حضانته ثم هو يتولى تربيته والذبّ عنه حتّى يبلغ أشدّه ويستغني عن الإسعاف كما قال تعالى { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [الإسراء:24]، فجمعهما في التربية في حال الصغر مما يرجع إلى حفظه وإكمال نشأته.

الوهْن: (بسكون الهاء) مصدر وَهَنَ يَهِن من باب ضرب. ويقال: وهَن (بفتح الهاء) مصدر وَهِنَ يَوْهَنُ. وهو الضعف وقلةّ الطاقة على تحمل شيء.

{ **عَلَى وَهْنٍ** } صفة لـ { وَهْناً } أي: وهنا واقعا على وهن، كما يقال: رجع عودا على بدء، أي: بعد بدء، أو{عَلَى} بمعنى (مع).

فإنّ حمل المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين في البطن، والضعف من انعكاس دمها إلى تغذية الجنين، ولا يزال ذلك الضعف يتزايد بامتداد زمن الحمل فلا جرم أنّه وهن على وهن.

{ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** } عطف على جملة { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ }، فهي في موقع الحال أيضا.

الفصال: اسم للفطام، فهو فصل عن الرضاعة. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً } [البقرة:233].

وذكر الفصال في معرض تعليل حقّيّة الأم بالبر، لأنّه يستلزم الإرضاع من قبل الفصال، وللإشارة إلى ما تتحمله الأم من كدر الشفقة على الرضيع حين فصاله.

وذُكر لمدّة فطامه أقصاها، وهو عامان، لأنّ ذلك أنسب بالترقيق على الأم، وأشير إلى أنّه قد يكون الفطام قبل العامين بحرف الظرفية (في) لأنّ الظرفية تصدق مع استيعاب المظروف جميع الظرف. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } [النساء:5]. وقد حمله علي بن أبي طالب أو ابن عباس على هذا المعنى فأخذ منه أنّ أقل مدة الحمل ستة أشهر جمعا بين هذه الآية وآية سورة الأحقاف كما سيأتي هنالك.

{ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ** } تفسير لفعل { وَصَّيْنَا }. وإنّما فسرت الوصية بالوالدين بما فيه الأمر بشكر الله مع شكرهما على وجه الإدماج تمهيدا لقوله تعالى { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي }.

{ **إِلَيَّ الْمَصِيرُ** } استئناف للوعظ والتحذير من مخالفة ما أوصى الله به من الشكر له. أي: مصير الناس كلّهم. وتقديم المجرور للحصر، أي: ليس للأصنام مصير في شفاعة ولا غيرها.

{ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا** } تقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي – إلى قوله - فَلا تُطِعْهُمَا } [العنكبوت:8]، سوى أنّه قال هنا { عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي } وقال في العنكبوت { لِتُشْرِكَ بِي }، فأمّا حرف { عَلَى } فهو أدلّ على تمكن المجاهدة، أي: مجاهدة قوية للإشراك، وأمّا آية العنكبوت فجيء فيها بـ (لام العلة) لظهور أنّ سعدا كان غنيّا عن تأكيد النهي عن طاعة أمّه لقوة إيمانه.

المجاهدة: شدّة السعي والإلحاح.

{ **وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً** }، و**المصاحبة**: المعاشرة. ومنه حديث معاوية بن حيدة: " أنّه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحقّ الناس بحُسن صحابتي؟ فقال صلى الله عليه وسلّم: **أمّك** ..." .

المعروف: الشيء المتعارف المألوف الذي لا يُنكر فهو الشيء الحسن، أي: صاحب والديك صحبة حسنة.

وفُهم من ذكر هذا أثر قوله تعالى { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي }، أنّ الأمر بمعاشرتهما بالمعروف شامل لحالة كون الأبوين مشركين. وفي الحديث: أنّ أسماء بنت أبي بكر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ أمّي جاءت راغبة أفأصِلها؟ فقال: " **نعم صلي أمّك** "، وهي قتيلة بنت عبد العزى، وكانت مشركة.

{ **وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** } هو الاقتداء بسيرة المنيبين لله، أي: الراجعين إليه. وقد تقدّم ذكر الإنابة عند قوله تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم:33] وفي [هود:88]. أي: المقلعون عن الشرك وعن المنهيّات التي منها عقوق الوالدين، وهم الذين يدعون إلى التوحيد ومن اتّبعوهم في ذلك.

{ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } معطوفة على الجمل السابقة.

{ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ** } (ثمّ) للتراخي الرتبي المفيد للاهتمام بما بعدها. والجملة وعد ووعيد. وفي هذه الضمائر تغليب الخطاب على الغيبة لأنّ الخطاب أهم لأنّه أعرف.

الإنباء: كناية عن إظهار الجزاء على الأعمال، لأنّ الملازمة بين إظهار الشيء وبين العلم به ظاهرة.

أي: وعلاوة على ذلك كلّه إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون.

وضمير الجمع للإنسان والوالدين، أي: مرجع الجميع. وتقديم المجرور للاهتمام بهذا الرجوع أو هو للتخصيص، أي: لا ينفعكم شيء مما تأملونه من الأصنام.

{ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16].

تكرير النداء لتجديد نشاط السامع لوعي الكلام. واجتمع في هذه الجملة ثلاثة مؤكدات: النداء، وإن، وضمير القصّة، لعظم خطر ما بعده المفيد تقرير وصفه تعالى بالعلم المحيط بجميع المعلومات من الكائنات، ووصفه بالقدرة المحيطة بجميع الممكنات بقرينة قوله تعالى { يَأْتِ بِهَا اللَّهُ }.

{ **حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ** } ذُكر أدق الكائنات حالا من حيث تعلّق العلم والقدرة به، وذلك أدق الأجسام المختفي في أصلب مكان أو أقصاه وأعزّه منالا، أو أوسعه وأشده انتشارا، ليُعلم أنّ ما هو أقوى منه في الظهور والدنو من التناول أولى بأن يحيط به علم الله وقدرته.

المِثقال (بكسر الميم): ما يُقدّر به الثقل ولذلك صيغ على زنة اسم الآلة.

الحبة: واحدة الحب، وهو بذر النبات من سنابل أو قطنية، وتقدّم في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261]، وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى } [الأنعام:95].

الخردل: نبت له جذر وساق قائمة متفرّعة أسطوانية أوراقها كبيرة يخرج أزهارا صغيرة صُفرا سنبلية تتحول إلى قرون دقيقة مربعة الزوايا تخرج بزورا دقيقة، ولب تلك البزور شديد الحرارة يلدغ اللسان والجلد، وهو كثير الاستعمال في الطب قديما وحديثا. وتقدّم في قوله تعالى { فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا } [الأنبياء:47]

{ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ } لقصد تعميم الأمكنة، أي: ذلك كله سواء في جانب علم الله وقدرته، كأنّه قال: فتك في صخرة أو حيث كانت من العالم العلوي والعالم السفلي، وهو معنى قوله تعالى { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [يونس:61].

الإتيان: كناية عن التمكّن منها، وهو أيضا كناية رمزية عن العلم بها، لأنّ الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلّا عن علم بكونها في ذلك المكان وعلم بوسائل استخراجها منه.

{ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدمة أو كالنتيجة من الدليل، ولذلك فصلت ولم تعطف لأنّ النتيجة كبدل الاشتمال يشتمل عليها القياس. ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان، تعليما من الله للمسلمين.

اللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو وصف مؤذن بالعلم والقدرة الكاملين، وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام:103].

وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح.

{ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [17].

انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة.

الصلاة: التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معيّنة في الشريعة التي يدين بها لقمان.

والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح.

إقامة الصلاة: إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وتقدّم في أوّل البقرة.

{ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ** } شمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلّها على وجه الإجمال ليتطلّب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه، كما شمل النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيّئة كذلك.
والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إتيان الأمر وانتهاءه في نفسه لأنّ الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، فلا جرم أن يتوقّاها في نفسه بالأولوية.
فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير وبثّه في الناس وكفّه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه.
{ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ** } ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه. ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس أو أذى من البعض فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوشك أن يتركهما. ولمّا كانت فائدة الصبر عائدة على الصابر بالأجر العظيم عُدَّ الصبر هنا في عِداد الأعمال القاصرة على صاحبها ولم يلتفت إلى ما في تحمّل أذى الناس من حسن المعاملة معهم حتّى يذكر الصبر مع قوله { وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ } [18] لأنّ ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر.
الصبر: تحمّل ما يحلّ بالمرء ممّا يؤلم أو يحزن. وتقدّم في قوله { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة:45].
{ **إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } موقعها كموقع جملة { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [13]. والإشارة إلى المذكور من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب. والتأكيد للاهتمام.
العزم: مصدر بمعنى الجزم والإلزام.
العزيمة: الإرادة التي لا تردّد فيها. و{ عَزْمِ } مصدر بمعنى المفعول، أي: الأمور التي أوجبها الله.

{ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } [18]

انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقار الناس وعن التفخُّر عليهم، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعدُّ نفسه كواحد منهم.
{ **وَلا تُصَعِّرْ** } في قراءة ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب، وقرأ الجمهور { وَلا تُصاعِرْ } يقال: صاعر وصعّر، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتقّ من الصَّعَر (بالتحريك) لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، وهو تمثيل للاحتقار.
والمعنى: لا تحتقر الناس، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقارا لهم فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك.
{ **وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً** } تمثيل كنائي عن النهي عن التكبّر والتفاخر لا عن خصوص المشي في حال المرح، فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره.

{ **فِي الْأَرْضِ** } بعد { لا تَمْشِ }، مع أنّ المشي لا يكون إلّا في الأرض، هو الإيماء إلى أنّ المشي في مكان يمشي فيه الناس كلّهم قويّهم وضعيفهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنّه مساو لسائر الناس.

{ **مَرَحاً** } مفعول مطلق، أي: مشيا مرحا. والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترا واختيالا. وتقدّم في [الإسراء:37].

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** } كموقع { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16]. يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدّمة أو كالنتيجة من الدليل. ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان، تعليما من الله للمسلمين.

المختال: اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال، من فعل **خالَ** إذا كان ذا خُيلاء فهو خائل. والخُيلاء: الكبر والازدهاء، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف.

الفخور: شديد الفخر. وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً } [النساء:36].

{ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [19]

بعد أن بيّن له آداب حسن المعاملة مع الناس قفّاها بحسن الآداب في حالته الخاصة، وتلك حالتا المشي والتكلّم، وهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه.

القصد: الوسط العدل بين طرفين، فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب.

الغضّ: نقص قوّة استعمال الشيء. يقال: غض بصره، إذا خفض نظره فلم يحدّق. وتقدم قوله تعالى { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } [النور:30]. فغض الصوت: جعله دون الجهر.

{ **مِنْ** } دالة على التبعيض، أي: ينقص من جهورته ولكنّه لا يبلغ به إلى التخافت والسرار.

{ **إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** } تعليل للأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمّنة تشبيها بليغا، أي: لأنّ صوت الحمير أنكر الأصوات.

{ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ [20] وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** [21] }.

{ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** } رجوع إلى تعداد دلائل الوحدانية وما صحب ذلك من منّة على الخلق، فالكلام استئناف ابتدائي ورجوع إلى ما سلف في أوّل السورة في قوله تعالى { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ } [10]، فإنّه بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض والحيوان والأمطار عاد هنا الاستدلال والامتنان بأن سخّر لنا ما في السماوات وما في الأرض.

{ **أَلَمْ تَرَوْا** } يجوز أن يكون الخطاب لجميع الناس مؤمنهم ومشركهم لأنّه امتنان، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين باعتبار أنّه استدلال. والاستفهام تقرير أو إنكار لعدم الرؤية بتنزيلهم منزلة من لم يروا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحدانية. والرؤية بصرية. ورؤية التسخير رؤية آثاره ودلائله. ويجوز أن تكون الرؤية علمية كذلك.

{ **سَخَّرَ لَكُمْ** } مضى الكلام على هذا التسخير في تفسير قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [إبراهيم:32]، وكذلك في [النحل:3]. أي: لأجلكم، لأنّ من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها.

إسباغ النعم: إكثارها. وأصل الإسباغ: جعل ما يلبس سابغا، أي: وافيا في الستر. ومنه قولهم: درع سابغة. ثم استعير للإكثار، ثم شاع ذلك حتى ساوى الحقيقة فقيل: سوابغ النعم.

{ **نِعَمَهُ** } المنفعة التي يقصد بها فاعلها الإحسان إلى غيره. ولمّا كان المراد الجنس استوى فيه الواحد والجمع. والتنكير فيها للتعظيم.

الظاهرة: الواضحة. و**الباطنة**: الخفية، وما لا يعلم إلّا بدليل أو لا يعلم أصلا. وأصل الباطنة المستقرة في باطن الشيء أي داخله، قال تعالى { بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ } [الحديد:13].

فكم في بدن الإنسان وأحواله من نعم يعلمها الناس أو لا يعلمها بعضهم، أو لا يعلمها إلّا العلماء، أو لا يعلمها أهل عصر ثمّ تنكشف لمن بعدهم، وكلا النوعين أصناف دينية ودنيوية.

{ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ** } واو الحال. والمعنى: قد رأيتم أنّ الله سخر لكم ما في السماوات وأنعم عليكم نعما ضافية في حال أنّ بعضكم يجادل في وحدانية الله ويتعامى عن دلائل وحدانيته. وجملة الحال هنا خبر مستعمل في التعجيب من حال هذا الفريق. ولك أن تجعل الواو اعتراضية والجملة معترضة بين قوله

تعالى { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ } وبين قوله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [25].

{ **وَمِنَ النَّاسِ** } إظهار في مقام الإضمار، كأنّه قيل: ومنكم، و{مِنَ} تبعيضية. والمراد بهذا الفريق: هم المتصدّون لمحاجة النبيّ صلى الله عليه وسلم والتمويه على قومهم مثل النضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ** } شمل مراتب اكتساب العلم وهي إمّا: الاجتهاد والاكتساب، أو التلقّي من العالم، أو مطالعة الكتب الصائبة. وتقدّم تفسير نظيرها في [الحج:8].

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** } تقدّم نظير هذه الجملة في [البقرة:170].

{ **يَدْعُوهُمْ** } الضمير المنصوب عائد إلى الآباء، أي: أيتَّبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعو الآباء إلى العذاب، فهم يتّبعونهم إلى العذاب ولا يهتدون.

والاستفهام تعجيبي من فظاعة ضلالهم وعماهم بحيث يتَّبعون من يدعوهم إلى النّار، وهذا ذمّ لهم. وهو وزان قوله تعالى { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً } [البقرة:170].

الدعاء إلى عذاب السعير: الدعاء إلى أسبابه.

السعير: تقدّم في قوله تعالى { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [الإسراء:97].

{ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[22]

هذا مقابل قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ - إلى قوله - يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [20-21]، فأولئك الذين اتّبعوا ما وجدوا آباءهم عليه من الشرك على غير بصيرة فوقعوا في العذاب، وهؤلاء الذين أسلموا لله لمّا دعاهم إلى الإسلام فلم يصدّهم عن اتباع الحقّ إلف ولا تقديس آباء، فأولئك تعلقوا بالأوهام واستمسكوا بها لإرضاء أهوائهم، وهؤلاء استمسكوا بالحق إرضاء للدليل، وأولئك أرضوا الشيطان وهؤلاء اتبعوا رضى الله.

{ **يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ** } تمثيل لإفراده تعالى بالعبادة كأنّه لا يقبل بوجهه على غير الله، وتقدّم في قوله { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ } [البقرة:112]، وقوله { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20].

الإحسان: العمل الصالح والإخلاص في العبادة. وفي الحديث: " **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** ".

{ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** } مضى الكلام على نظيره عند قوله تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [البقرة:256]، وهو ثناء على المسلمين.

{ **وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** } تذييل، إيماء إلى وعدهم بلقاء الكرامة عند الله في آخر أمرهم وهو الحياة الآخرة.

{ **إِلَى اللَّهِ** } التقديم للاهتمام والتنبيه إلى أنّ الراجع إليه يلاقي جزاءه وافيا.

العاقبة: الحالة الخاتمة والنهاية.

{ **الْأُمُورِ** } : جمع أمر وهو الشأن. والتعريف للاستغراق، وهو تعميم يراد به أنّ أمور المسلمين التي هي من مشمولات عموم الأمور صائرة إلى الله وموكولة إليه فجزاؤهم بالخير مناسب لعظمة الله.

{ وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [23]

لمّا خلا ذمّ الذين كفروا عن الوعيد وانتقل منه إلى مدح المسلمين ووعدهم عطف عنان الكلام إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتهوين كفرهم عليه تسلية له وتعريضا بقلة العبء بهم لأنّ مرجعهم إلى الله فيريهم الجزاء المناسب لكفرهم، فهو تعريض لهم بالوعيد.

{ **فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ** } مجاز عقليّ في نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن مداومة الفكر بالحزن لأجل كفرهم، لأنّه إذا قلع ذلك من نفسه انتفى إحزان كفرهم إيّاه.

وقرأ نافع { **يُحْزِنْكَ** } (بضمّ التحتيّة وكسر الزاي) مضارع أحزنه إذا جعله حزينا. وقرأ البقية { **يَحْزُنْكَ** } (بفتح التحتية وضم الزاي) مضارع حزنه بذلك المعنى، وهما لغتان: الأولى لغة تميم، والثانية لغة قريش، والأولى أقيس وكلتاهما فصحى ولغة تميم من اللغات التي نزل بها القرآن.

{ **إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا** } واقعة موقع التعليل للنهي، وهي أيضا تمهيد لوعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله يتولّى الانتقام منهم المدلول عليه بقوله تعالى { فَنُنَبِّئُهُمْ }، كناية عن المجازاة.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تعليل للجملة السابقة، فموقع حرف { إِنَّ } هنا مغن عن فاء التسبّب.

{ **بِذَاتِ الصُّدُورِ** } هي النوايا وأعراض النفس من نحو الحقد وتدبير المكر والكفر. ومناسبته هنا أنّ كفر المشركين بعضه إعلان وبعضه إسرار، قال تعالى { وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الملك:13]، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

{ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ } [24]

استئناف بياني لأنّ قوله تعالى { إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } [23] يثير في نفوس السامعين سؤالا عن عدم تعجيل الجزاء إليهم، فبيّن بأنّ الله يمهلهم زمنا ثم يوقعهم في عذاب لا يجدون منه منجي. وهذا الاستئناف وقع معترضا بين الجمل المتعاطفة.

التمتيع: العطاء الموقّت، فهو إعطاء المتاع، أي: الشيء القليل.

{ **قَلِيلاً** } صفة لمصدر مفعول مطلق، أي: تمتيعا قليلا، وقلّته بالنسبة إلى ما أعدّ الله للمسلمين أو لقلّة مدّته في الدنيا بالنسبة إلى مدّة الآخرة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

الاضطرار: الإلجاء، وهو جعل الغير ذا ضرورة، أي: لزوم، وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ } [البقرة:126].

الغليظ: من صفات الأجسام وهو القوي الخشن، وأطلق على الشديد من الأحوال على وجه الاستعارة بجامع الشدّة على النفس وعدم الطاقة على احتماله. وتقدّم قوله تعالى { وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود:58]، كما أطلق الكثير على القوي.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [25]

عطف على جملة { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [21] باعتبار أنّ ما وجدوا عليه آباءهم هو الإشراك مع الله في الإلهية، وإن سألهم سائل: من خلق السماوات والأرض يقولوا خلقهن الله، وذلك تسخيف لعقولهم التي تجمع بين الإقرار لله بالخلق وبين اعتقاد إلهية غيره.

السماوات والأرض: يشمل ما فيها من المخلوقات، وتقدّم نظيرها في [العنكبوت:63]. وعبر هنا بـ { لا يَعْلَمُونَ } وفي العنكبوت بـ { لا يَعْقِلُونَ } تفنّنا في المخالفة بين القصّتين مع اتحاد المعنى.

{ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [26]

موقع هذه الجملة من التي قبلها موقع النتيجة من الدليل، فلذلك فصلت ولم تعطف لأنّها بمنزلة بدل الاشتمال من التي قبلها، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16]، فإنّه لمّا تقرّر إقرارهم لله بخلق السماوات والأرض لزمهم إنتاج أنّ ما في السماوات والأرض ملك لله، ومن جملة ذلك أصنامهم.

{ **هُوَ** } ضمير فصل مفاده اختصاص الغِنى والحمد بالله تعالى، وهو قصر قلب، أي: ليس لآلهتهم المزعومة غنًى ولا تستحق حمدا.
{ **الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } تقدم الكلام حولها في أوّل السورة [12].

{ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [27]

تكرّر فيما سبق من هذه السورة وصف الله تعالى بإحاطة العلم بجميع الأشياء ظاهرة وخفية، فقال فيما حكى من وصيّة لقمان { إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ - إلى قوله - لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16]، ثمّ قال { فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور } [23] فعقّب ذلك بإثبات أنّ لعلم الله تعالى مظاهر يبلغ بعضها إلى من اصطفاه من رسله بالوحي ممّا تقتضي الحكمة إبلاغه، وأنّه يستأثر بعلم ما اقتضت حكمته عدم إبلاغه، وأنّه لو شاء أن يبلّغ ما في علمه لما وفّت به مخلوقاته الصالحة لتسجيل كلامه (الأشجار والبحار).
وقد سُلك في هذا مسلك التقريب بضرب هذا المثل، وقد كان ما قُصَّ من أخبار الماضين موطئا لهذا، فقد جرت قصة لقمان في هذه السورة كما جرت قصّة أهل الكهف وذي القرنين في سورة الكهف فعقبتا بقوله في آخر السورة { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً } [الكهف:109] وهي مشابهة للآية التي في سورة لقمان. فهذا وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من الآيات.
{ **كَلِمَاتُ** } جمع كلمة بمعنى الكلام، كما في قوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100] أي: الكلام المنبئ عن مراد الله من بعض مخلوقاته ممّا يخاطب به ملائكته وغيرهم من المخلوقات والعناصر المعدودة للتكوّن التي يقال لها: كن فتكون، ومن ذلك ما أنزله من الوحي إلى رسله وأنبيائه. وتقدم قوله تعالى { وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ } [الأنفال:7].
الأقلام: جمع قلم وهو العود المشقوق ليُرفع به المداد ويكتب به.
{ **يَمُدُّهُ** } (بفتح الياء التحتية وضم الميم)، يزيده مدادا. والمِداد (بكسر الميم) الحبر الذي يكتب به.
السبعة: تستعمل في الكناية عن كثرة كثيرا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **والكافر يأكل في سبعة أمعاء**.
{ **مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** } ما انتهت. أي: لو فُرض إرادة الله أن يُكتب كلامه كلّه صُحفًا ففُرضت الأشجار كلّها مقسّمة أقلاما، وفُرض أن يكون البحر مدادا فكُتب بتلك الأقلام وذلك المداد لنفد البحر ونفدت الأقلام وما نفدت كلمات الله في نفس الأمر. وأمّا قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } [الأنعام:115] فالتمام هنالك بمعنى التحقق والنفوذ.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تذييل، فهو لعزّته لا يغلبه الذين يزعمون عدم الحاجة إلى القرآن ينتظرون انفحام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو لحكمته لا تنحصر كلماته، لأن الحكمة الحقّ لا نهاية لها.

{ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [28]

استئناف بياني متعلّق بقوله تعالى { إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } [23] لأنّه كلّما ذُكر أمر البعث هجس في نفوس المشركين استحالة إعادة الأجسام بعد اضمحلالها فيكثر في القرآن تعقيب ذكر البعث بالإشارة إلى إمكانه وتقريبه. وكانوا أيضا يقولون: إنّ الله خلقنا أطوارا؛ نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ لحما وعظما فكيف يبعثنا خلقا جديدا في ساعة واحدة؟ وكيف يحيي جميع الأمم والأجيال التي تضمَّنتها الأرض في القرون الكثيرة؟ وكان أُبَي بن خلف وأبو الأسد (أو أبو الأسدين) ونُبيه، ومنبِّه،(ابنا الحجاج من بني سهم)، يقولون ذلك وربما أسرّ به بعضهم.

{ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ** } ضميرا المخاطبين مراد بهما جميع الخلق فهما بمنزلة الجنس، أي: ما خلق جميع الناس أوّل مرة ولا بعثهم، أي: خلقهم ثاني مرة، إلّا كخلق نفس واحدة لأنّ خلق نفس واحدة هذا الخلق العجيب دال على تمام قدرة الخالق تعالى. وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب لقصد مجابهتهم بالاستدلال المفحم.

{ **إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** } حذف مضاف، والتقدير: إلّا كخلق وبعث نفس واحدة.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } إمّا واقعة موقع التعليل لكمال القدرة على ذلك الخلق العجيب استدلالا بإحاطة علمه تعالى بالأشياء والأسباب وتفاصيلها وجزئياتها، وإمّا واقعة موقع الاستئناف البياني لما ينشأ عن الإخبار بأنّ بعثهم كنفس واحدة من تعجّب فريق ممّن أسرّوا إنكار البعث في نفوسهم.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [29].

استدلال على إمكان البعث بقياس التمثيل بإمكان ما هو أعظم منه من شؤون المخلوقات بعد أن استدلّ عليه بالقياس الكلّي الذي اقتضاه قوله { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [28] من إحاطة العلم الإلهي بالمعلومات المقتضي إحاطة قدرته بالممكنات لأنّها جزئيات المعلومات وفرع عنها.

والخطاب لغير معيّن، والمقصود به المشركون بقرينة { وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }. والرؤية علمية.

والاستفهام لإنكار عدم الرؤية بتنزيل العالمين منزلة غير عالمين لعدم انتفاعهم بعلمهم.

الإيلاج: الإدخال. وهو هنا تمثيل لتعاقب الظلمة والضياء بولوج أحدهما في الآخر، كقوله تعالى { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ } [يس:37]. وتقدّم في قوله تعالى { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } [آل عمران:27]، وقوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } [الحج:61] مع اختلاف الغرضين.

{ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** } الابتداء بالليل لأنّ أمره أعجب كيف تغشى ظلمته تلك الأنوار النهارية، والجمع بين إيلاج الليل وإيلاج النهار لتشخيص تمام القدرة. والكلام على تسخير الشمس والقمر مضى في [الأعراف:53].

الجري: المشي السريع، استعير لانتقال الشمس في فلكها وانتقال الأرض حول الشمس وانتقال القمر حول الأرض، تشبيها بالمشي السريع لأجل شسوع المسافات التي تُقطع في خلال ذلك.

{ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } للإشارة إلى أنّ لهذا النظام الشمسي أمدا يعلمه الله فإذا انتهى ذلك الأمد بطل ذلك التحرّك والتنقل، وهو الوقت الذي يؤذن بانقراض العالم، فهذا تذكير بوقت البعث.

فيجوز أن يكون { إِلَى أَجَلٍ } ظرفا لغوا متعلقا بفعل { يَجْرِي }، أي: ينتهي جريه عند أجل معين عند الله لانتهاء سيرهما. ويجوز أن يكون { إِلَى أَجَلٍ } متعلقا بفعل { سَخَّرَ }، أي: جعل نظام تسخير الشمس والقمر منتهيا عند أجل مقدر.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } عطف على { أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ }، فهو داخل في الاستفهام الإنكاري بتنزيل العالم منزلة غيره لعدم جريه على موجب العلم.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [30]

موقع هذه الجملة موقع النتيجة من الدليل فلها حكم بدل الاشتمال ولذلك فصلت ولم تعطف، فإنّهم معترفون بأنّ الله هو فاعل ذلك فلزمهم الدليل ونتيجته.

والمعنى: أنّ إيلاج الليل في النهار وعكسه وتسخير الشمس والقمر مسبَّب عن انفراد الله تعالى بالإلهية.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل مفيد للاختصاص، أي: هو الحق لا أصنامكم ولا غيرها.

{ **الْحَقُّ** } هنا بمعنى الثابت، ويُفهم أنّ المراد حقّيّة ثبوت إلهيته بقرينة السياق ولمقابلته بقوله { وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ }، والمعنى: لمّا كان ذلك الصنع البديع مسبَّبا عن انفراد الله بالإلهية كان ذلك أيضا دليلا على انفراد الله بالإلهية للتلازم بين السبب والمسبب. والتعريف في { الْحَقُّ - الْبَاطِلُ } تعريف الجنس.

{ **وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ** } لم يؤت بضمير الفصل في الشق الثاني لأنّ ما يدعونه من دون الله من أصنامهم يشترك معها في أنّه باطل. وذكر ضمير الفصل في نظيره من [الحج:73] لاقتضاء المقام ذلك.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** } واقع موقع الفذلكة لما تقدّم من دلالة إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر لأنّه إذا استقر أنّ ما ذُكر دال على أنّ الله هو الحق بالإلهية، ودال على أنّ ما يدعونه باطل، ثبت أنّه العلي الكبير دون أصنامهم.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل هنا للدلالة على الاختصاص وسلب العلو والعظمة عن أصنامهم.

{ **الْعَلِيُّ** } صفة مشتقّة من العلو المعنوي المجازي وهو القدسيّة والشرف.

{ **الْكَبِيرُ** } وصف مشتق من الكبر المجازي وهو عظمة الشأن. وتقدّم نظير هذه الآية في [الحج:63].

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [31] وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ [32] }.

استئناف جاء على سنن الاستئنافين اللذين قبله في قوله { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [20] وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } [29]، وجيء بها غير متعاطفة لئلّا يتوهم السامع أنّ العطف على ما تخلّل منها، وجاء هذا الاستئناف الثالث دليلا ثالثا على عظيم حكمة الله في نظام هذا العالم وتوفيق البشر للانتفاع بما هيّأه الله لانتفاعهم به.

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ** } لمّا أتى الاستئنافان الأوّلان على دلائل صنع الله في السماوات والأرض جاء في هذا الثالث دليل على بديع صنع الله بخلق البحر وتيسير الانتفاع به في إقامة نظام المجتمع البشري. وتخلّص منه إلى اتخاذ فريق من الناس موجبات الشكر دواعي كفر.

فكان خلق البحر على هذه الصفة العظيمة ميسّرا للانتفاع بالأسفار فيه حين لا تغني طرق البر في التنقل فجعله قابلا لحمل المراكب العظيمة، وألهم الإنسان لصنع تلك المراكب على كيفية تحفظها من الغرق في عباب البحر، وعصمهم من توالي الرياح والموج في أسفارهم، وهداهم إلى الحيلة في مصانعتها إذا طرأت حتّى تنجلي، ولذلك وصف هذا الجري بملابسة نعمة الله، فإنّ الناس كلّما مخرت بهم الفلك في البحر كانوا ملابسين لنعمة الله عليهم بالسلامة إلّا في أحوال نادرة، وقد سمّيت هذه النعمة أمرا في قوله { وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الحج:65]، أي: بتقديره ونظام خلقه.

وتقدّم تفصيل ذلك في قوله تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ } [العنكبوت:65]، وفي قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [يونس:22] وفي قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الحج:65].

{ **لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ** } يتعلّق بـ { تَجْرِي } أي: تجري في البحر جريا، علّةُ خلقه أن يريكم الله بعض آياته.
المعنى: أن جري السفن فيه حكم كثيرة مقصودة من تسخيره، منها أن يكون آية للناس على وجود الصانع ووحدانيّته وعلمه وقدرته.
{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } لها موقع التعليل للجملة السابقة. ولها موقع الاستئناف البياني إذ يخطر ببال السامع أن يسأل: كيف لم يهتد المشركون بهذه الآيات؟ فأفيد أنّ الذي ينتفع بدلالتها على مدلولها هو { كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }، ثناء على هذا الفريق صريحا، وتعريضا بالذين لم ينتفعوا بدلالتها.
{ **إِنَّ** } يفيد في مثل هذا المقام معنى التعليل والتنسيب.
{ **لَآيَاتٍ** } جعل ذلك عدّة آيات لأنّ في ذلك دلائل كثيرة.
الصبّار: مبالغة في الموصوف بالصبر، و**الشكور** كذلك. أي: الذين لا يفارقهم الوصفان. وهذان وصفان للمؤمنين الموحِّدين في الصبر للضراء والشكر للسراء، إذ يرجون بهم رضى الله تعالى الذي لا يتوكّلون إلّا عليه في كشف الضر والزيادة من الخير. فهم بين رجاء الثواب وخوف العقاب، فصارا لهم خلقا تطبّعوا به.
ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا للكناية بهما، من بين شعب الإيمان، أنّهما أنسب بمقام السير في البحر، إذ راكب البحر بين خطر وسلامة، كما تقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ } [يونس:22].
{ **وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** } إشارة إلى أنّ الناس يذكرون الله عند تلك الآيات عند الاضطرار، وغفلتهم عنها في حال السلامة، وهو ما تقدّم مثله عند قوله تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت:65] وقوله { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } [يونس:22].
الغشيان: مستعار للمجيء لأنّه يشبه التغطية، وتقدّم في قوله تعالى { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } [الأعراف:54].
الظُّلل: (بضم الظاء وفتح اللام) جمع ظُلَّة (بالضم) وهي: ما أظلّ من سحاب.
{ **فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** } الفاء تدلّ على مقدّر كأنّه قيل: فلما نجّاهم انقسموا فمنهم مقتصد ومنهم غيره.
المقتصد: الفاعل للقصد وهو التوسّط بين طرفين، وقد يطلق على الذي يتوسّط حاله بين الصلاح وضدّه، كما في قوله تعالى { مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [المائدة:66].
وعلم أنّ هنالك قسما ثالثا وهو الموقن بالآيات الشاكر للنعمة، وأولئك هم المؤمنون، قال تعالى { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } [فاطر:32].

{ **وَمَا يَجْحَدُ بِآياتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ** } تذييل لأنّها تعمّ كلّ جاحد سواء من جحد آية سير الفلك وهول البحر، ومن يجحد نعمة الله عليه بالنجاة، ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه.

الجحود: الإنكار والنفي. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

{ **بِآيَاتِنَا** } في الانتقال من الغيبة إلى التكلّم التفات. والباء لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول، كما في قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

الختّار: شديد الختر، والختر: أشد الغدر.

الكفور: هو المفرط في الكفر

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [33]

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } إن لم يكن خطابا خاصا بالمشركين فهو <u>عام لجميع الناس</u> كما تقرّر في أصول الفقه، فيعمّ المؤمن والمشرك والمعطِّل في ذلك الوقت وفي سائر الأزمان، إذ الجميع مأمورون بتقوى الله.

وقد كان فيما سبق من السورة حظوظ للمؤمنين وحظوظ للمشركين فلا يبعد أن تُعقَّب بما يصلح لكلا الفريقين. <u>وإن كان الخطاب خاصا بالمشركين</u>، جريا على ما روي عن ابن عباس أنّ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } خطاب لأهل مكة، فالمراد بالتقوى: الإقلاع عن الشرك.

وموقع هذه الآية بعد ما تقدّمها من الآيات موقع مقصد الخطبة بعد مقدّماتها إذ كانت المقدّمات الماضية قد هيأت النفوس إلى قبول الهداية والتأثر بالموعظة الحسنة، ولاعتبار هذا الموقع جُعلت الجملة استئنافا لأنّها بمنزلة الفذلكة والنتيجة.

{ **اتَّقُوا رَبَّكُمْ** } والتقوى <u>تبتدئ</u> من الاعتراف بوجود الخالق ووحدانيّته وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم <u>وتنتهي</u> إلى اجتناب المنهيّات وامتثال المأمورات في الظاهر والباطن في سائر الأحوال. وتقدّم تفصيلها عند قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]. وتقدّم نظير هذا في [الحج:32].

{ **وَاخْشَوْا يَوْماً** } الخوف من أهوال ما يقع فيه إذ الزمان لا يخشى لذاته. والأمر بخشيته تتضمّن تأكيد وقوعه، فهو كناية عن إثبات البعث.

{ **لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ** } صفة يوم وحذف منها العائد المجرور بـ (في) توسّعا.

جزى: إذا عُدِّي بـ (عَنْ) فهو بمعنى قضى عنه ودفع عنه، ولذلك يقال للمتقاضي: المتجازي.

{ **وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً** } عطف على الصفة.

وذكر الوالد والولد هنا لأنّهما أشدّ محبة وحميّة من غيرهما، فيُعلم أنّ غيرهما أولى بهذا النفي، كما في قوله تعالى { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ } [عبس:35/34].
وابتدئ بـ { وَالِدٌ } لأنّه أشد شفقة على ابنه فلا يجد له مخلصا من سوء إلّا فعله.
ووجه اختيار هذه الطريقة في إفادة عموم النفي هنا دون طريقة قوله تعالى { وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً } [البقرة:123]، أنّ هذه الآية نزلت بمكة وأهلها يومئذ خليط من مسلمين وكافرين، وربّما كان الأب مسلما والوالد كافرا وربما كان العكس. وقد يتوهّم بعض الكافرين حين تداخلهم الظنون في مصيرهم بعد الموت أنّه إذا ظهر صدق وعيد القرآن إيّاهم فإنّ من له أب مسلم أو ابن مسلم يدفع عنه هنالك.
ثم أوثرت جملة { وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً } بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة { لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ }، فإنّها نظمت جملة أسمية، ووسّط فيها ضمير الفصل، وجعل النفي فيها منصبا إلى الجنس. ونكتة هذا الإيثار مبالغة تحقيق عدم جُزْءِ هذا الفريق عن الآخر إذ كان معظم المؤمنين من الأبناء والشباب، وكان آباؤهم وأمّهاتهم في الغالب على الشرك، مثل أبي قحافة والد أبي بكر، وأبي طالب والد علي، وأم سعد بن أبي وقاص، وأمّ أسماء بنت أبي بكر، فأريد حسم أطماع آبائهم وما عسى أن يكون من أطماعهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة بشيء.
فهذا تعكيس للترقيق الدنيوي في قوله تعالى { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [الإسراء:24]، وقوله تعالى { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً } [15].
{ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } علة لجملتي { اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً }. والتأكيد مراعاة لمنكري البعث.
وعد الله: هو البعث، قال تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ } [سبأ:30/29].
{ **فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } فرّع على هذا التأكيد إبطال شبهتهم، أي: لا تغرنّكم حالة الحياة الدنيا بأن تتوهّموا الباطل حقًّا والضرَّ نفعا، فإسناد التغرير إلى الحياة الدنيا مجاز عقلي لأنّ الدنيا ظرف الغرور أو شبهته، وفاعل التغرير حقيقة هم الذين يضلّونهم بالأقيسة الباطلة، فذُكرت هنا وسيلة التغرير وشبهته ثم ذكر بعده الفاعل الحقيقي للتغرير وهو الغَرور.
{ **وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** } عطف، لأنّه أدخل في تحذيرهم ممّن يُلقون إليهم الشبه أو من أوهام أنفسهم التي تخيّل لهم الباطل حقًّا.
{ **بِاللَّهِ** } هي كالباء في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } [الانفطار:6].
{ **الْغَرُورُ** } (بفتح الغين) من يكثر منه التغرير، والمراد به الشيطان بوسوسته.

{ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [34]

كان من جملة غرورهم في نفي البعث أنّهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارة على أنّه غير واقع، قال تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس: 48] وقال تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } [الشورى:18/17]، فلما جرى في الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأنّ وقت الساعة لا يعلمه إلّا الله.

{ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } مستأنفة استئنافا بيانيّا لوقوعها جوابا عن سؤال مقدّر في نفوس الناس.

والجمل الأربع التي بعدها إدماج لجمع نظائرها تعليما للأمّة.

{ إِنَّ } أفاد التأكيد تحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة وذلك يتضمّن تأكيد وقوعها.

{ عِنْدَهُ } إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم لأنّ العنديّة شأنها الاستئثار. والتقديم يفيد التخصّص بالقرينة الدالة على أنّه ليس مراد به مجرّد التقوّي.

{ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ } المقصود أيضا عنده علم وقت نزول الغيث وليس المقصود مجرّد الإخبار بأنّه ينزل الغيث لأن ذلك ليس ممّا ينكرونه. ونظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع ليحصل مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به الامتنان بذلك المعلوم الذي هو نعمة.

وفي اختيار الفعل المضارع إفادة أنّه يُجدّد إنزال الغيث المرّة بعد المرّة عند احتياج الأرض.

{ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ } أي: ينفرد بعلم جميع أطواره من نطفة وعلقة ومضغة ثم من كونه ذكرا أو أنثى وإبان وضعه بالتدقيق. وجيء بالمضارع لإفادة تكرّر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال.

{ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } هذا النفي للدراية بهذين الأمرين عن كل نفس فيه كناية عن إثبات العلم بما تكسب كل نفس والعلم بأي أرض تموت فيها كل نفس إلى الله تعالى، فحصلت إفادة اختصاص الله تعالى بهذين العلمين، فكانا في صميمة ما انتظم معهما ممّا تقدمهما.

{ وَمَا تَدْرِي } عبّر في جانب نفي معرفة الناس بفعل الدراية لأنّ الدراية علم فيه معالجة للاطلاع على المعلوم، ولذلك لا يعبّر بالدراية عن علم الله تعالى فلا يقال: الله يدري كذا، فيفيد: انتفاء علم الناس بعد الحرص على علمه.

ولُقّبت هذه الخمسة في كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم بـ **(مفاتح الغيب)** وفسّر بها قوله تعالى { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ } [الأنعام:59]، ففي صحيح البخاري من حديث ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" مفاتح الغيب خمس "** ثم قرأ { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ }.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** } مستأنفة ابتدائية واقعة موقع النتيجة لما تضمّنه الكلام السابق من إبطال شبهة المشركين بقوله تعالى { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } [33] كموقع قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [16] عقب قوله تعالى { إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ } [16].

والمعنى: أنّ الله عليم بمدى وعده خبير بأحوالكم. والجمع بين الصفتين لأنّ الثانية أخص.ّ

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة السجدة

أشهر أسماء هذه السورة هو (**سورة السجدة**)، وهو أخصر أسمائها، وهو المكتوب في السطر المجعول لاسم السورة من المصاحف المتداولة. وبهذا الاسم ترجم لها الترمذي في جامعه.

وتسمّى أيضا (**ألم تَنْزِيلُ**)، روى الترمذي عن جابر بن عبد الله: " إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ { ألم تَنْزِيلُ } [السجدة:2/1] و { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ } [الملك: 1].

وتسمّى (**ألم تنزيل السجدة**). ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر (ألم تنزيل السجدة) و{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ } [الانسان:1].

وتسمّى (**سورة المضاجع**) لوقوع لفظ (المضاجع) في قوله تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } [16].

والذي نعوّل عليه أنّ السورة **كلّها مكية** وأنّ ما خالف ذلك إن هو إلّا تأويل أو إلحاق خاص بعام كما أصَّلنا في المقدمة الخامسة.

نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة نوح، وقد عدّت الثالثة والسبعين في النزول. وعدّت آياتها عند جمهور العادين ثلاثين، وعدّها البصريون سبعا وعشرين.

أغراض السورة

*/ التنويه بالقرآن أنّه منزَّل من عند الله.

*/ توبيخ المشركين على ادعائهم أنّه مفترى، بأنّهم لم يسبق لهم التشرّف بنزول كتاب.

*/ الاستدلال على إبطال إلهية أصنامهم بإثبات انفراد الله بأنّه خالق السماوات والأرض ومدبّر أمورهما.

*/ ذكر البعث والاستدلال على كيفية بدء خلق الإنسان ونسله، وتنظيره بإحياء الأرض، وأدمج في ذلك أنّ إحياء الأرض نعمة عليهم كفروا بمُسْدِيها. والإنحاء على الذين أنكروه ووعيدهم. والثناء على المصدّقين بآيات الله ووعدهم، ومقابلة إيمانهم بكفر المشركين.

*/ إثبات رسالة رسول عظيم قبل محمد صلى الله عليه وسلم هدى به أمّة عظيمة.

*/ التذكير بما حلّ بالمكذّبين السابقين ليكون ذلك عظة للحاضرين، وتهديدهم بالنصر الحاصل للمؤمنين.

*/ ختم ذلك بانتظار النصر. وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم تحقيرا لهم.

{ الم } [1]

تقدّم القول في نظائره.

{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [2]

افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن لأنّه جامع الهدى الذي تضمّنته هذه السورة وغيرها، ولأنّ جماع ضلال الضالين هو التكذيب به. فالله جعل القرآن هدى للنّاس وخصّ العرب بأن شرّفهم بجعلهم أوّل من يتلقى هذا الكتاب، وبأن أنزله بلغتهم.

وافتتاح الكلام بالجملة الاسمية لدلالتها على الدوام والثبات.

{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ } جيء بالمسند إليه معرّفا بالإضافة لإطالته ليحصل بتطويله ثم تعقيبه بالجملة المعترضة **{لا رَيْبَ فِيهِ }** التشويق إلى معرفة الخبر وهو قوله تعالى { مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }. وإنّما عدل عن أسلوب { ألم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2/1] لأنّ تلك السورة نازلة بين ظهراني المسلمين ومن يرجى إسلامهم من أهل الكتاب { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } [البقرة:4]، وأمّا هذه السورة فقد جابه الله بها المشركين الذين لا يؤمنون بالإله الواحد ولا يوقنون بالآخرة فهم أصلب عودا، وأشد كفرا وصدودا.

{ لا رَيْبَ فِيهِ } أي: أنّه ليس لأحد أن يرتاب في تنزيله من رب العالمين لما حفّ بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنّه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلا عن مجموعه، وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاستقامة، مع ما هو معلوم من وصف الأمّيّة.

فالذين كذّبوا أن يكون من عند الله لا يعدون أن يكونوا متعنّتين على علم، أو جهّالا يقولون قبل أن يتأمّلوا وينظروا، والأوّلون زعماؤهم والأخيرون دهماؤهم، وقد تقدم ذلك في أوّل سورة البقرة.

{ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } استحضار الجلالة بطريق الإضافة دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزّلا للناس كلّهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية، كما قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}[3]

جاءت هذه الآية على أسلوب بديع الإحكام، إذ ثبت أنّ الكتاب تنزيلٌ من ربّ جميع الكائنات، وأنّه يحقّ ألّا يرتاب فيه مرتاب، ثمّ انتقل هنا إلى الإنكار والتعجيب من الذين جزموا بأنّ الجائي به مفتر على الله، فردّ

عليهم بإثبات أنّه الحق الكامل من ربّ الذي نسبوا إليه افتراءه { **رَبِّكَ** }، ثمّ جاء بما هو أنكى للمكذّبين وأبلغ في تسفيه أحلامهم وأوغلُ في النداء على إهمالهم النظر في دقائق المعاني، فبيّن ما فيه تذكرة لهم ببعض المصالح التي جاء لأجلها هذا الكتاب { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ }.

{ **أَمْ** } للإضراب عن الكلام السابق إضراب انتقال، وهي المنقطعة التي بمعنى (بل) التي للإضراب. وحيثما وقعت (أَمْ) فهي مؤذنة باستفهام بالهمزة بعدها الملتزم حذفها. والاستفهام المقدّر بعدها هنا تعجيبي لأنّهم قالوا هذا القول الشنيع وعلمه الناس عنهم فلا جرم كانوا أحقّاء بالتعجيب من حالهم ومقالهم لأنّهم أبدوا به أمرا غريبا، إذ دلائل انتفاء الريب عن كونه من رب العالمين واضحة بله الجزم بأنّه مفترى على الله تعالى.

{ **يَقُولُونَ** } صيغة المضارع لاستحضار حالة ذلك القول تحقيقا للتعجيب منه حتّى لا تغفل عن حال قولهم أذهان السامعين. وفي المضارع مع ذلك إيذان بتجدّد مقالتهم هذه وأنّهم لا يقلعون عنها على الرغم ممّا جاءهم من البيّنات، ورغم افتضاحهم بالعجز عن معارضته.

{ **افْتَرَاهُ** } الضمير المرفوع عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه معلوم من مقام حكاية مقالهم المشتهر بين الناس، والضمير المنصوب عائد إلى { الْكِتَابُ } [2].

{ **بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } أضرب على قولهم { افْتَرَاهُ } إضراب إبطال لإثبات أنّ القرآن حقّ.

الحقّ: الصدق، أي: فيما اشتمل عليه الذي منه أنه منزّل من الله تعالى. والتعريف تعريف الجنس.

{ **مِنْ رَبِّكَ** } في موضع حال من { الْحَقُّ }. وكاف الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. واستحضرت الذات العليّة هنا بعنوان { رَبِّكَ } لأنّ الكلام جاء ردًّا على قولهم { افْتَرَاهُ } يعنون النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكان مقام الردّ مقتضيا تأييد من ألصقوا به ما هو بريء منه، تنويها بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتخلُّصا إلى تصديقه، لأنّه إذا كان الكتاب الذي جاء به حقّا من عند الله فهو رسول الله حقًّا.

{ **لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } بيّن ما فيه تذكرة لهم ببعض المصالح التي جاء لأجلها هذا الكتاب. فهم كانوا أحوج إلى اتّباعه من اليهود والنصارى والمجوس، حيث لم تسبق لهم رسالة مرسل فكانوا أبعد عن طرق الهدى بما تعاقب عليهم من القرون دون دعوة رسول، فكان ذلك كافيا في حرصهم على التمسّك به وشعورهم بمزيد الحاجة إليه رجاء منهم أن يهتدوا، قال تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا } [الأنعام:155-175].

القوم: الجماعة العظيمة الذين يجمعهم أمر هو كالقِوام لهم من نسب أو موطن أو غرض تجمّعوا بسببه. وأكثر إطلاقه على الجماعة الذين يرجعون في النسب إلى جدّ اختصّوا بالانتساب إليه.

{ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } ووصف القوم بأنّهم {مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ} قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم والنبيّ حينئذ يدعو أهل مكة ومن حولها إلى الإسلام وربما كانت الدعوة شملت أهل يثرب وكلّهم من العرب فظهر أنّ **المراد بالقوم العرب** الذين لم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام،

فإمّا أن يكون المراد قريشا خاصة، أو عرب الحجاز أهل مكة والمدينة وقبائل الحجاز، وعرب الحجاز جذمان عدنانيون وقحطانيون:

فأمّا **العدنانيّون** فهم أبناء عدنان وهم من ذريّة إسماعيل، وإنّما تقوّمت قوميّتهم في أبناء عدنان: وهم مضر، وربيعة، وأنمار، وإياد. وهؤلاء لم يأتهم رسول منذ تقوّمت قوميتهم. وأمّا جدهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فإنّه وإن كان رسولا نبيّا، كما وصفه الله تعالى في سورة مريم، فإنّما كانت رسالته خاصة بأهله وأصهاره من جرهم ولم يكن مرسلا إلى الذين وُجدوا بعده لأن رسالته لم تكن دائمة ولا منتشرة، قال تعالى { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ } [مريم:55].

وأمّا **القحطانيّون** القاطنون بالحجاز مثل الأوس والخزرج وطيء فإنّهم قد تغيّرت فرقهم ومواطنهم بعد سيل العرم وانقسموا أقواما جددا ولم يأتهم نذير منذ ذلك الزمن وإن كان المنذرون قد جاءوا أسلافهم مثل هود وصالح وتبّع، فذلك كان قبل تقوّم قوميتهم الجديدة.

وإمّا أن يكون المراد العرب كلهم بما يشمل أهل اليمن واليمامة والبحرين وغيرهم ممن شملتهم جزيرة العرب وكلّهم لا يعدون أن يرجعوا إلى ذينك الجذمين، وقد كان انقسامهم أقواما ومواطن بعد سيل العرم ولم يأتهم نذير بعد ذلك الانقسام، كما تقدّم في حال القحطانيين من أهل الحجاز.

وأمّا ما ورد من ذكر **حنظلة بن صفوان** صاحب أهل الرس، و**خالد بن سنان** صاحب بني عبس فلم يثبت أنهما رسولان واختلف في نبوّتهما. وقد روي أنّ ابنة خالد بن سنان وفدت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهي عجوز وأنّه قال لها: **"** مرحبا بابنة نبيّ ضيّعه قومه **"، وليس لذلك سند صحيح.**

وأيًّا ما كان فالعرب كلّهم أو الذين شملتهم دعوة الإسلام يومئذ يحقّ عليهم وصف { مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ } من وقت تحقّق قوميّتهم.

والمقصود: تذكيرهم بأنّهم أحوج الأقوام إلى نذير، إذ لم يكونوا على بقيّة من هدى، وإثارة هممهم ليتقبّلوا الكتاب الذي أنزل إليهم ويسبقوا أهل الكتاب إلى اتّباعه، فيكون للمؤمنين منهم السبق في الشرع الأخير.

وقد اهتم بعض أهل الأحلام من العرب بتطلّب الدين الحق فتهوّد كثير من عرب اليمن، وتنصّرت طيء، وكلب، وتغلب وغيرهم من نصارى العرب. وتتبّع الحنيفيّة نفر مثل قس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وكان ذلك تطلّبا للكمال ولم يأتهم رسول بذلك.

وهذا التعليل لا يقتضي اقتصار الرسالة الإسلامية على هؤلاء القوم ولا ينافي عموم الرسالة لمن أتاهم نذير، لأنّ لام العلة لا تقتضي إلّا كون ما بعدها باعثا على وقوع الفعل الذي تعلّقت به دون انحصار باعث الفعل في تلك العلة، فإن الفعل الواحد قد يكون له بواعث كثيرة، وأفعال الله تعالى منوطة بحكم عديدة، ودلائل عموم الرسالة متواترة من صريح القرآن والسنة ومن عموم الدعوة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } مستعارة تمثيلا لإرادة اهتدائهم والحرص على حصوله.

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ } [4]

لمّا كان الركن الأعظم من أركان هدى الكتاب هو إثبات الوحدانية للإله وإبطال الشرك عقّب الثناء على الكتاب بإثبات هذا الركن. وتقدّم تفسير نظير هذه الآية في [الأعراف:54].

{ **اللَّهُ** } جيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختصّ به قطعا لدابر عقيدة الشريك في الإلهية، والخبر جملة { مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ } ، ويكون قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا } صفة لاسم الجلالة.

والخطاب موجّه إلى المشركين على طريقة الالتفات.

{ **مِنْ دُونِهِ** } (مِنْ) هنا ابتدائية في محل الحال من ضمير { لَكُمْ }، و(دون) بمعنى غير.

{ **مِنْ وَلِيٍّ** } (مِنْ) هنا زائدة لتأكيد النفي، أي: لا ولي لكم ولا شفيع لكم غير الله فلا ولاية للأصنام ولا شفاعة لها إبطالا لما زعموه لأصنامهم من الوصفين.

الوليّ: مشتق من الولاء بمعنى العهد والحلف والقرابة. ومن لوازم حقيقة الولاء النصر والدفاع عن المولى. وأريد بالولي هنا المشارك في الربوبيّة.

الشفيع: الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضرّ أو جلب نفع. والمشركون زعموا أنّ الأصنام آلهة شركاء لله في الإلهية ثم قالوا { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18] وقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]

{ **أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ** } استفهام إنكاري. و**التذكّر**: مشتقّ من الذُكر (بضم الذال) وهو التفكّر والنظر بالعقل.

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}[5]

{ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** } في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [4]، أي: خلق تلك الخلائق مدبِّرا أمرها. ويجوز أن تكون الجملة استئنافا.

{ **مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ** } المقصود من حرفي الابتداء والانتهاء شمول تدبير الله تعالى الأمور كلّها في العالمين العلوي والسفلي تدبيرا شاملا لها من السماء إلى الأرض.

التدبير: حقيقته التفكير في إصدار فعل متقن أوّله وآخره، وهو مشتقّ من دُبُر الأمر، أي: آخِرَه، لأنّ التدبير النظر في استقامة الفعل ابتداء ونهاية. وهو إذا وصف به الله تعالى كناية عن لازم حقيقته وهو <u>تمام الإتقان</u>. وتقدّم شيء من هذا في [يونس:3] و [الرعد:2].

{ **الْأَمْرَ** } الشأن للأشياء ونظامُها وما به تقوّمها. والتعريف فيه للجنس وهو مفيد لاستغراق الأمور كلّها.

العروج: الصعود. وضمير { يَعْرُجُ } عائد على { الْأَمْرَ }، وتعديته بحرف الانتهاء (إلى) مفيدة أنّ تلك الأمور المدبَّرة تصعد إلى الله تعالى، فالعروج هنا مستعار إلى تصرّف الخالق. ولمّا كان الجلال يُشبَّه بالرفعة في مستعمل الكلام شُبِّه المصير إلى ذي الجلال بانتقال الذوات إلى المكان المرتفع، وهو المعبّر عنه في اللغة بالعروج، كما قال تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } [فاطر:10].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ مرجع الأشياء إلى تصرّفه بعد صدورها من لدنه أعظم وأعجب.

وقد أفاد التركيب أنّ تدبير الأمور من السماء إلى الأرض من وقت خلقهما وخلق ما بينهما يستقرّ على ما دُبِّر عليه كل بحسب ما يقتضيه حال تدبيره من استقراره، ثم يُجمع ذلك كلّه فيصير إلى الله مصيرا مناسبا لحقائقه، فذلك المصير هو المعبر عنه بالعروج إلى الله، فيكون الحساب على جميع المخلوقات يومئذ.

{ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ** } هو اليوم الذي جاء ذكره في قوله تعالى { وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [الحج:47].

والمقصود: التنبيه على عظم القدرة وسعة ملكوت الله وتدبيره. ويظهر أنّ هذا اليوم هو يوم الساعة، أي: ساعة اضمحلال العالم الدنيوي، وليس اليوم المذكور هنا هو يوم القيامة المذكور في [المعارج:4] قاله ابن عباس، ولم يعيّن واحدا منهما.

{ **أَلْفَ** } عند العرب منتهى أسماء العدد وما زاد على ذلك من المعدودات يعبّر عنه بأعداد أخرى مع عدد الألف كما يقولون خمسة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف. <u>يجوز أن يستعمل كناية</u> عن الكثرة الشديدة كما يقال: زرتك ألف مرّة، وقوله تعالى { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96].

<u>ويجوز أن يكون مستعملا في صريح معناه</u>.

{ **مِمَّا تَعُدُّونَ** } ممّا تحسبون في أعدادكم.

{ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [6].

جيء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعدما أجري عليه من أوصاف التصرّف بخلق الكائنات وتدبير أمورها للتنبيه على أنّ المشار إليه باسم الإشارة حقيق بما يرد بعده من أجل تلك الصفات المتقدّمة.

لا جرم أنّ المتصرّف بذلك الخلق والتدبير عالم بجميع مخلوقاته ومحيط بجميع شؤونها فهو **عالم الغيب**: أي: ما غاب عن حواس الخلق. و**عالم الشهادة**: وهو ما يدخل تحت إدراك الحواس.

والمقصود هو علم الغيب وأمّا عطف { وَالشَّهَادَةِ } فهو تكميل واحتراس، لأنّهم لمّا أنكروا البعث وإحياء الموتى كانت شبهتهم في إحالته أنّ أجزاء الأجسام تفرقت وتخلّلت الأرض، ولذلك عقب بقوله بعده { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10].

{ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } أي: أنّه خلق الخلق بمحض قدرته بدون معين، فالعزة هي الاستغناء عن الغير، وأنّه خلقهم على أحوال فيها لطف بهم فهو رحيم بهم فيما خلقهم إذ جعل أمور حياتهم ملائمة لهم فيها نعيم لهم وجنّبهم الآلام فيها. فهذا سبب الجمع بين صفتي { الْعَزِيزُ } و{ الرَّحِيمُ } هنا على خلاف الغالب من ذكر الحكيم مع العزيز.

{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ [7] ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [8] ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ [9] }.

خبر آخر عن اسم الإشارة أو وصف آخر لـ { عَالِمُ الْغَيْبِ } [6]، وهو ارتقاء في الاستدلال مشوب بامتنان على الناس أن أحسن خلقهم في جملة إحسان خلق كل شيء، وبتخصيص خلق الإنسان بالذكر.

والمقصود: أنّه الذي خلق كلّ شيء وخاصة الإنسان خلقا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وأخرج أصله من تراب ثم كوَّن فيه نظام النسل من ماء، فكيف تعجزه إعادة أجزائه.

الإحسان: جعل الشيء حسنا، أي: محمودا غير معيب، وذلك بأن يكون وافيا بالمقصود منه، فإنّك إذا تأمّلت الأشياء رأيتها مصنوعة على الوجه الأكمل.

{ خَلَقَهُ } قرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بصيغة الفعل الماضي على أنّ الجملة صفة لـ {شَيْءٍ} أي: كلّ شيء من الموجودات التي خلقها، وهم يعرفون كثيرا منها. وقرأه الباقون بسكون اللام على أنّه اسم هو بدل من { كُلَّ شَيْءٍ } بدل اشتمال.

{ **الْإِنْسَانِ** } أريد به الجنس، وبدء خلقه هو خلق أصله آدم، كما في قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } [لأعراف:11]، أي: خلقنا أباكم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا له. وتقدم الحديث عن خلق آدم في [البقرة:30-38].

النسل: الأبناء والذرّيّة. سُمِّي نسلا لأنّه ينسل، أي: ينفصل من أصله وهو مأخوذ من **نَسَلَ** الصوف والوبر إذا سقط عن جلد الحيوان. وسُمِّيت النطفة التي يتقوَّم منها تكوين الجنين سلالة لأنّها تنفصل عن الرجل.

{ **مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** } بيان لـ { سُلالَةٍ }، وفي الآية إيماء علمي لم يدركه الناس إلّا في هذا العصر وهو أنّ النطفة التي يتوقف تكون الجنين عليها جزء من الماء المهين. فالسلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النسل لا جميع الماء المهين، فتكون { مِنْ } للتبعيض أو للابتداء.

المهين: الشيء الممتهن الذي لا يُعبأ به.

{ **ثُمَّ سَوَّاهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى { نَسْلَهُ } لأنّه أقرب مذكور ولأنّه ظاهر العطف بـ { ثُمَّ }، وإن كان آدم قد سُوّي ونُفخ فيه من الروح بدليل قوله تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص:72]. وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأنّ أصله كذلك، فالكلام إيجاز.

التسوية: التقويم، قال تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين:4].

{ **وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ** } إضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلّا هو تعالى، فالإضافة تفيد أنّه من أشدّ المخلوقات اختصاصا بالله تعالى وإلّا فالمخلوقات كلّها لله.

النفخ: تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع، وتقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } [الحجر:29].

{ **وَجَعَلَ لَكُمُ** } الانتقال من الغيبة إلى الخطاب التفات لأنّ المخاطبين من أفراد الناس وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهّم غير خاص بالمخاطبين، فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدّث عنهم بطريقة الغيبة الشامل للمخاطبين وغيرهم ناسب أن يُلتفت إلى الحاضرين بنقل الكلام إلى الخطاب لأنّه آثر بالامتنان وأسعد بما يرد بعده من التعريض بالتوبيخ في قوله تعالى { قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ }. والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته لأنّ الانتفاع بالحواس والإدراك متكرّر متجدّد فهو محسوس بخلاف التكوين والتقويم فهو محتاج إلى النظر في آثاره.

{ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** } والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين، لأنّ ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنّة في هذا الجعل إذ كان جعلا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس من السمع والأبصار والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكّن التصرّف، ولأن كلمة { الْأَفْئِدَةَ } أجمع من كلمة عاقلين لأنّ الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلّها والعقل بعض منها.

وأفرد { السَّمْعَ } لأنّه مصدر لا يجمع، وجمع { وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ } باعتبار تعدّد الناس. وتقديم السمع على البصر تقدّم وجهه عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7]. وتقديم { السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ } على { وَالْأَفْئِدَةَ } هنا عكس آية البقرة لأنّه رّوعي هنا ترتيب حصولها في الوجود فإنّه يكتسب المسموعات والمبصرات قبل اكتساب التعقّل.

{ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** } أي: أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة وحالكم قلّة الشكر. ويجوز أن يكون { قَلِيلاً } كناية عن العدم كقوله تعالى { فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [النساء:46]. وعلى الوجهين يحصل التوبيخ لأنّ النعم المستحقّة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدم الشكر سواء.

{ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ } [10]

{ **وَقَالُوا** } الواو للحال، والحال للتعجيب منهم كيف أحالوا إعادة الخلق وهم يعلمون النشأة الأولى، وليست الإعادة بأعجب من بدء الخلق وخاصة بدء خلق آدم.

{ **أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ** } الاستفهام للتعجب والإحالة، أي: أظهروا في كلامهم استبعاد البعث بعد فناء الأجساد واختلاطها بالتراب، مغالطة للمؤمنين وترويجا لكفرهم.

الضلال: الغياب، ومنه: ضلال الطريق، والضالة: الدابة التي ابتعدت عن أهلها فلم يُعرف مكانها. وأرادوا بذلك إذا تفرّقت أجزاء أجسادنا في خلال الأرض واختلطت بتراب الأرض. وقيل: الضلال في الأرض: الدخول فيها بناء على أنّه يقال: أضل الناسُ الميّتَ، أي: دفنوه.

{ **أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** } بهمزتين أولاهما للاستفهام والثانية تأكيد لهمزة الاستفهام، وقرأه نافع والكسائي ويعقوب { إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } بهمزة واحدة على الإخبار اكتفاء بدخول الاستفهام على أوّل الجملة ومتعلّقها.

الجديد: المحدث، أي: غير خلقنا الذي كنا فيه.

{ **بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** } إضراب عن كلامهم، أي: ليس إنكارهم البعث للاستبعاد والاستحالة، لأنّ دلائل إمكانه واضحة لكلّ متأمّل، ولكن الباعث على إنكارهم إيّاه هو كفرهم بلقاء الله، أي: كفرهم الذي تلقوه عن أئمّتهم عن غير دليل.

وتقديم المجرور على { كَافِرُونَ } للرعاية على الفاصلة.

والإتيان بالجملة الاسمية لإفادة الدوام على كفرهم والثبات عليه.

{ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [11].

أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعيد إعلامهم بأنّهم مبعوثون بعد الموت. فالمقصود من الجملة هو قوله تعالى { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } إذ هو مناط إنكارهم.

{ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ } لتذكيرهم بالموت، وهم لا ينكرون ذلك ولكنّهم ألهتهم الحياة الدنيا عن النظر في إمكان البعث والاستعداد له فذكِّروا به ثم أدمج فيه ذكر { مَلَكُ الْمَوْتِ } لزيادة التخويف من الموت.

التوفّي: الإماتة. وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ } [الأنعام:60]، وقوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ } [الأنفال:50].

{ مَلَكُ الْمَوْتِ } هو الملك الموكل بقبض الأرواح وقد ورد ذكره في القرآن مفردا كما هنا وورد مجموعا في [الأنفال:50]، وقوله تعالى { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [الأنعام:61]، وذلك أنّ الله جعل ملائكة كثيرين لقبض الأرواح وجعل مبلّغ أمر الله بذلك **عزرائيل** فإسناد التوفّي إليه كإسناده إلى الله في قوله تعالى { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ } [الزمر:42]، وجعل الملائكة الموكلين بقبض الأرواح أعوانا له، وأولئك يسلّمون الأرواح إلى عزرائيل فهو يقبضها ويودعها في مقارها التي أعدّها الله لها، ولم يرد اسم عزرائيل في القرآن.

{ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } التعريض بالوعيد، فإنّه موكل بكل ميّت بما يناسب معاملته عند قبض روحه.

وفيه إبطال لجهلهم بأنّ الموت بيد الله تعالى وأنّه كما خلقهم يميتهم وكما يميتهم يحييهم، وأنّ الإماتة والإحياء بإذنه وتسخير ملائكته في الحالين.

{ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ } [12].

أردف ذكر إنكارهم البعث بتصوير حال المنكرين أثر البعث وذلك عند حشرهم إلى الحساب.

{ وَلَوْ تَرَى } جيء في تصوير حالهم بطريقة حذف جواب (لَوْ) حذفا يرادفه أن تذهب نفس السامع كلّ مذهب من تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربّهم، وبتوجيه الخطاب إلى غير معيّن لإفادة تناهي حالهم في الظهور. والمعنى: لو ترى أيّها الرائي لرأيت أمرا عظيما.

{ الْمُجْرِمُونَ } هم الذين قالوا { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10]، فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد التسجيل عليهم بأنّهم في قولهم ذلك مجرمون، أي: آتون بجرم وهو جرم تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتعطيل الدليل.

الناكس: الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل، يقال: نكس رأسه، إذا طأطأه. ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة، وذلك ممّا يلاقون من التقريع والإهانة.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } العندية هنا عنديّة السلطة، أي: وهم في حكم ربهم لا يستطيعون محيدا عنه، فشبّه ذلك بالكون في مكان مختصّ بربّهم في أنّهم لا يفلتون منه.

{ **رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ** } مقول قول محذوف دل عليه السياق هو في موضع الحال، أي: ناكسوا رؤوسهم يقولون أو قائلين: أبصرنا وسمعنا ...، وهم يقولون ذلك ندامة وإقرارا بأنّ ما توعَّدهم القرآن به حقّ.

وحذف مفعول { أَبْصَرْنَا } ومفعول { سَمِعْنَا} لدلالة المقام، أي: أبصرنا من الدلائل المبصرة ما يصدِّق ما أُخبرنا به، وسمعنا من أقوال الملائكة ما فيه تصديق الوعيد الذي تُوعّدنا به، أي: فعلمنا أنّ ما دعانا إليه الرسول هو الحقّ الذي به النجاة من العذاب فأرجعنا إلى الدنيا نعمل صالحا، كما قالوا في موطن آخر { رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } [إبراهيم:44].

{ **إِنَّا مُوقِنُونَ** } تعليل لتحقيق الوعد بالعمل الصالح بأنّهم صاروا موقنين بحقية ما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إليه.

{ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**} [13].

اعتراض بين القول المقدّر قبل قوله تعالى { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا } [12] وبين الجواب عنه بقوله { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ } [14]، فالواو التي في صدر الجملة اعتراضية، وهي من قبيل واو الحال.

المعنى: لو شئنا لجبلنا كل نفس على الانسياق إلى الهدى بدون اختيار كما جُبلت العجماوات على ما ألهمت إليه، فلكانت النفوس غير محتاجة إلى النظر في الهدى وضده، ولا إلى دعوة من الله إلى طريق الهدى، ولكن الله لما أراد أن يكل إلى نوع الإنسان تعمير هذا العالم، وأن يجعله عنوانا لعلمه وحكمته، وأن يفضّله على جميع الأنواع والأجناس العامرة لهذا العالم، اقتضى لتحقيق هذه الحكمة أن يخلق في الإنسان عقلا يدرك به النفع والضرّ، والكمال والنقص، والصلاح والفساد، والتعمير والتخريب، وتنكشف له بالتدبّر عواقب الأعمال المشتبهة والمموهة بحيث يكون له اختيار ما يصدر عنه من أجناس وأنواع الأفعال التي هي في مكنته بإرادة تتوجه إلى الشيء وضدّه، وخلق فيه من أسباب العمل وآلاته من الجوارح والأعضاء إذا كانت سليمة، فكان

بذلك مستطيعا لأن يعمل وأن لا يعمل على وفاق ميله واختياره وكسبه، وهذا المعنى هو الذي سمّاه الأشعري بالكسب وبالاستطاعة.

وتكفّل له بإعانته على ما خلق له من الإدراك يدعوه إلى ما يريده الله منه من الهدى والصلاح في هذا العالم بواسطة رسل من نوعه يبلّغون إليه مراد ربّهم، وجعلهم وسائط بينه وبين الناس في إبلاغ مراد ربّهم إليهم.

ووعده الناس بالجزاء على فعل الخير وفعل الشر بما فيه باعث على الخير ورادع عن الشر.

{ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ...**} جعله جمهور المفسرين جوابا موجّها من قبل الله تعالى إلى المجرمين عن قولهم { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا } [12]. ووجود الواو في أوّل هذا الكلام ينادي على أنّه ليس جوابا لقول المشركين يومئذ فهم أقل من أن يُجعلوا أهلا لتلقّي هذه الحكمة بل حقّهم الإعراض عن جوابهم. وإنّما هذا بيان من الله ساقه للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ليحيطوا علما بدقائق الحكمة الربانية.

{ **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي** } لم يقل: حق قولي، لأنّه أريد الإشارة إلى قول معهود وهو قوله تعالى { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص:85]، أي: حقّ القول المعهود.

{ **مِنِّي** } اجتلبت (مِنَ) الابتدائية لتعظيم شأن هذا القول بأنّه من الله. وعدل عن ضمير العظمة إلى ضمير النفس لإفادة الانفراد بالتصرّف، ولأنّه الأصل، مع ما في هذا الاختلاف من التفنّن.

{ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [14]

هذا جواب عن قولهم { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا } [12] الذي هو إقرار بصدق ما كانوا يكذّبون به.

{ **فَذُوقُوا** } الـ (الفاء) للتفريع، ومجيء التفريع من المتكلّم على ما هو من كلام المخاطب فيه إلزام بالحجّة.

واستعمال الذوق بمعنى <u>مطلق الإحساس</u> مجاز مرسل تقدّم عند قوله { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

والمفعول محذوف دلّ عليه السياق، أي: فذوقوا ما أنتم فيه.

{ **بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** } النسيان هنا الإهمال والإضاعة، وتقدّم في قوله تعالى { فَنَسِيَ } [طه:88].

والباء للسببية، أي: بسبب إهمالكم الاستعداد لهذا اليوم.

اللقاء: حقيقته العثور على ذات، فمنه لقاء الرجل غيره، وتجيء منه الملاقاة، ومنه: لقاء المرء ضالة أو نحوها. ولقاء اليوم في هذه الآية مجاز في حلول اليوم ووجوده على غير ترقّب.

{ **يَوْمِكُمْ** } تهكّم بهم لأنّهم كانوا ينكرونه فلمّا تحقّقوه جُعل كأنّه أشد اختصاصا بهم على طريقة الاستعارة التهكمية، لأنّ اليوم إذا أضيف إلى القوم أو الجماعة فهو إشارة إلى أنّه يوم انتصار لهم على عدوّهم.

{ **إِنَّا نَسِينَاكُمْ** } النسيان هنا مستعمل في الحرمان من الكرامة، وفيه مشاكلة. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا كناية عن تركهم فيما أُذيقوه. وتقدّم في قوله { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه:126].

وإخراج الكلام في صيغة الماضي على خلاف مقتضى الظاهر من زمن الحال لإفادة تحقّق الفعل حتّى كأنّه مضى ووقع.

{ **وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } عطف على { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ }، وهو وإن أفاد تأكيد تسليط العذاب عليهم فإنّ عطفه مراعى فيه ما بين الجملتين من المغايرة بالمتعلّقات والقيود مغايرة اقتضت أن تعتبر الجملة الثانية مفيدة فائدة أخرى، فالجملة الأولى تضمّنت أنّ من سبب استحقاقهم تلك الإذاقة إهمالهم التدبّر في حلول هذا اليوم، والجملة الثانية تضمّنت أنّ ذلك العذاب مستمر وأنّ سبب استمرار العذاب وعدم تخفيفه أعمالهم الخاطئة، وهي أعمّ من نسيانهم لقاء يومهم ذلك.

{ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ [15] تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [16] فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [17] }

استئناف ناشئ عن قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } [3]، تفرّغ المقام له. فبعد أن أنحى بالتقريع والوعيد على الكافرين على كفرهم بلقاء الله جيء هنا بأوصاف الذين يقابلونهم، وهم الذين يؤمنون بآيات الله .

{ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا** } قصر إضافي، أي: يؤمن بآيات الله الذين إذا ذكّروا بها لم يتريّثوا عن إظهار الخضوع لله. وأوثرت صيغة المضارع لما تشعر به من أنّهم يتجدَّدون في الإيمان ويزدادون يقينا، وإلّا فإن المؤمنين قد حصل إيمانهم فيما مضى فالفعل الماضي آثر بحكاية حالهم في الكلام المتداول لولا هذه الخصوصية، ولهذا عُرِّفوا بالموصوليّة والصلة الدال معناها على أنّهم راسخون في الإيمان.

{ **خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** } وهذه الصفة التي تضمّنتها الصلة هي حالهم التي عرفوا بها لقوّة إيمانهم وتميَّزوا بها عن الذين كفروا، وليست تقتضي أنّ من لم يسجدوا عند سماع الآيات ولم يسبّحوا بحمد ربهم من المؤمنين ليسوا ممن يؤمنون، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان وهي حالة المؤمنين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ عرفوا بها.

الخرور: الهُوِيُّ من علو إلى سفل.

السجود: وضع الجبهة على الأرض إرادة التعظيم والخضوع.

{ **سُجَّداً** } انتصب على الحال المبيّنة للقصد من { خَرُّوا }، أي: سجدا لله وشكرا له على ما حباهم به من العلم والإيمان كما دلّ عليه قرنه بقوله { **وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** }. والباء فيه للملابسة.

وتقدم المعنى في قوله { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً } [الإسراء:107].

{ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ } جيء في نفي التكبّر عنهم بالمسند الفعلي لإفادة اختصاصهم بذلك، أي: دون المشركين الذين كان الكبر خلقهم.

موضع سجدة من سجدات تلاوة القرآن رجاء أن يكون التالي من أولئك الذين أثنى الله عليهم بأنّهم إذا ذكّروا بآيات الله سجدوا، فالقارئ يقتدي بهم.

{ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } حال من الموصول أو استئناف، أي: الذين إذا ذكّروا بها خروا ومن حالهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع. وجيء فيها بالمضارع لإفادة تكرّر ذلك وتجدّده منهم.

التجافي: التباعد والمتاركة. أي: يكثرون السهر بقيام الليل والدعاء لله. وقد فسَّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بصلاة الرجل في جوف الليل، كما سيأتي في حديث معاذ عند الترمذي.

{ الْمَضَاجِعِ } الفرش جمع مضجع، وهو مكان الضجع، أي: الاستلقاء للراحة والنوم. وهذا تعريض بالمشركين إذ يمضون ليلهم بالنوم أو اللهو.

وقد صرح بهذا المعنى عبد الله بن رواحة بقوله يصف النبيّ صلى الله عليه وسلم:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

{ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً } يجوز أن تكون حالا من ضمير { جُنُوبُهُمْ } والأحسن أن تُجعل بدل اشتمال من جملة { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ }. وانتصب { خَوْفاً وَطَمَعاً } على الحال بتأويل: خائفين من غضبه وطامعين في رضاه وثوابه. ويجوز أن ينتصبا على المفعول لأجله، أي: لأجل الخوف من ربّهم والطمع في رحمته.

{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } لمّا ذكر إيثارهم التقرّب إلى الله على حظوظ لذّاتهم الجسدية ذكر معه إيثارهم إيّاه على ما به نوال لذّات أخرى وهو المال.

{ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ثم عظم الله جزاءهم، أي: لا تبلغ نفس من أهل الدنيا معرفة ما أعدّ الله لهم. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: **" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".**

{ مَا أُخْفِيَ } لأنّها نِعم مغيَّبة لا تدرك إلّا في عالم الخلود.

قرة الأعين: كناية عن المسرّة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَقَرِّي عَيْناً } [مريم:26].

وقد فسَّر النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه جزاء على هذه الأعمال الصالحات في حديث أغَرٍّ رواه الترمذي عن معاذ بن جبل قال: " قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال: **لقد سألت عن عظيم وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم**

رمضان وتحجّ البيت " ثم قال: **" ألا أدلّك على أبواب الخير: الصوم جنّة والصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل،** ثم تلا { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } حتى بلغ { يَعْمَلُونَ } ".

{ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ [18] أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [19] وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [20] }.

{ **أَفَمَنْ** } استفهام بالهمزة مستعملٌ في إنكار المساواة بين المؤمن والكافر فُرّع بالفاء على ما تقدّم من الآيات من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين.

{ **لا يَسْتَوُونَ** } عطف بيان للمقصود من الاستفهام.

الفاسق: هنا هو من ليس بمؤمن بقرينة قوله بعده { وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } .

فالمراد: الفسق عن الإيمان الذي هو الشرك، وهو إطلاق كثير في القرآن.

{ **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الجملة مؤكِّدة لمضمون جملة { فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ ...} [17].

{ **الْمَأْوَى** } المكان الذي يؤوى إليه، أي: يُرجع إليه. والتعريف باللام فيه للعهد، أي: مأوى المؤمنين، قال تعالى { عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى } [النجم:15]. ولك أن تجعل اللام عوضا عن المضاف إليه، أي: مأواهم، بقرينة قوله في مقابلة { فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ }.

{ **جَنَّاتُ الْمَأْوَى** } من إضافة الموصوف إلى الصفة لقصد التخفيف. والمعنى: فلهم الجنات المأوى لهم، أي: الموعودون بها.

{ **نُزُلاً** } انتصب على الحال من { جَنَّاتُ الْمَأْوَى }.

النُزُل: (بضمّتين) مشتقّ من النزول، فيطلق على ما يعدّ للنزيل من العطاء والقرى، ثم صار عاما، أي: يطلق على العطاء ولو بدون ضيافة مجازا مرسلا. ويطلق على محل نزول الضيف. وفسره الزجاج في هذه الآية ونحوها بالمنزل. وتقدّم في [آل عمران:198].

{ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الباء للسببية.

{ **وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ** } مؤكّدة لمضمون جملة { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا – إلى قوله - بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [14].

{ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا** } تقدّم نظيره في [الحج:22].

{ **وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** } كان مقتضى الظاهر الإضمار بأن يقال: وقيل لهم ذوقوا عذابها. وهذا السؤال أورده ابن الحاجب في (أماليه) وأجاب بوجهين:

أحدهما: أنّ سياق الآية التهديد وفي إظهار لفظ النار من التخويف ما ليس في الإضمار.

الثاني: أنّ الجملة حكاية لما يقال لهم يومئذ فناسب أن يحكى كما قيل لهم وليس فيما يقال لهم تقدّم ذكر النار.

{ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [21]

إخبار بأنّ لهم عذابا آخر لا يبلغ مبلغ عذاب النار الموعودين به في الآخرة فتعيّن أنّ العذاب الأدنى عذاب الدنيا. والمقصود من هذا: التعريض بتهديدهم لأنّهم يسمعون هذا الكلام أو يبلغ إليهم. وهذا إنذار بما لحقهم بعد نزول الآية وهو ما مُحنوا به من الجوع والخوف، وكانوا في أمن منهما، وما يصيبهم يوم بدر من القتل والأسر، ويوم الفتح من الذل.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } استئناف بياني لحكمة إذاقتهم العذاب الأدنى في الدنيا بأنّه لرجاء رجوعهم، أي: رجوعهم عن الكفر بالإيمان. وكذلك كان، فقد آمن كثير من الناس بعد يوم بدر وبخاصة بعد فتح مكة.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ } [22].

عطف على جملة { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ...} [15]، حيث اقتضت أنّ الذين قالوا { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10] ليسوا كأولئك فانتقل إلى الإخبار عنهم بأنّهم أشدّ الناس ظلما لأنّهم يذكَّرون بآيات الله حين يتلى عليهم القرآن فيعرضون عن تدبّرها ويلغون فيها.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } للاستفهام الإنكاري كقوله { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } [البقر:114]، أي: لا أحد أظلم منه، لأنّه ظلم نفسه بحرمانها من التأمّل فيما نفعه، وظلم الآيات بتعطيل نفعها في بعض من أريد انتفاعهم بها، وظلم الرسول عليه الصلاة والسلام بتكذيبه والإعراض عنه، وظلم حقّ ربّه إذ لم يمتثل ما أراد منه.

{ **بِآيَاتِ رَبِّهِ** } مراد بها القرآن.

{ **ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا** } جيء في العطف بحرف { ثُمَّ } لقصد الدلالة على تراخي رتبة الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها تراخي استبعاد وتعجيب من حالهم. أي: عجيب إقدامه على مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين أقدموا على تلك المواقع.

{ **إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن تفظيع ظلم الذي ذكِّر بآيات ربه فأعرض

عنها لأنّ السامع يترقّب جزاء ذلك الظالم.

{ **الْمُجْرِمِينَ** } المراد بهم هؤلاء الظالمون، عدل عن ذكر ضميرهم لزيادة تسجيل فظاعة حالهم بأنّهم مجرمون مع أنّهم ظالمون، وقد يقال: إنّ المجرمين أعمّ من الظالمين.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ } [23]

لما جرى ذكر إعراض المشركين عن آيات الله، وهي آيات القرآن، في قوله { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا } [22]، استطرد إلى تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ ما لقي من قومه هو نظير ما لقيه موسى من قوم فرعون، فالخبر مستعمل في التسلية بالتنظير والتمثيل.

فهذه الجملة وما بعدها إلى قوله تعالى { فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [25] معترضات.

{ **وَلَقَدْ** } موقع التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق هو ما استعمل فيه الخبر من التسلية لا لأصل الأخبار لأنّه أمر لا يحتاج إلى التأكيد، وبه تظهر رشاقة الاعتراض بتفريع { فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ }.

{ **آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** } أريد أرسلنا موسى. وإدماج ذكر { الْكِتَابَ } للتنويه بشأن موسى وليس داخلا في تنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال موسى عليه السلام في تكذيب قومه إيّاه لأنّ موسى لم يكذّبه قومه، ألا ترى إلى قوله تعالى { وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ }.

{ **فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ** } معترضة وهو اعتراض بالفاء.

المِرْية: الشك والتردّد. وحرف الظرفية مجاز في شدة الملابسة، أي: لا يكن الشك محيطا بك ومتمكّنا منك، أي: لا تكن ممتريا في أنّك مثله سينالك ما ناله من قومه.

والراجح أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فالنهي مستعمل في طلب الدوام على انتفاء الشك، فهو نهي مقصود منه التثبيت كقوله تعالى { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ } [هود:10] وليس للنهي عن المرية لأنّها لم تقع من قبل.

اللقاء: اسم مصدر لقِيَ وهو الغالب في الاستعمال دون لقى الذي هو المصدر القياسي. واللقاء: مصادفة فاعل هذا الفعل مفعوله، ويطلق مجازا على الإصابة كما يقال: لقيت عناء، وهو هنا مجاز، أي: لا تكن في مرية في أن يصيبك ما أصابه، وضمير الغائب عائد إلى موسى. أي: مما لقي موسى من قوم فرعون من تكذيب. وهذا أحسن تفسير للآية.

{ **وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ** } ضمير النصب يجوز أن يعود على الكتاب أو على موسى وكلاهما سبب هدى، فوُصف بأنّه هدى للمبالغة في حصول الاهتداء به. وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يشكروا نعمة الله على أن أُرسل إليهم محمد بالقرآن ليهتدوا فأعرضوا وكانوا أحقّ بأن يحرصوا على الاهتداء.

{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [24]

أشير إلى ما منَّ الله به على بني إسرائيل إذ جعل منهم أئمة يهدون بأمر الله.

{ بِأَمْرِنَا } يشمل الوحي بالشريعة لأنّه أمر بها، ويشمل الانتصاب للإرشاد، فإنّ الله أمر العلماء أن يبيّنوا الكتاب ويرشدوا إليه، فإذا هدوا فإنّما هدوا بأمره وبالعلم الذي آتاهم به أنبياؤهم وأحبارهم. فأنعم الله عليهم بذلك لمّا صبروا وأيقنوا لما جاءهم من كتاب الله ومعجزات رسولهم.

{ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } إن كان المراد دلائل صدق موسى عليه السلام، فالمعنى: أنهم صبروا على مشاق التكليف والخروج بهم من أرض مصر وما لقوه من فرعون وقومه من العذاب والاضطهاد وتيههم في البرية أربعين سنة، وتدبّروا في الآيات ونظروا حتّى أيقنوا.

وإن كان المراد من الآيات ما في التوراة من الشرائع والمواعظ فإطلاق اسم الآيات عليها مشاكلة تقديرية لما ّهو شائع بين المسلمين من تسمية جمل القرآن آيات لأنّها معجزة في بلاغتها خارجة عن طوق تعبير البشر. وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّهم يكونون أيمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إيّاهم.

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [25]

الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمراد أمّته تحذيرا من ذلك وإيماء إلى وجوب تجنّب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داع في مصلحة الأمة وفهم الدين.

الفصل: القضاء والحكم، وهو يقتضي أنّ اختلافهم أوقعهم في إبطال ما جاءهم من الهدى، فهو اختلاف غير مستند إلى أدلّة ولا جار في مهيع أصل الشريعة، ولكنه متابعة للهوى وميل لأعراض الدنيا كما وصفه القرآن في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها كقوله تعالى { وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [آل عمران:105].

ومن أعظم ذلك الاختلاف كتمانهم الشهادة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم ما أخذ عليهم من الميثاق من أنبيائهم.

{ هُوَ يَفْصِلُ } ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى إيماء إلى أنّ ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعا منه أن يرتدعوا عن اختلافهم وإنّما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم لأنّهم لا يقبلون الحجّة فلا يُفصل بينهم إلّا يوم القيامة.

{ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ } [26]

الاستفهام إنكاري، أي: هم لم يهتدوا بدلائل النظر والاستدلال التي جاءهم بها القرآن فأعرضوا عنها، ولا اتعظوا بمصارع الأمم الذين كذّبوا أنبياءهم، وفي مهلكهم آيات تزجر أمثالهم عن السلوك فيما سلكوه.

{ **لَهُمْ** } الضمير عائد إلى المجرمين أو إلى من ذُكِّر بآيات ربه.

{ **يَهْدِ** } من الهداية وهي الدلالة والإرشاد، يقال: هداه إلى كذا. وضمّن معنى يُبيِّن، فعدي باللام فأفاد هداية واضحة بيّنة. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ } [الأعراف:100]. واختير فعل الهداية في هذه الآية لإرادة الدلالة الجامعة للمشاهدة ولسماع أخبار تلك الأمم تمهيدا لقوله في آخرها { أَفَلا يَسْمَعُونَ }.

وجوَّز في الكشاف أن يكون الفاعل جملة { كَمْ أَهْلَكْنَا } على معنى الحكاية لهذا القول، كما يقال: تعصم " لا إله إلا الله" الدماء والأموال، أي: هذه الكلمة.

ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الجلالة دالا عليه المقام، أي: ألم يهد الله لهم، فإنّ الله بيّن لهم ذلك وذكّرهم بمصارع المكذّبين، وتكون جملة { **كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ** } على هذا استئنافا، وتقدّم قوله { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [الأنعام:6].

{ **يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** } حال من فاعل { أَوَلَمْ يَرَوْا } [27] والمعنى: أنّهم يمرّون على المواضع التي فيها بقايا مساكنهم مثل حجر ثمود وديار مدين فتعضد مشاهدة مساكنهم الأخبار الواردة عن استئصالهم.

{ **أَفَلا يَسْمَعُونَ** } استفهام تقريري مشوب بتوبيخ لأنّ اجتلاب المضارع مؤذن بأنّ استماع أخبار تلك الأمم متكرّر متجدّد فيكون التوبيخ على الإقرار المستفهم عنه أوقع.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ } [27]

عطف على الآية السابقة. ونيط الاستدلال هنا بالرؤية لأنّ إحياء الأرض بعد موتها ثم إخراج النبت منها دلالة مشاهدة.

{ **نَسُوقُ** } اختير المضارع لاستحضار الصورة العجيبة الدالة على القدرة الباهرة.

السوق: إزجاء الماشي من ورائه. وسوق الماء إلى الأرض هو سوق السحاب الحاملة إيّاه بالرياح التي تنقل السحاب من جو إلى جو، فشُبِّهت هيئة الرياح والسحاب بهيئة السائق للدابة.

{ **الْجُرُزِ** } اسم للأرض التي انقطع نبتها، وهو مشتق من الجرز، وهو: انقطاع النبت والحشيش، إمّا بسبب يبس الأرض أو بالرعي، والجَرز: القطع. وسمّي السيف القاطع جرازا. ولا يقال للأرض التي لا تنبت كالسباخ جرز.

الزرع: ما نبت بسبب بذر حبوبه في الأرض كالشعير والبر.

{ **تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ** } وأكل الأنعام غالبه من الكلأ لا من الزرع، فذكر الزرع بلفظه، ثم ذكر أكل الأنعام يدلّ على تقدير: وكلأً. ففي الكلام اكتفاء. والتقدير: ونخرج به زرعا وكلأ تأكل منه أنعامهم وأنفسهم.

{ **أَفَلا يُبْصِرُونَ** } استفهام تقريري. وتقدّم بيان مثله آنفا في قوله { أَفَلا يَسْمَعُونَ } [26]. ونيط الحكم بالإبصار هنا لأنّ دلالة إحياء الأرض بعد موتها دلالة مشاهدة.

{ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [28] قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ [29] فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ [30]** }.

يجوز أن يكون عطفا على جملة { ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا } [22]، أي: أعرضوا عن سماع الآيات والتدبّر فيها وتجاوزوا ذلك إلى التكذيب والتهكّم بها. ومناسبة ذكر ذلك هنا أنّه وقع عقب الإشارة إلى دليل وقوع البعث وهو يوم الفصل. ويجوز أن يعطف على جملة { وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10].

المعنى: أنّهم كذّبوا بالبعث وما معه من الوعيد في الآخرة وكذّبوا بوعيد عذاب الدنيا الذي منه قوله تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } [21].

{ **وَيَقُولُونَ** } حكاية قولهم بصيغة المضارع لإفادة التعجيب منه مع إفادة تكرّر ذلك منهم.

{ **مَتَى هَذَا الْفَتْحُ** } كان المسلمون يتحدّون المشركين بأنّ الله سيفتح بينهم وينصرهم وتظهر حجّتهم، فكان الكافرون يكررون التهكّم بالمسلمين بالسؤال عن وقت هذا الفتح استفهاما مستعملا في التكذيب.

{ **الْفَتْحُ** } النصر والقضاء. والمراد به: نصر أهل الإيمان بظهور فوزهم وخيبة أعدائهم.

{ **قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ** } أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأنّ يوم الفتح الحقّ هو يوم القيامة، وهو يوم الفصل، وحينئذ ينقطع أمل الكفّار في النجاة والاستفادة من الندامة والتوبة ولا يجدون إنظارا لتدارك ما فاتهم.

وفي هذا الجواب إيماء إلى أنّ زمن حلوله غير معلوم للناس وأنّه مما استأثر الله به، فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يعمل له من الآن فإنّه لا يدري متى يحلّ به.

ففي هذا الجواب سلوك الأسلوب الحكيم من وجهين: من وجه العدول عن تعيين يوم الفتح، ومن وجه العدول بهم إلى يوم الفتح الحقّ، وهم إنّما أرادوا بالفتح نصر المسلمين عليهم في الحياة الدنيا.

{ **لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار الوصف في مقام الإضمار، مع أنّهم هم القائلون { مَتَى هَذَا الْفَتْحُ } لقصد التسجيل عليهم بأنّ كفرهم هو سبب خيبتهم.

{ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ** } ثم فرّع على جميع هذه المجادلات والدلالات توجيه الله خطابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُعرض عن هؤلاء القائلين المكذّبين وألّا يزيد في الإلحاح عليهم تأييسا من إيمان المجادلين منهم المتصدِّين للتمويه على دهمائهم.

وهذا إعراض متاركة عن الجدال وقتيا لا إعراض مستمر، ولا عن الدعوة إلى الله ولا علاقة له بأحكام الجهاد المشروع في غير هذه الآية.

الانتظار: الترقّب. وأصله مشتق من النظر فكأنّه مطاوع: أنظره، أي: تكلف أن ينظُر.

وحذف مفعول { انْتَظِرْ } للتهويل، أي: انتظر أيّامًا يكون لك فيها النصر ويكون لهم فيها الخسران، ففي الأمر بالانتظار تعريض بالبشارة للمؤمنين بالنصر، وتعريض بالوعيد للمشركين بالعذاب في الدارين.

{ **إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ** } تعليل لما تضمّنه الأمر بالانتظار من إضمار العذاب لهم. والمفعول محذوف دلّ عليه السياق، أي: منتظرون لكم الفرصة لحربكم أو لإخراجكم، قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30]، وقال تعالى { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ } [التوبة:98].

أي: لم نكن ظالمين في تقدير العذاب لهم لأنّهم بدأوا بالظلم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب، هكذا سُمِّيت في المصاحف وكتب التفسير والسنّة، وكذلك رويت تسميتها عن ابن عباس وأبَي بن كعب بأسانيد مقبولة. ولا يُعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أنّ فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش ومن تحزّب معهم، أرادوا غزو المسلمين في المدينة فردّ الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال.

وهي **مدنيّة بالاتفاق**، وسيأتي عن ابن عباس أنّ آية { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ...} [36] نزلت في تزويج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة في مكة.

وهي **التسعون في عداد السور** النازلة من القرآن، نزلت بعد سورة الأنفال، وقبل سورة المائدة.

وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة وهو الذي جرى عليه ابن رشد في (البيان والتحصيل). وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: أنّها كانت سنة أربع، وهي سنة غزوة الأحزاب (غزوة الخندق)، حين أحاط جماعات من قريش وأحابيشهم [هم بنو المصطلق وبنو الهون اجتمعوا عند جبل بمكة يقال له: حُبْشيّ (بضم الحاء وسكون الباء) فحالفوا قريشا أنّهم يد على غيرهم]، وكنانة وغطفان وكانوا عشرة آلاف وكان المسلمون ثلاثة آلاف، وعقبتها غزوة قريظة والنضير.

وعدد **آيها ثلاث وسبعون** باتفاق أصحاب العدد.

وممّا يجب التنبيه عليه ممّا يتعلق بهذه السورة

*/ ما رواه الحاكم والنسائي وغيرهما عن زر بن حبيش قال: قال لي أبَي بن كعب: كأيِّن تعدُّون سورة الأحزاب؟ قال: قلت: ثلاثا وسبعين آية. قال: أَقَطْ؟ (بهمزة استفهام دخلت على قط، أي: حسب. أي: فقط؟) فوالذي يحلف به أبَي: إن كانت لتعدل سورة البقرة. ولقد قرأنا فيها: " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتية نكالا من الله والله عزيز حكيم"، فرُفع فيما رُفع، أي: نُسخ فيما نُسخ من تلاوة آياتها.

*/ وما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام بسنده وابن الأنباري بسنده عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبيّ صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلّا على ما هو الآن.

وأنا أقول: كلام الخبرين ضعيف السند. ومحمل الخبر الأول عند أهل العلم أن أبيًّا حدث عن سورة الأحزاب قبل أن ينسخ منها ما نسخ. فمنه ما نسخت تلاوته وحكمه ومنه ما نسخت تلاوته خاصة مثل آية الرجم.

*/ وإن صحّ عن أبَي ما نسب إليه فما هو إلّا أن شيئا كثيرا من القرآن كان أبَي يلحقه بسورة الأحزاب وهو من سور أخرى من القرآن، مثل كثير من سورة النساء الشبيه ببعض ما في سورة الأحزاب أغراضا ولهجة، ممّا فيه ذكر المنافقين واليهود، فإنّ أصحاب رسول الله لم يكونوا على طريقة واحدة في ترتيب آي القرآن ولا في عدّة سوره وتقسيمها، كما تقدم في المقدمة الثامنة، ولا في ضبط المنسوخ لفظه.

وبعد فخبر أبي بن كعب خبر غريب لم يؤثر عن أحد من أصحاب رسول الله فنوقن بأنّه دخله وَهْمٌ من بعض روّاته. وهو أيضا خبر آحاد لا ينتقض به إجماع الأمّة على المقدار الموجود من هذه السورة متواترا.

*/ وأمّا الخبر عن عائشة فهو أضعف سندا وأقرب تأويلا، فإن صحّ عنها، ولا أخاله، فقد تحدثت عن شيء نسخ من القرآن كان في سورة الأحزاب.

كيف وقد أجمع حفّاظ القرآن والخلفاء الأربعة وكافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلّا الذين شذّوا، على أنّ القرآن هو الذي في المصحف، وأجمعوا في عدد آيات القرآن على عدد قريب بعضه من بعض، كما تقدّم في المقدمة الثامنة. وليس بعد إجماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصحف عثمان مطلب لطالب.

ولم يكن تعويلهم في مقدار القرآن وسوره إلّا على حفظ الحفاظ. وقد افتقد زيد ابن ثابت آية من سورة الأحزاب لم يجدها فيما دُفع إليه من صحف القرآن، فلم يزل يسأل عنها حتّى وجدها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري وقد كان يسمع رسول الله يقرؤها، فلمّا وجدها مع خزيمة لم يشك في لفظها الذي كان عرفه. وهي آية { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ - إلى قوله - تَبْدِيلاً} [23]. وافتقد الآيتين من آخر سورة براءة فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس ،المشتهر بكنيته.

وفي الكشاف : وأمّا ما يحكى أن تلك الزيادة التي رويت عن عائشة كانت مكتوبة في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن، أي: الشاة، فمن تأليفات الملاحدة والروافض.

ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف فإنّه لو صدق هذا لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بعده والصحابة متوافرون وحفاظ القرآن كثيرون فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ.

وكون القرآن قد تلاشى منه كثير هو أصل من أصول الروافض ليطعنوا به في الخلفاء الثلاثة. وقد استوعب قولهم واستوفى إبطاله أبو بكر بن العربي في كتاب (العواصم من القواصم).

أغراض السورة

لكثير من آيات هذه السورة أسباب لنزولها، وأكثرها نزل للردّ على المنافقين أقوالا قصدوا بها أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم. وأهم أغراضها:

*/ الردّ عليهم قولهم لمّا تزوج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك، فأنزل الله تعالى إبطال التبنّي.

*/ أنّ الحقّ في أحكام الله لأنّه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق.

*/ أن ولاية النبيّ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أقوى ولاية، ولأزواجه حرمة الأمهات لهم، وتلك ولاية من جعْل الله، فهي أقوى وأشدّ من ولاية الأرحام.

*/ تحريض المؤمنين على التمسّك بما شرع الله لهم لأنّه أخذ العهد بذلك على جميع النبيّين.

*/ الاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين.

*/ الثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين.

*/ نعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب.

*/ انتقل من ذلك إلى أحكام في معاشرة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وذكر فضلهن وفضل آل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وفضائل أهل الخير من المسلمين والمسلمات.

*/ تشريع في عدّة المطلقة قبل البناء.

*/ ما يسوغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج.

*/ حكم حجاب أمهات المؤمنين ولبسة المؤمنات إذا خرجن.

*/ تهديد المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة.

*/ تخلّل ذلك مستطردات من الأمر بالائتساء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم. وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكرا له على هديه. وتعظيم قدر النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الله وفي الملأ الأعلى، والأمر بالصلاة عليه والسلام. ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين. والتحذير من التورّط في ذلك كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام.

*/ ختمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها { واتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } [2].

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } [1].

افتتاح السورة بخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وندائه بوصفه مُؤْذِنٌ بأنّ الأهمّ من سوق هذه السورة يتعلّق بأحوال النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقد نودي فيها **خمس مرات** في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به وبعضها يتعلّق بغيره وله ملابسة له.

النداء الأول: لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربّه.

النداء الثاني: لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه، واقترابه من مقامه.

النداء الثالث: لافتتاح بيان تحديد تقلّبات شؤون رسالته في معاملة الأمّة.

النداء الرابع: في طالعة غرض أحكام تزوّجه وسيرته مع نسائه.

النداء الخامس: في غرض تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ } النداء الأوّل افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربّه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله، وهو نظير النداء الذي في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة:67]، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } [المائدة:41].

والنداء بوصف النبوّة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف ليُربأ بمقامه عن أن يخاطَب بمثل ما يخاطَب به غيره، ولذلك لم يناد في القرآن بغير { يَا أَيُّهَا النبيء } أو { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ }، بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله تعالى { يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النبيء } [التحريم:8]، ويجيء باسمه العلم كقوله تعالى { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ } [الأحزاب:40].

وقد يتعيّن إجراء العلم ليوصف بعده بالرسالة كقوله تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } [الفتح: 29]، وقوله { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } [آل عمران:144].

وتلك مقامات يُقصد فيها تعليم الناس بأنّ صاحب ذلك الاسم هو رسول الله، أو تلقينٌ لهم بأن يسمُّوه بذلك ويدعوه به، فإنّ عِلم أسمائه من الإيمان لئلا يلتبس بغيره، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب "**، تعليما للأمّة.

{ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } الأمر للنبيّ بتقوى الله توطئة للنهي عن اتباع الكافرين والمنافقين ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلّق بالله دون غيره، فإنّ معنى { لا تُطِعِ } مرادف معنى: لا تتق الكافرين والمنافقين، فإن الطاعة تقوى، فصار مجموع الجملتين مفيدا معنى: يا أيها النبيّ لا تتق إلّا الله، فعدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ وأوجز إلى ذكر جملتي أمر ونهي لقصد النصّ على أنه

قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين لأنّه لو اقتصر على أن يقال: لا تتق إلّا الله لما أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة لأنّ تقوى النبيّ صلى الله عليه وسلم ربّه أمر معلوم، فسلك مسلك الإطناب لهذا.
وقد تعيّن بهذا أنّ الأمر في قوله تعالى { اتَّقِ اللَّهَ } والنهي في قوله تعالى { وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، فأشعر ذلك أنّ تشريعا عظيما سيُلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمّته، وأنّه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين.
وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يقبل أقوالهم لييأسوا من ذلك.
{ **الْكَافِرِينَ** } المراد المجاهرون بالكفر لأنّه قوبل بالمنافقين، فيجوز أن يكونوا المشركين، كما هو غالب إطلاق هذا الوصف في القرآن، والأنسب بما سيعقبه من قوله { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } [4] ويجوز أن يكونوا اليهود كما يقتضيه ما يروى في سبب النزول، ولو حُمل على ما يعمّ نوعي الكافرين المجاهرين لم يكن بعيدا.
الطاعة: العمل على ما يأمر به الغير أو يشير به لأجل إجابة مرغوبة.
مثل أن يعدل عن تزوّج مطلقة متبنّاه لقول المنافقين: إنّ محمدا ينهى عن تزوّج نساء الأبناء وتزوّج زوج ابنه زيد بن حارثه، وهو المعنى الذي جاء فيه قوله تعالى { وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } [37]، وقوله تعالى { وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ } [48] عقب قضية امرأة زيد.
{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** } تعليل للنهي. والمعنى: أنّ الله حقيق بالطاعة له دون الكافرين والمنافقين لأنّه عليم حكيم فلا يأمر إلّا بما فيه الصلاح.
والخبر الذي ذكره الواحدي في أسباب النزول والثعلبي والقشيري والماوردي في تفاسيرهم سببا لقوله تعالى { وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } لا سند له ولم يعرّج عليه أهل النقد مثل الطبري وابن كثير.

{ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [2]

هذا تمهيد لما يرد من الوحي في شأن أحكام التبنّي وما يتصل بها، ولذلك جيء بالفعل المضارع الصالح للاستقبال، وجُرّد من علامة الاستقبال لأنّه قريب من زمن الحال.
{ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** } المقصود أمر خاص. وفيه إيذان بأنّ ما سيوحي إليه قريبا هو ما يشقّ عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبنّي لأنّهم ألفوه واستقر في عوائدهم وعاملوا المتبنّين معاملة الأبناء.
{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } تعليل للأمر بالاتباع وتأنيس به، لأنّ الله خبير بما في عوائدكم ونفوسكم فإذا أبطل شيئا من ذلك فإنّ إبطاله من تعلّق العلم بلزوم تغييره فلا تتريّثوا في امتثال أمره في ذلك.
وفي إفراد الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله { وَاتَّبِعْ } وجمعه بما يشمله وأمته في قوله {بِمَا تَعْمَلُونَ}

إيماء إلى أنّ فيما سينزل من الوحي ما يشتمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان النبيّ عليه الصلاة والسلام مشاركا لبعض الأمّة في التلبّس بها وهو حكم التبنّي إذ كان النبيّ متبنّيا **زيد بن حارثة** من قبل بعثته.

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [3]

زيادة تمهيد وتوطئة لتلقي تكليف يُترقّب منه أذى من المنافقين مثل قولهم: إنّ محمدا نهى عن تزوّج نساء الأبناء وتزوّج امرأة ابنه، وهو ما يشير إليه قوله تعالى { وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} [48] فأمره بتقوى ربه دون غيره، وأتبعه بالأمر باتباع وحيه، وعزّزه بالأمر بما فيه تأييده وهو أن يفوّض أموره إلى الله.

التوكّل: إسناد المرء مُهمه وشأنه إلى من يتولى عمله، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

الوكيل: الذي يُسند إليه غيره أمره، وتقدّم عند قوله { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:173].

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } [4]

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } استئناف ابتدائي ابتداء المقدّمة للغرض بعد التمهيد له بما قبله، والمقدّمة أخصّ من التمهيد لأنّها تشتمل على ما يوضّح المقصد بخلاف التمهيد.

والمقصود التنبيه إلى بطلان أمور كان أهل الجاهلية قد زعموها وادّعوها. وابتدئ من ذلك بما دليل بطلانه الحس والاختبار ليُعلم من ذلك أنّ الذين اختلقوا مزاعم يشهد الحس بكذبها يهون عليهم اختلاق مزاعم فيها شبه وتلبيس للباطل في صورة الحقّ فيُتلقى ذلك بالإذعان والامتثال.

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } إشارة إلى أكذوبة من تكاذيب الجاهلية كانوا يزعمون أنّ **جميل بن معمر** (ويقال: ابن أسد) بن حبيب الجمحي الفهري، وكان رجلا داهية قوي الحفظ، أنّ له قلبين يعملان ويتعاونان، وكانوا يدعونه ذا القلبين، يريدون العقلين، لأنّهم كانوا يحسبون أنّ الإدراك بالقلب وأن القلب محل لعقل. وقد غرّه ذلك أو تغاور به فكان لشدّة كفره يقول: " إنّ في جوفي قلبين أعمل بكل واحد منهما عملا أفضل من عمل محمد ".

وسمُّوا بذي القلبين أيضا عبد الله بن خطل التيمي، وكان يسمّى في الجاهلية عبد العزى وأسلم فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ثم كفر وقُتل صبرا يوم فتح مكة، وهو الذي تعلّق بأستار الكعبة.

{ لِرَجُلٍ } نفت الآية زعمهم نفيا عاما، أي: ما جعل الله لأي رجل من الناس قلبين. واللفظ لا مفهوم له لأنّه أريد به الإنسان. والنكرة في سياق النفي يقتضي العموم، وكذلك فعل {جَعَلَ} في سياق النفي يقتضي العموم. والجعل المنفي هنا هو الجعل الجبلي.

الجوف: باطن الإنسان صدره وبطنه وهو مقرّ الأعضاء الرئيسية عدا الدماغ.

{ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } عطف إبطال ثان لبعض مزاعمهم وهو ما كان في الجاهلية أنّ الرجل إذا أراد فراق زوجه فراقا لا رجعة فيه بحال يقول لها: " أنت عليّ كظهر أمّي ".

وهذه الصيغة معروفة عندهم، وهي موجبة طلاق المرأة وحرمة تزوّجها من بعد لأنّها صارت أمّا له.

وليس المقصود هنا تشريع إبطال آثار التحريم به لأنّ ذلك أبطل في سورة المجادلة وهي ممّا نزل قبل نزول سورة الأحزاب، ولكن المقصود أن يكون تمهيدا لتشريع إبطال التبنّي تنظيرا بين هذه الأوهام، إلّا أنّ هذا التمهيد الثاني أقرب إلى المقصود لأنّه من الأحكام التشريعية.

{ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ } وذكر الظهر في قولهم: أنت عليَّ كظهر أمي، تخييل للتشبيه المضمر في النفس على طريقة الاستعارة المكنية. وقولهم: أنت عليَّ، فيه مضاف محذوف دلّ عليه ما في المخاطبة من معنى الزوجية والتقدير: غشيانك، أي: أنت حرام عليَّ، فصارت الجملة بما لحقها من الحذف علامة على معنى التحريم الأبدي. فلما قال الله { اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ } علم الناس أنّه يعني قولهم: أنت علي كظهر أمّي.

{ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } هذا هو المقصود الذي وُطِّئَ بالآيتين قبله، ولذلك أسهب الكلام بعده بتفاصيل التشريع فيه. وعطفت هاته الجملة على اللتين قبلها لاشتراك ثلاثتها في أنّها نفت مزاعم لا حقائق لها.

الأدعياء: جمع دَعِيّ بوزن فعيل بمعنى مفعول، والادّعاء: زعم الزاعم الشيء حقًّا له من مال أو نسب أو نحو ذلك بصدق أو كذب، وغلب وصف الدعيّ على المدَّعِي أنّه ابن لمن يتحقّق أنّه ليس أبا له.

فمن ادَّعى أنّه ابن لمن يحتمل أنّه أب له فذلك هو اللحيق أو المستلحَق. فالدَعِيُّ لم يجعله الله ابنا لمن ادّعاه للعلم بأنّه ليس أبا له، وأمّا المستلحق فقد جعله الله ابنا لمن استلحقه بحكم استلحاقه مع إمكان أبوّته له.

نزلت هذه الآية في إبطال التبنّي، أي: إبطال ترتيب آثار البنوّة الحقيقة من الإرث، وتحريم القرابة، وتحريم الصهر، وكانوا في الجاهلية يجعلون للمتبنَّى أحكام البنوّة كلّها، وكان من أشهر المتبنين في عهد الجاهلية زيد بن حارثة تبنّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعامر بن ربيعة تبنّاه الخطاب أبو عمر بن الخطاب، وسالم تبنّاه أبو حذيفة، والمقداد بن عمرو تبنّاه الأسود بن عبد يغوث.

زيد بن حارثة الذي نزلت الآية في شأنه كان غريبا من بني كلب من وبَرة، من أهل الشام، وكان أبوه حارثة توفي وترك ابنيه جبلة وزيدًا فبقيا في حجر جدّهما، ثم جاء عمَّاهما فطلبا من الجدّ كفالتهما فأعطاهما جبلة وبقي زيد عنده فأغارت على الحي خيل من تهامة فأصابت زيدا، فأخذ جدّه يبحث عن مصيره، وقال أبياتا

منها: بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل

وأنّه علم أنّ زيدا بمكة وأنّ الذين سبوه باعوه بمكة فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد فوهبه لعمّته خديجة بنت خويلد زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم فوهبته خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأقام عنده زمنا ثم جاء جدّه وعمّه يرغبان في فدائه فأبى الفداء واختار البقاء على الرقّ عند النبيّ فحينئذ أشهد النبيّ قريشا أنّ زيدا ابنه يرث أحدهما الآخر فرضي أبوه وعمّه وانصرفا، فأصبح يّدعى: زيد بن محمد، وذلك قبل البعثة.

وقُتل زيد في غزوة مؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة.

{ **ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** } استئناف اعتراضي بين التمهيد والمقصود من التشريع وهو فذلكة كما تقدّم من الجمل الثلاث التي نفت جعلهم ما ليس بواقع واقعا، ولذلك فصلت الجملة لأنها تتنزل منزلة البيان بالتحصيل لما قبلها.

{ **ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ** } الإشارة إلى مذكور ضمنا من الكلام المتقدّم، وهو ما نُفي أن يكون الله جعله من وجود قلبين لرجل، ومن كون الزوجة المظاهر منها أمًّا لمن ظاهر منها، ومن كون الأدعياء أبناء للذين تبنوهم. وإذ قد كانت تلك المنفيات الثلاثة ناشئة عن أقوال قالوها صح الإخبار عن الأمور المشار إليها بأنّها أقوال باعتبار أنّ المراد أنّها أقوال فحسب ليس لمدلولاتها حقائق خارجية تطابقها، ولإفادة هذا المعنى قُيِّد بقوله { بِأَفْوَاهِكُمْ } إشارة إلى أنّه قول لا تتجاوز دلالته الأفواه إلى الواقع ونفس الأمر، فليس له من أنواع الوجود إلّا الوجود في اللسان والوجود في الأذهان دون الوجود في العيان، ونظير هذا قوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100].

{ **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** } زيادة في التصريح، فأومأ إلى أنّ قولهم ذلك قول كاذب. وهو داخل في الفذلكة لما تقدّم. وفي الإخبار عن اسم الجلالة وضميره بالمسندين الفعليين إفادة قصر القلب، أي: هو يقول الحقّ لا الذين وضعوا لكم تلك المزاعم، وهو يهدي السبيل لا الذين أضلّوا الناس بالأوهام.

{ **السَّبِيلَ** } الطريق السابلة الواضحة، أي: الواضح أنّها مطروقة فهي مأمونة الإبلاغ إلى غاية السائر فيها.

{ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً }[5]

{ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** } استئناف بالشروع في المقصود من التشريع لإبطال التبنّي وتفصيل لما يحقّ أن يجريه المسلمون في شأنه. والمراد من دعوتهم بآبائهم ترتب آثار ذلك.

{ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } لام الانتساب، وأصلها لام الاستحقاق. يقال: فلان لفلان، أي: هو ابنه. وفي حديث أبي قتادة: " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملا أُمامة ابنة بنته زينب ولأبي العاص ابن ربيعة "، فكانت اللام مغنية عن أن يقول: وابنة أبي العاص.

ويُفهم منه النهي عن أن يُنسب أحد إلى غير أبيه بطريق لحن الخطاب. وفي الحديث: **" من انتسب إلى غير أبيه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا "**.

ويخرج من النهي قول الرجل لآخر: أنت أبي وأنا ابنك على قصد التعظيم والتقريب، وذلك عند انتفاء اللبس.

{ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ } الضمير عائد إلى المصدر المفهوم من فعل { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ }. والجملة استئناف بياني. أي: هو قسط كامل وغيره جور على الآباء الحقّ والأدعياء، لأنّ فيه إضاعة أنسابهم الحق.

والغرض من هذا الاستئناف أن تُعلم عناية الله تعالى بإبطال أحكام الجاهلية في التبنّي، وأن تطمئن نفوس المسلمين من المتبنين والأدعياء.

{ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ } تفريع، للتشريع بعدم التساهل في بقاء ما كانوا عليه بعذر أنّهم لا يعلمون آباء بعض الأدعياء، وتأنيسا للناس أن يعتاضوا عن ذلك الانتساب المكذوب اتصالا حقا لا يفوت به ما في الانتساب القديم من الصلة. والإخبار بأنّهم إخوان وموال كناية عن الإرشاد إلى دعوتهم بأحد هذين الوجهين.

{ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } و(فِي) للظرفية المجازية، أو تُجعل للتعليل والتسبّب، أي: إخوانكم بسبب الإسلام مثل قوله تعالى { فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ } [العنكبوت: 10]، أي: لأجل الله.

وليس في دعوتهم بوصف الأخوّة ريبة أو التباس مثل الدعوة بالبنوّة، وفي ذلك جبر لخواطر الأدعياء ومن تبنّوهم.

{ وَمَوَالِيكُمْ } الواو للتقسيم وهي بمعنى (أو) فتصلح لمعنى التخيير، أي: فإن لم تعلموا آباءهم فادعوهم إن شئتم بإخوان وإن شئتم ادعوهم موالي إن كانوا كذلك. وهذا توسعة على الناس.

والمراد بالولاء ولاء المحالفة لا ولاء العتق، فالمحالفة مثل الأخوّة.

{ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } عطف على جملة { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } لأنّ الأمر فيها للوجوب فهو نهي عن ضدّه لتحريمه.

الجناح: الإثم، وهو صريح في أن الأمر في قوله تعالى { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } أمر وجوب.

{ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ } ما يجري على الألسنة خارجا مخرج الغالب فيما اعتادوه أن يقولوا: فلان ابن فلان للدعِيّ ومتبنيه، ولذلك قابله بقوله **{ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ }** أي: ما تعمَّدته عقائدكم بالقصد والإرادة إليه.

{ **وَكَانَ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً** } تعليل نفي الجناح عن الخطأ بأنّ نفي الجناح من آثار اتصاف الله تعالى بالمغفرة والرحمة بخلقه.

{ **النبيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** } [6].

{ **النبيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** } استئناف بياني لأجل تعليم المؤمنين حقوق النبيّ وحرمته. والمعنى: أنّه أولى بكلّ مؤمن من نفسه. و {مِنْ} تفضيلية. أي: هو أشد ولاية، أي: أشد قربا ، وهو قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة. والكلام على تقدير مضاف، أي: أولى بمنافع المؤمنين أو بمصالح المؤمنين، فهذا المضاف حذف لقصد تعميم كلّ شأن من شؤون المؤمنين الصالحة.

الأنفس: الذوات، أي: هو أحق بالتصرّف في شؤونهم من أنفسهم. ومن هذا المعنى ما في الحديث الصحيح من قول عمر بن الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيء إلّا من نفسي التي بين جنبيّ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبَّ إليه من نفسه**. فقال: عمر والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحبّ إلي من نفسي ".

وفي الحديث: " **ما من مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم** { النبيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ". ولِما علمتَ من أنّ هذه الولاية راجعة إلى حرمته وكرامته تعلم أنّها لا تتعدّى ذلك فيما هو من تصرّفات الناس وحقوق بعضهم من بعض، مثل ميراث الميّت من المسلمين، فإنّ ميراثه لورثته، وقد بيّنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيّما مؤمن ترك مالا فليرثه ورثته من كانوا، فإن ترك دينا أو ضِياعا فليأتني فأنا مولاه** ". وهذا ملاك معنى هذه الآية.

{ **وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** } عَطَفَ على حقوق النبيّ صلى الله عليه وسلم حقوق أزواجه على المسلمين لمناسبة جريان ذكر حق النبيّ عليه الصلاة والسلام، فجعل الله لهنّ ما للأمهات من تحريم التزوج بهنّ.

وأمّا ما عدا حكم التزوّج من وجوه البرّ بهنّ ومواساتهنّ فذلك راجع إلى تعظيم أسباب النبيّ صلى الله عليه وسلم وحُرماته ولم يزل أصحاب النبيّ والخلفاء الراشدون يتوخّون حُسن معاملة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ويؤثرونهنّ بالخير والكرامة والتعظيم. قال ابن عباس عند حمل جنازة ميمونة: " هذه زوج نبيّكم فإذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوا ولا تزلزلوا وارفقوا " رواه مسلم.

وقد أكّد حكم أمومة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بقوله تعالى { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } [53]، وبتحريم تزوّج إحداهنّ على المؤمنين بقوله تعالى { وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً } [53]. وسيجيء بيان ذلك في أواخر هذه السورة.

{ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً } أعقب نسخ أحكام التبنّي التي منها ميراث المتبنّي من تبناه والعكس بإبطال نظيره وهو المؤاخاة التي كانت بين رجال من المهاجرين مع رجال من الأنصار.

وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا نزل بالمدينة مع من هاجر معه، جعل لكلّ رجل من المهاجرين رجلا أخا له من الأنصار فآخى بين أبي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد، وبين الزبير وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين عثمان بن مظعون وأبي قتادة الأنصاري؛ فتوارث المتآخون منهم بتلك المؤاخاة زمانا كما يرث الإخوة ثم نسخ ذلك بهذه الآية، كما نسخ التوارث بالتبنّي بآية { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } [5]، فبيّنت هذه الآية أنّ القرابة هي سبب الإرث.

{ أُولُو الْأَرْحَامِ } الإخوة الحقيقيون. وعبّر عنهم بأولي الأرحام لأنّ الشقيق مقدّم على الأخ للأب في الميراث وهم الغالب، فبيّنت الآية أنّ أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث من ولاية المتآخين المهاجرين والأنصار. وقد تقدّم نظير هذه الآية في [الأنفال:75].

{ أُولُو } تقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة:197].

{ فِي كِتَابِ اللَّهِ } فيما كتبه، أي: فرضه وحكم به. <u>ويجوز</u> أن يراد به القرآن إشارة إلى ما تضمنته آية المواريث.

وتقدّم الكلام في توريث ذوي الأرحام إن لم يكن للميت وارث معلوم سهمه.

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ } <u>يجوز</u> أن يتعلّق باسم التفضيل وهو { أَوْلَى } فتكون {مِنْ} تفضيلية. والمعنى: أولوا الأرحام أولى بإرث ذوي أرحامهم من إرث أصحاب ولاية الإيمان والهجرة بتلك الولاية، أي: الولاية التي بين الأنصار والمهاجرين. وأريد بالمؤمنين <u>خصوص الأنصار</u> بقرينة مقابلته بعطف { وَالْمُهَاجِرِينَ } على معنى أصحاب الإيمان الكامل، تنويها بإيمان الأنصار لأنّهم سبقوا بإيمانهم قبل كثير من المهاجرين الذين آمنوا بعدهم، فإنّ الأنصار آمنوا دفعة واحدة لمّا أبلغهم نقباؤهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إيّاهم بعد بيعة العقبة الثانية. فالمعنى: كل ذي رحم أولى بإرث قريبه من أن يرثه أنصاري إن كان الميّت مهاجرا، أو أن يرثه مهاجر إن كان الميت من الأنصار، فيكون هذا ناسخا للتوارث بالهجرة الذي شرع في سورة الأنفال { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا } [الأنفال:72].

<u>ويجوز</u> أن يكون قوله { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ظرفا مستقرًّا في موضع الصفة، أي: وأولوا الأرحام الذين هم من

المؤمنين والمهاجرين، بعضهم أولى ببعض، أي: لا يرث ذو الرحم ذا رحمه إلّا إذا كانا مؤمنين ومهاجرين، فتكون الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة الذي شرع عند قدوم المهاجرين إلى المدينة، فلما نزلت هذه الآية رجعوا إلى مواريثهم.

وأيًّا ما كان فإنّ آيات المواريث نسخت هذا كلّه.

{ **إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً** } استثناء منقطع، و{ إِلَّا } بمعنى (لكن). وهذا استدراك على ما قد يُتوهَّم من قطع الانتفاع بأموال الأولياء عن أصحاب الولاية بالإخاء والحلف فبيّن أنّ الذي أُبطل ونُسخ هو انتفاع الإرث وبقي حكم المواساة وإسداء المعروف بمثل الإنفاق والإهداء والإيصاء.

{ **كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** } تذييل لهذه الأحكام وخاتمة لها مؤذنة بانتهاء الغرض من الأحكام التي شُرعت من قوله تعالى { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } [5] إلى هنا.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى المذكور من الأحكام المشروعة، فكان هذا التذييل أعم ممّا اقتضاه قوله تعالى { بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ }. وبهذا الاعتبار لم يكن تكريرا له ولكنه يتضمّنه ويتضمَّن غيره فيفيد تقريره وتوكيده تبعا، وهذا شأن التذييلات.

{ **الْكِتَابِ** } التعريف للعهد، أي: كتاب الله، أي: ما كتبه على الناس وفرضه كقوله تعالى { كِتَابَ اللَّهِ عليكم } [النساء:24]، فاستعير الكتاب للتشريع. و**المسطور**: المكتوب في سطور.

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً [7] لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً [8] }.

عطف على قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النبيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ - إلى قوله - وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [1-3]، فلذلك تضمّن الأمر بإقامة الدين على ما أراده الله تعالى وأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى نبذ سنن الكافرين الصرحاء والمنافقين من أحكام الهوى والأوهام.

فلمّا ذكر ذلك وعقّب بثلاثة من أحكام جاهليتهم الضالة بما طال من الكلام إلى هنا ثُني عنان الكلام إلى الإعلام بأنّ الذي أمره الله به هو من عهود أخذها الله على النبيّين والمرسلين من أوّل عهود الشرائع.

{ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيّينَ مِيثَاقَهُمْ** } موقع المقدّمة لقصة الأحزاب لأنّ ممّا أخذ الله عليه ميثاق النبيّين أن ينصروا الدين الذي يرسله الله به، وأن ينصروا دين الإسلام، قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النبيّين لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } [آل عمران:81].

{ **إِذْ** } اسم للزمان مجرّد عن معنى الظرفية. فالتقدير: واذكر وقتا، وبإضافة { إِذْ } إلى الجملة بعده يكون

المعنى: اذكر وقت أخذنا ميثاقا على النبيّين. وهذا الميثاق مجمل هنا بيّنته آيات كثيرة. وجماعها أن يقولوا الحقّ ويبلّغوا ما أمروا به دون ملاينة للكافرين والمنافقين، ولا خشية منهم، ولا مجاراة للأهواء. وأن الله واثقهم ووعدهم على ذلك بالنصر.

الميثاق: اسم العهد وتحقيق الوعد، وهو مشتق من وثق، إذا أيقن وتحقّق، وتقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } [البقرة:27].

وإضافة ميثاق إلى ضمير النبيّين من إضافة المصدر إلى فاعله على معنى اختصاص الميثاق بهم فيما ألزموا به وما وعدهم الله على الوفاء به. ويضاف أيضا إلى ضمير الجلالة في قوله { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ } [المائدة:7].

{ **وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** } هو من ذكر بعض أفراد العام للاهتمام بهم، فإنّ هؤلاء المذكورين أفضل الرسل، وقد ذُكر ضمير محمد صلى الله عليه وسلم قبلهم إيماء إلى تفضيله على جميعهم، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود.

وخُصّ ضمير النبيّ بإدخال حرف (من) عليه بخصوصه، ثم أدخل حرف (من) على مجموع الباقين فكان قد خُصّ باهتمامين: اهتمام التقديم، واهتمام إظهار اقتران الابتداء بضمير بخصوصه غير مندمج في بقيتهم عليهم السلام.

{ **وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً** } أعادت مضمون جملة { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيّينَ مِيثَاقَهُمْ } لزيادة تأكيدها، وليُبنى عليها وصف الميثاق بالغليظ، أي: عظيما جليل الشأن في جنسه.

الغليظ: حقيقته القوي المتين الخلق، قال تعالى { فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } [الفتح:29]. واستعير الغليظ للعظيم الرفيع في جنسه لأنّ الغليظ من كلّ صنف هو أمكنه في صفات جنسه.

{ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ** } لام كي، أي: أخذنا منهم ميثاقا غليظا لنعظّم جزاء الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ولنشدّد العذاب على الذين يكفرون بما جاءتهم به رسل الله. وهذه علّة من علل أخذ الميثاق من النبيّين وهي آخر العلل حصولا فأشعر ذكرها بأنّ لهذا الميثاق عللا تحصل قبل أن يُسأل الصادقون عن صدقهم، وهي ما في الأعمال المأخوذ ميثاقهم عليها من جلب المصالح ودرء المفاسد.

{ **يَسْأَلَ** } الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

{ **الصَّادِقِينَ** } أمم الأنبياء الذين بلغهم ما أخذ على أنبيائهم من الميثاق، ويقابلهم { **لِلْكَافِرِينَ** } الذين كذّبوا أنبياءهم أو الذين صدّقوهم ثم نقضوا الميثاق من بعد، فيشملهم اسم الكافرين.

السؤال: كناية عن المؤاخذة.

{ **وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً** } عطف على جملة { لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ } وغيّر فيها الأسلوب للدلالة على تحقيق عذاب الكافرين حتّى لا يُتوهم أنّهم يسألون سؤال من يُسمع جوابهم أو معذرتهم.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** } [9]

ابتداء لغرض عظيم من أغراض نزول هذه السورة والذي حفّ بآيات وعبر من ابتدائه ومن عواقبه تعليما للمؤمنين وتذكيرا ليزيدهم يقينا وتبصيرا. فافتتح الكلام بتوجيه الخطاب إليهم لأنّهم أهله وأحقّاء به، ولأنّ فيه تخليد كرامتهم ويقينهم وعناية الله بهم ولطفه لهم وتحقيرا لعدوّهم ومن يكيد لهم.

وأمروا أن يذكروا هذه النعمة ولا ينسوها لأنّ في ذكرها تجديدا للاعتزاز بدينهم والثقة بربّهم والتصديق لنبيّهم صلى الله عليه وسلم.

واختيرت للتذكير بهذا اليوم مناسبة الأمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين لأنّ من النعم التي حفّت بالمؤمنين في يوم الأحزاب أنّ الله ردّ كيد الكافرين والمنافقين فذُكِّر المؤمنون بسابق كيد المنافقين في تلك الأزمة ليحذروا مكائدهم وأراجيفهم في قضية التبنّي وتزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم مطلّقة متبنَّاه، ولذلك خُصَّ المنافقون بقوله تعالى { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [12]، فقضيّة إبطال التبنّي وإباحة تزوّج مطلّق الأدعياء كانت بقرب وقعة الأحزاب.

قصة غزوة الأحزاب

وكان سبب هذه الغزوة أنّ قريشا **بعد وقعة أُحُد** تهادنوا مع المسلمين لمدّة عام على أن يلتقوا ببدر من العام القابل فلم يقع قتال ببدر لتخلّف أبي سفيان عن الميعاد، فلم يناوش أحد الفريقين الفريق الآخر إلّا ما كان من حادثة غدر المشركين بالمسلمين وهي **حادثة بئر معونة** حين غدرت قبائل عُصَيَّة، ورعْل، وذكوان من بني سُليم بأربعين من المسلمين، إذ سأل عامر بن مالك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يوجّهم إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام. وكان ذلك كيدا كاده عامر بن مالك، وذلك بعد أربعة أشهر من انقضاء غزوة أُحُد.

فلما أجلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بني النضير لِما ظهر من غدرهم به وخيسهم بالعهد الذي لهم مع المسلمين، هنالك اغتاظ كبراء يهود بني النضير بعد الجلاء وبعد أن نزلوا بديار بني قريظة وبخيبر فخرج سلَّام بن أبي الحُقَيق (بتشديد لام سلَّام وضم حاء الحقيق وفتح قافه) وكنانة بن أبي الحقيق، وحُيي بن أَخطب (بضم حاء حيي وفتح همزة وطاء أخطب) وغيرهم في نفر من بني النضير فقدموا على قريش لذلك وتآمروا مع غطفان على أن يغزوا المدينة.

فخرجت قريش وأحابيشها وبنو كنانة في عشرة آلاف وقائدهم أبو سفيان.
وخرجت غطفان في ألف قائدهم عُيينة بن حصن.
وخرجت معهم هوازن وقائدهم عامر بن الطفيل.
وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عزمهم على منازلة المدينة، أبلغته إيّاه خزاعة، وخاف المسلمون كثرة عدوّهم، وأشار **سلمان الفارسي** أن يُحفر خندق يحيط بالمدينة تحصينا لها من دخول العدو، فاحتفره المسلمون، والنبيّ صلى الله عليه وسلم معهم يحفر وينقل التراب.
وكانت **غزوة الخندق سنة أربع** في رواية ابن وهب وابن القاسم عن مالك. وقال ابن إسحاق: سنة خمس. وهو الذي اشتهر عند الناس وجرى عليه ابن رشد في (جامع البيان والتحصيل) اتباعا لما اشتهر، وقول مالك أصح.
وعندما تمّ الحفر أقبلت جنود المشركين، وتسمُّوا بالأحزاب لأنّهم عدة قبائل تحزّبوا. وانضم إليهم بنو قريظة.
فكان ورود قريش من أسفل الوادي من جهة المغرب. ونزل جيش قريش بمجتمع الأسيال من رُومة بين الجُرف وزُغابة (بزاي معجمة مضمومة وغين معجمة وبعضهم يرويه بالعين المهملة).
وورود غطفان وهوازن من أعلى الوادي من جهة المشرق. ونزل جيش غطفان وهوازن بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد.
وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وخرج المسلمون إلى خارج المدينة فعسكروا تحت جبل سلع وجعلوا ظهورهم إلى الجبل، والخندق بينهم وبين العدو، وجعل المسلمون نساءهم وذراريهم في آطام المدينة. وأمَّر النبيء صلى الله عليه وسلم على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.
ودام الحال كذلك بضعا وعشرين ليلة لم تكن بينهم فيها حرب إلّا مصارعة بين ثلاثة فرسان اقتحموا الخندق من جهة ضيّقة على أفراسهم فتقاتلوا في السبخة بين الخندق وسلع وقُتل أحدهم، قتله علي بن أبي طالب، وفرّ صاحباه، وأصاب سهم غرب سعد بن معاذ في أكحله فكان منه موته في المدينة.
ولحقت المسلمين شدّة من الحصار وخوف من كثرة جيش عدوّهم حتّى همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يصالح الأحزاب على أن يعطيهم نصف ثمر المدينة في عامهم ذلك يأخذونه عند طيبه وكاد أن يكتب معهم كتابا في ذلك، فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقال سعد بن معاذ: قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلّا قِرًى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا والله لا نعطيهم إلّا السيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم، فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عزم عليه.
وأرسل الله على جيش المشركين ريحا شديدة فأزالت خيامهم وأكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم، واختلّ

أمرهم، وهلك كراعهم وخُفَّهم، وحدث تخاذل بينهم وبين قريظة، وظنّت قريش أنّ قريظة صالحت المسلمين وأنهّم ينضمُّون إلى المسلمين على قتال الأحزاب، فرأى أهل الأحزاب الرأي في أن يرتحلوا فارتحلوا عن المدينة وانصرف جيش المسلمين راجعا إلى المدينة.

{ **إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ** } توطئة لقوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً }، لأنّ ذلك هو محلّ المنّة. والجنود التي لم يروها هي الملائكة الذين أرسلوا الريح وألقوا التخاذل بين الأحزاب، وكانوا وسيلة إلقاء الرعب في نفوسهم.
{ **رِيحاً** } الريح المذكورة هنا هي ريح الصَّبَا وكانت باردة وقلعت الأوتاد والإطناب وسفَّت التراب في عيونهم وماجت الخيل بعضها في بعض وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم. وفيها قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نصرت بالصَّبَا وأهلكت عاد بالدبور "**.
{ **وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** } في موقع الحال من اسم الجلالة في قوله { نِعْمَةَ اللَّهِ }، وهي إيماء إلى أنّ الله نصرهم على أعدائهم لأنّه عليم بما لقيه المسلمون من المشقة والمصابرة في حفر الخندق والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة، وبذلهم النفوس في نصر دين الله فجازاهم الله بالنصر المبين كما قال تعالى { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } [الحج:40].
{ **إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ** } في هذا الموقع جمع جند، وهو الجمع المتّحد المتناصر، ولذلك غلب على الجمع المجتمع لأجل القتال فشاع الجند بمعنى الجيش. وذُكر جنود هنا بلفظ الجمع مع أنّ مفرده مؤذن بالجماعة مثل قوله تعالى { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [ص:11] فجمعه هنا لأنّهم كانوا متجمعين من عدة قبائل لكلّ قبيلة جيش، ونظيره قوله تعالى { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} [البقرة:249].
{ **وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا** } وفي هذا الموقع جمع جند بمعنى الجماعة من صنف واحد. والمراد بهم ملائكة أرسلوا لنصر المؤمنين وإلقاء الرعب والخوف في قلوب المشركين.

{ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [10] **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** [11] **}.**
{ **إِذْ جَاءُوكُمْ** } بدل من { إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ } [9] بدل مفصّل من مجمل.
{ **مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** } فوق جهة المدينة وأسفلها.
{ **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** } عطف على البدل وهو من جملة التفصيل، والتعريف في {الْأَبْصَارُ- الْقُلُوبُ - الْحَنَاجِرَ} للعهد، أي: أبصار المسلمين وقلوبهم وحناجرهم.

الزيغ: الميل عن الاستواء إلى الانحراف. فزيغ البصر ألّا يرى ما يتوجّه إليه، أو أن يريد التوجّه إلى صوب فيقع إلى صوب آخر من شدّة الرعب والانذعار.

{ **الْحَنَاجِرَ** } جمع حَنْجَرة (بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم): منتهى الحلقوم وهي رأس الغلصمة. وبلوغ القلوب الحناجر تمثيل لشدّة اضطراب القلوب من الفزع والهلع حتّى كأنّها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور. وقريب منه قولهم: تنفّس الصعداء، وبلغت الروح التراقي.

{ **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** } يجوز أن تكون عطفا على جملة { زَاغَتِ الْأَبْصَارُ }، ويجوز أن يكون الواو للحال وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدّد تلك الظنون بتجدّد أسبابها، كناية عن طول مدّة هذا البلاء.

وفي صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان فإنّ شدّة الهلع الذي أزاغ الأبصار وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر، دلّ على أنهم أشفقوا من أن يهزموا.

{ **الظُّنُونَا** } انتصب على المفعول المطلق المبيّن للعدد، وهو جمع ظنّ. وتعريفه باللام تعريف الجنس، وجمعه للدلالة على أنواع من الظنّ.

{ **هُنَالِكَ** } إشارة إلى المكان الذي تضمَّنه قوله تعالى { جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ } [9] وقوله تعالى { إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ }. والأظهر أن تكون الإشارة إلى الزمان الذي دلت عليه { إِذْ } في قوله { وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ }. وكثيرا ما ينزل أحد الظرفين منزلة الآخر.

الابتلاء: أصله الاختبار، ويطلق كناية عن إصابة الشدّة لأنّ اختبار حال الثبات والصبر لازم لها، وسمَّى الله ما أصاب المؤمنين ابتلاء إشارة إلى أنّه لم يزعزع إيمانهم.

الزلزال: اضطراب الأرض، وهو مضاعف (**زلّ**) تضعيفا يفيد المبالغة، وهو هنا استعارة لاختلال الحال اختلالا شديدا. والمراد بزلزلة المؤمنين شدّة الانزعاج والذعر لأنّ أحزاب العدو تفوقهم عددا وعُدَّة.

{ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً [12] وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً [13]** }.

عطف على { وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ } [10] فإنّ ذلك كلّه ممّا ألحق بالمسلمين ابتلاء، فبعضه من حال الحرب وبعضه من أذى المنافقين، ليحذروا المنافقين فيما يحدث من بعد، ولئلّا يخشوا كيدهم، فإنّ الله يصرفه كما صرف أشدّه يوم الأحزاب.

{ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ...** } وقولهم هذا يحتمل أن يكونوا قالوه علنا بين المسلمين قصدوا به إدخال الشك في قلوب المؤمنين لعلّهم يردّونهم عن دينهم، فأوهموا بقولهم أنّهم ممّن يؤمن بالله ورسوله.

ويحتمل أنّهم قالوا ذلك بين أهل ملّتهم، فيكون نسبة الوعد إلى الله ورسوله تهكّما، كقول فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } [الشعراء:27].

الغرور: ظهور الشيء المكروه في صورة المحبوب، وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196]، وقوله تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112]. والمعنى: أن الله وعدهم النصر فكان الأمر هزيمة.

{ **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } هم الذين كانوا متردّدين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النفاق.

{ **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ** } المراد بالطائفة عبد الله ابن أبَي بن سلول وأصحابه. كذا قال السدي. وقال الأكثر: هو أوس بن قيظي أحد بني حارثة، وهو والد عَرابة بن أوس، في جماعة من منافقي قومه. والظاهر هو ما قاله السدي لأنّ عبد الله ابن أبي رأس المنافقين.

{ **يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** }، أي: لا فائدة لكم في ذلك، وهو يروم تخذيل الناس كما فعل يوم أُحُد.

{ **يَثْرِبَ** } اسم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، سُمِّيت باسم يثرب من العمالقة، وهو **يثرب من قانية** الحفيد الخامس لإرم بن سام ابن نوح. وقد روي عن البراء بن عازب وابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن تسميتها يثرب وسمّاها طابة.

{ **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ** } جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وليسوا فريقا من الطائفة المذكورة آنفا، بل هؤلاء هم أوس بن قيظي وجمع من عشيرته بني حارثة، وكان بنو حارثة أكثرهم مسلمين وفيهم منافقون، فجاء منافقوهم يعتذرون بأنّ منازلهم **عورة**، أي: غير حصينة.

وجيء بالفعل المضارع للإشارة إلى أنّهم يلحّون في الاستئذان ويكرّرونه.

ومنازل بني حارثة كانت في أقصى المدينة قرب منازل بني سلمة فإنّهما كانا حيين متلازمين قال تعالى { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا} [آل عمران: 122] هما بنو حارثة وبنو سلمة في غزوة أُحُد.

وفي الحديث: أنّ بني سلمة راموا أن ينقلوا منازلهم قرب المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **" يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم "**، أي خطاكم. فهذا الفريق منهم يعتلّون بأن منازلهم بعيدة عن المدينة وآطامها.

الاستئذان: طلب الإذن، وهؤلاء راموا الانخذال واستحيوا. ولم يذكر المفسّرون أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أذن لهم. وذكر أهل السير أنّ ثمانين منهم رجعوا دون إذنه.

{ **إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ** } التأكيد بحرف { إِنَّ } تمويه لإظهار قولهم في صورة الصدق. لمّا علموا أنّهم كاذبون وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يعلم كذبهم جعلوا تكذيبه إيّاهم في صورة أنّه يشك في صدقهم فأكّدوا الخبر.

{ **وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً** } تكذيب لهم، فإنّ المدينة كانت محصّنة يومئذ بخندق وكان جيش المسلمين حارسها. ولم يقرن هذا التكذيب بمؤكد لإظهار أنّ كذبهم واضح غير محتاج إلى تأكيد.

{ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً } [14]

موقع هذه الآية زيادة تقرير لمضمون جملة { وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً } [13] فإنّها لتكذيبهم في إظهارهم التخوّف على بيوتهم، ومرادهم خذل المسلمين.

{ **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ** } لم أجد فيما رأيت من كلام المفسّرين ولا من أهل اللغة من أفصح عن معنى (الدخول) في مثل هذه الآية وما ذكروا إلّا معنى الولوج إلى المكان مثل ولوج البيوت أو المدن، وهو الحقيقة.

والذي أراه أنّ الدخول كثر إطلاقه على دخول خاص وهو اقتحام الجيش أو المغيرين أرضا أو بلدا لغزو أهله، قال تعالى { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ } [المائدة:21]، وأنه يعدّى غالبا إلى المَغْزُوِّين بحرف (على). ومنه قوله تعالى { قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ - إلى قوله - قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا } [المائدة:24/23]، فإنّه ما يصلح إلّا معنى دخول القتال والحرب.

فيفهم من الدخول في مثل هذا المقام معنى الغزو والفتح كما نقول: عام دخول التتار بغداد.

فيتعيّن أن يكون ضمير { **دُخِلَتْ** } عائدا إلى مدينة يثرب لا إلى البيوت من قولهم { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [13].

والمعنى: لو غُزيت المدينة من جوانبها. وأسند الفعل إلى المجهول لظهور أنّ فاعل الدخول قوم غزاة.

الأقطار: جمع قُطْر (بضم القاف وسكون الطاء) وهو الناحية من المكان.

{ **مِنْ أَقْطَارِهَا** } جمع يفيد العموم، أي: من جميع جوانب المدينة، وذلك أشدّ.

{ **ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا** } للترتيب الرتبي، للتنبيه على أنّ ما بعد { ثُمَّ } أهمّ من الذي قبلها، أي: أنّهم مع ذلك يأتون الفتنة.

{ **الْفِتْنَةَ** } هي أن يفتنوا المسلمين، أي: الكيد لهم وإلقاء التخاذل في جيش المسلمين. ومن المفسّرين من فسّر الفتنة بالشرك ولا وجه له، ومنهم من فسّرها بالقتال وهو بعيد.

الإتيان: القدوم إلى مكان. وقد أشعر هذا الفعل بأنّهم يخرجون من المدينة التي كانوا فيها ليفتنوا المسلمين.

{ **وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا** } عطف على جملة { لَأَتَوْهَا }. والتلبُّث: اللبث، أي: الاستقرار في المكان وهو هنا مستعار للإبطاء، أي: ما أبطأوا بالسعي في الفتنة ولا خافوا أن تؤخذ بيوتهم. والمعنى: لو دخلت جيوش الأحزاب المدينة وبقي جيش المسلمين خارجها وسأل الجيش الداخل الفريق المستأذنين أن يلقوا الفتنة في المسلمين بالتفريق والتخذيل لخرجوا لذلك القصد مسرعين ولم يثبّطهم الخوف على بيوتهم.

{ **إِلَّا يَسِيراً** } والاستثناء يظهر أنّه تهكّم بهمّ فيكون المقصود تأكيد النفي بصورة الاستثناء. ويحتمل أنّه على ظاهره، أيّ إلّا ريثما يتأمّلون فلا يطيلون التأمّل، فيكون المقصود من ذكره تأكيد قلّة الثلبّت.

{ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً } [15]

هؤلاء هم بنو حارثة وبنو سَلِمة وهم الذين قال فريق منهم { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [13] واستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: كانوا يوم **أُحُد** جبنوا ثم تابوا وعاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّهم لا يولُّون الأدبار في غزوة بعدها، وهم الذين نزل فيهم قوله { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا } [آل عمران:122]، فطرأ على نفر من بني حارثة نفاق وضعف في الإيمان فذكَّرهم الله بذلك وأراهم أنّ منهم فريقا قُلَّبًا لا يرعى عهدا ولا يستقرّ لهم اعتقاد، وأنّ ذلك لضعف يقينهم وغلبة الجبن عليهم.

وهذا تنبيه للقبيلين ليزجروا من نكث منهم.

{ **وَلَقَدْ كَانُوا** } تأكيد هذا الخبر بـ (لام القسم) وحرف التحقيق (قد) وفعل (كان)، مع أن الكلام موجه إلى المؤمنين، تنزيلا للسامعين منزلة من يتردَّد في أنّهم عاهدوا الله على الثبات.

{ **مِنْ قَبْلُ** } زيادة للإشارة إلى أنّ ذلك العهد قديم، وهو عهد يوم **أُحُد**.

{ **لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ** } بيان لجملة { عَاهَدُوا }.

التولية: التوجّه بالشيء، وهي مشتقة من الوَلْي وهو القرب، قال تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144].

{ **الْأَدْبَارَ** } : الظهور. و**تولية الأدبار**: كناية عن الفرار، فإنّ الذي استأذنوا لأجله في غزوة الخندق أرادوا منه الفرار، ألا ترى قوله تعالى { إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً } [13]، والفرار ممّا عاهدوا الله على تركه.

{ **وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً** } تذييل. والمراد بعهد الله: كل عهد يوثقه الإنسان مع ربّه.

المسؤول: كناية عن المحاسَب عليه، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **وكلكم مسؤول عن رعيته** "، وكما تقدّم آنفا عند قوله تعالى { لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ } [8]. وهذا تهديد.

{ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [16]

جواب عن قولهم { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [13] ولذلك فصلت لأنّها جرت على أسلوب التقاول والتجاوب، وما بين الجملتين من قوله تعالى { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ - إلى قوله – مَسْؤُولاً } [15/14] اعتراض كما تقدّم.

وهذا يرجّح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأذن لهم بالرجوع إلى المدينة وأنّه ردّ عليهم بما أمره الله أن يقوله لهم، أي: قد علم الله أنّكم ما أردتم إلّا الفرار جبنا، والفرار لا يدفع عنكم الموت أو القتل.

{ **الْمَوْتِ** } أريد به: الموت الزؤام وهو الموت حتف أنفه لأنّه قوبل بالقتل.

{ **وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً** } تعقيب، جوابا عن كلام مقدر دل عليه المذكور، أي: إن خيّل إليكم أنّ الفرار نفع الذي فرّ، فما هو إلّا نفع زهيد لأنّه تأخير في أجل الحياة، وهو متاع قليل.

{ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً } [17]

{ **قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً** } يظهر أن هذه الجملة واقعة موقع التعليل لجملة { لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ }، فكأنّه قيل: فمن ذا الذي يعصمكم من الله.

{ **قُلْ** } تكرير لأجل الاهتمام بمضمون الجملة.

التقدير: فأنتم إذا عصيتم الله ورسوله وخذلتم المؤمنين تتعرضون لإرادته بكم السوء فلا عاصم لكم.

{ **مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ** } الاستفهام إنكاري في معنى النفي لاعتقادهم أنّ الحيلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعهم، وأنّ الفرار يعصمهم من الموت إن كان قتال.

العصمة: الوقاية والمنع ممّا يكرهه المعصوم.

{ **إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً** } قوبل السوء بالرحمة لأنّ المراد سوء خاص وهو السوء المجعول عذابا لهم على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو سوء النقمة.

{ **وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً** } الكلام موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وليس هو من قبيل الالتفات. والمقصود لازم الخبر وهو إعلام النبيّ عليه الصلاة والسلام ببطلان تحيُّلاتهم وأنّهم لا يجدون نصيرا غير الله، وقد حرمهم الله النصر لأنّهم لم يعقدوا ضمائرهم على نصر دينه ورسوله.

الولي: الذي يتولى نفعهم. **النصير**: النصير في الحرب فهو أخصّ.

{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً [18] أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً [19] }.

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ } [17]. أي: فالله ينبئ رسوله بكم بأنّ فعل أولئك تعويق للمؤمنين. وقد جعل هذا الاستئناف تخلُّصا لذكر فريق آخر من المعوِّقين.

{ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ** } مفيد للتحقيق لأنّهم لنفاقهم ومرض قلوبهم يشكّون في لازم هذا الخبر وهو إنباء الله رسولَه عليه الصلاة والسلام بهم، أو لأنّهم لجهلهم الناشئ عن الكفر يظنُّون أنّ الله لا يعلم خفايا القلوب. وذلك ليس بعجيب في عقائد أهل الكفر.

ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود: " اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنّه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ } [فصلت:22].

ودخول (قد) على المضارع لا يخرجها عن معنى التحقيق عند المحققين من أهل العربية، وأن ما توهموه من التقليل إنما دل عليه المقام في بعض المواضع لا من دلالة {قَدْ} ، ومثله إفادة التكثير، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ } [البقرة:144]، وقوله تعالى { قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } [النور:64].

المعوِّق: اسم فاعل من عوَّق الدال على شدّة حصول العوق. يقال: عاقه عن كذا، إذا منعه وثبّطه عن شيء، فالتضعيف فيه للشدة والتكثير مثل: قطَّع الحبل، إذا قطعه قطعا كبيرة، { وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ } [يوسف:23]، أي: أحكمت غلقها.

المعنى: يعلم الله الذين يحرصون على تثبيط الناس عن القتال.

{ **مِنْكُمْ** } الخطاب للمنافقين الذين خوطبوا بقوله تعالى { لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ } [16]. ويجوز أن يكون القائلون لإخوانهم { هَلُمَّ إِلَيْنَا } هم المعوِّقين أنفسهم، فيكون من عطف صفات الموصوف الواحد.

ويجوز أن يكونوا طائفة أخرى وإخوانهم هم الموافقون لهم في النفاق، فالمراد: الأخوة في الرأي والدين. وذلك أن عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، ومن معهما من الذين انخذلوا عن جيش المسلمين يوم أُحُد فرجعوا إلى المدينة كانوا يرسلون إلى من بقي من المنافقين في جيش المسلمين يقولون لهم { هَلُمَّ إِلَيْنَا }، أي: ارجعوا إلينا.

{ **هَلُمَّ** } اسم فاعل أمر بمعنى أقبل في لغة أهل الحجاز وهي الفصحى، فلذلك تلزم هذه الكلمة حالة واحدة عندهم لا تتغيّر عنها، يقولون: هلّم، للواحد والمتعدّد المذكر والمؤنث، وهي فعل عند بني تميم فلذلك يلحقونها العلامات يقولون: هلمّ وهلمّي وهلمّا وهلمّوا. وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ } [الأنعام:150].

{ **وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً** } كلام مستقل فيجوز أن تكون الجملة حالا من القائلين لإخوانهم { هَلُمَّ إِلَيْنَا }. ويجوز أن تكون عطفا على المعوِّقين والقائلين، لأنّ الفعل يعطف على المشتق، كقوله تعالى { فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً فَأَثَرْنَ } [العاديات:4/3] وقوله تعالى { إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ } [الحديد:18]، فالتقدير هنا: قد يعلم الله المعوقين والقائلين وغير الآتين البأس، أو والذين لا يأتون البأس.

{ **الْبَأْسَ** } الحرب، وتقدّم في قوله تعالى { لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ } [الأنبياء:80]. وإتيان الحرب مراد به إتيان أهل الحرب أو موضعها.

{ **إِلَّا قَلِيلاً** } إلّا زمانا قليلا، وهو زمان حضورهم مع المسلمين المرابطين. أي: إتيانا قليلا، وقلّته تظهر في قلة زمانه وفي قلة غنائه.

{ **أَشِحَّةً** } جمع شحيح بوزن أفعلة على غير قياس وهو فصيح وقياسه أشحّاء. **والشحّ**: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير. وأصله: عدم بذل المال، ويستعمل مجازا في منع المقدور من النصر أو الإعانة، وهو يتعدّى إلى الشيء المبخول به بـ (الباء) وبـ (عَلَى). وتقدّم عند قوله { وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ } [النساء:128].

{ **عَلَيْكُمْ** } ضمير الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين، وهو انتقال من القول الذي أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم إلى كشف أحوالهم للرسول والمسلمين بمناسبة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى { وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ } .

المعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي: إذا حضروا البأس منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا، ومن ذلك شحّهم بأنفسهم.

{ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو يقتضي أنّ هذا حكاية حالة وقعت لا فرض وقوعها ولهذا أتي بفعل { رَأَيْتَهُمْ } ولم يقل: فإذا جاء الخوف ينظرون إليك. ونظرهم إليه نظر المتفرّس في ماذا يصنع ولسان حالهم يقول: ألسنا قد قلنا لكم إنّكم لا قبل لكم بقتال الأحزاب فارجعوا، ولذلك خصّ نظرهم بأنّه للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يقل: ينظرون إليكم. وجيء بصيغة المضارع ليدلّ على تكرّر هذا النظر وتجدّده.

والمقصود: وصفهم بالجبن، أي: إذا رأوا جيوش العدو مقبلة رأيتهم ينظرون إليك.

المجيء: مجاز مشهور من حدوث الشيء وحصوله. كما قال تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ } [الإسراء:7].

{ **الْخَوْفُ** } : توقّع القتال بين الجيشين، ومنه سمِّيت صلاة الخوف.

{ **تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** } حال من ضمير { يَنْظُرُونَ } لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور الذي يحدّق بعينيه إلى جهات يحذر أن تأتيه المصائب من إحداها.

فمعنى { تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ } أنّها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائرة من سرعة تنقلها محملقة إلى الجهات المحيطة. وشبّه نظرهم بنظر الذي يغشى عليه بسبب النزع عند الموت، فإنّ عينيه تضطربان.

{ **فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ** } وذهاب الخوف مجاز مشهور في الانقضاء، أي: زوال أسبابه، بأن يترك القتال أو يتبين ألّا يقع قتال. وذلك عند انصراف الأحزاب عن محاصرة المدينة كما سيدل عليه قوله تعالى { يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا } [20].

السَّلق: قوة الصوت والصياح. والمعنى: رفعوا أصواتهم بالملامة على التعرّض لخطر العدو الشديد وعدم الانصياع إلى إشارتهم على المسلمين بمسالمة المشركين.

وفُسِّر السلق بأذى اللسان. قيل: سأل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن { سَلَقُوكُمْ } فقال: الطعن باللسان. فقال نافع: هل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم أما سمعت قول الأعشى:

فيهم الخصب والسماحة والنجـ ... ـدة فيهم والخاطب المِسلاق

{ **حِدَادٍ** } جمع حديد، وحديد: كل شيء نافذٌ فعلِ أمثاله، قال تعالى {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق:22].

{ **أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ** } انتصب على الحال من ضمير الرفع في { سَلَقُوكُمْ }، أي: خاصموكم ولاموكم وهم في حال كونهم أشحّة على ما فيه الخير للمسلمين، أيّ أنّ خصامهم إيّاهم ليس كما يبدو خوفا على المسلمين واستبقاء عليهم ولكنّه عن بغض وحقد.

ويجوز أن يكون الخير هنا هو المال، كقوله تعالى { إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة: 180].

{ **أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ** } جيء باسم الإشارة لقصد تمييزهم بتلك الصفات الذميمة التي أجريت عليهم من قبل، وللتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد من الحكم بعد اسم الإشارة.

{ **أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا** } أجري عليهم حكم انتفاء الإيمان عنهم كشفا لدخائلهم لأنّهم كانوا يوهمون المسلمين أنّهم منهم كما قال { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا } [البقرة:14]. ورتّب على انتفاء إيمانهم أنّ الله أحبط أعمالهم.

الإحباط: جعل شيء حابطا، فالهمزة فيه للجعل مثل الإذهاب. والحَبْط حقيقته: أنّه فساد ما يراد به الصلاح والنفع. ويطلق مجازا على إفساد ما كان نافعا أو على كون الشيء فاسدا ويُظنّ أنّه ينفع، يقال: حبط حق فلان، إذا بطل. والإطلاق المجازي ورد كثيرا في القرآن.

إحباط الأعمال: إبطال الاعتداد بالأعمال المقصود بها القربة والمظنون بها أنّها أعمال صالحة لمانع منع من الاعتداد بها في الدين.

وقد صار لفظ الحبط والحبوط من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية بين علماء الفقه والكلام، فأطلق على عدم الاعتداد بالأعمال الصالحة بسبب الردة، أي: الرجوع إلى الكفر.

قال مالك وأبو حنيفة: الردّة تحبط الأعمال بمجرّد حصولها فإذا عاد إلى الإسلام وكان قد حجّ مثلا قبل ردّته وجبت عليه إعادة الحجّ تمسّكا بإطلاق هذه الآية، إذ ناطت الحبوط بانتفاء الإيمان، ولم يريا أن هذا مما يحمل فيه المطلق على المقيد احتياطا لأنّ هذا الحكم راجع إلى الاعتقادات ولا يكفي فيها الظن.

وقال الشافعي: إذا رجع إلى الإسلام رجعت إليه أعماله الصالحة التي عملها قبل الردة تمسكا بقوله { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [البقرة:217] حملا للمطلق في آية سورة الأحزاب ونحوها على المقيد في آية سورة البقرة، تغليبا للجانب الفروعي في هذه المسألة على الجانب الاعتقادي.

{ **وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** } خبر مستعمل في لازمه وهو تحقيرهم وأنّ الله لمّا أخرجهم من حظيرة الإسلام فأحبط أعمالهم لم يعبأ بهم ولا عدّ ذلك ثلمة في جماعة المسلمين.

{ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً } [20]

لمّا ذكر حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض من فتنتهم في المسلمين وأذاهم حين مجيء جنود الأحزاب وحين زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ثُنِيَ عنان الكلام الآن إلى حالهم حين أنعم الله على المسلمين بانكشاف جنود الأحزاب عنهم، فأفاد بأنّ انكشاف الأحزاب حصل على حين غفلة من المنافقين فلذلك كانوا يشتدُّون في ملام المسلمين ويسلقونهم بألسنة حداد على أن تعرّضوا للعدوّ الكثير، وكان الله ساعتئذ قد هزم الأحزاب فانصرفوا وكفى الله المؤمنين شرهم.

{ **يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا** } يؤذن بانهزام الأحزاب ورجوعهم على أعقابهم، أي: وقع ذلك ولم يشعر به المنافقون. ويجوز أن يكون المعنى: أنّهم كانوا يسلقون المؤمنين اعتزازا بالأحزاب، فتكون الجملة حالا من ضمير الرفع في { سَلَقُوكُمْ } [19]، أي: فعلوا ذلك حاسبين الأحزاب محيطين بالمدينة ومعتزّين بهم فظهرت خيبتهم فيما قدَّروا.

{ **وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ** } وصف لجبن المنافقين، أي: لو جاء الأحزاب كرّة أخرى لأخذ المنافقون حيطتهم فخرجوا إلى البادية بين الأعراب القاطنين حول المدينة (وهم **غِفار** و**أسلم** وغيرهم)، قال تعالى { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ } [التوبة:120].

{ **يَوَدُّوا** } الودّ هنا مستعمل كناية عن السعي لحصول الشيء المودود.
البادي: ساكن البادية. وتقدّم عند قوله تعالى { سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } [الحج:25].
{ **الْأَعْرَابِ** }: هم سكان البوادي بالأصالة.
أي: يودُّوا الالتحاق بمنازل الأعراب ما لم يعجزوا.
{ **يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ** } لقصد التجسّس على المسلمين للمشركين، وليسرَّهم ما عسى أن يلحق المسلمين من الهزيمة.
الأنباء: جمع نبأ وهو: الخبر المهم، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].
{ **وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً** } أنّهم إذا فرض أن لا يتمكّنوا من الخروج إلى البادية وبقوا في المدينة مع المسلمين ما قاتلوا مع المسلمين إلّا قتالا قليلا، أي: ضعيفا لا يؤبه به، وإنّما هو تعلّة ورياء.
{ **لَوْ** } حرف يفيد التمنّي بعد فعل ودّ ونحوه. وتقدّم عند قوله تعالى { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96].

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}[21]
بعد توبيخ المنافقين والذين في قلوبهم مرض أقبل الكلام على خطاب المؤمنين في عموم جماعتهم ثناء على ثباتهم وتأسِّيهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، على تفاوت درجاتهم في ذلك الائتساء، فالكلام خبر ولكن اقترانه بحرفي التوكيد في { لَقَدْ } يومئ إلى تعريض بالتوبيخ للذين لم ينتفعوا بالإسوة الحسنة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض.
فمعنى هذه الآية قريب من معنى قوله تعالى في قصة تبوك { رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ } [التوبة:88/87].
الإسوة: (بكسر الهمزة وضمِّها) اسم لما يُؤتسى به، أي: يُقتدى به ويُعمل مثل عمله.
{ **فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** } الأصل: رسول الله إسوة. وجعْل متعلّق الائتساء ذات الرسول صلى الله عليه وسلم دون وصف خاص ليشمل الائتساء به في أقواله بامتثال أوامره واجتناب ما ينهى عنه، والائتساء بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات.
{ **لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** } بدل بعض من كلّ أو شبه الاشتمال لأنّ المخاطبين بضمير { لَكُمْ } يشتملون على من يرجون الله واليوم الآخر، أو هو بدل مطابق إن كان المراد بضمير {لَكُمْ} خصوص المؤمنين. فالذين ائتسوا بالرسول صلى الله عليه وسلم يومئذ ثبت لهم أنّهم ممّن يرجون الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّه الإسوة الحسنة لا محالة ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء والواجب منه والمستحب، وتفصيله في أصول الفقه. واصطلاح أهل الأصول على جعل التأسّي لقبا لاتباع الرسول في أعماله التي لم يطالب بها الأمّة على وجه التشريع.

{ وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً } [22]

لمّا ذُكرت أقوال المنافقين والذين في قلوبهم مرض المؤذنة بما يداخل قلوبهم من الخوف وقلّة الإيمان والشك فيما وعد الله به رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من النصر ابتداء من قوله تعالى { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [12] قوبلت أقوال أولئك بأقوال المؤمنين حينما نزلت بهم الأحزاب ورأوا كثرتهم وعددهم، وكانوا على بصيرة من تفوّقهم عليهم في القوّة والعدد أضعافا، وعلموا أنّهم قد ابتلوا وزلزلوا، كلّ ذلك لم يُخِرْ عزائمهم ولا أدخل عليهم شكًّا فيما وعدهم الله من النصر.

وكان الله وعدهم النصر غير مرة منها قوله تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:214]. فلما رأى المسلمون الأحزاب وابتلوا وزلزلوا ورأوا مثل الحالة التي وُصفت في تلك الآية علموا أنّهم منصورون عليهم. وكانت آية البقرة نزلت قبل وقعة الأحزاب بعام، فيما نُقل عن ابن عباس.

وأيضا فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر المسلمين: أنّ الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع أو عشر.

فلما رأى المؤمنون الأحزاب وزلزلوا راجعهم الثبات الناشئ عن قوة الإيمان وقالوا { هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ } أي: من النظر ومن الإخبار بمسير الأحزاب وصدَّقوا وعد الله إياهم بالنصر وإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم بمسير الأحزاب.

{ قَالُوا هَذَا } إشارة إلى ما شاهدوه من جيوش الأحزاب وإلى ما يتبع ذلك من الشدّة والصبر عليها.

{ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ } أخبروا عن صدق الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فيما أخبرا به، وصدّقوا الله فيما وعدهم من النصر خلافا لقول المنافقين { مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً } [12]، فالوعد راجع إلى الأمرين والصدق كذلك.

الوعد: إخبار مخبر بأنّه سيعمل عملا للمخبَر (بالفتح).

{ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } مستعمل في الخبر عن صدق مضى وعن صدق سيقع في المستقبل محقّق وقوعه مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1].

{ **وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً** } الضمير المستتر عائد إلى ما عاد إليه اسم الإشارة، أي: وما زادهم ما رأوا إلّا إيمانا وتسليما، بعكس حال المنافقين إذ زادهم شكًّا في تحقّق الوعد.

التسليم: الانقياد والطاعة، لأنّ ذلك تسليم النفس للمنقاد إليه، وتقدّم في قوله { وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [النساء:65]. ومن التسليم هنا تسليم أنفسهم لملاقاة عدوّ شديد. ومن التسليم الرضى بما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الثبات معه.

والإيمان الذي زادهُمُوه أريد به مظهر من مظاهر إيمانهم القوي، فجعل تكرّر مظاهر الإيمان وآثاره كالزيادة في الإيمان لأنّ تكّرر الأعمال بقويّ الباعث عليها في النفس يباعد بين صاحبه وبين الشك والارتداد، فكأنّه يزيد في ذلك الباعث، وهذا من قبيل قوله تعالى { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } [الفتح:4] وقوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً } [التوبة:124]. وكذلك القول في ضدّ الزيادة، وهو النقص.

وإلا فإن حقيقة الإيمان وهو التصديق بالشيء إذا حصلت بمقوماتها فهي واقعة، فزيادتها تحصيل حاصل ونقصها نقص لها وانتفاء لأصلها. وهذا هو محمل ما ورد في الكتاب والسنة من إضافة الزيادة إلى الإيمان وكذلك ما يضاف إلى الكفر والنفاق من الزيادة، كقوله تعالى { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً } [التوبة:97] وقوله تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة:125].

وإلى هذا المحمل يرجع خلاف الأئمة في قبول الإيمان الزيادة والنقص فيؤول إلى خلاف لفظي.

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } [23]

أعقب الثناء على جميع المؤمنين الخُلَّص على ثباتهم ويقينهم واستعدادهم للقاء العدو الكثير يومئذ وعزمهم على بذل أنفسهم ولم يقدّر لهم لقاؤه كما يأتي في قوله تعالى { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } [25]، أعقب ذلك بالثناء على فريق منهم كانوا وفَّوْا بما عاهدوا الله عليه وفاء بالعمل والنيّة، ليحصل بالثناء عليهم بذلك ثناء على إخوانهم الذين لم يتمكّنوا من لقاء العدو يومئذ، ليُعلم أنّ صدق أولئك يؤذن بصدق هؤلاء.

{ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ** } الإخبار عنهم برجال زيادة في الثناء، لأنّ الرجل مشتقّ من الرِّجل وهي قوّة اعتماد الإنسان. فإن كانت هذه الآية نزلت مع بقية آي السورة بعد غزوة الخندق فهي تذكير بما حصل من المؤمنين من قبل، وإن كانت نزلت يوم أُحُد فموضعها في هذه السورة إنّما هو بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وأيّا ما كان وقت نزول الآية فإنّ المراد منها: رجال من المؤمنين ثبتوا في وجه العدو **يوم أُحُد** وهم: (عثمان بن عفان - أنس بن النضر - طلحة بن عبيد الله – حمزة - سعيد ابن زيد - مصعب بن عمير).

فأمّا أنس بن النضر وحمزة ومصعب بن عمير فقد استشهدوا يوم أحد، وأمّا طلحة فقد قطعت يده يومئذ وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّا بقيّتهم فقد قاتلوا ونجوا.

وسياق الآية وموقعها يقتضيان أنّها نزلت بعد وقعة الخندق.

{ **صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** } أي: أنّهم حقّقوا ما عاهدوا عليه.

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ** }، و**النحب**: النذر وما يلتزمه الإنسان من عهد ونحوه، أي: من المؤمنين من وفّى بما عاهد عليه من الجهاد، كقول أنس بن النضر حين لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ذلك عليه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليرين الله ما أصنع " ، فشهد أحدا وقاتل حتّى قتل. ومثل الذين شهدوا أيام الخندق فإنّهم قضوا نحبهم يوم قريظة.

وقد حمل بعض المفسرين { قَضَى نَحْبَهُ } في هذه الآية على معنى الموت في الجهاد على طريقة الاستعارة بتشبيه الموت بالنذر في لزوم الوقوع، وربّما ارتقى ببعض المفسرين ذلك إلى جعل النحب من أسماء الموت، ويمنع منه ما ورد في حديث الترمذي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في طلحة بن عبيد الله: " **إنّه ممن قضى نحبه** "، وهو لم يمت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** } فهو في معنى { صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ }، وإنّما ذُكر هنا للتعريض بالمنافقين الذين عاهدوا الله لا يولُّون الأدبار ثم ولّوا يوم الخندق فرجعوا إلى بيوتهم في المدينة. و{ **تَبْدِيلاً** } مفعول مطلق مؤكّد لـ { بَدَّلُوا } المنفي.

{ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً } [24]

لام التعليل يتنازعه من التعلّق كلّ من { صَدَقُوا } و{ مَا بَدَّلُوا } [23] أي: صدق المؤمنون عهدهم وبدله المنافقون، ليجزي الله الصادقين ويعذب المنافقين.

الجزاء: الثواب، لأنّ أكثر ما يُستعمل فعل جزى أن يكون في الخير، ولأنّ ذكر سبب الجزاء { بِصِدْقِهِمْ } يدلّ على أنّه جزاء إحسان، وجاء الجزاء في ضدّ ذلك في قوله { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ } [الأنعام:93].

{ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة في مقام إضماره للدلالة على عظمة الجزاء.

{ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** } تعليق التعذيب على المشيئة تنبيه لهم بسعة رحمة الله وانّه لا يقطع رجاءهم في السعي إلى مغفرة ما أتوه بأن يتوبوا فيتوب الله عليهم.

ولمّا قابل تعذيبه إيّاهم بتوبته عليهم تعين أنّ التعذيب باق عند عدم توبتهم.
التوبة: هنا هي التوبة من النفاق، أي: هي إخلاص الإيمان، وقد تاب كثير من المنافقين بعد ذلك، منهم معتِّب بن قُشير.
{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** } تعليل للجزاء والتعذيب كليهما على التوزيع، أي: غفور للمذنب إذا أناب إليه، رحيم بالمحسن أن يجازيه على قدر نصبه.

{ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً} [25]
عطف على جملة { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً} [9] وهو الأنسب بسياق الآيات بعدها، أي: أرسل عليهم ريحا وردَّهم، أو حال من ضمير { يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا } [20]، أي: يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وقد ردّ الله الأحزاب فذهبوا.
{ **وَرَدَّ اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة دون ضمير المتكلّم للتنبيه على عظم شأن هذا الردّ العجيب، كما تقدّم في قوله تعالى { لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ } [24]. فإنّ ردَّهم إلى ديارهم من تمام النعمة على المسلمين بعد نعمة إرسال الريح عليهم، لأنّ رجوعهم أعملُ في اطمئنان المسلمين.
الردّ: الإرجاع إلى المكان الذي صدر منه.
{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } عبَّر عن الأحزاب بالذين كفروا للإيماء إلى أنّ كفرهم هو سبب خيبتهم عجيبة الشأن.
{ **بِغَيْظِهِمْ** } الباء للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: ردّهم مغيظين.
الغيظ: الحنق والغضب، وكان غضبهم عظيما يناسب حال خيبتهم لأنّهم تجشّموا كلفة التجمع والإنفاق وطول المكث حول المدينة بلا طائل وخابت آمالهم في فتح المدينة، وهم يحسبون أنها منازلة أيام قليلة، ثم غاظهم ما لحقهم من النكبة بالريح والانهزام الذي لم يعرفوا سببه.
{ **لَمْ يَنَالُوا خَيْراً** } حال ثانية. ولك أن تجعل الجملة استئنافا بيانيا لبيان موجب غيظهم.
{ **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** } حذف مضاف، أي: كلفة القتال، أو أرزاء القتال، فإنّ المؤمنين كانوا يومئذ بحاجة إلى توفير عددهم وعُددهم بعد مصيبة يوم أُحُد، ولو التقوا مع جيش المشركين لكانت أرزاؤهم كثيرة ولو انتصروا على المشركين. والقول في إظهار اسم الجلالة كالقول في سابقه.
{ **كَفَى** } بمعنى أغنى، أي: أراحهم من كلفة القتال بأن صرف الأحزاب. وهي بهذا المعنى تتعدى إلى مفعولين يقال: كفيتك مهمك، وليست هي التي تزاد الباء في مفعولها فتلك بمعنى: حسب.

{ **وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً** } تذييل. وذكر فعل { كَانَ } للدلالة على أنّ العزّة والقوّة وصفان ثابتان لله تعالى، ومن تعلّقات قوّته وعزّته أن صرف ذلك الجيش العظيم خائبين مفتضحين وألقى بينه وبين أحلافه من قريظة الشك، وأرسل عليهم الريح والقر، وهدى نُعيما بن مسعود الغطفاني إلى الإسلام دون أن يشعر قومه فاستطاع النصح للمسلمين بالكيد للمشركين.

القوّة: القدرة، وتقدّمت في قوله تعالى { لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً } [هود:80].

العزة: العظمة والمنعة، وتقدّمت في قوله تعالى { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة: 206].

{ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً [26] وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً [27] }.

كان يهود قريظة قد أعانوا الأحزاب وحاصروا المدينة معهم وكان حُيي بن أخطب من بني النضير منضمًّا إليهم وهو الذي حرّض أبا سفيان على غزو المدينة. فلمّا صرف الله الأحزاب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغزو قريظة. وهم فريق من اليهود يُعرفون ببني قريظة، وكانت منازلهم وحصونهم بالجنوب الشرقي من المدينة، تُعرف قريتهم باسمهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاد إلى المدينة من الخندق ظهرا وكان بصدد أن يغتسل ويستقرّ فلما جاءه الوحي بأن يغزو قريظة نادى في الناس أن لا يصلينَّ أحدكم العصر إلّا في بني قريظة.

وخرج الجيش الذي كان بالخندق معه فنزلوا على قرية قريظة واستعصم أهل القرية بحصونهم فحاصرهم المسلمون نحوا من عشرين ليلة، فلمّا جهدهم الحصار وخامرهم الرعب من أن يفتح المسلمون بلادهم فيستأصلوهم طمعوا أن يطلبوا أن يسلِّموا بلادهم على أن يحكِّم حكمٌ في صفة ذلك التسليم. ويقال لهذا النوع من ا لمصالحة: النزول على حُكْم حَكَم، فأرسلوا شاس بن قيس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يعرضون أن ينزلوا على مثل ما نزلت عليه بنو النضير من الجلاء على أنّ لهم ما حملت الإبل إلّا الحَلَقة، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول ذلك وبعد مداولات نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد أن تُقتل المقاتلة وتسبى النساء والذراري وأن تكون ديارهم للمهاجرين دون الأنصار، فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حكم به سعد كما هو مفصّل في السيرة.

{ **الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ** } ناصروهم وأعانوهم، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً } [التوبة:4].

الإنزال: الإهباط، أي: من الحصون أو من المعتصمات كالجبال.

الصياصي: الحصون، وأصلها أنّها جمع **صِيصَيَة** وهي القرن للثور ونحوه. لأنّه لمّا كان القرن يدافع به الثور عن نفسه سُمّي المعقل الذي يعتصم به الجيش صِيصَيَة والحصون صياصي.

القذف: الإلقاء السريع.

{ **فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً** } الذين قُتلوا هم الرجال وكانوا زهاء سبعمائة، والذين أسروا هم النساء والصبيان.

{ **وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا** } أي: تنزلوا بها غزاة وهي أرض أخرى غير أرض قريظة وصفت بجملة {لَمْ تَطَأُوهَا} أي: لم تمشوا فيها. فقيل: إن الله بشّرهم بأرض أخرى يرثونها من بعد. قال قتادة: كنا نُحدّث أنّها مكة. وقال مقاتل وابن رومان: هي خيبر، وقيل: أرض فارس والروم. وأظهر هذه الأقوال أنها أرض خيبر فإنّ المسلمين فتحوها بعد غزوة قريظة بعام وشهر.

وعندي: أن المراد بالأرض التي لم يطؤوها **أرض بني النضير** وأنّ معنى { لَمْ تَطَأُوهَا } لم تفتحوها عنوة فإن الوطء يطلق على معنى الأخذ الشديد، ومنه قوله تعالى { وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ } [الفتح:25]، فإنّ أرض بني النضير كانت ممّا أفاء الله على رسوله من غير إيجاف.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** } تذييل إيماء إلى البشارة بفتح عظيم يأتي من بعده}

{ **يَا أَيُّهَا النبيء قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً** [28] **وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً** [29] }.

وجه اتصال هذه الآيات بما قبلها أنه لمّا فُتحت على المسلمين أرض قريظة وغنموا أموالهم وكانت أرض النضير قبيل ذلك فيئا للنبيّ صلى الله عليه وسلم حسب أزواج رسول الله أن مَثَله مَثَل أحد من الرجال إذا وُسّع عليهم الرزق توسَّعوا فيه هم وعيالهم، فلم يكن أزواج النبيّ عليه الصلاة والسلام يسألنه توسعة قبل أن يفيء الله عليه من أهل النضير وقبل أن يكون له الخمس من الغنائم، فلما رأين النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل لنفسه ولأزواجه أقواتهم من مال الله ورأين وفرة ما أفاء الله عليه من المال حسبن أنّه يوسّع في الإنفاق فصار بعضهنّ يستكثرنه من النفقة، كما دلّ عليه قول عمر لحفصة ابنته أم المؤمنين: " لا تستكثري النبيّ ولا تراجعيه في شيء وسليني ما بدا لك ".

وقال عمر: " كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ممّا لم يوجف المسلمون عليه من خيل و لا

ركاب فكانت لرسول الله خالصة ينفق منها على أهله نفقة سنتهم ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عُدّة للمسلمين ".

وقد علمتَ أن أرض قريظة قُسِّمت على المهاجرين بحكم سعد بن معاذ، فلعلّ المهاجرين لمّا اتسعت أرزاقهم على أزواجهم أمل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكنّ كالمهاجرين فأراد الله أن يعلِّمهن سيرة الصالحات في العيش وغيره.

وقد روي أنّ بعضهن سألنه أشياء من زينة الدنيا فأوحى إلى رسوله بهذه الآيات المتتابعات.

وهذا مما يؤذن به وقع هذه الآيات عقب ذكر وقعة قريظة وذكر الأرض التي لم يطؤوها وهي أرض بني النضير. وإذ قد كان شأن هذه السيرة أن يشق على غالب الناس وخاصة النساء أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبئ أزواجه بها ويخيِّرهنّ عن السير عليها تبعا لحاله وبين أن يفارقهنّ.

{ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** } افتتاح هذه الأحكام بنداء النبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيه على أنّ ما سيُذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب مرتبة النبوّة، وتحديد تزوّجه، وهو الغرض الثاني من الأغراض التي تقدّم ذكرها.

{ **لِأَزْوَاجِكَ** } هنّ أزواجه التسع اللاتي توفّي عليهن. وهن: (**عائشة** بنت أبي بكر الصديق - **حفصة** بنت عمر بن الخطاب - **أم حبيبة** بنت أبي سفيان - **أم سلمة** بنت أمية المخزومية - **جويرية** بنت الحارث الخزاعية - **ميمونة** بنت الحارث الهلالية من بني عامر بن صعصعة - **سودة** بنت زمعة العامرية القرشية - **زينب** بنت جحش الأسدية - **صفية** بنت حُيي النضيريّة).

وأمّا **زينب** بنت خزيمة الهلالية الملقبة أم المساكين فكانت متوفاة وقت نزول هذه الآية.

{ **إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا** } أي: إن كنتنّ تؤثرن ما في الحياة من الترف على الاشتغال بالطاعات والزهد. و{ **وَزِينَتَهَا** } عطف خاص على عام.

{ **فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً** } اسم فعل أمر بمعنى: أقبِلْنَ، وهو هنا مستعمل تمثيلا لحال تهيُّؤ الأزواج لأخذ التمتيع وسماع التسريح بحال من يحضر إلى مكان المتكلم. وقد مضى القول على (تعال) عند قوله تعالى { فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ } [آل عمران:61].

التمتيع: أن يعطي الزوج امرأته حين يطلّقها عطية جبرا لخاطرها لما يعرض لها من الانكسار. وتقدّم الكلام عليها مفصلا عند قوله { وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة:236].

السراح: الطلاق، وهو من أسمائه وصيغه، قال تعالى { فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:231].

الجميل: الحَسَن، بمعنى القَبول عند النفس، وهو الطلاق دون غضب ولا كراهية لأنّه طلاق مراعى فيه اجتناب تكليف الزوجة ما يشقّ عليها.

{ **وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ** } أي: إن كنتنّ تؤثرن الله على الحياة الدنيا، أي: تؤثرن رضى الله لما يريده لرسوله، فالكلام على حذف مضاف. وإرضاء الله: فعل ما يحبّه الله ويقرّب إليه. وإرادة رضى الرسول صلى الله عليه وسلم: فعل كل ما يرضي الرسول عليه الصلاة والسلام، وأوّ{ل ذلك أن يبقين في عشرته طيبات الأنفس. وإرادة الدار الآخرة: إرادة فوزها.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً** } جعل الجزاء على ذلك بالإحسان ليعلمن أن هذا الأجر حاصل لهنّ على قدر إحسانهنّ، فهذا وجه ذكر وصف المحسنات، وليس هو للاحتراز.

{ **أَعَدَّ** } في ذكر الإعداد إفادة العناية بهذا الأجر والتنويه به زيادة على وصفه بالعظيم.

وقد جاء في كتب السنة: " أنّه لما نزلت هذه الآية ابتدأ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعائشة فقال لها: **إنّي ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتّى تستأمري أبويك**، ثم تلا هذه الآية، فقالت عائشة: أفي هذا أستأمر أبويّ فإنّي أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وقال لسائر أزواجه مثل ذلك فقلن مثل ما قالت عائشة ".

{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً } [30]

تولّى الله خطابهنّ بعد أن أمر رسوله بتخييرهنّ، فخيَّرهنّ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فخاطبهنّ ربّهنَّ خطابا لأنّهنّ أصبحن على عهد مع الله تعالى أن يؤتيهنَّ أجرا عظيما.

وقد سمّاه عمر عهدا، فإنّه كان كثيرا ما يقرأ في صلاة الصبح سورة الأحزاب فإذا بلغ هذه الآية رفع بها صوته فقيل له في ذلك فقال: أذكِّرهنّ العهد.

{ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ** } نداؤهن للاهتمام بما سيلقى إليهن. وناداهن بوصف { نِسَاءَ النبيء } ليعلمن أن ما سيلقى إليهنّ خبر يناسب علوّ أقدارهن.

{ **مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** } لما كان الأجر الموعود منوطا بالإحسان أريد تحذيرهنّ من المعاصي بلوغا بهن إلى مرتبة الملكية مبالغة في التحذير إذ جعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهنّ عذابا مضاعفا.

الفاحشة: المعصية، قال تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } [الأعراف:33].

وكلّما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه.

المبيّنة: قرأها الجمهور بصيغة اسم الفاعل مبالغة في بيان كونها فاحشة ووضوحها حتّى كأنّها تبيّن نفسها. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء، أي: يبيّنها فاعلها.

المضاعفة: تكرير شيء ذي مقدار بمثل مقداره. وتقدّم في قوله تعالى { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ } [الأعراف:38].

{ **ضِعْفَيْنِ** } صيغة التثنية مستعملة في إرادة الكثرة كقوله تعالى { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك:4] لظهور أنّ البصر لا يرجع خاسئا وحسيرا من تكرّر النظر مرتين. والتثنية ترد في كلام العرب كناية عن التكرير، كقولهم: لبيك وسعديك، وقولهم: دواليك.

{ **وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** } معترضة، وتقدّم القول في نظيرها آنفا. والمعنى: أن الله يحقّق وعيده ولا يمنعه من ذلك أنّها زوجة نبيّ، قال تعالى { كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ - إلى قوله - فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [التحريم:10].

{وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً}[31]

أعقب الوعيد بالوعد جريا على سنة القرآن، كما تقدّم في المقدّمة العاشرة.

القنوت: الطاعة، والقنوت للرسول على طاعته واجتلاب رضاه، لأنّ في رضاه رضى الله تعالى، قال تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } [النساء:80].

{ **نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ** } أسند فعل إيتاء أجرهن إلى ضمير الجلالة بوجه صريح تشريفا لإيتائهن الأجر.

{ **أَجْرَهَا** } الضمير عائد إلى { مَنْ } باعتبار أنها صادقة على واحدة من نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وفي إضافة الأجر إلى ضميرها إشارة إلى تعظيم ذلك الأجر بأنّه يناسب مقامها، وإلى تشريفها بأنّها مستحقة ذلك الأجر.

{ **مَرَّتَيْنِ** } توفير الأجر وتضعيفه كما تقدّم في قوله تعالى { ضِعْفَيْنِ } [30]. ومضاعفة الأجر لهن على الطاعات كرامة لقدرهن، وهذه المضاعفة في الحالين من خصائص أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم لعظم قدرهن لأنّ زيادة قبح المعصية تتبع زيادة فضل الآتي بها. ودرجة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم عظيمة.

{ **وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً** } القول فيه كالقول في قوله تعالى { فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ } [29]. والعدول عن المضارع إلى الماضي إفادة تحقيق وقوعه.

الرزق الكريم: هو رزق الجنّة قال تعالى { كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً } [البقرة:25].

ووصفه بالكريم لأنّه أفضل جنسه. وتقدّم في قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً } [32]

{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ } أعيد خطابهن من جانب ربّهن وأعيد نداؤهن للاهتمام بهذا الخبر اهتماما يخصّه.

أحد: اسم بمعنى واحد مثل قوله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص:1]، وهمزته بدل من الواو. وأصله: وَحَد بوزن فَعَل، أي متوحِّد، كما قالوا: فرد بمعنى منفرد. فلما ثقل الابتداء بالواو شاع أن يقولوا: أحد، وأكثر ما يستعمل في سياق النفي، قال تعالى { فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } [الحاقة:47].

فإذا وقع في سياق النفي دل على نفي كل واحد من الجنس.

ونفي المشابهة هنا يراد به نفي المساواة مُكنًّى به عن الأفضلية على غيرهن. فالمعنى: أنتن أفضل النساء.

{ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ } التقييد ليس لقصد الاحتراز عن ضدّ ذلك وإنّما هو الهاب وتحريض على الازدياد من التقوى، وقريب من هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لحفصة: **" إنّ عبد الله** - يعني أخاها - **رجل صالح لو كان يقوم الليل "**، فلمّا أبلغت حفصة ذلك عبد الله بن عمر لم يترك قيام الليل بعد ذلك لأنّه علم أنّ المقصود التحريض على القيام.

{ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً } فُرّع على تفضيلهنّ وترفيع قدرهنّ إرشادهنّ إلى دقائق من الأخلاق قد تقع الغفلة عن مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، ولأنّها ذرائع خفيّة نادرة تفضي إلى ما لا يليق بحرمتهن.

{ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ } ابتدئ بالتحذير من هيئة الكلام، فإنّ الناس متفاوتون في لينه، والنساء في كلامهن رقة طبيعية وقد يكون لبعضهن من اللطافة ولين النفس ما إذا انضم إلى لينها الجبلّي قرُبت هيئته هيئة التدلّل لقلّة اعتياد مثله إلّا في تلك الحالة. فإذا بدا ذلك على بعض النساء ظنّ بعض من يشافهها من الرجال أنّها تتحبَّب إليه، فربّما اجترأت نفسه على الطمع في المغازلة فبدرت منه بادرة تكون منافية لحرمة المرأة، بله أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم اللاتي هنّ أمهات المؤمنين.

الخضوع: حقيقته التذلّل، وأُطلق هنا على الرقّة لمشابهتها التذلّل.

{ بِالْقَوْلِ } الباء يجوز أن تكون للتعدية، بمنزلة همزة التعدية، أي لا تُخضعن القول، أي تجعلنه خاضعا ذليلا، أي: رقيقا متفكِّكا. وموقع الباء هنا أحسن من موقع همزة التعدية لأنّ (باء) التعدية جاءت من (باء) المصاحبة. فلما كان التفكّك والتزيين للقول يتبع تفكّك القائل أسند الخضوع إليهن.

ويجوز أن تكون الباء بمعنى (في)، أي: لا يكن منكنّ لين في القول.

{ **فَيَطْمَعَ** } حذف المتعلِّق تنزُّها وتعظيما لشأن نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم مع قيام القرينة.
وانتصب { يَطْمَعَ } في جواب النهي بعد الفاء لأنّ المنهي عنه سبب في هذا الطمع.
{ **الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** } استعارة لاختلال الوازع الديني، مثل المنافقين ومن كان في أوّل الإيمان من الأعراب ممّن لم ترسخ فيه أخلاق الإسلام، وكذلك من تخلَّقوا بسوء الظنّ فيرمون المحصنات الغافلات.
وقضية إفك المنافقين على عائشة رضي الله عنها شاهد لذلك. وتقدم قوله { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة:10].
{ **وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً** } تذييل بمنزلة الاحتراس لئلّا يحسبنّ أنّ الله كلَّفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار.
المعروف: هو الذي يألفه الناس بحسب العرف العام، ويشمل القول المعروف هيئة الكلام، وهي التي سيق لها المقام، ويشمل مدلولاته.

{ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } [33]

{ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** } هذا أمر خَصِّصْنَ به وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرا لهن. وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأنّ نزول الوحي فيها وتردّد النبيّ صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة. وقد كان المسلمون لمّا ضاق عليهم المسجد النبوي يصلُّون الجمعة في بيوت أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم كما في حديث (الموطأ).
وهذا الحكم وجوب على أمّهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء.
وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف، لغة أهل الحجاز في قَرَّ بمعنى: أقام واستقر، يقولون: قرِرت في المكان (بكسر الراء) من باب (علم) فيجيء مضارعه بفتح الراء فأصل قَرْنَ: اقْرَرْنَ
وقرأ بقية العشرة { وَقِرْنَ } بكسر القاف. قال المبرد: هو من القرار، أصله: اقْرِرن (بكسر الراء الأولى).
{ **بُيُوتِكُنَّ** } إضافة البيوت إليهن لأنّهن ساكنات بها أسكنهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم يميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حُجرة عائشة، وبيت حفصة. فهذه الإضافة كالإضافة في قوله تعالى { لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ } [الطلاق:1]. وذلك أن زوج الرجل هي ربّة بيته، والعرب تدعو الزوجة البيت.
ولا يقتضي ذلك أنّها ملك لهنّ لأنّ البيوت بناها الرسول صلى الله عليه وسلم تباعا تبعا لبناء المسجد، ولذلك لمّا توفيّت الأزواج كلّهن أدخلت ساحة بيوتهنّ إلى المسجد في التوسعة التي وسّعها الخليفة الوليد بن عبد الملك في إمارة عمر بن عبد العزيز على لمدينة ولم يُعطِ عوضا لورثتهنّ.

وهذه الآية تقتضي وجوب مكث أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيوتهنّ وأن لا يخرجهن إلّا لضرورة.
وجاء في الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" إنّ الله أذن لكنّ أن تخرجن لحوائجكنّ "**.
ومحمل هذا الأمر على ملازمة بيوتهن فيما عدا ما يضطر فيه الخروج مثل موت الأبوين. وقد خرجت عائشة إلى بيت أبي بكر في مرضه الذي مات فيه. وكنّ يخرجن للحج، وفي بعض الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّ مقر النبيّ صلى الله عليه وسلم في أسفاره قائم مقام بيوته في الحضر.
وأبت **سودة** أن تخرج إلى الحجّ والعمرة بعد ذلك. ولذلك لمّا مات سعد بن أبي وقاص أمرت **عائشة** أن يُمَرَّ عليها بجنازته في المسجد لتدعو له، أي: لتصلي عليه. رواه في الموطأ.
وقد أشكل على الناس خروج عائشة إلى البصرة في وقعة الجمل، والذي عليه المحقّقون مثل أبي بكر بن العربي أنّ ذلك كان منها عن اجتهاد، فإنّها رأت أن في خروجها إلى البصرة مصلحة للمسلمين تسعى بين فريقي الفتنة بالصلح أخْذًا بقوله تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بينهما } [الحجرات:9]، ورأت أنّ الأمر بالإصلاح يشملها وأمثالها ممّن يرجون سماع الكلمة، فكان ذلك منها عن اجتهاد.
{ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى }
التبرج: إظهار المرأة محاسن ذاتها وثيابها وحليّها بمرأى الرجال. وتقدّم في قوله تعالى { غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ } [النور:60].
والمقصود من النهي الدوام على الانكفاف عن التبرج وأنّهنّ منهيات عنه. وفيه تعريض بنهي غيرهنّ من المسلمات عن التبرّج.
{ **الْجَاهِلِيَّةِ** } المدّة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، وتأنيثها لتأويلها بالمدّة. والجاهلية نسبة إلى الجاهل لأنّ الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، وتقدّم عند قوله تعالى { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154].
{ **الْأُولَى** } وصف كاشف لأنّها أولى قبل الإسلام وجاء الإسلام بعدها، فهو كقوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [النجم:50]، وكقولهم: العشاء الآخرة، وليس ثمة جاهليتان أولى وثانية.
ومن المفسّرين من جعلوه وصفا مقيّدا وجعلوا الجاهلية جاهلتين، ووضعوا حكايات في ذلك مختلفة أو مبالغا فيها أو في عمومها، وكلّ ذلك تكلّف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقييد.
{ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } أريد بهذه الأوامر الدوام عليها لأنّهنّ متلبِّسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أنّ المقرّبين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حقّ توجّه التكليف عليهم. وفي هذا مقمع لبعض المتصوّفين الزاعمين أنّ الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم تكاليف الشرعية.

{ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** } متصل بما قبله إذ هو تعليل لما تضمَّنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداء من قوله تعالى { يَا نِسَاءَ النبيء مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ } [30] .

فالمعنى: أمركنّ الله بما أمر ونهاكنّ عمّا نهى لأنه أراد لكنّ تخلية عن النقائص والتحلية بالكمالات. وهذا التعليل وقع معترضا بين الأوامر والنواهي المتعاطفة.

{ **لِيُذْهِبَ** } واستعير الإذهاب للإنجاء والإبعاد. وفي التعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدّد الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمرا قدره إذ لا راد لإرادته.

{ **عَنْكُمُ - وَيُطَهِّرَكُمْ** } وإنّما جيء بالضميرين بصيغة جمع المذكر على طريقة التغليب لاعتبار النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب. وفي هذا التغليب إيماء إلى أنّ هذا التطهير لهنّ لأجل مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهو نظير قوله في قصة إبراهيم { رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } [هود: 73].

{ **الرِّجْسَ** } في الأصل: القذَر الذي يلوّث الأبدان، واستعير هنا للذنوب والنقائص الدينية لأنّها تجعل عرض الإنسان في الدنيا والآخرة مرذولا مكروها كالجسم الملوث بالقذر. وتقدم في قوله تعالى { رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } [المائدة:90]. واستعير التطهير لضد ذلك وهو تجنيب الذنوب والنقائص.

{ **أَهْلَ الْبَيْتِ** } أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم، والخطاب موجّه إليهن وكذلك ما قبله وما بعده، لا يخالط أحدا شك في ذلك، ولم يفهم منها أصحاب النبيّ عليه الصلاة والسلام والتابعون إلّا أنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم هن المراد بذلك وأنّ النزول في شأنهن.

وأمّا ما رواه الترمذي عن عطاء بن أبي رباح عن عمر بن أبي سلمة قال: لما نزلت على النبيّ { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } في بيت أم سلمة دعا فاطمة وحَسَنا وحُسينا فجلّلهم بكساء وعليٌّ خلف ظهره فجلَّلهم بكساء ثم قال: " **اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا** ". [قال الترمذي: هو حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة].

وفي صحيح مسلم عن عائشة: خرج رسول الله غداة وعليه مِرط مرحل فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله قال { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }. وهذا أصرح من حديث الترمذي.

فمحمله أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ألحق أهل الكساء بحكم هذه الآية وجعلهم أهل بيته، كما ألحق المدينة بمكة في حكم الحَرَمية بقوله: " **إنّ إبراهيم حرّم مكة وإنّي أحرم ما بين لابيتها** ".

وبهذا يتضح أنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم هن آل بيته بصريح منسوب إليه بذلك الآية وأنّ فاطمة وابنيها وزوجها مجعولون أهل بيته بدعائه أو بتأويل الآية على محاملها. ولذلك هم أهل بيته بدليل السنة وكل أولئك قد أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، بعضه بالجعل الإلهي وبعضه بالجعل النبوي ومثله قول

النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" سلمان منا أهل البيت "** .
وقد تلقّف الشيعة حديث الكساء فغصبوا وصف أهل البيت وقصروه على فاطمة وزوجها وابنيهما عليهم الرضوان، وزعموا أنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم لسن من أهل البيت. وهذه مصادمة للقرآن بجعل هذه الآية حشوا بين ما خوطب به أزواج النبيّ. وليس في لفظ حديث الكساء ما يقتضي قصر هذا الوصف على أهل الكساء.
وأمّا ما وقع من قول عمر بن أبي سلمة أنّ أم سلمة قالت: وأنا معهم يا رسول الله؟ فقال: **" أنت على مكانك وأنت على خير"**. فقد وهم فيه الشيعة فظنّوا أنه منعها من أن تكون من أهل بيته، وهذه جهالة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم إنّما أراد أن ما سألته من الحاصل لأنّ الآية نزلت فيها وفي ضرائرها فليست هي بحاجة إلى إلحاقها بهم، فالدعاء لها بأن يذهب الله عنها الرجس ويطهرها دعاء بتحصيل أمر حصل، وهو مناف بآداب الدعاء كما حرّره شهاب الدين القرافي في الفرق بين الدعاء المأذون فيه والدعاء الممنوع منه، فكان جواب النبيّ صلى الله عليه وسلم تعليما لها. وقد وقع في بعض الروايات أنه قال لأم سلمة: **" إنك من أزواج النبيّ "**. وهذا أوضح في المراد بقوله: **" إنك على خير"**.

{ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً } [34]

أمرهنّ بالتزوّد من علم الشريعة بدراسة القرآن ليجمع ذلك اهتداءهن في أنفسهن ازديادًا في الكمال والعلم، وإرشادهنّ الأمّة إلى ما فيه صلاح لها من علم النبيّ صلى الله عليه وسلم.
{ **اذْكُرْنَ** } يجوز أن يكون من الذُّكر (بضم الذال) وهو التذكُّر، وهذه كلمة جامعة تشمل المعنى الصريح منه، وهو أن لا ينسين ما جاء في القرآن ولا يغفلن عن العمل به، ويشمل المعنى الكنائي وهو أن يراد مراعاة العمل بما يتلى في بيوتهن ممّا ينزل فيها وما يقرأه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها، وما يبيّن فيها من الدين، ويشمل معنى كنائيًّا ثانيا وهو تذكّر تلك النعمة العظيمة أن كانت بيوتهنّ موقع تلاوة القرآن.
ويجوز أن يكون من الذِكر (بكسر الذال)، وهو إجراء الكلام على اللسان، أي: بأن يقرأن القرآن ويبلِّغن أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم وسيرته. وفيه كناية عن العمل به أيضا.
التلاوة: القراءة، أي: إعادة كلام مكتوب أو محفوظ، أي: ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم.
{ **مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** } بيان لما يتلى، فكلّ ذلك متلو، وذلك القرآن، وقد بين المتلو بشيئين:
آيات الله: يعمّ القرآن كلّه، لأنّه معجز عن معارضته فكان آية على أنّه من عند الله.
{ **وَالْحِكْمَةِ** } عطف خاص على عام، وهو ما كان من القرآن مواعظ وأحكاما شرعية، قال تعالى بعد ذكر جملة من الأحكام { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } [الإسراء:39].

ولم يزل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم يرجعون إلى أمّهات المؤمنين في كثير من أحكام النساء ومن أحكام الرجل مع أهله.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً** } تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة. والتعليل صالح لمحامل الأمر كلّها لأنّ اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشق على المُسدَى إليه.

{ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** } [35]

<u>يجوز</u> أن تكون هذه الجملة استئنافا بيانيا على عادة القرآن إذا ما ذكر مأمورات يعقبها بالتذكير بحال أمثالها أو بحال أضدادها. <u>ويجوز</u> أن تكون استئنافا ابتدائيا ورد بمناسبة ما ذكر من فضائل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم.

روى النسائي وأحمد: أنّ أم سلمة قالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فالمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة النساء، وأمّا ذكر الرجال فللإشارة إلى أنّ الصنفين في هذه الشرائع سواء ليعلموا أنّ الشريعة لا تختصّ بالرجال. ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرّر أصل التسوية فأغنى عن التنبيه عليه في معظم أقوال القرآن والسنّة، ولعلّ هذا هو وجه تعدّد الصفات المذكورة لئلا يُتوهّم التسوية في خصوص صفة واحدة.

وسلك مسلك الإطناب في تعداد الأوصاف لأنّ المقام لزيادة البيان لاختلاف أفهام الناس في ذلك، على أنّ في هذا التعداد إيماء إلى أصول التشريع كما سنبيّنه في آخر تفسير هذه الآية.

وبهذه الآثار يظهر اتصال هذه الآيات بالتي قبلها. وبه يظهر وجه تأكيد هذا الخبر بحرف { إِنَّ } لدفع شك من شك في هذا الحكم من النساء.

{ **الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ** } الإسلام بالمعنى الشرعي هو شهادة أن لا أله إلّا الله وأنّ محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجّ البيت، ولا يعتبر إسلاما إلّا مع الإيمان. وتقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132].

{ **وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } الإيمان: أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقدر خيره

وشره. وتقدّم الكلام على الإيمان في أوائل سورة البقرة.

{ **والقانتين والقانتات** } أصحاب القنوت، وهو الطاعة لله وعبادته، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } [31].

{ **وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ** } من حصل منهم صدق القول، وهو ضد الكذب، والصدق كلّه حسن والكذب لا خير فيه إلّا لضرورة. وشمل ذلك الوفاء بما يلتزم به من أمور الديانة كالوفاء بالعهد والوفاء بالنذر، وتقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا } [البقرة:177].

{ **وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ** } أهل الصبر. والصبر محمود في ذاته لدلالته على قوّة العزيمة، ولكن المقصود هنا هو تحمّل المشاق في أمور الدين، وتحمّل المكاره في الذبّ عن الحوزة الإسلامية، وتقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا } [آل عمران:200].

{ **وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ** } أهل الخشوع، وهو الخضوع لله والخوف منه، وهو يرجع إلى معنى الإخلاص بالقلب فيما يعمله المكلّف. ومطابقة ذلك لما يظهر من آثاره على صاحبه. وتقدّم في قوله تعالى { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } [البقرة:45].

{ **وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ** } من يبذل الصدقة من ماله للفقراء، وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ } [النساء:114].

{ **وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ** } لما في الصيام من تخلّق برياضة النفس لطاعة الله إذ يترك المرء ما هو جبلّي من الشهوة تقرّبا إلى الله.

{ **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** } وهذا الحفظ له حدود سنّتها الشريعة، فالمراد: حفظ الفروج على أن تُستعمل فيما نُهي عنه شرعا، وليس المراد حفظها عن الاستعمال أصلا، وهو الرهبنة، فإنّها مدحوضة في الإسلام بأدلة متواترة المعنى.

{ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ** } فهو وصف صالح لأن يكون <u>من الذِكر</u> (بكسر الذال) وهو ذكر اللسان كالذي في قوله تعالى { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } [البقرة: 152] وقوله في الحديث: **" ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي "**، <u>ومن الذُكر</u> (بضمّها) كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ } [34]، والذي في قوله تعالى { ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } [آل عمران:135].

وقد اشتملت هذه الخصال العشر على جوامع فصول الشريعة كلّها.

<u>الإسلام:</u> يجمع قواعد الدين الخمس المفروضة التي هي أعمال.

الإيمان: يجمع الاعتقادات القلبية المفروضة.
القنوت: يجمع الطاعات كلّها مفروضها ومسنونها، وترك المنهيات والإقلاع عنها ممّن هو مرتكبها، وهو معنى التوبة، فالقنوت هو تمام الطاعة، فهو خير مساوٍ للتقوى.
فهذه { الإسلام – الإيمان – القنوت) جوامع شرائع المكلّفين في أنفسهم.
الصدق: يجمع كلّ عمل هو في موافقة القول والفعل للواقع في القضاء والشهادة والعقود والالتزامات وفي المعاملات بالوفاء بها وترك الخيانة، ومطابقة الظاهر للباطن في المراتب كلّها. ومن الصدق صدقُ الأفعال.
الصبر: جامع لما يختصّ بتحمّل المشاق من الأعمال كالجهاد والحسبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومناصحة المسلمين وتحمّل الأذى في الله، وهو خُلق عظيم هو مفتاح أبواب محامد الأخلاق والآداب والإنصاف من النفس.
الخشوع: الإخلاص بالقلب الظاهر، وهو الانقياد وتجنّب المعاصي. ويدخل في الإحسان، وهو المفسَّر في حديث جبريل " **أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك** ". ويدخل تحت ذلك جميع القرب والنوافل فإنّها من آثار الخشوع، ويدخل فيه التوبة ممّا أقترفه المرء من الكبائر، إذ لا يتحقّق الخشوع بدونها.
التصدُّق: يحتوي جميع أنواع الصدقات والعطيّات وبذل المعروف والإرفاق.
الصوم: عبادة عظيمة فلذلك خُصِّصت بالذكر مع أن الفرض منه مشمول للإسلام ، فالتصريح بذكر الصوم تنويه به، وفي الحديث: " **قال تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به** ".
حفظ الفروج: أريد به حفظها عمّا ورد الشرع بحفظها عنه، وقد اندرج في هذا جميع أحكام النكاح وما يتفرّع عنها وما هو وسيلة لها.
ذكر الله: كما علمت له محملان:
المحمل الأوّل: ذكره اللساني فيدخل فيه قراءة القرآن وطلب العلم ودراسته. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " **ما أجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده** " ، ففي قوله: " **وذكرهم الله** " إيماء إلى أنّ الجزاء من جنس عملهم، فدلّ على أنّهم كانوا في شيء من ذكر الله وقد قال تعالى { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } [البقرة:152]، وقال فيما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم " **وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم** " وشمل ما يذكر عقب الصلوات ونحو ذلك من الأذكار.
المحمل الثاني: الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره ونهيه كما قال عمر بن الخطاب: " أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه "، وهو الذي في قوله تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } [آل عمران:135] فدخل فيه التوبة ودخل فيها الارتداع عن المظالم كلّها.

وممّا يوضح شموله بالشرائع كلها تقييده بـ { كَثِيراً } لأنّ المرء إذا ذكر الله كثيرا فقد استغرق المحملين.
{ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** } ذلك هو الجزاء إذا كان الاتصاف بهذه الصفات جاريا على ما حدّده الشرع في تفاصيلها.
المغفرة: عدم المؤاخذة بما فرط من الذنوب، وقد تقدّمت في قوله تعالى { وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الأعراف:23].

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً } [36]

معظم الروايات على أنّ هذه الآية نزلت في شأن خِطبة زينب بنت جحش على زيد بن حارثة. قال ابن عباس: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على فتاه زيد ابن حارثة زينبَ بنت جحش فاستنكفت وأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فأنزل الله تعالى { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ }، فتابعته ورضيت، لأنّ تزويج زينب يزيد بن حارثة كان قبل الهجرة فتكون هذه الآية نزلت بمكّة ويكون موقعها في هذه السورة التي هي مدنية إلحاقًا لها بها لمناسبة أن تكون مقدّمة لذكر تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب الذي يظهر أنه وقع بعد وقعة الأحزاب، وقد علم الله ذلك من قبل فقدّر له الأحوال التي حصلت من بعد.
والمناسبة تعقيب الثناء على أهل خصال هي من طاعة الله، بإيجاب طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم فلمّا أعقب ذلك بما في الاتصاف بما هو من أمر الله مّما يكسب موعوده من المغفرة والأجر، وسوَّى في ذلك بين النساء والرجال، أعقبه بيان أنّ طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به هي طاعة واجبة وأنّها ملحقة بطاعة الله، وأنّ صنفي الناس الذكور والنساء في ذلك سواء كما كانا سواء في الأحكام الماضية.
{ **إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً** } قضاء الأمر تبيينه والإعلام به، قال تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ } [الحجر:66]. أي: إذا عزم أمره ولم يجعل للمأمور خيارا في الامتثال، فهذا الأمر هو الذي يجب على المؤمنين امتثاله.
وذكر اسم الجلالة هنا للإيماء إلى أنّ طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة لله، قال تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } [النساء:80].
{ **الْخِيَرَةُ** } اسم مصدر تخيَّر، وتقدّم في قوله تعالى { مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } [القصص:68].
{ **أَمْرِهِمْ** } بمعنى شأنهم. والمعنى: ما كان اختيار بعض شؤونهم ملكا يملكونه بل يتعيّن عليهم اتباع ما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا خيرة لهم فيه.

{ **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً** } تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام سواء فيما هو فيه الخيرة أم كان عن عمد للهوى في المخالفة.

{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً } [37]

{ **إِذْ** } اسم زمان مفعول لفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة.
{ **لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ** } زيد بن حارثة هو المعني، فالله أنعم عليه بالإيمان والخلاص من أيدي المشركين بأن يسّر دخوله في ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرسول عليه الصلاة والسلام أنعم عليه بالعتق والتبنّي والمحبّة. وتقدّمت قصّته عند تفسير قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4].
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّجه أم أيمن مولاته فولدت له أسامة بن زيد وطلّقها. ثم إنّ رسول اله صلى الله عليه وسلم زوّجه زينب بنت جحش الأسدي حليف آل عبد شمس وهي ابنة عمّته أميمة بنت عبد المطلب وهو يومئذ بمكّة. ثم بعد الهجرة آخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ولمّا بطل حكم التبنّي بقوله تعالى { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4] صار يُدعى: حِبَّ رسول الله. وفي سنة خمس قبل الهجرة بعد غزوة الخندق طلق زيد بن حارثة زينب بنت جحش فزوّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط وأمّها البيضاء بنت عبد المطلب وولدت له زيد بن زيد ورقيّة ثم طلقها، وتزوّج درّة بنت أبي لهب، ثم طلّقها وتزوّج هند بنت العوام أخت الزبير.
وشهد زيد بدرا والمغازي كلّها. وقُتل في غزوة مؤتة سنة ثمان وهو أمير على الجيش وهو ابن خمس وخمسون سنة.
{ **لِلَّذِي** } التعبير عن زيد بن حارثة هنا بالموصول دون اسمه العلم الذي يأتي في قوله { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ }، لما تُشعر به الصلة المعطوفة، وهي { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ }، من تنزّه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن استعمال ولائه لحمله على تطليق زوجه، فالمقصود هو الصلة الثانية وهي { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ }، لأنّ المقصود منها أنّ زيدا أخصّ الناس به، وأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام احرص على صلاحه.
{ **أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ** } وزوج زيد المذكورة في الآية هي زينب بنت جحش الأسدية وكان اسمها بَرَّة، فلمّا تزوّجها النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّاها زينب، وأبوها جحش من بني أسد بن خزيمة وكان أبوها حليفا لآل

عبد شمس بمكة وأمّها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجها زيد بن حارثة في الجاهلية ثم طلقها بالمدينة، وتزوّجها النبيّ صلى الله عليه وسلم سنة خمس، وتوفيت سنة عشرين من الهجرة وعمرها ثلاث وخمسون سنة، فتكون مولودة سنة ثلاث وثلاثين قبل الهجرة، أي: سنة عشرين قبل البعثة.

واعلم أنّ المأثور الصحيح في هذه الحادثة: أنّ زيد بن حارثة بقيت عنده زينب سنين فلم تلد له فكان إذا جرى بينه وبينها ما يجري بين الزوجين تارة من خلاف أدلّت عليه بسؤددها وغضَّت منه بولايته، فلمّا تكرّر ذلك عزم على أن يطلّقها وجاء يعلم رسول الله بعزمه على ذلك لأنّه تزوّجها من عنده.

وروي عن علي زين العابدين: أنّ الله أوحى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سينكح زينب بنت جحش.

وعن الزهري: نزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم يعلمه أنّ الله زوّجه زينب بنت جحش.

والظاهر عندي: أنّ ذلك كان في الرؤيا، كما كان الشأن مع عائشة، حيث قال لها: **" أتاني بك المَلَك في المنام في سرَقة من حرير يقول لي: هذه امرأتك فأكشف، فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه ".**

فقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لزيد { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } توفية بحقّ النصيحة، وهو أمر نصح وإشارة بخير لا أمر تشريع، ولذلك لا يعدّ تصميم زيد على طلاق زينب عصيانا للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ أمره في ذلك كان على وجه التوفيق بينه وبين زوجه. كما في حديث بريرة مع زوجها مغيث إذ قال لها: **" لو راجعته؟** فقالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: **لا، إنّما أنا أشفع**، قالت: لا حاجة لي فيه ".

والقول يؤذن بأنّه جواب عن كلام صدر من زيد بأن جاء مستشيرا في فراق زوجه، أو معلما بعزمه على فراقها.

{ **أَمْسِكْ عَلَيْكَ** } معناه: لازم عشرتها، فالإمساك مستعار لبقاء الصحبة.

{ **وَاتَّقِ اللَّهَ** } أمره بتقوى الله تابع للإشارة بإمساكها، أي: اتق الله في عشرتها كما أمر الله، ولا تحد عن واجب حسن المعاشرة، بملاحظة قوله تعالى { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:229].

{ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** } عطف على جملة { تَقُولُ }. والإتيان بالمضارع للدلالة على تكرّر إخفاء ذلك وعدم ذكره. والذي في نفسه علْمه بأنّه سيتزوّج زينب وأن زيدا يطلّقها، وذلك سرّ بينه وبين ربّه ليس ممّا يجب عليه تبليغه ولا ممّا للناس فائدة من علمه حتّى يبلِّغوه، ألا ترى أنّه لم يُعلم عائشة ولا أباها برؤيا إتيان الملك بها في سرَقة حرير إلّا بعد أن تزوجها.

{ وَتَخْشَى النَّاسَ } عطف على جملة { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ }، أي تخفي ما سيبديه الله وتخشى الناس من إبدائه.
الخشية هنا كراهية ما يرجف به المنافقون، والكراهة من ضروب الخشية، فليست هي خشية خوف. والنبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتوسّم من خبثهم وسوء طويّتهم ما كان منهم في قضية الإفك.
أي: تخشى المنافقين أن يؤذوك بأقوالهم.
ولم تكن خشيةً تبلغ به مبلغ صرفه عمّا يرغبه بدليل أنّه لم يتردّد في تزوّجها بعد طلاقها.
{ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } معترضة لمناسبة جريان ذكر خشية الناس، والواو اعتراضية وليست واو الحال، فمعنى الآية معنى قوله تعالى { فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ } [المائدة:44].
وحملها على معنى الحال هو الذي حمل كثيرا من المفسّرين على جعل الكلام عتابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وليس الأمر كذلك، ولكنّه تشجيع له وتحقير لأعداء الدين، وتعليم له بأن يمضي في سبيله، وأنّ عليه أن يُعرض عن قول المنافقين. فهذا جوهر ما أشارت إليه الآية وليس فيها ما يشير إلى غير ذلك.
{ أَحَقُّ } اسم تفضيل مسلوب المفاضلة فهو بمعنى حقيق، إذ ليس في الكلام السابق ما يفيد وقوع إيثار خشية الناس على خشية الله ولا ما يفيد تعارضا بين الخشيتين حتّى يحتاج إلى ترجيح خشية الله على خشية الناس.
المعنى: والله حقيق بأن تخشاه.
وبهذا تعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ما فعل إلّا ما يرضي الله، وقد قام بعمل الصاحب الناصح حين أمر زيدا بإمساك زوجه، وانطوى على علم صالح حين خشي ما سيفترضه المنافقون من القالة إذا تزوّج زينب.
وقد رُويت في هذه القصة أخبار مخلوطة، فإيّاك أن تتسرّب إلى نفسك منها أغلوطة. ولسوء فهم الآية كبر أمرها على بعض المسلمين واستفزت كثيرا من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب. وقد تصدّى أبو بكر بن العربي في (الأحكام) لوهن أسانيدها وكذلك عياض في (الشفاء).
{ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً }.
تفريع على الجملة السابقة، وقد طوي كلام يدل عليه السياق، وتقديره: فلم يقبل منك ما أشرت عليه ولم يمسكها.
{ قَضَى } استوفى وأتمّ. واسم { زَيْدٌ } إظهار في مقام الإضمار للتنويه بشأن زيد.
قال القرطبي: قال السهيلي: " كان يُقال له زيد بن محمد فلمّا نُزع عنه هذا الشرف حين نزل { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ} [5] وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهي أن سمّاه في القرآن ".
الوطر: الحاجة المهمّة والنهمة.

المعنى: فلما استتم زيد مدة معاشرة زينب فطلقها، أي: فلمّا لم يبق له وطر منها.

{ **زَوَّجْنَاكَهَا** } أذِنَّا لك بأن تتزوجها، وكانت زينب أيِّمًا فتزوّجها الرسول عليه الصلاة والسلام برضاها.

فلما أمره الله بتزوجها قال لزيد بن حارثة: ما أجد في نفسي أوثق منك فاخطب عليّ، قال زيد: فجئتها فولّيتها ظهري توقيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت: يا زينب أرسل رسول الله يذكرك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتّى أُوامر ربي، وقامت إلى مسجدها وصلَّت صلاة الاستخارة، فرضيت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فبنى بها. وكانت زينب تفخر على نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقول: زوجكن آباؤكنّ وزوّجني ربّي. وهذا يقتضي أنّه لم يتول أخوها أبو أحمد تزويجها.

فتكون هذه خصوصية للنبيّ صلى الله عليه وسلم عند الذين يشترطون الولي في النكاح كالمالكية.

ولم يُذكر في الروايات أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام أصدقها فعدّه بعض أهل السير من خصوصياته صلى الله عليه وسلم، فيكون في تزوّجها خصوصيّتان نبويَّتان.

{ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً** } أشار إلى حكمة هذا التزويج وهي إبطال الحرج الذي كان يتحرّجه أهل الجاهلية من أن يتزوّج الرجل زوجة دعيّه، فلما أبطله الله بالقول إذ قال { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4] أكّد إبطاله بالفعل حتّى لا يبقى أدنى أثر من الحرج أن يقول قائل: إنّ ذاك وإن صار حلالا فينبغي التنزّه عنه لأهل الكمال، فاحتيط لانتفاء ذلك بإيقاع التزوّج بامرأة الدعيّ من أفضل الناس وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **لِكَيْ** } الجمع بين اللام وكي توكيد للتعليل، كأنّه يقول: ليست العلّة غير ذلك.

<u>ودلّت الآية على أنّ الأصل في الحكام التشريعية أن تكون سواء بين النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمّة حتى يدل دليل على الخصوصية.</u>

{ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** } تذييل. و**أمر الله** <u>يجوز</u> أن يراد به من إباحة تزوّج من كنّ حلائل الأدعياء، فهو معنى الأمر التشريعي فيه. ومعنى { مَفْعُولاً } أنه مُتَّبع مُمتَثل فلا ينزّه أحد عنه، قال تعالى { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ } [الأعراف:32].

<u>ويجوز</u> أن يراد <u>الأمر التكويني</u>، وهو ما علم أنّه يكون وقدّر أسباب كونه، فيكون معنى {مَفْعُولاً} واقعا.

{ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً** [38] **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً** [39] }.

استئناف لزيادة بيان مساواة النبيّ صلى الله عليه وسلم للأمّة في إباحة تزوّج مطلقة دعيّه، وبيان أنّ ذلك لا يُخِلُّ بصفة النبوّة، لأنّ تناول المباحات من سنّة الأنبياء قال تعالى { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً } [المؤمنون: 51]، وأنّ النبيّ إذا رام الانتفاع بمباح لميل نفسه إليه ينبغي له أن يتناوله لئلّا يجاهد نفسه فيما لم يؤمر بمجاهدة النفس فيه، لأنّ الأليق به أن يستبقي عزيمته ومجاهدته لدفع ما أُمر بتجنّبه.

وفي هذا الاستئناف ابتداء لنقض أقوال المنافقين: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّج امرأة ابنه.

{ **فَرَضَ اللَّهُ لَهُ** } قدّره، إذ أذنه بفعله. وتعدية فعل { فَرَضَ } بالـ (لام) تدلّ على هذا المعنى بخلاف تعديه بحرف (على) كقوله تعالى { قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ } [50].

{ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ** } أي: أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم متّبع سنة الأنبياء الذين سبقوه اتباعا لما فرض الله له كما فرض لهم، أي: أباح.

{ **الَّذِينَ خَلَوْا** } الأنبياء بقرينة سياق لفظ النبيّ. وقد زاده بيانا قوله { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ }. فالأنبياء كانوا متزوِّجين وكان لكثير منهم عدّة أزواج، وكان بعض أزواجهم أحبّ إليهم من بعضهنّ.

{ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً** } اعتراض أو تذييل، والقول فيه مثل نظيره المتقدّم آنفا.

القَدَر: (بفتح الدال) إيجاد الأشياء على صفة مقصودة، وهو مشتقّ من **القَدْر** (بسكون الدال) وهو الكمّيّة المحددة المضبوطة، وتقدّم في قوله تعالى { فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } [الرعد:17] وقوله تعالى { وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } [الحجر:21]. ولمّا كان من لوازم هذا المعنى أن يكون مضبوطا محكما كثرت الكناية بالقدر عن الإتقان والصدور عن العلم. ومنه حديث: **" كلّ شيء بقضاء وقدر "**، أي: من الله.

واصطلح علماء الكلام: أنّ القدر اسم للإرادة الأزلية المتعلّقة بالأشياء على ما هي عليه، ويطلقونه على الشيء الذي تعلّق به القدر، وهو المقدور، كما في هذه الآية.

فالمعنى: وكان أمر الله مقدَّرا على حكمة أرادها الله تعالى من ذلك الأمر، فالله لمّا أمر رسوله عليه الصلاة السلام بتزوّج زينب التي فارقها زيد كان عالما بأنّ ذلك لائق برسوله عليه الصلاة والسلام.

{ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ** } جيء بالموصول دون اسم الإشارة أو الضمير لما في هذه الصلة من إيماء إلى انتفاء الحرج عن الأنبياء في تناول المباح، وأنّ الله أراد منهم تبليغ الرسالة وخشيته، بتجنب ما نهى عنه، ولم يكلِّفهم إشقاق نفوسهم بترك الطيّبات التي يريدونها، ولا كلَّفهم

مراعاة أميال الناس ومصطلحاتهم وعوائدهم الراجعة إلى الحيدة بالأمور عن مناهجها، ولذلك عقّب بقوله تعالى { **وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ** }، أي: لا يخشون أحدا خشية تقتضي فعل شيء أو تركه.

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً** } إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار، حيث تقدم ذكره، لقصد أن تكون هذه الجملة جارية مجرى المثل والحكمة.

{ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [40]

استئناف للتصريح بإبطال أقوال المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وما يلقيه اليهود في نفوسهم من الشك.

وهو ناظر إلى قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4]. والغرض من هذا العموم قطع توهّم أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولد من الرجال تجري عليه أحكام البنوّة.

{ **مِنْ رِجَالِكُمْ** } وصف لـ { أَحَدٍ }، وهو احتراس، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بنات. والمقصود: نفي أن يكون أبا لأحد من الرجال في حين نزول الآية لأنّه كان ولد له ولدان بمكة من خديجة الطيب أو الطاهر والقاسم، وولد له إبراهيم بالمدينة من مارية القبطية، وكلّهم ماتوا صبيانا.

والمنفي هو وصف الأبوّة المباشرة لأنّها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم، فلا التفات إلى كونه جدا للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها، إذ ليس ذلك بمقصود. ولا يخطر ببال أحد نفي أبوّته لهم، بمعنى الأبوّة العليا.

{ **وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ** } استدراك لرفع ما قد يُتوهَّم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبرّ بينه وبين الأمة، فذُكِّروا بأنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو كالأب لجميع أمّته في شفقته ورحمته بهم، وفي برّهم وتوقيرهم إيّاه، شأن كلّ نبيّ مع أمته.

{ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** } معطوفة على صفة { رَسُولَ اللَّهِ } تكميل وزيادة في التنويه بمقامه صلى الله عليه وسلم، وإيماء إلى أنّ في انتفاء أبوّته لأحد من الرجال حكمة قدّرها الله تعالى وهي إرادة أن لا يكون إلّا مثل الرسل أو أفضل في جميع خصائصه.

وإذا قد كان الرسل لم يخل عمود أبنائهم من نبيّ، كان كونه خاتم النبيّين مقتضيا أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنّهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع عليهم خلعة النبوّة، لأجل ختم النبوّة به، كان ذلك غضًّا فيه دون سائر الرسل، وذلك ما لا يريده الله به. ألا ترى أنّ الله لما أراد قطع النبوّة من بني إسرائيل بعد عيسى عليه السلام صرف عيسى عن التزوّج.

{ **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** } تظهر حكمته فيما قدّره من الأقدار.

والآية نصّ في أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيّين وأنّه لا نبيّ بعده. وقد اجمع الصحابة على أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل والأنبياء وعُرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم، ولذلك لم يتردّدوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي، فصار معلوما من الدين بالضرورة، فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفا بأنّ محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله للنّاس كلهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً [41] وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [42] }.

استئناف ابتدائي، وفيه إقبال على مخاطبة المؤمنين بأن يشغلوا ألسنتهم بذكر الله وتسبيحه، أي: أن يمسكوا عن مماراة المنافقين أو عن سبّهم فيما يرجفون به في قضية تزوّج زينب، وهذا كقوله { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً } [البقرة:200]، أي: خيرا من التفاخر بذكر آبائكم وأحسابكم. فذلك أنفع لهم وأبعد عن أن تثور بين المسلمين والمنافقين ثائرة فتنة في المدينة. وفيه تسجيل على المنافقين بأنّ خوضهم في ذلك بعد هذه الآية علامة على النفاق، لأنّ المؤمنين لا يخالفون أمر ربّهم.

الذكر: ذكر اللسان، وهو المناسب لموقع الآية بما قبلها وبعدها.

التسبيح: يجوز أن يراد به الصلوات النوافل، فليس هو من عطف الخاص على العام. ويجوز أن يكون المأمور به من التسبيح قول: سبحان الله، فيكون من عطف الخاص على العام اهتماما بالخاص، لأنّ معنى التسبيح التنزيه عمّا لا يجوز على الله من النقائص، فهو من أكمل الذكر لاشتماله على جوامع الثناء والتمجيد، ولأنّ في التسبيح إيماء إلى التبرُّؤ ممّا يقوله المنافقون في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم فيكون في معنى قوله تعالى { وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور:16]، فإنّ كلمة: سبحان الله، يكثر أن تقال في مقام التبرُّؤ من نسبة ما لا يليق إلى أحد، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم " **سبحان الله المؤمن لا ينجس** ". وقول هند بنت عتبة حين أخذ على النساء البيعة (أن لا يزنين): سبحان الله أتزني الحُرَّة.

البكرة: أوّل النهار. و**الأصيل**: العشيّ الوقت الذي بعد العصر. والمقصود من { **بُكْرَةً وَأَصِيلاً** } إعمار أجزاء النهار بالذكر والتسبيح بقدر المُكنة، لأنّ ذكر طرفي الشيء يكون كناية على استيعابه.

ومنه قولهم: المشرق والمغرب، كناية عن الأرض كلّها، والرأس والعقب كناية الجسد كله.

{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً } [43].

تعليل للأمر بذكر الله وتسبيحه بأنّ ذلك مجلبة لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك بأفضل منه من جنسه وهو صلاته وصلاة ملائكته. والمعنى: أنّه يصلّي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه بكرة وأصيلا.

{ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التقوّي وتحقيق الحكم. والمقصود تحقيق ما تعلق بفعل { يُصَلِّي } من قول { لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }.

{ يُصَلِّي } اجتلاب صيغة المضارع لإفادة تكرّر الصلاة وتجدّدها كلّما تجدّد الذكر والتسبيح، أو إفادة تجدّدها بحسب أسباب أخرى من أعمال المؤمنين وملاحظة إيمانهم.

الصلاة: الدعاء والذكر بخير، وهي من الله الثناء. وأمره بتوجيه رحمته في الدنيا والآخرة ،أي: اذكروه ليذكركم لقوله تعالى { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } [البقرة:152]، وقوله في الحديث القدسي: **" فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم ".**

صلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين، ودعاؤهم مستجاب عند الله، فيزيد الذاكرين على ما أعطاهم بصلاته تعالى عليهم.

{ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } الـ (لام) متعلقة بـ { يُصَلِّي }. فعُلم أنّ هذه الصلاة جزاء عاجل حاصل وقت ذكرهم وتسبيحهم.

{ الظُّلُمَاتِ } الضلالة.

{النور} الهدى.

إخراجهم من الظلمات: دوام ذلك والاستزادة منه، لأنّهم لمّا كانوا مؤمنين كانوا قد خرجوا من الظلمات إلى النور، قال تعالى { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً } [مريم:76].

{ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً } تذييل. ودلّ بالإخبار عن رحمته بالمؤمنين بإقحام فعل { كَانَ } تحقيقه وأنّه شأن من شؤونه المعروف بها في آيات كثيرة. ورحمته بالمؤمنين أعمّ من صلاته عليهم لأنّها تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف.

{ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً } [44]

أعقب الجزاء العاجل الذي أنبأ عنه قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ } [43] بذكر جزاء آجل وهو ظهور أثر الأعمال التي عملوها في الدنيا، في كرامتهم يوم يلقون ربّهم.

التحيّة: الكلام الذي يخاطب به عند ابتداء الملاقاة إعرابا عن السرور باللقاء، من دعاء ونحوه. وهذا الاسم في الأصل مصدر **حيَّاه،** إذا قال له: أحياك الله، أي: أطال حياتك.

لقاء الله: الحضور إلى حضرة قدسه للحساب في المحشر. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223]. وهذا اللقاء عام لجميع الناس لقوله تعالى { فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ } [التوبة:77]، فميز الله المؤمنين يومئذ بالتحيّة كرامة لهم.

وتحية الإسلام: سلامٌ عليك أو السلام عليكم، دعاء بالسلامة والأمن، أي: من المكروه، لأنّ السلامة أحسن ما يُبتغى في الحياة. ولذلك كانت تحيّة المؤمنين يوم القيامة السلام بشارة بالسلامة ممّا يشاهده الناس من الأهوال المنتظرة. وكذلك تحية أهل الجنة فيما بينهم، تلذُّذا باسم ما هم فيه من السلامة من أهوال أهل النار، وتقدّم في قوله تعالى { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [يونس:10].

{ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً } حال من ضمير الجلالة، أي: يحييهم يوم يلقونه وقد أعدّ لهم أجرا كريما.

الأجر: الثواب. و**الكريم**: النفيس في نوعه، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

الأجر الكريم: نعيم الجنة.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً [45] وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً [46] }.

هذا النداء الثالث للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ الله لمّا أبلغه بالنداء الأوّل ما هو متعلّق بأزواجه وما تخلّل ذلك من التكليف والتذكير، ناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه للتنويه بشأنه وزيادة رفعة مقداره، وبيَّن له أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلّقات رسالته بأحوال أمّته وأحوال الأمم السالفة.

وذكر له هنا خمسة أوصاف هي: **(شاهد - مبشر - نذير - داع إلى الله - سراج منير).**

فهذه الأوصاف ينطوي هو إليها وتنطوي على مجامع الرسالة المحمدية، فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة.

الشاهد: المخبر عن حجّة المدّعي ودفع دعوى المبطل، فالرسول صلى الله عليه وسلم شاهد بصحّة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، ويشهد ببطلان ما ألصق بها وبنسخ ما لا ينبغي بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم في القرآن والسنّة، قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48]. وفي حديث الحشر: " **يُسأل كل رسول هل بلّغ؟ فيقول: نعم. فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته ...**".

ومحمد صلى الله عليه وسلم شاهد أيضا على أمّته بمراقبة جريهم على الشريعة في حياته، وشاهد عليهم في

عرصات القيامة، قال تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41] فهو شاهد على المستجيبين لدعوته وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدل. وفي حديث الحوض: " **ليردنّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتّى إذا رأيتُهم وعرفتُهم اختُلِجوا دوني فأقول: يا رب أُصيْحابي أُصيْحابي. فيقال لي: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول تبًا وسحقًا لمن أحدث بعدي** ".

فلا جرم كان وصف **الشاهد** أشمل هذه الأوصاف للرسول صلى الله عليه وسلم، بوصف كونه رسولا لهذه الأمة، وبوصف كونه خاتما للشرائع ومتمِّما لمراد الله من بعثة الرسل.

المبشّر: المخبر بالبشرى والبشارة. وهي الحادث المُسِرّ لمن يُخبر به، وهو الوعد بالعطيّة، والنبيّ صلى الله عليه وسلم مبشّر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمّن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمَي التقوى، فإنّ التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيّات، والمأمورات متضمّنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل. وقدّمت البشارة على النذارة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنّه رحمة للعالمين.

النذير: مشتق من لإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبيّ عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عنه دينه من كافرين به ومن أهل العصيان، بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم.

وجيء في جانب النِّذارة بصيغة **فعيل** دون اسم الفاعل للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتّى كأنّه قد حلّ بهم، وكأنّ المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه الّا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقلّ الوصف بمنذر. وفي الصحيح: أنّ رسول الله لمّا أنزل عليه قوله تعالى { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء:214]، خرج حتّى صعد الصفا، فنادى: **يا صباحاه** [كلمة ينادي بها من يطلب النجدة] فاجتمعوا إليه فقال: **أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدِّقي؟ قالوا: نعم، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ".

وشمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات وهو قسم الاجتناب من قسمَي التقوى فإنّ المنهيات متضمّنة مفاسد، فهي مقتضية تخويف المقدمين على فعلها من سوء الحال في العاجل والآجل.

الداعي إلى الله: هو الذي يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله ويدعوهم إلى اتباع ما يأمرهم به الله. وأصل دعاه إلى فلان: أنّه دعاه إلى الحضور عنده. يقال: أدع فلانا إليَّ. ولما عُلم أنّ الله تعالى منزّه من جهة يحضرها الناس عنده تعيّن أنّ معنى الدعاء إليه الدعاء إلى ترك الاعتراف بغيره.

فشمل هذا الوصف أصول الاعتقاد في شريعة الإسلام ممّا يتعلّق بصفات الله.

{ **بِإِذْنِهِ** } يفيد أنّ الله أرسله داعيا إليه ويسّر له الدعاء إليه، مع ثقل أمر هذا الدعاء وعظم خطره، فأطلق اسم

الإذن على التيسير على وجه المجاز المرسل. ونظيره قوله تعالى خطابا لعيسى عليه السلام { وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي } [المائدة:110].

{ **وَسِرَاجاً مُنِيراً** } تشبيه بليغ بطريقة الحالية وهو طريق جميل، أي: أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها، والتي لا تترك للباطل شبهة إلّا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقّاد ظلمة المكان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله من الأديان من مسالك للتبديل والتحريف، فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقّه في الدين والعلم، فإنّ العلم يُشبَّه بالنور فناسبه السراج المنير.

ووصف السراج بـ { مُنِيراً } مع أنّ الإنارة من لوازم السراج لإفادة قوّة معنى الاسم في الموصوف به الخاص، فإنّ هدى النبيّ صلى الله عليه وسلم هو أوضح الهدى، وإرشاده أبلغ إرشاد.

وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التي وصف بها آنفا فهو كالفذلكة وكالتذييل.

{ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً } [47]

عطف على جملة { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ } [45] عطف الإنشاء على الخبر، فالجملة المعطوف عليها إخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه أرسله متلبّسا بتلك الصفات الخمسة. وهذا أمر له بالعمل بصفة المبشّر، فلاختلاف مضمون الجملتين عطفت هذه على الأولى.

الفضل: العطاء الذي يزيده المعطي زيادة على العطيّة. فالفضل كناية عن العطيّة أيضا لأنه لا يكون فضلا إلّا إذا كان زائدا على العطيّة. والمراد أنّ لهم ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عند ربهم، قال تعالى : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس:26].

{ **كَبِيراً** } مستعار للفائق في نوعه. قال ابن عطية: " قال لي أبي رضي الله عنه [هو أبو بكر بن غالب بن عطية القيسي الغرناطي المالكي مفتي غرناطة، توفي بها سنة 518]: هذه أرجى آية عندي في كتاب الله لأنّ الله قد أمر نبيّه أن يبشر المؤمنين بأنّ لهم عنده فضلا كبيرا. وقد بين الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [الشورى: 22]، فالآية التي في هذه السورة خبر والآية التي في حم عسق تفسير لها ".

{ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [48]

مقابلة لقوله تعالى { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [47] تحذيرا له من موافقتهم فيما يسألون منه، وتأييدا لفعله معهم حين استأذنه المنافقون في الرجوع عن الأحزاب فلم يأذن لهم، فنُهي عن الإصغاء إلى ما يرغبونه فيترك ما احلّ له من التزوّج.

{ وَدَعْ أَذَاهُمْ } يجوز أن يكون فعل { وَدَعْ } مرادا به أن لا يعاقبهم، فيكون مستعملا في حقيقته. ويجوز أن يكون مستعملا مجازا في عدم الاكتراث وعدم الاهتمام فيما يقولونه ممّا يؤذي، أي: لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك فإنّك أجلّ من الاهتمام بذلك. وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

التوكّل: الاعتماد وتفويض التدبير إلى الله. وتقدّم عند قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159] وقوله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [المائدة:23]، أي: أعتمد على الله في تبليغ الرسالة وفي كفايته إيّاك شر عدوّك.

{ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } تذييل لجملة { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ }. والمعنى: فإنّ الله هو الوكيل الكافي في الوكالة، وتقدّم قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [النساء:81].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } [49]

جاءت هذه الآية تشريعا لحكم المطلّقات قبل البناء بهنّ ألّا تلزمهنّ عدة بمناسبة حدوث طلاق زيد بن حارثة زوجه زينب بنت جحش لتكون الآية مُخصِّصة لآيات العدّة من سورة البقرة، فإنّ الأحزاب نزلت بعد البقرة وليُخصَّص بها أيضا آية العدّة في سورة الطلاق النازلة بعدها لئلّا يظنّ ظانّ أنّ العدّة من آثار العقد على المرأة سواء دخل بها الزوج أم لم يدخل.

قال ابن العربي: وأجمع علماء الأمّة على ألّا عدّة على المرأة إذا لم يدخل بها زوجها، لهذه الآية.

النكاح: هو العقد بين الرجل والمرأة لتكون زوجا بواسطة وليّها. وهو حقيقة في العقد لأنّ أصل النكاح حقيقة هو الضم والإلصاق. ولذلك يقولون: نكحت المرأة فلانا، أي: تزوجته، كما يقولون : نكح فلان امرأة.

وزعم كثير من مدوّني اللغة أنّ النكاح حقيقة في إدخال شيء في أخر فأخذوا منه أنّه حقيقة في الوطء، ودرج على ذلك الأزهري والجوهري والزمخشري، وهو بعيد.

المس والمسيس : كناية عن الوطء، كما سُمّي ملامسة في قوله تعالى { أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ } [النساء:43].

العِدّة : (بكسر العين) هي في الأصل أسم هيئة من العَدّ (بفتح العين) وهو الحساب، فأطلقت العدّة على الشيء المعدود، يقال: جاء عِدّة رجال، وقال تعالى { فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } [البقرة:184].

وغلب إطلاق هذا اللفظ في لسان الشرع على المدّة المحدّدة لانتظار المرأة زواجا ثانيا.

{ **لَكُمْ** } الخطاب فيه للأزواج اللذين نكحوا المؤمنات وجعلت العدة لهم، أي: لأجلهم، لأنّ المقصد منها راجع إلى نفع الأزواج بحفظ أنسابهم، ولأنّهم يملكون مراجعة الأزواج ما دمن في مدّة العدّة كما أشار إليه قوله تعالى { لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً } [الطلاق:1]. وقوله تعالى { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً } [البقرة:228].

ومع ذلك هي حقّ أوجبه الشرع فلو رام الزوج إسقاط العدة عن المطلقة لم يكن له ذلك لانّ ما تتضمّنه العدّة من حفظ النسب مقصد من أصول مقاصد التشريع فلا يسقط بالإسقاط.

{ **تَعْتَدُّونَهَا** } تعدُّونها عليهنّ، كما يقال: اعتدّت المرأة، إذا قضت أيّام عدّتها.

{ **فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً** } تفريع، لأنّ حكم التمتيع مقرّر في قوله تعالى { وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ } [البقرة:236].

المتعة: عطية يعطيها الزوج للمرأة إذا طلّقها. وتقدّم قوله تعالى { لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ } [البقرة:236]، فلذلك جيء بالأمر بالتمتيع مفرَّعا على الطلاق قبل المسيس.

وقد جعل الله التمتيع جبرا لخاطر المرأة المنكسر بالطلاق، وتقدّم في سورة البقرة أنّ المتعة حقّ للمطلقة سواء سمَّى لها صداق أم لم يسم، بحكم آية سورة الأحزاب.

السراح الجميل: هو الخليّ عن الأذى والإضرار ومنع الحقوق.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [50]

نداء رابع خوطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن خاص به، هو بيان ما أُحِلّ له من الزوجات والسراري وما يزيد عليه وما لا يزيد، ممّا بعضه تقرير لتشريع له سابق وبعضه تشريع له للمستقبل، وممّا

بعضه يتساوى فيه النبيّ عليه الصلاة والسلام مع الأمّة، وبعضه خاص به، أكرمه الله بخصوصيته ممّا هو توسعه عليه، أو ممّا روعي في تخصيصه به علو درجته.

ولعل المناسبة لورودها عقب الآيات التي قبلها أنّه لمّا خاض المنافقون في تزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وقالوا: تزوج من كانت حليلة متبنّاه، أراد الله أن يجمع في هذه الآية من يحل للنبيّ تزوجهنّ حتّى لا يقع الناس في تردّد ولا يفتنهم المرجفون.

ولعلّ ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتمالها على قوله تعالى { وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنبيّ }، ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعا لتكون جامعه للأحوال، وذلك أوعب وأقطع للتردّد والاحتمال.

تقرير ما هو مشروع فذلك من قوله تعالى { إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ - إلى قوله - وَبَنَاتِ خَالاتِكَ }.

تشريع ما لم يكن مشروعا فذلك من قوله تعالى { اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ - إلى قوله - وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } [52].

{ **إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ** } خبر مراد به التشريع. أي: أبحنا لك، والآية امتنان وتذكير بالنعمة.

وإضافة أزواج إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم تفيد أنّهن الأزواج اللاتي في عصمته، فيكون الكلام إخبارا لتقرير تشريع سابق ومسوقا مساق الامتنان، ثم هو تمهيد لما سيتلوه من التشريع الخاص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى { اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ...}.

{ **اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ** } صفه لـ { أَزْوَاجَكَ } ، أي: وهن النسوة اللاتي تزوّجتهنّ على حكم النكاح الذي يعمّ الأمّة، فالماضي مستعمل في حقيقته.

وعطف على هؤلاء نسوة أُخَر وهنّ ثلاث أصناف:

الصنف الأول: { **وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ** }، أي: ممّا أعطاه الله من الفيء، وهو ما ناله المسلمون من العدو بغير قتال، أو ممّا أُعطي للنبيّ صلى الله عليه وسلم مثل مارية القبطية أم أبنه إبراهيم، فقد أفاءها الله عليه إذ وهبها إليه المقوقس صاحب مصر، وإنّما وهبها إليه هدية لمكان نبوّته، فكانت بمنزلة الفيء.

والمعروف أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يتسرَّ غير مارية القطبية. وقيل أيضا: إنّه تسرَّى جارية أخرى وهبتها له زوجه زينب ابنة جحش ولم يثبت. وقيل أيضا: إنّه تسرَّى ريحانة من سبي قريظة اصطفاها لنفسه ولا تشملها هذه الآية لأنّها ليست من الفيء ولكن من المغنم إلا أن يراد بـ { مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ } المعنى الأعم للفيء وهو ما يشمل الغنيمة.

وهذا الحكم يشرَكه فيه كثيرا من الأمّة مَن كل من أعطاه أميره شيئا من الفيء، كما قال تعالى { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } [الحشر:7]، فمن أعطاه الأمير من هؤلاء الأصناف أمّة من الفيء حلّت له.

الصنف الثاني: { وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ }.

نساء من قريب قرابته صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه أو جهة أمّه مؤمنات مهاجرات. وأغنى قوله تعالى { هَاجَرْنَ مَعَكَ } عن وصف الإيمان لأنّ الهجرة لا تكون إلّا بعد الإيمان، فأباح الله للنبيّ عليه الصلاة والسلام أن يتزوّج من يشاء من نساء هذا الصنف بعقد النكاح المعروف.

فليس له أن يتزوّج في المستقبل امرأة من غير هذا الصنف المشروط بشرط القرابة بالعمومة أو الخؤولة وشرط الهجرة. والمرأة التي لم تستوف هذا الوصف لا يجوز للرسول عليه الصلاة والسلام تزوّجها، وهو الذي درج عليه الجمهور، ويؤيّده خبر روي عن أمّ هانئ بنت أبي طالب.

وخُصّ هؤلاء النسوة من عموم المنع تكريما لشأن القرابة والهجرة التي هي بمنزلة القرابة لقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا } [لأنفال:72].

بنات عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم: هن بنات إخوة أبيه مثل: بنات العبّاس، وبنات أبي طالب، وبنات أبي لهب. وأمّا بنات حمزة فإنّهن بنات أخ من الرضاعة لا يحللن له، وبنات عمّاته هنّ بنات بنات عبد المطلب مثل زينب بنت جحش التي هي بنت أميمة بنت عبد المطلب.

بنات خاله: هن بنات عبد مناف بن زهرة، وهن أخوال النبيّ صلى الله عليه وسلم: عبد يغوث ابن وهب أخو آمنة، ولم يذكروا أنّ له بنات، كما أنّي لم أقف على ذكر خالة لرسول الله فيما رأيت من كتب الأنساب والسير. وقد ذكر في (الإصابة) فريعة بنت وهب وذكروا هالة بنت وهب الزهرية، إلّا أنّها لكونها زوجة عبد المطلب وابنتها صفية عمّة رسول الله فقد دخلت من قبل في بنات عمّه.

{ عَمِّكَ / عَمَّاتِكَ - خَالِكَ / خَالاتِكَ } أُفرد لفظ (عمّ) وجُمع لفظ (عمّات) لأنّ العمّ في استعمال كلام العرب يطلق على أخي الأب ويطلق على أخي الجد وأخي جد الأب، وأمّا لفظ (العمّة) فإنّه لا يراد به الجنس في كلامهم، فإذا قالوا: هؤلاء بنو عمّة، أرادوا أنّهم بنو عمة معنية، فجيء بالجمع لئلّا يفهم منه بنات عمّة معيّنة. وكذلك القول في إفراد لفظ (الخال) وجمع (الخالة).

{ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ } صفه عائده إلى { بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ } كشأن الصفة الواردة بعد مفردات وهو شرط تشريع لم يكن مشروطا من قبل.

{ مَعَكَ } معية المقارنة في الوصف، فليس يلزم أن يكنّ قد خرجن مصاحبات له في طريقه إلى الهجرة.

الصنف الثالث: { **وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** } أي: تجعل نفسها هبة له دون مهر، وكذلك كان النساء قبل الإسلام يفعلن مع عظماء العرب، فأباح الله للنبيّ أن يتّخذها زوجة له بدون مهر.

وهذا تخصيص من عموم قوله { وَبَنَاتِ عَمِّكَ ... } فإذا وهبت امرأة نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأراد نكاحها جاز له ذلك بدون ذينك الشرطين، ولأجل هذا وصفت بـ { مُؤْمِنَةً } ليعلم عدم اشتراط عدا الإيمان.

وقد عدة **زينب بنت خزيمة الهلالية**، وكانت تدعى بالجاهلية أم المساكين، في اللاتي وهبنا أنفسهن، ولم تلبث عنده إلّا قليلا وتوفيت، وكان تزوّجها سنة ثلاث من الهجرة فليست مما شملته الآية.

ولم يثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّج غيرها ممن وهبنا أنفسهنّ إليه وهن: أم شريك بنت جابر الدوسية واسمها عزية، وخولة بنت حكيم عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسها فقالت عائشة: أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها للرجل، وامرأة أخرى عرضت نفسها على النبيّ صلى الله عليه وسلم.

روى ثابت البناني عن أنس قال: "جاءت امرأة إلى رسول الله فعرضت عليه نفسها فقالت : يا رسول الله ألك حاجة بي؟ فقالت ابنة أنس - وهي تسمع إلى رواية أبيها -: ما أقل حياءها، واسوأتاه واسوأتاه. فقال أنس: هي خير منك رغبت في النبيّ فعرضت عليه نفسها ".

وعن سهل بن سعد أنّ امرأة عرضت نفسها على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يجبها. فقال رجل: "يا رسول الله زوّجنيها، [...] إلى أن قال له: **ملَّكناكها بما معك من القرآن** ".

فهذا الصنف حكمه خاص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، ذلك أنّه نكاح مخالف لسنة النكاح، لأنّه بدون مهر وبدون ولي.

{ **للنبيّ** } إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إن وهبت نفسها لك. والغرض من هذا الإظهار ما في لفظ { النبيّ } من تزكية فعل المرأة التي تهب نفسها بأنّها راغبة لكرامة النبوّة.

{ **إِنْ أَرَادَ النبيّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا** } جملة معترضة بين جملة { إِنْ وَهَبَتْ } وبين { خَالِصَةً } وليس مسوقا للتقييد إذ لا حاجة إلى ذكر إرادة نكاحها فإنّ هذا معلوم من معنى الإباحة، وإنّما جيء بهذا الشرط لدفع توهّم أن يكون قبوله هبتها نفسها له واجبا عليه كما كان عرف أهل الجاهلية. وهي أنّهم كانوا إذا وهبت المرأة نفسها للرجل تعيّن عليه نكاحها و لم يجز له ردّها، فابطل الله هذا الالتزام بتخيير النبيّ عليه الصلاة والسلام في قبول هبة المرأة نفسها له وعدمه، وليرفع التعيير عن المرأة الواهبة بأنّ الردّ مأذون به.

{ **خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** } أي: وليس لبقية المؤمنين ذلك.

{ **قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** } معترضة بين جملة { مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } وبين قولة { لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ } أو هي حال سببي من المؤمنين. والمعنى: أنّ المؤمنين مستمر ما

شُرع لهم من قبلُ في أحكام الزواج وما ملكت أيمانهم، فلا يشملهم ما عيّن لك من الأحكام الخاصة.
والإخبار بأنّ الله قد علم ذلك كناية عن بقاء تلك الإحكام.

{ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً }

تعليل لما شرعه الله تعالى في حق نبيّه صلى الله عليه وسلم في الآيات السابقة من التوسعة بالازدياد من عدد الأزواج، وتزوّ ج الواهبات أنفسهن دون مهر، وجعل قبول هبتها موكولا لإرادته، وبما أبقى له من مساواته أمّته فيما عدى ذلك من الإباحة فلم يضيّق عليه، وهذا تعليم وامتنان.

الحرج: الضيق. والمراد هنا أدنى الحرج، وهو ما في التكليف من بعض الحرج الذي لا تخلوا عنه التكاليف، وأمّا الحرج القويّ فمنفي عنه وعن أمّته.

{ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } تذييل لما شرعه من الأحكام للنبيّ صلى الله عليه وسلم لا للجملة المتعرضة، أي: أنّ ما أردناه من نفي الحرج عنك هو من متعلّقات صفتي الغفران والرحمة اللتين هما من تعلّقات الإرادة والعلم فهما ناشئان عن صفات الذات، فلذلك جعل اتصاف الله بهما أمرا متمكّنا بما دل عليه فعل { كَانَ } المشير إلى السابقية والرسوخ، كما علمته في مواضع كثيرة.

{ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً } [51]

{ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ } استئناف بياني، والجملة خبر مستعمل في إنشاء تحليل الإرجاء والإيواء لمن يشاء النبيّ صلى الله عليه وسلم.

الإرجاء: حقيقته التأخير إلى وقت مستقبل. يقال: أرجأت الأمر وأرجيته، إذا أخّرته. وفعله ينصرف إلى الأحوال لا الذوات، فإذا عُدِّي فعله إلى أسم ذات تعيين انصرافه إلى وصف من الأوصاف المناسبة والتي تراد منها، فإذا قلت: أرجأت غريمي، كان المراد: أنّك أخرت قضاء دينه.

الإيواء: حقيقته جعل الشيء آويا، أي: راجعا إلى مكانه. يقال: آوى، إذا رجع حيث فارق، وهو هنا مجاز في مطلق الاستقرار سواء كان بعد إبعاد أم بدونه، وسواء كان بعد سبق استقرار بالمكان أم لم يكن.
ومقابلة الإرجاء بالإيواء تقتضي أنّ الإرجاء مراد منه ضدّ الإيواء أو أن الإيواء ضد الإرجاء وبذلك تنشأ احتمالات في المراد من الإرجاء والإيواء صريحهما وكنايتهما.

{ **مِنْهُنَّ** } الضمير عائد إلى النساء المذكورات ممّن هنّ في عصمته، ومن أحلّ الله له نكاحهنّ غيرهنّ من بنات عمّه وعماته وخاله وخالاته، والواهبات أنفسهن، فتلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: وهنّ اللائي في عصمة النبيّ عليه الصلاة والسلم، فإرجاء هذا الصنف ينصرف إلى تأخير الاستمتاع بهنّ إلى وقت مستقبل يريده، والإيواء ضدّه. فيتعيّن أن يكون الإرجاء منصرفا إلى القَسْم، فوسَّع الله على نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن أباح له أن يُسقط حقّ بعض نسائه في المبيت معهنّ، فصار حقّ المبيت حقًّا له لا لهنّ، بخلاف بقية المسلمين. وهو قول الجمهور، قال أبن العربي: وهو الذي ينبغي أن يعوّل عليه. وقد كانت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة، وكان ذلك قبل نزول هذه الآية ولمّا نزلت هذه الآية صار النبيء عليه الصلاة و السلام مخيرا. إلّا أنّه لم يأخذ لنفسه به تكرّما منه على أزواجه. قال الزهري. ما علمنا أنّ رسول الله أرجأ أحدا من أزواجه بل آواهن كلّهن. قال أبو بكر بن العربي: وهو المعنى المراد.

الصنف الثاني: وهن ما ملكت يمينه، والإرجاء حكم أصلي، إذ لا يجب للإماء عدل في المعاشرة ولا في المبيت.

الصنف الثالث: وهنّ بنات عمّه وبنات عمّاته وبنات خاله وبنات خالاته، فالإرجاء تأخير تزوّج من يحلّ منهن، والإيواء العقد على إحداهن، والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يتزوّج واحدة بعد نزول هذه الآية.

الصنف الرابع: وهنّ اللائي وهبن أنفسهن، فإرجاؤهن عدم قبول نكاح الواهبة، عُبِّر عنه بالإرجاء إبقاء على أملها أن يقبلها في المستقبل، وإيواؤهن قَبول هبتهنّ.

{ **وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ** } هذا لبيان أنّ هذا التخيير لا يُوجب استمرار ما أخذ به من الطرفين المخيَّر بينهما، أي: لا يكون عمله بالعزل لازم الدوام بمنزلة الظهار والإيلاء، بل أذن الله أن يرجع إلى من يعزلها منهنّ، فصرَّح هنا بأنّ الإرجاء شاملٌ للعزل.

الابتغاء: الرغبة والطلب، والمراد هنا ابتغاء معاشرة من عزلهنّ.

{ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ** } جواب الشرط. و يجوز أن تكون موصولة مبتدأ.

{ **ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ** } الإشارة إلى شيء ممّا تقدم؛

فيجوز أن تكون الإشارة إلى معنى التفويض المستفاد من قوله تعالى { تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ }. ويجوز أن تكون الإشارة إلى الابتغاء المتضمّن له فعل { ابْتَغَيْتَ }، أي: فلا جناح عليك في ابتغائهن بعد عزلهنّ ذلك أدنى لأن تقرَّ أعينهن.

فعلى الوجه الأوّل يكون المعنى: أنّ في هذا التفويض جعل الحقّ في اختيار أحد الأمرين بيد النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يبقى حقًّا لهنّ، فإذا عيَّن لإحداهن حالة من الحالين رضيته به، فقرّت أعين جميعهنّ.

وهذا التفسير مروي عن قتاده وتبعه الزمخشري وأبن العربي والقرطبي وابن عطية.
على الوجه الثاني يكون المعنى: ذلك الابتغاء بعد العزل أقرب لأن تقرّ أعين اللائي كنت عزلتهنّ. ففي هذا الوجه ترغيب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في اختيار عدم عزلهنّ، وهو المناسب لقوله تعالى { أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ } كما علمت آنفا. ونُقل قريب من هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد واختاره أبو علي الجبائي وهو الأرجح. ويؤيّده أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأخذ إلّا به، ولم يحفظ عنه أنّه آثر إحدى أزواجه بليلة سوى ليلة سودة التي وهبتها لعائشة، أستمر ذلك إلى وفاته صلى الله عليه وسلم.
وقد جاء في الصحيح أنّه كان في مرضه الذي توفي فيه يُطاف به كلّ يوم على بيوت أزواجه، وكان مبدأ شكواه في بيت ميمونة إلى أن جاءت نوبه ليلة عائشة فأذنّ له أزواجه أن يُمرَّض في بيتها رفقا به.
وروي أنّه صلى الله عليه وسلم قال حين قَسَم لهن: **" اللّهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلُمني فيما لا املك ".**
{ **وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ** } إشارة إلى أنّ المراد الرضا الذي يتساوين فيه وإلّا لم يكن للتأكيد بـ { **كُلُّهُنَّ** } نكتة زائدة، فالجمع بين ضميرهنّ في قوله { كُلُّهُنَّ } يومئ إلى رضا متساوٍ بينهنّ.
الإيتاء: الإعطاء، وغلب على إعطاء الخير إذا لم يُذكر مفعوله الثاني أو ذُكر غير معيَّن كقوله تعالى { فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأعراف:144].
{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً** } تذييل، كلام جامع لمعنى الترغيب والتحذير، ففيه ترغيب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في الإحسان إلى أزواجه وإمائه والمتعرّضات للتزوّج به، وتحذير لهنّ من إضمار عدم الرضا بما يلقينه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
{ **عَلِيماً حَلِيماً** } فصفة العلم مناسبة لقوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ }، وصفة الحليم مناسبة باعتبار أنّ المقصود ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم في أليق الأحوال بصفة الحليم، لأنّ همّه صلى الله عليه وسلم التخلّق بخُلُق الله تعالى.
قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلّا أختار أيسرهما ما لم يكن إثما ". ولهذا لم يأخذ رسول الله بهذا التخيير في النساء اللاتي كنّ في معاشرته وأخذ به في الواهبات أنفسهنّ مع الإحسان إليهن بالقول والبذل. وأخذ به في ترك التزوّج من بنات عمّه وعماته وخاله وخالاته لأنّ ذلك لا حرج فيه عليهنّ.

{ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً } [52]

موقع هذه الآية في المصحف عقب التي قبلها يدلّ على أنّها كذلك نزلت وأنّ الكلام متّصل بعضه ببعض ومنتظم هذا النظم البديع، وهذا ممّا لا ينبغي أن يتردّد فيه.

{ **النِّسَاءُ** } إذ أطلق في مثل هذا المقام غلب في معنى الأزواج، أي: الحرائر دون الإماء.

{ **مِنْ بَعْدُ** } يجوز أن يكون بمعنى (غير) كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23] وهو استعمال كثير في اللغة، وعليه فلا ناسخ لهذه الآية من القرآن ولا هي ناسخة لغيرها، ومما يؤيد هذا المعنى التعبير بلفظ الأزواج في قوله { وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ }، أي: غيرهنّ، وعلى هذا المحمل حمل الآية ابن عباس، ومثله مروي عن أبي بن كعب وعكرمة والضحاك.

ويجوز أن يكون { بَعْدُ } مراد به الشيء المتأخر عن غيره، وذلك حقيقة معنى البعدية، فيتعيّن تقدير حذف معلوم دلّ عليه الكلام السابق، فتقدير المضاف إليه المحذوف لا يخلو: إمّا أن يؤخذ من ذكر الأصناف قبله، أي: من بعد الأصناف المذكورة بقوله تعالى { إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ...} [50]. وإمّا أن يكون مماّ يقتضيه الكلام من الزمان، أي: من بعد هذا الوقت، أي: الوقت الذي نزلت فيه الآية، فيكون نسخا لقوله تعالى { إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَك - إلى قوله - خَالِصَةً لَكَ } [50].

{ **وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ** } أصله تتبدل (بتاءين) حُذفت إحداهما تخفيفا، يقال: بدَّل وتبدَّل، ومادة البدل تقتضي شيئين: يعطي أحدهما عوضا عن أخذ الآخر، فالتبديل يتعدَّى إلى الشيء المأخوذ بنفسه وإلى الشيء المعطى بـ (الباء) أو بحرف (مِنْ)، وتقدّم عند قوله { وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }[البقرة:108].

والمعنى: أنّ من حصلت في عصمتك من الأصناف المذكورة لا يحلّ لك أن تطلقها، فكنّي بالتبديل عن الطلاق، لأنّه لازمه في العرف الغالب، لأنّ المرء لا يطلّق إلّا وهو يعتاض عن المطلّقة امرأة أخرى، وهذه الكناية متعيّنة هنا لأنّه لو أريد صريح التبدلّ لخالف آخر الآية أوّلها وسابقتها، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أحلّت له الزيادة على النساء اللاتي عنده إذا كانت المزيدة من الأصناف الثلاثة السابقة.

فتمحّض أن يكون الاستبدال مكنّى به عن الطلاق وملاحظا فيه نيّة الاستبدال. فالمعنى: أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أبيحت له الزيادة على النساء اللاتي حصلن في عصمته أو يحصلن من الأصناف الثلاثة ولم يبح له تعويض قديمة بحادثة.

{ **وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** } في موضع الحال، وهي حال من ضمير { تَبَدَّلَ }. و {لَوْ} للشرط المقطوع بانتفائه وهي للفرض والتقدير. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

وفي هذا إيذان بأن الله لما أباح لرسوله الأصناف الثلاثة أراد اللطف له وأن لا يناكد رغبته إذا أعجبته امرأة لكنّه حدد له أصنافا معيّنة وفيهن غناء.

{ **إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** } استثناء منقطع. والمعنى: لكن ما ملكت يمينك حلال في كلّ حال. والمقصود من هذا الاستدراك دفع توهّم أن يكون المراد من لفظ { النِّسَاءُ } ما يرادف لفظ الإناث.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً** } تذييل، أي عالما بجَرْي كلّ شيء على نحو ما حدَّده أو على خلافه، فهو يجازي على حسب ذلك. وهذا وعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بثواب عظيم على ما حدَّد له من هذا الحكم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً } [53]

لمّا بين الله في الآيات السابقة آداب النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أزواجه قفّاه في هذه الآية بآداب الأمّة معهنّ. والآية استهلّت بالإشارة إلى قصّة هي سبب نزولها. وهي ما في البخاري وغيره، عن أنس بن مالك قال: لمّا تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ابنة جحش صنع طعاما بخبز ولحم ودعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدّثون، وإذا هو كأنّه يتهيّأ للقيام فلم يقوموا فلمّا رأى ذلك قام فلمّا قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبيّ ليدخل فإذا القوم جلوس، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرج ثم يرجع فانطلق إلى حجرة عائشة... فتقَرَّى حُجَرَ نسائه كلّهنّ يسلم عليهن ويسلِّمن عليه ويدعون له، ثم إنّهم قاموا فانطلقتُ فجئت فأخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّهم قد انطلقوا فجاء حتّى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبيء - إلى قوله - مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }.

وفي حديث آخر في الصحيح عن أنس أيضا أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: " يا رسول الله يدخل عليك البرّ و الفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب "، فأنزل الله آية الحجاب.

وليس بين الخبرين تعارض لجواز أن يكون قول عمر كان قبل البناء بزينب بقليل ثم عقبته قصة وليمة زينب فنزلت الآية بإثرها.

{ **لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ** } وليس ذكر الدعوة إلى طعام تقييدا لإباحة دخول بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: لا يدخلها إلّا المدعو إلى طعام، ولكنّه مثال للدعوة و تخصيص بالذكر، كما

جرى في القصّة التي هي سبب النزول، فيلحق به كلّ دعوة تكون من النبيّ صلى الله عليه وسلم وكل إذن منه بالدخول إلى بيته، كما كان يقع ذلك كثيرا. وإنّما ذُكر الطعام إدماجا لتبيين آدابه.

{ **إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ** } استثناء من عموم الأحوال التي يقتضيها الدخول المنهي عنه، أي: إلّا حال أن يؤذن لكم. فالكلام متضمّن شرطين هما: الدعوة، والإذن، فإنّ الدعوة قد تتقدّم على الإذن وقد يقترنان.

{ **غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ** } حال من ضمير { لَكُمْ } فهو قيد في متعلّق المستثنى، فيكون قيدا في قيد فصارت القيود المشروطة ثلاثة.

{ **نَاظِرِينَ** } اسم فاعل من نظر بمعنى انتظر، كقوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ} [يونس:102].

{ **إِنَاهُ** } بكسر الهمزة و بالقصر: مصدر أنى الشيء إذا حان، يقال: أنى يأنِي، قال تعالى { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ } [الحديد:16].

المعنى: لا تحضروا البيوت للطعام قبل تهيئته. وعن ابن عباس نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحيَّنون طعام النبيّ فيدخلون قبل أن يُدرك الطعام فيقعدون إلى أن يُدرك ثم يأكلون ولا يخرجون ".

وقد يقتضي أنّ ذلك تكرَّر قبل قضية النفر الذين حضروا وليمة البناء بزينب، فتكون تلك القضية خاتمة القضايا، فكُني بالانتظار عن مبادرة الحضور قبل إبان الأكل. ونكتة هذه الكناية تشويه السبق بالحضور بجعله نهما وجشعا، وبهذا تعلم أن ليس النهي متوجّها إلى صريح الانتظار.

{ **وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا** } اعتراض، والأمر للندب لأنّ إجابة الدعوة إلى الوليمة سنّة

{ **طَعِمْتُمْ** } أي: أكلتم، يقال: طعم فلان فهو طاعم، إذا أكل.

{ **فَانْتَشِرُوا** } الأمر للوجوب لأنّ دخول المنزل بغير إذن حرام، وإنّما جاز بمقتضى الدعوة للأكل فهو إذن مقيّد المعنى بالغرض المأذون لأجله، فإذا انقضى السبب المبيح للدخول عاد تحريم الدخول إلى أصله.

الانتشار: افتعال من النشر، وهو إبداء ما كان مطويّا، أطلق على الخروج مجازا، وتقدّم في قوله { وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [الفرقان:47].

{ **وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ** } عطف على { نَاظِرِينَ } وما بينهما من الاستدراك وما تفرّع عليه اعتراض.

الاستئناس: طلب الأنس مع الغير، واللام في { **لِحَدِيثٍ** } للعلّة، أي: ولا مستأنسين لأجل حديث يجري بينكم.

الحديث: الخبر عن أمر حدث، فهو في الأصل صفة حذف موصوفها ثم غلبت على معنى الموصوف فصار بمعنى الإخبار عن أمر حدث، وتُوسّع فيه فصار الإخبار عن شيء ولو كان أمرا قد مضى. ومنه سمِّي ما يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديثا كما يسمى خبرا، ثم تُوسّع فيه فصار يطلق على كلام يجري بين الجلساء في جدّ أو فكاهة.

{ **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبيء فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ** } استئناف ابتدائي للتحذير ودفع الاغترار بسكوت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يحسبوه رضي بما فعلوا.

فمناط التحذير قوله تعالى { ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبيء } فإنّ أذى النبيء صلى الله عليه وسلم مقرّر في نفوسهم أنه عمل مذموم، لأنّ النبيّ عليه الصلاة و السلام أعز خلق في نفوس المؤمنين وذلك يقتضي التحرّز ممّا يؤذيه أدنى أذى. ومناط دفع الاغترار قوله { فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ } فإنّ السكوت قد يظنّه الناس رضى وإذنا، وربّما تطرّق إلى أذهان بعضهم أنّ جلوسهم لو كان محظورا لما سكت عليه النبيء صلى الله عليه وسلم فأرشد الله إلى أنّ السكوت لا دلالة له على الرضى، وأنّه إنّما سكت حياء.

الأذى: ما يكدّر مفعوله ويسيء من قول أو فعل. وتقدّم في قوله { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً } [آل عمران:111]، وهو مراتب متفاوتة في أنواعه.

{ **فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ** } تفريع على مقدّر دلت عليه القصة. والتقدير: فيهمّ بإخراجكم فيستحيي منكم.

{ **وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** } معطوفة على جملة { فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ }. والمعنى: أنّ ذلك سوء أدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا كان يستحيي منكم فلا يباشركم بالإنكار ترجيحا منه للعفو عن حقة على المؤاخذة به فإنّ الله لا يستحيي من الحق لأنّ أسباب الحياء بين الخلق منتفية عن الخالق سبحانه { وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } [الأحزاب:4].

{ **الْحَقِّ** } تعريف الجنس المراد منه الاستغراق مثل التعريف في { الْحَمْدُ لِلَّهِ } [الفاتحة:2]. والمعنى: والله لا يستحيي من جميع أفراد جنس الحق.

{ **الْحَقِّ** } ضد الباطل. فمنه حقّ الله وحقّ الإسلام، وحقّ الأمة جمعاء في مصالحها وإقامة آدابها، وحقّ كلّ فرد من أفراد الأمّة فيما هو من منافعه ودفع الضرّ عنه. ويشتمل حق النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيته وأوقاته، وبهذا العموم في الحق صارت الجملة بمنزلة التذييل.

{ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** } زيادة بيان للنهي عن دخول البيوت النبويّة وتحديد لمقدار الضرورة التي تدعو إلى دخولها أو الوقوف بأبوابها.

وهذه الآية هي شارعة حكم حجاب أمهات المؤمنين، وقد قيل: إنّها نزلت في ذي القعدة سنة خمس.

{ **سَأَلْتُمُوهُنَّ** } الضمير عائد إلى الأزواج المفهوم من ذكر البيوت في قوله تعالى { بُيُوتَ النبيِّ }.

المتاع: ما يحتاج إلى الانتفاع به مثل عارية الأواني ونحوها، ويلحق بذلك ما هو أولى بالحكم من سؤال عن الدين أو عن القرآن، وقد كانوا يسألون عائشة عن مسائل الدين.

الحجاب: السّتر المُرخَى على باب البيت. وكانت الستور مرخاة على أبواب بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم الشارعة إلى المسجد. وقد ورد ما يُبيّن ذلك في حديث الوفاة حين خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم على

الناس وهم في الصلاة، فكشف الستر ثم أرخى الستر.

{ **مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** } متعلق بـ { فَاسْأَلُوهُنَّ } فهو قيد في السائل والمسؤول.

{ **ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** } اسم التفضيل مستعمل للزيادة دون التفضيل.

المعنى: ذلك أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهنّ، فإنّ قلوب الفريقين طاهرة بالتقوى وتعظيم حرمات الله وحرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولكن لمّا كانت التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة أراد الله أن يزيدهم منها بما يُكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهي من الخواطر الشيطانية بقطع أضعف أسبابها، وما يُقرّب أمّهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثابتة لزوجهنّ صلى الله عليه وسلم.

وأيضا فإنّ للناس أوهاما وظنونا تتفاوت مراتب نفوس الناس فيها صرامة، ووهنا، كما وقع في قضية الإفك المتقدّمة في (سورة النور) فكان شرع حجاب أمهات المؤمنين قاطعا لكلّ تقوّل وإرجاف بعمد أو بغير عمد.

ووراء هذه الحِكم كلّها حِكمة أخرى سامية وهي زيادة تقرير أمومتهنّ للمؤمنين في قلوب المؤمنين.

وبهذه الآية مع الآية التي تتقدمها من قوله تعالى { يَا نِسَاءَ النبيء لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ } [32] تحقّق معنى الحجاب لأمّهات المؤمنين المركّب من ملازمتهن بيوتهن وعدم ظهور شيء من ذواتهنّ حتّى الوجه والكفين، وهو حجاب خاص بهنّ لا يجب على غيرهن.

{ **وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً** }

لما جيء في بيان النهي عن المكث في بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه يؤذيه أُتبع بالنهي عن أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم نهيا عاما، فالخطاب للمؤمنين.

{ **مَا كَانَ لَكُمْ** } دلّت على الحظر المؤكّد، لأنّ { مَا كَانَ لَكُمْ } نفي، للاستحقاق الذي دلّت عليه (اللام)، وإقحام فعل { كَانَ } لتأكيد انتفاء الإذن. وهذه الصيغة من صيغ شدّة التحريم.

وتضمنت هذه الآية حكمين:

الحكم الأوّل: تحريم أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأذى: قول يقال له، أو فعل يعامل به، من شأنه أن يغضبه أو يسوء لذاته. والمعنى: أنّ أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم محظور على المؤمنين.

وانظر الباب الثالث من القسم الثاني من كتاب (الشفاء) لعياض.

الحكم الثاني: تحريم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس بقوله { وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً } وهو تقرير لحكم أمومة أزواجه للمؤمنين السالف في قوله تعالى { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } [6].

{ **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً** } استئناف مؤكّد لمضمون جملة { وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله }.

والإشارة إلى ما ذكر من إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم وتزوّج أزواجه.

{ **عَظِيماً** } في الإثم والجريمة. وتقييد العظيم بكونه { عِنْدَ اللَّهِ } للتهويل والتخويف، لأنه عظيم في الشناعة.

وأعلم أنه لم يتبين هل التحريم الذي في الآية يختصّ بالنساء اللاتي بنى بهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو هو يعمّ كل امرأة عقد عليها مثل الكِندية التي استعاذت منه، فقال لها: **الحقي بأهلك** ، فتزوّجها الأشعث بن قيس في زمن عمر بن الخطاب. ومثل قتيلة بنت قيس الكلبية التي زوّجها أخوها الأشعث بن قيس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حملها معه إلى حضرموت فتوفي رسول الله قبل قفولهما، فتزوّجها عكرمة بن أبي جهل، وأنّ أبا بكر هم بعقابه فقال له عمر: إنّ رسول الله لم يدخل بها.

والمرويات في هذا الباب ضعيفة، والبحث في هذه المسألة تفقه لا يبنى عليه عمل.

{ إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [54]

كلام جامع تحريضا وتحذيرا ومنبئ عن وعيد، فإنّ ما قبله قد حوى أمرا ونهيا، وإذ كان الامتثال متفاوتا في الظاهر والباطن وبخاصة في النوايا والمضمَرات كان المقام مناسبا لتنبيههم بأنّ الله مطّلع على كل حال من أحوالهم. والجملة تذييل.

{ **شَيْئاً** } خصوص أحوال الناس الظاهرة والباطنة ، لأنّ النكرة في سياق الشرط تعم.

{ **بِكُلِّ شَيْءٍ** } جميع الموجودات.

{ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً } [55]

تخصيص من عموم الأمر بالحجاب، وإنّما رفع الجُناح عن نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيها على أنهنّ مأمورات بالحجاب كما أمر رجال المسلمين بذلك معهنّ، فكان المعنى: لا جناح عليهن ولا عليكم.

{ **فِي آبَائِهِنَّ ...**} المجرور مقدّر فيه مضاف تقديره: في رؤية آبائهن إيّاهن.

{ **وَلا نِسَائِهِنَّ** } المراد جميع النساء.

ولم يذكر من أصناف الأقرباء الأعمام ولا الأخوال لأنّ ذكر أبناء الإخوان وأبناء الأخوات يقتضي اتحاد الحكم، من أنّه لمّا رفع الحرج عنهنّ فيمن هنّ عمّات لهنّ أو خالات، كان رفع الحرج عنهنّ في الأعمام والأخوال كذلك، وأمّا قرابة الرضاعة فمعلومة من السنّة، فأريد الاختصار هنا، إذ المقصود التنبيه على تحقيق الحجاب ليفضي إلى قوله تعالى { وَاتَّقِينَ اللَّهَ }.

{ **وَاتَّقِينَ اللَّهَ** } التفت من الغيبة إلى خطابهن لتشريف نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بتوجيه الخطاب إليهن.

الشهيد: الشاهد مبالغة في الفعل.

{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [56]

أعقبت أحكام معاملة أزواج النبيّ عليه الصلاة والسلام بالثناء عليه وتشريف مقامه إيماء إلى أنّ تلك الأحكام جارية على مناسبة عظمة مقام النبيّ عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى، وإلى أنّ لأزواجه من ذلك التشريف حظا عظيما. ولذلك كانت صيغة الصلاة عليه التي علّمها للمسلمين مشتملة على ذكر أزواجه، وليجعل ذلك تمهيدا لأمر المؤمنين بتكرير ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالثناء والدعاء والتعظيم.

وذكر صلاة الملائكة مع صلاة الله ليكون مثالا لصلاة أشرف المخلوقات على الرسول، لتقريب درجة صلاة المؤمنين التي يؤمرون بها عقب ذلك.

{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } التأكيد للاهتمام، ومجيء الجملة الاسمية لتقوية الخبر، وافتتاحها باسم الجلالة لإدخال المهابة والتعظيم في هذا الحكم. وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيرا إلى تكرير ذلك منهم إسوة بصلاة الله وملائكته.

والصلاة من الله والملائكة تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ } [43].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ } هي المقصودة وما قبلها توطئة لها وتمهيدا، لأنّ الله لمّا حذر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام أعقبه بأنّ ذلك ليس هو أقصى حظّهم من معاملة رسولهم، أن يتركوا أذاه، بل حظّهم أن يصلّوا عليه ويسلّموا، وذلك هو إكرامهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام فيما بينهم وبين ربّهم، فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى.

{ صَلُّوا عَلَيْهِ } الأمر بالصلاة عليه معناه: إيجاد الصلاة، وهي الدعاء، فالأمر يؤول إلى إيجاد أقوال فيها دعاء، وهو مجمل في الكيفية.

الصلاة: ذكر بخير، وأقوال تجلب الخير، فلا جرم كان الدعاء هو أشهر مسميات الصلاة.

<u>صلاة الله</u>: كلامه الذي يقدّر به خيرا لرسوله صلى الله عليه وسلم، لأن حقيقة الدعاء في جانب الله معطّل، لأنّ الله هو الذي يدعوه الناس.

<u>صلاة الملائكة والناس</u>: استغفار ودعاء بالرحمات.

والصحابة لما نزلت هذه الآية سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن كيفية هذه الصلاة قالوا: " يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمناه فكيف نصلي عليك ؟ "، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" قولوا: اللّهم صل على محمد وعلى أزواجه وذرّيته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذرّيته كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد "**. هذه رواية مالك في الموطأ عن أبي حميد الساعدي.

وهناك روايات خمس أخرى متقاربة المعنى وفي بعضها زيادة، وقد استقصاها ابن العربي في (أحكام

القرآن)، ومرجع صيغها إلى التوجّه إلى الله بأن يُفيض خيرات على رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنّ معنى الصلاة الدعاء.

وقال جمهور العلماء: هي في الصلاة مستحبة، وهي في التشهد الأخير.

ومن أسباب الصلاة عليه أن يصلّي عليه من جرى ذكره عنده، وكذلك في افتتاح الكتب والرسائل، وعند الدعاء، وعند سماع الأذان، وعند انتهاء المؤذن، وعند دخول المسجد، وفي التشهد الأخير.

واعلم أنّا لم نقف على أنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا يصلّون على النبيّ كلّما ذُكر اسمه ولا أن يكتبوا الصلاة عليه إذا كتبوا اسمه، ولم نقف على تعيين مبدأ كتابة ذلك بين المسلمين.

والذي يبدوا أنّهم كانوا يصلون على النبيّ إذا تذكروا بعض شؤونه كما كانوا يترحّمون على الميت إذا ذكروا بعض محاسنه. ثم أحدثت الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم في أوائل الكتب في زمن هارون الرشيد، ذكر ذلك ابن الأثير في (الكامل) في سنة إحدى وثمانين ومائة (181هـ)، وذكره عياض في (الشفاء)، ولم يذكرا صيغة التصلية.

ولا شك أن إتباع اسم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه في كتب الحديث والتفسير وغيرها كان موجودا في القرن الرابع، وقد وقفت على قطعة عتيقة من تفسير يحيى بن سلام البصري مؤرّخ نسخها سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة (383هـ) فإذا فيها الصلاة على النبيّ عقب ذكره اسمه.

وأحسب أنّ **الذين سنّوا ذلك هم أهل الحديث**، قال **النووي** في مقدّمة شرحه على (صحيح مسلم): " يُستحب لكاتب الحديث إذا مرّ ذكر الله أن يكتب عزّ وجلّ، أو تعالى، أو سبحانه وتعالى، أو تبارك وتعالى، أو جلّ ذكره، أو تبارك اسمه، أو جلّت عظمته، أو ما أشبه ذلك، وكذلك يكتب عند ذكر النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بكاملها لا رامزا إليها ولا مقتصرا على بعضها، ويكتب ذلك وإن لم يكن مكتوبا في الأصل الذي ينقل منه، فإن هذا ليس رواية وإنّما هو دعاء. وينبغي للقارئ أن يقرأ كل ما ذكرناه وإن لم يكن مذكورا في الأصل الذي يقرأ منه ولا يسأم من تكرّر ذلك، ومن أغفل ذلك حُرم خيرا عظيما ".

{ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } القول فيه كالقول في { صَلُّوا عَلَيْهِ } حكما ومكانا وصفة، فإنّ صفته حُدِّدت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" والسلام كما قد علمتم "**، فإنّ المعلوم هو صيغته التي في التشهد **" السلام عليك أيها النبيء ورحمة الله وبركاته "**.

التسليم: مشهور في التحية بالسلام، والسلام فيه بمعنى الأمان والسلامة، وجعل تحيّة في الأولين عند اللقاء مبادأة بالتأمين من الاعتداء والثأر ونحو ذلك، إذ كانوا إذ اتقوا أحدا توجّسوا خيفة أن يكون مضمرا شرّا لملاقيه، فكلاهما يدفع ذلك الخوف بالإخبار بأنّه ملق على ملاقيه سلامة وأمنا. ثم شاع ذلك حتى صار هذا

اللفظ دالا على الكرامة والتلطّف.
والآية تضمّنت الأمر بشيئين: الصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه،

{ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً } [57]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّه لمّا أرشد الله المؤمنين إلى تناهي مراتب حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وتكريمه وحذّرهم ممّا قد يخفى على بعضهم من خفيِّ الأذى في جانبه بقوله { إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبيّ } [53] وقوله { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ } [53]، وعلّمهم كيف يعاملونه معاملة التوقير والتكريم بقوله { وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ } [53] وقوله { وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً } [53] وقوله { إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبيّ } [56]، وعلم أنّهم قد امتثلوا أو تعلّموا، أردف ذلك بوعيد قوم أتّسموا بسمات المؤمنين وكان من دأبهم السعي فيما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام فأعلم الله المؤمنين بأنّ أولئك ملعونون في الدنيا والآخرة، وأنّهم منافقون، لأنّ مثل هذا الوعيد لا يُعهد إلّا للكافرين.
{ إِنَّ الَّذِين } جيء باسم الموصول للدلالة على أنّهم عُرفوا بأنّ إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم من أحوالهم المختصّة بهم، ولدلالة الصلة على أنّ أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم هو علّة لعنهم وعذابهم.
{ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } القرن بين أذى الله ورسوله للإشارة إلى أنّ أذى الرسول صلى الله عليه وسلم يغضب الله تعالى، فكأنّه أذى لله. وفعل { يُؤْذُونَ } معدًى إلى أسم الله على معنى المجاز المرسل في اجتلاب غضب الله، وتعديته إلى الرسول حقيقة. فاستعمل { يُؤْذُونَ } في معنييه المجازي والحقيقي.
ومعنى هذا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من آذاني فقد آذى الله "**. وأذى الرسول عليه الصلاة والسلام يحصل بالإنكار عليه فيما يفعله، وبالكيد له، وبأذى أهله، مثل المتكلّمين في الإفك، والطاعنين أعماله، كالطعن في إمارة زيد وأسامة، والطعن في أخذه صفية لنفسه.
وعن ابن عباس: " أنّها نزلت في الذين طعنوا في اتخاذ النبيّ صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي لنفسه ".
اللعن: الإبعاد عن الرحمة وتحقير الملعون. في الدنيا محقَّرون عند المسلمين ومحرومون من لطف الله وعنايته، وهم في الآخرة محقَّرون بالإهانة في الحشر وفي الدخول في النار.
العذاب المهين: هو عذاب جهنّم في الآخرة، وهو **مهين** لأنّه عذاب مشوب بتحقير وخزي.

{ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً } [58]

ألحقت حرمة المؤمنين بحرمة الرسول صلى الله عليه وسلم تنويها بشأنهم، وذُكروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبة الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا من الاستطراد، معترض بين أحكام حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وآداب أزواجه وبناته المؤمنات.

{ **الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } للتصريح بمساواة الحكم، وإن كان ذلك معلوما من الشريعة، لوزع المؤذين عن أذى المؤمنات لأنّهنّ جانب ضعيف بخلاف الرجال فقد يزعهم عنهم اتقاء غضبهم وثأرهم لأنفسهم.

الأذى: هنا أذى القول بقرينة قوله تعالى { فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً }، لأنّ **البهتان** من أنواع الأقوال المحقَّرة.

{ **بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا** } الضمير عائد إلى المؤمنين والمؤمنات على سبيل التغليب، والمجرور في موضع الحال. وليس المراد بالحال تقييد الحكم حتّى يكون مفهومه جواز أذى المؤمنين والمؤمنات بما اكتسبوا.

أي: أن يُسَبُّوا بعمل ذميم اكتسبوه، لأنّ الجزاء على ذلك ليس موكولا لعموم الناس ولكنه موكول إلي ولّاة الأمور. وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وقال: هي أن تذكر أخاك بما يكره. فقيل: وإن كان حقّا. قال: إن كان غير حق فذلك البهتان.

{ **احْتَمَلُوا** } كلّفوا أنفسهم حملا، وذلك تمثيل للبهتان بحمل ثقيل على صاحبه، وتقدّم نظيره في قوله { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً } [النساء:112].

{ **وَإِثْماً مُبِيناً** } أتبع ذلك التحقير بأنّه إثم مبين. أي: العظيم القوي، وهو وعيد بالعقاب عليه.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [59]

أتبع النهي عن أذى المؤمنات بأن أُمرن باتقاء أسباب الأذى لأنّ من شأن المطالب السعي في تذليل وسائلها كما قال تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء:19]، وقال أبو الأسود:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنّ السفينة لا تجري على اليَبَسِ

وهذا يرجع إلى قاعدة التعاون على إقامة المصالح وإماتة المفاسد.

{ **لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ** } ابتدئ بأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وبناته لأنّهنّ أكمل النساء، فذِكرهنّ من ذِكر بعض أفراد العام للاهتمام به.

{ **وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ** } النساء: اسم جمع للمرأة لا مفرد له من لفظه، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَلا نِسَائِهِنَّ } [55]. فليس المراد بالنساء هنا أزواج المؤمنين بل المراد الإناث المؤمنات.

الإدناء: التقريب، وهو كناية عن اللبس والوضع، أي: يضعن عليهن جلابيبهن. فالإدناء هنا اللبس.
وكان لبس الجلباب من شعار الحرائر فكانت الإماء لا يلبسن الجلابيب. وكانت الحرائر يلبسن الجلابيب عند الخروج إلى الزيارات ونحوها فكن لا يلبسنها في الليل وعند الخروج إلى المناصع، وما كنّ يخرجن إليها إلّا ليلا فأمرن بلبس الجلابيب في كل الخروج ليعرف أنّهنّ حرائر فلا يُتعرض إليهن. فهذا من سدّ الذريعة.
الجلابيب: جمع جلباب وهو ثوب أصغر من الرداء وأكبر من الخمار والقناع، تضعه المرأة على رأسها فيتدلى جانباه على عذَارَيْها وينسدل سائره على كتفيها وظهرها، تلبسه عند الخروج والسفر.
وهيئات لبس الجلابيب مختلفة باختلاف أحوال النساء تبيّنها العادات.
{ **ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** } المقصود من الآية. والإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى الإدناء المفهوم من { يُدْنِينَ}.
{ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** } تذليل، صفح عمّا سبق من الأذى قبل تنبيه الناس إلى هذا الأدب الإسلامي، والتذييل يقتضي إنهاء الغرض.

{ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً [60] مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً [61] }.

انتقال من زجر قوم عُرفوا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمؤمنات، ومن توعُّدهم بغضب الله عليهم في الدنيا والآخرة إلى تهديدهم بعقاب في الدنيا يشرّعه الله لهم إن هم لم يقلعوا عن ذلك.
وأولئك هم المنافقون الذين أبتدئ التعريض بهم من قوله تعالى { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ - إلى قوله تعالى – عَظِيماً } [53]، ثم من قوله { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - إلى قوله - ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ } [57-59].
{ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ** } استئناف ابتدائي. وحذف مفعول { يَنْتَهِ } لظهوره، أي: لم ينتهوا عن أذى الرسول والمؤمنين
{ **لَئِنْ** } اللام موطئة للقسم، فالكلام بعدها قسم محذوف. والتقدير: والله لئن لم ينته.
{ **الْمُنَافِقُونَ** } صرِّح هنا بما كُنِّي عنه في الآيات السالفة إذ عبر عنهم بالمنافقين فعُلم أنّ الذين يؤذون الله ورسوله هم المنافقون ومن لفّ لفّهم.
{ **وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } قد ذكرناهم في أوّل السورة وهم المنطوون على النفاق، أو التردّد في الإيمان.
{ **وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** } كان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين لأنّ قوله عقبه {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} لا يساعد أنّ فيهم مؤمنين.
فهذه الأوصاف لأصناف من الناس.

الإرجاف: من الرجف، والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل. وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها. فالمرجفون قوم يتلقّون الأخبار فيحدِّثون بها في مجالس ونوادٍ ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل. ومعنى الإرجاف هنا: أنّهم يرجفون بما يؤذي النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمسلمات.

{ **لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ** } لام جواب القسم، وجواب القسم دليل على جواب الشرط.

الإغراء: الحثّ والتحريض على فعل. ويتعدّى فعله بحرف (على) و (الباء). والأكثر أنّ تعديته بـ (على) تفيد حثًّا على الفعل مطلقا، وأنّ تعديته بـ (الباء) تفيد حثًّا على الإيقاع بشخص، لأنّ الباء للملابسة.

فالمعنى: لنغرينك بعقوبتهم.

{ **ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً** } اختير العطف بـ { ثُمَّ } دون (الفاء) للدلالة على تراخي انتفاء المجاورة عن الإغراء بهم تراخي رتبة، لأنّ الخروج من الأوطان أشد على النفوس ممّا يلحقها من ضرّ في الأبدان كما قال تعالى { وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191]، أي: وفتنة الإخراج من بلدهم أشد عليهم من القتل.

{ **إِلَّا قَلِيلاً** } الاستثناء لتأكيد نفي المجاورة وأنّه ليس على طريقة المبالغة، أي: لا يبقون معك في المدينة إلّا مدة قليلة، وهي ما بين نزول الآية والإيقاع بهم.

{ **مَلْعُونِينَ** } حال ممّا تضمّنه { قَلِيلاً } من معنى الجوار. والتقدير: إلّا جوارهم ملعونين.

اللعن: الإبعاد والطرد. وتقدّم قوله تعالى { وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [الحجر:35]، وهو مستعمل هنا كناية عن الإهانة والتجنّب، فتضمَّن أن يكونوا متوارين مختفين خوفا من بطش المؤمنين بهم حيث أغراهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، ففي قوله تعالى { مَلْعُونِينَ } إيجاز بديع.

{ **أَيْنَمَا ثُقِفُوا** } ظرف مضاف أفاد عموم أمكنة المدينة. و{ أَيْنَمَا } اسم زمان متضمّن معنى الشرط.

الثقف: الظفر والعثور على العدو بدون قصد.

{ **أُخِذُوا** } أمسكوا. والأخذ: الإمساك والقبض، أي: أسروا.

التقتيل: قوّة القتل. والقوة هنا بمعنى الكثرة، لأنّ الشيء الكثير قوي في أصناف نوعه، وأيضا هو شديد في كونه سريعا لا إمهال لهم فيه.

{ **تَقْتِيلاً** } مصدر مؤكد لعامله، أي: قتلوا قتلا شديدا شاملا. فالتأكيد هنا تأكيد لتسلط القتل على جميع الأفراد لرفع احتمال المجاز في عموم القتل، فالمعنى: قتلوا قتلا شديدا لا يفلت منه أحد.

وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف فلم يقع التقتيل فيهم إذ لم يحفظ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدا ولا أنّهم خرج منهم أحد.

وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها لأنّ إصلاح الفاسد يُكسب الأمّة فردا صالحا أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده "**.

{ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [62]

{ **سُنَّةَ اللَّهِ** } انتصب على أنّه مفعول مطلق نائب عن فعله. والتقدير: سنّ الله إغراءك بهم سنّته في أعداء الأنبياء السالفين، وفي الكفّار المشركين الذين قُتلوا وأُخذوا في غزوة بدر وغيرها.

{ **فِي** } للظرفية المجازية، شُبِّهت السنّة التي عوملوا بها بشيء في وسطهم كناية عن تغلغلها فيهم وتناولها جميعهم، ولو جاء الكلام على غير المجاز لقيل: سنة الله مع الذين خلوا.

{ **الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ** } الذين مضوا وتقدّموا. الأظهر أنّ المراد بهم من سبقوا من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم الذين أذنه الله بقتلهم، مثل الذين قُتلوا من يهود قريظة. وهذا أظهر، لأنّه أوقع في الموعظة.

ويحتمل أيضا أن يشمل الأمم السالفة الذين غضب الله عليهم لأذاهم رسلهم فاستأصلهم الله تعالى.

{ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** } تذييل، لزيادة تحقيق أنّ العذاب حائق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا عمّا هم فيه، وأنّ الله لا يخالف سنته لأنّها مقتضى حكمته وعلمه.

{ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً } [63]

لمّا كان تهديد المنافقين بعذاب الدنيا يُذكِّر بالخوض في عذاب الآخرة: خوض المكذِّبين الساخرين، وخوض المؤمنين الخائفين، وخوض أهل الكتاب، اتبع ذلك بهذا.

فالجملة معترضة بين جملة { ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً } [60] وبين جملة { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً } [64] لتكون تمهيدا لجملة { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ }.

{ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ** } تكرّر في القرآن ذكر سؤال الناس عن الساعة، **والسائلون أصناف:**

منهم المكذِّبون بها وهم أكثر السائلين، وسؤالهم تهكّم واستدلال بإبطائها على عدم وجودها في أنظارهم السقيمة، قال تعالى { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } [الشورى:18]، وهؤلاء هم الذين كثر في القرآن إسناد السؤال إليهم معبَّرا عنهم بضمير الغيبة كقوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ } [الأعراف:187].

وصنف مؤمنون مصدِّقون بأنّها واقعة لكنّهم يسألون عن أحوالها وأهوالها، وهؤلاء هم الذين في قوله تعالى { والذين آمنوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقّ } [الشورى:18].

وصنف مؤمنون يسألون عنها محبة لمعرفة المغيَّبات، وهؤلاء نُهوا عن الاشتغال بذلك كما في الحديث: " أنّ رجلا سأل رسول الله: متى الساعة ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ماذا أعددت لها ؟** فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم سوى أنّى أحبُّ الله ورسوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أنت مع من أحببت "**.

وصنف يسأل اختبارا للنبيّ صلى الله عليه وسلم لعلّه يجيب بما يخالف ما في علمهم فيجعلونه حجّه بينهم على انتفاء نبوّته. وهؤلاء اليهود نظير سؤالهم عن أهل الكهف وعن الروح.

وأهل هذه الأصناف الأربعة موجودون بالمدينة حين نزول هذه الآية.

وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187].

{ **وَمَا يُدْرِيكَ** } الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم. و{ مَا } استفهام، ما صدقها شيء.

{ **يُدْرِيكَ** } من أدراه، إذا أعلمه.

{ **لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً** } مستأنفة لإنشاء رجاء.

{ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً [64] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً [65] }

هذا حظ الكافرين من وعيد الساعة، وهذه لعنة الآخرة قُفِّيت بها لعنة الدنيا في قوله تعالى { مَلْعُونِينَ } [61]، ولذلك عطف عليها { وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً } فكانت لعنة الدنيا مقترنة بالأخذ والتقتيل ولعنة الآخرة مقترنة بالسعير. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ جملة { ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً - إلى قوله - وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [60-62] تثير في نفوس السامعين السؤل: هل ذلك منتهى ما عوقبوا به أو لهم من ورائه عذاب؟ فكان قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ...} جوابا عن ذلك.

{ **إِنَّ** } حرف التوكيد للاهتمام بالخبر، أو منظور به إلى السامعين من الكافرين.

{ **الْكَافِرِينَ** } التعريف يحتمل أن يكون للعهد، أي: الكافرين الذين كانوا شاقُّوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وآذوه وأرجفوا في المدينة، وهم المنافقون ومن ناصرهم من المشركين ومن اليهود في وقعة الأحزاب.

ويحتمل أن يكون التعريف للاستغراق، أي: كلّ كافر.

وعلى الوجهين فصيغة الماضي في فعل { **لَعَنَ** } مستعملة في تحقيق الوقوع.

السعير: النار شديدة الإيقاد. وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: مسعورة.

{ **لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً** } حال من ضمير { **خَالِدِينَ** }، أي: خالدين في حالة انتفاء الولي والنصير عنهم، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

{ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ } [66]

التقليب: شدّة القلب. و**القلب**: تغيير وضع الشيء على غير الجهة التي كان عليها.

وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء لأنّ حرّ النار يؤذي الوجه أشد ممّا يؤذي بقيّة الجلد، لأنّه مقر الحواس الرقيقة: العيون والأفواه والآذان والمنافس، كقوله تعالى { أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الزمر:24].

{ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا } حرف الـ { يَا } للتنبيه لقصد إسماع من يرثي لحالهم، مثل { يَا حَسْرَتَنَا } [الأنعام:31].

التمنّي: هنا كناية عن التندّم على ما فات، وكذلك نحو { يَا حَسْرَتَنَا } أي: أنّ الحسرة غير مجدية.

فتمنّوا يومئذ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلّغ عن الله تعالى.

{ الرَّسُولا } الألف في الآخر لرعاية الفواصل التي بنيت عليها السورة، فإنّها بنيت على فاصلة الألف.

{ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا [67] رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً [68] }.

عطف على جملة { يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ } [66] فهي حال. وجيء بها في صيغة الماضي لأنّ هذا القول كان متقدّما على قولهم { يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا } [66]، فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسّهم العذاب، وهذا التنصّل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب وحشرهم مع رؤسائهم إلى جهنّم، قال تعالى { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ } [الأعراف:38]. فدلّ على أنّ ذلك قبل أن يمسّهم العذاب.

{ رَبَّنَا } الابتداء بالنداء ووصف الربوبية إظهار للتضرّع والابتهال.

{ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا } خبر مستعمل في الشكاية والتذمّر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم. فالمقصود الإفضاء إلى جملة { رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ }. والمقصود من هذا الخبر أيضا الاعتذار والتنصّل من تبعة ضلالهم بأنّهم مخدوعون، وهو اعتذار مردود عليهم.

وحرف التوكيد لمجرّد الاهتمام لا لرد إنكار.

السادة: جمع سيد. والسادة: عظماء القوم والقبائل مثل الملوك.

الكُبراء: جمع كبير وهو عظيم العشيرة، وهم دون السادة، فإنّ كبيرا يطلق على رأس العائلة.

{ السَّبِيلا } القول في ألفها كالقول في ألف { الرَّسُولا } [66].

{ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ } إعادة النداء تأكيد للضراعة والابتهال وتمهيدا لقبول سؤلهم حتّى إذا قُبل

سؤلهم طمعوا في التخلّص من العذاب الذي ألقوه على كاهل كبرائهم.
الضِعف: (بكسر الضاد) العدد المماثل للمعدود، فالأربعة ضعف الاثنين. ولمّا كان العذاب معنى من المعاني لا ذاتا كان معنى تكرير العدد فيه مجازا في القوّة والشدّة. والتثنية { **ضِعْفَيْنِ** } مستعملة في مطلق التكرير كناية عن شدّة العذاب، ولذلك كان مساويا لقوله تعالى { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ} [الأعراف:38].
وهذا تعريض بإلقاء تبعة الضلال عليهم، وأنّ العذاب الذي أعدّ لهم يسلّط على أولئك الذين أضلُّوهم.
{ **وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيرًا** } ووصف اللعن بـ { كَثِيرًا } (في قراءة نافع) و{ كَبِيرًا } (في قراءة عاصم)، كما وصف العذاب بالضعفين إشارة إلى أنّ الكبراء استحقّوا عذابًا لكفرهم وعذابًا لتسبُّبهم في كفر أتباعهم.
وقد ذُكر في الأعراف جوابهم من قبل الجلالة بقوله تعالى { قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ } [الأعراف:38]، يعني أنّ الكبراء استحقُّوا مضاعفة العذاب لضلالهم وإضلالهم، وأنّ أتباعهم أيضا استحقوا العذاب لضلالهم وطاعتهم العمياء إيّاهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً } [69]

لمّا تقضَّى وعيد الذين يؤذون الرسول عليه الصلاة والسلام بالتكذيب ونحوه من الأذى المنبعث عن كفرهم، من المشركين والمنافقين، من قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [57] حذّر المؤمنين ممّا يؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم بتنزيههم عن أن يكونوا مثل قوم نسبوا إلى رسولهم ما هو أذى له. فالتشبيه تنبيه وتحذير للمؤمنين كي لا يقعوا في مثل تلك العنجهية.
وفائدة التشبيه تشويه الحالة المشبّهة لأنّ المؤمنين قد تقرّر في نفوسهم قبح ما أوذي به موسى عليه السلام بما سبق من القرآن كقوله تعالى { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } [الصف:5].
والذين آذوا موسى هم طوائف من قومه، ولم يكن قصدهم أذاه ولكنّهم أهملوا واجب كمال الأدب والرعاية مع أعظم الناس بينهم. وقد حكى الله عنهم ذلك إجمالا وتفصيلا بقوله { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ } [الصف:5]، فلم يكن هذا الأذى من قبيل التكذيب لأجل قوله { وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ }.
فالذين آذوا موسى قالوا مرة { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [المائدة:24] فآذوه بالعصيان وبضرب من التهكّم. وقالوا مرة { أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً } [البقرة:67] فنسبوه إلى الطيش والسخرية، ولذلك قال لهم { أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة:67].

وفي التوراة: " وقالوا لموسى فإذا بنا حتّى أخرجتنا من مصر، فإنّه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية ". [سفر الخروج، الإصحاح:14]، وفيها أيضا: " وقالوا لموسى وهارون إنّكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كلّ هذا الجمهور بالجوع ". [سفر الخروج، الإصحاح:16]

{ **فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** } إدماج وانتهاز للمقام بذكر براءة موسى ممّا قالوا، ولا اتصال له بوجه التشبيه، لأنّ محل التشبيه هو قوله تعالى { كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى }.

{ **فَبَرَّأَهُ** } أظهر براءته عيانا لأنّ موسى كان بريئا ممّا قالوه من قبل أن يؤذوه بأقوالهم فليس وجود البراءة منه متفرّعة على أقوالهم ولكن الله أظهرها عقب أقوالهم.

{ **وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً** } معترضة في آخر الكلام ومفيدة سبب عناية الله بتبرئته.

الوجيه: صفة، أي: ذو الوجاهة. وهي الجاه وحسن القبول عند الناس. يقال: وَجُه الرجل (بضم الجيم) وجاهة فهو وجيه. وهذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الوجه الذي للإنسان.

فالمعنى: أنّه مرضي عنه مقبول له مستجاب الدعوة. وتقدّم قوله {وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [آل عمران:45]

{ **كَانَ** } دال على تمكن وجاهته عند الله تعالى.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً [70] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً [71] }.

بعد أن نهى الله المسلمين عمّا يؤذي النبيّ صلى الله عليه وسلم، ورَبَأ بهم عن أن يكونوا مثل الذين آذوا رسولهم وجَّه إليهم بعد ذلك نداء بأن يتَّسموا بالتقوى وسداد القول، لأنّ فائدة النهي عن المناكر التلبّس بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول. والقول السديد مبث الفضائل.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } ابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به واستجلاب الإصغاء إليه. ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أنّ الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به. ففيه تعريض بأنّ الذين يصدر منهم ما يؤذي النبيّ صلى الله عليه وسلم قصدا ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منّافقون.

{ **اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** } تقديم الأمر بالتقوى مشعر بأنّ ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شُعَب التقوى كما هو من شعب الإيمان.

السديد: الذي يوافق السداد. والسداد: الصواب والحقّ، ومنه تسديد السهم نحو الرميَّة. فشمل القول السديد الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل ابتداء السلام.

والقول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر. وفي الحديث الشريف: **" وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلّا حصائد ألسنتهم "**، وفي الحديث الآخر: **" رحم الله امرأ قال خيرا فغَنِم أو سكت فسلِم "**، وفي الحديث الآخر: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "**.

ومن القول السديد، قراءة القرآن على الناس، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن قوله صلى الله عليه وسلم: **" نضّر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها "**.

ومن القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء.

ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح.

ومن القول السديد الأذان والإقامة قال تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } [فاطر:10].

ومن القول السديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلّق بها، وبالقول السيّئ تشيع الضلالات والتمويهات فيغترّ الناس بها ويحسبون أنّهم يحسنون صنعا.

{ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } ولما في التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتي بهما جزاء بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب. وهو نشر على عكس اللفّ؛ فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد، لأنّ أكثر ما يفيده القول السديد إرشاد الناس إلى الصلاح، أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد.

وغفران الذنوب جزاء على التقوى، لأنّ عمود التقوى اجتناب الكبائر، وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة، والتحوّل عن المعاصي بعد الهمّ بها ضرب من مغفرتها.

{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً } عطف على الجملة السابقة، أي: وتفوزوا فوزا عظيما إذا أطعتم الله بامتثال أمره. وإنّما صيغت الجملة في صيغة الشرط وجوابه لإفادة العموم في المطيعين وأنواع الطاعات فصارت الجملة بهذين العمومين في قوة التذييل. وهذا نسج من نظم الكلام وهو إفادة غرضين بجملة واحدة.

{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [72]

استئناف ابتدائي أفاد الإنباء على سنّة عظيمة من سنن الله تعالى في تكوين العالم وما فيه وبخاصة الإنسان، ليرقب الناس في تصرفاتهم ومعاملاتهم مع ربّهم ومعاملات بعضهم مع بعض بمقدار جريهم على هذه السنّة ورعيهم تطبيقها.

والافتتاح بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر أو تنزيله، لغرابة شأنه، منزلة ما قد ينكره السامع.
وافتتاح الآية بمادة العرض، وصوغها في صيغة الماضي، وجعل متعلّقها السماوات والأرض والجبال والإنسان فيقتضي أنّه عرض أزلي في مبدأ التكوين عند تعلّق القدرة الربانية بإيجاد الموجودات الأرضية وإيداعها فصولها المقوّمة لمواهبها وخصائصها ومميّزاتها الملائمة لوفائها بما خُلقت لأجله كما حُمل قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } [الأعراف:172].
واختتام الآية بالعلة من قوله { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ } [73] إلى نهاية السورة يقتضي أن للأمانة المذكورة في هذه الآية مزيد اختصاص بالعبرة في أحوال المنافقين والمشركين من بين نوع الإنسان في رعي الأمانة وإضاعتها.
العرض: حقيقته إحضار شيء لآخر ليختاره أو يقبله، ومنه عرض الحوض على الناقة، أي: عرضه عليها أن تشرب منه، وعرض المجندين على الأمير لقبول من تأهّل منهم. وفي حديث ابن عمر: " عُرضتُ على رسول الله وأنا ابن أربع عشرة فردّني وعُرضتُ عليه وأنا ابن خمس عشرة فأجازني". وتقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } [هود:18]، وقوله تعالى { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً } [الكهف:48].
{ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ...**} هنا استعارة تمثيلية لوضع شيء في شيء لأنّه أهل له دون بقية الأشياء، وعدم وضعه في بقية الأشياء لعدم تأهّلها لذلك الشيء. فهو تمثيل لتعلّق علم الله تعالى بعدم صلاحية السماوات والأرض والجبال لإناطة ما عبر عنه بالأمانة بها وصلاحية الإنسان لذلك.
وفائدة هذا التمثيل تعظيم أمر هذه الأمانة إذ بلغت ألّا يطيق تحمّلها ما هو أعظم ما يبصره الناس من أجناس الموجودات. فتخصيص { **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } بالذكر من بين الموجودات لأنّهما أعظم المعروف للناس من الموجودات، وعطف { **الْجِبَالِ** } على { الْأَرْضِ } وهي منها، لأنّ الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها، كقوله تعالى { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } [الحشر:21].
وقرينة الاستعارة حالية، وهي عدم صحّة تعلّق العرض والإباء بالسماوات والأرض والجبال لانتفاء إدراكها فأنّى لها أن تختار وترفض وكذلك الإنسان باعتبار كون المراد منه جنسه وماهيته، لأنّ الماهية لا تفاوض ولا تختار كما يقال : الطبيعة عمياء، أي: لا اختيار لها، وإنّما تصدر منها آثارها قسرا.
{**عَرَضْنَا ، أَبَيْنَ ، يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا** } أجزاء للمركب التمثيلي. وهذه الأجزاء صالحة لأن يكون كل منها استعارة مفردة:
بأن يُشبَّه إيداع الأمانة في الإنسان وصرفها عن غيره بالعرض.
ويُشبَّه عدم قابليّة مواهي السماوات والأرض والجبال لإيداع الأمانة فيها بالإباء.

ويُشبَّه الإيداع بالتحميل والحمل.
ويُشبَّه عدم التلاؤم بين مواهي السماوات والأرض والجبال بالعجز عن قبول تلك الكائنات إياها وهو المعبر عنه بالإشفاق.
ويُشبَّه التلاؤم والقبول لإيداع وصف الأمانة في الإنسان بالحمل للثقل.
ومثل هذه الاستعارات كثير في الكلام البليغ. وصلوحية المركَّب التمثيلي للانحلال بأجزائه إلى استعارات معدود من كمال بلاغة ذلك التمثيل.

الأمانة: فهي ما يؤتمن عليه ويطالب بحفظه والوفاء دون إضاعة ولا إجحاف، وقد اختلف فيها المفسِّرون على عشرين قولا، فقيل: (الطاعة – الصلاة - مجموع الصلاة والصوم والاغتسال - جميع الفرائض - الانقياد إلى الدين - حفظ الفرج - أمانة التوحيد أو دلائل الوحدانية أو تجلّيّات الله بأسمائه - ما يؤتمن عليه ومنه الوفاء بالعهد، ومنه انتفاء الغش بالعمل - العقل - الخلافة، أي: خلافة الله في الأرض التي أودعها الإنسان كما قال تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]).

وهذه الأقوال ترجع إلى أصناف:
(صنف الطاعات والشرائع / صنف العقائد / صنف ضدّ الخيانة / صنف العقل / صنف خلافة الأرض).
ويجب أن يطرح منها صنف الشرائع لأنّها ليست لازمة لفطرة الإنسان فطالما خلت أمم عن التكليف بالشرائع وهم أهل الفتر فتسقط ستة أقوال وهي ما في الصنف الأول. ويبقى سائر الأصناف لأنّها مرتكزة في طبع الإنسان وفطرته.

فيجوز أن تكون الأمانة أمانة **الإيمان**، أي: توحيد الله، وهي العهد الذي أخذه الله على جنس بني آدم، وهو الذي في قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } [الأعراف:172]. فالمعنى: أنّ الله أودع في نفوس الناس دلائل الوحدانية، فهي ملازمة للفكر البشري فكأنّها عهد الله لهم به، وكأنّه أمانة ائتمنهم عليها لأنّه أودعها في الجبلّة ملازمة لها.

ويجوز أن تكون الأمانة هي **العقل** وتسميته أمانة تعظيم لشأنه، لأنّ الأشياء النفسية تودع عند من يحتفظ بها. والمعنى: أنّ الحكمة اقتضت أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة لأنّ خلقته ملائمة لأن يكون عاقلا.

ويجوز أن تكون الأمانة **ما يؤتمن عليه**، وذلك أنّ الإنسان مدنيّ بالطبع مخالط لبني جنسه فهو لا يخلو عن ائتمان أو أمانة فكان الإنسان متحمّلا لصفة الأمانة بفطرته والناس متفاوتون في الوفاء لما ائتمنوا عليه كما في الحديث: **" إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة "**، أي: إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامة على اختلال الفطرة، فكان في جملة الاختلالات المنذرة بدنو الساعة؛ مثل تكوير الشمس وانكدار النجوم.

والذي بيَّن هذا المعنى قول حذيفة: " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الأخر، حدثنا: " **أنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم عَلِموا من القرآن ثم عَلِموا من السنة** "، وحدثنا عن رفعها فقال: " **ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت** [الوكت: أثر في الشيء من غير لونه]، **ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل** [نفاخة في الجلد مرتفعة يكون ما تحتها فارغاً مثل ما يقع في أكف العملة بالفؤوس] **كجمر دَحْرَجْتَه على رِجلك فنفط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال : إن في بني فلان رجلا أمينا ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**" أي: من أمانة، لأنّ الإيمان من الأمانة لأنه عهد الله.

والقول في حمل معنى الأمانة **على خلافة الله تعالى في الأرض** مثل القول في العقل، لأنّ تلك الخلافة ما هيأ الإنسان لها إلّا العقل كما أشار إليه قوله { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30] ثم قوله تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } [البقرة:31]، فالخلافة في الأرض هي القيام بحفظ عمرانها ووضع الموجودات فيها في مواضعها، واستعمالها فيما استعدت إليه غرائزها.

والمتبادر من هذه المحامل أن يكون المراد بالأمانة حقيقتها المعلومة وهي الحفاظ على ما عهد به ورعيه والحذار من الإخلال به سهوا أو تقصيرا فيسمى تفريطا وإضاعة، أو عمدا فيسمَّى خيانة وخيسا، لأنّ هذا المحمل هو المناسب لورود هذه الآية في ختام السورة التي ابتدئت بوصف خيانة المنافقين واليهود وإخلالهم بالعهود وتلوّنهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ } [15] وقال أيضا { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [23].

وهذا المحمل يتضمّن أيضا أقرب المحامل بعده وهو العقل، لأنّ قبول الأخلاق فرع منه.

{ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** } محلّها الاعتراض بين جملة { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ } والمتعلق بفعلها وهو { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ } [73]. ومعناها استئناف بياني، لأنّ السامع خبر أنّ الإنسان تحمّل الأمانة يترقّب معرفة ما كان من حسن قيام الإنسان بما حمله وتحمّله. وليست الجملة تعليلية لأنّ تحمّل الأمانة لم يكن باختيار الإنسان فكيف يعلّل بأنّ حمله الأمانة من أجل ظلمه وجهله.

فالمعنى: أنّه قصّر في الوفاء بحق ما تحمّله تقصيرا، بعضه عن عمد، وهو المعبّر عنه بوصف ظلوم، وبعضه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء وهو المعبّر عنه بكونه جهولا.

ظلوم: مبالغة في الظلم، **جهول**: مبالغة في الجهل.

الظلم: الاعتداء على حق الغير وأريد به هنا الاعتداء على حق الله الملتزم له بتحمل الأمانة.

الجهل: انتفاء العلم بما يتعيّن علمه، والمراد به هنا انتفاء علم الإنسان بمواقع الصواب فيما تحمّل به.

فالقول مؤذن بكلام محذوف يدل هو عليه إذ التقدير: وحملها الإنسان فلم يفِ بها، إنّه كان ظلوما جهولا.
ويجوز أن يراد { ظَلُوماً جَهُولاً } في فطرته، أي: فيه طبع الظلم والجهل، فهو معرّض لهما ما لم يعصمه وازع الدين، فكان من ظلمه وجهله أن أضاع كثير من الناس الأمانة.
ولذلك أثنى الله على الذين وفوا بالعهود والأمانات فقال في هذه السورة { وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً } [15]، وقال فيها { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [23]، وقال جلّ شأنه { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } [مريم:54] وقال في ضدّ ذلك { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ - إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [البقرة:27/26].

{ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [73]

متعلق بقوله { وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ } [72]، لأنّ المنافقين والمشركين والمؤمنين من أصناف الإنسان.
{ **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ** } اللام للتعليل المجازي المسمّاة لام العاقبة. وقد تقدّم القول فيها غير مرة إحداها قوله { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً } [آل عمران:178]. وهي تفيد بيانا لما أجمل في قوله { إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جهولاً } [72] كما قدمناه آنفا، أي: فكان الإنسان فريقين: فريقا ظالما جاهلا، وفريقا راشد عالما.
{ **الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** } ذكر النساء في الآية إشارة إلى أنّ لهنّ شأنا، من ذلك ما كان في حوادث غزوة الخندق من إعانة لرجالهنّ على كيد المسلمين وبعكس ذلك حال نساء المسلمين.
{ **وَيَتُوبُ اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة، وكان الظاهر إضماره، لزيادة العناية بتلك التوبة لما في الإظهار في مقام الإضمار من العناية.
{ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** } بشارة للمؤمنين والمؤمنات بأن الله عاملهم بالغفران وما تقتضيه صفة الرحمة.
والمعنى: فعذّب الله المنافقين والمشركين على عدم الوفاء بالأمانة التي تحمّلوها في أصل الفطرة وبحسب الشريعة، وتاب على المؤمنين فغفر لهم من ذنوبهم لأنهم وفوا بالأمانة التي تحمّلوها. وهذا مثل قوله فيما مرّ { لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [24].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة سبأ

هذا اسمها الذي اشتُّهرت به في كتب السنّة وكتب التفسير وبين القرّاء، ولم أقف على تسميتها في عصر النبوّة. ووجه تسميتها به أنّها ذُكرت فيها قصة أهل سبأ.

وهي **مكية** وحكي اتفاق أهل التفسير عليه. وعن مقاتل أن آية { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ - إلى قوله - الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [6] نزلت بالمدينة. ولعلّه بناء على تأويلهم بأنّ { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } إنّما يراد بهم أهل الكتاب الذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام.

وهي السورة **الثامنة والخمسون** في عداد السور، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر.

وعدد آيها **أربع وخمسون** في عدّ الجمهور، وخمس وخمسون في عدّ أهل الشام.

أغراض السورة

*/ إبطال قواعد الشرك وأعظمها إشراكهم آلهة مع الله وإنكار البعث فابتدئ بدليل على انفراده تعالى بالإلهية ونفي أن تكون الأصنام شفعاء لعُبّادها.

*/ موضوع البعث. ومن ذلك إثبات البعث والجزاء.

*/ اثبات إحاطة علم الله بما في السماوات وما في الأرض.

*/ إثبات صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به، وصدق ما جاء به القرآن، وأنّ القرآن شهدت به علماء أهل الكتاب.

*/ تخلّل ذلك بضروب من تهديد المشركين وموعظتهم بما حلّ ببعض الأمم المشركين من قبل.

*/ عُرِّض بأنّ جَعْلهم لله شركاء كفران لنعمة الخالق، فضُرب لهم المثل بمن شكروا نعمة الله واتقوه فأوتوا خير الدنيا والآخرة وسُخِّرت لهم الخيرات مثل داود وسليمان، وبمن كفروا بالله فسُلِّطت عليه الأرزاء في الدنيا وأُعِدَّ لهم العذاب في الآخرة مثل سبأ.

*/ حُذِّروا من الشيطان، وذُكِّروا بأنّ ما هم فيه من قرّة العين يقرّبهم إلى الله.

*/ أنذِروا بما سيلقون يوم الجزاء من خزي وتكذيب وندامة وعدم النصير وخلود في العذاب.

*/ بُشِّر المؤمنون بالنعيم المقيم.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**} [1]

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } افتتحت السورة بـالحمد للتنبيه على أنّ السورة تتضمّن من دلائل تفرّده بالإلهية واتصافه بصفات العظمة ما يقتضي إنشاء الحمد له والإخبار باختصاصه به. فيجوز كونها إخبارا بأنّ جنس الحمد مستحقّ لله تعالى فتكون (اللام) في { لِلَّهِ } لام الملك. ويجوز أن تكون إنشاء ثناء على الله على وجه تعليم الناس أن يخصّوه بالحمد فتكون (اللام) للتبيين.

وتقدّم الكلام حولها في الفاتحة، وتقدّم الكلام على تعقيبه باسم الموصول في أوّل الأنعام وأوّل الكهف.

{ **الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } اقتضاء صلة الموصول أنّ ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى يجعل هذه الصلة صالحة لتكون علّة لإنشاء الثناء عليه، لأنّ ملكه لما في السماوات وما في الأرض ملك حقيقي، لأنّ سببه إيجادُ تلك المملوكات، وذلك الإيجاد عمل جميل يستحقّ صاحبه الحمد.

وفي الصلة تعريض بكفران المشركين الذين حمدوا أشياء ليس لها في هذه العوالم أدنى تأثير، ونسوا حمد مالكها وسائر ما في السماوات والأرض.

{ **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ** } عطف على الصلة، أي: والذي له الحمد في الآخرة، وهذا إنباء بأنّه مالك الأمر كلّه في الآخرة. وفي هذا التحميد براعة استهلال الغرض من السورة.

وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي: لا حمد في الآخرة إلّا له، فلا تتوجّه النفوس إلى حمد غيره، لأنّ الناس يومئذ في عالم الحق فلا تلتبس عليهم الصور.

واعلم أنّ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } وإن اقتضت قصر الحمد عليه تعالى قصرا مجازيا للمبالغة كما تقدّم في الفاتحة، بناء على أنّ حمد غير الله للاعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يديه، فلما شاع ذلك في جملة { الْحَمْدُ لِلَّهِ } وأريد إفادة أنّ الحمد لله مقصور عليه تعالى في الآخرة حقيقة غُيّرت صيغة الحمد المألوفة إلى صيغة { لَهُ الْحَمْدُ }.

{ **وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** } لما نيط حمده في الدنيا والآخرة بما اقتضى مرجع التصرّفات إليه في الدارين أعقب ذلك بصفتي { الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }، لأنّ الذي أوجد أحوال النشأتين هو عظيم الحكمة الخبير بدقائق الأشياء.

الحكمة: إتقان التصرف بالإيجاد وضدّه، و**الخبرة** تقتضي العلم بأوائل الأمور وعواقبها.

والقرن بين الصفتين هنا لأن كل واحدة تدل على معنى أصلي ومعنى لزومي، وهما مختلفان:

الحكيم: متقن التصرّف والصنع، مشتق من الإحكام وهو الإتقان، وهو يستلزم العلم بحقائق الأشياء.

الخبير: العليم بدقائق الأشياء وظواهرها بحيث لا يفوته شيء منها، وهو يستلزم التمكّن من تصريفها.

فالجمع بينهما إيماء إلى أنّ المقصود من الجملة قبله استحماق الذين اقبلوا في شؤونهم على آلهة باطلة.

{ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ } [2]

بيان لجملة { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } لأنّ العلم بما ذكر هنا هو العلم بذواتها وخصائصها وأسبابها وعللها وذلك عين الحكمة والخبرة، فإنّ العلم يقتضي العمل، وإتقان العمل بالعلم.

الولوج: الدخول والسلوك مثل ولوج المطر في أعماق الأرض.

الذي يخرج من الأرض: النبات والمعادن ...، و**الذي ينزل من السماء:** المطر والثلج والرياح...، و**الذي يعرج فيها:** ما يتصاعد في طبقات الجو من الرطوبات والعناصر التي تتبخّر في الطبقات الجوية، وما يسبح في الفضاء وما يطير في الهواء، وعروج الأرواح عند مفارقة الأجساد، قال تعالى { تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } [المعارج:4].

{ **يَلِجُ - يَخْرُجُ** } أوضح ما يُعبَّر به عن أحوال جميع الموجودات الأرضية بالنسبة إلى اتصالها بالأرض.

{ **يَنْزِلُ - يَعْرُجُ** } أوضح ما يُعبَّر به عن أحوال الموجودات السماوية بالنسبة إلى اتصالها بالسماء.

ولذلك لم يعطف السماء على الأرض في الآية، فلم يقل: يعلم ما يلج في الأرض والسماء، وما يخرج منهما، ولم يكتفي بإحدى الجملتين عن الأخرى.

{ **وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** } لمّا كان من جملة أحوال ما في الأرض أعمال الناس وأحوالهم من عقائد وسير، وممّا يعرج في السماء العمل الصالح والكلم الطيب أتبع ذلك بهذا القول، أي: مع علمه فهو واسع الرحمة وواسع المغفرة. وهذا إجمال قصد منه حثّ الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما، فإنّ من رغب في تحصيل شيء بحث عن وسائل تحصيله وسعى إليها.

وفيه تعريض بالمشركين أن يتوبوا عن الشرك فيغفر لهم ما قدموه.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [3]

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** } كان ذكر ما يلج في الأرض وما يخرج منها مشعرا بحال الموتى عند ولوجهم القبور وعند نشرهم منها، وكان ذكر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها موميًا إلى عروج الأرواح عند مفاقرة الأجساد، فكان ذكر ذلك مناسبة للتخلُّص إلى ذكر إنكار المشركين الحشر، لأنّ إبطال زعمهم من أهم مقاصد هذه السورة.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } تعريف المسند إليه بالموصولية لأنّ هذا الموصول صار كالعَلَم بالغلبة على المشركين

في اصطلاح القرآن وتعارف المسلمين.

{ السَّاعَةُ } علَم بالغلبة في القرآن على يوم القيامة وساعة الحشر.

{ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } لقَّن الله نبيّه صلى الله عليه وسلم الجواب عن قول الكافرين بالإبطال المؤكَّد، على عادة إرشاد القرآن في انتهاز الفرص لتبليغ العقائد.

{ بَلَى } حرف جواب مختصّ بإبطال النفي، فهو حرف إيجاب لما نفاه كلام قبله، وتقدّم حوله الكلام عند قوله تعالى { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً } [البقرة:81].

{ وَرَبِّي } أكَّد ما اقتضاه { بَلَى } من إثبات إتيان الساعة بالقسم على ذلك للدلالة على ثقة المتكلِّم بأنّها آتية.

{ لَتَأْتِيَنَّكُمْ } عُدِّي إتيانها إلى ضمير المخاطبين من بين جميع الناس، لأنّ المراد إتيان الساعة الذي يكون عنده عقابهم، كما يقال: أتاكم العدو، فتعلّقه بضمير المخاطبين قرينة على أنّه <u>كناية عن إتيان مكروه.</u>

{ أَتَى } يرد كثيرا في معنى حلول المكروه مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1] و{ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ } [الزمر:25] و{ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } [الأنعام:158].

{ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }

{ عَالِمِ الْغَيْبِ } خبر ثان عن ضمير الجلالة في قوله تعالى { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [1] في قراءة من قرأه بالرفع (نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب)، وصفة لـ { رَبِّي } المقسم به، في قراءة من قرأه بالجرّ (ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وخلف وروح عن يعقوب)، وقد اقتضت ذكره مناسبة تحقيق إتيان الساعة، فإن وقتها وأحوالها من الأمور المغيَّبة في علم الناس.

وفي هذه الصفة إتمام لتبيين سعة علمه تعالى، فبعد أن ذُكرت إحاطة علمه بالكائنات ظاهرها وخفيها جليلها ودقيقها أتبع بإحاطة علمه بما سيكون أنّه يكون ومتى يكون.

والغيب تقدم في قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3] على معان ذكرت هنالك.

وقد تكرّر في القرآن إتباع ذكر الساعة بذكر انفراده تعالى بعلمها لأنّ الكافرين بها جعلوا من عدم العلم بها دليلا سفسطائيا على أنّها ليست بواقعة، ولذلك سمَّاها القرآن الواقعة في قوله تعالى { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ } [الواقعة:2/1].

العزوب: الخفاء. ومادته تحوم حول معاني البعد عن النظر، وفي مضارعه ضمُّ العين وكسرها..

{ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ } تقدّم في قوله { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } [يونس:61]، إشارة إلى تقريب معنى إمكان الحشر، لأن الكافرين أحالوه بعلة أنّ الأجساد تصير رفاتا وترابا فلا تمكن إعادتها.

{ **وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** } إشارة إلى ما لا يعلمه إلّا الله من العناصر والقوى الدقيقة أجزاؤها الجليلة آثارها، وتسييرها بما يشمل الأرواح التي تحلّ في الأجسام والقوى التي تودعها فيها.

{ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [4] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ [5] }.

{ **لِيَجْزِيَ** } لام التعليل تتعلق بفعل { لَتَأْتِيَنَّكُمْ } [3] دون تقييد الإتيان بخصوص المخاطبين، بل المراد ما شملهم وغيرهم. والمعنى: أنّ الحكمة في إيجاد الساعة للبعث والحشر هي جزاء الصالحين على صلاح اعتقادهم وأعمالهم، وجزاء المفسدين جزاء سيّئا.

{ **أُولَئِكَ** } الإتيان باسم الإشارة لكلّ فريق للتنبيه على أنّ المشار إلية جدير بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما قبل أسم الإشارة من الأوصاف.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } جُعل جزاء الذين آمنوا مغفرة، أي: تجاوزوا عن آثامهم، ورزقا كريما، وهو ما يرزقون من النعيم على اختلاف درجاتهم.

{ **كَرِيمٌ** } النفيس في نوعه، كما تقدّم عند قوله تعالى { كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** } مقابلة لأولئك { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } لأنّ السعي في آيات الله يساوي معنى كفروا بها، وبذلك يشمل عمل السيئات، وهو سيّئة من السيئات.

{ **سَعَوْا فِي آيَاتِنَا** } اجتهدوا بالصدّ عنها ومحاولة إبطالها، فالسعي مستعار للجدّ في فعل ما، وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [الحج:51].

آيات الله: هنا القرآن، كما يدلّ عليه قوله بعد { الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ } [6].

{ **مُعَاجِزِينَ** } مبالغة في مُعْجزين، وهو تمثيل، شُبِّهت حالهم في مكرهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بحال من يمشي مشيا سريعا ليسبق غيه ويُعْجزه.

{ **لَهُمْ عَذَابٌ** } عذاب جهنم. **والرجز**: أسوأ العذاب، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [البقرة [59].

{ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[6]

عطف على { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [4]، تمهيد لإبطال قول المشركين في الرسول صلى الله عليه وسلم { أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [8]، لأنّ قولهم ذلك كناية عن بطلان ما جاءهم به من القرآن في زعمهم فكان جديرا بأن يمهّد لإبطاله بشهادة أهل العلم بأنّ ما جاء به الرسول هو الحقّ دون غيره من باطل أهل الشرك الجاهلين، فعطفُ هذه الجملة من عطفِ الأغراض.

وهذه طريقة في إبطال شُبَهِ أهل الضلالة والملاحدة، بأن يُقدَّم قبل ذكر الشبه ما يقابلها من إبطالها، وربما سلك أهل الجدل طريقه أخرى هي تقديم الشبه ثم الكُرور عليها بالإبطال، وهي طريقة عضد الدين في كتاب (المواقف)، وقد كان بعض أشياخنا يحكي انتقاد كثير من أهل العلم طريقته فلذلك خالفها التفتازاني في كتاب (المقاصد). والحقّ أنّ الطريقتين جادّتان وقد سُلكتا في القرآن.

{ وَيَرَى } الرؤية علمية. واختير فعل الرؤية هنا دون (ويَعْلَمُ) للتنبيه على أنّه علم يقيني بمنزلة العلم بالمرئيات التي علمها ضروري.

{ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } فسَّره بعض المفسّرين بأنّهم علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى فيكون هذا إخبارا عمّا في قلوبهم، كما في قوله تعالى في شأن الرهبان { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } [المائدة:83]، فهذا تحدٍّ للمشركين وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وليس احتجاجًا بأهل الكتاب لأنّهم لم يعلنوا به، ولا آمن أكثرهم، أو هو احتجاج بسكوتهم على إبطاله في أوائل الإسلام قبل أن يدعوهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ويحتجّ عليهم ببشائر رسلهم وأنبيائهم به. وبهذا تتبين أنّ إرادة علماء أهل الكتاب من هذه الآية لا يقتضي أن تكون نازلة بالمدينة حتّى يتوهّم الذين توهّموا أنّ هذه الآية مستثناة من مكيات السورة كما تقدم.

والأظهر أنّ المراد من { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } مَن آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل مكّة لأنّهم أوتوا القرآن. وفيه علم عظيم هم عالموه، على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه، فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فضا غليظا حتّى إذا أسلم رقّ قلبه وامتلأ صدره بالحكمة وانشرح لشرائع الإسلام واهتدى إلى الحقّ وإلى الطريق المستقيم. وأوّل مثال لهؤلاء وأشهره وأفضله هو عمر بن الخطاب للبون البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام. فإنّهم كانوا إذا لقوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أشرقت عليهم أنوار النبوّة فملأتهم حكمة وتقوى. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: **" لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها "**. وبفضل ذلك ساسوا الأمّة وافتتحوا الممالك وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم

وذمّيّهم ومعاهَدهم، وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة. وعلى هذا المحمل حُمل { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [الحج:54]، ويؤيّده قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ } [الروم:56].

{ **الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** } مفعول { يَرَى }. و{ **هُوَ** } ضمير فصل يفيد حصر الحقّ في القرآن حصرا إضافيا، ويجوز أيضا أن يفيد قصرا حقيقيا ادعائيا، أي قصر الحقّيّة المحض عليه، لأنّ غيره من الكتب خلط حقّها بباطل.

{ **وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } العدول عن الوصف إلى صيغة المضارع للإشعار بتجدّد الهداية.

{ **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } لأنّه صراط يُبلِّغ إلى العزّة قال تعالى { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون:8]، ويُبلِّغ إلى الحمد، أي: الخصال الموجبة للحمد، وهي الكمالات من الفضائل والفواضل.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [7] أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ [8] }.

انتقال إلى قولة أخرى من شناعة أهل الشرك معطوفة على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ } [3]. وهذا القول قائم مقام الاستدلال على القول الأوّل، لأنّ قولهم { لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ } دعوى، وقولهم { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } مستند تلك الدعوى.

أدمجوا في الاستدلال التعجيب من الذي يأتي بنقيض دليلهم، ثم إرداف ذلك التعجيب بالطعن في المتعجب به.

{ **هَلْ نَدُلُّكُمْ** } الاستفهام مستعمل في العرض مثل قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } [النازعات:18]، وهو عرض مكنًّى به عن التعجيب، أي: هل ندلكم على أعجوبة من رجل ينبّئكم بهذا النبأ المحال..

والمخاطب غير مذكور لأنّ المقصود في الآية الاعتبار بشناعة القول ولا غرض يتعلّق بالمقول لهم.

فيجوز أن يكون قولهم هذا تقاولا بينهم، أو يقوله بعضهم لبعض، أو يقوله كبراؤهم لعامتهم ودهمائهم.

ويجوز أن يكون قول كفار مكّة للواردين عليهم في الموسم. وهذا الذي يؤذن به فعل { نَدُلُّكُمْ }.

وقد كان المشركون هيّأوا ما يكون جوابا للذين يردون عليهم في الموسم من قبائل العرب يتساءلون عن خبر هذا الذي ظهر فيهم يدَّعى أنّه رسول من الله إلى الناس، وعن الوحي الذي يبلّغه عن الله، كما ورد في خبر الوليد بن المغيرة إذ قال لقريش: إنّه قد حضر هذا الموسم وأنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيُكذِّب بعضكم بعضا ويرد قولُكم بعضه بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم قولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن؟ قال لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا يسجعه. قالوا فنقول مجنون؟ قال ما هو

بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخلُّجه ولا وسوسته، قالوا فنقول شاعر؟ قال: لقد عرفنا الشعر كلّه فما هو بالشعر، فقلوا: فنقول ساحر؟ قال: ما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول يا أبا شمس؟ قال: إنّ أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزجه وبين المرء وعشيرته.

فلعلّ المشركين كانوا يستقبلون الواردين على مكة بهاته المقالة { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } طمعا منهم بأنّها تصرف الناس عن النظر في الدعوة.

{ **نَدُلُّكُمْ** } نعرّفكم ونرشدكم. وأصل الدلالة الإرشاد إلى الطريق الموصل إلى مكان مطلوب. وغالب استعمال هذا الفعل أن يكون إرشاد من يطلب معرفة، وبذلك فالآية تقتضي أنّ هذا القول يقولونه للذين يسألونهم.

الإنباء: الإخبار عن أمر عظيم، وعظمة هذا القول عندهم عظمة إقدام قائله على ادعاء وقوع ما يرونه محال الوقوع.

{ **إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** } شبه جملة، ليس ممّا نَبَّأ به الرجل وإنّما هو اعتراض في كلام الحاكين تنبيها على استحالة ما يقوله. وتقديم هذا الاعتراض للاهتمام به ليتقرّر في أذهان السامعين لأنّه مناط الإحالة في زعمهم

التمزيق: تفكيك الأجزاء المتلاصقة بعضها عن بعض بحيث تصير قطعا متباعدة.

الممزَّق: مصدر ميمي لمزَّقه مثل المسرَّح للتسريح.

{ **كُلَّ** } مستعملة في معنى الكثرة.

{ **إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** } هي المنبَّأ به. ولمّا كان الإنباء في معنى القول لأنّه إخبار صح أن يقع بعده ما هو من قول المنبّأ، ولذلك اجتلبت (إنّ) المكسورة الهمزة لمراعاة حكاية القول.

الخلق الجديد: الحديث العهد بالوجود، أي: في خلق غير الخلق الأوّل الذي أبلاه الزمان، فجديد فعيل من **جَدَّ** بمعنى قطع. فأصل معنى جديد مقطوع، وأصله وصف للثوب الذي ينسجه الناسج فإذا أتمّه قطعه من المنوال. أريد به أنّه بحدثان قطعه، فصار كناية عن عدم لبسه، ثم شاع ذلك فصار الجديد وصفا بمعنى الحديث العهد، وتنوسي معنى المفعولية منه فصار وصفا بمعنى الفاعلية، فيقال: جَدَّ الثوب بالرقع، بمعنى: كان حديث عهد بنسج.

{ **أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ** } في موضع صفة ثانية لـ { رَجُل } أتوا بها استفهامية لتشريك المخاطبين معهم في ترديد الرجل بين هذين الحالين. وحذفت همزة فعل { أَفْتَرَى } لأنها همزة وصل فسقطت لأنّ همزة الاستفهام وصلت بالفعل. وجعلوا حال الرسول صلى الله عليه وسلم دائرا بين الكذب والجنون.

الافتراء: الاختلاق وإيجاد خبر لا مخبر له. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ** } ردّ الله عليهم استدلالهم بما أشار إلى أنّهم ضالون أو مضلِّون، وواهمون أو موهِمون فأبطل قولهم بحذافره بحرف الإضراب (بل)، ثم بالجملة.

فقابل ما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفين:

أنّهم في العذاب، وذلك مقابل قولهم { أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا }، لأنّ الذي يكذب على الله يسلط الله عليه عذابه.

وأنّهم في الضلال البعيد، وذلك مقابل قولهم { بِهِ جِنَّةٌ }.

{ **الضَّلَالِ** } خطأ الطريق الموصل إلى المقصود.

{ **الْبَعِيدِ** } وصف به الضلال باعتبار كونه وصفا لطريق الضال، لأنّ الضال كلّما توغّل مسافة في طريق الضلال ازداد بعدا عن المقصود، فاشتد ضلاله وعسر خلاصه.

{ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ } [9].

{ **أَفَلَمْ يَرَوْا** } الفاء للتفريع على قوله { بَلْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ } [8]، لأنّ رؤية مخلوقات الله في السماء والأرض من شأنها أن تهديهم لو تأمَّلوا حقّ التأمُّل.

والاستفهام للتعجب الذي يخالطه إنكار على انتفاء تأمّلهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض.

والرؤية بصرية بقرينة { إِلَى }. والمقصود: حثّهم على التأمّل والتدبّر ليتداركوا علمهم بما أهملوه. وهذا كقوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } [الروم:8].

{ **إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** } ما يستقبله كلّ أحد منهم من الكائنات السماوية والأرضية، وما هو وراءه منها. والسماء والأرض أطلقتا على مَحْوِيَّاتهما.

{ **إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ** } اعتراض بالتهديد، فمناسبة التعجيب الإنكاري بما يذكِّرهم بقدرة صانع تلك المصنوعات العظيمة على عقاب الذين أشركوا معه غيره، والذين ضيَّقوا واسع قدرته وكذَّبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما يخطر في عقولهم ذكر الأمم التي أصابها عقاب بشيء من الكائنات الأرضية، كالخسف الذي أصاب قارون، أو السماوية، كإسقاط كسف من الأجرام السماوية كالذي أصاب أهل الأيكة.

الكِسْف: (بكسر الكاف وسكون السين) في قراءة الجمهور، وهو القطعة من الشيء. وقد تقدّم في قوله تعالى { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:92].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** } تعليل للتعجيب الإنكاري باعتبار ما يتضمّنه من الحثّ على التأمّل

والتدبّر كما تقدم آنفا، فموقع حرف التوكيد هنا لمجرد التعليل.
ولك أن تجعل الجملة تذييلا. والمشار إليه هو ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض.
الآية: الدليل. والتعريف للجنس، فالمفرد المعرف مساو للجمع، أي: لآيات كثيرة.
المنيب: الراجع بفكره إلى البحث عمّا فيه كماله النفساني وحسن مصيره في الآخرة فهو يُقدِّر المواعظ حقّ قدرها ويتلقاها بالشك في الحالة التي وعظ من أجلها، فيعاود النظر حتّى يهتدي ولا يرفض نصح الناصحين وإرشاد المرشدين.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ [10] أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [11] }.

مناسبة الانتقال من الكلام السابق إلى ذكر داود خفيّة. والذي تميل إليه النفس ما قاله الطيبي: " لأنّ [داود] من المنيبين المتفكّرين في آيات الله، قال تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [ص:17] ".
يريد الطيبي أنّ داود من أشهر المُثل في المنيبين بما أشتهر به من انقلاب حاله بعد أن كان راعيا غليظا إلى أن اصطفاه الله نبيّا وملكا صالحا مصلحا لأمّة عظيمة، فهو مَثَلُ المنيبين كما قال تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ }، وقال { فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ } [ص:24]، فلإنابته وتأويبه أنعم الله عليه بنعم الدنيا والآخرة وبارك وبارك نسله.
وفي ذكر فضله عبرة للناس بحسن عناية الله بالمنيبين تعريضا بضدّ ذلك للذين لم يعتبروا بآيات الله، وفي هذا إيماء إلى بشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه بعد تكذيب قومه وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزّة عظيمة وتأسيس ملك أمّة عظيمة كما آلت حال داود، وذلك الإيماء أوضح في قوله تعالى { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [ص:17].
وسمَّى الطيبي هذا الانتقال إلى ذكر داود وسليمان تخلُّصا، والوجه أن يسميه <u>استطرادا أو اعتراضا</u> وإن كان طويلا، فإنّ الرجوع إلى ذكر أحوال المشركين بعد ما ذكر من قصة داود وسليمان وسبأ يرشد إلى أنّ إبطال أحوال أهل الشرك هي المقصود من هذه السورة، كما سننبه عليه عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ } [20].
داود: تقدّم التعريف بداود عليه السلام عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163] وعند قوله { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ } [الأنعام:84].

{ **مِنَّا** } أي: من لدنَّا، ومن عندنا، وذلك تشريف للفضل الذي أوتيه داود، كقوله تعالى { رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا } [القصص:57].

{ **فَضْلًا** } التنكير لتعظيمه، وهو فضل النبوّة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمّة، وفضل القضاء بالعدل، وفضل الشجاعة في الحرب، وفضل سعة النعمة عليه، وفضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صنع دروع الحديد، وفضل إيتائه الزبور، وإيتائه حسن الصوت، وطول العمر في الصلاح وغير ذلك.

{ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ** } مقول قول محذوف. والأمر أمر تكوين وتسخير.

التأويب: الترجيع، أي: ترجيع الصوت، وقيل التأويب بمعنى التسبيح لغة حبشية فهو من المعرّب، وتقدّم ذكر تسبيح الجبال مع داود في [الأنبياء:79].

{ **الطَّيْرَ** } منصوب بالعطف على المنادى لأنّ المعطوف المعرف على المنادى يجوز نصبه ورفعة، والنصب أرجح، ويجوز أن يكون { وَالطَّيْرَ } مفعولا معه لِـ { أَوِّبِي }، والتقدير: أوّبى معه ومع الطير.

إلانة الحديد: تسخيره، أي: أشعرناه بتسخير الحديد ليقدم على صنعه، فكان في { أَلَنَّا } معنى: وأوحينا إليه.

{ **الْحَدِيد** } تراب معدني إذا صُهر بالنار امتزج بعضه ببعض ولان وأمكن تطريقه وتشكيله فإذا برد تصلّب. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً } [الإسراء:50].

{ **سَابِغَاتٍ** } صفة لموصوف محذوف لظهوره من المقام، إذ شاع وصف الدروع بالسابغات والسوابغ حتّى استغنوا عند ذكر هذا الوصف عن ذكر الموصوف.

{ **قَدِّرْ** } اجعله على تقدير، وهو جعل الشيء على مقدار مخصوص.

{ **السَّرْد** } صنع درع الحديد، أي: تركيب حلقها ومساميرها التي تشُدّ شقق الدرع بعضها ببعض كالخياطة للثوب، والدرع توصف بالمسرودة كما توصف بالسابغة. يقال لناسج الدروع: سرَّاد وزرَّاد.

{ **وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } فلمّا سخَّر الله له ما أستصعب على غيره أتبعه بأمره بالشكر بأن يعمل صالحا، لأنّ الشكر يكون بالعمل الذي يرضي المشكور والمنعم.

{ **اعْمَلُوا** } الضمير لداود وآله، كقوله تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } [طه:132]، أو له وحده على وجه التعظيم.

{ **إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تقدّم غير مرة. وهو هنا كناية عن الجزاء عن العمل الصالح.

البصير: المطّلع العليم.

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ [12] }.

عطف فضيلة سليمان على فضيلة داود لاعتبار ما أوتيه سليمان من فضل كرامةً لأبيه على إنابته، ولسليمان على نشأته الصالحة عند أبيه، فالعطف على { لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً } [10]، والمناسبة مثل مناسبة ذكر داود، فإنّ سليمان كان موصوفا بالإنابة، قال تعالى { ثُمَّ أَنَابَ } [ص:34].

{ **الرِّيحَ** } مقابلة للـ { الْحَدِيد } في قوله { وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ } [10].

{ **لِسُلَيْمَانَ** } لام التقوية، لأنّه لمّا حذف الفعل لدلالة ما تقدّم عليه (التقدير: و**سخّرنا** لسليمان الريح)، قرن المفعول الأول بلام التقوية، لأنّ الاحتياج إلى لام التقوية عند حذف الفعل أشد من الاحتياج إليها عند تأخير الفعل عن المفعول. و{ الرِّيحَ} مفعول ثان.

<u>ومعنى تسخيره الريح</u>: خلق ريح تلائم سير سفنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحا موسمية تهبّ شهرا مشرقة لتذهب في ذلك الموسم، وتهب شهرا مغربه لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين، كقوله تعالى { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأنبياء:81]. فأطلق الغدو على الانصراف والانطلاق من المكان، وأطلق الرواح على الرجوع.

الإسالة: جعل الشيء سائلا.

{ **عَيْنَ الْقِطْرِ** } الْقِطْر (بكسر القاف وسكون الطاء) النحاس المذاب. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً } [الكهف:96]. استعارة لمصب ما يُصهر في مصانعه من النحاس حتّى يكون النحاس المذاب سائلاً خارجاً كما يخرج الماء من العين لشدّة إصهار النحاس وتوالي إصهاره فلا يزال يسيل.

<u>ويجوز</u> أن يكون السيلان مستعاراً لكثرة القطر كثرة تشبه كثرة ماء العيون والأنهار. ويكون { أَسَلْنَا } أيضا ترشيحا لاستعارة اسم العين لمعنى مذاب القطر، ووجه الشبه الكثرة.

{ **وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** } يخدمه ويطيعه. يقال: أنا بين يديك، أي: مطيع، ولا يقضي هذا أن يكون عملته الجنّ وحدهم بل يقتضي أنّ منهم عَمَلَة، وفي [النمل:17] { مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ }.

{ **وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** } **والزيغ**: تجاوز الحد والطريق. والمعنى: ومن يعص أمرنا الجاري على لسان سليمان. وذكر الجنّ في جند سليمان عليه السلام تقدّم في [النمل:17].

{ **عَذَابِ السَّعِيرِ** } تشبيه، أي: عذابا كعذاب جهنّم، وأمّا عذاب جهنم فإنّما يكون حقيقة يوم الحساب.

{ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } [13].

{ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ } جملة مبيّنة لجملة { يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ }. و**{ مِنْ مَحَارِيبَ }** بيان لـ { مَا يَشَاءُ }.

المحاريب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنّه يُرمى من شرفاته بالحراب، ثم أطلق على القصر الحصين. وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية.

ثم أطلق المحراب على الذي يُختلى فيه للعبادة، فهوا بمنزلة المسجد الخاص، قال تعالى { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ } [آل عمران 39]. وكان لداود محراب يجلس فيه للعبادة، قال تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ } [ص:21].

وأمّا إطلاق المحراب على الموضع من المسجد الذي يقف فيه الإمام الذي يؤمّ الناس، يُجعل مثل كوة غير نافذة في حائط القبلة يقف الأمام تحته، فتسمية ذلك محرابا تسمية حديثة ولم أقف على تعيين الزمن الذي ابتدئ فيه إطلاق اسم المحراب على هذا الموقف. واتخاذ المحاريب في المساجد حدث في المائة الثانية.

وإنّما كانوا يسمّون بالمحراب موضع ذبح القربان في الكنيسة. والمذبح والمحراب مقتبسة من اليهود لما لا يخفى من تفرع النصرانية عن دين اليهودية.

ورأيت إطلاق المحراب على الطاقة التي في المسجد في كلام الفراء، أي: في منتصف القرن الثاني، نقل الجوهري عنه أنّه قال: المحاريب صدور المجالس ومنه سمّي محراب المسجد.

والذي يظهر أنّ المسلمين ابتدأوا فجعلوا طاقات صغيرة دلالة على القبلة لئلّا يضل الداخل إلى المسجد يريد الصلاة، ثم وسّعوها شيئا فشيئا حتى صيروها في صوره نصف دهليز صغير في جدار القبلة يسع موقف الإمام، وأحسب أنّ أول وضعه كان عند بناء المسجد الأموي في دمشق، ثم إنّ الخليفة الوليد ابن عبد الملك أمر في جعله في المسجد النبوي حين وسّعه وأعاد بناءه وذلك في مدّة إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة حسبما ذكر السمهودي في كتاب (خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى).

التماثيل: جمع تِمثال (بكسر التاء)، وهو الصورة الممثَّلة، أي: المجسَّمة مثل شيء من الأجسام، فكان النحّاتون يعملون لسليمان صورا مختلفة كصور موهومة للملائكة وللحيوان. ولم تكن التماثيل المجسَّمة محرَّمة الاستعمال في الشرائع السابقة، وقد حرّمها الإسلام لقطع دابر الإشراك من نفوس العرب وغيرهم. وكان معظم الأصنام تماثيل فحرّم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريمها لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك.

الجفان: جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يُجفن فيها الماء. وشُبِّهت بـالجوابي في عظمتها وسعتها.

{ **كَالْجَوَابِ** } جمع جابية وهي الحوض العظيم الواسع العميق الذي يُجمع فيه الماء للسقي.

القدور: جمع قِدر، وهي إناء يوضع فيه الطعام ليُطبخ. وهذه القدور هي التي يُطبخ فيها لجند سليمان ولسدنة الهيكل ولخدمه وأتباعه، وقد ورد ذكر القدور إجمالا في [سفر الأيام الثاني، الإصحاح:4، الفقرة:16].

الراسيات: الثابتات في الأرض التي لا تنزل من فوق أثافيها لتداول الطبخ فيها.

{ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً** } مقول قول محذوف، أي قلنا: اعملوا يا آل داود، ومفعول { اعْمَلُوا } محذوف دلّ عليه قوله { شُكْراً }. وتقديره: اعملوا عملًا صالحًا لشكر الله تعالى، فانتصب { شُكْرًا } على المفعول لأجله.

{ **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** } تذييل، فهو من تمام المقول، وفيه حثّ على الاهتمام بالعمل الصالح.

<u>ويجوز</u> أن يكون هذا التذييل كلاما جديدا جاء في القرآن، أي: قلنا ذلك لآل داود فعمل منهم قليل ولم يعمل كثير، وكان سليمان من الفئة القليلة.

{ **الشَّكُورُ** } كثير الشكر. وإذ كان العمل شكرا أفاد أنّ العاملين قليل.

{ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } [14].

تفريع على قوله تعالى { وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ - إلى قوله - وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } [13/12].

{ **مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ** } ولا شك أنّ ذلك لم يطل وقته لأنّ مثله في عظمة ملكه لا بد أن يفتقده أتباعه.

وضمير { دَلَّهُمْ } يعود إلى معلوم من المقام، أي: أهل بلاطه.

الدلالة: الإشعار بأمر خفي. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ } [7].

{ **دَابَّةُ الْأَرْضِ** } هي الأَرَضَة (بفتحات ثلاث) وهي السُّرْفة (بضم السين وسكون الراء): سوس ينخر الخشب. وقد سخر الله لمنساة سليمان كثيرا من السُرف فتعجَّل لها النخر.

المِنْسَأَة: (بكسر الميم وفتحها وبهمزة بعد السين، وتُخفَّفُ الهمزة فتصير ألفا) هي العصا العظيمة، قيل هي كلمة من لغة الحبشة.

{ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } مفرَّعة على جملة { مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ }. وجملة { تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ } جواب { لمّا خرّ }، و{ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } بدل اشتمال من الجنّ.

أي: تبيّن أمر الجنّ أنّهم لا يعلمون الغيب. وهذا إبطال لاعتقاد العامة يومئذ وما يعتقده المشركون أنّ الجنّ يعلمون الغيب، فلذلك كان المشركون يستعلمون المغيَّبات من الكهّان، ويزعمون أنّ لكلّ كاهن جنّيّا يأتيه بأخبار الغيب، ويسمونه رئيا. و{ **الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } المذلّ، أي: المؤلم المتعب.

{ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** } [15].

جرّ خبرُ سليمان عليه السلام إلى ذكر سبأ لما بين مُلك سليمان وبين مملكة سبأ من الاتصال بسبب قصة بلقيس، ولأنّ في حال أهل سبأ مضادة لأحوال داود وسليمان، إذ كان هذان مثلا في إسباغ النعمة على الشاكرين، وكان أولئك مثلا لسلب النعمة عن الكافرين، وفيهم موعظة للمشركين إذ كانوا في بحبوحة من النعمة فلمّا جاءهم رسول من المنعِم عليهم يذكِّرهم بربّهم ويوقظهم بأنّهم خاطئون إذ عبدوا غيره، كذَّبوه وأعرضوا عن النظر في دلالة تلك النعمة على المنعم المتفرّد بالإلهية.

فهذه القصة تمثيل أمّة بأمّة، وبلاد بأخرى، وفيها عبرة وتعريض.

{ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ** } أي: لقد كان لسبأ في حال مساكنهم ونظام بلادهم آية.

الآية: هنا الأمارة والدلالة بتبدّل الأحوال وتقلّب الأزمان، فهي آية على تصرّف الله ونعمته عليهم فلم يهتدوا بتلك الآية فأشركوا به، وقد كان في إنعامه عليهم ما هو دليل على وجوده ثمّ على وحدانيّته.

{ **لَقَدْ** } التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين بالتعريض بهذه القصة منزلة من يتردّد في ذلك لعدم اتعاظهم بحال قوم من أهل بلادهم.

{ **كَانَ** } تجريدها من تأنيث الفعل لأنّ اسمها غير حقيقي للتأنيث ولوقوع الفصل المجرور.

المساكن: البلاد التي يسكنونها بقرينة قوله تعالى { جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ } والمساكن: حقيقة ديار السكنى. وتقدّم الكلام على سبأ عند قوله تعالى { وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ } [النمل:22].

واسم سبأ يطلق على الأمّة كما هنا، وعلى بلادهم كما في آية النمل.

{ **جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ** } تشبيه بليغ، <u>قيل</u> كان لكلّ رجل في مسكنه جنتان، جنّة عن يمين المسكن وجنة عن شماله، فكانوا يتفيَّؤون ظلالهما في الصباح والمساء ويجتنون ثمارها، فيكون معنى التركيب على التوزيع، أي: لكل مسكن جنتان، وهذا مناسب لقوله { مَسْكَنِهِمْ } دون أن يقول في بلادهم.

<u>ويجوز</u> أن يكون المراد أنّ مدينتهم، وهي **مأرب** (بهمزة ساكنة بعد الميم) وهي بين صنعاء وحضرموت، كانت محفوفة على يمينها وشمالها بغابة من الجنّات يصطافون فيها ويستثمرونها مثل غوطة دمشق، وهذا يناسب قوله بعد { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ } [16]، لأنّ ظاهره أنّ المبدل به جنتان اثنتان.

والمعنى: أنّهم كانوا أهل جنّات مغروسة أشجارا مثمرة وأعنابا. وكان ذلك بسبب تدبير ألهمهم الله إيّاه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السدّ العظيم في مأرب. قيل: كانوا يزرعون ثلاث مرات في كل عام.

{ **كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** } مقول قول، إمّا من دلالة لسان الحال، وإما أُبْلِغوه على ألسنة أنبياء بعثوا منهم، قيل بُعث فيهم اثنا عشر نبيّا، مثل تبَّع أسعد، فقد نُقل أنّه كان نبيّا كما أشار إليه قوله تعالى { وَقَوْمُ تُبَّعٍ } [ق: 14] أو غيره، قال تعالى { مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر:78]، أو ممّا قاله سليمان لبلقيس، أو ممّا قاله الصالحون من رسل سليمان.

{ **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ** } من تمام القول وهي مستأنفة في الكلام المقول، أي: بلدة لكم طيّبة، وتنكير { بَلْدَة } للتعظيم.

الطيبة: الحسنة في جنسها الملائمة لمزاولها ومستثمرها، قال تعالى { وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22]، وقال { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل: 97]. وفي حديث أبي طلحة في صدقته بحائط (بئر حاء): " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيّب ".

والطيب ضدّ الخبيث، واشتقاقه من الطِيب (بكسر الطاء) بوزن فِعْل وهو الشيء الذي تعبق منه رائحة لذيذة. قال تعالى { وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].

{ **وَرَبٌّ غَفُورٌ** } عطف على جملة { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ }. وتنكير { رَبّ } للتعظيم. وهو مبتدأ محذوف الخبر على وزان { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ }، والتقدير: وربّكم غفور.

{ **غَفُور** } متجاوز عنكم، أي: عن كفرهم الذي كانوا عليه قبل إيمان بلقيس بدين سليمان عليه السلام، ولا يعلم مقدار مدة بقائهم على الإيمان.

{ **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** } [16].

تفريع على قوله { وَاشْكُرُوا لَهُ } [15] وقع اعتراضا بين أجزاء القصة التي بقيتها قوله تعالى { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى ...} [18]. وهو اعتراض بالفاء.

{ **فَأَعْرَضُوا** } الإعراض يقتضي سبق دعوة رسول أو نبيّ، والمعنى: أعرضوا عن الاستجابة لدعوة التوحيد بالعودة إلى عبادة الشمس بعد أن اقلعوا في زمن سليمان وبلقيس، وقد قيل إنّ بلقيس لم تعمّر بعد زيارة سليمان إلّا بضع سنين.

الإرسال: الإطلاق وهو ضدّ الحبس، وتعديّته بحرف (على) مُوذِنة بأنّه إرسال نقمة، فإنّ سيل العرم كان محبوسا بالسد في مأرب فكانوا يرسلون منه بمقدار ما يسقون جنّاتهم.

فلمّا كفروا بالله بعد الدعوة للتوحيد قدّر الله لهم عقابا بأن قدّر أسباب انهدام السد فاندفع ما فيه من الماء فكان لهم خطرا وإتلافا للأنعام والأشجار، ثم أعقبه جفاف باختلاف نظام تساقط الأمطار وانعدام الماء وقت

الحاجة إليه، وهذا جزاء على إعراضهم وشركهم.

{ **الْعَرِمِ** } يجوز أن يكون وصفا من **العرامة** وهي الشدّة والكثرة.

ويجوز أن يكون اسما للسيل الذين كان ينصبّ في السدّ، فتكون الإضافة من إضافة المسمّى إلى الاسم، أي: السيل العرم. وكانت للسيول والأدوية في بلاد العرب أسماء كقولهم: سيل مهزور ومذينيب الذي كانت تسقى به حدائق المدينة، ويدلّ على هذا المعنى قول الأعشى: ومأرب عفى عليها العرم

وقيل: { الْعَرِمِ } اسم جمع **عَرَمة**، وهو ما بُني ليمسك الماء، لغة يمنية وحبشية. وهي المسناة بلغة أهل الحجاز، والمسناة، التي هي أسم الآلة، مشتق من سَنَيْتُ بمعنى سقيت، ومنه سُمِّيت الساقية سانية، وهي الدلو المستقى به. والمعنى: أرسلنا السيل الذي كان مخزونا بالسدّ.

وكان سدّ مأرب أعظم السداد في بلاد اليمن التي كانت فيها سداد كثيرة متفرّقة، وكانوا جعلوا هذه السداد لخزن الماء الذي تأتى به السيول في وقت نزول الأمطار في الشتاء والربيع، ليسقوا منها المزارع والجنّات في وقت انحباس الأمطار في الصيف والخريف.

وكان شرع في بنائه **سبأ** أوّل ملوك هذه الأمّة ولم يتمّه فأتمّه ابنه **حِمْيَر**. وأمّا ما يقال من أن بلقيس بنته فذلك اشتباه، إذ لعلّ بلقيس بنت حوله خزانات أخرى فرعيّه أو رمّمت بناءه، فقد كانوا يتعهّدون تلك السداد بالإصلاح والترميم كلّ سنّة.

ولا يُعرف وقت انهدام هذا السدّ ولا أسباب ذلك. والظاهر أنّ سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألهتهم عن تفقّد ترميمه حتّى تخرّب، أو يكون قد خرّبه بعض من حاربهم من أعدائهم، وأمّا ما يذكر في القصص من أنّ السدّ خرّبته الجرذان فذلك من الخرافات.

التبديل: تعويض شيء بآخر وهو يتعدّى إلى المأخوذ بنفسه وإلى المبذول بالباء وهي باء العوض، كما تقدّم في قوله تعالى { وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].

فالمعنى: أعطيناهم أشجار خَمْط وأثل وسدر عوض عن جنّتيهم، أي: صارت بلادهم قاحلة ليس فيها إلا شجر العِضاة والبادية. وفيما بين هذين الحالين أحوال عظيمة انتابتهم فقاسوا العطش وفقدان الثمار حتّى اضطروا إلى مفارقة تلك الديار، فلمّا كانت هذه النهاية دالة على تلك الأحوال طُوِيَ ذكر ما قبلها واقتصر على { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ...}.

{ **وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** } إطلاق اسم الجنتين على هذه المنابت مشاكلة للتهكّم.

{ **أُكُلٍ** } (قرأ نافع وابن كثير بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأه باقي العشرة بضم الكاف): المأكول.

الخَمْط: شجر الأراك. ويطلق الخمط على الشيء المُر.

الأثْل: شجر عظيم من شجر العِضاة يشبه الطرفاء.

السدر: شجر من العِضاة أيضا له شوك يشبه شجر العناب. وكلها تنبت في الفيافي، والسدر أكثرها ظلًّا وأنفعها لأنّه يُغسل بورقه مع الماء فينظِّف وفيه رائحة حسنة، ولذلك وصف هنا بالقليل لإفادة أن معظم شجرهم لا فائدة منه.

{ **وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** } زيد تقليله قلّة بذكر كلمة { شَيْءٍ } المؤذنة في ذاتها بالقلة، يقال: شيء من كذا، إذا كان قليلا. وفي القرآن { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:67].

{ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } [17].

استئناف بياني ناشئ عن قوله { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ } [16] فهو من تمام الاعتراض.

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة يجوز أن يكون في محل نصب نائبا عن المفعول المطلق المبيّن لنوع الجزاء، وهو من البيان بطريق الإشارة، أي: جزيناهم الجزاء المشار إليه، وهو ما تقدّم من التبديل بجنتيهم جنتين أخريين.

وتقديمه على عامله للاهتمام بشدّة ذلك الجزاء. واستحضاره باسم الإشارة لما فيه من عظمة هوله.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل رفع بالابتداء وتكون الإشارة إلى ما تقدّم من قوله { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ - إلى قوله - مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ }، وجملة { جَزَيْنَاهُمْ } خبر المبتدأ.

{ **بِمَا كَفَرُوا** } الباء للسببية و(مَا) مصدرية، أي: بسبب كفرهم، وهو الكفر بالله.

{ **وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ** } الاستفهام إنكاري في معنى النفي كما دلّ عليه الاستثناء.

{ **الْكَفُورُ** } شديد الكفر، لأنّهم كانوا لا يعرفون الله و يعبدون الشمس، فهم أسوأ حالا من أهل الشرك.

والمعنى: ما يجازى ذلك الجزاء إلّا الكفور، لأن ذلك الجزاء عظيم في نوعه.

{ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ } [18].

تكملة القصة بذكر نعمة بعد نعمة، فإنّ ما تقدّم لنعمة الرخاء والبهجة وطيب الإقامة، وما هنا لنعمة الأمن وتيسير الأسفار وعمران بلادهم.

{ **وَجَعَلْنَا** } إسناد جعل تلك القرى إلى الله تعالى لأنّه الملهم الناس والملوك، أو لأنّه الذي خلق لهم تربة طيّبة تتوفّر محاصيلها على حاجة السكان فتسمح لهم بتطلّب ترويجها في بلاد أخرى.

{ **الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** } قرى بلاد الشام، فكانوا إذا خرجوا من مأرب إلى البلاد الشامية، قوافل للتجارة

وبيع الطعام، سلكوا طريق تهامة ثم الحجاز ثم مشارف الشام ثم بلاد الشام، فكانوا كلّما ساروا مرحلة وجدوا قرية أو بلدا أو دارا للاستراحة، فاستراحوا وتزوّدوا. فكانوا من أجل ذلك لا يحملون معهم أزوادا إذا خرجوا من مأرب.

{ **قُرىً ظَاهِرَةً** } يحتمل أنها تكونت من عمل الناس القاطنين حفافي الطريق السابلة قصد استجلاب الانتفاع بنزول القوافل بينهم وابتياع الأزواد منهم وإيصال ما تحتاجه تلك القرى من السلع والثمار.

ويحتمل أنّ سبأ أقاموا مباني يأوون إليها عند كلّ مرحلة من مراحل أسفارهم واستنبطوا فيها الآبار والمصانع وأوكلوا بها من يحفظها ويكون لائذا بهم عند نزولهم. فيكون ذلك من جملة ما وطّد لهم ملوكهم من أسباب الحضارة والأمن على القوافل.

{ **ظَاهِرَةً** } متقاربة، بحيث يظهر بعضها لبعض ويتراءى بعضها من بعض. وقيل: الظاهرة التي تظهر للسائر من بعد، بأن كانت القرى مبنيّة على الآكام والظراب يشاهدها المسافر فلا يضلّ طريقها.

وقال ابن عطية: " الذي يظهر لي أنّ معنى { ظَاهِرَةً } أنّها خارجة عن المدن، فهي في ظواهر المدن، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر المدينة الفلانية، أي خارجا عنها. فقوله {ظَاهِرَةً} كتسمية الناس إياها بالبادية وبالضاحية وفي حديث الاستسقاء: " وجاء أهل الظواهر يشتكون الغرق " اهـ. وهو تفسير جميل.

{ **وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ** } أي: أنّ أبعادها على تقدير وتعادل بحيث لا يتجاوز مقدار مرحلة. فكان الغادي يقيل في قرية والرائح يبيت في قرية.

{ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ** } مقول قول محذوف. والجملة بيان لجملة { قَدَّرْنَا } أو بدل اشتمال منها. وكانوا يسيرون غدوا وعشيا فيسيرون الصباح ثم تعترضهم قرية فيريحون فيها ويقيلون، ويسيرون المساء فتعرضهم قرية يبيتون بها. فالمعنى: سيروا كيف شئتم.

وتقديم الليالي على الأيام بها في مقام الامتنان، لأنّ المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار.

{ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [19].

{ **فَقَالُوا رَبَّنَا** } الفاء لتعقيب قولهم هذا إثر إتمام النعمة عليهم باقتراب المدن وتيسير الأسفار، والتعقيب في كل شيء بحسبه، فلمّا تمّت النعمة بطروها فحلّت بهم أسباب سلبها عنهم.

ومن أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها. قال الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري: " من لم يشكر النِّعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها ".

والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جوابا عن مواعظ أنبيائهم والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك، فهم يعظونهم بأنّ الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية فهم يجيبون بهذا القول إفحاما لدعاة الخير منهم، على نحو قول كفّار قريش { اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32]. فقوله تعالى قبل هذا { **فَأَعْرَضُوا** } [16] يقتضي دعوة لشيء، ويزيد هذا المعنى قوّة قوله تعالى { وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } عقب حكاية قولهم.

{ **بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** } المباعدة بصيغة المفاعلة القائمة مقام همزة التعدية والتضعيف. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: **" اللّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب "**.

فالمعنى: ربنا ابعد بين أسفارنا. والتركيب يعطي معنى: اجعل البعد بين أسفارنا. ولمّا كانت { بَيْنَ } تقتضي أشياء تعيّن أنّ المعنى: باعد بين مراحل أسفارنا.

{ **وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** } إمّا معطوف على جملة { فَقَالُوا }، أي: فأعقبوا ذلك بكفران النعمة وبالإشراك، فإنّ ظلم النفس أطلق كثيرا على الإشراك في القرآن. ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال، أي: قالوا ذلك وقد ظلموا أنفسهم بالشرك.

وعلى الاعتبارين فإن العقاب إنّما كان مسبَّبا بسببين:

فالمسبَّب على الكفر هو **استئصالهم**، وهو مدلول قوله { فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ }.

والمسبَّب على كفران نعمة تقارب البلاد هو **تمزيقهم كل ممزّق**، أي: تفريقهم.

فنظم الكلام جاء على طريقة اللف والنشر المشوّش، على غير ترتيب.

{ **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** } جعلنا أولئك الذين كانوا في الجنّات وفي بحبوحة العيش أحاديث، أي: لم يبق منهم أحد، والمعنى: أنّهم هلكوا وتحدّث الناس بهم.

أو أريد: فجعلناهم أحاديث اعتبار وموعظة، أي: فأصبناهم بأمر غريب من شأنه أن يتحدّث به الناس.

{ **وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** } والتمزيق: تقطيع الثوب قطعا، استعير هنا للتفريق، تشبيها لتفريق جامعة القوم شذر مذر بتمزيق الثوب قطعا.

وأشارت الآية إلى التفرّق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبأ إذ حملهم خراب السدّ وقحولة الأرض إلى مفارقة تلك الأوطان مفارقة وتفريقا ضربت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا، أو تفرقوا أيدي سبا.

وكانت سبأ قبيلة عظيمة تنقسم إلى عشرة أفخاذ وهم: (الأزد - كِندة - مذحج - الأشعريون - أنمار - بجيلة - عاملة [وهم خُزاعة] - غسان - لخم - جُذام.)

فلمّا فارقوا مواطنهم فالستة الأوّلون تفرّقوا في اليمن، ولأربعة الأخيرون خرجوا إلى جهات قاصية فلحقت الأزد بعمان، ولحقت خزاعة بتهامة في مكة، ولحقت الأوس والخزرج [لعلهم معدودون في لخم] بيثرب،

ولحقت غسان ببُصرى والغوير من بلاد الشام، ولحقت لخم بالعراق.

وعندي أنّ ذلك من خذلان من الله تعالى سلبهم التفكير في العواقب فاستخف الشيطان أحلامهم فجزعوا من انقلاب حالهم ولم يتدرَّعوا بالصبر حين سُلبت عنهم النعمة ولم يجأروا إلى الله بالتوبة فبعثهم الجزع والطغيان والعناد وسوء التدبير من رؤسائهم على أن فارقوا أوطانهم عوضا من أن يلموا شعثهم ويرقعوا خرقهم فتشتتوا في الأرض، ولا يخفى ما يلاقون من ذلك من نصب وجوع ونقص من الأنفس والحمولة والأزواد، والحلول في ديار أقوام لا يرثون لحالهم ولا يسمحون لهم بمقاسمة أموالهم فيكونون بينهم عافين.

{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } تذييل فلذلك قطعت، وافتتاحها بأداة التوكيد للاهتمام بالخبر. والمشار إليه بذلك هو ما تقدّم من قوله { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ } [15].

ويظهر أنّ هذا التذييل تنهية للقصة وأنّ ما بعده متعلّق بالغرض الأول للسورة المتعلق بأقوال المشركين.

{ **الآيَات** } جُمع لأنّ في تلك القصة عدّة آيات وعبر:

*/ فحالة مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وإنعامه.

*/ وفي إرسال سير العرم عليهم آية على انفراده وحده بالتصرّف، وعلى أنّه المنتقم، وعل أنّه واحد.

*/ وفي انعكاس حالهم من الرفاهة إلى الشظف آية على تقلّب الأحوال وتغيّر العالم. وآية على صفات الأفعال لله تعالى من خلق ورزق وإحياء وإماتة.

*/ وفي ذلك آية من عدم الاطمئنان لدوام حال في الخير والشر.

*/ وفيما كان من عمران إقليمهم واتساع قراهم إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان.

*/ وآية على أنّ الأمن أساس العمران. وفي تمنّيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمّة وذهاب عظمتها.

*/ وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتُّت في الأرض آية على ما يلجئ الاضطرار إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره.

{ **صَبَّارٍ شَكُورٍ** } الجمع بينهما في الوصف لإفادة أنّ واجب المؤمن التخلّق بالخلقين وهما: الصبر على المكاره، والشكر على النعم، وهؤلاء المتحدَّث عنهم لم يشكروا النعمة فبطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها فاضطربت نفوسهم وعمّهم الجزع فخرجوا من ديارهم وتفرَّقوا في الأرض.

{ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [20] وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [21] }.

الأظهر أنّه عطف على قوله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ } [7]، وأنّ ما بينهما من الأخبار المسوقة للاعتبار، كما تقدم، واقع موقع الاستطراد والاعتراض، فيكون ضمير { عَلَيْهِمْ } عائدا إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [7].

والذي درج عليه المفسّرون أنّ ضمير { عَلَيْهِمْ } عائد إلى سبأ المتحدّث عنهم. ولكن لا مفر من أنّ قوله تعالى بعد ذلك { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...} [22] هو عود إلى محاجّة المشركين.

وصلوحية الآية للمحملين ناشئة من موقعها، وهذا من بلاغة القرآن.

فالمقصود تنبيه المؤمنين إلى مكائد الشيطان وسوء عاقبة أتباعه ليحذروه ويستيقظوا لكيده فلا يقعوا في شرك وسوسته.

{ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ } إيجاز حذف لأنّ صدق الظنّ المفرَّع عنه أتّباعهم يقتضي أنّه دعاهم إلى شيء ظانا استجابة دعوته إيّاهم.

قرأ الجمهور { صَدَقَ } بتخفيف الدال، فـ { إِبْلِيسُ } فاعل و{ ظَنَّهُ } منصوب على نزع الخافض، أي: في ظنّه. و{ عَلَيْهِمْ } متعلّق بـ { **صَدَقَ** } لتضمينه معنى أوقع أو ألقى، أي: أوقع عليهم ظنّه فصدق فيه. والصِدْقُ بمعنى الإصابة في الظنّ، لأنّ الإصابة مطابقة للواقع، فهي من قبيل الصدق.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف { **صدَّق** } بتشديد الدال، بمعنى حقَّق ظنَّه عليهم حين انخدعوا لوسوسته فهو لمّا وسوس لهم ظنّ أنّهم يطيعونه فجَدَّ في الوسوسة حتّى استهواهم، فحقَّق ظنَّه عليهم.

{ **عَلَيْهِمْ** } إيماء إلى أنّ عمل إبليس كان من جنس التغلّب والاستعلاء عليهم.

{ **فَاتَّبَعُوهُ** } تفريع وتعقيب، أي: تحقَّق ظنّه حين انفعلوا لفعل وسوسته فبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران.

{ **إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } استثناء، وهو متّصل إن كان ضمير { اتّبَعُوه } عائدا على المشركين، وأمّا إن كان عائدا على أهل سبا فيحتمل الاتصال إن كان فيهم مؤمنين وإلّا فهو استثناء منقطع.

أي: لم يعصه في ذلك إلّا فريق من المؤمنين، وهم الذين آمنوا من أهل مكة، أو الذين آمنوا من أهل سبأ.

الفريق: الطائفة مطلقا، واستثناؤها من ضمير الجماعة يؤذن بأنّهم قليل بالنسبة للبقية، وإلّا فإنّ الفريق يصدق بالجماعة الكثيرة كما في قوله تعالى { فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ } [الأعراف:30].

{ **وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ** } أي: ما كان للشيطان من سلطان على الذين اتّبعوه. أي: ليست له قدرة

ذاتية هو مستقل بها يتصرّف بها في العالم كيف يشاء، لأنّ تلك القدرة خاصة بالله تعالى.

{ **إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** } استثناء من علل. فيفيد أنّ تأثير وسوسته فيهم كان بتمكين من الله، فيتأثّر منها فريق وينجو منها فريق بما أودع الله في هؤلاء وهؤلاء من قوّة الانفعال والممانعة على حسب السنن التي أودعها الله في المخلوقات.

ويجوز أن يكون الاستثناء من عموم سلطان، فيدلّ على أنّه سلطان مجعول له بجعل الله، بقرينة أنّ تعليله مسند إلى ضمير الجلالة.

وانظر ما قلناه عند قوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42].

فالمعنى: ليظهر من يؤمن بالآخرة ويتميّز عمّن هو منها في شك، فيعلمه من يعلمه، ويتعلّق علمنا به تعلّقا جزئيا عند حصوله يترتب عليه الجزاء، فقد ذكرنا فيما تقدّم أن لا محيص من اعتبار تعلّق تنجيزي لعلم الله.

{ **مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ** } جملة فعلية، لأنّ الإيمان بالآخرة طارئ على كفرهم السابق ومتجدّد ومتزايد آنا فآنا.

{ **مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** } جملة اسمية، لأنّ شكّهم في الآخرة أمر متأصّل فيهم.

{ **فِي** } جيء بحرف الظرفية للدلالة على إحاطة الشك بنفوسهم.

{ **وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** } تذييل. و**الحفيظ**: الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه، وصيغة فعيل تدلّ على قوّة الفعل. وهو يقتضي العلم والقدرة، إذ بمجموعهما تتقوّم ماهية الحفظ، ولذلك يُتبع الحفظ بالعلم كثيرا كقوله تعالى { إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف:55].

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } أفاد العموم أنّه لا يخرج عن علمه شيء من الكائنات.

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ [22] وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [23] }.

عود إلى إبطال أقوال المشركين، وسيق لهم من الكلام ما فيه توقيف على أخطائهم.

{ **قُلْ** } افتتح الكلام بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما هو متتابع في بقية هذه الآيات، فأُمر بالقول تجديدا لمعنى التبليغ الذي هو مهمّة كلّ القرآن.

{ **ادْعُوا** } الأمر مستعمل في التخطئة والتوبيخ، أي: استمروا على دعائكم.

{ **الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } معناه زعمتموهم أربابا، فحذف مفعولا الزعم: أمّا الأوّل فحذف لتخفيف الصلة بمتعلّقاتها لأنّه ضمير متصل، وأمّا الثاني فحذفه لدلالة صفته عليه وهي { مِنْ دُونِ اللَّهِ }.

{ **لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ** } نُفي عنهم مِلك أحقر الأشياء. أي: لا يملكون شيئا في السماوات ولا في الأرض. وإعادة حرف النفي تأكيد له للاهتمام به.

المثقال: إمّا آلة الثقل، فهو اسم للصنوج التي يوزن بها، فأطلق على العديل مجازا مرسلا، وإمّا مصدر ميمي سُمِّي به الشيء الذي به التثقيل، ثم أطلق على العديل مجازا، وتقدّم عند قوله { وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ } [الأنبياء 47].

الذرّة: بيضة النمل التي تبدوا حبيبة صغيرة بيضاء، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ } [يونس:61].

{ **وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ** } أتبع بنفي أن يكون لهم الشرك في شيء من السماء والأرض، أي: شرك مع الله كما هو السياق، فلم يُذكر متعلّق الشرك إيجازا لأنّه محل الوفاق.

{ **وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ** } ثم نفى أن يكون منهم ظهير، أي: معين لله تعالى. وتقدّم **الظهير** في قوله تعالى { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء:88]. وهنا تعيّن التصريح بالمتعلّق ردا على المشركين، إذ زعموا أنّ آلهتهم تقرّب إليه وتبعد عنه.

{ **وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** } ثم أتبع ذلك بنفي أن يكون شفيع عند الله يضطرّه إلى قبول الشفاعة فيمن يشفع له لتعظيم أو حياء. وقد صرّح بالمتعلّق هنا أيضا ردًّا على قول المشركين { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18] فنفيت شفاعتهم في عموم نفي كل شفاعة نافعة عند الله إلّا شفاعة من أذن الله أن يشفع. وفي هذا إبطال شفاعة أصنامهم.

{ **تَنْفَعُ** } النفع يجيء بمعنى حصول المقصود من العمل ونجاحه، كقوله تعالى { لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ } [الأنعام: 158]، ويجيء بمعنى المساعد الملائم وهو ضد الضار، وهو أكثر إطلاقه.

فالنفع بالمعنى الأوّل في الآية يفيد القبول من الشافع لشفاعته، وبالمعنى الثاني يفيد انتفاع المشروع له بالشفاعة.

{ **إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** } استثناء من جنس الشفاعة المنفي بقرينة وجود اللام، وليس استثناء متعلق { تَنْفَعُ }، أي: لا تقبل شفاعة إلّا شفاعة كائنة لمن أذن الله له.

وإنّما جيء بنظم هذه الآية على غير ما نظمت عليه غيرها لأنّ المقصود هنا إبطال رجاؤهم أن تشفع لهم آلهتهم عند الله فينتفعوا بشفاعتها، لأنّ أوّل الآية توبيخ وتعجيز لهم في دعوتهم الآلهة المزعومة فاقتضت إبطال الدعوة والمدعو.

{ **حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ** } أفادت { حَتَّى } الغاية بأصل وضعها، وهي هنا غاية لما أفهمه قوله { إِلَّا لِمَنْ

أَذِنَ لَهُ } من أنّ هنالك إذنا يصدر من جانب المولى عزّ وجلّ، يأذن الله به ناسا من الأخيار بأن يشفعوا، كما جاء تفصيل بعض هذه الشفاعة في الأحاديث الصحيحة.

وأنّ الذين يرجون أن يُشفع فيهم ينتظرون ممّن هو أهل لأن يشفع وهم في فزع من الإشفاق أن لا يؤذن بالشفاعة فيهم، فإذا أذن الله لمن شاء أن يشفع زال الفزع عن قلوبهم واستبشروا.

التقدير: إلّا لمن أذن له، ويومئذ يبقى الناس مرتقبين الأذن لمن يشفع، فزعين من أن لا يُؤذن لأحد زمنا ينتهي بوقت زوال الفزع عن قلوبهم حين يؤذن للشافعين بأن يشفعوا، وهو إيجاز حذف.

{ **فُزِّعَ** } بُني للمجهول لتعظيم ذلك التفزيع بأنّه صادر من جانب عظيم. والتفزيع يحصل لهم بانكشاف إجمالي يلهمونه فيعلمون بأنّ الله أذن بالشفاعة ثم يتطلبون التفصيل بقولهم:

{ **مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ** } ليعلموا من أذن له ممّن لم يؤذن له، وهذا كما يُكرّر النظر ويعاود المطالعة من ينتظر القبول، أو هم تساءلون عن ذلك من شدّة الخشية، فإنّهم إذا فُزّع عن قلوبهم تساءلوا لمزيد التحقيق بما استبشروا به فيجابون أنّه قال الحقّ.

{ **قَالُوا الْحَقَّ** } الضمير عائد إلى المسؤولين وهم الملائكة.

{ **الْحَقَّ** } يظهر أنّها وقعت حكاية لمقول الله بوصف يجمع متنوّع أقوال الله تعالى حينئذ من قبول شفاعة في بعض المشفوع فيهم ومن حرمان لغيرهم، كما يقال: ماذا قال القاضي للخصم؟ فيقال: قال الفصل.

{ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** } تتمة جواب المجيبين، عطفوا تعظيم الله بذكر صفتين من صفات جلاله.

العلوّ: علوّ الشأن الشامل لمنتهى الكمال في العلم.

الكبر: العظمة المعنوية، وهي منتهى القدرة والعدل والحكمة.

وتخصيص هاتين الصفتين لمناسبة مقام الجواب، أي: قد قضى بالحق لكل أحد بما يستحقّه، فإنّه لا يخفي عليه حال أحد ولا يعوقه عن إيصاله إلى حقّه عائق. وتقدم ذكر هاتين الصفتين في قوله تعالى { وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [الحج:62].

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [24].

انتقال من دمغ المشركين بضعف آلهتهم وانتفاء جدواها عليهم في الدنيا والآخرة إلى إلزامهم بطلان عبادتها بأنّها لا تستحق العبادة لأنّ مستحق العبادة هو الذي يرزق عباده، فإنّ العبادة شكر.

{ **قُلْ** } أعيد الأمر بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول.

{ **مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ** } استفهام للتنبيه على الخطأ، ولذلك أعقب بالجواب من طرف

السائل بقوله { قُلِ اللَّهُ }، لتحقّق أنّهم لا ينكرون ذلك الجواب، كما في قوله تعالى { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ - إلى قوله - فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ} [يونس:31]. وتقدّم نظير في [الرعد:16].

{ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } عُطف على الاستفهام إبراز المقصد بطريقة خفيّة توقع الخصم في شرك المغلوبية وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى وحالة ضلال، لأنّ حالة كل فريق لمّا كانت على الضدّ من حال الفريق الآخر، بين موافقة الحق وعدمها، تعيّن أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدونهما. ولذلك جيء بحرف (أَوْ) المفيد للترديد المنتزع من الشك.

وهذا اللون من الكلام يُسمَّى الكلام المنصف، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيّظ واحتداد في الجدال، ويُسمَّى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجّة قرينة واضحة.

{ **لَعَلَى** } جيء في جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاء المستعار للتمكّن.

{ **فِي** } جيء في جانب الضالين بحرف الظرفية المستعار لشدة التلبّس بالوصف، تمثيلا لحالهم في إحاطة الضلال بهم بحال الشيء في ظرف محيط به لا يتركه يفارقه ولا يتطلّع منه على خلاف ما هو فيه.

فحصل في الآية أربع استعارات وثلاثة محسّنات من البديع وأسلوب بياني، وحجّة قائمة، وهذا إعجاز بديع.

{ قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [25].

لمّا كان هذا القول يتضمّن بيانا للقول الذي قبله فصلت الجملة عن أختها إذ لا يعطف البيان على المبين بحرف النسق. وفصلت أيضا لتكون مستقلة بنفسها ليخُصَّها السامع بالتأمّل في مدلولها، فيجوز أن تعتبر استئنافا ابتدائيا، وهي مع ذلك اعتراض بيّن أثناء الاحتجاج.

وهذا ضرب من المشاركة والموادعة ليخلوا بأنفسهم فينظروا في أمرهم ولا يلهيهم جدال المؤمنين عن استعراض ومحاسبة أنفسهم، وأسندوا العمل على إطلاقه في جانب المخاطبين لأنّ النظر والتدبّر بعد ذلك يكشف عن كنه كلا العملين.

السؤال: كناية عن أثره وهو الثواب على العمل الصالح والجزاء على الإجرام بمثله.

{ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ } [26].

{ **قُلْ** } إعادة لزيادة الاهتمام بهذه المحاجّات لتكون كّل مجادلة مستقلّة غير معطوفة، فتكون استئنافا ابتدائيا. وأيضا هي بمنزلة البيان للتي قبلها، لأنّ نفي سؤال كلّ فريق عن عمل غيره يقتضي أنّ هنالك سائلا ويوما للسؤال. فبيّن بأنّ الذي يسأل الناس عن أعمالهم هو الله تعالى، وأنّه الذي يفصل بين الفريقين بالحق حين

يجمعهم يوم القيامة، الذي هم منكروه.
وهنا تدرّج الجدل من الإيماء إلى الإشارة القريبة من التصريح، لما في إثبات يوم الحساب والسؤال من المصارحة بأنّهم الضالون. ويُسمّى هذا التدرج عند أهل الجدل بالترقّي.
الفتح :الحكم والفصل بالحق، كقوله { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [الأعراف:89] وهو مأخوذ من فتح الكوّة لإظهار ما خلفها.
{ **وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** } تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوّته وإحاطة العلم.
وإنما أتبع { الْفَتَّاحُ } بـ { الْعَلِيمُ } للدلالة على أنّ حكمه عدل محض لأنّه عليم لا تحفّ بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز واتّباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب.

{ **قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [27].
أعيد الأمر بالقول رابع مرة لمزيد الاهتمام، وهو رجوع إلى مهيع الاحتجاج على بطلان الشرك، فهو كالنتيجة لجملة { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [24].
{ **أَرُونِي** } الأمر مستعمل في التعجيز، وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجّة لإشراكهم، وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام <u>بدليل النظير</u> في قوله { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ } إلى إبطال ذلك <u>بدليل البداهة</u>.
وقد سُلك من طرق الجدل أن يكون الاستفسار مؤخّرا، والمصطلح عليه عند أهل الجل أن يكون الاستفسار مقدّما على طرائق المناظرة، وإنما أخِّر هنا لأنّه كان مفضيا إلى إبطال دعوى الخصم بحذافرها، فأريد تأخيره لئلّا يفوت افتضاح الخصم بالأدلة السابقة، تبسيطا لبساط المجادلة حتّى يكون كلّ دليل مناديا على غلط الخصوم وباطلهم. وافتضاح الخطأ من مقاصد المناظر الذي قامت حجّته.
الإراءة: هنا من الرؤية البصرية فيتعدّى إلى مفعولين: أحدهما بالأصالة، والثاني بهمزة التعدية.
والمقصود: أروني شخوصهم لنبصر هل عليها ما يناسب صفة الإلهية، أي: أنّ كلّ من يشاهد الأصنام يتبيّن له أنّها خلية عن صفات الإلهية، إذ يرى حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه، فانتفاء الإلهية عن الأصنام بديهي ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالها.
{ **الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ** } التعبير عن المرئي بطريق الموصلية لتنبيه المخاطبين على خطئهم في جعلهم إيّاهم شركاء لله تعالى في الربوبية.
{ **أَلْحَقْتُمْ** } إيماء إلى أنّ تلك الأصنام لم تكن موصوفة بالإلهية وصفا ذاتيا حقًّا ولكنّ المشركين ألحقوها بالله تعالى، فتلك خلعة خلعها عليهم أصحاب الأهواء.

{ **كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } لمّا أعرض عن الخوض في آثار هذه الإراءة عُلم أنّهم مفتضَحون عند تلك الإراءة فَقُدِّرت حاصلة، وأعقب طلب تحصيلها بإثبات أثرها وهو الردع عن اعتقاد إلهيتها، وإبطالها عنهم بإثباتها لله تعالى وحده، فلذلك جُمع بين حرفي الردع والإبطال { كَلَّا بَلْ }، ثم الانتقال إلى تعيين الإله الحق على طريقة قوله { كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } [الفجر:17].

{ **هُوَ اللَّهُ** } ضمير الشأن. والجملة بعده تفسير لمعنى الشأن.

{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } خبران، أي: بل الشأن المهم الله العزيز الحكيم لا آلهتكم، ففي الجملة قصر العزّة والحكم على الله تعالى كناية عن قصر الإلهية عليه تعالى قصر إفراد. وللجملة وجوه أخرى من الإعراب.

العزّة: الاستغناء عن الغير.

{ **الْحَكِيمُ** } وصف من الحكمة وهي منتهى العلم، أو من الإحكام وهو إتقان الصنع، شاع في الأمرين.

وهذا إثبات لافتقار أصنامهم وانتفاء العلم عنها. وهذا مضمون قول إبراهيم عليه السلام { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً } [مريم: 42].

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [28].

انتقال من إبطال ضلال المشركين في أمر الربوبيّة إلى إبطال ضلالهم في شأن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. وغُيِّر أسلوب الكلام من الأمر بمحاجة المشركين إلى الإخبار برسالة النبيّ صلى الله عليه وسلم تشريفا له بتوجيه هذا الإخبار بالنعمة العظيمة إليه، ويحصل إبطال مزاعم المشركين بطريق التعريض.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ** } أفاد التركيب قصر حالة عموم الرسالة على كاف الخطاب { أَرْسَلْنَاكَ }، وهو قصر إضافي، أي: دون تخصيص إرسالك بأهل مكة أو بالعرب أو بمن يجيئك يطلب الإيمان والإرشاد. ويقتضي ذلك إثبات رسالته بدلالة الاقتضاء، إذ لا يصدق ذلك القصر إلّا إذا ثبت أصل رسالته، فاقتضى ذلك الردّ على المنكرين كلّهم سواء من أنكر رسالته من أصلها ومن أنكر عمومها وزعم تخصيصها.

{ **كَافَّةً** } من ألفاظ العموم ووقعت هنا حالا من { النَّاسِ }، مستثنى من عموم الأحوال، وهي حال مقدّمة على صاحبها المجرور بالحرف، وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } [البقرة:208]، وعند قوله تعالى { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً } [التوبة:36].

{ **بَشِيراً وَنَذِيراً** } تقدم في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } موقع الاستدراك رفع ما يُتوهّم من اغترار المغترّين بكثرة عدد المنكرين رسالته بأن كثرتهم لا تغرّ المتأمّل لأنّهم لا يعلمون.

{ **لَا يَعْلَمُونَ** } المفعول محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: لا يعلمون ما بشّرت به المؤمنين وما أنذرت به الكافرين، أي: يحسبون البشارة والنذارة غير صادقتين.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [29] قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ } [30].

كان من أعظم ما أنكروه ممّا جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم القيامة والبعث ولذلك عقَّب إبطال قولهم في إنكار الرسالة بإبطال قولهم في إنكار البعث. والتقدير: ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون حقّ البشارة والنذارة ويتهكّمون فيسألون عن وقت هذا الوعد. ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.

{ **وَيَقُولُونَ** } الضمير عائد إلى المحاجّين من المشركين الذين صدرت عنهم هذه المقالة. وصيغة المضارع تفيد التعجيب من مقالتهم، مع إفادتها تكرّر ذلك القول منهم وتجدّده.

{ **هَذَا الْوَعْدُ** } اسم الإشارة للاستخفاف والتحقير.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } ضمير جمع المخاطب إمّا للرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أنّ معه جماعة يخبرون بهذا الوعد، وإمّا الخطاب موجه للمسلمين.

أي: إن كنتم صادقين فعيّنوا لنا ميقات هذا الوعد. وهذا كلام صادر عن جهالة لأنّه لا يلزم من الصدق في الإخبار بشيء أن يكون المخبر عالما بوقت حصوله.

{ **قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ** } مسوقة مساق الجواب عن مقالتهم ولذلك فصلت ولم تعطف، على طريقة حكاية المحاورات في القرآن، وهذا الجواب جرى على طريقة الأسلوب الحكيم، أي: أنّ الأهم للعقلاء أن تتوجه هممهم إلى تحقّق وقوع الوعد في الوقت الذي عيّنه الله له وأنّه لا يؤخّره شيء ولا يقدّمه، وحسن هذا الأسلوب أنّ سؤالهم إنّما أرادوا به الكناية عن انتفاء وقوعه.

وفي هذا الجواب تعريض بالتهديد، فكان مطابقا للمقصود من الاستفهام.

{ **لَكُمْ** } زيادة في الجواب إشارة إلى أنّ هذا الميعاد منصرف إليهم ابتداء.

الميعاد: مصدر ميمي للوعد فإضافته إلى ظرفه بيانية.

الاستئخار والاستقدام: مبالغة في التأخّر والتقدّم، فالسين والتاء للمبالغة.

وقدّم الاستئخار على الاستقدام إيماء إلى أنّه ميعاد بأس وعذاب عليهم من شأنه أن يتمنّوا تأخّره.

الساعة: حصة من الزمن، وتنكيرها للتقليل بمعونة المقام.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [31].

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } انتقال إلى ذكر طعن المشركين في القرآن، وهي معطوفة على { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [29]. والاقتصار على حكاية مقالتهم دون تعقيب بما يبطلها إيماء إلى أنّ بطلانها باد لكلّ من يسمعها حيث جمعت التكذيب بجميع الكتب والشرائع، وهذا بهتان واضح.

{ لَنْ نُؤْمِنَ } جيء بحرف (لَنْ) لتأكيد نفي إيمانهم بالكتب المنزلة على التأبيد تأييسا للنبيّ والمسلمين من الطمع في إيمانهم.

{ بِهَذَا الْقُرْآنِ } اسم الإشارة مشار به إلى حاضر في الأذهان، لأنّ الخوض في القرآن شائع بين الناس من مؤيد ومنكر، فكأنّه مشاهد. وليس في اسم الإشارة معنى التحقير لأنّهم ما كانوا ينبزون القرآن بالنقصان، ألا ترى قول الوليد ابن المغيرة: " إن أعلاه لمُثْمِر وإن أسفله لمُغْدِق " ، وقول عبد الله بن أبي بعد ذلك: " لا أحسن مما تقول أيّها المرء "، وأنّ عتبة بن ربيعة لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وقال له: **" هل ترى بما أقول بأسا ؟ "** فقال: " لا والدماء ". وكيف وقد تحدّاهم الإتيان بسورة مثله فلم يفعلوا، ولو كانوا ينبزونه بنقص أو سخف لقالوا: نحن نترفع عن معالجة الإتيان بمثله.

{ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } كان المشركون لمّا فاجأتهم دعوة الإسلام وأخذ أمره في الظهور قد سلكوا طرائق مختلفة لقمع تلك الدعوة، وقد كانوا قبل ظهور الإسلام لاهين عن الخوض فيما سلف من الشرائع فلمّا قرعت أسماعهم دعوة الإسلام اضطربت أقوالهم: فقالوا { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91]، وقالوا غير ذلك، فمن ذلك أنّهم لجأوا إلى أهل الكتاب وهم على مقربة منهم بالمدينة وخيبر وقريظة، ليتلقّوا منهم ملقّنات يفحمون بها النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكان أهل الكتاب يُملون عليهم ما عساهم أن يموّهوا به على الناس عدم صحة الرسالة المحمدية، فمرة يقولون { لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [القصص:48]، ومرة يقولون { لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ } [الإسراء:93]، وهم لا يُحاجُّون بذلك عن اعتقاد بصحة رسالة موسى عليه السلام ولكنهم يجعلونه وسيلة لإبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فلمّا دمغتهم حجج القرآن العديدة الناطقة بأنّ محمدا ما هو بدع من الرسل وأنّه جاء بمثل ما جاءت به الرسل.

فلمّا لم يجدوا سبيلا للمكابرة في مساواة حاله بحالة الرسل الأوّلين لجأوا إلى إنكار رسالة الرسل كلّهم حتى لا تنهض عليهم الحجّة بمساواة أحوال الرسول وأحوال الرسل الأقدمين، فكان من مستقرّ أمرهم ذلك الإنكار.

{ **بَيْنَ يَدَيْهِ** } القريب منه، سواء كان سابقا كقوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [46]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **بعثت بين يدي الساعة** " [أحمد في مسنده وأبو يعلى والطبراني]، أم كان جائيا بعده، كما حكى الله عن عيسى عليه السلام { وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ } [آل عمران:50]. وليس مرادا هنا.

{ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ** } أُردفت حكايات أقوالهم وكفرانهم بعد استيفاء أصنافها بذكر جزائهم وتصوير فظاعته.

{ **وَلَوْ تَرَى** } الخطاب لكلّ من يصلح لتلقّي الخطاب ممّن تبلغه هذه الآية، أي: ولو يرى الرائي.

وجواب { لَوْ } محذوف للتهويل وهو حذف شائع. وتقديره: لرأيت أمرا عجبا.

الظالمون: المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13] وتقدّم قريب منه قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ } [الأنعام:27].

وقد وقع التصريح بأنّه إيقاف جمع بين المشركين والذين دعوهم إلى الإشراك في قوله {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ } [يونس:28].

{ **مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } الإتيان بالجملة التي أضيف إليها الظرف اسمية هنا لإفادة طول وقوفهم بين يدي الله طولا يستوجب الضجر ويملأ القلوب رعبا، وهو ما أشار له حديث أنس وحديث أبي هريرة في شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأهل المحشر: " **تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرّها فيقولون: لو استشفعنا إلى ربّنا حتّى يريحنا من مكاننا** ".

{ **يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ** } في موضع الحال من { الظَّالِمُونَ } أو من ضمير { مَوْقُوفُونَ }. وجيء بالمضارع لاستحضار الحالة.

رجْع القول: الجواب، و**رجع البعض إلى البعض**: المجاوبة والمحاورة. وهي أن يقول بعضهم كلاما ويجيبه الآخر عنه وهكذا.

{ **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** } هذه الجملة وما ذكر بعدها من الجمل المحكية بأفعال القول بيان لجملة { يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ }. وجيء بالمضارع فيها على نحو ما جيء في قوله { يَرْجِعُ } ليكون البيان كالمبيَّن بها لاستحضار حالة القول، لأنّها حالة غريبة لما فيها من جرأة المستضعفين على المستكبرين ومِن تنبُّه هؤلاء من غفلتهم عمّا كان المستكبرون يغرونهم به.

{ **اسْتُضْعِفُوا** } السين والتاء للعدّ والحسبان، أي الذين يعدّهم الناس ضعفاء لا يؤبه بهم، وإنّما يعدّهم الناس كذلك لأنّهم كذلك. والضعف هنا الضعف المجازي، وهو حالة الاحتياج في المهام إلى من يضطلع بشؤونهم. ومن مشمولاته الضعة والضراعة.

{ **اسْتَكْبَرُوا** } أي: عدّوا أنفسهم كبراء وهم ما عدّوا أنفسهم كبراء إلّا لما يقتضي استكبارهم، لأنّهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا بالغرور والإعجاب الكاذب. ولهذا عبّر في جانب الذين استضعفوا بالفعل المبني للمجهول وفي جانب الذين استكبروا بالفعل المبني للمعلوم.

{ **لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** } (لَوْلاَ) حرف امتناع لوجود، أي حرف يدل على امتناع جوابه، لأجل وجود شرطه. فكان قولهم هنا { لَوْلا أَنْتُمْ } للمبالغة في شدّة حرص المستكبرين على كفرهم.

{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ } [32].

{ **قَالَ** } جُرِّد عن العاطف لأنّه جاء على طريقة المجاوبة، والشأن فيه حكاية القول بدون عطف كما بيّنّاه.

{ **أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ** } همزة الاستفهام مستعملة في الإنكار على قول المستضعفين تبرّؤا منهم. وهذا الإنكار بهتان وإنكار للواقع بعثه فيهم خوف إلقاء التبعة عليهم وفرط الغضب والحسرة من انتقاض اتباعهم عليهم وزوال حرمتهم بينهم، فلم يتمالكوا ألّا يُكذِّبوهم ويذيّلوا بتوريطهم.

{ **بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ** } معطوف بـ { بَلْ } التي للإبطال، أي ثبت لكم الإجرام من قبل، وإجرامكم هو الذي صدّكم إذ لم تكونوا على مقاربة الإيمان فنصدّكم عنه ولكنكم صددتم وأعرضتم بإجرامكم.

الإجرام: الشرك، وهو مؤذن بتعمّدهم إيّاه وتصميمهم عليه على بصيرة من أنفسهم دون تسويل مسوِّل.

{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [33].

{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً } جيء بحرف العطف مع أنّ المستضعفين جاوبوا بها قول الذين استكبروا { أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ } [32] لنكتة دقيقة، وهي التنبيه على أنّ مقالة المستضعفين هذه هي في المعنى تكملة لمقالتهم المحكية بقوله { يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [31] تنبيها على أنّ مقالتهم تلقّفها الذين استكبروا فابتدروها بالجواب وقاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون.

وحكي قولهم هذا بالفعل الماضي { وَقَالَ } لمزاوجة كلام الذين استكبروا، لأنّ قول الذين استضعفوا هذا بعد أن كان تكملة لقولهم الذي قاطعه المستكبرون، انقلب جوابا عن تبرّؤ المستكبرين من أن يكونوا صدّوا

المستضعفين عن الهدى، فصار لقول المستضعفين موقعان يقتضي أحد الموقعين عطفه بالواو، ويقتضي الموقع الآخر قرنه بحرف { بَلْ } وبزيادة { مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } .

وأصل الكلام: يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين إذ تؤمروننا بالليل والنهار أن نكفر بالله وأن نكفر بالله...، فلما قاطعه المستكبرون بكلامهم أُقحم في كلام المستضعفين حرف { بَلْ } إبطالا لقول المستكبرين { بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ } [32]. وبذلك أفاد تكملة الكلام السابق والجواب عن تبرؤ المستكبرين، ولو لم يعطف بالواو لما أفاد إلّا أنّه جواب عن كلام المستكبرين فقط، وهذا من أبدع الإيجاز.

{ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } (بل) للإضراب الإبطالي، إبطالا لمقتضى القصر في قولهم { أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى } [32]، فإنّه واقع في حيز النفي، لأنّ الاستفهام الإنكاري له معنى النفي.

فالتقدير: بل مكركم صدَّنا، فيفيد القصر، أي: ما صدّنا إلّا مكركم.

المكر: الاحتيال بإظهار الماكر فعل ما ليس بفاعله، وتقدّم في قوله { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } [آل عمران:54].

وإطلاق المكر على تسويلهم لهم البقاء على الشرك، باعتبار أنّهم يموّهون عليهم ويوهمونهم أشياء كقولهم: إنّه دين آبائكم، وكيف تأمنون غضب الآلهة عليكم إذا تركتم دينكم، ونحو ذلك.

وهو كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسّك بالشرك.

{ **إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً** } ظرف لما في { مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } من معنى (صدّنا)، أي: حين تأمروننا أن نكفر بالله.

الأنداد: جمع ندّ، وهو المماثل، أيّ نجعل لله أمثالا في الإلهية.

وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لمّا رأوا قلّة غنائهم عنهم واحتقروهم حين علموا كذبهم.

وقد حكي نظير ذلك في قوله تعالى { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة:166].

{ **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ** } يجوز أن يكون عطفا على جملة { يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ } [31] فتكون حالاً. ويجوز أن تعطف على جملة { إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [31].

وضمير الجمع عائد إلى جميع المذكورين قبل، وهم الذين استضعفوا والذين استكبروا.

والمعنى: أنّهم كُشف لهم عن العذاب المُعدّ لهم، وذلك عقب المحاورة التي جرت بينهم، فعلموا أنّ ذلك الترامي الواقع بينهم لم يُغن عن أحد من الفريقين شيئا، فحينئذ أيقنوا بالخيبة وندموا على ما فات منهم.

{ **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ** } استبقاء للطمع في صرف ذلك عنهم أو اتقاء للفضيحة بين أهل الموقف، وقد أعلنوا بها من بعد كما في قوله تعالى { قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [الأنعام:31]، وقوله تعالى { لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الزمر 58].

وذكر الزمخشري وابن عطية: أنّ من المفسّرين من فسر { أَسَرُّوا } هنا بمعنى أظهروا. وقد عدّ هذه الكلمة

في الأضداد كثير من أهل اللغة. والذي جرّ على تفسير { أَسَرُّوا } بمعنى أظهروا هنا هو ما يقتضي إعلانهم بالندامة من قولهم { لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [31]. وفي آيات أخرى مثل قوله تعالى { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً } [الفرقان:27].

الندامة: التحسّر من عمل فات تداركه. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } [المائدة:31].

{ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } عطف على جملة { إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ } [31]. والتقدير: ولو ترى إذ جعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا.

{ الأَغْلالَ } جمع غُلّ (بضم الغين)، وهو دائرة من حديد أو جلد على سعة الرقبة توضع في رقبة المأسور ونحوه ويشدّ إليها بسلسلة أو سير من جلد أو حبل.

وجعل الأغلال في الأعناق شعار على أنّهم يساقون إلى ما يحاولون الفرار والانفلات منه.

وتقدّم في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ } [الرعد:5].

{ الَّذِينَ كَفَرُوا } هم هؤلاء الذين جرت عليهم الضمائر المتقدّمة. فالإتيان بالاسم الظاهر وكونه موصولا للإيماء إلى أنّ ذلك جزاء الكفر، ولذلك عقب بجملة **{ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }** مستأنفة استئنافا بيانيا، كأنّ سائلا استعظم هذا العذاب، وهو تعريض بهم.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } [34].

اعتراض للانتقال إلى تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم، بتذكيره أنّ تلك سنّة الرسل من قبله، فليس في ذلك غضاضة عليه، نظير قوله تعالى { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ } [الزخرف:23]، أي: وكذلك التكذيب الذي كذّبك أهل هذه القرية.

وفي الكلام التعريض بقومه الذي عادوه بتذكيرهم عاقبة أمثالهم من أهل القرى التي كذّب أهلها وأغراهم بذلك زعماؤهم.

المترَفون: الذين أُعطوا الترف، و**الترف**: النعيم وسعة العيش، وهو مبني للمفعول بتقدير: إنّ الله أترفهم، كما في قوله { وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [الأنبياء :33].

وفي بنائه للمفعول تعريض بالتذكير بنعمة الله عليهم لعلّهم يشكرونها ويقلعون عن الإشراك به.

وبعض أهل اللغة يقول تقديره: أترفتهم النعمة، أي: أبطرتهم.

{ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } حكاية للقول بالمعنى: أيّ قال مترفو كلّ قرية لرسولهم: إنّا بما أرسلت به كافرون. وقولهم تهكّم بقرينة قولهم { كَافِرُونَ }، وهو كقوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر:6]. أو المعنى: إنّا بما ادّعيتم أنّكم أرسلتم به كافرون.

{ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [35] قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [36] }.

{ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً } عطف على جملة { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ } [31]. قَفَّوْا على صريح كفرهم بالقرآن وغيره من الشرائع بكلام كنُّوا به عن إبطال حقيقة الإسلام بدليل سفسطائي، فجعلوا كثرة أموالهم وأولادهم حجّة على أنّهم أهل حظّ عند الله تعالى.

وهذا تعريض منهم بعكس حال المسلمين، بأنّ حال ضعف المسلمين، وقلّة عددهم، وشظف عيشهم حجّة على أنّهم غير محظوظين عند الله، ولم يتفطّنوا إلى أنّ أحوال الدنيا مسبَّبة على أسباب دنيوية لا علاقة لها بأحوال الآخرة.

{ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } كالنتيجة لقولهم. وكأنّهم استدلوا بانتفاء التعذيب على أنّهم مقرّبون عند الله، فكأنّهم حصروا وسائل القرب عند الله في وفرة الأموال والأولاد.

{ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } أي: قل لهم: إنّ بسط الرزق وتقتيره شأن آخر من تصرفات الله المنوطة بما قدَّره في نظام هذا العالم، أي: فلا ملازمة بينه وبين الرشد والغي، والهدى والضلال.

بسط الرزق: تيسيره وتكثيره، استعير له البسط وهو نشر الثوب ونحوه، لأنّ المبسوط تكثر مساحة انتشاره.

قَدْر الرزق: عسر التحصيل عليه وقلّة حاصله، استعير له القدْر، أي: التقدير وهو التحديد، لأنّ الشيء القليل يسهل عدّه وحسابه. وتقدّم نظيره في [الرعد:26].

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور فيخلطون بينها ولا يضعون في مواضعها زَيْنها وشَيْنها. ومفعول **{ لَا يَعْلَمُونَ }** محذوف دل عليه الكلام، أي: لا يعلمون تلك الحقائق والنواميس.

{ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ } [37].

<u>يجوز</u> أن تكون الجملة عطفا على جملة { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ } [36]، فيكون كلاما موجَّها من جانب الله تعالى إلى الذين قالوا { نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً } [35] فتكون ضمائر الخطاب موجّهة إليهم.

<u>ويجوز</u> أن يكون الكلام ممّا أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويبلّغه عن الله تعالى، ويكون في ضمير { عِنْدَنَا } التفات، وضمائر الخطاب نفسها.

وهو ارتقاء من إبطال الملازمة إلى الاستدلال على أنّهم ليسوا بمحل الرضى من الله تعالى، على طريقة النقض التفصيلي المسمّى بالمناقضة، فقد أبطلت الآية أن تكون أموالهم وأولادهم مقرِّبة عند الله تعالى، وأنّه

لا يقرِّب إلى الله إلّا الإيمان والعمل الصالح.

{ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ** } جيء بالجملة المنفية في صيغة حصر بتعريف المسند إليه والمسند، لأنّ هذه الجملة أريد منها نفي قولهم {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، فكان كلامهم في قوّة حصر التقريب إلى الله في كثرة الأموال والأولاد فنفي ذلك بأسره.

{ **وَلاَ أَوْلادُكُمْ** } وتكرير { لاَ } النافية بعد العاطف لتأكيد تسلّط النفي على كلا المذكورين، ليكون كلّ واحدٍ مقصودا بنفي كونه ممّا يقرِّب إلى الله ومتلقَنا إليه.

{ **بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى** } لما كانت الأموال والأولاد جمعي تكسير عوملا معاملة المفرد المؤنث فجيء بخبرهما اسم موصول المفرد المؤنث على تأويل جماعة الأموال وجماعة الأولاد.

{ **تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا** } عدل عن أن يقال: بالتي تقربكم إلينا، لأن التقريب هنا مجاز في التشريف والكرامة لا تقريب مكان.

الزلفى: اسم للقرب مثل الرُّجعى، وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: تقرّبكم تقريبا، ونظيره قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً } [نوح:17].

{ **إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } استثناء منقطع. و{ إِلَّا } بمعنى (لكنْ) المخففة النون، التي هي للاستدراك وما بعدها كلام مستأنف، وذلك من استعمالات الاستثناء المنقطع. والتقدير: لكن من آمن وعمل صالحا فأولئك...

{ **فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** } ثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وجيء باسم الإشارة للتنويه بشأنهم والتنبيه على أنّهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الأوصاف التي تقدّمته.

{ **الضِّعْف** } المضاعف المكرّر، فيصدق بالمكرّر مرة واكثر. وفي الحديث " **والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة** "، وقد أشار إليه قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } [البقرة:261]

كُنِّي عن التقريب بمضاعفة الجزاء، أي: أولئك يقرَّبون زلفى فيجزون جزاء الضعف على أعمالهم لا على وفرة أموالهم وأولادهم، فالاستدراك ورد على جميع ما أفاده كلام المشركين من الدعوى الباطلة والفخر الكاذب، وفيه مع ذلك رفع توهّم أنّ الأموال والأولاد لا تقرّب إلى الله بحال، فإنّ من أموال المؤمنين صدقات ونفقات، ومن أولادهم أعوانا على البر ومجاهدين وداعين لآبائهم بالمغفرة والرحمة.

{ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** } و{ **الْغُرُفَاتِ** } جمع غرفة. وتقدّم في [الفرقان:75]، وهي البيت المعتلي وهو أجمل منظرا وأشمل مرأى. و{ **آمِنُونَ** } خبر ثاني، يعني يُلقى في نفوسهم الأمن من انقطاع ذلك النعيم.

{ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** } [38].

جرى الكلام عل عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسه، فكان هذا بمنزلة الاعتراض بين الثناء على المؤمنين الصالحين وبين إرشادهم إلى الانتفاع بأموالهم للقرب عند الله بقوله {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ}[39]

{ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ** } هم المشركون بصدِّهم عن سماع القرآن، وبالطعن فيه بالباطل، واللغو عند سماعه.

السعي: مستعار للاجتهاد في العمل، كقوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى } [النازعات:22]. وإذا عُدّي بـ (فِي) كان في الغالب مرادا منه الاجتهاد في المضرة. فالمعنى هنا: يجتهدون في إبطالها.

{ **مُعَاجِزِينَ** } مغالبين مطالبين العجز. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [الحج:51].

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا الجحيم لأجل ما ذُكر قبل اسم الإشارة من الصفات.

{ **فِي الْعَذَابِ** } خبر عن اسم الإشارة. و{ **مُحْضَرُونَ** } هنا كناية عن الملازمة، فهو ارتقاء في المعنى الذي دلّت عليه أداة الظرفية من إحاطة العذاب بهم، وهو خبر ثان عن اسم الإشارة، ومتعلّقه محذوف دل عليه الظرف، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } [الروم:6].

{ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** } [39].

أتبع إبطال أن تكون الأموال والأولاد بذاتهما وسيلة قرب لدى الله تعالى، ردًّا على مزاعم المشركين، بما يشبه معنى الاستدراك على ذلك الإبطال من إثبات لنوع من الانتفاع.

فالانتفاع بالمال إن استُعمل في طلب مرضاة الله قد يكون فيه قربى إلى الله. وهذا تفصيل لما أشير إليه إجمالا بقوله تعالى { إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } [37] كما تقدم.

{ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ** } تقدّم نظيره قريبا [36] تأكيدا لذلك وليُبنى عليه قوله { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ }. فالذي تقدّم ردّ على المشركين والمذكور هنا ترغيب للمؤمنين، والعبارات واحدة والمقاصد مختلفة. وهذا من وجوه الإعجاز أن يكون الكلام الواحد صالحا لغرضين وأن يتوجّه إلى طائفتين.

{ **مِنْ عِبَادِهِ** } أي: المؤمنين، لأنّه لمّا كان هذا الثاني موجَّها إلى المؤمنين أشير إلى تشريفهم. وكان ما تقدّم [36] أن يُبسط الرزق لغير المؤمنين فلم ينعموا بوصف { مِنْ عِبَادِهِ }.

{ **وَيَقْدِرُ لَهُ** } أي: ويقدر لمن يشاء من عباده. ومفعول { يَقْدِرُ } محذوف دلّ عليه مفعول { يَبْسُطُ }.

وفي تعليق { لَهُ } بـ { يَقْدِرُ } إيماء إلى أنّ ذلك القدر لا يخلو من فائدة للمقدور عليه رزقه، وهي فائدة الثواب على الرضى بما قُسِّم له، والسلامة من الحساب عليه يوم القيامة. وفي الحديث: **" ما من مصيبة تصيب المؤمن إلّا كُفِّر بها عنه، حتّى الشوكة يُشاكُها ".**

ولولا هذا الإيماء لقيل: ويقدر عليه، كما قال { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ } [الطلاق:7].

وأمّا حال الكافرين فإنّهم يُنعم على بعضهم برزق يحاسبون عليه أشد الحساب يوم القيامة إذ لم يشكروا رازقهم، ويُقدَّر على بعضهم فلا يناله إلّا الشقاء.

وفي هذا امتنان على الذين يُبسط عليهم الرزق بأن جمع الله لهم فضل الإيمان وفضل سعة الرزق، وتسلية للذين قُدّر عليهم رزقهم بأنّهم نالوا فضل الإيمان وفضل الصبر على ضيق الحياة.

وهذا تعليم للمسلمين بأنّ نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا، قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } [البقرة:202/201]، فأمّا نعيم الدنيا فهو مسبَّب عن أحوال دنيوية رتَّبها الله تعالى ويسَّرها، وأمّا نعيم الآخرة فهو مسبَّب عن أعمال مبيَّنة في الشريعة. وكثير من الصالحين يحصل لهم النعيم في الدنيا مع العلم بأنّهم منعَّمون في الآخرة، كما أُنعِم على داود وسليمان وعلى كثير من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ** } حثٌّ على الإنفاق بترغيب الأغنياء في الإنفاق في سبيل الله، فجعل الوعد بإخلاف ما ينفقه المرء كناية عن الترغيب في الإنفاق، لأنّ وعد الله بإخلافه، مع تأكيد الوعد، يقتضي أنّه يُحب ذلك من المنفقين.

وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط وبجعل جملة الجواب اسمية وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله {فَهُوَ يُخْلِفُهُ}، ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكِّدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان لما في { مَا } من العموم.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** } تذييل للترغيب والوعد بالزيادة، لبيان أنّ ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق.

وظاهر الآية أن إخلاف الرزق يقع في الدنيا وفي الآخرة.

روى مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: **يقول الله تعالى: " يا بن آدم أَنْفِقَ أُنْفِقْ عليك ".**

قال ابن العربي: " قد يُعوَّض مثله أو أزيد، وقد يُعوَّض ثوابا، وقد يُدَّخر له، وهو كالدعاء في وعد الإجابة ".

قلت: وقد يُعوَّض صحة وقد يُعوَّض تعميرا. ولله في خلقه أسرار.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ [40] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [41] }.

عطف على جملة { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [31]، استكمالاً لتصوير فظاعة حالهم يوم الوعد الذي أنكروه، تبعا لما وُصِف من حال مراجعة المستكبرين منهم والمستضعفين، فوصف هنا افتضاحهم بتبرُّؤ الملائكة منهم وشهادتهم عليهم بأنّهم يعبدون الجنّ.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } ضمير الغيبة عائد إلى ما عاد عليه ضمير {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً} [35] الذي هو عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [31]. والكلام كلّه منتظم في أحوال المشركين.

جميع: فعيل بمعنى مفعول، أي: مجموع، وكثر استعماله وصفا لإفادة شمول أفراد ما أجرى هو عليه من ذوات وأحوال. وتقدّم عند قوله تعالى { فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ } [هود:55].

فاللفظ يعمّ أصناف المشركين على اختلاف نحلهم واعتقادهم في شركهم، فقد كان مشركو العرب نحلا شتَّى يأخذ بعضهم من بعض، وما كانوا يحقّقون مذهبا منتظم العقائد والأقوال غير مخلوط بما ينافي بعضه بعضا.

والمقصد من هذه الآية إبطال قولهم في الملائكة إنّهم بنات الله، وقولهم { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:20]. وكانوا يخلطون بين الملائكة والجنّ ويجعلون بينهم نسبا، فكانوا يقولون: الملائكة بنات الله من سَروات الجنّ. وقد كان حيّ من خزاعة يقال لهم: بنو مُلَيْح، (بضم الميم وفتح اللام وسكون التحتية)، يعبدون الجنّ والملائكة.

والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين لأنّ إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونه ممّن عُبد من دون الله بدلالة الفحوى، أي: بطريق الأولى.

{ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ } وتوجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل في التعريض بالمشركين.

{ هَؤُلاءِ } الإشارة إلى فريق كانوا عبدوا الملائكة والجنّ ومن شايعهم على أقوالهم من بقية المشركين.

{ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ } تقديم المفعول للاهتمام والرعاية على الفاصلة.

{ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } حُكي قول الملائكة بدون عاطف لوقوعه في المحاورة، ولذلك جيء فيه بصيغة الماضي لأنّ ذلك هو الغالب في الحكاية.

{ سُبْحَانَكَ } جواب الملائكة يتضمّن إقرارًا مع التنزُّه عن لفظ كونهم معبودين.

الوليّ: الناصر والحليف والصديق، مشتقّ من **الوَلْي** مصدر وَلِيَ بوزن عَلِم.

{ أَنْتَ وَلِيُّنَا } لا نوالي غيرك، أي: لا نرضى به وليا، والعبادة ولاية بين العابد والمعبود. وتقدّم الكلام على

لفظ (ولي) عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام:14]، وفي [الرعد:37].

{ **مِنْ دُونِهِمْ** } تأكيد لما أفادته جملة { أَنْتَ وَلِيُّنَا } من الحصر لتعريف الجزءين.

{ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ** } للإضراب الانتقالي، انتقالا من التبرُّؤ منهم إلى الشهادة عليهم وعلى الذين سوَّلوا لهم عبادة غير الله تعالى، وليس إضراب إبطال لأنّ المشركين المتحدَّث عنهم كانوا يعبدون الملائكة.

المعنى: بل كان أكثر هؤلاء يعبدون الجنّ، وكان الجنّ راضين بعبادتهم إيَّاهم.

{ **أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ** } الجملة للمشركين، وضمير{ بِهِمْ } للجنّ.

{ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ } [42].

{ **فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً** } الفاء فصيحة ناشئة عن المقاولة السابقة. وهي كلام موجّه من جانب الله تعالى إلى الملائكة والمقصود به: التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجنّ، لأنّ الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر فلا يُقصد إفادتهم به.

<u>ويجوز</u> أن يكون من خطاب الملائكة للفريقين بعد أداء الشهادة عليهم توبيخا لهم وإظهارا للغضب عليهم تحقيقا للتبرّؤ منهم.

{ **لا يَمْلِكُ** } المِلك هنا بمعنى: القدرة، أي: لا يقدر بعضكم على نصر أو نفع بعض. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [المائدة:17].

{ **نَفْعاً وَلا ضَرّاً** } قُدّم النفع في حيّز النفي تأييسا لهم، لأنّهم يرجون أن يشفعوا لهم يومئذ { وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }. وعطف نفي الضرّ على نفي النفع للدلالة على سلب مقدرتهم على أي شيء.

{ **وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } عطف على قوله تعالى { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا } [40]. وقد وقع الإخبار عن هذا القول بعد الإخبار عن الحوار الذي يجري بين الملائكة وبين المشركين يومئذ إظهارا لاستحقاقهم هذا الحكم الشديد.

الذوق: مجاز لمطلق الإحساس، واختياره دون الحقيقة لشهرة استعماله.

{ **الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } وصف النار بالتي كانوا يكذّبون بها لِما في صلة الموصول من إيذان بغلطهم وتنديمهم. وقد عُلِّق التكذيب هنا بنفس النار فجيء باسم الموصول المناسب لها { الَّتِي }، ولم يعلّق بالعذاب كما في قوله تعالى { وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [السجدة:20] لأنّ القول المخبر عنه هنا هو قو ل الله تعالى وحكمه وقد أُذن بهم إلى جهنّم وشاهدوها كما قال تعالى آنفا { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا

الْعَذَابَ } [33]، وأمّا القول المحكي في [السجدة:20] فهو قول ملائكة العذاب.

{ **بِهَا تُكَذِّبُونَ** } تقديم المجرور للاهتمام والرعاية على الفاصلة.

{ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** } [43]

انتقال من حكاية كفرهم وغرورهم وتكذيبهم بأصول الديانة إلى حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأتبع ذلك بحكاية تكذيبهم الكتاب والدين الذي جاء به، فكان كالفذلكة لِما تقدّم من كفرهم.

{ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } معطوفة على جملة { يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } [40]عطف القصة على القصة. وضمير { عَلَيْهِمْ } عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [31]، وهم المشركون من أهل مكة.

{ **وَإِذَا** } إيراد حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم مقيّدة بالزمن الذي تتلى عليهم فيه آيات الله البيّنات تعجيب من وقاحتهم حيث كذّبوه في أجدر الأوقات بأن يصدّقوه عندها، لأنّه وقت ظهور حجّة صدقه لكلّ عاقل متبصّر.

{ **تُتْلَى** } حذف فاعل التلاوة لظهور أنّه الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هو تالي آيات الله، فالإشارة بـ { مَا هَذَا } إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، واستحضروه بطريقة الإشارة دون الاسم إفادة لحضور مجلس التلاوة وذلك من تمام وقاحتهم، فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم القرآن في مجالسهم كما ورد في حديث قراءته على عتبة بن ربيعة سورة فصلت.

{ **عَلَيْهِمْ** } قُدِّم الظرف على عامله للاهتمام به والتعجيب من متعلّقه، وللتشوّف إلى الخبر الآتي بعده، وأنّه من قبل البهتان والكفر البواح.

الآيات البيّنات: آيات القرآن، ووصفها بالبيّنات لأجل ظهور أنّها من عند الله لإعجازها إيّاهم عن معارضتها، ولما اشتملت عليه معانيها من الدلائل الواضحة على صدق ما تدعوا إليه، فهي محفوفة بالبيان بألفاظها ومعانيها.

{ **قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ** } ابتدأوا بالطعن في التالي لأنّه الغرض الذي يرمون إليه، وأثبتوا له إرادة صدّهم عن دين آبائهم قصد أن يثير بعضهم حميّة بعض، لأنّهم يجعلون آباءهم أهل الرأي فيما ارتأوا والتسديد فيما فعلوا، فلا جرم أن يكون مريد الصدّ عنها كاذبا في قوله.

{ **كَانَ** } إشارة إلى أنّهم عنوا أنّ تلك عبادة قديمة ثابتة.

{ **وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً** } أتبعوا وصف التالي بوصف المتلو بأنّه كذب مفترى.

وإعادة فعل القول للاهتمام بكل قول من القولين الغريبين تشنيعا لهما في نفس السامعين فالجملة عطف على جملة { قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ }، فالفعلان مشتركان بالظرف.

{ **مَا هَذَا** } الإشارة الثانية إلى القرآن الذي تضمّنه قوله تعالى { تُتْلَى }.

الإفك: الكذب، ووصفه بـ { **مُفْتَرىً** } إمّا بنسبته إلى الله تعالى، أو أريد أنّه في ذاته إفك وزادوا فجعلوه مخترعا من النبيّ صلى الله عليه وسلم. فكونه { إِفْكٌ } يرجع إلى جميع ما في القرآن، وكونه { مُفْتَرىً } يرجعونه إلى ما فيه من قصص الأوّلين. وهذا القول من بهتانهم لأنّهم كثيرا ما يقولون { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام: 25]، فليس { مُفْتَرىً } تأكيد لـ { إِفْكٌ }.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** } ثم حُكِي تكذيبهم الذي يعمّ جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من وحي يُتلى أو دعوة إلى التوحيد وغيره، أو استدلال عليه، أو معجزة. فهذا المقال الثالث يشمل ما تقدّم وغيره، فحكاية مقالهم هذا تقوم مقام التذييل.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } أظهر القائلين دون إضمار، فلم يقل: وقالوا للحق لما جاءهم، للدلالة على أنّ الكفر هو باعث قولهم هذا.

{ **لِلْحَقِّ** } ما هو أعم من آيات القرآن، فيشمل ما يُتلى، وكلّ دعوة إلى التوحيد وغيره، أو معجزة.

{ **مُبِينٌ** } أنّه يظهر منه أنّه سحر، يعنون أنّ من سمعه يعلم أنّه سحر.

{ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ } [44]

الواو للحال، والجملة في موضع الحال من الضمير في قوله تعالى { قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ } [43]، تحميقا لجهالتهم وتعجيبا من حالهم في أمرين:

أحدهما: أنّهم لم يدركوا ما ينالهم من المزيّة بمجيء الحق إليهم، إذ هيَّأهم الله به لأن يكونوا في عداد الأمم ذوي الكتاب، وفي بدء حال يبلغ بهم مبلغ العلم، إذ هم لم يسبق لهم أن أتاهم كتاب من عند الله أو رسول منه، فيكون معنى الآية: فكيف رفضوا اتّباع الرسول وتلقي القرآن وكان الأجدر بهم الاغتباط بذلك.

وهذا المعنى هو المناسب لقوله { يَدْرُسُونَهَا } أي: لم يكونوا أهل دراسة فكان الشأن أن يسرّهم ما جاءهم.

ثانيهما: أنّهم لم يكونوا على هدى ولا دين منسوب إلى الله تعالى حتّى يكون تمسُّكهم به وخشية الوقوع في الضلالة إن فرَّطوا فيه، فيكون لهم في الصدّ عنهما بعض العذر. فيكون المعنى: التعجيب من رفضهم الحق حين لا مانع يصدّهم.

فليس معنى الجملة على العطف ولا على الإخبار لأنّ مضمون ذلك معلوم لا يتعلق الغرض بالإخبار به. ولكن على إفادة التعجيب والتحميق، كما أسلفنا. وعلى هذا المعنى جرى المفسِّرون.

الدراسة: القراءة بتمهّل وتفهّم، وتقدّم عند قوله تعالى { وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } [آل عمران:79].
ولا علاقة للآية بأهل الكتاب، لأنّه لم يكن في مدة نزول الوحي بمكة علاقة للدعوة الإسلامية بأهل الكتاب وإنّما دعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

{ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [45].

هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد للذين كذّبوه، فموقع التسلية منه قوله تعالى { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، وموقع التهديد بقية الآية، فالتسلية في أنّ له أسوة بالرسل السابقين، والتهديد بتذكيرهم بالأمم السالفة التي كذّبت رسلها وكيف عاقبهم الله على ذلك وكانوا أشد قوة من قريش، وهذا كقوله تعالى { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً } [الزخرف:8].
{ **كَذَّبَ** } المفعول محذوف دلّ عليه ما بعده، أي: كذّبوا بالرسل.
{ **بَلَغُوا** } الضمير عائد إلى { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }.
{ **آتَيْنَاهُمُ** } من الآيات البيّنات والحقّ، فالضمير على الراجح عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } في قوله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [43].
وذُكر احتمالان آخران في معاد الضميرين يجيزهما المعنى ولا يستقيم معهما السياق.
المعشار: العُشر، وهو الجزء العاشر، مثل المرباع الذي كان يُجعل لقائد الكتيبة من الغنائم في الجاهلية.
{ **فَكَذَّبُوا رُسُلِي** } الفاء للتفريع على قوله { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، والتفريع للتأكيد. ونظيره قوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [القمر:9].
{ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } مفرّعة أيضا على قوله { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }. و(كيف) استفهام عن الحالة وهو مستعمل في التقرير والتفريع.
{ **فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } الجملتان في قوّة جملة واحدة مفرّعة على جملة { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } والتقدير: وكذب الذين من قبلهم فكيف كان نكيري على تكذيبهم الرسل. ولكن لمّا كانت جملة { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } مقصودا منها تسلية الرسول ابتداء جُعلت مقصورة على ذلك اهتماما بذلك الغرض وانتصارا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، ثمّ خُصَّت عبرة تسبّب التكذيب بالعقاب بجملة تخصها تهويلا للتكذيب، وهو من مقامات الإطناب، فصادف أن كان مضمون الجملتين متّحدا، اتحاد السبب لمسببين أو العلة لمعلولين كعلة السرقة للقطع والغرم. وبُني النظم على هذا الأسلوب الشيّق تجنّبا لثقل إعادة الجملة إعادة ساذجة، ففُرّعت الثانية على الأولى واظهر فيها مفعول { كَذَّبَ } وبُني عليه الاستفهام التقريري التفظيعي، أو فرّع التكذيب الخاص على التكذيب العام، الذي هو سجيتهم.

التنكير: اسم للإنكار وهو عدُّ الشيء منكرا، أي: مكروها، واستعمل هنا كناية عن الغضب وتسليط العقاب على الآتي بذلك المنكر، فهي كناية رمزية.

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [46].

{ **قُلْ** } افتتح بالأمر بالقول هنا وفي الجمل الأربع بعده للاهتمام بما احتوت عليه.

استئناف للانتقال من حكاية أحوال كفر المشركين وما تخلّل ذلك من النقض والاستدلال والتسلية والتهديد ووصف صدودهم ومكابرتهم، إلى دعوتهم للإنصاف في النظر والتأمّل في الحقائق ليتّضح لهم خطؤهم فيما ارتكبوه من العسُّف في تلقّي دعوة الإسلام، وما ألصقوا به وبالداعي إليه، وأرشُدوا إلى كيفية النظر في شأنهم والاختلاء بأنفسهم لمحاسبتها على سلوكها، استقصاء لهم في الحجّة وإعذارا لهم في المجادلة { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } [الأنفال:42].

{ **إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ** } اجتُلبت صيغة القصر، وهو قصر إضافي، أي: لا بغيرها من المواعظ المفصّلة، أي: إن استكثرتم الحجج وضجرتم من الردود والمطاعن فأنا أختصر المجادلة في كلمة واحدة. وهذا كما يقول المناظر والجدلي بعد بسط الأدلة: والخلاصة أو الفذلكة كذا.

أي: ما أعظكم إلّا بواحدة، فالكلام طيّ لبساط المناظرة وإرساء على الخلاصة من المجادلات الماضية، وتقريب لشقة الخلاف.

والكلام على لسان النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يخاطبهم به.

الوعظ: كلام فيه تحذير من مكروه وترغيب في ضدّه. وتقدّم عند قوله تعالى { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ } [الأعراف [145]، وقوله تعالى { يَعِظُكُمُ اللَّهُ } [النور:17].

{ **بِوَاحِدَةٍ** } صفة لمحذوف يدلّ عليه المقام ويفرضه السامع نحو: بخصلة، أو بقضيّة، أو بكلمة.

والمقصود من هذا الوصف تقليلها تقريبا للأفهام واختصارا في الاستدلال وإيجاز في نظم الكلام واستنزالا لطائر نفورهم وإعراضهم.

{ **أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ** } تبيين لـ { أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ }، فالمصدر المنسبك من { أَنْ } والفعل { تَقُومُوا } في موضع البدل من { بِوَاحِدَةٍ }، أو قل عطف بيان، فإنّ عطف البيان هو البدل المطابق، وإنّما أختلف التعبير عنه عند المتقدّمين.

{ **أَنْ تَقُومُوا** } مجاز، وهو التأهّب للعمل والاجتهاد فيه، كقوله { وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ} [النساء:127].
{ **لِلَّهِ** } اللام للتعليل، أي: لأجل الله ولذاته، أي: جاعلين عملكم لله، لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة.
أو لأجل معرفة الله والتدبّر في صفاته.
{ **مَثْنَى** } معدول بها عن قولهم: اثنين اثنين، بتكرير كلمة اثنين تكريرا يفيد معنى الترصيف.
{ **فُرَادَى** } معدول بها عن قولهم: فردا فردا تكريرا يفيد معنى الترصيف كذلك.
{ **مَثْنَى وَفُرَادَى** } انتصب على الحال من ضمير { تَقُومُوا } أي: أن تكونوا في القيام على هذين الحالين، فيجوز أن يكون المعنى: أن تقوموا لحق الله وإظهاره على أيّ حال من اجتماع وانفراد، فيكون { مَثْنَى } كناية عن التعدّد، ويجوز أن يكون المعنى أن تقوموا لحق الله مستعينا أحدكم بصاحب له او منفردا بنفسه.
وقدّم { مَثْنَى } لأنّ الاستعانة أعون على الفهم، فيكون المراد دفع عوائق الوصول إلى الحقّ بالنظر الصحيح الذي لا يغالط فيه صاحب هوى ولا شبهة، ولا يخشى فيه الناظر تشنيعا ولا سمعة.
فإنّ المرء إذا خلا بنفسه عند التأمّل لم يرض لها بغير النصح، وإذا خلى ثاني أثنين فهو إنّما يختار ثانيه أعلق أصحابه به وأقربهم منه رأيا، فسَلِم كلاهما من غش صاحبه.
{ **ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** } وحرف { ثُمَّ } للتراخي في الرتبة لأنّ التفكّر في أحوال النبيّ صلى الله عليه وسلم أهمّ في إصلاح حال المخاطبين المعرضين عن دعوته.
التفكّر: تكلّف الفكر وهو العلم، وتقدّم عند قوله تعالى { أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].
{ **مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ** } نفي يُعلِّق فعل { تَتَفَكَّرُوا } عن العمل لأجل حرف النفي.
والمعنى: ثم تعلموا نفي الجنون عن صاحبكم. فالجملة معمولة لـ { تَتَفَكَّرُوا }. وهو كناية عن التبصر في خُلُقه، وتقدم في قوله { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } [الأعراف:184].
الصاحب: المخالط مطلقا بالموافقة والمخاصمة.
{ **بِصَاحِبِكُمْ** } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: ما بي من جنّة، إذ الكلام جار على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تقدّم آنفا.
وفائدته التنبيه على أنّ حاله معلوم لديهم لا يلتبس عليهم لشدّة مخالطته بهم. فهذا كقوله تعالى { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [يونس:16].
والاقتصار في التفكّر المطلوب على انتفاء الجنّة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم هو أنّ أصل الكفر هو الطعن في نبوّته، وهم إنّما ابتدأوا اختلاقهم بأنّه مجنون، كما جاء في السورة الثانية نزولا { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [القلم:2]، وجاء في السورة السابعة { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [التكوير:22].

وذلك هو الذي استمروا عليه، قال تعالى { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ } [الدخان:14]، إذ دعوى الجنون أروج بين أهل مكة، لأنّ الجنون يطرأ على الإنسان دفعة. كما قالت عاد لهود { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود:54]، وقالت ثمود لصالح { قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا } [هود:62].

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** } قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا، أي: هو مقصور على صفة النذارة لا تحوم حوله الأوصاف التي لمزتموه بها.

{ **بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** } القرب، أي: قرب الحصول، فيقتضي القبلية، وتقدّم آنفا [31]، أي: عذاب الآخرة.

{ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [47].

هذا استقصاء لبقايا شُبه التكذيب لدحضها، سواء منها ما تعلّقوا به من نحو قولهم: كاهن وشاعر ومجنون، وما لم يدَّعوه ولكنّه قد يخطر ببالهم أن يزعموا أنّه يريد بهذه الدعوى نفعا لنفسه، يكون كالأجر له.

فلمّا نفيت عنه تلك الخلال لم يبق لهم في الكنانة سهمُ طعنٍ إلّا أن يزعموا أنّه يطلب أجرا على الإرشاد، فقيل لهم { مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ } أي: إن كان بكم ظنّ انتفاعي منكم بما دعوتكم إليه، فما كان لي من أجر عليه فخذوه.

وهذه طريقة بديعة في الكناية التهكّمية عن عدم انتفاعه بما يدعوهم إليه، بأن يُفرض كالواقع ثم يُرتّب عليه الانكفاف عنه وردّ ما فات منه، ليفضي بذلك إلى البراءة منه ومن التعرّض له. فهي كناية رمزية.

وهم يعلمون أنّه لم يسألهم أجرا { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [ص:87/86].

الأجر: عوض نافع عن عمل، سواء كان مالا أو غيره. وتقدّم عند قوله تعالى { لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ } [القصص:25].

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال مقدّر أن يسأل السامع: كيف لا يكون له على ما قام به أجر، فأجيب بأنّ أجره مضمون وَعَدَه الله به، لأنّه إنّما يقوم بعمل لمرضاته وامتثال أمره فعليه أجره.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } ثمّ ذيّل ذلك باستشهاد الله تعالى على باطنه ونيّته التي هي من جملة الكائنات التي الله شهيد عليها وعليم بخفاياها، فهو من باب { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [الرعد:43].

{ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** } [48].

لا جَرَمَ إذ انتهى الاستدلال والمجادلة أن يُنتقل إلى النداء بين ظهرانيهم بظهور الحقّ فيُستغنى عن مجادلتهم.

{ **قُلْ** } أعيد الفعل للاهتمام بالمقول كما أشرنا إليه آنفا.

{ **إِنَّ** } التأكيد لتحقيق هذا الخبر.

{ **رَبِّي** } التعبير عن اسم الله بلفظ الربّ وإضافته إلى ضمير المتكلم للإشارة أنّ الحقّ في جانبه، وأنه مؤيّد من ربّه، فإنّ الربّ ينصر مربوبيه ويؤيّدهم. فالمراد بالربوبية هنا ربوبية الولاء والاختصاص لا مطلق الربوبية لأنّها تعمّ الناس كلّهم.

{ **إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ** } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي للدلالة على الاختصاص دون التقوّي، لأنّ تقوّي الجملة حصل بحرف التأكيد. وهذا الاختصاص باعتبار ما في { يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } من معنى: الناصر لي دونكم، فماذا ينفعكم اعتزازكم بأموالكم وأولادكم وقوّتكم.

القذف: إلقاء الشيء من اليد، وأطلق على إظهار الحق قذف على سبيل الاستعارة، شبه إعلان الحق بإلقاء الحجر ونحوه. وهو تعريض بالتهديد والتخويف من نصر الله المؤمنين على المشركين.

ويجوز أن يكون معنى { يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } يرسل الوحي، أي: على من يشاء من عباده، كقوله تعالى { يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [غافر:15]، ويكون قوله { **عَلَّامُ الْغُيُوبِ** } إشارة إلى أنّه أعلم حيث يجعل رسالاته، لأنّ المشركين كانوا يقولون: لولا أنزلت علينا الملائكة دون محمد.

{ **عَلَّامُ الْغُيُوبِ** } تخصيص هذا الوصف من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنّه عالم بالنوايا، وأنّ القائل يعلم ذلك، فالذي يعلم هذا لا يجترئ على الله بادعائه باطلا أنّه أرسله إليكم، فالإعلام بهذه الصفة هنا يشبه استعمال الخبر في لازم فائدته، وهو العلم بالحكم الخبري.

{ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** } [49].

{ **قُلْ** } أعيد الفعل للاهتمام بالمقول كما تقدّم أنفا.

{ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ** } تأكيد لجملة { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } [48]، فإنّ الحق قد جاء بنزول القرآن ودعوة الإسلام.

{ **وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** } عطف على { جَاءَ الْحَقُّ } لأنّه إذا جاء الحق انقشع الباطل من الموضع الذي حلّ فيه الحق. كناية عن اضمحلاله وزواله، وهو ما عُبّر عنه بالزهوق في قوله تعالى { إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } [الإسراء:81].

{ **يُبْدِئُ** } مضارع أبدأ بهمزة في أوّله وهمزة في أخره، والهمزة التي في أوّله للزيادة مثل همزة: أجاء.
وأكثر ما يستعمل فعل (أبدأ) المهموز أوّله مع فعل (أعاد) مزدوجين في إثبات أو نفي، وتقدّم قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [العنكبوت:19].
وإسناد الإبداء والإعادة إلى الباطل مجاز عقلي أو استعارة.

{ **قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**}[50].
لمّا جرى ذكر الحقّ والباطل وكانوا يزعمون من مجموع أقوالهم أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام غير صادق في دعوى الرسالة من الله، كانت أقوالهم تقتضي زعمهم إيّاه على ضلال، وكان الردّ عليهم قاطعا بأنّه على هدى بقوله { قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ } [49].
لذلك انتقل هنا إلى متاركة جدالهم وتركهم وشأنهم لقلّة جدوى مراجعتهم. وهذا محضر خاص وطي بساط مجلس واحد، فلا يقتضي أنّه يستمر على ترك مجادلتهم لأنّ الواقع ينافي ذلك فقد نزل القرآن بعد ذلك طويلا مشتملا على دعوتهم وتحذيرهم وإنذارهم.
{ **إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي** } صيغة القصر لقصر الضلال المتخيّل، وقد استُفيد من إسناد الفعل إلى ضمير المتكلّم، ثم ممّا عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم، وهو أغرق في التعلّق به، أنّ الضلال المفترض، إن حصل، فسببه من قبل نفسه.
وتعدية { أَضِلُّ } بحرف (عَلَى) تتضمّن استعارة مكنية إذ شبّه الضلال بجريرة عليه فعدّاه بالحرف الشائع استعماله في الأشياء المكره عليها غير الملائمة، عكس (اللام).
{ **وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي** } اختير في جانب الهدى فعل { اهْتَدَيْتُ } الذي هو مطاوع (هدى) لما فيه من الإيماء إلى أنّ له هاديا، وبيّنه بقوله { فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي } ليحصل شكره لله إجمالا ثم تفصيلا.
والقول كالاحتراس من أن يكون حاله مقتصرا على فرض كونه مظنّة الضلال، مع ما فيه من الاعتراف لله بنعمته بأنّ ما يناله من خير فهو بإرشاد الله لا من نفسه، لأنّه ما كان يصل لذلك وهو مغمور بأمّة جاهلية لولا إرشاد الله إيّاه، كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ} [الشورى:52].
{ **إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** } تذييل لما أفادته الجملتان المقولتان قبله من الترديد في نسبة الاهتداء والضلال، أي: أن الله يعلم حالي، وهو كذلك مطّلع على حالكم. وهذا تعريض بالتهديد.
القريب: هنا كناية عن العلم والإحاطة، فهو قرب مجازي.

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ [51] وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [52] وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [53] }.

لمّا جاءهم التعريض بالتهديد من لازم المتاركة المدلول عليها بقوله تعالى { فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي } [50]، للعلم بأنّ الضّال يستحق العقاب، أتبع حالهم حين يحلّ بهم الفزع من مشاهدة ما هُدِّدوا به.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تسلية له، أو لكلّ مخاطب.

{ **لَوْ** } حذف جوابها للتهويل. والتقدير: لرأيت أمرا فظيعا.

{ **تَرَى** } المفعول يجوز أن يكون محذوفا، أي: لو تراهم، أو ترى عذابهم، ويجوز أن يكون { إِذْ } هو المفعول به وهو مجرّد عن الظرفية، أي: لو ترى ذلك الزمان، أي: ترى ما يشمل عليه.

الفزع: الخوف المفاجئ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم للأنصار: " **إنّكم لتَكْثُرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع** ". وهذا الفزع عند البعث يُشعر بأنّهم كانوا غير مهيّئين لهذا الوقت أسباب النجاة من هوله.

الأخذ: حقيقته التناول، هنا مجاز في الغلب والتمكّن بهم، كقوله تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10].

{ **فَلا فَوْتَ** } معترضة بين المتعاطفات. و**الفوت**: التفلّت والخلاص من العقاب.

المكان القريب: المحشر، أي: أخذوا منه إلى النار، فاستغنى بذكر { مِن } الابتدائية عن ذكر الغاية، لأنّ كلّ مبدأ له غاية. ومعنى قرب المكان أنّه قريب إلى جهنم بحيث لا يجدون مهلة لتأخير العذاب.

{ **وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ** } أي: يقولون حينئذ: آمنا به.

{ **بِهِ** } إذا كان الضمير محكيًّا من كلامهم، فهو للوعيد أو ليوم البعث أو للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو القرآن، لأنّ جميع ما يصحّ معادا للضمير مشاهد لهم، فأجمعوا فيما يراد الإيمان به، لأنّهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه منجيا لهم من العذاب.

وإن كان الضمير من الحكاية فهو عائد إلى الحقّ من قوله تعالى { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } [48]، لأنّ الحق يتضمّن ذلك كلّه.

{ **وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } استطراد على قولهم { آمَنَّا بِهِ }، بأنّهم قد فوّتوا وقت الإيمان.

{ **أَنَّى** } استفهام عن المكان، وهو مستعمل في الإنكار.

{ **التَّنَاوُشُ** } (قرأه الجمهور بواو مضمومة بعد الألف) وهو التناول السهل أو الخفيف، وأكثر وروده في شرب الإبل شربا خفيفا من الحوض ونحوه. وقال الفراء والزجاج: هو من **نأش** (بالهمز) إذ تأخّر في عمل. وعلى كلا التفسيرين فالمراد بالتناوش وصف قولهم { آمَنَّا بِهِ } بأنّه إيمان تأخّر وقته أو فات أوانه.

{ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } وفي الجمع بينها وبين { مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ } محسِّن الطباق.

{ **وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ** } في موضع الحال، أي: كيف يقولون آمنا به في وقت الفوات والحال أنّهم كفروا به من قبل في وقت التمكّن، فهو كقوله تعالى { وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [القلم:43].

{ **وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } عطف على { كَفَرُوا } فهي حال ثانية. والتقدير: وكانوا يقذفون بالغيب. واختيار صيغة المضارع لحكاية الحالة.

القذف: الرمي باليد من بعد. وهو هنا مستعار للقول بدون تروّ ولا دليل، أي: يتكلّمون في أمور الآخرة بما لا علم لهم به، إذ أحالوا البعث والجزاء وقالوا عن شركائهم: هم شفعاؤنا عند الله.

الغيب: المغيّب. والباء للملابسة، والمجرور بها في موضع الحال من ضمير { يَقْذِفُونَ }.

{ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } هنا مستعمل في حقيقته، أي: من الدنيا، وهي مكان بعيد عن الآخرة.

{ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ } [54].

عطف على الجمل الفعلية نظائر هذه، وهي جُمل { فَزِعُوا }، { وَأُخِذُوا }، { وَقَالُوا } [52/51]، أي: وحال زجّهم في النار بينهم وبين ما يأملونه من النجاة بقولهم { آمَنَّا بِهِ } [52].

{ **مَا يَشْتَهُونَ** } هو النجاة من العذاب، أو عودتهم إلى الدنيا، فقد حكي عنهم في آيات أخرى أنّهم تمنّوه، قال تعالى { فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنعام: 27].

{ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ** } تشبيه للحيلولة بحيلولة أخرى وهي الحيلولة بين بعض الأمم وبين الإمهال حين حلّ بهم عذاب الدنيا، مثل فرعون وقومه إذ قال { آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس:90]، وكذلك قوم نوح حين رأوا الطوفان، وما من أمّة حلّ بها عذاب إلّا وتمنّت الإيمان حينئذ فلم ينفعهم إلّا قوم يونس.

الأشياع: المشابهون في النِّحلة وإن كانوا سالفين. وأصل المشايعة المتابعة في العمل والحلف ونحوه، ثمّ أطلقت هنا على مطلق المماثلة على سبيل المجاز المرسل بقرينة قوله { مِنْ قَبْلُ }، أي: كما فُعل بأمثالهم في الدنيا من قبل، وأمّا يوم الحشر فإنّما يحال بينهم وبين ما يشتهون وكذلك أشياعهم في وقت واحد.

وفائدة هذا التشبيه تذكير الأحياء منهم وهم مشركو أهل مكة بما حلّ بالأمم من قبلهم.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ** } مسوقة لتعليل الجمل التي قبلها. أي: فُعل بهم جميع ما سمعت لأنّهم كانوا في حياتهم في شكّ من ذلك اليوم وما وصف لهم من أهواله.

وإذا كان الشكّ مفضيا إلى تلك العقوبة فاليقين أولى بذلك، ومآل الشك واليقين بالانتفاء واحد إذ ترتّب عليهما عدم الإيمان به وعدم النظر في دليله.

المريب: المُوقع في الريب. و**الريب**: الشك، فوصف الشك به وصف له بما هو مشتق من مادته، لإفادة المبالغة، كقولهم: شعر شاعر، وليل أليل، أو ليلٌ داج.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر

سُمِّيت (**سورة فاطر**) في كثير من المصاحف في المشرق والمغرب، وفي كثير من التفاسير. وسُمِّيت في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي وفي كثير من المصاحف والتفاسير (**سورة الملائكة**)، لا غير.

وقد ذكر لها كلا الاسمين صاحب (الإتقان).

فوجه تسميتها **سورة فاطر** أنّ هذا الوصف وقع في طالعة السورة ولم يقع في أوّل سورة أخرى.

ووجه تسميتها **سورة الملائكة** أنّه ذكر في أوّلها صفة الملائكة ولم يقع في سورة أخرى.

وهي **مكّيّة** بالاتفاق، وحكى الآلوسي عن الطبرسي أنّ الحسن استثنى آيتين {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ} [29]، وآية { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } [32]، ولم أر هذا لغيره.

وهي **الثالثة والأربعون في ترتيب نزول سور** القرآن. نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم.

وقد عُدَّت آيها في عدّ أهل المدينة والشام **ستا وأربعين**، وفي عدّ أهل مكّة والكوفة **خمسا وأربعين**.

أغراض السورة

*/ إثبات تفرّد الله تعالى بالإلهية، فافتتحت بما يدلّ على أنّه مستحقّ الحمد على ما أبدع من الكائنات.

*/ إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وأنّه جاء به الرسل من قبله.

*/ إثبات البعث والدار الآخرة.

*/ تذكير الناس بإنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئا، وقد عبدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه.

*/ كشف نواياهم في الإعراض عن إتباع الإسلام.

*/ إنذارهم أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المكذِّبة قبلهم.

*/ الثناء على الذين تلقّوا الإسلام بالتصديق.

*/ تذكير المكذّبين بأنّهم كانوا يودُّون أن يُرسَل إليهم رسول فلما جاءهم رسول تكبّروا واستنكفوا. وأنّهم لا مفرّ لهم من حلول العذاب عليهم، فقد شاهدوا آثار المكذِّبين من قبلهم، وأنّ لا يغتروا بإمهال الله إيّاهم.

*/ التحذير من غرور الشيطان والتذكير بعداوته لنوع الإنسان.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [1].

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } افتتاحٌ مؤذن بأنّ صفات من عظمة الله ستُذكر فيها، وإجراء صفات الأفعال على اسم الجلالة، من خلقه السماوات والأرض وأفضل ما فيها من الملائكة والمرسلين، مؤذن بأنّ السورة جاءت لإثبات التوحيد وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإيذان { الْحَمْدُ لِلَّهِ } باستحقاق الله الحمد دون غيره تقدّم في أوّل سورة الفاتحة.

الفاطر: الخالق، وفيه معنى التكوّن سريعا لأنّه مشتق من الفطر وهو الشق. منه قوله تعالى { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ } [الشورى:5]، وقوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ } [الانفطار:1].

وعن ابن عباس: " كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض [أي: لعدم جريان هذا اللفظ بينهم في زمانه] حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأتها ".

وأحسب أن وصف الله بـ { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ممّا سبق به القرآن، وتقدّم عند قوله تعالى { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الأنعام [14]، وقوله تعالى { وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يوسف:101].

{ **جَاعِلِ** } يطلق بمعنى مكوّن، وبمعنى مُصَيِّر.

{ **الْمَلائِكَةِ رُسُلاً** } على المعنى الأوّل لـ { جَاعِلِ } يكون { رُسُلاً } مفعولا ثانيا لـ {جَاعِلِ} أي: جعل الله من الملائكة رسلا، أي: ليكونوا رسلا منه تعالى لما يريد أن يفعلوه بقوّتهم الذاتية.

وعلى المعنى الثاني لـ { جَاعِلِ } يكون { رُسُلاً } حالا من { الْمَلائِكَةِ }، أي: يجعل من أحوالهم أن يرسلوا.

ولصلاحية المعنيين أوثرت مادة الجعل دون أن يعطف على معمول { فَاطِرِ }.

وتخصيص ذكر الملائكة من بين مخلوقات السماوات والأرض لشرفهم بأنّهم سكان السماوات، وعظيم خلقهم. وأجري عليهم صفة أنّهم رسل، لمناسبة المقصود من إثبات الرسالة، أي: جاعلهم رسلا منه إلى المرسلين من البشر للوحي بما يراد تبليغهم إيّاه للناس.

{ **أُولِي أَجْنِحَةٍ** } يجوز أن يكون حالا من { الْمَلائِكَةِ }، فتكون الأجنحة ذاتية لهم من مقوّمات خلقهم.

ويجوز أن يكون حالا من الضمير في { رُسُلاً } فيكون خاصة بحالة مرسوليّتهم.

{ **أَجْنِحَةٍ** } جمع جَناح (بفتح الجيم) وهو ما يكون للطائر في موضع اليد للإنسان، فيحتمل أنّ إثبات الأجنحة للملائكة في هذه الآية وفي بعض الأحاديث المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم **حقيقة**.

ويحتمل أنّه **استعارة للقوّة** التي يخترقون بها الآفاق السماوية صعودا ونزولا، لا يعلم كنهها إلّا الله تعالى.

{ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ } كلمات دالة على معنى التكرير لاسم العدد التي تشتق منه ابتداء من الاثنين بصيغة مثنى، ثم الثلاثة والأربعة بصيغة ثلاث ورُباع. والأكثر أنّهم لا يتجاوزون بهذه الصيغة مادة الأربعة، وقيل يجوز إلى العشرة. والمعنى: اثنين اثنين الخ. وتقدّم قوله تعالى { أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى } [سبأ:46].

ويجوز أن تكون أعداد الأجنحة متغيّرة لكلّ ملك في أوقات متغيّرة على حسب المسافات التي يؤمرون باختراقها من السماوات والأرضين. والأظهر أن الأجنحة للملائكة من أحوال التشكل الذي يتشكّلون به.

الملائكة: واعلم أنّ ماهية الملائكة تتحصّل فيما ذكره سعد الدين في كتاب (المقاصد): " إنّهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكّلات بأشكال مختلفة، شأنهم الخير والطاعة، والعلم، والقدرة على الأعمال الشاقة، ومسكنهم السماوات، وهذا ظاهر الكتاب والسنة، وهو قول أكثر الأمّة ".

والوجه عندي في ترتيب التعريف أنّ يقال: أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكّل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرّهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض.

وثبت تشكّل جبريل عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي، وتشكّله له ولعمر بن الخطاب في حديث السؤال عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة في صورة "... رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد [أي: من أهل المدينة] حتّى جلس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه إلى فخذيه ..." ، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن فارقهم الرجل: **" هل تدرون من السائل؟ "** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **فإنّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "**. كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب.

وثبت حلول جبريل في غار حراء في بدء الوحي، وظهوره للنبيّ صلى الله عليه وسلم على كرسي بين السماء والأرض بصورته، التي رآه فيها في غار حراء، في حديث نزول سورة المدثر.

ورأى كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ناسا لا يعرفونهم على خيل يقاتلون معهم.

{ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ } مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ ما ذُكر من صفات الملائكة يثير تعجّب السامع أن يتساءل عن هذه الصفة العجيبة، فأجيب بهذا الاستئناف، بأنّ مشيئة الله تعالى لا تنحصر ولا توقَّت.

ولكلّ جنس من أجناس المخلوقات مقوماته وخواصه.

{ فِي الْخَلْقِ } في المخلوقات كلّها، أي: يزيد الله في بعضها ما ليس في خلق آخر. فيشمل زيادة قوّة بعض الملائكة على بعض.

ويجوز أن تكون جملة { يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ } صفة ثانية للملائكة، أي: أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء كأنّه قيل: مثنى وثلاث ورباع وأكثر. يبيّنه ما في الأحاديث من كثرة أجنحة جبريل.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تعليل للجملة السابقة، وفي هذا تعريض بتسفيه عقول الذين أنكروا الرسالة وقالوا { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [إبراهيم:10]، فأجيبوا بقول الرسل { إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [إبراهيم:11].

{ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [2]

هذا من بقية تصدير السورة بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [1]، والتقدير: وفاتح الرحمة للناس وممسكها عنهم فلا يقدر أحد على إمساك ما فتحه ولا على فتح ما أمسكه.

{ مَا } شرطية، أي: اسم فيه معنى الشرط. وأصلها اسم موصول ضُمّن معنى الشرط. فانقلبت صلته إلى جملة شرطية وانقلبت جملة الخبر جوابا واقترنت بالفاء لذلك، فأصل { مَا } الشرطية هو الموصولة.

{ **مِنْ رَحْمَةٍ** } بيان لإبهام { مَا } والرابط محذوف لأنّه ضمير منصوب.

الفتح: تمثيلية لإعطاء الرحمة، إذ هي من النفائس التي تشبه المدّخرات المتنافس فيها فكانت حالة إعطاء الله الرحمة شبيهة بحالة فتح الخزائن للعطاء، فأشير إلى هذا التمثيل بفعل الفتح.

الإمساك: حقيقته أخذ الشيء باليد مع الشدّ عليه بها لئلّا يسقط أو ينفلت، وهو يتعدّى بنفسه. أو هو هنا مجاز عن الحبس والمنع، ولذلك قوبل به الفتح.

{ **فَلا مُمْسِكَ لَهَا** } تأنيث الضمير لمراعاة بيان { مَا } في قوله { مِنْ رَحْمَةٍ } لقربه.

الإرسال: ضد الإمساك، وتعدية الإرسال بـ (اللام) للتقوية، لأنّ العامل هنا فرع في العمل.

{ **فَلا مُرْسِلَ لَهُ** } تذكير الضمير مراعاة للفظ { مَا } لأنّها لا بيان لها.

{ **مِنْ بَعْدِهِ** } بمعنى: من دونه، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23]، أي: فلا مرسل له دون الله، أي: لا يقدر أحد على إبطال ما أراد الله من إعطاء أو منع، والله يحكم لا معقب لحكمه.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل رجح فيه جانب الإخبار فعطف، وكان مقتضى الظاهر أن يكون مفصولا لإفادة أنّه يفتح ويمسك لحكمة يعلمها، وأنّه لا يستطيع أحد نقض ما أبرمه في فتح الرحمة وغيره من تصرفاته، لأنّ الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [3].

لمّا جرى ذكر رحمة الله التي تعمّ الناس كلّهم أقبل على خطابهم بأن يتذكّروا نعمة الرزق، وهي النعمة التي تخصّ كل واحد بخاصته فيأتلف منها مجموع الرحمة العامة للناس كلّهم وما هي إلّا بعض رحمة الله بمخلوقاته. والمقصود من تذكّر النعمة شكرها.

{ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ } دعوة إلى النظر في دليل الوحدانية والقدرة والفضل.

والاستفهام إنكاري في معنى النفي ولذلك اقترن ما بعده بـ { مِنْ } التي تزاد لتأكيد النفي.

{ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } تذكير بتعدّد مصادر الأرزاق، فإنّ منها سماوية كالمطر الذي منه الشراب...، ومن الأرض أرزاق كثيرة من حبوب وثمار...

{ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } هذا نتيجة عقب ذكر الدليل، إذ رتّب على انفراده بالخالقية والرازقية انفراده بالإلهية لأنّ هذين الوصفين هما أظهر دلائل الإلهية عند الناس.

{ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } فرّع على النتيجة التعجيب من انصرافهم عن النظر في دلائل الوحدانية.

{ أَنَّى } اسم استفهام يجيء بمعنى استفهام عن الحالة أو عن المكان أو عن الزمان. والاستفهام عن حالة انصرافهم هو المتعيّن هنا، وهو استفهام مستعمل في التعجيب من انصرافهم عن الاعتراف بالوحدانية.

{ تُؤْفَكُونَ } مبني للمجهول من أَفَكَه من باب ضربه، إذا صرفه وعدل به، فالمصروف مأفوك. وحذف الفاعل هنا لأنّ آفكيهم أصناف كثيرون، وتقدم في قوله تعالى { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [التوبة:30].

{ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [4].

عطف على جملة { اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } [3]، أي وإن استمروا على انصرافهم عن قبول دعوتك ولم يشكروا النعمة ببعثك فلا عجب فقد كذّب أقوام من قبلهم رسلهم. وهو انتقال من خطاب الناس إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لمناسبة جريان خطاب الناس على لسانه، فهو مشاهد لخطابهم.

وإذ قد أبان لهم الحجّة على انفراد الله تعالى بالإلهية حين خاطبهم بذلك نقل الإخبار عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أنكروا قبوله منه، فلمّا استبان صدقه في ذلك بالحجّة ناسب أن يُعرَّض إلى الذين كذّبوه بمثل عاقبة الذين كذّبوا الرسل من قبله.

وقد أدمج في خلال ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه إيّاه بأنّه لم يكن مقامه في ذلك دون مقام الرسل السابقين.

{ **رُسُلٌ** } لم يعرَّف وجيء به منكَّرا لما في التنكير من الدلالة على تعظيم أولئك الرسل، زيادة على جانب صفة الرسالة من جانب كثرتهم وتنوع آيات صدقهم ومع ذلك كذَّبهم أقوامهم.

{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } عطف على التسلية والتعريض ما هو كالتأكيد لهما والتذكير بعاقبة مضمونهما، بأنّ أمر المكذِّبين قد آل إلى لقائهم جزاء تكذيبهم من لدن الذي ترجع إليه الأمور كلّها.

إذ كان أمر أولئك المكذّبين وأمر أولئك الرسل في جملة عموم الأمور التي أرجِعت إلى الله تعالى.

وقد اكتسبت هذه الجملة معنى التذييل بما فيها من العموم.

{ **الْأُمُورُ** } : جمع أمر وهو الشأن والحال.

أي: إلى الله ترجع الأحوال كلّها يتصرف فيها كيف شاء، فتكون الآية تهديدا للمكذبين وإنذارا.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [5]

أعيد خطاب الناس إعذارا لهم وإنذارا بتحقيق أنّ وعد الله الذي وعده من عقابه المكذِّبين في يوم البعث هو وعد واقع لا يتخلَّف، وذلك بعد أن قدّم لهم التذكير بدلائل الوحدانية المشتملة عليها، مع الدلالة على نعم الله عليهم ليعلموا أنّه لا يستحق العبادة غيره، وأنّه لا يتّصف بالإلهية الحقّ غيره.

وبعد أن أشار إليهم بأنّ ما أنتجته تلك الدلائل هو ما أنبأهم به الرسول صلى الله عليه وسلم فيعلمون صدقه فيما أنبأهم من توحيد الله.

والخطاب للمشركين، أو لهم وللمؤمنين، لأنّ ما تلاه صالح لموعظة الفريقين كلّ على حسب حاله.

{ **إِنَّ** } التأكيد <u>إمّا</u> لأن الخطاب للمنكرين، <u>وإمّا</u> لتغليب فريق المنكرين على المؤمنين لأنّهم أحوج إلى تقوية الموعظة.

الوعد: مصدر، وهو الإخبار عن فعل المخبِر شيئا في المستقبل، والأكثر أن يكون فيما عدا الشرّ، ويخصّ الشرّ منه باسم الوعيد، والوعد يعمُّهما، وهو <u>هنا مستعمل في القدر المشترك</u>. وتقدم عند قوله { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } [البقرة:286].

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } الإضافة إلى الاسم الأعظم توطئة لكونه حقًّا، لأنّ الله لا يأتي منه الباطل.

{ **حَقٌّ** } هنا مقابل الكذب. والمعنى: أنّ وعد الله صادق. ووصفه بالمصدر مبالغة في حقِّيّته.

والمراد به: الوعد بحلول يوم جزاء بعد انقضاء هذه الحياة كما دلّ عليه تفريع قوله اللاحق.

{ **فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } تفريع، و**الغُرور** (بضم الغين) ويقال التغرير: إيهام النفع والصلاح فيما هو ضرّ وفساد. وتقدم عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [آل عمران:196]، وعند قوله تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112].

الحياة: ما تشتمل عليه أحوال الحياة الدنيا من لهو وترف.
وإسناد التغرير إلى الحياة، ولو مع تقدير المضاف، إسناد مجازي لأنّ الغارّ للمرء هو نفسه المنخدعة بأحوال الحياة الدنيا، فهو من إسناد الفعل إلى سببه والباعث عليه. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196].
{ **وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** }، و**الغَرور**: (بفتح الغين) هو شديد التغرير. والمراد به الشيطان، قال تعالى { فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ } [الأعراف:22]. وهو يغرُّ الناس بتزيين القبائح لهم تمويها بما يلوح عليها من محاسن.
{ **بِاللَّهِ** } الباء للملابسة، وهي داخلة على مضاف مقدّر، أي: بشأن الله، أي: يتطرّق إلى نقض هدى الله.
وقد تضمَّنت الآية غرورين: غرورا يغترّه المرء من تلقاء نفسه ويزيّن لنفسه من المظاهر الفاتنة التي تلوح له في هذه الدنيا ما يتوهَّمه خيرا ولا ينظر في عواقبه بحيث تخفى مضاره في بادئ الرأي. وغرورا يتلقاه من الشيطان.

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [6].

لمّا كان في قوله { وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } إبهام ما في المراد بالغَرور عقَّب ذلك بيانه بأنّ { الْغَرُورُ } هو الشيطان، ليتقرَّر المسند إليه بالبيان بعد الإبهام.
{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً** } أظهر اسم الشيطان في مقام الإضمار للإفصاح والبيان، وإثارة العداوة بين الناس والشيطان، وهو هنا صريح كما في قوله { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [البقرة:36] وتلك عداوة مودعة في جبلَّته، لأنّ جبلّة الشيطان موكولة بإيقاع الناس في الفساد وأسوأ العواقب في قوالب محسَّنة مزيَّنة، وشواهد ذلك تظهر للإنسان في نفسه وفي الحوادث حيثما عثر عليها، قال تعالى { يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ } [الأعراف:27].
{ **إِنَّ** } تأكيد الخبر لقصد تحقيقه، لأنّهم بغفلتهم عن عداوة الشيطان يقعون في حبائله.
{ **لَكُمْ** } تقديمه على متعلّقه للاهتمام بهذا المتعلّق.
{ **فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً** } أُمِروا باتخاذه عدوا لأنّهم إذا علموا أنّه عدو لهم حقّ عليهم اتخاذه عدوا.
عدوّ: تقدّم عند قوله تعالى { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ } [النساء:92].
{ **إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } أُعقِب الأمر باتخاذ الشيطان عدوًّا بتحذيرٍ من قَبول دعوته، وحثٍّ على وجوب اليقظة لتغريره، وتجنّب تولّيه لأنّه يدعو حزبه إلى ما يوقعهم في السعير.
والجملة تعليل لجملة { فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً }. وجيء بها في صيغة حصر لانحصار دعوته في الغاية المذكورة عقبها بلام العلّة. وبهذا العموم الذي يقتضيه الحصر صارت الجملة أيضا في معنى التذييل لما قبله كلّه.

{ **إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ** } مقتضى القصر أنّ المفعول هو المقصود من القصر، أي: أنّه يدعو حزبه ولا يدعو غير حزبه، والشيطان يدعو الناس كلّهم سواء في ذلك حزبه ومن لم يكن إلى دعوته، إلّا أنّ أثر دعوته لا يظهر إلّا في الذين يركنون له فيصيرون حزبه، قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42]. وحكى الله عن الشيطان بقوله { وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [الحجر:40/39]، فتعيّن أن في الكلام إيجاز حذف.

التقدير: إنّما يدعوا حزبه دعوة بالغة مقصده. والقرينة هي ما تقدّم من التحذير، ولو كان لا يدعو إلّا حزبه لما كان لتحذير غيرهم فائدة.

{ **لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } <u>يجوز</u> أن تكون (اللام) لام العلّة فإنّ الشيطان قد يكون ساعيا لغاية إيقاع الآدميين في العذاب نكاية بهم، وهي علّة للدعوة مخفيّة في خاطره الشيطاني.

<u>ويجوز</u> أن تكون لام العاقبة والصيرورة مثل { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8].

قال ابن عطية: " لأنّه لم يدعهم إلى السعير إنّما اتفق أن صار أمرهم من دعائه إلى ذلك ".

{ **السَّعِيرِ** } النار الشديدة، وغلب في لسان الشرع على جهنم.

{ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [7].

استئناف ابتدائي يفيد مفاد الفذلكة والاستنتاج ممّا تقدّم. وهذا الاستئناف يومي إلى أنّ الذين كفروا هم حزب الشيطان، لأنّه لمّا ذكر أنّ حزبه من أصحاب السعير وحكم هنا بأنّ الذين كفروا لهم عذاب شديد عُلم أن الذين كفروا من أصحاب السعير إذ هو { عَذَابٌ شَدِيدٌ }، فعُلم أنّهم حزب الشيطان بطريقة قياس مطوي.

فالذين كفروا هم حزب الشيطان لعكوفهم على متابعته وإن لم يعلنوا ذلك، للملازمة ما يمليه عليهم.

<u>وأمّا المؤمنون العصاة</u> فليسوا من حزبه لأنّهم يعلمون كيده ولكنهم يتّبعون بعض وسوسته بدافع الشهوات، وهم مع ذلك يلعنونه ويتبرأون منه. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجّة الوداع: **" إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنّه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقّرون من أعمالكم ."**

وقد أشارت الآية إلى طرفين في الضلال والاهتداء وطوت ما بين ذينك من المراتب ليُعلم أنّ ما بين ذلك ينالهم نصيبهم من أشبه أحوالهم بأحوال أحد الفريقين، على عادة القرآن في وضع المسلم بين الخوف والرجاء، والأمل والرهبة.

{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [8].

لمّا جرى تحذير الناس من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته للنوع الإنساني، وتقسيم الناس إلى فريقين: فريق انطلت عليه مكائد الشيطان واغترّوا بغروره ولم يناصبوه العداء، وفريق أخذوا حذرهم منه واحترسوا من كيده وتجنّبوا السير في مسالكه، ثم تقسيمهم إلى كافر مُعذّب ومؤمن صالح مُنعّم عليه، أعقب ذلك بالإيماء إلى استحقاق حزب الشيطان عذاب السعير، وبتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على من لم يَخْلُصوا من حبائل الشيطان من أمّة دعوته بأسلوب الملاطفة في التسلية.

{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً } التفريع على قوله { إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } لربط الجملة بما تقدّم ليعود الذهن إلى ما حكي من أحوالهم، ثم بإبراز الكلام المفرّع في صورة الاستفهام الإنكاري. وهذا الخبر ممّا دلت عليه المقابلة في قوله { الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [7]، فقد دلّ ذلك عل أنّ الكفر سوء وأنّ الإيمان حسن، فيكون { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } هو الكافر، ويكون ضدّه هو المؤمن، ونظير هذا التركيب قوله تعالى { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ } [الزمر:19]، وتقدّم عند قوله تعالى { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد:33].

{ زُيِّنَ لَهُ } المزيّن للأعمال السيئة هو الشيطان، قال تعالى { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } [النمل: 24].

التزيين: تحسين ما ليس بحسن، بعضه أو كلّه. وقد صرّح هنا بضدّه في قوله { سُوءُ عَمَلِهِ }، أي: صُوِّرت لهم أعمالهم السيّئة بصورة حسنة ليُقْدِموا عليها بشَرَه، وتقدّم في [النمل:24].

{ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } مفرّعة، وهي تقرير للتسلية وتأييس من اهتداء من لم يخلق الله فيه أسباب الاهتداء إلى الحقّ من صحيح النظر وإنصاف المجادلة.

وإسناد الإضلال والهداية إلى الله بواسطة أنّه خالق أسباب الضلال والاهتداء، وذلك من تصرّفه تعالى بالخلق وهو سرّ من الحكمة عظيم لا يُدرَك غوره، وله أصول وضوابط سأبيّنها في (رسالة القضاء والقدر) إن شاء الله تعالى.

{ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } أي: فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وإنّما حسرتهم على أنفسهم إذ رضوا لها باتباع الشيطان ونبذوا اتباع إرشاد الله، كما دلّ عل ذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }، تسجيلا عليهم أنّهم ورَّطوا أنفسهم فيما أوقعوها فيه بصنعهم.

الحسرة: تقدمت في قوله تعالى { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ } [مريم:39].

{ **حَسَرَاتٍ** } انتصب على المفعول لأجله، أي: لا تتلف نفسك لأجل الحسرة عليهم، وهو كقوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3]، وقوله تعالى { وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ } [يوسف:84].

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** } تصلح لإفادة التصبُّر والتحلُّم، أي: أنّ الله عليم بصنعهم في المخالفة عن أمره فكما أنّه لحلمه لم يعجّل بمؤاخذتهم فكن أنت مؤتسِيا بالله ومتخلِّقا بما تستطيعه من صفاته.

وفي الكلام كناية عن عدم إفلاتهم من العذاب على سوء عملهم.

وليس في هذه الجملة معنى التعليل لجملة { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } لآنّ كمد نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لأجل تأخير عقابهم ولكن لأجل عدم اهتدائهم.

{ **إِنَّ** } تأكيد الخبر، إمّا تمثيل لحال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال من أغفله التحسّر عليهم عن التأمّل في إمهال الله إيّاهم فأكّد له الخبر، وإمّا لجعل التأكيد لمجرد الاهتمام بالخبر، لتكون { إِنَّ } مغنية غناء (فاء) التفريغ، فتتمحّض الجملة لتقرير التسلية والتعريض بالجزاء عن ذلك.

{ **يَصْنَعُونَ** } دون: يعملون، للإشارة إلى أنّهم يدبِّرون مكائد للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، فيكون هذا الكلام إيذانا بوجود باعث آخر على النزع عن الحسرة عليهم.

وعن ابن عباس: أنّ المراد به أبو جهل وحزبه.

{ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ } [9].

لمّا قدّم في أوّل السورة الاستدلال بأنّ الله فطر السماوات والأرض وما في السماوات من أهلها، وذلك أعظم دليل على تفرّده بالإلهية، ثُنِّي هنا بالاستدلال بتصريف الأحوال بين السماء والأرض، وذلك بإرسال الرياح وتكوين السحاب وإنزال المطر، فهذا عطف على قوله تعالى { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [1].

{ **وَاللَّهُ** } إظهار في مقام الإضمار، دون أن يقول: وهو الذي أرسل الرياح.

{ **الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ** } اختير من دلائل الوحدانية دلالة تجمّع أسباب المطر ليفضي من ذلك إلى تنظير إحياء الأموات بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب، وأنّ الذي خلق وسائل إحياء الأرض قادر على خلق وسائل لإحياء الذين ضمَّتهم الأرض على سبيل الإدماج.

{ **أَرْسَلَ** } إذ قد كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرُّر وقوعه جيء بالفعل الماضي. ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بخلاف قوله { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [الروم:48]، لأنّ

القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهارا لإمكان نظيره (البعث)، وأمّا آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه.

{ **فَتُثِيرُ سَحَاباً** } جيء بالمضارع لحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وهي طريقة للبلغاء في الفعل الذي فيه خصوصية بحال تُستغرب وتهم السامع.

{ **الرِّيَاحَ / سَحَاباً** } القول فيهما تقدّم غير مرّة أوّلها في [البقرة:164].

{ **فَسُقْنَاهُ** } بعد قوله { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } التفات من الغيبة إلى التكلّم.

{ **كَذَلِكَ النُّشُورُ** } سبيله سبيل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [5]، من إثبات البعث مع تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عنه. والأظهر أن تكون الإشارة إلى مجموع الحالة المصوّرة، أي: مثل ذلك الصنع المحكم المتقن نصنع صنعا يكون به النشور، بأن يُهيِّئ الله حوادث سماوية أو أرضية أو مجموعة منهما حتّى إذا استقامت آثارها وتهيّأت أجسام لقبول أرواحها أمر الله بالنفخة الأولى والثانية فإذا الأجساد قائمة ماثلة أمر الله.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ } [10].

كان ما سبق من الآيات [6-9] تفصيل الغرور الثاني الذي في قوله تعالى { وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [5]، وما استتبعه من التنبيه على أحجار كيده وانبعاث سموم مكره، والحذر من مصارع متابعته، وإبداء الفرق بين الواقعين في حبائله والمعافين من أدوائه، وأبقى تفصيل الغرور الأوّل إلى هنا.

{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً** } وإذ قد كان أعظم دواعي القادة إلى تضليل دهمائهم وصنائعهم، هو ما يجدونه من العزّة والافتنان بحب الرئاسة، فلذلك نادى عليهم القرآن بأنّ من كان ذلك صارفه عن الدين الحقّ فليعلم بأنّ العزّة الحقّ في اتباع الإسلام، وأنّ ما هم فيه من العزّة كالعدم.

{ **جَمِيعاً** } انتصب على الحال من { الْعِزَّةُ }، وكأنّه فعيل بمعنى مفعول، أي: العزّة كلّها لله لا يشذ شيء منها فيثبت لغيره، لأنّ العزة المتعارفة بين الناس كالعدم، إذ لا يخلو صاحبها من احتياج ووهن، والعزّة الحقّ لله. ففيها معنى الإحاطة، فكانت بمنزلة التأكيد للقصر الادعائي. وهذا قريب من قوله تعالى { أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } [النساء:139].

العزّة: الشرف والحصانة.

{ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** } كما أتبع تفصيل غرور الشيطان بعواقبه في الآخرة بقوله { إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [6]، وبذكر مقابل عواقبه من حال المؤمنين [7]، كذلك أتبع تفصيل غرور الأنفس أهلها بعواقبه وبذكر مقابله أيضا ليلتقي مآل الغرورين ومقابلهما في ملتقى واحد.

ولكن قدّم في الأول عاقبة أهل الغرور بالشيطان ثم ذُكرت عاقبة أضدادهم، وعكس في ما هنا، لجريان ذكر عزة الله، فقدّم ما هو المناسب لآثار عزة الله في حزبه وجنده.

{ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا بمناسبة تفصيل غرور الأنفس أهلها.

والمقصود أنّ أعمال المؤمنين هي التي تنفع، ليعلم الناس أنّ أعمال المشركين سعي باطل.

والقربات كلّها ترجع إلى أقوال وأعمال: فالأقوال ما كان ثناء على الله تعالى واستغفار ودعاء، ودعاء الناس إلى الأعمال الصالحة. وتقدم عند قوله { وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً } [الأحزاب:70]. والأعمال فيها قربات كثيرة.

وكان المشركون يتقرّبون إلى أصنامهم بالثناء والتمجيد، كما قال أبو سفيان يوم أحد: اعْلُ هُبل، وكانوا يتحنَّثون بأعمال من طواف وحجّ وإغاثة ملهوف، وكان ذلك كلّه مشوبا بالإشراك.

{ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** } ضمير الرفع عائد اسم الجلالة من قوله { فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً }. والضمير المنصوب من { يَرْفَعُهُ } عائد إلى { الْعَمَلُ الصَّالِحُ } أي: الله يرفع العمل الصالح.

الصعود: الإذهاب في مكان عال. فالصعود هنا مستعار للبلوغ إلى عظيم القدر، وهو كناية عن القبول لديه.

الرفع: حقيقته نقل الجسم من مقرّه إلى أعلى منه، وهو هنا كناية للقبول عند عظيم.

إذ لا يُتوهَّم أن يُقصر صعود الكلم الطيب على الجانب الإلهي ثم يُجعل لغيره شركة معه في رفعه.

فصار المعنى: الله الذي يقبل من المؤمنين أقوالهم وأعمالهم الصالحة.

وإنّما جيء في جانب العمل الصالح بجملة { يَرْفَعُهُ } ولم يعطف على { الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين:

أولاهما: الإيماء إلى أنّ نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب، لأنّ معظم العمل الصالح أوسع نفعا من معظم الكلم الطيب، عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنّة مثل دعاء يوم عرفة.

ثانيهما: أنّ الكلم الطيب يتكيّف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته، وأمّا العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فلا يناسبه إسناد الصعود إليه وإنّما يحسن أن يُجعل متعلقا لرفعٍ يقع عليه.

{ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ** }

هذا فريق من الذين يريدون العزّة من المشركين، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال:30]، قاله أبو العالية، فعطفهم على { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ } تخصيص لهم بالذكر لِما اختصّوا به من تدبير المكر. وهو من عطف الخاص على العام للاهتمام بذكره.

{ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ** } جيء باسم الموصول للإيماء إلى أنّ مضمون الصلة علّة فيما يرد بعدها من الحكم، أي: لهم عذاب شديد جزاء مكرهم. وعبّر بالمضارع في الصلة للدلالة على تجدّد مكرهم وأنّه دأبهم.

المكر: تدبير إلحاق الضر بالغير في خفية لئلّا يأخذ حذره، وفعله قاصر. وهو يتعلّق بالمضرور بواسطة الباء التي للملابسة، يقال: مكر بفلان. ويتعلّق بوسيلة المكر بباء السببية يقال: مكر بفلان بقتله.

{ **السَّيِّئَاتِ** } وصف لمصدر المكر نائبا مناب المفعول المطلق المبيّن لنوع الفعل، فكأنّه قيل: والذين يمكرون المكر السيّئ. وكان حقّه أن يكون مفردا كقوله تعالى { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } [فاطر:43] فلما أريد هنا التنبيه على أنّ أولياء الشيطان لهم أنواع من المكر عدل عن الإفراد إلى الجمع، وأوتي به جمع مؤنث للدلالة على معنى الفَعَلات من المكر، فكلّ واحدة من مكرهم هي سيّئة. وأنواع مكراتهم هي ما جاء في قوله تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال:30].

{ **وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ** } لمّا توعّدهم الله بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أنّ مكرهم لا يروج ولا ينفق وأن الله سيبطله فلا ينتفعون منه في الدنيا، ويعذّبون بسببه في الآخرة.

{ **أُولَئِكَ** } عبّر عنهم باسم الإشارة دون الضمير، الذي هو مقتضى الظاهر، لتمييزهم أكمل تمييز.

{ **هُوَ** } ضمير فصل إذ لا يحتمل غيره. ومثله قوله تعالى { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [التوبة:104]. والفصل هنا يفيد القصر، أي: مكرهم يبور دون غيره.

البوار: حقيقته كساد التجارة وعدم نفاق السلعة، واستعير هنا لخيبة العمل بوجه الشبه بين ما دبّروه من المكر مع حرصهم على إصابة النبيّ صلى الله عليه وسلم بضر، وبين ما يحرص عليه التاجر لاجتلاب المشترين، ثم لا يُقبل عليه أحد.

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [11].

{ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً** } هذا عود إلى سوق دلائل الوحدانية بدلالة عليها من أنفس الناس، بعد أن قدّم لهم ما هو من دلالة الآفاق بقوله تعالى { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } [9]. فهذا كقوله تعالى { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت:53]، وقوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات:21]. فابتدأهم بتذكيرهم بأصل التكوين الأوّل من تراب، وهو ما تقرّر علمه لدى جميع البشر من أنّ أصلهم، وهو البشر الأول، خُلق من طين فصار ذلك حقيقة مقرّرة في علم البشر، ثم استدرجهم إلى التكوين الثاني بدلالة خلق النسل من نطفة، وذلك علم مستقرّ في النفوس.

النطفة: تقدّمت عند قوله تعالى { أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } [الكهف:37].

{ **ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً** } يشير إلى حالة في التكوين الثاني وهو شرطه. والمعنى: ثم من نطفة، وقد جعلكم أزواجا لتركيب تلك النطفة. فالاستدلال بدقة صنع النوع الإنساني من أعظم الدلائل على وحدانية الصانع. وفيها غُنية عن النظر في تأمّل صنع بقية الحيوان.

الأزواج: جمع زوج وهو الذي يصير بانضمام الفرد إليه زوجا، وقد شاع إطلاقه على صنف الذكور مع صنف الإناث لاحتياج الفرد الذكر من كل صنف إلى أنثاه والعكس.

{ **وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** } بعد الاستدلال بما في بدء التكوين الثاني من التلاقح بين النطفتين استدلال بما ينشأ عن ذلك من الأطوار العارضة للنطفة في الرحم، وهو أطوار الحمل من أوّله إلى الوضع. وأدمج في ذلك دليل التنبيه على إحاطة علم الله بالكائنات الخفيّة والظاهرة.

ولكون العلم بالخفيَّات أعلى قُدِّم ذكر الحمل على ذكر الوضع.

{ **وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } لا جرم أنّ الحديث عن التكوين يستتبع ذكر الموت المكتوب على كلّ بشر، فجاء بذكر علمه الآجال للتنبيه على سعة العلم الإلهي.

التعمير: جعل الإنسان عامرا، أي: باقيا في الحياة، فإنّ العمر هو مدة الحياة. يقال: عَمِر فلان كفرح، إذا بقي زمانا، فمعنى **(عمَّره)** بالتضعيف: جعله باقيا مدّة زائدة على المدة المتعارفة في أعمار الأجيال، ولذلك قوبل بالنقص من العمر، ولذلك لا يوصف بالتعمير صاحبه إلا بالمبني للمجهول، فيقال: عُمِّر فلان فهو مُعَمَّر.

{ **إِلَّا فِي كِتَابٍ** } كناية عن علم الله تعالى الذي لا يغيب عنه معلوم، كما أنّ الشي المكتوب لا يُزاد فيه ولا يُنقص، ويجوز أن يجعل الله موجودات هي كالكتب تسطَّر فيها الآجال مفصّلة.

{ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } أي: لا يلحقه من هذا الضبط عسر ولا كد.

الإشكال العام هنا التعارض بين أدلة جريان كلّ شيء على ما هو سابق في علم الله في الأزل، وبين إضافة الأشياء إلى أسباب، وطلب اكتساب المرغوب من تلك الأسباب واجتناب المكروه منها.

فكيف يثبت في هذه الآية للأعمار زيادة ونقص مع كونها في كتاب وعلم لا يقبل التغيير؟

وكيف يُرغَّب بالصدقة مثلا أنّها تزيد في العمر؟ وأنّ صلة الرحم تطيل في العمر؟

المَخْلَص من هذا ونحوه هو القاعدة الأصلية الفارقة بين كون الشيء معلومًا لله تعالى وبين كونه مرادا.

فإنّ **العلم** يتعلّق بالأشياء الموجودة والمعدومة. و**الإرادة** تتعلّق بإيجاد الأشياء على وفق العلم بأنّها توجد.

فالناس مخاطبون بالسعي لما تتعلّق به الإرادة، فإذا تعلَّقت الإرادة بالشيء علمنا أنّ الله علم وقوعه.

وما تصرّفات الناس ومساعيهم إلّا أمارات على ما علمه الله لهم.

{ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [12].

انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السماء والأرض على تفرّد الله تعالى بالإلهية، إلى الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة على عظم مخلوقات الله تعالى.

{ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ...**} صيغ هذا الاستدلال على أسلوب بديع إذ اقتصر فيه على التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات، وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة، استدلالا على دقيق صنع الله تعالى كقوله تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4].

التقدير: وخلق البحرين العذب والأجاج على صورة واحدة وخالف بين أعراضها. ففي الكلام إيجاز حذف.

البحر: في كلام العرب اسم للماء الكثير القار في سعة، فالفرات والدجلة بحران عذبان، وبحر خليج العجم ملح. وتقدّم ذكر البحر في قوله تعالى { وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:59].

{ **الْبَحْرَانِ** } تقدم ذكر البحرين عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ } [الفرقان:53].

العذب: الحلو حلاوة مقبولة في الذوق.

{ **سَائِغٌ شَرَابُهُ** } مشتق من الإساغة: وهي ابتلاع المشروب دون غصّة ولا كره.

المِلح: (بكسر الميم) الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء ملح فيه، فأمّا الشيء الذي يلقى فيه الملح حتّى يكتسب ملوحة فإنّما يقال له: مالح، ولا يقال: ملح.

الأجاج: شديد الملوحة.

{ **وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } تقدم نظيره في [النحل:14].

{ **فِيهِ مَوَاخِرَ** } تقديم الظرف على عكس آية سورة النحل، لأنّ هذه الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأدمج فيه الامتنان بقوله { تَأْكُلُونَ - وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً - لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } فكان المقصد الأوّل من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا. ولمّا كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قُدِّم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر.

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [13] إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [14] }.

{ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً** } استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكّروا بذلك أنّه الإله الواحد. وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في [لقمان:29]، سوى أنّ هذه الآية جاء فيها { كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ } فعدّي فعل { يَجْرِي } بالـ (لام) وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل { يَجْرِي } بحرف (إِلَى)، فقيل اللام تكون بمعنى { إِلَى } في الدلالة على الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتين تفنّن في النظم، وإن أباه الزمخشري.

وفي الكلام إدماج للتذكير في خلال الاستدلال، ذكَّرهم بأنّ لأعمارهم نهاية تذكيرا مرادا به الإنذار والوعيد على نحو قوله تعالى { ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً } [الأنعام:60]، واقتلاع الطغيان والكبرياء من نفوسهم. ويؤيّد ذلك أنّ معظم الخطاب في هذه الآية موجّه إلى المشركين، ألا ترى إلى قوله بعدها { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ }.

وفي سورة لقمان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، أو عام لكلّ مخاطب من مؤمن وكافر فكان إدماج التذكير فيه بأنّ لهذا العالم انتهاء أنسب بالجميع ليستعدّ له الذين آمنوا، وليُرْغِم الذين كفروا على العلم بوجود البعث، لأنّ نهاية هذا العالم ابتداء لعالم آخر.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ...**} استئناف موقعه موقع النتيجة من الأدلة بعد تفصيلها.

واسم الإشارة موجّه إلى من جرت عليه الصفات والأخبار السابقة من قوله { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } [9]، فكان اسمه حريّا بالإشارة إليه بعد إجراء تلك الصفات، إذ بذكرها يتميّز عند السامعين أكمل تمييز حتّى كأنّه مشاهد لأبصارهم، مع ما في اسم الإشارة من البعد المستعمل كناية عن تعظيم المشار إليه، ومع ما يقتضيه اسم الإشارة عقب أوصاف كثيرة من التنبيه على أنّه حقيق بما سيرد بعد الإشارة من أجل تلك الصفات، فأخبر عنه بأنّه صاحب الاسم المختص به الذي لا يجهلونه، وأخبر عنه بأنّه ربّ الخلائق، وذلك بعد أن سجل عليهم ما لا قبل لهم بإنكاره من أنّه الذي خلقهم خلقا من بعد خلق، وأنّ خلقهم من تراب، وأنّه قدّر آجالهم، وأوجد ما هو أعظم منهم من الأحوال السماوية والأرضية، مما يدلّ على أنّه لا يعجزه شيء، فهو الربّ دون غيره وهو الذي المُلك والسلطان له لا لغيره.

{ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** } التصريح بأنّ أصنامهم لا يملكون من الملك شيئا ولو حقيرا وهو الممثل بالقطمير. و**القطمير**: القشرة التي في شق النواة كالخيط الدقيق.

أي: لا يملكون شيئا ولو حقيرا، وذلك حاصل بالمشاهدة، فإنّ أصنامهم حجارة جاثمة، فإذا انتفى أنّها تملك شيئا انتفى عنها وصف الإلهية بطريق الأولى، فنُفي ما كانوا يزعمونه من أنّها تشفع لهم.

{ **إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** } خبر ثان عن {الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} [13] والمقصد منها تنبيه المشركين إلى عجز أصنامهم بأنّها لا تسمع، وليس ذلك استدلالا، فإنّهم كانوا يزعمون أنّ الأصنام تسمع منهم فلذلك كانوا يكلّمونها ويوجّهون إليها محامدهم ومدائحهم، ولكنّه تمهيد للجملة المعطوفة على الخبر وهي جملة { وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ }، وليست الواو اعتراضية، أي: ولو سمعوا، على سبيل الفرض والتقدير ومجاراة مزاعمكم، حين تدعونها فإنّها لا تستجيب لدعوتكم.

{ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** } ولما كشف حال الأصنام في الدنيا بما فيه تأييس من انتفاعهم بها فيها كُمِّل كشف أمرها في الآخرة بأنّ تلك الأصنام يُنطقها الله فتتبرّأ من شركهم.

الكفر: جحد في كراهة.

{ **بِشِرْكِكُمْ** } أضيف إلى فاعله، أي: بشرككم إيّاهم في الإلهية مع الله تعالى.

وأجرى على الأصنام موصول العاقل وضمائر العقلاء { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ - يَكْفُرُونَ }، على تنزيل الأصنام منزلة العقلاء مجاراة للمردود عليهم، على طريقة التهكّم.

{ **وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** } تذييل لتحقيق هذه الأخبار بأنّ المخبِر بها هو الخبير بها وبغيرها، أي: ولا يخبرك أحد مثل ما يخبرك هو. والخطاب لكلّ من يصحّ منه سماع هذا الكلام، لأنّ هذه الجملة أرسِلت مرسَل الأمثال فلا ينبغي تخصيص مضمونه بمخاطب معين.

{ **يُنَبِّئُكَ** } عبّر بفعل الإنباء لأنّ النبأ هو الخبر عن حدث خطير مهم.

{ **مِثْلُ** } (بكسر الميم وسكون المثلثية): المساوي، إمّا في قدر فيكون بمعنى ضِعف، وإمّا المساوي في صفة فيكون بمعنى شبيه.

{ **خَبِيرٍ** } صفة مشبهة مشتقة من **خبُر** (بضم الباء) فلان الأمر، إذا علمه علما لا شك فيه. وجُعل نكرة، مع أنّ المراد خبير معيّن، وهو المتكلّم فكان حقه التعريف، لقصد التعميم في سياق النفي. ولعل التركيب: ولا يوجد أحد ينبئك بهذا الخبر يماثل هذا الخبير الذي أنبأك به.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [15].

لمّا أُشْبِع المقامُ أدلة، ومواعظَ، وتذكيراتٍ، ممّا فيه مقنع لمن نصب نفسه منصب الانتفاع والاقتناع، ولم يظهر مع ذلك كلّه من أحوال القوم ما يُتوسّم منه نزعهم عن ضلالهم، بل ربّما أحدث ذلك في نفوس أهل العزّة منهم إعجابا بأنفسهم واغترارا بأنّهم مرغوب في انضمامهم إلى جماعة المسلمين فيزيدهم ذلك الغرور قبولا لتسويل مكائد الشيطان لهم أن يعتصموا بشركهم، ناسب أن ينبّئهم الله بأنّه غني عنهم، وأنّ دينه لا يعتزّ بأمثالهم وأنّه مُصيّرهم إلى الفناء وآت بناس يعتزّ بهم الإسلام.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ } هم المشركون، كما هو غالب اصطلاح القرآن، وهم المخاطبون بقوله آنفا { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } [13].

{ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ } قبل أن يوجّه إليهم الإعلام بأنّ الله غنيّ عنهم وُجِّه إليهم إعلام بأنّهم الفقراء إلى الله لأنّ ذلك أدخل للذلّة على عظمتهم من الشعور بأنّ الله غني عنهم، فإنّهم يوقنون بأنّهم الفقراء إلى الله ولكنّهم لا يوقنون بالمقصد الذي يفضي إليه علمهم بذلك، فأريد إبلاغ ذلك إليهم، لا على وجه الاستدلال ولكن على وجه قرع أسماعهم بما لم تكن تُقرع به من قبل عسى أن يستفيقوا من غفلتهم.

والجملة تفيد القصر لتعريف جزأيها، أي: قصر صفة الفقر على الناس المخاطبين قصرا إضافيا بالنسبة إلى الله، أي: أنتم المفتقرون إليه وليس هو، وهذا في معنى قوله تعالى {نْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} [الزمر:7] المشعر بأنّهم يحسبون أنّهم يغيضون النبيّ صلى الله عليه وسلم بعدم قبول دعوته.

{ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } إتباع صفة { الْغَنِيُّ } بـ { الْحَمِيدُ } تكميل، فهو احتراس لدفع توهّمهم أنّه لمّا كان غنيا عن استجابتهم وعبادتهم فهم معذورون في أن لا يعبدوه، فنبّه على أنّه موصوف بالحمد لمن عبده واستجاب لدعوته، كما أتبع الآية الأخرى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7] بقوله { وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } [الزمر:7].

ومن المحسّنات وقوع { الْحَمِيدُ } في مقابلة قوله { إِلَى اللَّهِ }، كما وقع { الْغَنِيُّ } في مقابلة قوله { الفقراء }، لأنّه لمّا قيّد فقرهم بالكون إلى الله قيّد غنى الله تعالى بوصف { الْحَمِيدُ } لإفادة أنّ غناه تعالى مقترن بجوده، فهو يحمد من يتوجه إليه.

{ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [16] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [17] }.

واقع موقع البيان لما تضمّنته جملة { هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [15] من معنى قلّة الاكتراث بإعراضهم عن الإسلام، ومن معنى رضاه على من يعبده، فهو تعالى لغناه عنهم وغضبه عليهم لو شاء لأبادهم وأتى بخلق

آخرين يعبدونه، وذلك في قدرته، ولكنّه أمهلهم إعمالا لصفة الحلم.
{ **إِنْ يَشَأْ** } المشيئة هنا المشيئة الناشئة عن الاستحقاق، أي: أنّهم استحقُّوا أن يشاء الله إهلاكهم ولكنّه أمهلهم. لا أصل المشيئة التي هي كونه مختارا في فعله لا مُكرِه له، لأنّها لا يحتاج إلى الإعلام بها.
الإذهاب: مستعمل في الإهلاك، أي: إن يشأ يسلّط عليهم موتا يعمّهم، فكأنّه أذهبهم من مكان إلى مكان.
{ **وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** } مستعمل في إحداث ناس لم يكونوا موجودين ولا مترقّبا وجودهم، أي: يُوجِد خلقا من الناس يؤمنون بالله. وهذا في معنى قوله { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد:38].
{ **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** } الإعلام بأن ذلك لو شاء لكان هيّنا عليه. و**العزيز**: الممتنع الغالب، وهذا زيادة في الإرهاب والتهديد ليكونوا متوقِّعين حلول هذا بهم.

{ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [18].

{ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } لماّ كان ما قبل هذه الآية مسوقا في غرض التهديد، وكان الخطاب للناس، أريد طمأنة المسلمين من عواقب التهديد. فالظاهر أنّ هذا تأمين للمسلمين من الاستئصال في الدنيا، وهو تأمين من تعميم العقاب في الآخرة بطريق الأولى.
الوزر: (بكسر الواو) أصله الوِقر بوزنه ومعناه. وهو **الحِمل** بكسر الحاء، أي: ما يحمل، ويقال: وزَرَ إذا حمل. وجرى وصف { **وَازِرَةٌ** } على التأنيث لأنّه أريد به النفس.
{ **وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** } نبّه على أنّ هذا الحكم العادل مطّرد مستمر، حتّى لو استغاثت نفس مثقلة في الأوزار من ينتدب لحمل أوزارها أو بعضها لم تجد من يحمل عنها شيئاً، لئلّا يقيس الناس الذين في الدنيا أحوال الآخرة على ما تعارفوه، فإنّ العرب تعارفوا النجدة إذا استُنجدوا ولو كان لأمر يضرّ بالمنجِد. ومن أمثالهم: " لو دعي الكريم إلى حتفه لأجاب ".
ولذلك سُمِّي طلب الحمل هنا دعاء لأنّ في الدعاء معنى الاستغاثة. وهذا إشارة إلى ما سيكون في الآخرة. أي: لو استصرخت نفس من يحمل عنها شيئا من أوزارها، لا تجد من يجيبها لذلك.
{ **وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** } في موضع الحال من { مُثْقَلَةٌ }. أي: ولو كان المدعو ذا قربى.
وهذا لا ينافي الشفاعة الواردة في الحديث، كما تقدّم في سورة سبأ، فإنّها إنّما تكون بإذن الله تعالى إظهاراً لكرامة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولا ينافي ما جعله الله للمؤمنين من مكفّرات الذنوب.

{ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }

استئناف كلامي بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يخطر في نفسه التعجّب من عدم تأثّر أكثر المشركين بإنذاره فأجيب بأنّ إنذاره ينتفع به المؤمنون ومن تهيَّأوا للإيمان. وهو أيضا يؤكد ما في الآية الأولى من التعريض بتأمين المسلمين بما اقتضاه عموم الإنذار والوعيد.

وإيراد هذه الآية عقب التي قبلها يؤكِّد أنّ المقصد الأوّل من التي قبلها موعظة المشركين وتخويفهم، وإبلاغ الحقيقة إليهم لاقتلاع مزاعمهم وأوهامهم في أمر البعث والحساب والجزاء.

{ إِنَّمَا تُنْذِرُ } أطلق الإنذار هنا على حصول أثره، وهو الانكفاف أو التصديق به، وليس المراد حقيقة الإنذار، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أنذر المشركين طول مدّة دعوته، فتعيّن أنّ تعلّق الفعل المقصور عليه بـ { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } تعلّق على معنى حصول أثر الفعل.

الغيب: ما غاب عنك، أي: الذين آمنوا حقا غير مرائين أحدا.

{ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ } أي: لم يفرّطوا في الصلاة، كما يؤذن به فعل الإقامة، وتقدم في [البقرة:3].

ولمّا كانت هاتان الصفتان من خصائص المسلمين صار المعنى: إنّما تنذر المؤمنين، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم، مع ما فيه من الإيجاز، إلى استحضارهم بصلتين، مع ما فيهما من الإطناب، تذرُّعا بذكر هاتين الصِّلتين إلى الثناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل.

{ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ } تذييل جار مجرى المثل. فالمعنى: أنّ الذين خشوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممّن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم.

{ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ } المقصود من القصر أنّ قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريض بأنّ الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها فكان تركهم ضرّا على أنفسهم.

{ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } تكميل للتذييل، والتعريف في { الْمَصِيرُ } للجنس، أي: المصير كلّه إلى الله سواء فيه مصير المتزكِّي ومصير غير المتزكِّي، أي: وكلٌّ يُجازى بما يناسبه.

وتقديم المجرور للاهتمام، للتنبيه على أنّه مصير إلى من اقتضى اسمه الجليل الصفات المناسبة لإقامة العدل وإفاضة الفضل، مع الرعاية على الفاصلة.

{ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ [19] وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ [20] وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ [21] وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [22] إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ [23]** }.

{ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ [19] وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ [20] وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ [21] وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ** }، بعد أن بيّن قلّة نفع النذارة للكافرين وأنّها لا ينتفع بها غير المؤمنين ضرب للفريقين أمثالا كاشفة عن اختلاف حاليهما، وروعي في هذه الأشباه توزيعها على صفة الكافر والمؤمن، وعلى حالة الكفر والإيمان، وعلى أثر الإيمان وأثر الكفر.

{ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى** } قدّم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداء لأنّ الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفظيع حال الكافر ثمّ الانتقال إلى حسن حال ضدّه، لأنّ هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله تعالى { إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } [18]، كما تقدّم آنفا من أنه قصر إضافي قصر قلب، فالكافر شبيه بالأعمى في اختلاط أمره بين عقل وجهالة، كاختلاط أمر الأعمى بين إدراك وعدمه. والمقصود: أنّ الكافر وإن كان ذا عقل يدرك به الأمور فإنّ عقله تمحَّض لإدراك أحوال الحياة الدنيا وكان كالعدم في أحوال الآخرة، كقوله تعالى { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم:7].

العمى : يُعبَّر به عن الضلال، قال ابن رواحة:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع

{ **وَلا الظُّلُمَاتُ** } ثم شُبِّه الكفر بالظلمات في أنّه يجعل الذي أحاط هو به غير متبيّن للأشياء، فليس ينتفع بالنصح، كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام. وجيء بلفظ الجمع لأنّه الغالب في الاستعمال، فهم لا يذكرون الظلمة إلّا بصيغة الجمع. وتقدّم في قوله تعالى { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام:1].

{ **وَلا الظِّلُّ** } ضُرب الظل مثلا لأثر الإيمان، وضده وهو { **الْحَرُورُ** } مثلا لأثر الكفر. فالظل مكان نعيم في عرف السامعين الأوّلين، وهم العرب أهل البلاد الحارة، وقوبل بالحرور لأنه مؤلم ومعذِّب في عرفهم.

{ **الْحَرُورُ** } حرّ الشمس، ويطلق أيضا على الريح الحارة، وهي السموم.

فحال المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر، وتصدر فيه الأعمال عن تبصُّر وتريُّث وإتقان. وحال الكافر يشبه الحرور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكّن معه العقول من التأمل والتبصّر

وقُدِّم في هذه الفقرة ما هو من حال المؤمنين على عكس التي قبلها لأجل الرعاية على الفاصلة. وفواصل القرآن من متمّمات فصاحته، فلها حظ من الإعجاز.

{ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ** } أظهر في هذه الجملة الفعل الذي قُدِّر في الجملتين اللتين قبلها وهو فعل { يَسْتَوِي }، لأنّ التمثيل هنا عاد إلى تشبيه حال المسلمين والكافرين، إذ شُبِّه حال المسلم بحال الأحياء وحال الكافرين بحال الأموات، فهذا ارتقاء في التشبيه. ونظيره في إعادة فعل الاستواء قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ } [الرعد:16]

فلما كانت الحياة هي مبعث المدارك والمساعي كلّها وكان الموت قاطعا للمدارك والمساعي، شُبِّه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه وفي تلقي ذلك وفهمه، وشُبِّه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلّها وفي عدم تلقّي ما يلقى إلى صاحبه.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ** } أعقب تمثيل حال المؤمنين والكافرين بحال الأحياء والأموات بتوجيه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم معذرة له في التبليغ للفريقين، وفي عدم قبول تبليغه لدى أحد الفريقين، وتسلية له عن ضياع وابل نصحه في سباخ قلوب الكافرين، فقيل له: إنّ قبول الذين قبلوا الهدى واستمعوا إليه كان بتهيئة الله تعالى نفوسهم لقبول الذكر والعلم، وإنّ عدم انتفاع المعرضين بذلك هو بسبب موت قلوبهم، فكأنّهم الأموات في القبور، وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات.

فجاء القول على مقابلة قوله { وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ }، مقابلة اللف بالنشر المرتَّب.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ** } تعليل لجملة { إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } [18]، لأنّ معنى القصر ينحلّ إلى إثبات ونفي، فكان مفيدا فريقين: فريقا انتفع بالإنذار، وفريقا لم ينتفع.

{ **وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ** } إشارة إلى الذين لم يشأ الله أن يُسمعهم إنذارك. وعبّر عن الأموات بـ{ مَنْ فِي الْقُبُورِ } لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات. فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإيجاز بأن يقال: وما أنت بمسمع الموتى.

{ **إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ** } أفادت قصرا إضافيا بالنسبة إلى محاولة تسميعهم الحق، وهذا مسوق مساق المعذرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وتسليته إذا كان مغتمًّا من عدم إيمانهم. والاقتصار على وصفه بالنذير لأن مساق الكلام على المصمِّمين على الكفر.

النذير: المنبئ عن توقّع حدوث مكروه أو مؤلم.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ } [24].

استئناف ثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم وتنويه به وبالإسلام. وفيه دفع توهّم أن يكون قصره على النذارة قصرا حقيقيا، لتبيّن أنّ قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور. أي: أنّ رسالتك تجمع بشارة ونذارة؛ فالبشارة لمن قبل الهدى، والنذارة لمن أعرض عنه.

{ **بِالْحَقِّ** } إمّا حال من ضمير المتكلّم في { أَرْسَلْنَاكَ } أي: محقِّين غير لاعبين، أو من كاف الخطاب، أي: محقًّا أنت غير كاذب، أو صفة لمصدر محذوف، أي إرسالا ملابسا بالحق لا يشوبه شيء من الباطل.

وتقدّم نظير هذه الجملة في [البقرة:119].

{ **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** } إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل الله إلى الناس بشرا منهم، فإنّ تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدّهم عن التصديق به، فلذلك أتبعت دلائل الرسالة بإبطال الشبهة الحاجبة على حد قوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [الاحقاف:].

وأيضا في ذلك تسفيه لأحلامهم إذ رضوا أن يكونوا دون غيرهم من الأمم التي شُرِّفت بالرسالة.

{ **نَذِيرٌ** } ووجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير هو مراعاة العموم الذي في قوله تعالى { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ }، فإنّ من الأمم من لم تحصل لها بشارة لأنّها لم يؤمن منها أحد، ففي الحديث: **" عُرضت عليّ الأمم فجعل النبيّ يمر معه الرهط، والنبيّ يمر معه الرجل الواحد، والنبيّ يمر وحده "**. فإنّ الأنبياء الذين مرّوا وحدهم هم الأنبياء الذين لم يستجب لهم أحد من قومهم.

وقد يكون عدم ذكر وصف البشارة للاكتفاء بذكر قرينه اكتفاء بدلالة ما قبله عليه، وأوثر وصف النذير بالذكر لأنّه أشد مناسبة لمقام خطاب المكذِّبين.

الأمّة: هنا الجذم العظيم من أهل نسب ينتهي إلى جدّ واحد جامع لقبائل كثيرة لها مواطن متجاورة مثل أمّة الفرس وأمّة الروم وأمة الصين وأمّة الهند وأمّة يونان وأمة إسرائيل وأمّة العرب وأمة البربر.

فما من أمّة من هؤلاء إلّا وقد سبق فيها نذير، أي: رسول أو نبيّ ينذرهم بالمهلكات وعذاب الآخرة.

فمن المنذرين من علمناهم، ومنهم من أنذروا وانقرضوا ولم يبق خبرهم، قال تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر:78].

وإنّما لم يسم القرآن إلّا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم الساميَّة القاطنة في بلاد العرب وما جاورها لأنّ القرآن حين نزوله ابتدأ بخطاب العرب ولهم علم بهؤلاء الأقوام، فقد علموا أخبارهم وشهدوا آثارهم فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو ذُكرت لهم رسل أمم لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرّد حكاية ولم يكن فيه استدلال واعتبار.

{ **وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** [25] **ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** [26] }.

أعقب الثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم بتسليته على تكذيب قومه وتأنيسه بأنّ تلك سنّة الرسل مع أممهم. وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جُعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية [آل عمران:184] { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} لأنّ سياق آية أل عمران كان في رد محاولة أهل الكتاب إفحام الرسول لأنّ قبلها { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ } [آل عمران:183].

{ **وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ** } الجواب محذوف دلّت عليه علته وهي قوله { **فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** }. والتقدير: إن يكذِّبوك فلا تحزن، ولا تحسبهم مُفْلِتين من العقاب على ذلك، إذ قد كذب { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } وقد عاقبناهم على تكذيبهم.

{ **وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** } خولف أيضا في هذه الآية أسلوب آية [آل عمران:184] إذ قرن كل من (الزبر والكتاب المنير) بـ (الباء)، وجرّدا منها في آية آل عمران وذلك لأنّ آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلّا معجزة قربان تأكله النار، فقيل في التفرّد ببهتانهم: قد كُذِّبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عليه السلام ومن معجزاتهم قرابين تأكلها النار فكذبتموهم، فترك إعادة الباء هنالك إشارة إلى أنّ الرسل جاءوا بالأنواع الثلاثة.

ولما كان المقام هنا لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل، فمنهم الذين آتوا بآيات، أي: خوارق عادات فقط، مثل صالح وهود ولوط، ومنهم من أتوا بالزبر، وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها، أي: تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن، كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء، ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير، يعني كتاب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى، فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل.

{ **ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } عطف على جملة { جَاءَتْهُمْ }، أي: ثم أخذتهم، و{ الَّذِينَ كَفَرُوا } إظهار في موضع ضمير الغيبة للإيماء إلى أنّ أخذهم لأجل ما تضمنته صلة الموصول من أنّهم كفروا.

الأخذ: مستعار للاستئصال والإفناء، شُبِّه إهلاكهم جزاء على تكذيبهم بإتلاف المغيرين على عدوهم يقتلونهم ويغنمون أموالهم فتبقى ديارهم بلقعا كأنّهم أخذوا منها.

{ **فَكَيْفَ** } استفهام مستعمل في التعجيب من حالهم، وهو مفرَّع بالفاء على { أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، والمعنى:

أخذتهم أخذا عجيبا كيف ترون أعجوبته. وأصل (كيف) أن يُستفهم به عن الحال فلما استعمل في التعجيب من حال أخذهم لزم أن يكون حالهم معروفا، أي يعرفه النبيّ صلى الله عليه وسلم وكلّ من بلغته أخبارهم، فعلى تلك المعرفة المشهورة بُني التعجيب.

النكير: اسم لشدة الإنكار، وهو هنا كناية عن شدّة العقاب، لأنّ الإنكار يستلزم الجزاء على الفعل المنكر.

وحذفت ياء المتكلم تخفيفا ولرعاية الفواصل في الوقف، لأن الفواصل يعتبر فيها الوقف.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ } [27].

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا } استئناف بياني فيه إيضاح ما سبقه من اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى ورفضه بسبب ما تهيّأت خلقة النفوس إليه، ليظهر به أنّ الاختلاف بين أفراد الأصناف والأنواع ناموس جبلّي فطر الله عليه مخلوقات هذا العالم الأرضي.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن.

وضرب اختلاف الظواهر في أفراد الصنف الواحد مثلا لاختلاف البواطن، تقريبا للأفهام.

{ أَلَمْ تَرَ } الرؤية بصرية، والاستفهام تقريري.

{ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } ذكر إنزال الماء من السماء إدماج في الغرض للاعتبار بقدرة الله مع ما فيه من اتحاد أصل نشأة الأصناف والأنواع، كقوله تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد: 4] وذلك أرعى للاعتبار.

{ فَأَخْرَجْنَا } التفات من الغيبة إلى التكلّم.

الألوان: جمع لون وهو عرض، أي: كيفية تعرض لسطوح الأجسام. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا } [البقرة:69].

والمقصود من الاعتبار هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل، وألوان العنب مع ألوان التين، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعناب والتفاح والرمان.

وقدّم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأنّ في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد.

وفي الحديث: " **مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها** ".

{ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** } عطف على الجملة السابقة فهي مثلها مستأنفة، وعطفها عليها للمناسبة الظاهرة.

{ **جُدَدٌ** } جمع جُدَّة (بضم الجيم)، وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه. يقال للخطة السوداء التي على ظهر الحمار جُدَّة.

الجدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخورا بيضاء، مثل المروة. و**الجدد الحمر** هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال. ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة الألوان.

{ **غَرَابِيبُ** } : جمع غربيب، والغربيب: اسم الشيء الأسود الحالك سواده، ولا تعرف له مادة مشتق هو منها، وأحسب أنّه مأخوذ من الجامد، وهو الغراب لشهرة الغراب بالسواد.

{ **سُودٌ** } : جمع أسود وهو الذي لونه السواد.

فالغربيب يدل على أشد من معنى أسود، فكان مقتضى الظاهر أن يكون { غَرَابِيبُ } متأخرا عن { سُودٌ } لأنّ الغالب أنهم يقولون: أسود غربيب، كما يقولون: أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان، ولا يقولون: غربيب أسود، وإنّما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ابتداء من قوله تعالى { وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [15].

{ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [28].

{ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ** } موقعه كموقع قوله تعالى { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ }.

واختلاف ألوان الناس منه اختلاف عام وهو ألوان أصناف البشر وهي الأبيض والأسود والأصفر والأحمر حسب الاصطلاح الجغرافي. وللعرب في كلامهم تقسيم آخر لألوان أصناف البشر، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ } [الروم [22].

وجيء بالجملة الاسمية دون الفعلية، كما في الجملة السابقة، لأنّ اختلاف ألوان الجبال والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافا دائما لا يتغيّر وإنّما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولّد النسل.

{ **كَذَلِكَ** } خبر لمبتدأ محذوف دلّ عليه المقام. والتقدير: كذلك الاختلاف، أو كذلك الأمر، على نحو قوله تعالى { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [الكهف:91]، وهو من فصل الخطاب كما علمت هنالك ولذلك يحسن الوقف على ما قبله ويستأنف ما بعده. وأمّا جعل { كَذَلِكَ } من توابع الكلام السابق فلا يناسب نظم القرآن لضعفه.

{ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** } أي: إنّما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم.

وأوثر هذا الأسلوب في الدلالة تخلّصا للتنويه بأهل العلم والإيمان لينتقل إلى تفصيل ذلك بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ } [29].

{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي، أي: لا يخشاه الجهال، وهم أهل الشرك، فإنّ من أخصّ أوصافهم أنّهم أهل الجاهلية، أي: عدم العلم، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء، والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشيت الله.

ثم إن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتا كثيرا.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** } تكميل للدلالة على استغناء الله تعالى عن إيمان المشركين ولكنّه يريد لهم الخير. أي: فهو يقبل التوبة منهم إن تابوا إلى ما دعاهم الله إليه.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ [29] لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [30] }.

استئناف لبيان جملة { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }، فالذين يتلون كتاب الله هم المراد بالعلماء، وقد تخلّص إلى بيان فوز المؤمنين الذين اتبعوا الذكر وخشوا الرحمان بالغيب، فإنّ حالهم مضاد لحال الذين لم يسمعوا القرآن وكانوا عند تذكيرهم به كحال أهل القبور لا يسمعون شيئا.

فبعد أن أثنى عليهم ثناء إجماليا بقوله { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }، وأجمل حسن جزائهم بذكر صفة { غَفُورٌ } [28]، فصّل ذلك الثناء وذُكرت آثاره ومنافعه. ولذلك ختمت هذه الآية بقوله { إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ** } المؤمنون به، لأنّهم اشتهروا بذلك وعُرفوا به، وهم المراد بالعلماء. قال تعالى { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت:49].

وهو أيضا كناية عن إيمانهم لأنّه لا يتلو الكتاب إلّا من صدّق به وتلقّاه باعتناء.

{ **يَتْلُونَ** } أشعر الفعل المضارع بتجدّد تلاوتهم، فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه.

{ **كِتَابَ اللَّهِ** } القرآن، وعدل عن اسمه العلم إلى اسم الجنس المضاف لاسم الجلالة لما في إضافته من تعظيم.

{ **وَأَقَامُوا الصَّلاةَ** } اتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى وهي إقامة الصلاة، كما تقدّم في

قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } [البقرة:2]، فإنّها أعظم الأعمال البدنية.

{ **وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً** } الإنفاق حيثما أطلق في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبّها، وما ورد الإنفاق في السور المكية إلّا والمراد به الصدقات المستحبّة، إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ.

على أنّه قد تكون الصدقة مفروضة دون نصب ولا تحديد ثم حدِّدت بالنصب والمقادير.

{ **وَأَقَامُوا / وَأَنْفَقُوا** } جيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بالفعل الماضي لأنّ فرض الصلاة والصدقة قد تقرّر وعملوا به فلا تجدّد فيه، وامتثال الذي كلِّفوا يقتضي أنّهم مداومون عليه.

{ **مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** } إدماج للامتنان وإيماء إلى أنّه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق.

{ **سِرّاً وَعَلانِيَةً** } انتصب على الصفة لمصدر { أَنْفَقُوا } المحذوف، أي: إنفاق سرٍّ وإنفاق علانيةٍ.

وفي تقديم السر إشارة إلى أنّه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه، وذكر العلانية للإشارة إلى أنّهم لا يصدُّهم مرأى المشركين عن الإنفاق فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حب من حب و كره من كره.

{ **يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ** } هو خبر {إنَّ} مستعمل في إنشاء التبشير، كأنّه قيل: ليرجوا تجارة، وزاده التعليل بقوله { لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ } قرينة على إرادة التبشير.

التجارة: مستعارة لأعمالهم من تلاوة وصلاة وإنفاق. ووجه الشبه مشابهة ترتّب الثواب على أعمالهم بترتب الربح على التجارة.

البوار: الهلاك. وهلاك التجارة: خسارة التاجر. فمعنى { لَنْ تَبُورَ } أنّها رابحة.

{ **لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** } متعلّق بـ { يَرْجُونَ }، أي: بشّرناهم بذلك وقدّرناه لهم لنوفيهم أجورهم. ووقع الالتفات من التكلّم إلى الغيبة رجوعا إلى سياق الغيبة.

التوفية: جعل الشيء وافيا، أي: تاما لا نقيصة فيه ولا غبن.

وسجل عليهم الفضل بأنّه يزيدهم على ما تستحقه أعمالهم ثوابا من فضله، أي: كرمه، وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ} [البقرة:261].

{ **إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** } ذيّل هذا الوعد بما يحقّقه، وهو أنّ الغفران والشكران من شأنه، فإنّ من صفاته الغفور الشكور، أي: كثير المغفرة وشديد الشكر.

فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإنّ طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلّا المعصوم، ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدّثت به أنفسها، وفيما همّت به ولم تفعله، وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة.

والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم.

{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} [31]

لمّا كان المُبدأ به من أسباب ثواب المؤمنين هو تلاوتهم كتاب الله أعقب التنويه بهم بالتنويه بالقرآن للتذكير بذلك، ولأنّ في التذكير بجلال القرآن وشرفه إيماء إلى علّة استحقاق الذين يتلونه ما استحقّوا.

{ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ** } ابتدئ التنويه به بأنّه وحي من الله إلى رسوله، وناهيك بهذه الصلة تنويها بالكتاب، وهو يتضمّن تنويها بشأن الذي أنزل عليه، ففي هذه مسرّة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وهذه نكتة تعريف المسند إليه باسم الموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه كونه الحقّ الكامل، دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر بأن يقال: وهو الكتاب الحقّ.

{ **مِنَ الْكِتَابِ** } { مِنَ } بيانية لما في الموصول من الإبهام، والتعريف في { الْكِتَابِ } تعريف العهد.

والتقدير: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحقّ. فقدّم الموصول الذي حقه أن يقع صفة للكتاب للتشويق بالإبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكّن من الذهن أفضل تمكن.

{ **هُوَ** } ضمير فصل، وهو تأكيد لما أفاده تعريف المسند من القصر.

{ **الْحَقُّ** } تعريف الجنس. وأفاد تعريف الجزأين قصر المسند على المسند إليه، أيّ قصر جنس الحق على { الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }، وهو قصر ادعائي للمبالغة، لعدم الاعتداد بحقِّيَّة ما عداه من الكتب.

فأمّا الكتب غير الإلهية مثل (الزند فستا) كتاب (زراد شت)، ومثل كتب الصابئة، فلأنّ ما فيها من قليل الحق قد غُمِر بالباطل والأوهام.

وأمّا الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وما تضمّنته كتب الأنبياء، كالزبور وكتاب أرميا من الوحي الإلهي، فما شهد القرآن بحقِّيَّته فقد دخل في شهادة قوله { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ }، وما جاء نسخه بالقرآن فقد بيّن النسخ تحديد صلاحيته في القرآن. وذلك أيضا تصديق لها لأنّه يدفع موهم بطلانها عند من يجد خلافها في القرآن، وما عسى أن يكون قد نُقل على تحريفٍ أو تأويلٍ فقد دخل فيما أخرجه القصر.

{ **مُصَدِّقاً** } انتصب على الحال من { الْكِتَابِ } والعامل في الحال فعل { أَوْحَيْنَا } ليفيد أنّه مع كونه حقا فهو مصدّق للكتب الحقّة، ومقرّر لما اشتملت عليه من الحقّ.

{ **لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** } ما سبقه، لأنّ السابق يجيء متقدّما على المسبوق، فكأنّه يمشي بين يديه كقوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ:46]. أي: ما قبله من الشرائع، وأهمها شريعة موسى وشريعة عيسى عليهما السلام.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ** } تذييل جامع لما تضمّنته الآيات قبله من تفضيل بعض عباد الله على بعض، ومن انطواء ضمائرهم على الخشية وعدمها، وإقبال بعضهم على الطاعات وإعراض بعض، ومن تفضيل بعض كتب الله على بعض، المقتضى أيضا تفضيل بعض المرسلين بها على بعض.

فموقعها موقع إقناع السامعين بأنّ الله عليم بعباده وهو يعاملهم بحسب ما يعلم منهم، ويصطفي منهم من علم أنّه خلقه كِفئا لاصطفائه، فألْقَمَ، بهذا التذييل، الذين قالوا { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } [ص: 8]، وأيضا أولئك الذين ينكرون القرآن من أهل الكتاب بعلة أنّه جاء مبطلا لكتابهم. ألقمهم جميعا حجرا.

الخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفيّة.

البصير: العالم بالأمور المبصرة.

وتقديم الخبير على البصير لأنّه أشمل. وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات وهي غالب شرائع الإسلام، وقد تكرّر إرداف الخبير بالبصير في مواضع كثيرة من القرآن.

{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [32].

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل، فالمتعاطفات بها بمنزلة المستأنفات، وهي للترقي في الاستئناف. وهذا ارتقاء في التنويه بالقرآن المتضمّن التنويه بالرسول صلى الله عليه وسلم، وعروج في مسرّته وتبشيره، فبعد أن ذُكِّر بفضيلة كتابه، وهو أمر قد تقرّر لديه، زيد تبشيرا بدوام كتابه، وإيتائه أمّة هم المصطفون من عباد الله تعالى، وتبشيره بأنّهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أمم من قبله كتبهم ورسلهم.

{ **الْكِتَاب** } الكتاب المعهود، وهو الذي سبق ذكره في قوله { وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } أي: القرآن.

{ **أَوْرَثْنَا** } جعلنا وارثين. يقال: وَرِثَ، إذا صار إليه مال ميت قريب. ويُستعمل بمعنى الكسب عن غير اكتساب ولا عوض، فيكون معناه: جعلناهم آخذين الكتاب منّا، أو نجعل الإيراث مستعملاً في الأمر بالتلقي، أي أمرنا المسلمين بأن يرثوا القرآن، أي يتلقوه من الرسول صلى الله عليه وسلم،

{ **الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** } المؤمنون، كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا - إلى قوله - هُوَ اجْتَبَاكُمْ } [الحج:78/77].

{ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** } تفصيل لمراتب المُصْطَفَيْن لتشمل البشارة جميع أصنافهم، ولا يُظنّ أنّ الظالم لنفسه محروم منها، فمناط الاصطفاء هو الإيمان والإسلام، وهو الانقياد بالقول والاستسلام.

{ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** } الفاء تفصيل لأحوال الذين أورثوا الكتاب، أي: أعطوا القرآن. وقُدِّم في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهّم حرمانه من الجنّة وتعجيلا لمسرّته. فالضمير عائد إلى { الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا }، وعليه فالظالم لنفسه من المصطفين. وذلك قول الحسن، وهو مروي عن عائشة <u>وهو الراجح</u>.

الظالمون لأنفسهم: هم الذين يجرُّون أنفسهم إلى ارتكاب المعصية، فإنّ معصية المرء ربّه ظلم لنفسه، لأنّه اعتداء عليها إذ قصر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير، وورَّطها فيما تجد جزاء ذميما عليه.

قال تعالى حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نهيا عنه { قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا } [الأعراف:23]، وقال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً } [النساء:110]، وقال تعالى {إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النمل:11]، وقال تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً } [الزمر:53].

{ **وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** } هو غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبائر ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها، وقد يلمُّون باللمم المعفو عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القربات الرافعة للدرجات،

الاقتصاد: افتعال من القصد، وهو الوسط بين طرفين يبيّنه المقام. فلمّا ذُكر هنا في مقابلة الظالم والسابق عُلم أنّه مرتكب حالة بين تينك الحالتين، فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق.

{ **وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** } و**السابق** أصله الواصل إلى غاية معيّنة قبل غيره من الماشين إليها.

وهو هنا <u>مجاز لإحراز الفضل</u>، أو <u>مجاز في بذل العناية</u> لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين في المجاز فهو مُكنًّى عن الإكثار من الخير، لأنّ السبق يستلزم إسراع الخطوات، والإسراع إكثار.

الخيرات: جمع خير: النافع. والمراد بها هنا الطاعات لأنّها أعمال صالحة نافعة لعاملها وللناس بآثارها.

والباء للظرفية، أي: في الخيرات.

وفي ذكر الخيرات في القسم الآخر دلالة على أنّها مرادة في القسمين الأولين فيؤول إلى معنى: ظالم لنفسه في الخيرات، ومقتصد في الخيرات أيضا.

{ **بِإِذْنِ اللَّهِ** } الإذن هنا مستعمل في التيسير على سبيل المجاز، والباء للسببية متعلقة بـ { سَابِقٌ }، وليس المراد به الأمر، لأنّ الله أمر الناس كلّهم بفعل الخير سواء منهم من أتى به ومن قصّر فيه. وعلى هذا الوجه هو تنويه بالسابقين بأنّ سبقهم كان بعون من الله وتيسير منه.

ولك أن تجعل الباء للملابسة وتجعلها ظرفا مستقرا في موضع الحال من { سَابِقٌ }، أي: متلبسا بإذن الله، ويكون الإذن مصدرا بمعنى المفعول، أي: سابق ملابس لما أذن الله به، أي: لم يخالفه.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** } الإشارة إلى الاصطفاء المفهوم من { اصْطَفَيْنَا }.

{ **الْفَضْلُ** } الزيادة في الخير.

{ **الْكَبِيرُ** } مراد به ذو العظم المعنوي، وهو الشرف، وهو فضل الخروج من الكفر إلى الإيمان والإسلام.

وهذا الفضل مراتب في الشرف كما أشار إليه تقسيم أصحابه إلى: ظالم، ومقتصد، وسابق.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي لأنّ الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك، لأن كلّ فضل هو غير كبير إلّا ذلك الفضل.

ووجه هذا الانحصار أنّ هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدنيا وفضل الآخرة، قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97]، وقال تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } [النور:55].

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } [33].

<u>الأظهر</u> أنّه بدل اشتمال من قوله { ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [32]، فإنّ ممّا يشتمل عليه الفضل دخولهم الجنة كما علمت، وتخصيص هذا الفضل من بين أصنافه لأنّه أعظم الفضل، ولأنّه أمارة على رضوان الله عنهم حين إدخالهم الجنة، قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

<u>ويجوز</u> أن يكون استئنافا بيانيا لبيان الفضل الكبير وقد بُيِّن بأعظم أصنافه. **والمعنى واحد**.

{ **يَدْخُلُونَهَا** } ضمير الجماعة راجع إلى { الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا } [32] المقسم إلى ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، أي: هؤلاء كلّهم يدخلون الجنة، لأنّ المؤمنين كلّهم مآلهم الجنّة كما دلّت عليه الأخبار التي تكاثرت.

{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ [34] الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ [35] }.

الأظهر أنّ الجملة في موضع الحال من ضمير { يُحَلَّوْنَ } [33]. وتلك المقالة مقارِنة للتحلية واللباس، وهو كلام يجري بينهم ساعتئذ لإنشاء الثناء على الله على ما خوَّلهم من دخول الجنة، ولما هم فيه من الكرامة.

{ **أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** } الأسف، مجاز في الإنجاء منه، فيصدق بإزالته بعد حصوله، ويصدق بعدم حصوله.

والمراد: أنّهم لمّا أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبلُ من هول الموقف ومن خشية العقاب بالنسبة للسابقين والمقتصدين، وممّا كانوا فيه من عقاب بالنسبة لظالمي أنفسهم.

{ **إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** } استئناف ثناء على الله، شكروا به نعمة السلامة، وأثنوا عليه بالمغفرة لِما تجاوز عمّا اقترفوه من اللمم وحديث الأنفس ونحو ذلك ممّا تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين، ولِما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم.

وأثنوا على الله بأنّه شكور لِما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات ممّا هو أكثر من صالحات أعمالهم. وهذا على نحو ما تقدم آنفا { لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [30].

{ **الْمُقَامَةِ** } مصدر ميمي من أقام بالمكان إذا قطنه. والمراد: دار الخلود. وانتصب على المفعول الثاني لـ {أَحَلَّنَا} أي: أسكننا.

الفضل: العطاء، وهو أخو التفضّل في أنّه عطاء منه وكرم.

{ **لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ** } حال ثانية. و**المسّ**: الإصابة في ابتداء أمرها.

النصب: التعب من نحو شدّة حر وشدّة برد.

{ **وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** } إعادة الفعل المنفي لتأكيد انتفاء المسّ. و**اللغوب**: الإعياء.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ } [36].

مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقينا بأنّ تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنّم يوضِح أنّ الجنة دار للأقسام الثلاثة، على تفاوت في الزمان والمكان.

{ **لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ** } لام الاستحقاق للدلالة على أنّها أعدّت لجزاء أعمالهم، كقوله تعالى { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [البقرة [24]، وقوله تعالى { وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [آل عمران:31].

{ **لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا** } بدل اشتمال من جملة { لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ }.

القضاء: حقيقته الحكم، ومنه قضاء الله: حكمه وما أوجده في مخلوقاته. وقد يستعمل بمعنى أماته كقوله تعالى { فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ } [القصص:15]. وهو هنا محتمل للحقيقة، أي: لا يقدّر الله موتهم.

والمعنى: لا يُقضى عليهم بالموت فيموتوا.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ** } تذييل. و**الكفور**: شديد الكفر، وهو المشرك.

{ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } [37].

{ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } عطف على جملة: { لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ } [36] ولا تُجعل حالا لأن التذييل آذن بانتهاء الكلام وباستقبال كلام جديد.

{ **يَصْطَرِخُونَ** } مبالغة في (يصرخون)، أي يصيحون من شدة ما نابهم.

{ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا** } بيان لجملة { يَصْطَرِخُونَ }، يحسبون أن رفع الأصوات أقرب إلى علم الله بندائهم، ولإظهار عدم إطاقة ما هم فيه.

{ **نَعْمَلْ صَالِحاً** } وعد بالتدارك لما فاتهم من الأعمال الصالحة. وجزم في جواب الدعاء لإرادة الوعد.

{ **غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } نعت لـ { صَالِحاً }، أي: عملا مغايرا لما كنا نعمله في الدنيا، وهذا ندامة على ما كانوا يعملونه لأنّهم أيقنوا بفساد عملهم وضرّه، فإنّ ذلك العالم عالم الحقائق.

{ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** }.

{ **أَوَلَمْ** } الواو عاطفة فعل قول محذوفا لعلمه من السياق. والتقدير: يقولون: ربنا أخرجنا ونقول ألم نعمّركم. والاستفهام تفريع للتوبيخ.

التعمير: تطويل العمر. تقدّم آنفا { وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ } [11]، وعند قوله تعالى { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96].

{ **مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ** } أي: زمانا كافيا بامتداده للتذكّر والتبصير.

{ **وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** } : الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. ووصف الرسول بالنذير لأنّ الأهم من شأنه بالنسبة إليهم هو النذارة.

{ **فَذُوقُوا** } الفاء للتفريع، وحذف المفعول لدلالة المقام عليه، أي: ذوقوا العذاب. والأمر مستعمل في معنى الدوام، وهو كناية عن عدم الخلاص من العذاب.

{ **فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** } تفريع على ما سبق من الحكاية. فيجوز أن يكون من جملة الكلام الذي وبَّخهم الله به، فهو تذييل له وتفريع عليه لتأييسهم من الخلاص.

ويجوز أن يكون كلاما مستقلًّا مفرَّعا على القصة ذيلت بها للسامعين، والمقصود إفادة شمول هذا الحكم لكلّ ظالم، فيدخل الذين كفروا المتحدث عنهم في العموم.

الظلم: هو الاعتداء على حق صاحب حق، وأعظمه الشرك لأنّه اعتداء على الله بإنكار صفته النفسية وهو الوحدانية، واعتداء المشرك على نفسه إذ أقحمها في العذاب قال تعالى {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13].

{ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [38] هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً [39] }.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } استئناف واصل بين جملة { إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ } [31] وبين جملة { قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ } [40].

وفي هذا إيماء إلى أنّ الله يجازي كل ذي نيّة على حسب ما أضمره.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } مستأنفة هي كالنتيجة للجملة السابقة، لأنّ ما في الصدور من الأمور المغيَّبة فيلزم من علم الله بغيب السماوات والأرض علمه بما في صدور الناس.

{ **بِذَاتِ الصُّدُورِ** } ضمائر الناس ونيّاتهم، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

{ **عَالِمُ / عَلِيمٌ** } جيء في الإخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل، وفي الإخبار بعلمه بذات الصدور بصيغة المبالغة لأنّ المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنّه كناية عن انتفاء أن يفوت علمه تعالى شيء. وكذلك كناية عن الجزاء عليه.

{ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ** } معترضة بين جملة { إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } وبين جملة { فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ }.

الخلائف: جمع خليفة، وهو الذي يخلف غيره في أمر كان لذلك الغير، كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30].

فيجوز أن يكون بعد أمم مضت كما في قوله تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ } [يونس:14] فيكون هذا بيانا لقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، أي: هو الذي أوجدكم في الأرض فكيف لا يعلم ما غاب في قلوبكم، كما قال تعالى { أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:14].

ويجوز أن يكون المعنى: هو الذي جعلكم متصرّفين في الأرض، كقوله تعالى { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف:129]، فيكون الكلام بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله قدّر أن يكون المسلمون أهل سلطان في الأرض بعد أمم تداولت سيادة العالم، ويظهر بذلك دين الإسلام على الدين كلّه.

{ **فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** } تفريع، وهو شرط مستعمل كناية عن عدم الاهتمام بأمر دوامهم على الكفر.

{ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً** } بيان لجملة { فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ }، وكان مقتضى ظاهر هذا المعنى ألّا تعطف عليها، لأن البيان لا يعطف على المبين، وإنّما خولف ذلك للدلالة على الاهتمام بهذا البيان فجعل مستقلاً بالقصد إلى الإخبار به.

المقت: البغض مع خزي وصغار، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً } [النساء:22]، **مقت الله**: مجاز عن لازمه وهو إمساك لطفه عنهم وجزاؤهم بأشد العقاب.

{ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً** } كسابقتها في المعنى.

الخسار: مصدر خسر مثل الخسارة، وهو: نقصان التجارة. واستعير لخيبة العمل.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً } [40].

لمّا جرى ذكر المشركين وتعنّتهم وحسبان أنّهم مقتوا المسلمين عاد إلى الاحتجاج عليهم في بطلان إلهية آلهتهم بحجّة أنّها لا يوجد في الأرض شيء يُدَّعى أنّها خلقته، ولا في السماوات شيء لها فيه شرك مع الله فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحاجّهم ويوجّه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإلهية عن أصنامهم.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ** } تمهيد لأن يطلب منهم الإخبار عن شيء خلقه شركاؤهم، فصار المراد: انظروا ما تخبرونني به من أحوال خلقهم شيئا من الأرض.

{ **شُرَكَاءَكُمُ** } من زعموهم شركاء الله في الإلهية فلذلك أضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين.

{ **الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } الموصول والصلة للتنبيه على الخطأ في تلك الدعوة.

{ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ** } قرينة التخطئة، فإنّه أمر للتعجيز، فيكون الأمر التعجيزي في قوة النفي. وفعل الرؤية قلبي بمعنى الأعلام والإنباء، أي: أنبئوني شيئا مخلوقا للذين تدعونهم شركاء.

{ **أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ** } و{ أَمْ } منقطعة للإضراب الانتقالي، وهي تؤذن باستفهام بعدها. والمعنى: بل ألهم شرك في السماوات.

الشِرك : (بكسر الشين) اسم للنصيب المشترك به في ملك شيء.

والمعنى: ألهم شرك مع الله في ملك السماوات وتصريف أحوالهما كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر.

{ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَاتٍ مِنْهُ** } أي: أآتيانهم كتابا ناطقا مثل ما آتينا المسلمين القرآن.

{ **بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً** } ثم كرّ على كلّه بالإبطال بواسطة { بَلْ }، بأن ذلك كله منتف وأنّهم لا باعث لهم على مزاعمهم الباطلة إلّا وعد بعضهم بعضا مواعيد كاذبة يغرّ بعضهم بها بعضاً.

الغرور: تقدّم معناه عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران [196].

{ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } [41].

انتقال من نفي أن يكون لشركائهم خلق أو شركة تصرّف في الكائنات التي في السماء والأرض إلى إثبات أنّه تعالى هو القيُّوم على السماوات والأرض لتبقيا موجودتين، فهو الحافظ بقدرته نظام بقائها.

{ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا } أكّد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيق معناه وأنّه لا تسامح فيه ولا مبالغة. وعبّر عن ذلك الحفظ بالإمساك على طريقة التمثيل.

الإمساك: حقيقته القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت. وتقدّم عند قوله { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ } [الحج:65].

الزوال: يطلق على العدم، ويطلق على التحوّل من مكان إلى مكان، ومنه زوال الشمس عن كبد السماء، وتقدم في [إبراهيم:48]. وقد اختير هذا الفعل دون غيره لأنّ المقصود معناه المشترك فإن الله يمسكهما من أن يعدما، ويمسكهما من أن يتحوّل نظام حركتهما، كما قال تعالى { لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ } [يس: 40].

{ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ } ثم أشير إلى أنّ شأن الممكنات المصير إلى الزوال والتحوّل ولو بعد أدهار، فالزوال المفروض أيضا مراد به اختلال نظامهما الذي يؤدي إلى تطاحنهما.

وأسند الزوال أليهما للعلم بأنّ الله هو الذي يزيلهما لقوله { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا }.

وفي ذكر إمساك السماوات عن الزوال بعد الإطناب في محاجّة المشركين وتفظيع غرورهم تعريض بأنّ ما يدعون إليه من الفظاعة من شأنه أن يزلزل الأرضين ويسقط السماء كسفا لولا أنّ الله أراد بقاءهما لحكمة، كما في قوله تعالى { لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً } [مريم: 90/89] وهذه دلالة من مستتبعات التراكيب، وهو أيضا تعريض بالتهديد.

{ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } تذييل بوصف الله تعالى بالحلم والمغفرة، بما تشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة، وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم، فإنّ التأخير من أثر الحلم.

وما تقتضيه صفة الغفور من أنّ في الإمهال إعذارا للظالمين لعلّهم يرجعون، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لعلّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده "**.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً [42] اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً [43] }.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً [42] اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ }

هذا شيء حكاه القرآن عن المشركين فهو حكاية قول صدر عنهم لا محالة، ولم يرو خبر عن السلف يعيّن صدور مقالتهم هذه. وقال كثير من المفسّرين إنّ هذه المقالة صدرت عنهم قبل بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا بلغهم أنّ اليهود والنصارى كذّبوا الرسل.

والذي يلوح لي: أنّ هذه المقالة صدرت عنهم في مجاري المحاورة أو المفاخرة بينهم وبين بعض أهل الكتاب ممّن يقدم عليهم بمكة، أو يقدمون هم عليهم في أسفارهم إلى يثرب أو إلى بلاد الشام، فربما كان أهل تلك البلدان يدعون المشركين إلى أتباع اليهودية أو النصرانية ويصغّرون الشرك في نفوسهم، فكان المشركون لا يجرؤون على تكذيبهم لأنّهم كانوا مرموقين عندهم بعين الوقار إذ كانوا يفْضُلونهم بمعرفة الديانة وبأنّهم ليسوا أمّيين، وهم يأبون أن يتركوا دين الشرك، فكانوا يعتذرون بأنّ رسول القوم الذين يدعونهم إلى دينهم لم يكن مرسلا إلى العرب، فكانوا يقولون: لو جاءنا رسول لكنا أهدى منكم، كما قال تعالى { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157].

والأظهر أن يكون الداعون لهم هم النصارى، لأنّ الدعاء إلى النصرانية من شعار أصحاب عيسى عليه السلام فإنهم يقولون: إن عيسى أوصاهم أن يرشدوا بني الإنسان إلى الحق وكانت الدعوة إلى النصرانية منتشرة في بلاد العرب أيام الجاهلية وتنصّرت قبائل كثيرة مثل تغلب، ولخم، وكلب، ونجران.

أمّا اليهود فلم يكونوا يدعون الناس إلى اليهودية ولكنهم يقبلون من يتهوّد، كما تهوّد عرب اليمن.

فيتضح بهذا أنّ هذه الآية معطوفة على ما قبلها من أخبار ضلال المشركين في شأن الربوبية وفي شأن الرسالة والتديّن، وأنّ ما حُكي فيها هو من ضلالاتهم ومجازفتهم.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } القَسَم بين أهل الجاهلية أكثره بالله، وقد يقسمون بالأصنام وبآبائهم وعَمرهم. والغالب في ذلك أن يقولوا: واللات والعزى، ولذلك جاء في الحديث: **" من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله "** ، أي: من جرى على لسانه ذلك جريَ الكلام الغالب، وذلك في صدر انتشار الإسلام.

جهد اليمين: أبلغها وأقواها. وأصله من الجَهد وهو التعب. فجهد الأيمان هنا كناية عن تأكيدها، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [المائدة:53]، وتقدم في [الأنعام:109]، وفي

[النحل:38] وفي [النور:53].

{ **لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ** } بيان لجملة {أَقْسَمُوا }.

{ **نَذِيرٌ** } عُبِّر عن الرسول بالنذير لأنّ مجادلة أهل الكتاب إيّاهم كانت مشتملة على تخويف وإنذار. وهذا يرجّح أن تكون المجادلة جرت بينهم وبين بعض النصارى، لأنّ الإنجيل معظمه نذارة.

{ **إِحْدَى الْأُمَمِ** } أمّة من الأمم ذات الدين، فإن عنوا بها أمّة معروفة: إمّا الأمّة النصرانية، وإمّا الأمّة اليهودية، ويحتمل أن يكون إبهاما من كلام القرآن على عادة القرآن في الترفّع عمّا لا فائدة في تعيينه، إذ المقصود أنّهم أشهدوا الله على أنّهم إن جاءهم رسول يكونوا أسبق من غيرهم اهتداء.

وهذه الآية وغيرها، وما يؤثر من تنصّر بعض العرب ومن اتساع بعضهم في التحنُّف يدل على أنّهم كانوا يعلمون رسالة الرسل.

{ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً** }

النذير: المنذر بكلامه. فالمعنى: فلمّا جاءهم رسول، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن جاءهم رسول قبله، كما قال تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } [القصص:46].

الزيادة: أصلها النماء. وقد يراد بها القوّة في الصفات على وجه الاستعارة، كقوله تعالى { فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ } [التوبة:125]. ومن ثمّة تطلق الزيادة أيضا على طرو حال على حال، أو تغيير حال إلى غيره كقوله تعالى { فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً } [النبأ:30]، وتطلق على ما يطرأ من الخير على الإنسان وإن لم يكن نوعه عنده من قبل، كقوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس:26]، أي: وعطاء آخر.

{ **مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً** } لمّا كان مجيء الرسول يقتضي تغيير أحوال المرسل إليهم إلى ما هو أحسن كان الظن بهم لمّا أقسموا قسمهم ذلك أنّهم إذا جاءهم النذير اهتدوا وازدادوا من الخير، فإذا بهم صاروا نافرين من الدين الذي جاءهم.

{ **إِلَّا** } الاستثناء مفرّع من مفعول { زَادَهُمْ } المحذوف، أي: ما أفادهم صلاحاً وحالاً أو نحو ذلك إلّا نفورا. ويحتمل أن يكون المراد أنّهم لما أقسموا { لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى } كان حالهم حال النفور من قبل دعوة النصارى إياهم إلى دينهم، أو من الاتعاظ بمواعظ اليهود، فلمّا جاءهم الرسول ما زادهم شيئاً وإنما زادهم نفورا على نفورهم السابق.

{ **اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ** } التقدير: نفروا لأجل الاستكبار في الأرض.

{ **اسْتِكْبَاراً** } بدل اشتمال من { نُفُوراً } أو مفعول لأجله، و**الاستكبار**: شدّة التكبّر، فالسين والتاء فيه للمبالغة.

الأرض: موطن القوم، فالتعريف للعهد. والمعنى: أنّهم استكبروا في قومهم أن يتّبعوا واحدا منهم.

{ **مَكْرَ السَّيِّئِ** } عطف على { اسْتِكْبَاراً }، وإضافة { مَكْرَ } إلى { السَّيِّئِ } من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وأصله: أن يمكروا المكر السيّء.

{ **وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** } تذييل أو موعظة. أي: لا يقع أثره إلّا على أهله.

{ **يَحِيقُ** } : يقال للذي نزل به شيء مكروه: حاق به.

{ **الْمَكْرُ** } إخفاء الأذى، وهو سيّئ لأنّه من الغدر وهو مناف للخلق الكريم، فوصفه بالسيّئ وصف كاشف، ولعلّ التنبيه إلى أنّه وصف كاشف هو مقتضى إضافة الموصوف إلى الوصف لإظهار ملازمة الوصف للموصوف، فلم يقل: ومكروا سيّئا. ولم يرخّص في المكر إلّا في الحرب.

فيكون موقع قوله { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } موقع الوعيد بأنّ الله يدفع عن رسوله صلى الله عليه وسلم مكرهم ويحيق ضرّ مكرهم بهم.

{ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** }

تفريع على جملة { فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً } [42]، ويجوز أن يكون تفريعا على جملة { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ }، أي: كما مكر الذين من قبلهم فحاق بهم مكرهم كذلك هؤلاء.

{ **يَنْظُرُونَ** } هنا من النظر بمعنى الانتظار. شُبّه لزوم حلول العذاب بهم بالشيء المعلوم لهم المنتظر منهم على وجه الاستعارة.

السُّنَّة: العادة. و**الأَوَّلون**: هم السابقون من الأمم الذين كذبوا رسلهم، بقرينة سياق الكلام.

{ **فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** } الفاء فاء فصيحة، لأنّ ما قبلها لمّا ذكّر الناس بسنة الله في المكذِّبين أفصح عن اطراد سنن الله تعالى في خلقه.

والخطاب لغير معيَّن فيعمُّ كلّ مخاطب، وبذلك يتسنى أن يسير هذا الخبر مسير الأمثال. وفي هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين.

التبديل: تغيير شيء، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].

التحويل: نقل الشيء من مكان إلى غيره، وكأنّه مشتقّ من الحول وهو الجانب.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً [44] }.

{ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } عطف على جملة { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ } [43] استدلالا على أنّ مساواتهم للأولين تنذر بأن سيحلّ بهم ما حلّ بأولئك من نوع من يشاهدونه من آثار استئصالهم في ديارهم.

{ **وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } في موضع الحال، أي: كانت عاقبتهم الاضمحلال، مع انّهم اشد قوة من هؤلاء.

وجيء بهذا الحال في هذه الآية لما يفيد موقع الحال من استحضار صورة تلك القوة إيثارا للإيجاز لاقتراب ختم السورة.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً** }

لمّا عرض وصف الأمم السابقة بأنّهم أشدّ قوة من قريش في معرض التمثيل بالأولين تهديدا واستعدادا لتلقي مثل عذابهم، أتبع ذلك بالاحتراس عن الطماعية في النجاة من مثل عذابهم بعلة انّ لهم من المنجيات ما لم يكن للأمم الخالية، كزعمهم: أنّ لهم آلهة تمنعهم من عذاب الله بشفاعتها أو دفاعها.

{ **وَمَا كَانَ** } جيء بلام الجحود مع { كَانَ } المنفية لإفادة تأكيد نفي كل شيء يحول دون قدرة الله وإرادته، { **إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً** } تعليل لانتفاء شيء يغالب مراد الله بأنّ الله شديد العلم واسعه لا يخفى عليه شيء وبأنّه شديد القدرة.

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً } [45].

تذكير لهم عن أن يغرَّهم تأخير المؤاخذة فيحسبوه عجزا أو رضى من الله بما هم فيه، فعلَّمهم أنّ لعذاب الله آجالا اقتضتها حِكمه، فيها رعي مصالح أمم آخرين، أو استبقاء أجيال آتين.

ونظير هذه الآية تقدم في [النحل:61] إلى قوله { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ }، إلّا أن هذه الآية جاء فيها { بِمَا كَسَبُوا } وهنالك جاء فيها { بِظُلْمِهِمْ }، لأنّ ما كسبوا يعم الظلم وغيره. وأوثر في سورة النحل { بِظُلْمِهِمْ } لأنّها جاءت عقب تشنيع ظلم عظيم من ظلمهم وهو ظلم بناتهم الموؤدات.

وهنالك قال { مَا تَرَكَ عَلَيْهَا } وهنا { مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا } وهو تفنّن.

{ **عَلَى ظَهْرِهَا** } ظهر الأرض مستعار لبسطها الذي تستقر عليه مخلوقات الأرض، تشبيها للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية. ثم شاع ذلك فصار من الحقيقة.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً** }، وقال في النحل { لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ }، فما هنا إيماء إلى الحكمة في تأخيرهم إلى أجل مسمى. والتقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي: عليما في حالي التأخير ومجيء الأجل، وأمّا ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنّه إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال.